

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190218

UNIVERSAL
LIBRARY

كتاب الروتين في أخبار الدولتين
 تأليف الشيخ الامام العالم الفاضل الصدر الكامل
 الاوحد فرید عصره وحید دهره جمیع الفضائل
 تهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسمعيل
 ابن ابراهيم الملقب بشي الشافعي
 رحمه الله تعالى
 برحمته
 آمين
 م

رواية الشيخ الامام محمد الدين أبي المظفر يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي سمع عنه

﴿الجزء الاول﴾

(طبعة جديدة)

بمطبعة وادي النيل بمصر القاهرة

سنة ١٢٨٧

(كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) (النورية والصلاحية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بطلفه تسليح الاعمال * وبكرمه وجوده بذرك الآمال * وعنى وفق مشيئته تنصرف الافعال * وبارادته
تتغير الاحوال * واليه المفسر والمرجع والمآل * سبحانه هو الباقي بلا زوال * والمترفع عن الحلول والانتقال *
عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال * ذوالعرش والمعرج النازل والاكرام والجلال * نحمده على ما أسبغ
من الانعام والافضال * ومن به من الاحسان والنزال * جد الاتوازنة الجبال * ملء السموات والارض وعلى
كل حال * ونصلى على رسوله ونبيه * وخيرنا من خلقه وصيه * وخليفه وولييه * وحبيبه المفضل * سيدنا ابي
القاسم محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ * والنضل الشامخ * والعلم الرايح * والجال والكمال * صلى الله عليه وعلى
الملائكة المقربين * والانبيا والمرسلين * وعترتهم الطيبين * ما أفل كوكب وطاع هلال * وعلى آل محمد وحممه خير
صحب وأكرم آل * وعلى تابعيهم باحسان وجميع الاولياء والابدال * رعا عن المقصرين من أمته أولى الكسل
والمال * وحشرنا في زمرة * مسكين بشر يعته * مقدرين بسنته * متعطين بما ضرب من الامثال * من دجن تحت
لوائه * في جملة أوليائه * يوم لا يسع فيه ولا جلال * (أما بعد) فانه بعد ان صرفت جل عرى * ومعظم فكري * في
اقتباس الفوائد الشرعية * واقتناص الفرائد الادبية * عني لى أن أصرف الى علم التاريخ بعضه * فأحوز بذلك سنة
العلم وفرضه * اقتداء بسيرة من مضى * من كل عالم مضى * فقل امام من الآئمة الا ويحكى عنه من أخبار من سلف
فوائد جه * منهم امامنا أبو عبد الله الشافعي رضي الله عنه قال مصعب الزبيري ما رأيت أحدا أعلم بأيام الناس من
الشافعي ويرى عنه انه اقام على تعلم أيام الناس والادب عشرين سنة وقال ما أردت بذلك الا الاستعانة على الفقه
قلت وذلك عظيم الفائدة * جليل العائدة * وفي كتاب الله تعالى وسترو سوله صلى الله عليه وسلم من أخبار الامم السالفة
وأنباء القرون الخالفة * ما فيه عبر لذي البصائر * واستعداد لوم تبلى السرائر * قال الله عز وجل وهو اصدق
القائلين * وكلا نقص عليكم من آباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذا الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين * وقال
سبحانه وتعالى ولقد جاءهم من الانباء ما فيه من درج حكمة بالغتها غن النذر * وحديث النبي صلى الله عليه وسلم

كتاب الروضتين * (٣) في أخبار الدولتين

بحدث أم ذرع وغيرهما جرى في الجاهلية * والأيام الاسيرة * وحكي عجائب ما آذله أسرى به وعرج * وقال حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج * وفي صحيح مسلم عن سمك بن حرب قال قلت لخباز بن سمره أ كنت تهاب الس رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم كثيرا كان لا يقوم من مصلاته الذي صلى فيه الصبح والغداة حتى تطلع الشمس فاذا طلعت قام وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم * وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بني اسرائيل حتى نفعهم ما يقوم الا الى عظم صلاه * قلت ولم تزل الصحابة والتابعون فمن بعدهم يتفاوضون في حديث من مضى * ويتذاكرون ما سبقهم من الاخبار وانقضت * ويستشدون الاسعار * ويتطلبون الآثار والاخبار * وذلك بين من أفعالهم * لمن أطلع على أحوالهم * وهم السادة القدوه * فلناهم اسوه * فاعتنيت بذلك وتصنعت * وبجئت عنه مدوة طلبته * فوقفت والحمد لله على جملة كبيرة من أحوال المتقدمين والمتأخرين * من الانبياء والمرسلين * والصحابة والتابعين * والخلفاء والسلاطين * والفقهاء والمحدثين * والاولياء والصالحين * والشعراء والنحويين * وأهناف المذاهب السابقين * ورأيت أن المطلع على أخبار المتقدمين * كأنه قد عاصرهم جميعين * وادعندساته في أحوالهم وتذكرهم * كأنه كان مشاهدهم ومحاضرم * فهو قائم مقام طول الحياه * وان كان مهجلا الوفاء * قال نعم بن حماد كان عبد الله بن المبارك وكثير الجالوس في بيته فتبيل له الانسمة وحش فقال كيف أستوحش وأماع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وفي رواية قال قيل لابن المبارك يا أبا عبد الرحمن تكبر القعود في البيت وحديثك أبا وحديثي أبا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعني النظر في الحديث وفي رواية أخرى وأماع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان قلت وقد أنشدت لبعض الفضلاء

كتاب اطالعهم مؤنس * أحب الي من الاتسه
 وادرسه فير بني القرو * ن حضوراً وأعظمهم دارسه

وقد اختار الله سبحانه ان تكون آخر الامم واطلعنا على أبناء من تقدم لهم لتتظن ما جرى على القرون الخالية * وتعيما أذن واعيه * فهل ترى لهم من باقية * ولتقديس بقى تقدمنا من الانبياء * والائمة الصالحاء * ونرحو توفيق الله عز وجل ان نجتمع بمن يدخل الجنة منهم * ونذكرهم بما نال اليانهم * وذلك على رغم أنف من عدم الادب * ولم يكن له في هذا العلم ارب * بل أقام على غيه واكب * والمرء مع من أحب * هذا وان الجاهل بعن الترخيز كاب ظهر عياء * خاطب خطب عشواء * ينسب الى من تقدم أخبار من تأخر * ويعكس ذلك ولا يتدبر * وان رذيلة وهما لا تتأثر * وان ذكر لخطله لا يتذكر * لا يفرق بين صحابي وتابعي * وخفي ومالكي وسافعي * ولادين خليفة وأمير * وسلطان ووزير * ولا يعرف من سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم أكثر من ابنه من سبل * فكيف له بمعرفة أصحابه وذلك الصدر الاول * الذين يذكروهم تراث النفوس * ويذهب البوس * ولعند رأيته جلسا * جمع فيه ثلاثة عشر مدرسا * وفيهم فاضل قضاء ذلك الزمان * وغيره من الاعيان * جفري يذم وأنا أسمع * كرم تحرم عليه الصدقة وهم * والقرى المذكورة في القرآن * فقال جيههم بنو هاشم وبنو عبد المطلب * وعدلوا بأجهم في ذلك مما يجب * فتعجب من جهلهم حيث لم يترقوا بين عبد المطلب والمطلب * ولم يهتدوا الى أن المطلب هو عم عبد المطلب * وان عبد المطلب هو ابن هاشم * فأحققهم بلوم كل لاثم * ان هذا أصل من أصول الشر بعة قد أهله * وباب من أبواب العلم جهله * ولزم من قولهم اخراج بني المطلب من هذه الفضيلة * فابتغيت الى الله تعالى الوسيلة * وأنت لنفسى من ذلك المقام * فأخذتها بعلم أخبار الامم * وتصحح نسبتها * واوضح محبتها * فان كثيرا ممن يحفظ شيئا من الوقائع بقوته معرفة نسبتها الى أربابها * وان نسبها خلط فيها وصرقها عن أصحابها * وهو باب واسع غر الفوائد * صعب المصادر والموارد * زلت فيه قدم كثير من ثقلة الاخبار * ورواة الآثار * ثم أردت ان اجمع من هذا العلم كتابا يكون حاويا لما حصلته * وأتقن فيه ناخبرته * فعمدت الى أكبر كتاب وضع في هذا الفن على طريقة المحدثين وهو تاريخ مدينة دمشق حماها الله عز وجل الذي صنفته الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن العسكاري رحمه الله وهو ثمانمائة جزء في ثمانين مجلدا خلاصته وهذبه * وزدته فوائدهم كتب أخر جلية واتقنته * ووقف عليه العلماء * وسمعه الشيوخ والفضلاء * ومررت فيه من الملوك المتأخرين * ترجمة الملك العادل نور الدين * فأطربني ما رأيت من آثاره * وسمعت من أخباره * مع تأخر زمانه * وتغير حاله * ثم وقفت

كتاب (٤) الروضتين

بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين فوجدتهما في المتأخرين * كالعرب
رضي الله عنهما في المتقدمين * فان كل ثان من القرنين هذا حاذون من تقدمه في العدل والجهاد * واجتهد في اعزاز
دين الله أي اجتهاد * وهما لكابلدتنا * وسلطانا خطتنا * خصنا الله تعالى بهما * فوجب علينا القيام بذكر فضلها *
فعمزت على افراد ذرودنا بهما بتصنيف * يتضمن التقريظ لهما والتعريف * فاعله يقف عليه من الملوك * من
يسلك في ولايته ذلك السلوك * فلا يبعد انهما حجة من الله على الملوك المتأخرين * وذكرى منه سبحانه فان الذكرى
تنفع المؤمنين * فانهم قد يستبعدون من انفسهم طريقة الحلفاء الراشدين * ومن هذا حاذوهم من الائمة السابقين *
ويقولون نحن في الزمان الاخيرة * وما لا نملك من نظير * فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين المبكين الزام الحجة
عليهم بن هوف في عصرهم * من بعض ملوك دهرهم * فلن يعجز عن التشبه بهما احد * ان وفق الله الكريم وسدد *
وأخذت ذلك من قول أبي صالح شعيب بن حرب المدائني رحمه الله وكان احد السادة الاكابر في الحفظ والدين *
قال اني لاحسب بجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من الله على هذا الخلق يقال لهم ان تدر كوايتكم فقد رأيتم
سفيان الا اتدبتم به وكذلك اقول هذا ان الملكان حجة على المتأخرين * من الملوك والسلاطين * فقلله درهما من ملكين
تعاقبا على حسن السيرة * وجعل السريرة * وهما حفي وسافعي * تقي الله بهما كل عي * وظهرت بهما
من خالقهما العناية * فتقاربا حتى في العمر ومدة الولاية * وهذه نكتة قل من نفعان لها وتبه عليها * ولطيفة هدى الله
بتوقيه اليها * وذلك ان نور الدين رحمه الله ولاسته احدى عشرة وخمسمائة وتوفي سنة تسع وستين * وولد صلاح الدين
رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وتوفي سنة تسع وثمانين * فكان نور الدين أسن من صلاح الدين بسنة واحدة
وبعض أخرى وكلها هم يستكمل ستين سنة * وانظرا كيف اتفق ان بين وفاتهما عشرين سنة وبين مولدهما احدى
وعشرين سنة وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين * وملكها صلاح الدين سنة سبعين * فبقيت دمشق في المملكة
النورية عشرين سنة * وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة سنة * تحمى فيها الشيعة وتكتب الحسنه * وهذا من عجيب
ما اتفق في العمر ومدة الولاية ببلدة معينة للمبكين متعاقبين مع قرب السبه بينهما في سيرة تهما والفضل للتقدم فكانت
زيادة مدة نور الدين كالنبيه على زيادة فضله * والارصاد الى عظم محله * فانه اصل ذلك الخير كله * مهذا المور بعده
وجهاده * وهبته في جميع بلاده * مع شدة التقوى واتساع الخرق * ونجح من البلاد * ما ستعين به على مداومة
الجهاد * فهان على من بعده على الحقيقة * سلوك تلك الطريق * لكن صلاح الدين أكثر جهادا * وأعم بلادا * صبر
وصابر * ورباط وثابر * وذخر الله له من الفتوح أنفسه * وهو الذي فتح الارض المقدسه * فرضى الله عنهما فما أحقهما
بقول الشاعر

(كم نزل الاول للآخر)

وأبلس الله هاتيك العظام وان * بلين تحت الثرى عفوا وغفرانا

يسقى ترى أودعو رحمة ملأت * منوى قبورهم روحا وبخانا

وقد سبقني الى تدوين مآثرهما جماعة من العلماء * والا كابر الفضلاء * فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن
الدمشقي في تاريخه ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زكي رحمه الله ولا جله تتم ذلك الكتاب وذكر اسميه في خطبته
وذكر الرئيس أبو يعلى حجة بن أسد التميمي في مذييل الساريح الدمشقي قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية الى سنة
خمس وخمسين وخمسمائة وصنف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري عرف
بابن الاثير مجلدة في الايام الانابكية كلها وما جرى فيها وفيه شيء من أخبار الدولة الصلاحية لتعلق احدى الدولتين
بالأخرى لكونهما متفرعة عنها ووصف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافعين تميم الموصلي عرف بابن
شذاد قاضي حلب مجلدة في الايام الصلاحية وسياق ما تيسر فيها من الفتوح واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح
الدين رحمه الله تعالى ووصف الامام العالم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني كآين
كلها مسجوع متفق بالالفاظ الفصيحة والمعاني الصحيحة أحدها الفتح القدسي اقتصر فيه على فتوح صلاح
الدين وسيرته فاستفحقه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة والثاني البرق الشامي ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات
والفتوحات وغيرها مما وقع من سنة وروده دمشق وهي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة الى وفاة صلاح الدين وهي

في أخبار (٥) الدولتين

سنة تسع وثمانين فاشتمل على قطعة كبيرة من أخبار أواخر الدولة النورية إلا أن العماد في كتابه طويل النفس في السمع والوصف على الناظر فيه * وبذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وبنيته * فخذت تلك الاسماع الاقليلا منها استحسنتها في مواضعها ولم تلجأ خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع نحو ما استراه في أخبار دغ البت المقدس شرفه الله تعالى وانزعت المقصود من الاخبار من بين تلك الرسائل الطوال * والاسماع المفصلة الى الملل * وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام واخترت من تلك الاسعار الكبيرة قليلا مما يتعلق بالقصص وشرح الحال * وما فيه من نكتة غريبة وفائدة لطيفة ووزعت على مجلدات من الرسائل الفاضلة * وعلى جملة من الاسعار العمدية * مما ذكره في ديوانه دون رقه وعلى كتب أخرى من دواوين وغيره ما لم تغط منها أشياء مما يتعلق بالدولتين أو باحديهما وبعضه سمعته من أفواء الرجال الفأة * ومن المدركين لتلك الاوقات * فاختصرت جميع ما في ذلك من أخبار الدولتين وما حدث في مدتها من وفاة خليفة أو وزير * أو أمير كبير * أو ذي قدر خطير * وغير ذلك * بخاء شجرة الطيقا * وكذا بطريقا * دخل على طاعة الملوك والا كبار * من ذوي المآثر والمفاخر * وسميته (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) والله ذو حبيب بن أوس حيث يقول
ثم انقضت تلك السنون وأهلها ❦ فكأنها وانهم أحلام

(فصل) أما الدولة النورية فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو النسيم محمود بن عماد الدين اتابك وهو أبو سعيد زكي بن قسم الدولة آق سنقر التركي ولقب رنكي أيضا بلقب والده قسم الدولة ويقال لنور الدين بن النسيم وسنة كلم على أخبار أسلافه عند بسط أوصافه وقدمت من اجمال أحواله ما يستبدل على أفعاله ذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة وان جده آق سنقر ولي حلب وغيره من بلاد الشام ونشأ أبوه زكي بالعراق ثم ولي ديار اموصل والبلاد الشامية وظهرت كفايته في مقابله العدو وعند نزوله على شبر حتى رجع خائبا وفتح الرها والمعدة وكفر طاب وغيره من الحصون الشامية واستنقذها من أيدي الكفار فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ثم قصد نور الدين حلب فادكها وخرج غازيا في ٤٦١ ل تل باشر فاتح حصونا كثيرة من جملتها قلعة عزاز ومرعش وتل خالو وكسر ابرنس انطاكية وقتله وثلاثة الاف فرج معه وأظهر بحلب السنة وغبر البدة التي كانت لهم في الناب * بن وقعها الرافضة وبنيها المدارس ووقف الاوقاف وأظهر العدل وحاصر دمشق مرتين وفتحها في السالة فبسط أمورها وحسن سورها وبنيها المدارس والمساجد وأصلح دارقها ووسع أسواقها ومنع من أخذها كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطنج وسوق الغنم واليكالة وغيرها وعاقب على شرب الخمر واستنقذ من العدو وغرباناس والمنيطرة وغيرها وكان في الحرب ثابت القدم حسن الرمي صليب الضرب يندم أصحابه ويعترض الشهادة وكان يسأل الله تعالى أن يحضره من بطون السباع وحواصل الطير ووقف رحمه الله ووفاء على المرضى وعلى الخط والقرآن وساكني الحرمين وأقطع أمراء العرب ثلاثين عرضا للحاج وأمر بأكمال سور المدينة واستخراج العين التي يأخذ وبني الربط والجسور والخانات وجدد كثير من قني السبل وكذا صنع في غير دمشق من البلاد التي ملكها ووقف كتب كثيرة وحصل في أسر جماعة من أمراء الفرنج وكسر الروم والأرمن والفرنج على جارم وكان عتتهم ثلاثين ألفا ثم فتح جارم وأخذ كثير من انطاكية ثم فتح الدار المصرية وكان العدو قد أشرف على أخذها ثم أظهر بها السنة وانقعت البدة وكان حسن الخط كثير المطالع للكتب الدينية متبعه لآثار النبويه مواظبا على الصلوات في الجماعات عاكفا على تلاوة القرآن حرصا على فعل الخير عفيف البطن والفرج مقتصد في الانفاق متحر يا في المطاعم والملابس لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في بخره واشتهى ما اليه كلمة حتى يسمعها أو ارشاد الى سنة يتبعها وقال أبو الحسن بن الاثير قد طاعت تواريخ الملوك المنة دمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحرر بالعدل والانصاف منه فقد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يخهره ومظلمة ينزلها وعبادة يقوم بها واحسان يوليه وانعام يسديه ونحن نذكر ما نعلم به محله في أمر دنياه وآخره فلو كان في امة لا تختر به فكيف بيت واحد أما زهده وعبادته وعمله فانه كان مع سعة ملكه وكثرة خاثر بلاده وأمواله الاياكل ولا يلبس ولا

كتاب (١) الروضة

يتصرف فيما يخصه الامن ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنية ومن الاموال المرصدة لصالح المساكين احضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك فاخذوا فأتوه بجمله ولم يتعدوا الى غيره ألبتة ولم يلبس قط سحره الشرع من حرر او ذهب او فضة ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ومن ادخلها الى بلد ما وكان يحد شار بها الحد الشرعي كل الناس عنده فيه سوا

حدثني صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين ووزيرها قال كان نور الدين اذا جاء اليه اجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته لا تتقدم اليه الا ان يأذن في أخذ نسيابه عنه ثم تقترل عنه الى المكان الذي يختص بها ويقرده وتارة يطالع رافع أصحاب الاسغال اوفى مطالعة كتاب ناهه بحبيب عنهما وكان يصلي فيطيل الصلاة وله اوراق في النهار فاذا جاء الليل وصلى العشاء ونام يستيقظ نصف الليل ويقوم الى الوضوء والصلاة الي بكر فيظهر الركوب ويشغل بهام الدولة قال وانها قلت عليه النفقة ولم يكن سوا ما كان قررهما فارسلتني اليه اطلب منه زيادة في وظائفها فالتفت له ذلك ذكر واجروجه فتم لها من أين أعطيها ما يكفيها ما لها والله لا أخوض نار جهنم في هواها ان كانت تقضي ان الذي سدى من الاموال في فئس الظن اعماهي أموال المساكين من صدة لصالحهم ومعدن لتقضي ان كن من عدوا لاسلام وانا خازنهم عليهم اقلا أخونهم فيها ثم قال في مدينة حصن ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها لينا فأتاها فخذها قال وكان يحصل منها قدر قليل قال ان الاثر وكان رحمه الله لا يفعل فعلا الابنية حسنه كان الجوزية رجل من الصالحين كثير العباد والورع شديد الانقطاع عن الناس وكان نور الدين يكاثر به وراسله ويرجع الى قوله ويعتقده اعتقادا حسنا فبلغ ان نور الدين يدمي اللعب بالكرة فكتب اليه يقول ما كنت اظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغیر فائدة دينية فكتب اليه نور الدين بخط يده يقول والله ما يجلي على اللعب بالكرة واللهو والبطر وانما نحن في شعر العدو قريب منا وبنا ونحن جلوس اذ يقع صوت فترك في الطلب ولا يمكننا بضعام ملازمة الجهاد لبلانها واشتاء وصيفة الا بد من الراحة للجنود حتى ترك الخيل على مراتبها صارت جاما لا قدرة لها على ادمان السير في الطلب ولا معرفة لها بضعام سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب فهذا والله الذي يعنى على التعب بالكرة قال ابن الاثير فانظرا الى هذا الملك المعلوم الظير الذي يقبل في أصحاب الزوايا المنقطعين الى العبادة منسله فان من يهوى الى اللعب بفعله بنية صالحة حتى يصير من اعظم العبادات واكبر القربات يقل في العالم مثله وفيه دليل على انه كان لا يفعل شيئا الا بنية صالحة وهذه أفعال العناء الصالحين العالمين وحكي عنه انه جل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحصرها عنده فوصفت له فلم يلتفت اليها وبيناهم معه في حديثها واذا قد جاءه رجل صوفي فامر به اليه فقيل له انها لا تصلح لهذا الرجل ولو اعطى غيرها كان أنفع له فقال اعطوها له فاني أرجو ان اعوض عنها في الآخرة فسلمت اليه فسار بها الى بغداد فباعها باسمائة دينار اميري اوسمعاثة دينار قلت قرأت في حاشية هذا الحكام من كتاب ابن الاثير بخط ابن المعطى اياما قال اعطاها النسخ الصوفية عماد الدين أبي الفتح بن جويد بغير طلب ولا رغبة فبعها الى همدان فبيعت بألف دينار قال ابن الاثير وحكي لدا الامير بهاء الدين علي بن السكري وكان خصيصا بخدمة نور الدين قد صممه من الصبا وأنس به وله معه انبساط قال كنت معه يوما في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا فكلما سرتنا قد منا الظل فلما عشنا ناصرنا ظنا وراوا ظهورنا فاجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لي اندرى لاى شئ أجرى فرسي وألثقت ورائي قلت لا قال قد شهدت ما نحن فيه بالذباته رب من يطلبها ونطلب من يهرب منها قلت رضى الله عن ملك يفكر في مثل هذا وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى
مثل الرزق الذي تطلبه * مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه متبعا * فاذا ولبت عنه تبعك

قال ابن الاثير وكان يعنى نور الدين رحمه الله يصلي كثيرا من الليل ويدعو ويستغفر ويقرأ ولا يزال كذلك الى ان يركب
جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما أحسن الخراب في الخراب
قال وكان عارفا بالفقهاء على مذهب الامام أبي حنيفة رضى الله عنه لبس عنده تعصب بل الانصاف في محبة في كل شئ وسمع الحديث وأسمعه طلبا للأجر وعلى الحقيقة فهو الذي جسد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف وترك

في أخبار (٧) الدولتين

الحجرات من المأكل والمشرّب والملبس وغير ذلك فانهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همه أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه والزّم بذلك أتباعه وذويه فاقتدى به غيره منهم واستحبوا ان يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة قال فان قال قائل كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجي إليه الأموال الكثيرة فليذكرني الله سليمان ابن داود عليه ما السلام مع ملكه وهو سيد الزاهدين في زمانه وينبذ أصلي الله عليه وسلم قد حكم على حضر موت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى العراق وهو على الحقيقة سيد الزاهدين قال وإنما الزهد خلوة القلب من محبة الدنيا لا خلوة البدن عنها قال وأما عدله فانه كان أحسن الملوكة سيرة وأعدلهم حكماً فمن عدله لم يترك في بلد من بلاد ضريبة ولا مكس أو لا عشر اربل أو لمقهار حجه الله جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها والموصل وأعمالها ودار مصر وغيرها ما حكم عليه وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً وهذا لم يتسع له نفس غيره وكان يجري العدل وينصف المظلوم من الظالم كاتنا من كان القوي والضعيف عنده في الحق سواء وكان يسع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير فلا جرم سار ذكره في شروق الأرض وغيرها قال ومن عدله انه كان يعظم الشرع المطهر وقبض عند أحكامها ويقول نحن سخر لها نصى أوامرها فمن أتباعه أحكامها انه كان يلعب بدمشق بالكرة قرأى انساناً يحدث آخر ويومئ يديه إليه فأرسل إليه يسأله عن حاله فقال لي مع الملك العادل حكومة وهذا غلام القاضي يحضره إلى مجلس الحكم يحاكي على الملك الفلاني فعاد إليه ولم ينجح امران يترقه ما قال ذلك الرجل وعاد يكره فلم يقبل منه غير الحق فذكر له قوله فالتقى الجوانح من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضي وهو حينئذ كمال الدين ابن الشهرزوري وأرسل إلى القاضي يقول له اني قد جئت محمداً كما فاسألك عن مثل ما تسلكه مع غيري فلما حضر ساوى خصمه وطأه فلم يثبت عليه حق وإنما الملك لنور الدين فقال نور الدين حينئذ للقاضي وان حضر هل ثبت له عندي حق قالوا لا فقال اشهد وانتي تدّوه له هذا الملك الذي قد حاكى عليه وهو له دوى وقد كنت أعلم انه لا حق له عندي وإنما حضرت معه لئلا يظن اني خفيت ظهراً إلى الحق وهبته قال ابن الأثير وهذا غاية العدل والانصاف بل غاية الاحسان وهي درجة وراى فرحم الله هذه النفس الزكية الظاهرة المتقادة للحق الموافقة معه قلت وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فيه زمنة وتترق الكرامة والافتداف إلى المحي إلى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر وعلى رضى الله عنهم حكى نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور وقد قلنا ذلك كله في التارخ الكبير وفيه عن عبد الله بن طاهر قريش الصنعيني أنه حضر الحاكم عنده ولم يرض إليه وقد لغني ان نور الدين رحمه الله تعالى استدعى مرة أخرى لمجل إلى الحاكم بنفسه وأنا ثبته فدخل حاجبه عليه متجهاً وأعلمه ان رسول الحاكم بالباب فانكر عليه نجيته وقام رحمه الله رجاو وجسدي أثناء طريقه ما منعه من العبور من حفر جب بعض الحسوس واستخرج ما فيه فوكل من ثم وكيلاً لمده عليه شاهدين بالتوكيل ورجع قال ابن الأثير ومن عدله انه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوكة فذلك الاعتمار على الظنة والتممة بل يطلب الشهود على المتهم فان قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية غير تعدد دفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولا يمتع منه سدة السياسة والمبالغة في العقوبة أخذ بالظنة وأمنت بلادهم مع ستمها وقل المفسدون ببركة العدل وأتباع الشرع المطهر قال وحكى لي من أثنى به انه لما يوماً إلى خزنة المال فرأى فيها ما لا أنكره فسأل عنه فقبل ان القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا فقال هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء وأمر برده وأعادته إلى كمال الدين ليرده على صاحبه فأرسله إلى الخزانة إلى كمال الدين فردّه إلى الخزانة وقال اذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له اني انه قد فذل نور الدين زانة مرة أخرى فراه فانكر على النواب وقال ألم أقل لك يعاد هذا المال على أصحابه فذكره واليه قول كمال الدين ذه إليه وقال لرسول قل لكالمال الدين أمت تقدر على حل هذا المال وأما أنا فريقي رقيقة لأطبق حله والمخاصمة بيني وبين الله تعالى يعار قولاً واحداً قال ومن عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يحكى ان انساناً كان بدمشق استوطنها وأقام بها المارأى من عدل نور الدين رحمه الله فلما توفي تعذّى بعض الاجناد على هذا الرجل فشكاه

كتاب (٨) الروضتين

لم ينصف فتزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم
 رحمتنا يس عدلك وقصدت به نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى وكلهم يبكي ويصبح فوصل الخبر إلى صلاح الدين
 قيل له احفظ البلد والريعية والآخر عن يدك فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند ربة نور الدين يبكي والناس معه
 يطيب قابله وهبوه شيئا وأنصفه فبكى أشد من الأول فقال له صلاح الدين لم تبكي قال ابكي على سلطان عدل فنباعد
 موته فقال صلاح الدين هذا هو الحق وكما ترى فينا من عدل فنه تعذاه قلت ومن عدله ان بني دار العدل قال ابن
 الاثير كان نور الدين رحمه الله أول من بنى دار العدل لكشف وسماها دار العدل وكان سبب بنائها انه لما طال مقامه
 بدمشق وأقام بها أمر أوده وفيهم أسد الدين شيركوه وهو أكبر أمير معه وقد عظم شأنه وعلما مكانه حتى صار كأنه شريك
 في الملك واقتنوا الاملاك وأكثروا تعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها فكثرت الذكوى
 إلى كمال الدين أنصف بعضهم من بعض ولم يقدم على الانصاف من أسد الدين شيركوه فانتهى الحال إلى نور الدين
 فأمر حينئذ بدار العدل لما سمع أسد الدين بذلك أحضر أوابه جميعهم وقال لهم اعلوا ان نور الدين ما أمر ببناء
 هذه الدار الا بسببي وحدي والآخر هو الذي يمنع على كمال الدين والله لئن أحضرته إلى دار العدل بسبب أحدكم
 لأصلبته فامضوا إلى كل من ينكم وبنيه منازعة في ملكه فصاروا الحال معه وأرضه داي شيء تمكن ولو أتى ذلك على جميع
 ما يبدي فقالوا له ان الناس اذا علموا هذا استطوا في الطلب فقال خروج املاكي عن يدي أسهل على من ان يرا
 نور الدين بعين أتي ظالم أو يساوي بني وبني أحد العامة في الحكومة فخرج أجنابهم من عنده وفعلا ما أمرهم وأرض
 خصماءهم وأنشدوا عليهم فلما فرغ دار العدل جلس نور الدين فيها الفصل الحكومات وكان يجلس في الاسبوع
 يومين وعنده القاضي والفقهاء وبقى كذلك مدة فلم يحضر عنده أحد يسكنهم أسد الدين فقال نور الدين لكمال الله
 ما أرى أحدا يسكنهم شيركوه فمعرفة الحال فحدثه بكر الله تعالى وبال الجنة الذي جعل لأبيها ينصفون
 أنفسهم قبل حضورهم عندنا قال ابن الاثير فأنذرتني في ذلك المدة ما أحسنها وإلى هذه الهبة ما أعظمها
 السياسة ما أسدتها هذا مع انه كان لا يربى يوما ولا يبالغ في غنوية واما كان يفعل فذا صدقة في عدله و
 قال وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كنت النهاية اليه فمما فانه أصبر الناس في الحرب وأحسنهم كميدة ورأى
 معرفة بأموال الاجناد وأحراهم وبه كان يضرب المل في ذلك سمعت جمعا كثيرا من الناس لا أحصيهم يقولون
 لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه كمنما خلق عليه لانيه ترك ولا يزلزله وكان من أحسن الناس لعبا بالكرة و
 عليها لم يرجو كانه يعاود على رأسه وكان ربما ضرب الكرة ويمر بالفرس وبنائها بسد من الهواء وبرهها
 الميدان وكانت يده لا ترى والجو كان فيها بل يكون في كم قبائه امنه باللعب وكان اذا حضر الحرب أخذ
 وتركشين وبشر القتال بنفسه وكان يقول طالما تعرضت للسهاد فلي أذكر كما سمع يوما الامام قطب
 النيسابوري الفقيه الساذجي وهو يقول ذلك فقال له بالله لا تخاطر بنفسك وبالا سلام والمسلمين فانك أعادهم
 اصبت والعياد بالله في معركة لا يتي من المسلمين أحد الا أخذ السيف وأخذت البلاد فقال يا قطب الدين ومن
 حتى يقال له هذا قبلى من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله الذي لا اله الا هو قال وكان رحمه الله يكثر أعمال الحب
 والمكر والخداع مع الفرنج خذهم الله تعالى وأكثر ما مله من بلادهم به ومن جيد الرأي ما سلكه مع ملج بن ليون
 ملك الارمن صاحب الدروب فانه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفرا وحضر او كان يقاتل به الا فر
 وكان يقول انما جلتي على استمالة ان بلاد حصينة وعزها مسالك وقلاع منيعة وليس لنا اليها طريق وهو يخبر
 منها اذا أراد قبيل من بلاد الاسلام فاد اطلب الحجر فبها فلا يقدر عليه فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا
 الاقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب الى طاعته او خدمتنا وساعدنا على الفرنج قال وحيث توفي نور الدين رحمه الله
 وسلك غيره غير هذا الطريق ملك المتوفى الارمن بعد الملج كثيرا من بلاد الاسلام وحصونهم وصار منه ضرر عظم
 وخرق واسع لا يمكن رفعه قال ومن أحسن الاراء ما كان يفعله مع أجناده فانه كان اذا توفي أحدهم وخلف ولدا
 الاقطاع عليه فان كان الولد كبيرا استبد بنفسه وان كان صغيرا رتب معه رجلا عا لا يثق اليه فيه توفي أمر
 يكبر فكان الاجناد يقولون هذه أملاكا يربها الولد عن الولد فحق نقاتل عليها وكان ذلك سببا عظيما

الموجبة للصبر في المشاهدة والحروب وكان ايضا ثبت اسماء اجناد كل أمير في ديوانه وسلاحهم خوفا من حرص بعض الاسراء وشيخه ان يحمله على ان يقتصر على بعض ما هو مقر عليه من العدد ويقول نحن كل وقت في النفر فاذا لم يكن أجناد كافة الاسراء كاملي العدد والعدد دخل الوهن على الاسلام قال ولقد صدق رضى الله عنه فيما قال وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ما خافه عيانا فالأول وأما قوله في بلاد الاسلام من المصالح مما يعود الى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم من ذلك انه بنى أسوارهم من الشام جمعها وتلاعها فيها لم يوجع وجع ودمشق وبارين وشيراز ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها وحكم بناءها واخرج عليها من الاموال ما لا تحصى من النفوس وبني ايضا المدارس بحلب وحماه ودمشق وغيرها لما شافعية والحنفية وبني الجوامع في جميع البلاد بما معه في الموصل اليه النهاية في الحسن والاعتقان ومن أحسن ما عمل فيه انه فوض أمر عمارته والمخرج عليه الى الشيخ عمر الملا رحمه الله وهو رجل من الصالحين فقيل له ان هذا الإنسج لمثل هذا العمل فقال اذا وليت العمل بعض أصحابي من الاجناد والكتاب اعلم انه يظلم في بعض الاوقات ولا يفي الجوامع بظلم رجل مسلم واذا وليت هذا الشيخ غلب على ذاتي انه لا يظلم فاذا ظلم كان الاثم عليه لا على قال وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم وبني أيضا بمدينة حماد جامع على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأزهرها وجد في غير هادن عمارة الجوامع ما كان قد تمهدها ما برز له أو غيرها وبني البيمارستانات في البلاد ومن أعزها البيمارستان الذي بناه بدمشق فانه عظيم كثير المخرج جدا بلغني انه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب بل على كافة المسلمين من غني وفقير قات وتذوقه على كتاب وقته فلم أر دمعة أبدا وكذا هذا كلام شاع على السنة العامة لنفع ما قدره الله تعالى من مزاجه الاغنياء للفقراء فيه والله المستعان وانما صرح بأن ما يعز وجوده من الادوية الكبار وغيرها لا يمنع منه من احتياج اليه من الاغنياء والفقراء فذلك فلا ينبغي ان يتعدى الى غيره ولا سيما وقد صرح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمتفطمين وقال بعد ذلك من جاء اليه مستوصفا لمرضه أعطى وروى ان نور الدين رحمه الله شرب من شراب البيمارستان فيه وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف من جاء اليه مستوصفا لمرضه أعطى والله أعلم وبلغني في أصل بانه نادرة وهي ان نور الدين رحمه الله وقع في أسر بعض أكابر ملوك الفرنج فحذمهم الله تعالى فقطع على نفسه في فدائه ما لا عظميا فشاور نور الدين أمره فكل أشار بعدم اطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين ومال نور الدين الى انه يبعد ما استخار الله تعالى فأطلقه ليلا لئلا يعلم أصحابه وتسلم المال فلما بلغ النربى ما منه مات وبلغ نور الدين خبره فأعلم أصحابه فتجسس رامن لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع لهم الحسنين وهما الفداء وموت ذلك المعين فبني نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الاسراء لانه لم يكن عى ارادتهم كان قال ابن الاثير وبني أيضا الحانات في الطرق فأمن الناس وحفظت أموالهم وباتوا في الشبته في كن من البرد والمطر وبني أيضا الابراج على الطارق بين المسلمين والفرنجة وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي فاداروا من العدو وأخذوا أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم واحاطوا لانفسهم فلم يبلغ العدو منهم غرضا وكان هذا من أذف المكر وأكثرها نفعاً قال وبني الى بط والحاناتها في جميع البلاد للصوفية ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأدر عليهم الادارات الصالحة وكان يحضر مشايخهم عنده ويقر بهم ويدنهم ويسطهم ويتواضع لهم فاذا أقبل أحدهم اليه يقوم له من نفع عيه عليه ويمنقه ويجلسه معه على سجادة ويقبل عليه بحديثه وكذلك كان أيضا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام ويجمعهم عند البحث والنظر فنقصده من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه وكان أمره ويحسدونهم على ذلك وكانوا يبعون عنده ففهم فيها هم واذا انزلوا عن انسان عيا يقول ومن المعصوم وانما الكامل من تعد ذنوبه قال وبلغني ان بعض أكابر الاسراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والاحسان اليه فحسد ذلك الامر فقال منه يوما عند نور الدين فقال له يا هذا ان مات قول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها وهي العلم والدين وثم أنت واصحابك فنيكم أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها ولو وقعت لشغل عيبك عن غيرك وأنا أحمل سبنا نك مع عدم حسناتكم أفلا جل سبنا هذا ان صحبت مع وجود حسنة على اني والله لا أصدقك فيما تقول وان عدت ذكرته أو غير ذكرك لا ذنبك فكف عنه قال ابن الاثير هذا والله هو الاحسان والفعل

الذي ينبغي ان يكتب على العيون بما الذهب وبني بدمشق أيضا دار الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المستغنين
 بعلم الحديث وقوفا كبيرة وهو أول من بنى دار الحديث فيما عتصمناه وبني أيضا في كثير من بلاده مكاتب للايتام وأجرى
 عليهم وعلى معلمهم الجرايات الوافرة وبني أيضا ما جدد من وقف عليهم وأعلى من يقرأ بها القرآن قال وهذا فعل لم
 يسبق اليه بلغني من عارف بأعمال الشام ان وقف نور الدين في وقتنا هذا هو سنة ثمان وستمائة كل شهر تسعة
 آلاف دينار صوري بدينس فيها غير ملك صحح نرى ظاهرا وباطنا فانه وقف ما انتقل اليه ووزن ثمنه وأما غلب عليه
 من بلاد الفرنج وصار سهمه قال وأما هيئته ووفاره فاليه النهاية فيهما ولقد كان كما قيل شديدا في غير عطف رقيقا في غير
 صعب واجتمع له ما لم يجتمع لغيره فانه ضبط ما موس المالك مع أجداده وأخصابه الى غاية لا مزيد عليهم او كان يلزمهم
 بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير ولم يجلس عنده أمير من غير ان يأمره بالجلوس الانجم الدين أيوب والد صلاح
 الدين يوسف وأما من عداه كاسد الدين سركر ومجد الدين بن الداية وغيرهما فانهم كانوا اذا حضروا عنده يقفون
 تباعا الى ان يأمرهم بالوقوف وكان مع هذه العظيمة وهذا النماوس التمام ادا دخل عليه التبعه أو الصوفي أو الهجير
 يقولو له ويمشي بين يديه ويجلسه الى جانبه كأنه أدرب الناس اليه وان اذا أعزى أحد من بني ثمانية ولان هؤلاء لهم في
 بيت المال حق فاذا أقنعوا من اياهم فلهم المنة علينا وإن لمسه يكره في دفعة يجلس رسول الله صلى الله عليه
 وسلم مجلس حكم وحياء لا تؤب في الحرم وهكذا كان مجلسه لا يدرك فيه الا العلم والدين وأحوال الصالحين
 والمشاورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو لا يتعدى هذا بلغني ان الحافظ ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه حضر
 مجلس صلاح الدين يوسف بالملك دمشق فرأى فيه من اللغة وسوء الادب من الجلوس فيه ما لا حد عليه فسرع
 يتحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتكلم من القول لكثرة الاختلاف من المحدثين ولقد استأعهم
 فقام وبقي مدة لا يحضر المجلس الصالحى وتكر من صلاح الدين الشاب له فحضر فعاشه صلاح الدين يوسف على
 انقطاعه فقال نزهت نفسي عن مجلسك فانى رأيتك كبعض مجالس السوق لا يسمع فيه الى قائل ولا ير جواب متكلم
 وقد كذبا لا من يحضر مجلس نور الدين فكما كما قيل كان على رؤسنا الطير تعلموا الهيبة والوارا فاذنكلم أنصتنا
 واذنكلمنا استمع لنا فقدم صلاح الدين الى أخصابه انه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم ادا حضر الحافظ قال ابن
 الاثير فهكذا كانت أحواله جميعا رحمه الله مضبوطة متفقون وأما حفظ أصول الدابات فانه كان من اعيانها
 لا يملكها ولا يمكن أحد من الناس من ان يارها يخالف الحق ومتى أقدم مفيد على ذلك أدبه بما يناسب بدعته
 وكان يبلغ في ذلك ويقول نفس تحفظ النرق من لمر وحادع داريق والاذى الحاصل من محارب أفلأ تحفظ الدين
 ونمعه عنه ما ياقضه وهو الاصل قال وحكى ان اسما بدمشق يعرف بوسف بن آدم كان يظهر الزهد والنسك وقد
 كثرتابعه أظهر شيئا من التسيه فبلغ خبره نور الدين فاحضره وأركبه حمارا وأمر بصفقه فطيف به في البلاد جميعه
 ونودي عليه هذا جرم أظهر في البدع ثم فاهم دمشق فقصده حتى ان وأأم بها الى ان مات قال ويسوق الله
 الفصار الاعمار الى البلاد النوخة تلتون كرام الله الكاتب في أول كتابه البرق الساعى انه تقدم دمشق في شعبان سنة
 اثنتين وستين وخمسائة في دولة الملك العادل نور الدين ثم وبن زنى وأخذ في وصفه بكلامه المسجوع فقال
 كان ملكا بلاد الشام ومالكها والذي يدهمها ملكها الملك العادل نور الدين أعف الملوك وأقاهم وأقهم رأوا بأقاهم
 وأعد لهم وأعبد لهم وأزهدهم وأجهدهم وأأهرهم وأطهرهم وأقواهم وأقدرهم وأصلحهم عملا وأنجحهم
 أملا وأرخصهم رأيا وأوخصهم رأيا وأصدقهم قولاً وأتصدقهم طولاً وكان عصره فاضلا ونصره واصل وحكمه
 عادلا وفضله شاملا وزمانه طيبا واحسانه صيبا والقلوب بمهاجته ومحبتهم عليه والنفس بعاطفته وعارفته
 ممتليه وأوامره ممتله وجده منزعه عن الغزل وتوابه في أمن من العزل ودولته مأمولة مأموه وروضته مصوبة
 مصونه والرياسة كامله والسياسة شامله والزينة زائده والسعادة مساعده والعيشة ناضره والشيعة ناصره
 والانصاف صاف والاسعاف عاف وأزاد الدين قوى وظما الاسلام روى وزند الفجج وروى والسرع مشرور
 والحكم مسجوع والعدل مولى والنظم معزول والتوحيد منصور والشرك مخذول ولتقى شرق وما للفسق سوق
 وهو الذى أعاد رونق الاسلام الى بلاد الشام وقد غلب الكفر وبلغ الضر فاستفخ معاقلها واستخلص عقائلها

وأشاع بها أسعار السُّرْع في جميع الحل والعقد والابرام والنقض والبسط والقبض والوضع والرفع وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الاسلام بالسام قدائع ففزعها وعفى رسومها ومنعها ونصره الله عليهم مرارا حتى أسروا ملوكهم وبيدوا سلاطنتهم وحبسوا عظماءهم وأحياهم عالم الدين الدارِس وبني الأئمة المدارس وأنشأ الخانات للصوفية وكثروا في كل بلد وكثروا قوفاً وقرى يعرفونها وأدنى للوافدين من جنى جنانة قطوفها وأجسد الاسوار والخنادق وأغنى المرافق وحجى الحقائق وأمر في الطرقات بينا الربط والسنانات فضافت ضيوف الفضائل وناعت فيوض الافاضل وهو الذي فتح مصر وأعمالها وأنشأ دولتها وربحها ثم ذكر العماد في أنباء حوادث سنة تسع وستين وهي السنة التي توفي فيها زرار بن علي

وفي هذه السنة أكرم زرار بن علي من الزواف والصدقات وعما دار المجد المذمورة وتعقبة آثار الأنام واسقاط كل ما يدخل في شبه الحرام فما بقي سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات على قويم المناهج قال وأمر في بكتب مناسير لجميع أهل البلاد فكتب أكرم من ألف مفسر وحسن أسانيد تدقيق على الفقهاء في ذلك الشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار ورائت عادته في الصدقة ما يحضر جماعة من أمثال البلد من كل شدة وبأساء ثم يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة ثم يصرف إليهم صدقاتهم وكان لهم رسم نفقة الخاص في كل شهر من خزبة أهل الدقة مبلغ ألفي قرطيس يصرف في كسوته ونفقته وحوائجه المهمة حتى أجرة خياطة وبجارية طبائخه ويستفضل منه ما يصدق به في آخر الشهر وأما ما كان يهدي إليه من هدايا الملوك وغيرهم فإنه كان لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير بل إذا اجتمع يخرج إلى مجلس القاضى ويحصل ثمنه ويصرف في عارة المأجد المذمورة وتفسمه بأحصاء ما في محال دمشق فأناف على مائة مسجد فأمر بعمار ذلك كله وعين له وقوفاً قال ولما استغلت بك زرقوقه وصدقاته في كل بلد لظال الكتاب ولم يبلغ إلى أمدوه شاهدت أبنية الدالة على خلوص نية بغنى عن شهريها بالبيان وبكى أسوار البلدان عن الربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المراسم وفي شرح بلولة طول وعذلة مبرور مقبول وواظب على عقد مجالس الوعاظ ونصب انكر أسى لهم في القلعة لآثار والاعتناء وأكبرهم الفقيه قطب الدين النيسابوري وهو مشغوف ببركة أنفاسه واعتنام كلامه واقباسه ووفهم بغداد ابن السجاني الحبيب الكبر فبسط له في كل أسبوع المنبر وشأقه وعظه وراقه معناه ولفظه وكلامه رفاهية من أصبهان الفقيه نرف الدين عبد المؤمن بن سورة وما عين ذلك الأيام وأبرك ذلك الله توه بالبرهان أسقط زرار بن علي الجهات المحظورة والسبه المحظورة عزل النحن وصرف عن الرعية بدصرف الأمن وحال ما ضاع في كمال النين ابن السهر روري انظر أنت ذلك واجل أمور الناس فيها على الشريعة قال ولكن المال المزارع الحاضر يتحاصل ولا تدبوا به أكل فجعل زرار بن علي ثلث ما يحصل فيه لكل مال الدين الحاضر كم وقوره نوا وكثروا ما كان زرار بن علي يحاسب القاضى على شيء من الوقوف ويقول أنا نذرت على أن يتصرف بالمعروف وما فضل من مصارفها ونسوط وانفها بأمره يصرفه في بناء الاسوار وحفظ الثغور وكانت دولته نافذة لاوامر منتظمة الامور قلت وبكى السجاني البركات الحسن بن محمد بن هبة الله أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم رحمه الله مجلس زرار بن علي لم يسمع شيء من الحديث فخر في أثناء الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج متقلداً سيفاً فاستعاد زرار بن علي أمر الملك أن يعرفه وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقلد السيف يشير إلى النجى من عادة الجن إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يرتطرون بأوساطهم حال فلما كان من الغد مررت تحت القلعة والناس يخرجون ينتظرون ركوب السلطان فوقفنا نظراً إليه معهم فخرج زرار بن علي رحمه الله من القلعة وهو متقلد للسيف وجميع عسكره كذلك فرجة الله على هذا الملك الذي لم يقرط في الانتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بجمل هذه الحالة لما بلغته رجوع نفسه ورد جنده عن عوايدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم في الظن بغير ذلك من السنن ولقد بلغني أنه أمر بأسقاط الفساق في الدعاة على المنابر ورأى أنه لم يوزر بموفق الدين خالدين القيسراني الشاعر في منامه أنه يغسل ثيابه وقص ذلك عليه فكفر ساعة ثم أمر بدكة أسقاط المكوس وقال هذا تنفس منامك وكان في تمجده يقول لرحمت العشار المكاس وبعد أن أبطل ذلك استجعل من الناس في حل وقال والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدو ولا سلام يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم وعلى الجملة كان زرار بن علي رحمه الله فرد في زمانه من بين

سائر المملوك ولولم يكن الاستماعه للوعظة وانه اده لها وان اشتملت على ألفاظ قد أغلظ له فهم فقرأت في تاريخ
أربل لشرف الدين ابن المستوفي رحمه الله قال المنتخب الواعظ هو أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد بن البحري
الواسطي ورد اربل ووعظ بها وكان له قبول عظيم وسافر الى نور الدين محمود بن زنكي من آق سنقر الى الشام لسبب
الغزاة وأنقله نور الدين جملة من مال فلم يقبلها ثم ردها عليه أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدة علمها لي نور الدين
وحلف انه معها من لفظه

شعر

مثل وقوفك أيها الغرور * يوم القيامة والسماء تمور
ان قيل نور الدين رحمت مسلما * فاحذر بأن تبقى ومالك نور
أنهيت عن شرب الخمر وأنت من * كأس المظالم طامخ مخمور
عطلت كأسات المدام تعففا * وعليك كأسات الحرام تدور
ماذا تقول اذا نقلت الى البلى * فرد أوجاءك منكر ونكير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في * يوم الحساب مسحب شحور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في * صيق اللخود موسد مقبور
ووددت انك ما وليت ولاية * برما ولا قال الانام أمير
وبقيت بعد العز هن حفيرة * في عالم الموتى وأنت حفير
وحشرت عريانا خزينا باكيا * فلكا وما لك في الامام مجير
أرضيت ان تحيى وقلبك دارس * عافى الخراب وجسمك المعور
أرضيت ان يحضى سواك بقربه * أبدا وأنت مبعد مسمور
مهذب نفسك حجة تجوبها * يوم المعاد لعلك المعذور

قلت ولعل هذه الايات من أقوى الاسباب المحركة لسلطان في ابطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم رضى الله
عن الواعظ والمتعظ بسببه ووفق من رام الاقتداء به ونقلت من خط صاحب العالم كمال الدين أبي القاسم عمر
ابن أحمد بن هبة الله بن أبي جراد في كتاب تاريخ حلب الذي صنفه وسمعت من لفظه ان نور الدين رحمه الله كان مع
أبيه بحلب فلما حاصره قلعة جعبر وقتل عليها قصد حلب وصعد قلعتها وادعى كفى في شهر ربيع الاول سنة احدى
وأربعين وخمسمائة وأحسن الى الرعية وثبت العدل ورفع الخمر وأبطل البدع واشتغل بالزراعة وفتح قلاع كثيرة
من عمل حلب كانت بيد الفرنج وحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له منهم أبو عبد الله بن رفاع بن
غدير السعدي المصري روى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد وأبي البركات الحسن وأبي منصور
عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي قال ووقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر
ابن صغير القيسراني كتبها الى نور الدين وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور فنقلت جميع ما فيها
قال وكان رحمه الله كتب رقعة يطلب من ابن القيسراني ان يكتب له ضرورة ما يدعي له به على المنابر حتى لا يقول
الخطيب ما ليس فيه ويصونه عن الكذب وعن ما هو مخالف لحاله ونسخة الورقة بخط خالد

أعلى الله قدر المولى في الدارين وبلغه أماله في نفسه وذريته وختم له بالخير في العاحلة والالجلة بمنه وجوده وفضله وجهه
وقب المملوك على الرقة وتضاعف دعاؤه وابتهاله الى الله تعالى بان يرضى عنه وعن والديه وان يسلم له السلوك
الى رضاه والقرب منه والقوز عنده انه على كل شيء قدير رأى المملوك ما عرضه على العلم الأسرف زاد الله شرفا
وهو ان يذكر الخطيب على المنبر اذا أراد الدعاء للولي اللهم صلح عبدك الفقير الى رحمتك الخاضع لحيثك المتعصم
بقولك المجاهد في سبيلك المرباط لاعداء دينك بألقا دم محمود بن زنكي بن آق سنقر باصر أمير المؤمنين فان هذا جيعه
لا يدخله كذب ولا زيادة ولا رأى أعلى وأسنى ان شاء الله تعالى فكتب نور الدين على رأس الرقة بخطه ما هذا صورته
مقصودى ان لا يكذب على المنبر بخلاف كل ما يقال لا أفرح مما لا أعمل قلة عقل عظيم الذى كتب جيداً كتب به
نمى حتى نسيره الى جميع البلاد وكتب في آخر الرقة ثم بدأ بالدعاء اللهم أرح الحق اللهم أسعده اللهم انصره اللهم وفقه

من هذا الجنس قال وحدثنى والذى قال استدعا بابور الدين أنا وعك أبو غانم وشرف الدين بن أبي عصرون الى الميدان الاول وأشهدنا عليه برقب حوائث على سروجس فلما شهدنا عليه التفت الينا وقال بالله انظروا أى شئ علمتموه من أبواب البر والخير دأبنا عليه واثركونا في الواب فقال شرف الدين بن أبي عصرون والله ما ترك المولى شئنا من أبواب البر الا وقد فعله ولم يترك لاحد من بعده فعل خيرا الا وقد سبقه اليه وقال قال لى والذى دخل فى أيام نور الدين الى حلب باجر موسر فأتى بها وخلف به اولد اصغر برا واما كثيرا فكتب بعض من يخلب الى نور الدين بذكر لانه قد مات هاهنا رجل باجر موسر وخلف عشرين ألف دينار ووفوقها اولد ولد عمره عشرين سنين وحسن له ان يرفع المال الى الخزنة الى ان يكبر الصغير يرضى منه بشئ ويمسك الباقي للخزنة فكتب على رقبته أما الميث فرحمه الله وأما الولد فانشاء الله وأما المال فخره الله وأما الساعى فلعمنه الله قال وباغتني هذ الحكاية عن غير نور الدين أيضا وحدثنى الحاج عمر بن سقر عتيق شاذنخت النورى قال سمعت الطرائى شاذنخت الخادم يحكى لنا قال كنت يوما أنا وسقر جوارقين على رأس نور الدين وقد صلبى المقرب وجلس وهو مفكر فكرا عظاما وجعل يكتب بأصبعه فى الارض فتعجبنا من فكره وقلنا ترى فى أى شئ يفكر فى عائلته أوفى وفاء دينه فكانه كان ينافق رأسه وقال مات قران فقلنا ما قلنا شاذنخت فقال بىناى قولالى قلنا ما عجبنا من افراط مولانا فى الفكر وقلنا يفكر فى عائلته أوفى بنفسه فقال والله اننى أفكر فى وال ولينه أمر من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم أو فمى بظلم المسلمين من أصحابى وأعوانى وأخاف المطالبة بذلك فبالله عليكم والاخبرى عليكم حرام لا زبان عمة ترفع الى أو تعلمان عظمة الا وأعلمانى بها وأرفعاها الى

وسمعت قاضى القضاة بها الدين أبنا المحاسن يوسف بن رافع بن عيم قال كان نور الدين ينفذ كل سنة فى شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الماشينا بفطر عليه فكان ينفذ اليه الا يكاس فيها الفتيت والراقى وغير ذلك فكان نور الدين يفطر عليه وكان اذا قدم الموصل لا يأكل الا من طعمام الشيخ عمر الماشي وكان نور الدين لماصارت له الموصل قد أمر كسبتكين شحنة الموصل ان لا يعمل شئ الا بالشرع اذا أمر القاضى به وان لا يعمل القاضى والنواب كلهم شينا الا بأمر الشيخ عمر الماشي قال وكان لا يعمل بالسياسة وبطلت الشحنة فى كبار الدولة وقالوا لكسبتكين قد كثر العذر وارباب الفساد ولا يبيى من هذائى الا بالقتل والصلب فلو كتبت الى نور الدين وقلت لى فى ذلك فقال لهم أنا لا أكتب اليه فى هذ المعنى ولا أجسر على ذلك فقولوا للشيخ عمر بكتب اليه خفض واعذره وذكروا له ذلك فكتب الى نور الدين وقال له ان الدعار والمفسدين وقذاع الطريق قد كثر ووا يحتاج الى نوع سياسة فقتل هذا لا يبيى الا بقتل وصلب ودرنرب واذا أخذ مال انسان فى البرية من يبيى ينهده قال فطلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره ان الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم وان مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ولو علم ان على انشر بعة زائدة فى المصلحة لشرعه لمانا حاجة الى زيادة على ما شرعه الله تعالى قال فجمع الشيخ عمر الماشي الموصل وأفرأهم الكتاب وقال انظر واى كتاب الزاهد الى الملك وكتاب الملك الى الزاهد وسمعت صقر بن يحيى بن صقر المحدث يقول سمعت مقلدا لى يقول لما مات الحافظ المرادى وكما جماعة الفقهاء قسمين العرب والاكراد فثمان من مال الى المذهب وأردنا ان نستدعى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وكان بالموصل ومنام مال الى علم الاظر والخلاف وأراد ان يستدعى القطب النيدابورى وكان قد جاء وزار البيت المقدس ثم عاد الى بلاد الحزم فوقع بيننا كلام بسبب ذلك وودعت قننة بين الفقهاء فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء الى القلعة فجلب وخرج اليهم مجد الدين يعنى ابن الداية عن لسانه وقال لهم نحن ما أردنا بيننا المدارس الا نسر العلم ودحض البدع من هذه البلدة واظهار الدين وهذا الذى جرى بينكم لا يحسن ولا يلبق وقد قال المولى نور الدين نحن نرضى الطائفتين ونستدعى شرف الدين بن أبي عصرون وقطب الدين النيسابورى فاستدعاهما جميعا وولى مدرسة ابن أبي عصرون لشرف الدين ومدرسة النفرى قطب الدين قال وعلقت أسما من خط فقهه كان معيدا بالنظامية يقال له أبو الفتح بغيبة بن أبي الحسن بن بغيبة الاشرى وكان من ورد دمشق وجع لنور الدين سيرة مختصرة قال كان نور الدين يعقد فى الاسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام فى دار العدل للنظر فى أمور الرعية وكشف الظلامة لا يطلب بذلك درهما ولا دينارا ولا زيادة ترجع الى خزائنه وانما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ومطلب الثواب والرضى فى الآخرة

وبأمر بحضور العلماء والفقهاء وبأمر بإزالة الحاجب والبراب حتى يصل اليه الضعيف والفوق والنفير والغنى
ويكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم ما بلغ النشأ حتى لا يضيع مع الغنى في دفع النفير بالمال ولا الفوق في دفع
الضعيف بالقال ويحضر في مجلسه الخبز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى حضنها ولا المكاة معه فيأمر
بمسأوته لها غلب خبزها طمعا في عدله ويجز الخضم عن دفعها خوفا من عدله فيظهر الحق عنده فيجزي الله تعالى
على لسانه ما عو موافق الشريرة ويسأل العلماء والفقهاء عما يسكل عليهم من الأمور العاضة فلا يجزي في مجلسه إلا
محض الشريرة ذنبا وأمانا فهو مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور العبد وشدة عليهم وأما فكره ففي
إظهار شعار الإسلام وتأسيس قاعدة أئدين من بناء المدارس والربط والمسا - حتى إن بلادنا ما كانت خالية من العلم
وأهلها وفي زمانه صارت مغز العلماء والفقهاء والسوفية تصرف همه إلى بناء المدارس والربط ورب أمورهم والناس
أمنون على أموالهم وأنفسهم ولو لا يكن من هذا الخصال إلا ما عظم منه وسأخ إن ادأ وعدوني رادأ أوعد عما وأأخذت
بشيء وقف عليه ولا يتخلف توله ولا يرجع عن أفقه ومنه لسكر ولا يجزي في مجلسه الفوق والنفير والغنى
والقدح في الناس والكلام في أعراسهم كما يجزي في جناس سائر الملوك ولا يضيع في أخذ أموال الناس ولا يرضى بأن
يأخذ أحد من أموال السريعة شيئا يعبر حتى قال وبلغنا بأخبار النواز عن جماعة يعتمد على قوتهم أبدأ كثر اللبال إلى
ويناجي ربه مقبلا بوجهه عليه ويؤذي الصلوات الخمس في أوقاتها يتأثم شرائها أو ركنها وركوعها وسجودها قال
وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم من دخالوا بارأ القدس الزنار حكاية عن الكثرانهم يدعوون
ابن القسم لمع الله سره فانه ما يظفر عليه ناكبة جنده وعسكره وانما يظفر عليه بالبدعاء وصلاح الليل فانه يصلي بالليل
و يرفع يد إلى الله ويدعو فانه سبحانه وتعالى يستجيب له دعاءه ويعطيه سؤاله وما يريده خائبة فظفر عليه قال
فهذا كلام الكفار في حقه قال وحدثنا الشيخ داود الملقب بذي خادم قبر شعيب على نيلنا وعليه أفضل الصلاة والسلام
قال حضر في دار العدل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسة مائة رجل وأدعى على الملك العادل أن أباه أحد من
ماله شيئا بغير حق قال وأنا ما ألب لك ذلك فقال: والدين أباه أعلم ذلك فإن كان ذلك بينة تشهد بذلك فيأتيها وأنا أرى
اليك ما يخصني فإني ما رتب جميع ماله كان هناك وارث غيري فيسبى الرجل يحضر البيعة فمات في نفسى هذا
العدل قال وحضر رجل زاعده في حجة الخير معروف بالصلاح والسادد سألت عنه فقالوا أخو الشيخ أبي البان
وكان قد أودع عند أخيه أبي البان ودعوه وتوفي فادعى المردع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة وطالبه بالرد عليه
فأنكر ذلك الرجل عنه بالوديعة فأوجب عليه الفاسد كمال الدين حكم الشرع أن يحلف أنه لا علم له بهذه الوديعة
فحلف على ذلك فجعل المودع بشع عليه ويقول أنا حالف كذا بآية كما في عرضه ويقول في حقه من التمس
وغيره فحضر عند الملك العادل ساكنة هوذا كاسبرته وطريقته ومن الذي يقدر أن يقول في حق هذا وبه عرض
بالتماسه من الملك العادل والتمه بآية حاضره والانتكار عليه فيما يقول في حقه فما فرغ من الكلام ورى ما كان
في جعبته من دعوى الحقيقة والظرفية وكان خاضع للناس الانتكار عليه فقال الملك العادل أليس إن الله تعالى
يقول في كتابه إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما فإذا كان هو يجهل عليك ويقول في حقك بالجهل ما لا يجوز
فيجب عليك أن لا تجعل معه مثل معاملته فكون مثله فكانت فالت بالاساءة بالاساءة من حقك أن تقابل الاساءة
بالإحسان فقلت في نفسي الحق ما نال الملك العادل أمثاقه هذا في كتب التفسير فثبت في قلبه وأجرا الله على
لسانه وأنطق به قال وحضر جماعة من القادرين وشكروا القادرين كان ستمون منها بدينار وتزبد وتنقص فيهم سرون
فسأل الملك العادل عن كيفية الحسان فذكروا أن عقد العالم له على اسم الدينار ولا يرى الدينار في الوسط وانما
يعدون القراطيس بالسعر تارة ستمين بدينار وتارة تسبعة وستين بدينار وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين
أن يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدينار الملكية وتبطل القراطيس بالكلية فسكت ساعة وقال إذا ضربت
الدينار وبطلت المعاملة بالقراطيس فكأن في خير بيوت الرعية فإن كل واحد من السوق عنده عشرة آلاف
وعشرون ألف قرطاس أي شيء يعمل به فيكون سببا لخراب بيته قال فأى سقفة تكون أعظم وأكبر من هذا على
الرعية قال وحضر صبي وبكا عند الملك العادل وذكر أن أباه محبوبس على أجرة حجرة من حجر الوصف فسأل عن حاله

فقالوا هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي وهو رجل زاهد قاعد في ججرة لا وقف وليس له قدر على الاجرة وقد حبسه وكيل الوصف لانه اجتمع عليه أجرة. فسال الملك العادل كم أجرة السنة فقالوا مائة وخمسون قرطاسا وذكروا سيرته وطريقته وفقره ودفقه له وأنعم عليه وقال نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليسرفه الى الاجرة وقد فعلنا ما تقدم بذلك وبأخراجه من الجنس فوصل الى قبال كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الانعام كان في حقه أخبرنا ابن خوارزمي عن المفضل الحائمي قال كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن التيمان الكركي فاذني حلب غلام قد جعل المجلس الحكم يدعي سوره يحضر المصنوم الى مجلس الحكم فحضر بعض التجار واذني ان له على نور الدين دعوى فقال الكركي لسو يد المذكور امض الى نور الدين وادعه الى مجلس الحكم وعرفه انه حضر شخص يطلب حضوره وكان نور الدين في الميدان فجاءه سويد الى باب الميدان فخرج اسماعيل الخزندار فوجده مقدم سوره اليه وقال سير في تاج الدين يعني القاضي وذكر انه حضر ناجر وذكر ان له دعوى على المولى نور الدين وتقدم اذني تاج الدين وقال لي كذا وكذا فاجاب اسماعيل الخزندار ودخل على نور الدين ضاحكا وقال له مسهر نأية قوم المولى فقال الى أين فقال حضر سويد غلام تاج الدين الكركي وقال ان تاج الدين أرسله يطلب المولى الى مجلس الحكم فأنكر نور الدين على اسماعيل استنزهه وقال تسترئى بطلبي الى مجلس الحكم وقال نور الدين يحضر فرسي حتى تركب اليه السمع والطاعة قال الله تعالى انما كن قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا وأطعنا ثم منهم من ركب حتى دخل باب المدينة فاستدعى سويد ارنال له امض الى القاضي تاج الدين وسلم عليه رقل له انني جئت الى هذه المدينة الا امر المخرج واجتاج في الحضور الى الله الى سائر هذه الازقة وفيها الايمان وهذا وكيلي بسمع الدعوى وان توجبت غيري فاحضر ان شاء الله تعالى قال فحضر الوكيل وسمع الدعوى ونزجت اليه فقال الكركي في وجهه اليه بل حضر فلما بلغ نور الدين ذلك وعلم انه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليين استدعى ذلك الساجر وأسلخ الامر فيما بينه وبينه وأرضاه وسعت فادى العضاضاء الذين يقولون حتى الى السلطان الناصر صلاح الدين قال أرسلاني الى الملك العادل نور الدين الى عبي أسد الدين بن كوكه وكان لا يفعل شيئا الا بشورته فقال امض وتل لاسد الدين قد كنت ارفى الي ان ابطال هذه الضمانات بأسرها والمؤمن والمكوس واخذ رثته في ذلك قال فحلت اليه وأنشيت ما نال لي فقال امض وتل له يا ملا ناد افعلت ذلك فالاجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم وتحتاج اليهم للقرابة ونحوه العساكر الى السلطان صلاح الدين فقلت يا عبي أسد امر تداء لهم الله اياهم فاعده عليه ففاجبه وقال امض اليه رقل انما أقول لك قال فعدت الى نور الدين فانشيت اليه ما قال عبي فقال امض اليه رقل له اما انتم من هذا الجانب تذكروا فاعادوا لالتحرف قال فعدت الى عبي وأسدت ما نال فقال قل له ان تراكول تعقد بغيره فراجعه من ان لا يظلم عبي أسد فقال في وقال امض اليه دخل له ما نال لك فحلت اليه وقلت له ذلك فقل ذلك مدة ثم أمدي ما من عزم عليه قال لي فحضر من يحيى بلغني ان موقف الدين خالد ارأى في الزوم كان نور الدين دفع اليه ثيابه لبعه او افقر مناه على الزمان ففزع وجه نور الدين فقبل مرفق الدين وبقى أباما على غاية من الجذل فاستدعاه يوما نور الدين وقال تعالى قد آن لك ان تغسل ثيابي أقعدوا كتب الملاق والمؤمن والمكوس والاعشاروا كتب المسلمين الى تار فعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم وأثبت عليكم ما أثبته الله عليكم قال فكاتب موقف الدين زعماء سمعت خليفته ابن التيمان بن خليفة الفقيه يقول سمعت أبي يقول لما كسر نور الدين يعني كسرة البقيعة تكلم البرهان البلخي فقال أريدون ان تسمعوا وافي عنكم كم الجور والطير والزهو وكلا وكلا ما مع هذا ائنا سمعنا نور الدين فام ونزع عنه ثيابه ذلك وعادها الله تعالى على التربة ونزع في ابطال المكوس الى ان خرج في نوبة حارم وكسر الاقرنج سمعت صديقنا شمس الدين اسماعيل بن سرديكين بن عبد الله النوري وكان ابوه أحد عماليك نور الدين فاعتقه بقر سمعت والدي يقول كان زرار الدين محمود رجه الله بليس في الليل مسجوا يقوم يصلي فيه فتعقنه من الليل قال وكان برقيديده الى السماء ويكي ويتضرع ويقول ارحم العشار المكاس قال لي القاضي القضاة بها الدين سير نور الدين الى بغداد كتابا يعلم الخليفة بما اطلق وبتقدم اطلق ويسأل ان بتقدم الى الوعاظ بأن يستجروا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل بما كان قد وصل اليه يعني من أموالهم فتقدم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك حدثني رضي الدين

كتاب (١٦) الروضتين

أبوسالم عبد المنعم بن المنذر بن نور الدين حين خرج لأخذ شبيه رخرج أبونا غنم المنذر محبته فأمره نور الدين بكاتبه منشور باطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحران وسنجار والرحبة وعزاز وتل بآشر وعداد العرب فكتب عنه توبة عانسخته

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقرب به الى الله سبحانه وتعالى صالحا وأطلقه مسامحا لمن علم ضعفه من الرعايا راعاهم الله لضعفهم عن عمارته أخرته أيدى الكفار بأبادهم الله عند استيلائهم على البلاد وظهور كبتهم في العباد رافة بالمسلمين المأغرين ولطفابا للضعفاء المرابطين الذين خصهم الله سبحانه بفضله الجهاد واستمجنهم بمجاورة أهل العناد اختبار الصبرهم واعظاما لاجزهم فصرر واحسابا وأجل الله لهم أجرا وثوبا أنما يوفى الصابرون أجورهم بغير حساب وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العربية وأقرهم في الدولة الاسلاميه بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاحين فطمس عنهم بذلك معالم الجور وهدم أركان التعدي وأقر الحق مقررة لقوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء ثم أمانه الله بعونه وأيده بنصره وقبعه عاديه الكفر وأظهر بهجته شعائر الاسلام وأظفره بالفتنة الطاغية وأمكته من ملوكها الباغية فجعلهم بين قتل غير مفاد وهارب بمنوع الرقاد وآخرين مقرنين في الأصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو وامسك بغير حساب وان له عندنا الزلزال وحسن مأب علم ان الدنيا فانية فاستخدمها لآخره الباقية واستبقى ملكه الزائل بأن قدمه أمامه وجعله ذخرا للمعاد فالنقى مادة داره اذا انقطعت المواد وجاءه وانجبه حين يلبس الجواد يوم لا تلك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله فصح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه وحرّمها على كل متناول اليها ومتفاته عليها تحجبها لأنّها واكتسابا للثواب فكان مبلغ ما سماحه واطلقه وأنفذ الامر فيه إجماعا لكاتب الله وسنة نبه محمد صلى الله عليه وسلم في كل سنة من العين مائة ألف وسنة وخمسون ألف دينار جرحه ذلك حلب خمسون ألف دينار عزاز عن مكس جددته الف درهم خذ لهم الله على المسافرين عشرة آلاف دينار قل بآشر أحد وعشرين ألف دينار المعرة ثلاثة آلاف دينار دمشق المحروسة لما استجده أهلها واستصرخ من فيها خوفا على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدو وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل سنة وهو رسم يسمونه الفهم عشرون ألف دينار حص ستة وعشرين ألف دينار حران خمسة آلاف دينار سنجار ألف الرحبة عشرة آلاف دينار عداد العرب عشرة آلاف دينار وما وقفه وتصدق به وأجرأ في سبل الخيرات ووجوه البر والصدقات تقدر ثمنه مائتا ألف دينار وتقدير الحاصل من ارتقاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار من ذلك ما وقفه على المدارس الخفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأتممها ومدّسها ووقفها ثم ما وقفه على دور الصرفية والربط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والاسوار وما وقفه على السبيل في طريق الحجاز وما وقفه على فكاك الأسرى وتعليم الأيتام ومقر الغربا وفقراء المسلمين وما وقفه على الأشراف والملوك والعباسيين وما ملكه لجماعة من الأولياء والقراف والمجاهدين هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الغور حرم الله تعالى من أملاكهم التي تقدّم ذكرها فإنه يضاهي هذا المبلغ زيادة عليه جعل ذلك ذريعة عند الله وتقربا إليه مضاعفا الى ما أنفق في انخراة والجهاد واستتصال شافة أهل الكفر والعناد من خزائنه المعمورة وأمواله الموروثة المذخورة طلبا لما عند الله والله عنده حسن الثواب فالواجب على كل امام عدل وسلطان قادر ان يمدّه ويؤدّه ويشدّ عضده ويقوّ عزمه وينفذ حكمه وعلى كل مسلم ان يواصله بالدعاء أثناء الليل وأطراف النهار كتبه خادم دولته وغذى نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان بن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي غفر الله له وورحه ورضي عنه الى كل من يصل اليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين وأصحاب الزوايا المتعبدين وكافة التجار والمسافرين أحسن الله توفيقهم وسدّد الى اغراض الخير تفويهم لبشعروا بذلك من حضرهم من التجار والمتردّين اليهم من السفار ليعرفوا قدر ما أنعم الله به عليه وعلمهم ولينذروا قومهم ان ارجعوا اليهم وعمدوا بأديعتهم وبيروا ذنوبهم مما سبق من أخذ مؤنتهم فانه لم يصرف ذلك الا في خدمة وجبر وتجهيز جيش ومعونة مجاهد وردع كافر ومعاند فهم شركاؤه في الثواب

في أخبار (١٧) الدولتين

قال في رضي الدين أبو سالم بن المنذر فلما وقف نور الدين على قوله وبيرثني عنه مما سبق استحسنت ذلك كثيرا ووعده باقاع حسن واتفق موته بعد ذلك قلت ونقلت من خط الشيخ الأمين أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين ابن الخضراء بن الحسين بن عبدان الأزدي الدمشقي وقف المولى نور الدين بنستان الميدان سوى القبيضة التي من قبليه بمعد عمارته وأصلاح ما يحتاج إليه على تطبيق المساجد التي يأتي ذكرها وهي جامع دمشق المحروسة جامع قلعة دمشق مدرسة الخنفة التي جدها نور الدين مسجد ابن عطية داخل باب الجابية مسجد بن لبيد بالقفسار مسجد سوق الرماحين المسجد المعلق بسوق انصافه مسجد دار الباطح المعق مسجد العباسي بسوق الاحد مسجد نور الدين بجوار بركة اليهود جامع الصالحين بحبل قاسيون يتبع ذلك عرد وطيب وبه ترق على هذه الاماكن النصف للجامع بدمشق والنصف الثاني يقسم على احدى عشر جزءا لدرسة وتسعة أجزاء لتسعة المساجد الباقية لكل مسجد جزء واحد انطبقت هذه الاماكن في الاوقات الشريفة ومواسم الاجتماعات وليالي شهر رمضان والاعباد وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع وليالي الجمعة والخمس والاثني ونقلت من خطه أيضا ان نور الدين رحمه الله حضر عند قلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر ربيع سنة أربع وستمائة الفاضل زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي والفقهاء الشيخ شرف الدين بن أبي عصر ون والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد والامام عز الدين أبو القاسم علي بن الماسح الشافعيون وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكي وشرف الاسلام نجم الدين عبد الوهاب الحنبلي ورضي الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد التيمي رئيس دمشق ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضام تولى الوزارة بدمشق والاعيان من شهود العدالة بدمشق وهم عبد الصمد بن قمع وعبد الواحد بن هلال والصائش أبو الحسن وغيرهم فسأهم نور الدين عن المضاف الى أوفاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وتفاعله وان يظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به ويقع الاعتماد عليه وقال لهم ليس يجوز لاحد منكم ان يعلم من ذلك شيئا الا وكره ولا ينكر شيئا مما يقوله غيره الا ويكره والسالك منكم مصدق لما نطق ومضروب لقوله وليس العمل الاعلى ما تتفقون عليه وتشهدون به وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتساورون في مصالح المسلمين فكل من الحاضر ينسب على ما قصده وأثنى عليه ودعاه بالبقاء ثم أمر نور الدين تولى أوفاف الجامع والمساجد والبيمارسان وفي السبيل وما يجري مع ذلك ان يقرأ عليه بمحض من المذكور بن ضريبة الأوفاف موضع عامون خالين من المعلوم ان المصالح دون الوقف فانتم بالسوق المستجدة تحت المأذنة الغربية بجوار البيمارسان فغال الصائش وابن تميم وابن هلال هذا السوق بكمله لمصالح المسلمين وليس من وقف الجامع لانه أحدث في طريق المسلمين وقد عرف في الجامع من أجوره وفي مما غرم على عمارته من وقفه فصدقههم الحاضر ون على مناهدوا وبمبلغ ذلك خمس وعشرون عصابة ثم عين للمصالح أيضا ما في زيادة الجامع القبلية وزيادة باب البردي في الصف القبلي والشامي من العنائد والخوانيت والجر التي طباقها وطباق الطريق بحضرتها وجميع بيوت الحضرة من باب الجامع والقرن المستجدة ودار الخيل والمساكن والخوانيت المجاورة لدار الخيل وحائوت الخواصين في الصف الغربي وناظر حائوت مناصقات في الصف الشرقي تعرف بالعمصيات ونصف حائوت والفرجة المستجدة بحضرة دار الوكالة الى سوق على وعدتها ثلاثة عشر حائوت ومصطبة وثلاث حوائت في الصف الشامي من سوق على ملصق الفرجة من شرقها وحائوت بالقفسار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفقاع وحوائت البادين والتي يحضر القرارة وتحت البادين ويسارية العقبة بسوق الاحد وتعرف بدار الشجرة وحائوتان في الصف الشرقي بمحضرة فسند الزيت من غرب درب التمارين وحائوت بقنطرة السعابين في الصف الشامي بمحضرة البيطرة وقنطرة بجوار المأمونية من غربها والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الاحد وهي خمس عشرة عصابة وستة أسهم من طاحونة السقفة وذلك كله بعضه ميراث عن بني أمة كالخضراء ودار الخيل وبعضه اشترى بمال الوقف والمصالح وبعضه أخذ من ياداه الموقوف عليهم ولم يكن له مال وبعضه أحدث في الطريق فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكره من منافع ذلك وأجوره جار يلقى المصالح قال نور الدين ان أهم المصالح حسنة تغور المسلمين وبناء السور المحيط بدمشق والحدائق لصيانة المسلمين وحرهم وأمواهم فصوروا ما أشار إليه وشكره ثم

كتاب (١٨) الروضتين

سأله عن فواضل الاوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الاسوار وعمل الخندق للصلحة المتوجهة للمسلمين فأفتى شرف الدين عبد الوهاب المالكي بجواز ذلك ومنهم من روى في مهلة النظر وقال الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون الشافعي لا يجوز ان يصرف وقف مسجد الى غيره ولا وقف معين لجهة الى جهة غير تلك الجهة واذا لم يكن بضمن ذلك فليس طريقة الا ان يقتصره من اليه الامر في بيت مال المسلمين فيصرف في المصالح ويكون القضاء واجبا من بيت المال فراقبه الائمة الحاضر ومن معه على ذلك ثم سأله ابى عصرون نور الدين هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء الكلاسة من شام الجاهع وعلى انشاء السقف المقرن تحت النسر بالجامع وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامي من الجامع وسائر الممارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير اذن مولانا وهل كان الامبلغ للامر العالي في عمل ذلك فقال نور الدين لم ينفق ذلك ولا شيء منه الا باذن وأنا أمرت به وفتح المسجدين من الجامع المعمور اللذين كانا مخزينين وكتب مبلغا عني ومؤدى أمرى قلت وقد رأيت المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس وهو مشتمل على فوائد حسنة وتأكيلا نقل من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أواخر الشرع وفي ذلك المحضر خطوط لجامعة الحاضرين وصورة ما كتبه المالكي المفتي (حضرت المجلس المذكور عمره ثمانون سنة بالعدل أداما عاش صاحبه وشهدت على ما تضمنه من المشورة المباركة وما نسب الى الجامعة من الشهادة بالمرافع المشهورة كما نسب اليهم وقد أخل بذكر دار الحجارة وقد ذكرها في المصالح المشهورة وما نسب الى من التفتوى فقد كنت قيده بالجامعة وقرأت بيت المال أضعفه عن القيام بما يحتاج اليه المسلمون ومهامهم اندينية كتبه عبد الوهاب بن عيسى بن محمد المالكي)

(فصل) وقد مدح نور الدين رحمه الله تعالى بأشعار كثيرة أو عاها فوق ما مدح به وكان في أول دولته شاعرا زمانها أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير وأبو الحسن أحمد بن منير ولهما فيه أشعار فائقة سيأتي جملة منها في مواضعها وقد رأيت ان أقدم منها شيئا هنا قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسري (كتب الى نور الدين سلام الله وحنانه ورأفته وامتنانه ووجهه وريحانه على من عصم بعض العواصم وخضع بحجته الدهر المخاض والجهم بينه العائب والواجم الذي انتضى في سبيل الله سيف الجهاد وارتضى بعز سلطانه شعار العباد والزهاد واهتدى الى طاعة الله وليس غير الله من هاد ومن أعجبت أطراف البلاد وأوطاد الملكة ومعاقب الكفار في عقاب ملكته ومركز السكر مر أكثر أعلامه وألويته ومن عادت به نغور النام ضاحكة عن نغور النصر ومالك الاسلام متوجة بتيجان النصر وصعاب الامور منقادة اليه بازمة القهر ومن رأى الحكم دراسة فبنى مدارسها وألهم باسطة فسق منابتها ومغارسها والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها وفارسها ومن عمر ربع السن بعد ما عفى وأقدم من الفز من كان منها على شفا ومن نشر اعلام الفضل وأنشر بعد الوفاة أيام العدل ومن أبار برجه الايمان وأخذ الناس به من الزمان توقيع الامان شجر ذوالجهادين من عدو ونفس * فهو طول الحياة في هيحاء
فهو المالك الذي ألزم الناس * سألوك المحجة البيضاء
قد هديت الملوكة للعدل لما * سرت في الناس سيرة الخلفاء
فاسما ما ملكت في الناس حتى * لقسمت النقي على اتقاء
تسم الصالحين في جبر الترك * وكمن سكينتي في قباء
أنت حمة ناقص بالاسد الورد * وحينما تعد في الاولياء
صاغ الله من صميم المعالي * حيث لا نسبة سوى الالاء
وكان القباء منك لما ضم * من الطهر مسجد بقاء
أنت الا تسكن نبياها فأنك * الاخلاق لائق الانبياء
رأفة في شهامة وعفاف * في اقتدار وسطوة في حياء
وجال بمنطق بحلال * وكمال متوج بهاء
واذا ما الملوكة خافت سهامك * ذم زرت عليك درع الثناء
أعجب الناس منك انك في الحر * بشهاب الكتيبة الشهباء

في أخبار (١٩) الدولتين

وكان السيوف من عزمك الما * ضى أفادت ما عندها من مضاه
ولعمري لو استطاع فذل ال * قوم بالامهات والأباء

وله فيه سـ

لله عزمك أي سيف ونخي * طبعت مضارب به على القهر
ما زفت الحرب العوان به * الانجلت عن معقل بكر
هل وجه نور الدين غير سنى * صدع الدجى عن نخله البدر
ملك مهابته طليعة * أبدا أمام جموشه تسرى
كم قل كيدهم بصاعقة * شعلت قلوبهم عن الفذكر
تركت حصونهم سجونهم * فالقوم قبل الاسرى أسر
عصم العواصم فهي ضاحكة * فحياو الطي ثغرا على الثغر
فاذا سرا ياخي لـ قتلت * نهضت سرايا الخوف والذعر
ورمى القلاع بمنل جندها * حتى استكان الصخر بالصخر
ياسا إلى عن نهج سـيرته * هل غير مفرق هامة الفجر
عال حقيق من تأمله * ان يحى العرين بالذكر
وشهامة في الله خالصة * عمدت عليه تمام الاجر
وندى بدماض واردةها * ان لا يبيت مجاور البحر
هذا الخيم في ذرى حلب * وثناؤه أبدا على ظهر

وله فيه وقد وصف داره

دار تغار الشمس في أفق * من حسنوا الشمس مغير
يزأرقها ضـيغ ماله * غير سيوف الهند أنظار
تمسى وتحنى وهو جارها * والله ذوالعرش له جار
لسيفه الباتر من دهره ال * بجائر ما بهوى ويختار
قد ملأ الاسفار من ذكره * نسرله في الارض إسفار
جديضوخ الجؤم طيبه * كأنما راويه عنابر
ان خطرت في قلبه خطرة * أجا بها ماض وخطار
وان دعا داعيه يوم الوغى * سـيوفه لبته أقدار
وانما صارمه من سـل * له من التأييد أنصار
يا مالك الدنيا ولكنها * دنيا لها في الدين آثار
ويا جوادا ما لا لـ * غير قضاء الحمد مضمار

وله فيه أيضا

تدارك مله العـربى ذبا * الى ان عده منه معد
وحل ذرى العواصم وهي نـمى * فأجلى الشـرك حتى ليس ضد
ثني يده عن الدنيا عفا * ومال بها عن الاموال زهد
رأى حظ المكوس عن الرعايا * فأهدر قبل ما أنشأ بعد
ومد لها رواق العدل شرعا * وقطوى الرواق ومن بعد
وبات وعند باب العرش منها * لدولته دعاء لا يرد

وله فيه

في أخبار (٢٠) الدولتين

ملك أنسبه الملايك فضلًا * وشيئه بمالك الامر جنده
عم احسانه فأصبح على * شكر في الوري ويدرس جده
فسيق الله ذكره أنما حله * لولا فاته من النصر رفته
وله فيه

خجكت تبشير الصباح كأنها * قسما نور الدين خير الناس
المشترى العقبى بأنفس ذمته * والبائع الدنيا بغير مكاس
وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه * ان الدعاء يعد في الخراس
راض الخطوب الصم بعد جاحها * وألن من قلب الزمان القاسي
وأعاد نور الحق في مسكاته * وأقام وزن العدل بالقسطاس
واختار مجد الدين سائس ماله * خفي السياسة منه طود راسي
فهو الخبير بكل داء معضل * بأس وجراح زماننا ويواسي
وأذل سلطان النفاق بعزة * خضعت لها الأساد في الاخياس
وعرته أقران الخطوب فصدها * ألوي يارسها أسد مراس
ولوان فيض النيل فأنض نيله * لم تفتقر مصر الى مقياس
سكنت شعب الدهر بعد تحيط * وألنت من عطفه بعد شماس
وفتحت باب الحظ بعد راجه * وأذنت للاطماع بعد الياس
حتى منحت الخلق كل مسرة * فالناس في عرس من الاعراس

وله فيه

سام السام ويا لها من صفقه * لولاه ما عنت على يد سائم
ولسمرت عنها الثغور وأصبحت * فيها العواصم وهي غير عوامم
نلك التي جمحت على من راضها * ودعوت فانقادت بغير شكائم
واذا سعادتك اجتبت في دولة * فام الزمان لها مقام الخدام
حمن بلادك هيبة لارهوة * فالدرع من عدد السباع الحازم
هيبات بطمع في محلك طامع * طال البناء على عين الهادم
كلقت همتهن السموات خلقت * فكأنما هي دعوة في ظالم
وأظن ان الناس لما لم يروا * عدلا كعدلك ارجفوا بالقائم

وله فيه

قلت يقول الله لا تخافا * مع حكم القرآن حكم القرآن
لاراقب النجم ولا سائلا * ما فعل السعدان والنيران
بل غرت للاسلام حتى لقد * دان له من بالطواغيت دان
رعت نوايس نواقيسها * بجلبة الاذان وقت الاذان
تمحو تصاور الدي عن يد * تبني المحارب خلال الجمان
هذا وكم أنشأت من منبر * فارسه فارس سحر البيان
من نال بالاخلاص ماننته * كان من الله مكين المكان
ياشأما بالشام صوب الحيا * ودانبا من كل فاص ودان
هذى سجوف الملك مرفوعة * عن ملك أخباره كالعيان
أوضح سبل العدل مفتنة * فلا يرايا بالدعاء افتنان

كتاب (٢١) الروضتين

ألغى حقوقها باطل * الى مال حط مال الضمان
عظما ورفقا بالاعيا وان * أصبح تأديب ملوك الزمان
كم بين من نام على نشوة * وشاهد في صهوة من حصان
في كل يوم ينثى سيفه * ببلدة بكر وأخرى عوان
وقرأت في ديوان أحمد بن منير الطرابلسي من قصائد مدح بها نور الدين رحمه الله تعالى

يا محبي العبدل ويا منشره * من بين اطباء البلي وقد هدد
وركن الاسلام الذي ووطده * طال وارسي العزفيه ووطد
وشارع المعروف ادلاسه * بجحج للقول ولا تسمع يد
محوت ما أثبتته الجور مضى * عليه اخلاذ الليال مخلد
من كل مكاس يظل قاعدا * لما يسوء المسلمين بالرصد
كانت لارجاس اليهود دولة * أزالتها منك المحصور ذواليد
الملك العادل لفظ طابق الـ * معنى وفي الوصف معار مسيرد
خير النعوت ما جرى الوصف على * صحنته جرى النسيم في الومد
عدل جنيت اليوم حاور به * وسوف يجني لك أحلى منه غد
لا زال للاسلام منسك عدة * يقيم منه كل زيف وأود
الناس أنت والملوك سطر * تعد لبنا وبعدون نقد
مؤلك لا يسخو به زمانه * ومثل ما أوتيت لم يؤت أحد
وله فيه أيضا

أيا نوردين خبنا نوره * ومذشاع عدلك فيه اتقد
رأك الصليب صليب القناة * أمين العثار متين العمدة
تم فتسلبه ما أقتنى * وتبدى فتمسكه ما احتشد
زنتهم أمس عن صرخد * فغضوا كأن نعما شرد
ويوم العزيمة أقبلتمهم * عراما يتغلب منه الاسد
حبست ملكهم في الصفاد * وعقولك عنمه أعم الصفد
وقبل ارتهم في الرها * موازق من قن جرد الجرد
بقيت ترقع خرق الزما * ن قياما لا ينهائه ان قعد
تنقف من زيفه ما التوى * وتصلح من طبعه ما فسد
وله فيه

أيامك الدنيا الحلال والذى * له الارض دار والبرية أعبد
وليس بدعوى لا يقوم دليلها * ولكنه الحق الذي ليس يجحد
أخوال الغزوات كالهقود تناسقت * نحل باجساد الجياد وتعقد
لسان بذكر الله بكسو نهاره * بهاء وجفن في الدجى ليس يرقد
وبذل وعدل أغرقا وتألقا * فلا الورد محمود ولا الباب موصد
مرام سمائي وحزم مستدد * ورأي شهابي وعزم مؤيد
وله فيه

أبدا منك عن ضلال سادرا * بثقوب زندك أوتدل على هذا
سدت الكهول من الملوك مراهقا * وشاؤت شبيهم البوازل أمردا

كتاب (٢٢) الروضتين

ان شيدوا صرحا أناف مناره * أو يسجدوا للكالس جدد مسجدا
واذا استهزتهم فلا تد معبد * هزته موعظة فعزف معبدا
قمبا بشام الشام منك مهندا * أرضاه مشهورا وراع مقلدا
وتسك الاسلام منك بعروة * الله أبرم جميلها فافاسم مجدا
أشفي فكنت شفاء من حادث * غاداه عارضه مردى بالردا
كنت الصباح ليلته لما دجى * والعتوث كف لئلا حين نوقدا
لله يوم؛ أطلعك به النوى * يحتاب من مهج الا صافر مجدا
نشوان غنتك الظي مغالوة * وأمال عطفيك الوشيع قصدا
في معرك ما قام بأسك دونه * الأقام المشركين وأقعدا
ولكم مكثرة فيه معلما * أرضى الهك والمسح وأجدا
يوم العريكة والخطيم وحارم وشعاب ياسوطا وهاب وصرخدا
لا يعدم الأسراك جدك انه * ما دسل فيهم حاكما الا اعتدا
أهدتهم من بعد ما ملأ والملا * زجلا فهل كانت سيوفك مرقد
طلعت نجوم الحق من آفاقها * وأعادها كز العصور كابد
وهوى الصليب وخزبه وتخترا لا * سلام من بعد التساقف أعيدا
سبق المحلى للخطي فرفعه * نسق بتم وقد رفعت بالابتدا
وله فيه

محمود المرنى على أسلافه * ان زاد في حب الحبيب نجار
ملك اذ انليت مأثر قوميه * كسد اللطيم وهجن النوار
ملا الفرجة جور سيفك فهم * فليهم على سيف المحيط حوار
يوما يزرك جوف عرقة معلما * جوف له خلف الدروب أوار
وتجرف في الاردن فضله ذبله * نفع بأكناف الانظم منار
اما تبج حريم انطاكية * أو ينجأ الداروم منك دمار
عنى جهادك رسم كل مخوفة * وصفت بصفوة عدلك الاكدار
ومحا المظالم منك نظرة راحم * لله في خطراته أسرار
غضبان للاسلام مال عموده * فلنوره مما عراه نوار
وجذمت كل بد تسور على يد * فاحلت ذاك السور وهو سوار
لم يبق ما كس مسلم سلقا ولا * سماع لمظلمة ولا عشار
همدوا كما همدت ثمود وقادهم * بنسارهم مما أتوه قدار
الغار في الدنيا شقوا بلباسه * واباسهم يوم الحساب النار
كم سيرة أحييتها عرية * رفعت لها في الحافقين منار
وزاقل صيرت لوازما * باقها تستعيد الاحرار
تقفو طريق الصالحين مسابقا * لهم وتطلع خلفك الابرار
نفس السيادة زهد مثلك في الذي * فيسه تفتانت يعرب وزار
ومتى ادعى ما تدعيه محكم * أوهى معاقده دينه دينار
لله ما ظفرت به منك المني * وتكنفت من ركنك الاستار
وسقى النمام ترى أليك فانه * أركى ترى قطرت عليه قطار

في أخبار (٢٣) الدولتين

شهدت نصرة عودك الغض الحثي * ان الذي استخلصت منه نصار
أمانهارك فهو ليل مجاهد * والليل من طول القيام نهار
فلذلك النصر العزيز أدلة * أي انتجته ولا تتوح أمار
واه أيضا فيه رحمه الله تعالى

رأينا الملوكة قد ساجلو * كتموا منونا وغروا غروا
أب لك ان يدركوه أب * يرار في نهي الاسود الزئيرا
وجد اذا جدد يوم الرها * ن افي لتاليه جدد اعنورا
تصب سالك على من عصاك * يوما عيوسا بها قنورا
لقد البس الشام هذا الابا * لبوسا من الامن اينا وثيرا
تداركت أرقاه والقوا * ب نوافر ان يستحق الصدورا
أقت جثانا وكانا جما * وسدت قصورا وكانت قبورا
وكذلك من غضبه لاهدي * تمت الهوى وتجرب الذكورا
اذا قلب الياس كانت ردى * وان تحك العفو عادت نشورا
كملت فوقت عيين الكمال * تبعد السنين وتفي العصورا
وجد لنا بسك رب برا * كلال كفرنارا وللدن نورا
اذا ما خدمت قول كرمي * وأما عبدت فبعد انكورا
امام المحارب برا حصورا * وتحت الحروب هزبراهصورا
تبارك من شاد هذي الخلال * في ظلة الملك طودا وقورا
وألف في مقعد التاج من * لك سطواسعرا وعفوانعبرا
وله فيه

عقل الحق ألسن المدعينا * أنت خير الملوكة دنيا ودينا
وأسد الانام قولا وأفعلا * لا ونفسا ونيسة وبقينا
أنت أسسناهم ابا واباء * وأمرأ حيا وأمرأ عينا
بسد الرزق في البسيطة كفناك * فكنا يدك تلقى يمينا
فقد تحسم النوائب عنا * ويد تقسم الرغائب فينا
أيها البحر لو تساجلك الابحر * عامت في ساحليك سفينا
ولكان المحيط منها محاطا * مثل نون الهجاء أو خيل نونا
مشرعنا منزعنا ومنامهنا * وربا عافينا وكغالبونا
ومحيا طلقا ومالا طليقا * وابتهاجا قصد او حيلامتيننا
بين ذب يمت عادية الشر * لك وهب يحبي به المسلمونا
تنسني من الفتوح ألوفنا * أنت أعلى من أن تعد المثينا
كلما خوت ثوب نصر عزيز * من مرأ قبلت فتحا مينا
صرف الله عنك صرف زمان * أنت علمت صرفه ان يهونا
يابن من طبق البسيطة آثا * راوعل المناذية الاجونا
وعدت حصنه على شرح هذا الدين * من شلة الاعادى حصونا
كم تعالى صهيلها في ربي الشا * م فأعلى خلف الخيلج الرينا
كان صنوا الرشيد أبقاك للذكر * مه والباس يعده المأمونا

كتاب (٢٤) الروضتين

سمع الله فيك دعوة سكن * أوطنوا من جمالك حصنا حصينا
غرقهم مدى الخطوب فاحيد * رفاتنا من التراب دفينا
البسوا عدلك المديح فاختا * لوابسات في وشيه وينينا
سهرت عينك الكوة وناموا * تحت أكاف رعيها أمنينا
قلت فهذا أنموذج من أشعار هذين التخلين فيه مع انهما تافيا سنة ثمان وأربعين وخمسمائة قبل ان يفتح نور الدين دمشق وبقي نور الدين حيا بعدها إحدى وعشرين سنة بترقى كل عام في ازدياد من جهاد واجتهاد ولو كانا أدركا ذلك لاتباني وصفه بجمائب المدائح مع انه قد تولى ذلك غيرها ممن لم يبلغ شأوها ولا بى الحمد المسلم بن الخضر ابن قسيم الحنظلي من قصيدة فيه

تبدو السجاعة من طلاقة وجهه * كل شح دل على القساوة له
ووراء يقظته انا مجرب * لله سطوة بأسه وسعة
هذا الذى فى الله صحيح جهاده * هذا الذى بالله صحيح يقينه
هذا الذى بجل الزمان مثله * والمشتهر بالعلو عرينه
ملك الورى ملك أغر متوج * لا غدره يخشى ولا تلويته
ان حل قال شرف التليد أنيسه * أو سار فالظفر الطريف قرينه
فالدهر خاذل من أراد عناده * أبدا وجبار السماء معينه
والدين يشهدانه لمعز * والشرك يعلم انه لمهينه
ما زال يقسم ان يبدد شمله * والله يذكرك ان عينه
فخج الرها بالامس فان تحت له * أبواب ملك لا يزال مصونه

ومادح نور الدين رحمه الله كثيره وذكر الحافظ أبو القاسم انه كان قليل الالتهاج بالشعر ومات حادى عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ودفن بقلعة دمشق ثم نقل الى قبته بديره ببحر الخواصين قلت وقد جرب استحبابه النضاه عند قبره وهذا ذكر طرف من مناقبه جملة ونحن بعد ذلك نأتى بأخباره وأخبار سلطانه مفصلة من تبة وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار ان شاء الله تعالى

(فصل) أصل البيت الابنكي هو قسيم الدولة اق سنقر جد نور الدين فنذ كردومات في أيامه ثم نذ كرواده زنگى وسانغ في أيامه ثم نذ كرواده محمود بن زنگى ثم نذ كرواده بعدد وعى الدولة الصلاحية الايوبية ومات في أيامها فنقول كان اق سنقر تركا من أصحاب السلطان ركن الدين ملك شاه بن الب أرسلان ووه عم دقاق بن متش بن الب أرسلان الذى كان سلطان دمشق وقبره بقبة الطواويس بنابنته والمشهد والذنه وكان السلطان ملك شاه من جملة المملوك السجوقية المتغلبين على البلاد بعد بنى به بالعراق فكان تسم الدولة من أصحاب وأزابه ومن رعى معه في صغره واستمر في صحبته الى حين كبره فلما أفضت السلطنة بعد أسه اليه جعله من أعيان أمراءه وأخص أوليائه واعتمد عليه في مهماته وزاد قدره علوا الى ان صار يتيهه مثل نظام الملك الوزير مع تحككه على السلطان وتمككه من الملكة فأشار بنظام الملك على السلطان ان يولى اق سنقر مدينته حلب واعمالها وأراد بذلك ان يبعده عن خدمة السلطان ويخذله عند يداينك قال ابن الاثير ومن الدليل على علو مرتبته تلقبه قسيم الدولة وكانت الاقاب حينئذ مصونة لا تعطى الا لشيخها وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة سير السلطان ملك شاه الوزير خفر الدولة بن جيهري وكان زوج ابنة نظام الملك الى الموصل وسير معه جيشا عظيما وجعل المتقدم على الجيش قسيم الدولة اق سنقر فسار وانحو الموصل ولحقهم في الطريق الامير ارتقى الزنگى جد مملوك الحصن وماردين فاستجبهو معهم فحصر الموصل وحاربوا من هاتوا تسلموها وسار صاحبها الى السلطان فردها عليه وكانت يومئذ لا حدماء بنى عقيل وهو شرف الدولة مسلم بن قورش بن بدران العقيلي وكان ملكه من السندية بالعراق على نهر عيسى الى منبج وما بينهما من البلاد الفراتية كسيت والانباز وغيرها ومملك الموصل وديار بكر والجزيرة بأسرها ومملك مدينة حلب وكان عادلا حسن السيرة عظيم السياسة

وانفق ان وقع بينه وبين صاحب انطاكية خلاف وذلك ان انطاكية كان الروم قد استولوا عليها سنة ثمان وخمسين
 وثلثمائة ولم ير الوهاب الى هذه السنة ففتحها سليمان بن قيس وهو جد الملك غياث الدين كخسر و صاحب قونية
 وغيره وكان لشرف الدولة صاحب حلب على صاحب انطاكية الرومي جزية يأخذها كل سنة فانقطعت عنه بسبب
 أخذ سليمان البلد فأرسل شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الروم ونهذه فقل أناني طاعتك وهذا الفتح
 بسعادتك والخطبة والسكك لك واست بكافر حتى أعطيك ما كنت تأخذه من الروم فلحق شرف الدولة في طلب المال
 فالتقى فقتل شرف الدولة وانهزم عسكره وسار سليمان الى حلب فحصرها وسار اليها من دمشق تاج الدولة نتش بن
 الب أرسلان اخو السلطان ملكشاه بالتقى عسكره وتين وسليمان فقتل سليمان وانهزم عسكره وملك نتش مدينة حلب
 دون الغلة فأرسل أهل القلعة الى ملكشاه ليسأوا اليه وهو يومئذ بالرها وكان سبب مسيره اليها ان ابن عطية
 الحميري كان قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار وسلمها اليهم فدخلوها وأخرجوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها
 فسار ملكشاه اليها في هذه السنة فحصرها وفتحها وأقنعها الأمير بزان فلما أتاه أرسل أهل القلعة يطلب بالتسليم
 سار اليهم فلما بلغ مسيره الى أخيه تاج الدولة رحل عن حلب الى دمشق ووصل السلطان الى حلب وبالغلة سالم بن
 مالك بن بدران المقيلي وهو ابن عم شرف الدولة فسلمها الى السلطان بعد قتال وأعطاه السلطان عوضا عنها قلعة جعبر
 وكان قد ملكها في هذه السفرة من صاحبها جعبر الحميري وكان شيخا كبيرا أعني فقيت يسد سالم وأولاده الى ان
 أخذها منهم الملك العادل نور الدين كاسيا في فلما ملك السلطان حلب أرسل اليه الأمير نصر بن علي بن القلانين
 منقذ الكافي صاحب شعزر ودخل في طاعته وسلم اليه الأذقية وفامية وكفرطاب ثم ان نظام الملك أشار على
 السلطان بتسليم قلعة حلب واعمالها ووجه ومنع والاذقية وما معها الى قسم الدولة آق سنقر فاطعه الجميع وبقيت
 بيده الى ان قتل سنة سبع وعثمانين وأربعمائة كاسيا وأقطع السلطان مدينة انطاكية الأمير باغي سغان ولما
 استمر ترسيم الدولة في الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده ثم ان السلطان استدعاه الى العراق
 فقدم اليه في تجهل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه فاستحسن ذلك منه وعظم محله عنده ثم أمره بالعود الى
 حلب فعاد اليها فلما مات السلطان ملكشاه قسم الدولة جيشا الى تكريت فلكها في سنة ست وأحدى وعثمانين
 قصد قسم الدولة شيزر فنهبها وعاد الى حلب وفي سنة ثلاث وعثمانين اجتمع قسم الدولة وبران وحصر وامدينة حصص
 فلكوها ومضى ابن ملاعب الى مصر وفي سنة أربع وعثمانين وملك قسم الدولة حصن فامية من الشام وملك الرحبة
 (فصل) وفي عاشر رمضان سنة خمس وعثمانين قتل الوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن امحاق قتله
 صبي دلي بعد الافطار وقد ترق عن طعامه الفقهاء والامراء والعقراء وغيرهم من أصناف الناس وجعل في محفة
 لنقرس كان به الى خيمة الحرم فلقه صبي دلي مسنينا به فقتله منه لم يسمع شكواه فقتله وقتل الصبي أيضا فعدمت
 الدنيا واحدها الذي لم تر مثله وكان تلك الليلة قد حكم له بعض الصالحين انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام
 كأنه أتاه وأخذه من محفة فتبعه فاستبشر نظام الملك بذلك وأظهر السرور به وقال هذا أبني وياها اطلب وكن قد بلغ
 من الدنيا مبلغا عظيما ينله غيره وكان عالما فقيما بناخرا متواضعا عادلا يحب أهل الدين ويكرهمهم ويجزل صلاتهم
 وكان أقرب الناس منه وأحبههم اليه العلماء وكان ينظرهم في المحافل ويبحث عن غوامض المسائل لانه استغل
 بالفق في حال حداثة مده وأما صدقته وتوفقه فلا حد عليها ومدارسه في العلم مشهورة لم تغفل بدم من شيء منها حتى
 جازى رابن عمار التي هي في زاوية من الارض لا يوتي لها في قيام مدرسة كبيرة حسنة وهي التي تعرف الآن بمدرسة
 رضي الدين وأعماله الحسنة وصنايعه الجليلة مذكورة في التواريخ لم يسبقه من كان قبله ولا أدركه من كان بعده وكان
 من جملة عباداته انه لم يحدث الا تواضعا ولا تواضعا الاصلى وكان يقرأ القرآن حفظا ويحافظ على أوقات الصلوات يحفظه
 لا ينقذه فيها المتفرغون للعبادة حتى انه كان اذا غفل المؤذن أمره بالاذان واذا سمع الاذان أمسك عن كل ما هو
 فيه واشتغل باجابه ثم باله لادراكه وكان يندوز للسلطان عضد الدولة البارسلان والملك كشاه قبل ان يلي السلطنة في
 حياة السلطان طغرل بك أول الملوك السلجوقيين بعد ادق لما توفي طغرل بك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه
 الب أرسلان وقام المقام الذي نهجز عنه الجيوش الكبيرة واستمرت السلطنة له وبقى معه الى ان توفي ثم ووز بعده

لولده السلطان ملكشاه الى ان قتل وكان قد فتح عليه الى حد لا يقدر السلطان على خلافه لكثرة محبائه ومحبته العساكر له والامراء وميل العامة والخاصة اليه لحسن سيرته وعده له وهذا الكلام ابي الحسن بن الاثير وقرأت في كتاب المعارف المتأخره يسمى عنوان السير لمحمد بن عبد الملك بن ابراهيم الحمداني قال وزير نظام الملك ابو علي الحسن ابن علي بن اسحاق الطوسي للسلطان البارسلا ن ولولده السلطان ملكشاه اربعاً وثلاثين سنة وقتل بالقرب من نهاوند وعمره ست وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوماً اغتاله أحد الباطنية وقد فرغ من فطوره قال وقيل ان السلطان ملكشاه الف عليه من قتله لانه سمّ طول عمره ومات بعده بشهر وخمسة أيام وقد تقدّم نظام الملك في الدنيا التقدم العظيم وأفضل على الخلق الافاضال الكثير وعم الناس بعرفه وبني المدارس لا يحجب الشافعي ووقف عليهم الوقوف وزاد في الحلم والدين على من تقدمه من الوزراء ولم يبلغ أحد منهم مثله في جميع أموره وعبر حيون فوقه على العالم بانطاكية بما يصرف على الملاحين وملك من الغلمان الاتراك الوفا وكان جمهور العساكر وشجعانهم وقتلهم من محبائه قتل وأنشد أبو سعد السمعاني في ذيل تاريخ بغداد فقال أنشدني عبي الامام ابو القاسم أحمد ابن منصور المعافى غير مرة من لفظة لالا مير شبل الدولة يعني مقاتل بن عطية ابن مقاتل البكري

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة * ثمنه صاغها الرحمن من شرف

عزت ولم تعرف الايام قيمتها * فردّها غيرة منه الى الصدف

(فصل) عاش السلطان ملكشاه بعد نظام الملك خمسة وثلاثين يوماً ومات في منتصف شوال سنة خمس وثمانين وعمره ثمانية وثلاثون عاماً ونصف عام وكانت ملكيته قد اتسعت اتساعاً عظيماً وخطب له من حدود الصين الى الدار وممن أرض الشام وأطاعه الصين والحجاز وكان يأخذ الخراج من ملك القسطنطينية وأطاعه صاحب طراز واستنجا وبكاشغور وبلاسون وغيرهما من الممالك البعيدة وملك سمرقند وجميع ما وراء النهر ثم ان صاحب كاشغور عصي عليه فصار السلطان اليه فلما فارب كاشغور هرب صاحبها منه فصار في طلبه ولم يزل حتى ظفّر به وأحسن اليه واستعجبه معه الى أصفهان وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر كثير ما منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة وحفر من الابار وبني مدرسة عند قبر الامام أبي حنيفة رحمة الله عليه وبني الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة وهو الذي بني منارة الغرور في طرف البرمالي الكوفة بمكان يعرف بالسبعي وبني مثلها بسمرقند أيضاً قيل انه خرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج فآوز العذوب وبلغ السبعة بقرب الواقعة وبني هناك منارة تزل في أثنائها قرون الظبي وحواثر الجر الوحشية التي اصطادها في طريقه بعد موته وتنازع ابنائه تكياروق ومحمد ودامت الحروب بينهم نحو ثنتي عشرة سنة الى ان توفي تكياروق واستقرت السلطنة لمحمد في مدة تلك الحروب ظهرت الفرع الساحل وملكو انطاكية وأولاً ثم غيرهما من البلاد وكان السلطان قد أقطع أخاه تاج الدولة تنس مدينة دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية والبيت المقدس فلما توفي ملكشاه طمع تاج الدولة في السلطنة فصار الى حلب وبها قسم الدولة فصالحه وراسل بوزان صاحب حران وبايع سغان صاحب انطاكية فسار وامعه نحو الرحبة ونصيبين فأخذها وأرسل صاحب الموصل ابراهيم بن قريش بن بدران يأمره بالخطبة له وان يعطيه مطرباً الى بغداد فامتنع فالتقيا فهزم صاحب الموصل وقتل وأخذت بلاده وسار الى ما فارقين فملكها وسائر ديار بكر ثم سار الى أذربيجان فالتقى هو وابن أخيه تكياروق مع ملكشاه فانتقل قسم الدولة وبزمن الى تكياروق فرجع تاج الدولة الى الشام ورجع الى بلادها بأمر تكياروق ليمنع تاج الدولة عن البلاد ان قصدتها فجمع تاج الدولة العساكر وسار عن دمشق نحو حلب فاجتمع قسم الدولة وبوزان وأمدّها السلطان ركن الدين تكياروق بالامير كروقا وهو الذي صار فيما بعد صاحب الموصل فالتقوا بالقرب من تل السلطان بينه وبين حلب نحو من ستة فراسخ فانهزم جيش قسم الدولة وأخذ أسير أفتلته تاج الدولة صبراً ودخل برزان وكر بوقا حلب فحصرها تاج الدولة حتى فتحها وأخذها أسير بن وأرسل الى حران والرها وكاتالان فامتنع من بهما من التسليم فقتل برزان وأنفذ رأسه وتسلم البادين وأما كروقا فانه سجنه بمجسم فلم يزل الى ان أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة قال ابن الاثير وكان قسم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظاً لهم وكانت بلادهم من عدل عام ورخص شامل وأمن واسع وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند

في اخبار (٢٧) الدولتين

احدهم قتل أو اُحدم من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الاموال من قليل وكثير فكانت السيارة اذا بلغت قرية من بلاد القوارح لم يناموا آمنين وقام أهل القرية يحرسونهم الى ان رحلوا فأمنت الطرق وتحدث الركبان بحسن سيرته وفي المحرم من سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي الخليفة المقتدى بأمر الله بخفاة وهو أبو القاسم عبد الله ابن الأمير محمد بن القائم بأمر الله وعمره تسع وثلثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر وأمه تركية وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد ويلقب بمحمد بن القائم والد المقتدى بالله الذخيرة مات في حياة أبيه فليل الخلافه

﴿ذكر اخبار زنكي﴾

والنور الدين رحمه الله تعالى على سبيل الاختصار في فصول الى حين وفاته ثم نذكر أخبار نور الدين على ترتيب السنين لما قتل قسم الدولة آق سنقر لم يخلف من الاولاد غير واحد وهو عماد الدين زنكي والنور الدين وكان حينئذ صبيا له من العمر نحو عشر سنين فاجتمع عليه عماليك والده وأصحابه وفيهم زين الدين علي وهو صبي أيضا ثم ان الأمير كز بوقا خلع من السجج بعد قتل تاج الدولة سنة سبع وثمانين وأربعمائة وتوجه الى حران وقد اجتمع معه عسكر صالح فلكها ثم سار الى نصيبين فلكها ثم الى الموصل فلكها وازال عنها علي بن شرف الدولة العجلي وسار نحو ماردين فلكها وعظم شأنه وهوى طاعة ركن الدولة تكباروق فلما ملك البلاد أخذ من عماليك قسم الدولة آق سنقر وأمرهم باحضار عماد الدين زنكي وقال هو ابن أخي وأنا أولي الناس بترتيبه فاحضره وعند مفارقتهم الاقطاعات السنية وجعهم على عماد الدين زنكي واستعان بهم في حروبه وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها فلم يزلوا معه فتوجه بهم الى آمد وصاحبها من أمراء التركان فاستجدهم بس الدين شهبان بن أرئق جد صاحب الحصن فكسرهم قوام الدولة كز بوقا وهو أول مضاف حضر زنكي بعد قتل والده ولم يزل كر بوقا الى ان توفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة وملك بعده موسى التركاني فلم تطل مدته وقتل ملك الموصل شمس الدولة جكر مش وهو ايضا من عماليك السلطان ملكشاه فاخذ زنكي قتر به وواجهه واتخذ ولد المعركة بمكانة والده فبقي معه الى ان قتل سنة خمسة مائة فلأجرام زنكي رعى هذا الجكر مش لما ملك الموصل وغيرهما من البلاد فانه أخذ ولده ناصر الدين كوري فاكرمه وقدمه واقطعه اقطاعا كثيرا وجعل نزله أعلى المنازل عنده واتخذ صهره ملك الموصل بعد جكر مش جاولي سقاؤه فاقبل به عماد الدين زنكي وقد كبر وظهرت عليه امارات السعادة والشهامة فلم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد وكان جاولي قد عصى الى الشام ليملكه من الملك فخر الملك رضوان فارس السلطان الى الموصل الأمير مودود واقطعه اقطاعا ثانيا وخدمه مائة فلما اتصل الخبر بجاولي فارة زنكي وغيره من الأمراء فلما استقر مودود بالموصل واتصل به زنكي أكرمه وشهد معه حروبه فسار مودود الى الغزاة بالشام ففتح في طريقه قلاعهم من شحنتان كانت للفرنج وقتل من كان بها منهم ثم سار الى الرها فحصرها ولم يفقها فخرج عبر الفرات فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوما ثم سار الى معرة النعمان فحصرها ثم حضر عنده أنابك طعنة تكين صاحب دمشق فسار الى طبرية وحاصرها وقتلها وقتل الاشديد وظهر من أنابك زنكي شهاعة لم يجمع عليها من انائه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد فحمل عليهم هو ومن معه وهويظ انهم يتبعونه فقتلوا عنه ونفذهم وحده وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد ووصل رحمه الى الباب فآثر به وقتلهم عليه وبقي ينتظر وصول من كان معه فثبت لم ير أحدا حتى نفسه وعاد سالما فنجب الناس من أقدمه أولا ومن سلامته آخره ثم اتقى الجعان فهزم الفرنج لعنهم الله ووصلوا الى مضيق دون طبرية فاجتمعوا به وجاءتهم بجدة فاذا ن الأمير مودود خلفه يكر في الرجوع الى بلادهم والاجتماع اليه في الربيع فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها فخرج بوياصلي الجمعة فلما صلاها وخرج الى معن الجسامع وبه سيد طعنة تكين وثب عليه انسان فضر به بسكين معه فجرحه أربع جراحات وكان صائغا فحمل الى دار طعنة تكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل وقال لا تقبل الله الا صائغا فاني ميت لا يحيا له سواء أفطرت أو صمت وتوفي في بقية يومه رحمه الله فقيل ان الباطنية بالشام خافوه فقتلوه وقيل بل خافه طعنة تكين فوضع عليه من يمتله وكان خيرا عادلا حسن السيرة

كتاب (٢٨) الروستين

قال ابن الاثير حدثني والدي رحمه الله قال كتب ملك الفرنج الى طغتكين ان أمة قتلت عبيدها يوم عيدها في بيت معبودها الحقيقي على الله ان يبيدها فلما قتل الامير مودود أقطع السلطان بلاد الموصل وغيرها لالا ميرحبوش بك وسير معه ولده الملك مسعود الى الموصل ثم انه جهز آق سنقر البرسي في العساكر وسيره الى قتال الفرنج وكتب الى عساكر الموصل وغيرها هم بالسير معه فساروا وفيهم عماد الدين زنكي وكان يعرف في عساكر العجم بزكي الشامي فسار البرسي الى الرها في خمسة عشر ألف فارس فحصرها وقتل من بهمن الفرنج والارمن وضائق الميرة عن العسكر فرحل الى سبساط وهي أيضا للفرنج فآخرب بلدها وبلاد سروج وعاد الى بلد شجستان فآخرب ما فيه للفرنج وأبلى زنكي في هذه المواقف كلها بلاه حسنا ثم عادت العساكر تتحدث بما فعله وعاد البرسي الى بغداد وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود والامير حبوش بك الى سنة أربع وعشرين وخمسمائة وقد علا قدره وظهر اسمه

(فصل) وفي سنة إحدى عشر وخمسة مائة ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله وفيها غرقت سنجار من سيل المطر وهلك منها خلق كثير ومن أعجب ما يحكى ان السيل حل مهدا فيه طفل فتعلق المهد في شجرة ونقص الماء فسل ذلك الطفل وغرق غيره من الماهرين بالسباحة وفيها أيضا زلزلت أربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة وفيها في الرابع والعشرين من ذي الحجة توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام وأول ما خطب له ببغداد في ذي الحجة سنة اذنين وتسعين وأربعمائة وقطعت خطبته عدة مرات روى من المشاق والاعطام ما لم يقبله أحد الى أن توفي أخوه تيكاروق فحينئذ استقرت له السلطنة وصفت له ودانت البلاد وأصعب الاطراف لطاعته وكان اجتماع الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة أشهر وكان عادلا حسن السيرة شجاعا وأطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد ومن عدله انه اشترى عذة مما يليك من بعض التجار وأمر ان يوفى الفن من عامل خوزستان فاوصل اليه البعض ومطل بالباقي فحضر التاجر مجلس الحكم وأخذ غلام الحاكم ووفى بطريق السلطان واستغاث اليه فأمر من يستعلم حاله فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله فعظم عله ومضاق صدره وأمر في الحال ان يحضر عامل خوزستان ويلزم بمال التاجر ثم انه ندم على تأخره عن مجلس الحكم وكان يقول كثيرا لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحكم ولو فعلته لاقتمدى بي غيري ولم يمنع أحد عن اداء الحق

قال ابن الاثير وهذه الفضيلة ذخرها الله تعالى للبيت الابنكي فان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه وقد تقدم ذلك ولما علم الامر او غيره هم من خلق السلطان بحبة العدل واداء الحق وكرهية الظلم ومعاقبة من يفعلها اقتدوا به فاه الناس وظهر العدل وولى بعد السلطان محمدا بن محمود وعمره يومئذ أربع عشرة سنة فقام بالدمطنة وجرى بينه وبين عمه سبخر حرب انهم فيها محمود وعاد الى عهده فأكرمه واقطعه من البلاد من حد خرسان الى الداروم باقمي الشام ومن الممالك همدان واصفهان وبلد الجبال جميعه وبلاد كرمان وفارس وخوزستان والعراق واذر بيجان وارمينية وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مصر وديار بريمه والشام وبلاد الروم الذي بيد قليج ارسلان وما بين هذه الممالك من البلاد * قال ابن الاثير ورايت منشوره بذلك وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة توفي الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد ابن المقتدى بأمر الله وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ومضى في أيامه ثلاث سلطين خطب لهم ببغداد من السجوقيه وهو أخو ملكشاه تاج الدولة بنش وركن الدولة تيكاروق بن ملكشاه وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه وكان المستظهر رحمه الله كريم الاخلاق لين الجانب مشكور المساعي يحب العلم والعلماء وصنفت له من التصانيف الكثيرة في الفقه والاصول وغيرها وكان يسارع الى اعمال البر والمنويات حسن الخط جيد التوقيعات ولما توفي صلى عليه ولده المسترشد بالله ودفن في حجرة كانت له بالرها في أيامه توفي جماعة من العلماء ففي شعبان سنة ثمان وثمانين وأربعمائة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المنظر الشامي وفي ذي القعدة منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلي مصنف حدائق ذات بهجة في تفسير القرآن

في أخبار * (٢٩) * الدولتين

يزيد على ثلثمائة مجلد قال ابن الاثير رأيت منه تفسير الفاتحة في مجلد كبير وفي ذي الحجة توفي الامام أبو نصر الجيسدي مصنف الجمع بين الصحيحين وفي سؤال سنة احدى وتسعين توفي الكامل قبيب النقباء طراد بن محمد الزيني وله نحو تسعين سنة وفي سنة اثنين وخمسين ومائة توفي أبو زكريا التبريزي اللقوي وفي ذي الحجة من توفي أبو الفوارس الحسين بن علي بن الخازن صاحب الخط المشهور وفي سنة خمس وخمسمائة توفي الامام أبو حامد القراني وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الامام أبو بكر محمد بن أحمد الشاشي الفقير رحمهم الله أجمعين

(فصل) لما ولي السلطان محمود السلطنة أقر أخاه مسعود على الموصل مع أتباعه حبوش بك فبق مطبعا لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة فحسن له الخروج عن طاعته وطلب السلطنة فظهر العصيان وخطب للملك مسعود بالسلطنة وكان زكريا يشير بإعانة السلطان وترك الخلاف عليه ويحذرهم عاقبة العصيان فلم يرفع فالتقى الإخوان في عسكرهم فمات عسكر مسعود وافر جماعة من الامراء والاعيان منهم الاستاذ أبو اسمعيل الحسين بن اسماعيل الطغرائي وزير مسعود فقتله السلطان محمود فالقد صرخ عندي فساد اعتقاده ودينه وكان قد جاوز ستين سنة وكان حسن الكتابة جيد العرفات وقيل انه قتل سنة ثلاث عشرة وأربع مائة عشرة أو ثمان عشرة وخمسمائة وقيل ان الذي قتله هو السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه ذكر ذلك كله أبو سعد السمعاني في تاريخه وسماه الحسين بن علي بن عبد الصمد الديلمي وأنشده له اشعارا احسانها

إذا ما لم تكن ملكا مطاعا * فكن عبد المالك مطبعا

وان لم تملك الدنيا جميعا * كما ترواه فارتكبا جميعا

هاسيان من ملك ونسك * بنبلان الفتى الشرف الرفعا

ومن يقنع من الدنيا بشئ * سوى هذين يحيى بها وضيها

ثم استأنس مسعود وأتباعه حبوش بك فأمنهما السلطان وأخذ الموصل منهما فاقطعها في سنة ثمان مائة مائة مع أعمالها كالجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرها في صفر سنة خمس عشرة وسبعمائة وأمره بحفظ عماد الدين زكريا وتقديره والوقوف عند أسارته ففعل البرسقي ذلك وزاد عليه لمكان زكريا من العقل والشجاعة وتقدم والده في الأيام الزكية وكانت سريرة ملكشاه عندهم كالسريرة المتبعة فأعظم الناس عندهم كثرهم اتباعا لسيرته وفي سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع أتباع زكريا مدينة واسط وشحنة البصرة وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد فزاد شأنه عظما وهاج الامراء ليس بن صدقة الاسدي صاحب الخلد ناحيته وحرت بينه وبين البرسقي حروب ومواقعات وهم ديس بقصد بغداد ففسار البرسقي اليه وتسعه الخليفة المسترشد بالله بنفسه فأنزله عسكر ديس وقتل منهم وأمر خلق كثير وكان لعماد الدين زكريا أثر حسن في هذه الواقعة أيضا بين يدي الخليفة وذلك في أول المحرم سنة سبع عشرة وأما ديس فإنه لما أنهمز لحق بالملك طغرل بن السلطان محمود وصار معه من خواص أتباعه وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود وأمر السلطان محمود للبرسقي ان يرجع إلى الموصل فعاد واستدعى زكريا من البصرة ليسير معه إلى الموصل فقال زكريا لا يحببه قد تغيرت أمانتي فيه كل يوم قدم ملك البلاد أمير وأمره بالتصرف على اختياره واراثة ثم تارة العراق وتارة الموصل وتارة بالجزيرة وتارة بالشام ففسار من البصرة إلى السلطان محمود فأقام عنده وكان يقف إلى جانب تحت السلطان عن يمينه لا يتقدم عليه أحد وهو وقام والده قسم الدولة من قبله وبقي لولده من بعده ثم أتى السلطان الخبر ان العرب اجتمعت ونهبت البصرة فأمر زكريا بالسير إليها واقطعها بأهلها بلغه عنه من الحفاية لها في العام الماضي وقت اختلاف العساكر والحروب فنزل ذلك فعظم عند السلطان وزاد محله وكان قد جرى بينه وبينه برتقش الزكوي شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة فتمردت المدائن شدة ففسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة شاكيًا من المسترشد وحذر السلطان حاجه واعلمه انه قد جمع العساكر عازما على منعه من العراق ففسار السلطان إلى بغداد وجرى بينه وبين المسترشد حروب ووقائع ثم اصطالحا وعاد إلى ما كانا عليه وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر ونظر فيمن يصلح ان يولي شحنة بغداد والعراق يؤمن معه من الخليفة وبضبط الامور فولي ذلك زكريا مضافا إلى ما يده من الاقطاع وسار السلطان عن بغداد في سنة عشرين وخمسمائة قتل في سنة ثمان مائة مائة في الموصل بالجامع

كتاب (٣٠) الروضتين

العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة نارب من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس قتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله وكان عادلا لئلا ينحرف عن حسن العشرة وكان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة ولا يستعين في وضوءه بأحد فقزر السلطان ولده عز الدين مسعودا على ما كان لابييه من الاعمال وهي الموصل ودار الجزيرة وحلب وحمص وجزيرة ابن عر وغيرهما وكان شابا عاقلا فضبط البلاد فلم تطل أيامه وتوفي سنة احدى وعشرين وولى الامر بعده أخوه الصغير وقام بتدبير دولتهم ما امر جاولي وهو بمواوئج تركي من محاليلك آيها ما جرت الامور على أحسن نظام

(فصل) في ولاية زنكي الموصل وغيرهما من البلاد التي كانت بيد البرسقي وذلك في شهر رمضان من سنة احدى وعشرين وسبب ذلك ان عز الدين البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير وتولى امره جاولي أرسل الى السلطان محمود يطلب ان يعزل البلاد عليه وكان المرسل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين محمد اليانغيسي فحضر بغداد ليخاطب السلطان في ذلك وكان يخاف ان جاولي ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه وكان بين صلاح الدين وبين نصير الدين حمزة مصاهرة فأشار عليه ان يطلب البلاد لعاد الدين زنكي ففعلوا وقالوا لوزير قد علمت أنت والسلطان ان بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرج على أكثرها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم وكان البرسقي يكف بعض عاديتهم فذقتل ازداد طمعهم وهذا ولده طفل صغير ولا تلبس بالدم من شهم شجاع يذب عنها ويحجي حوزتها وقد أنعمنا الحال اليكم لتلاجري خلل أوهن على الاسلام والمسلمين فحصل نحن بالاثم من الله تعالى والووم من السلطان فأنهى الوزير ذلك الى السلطان فأعجبه وقال من ترين يصلح لهذه البلاد فذكر اجاعه فيهم عماد الدين زنكي وعظماؤه فاجاب السلطان الى توليته لما علم من شهرته وكفايته فولى البلاد جميعا وكتب من شوره بهاوسارهم بغداد الى البواز شيخ لجمكهاوي يتقوى بها ويجعلها ظهره ان منعه جاولي عن البلاد فلما استولى عليها سار عن الى الموصل فخرج جاولي الى لقائه وعاد في خدمته الى الموصل فسيره الى الرجة وعمالها وأقام هو بالموصل يصلح أمورها وبقرة قواعدها فولى نصير الدين دزدارية قلعة الموصل وفوض اليه امر الولاية جميعا وجعل الدزدارية في البلاد جميعها له وجعل صلاح محمد اليانغيسي أمير حاجب الدولة وجعل بهاء الدين فاضلي قضاة بلاد جميعها وما يفقه من البلاد ووفاهم بما وعدهم وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكرمهم عليه وأكثهم انبساطا معه وقر بانه ورتب الامور على أحسن نظام وأحكم قاعدة وكانت الفرج قد اتعبت بلادهم وكثرت أجنادهم وعظمت هيئتهم وزادت صولتهم وامتدت الى بلاد المسلمين أيديهم وضعف أهلها عن كف عاديتهم وتآلفت غزواتهم وساموا المسلمين سوء العذاب واستطاع في البلاد شرسهم وامتدت ملكتهم من ناحية ماردين وشيخان الى عريش مصر فبقلته من ولاية المسلمين في رحلب وحمص وحص ودمشق وكانت سراياهم من ديار بكر الى أمدمودن ودار الجزيرة الى نصيبين ورأس عين وأما أهل الرقة وحران فقد كانوا معهم في دله وهران وانقطعت الطرق الى دمشق الاعلى الرجة والبر ثم زاد الامر وعظم الشر حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم حرا جاورا أو تاء يأخذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهم ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا الى مدينة دمشق واستعصوا الرقيق ممن أخذ من الروم والارمن وسائر بلاد النصرانية وخبروهم بين المقام عند أربابهم والعود الى أوطانهم فمن اختار المقام تركوه ومن أثار العود الى أهلها أخذوه وناهبوا هذه الحالة ذلة المسلمين وصغارا وأما أهل حلب فان الفرج أخذوا منها مناصفة عما لها حتى في الرحا حتى على باب الجنان وبينها وبين المدينة عشرة وون خطوة وأما بقية بلاد الشام فكان حال أهلها أشد من حال أهل هذين البلدين فلما نظر الله سبحانه وتعالى الى بلاد المسلمين ولاها عاد الدين زنكي فجز الفرج في عقد ديارهم وأخذ للحوالدين منهم بنارهم واستنقذ منهم حصونا ومعاقل وسيأتي تفصيل ذلك وما فتحه من البلاد الاسلامية ثم وانه من بعده ان شاء الله تعالى

(فصل) ثم شرع زنكي رحمه الله في اخذ البلاد فاقبض جزيرة ابن عمر ثم مدينة اربل في رمضان سنة اثنتين وعشرين ثم عاد الى الموصل وسار في جمادى الاولى سنة ثلاث وعشرين الى سنجار فسلمها واسير منها الشهن الى الحلابور فملكه ثم قصد الرجة فملكه قد سار من انتص نصيبين وسار الى حران وكانت الرها وروج وغيرهما من ديار الجزيرة للفرج لعنهم الله وأهل حران معهم في ضيق عظيم فراسلوا زنكي بالطاعة واستنصحوه على الوصول اليهم ففعل وهذا

في مدة يسيرة يعلم انه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشامية والجزرية وكان اهم الاشياء عنده
 في الفرات وملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية فلما عبر الفرات ملك مدينة منبج وحصن بزاغة وحاصر
 ب ثم فتح له فرتب أمور هار و سار عن حال جاء فله كها وقبض على صاحب حصن وحصرها وذلك سنة ثلاث
 شرين وفي سنة أربع وعشرين اتفق صاحب أمد مع صاحب حصن كيفا وغيرهم من الملوكة وجعلوا عساکر
 وعشرين الفا وقصدوا زنكي فلقبهم فلهزمهم وملك سرجة ودارائهم صمم على الجهاد فنازل حصن الانارب
 كان أمد شئ على أهل حلب فخرجوا لجمع أعظماء فلهزمهم وقتلهم مقتلة عظيمة بقيت عظام القتلى بتلك
 الارض مدة طويلة ثم رجع الى الحصن فلهلكه عنوة فاخر به ومحاثره وأزال من تلك الارض ضرره ثم رحل
 الى حصن حارم فانقذه من محضر المعركة من الفرنج ومن تخافهم يأسلون الصلح وينزلون له المناصفة على ولاية
 حارم فاجابهم الى ذلك لان عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل فاراد ان يستريحوا فهادتهم وعادعهم
 وقد ابقى المسلمون بالشام بالامن وحاول النصر وسيرت البشائر الى البلاد بذلك وفيها استولى زنكي على مدينة
 جاء ومافيا وكان فيها بهاء الدين سونجین ناج الملوكة بوري فاخذ جلاله ثم طلب في اطلاقهم خمسةين ألف دينار
 فانفق حنورد بیس بن صدوق من مريد أمير العراق بدمشق منهزما فطلبه زنكي وأطلق من كان عنده من سونج
 وأصحابه بذلك الرئيس أنوبعلي وفي سنة خمس وعشرين وخمسائة توفي السلطان محمود بهمدان وكان عمره
 نحو ثمان وعشرين سنة وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة وكان حليما كريما علا عا دلا كثيرا للاحاة مال
 وطلب السلطنة بعده ولده داود بن محمود وأخوه مسعود وطلحوق شاء أناس محمد وعمره ما سجن بن ملكشاه ومعه
 طغرل بن السلطان محمد فجرت بينهم حروب واختلافات كثيرة ظفر فيها سجن بن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان
 وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همدان وأصفهان والري وسائر بلاد الجبل وفي سنة سبع وعشرين سار
 الخليفة المسترشد بنفسه الى الموصل في ثلاثين ألف فارس فحصرها ثلاثة أشهر ثم عاد الى بغداد ولم يبلغ غرضه وفي
 سنة تسع وعشرين استولى زنكي على سائر قلاع الحيدية وولاياهم منها قلعة العقير وقلعة سوس وحاصر مدينة
 أمد ثم مدينة دمشق وفيها توفيت والدته بالموصل وفي المحرم سنة تسع وعشرين توفي السلطان طغرل بن محمد
 ابن ملكشاه فخرج السلطان مسعود والنقي هو والخليفة المسترشد في عسكرين عظيمين عاشروا رمضان فلهزم عسكر
 الخليفة وقبض عليه وعلى خواصه وأنفذ السلطان سحنة الى بغداد فقبض جميع أملاك الخليفة وهجم جماعة من
 الباطنية على المسترشد وعوفي الخيمة فلهو وكتب السلطان الى سحنة بغداد بأمره بالبيعة لانه أتى حذر المنصور
 ابن المسترشد فبايعه في السادس والعشرين من ذي القعدة ولقب بالراشد وكان عمر المسترشد ثلاثا وأربعين سنة
 وثلاثة أشهر وعمانية أيام وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وكان شهما شجاعا مقداما فصيحاً وقمکن
 في خلافته تمككا عظيما لم ير له أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله الى خلافته الا ان يكون المعتضد
 والمكتفي لان المماليك كانوا قد بدأ يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم ولم يزلوا كذلك الى ملك الدليم واستيلائهم
 على العراق فزالت هيبة الخلافة بالمره الى انقراض دولة الدليم فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة
 ما كان قد درس لسيما في وزارة نظام الملك فانه أعاد الناموس والهجبة الى أحسن حالها الا ان الحكم والشحن
 بالعراق كان الى السلطان وكذلك العهد وضمان البلاد لم يكن للخلفاء الا اقطاع يأخذون دخله وأما المسترشد
 فانه استبد بال عراق بعد السلطان محمود ولم يكن للسلطان محمود معه في كثير من الاوقات سوى الخطبة واجتمعت عليه
 العساكر وفاد الجيوش وباشر الحروب وفي سنة ثلاثين وخمسائة سار الراشد الى الموصل محبة زنكي ملتحذا اليه
 وذلك ان جماعة حسنوالة الخروجه من بغداد لحاربة السلطان مسعود فاجابهم الى ذلك وظهور منه تنقل في الأحوال
 وتلون في الاراء وقبض على جماعة من أعيان أصحابه وخافة الباقون وتقدم السلطان مسعود وحصر بغداد واستظهر
 عليها فخرج الراشد ملتحذا الى زنكي فسار به الى الموصل ودخل مسعود بغداد وأمر بخلع الراشد ومبايعه عمه أي عبد
 الله محمد بن المستظهر بالله ففعل ذلك ولقب المقتفي لأمر الله وأما الراشد فان السلطان سجن أرسل الى أنبك بأمره
 اخراجه عن بلده فسار الى أذربيجان ثم الى همدان فاجتمع اليه مملوك وعساكر كثيرة وسار السلطان اليهم فقتلوا

فأنهزم الراشد وقصد اصيهان فقتله الباطنية بها في السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ودفن باصيهان وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضا تزوج زنكي بالخانن صفوة الملك زمر دابة الامير جاولي أم شمس الملوكة اسماعيل واخوته بني تاج الملوكة بوري بن طعت كين أتابك وهي أخت الملك دقاق واليهما ينسب مسجد خانن الذي هو مدرسة لاصحاب أبي حنيفة بأعلى الشرف القبلي بأرض دمشق بأرض صنعاء وتسلم قلعة حصص

(فصل) في جهاد زنكي للفرنج كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لايحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى فقصد الشام فخافه الناس خوفا عظيما وكان زنكي مشغولا بما تقدم ذكره لا يمكنه مقارعة الموصل فقصد ملك الروم مدينة بزازة وحصرها وهي على مرحلة من حلب وفتحها عنوة وقتل مقاتله وسبي الذرية في شعبان ثم سارع عنها إلى شيز وهو حصن منيع على مرحلة من مدينة حماد فحصرها من نصف شعبان ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا وارسل صاحبها أبو العساكر سلطان ابن منقذ إلى زنكي يستنجده فقل على حماد فكان يركب كل يوم في عساكره ويسير إلى شيز بحيث يراه ملك الروم ويرسل السرايا يخطف من يخرج من عساكرهم لليرة والنهب ثم بعد آخر النهار وكان الروم والفرنج قد نزلوا على شري في شيز فأرسل إليهم زنكي يقول لهم انكم قد تحصنتم بهذه الجبال فأخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي فان ظفرتم أخذتم شيز وغيرها وان ظفرتكم أرحمت المسلمين من شرك ولم يكن له بهم قوة كثيرة وانما كان يفعل هذا زهيبا لهم فأشار الفرنج على ملك الروم بقتاله وقتاله وجرؤا أمره فقال لهم الملك أئذنون ان معه من العساكر ما ترون وله البخلاد الكثيرة وانما هو يريدكم فله من معونة نظمعوها وتصوروا له فيخيل ترون من كثرة عسكره ما يهجزكم وكان أتابك زنكي مع هذا يرسل فرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ويعلمهم انه ان ملك بالشام حصنوا حدا أخذ البلاد التي بأيديهم منهم وكان يرسل ملك الروم يتدوه ويوجه ان الفرنج معه فاستشمر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه فرحل ملك الروم عنها في رمضان وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوما وترك المجانيق والآلات الحصار بجبالها فاسار زنكي خلفهم وظن بطائفة منهم في ساحة العسكر فغتم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعوه إلى قلعة حلب وكفى الله المؤمنين القتال وكان المسلمون بالشام قد اشتد خوفهم وعلموا ان الروم املوا حصن شيز لا يبقى مسلم معهم مقام لاسيما مدينة حماد لقر بها ولما يسر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا منهم أبو المجدد المسلم بن الحضر بن المسلم بن قسيم الحموي له قصيدة قد ذكرتها في ترجمته في النار يخ أولها

بعزمك أيها الملك العظيم * نذل لك الصعاب وتسقيم
ألم تر ان كلب الروم لنا * تبين انك الملك الرحيم
جاء يطبق الفلوات خيلا * كان الخفيل الليل البهيم
وقد ترك الزمان على رضاه * فكان لخطبه الخطب الجسيم
خفين رميته بك في خيس * تبين ان ذلك لا يدوم
وابصر في المفاسدة منك جيشا * فأخزن لا يسير ولا يقسم
كانك في الجحاج شهاب نور * توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى * وليس سوى الحمام له جسيم
يؤتمل ان تجود بها عليه * وأنت بها بالديار كريم
أبليس الفرنج ليداء عفوا * وأنت بقطع دارها زعيم
وكم جرعتها غصص المنايا * بيوم فيه يكتهل الفطيم
ولما ان طلبتهم غنى الد * حنية جوسلينهم اللثيم
أقام يطوف الافاق حينما * وأنت على معاقله مقبم
فسار وما يعادله مليك * وما دوما يعادله سقيم
إذا خاطرت سيوفك في نفوس * فأقول ما يفارقها الجسم

في أخبار (٣٣) الدولتين

وله أيضا من قصيدة مدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادى التوتان صاحب جلاء
 وجاءه كلب الروم الالتجوى * حاة وهل يسطو على الأسد الكلب
 أراد بها أن يملك الشام عتوة * وقد غلبت عنه الضراغة الغلب
 وما ذم فيها العيش حتى صدمته * قال جناح الجديش وانكسر القلب
 فولى وأطراف الرماح كأنها * تجحوم عليه بالنبسة تنصب
 ولابن منير قصيدة مدح أنابك زكى رحمه الله سيأتى بعضها غنذكر فتحه مدينة الرها إن شاء الله تعالى ومنها

وما يؤم كلب الروم إلا أخر الذى * أزجت به مافى الجناح من نبل
 اتاك بمثل الروم حشدا وانه * لي فضل اضعا كبرا عن الرمل
 فقالت له بالله ثم بعزمته * نصك قلوب العاسقين بما يسلى
 نوههم ان الشام مرعى وما درى * بأنك أمضى منه فى السزور والسحل
 فطار وخسر المغنمين ذماؤه * اذ اردعنه مغن المال والاهل

قال ابن الاثير ومن عجائب ما يحيى فى هذه الحادثة ان الجبريلا واصل بقصد الروم سيز رغام الامير مرشد بن على أخو
 صاحبها وهو يسبح مصحفا فرقه بعده وقال اللهم بحق من أنزلته عليه ان قضيت بحجى الروم فاقبضني اليك فنوفى بعد
 أيام ونزل الروم بعد وفاته ولما عاد الروم الى بلادهم نزل أنابك الى حصن عرقه وهو من اعمال طرابلس فحصره وفتح
 عتوة ونهب مافيها وأسروا من به من الفرنج وأخربه وعاد سالما غانما وفيها ملك قلعة دارا من حسام الدين عمرناش وفيها
 توفي بهاء الدين على بن القاسم الشهرزورى فاضى الممالك الانابكية وكان أعظم الناس منزلة عنده وفيها ولد صلاح
 الدين يوسف بن أيوب يتذكر

(فصل) في فتح شهر زور وبعليك وحصار دمشق قال ابن الاثير كانت شريزور واعمالها وما يجاورها من البلاد
 والجبال في يد قنچى بن ارسلان تاش التركانى وكان ملكها فاخذ الحكم على قاضى التركان ودانيه هم برون طاعته
 فراضا فاجمى الملوكة قصد ولايته ولم يعترضوا لها لاصالتها فقه ظم شأنا وازداد جمعها فلما كانت سنة أربع وثلاثين
 بلغ الشهيد أنابك عنه ما اتفق ان يقصد بلاده فهزم عسكره وملك بلاد شهر زور وغيرها فاضافها الى بلاده واصلح
 احوال أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلغونه من التركان وعاد الى الموصل عازما على المسير الى الشام فانه كان لا يرى
 ألفام يل لا ير لظاعنا ما لا تعدو بقصدته واما القصد بلاد عدو واما الغزو والفرنج وسد الغور وكانت مياثر السروج
 أثر عنده من ثياب المهادر والسهر في حراسة المملكة أحب اليه من عرض الوساد وأصوات السلاح الذى سمعه من الغنا
 لا يجد لذلك كله عنا وفي هذه السنة وهى سنة أربع وثلاثين ولد تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن ساذى وفيها
 سار الشهيد فى جنده بعد مائة شهر زور الى مدينة دمشق فحصرها وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بورى بن
 طغتكين وكان يحكموا عليه والغالب على أمره معين الدين بن مملوك جد طغتكين وكان أنابك قد أمر كمال الدين
 ابى الفضل بن الشهرزورى بكتابة جماعة من مقدمى احدثا ورنا طرعا واستماتهم وابعادهم فى الرغائب والصلوات
 ففعل ذلك فأجابهم منهم خلق كثير الى تسليم البلد وخرجوا متفرقين الى كمال الدين وجدد عليهم العهد وتواعدوا وبما
 يزحف فيه الشهيد الى البلد فتحواله الباب وبسماو البلد اليه فاعلم كمال الدين الشهيد أنابك بذلك فقال لا أرى
 هذا رأيا فان البلد ضيق الطرق والشوارع ومضى دخل العسكر اليه لا يتكئون من القتال فيه لضيقه ورأى أكثر المقاتلون
 لنا فتهجز عن مقاومتهم لانهم يقاتلون على الارض والسطوح وادخلنا البلد اضطررنا الى التفرق لضيق المسالك
 فطامع فينا أهلها وعاد عن ذلك العزم يجرمه وحذره

ومن العجب ان محمد بن بورى صاحب دمشق توفى وأنابك بحصره فضبط آبر الامور وباس البلد فلم يتغير بالناس
 حال وأرسل الى بعليك فأحضر ولده مجير الدين آق بن محمد بن بورى ورتبه فى الملك مكان أبه فبنى الحسا ليتكبن
 معين الدين آيز وحسن دهره وهذا مجير الدين آق هو الذى منه أخذ نور الدين محمود بن زكى دمشق كما سيأتى ولما
 دخل مجير الدين دمشق اقطع بعليك معين الدين آيز فأرسل اليها نائبه وتسليمها فلما علم الشهيد ذلك سار الى بعليك

كتاب (٣٤) الروضتين

وحصرها عدة شهور فلما عذوة وترك بها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين دزدارا وعزم على العود عنها إلى دمشق فجاءته رسول صاحبها يذل الطاعة والخطة فأنجاه إلى ذلك وعاد عن قصد دمشق وقد خطب له فيها وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه قال يحيى ابن أبي طى الحلبى واتفق أن الأمر المازن لأمير بعلبك أفسدوا ذخائرها فقبض عليهم أتائبك زنى وقيل بعضهم وصلبهم وكان ولي قتلهم صلاح الدين محمد بن أيوب النابغى سألني فحكى أنه أحضر إليه في جلة الأمر الشيخ ملج الشيبه ومعه ولده أمر دكانه فلقه فرفق فقال الشيخ صلاح الدين سألتك بحياة المولى أتائبك الأصلبني قبل ولدى لئلا أراه يعالج سكرات الموت وبكى وكان نجم الدين أيوب واقفا فرحم الشيخ وبكى وسأل صلاح الدين في إطلاقه فقال ما فعل خوفان المولى أتائبك فذهب نجم الدين إلى أتائبك وسأله في الشيخ وولده وقص عليه ما قاله فاذن باطلاقه واطلاق من بقي من الجماعة وهبهم نصف بعلبك وقيل أن نجم الدين ورد على أتائبك وهو قد ملك بعلبك فسأله في الأمر فأطلقهم له وولاه بعلبك وكتب له لثما ملكا واستقر فيها هو وأهله ولم يزل بها إلى أيام نور الدين محمود بن زنى فأخرجه منها على ما سئذ كره ثم إن أتائبك بعد ملكه بعلبك سار إلى دمشق فنزل البقاع فوردت هدية صاحب دمشق وبطلب العودو يعطيه خمسين ألف دينار ويعطيه خمس فأسار نجم الدين على زنى بقبول ذلك وقال هذا مال كثير وقد حصل بلا تعب وبلد كبير ولا عناء ودمشق بلد عظيم وقد آلف أهله هذا البيت وتزوجوا على سياستهم وقد بلغتهم الأحوال التي حرت بعلبك فامتنع زنى من قبول ما أشار به ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه

(فصل) ثم سار أتائبك الشهيد في هذه السنة وهى سنة أربع وثلثين إلى بلاد الفرنج فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه فلقبهم بالقرب من حصن بارين وهو للفرنج فحصر الفريقان صبر إلى سبع مئة إلا ما يحكى عن ليله الهرب ونصر الله المسلمين وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم فدخلوا حصن بارين وفيهم ملك القدس لأنه كان أقرب حصونهم وأسلموا عذتهم وعتادهم وكثروا فمهم الجراح ثم سار الشهيد إلى حصن بارين فحصره حصارا شديدا فراسلوه في طلب الأمان ليسلموا أو يسلموا الحصن فأبى إلا أخذهم قهرا فبلغه أن من بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجذونهم وينهون اليهم ما فيه ملوكهم من الحصر فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل ومن بالحصن لا يعلمون بشئ من ذلك لقوة الحصر عليهم فأعادوا أمر أسلته في طلب الأمان فأجابهم وتسلم الحصن وساروا فلقيتهم أمداد النصرانية فسألوه عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن فلاموهم وقالوا نحن نتم عن حفظه يوما أو يومين خلفوا الحسم أن لم نعلم بوصولكم ولم يبلغنا عذتكم خبر منذ حصرنا إلى الآن فبأعياب الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا خلفنا نادانا بتسليم الحصن قال ابن الأثير وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج عن المسلمين فإن أهله كانوا قد خروا ما بين جهاء وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل فأزال الله تعالى بالشيخ بدرجه الله هذا الضر العظيم وفي مدة مقامه على حصن بارين سير جنده إلى المعرة وكم طاب وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها وهى بلاد كبيرة وقرى عظيمة قلت وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج ويحذر زنى قصدت أولها

حذرنما وأنى يقع الحذر * وهى الصوارم لا تبقى ولا تدور
وأين ينجو ملوك الشر من ملك * من خيله النصر لابل جنده القدر
سلاو أسوفا كأنهم السوف بها * صالوا فاعمدوا واصلوا لا شهروا
حتى إذا ما عباد الدين أرقهم * فى مازق من سناه يبرق البصر
ولو اتضيق لهم ذراع سالكهم * والموت لا ملبأ منه ولا وزر
وفى المسافة من دون النخاء لهم * طول وان كان فى أقطارها قصر
وأصبح الدين لا عيننا ولا أثر * يخاف والكفر لا عين ولا أثر
فلا تخف بعدها لا فرنج قاطبة * فالقوم ان نفروا أولى بهم نفر
ان قاتلوا قتلوا أو حاربوا حربوا * أو طاردوا طردوا أو حاصروا حاصروا
وطالما استغل الحظ البهم بهم * حتى أتى ملك آراؤه غرر
والسيف مقترع أبكار أنفسهم * ومن هنالك قيل الصارم الذكر

في أخبار (٢٥) الدولتين

لما فرقت ظل محبي العدل لامة* كالصبح تطوى من الاعداء مانشروا
ولانثى النصر عن أنصار دولته * بحيث كان وان كانوا يد نصر وا
حتى تعود نغور السام ضاحكة * كأنما حل في أكافهم عر
وقال ابن منير

فذلك الملوكة وأيامها * ودائم لنقصك إرامها
وزلت لعيشك أقدامها * وزال لبطشك إقدامها
ولو لم تسلم اليك القلوب * بهواها لما صبح اسلامها
أيامجي العدل لما نعا * هأيامى البرايا وأنتامها
ومستنقذ الدين من أمة * أزال المحارب أصنامها
دلفت لها تنقيفك الاسو * دوالبض والشعر آجامها
جزرت جزيرتها بالسبو * فحتى تشاء مهاشامها
وصارت عوارى أكافه * متى شئت أرخص مستامها

قال ابن الاثير ولما وصل الروم والفرنج الى الشام ورأوا الامر قد فأت أرادوا جبر مصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين
فمازلوا حلب وحصر وهما فخر الشهيدان بخاطر بالسيان وبما هم لانهم كانوا في جمع عظيم فالحاز عنهم ونزل
قريباً منهم جمع عنهم الميرة ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها والاعارة عليهم وأرسل القاضي كمال الدين بن
الشهرزورى الى السلطان مسعود ينهى اليه الحال بأمر البلاد وكثرة العدو ويطلب منه الجدة وارسال العساكر
فقال له كمال الدين أخاف ان تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة ويفذ العساكر فاذا توسطوا البلاد
ملكوهما فقتل الشهيدان هذا العدو قد طمع في وان أخذ حلب لم يبق بالشام اسلام وعلى كل حال فالمسلمون أولى
بهام من الكفار قال فلما وصلت الى بغداد وأذيت الرسالة وعدنى السلطان بانفاذ العساكر ثم أهل ذلك ولم يتحرك فيه
بشيء وكتب الشهيد الى متصلة يخشى على المبادرة بانفاذ العساكر وأنا أخاطب فلما اراد على الوعد قال فلما رأيت
عدم اهتمام السلطان بهذا الامر العظيم أحضرت فلانا وهو فقيه كان ينوب عنه في القضاء فقلت خذ هذه الدنانير
وقررها في جماعة من أوياش بغداد والاعاجم واذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وانت معهم
واستغاثوا بصوت وأحدوا اسلاماه وادين مجدها ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين ثم وضعت
انساناً آخر يفعل مثل ذلك في جامع السلطان فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى
عمامة عن رأسه وصاح وتبعه أولئك النفر بالصياح والبكاء فلم يبق بالجامع الا من فام يسكى وبطلت الجمعة وسار
الناس كلهم الى دار السلطان وقد فعل أولئك الذين بجامع السنان مثلهم فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند
دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون وخرج الامرء عن الضبط وخاف السلطان في داره وقال ما الخبر فقبل
له ان الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر الى الغزاة فقال أحضر وا ابن الشهرزورى قال فحضرت عنده وأنا خائف
منه الانثى قد عزمت على صدقه وقول الحق فلما دخلت عليه قال يا فاضى ما هذه الفتنة فقلت ان الناس قد فعلوا
هذا خوفاً من الفتنة والشرو لا شك ان السلطان ما يعلم كمينه وبين العدو وانما ينكم تحو أسبوع ولئن أخذوا حلب
انحدروا اليك في الفرات وفي البر وليس ينكم بلديمتهم عن بغداد وعظمت الامر عليه حتى جعلته كانه ينظر
اليهم فقال اردد هؤلاء العامة عنا وخذ من العساكر ما شئت وسر بهم والامداد تحقك قال فخرجت الى العامة
ومن انضم اليهم فأخبرتهم وعزفتهم الحبال وأمرهم بالعود فعدوا وقرقوا وانتخب من عسكره عشرة آلاف فارس
وكتبته الى الشهيد أعترفه الخبر وان لم يبق غير المسير وأجدد استدانته في ذلك فأمرني بتسبيحهم والحث على ذلك
فعبرت العساكر الجانب الغربى فبينما نحن نتجهز للركنة واذا قد وصل نجاب من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج
قد رحلوا عن حلب خائبين فلم ينالوا منا غرضوا يأمري بترك استحباب العساكر فلما خطب السلطان في ذلك أصر
على انفاذ العساكر الى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها وكان قصده ان تظا عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها

كتاب (٣٦) الروضتين

فمأزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي وسرت إلى الشهيد قال ابن الأثير فانظر وإلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس يعني كمال الدين رحم الله الشهيد فلقد كان ذاهبة عابية ورغبة في الرجال ذوى الرأي والعقل يرغبهم ويخطبهم من البلاد ويوفر لهم العطا (حكى لى والدى) قال قيل للشهيد ان هذا كمال الدين يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أمير يدعيه وغيره يقع منك بنجسائة دينار فقال لهم بهذا العقل والرأى تدبرون دولتى ان كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكسر له خمسمائة دينار فان شغلا واحدا يقوم فيه كمال الدين خيراً من مائة ألف دينار وكان كما قال رحمه الله تعالى

(فصل) قال وفي سنة سبع وثلاثين سار الشهيد إلى بلاد الهكارية وكان بيد الأكراد وقد أكثروا في البلاد الفساد الآن نصير الدين جقزنائب السلطان الشهيد بالموصل كان قدم ملك كثير من بلادهم فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعباني وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها فلما كملها وأخربها وأمر ببناء قاعة العمادية عوضاً عنها وكانت هذه العمادية حصناً كبيراً عظيماً فأخربها الأكراد بالعجزهم عن حفظه لكبره فلما ملأ نائب الله الشهيد البلاد التي لهم قال اذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأناجول الله لا أنجز عنه فأمر ببنائه وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر فبنى الحصن وسماه القلعة العمادية نسبة إلى عمه عاد الدين وفي هذه السنة خطب لاتبابك وأمر أن يرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والالتقاء إلى خدمته والخطبة له فأجابته إلى ذلك وفيها ملك الشهيد مدد مئة مائة وفيها حصر مدد مئة مائة أخرى وفتحها في شوال وقصد ولاية دمشق فشتى بها وفي سنة ثمان وثلاثين عزم السلطان مهود على قصد الموصل بعساكره وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة فترددت الرسل بينهما حتى استقرت الحال على مائة ألف دينار أمامية يجهلها الشهيد إلى السلطان وطلب ان يحضر الشهيد في خدمته فامتنع واعتذر باستغاله بالفرنج فغذره وشرط عليه فتح الرها وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل انه قيل له ان مملكة البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير اتابك عماد الدين فانها قد وليها قبله مثل جاولى وسقاة ومودود وجوش بك والبرقي وغيرهم من الأكابر وكان السلاطين يمدونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدرون على حفظها ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى ان وليها اتابك فلم يمهأ أحد من السلاطين بفارس واحداً ولا ببال ومع هذا فقد فتح من بلاد العدو عدة حصون وولات وهزمهم غير مرة واستضعفهم وعز الاسلام بهم ومن الأسباب المتاعلة له أيضاً ان الشهيد كان لا يزال ولد الاكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده وكان السائد ان يحبه ويقرب ويعتد عليه ويثق به فأرسل اليه الشهيد يدأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل وأرسل إلى نائبه بالموصل بأمره ان يمنعه من دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً ففعل ذلك وقال له ترسل إلى والدك تستأذنه في الذي تفعل فأرسل اليه فعاد الجواب اني لا أريدك معهما السلطان ما خط عليك فإزمنة بالعود اليه فعاد ومعه رسول إلى السلطان يقول له اني لما بلغني ان ولدي فارق الخدمة بغیر اذن لم اجتمع به ورددته إلى بابك فخل هذا عند السلطان شكلاً كبيراً وأجاب إلى ما أراد الشهيد دولاً ما تقر المال لجل منه نحو عشرين ألف دينار ثم ان الامور تقلبت وعاد أصحاب الارطاف خرجوا على السلطان فاحتاج إلى مداراة الشهيد وأطلق له الباقي استماله له وفي هذه السنة سار الشهيد إلى ديار بكر ففتح عدة بلاد منها طرّة واسغرد وملك مدينة المعدن الذي يعمل منه النحاس من ارمينية ومدينة حران وأخذ من اعمال ماردين عدة مواضع ورتب أمور الجميع وملك مدينة حاني وحاصر آمد وأرسل عسكر إلى مدينة عانة فدخلها له وتقدم ذكرها في السنة قبلها

(فصل) في فتح الشهيد الرها في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وكانت جلوسلين وهو عاني الفرنج وشيظانهم والمقدم على رجالهم وفارساتهم وكانت مدة حصارها ثمانية وعشرين يوماً وأعادها إلى حكم الاسلام وهذه الرها من أشرف المدن عند التنصاري وأعظمها شأناً وهي إحدى الكراسي عندهم فأشرفها البيت المقدس ثم انطاكية ثم رومية ثم قسطنطينية والرها وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شاعر عظيم وملك كوامن نواحى ماردين إلى الفرات على طريق شجنان عدة حصون كسروج واليبره وجلس والجزر وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر وماردين ورأس عين والرقه وأما حران فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صجوها بالغازة

في أخبار (٣٧) الدولتين

فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم وعلم أنه لا ينال منها غير ضامادام جوسلين بها فأخذ في أعمال الحبل والخذاع لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الاسلام فكان في وجبيل جور وأمد فكان يقاتل من يهاقه لأنه إبقاء وهو يسر حشوا في ارتقاء فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ويظهرها وسواها يروم ووكل يها من يجبره بخارج رينها من أساده وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بجرب أهل ديار بكر ظن أنه لا فراغ له إليه وأنه لا يمكنه الاقدام عليه ففارق الرها إلى بلاده الشامية ليلاحظ أعماله ويتعهد ذخائره وأمواله فأقبل الشهيد دسرت بعضا كرد إلى الرها ثم وصف ابن الأمير الجيش وأنشد

جيش جاش بالفرسان حتى * طننت البربحر من سلاح

وأسنة من العذبات حمر * تخاطبنا بأفواء الرياح

وأروع جيشه ليل بهم * وغرته عمود للصباح

صفوح عند قدرته ولعكن * قليل الصفح ما بين الصفاح

وكان ثباته للقلب قلبا * وهيبته جناحا للجناح

وألم الشهيد في حصارها فله كما عنوة فاستباحها ونكس صلبها وأبادت وسهاور هيائها وقتل شجعانها وفرسانها وملا الناس أيديهم من النهب والسبي ثم انه دخل البلاد فراقه فأنفذ من قتله من الخراب فأمر بأعادة ما أخذ من أناث ومال وسبي ورجال وجوار وأطقال فرده عن آخر علم به فتقدمهم الشاذ والنادر فغاد البلاد عامرا بعد أن كان داثرا ثم رتب البلد وأصلح من شأنه وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المادن والحصون والقرايا كسروج وغيرها وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرتهم وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين وكان فتحها عظميا طارفي الأفاق ذكره وطاب بها نسره وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء

قال ابن الأثير (حكى) لى جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران النقيبه الشافعي وكان من العلماء العاملين والزهادين في الدنيا المتقنين عن أهواله الكرامات الظاهرة ذكر وعنه انه غاب عنهم في زاوية يومه ذلك ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور وعنده من الارتياح ما لم يروه أحد فباقدهم فحدثني بعض اخواننا أن ابنا بلن زكي فتح مدينة الرها وأنه شهد معه فتحها يوم مناهذه ثم قال ما بضرك يا زكي ما فعلت بعد اليوم ردد هذا القول من أرافضه بعد ذلك اليوم فكان يوم الفتح ثم ان نفر من الاجناد حضر واعنده هذا الشيخ وقالوا له منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح وهو ينكر حضورهم يسمون أنهم رأوه هيانا قال وحكى لى بعض العلماء بالأخبار والانساب وعوا علم من رأيت بها قال كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتح الرها وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسابين وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع الى قوله وبقته معه على من عنده من الرهبان والتسدين فلما كان الوقت الذي فتح فيه الرها سبى من الفرنج هذا جيشا إلى البحر إلى افرريقية فنهبوا وغاروا وأمر واجبات الاخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعتس وهو شبهه التسم فأيقظه الملك ونال في فاعيه فدفعل أصحابا بالمسبيين كيت وكيت أين كان محم دعى نصرتهم فقال له كان قد حضر فتح الرها فتضاحك من عنده من الفرنج فقال لهم الملك لا تفصحوا فوالله ما قال عن غير علم واستند هذا الملك فلم يرض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسابين فأنساهم شدة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر لعلوا منزلة الرها عند النصرانية قال وحكى لى أيضا غير واحد من أنق الهم أن رجلا من الصالحين قال رأيت الشهيد بعد تله في المنام في أحسن حال فقلت له ما فعل الله بك فقال غفر لي قلت بماذا قال بفتح الرها قلت وهناه القيسراني عند فتح الرها بقصيدة أولها

هو السيف لا يغنيك الاجلاده * وهل طوق الاملاك الانجاده

وعن ثمر هذا النصر فأتاخذ الظبا * سناها وان فات العمود انتقاده

سمت قبة الاسلام غرا بطوله * ولم يك يسمو الدين لولا عماده

وزاد قسيم الدولة ابن قسيمها * عن الله ما لا استطاع زياده

ليهن بني الايمان أن ترفعت * رواسيه عزواطمأن مهاده

كتاب (٣٨) الروضتين

وقع حديث في السماع حديثه * شهي الى يوم المعاد معاده
 أراح قلوبا طرن عن وكلائها * عليها قواف كل صدر فؤاده
 لقد كان في فتح الرها دلاله * على غير ما عند العالج اعتماده
 يرجون ميلاد ابن مريم نصرة * ولم يغن عند القوم عنه ولاده
 مدينة أفل منذ خسين حجة * يقل حديد الهند عنها حداده
 تقوت مدى الابصار حتى لوانها * ترقب اليه خان طرف اسواده
 وجاءحة عز الملوكة قيادها * الى ان شاهان يعزتيادها
 فبأوسعه حار القراع مؤيد * بصير بتمرير الالذ لاداه
 كان سنالمع الاسنة حوله * سرار ولكن في يديه زناده
 فأضرمها نارين حربا وخذعة * فزارع الاسورها وأتمهاده
 فصدت صدور البكر عند اقتضاها * وهبها كان السيف حتما سفاها
 فياظر اعم البسلام صلاحه * بمن كان تدعم البلاد فساده
 فلا مطلق الاوشد وناقسه * ولا موق الا وحل صفاده
 ولا منبر الا ترغ عوده * ولا مصحف الا أثار مداده
 فان يشكل الابرتر فيها حياته * والاقل للنجيم كيف سهاده
 وبات سرايا الفهم تقص دونها * كما تنزعا عن حريق حراده
 الى أين بأسرى الضلالة بعدها * لقد ذل غاوبكم وعز رشاده
 رويدكم لا مانع من مظفر * يعاند أسباب القضاء عناده
 مصيب سهام الرأي لوان عزمه * رمى سددى القرنين أصمى سداده
 وقل لملوك الكفر تسلم بعدها * مما لكها ان البسلام بسلامه
 كذا عن طريق الصبح طليقة الدجى * فيا طالم غال النالام امتداده
 ومن كان املاك السموات جنده * فأبى أرض لم ترضها جواده
 ولله عزم ماء سحر ان ورده * وروضة قسطنطينية مستراده

وله من تصيد هئابها القاضى كمال الدين بن الشهر زورى أولها

هي جنة المأوى فهل من خاطب

يقول فيها

ان الصفايح يوم صاحفت الرها * عطف عليها كل اشوس ناكب
 فتح الفتوح مبشرا بتمامه * كالنجر في صدر النهار الايب
 لله أبة وقفة بدرية * نصرت مجا ثبا بأمن صاحب
 ظفر كمال الدين كنت لقاحه * كم ناهض بالحرب غير محارب
 وأمدكم جيش الملايك نصرة * يسكتا ب محمودة بكتائب
 جنبوا الدبور وقد تمورح الصبا * جند النبوة هل لها من غالب
 أترى الرها الورها يوم تمتعت * ظنت وجوب السور سورة لاعب
 لا أين بأسرى المهالك بعدها * ضاق القضاء على نجاد الهارب
 شدا الى أرض الفرنجة بعدها * ان الدروب على الطريق اللاحب
 أفسرتم والنار رهن دمائكم * ما كان من اطراق لحظ الطالب
 واذا رأيت الليث يجمع نفسه * دون القريسة فهو عين الوائب

في أخبار (٣٩) الدولتين

وقال ابن منبغر

صفات مجدك لفظ جل معناه * فلا استرد الذي اعطاك الله
يا صارما يمين الله قائمه * وفي أعالي أعادي الله حذاه
أصحت دون ملوك الارض منفردا * بلا شبيه اذا لاملك أشباه
فذاك من حاولت مسعالك همته * جهلا وقصر عن مسعالك مسعاه
قل للاعادي الامونوا به كذا * فأنه خيبكم والله أعطاه
ملك تنام عن العشاء همته * تقي وتسهر للمعروف عيناه
ما زال يسمعك والايام تمخذه * فيما ابتلاه يؤدي ما توخاه
حتى تعالت عن الشعرى مشاعره * قدرا وبازرت الجوزاء نعلاه
وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا * وأين مما روه ما رأناه
أين الخلائف عن فتح أفع له * مظلل أفق الدنيا جناحاه
على المنابر من أنباء أرج * مقطوبة بقتيق المسكر نياه
فتح أعاد على الاسلام هجته * فافتربمسمعه واهتز عطفاه
بهذي بعنضم بالله قد كته * حدينها نسخ الماضي وأنساه
ان الزها غير غورية وكذا * من راءها ليس مغزاه كغزاه
أخت الكواكب عزاما بفا أحد * من الملوك لها وقافواتاه
حتى دلفت لها بالعزم يسحذه * رأى يبيت فوبق النجم مسراه
مشعرا وبنا الاسلام في سفل * عن بدء غرس لهم أنمار عقباه
يا محبي العدل اذ قامت نواديه * وعامر الجود لما فتح مغناه
يانعمة الله يستصفي المزيديها * للسالكين ويستقني صفياه
أبقالك للدين والدنيا تحوطهما * من لم يتوكل هذا التاج الا هو

ولابن منبر ايضا من قصيدة تقدم بعضها

أيامك كالآتي على الشرك ككلا * أناخ على أماته كالكل النكل
جعلت الى فتح الزها سديابه * بجعلك بين النهب والسر والنقل
هو الفتح أنسى كل فتح حديده * وتووج به سطور الرواية والنقل
فضضت به نقش الخواتم بعده * جزيت جزء الصدق عن خاتم الرسل
تجردت للاسلام دون ملوكه * تبسك أسباب المذلة والخذل
أخو الحرب غذته القراع مفذا * يشوب باقدام الفتى خنكة الكهل

وله من قصيدة أخرى

بعماد الدين أضحيت عروة الدي * من معصو بابها الفتح المبین
واستزادت بقسيم الدولة الفس * من ادحاض كيد المارقين
ملك اسهر عينها لم تزل * همها تسريد هم الرافدين
لا خلت من كحل النصر فقد * فقأت غيضا عيون الحاسدين
كل يوم مر من أيامه * فهو عبيد عائد للمسلمين
لو جرى الانصاف في أوصافه * كان أولاهام أمير المؤمنين
ماروى الراون بل ماسطروا * مثل ما خطت له أيدي السنين
اذا ناخ الشرك في أكنافه * بمأى ألف تلاها بمئين

كتاب (٤٠) الروضتين

وقعة طاحت بكلب الروم من * قطعة البين الى قطع الوتين
 ان حث مصر فقد قام لها * واضح البرهان ان الصين صين
 والرها لولم تكن الا الرا * لكفت قطعاً لشك المترين
 هم قسطنطين ان يفرعها * ومضى لم يحومها قسط طين
 ولكم من ملك حاولها * فتحلا الحين وسما في الجبين
 هي أخت النجم الا انها * منه كالنجم لرأى المبصرين
 منعت منه بلث فائد * بعدوان الذل آساد العرين
 زارها رزأ في أسدوغى * تبدل الاسد من الزأر الانين
 صولجوا بالبيض من يضرب نثر * الهام في ساحاتها نثر الكرين
 يالهامة تغر أنحكت * من بنى القلف تغور الشامتين
 برنست رأس برنس ذلة * بعدما جاست حوايا جوسلين
 وسروج مذوعت أسراجها * فرقت جماعها عنها عضين
 تلك أقفال رماها الله من * عزمه الماضي بخير الفاحين
 شام منه الشام رفا ودقه * مؤمن الخوف خفيف الآمين
 كم كنيس كندت قد رامها * منه بعد الروح في ظل السفين
 دنت الآجال من آجالها * فأختها القضا بعد القطين
 ومنار يجتلي صلبانه * بين يرض نتبارى في السبرين
 قرعته البيض حتى بذلت * قرعة الناقوس تنوب الاذنين
 بالقسيمات مقسوم لها * سدهر في عدك الجين أو الحين
 سل بها حزان كم حزى سقت * برداً من يوم ردت ماردين
 سمطت أمس سيمساط بها * نظم جيش منهج المناظرين
 وغدا باقى على القدس لها * كل كل يدرس يدرس الدرين
 همة تسمى وتسمى عزمة * ليس حصن ان تحطه بحصين
 قل لقوم غرهم امهاله * ستمدقون سذاه بعدحين
 انه الموت الذى يدرك من * فتر منه فسحاً للعاملين
 وهو يحيى ممسكاً عروته * انها جبل لمن ناب متين
 من بطع نخوم بمكر يكن * من غداة عبدة للآخرين
 بك يا خمس المعالي ردت * روح في الميتين من دنيا ودين
 أقسم الجدد بأن تبقى لكى * تملك الارض بيننا لا يمين
 وتفيض العدل في اقطارها * منسيا مؤلم عسف الجارين
 لا تزل دارك كيف انتقلت * كعبة محفوظة بالثاقفين
 كل يوم يجلى جيسدها * من نظم المدح بالذالعين
 كلما أخلص فيها دعوة * لك قالت ألسن الخلق أمين

(فصل) لما فرغ الشيد من أخذ الراها واصلاح حالها والاستيلاء على ما وراءها من البلاد والولايات
 سار الى قلعة البصرة وهي حصن حصين مطلى على الفرات وهو جوسلين أيضاً فحصره وضايقه فأناه الخبر بقتل نائبه
 بالموصل والبلاد الشرقية نصير الدين جعفر بن يعقوب فرحل عنها خوفاً من ان يحدث بعده في البلاد حتى يحتاج الى
 المسير اليها فلما رحل عنها سار اليها حسام الدين تمش بن اليغازى صاحب ماردين عسكر أسلمها الفرنج اليهم

في أخبار (٤١) الدولتين

خوفاً من الشهيد ان يعود اليهم فياً أخذها وكان قتل النصير في ذى القعدة سنة تسع وثلاثين وسببه ان الملك الب ارسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان مسعود وأصحاب الاطراف يرون ان البلاد التي بيده للملك الب ارسلان وانه نأجبه فيها وكان اذا ارسل رسولا أو أجب عن رسالة فأنما يقول قال الملك كذا وكذا او كان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر باسمه ويخرج الاموال ويطلب السلطنة فعاجلته المنية قبل ذلك وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة وبها نصير الدين وهو ينزل اليه كل يوم بمخدومه ويقف عنده ساعة ثم يعود فحسن المفسدون للملك قتله وقالوا له انك ان قتلته ملكك الموصل وغيرها ويهز اتابك ان يقيم بين يديك ولا يجتمع معه فارسان عليك فوق هذا في نفسه وظنه صححاً فلما دخل نصير الدين اليه على عادته وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوا ودوا للقرور أسه الى أصحابه ظناً منهم ان أصحابه اذا رأوا رأسه فقتلوا وعلمك الملك البلاد وكان الامر بخلاف ما ظنوا فان أصحابه وأصحاب اتابك الذين معه المارأوا رأسه فالتوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير وكانت دولة الشهيد معلومة بالرجال الاجلاد ذوى الرأى والتجربة فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء وكان في جملة من حضر القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى أخو كمال الدين فدخل الى السلطان وخدعه حتى أصعداه الى القلعة وهو يحسن له الصعود اليها وحينئذ يستقر له ملك البلاد فلما صعد القلعة سجنوها وقتل الغلمان الذين قتلوا النصير وأرسلوا الى اتابك يعرفونه الحال فسكن جاشه واطمأن قلبه وأرسل زين الدين على بن بكتكين واليا على قلعة الموصل وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه فسلك بالناس غير الطريق التي سلكها النصير وسهل الامر فاطمان الناس وأمنوا وازدادت البلاد معه عمارة ولما رأى الشهيد صلاح أمر الموصل سار الى حلب فجهز منها جيشاً الى قلعة شيزرو وبناها وبين حماراً بعة فراسخ فحصرها قلت كذا وقع في كتاب ابن الاثير وقد وهب في قوله الب ارسلان المعروف بالخفاجي بالخفاجي غير الب ارسلان على ما ذكره العماد الكاتب في كتاب السجوقية فانه قال كان مع زنكي ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أحدهما يسمى الب ارسلان وهو في معقل من معاقل سنجار والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجي وهو بالموصل وكان هذا الملك مسلماً الى الامير ديس بن صدقة فأنزعه منه زنكي في حرب جرت فكانت زوجة زنكي خاتون السكانية تربيه حتى بلغ وكان النصير يقبض عسانه ويسط فيه لسانه ويقول ان عقل والاعقلته وان نقل طبعه ولا ثقلة فذكر في قتله مع أصحابه فقطعه في دليزداره ما دخل السلام على الملك ثم أصعد القاضي تاج الدين الملك الى القلعة فلم ير له أثر والنقط على الملك ثم عطف زنكي على الملك الا ان الب ارسلان فاستخبره من معقله وعنى بتفاصيل أمره ووجهه وضرب له نوبة ونوبا ورتب له في حالتي ركوبه وجلسه رتباً وأغرى بتولى أكرامه وتوحيه وغرضه خفاء ما جرى من هلاك أخيه ثم ذكر قصة موت زنكي على قلعة جعبر كما سيأتى وفي سنة أربع وخمسمائة أرسل اتابك الى زين الدين على يأمره بالرسال عسكر الى حصن فنك يحصره فسير خاقاً كثيراً من الفرسان والرجال فأقاموا عليه يحصرونه ان اتاهم الخبر بقتل الشهيد اتابك وهذا الحصن هو مجاور بحر ذابن عمر وهو لا كراد البشتوية وله معهم مدة طويلة يقولون نحو ثمانمائة سنة وهو من أمتع الحصون مطل على دجلة وله سرب الى عين ماء لا يمكن ان يحال بين أهله وبينها قلت وفي هذه السنة أنشد ابن منير بالركة عماد الدين زنكي يمينه بالعاقبة من مرض عرض له في يده ورجله فصيده أولها

يأبدر لأقل ولا محاسق * ولا يرم مشرقك الاشراق
بالدين والدنيا الذي يشكو وهل * بهتز فرع لم يقمه ساق
لن تورق القصب ويجري ماؤها * الا اذا ما التأتأت الاعراق
ان الرعا ياماسلت في حجي * للخطب عن طرقة اطراق
غرس بالعدل لهم خائلا * ترع في حديثها الاحداق
باهضة الدين التي عاذ بها * فعاد لا بقت ولا ارهاق
ولم تحطه راحلا وفا فلا * أصيح لاشام ولا عراق
عماد ذين مذ أقام زيفه * حي ومات الشرك والنفاق

مكتاب (٤٢) الروضتين

يا محبي العدل الذي في ظله * تسر بلى زينتها الآفاق
 يقد بلى من لان مهاد جنبه * لما نبا يجنبك الافلاك
 من لشرا سيفك انطت نهلا * هذب وما عيشته زعاق
 تجزع السم ولولم تحمسه * بحمدته لغزه الدرياق
 ملوك أطراف حتى أطرافها * عزمك هذا اللاحق السباق
 لولم ترق ماء كرى العين لما * ساغت بأفواههم الارياق
 شقت من دونهم مرج الردا * وشق أ بكادهم السفاق
 أقسم لو كذبتهم ان يسموا * حديث أيامك ما أطاقوا
 لما اشتكت رب في أهوائهم * نوحس للسمع واستراق
 تطاولوا لاعدمت أمالهم * قصرأ ولا جانبها الاحقاق
 توهوها غسقا ثم انجلت * والصفون مشربهم غساق
 لسئن ألم ألم بقدم * خداسها لنعلها طراق
 أو كان مديده الى يد * يجري بها الآجال والارزاق
 فالنصل يعلى صدا وتحت * حد حسام وسنا رقرق
 رمى الصليب بصلب الراى عن * زوراء أو هي زعها الاغراق
 ونوم من خلف الخليج سهر * والعيش في فرجة سياق
 مانوا فلا هس ولا اشارة * خوف هوس زاره ازهاق
 لاسبقت منك الالي الى ما كست * ولا عرت حذتك الاخلاق

(فصل) في وفاة زنكي رحمه الله قال ابن الاثير كنت قلعة جبر قد سلمها السلطان ملكشاه الى الامير سالم بن ملك العقيلي لما ملك قسم الدولة مدينة حلب فلم تزل بيده ويداؤلا الى سنة احدى وأربعين فسار اليه يسد اليها فحصرها وحصر فنك ك لايتقي في وسط بلاده ما هو لغيره وان قل العزم الذي كان عنده والاحتياط وأقام عليه يحصره نفسه الى ان مضى من شهر ربيع خمس ليال فييناهاوناهم دخل عليه نفر من محاليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهر بوا من ليلتهم الى القلعة ولم يشعرا بحصاه يقتله فلما سعد أولئك النفر الى القلعة صاح من بها الى العسكري يعلمهم يقتله فبادر أصحابه اليه فأدركه أوائلهم وبه رمق ثم ختم الله له بالشهادة اعماله

لا في الحمام ولم أكن مستيقنا * ان الحمام سميت لي بحمام
 فأضحي وقد خانه الامل وأدركه الاجل وتخلي عنه العبيد والحول فأى نجم للإسلام أفل وأى ناصر للإيمان رجل
 وأى بجرى نضب وأى بدر مكارم غرب وأى أسد اقترس ولم ينجه قلعة حصن ولا صهوة فرس فكأجهد نفسه
 لتمهيد الملك وسياسته وكأذهب في حفظه وحراسته فأناه مبيد الامم ومقنم في الحدث والقدم فأصار بعد القهر
 للضلائق مقهورا وبعد نيران المضاجع في التراب معفرا مقبورا رهين جدت لا ينفعه الا ما قدم فطويت بحقيقة عمله
 فهو موثق في صورة مستسلم ثم دفن بصفين عند أصحابه على أمير المؤمنين على رضى الله عنه مات وذكر العهد الكاتب
 في كتاب السلجوقية قال قصد زنكي حصار قلعة جبر فنزلها وكان اذا نام بنام حوله عذمة من خذاه الصباح وهو يحجم
 ويحيمونه ولكنهم مع الوفاء منه يحفونه وهم أبناء النحول القروم من الترك والروم وكان من دأبه انه اذا نتم على
 كبير أراء واقصاء واستبقى ولده عنده وأخصاء فنام ليلة موته وهو سكر ان قسر الخدام في اللعب فزجرهم وزيهرهم
 وتوعدهم فخافوا من سطوته فلما نام ركسه كبيرهم واسمه برتقش فحجمه وخرج معه خاتمه فركب فرس النبوة موهبا
 انه مضى في مهم وهو لا يرأب به لانه خاص زنكي فأنى الخدام أهل القلعة فأخبرهم وذكر الحديث قلت ثم نقل الى
 الرقة فدفن بها وقبره الان فيها قال ابن الاثير وكان حسن الصورة مليح العينين قد وخطه الشيب طويلا وليس
 بالطويل البائن وخلف من الاولاد سيف الدين غازي وهو الذي ولي بعده ونور الدين محمود الملك العادل وقطب

في أخبار (١٣) الدولتين

الدين مودودا وهو أبو الملوک بالموصل ونصرة الدين أمير أمان وبنو فافترض عقب سيف الدين من الذکور والانات ونور الدين من الذکور: لم يبق الملك الا في عقب قطب الدين وانفسد أنجب رحمه الله فان أولاده الملوک لم یکن منهم قلت ومن یجب ما حکي انهما اشتد حصار قلعة جعبر جاء في الليل ابن حسان المنجي ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابہ فقال له هذا المولى اتابک صاحب البلاد قد نزل عليك بعساكر الدين وأنت بلا وزير ولا معين وأنا أرى ان أدخل في خدمتك وأخذ لك من المولى اتابک مكانا عوض هذا المكان وان لم يفعل فأی شيء تنتظر فقال له صاحب القلعة انتظر الذي انتظر أبوک وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشد حصارا ونصب عليه عدة مجانيق وقال يوما لحسان وقد أحرقت بحجارة المنجنيق أي شيء تنتظر اما تسلم الحصن فقال له حسان انتظر سهما من سهام الله فلما كان من الغد ينابلک رب المنجنيق اذا صابه سهم غرب وقع في بستانه فخرميتا ولم یکن من جسده شيء ظاهر الا ذلك المكان لانه كان قد لبس الدرع ولم ير زها على صدره فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه وفي تلك الليلة قتل اتابک فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغريبة ذكر ذلك يحيى بن أبی طی في كتاب السيرة الصلاحية

(فصل ١٤) في بعض سيرة الشهيد اتابک زكي وكانت من أحسن سير الملوک وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوى عن التعدي على الضعيف قال ابن الاثير حدثني والذي قال قدم الشهيد الدينا يجزرية ابن عمر في بعض السنين وكان زمن الشتاء فقتل بالقلعة ونزل العسكر في الخيام وكان في جملة أمرائه الأمير عز الدين أبو بكر الديسي وهو من أكابر أمرائه ومن ذوی الرأي عنده فدخل الديسي البلد ونزل بدار انسان يهودي وأخرجه منها فاستغاث اليهودي الى الشهيد وهو راكب فسأل عن حاله فأخبر به وكان الشهيد واقفا والديسي المجانيب ليس فوقه أحد فلما سمع اتابک الخبر نظر الى الديسي نظرا مضطربا ولم يكلمه كلمة واحدة فأتى القهقري ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد ولم تكن الأرض تحتل بوضع الخيام عليها الا كثرة الوحل والطين قال فلقد رأيت الفرائسين وهم يتقلون الطين لينصبوا خيمته فلما رأوا كثرتهم جعلوا على الأرض تبنا ليقوموها ونصبوا الخيام وخرج اليها من ساعته قال وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الاملاك ويقول مهما كانت البلاد لنا فأی حاجة لكم الى الاملاك فان الاقطاعات تغني عنها وان خرجت البلاد عن أيدينا فان الاملاك تذهب معها ومتى صارت الاملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم ثم ذكر ما تجدد في أيامه من عمارة البلاد لاسميا بالموصل وذلك لحسن سيرته فكان يقصده الناس ويتخذون بلاده دارا فامة وهو الذي أمر ببناء دورا للملكة بالموصل ولم یکن بها السلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان ثم رفع سورها وعمق خندقها وهو الذي فتح الباب العمدى واليه ينسب قال وكانت الموصل أهل بلاد الله فأكثرت وكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقرض يقص به العنب لقلته اذا أراد ان يزنه فلما عمرت البلاد علمت البساتين نظار الموصلي في ولايتها قال ومن أحسن آرائه انه كان شديد العناية بأخبار الاطراف وما يجري لأصحابها حتى في خسائهم لاسمادركات السلطان وكان يفرغ على ذلك المال الجليل فكان يطلع ويكتب اليه بكل ما يقع له السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد وغير ذلك فكان يصل اليه كل يوم من عيونه عدة قاصدين وكان مع اشتغاله بالامور الجارية من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير وكان يقول اذ لم يعرف الصغير ليعن صار كبير او كان لا یمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير أمره واذا استأذنه رسول في العبور في بلاده اذن له وأرسل اليه من يسره ولا يتركه يجمع بأحد من الرعية ولا غيرهم فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئا وكان يتعهد أصحابه ويمتحنهم سلم يوما خشكانكة الى طشت داره وقال احفظ هذه فبقي نحو سنة لا يفرق الخشكانكة خوفا ان يظهر ما منه فلما كان بعد ذلك قال له أرى الخشكانكة فأخرجها في منديل وقدمها بين يديه فاستحسن ذلك منه وقال مثلك ينبغي ان يكون مستحفظا لخصن أمره بدزارية قلعة كواشي فبقي فيما ألى ان قتل اتابک وكان لا یمكن أحد من خدمه من مشاركة بلاده ويقول ان البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول فاذا خرج منها من يدل على عورتها وطامع العدو فيها زالت الهبة وتطرق الحصار اليها قال ومن صائب رأيه وفجده ان سیر طائفة من التركان الابوانية مع الامير الياسارق الى الشام وأسكنهم بولاية

كتاب (٤٤) الروضتين

حلب وأمرهم بجهاد الفرنج وملكهم كلها استنقذوه من البلاد للفرنج وجعله ملكا لهم فكانوا ناعداون الفرنج بالقتال ويرأونهم وأخذوا كثيرا من السواد وسدوا ذلك الثغر العظيم ولم يرزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستمائة قال ومن أرائه انه لما اجتمع له الاموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل وبعضها بسنجار وبعضها بحلب وقال ان جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه استعنت على سد الخرق بالمال في غيره قال وأما شجاعته وأقدامه فاليه النهاية فيهما وبه كنت تضرب الامثال وبكفي في معرفة ذلك بجله ان ولايته أحقق بها الاعداء والمنازعون من كل جانب الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها بيت سكران وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا وابن عيسى صاحب ماردين ثم الفرنج ثم صاحب دمشق وكان ينتصف منهم ويزور كلا منهم في عقرداره ويفتح بلادهم ما عدا السلطان مسعود فانه كان لا يباشر قصده بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه فأقبلوا عاد السلطان محتاجا اليه وطلب منه ان يجمعهم على طاعته فيصير كالحاكم على الجميع وكل يذاريه ويخضع له وطلب منه ما تستقر القواعد على يده قال وأما غيره فكانت شديدة ولا سيما على نساء الاجناد فان التعرض اليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها وكان يقول ان جنسدي لا يفرقوني في أسفاري وقبلي يقيمون عند أهلهم فان نحن لم نمنع من التعرض الى حرمهم هل يمكن وفسدن قلت وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وذكر حديث ربح النبي صلى الله عليه وسلم ما عزا لاهل ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب اهل أوكلما انزلنا غزاة في سبيل الله خلف رجل في عيال له نيب كنيب التيس على الأوتى رجل فعل ذلك الا نكبت به قال ابن الاثير وكان قد أقام بقلعة الجزر قد زدار اسم نور الدين حسن البربطي وكان من خواصه وأقرب الناس اليه وكن غير مرضي السيرة فبلغه عنه انه يتعرض للحرم فأمر حاجبه صلاح الدين الباغسي ان يسيّر محمدا ويدخل الجزر فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره وعلق عينيه عقوبة لنظره بهم مالى الحرم ثم نصبه فصار الصلاح محمدا في شهر البربطي الا وقد وصل الى بلاد فرج الى لقائه فأكرمته ودخل معه البلد وقال المولى اياك يسلم عليك ويريد ان يعلى قدرك ويرفع منزلتك ويسلم اليك قلعة حلب ويوليك جميع البلاد الشامية لتكون هناك مثل نصير الدين فتحجه وتحدث مالك في الماء الى الموصل وتسير الى خدمته ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلا ولا كثيرا الا نقله الى السفن ليحدها الى الموصل في دجلة حين فرغ من جميع ذلك اخذ الصلاح وأمضى فيه ما أمر به وأخذ جميع ما له فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله قال وأما صدقائه فقد كان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري طاهرا ويتصدق فيما عداه من الايام سرامع من ينشئ به وركب يوما فعثر به دابته فكاد يسقط عنها فاستدعى أميرا كان معه فقال له كلاما لم يفهمه ولم يتجاسر على ان يستفهمه منه فعاد عنه الى بيته وودع أهله عازما على الحرب فقالت له زوجته ما ذنبك وما حلك على هذا الحرب فذكر لها الحال فقالت له ان نصير الدين له بك عناية فاذا ذكر له فصلك وافعل ما يأمر بك به فقال أخاف ان يمنعني من الحرب فاهلك فلم تزل زوجته تراجعه وتقوى عزمه فتراف انصهر حاله فضحك منه وقال له خذ هذه الصرة الدنانير واجلبها اليه فهي التي أراد فقال الله الله في دمي ونفسي فقال لا بأس عليك فانه ما أراد غير هذه الصرة فحملها اليه حين رآه قال أمعك شيء قال نعم فأمره ان يتصدق به فلما فرغ من الصدقة قصد الانصر وشكره وقال من أين علمت انه أراد الصرة فقال له انه يتصدق في هذا اليوم بمثل هذا القدر يرسل الى من يأخذه من الليل وفي يومنا هذا لم يأخذه ثم بلغني ان دابته عثرت به حتى كاد يسقط الى الارض وأرسلك الى فعلمت انه ذكر الصدقة قال وحكى لي من شدة هيئته ما هو أشد من هذا قال والذي خرج يوما الشهيد من القلعة بالجزيرة من باب السرخ جوه وملاح له نائم فأيقظه بعض الجنادرية وقال له اتعد حين رأى الشهيد سقط الى الارض فحرق كوه فوجدوه ميتا قال وكان الشهيد قليل الثأور والنقل بطيئ الملل والتغير شديد العزم لم يغير على أحد من أصحابه مذل كما الى ان قتل الا ذنب يوجب التغير والامراء والمقدمون الذين كانوا معه أولا هم الذين بقروا خيرا من سلم منهم من الموت فلماذا كانوا ينحسرون ويذلون نفوسهم له وكان الانسان اذا قدم عسكر لم يكن غريبا ان كان جندا يا شتم عليه الاجناد وأصافوه وان كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان وان كان عالما قصد القضاة بنى الشهر زوري فيحسنون اليه ويؤنسونه غربة فيعود

في أخبار (٤٥) الدولتين

كانه أهل وسبب ذلك جميعه انه كان يخطب الرجال ذوى الهم العليه والاراء الصائبة والانفس الايبه ويوسع عليهم فى الارزاق فيسمل عليهم فعل الجليل واصطناع المعروف قلت وما أحسن ما وصفه به أجدين منير من قوله فى قصيدة

فى ذرا ملك هو الدهر * ر عطاء واستلابة
من له كف تبذل الغية * ث سحاوا نساكبا
فاتح فى وجهه كل * أمة لتصر بابا
ترجف الدنيا اذا حر * لك للسير الركبا
وتحضر المشجرا * تاختلالا واضطربا
وترى الاعداء من * هيته تاوى الشعابا
واذا ما لغتهم نا * ره صاروا كبا
با عماد الدين لازا * ت على الدين مهابا
جاء سلامن دونه * سيفك ان ريع حجابا
فالبس النعماء فى الام * ن الذى طبت وطبا
واصف عيشا ن آء * داءك قد صاروا ترابا

وقال العماد الكاتب استولى زنكى على الشام من سنة اثنين وعشرين الى أن قتل فى سنة احدى وأربعين وهو الذى فتح الرها عنوه واحتل بها من السعادة فزوه فتسنى بفتح الرها المسلمين وجاس بلاد جوسلين وعاد جميعها الى الاسلام فى عهد ولد زنكى نور الدين وصارت عقود الفرنج من ذلك الحين تنفسخ وأمورها تنفسخ ومعاقلاتها تفرع وعقائلها تفتزع وقال الرئيس أبويعلى التميمي كانت الاعمال بعد قتل زنكى قد اضطربت والممالك قد اختلت بعد الهبة المشهورة والامنة المشكورة وانطلقت أيدى التركان والحرامية فى فساد الاطراف والعيث فى سائر النواحي والاكاف ونظمت فى صفة هذه الحال أبيات من قصيدة

كذلك عماد الدين زنكى تناقرت * سعادته عنه وخرت دعائمه
وكيف مال من نصار وجوهر * وأنواع ديباج حوثها محتامه
وأضحت بأعلى كل حصن مصونة * يحامى عليها جنده وخوادمه
ومن صافسات الخيل كل مطهم * يروع الاعادى حليته وبراجه
فلورامت الكتاب وصف شبايتها * بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه
وكم معقل قدرامه بسبوقه * وشاخ حصن لم تفتقه غنائمه
وكانت ولاية الارض فيها لامره * وقد أمنتهم كتبه وخواقمه
وأمن من فى كل قطار هيبته * يراع بها اعرابه وأعاجمه
وظالم قوم حـ بن يذكر عدله * فقد زال عنهم ظلمه وخصائمه
وأصبح سلطان البلاد بسيفه * وليس له فيها نظير براجه
وزاد على الاملاك بأسا وسطوة * ولم يبق فى الاملاك ملك يقاومه
فلما تنهى ملكه وجلاله * وراعت ولاه الارض منه لوائمه
أناه قضاء لا تزد سهامه * فلم تجبه أمواله ومغانمه
وأدركه الحين فيها حمامه * وحامت عليه بالمدين حوائمه
وأضحى على ظهر الفرائش مجذلا * صرعا تولى ذبحه فيه خادمه
وقد كان فى الجيش اللهم مبيته * ومن حوله ابطاله وصوارمه
وسمر العوالى حوله بأكفهم * تذود الردى عتته وقد نام نائم

ومن دون هذا عصبية قد ترتبت * بأسمهما يردي من الطير حاتم
 وكم رام في الأيام راحة ستره * وهتمه فعلوا وتقوى شكائمه
 وكم ملك للسفر آمن سبله * ومسرح حق لن زراع سوائمه
 وكم تغر اسلام حواء بسيفه * من الروم لما أدر كسه مرارحه
 فن ذا الذي يأتي بهيبة مثله * وينفذ أقصى البلاد مرارحه
 فلورقبت في كل مصر بذكوره * أراقه ذلت هناك أراقه
 فن ذا الذي يتجو من الدهر سالما * اذا ما أتاه الامر والله حاتم
 ومن رام صفوا في الحياة فابرى * له صفو عيش والجمام يحاومه
 فإياك لا تعبط مليكا بملكه * ودعه فان الدهر لا يسلك قاصمه
 وقيل للذي بيني الحصون لحفظه * رويدك ماتني فدهرك هادمه
 وفي مثل هذا عبرة ومواعظ * بها يتناسى المرء ما هو عازمه

قال وفي ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة وصل الخادم برقعش القاتل لعماد الدين زنكي وانفصل من قلعة جعبر لحرف صاحبها من طلبه منه فوصل دمشق ميقنانه قد آمن بها ومد لا بما فعله وظنمانه ان الحال على ما توهه فقبض عليه وأخذ الى حلب من محبه من حفظه وأوصله فأقام بها أياما ثم حل الى الموصل وذكر انه قتل بها قتلت وللحكيم أبى الحكم المغربي قصيدة في مرثية الشهيد عماد الدين زنكي رحمه الله منها

عين لا تذخرى المدامع وابكى * واسئلى دما على فقد زنى
 لم يهب شخصه الردى بعد ان كا * نت له هيبة على كل تركى
 خير ملك ذى هيبة وبها * وعظيم بين الانام بزرى
 يهب المال والجياذ لمن يمد * حبه مادما بفساد تركى
 ان دارا تمدنا بالرزايا * هي عندى أحق دار بترى
 فاسكبوا فوق قبره ماء ورد * وانفخوه برعفران ومسك
 أى قسك جرى له فى الاعادى * بعدما استنفق الرها أى نك
 كل خطب أتب به نوب الدهر * ريسرى جنب مصرى زنى
 بعد ما كاد ان تدن له الرو * وميحوى البلاد من غير شك

(فصل) فيما جرى بعد قتل زنكي من تغزى أصحابه وتلك ولديه غازى ومحمود قال الرئيس أبو يعلى توجّه الملك ولد السلطان المقيم كن معه فحين محبه وانضم اليه الى ناحية الموصل ومعه سيف الدين غازى بن عماد الدين اتابك وامتنع عليهم الوالى بالموصل على كوجك أياما الى حين تقرر الحال بينهم ثم فُتح الباب ودخل ولده واستقام له الامر وانتصب منصبه وعاد الامير سيف الدولة سوار وصلاح الدين يعنى محمد بن أيوب الياغبسانى فى تلك الحال الى ناحية حلب ومعهما الامير نور الدين محمود بن زنكي وحصل بها وشرع فى جمع العساكر وانفاق المال فيها واستقام له الامر وسكنت الدهاء وفصل عنه الامير صلاح الدين وحصل بحجة ولايته على سبل الاسنيهاش والحرف على نفسه من أمر يدبر عليه وقال الحافظ أبو القاسم لما راق نور الدين لزم خدمة والده الى ان انتهت مدته على قلعة جعبر وسير فى صبيحة الاحد الملك الب ارسلان بن السلطان مسعود الى الموصل مع جماعة من كبار دولة أبيه وقال لهم ان وصل أخى سيف الدين غازى الى الموصل فهى له وأنتم فى خدمته وان تأخرنا فانا أقرر أمور الشام وأتوجه اليكم ثم قصد حلب ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ورده النواب فى القلعة والمدة قال ابن أبى طى الحلبي لما اتصل قتل اتابك باسد الدين شيركوه مركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين وقال له اعلم ان الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل وعول على تقديم أخيك سيف الدين وقصده الى الموصل وقد انضوى اليه جل العسكر وقد أغفلنا الى جمال الدين وأرادنى على الحساقي به فلم أهرج عليه وقد رأيت ان أصيرك الى حلب وتجعلها

في أخبار (٤٧) الدولتين

كرسى ملكك وتجمع في خدمتك عساكر الشام وأنا أعلم ان الامر يصير جميعه اليك لان ملك الشام يحصل
ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق فركب وأمر ان يسأدى في الليل في عساكر الشام بالاجتماع فاجتمعوا
وساروا في خدمة نور الدين الى حلب ودخلوها سابع ربيع الاول ولما دخلوا حلب جاء أسد الدين الى تحت القلعة
ونادى بالبها واصعد نور الدين اليها وقرأ امره ومشى أحواله فكان نور الدين يرى له ذلك وأسد الدين يمن بأنه كان
السبب في توليته وقال ابن الاثير لما قتل انا بك الشهيد ركب الملك البارسلان ابن السلطان مسعود وكان مع الشهيد
 واجتمعت العساكر عليه وخدموه فأرسل جمال الدين الوزير الى الصلاح يقول له المصلحة ان يترك ما كان ينشأ وراءه
ظهورنا ونسلك طريقا يبقى به الملك في اولادنا صاحبنا ونعمر منه جزءا لاسانه البنا فان الملك قد طمع في البلاد
 واجتمعت عليه العساكر ولئن لم تتلاف هذا الامر في أوله وتسدرك في بدايته ليستعز الحرق ولا يمكن رقه فاجابه
الصلاح الى ذلك وحلف كل واحد منهم المصاحبه فركب الجمال الى الملك فقدمه وضمن له فتح البلاد وأطعمه فيها
ومعه الصلاح وقال له ان انا بك كان نائباً عنك في البلاد وباسمك ككنا طبعه فقبل قولهم وظنه حقاً وقرعهما
طعماً ان يكونا عوناً له على تحصيل غرضه وأرسل الى زين الدين بالموصل يعرفانه قتل الشهيد ويأمره بالارسل الى
سيف الدين غازي وهو ولد عماد الدين زنكي الاكبر واحضاره الى الموصل وكان شهر زور وهي اقطاعه من أبيه
فقبل زين الدين ذلك وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قتل والده الى حلب فلكها وذلك بشاره أسد الدين
شركوه عليه بذلك وقال الجمال للملك ان من الراي ان يسير الصلاح الى ملوكك نور الدين بحلب يدبر امره وكانت جهه
اقطاع الصلاح فأمره فسار وبقي الجمال وحده مع الملك فأخذه وقصد الرقة فاستغل بشرب الخمر والمخاطبة بالنساء
وأراد ان يعطى الامر شيئاً يخف به خوفاً من ان يميل قلوبهم اليه وقال لهم الاقطاع الجزيل والنعم الوافرة وشرع الجمال
يستميل العسكر ويحلف الامراء لسيف الدين بن انا بك الشهيد واحد ابعد واحد وكل من حلف بأمره بالمسير الى
الموصل هار با من الملك وأقام بالملك في الرقة عدة أيام ثم سار به نحو سنجار وكان سيف الدين غازي قد دخل الموصل
واستقر بها فقوى حينئذ جنان جمال الدين ووصل هو الملك الى سنجار فأرسل الى دزدارها وقال له لانسلم البلد ولا
تمكن أحد من دخوله ولكن أرسل الى الملك وقل له اننا نسمع الموصل فنتي دخلت الموصل سلمت اليك ففضل الدزدار
ذلك فقال الجمال للملك المصلحة ان نساير الى الموصل فان ملوكك غازي اذا سمع بقرعنا من خرج الى الخدمة فحينئذ
نقبض عليه ونسلم البلاد فسار واعن سنجار وأكثر رحيل العسكر الى الموصل هارين من الملك فبقي في قلعة من العسكر
فساروا الى مدينة بلد وعبر الملك دجلة من هناك فلما عبرها دخل الجمال الموصل وأرسل الامير عز الدين أبي بكر
الديبسي الى الملك في عسكر وهو في نفر يسير فأخذه ودخله الموصل فكان آخر العهد به واستقر أمر سيف الدين
وأقر زين الدين على ما كان عليه من ولاية الموصل وجعل الجمال وزيراً وأرسلوا الى السلطان مسعود فاستخفوه
لسيف الدين فحلف له وأقره على البلاد وأرسل له الخلع لئلا يكون هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود في
أيام أبيه فسقروا وحضروا وكان السلطان يحبه كثيراً ويأس به وببسطه فلما خوطب في الميمن وتقرر بالبلاد لم يتوقف
قال ابن الاثير فانظروا الى جمال الدين وحسن عهده وكأله من رعايته لحقوق مخدمه وهذا المقام الذي ثبت
فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ولقد قتل من قال الناس ألف منهم كواحد وهو معذور لانه لم ير مثل جمال الدين قال
ولما استقر سيف الدين في الملك أطاعه جميع البلاد ما عدا ما كان يدبر بكر كالعند وحيزان واسعد وغير ذلك
فان المجاورين لها تغلبوا عليها قال ولما فرغ سيف الدين من اصلاح أمر الدولة وتهدأ فيه وتقرر بأمر البلاد عبر
الى الشام لينظر في تلك النواحي ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين وهو بحلب وقد تأخر عن الحضور عند أخيه
وخافه فلم يزل يرأسه ويستميله فكلمها حلب نور الدين شيئاً أجابه اليه استماله لقلبه واستقرت الحال بينهما على ان
يجمعان خارج العسكر السبيني ومع كل واحد منهما ثمانية فارس فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب
في خمسة آلاف فارس وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فارس فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه
فحين رآه عرفه فترجل له وقبل الارض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا وقعد سيف الدين ونور الدين بعد
ان اعتنقا وبكيا فقال له سيف الدين لم امتنعت من المجيء الي أكنف تخافني على نفسك والله ما خدرك باني ما تنك

فلن أريد البلاد ومع من أعيش ومن اعتضداً فقلت السوء مع أخى وأحب الناس إلى فاطمة نور الدين وسكن روعه وعاد إلى حلب فتجهز وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين فامر سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده وقال لا غرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن يعلم المملوك والفرنج اتفاقنا نحن ريد السوء بنا يكف عنه فلم يرجع نور الدين ولزم إلى أن قضينا ما كانا عليه وعاد كل واحد منهما إلى بلده قلت ومن قصيدة لابن منير في نور الدين

أيا خسر المملوك أبا وجداً * وأنفعهم حيا لفيل صاد
علوا وغلوا وقال الناس فيهم * شوارد من ثناء أو أصاد
وما اقتسموا ولا عدوا بينهم * بمنصبك القسبي العمادى
وهل حلب سوى نفس شعاع * تقسمها التماذى والتعاذى
نبي ابن عماد الدين عنها الـ * شكاة فاصبحت ذات العماد
تختفى كساء عدل و بذل * مديحة التهايم والنجاد
وفي محرابها دود منسه * يهذب حكمة آيات صاد
تجسوزت الخجوم فابن تبغى * ترق فلا خلوت من ازد باد

(فصل) فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والافرنج المخذولين قال ابن أبي طى في سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب أتصل خبر مقتل أتابك بصاحب انطاكية السعيد فخرج في يومه بعساكر انطاكية وقسم عسكره قسمين قسماً أنفذه إلى جهة حماه وقسماً أغار به على جهة حلب وعاث في بلادها وكان الناس أميين فقتل وسبي عالماً عظيماً وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها ووصل الخبر إلى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر وحذق السير فقاتله الفرنج وأدرك جماعة من الرجلة بسوقون الأسرى فقتلهم واستنقذ كثيرهما كانت الفرنج أخذته وسار مجنباً عن طريق الفرنج إلى أن شن الغارة على بلد اراح واستاق جميع ما كان للفرنج فيه وعاد إلى حلب مظفراً وقال ابن الأثير لما قتل الشهيد سار مجنباً عن طريق الفرنج إلى أن شن الغارة على بلد اراح واستاق جميع ما كان وحاصره وبها نجح الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين فسلمها إليه وأخذ منه ما لا يملكه قرا يامن أعمال دمشق وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها وقال ابن أبي طى اشتد صاحب دمشق في القتال وصبر نجم الدين أيوب أحسن صبراً فاتفق أن الماء لما شاء الله من حصن بعلبك غار حتى لم يبق منه شيء فصار أهل القلعة يستمدون من البلد فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة فاشتد الأمر فطلبوا الأمان والمصالحة فاستخلف صاحب دمشق نجم الدين وأقر له الثلث الذي كان أتابك قد جعله له فيها وأقره فيها ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يغسل عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده وماله نور الدين إلى محمد الدين أبي بكر بن الدايه حتى ولده جميع أموره وجميع مملكته فشقى ذلك على أسد الدين قال الرئيس أبو يعلى لما أتصل خبر موت زنكي بعين الدين أنشأ شرع في التناهب والاستعداد لقصد بعلبك وانتهار الفرصة فيها بالأت الحرب والمجنبيات قتل عليها وضايقها ولم يحض إلا أيام قلائل حتى قل الماء فيها قلته دعتهم إلى التنازل على حكمه وكان الوالى يهاذله ويخون وعرفه بالأمور فاشترط ما قام له به من أقطاع وغيره وسلم البلد والقلعة إليه ووفى له بما قرر الأمر عليه وتسلم ما فيه من غلة وآلة في أيام من جمادى الأولى من السنة وأرسل معين الدين الوالى بمحصر وتقرر بينه وبينه مهادنة وموادعة يعودان بصلاح الأحوال وعمارة الأعمال ووقعت المراسلة فيما بينه وبين صلاح الدين بجاهه وتقرر بينهما مثل ذلك ثم انكفأ بعد ذلك إلى البلد عقيب فراغه من بعلبك وترتيب من رتب له لحفظها والاقامة فيها قال ووردت الأخبار في أيام من جمادى الآخرة من السنة بأن ابن جوسلين جمع الفرنج من ناحية وقصد مدبنة الرها على غفلة بموافقة من النصارى المقيمين فيها فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين فنقض نور الدين صاحب حلب في عسكره ومن أنضاف إليه من التركمان وغيرهم زهاء عشرة آلاف فارس ووقعت الدواب في الطرقات من شدة السير ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه فهجموا عليهم ووقع السيف فيهم وقتل من أرمي الرها والنصارى من قتل وانهمز إلى برج يقال له برج الماء ففصل فيه ابن جوسلين في ثلث عشر يوماً فأسر من وجوه وأصحابه وأحدق بهم المسلمون وشرعوا

في أخبار (٤٩) الدولتين

في النقب عليهم حتى تعرب البرج فانهزم ابن جولسين في الخفية من أعينهم وأخذ الباقيون ومحق بالسيف كل من ظفريه من نصارى الرها واستخلص من كان فيه أسير من المسلمين ونهب من الشيء كثير من المال والاناث والسبي وانكفأ المسلمون بالهائم الى حلب وسائر الاطراف وقال ابن الاثير لما قتل زنكي كان جوسلين الفرنجي الذي كان صاحب الرها في ولايته غرب النرات في تل بشار وما جاورها فراسل أهل الرها وكان عامتهم من الارمن وواعدهم يوما يصل اليهم فيه فأجابوه الى ذلك فسار في عسا كرها ولم يكدوها وامتنعت عليه الفلعة بمن فيها من المسلمين فقبا تلهم وجد في قتالهم فبلغ الخبر نور الدين وهو يومئذ بحلب فسار اليها بعسكره فهرب جوسلين ودخل نور الدين مدينة الرها ونهبها وسبي أهلها وفي هذه الدفعة انتهت وخربت وخت من أهلها ولم يبق منهم بها الا القليل ووصل خبر الفرنج الى سيف الدين غازي بالموصل فجوز العساكر الى الرها فوصل العساكر وقدم ملكها نور الدين فبقيت بيده ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين قال ومن عجيب ما جرى ان نور الدين أرسل من غنائمها الى الامراء وأرسل الى زين الدين علي جملة من الجوارى فخلن الى داره ودخل لينظر اليهن فخرج وقد اغتسل وهو يضحك فقتل عن ذلك فقال لما فتن الرها مع الشهيد كان في جملة ما غنمت جارية مالت نفسى اليها فغضب على ان أبيت معها فسمعت منادى الشهيد وهو يأمر باعادة السبي والغنائم وكان مهيبا شرفا فأنجز على اتيانها وأطلقتها فلما كان الآن أرسل الى نور الدين سحبي من الغنيمة وفيه تلك الجارية فوطنتها خوفا من العود قلت للقيس راني قصيدة يمدح بها جمال الدين وزير الموصل ذكر فيها فتح الرها وأنها

أما أن ان يرهق الباطل * وان يجز العدة الماطل
الى كم نهب ما لوك الضلال * سيف باعناهما كافل
فلا تحفلن بصوت الذئب * بوقد زار الاسد الباسل
وهل يمنع الدين الا فتى * يصلو اسقاما فيستاصن
أبا جعفر أشرفت دولة * أضالها بدرك الكامل
فاما نصبت لرفع اسمها * فانكحما الفعل والفاعل
ليهنك ما فرج النصر عند * ه وما ناله الملك العادل
فقل للعقاق الطريق الطرى * ففند دلف المفرم البارل
وجاهد في الله حق الجها * دمحتب بالعللى فافل
وهل يمنع السور من طالع * يشايه النسر النازل
فانيأ فسخ الرها لجة * فساحلها البدر والساحل
فهل علمت علم تلك الديا * ران المقيم بها راحل
أرى القمص بأمل قوت الرما * ح ولا بد ان يضرب السائل
يقوى معاقله جاهدا * وهل عاقل بعدها عاقل
وكيف بضبط بوافي الجها * تلمن فات حسبته الحاصل

ولابن منبر من قصيدة في نور الدين

ملك ما أذل بالفخ ارضا * قط الأعرها اغسلاته
والوهافي الرهاء أرحى اليها * عارضا شيب الدجى ابراقه
لجأت جارة اليه فخلت * عطلا من اعتناقها اعتناقه
تلك بكر الفتوح فالشام منها * شامة والعراق بعد عراقه
أين كان الملوكن وجهها الطلق * يريسا اضامة اطلاقه
سنة سنها أبوه بكتب الرو * لمأ أظمله ارهاقه
خافق قلبه الى أمل عا * جلله دون نيسله اخفاقه

كتاب (٥٠) الروضتين

فهمت راية المواضي القسيمة * ات وأبتر من لها عرافة
وكذا أنت يا ابنه ما عدا من * خلقه فيك خصلة خللاته
وكفى الحراثة ابن سحاب * ما وني سمحه ولا اصعابه
لمحت من سدوت ثلثه يا * من على الدين كظنه اشفاقه
رهبة لم تدع على الارض قلبا * خلف صدر ينشق عنه شفاقه
كلما طن ذكر هامنه في السم * مع تكافى الانفاق نفاقه
وجهاد عن حوزة الدين لم يأ * ل له ركضه ولا انفاقه

وله فيه من قصيدة أخرى

نور الدين روض كل محل * من الدنيا وجد دكل بال
أقام على ثنية كل خوف * سهاد اباب كل كال
وصوب عدله في كل أوب * فعوض عاطلا منه بحال
ينكسر رأيه رأى المحامي * وتقبل خوفه قبل القتال
لقد أحصدت للاسلام عزا * بفوت سنامه بد كل قال
وأصبحت العواصم ملحفات * عصاما غير متكتث الحبال

(فصل) وقفت على تجميع كتب في ذي القعدة سنة احدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذ وهو الملقب
بالحافظ وعليه علامته ونصه (الجلد لله رب العالمين)

الى القاضي الاشرف أبي المجد على بن الحسن بن الحسين البستاني (وهو والد القاضي الفاضل وكان يومئذ متولى
القضاء والحكم بمدينة عسقلان) قد انتمى الى حضرة أمير المؤمنين ان قوما من أهل نجر عسقلان جاء الله قد صاروا
يؤكدون توقيعات بقبول أقوالهم من غير تركية من شهود المعرفين بالتركية منهم كونهم غير مستوجبين للشهادة
ولامستحقين لسماع القول فانكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم وخرج على أمرهم ما لا يسمع قول شاهد ولا يتقدم
لخطابة ولا لصلاة بالناس ولا لتلاوة في موضع شريف الا من زكاه أعيان شهود النفر المحروس وهم فلان وفلان
وعثمانية أنفس عبدالساز بن عبدالرحمن عبدالرزق مفضل على بن قريش أجد بن حسن أجد
ابن على عبدالرحمن بن محسن اسامة بن عبدالحميد على بن عبدالله قلت وهذا احسن ما يؤرخ عن امام تلك
الدولة المبانية للشريعة على ما سأتى ان شاء الله تعالى وقال الرئيس أبو يعلى وفي شوال من سنة احدى وأربعين
ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين الذين انزالي ان استقرت الحال بانعماع على اجل صفة واحسن قضية وانعقدت
الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين وتأكدت الامور على ما اقترح كل منهما وكتب كتاب العقد في دمشق بمحض
من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال وشرع في تحصيل الجهاز وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة
الى حلب في صبيحتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواص الاصحاب في النصف من ذي القعدة قال وتوجه معين
الدين الى ناحية صرخدو بصري بالجيل والرجل وآلات الحرب ونزل على صرخد وبها المعروف بالتوتاش غلام
امير الدولة كشتكين الانابكي الذي كان واليا والاولى قلت هو الذي تنسب اليه المدرسة الامينية قبل الجامع بدمشق
قال وكانت نفس التوتاش قد حدثت لجهله انه يقاوم من يكون مستوليا على دمشق وان الا فرنجي عينونه على مراده
وكان قد خرج من حصن صرخد الى ناحية الفرنجي للاستنصار بهم وقرر احوال الفساد معهم فحال معين الدين بينه
وبين العود الى أحد الحصنين وراسل نور الدين في انجاده على الكفرة فأجابته وكان مبرزا بظاهر حلب في عسكره
فغنى اليه الاعنة وأجد المسير فوصل الى دمشق في التاسع والعشرين من ذي الحجة فأقام أياما يسيرة
(ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسائة) فتوجه نور الدين نحو صرخد ولم يشاهد احسن من عسكره وهيبته وعدته
وفور عدته واجتمع العسكر ان وارسل من بصرخد اليهما يلتصقون بالامان والمهلة أياما وتسلم المكان وكان ذلك منهم
على سبيل المغالطة والمخاتلة الى ان يصل عسكر الا فرنجي لترجلهم وقضى الله تعالى وصول من اخبر بتجمع الفرنجي

واحتشادهم ونهوضهم في فارسهم ورجالهم بمجدد السراى ناحية بصرى وعلما فرقة وافرقة من العسكر محاصرة لها فنقض العسكر في الحال الى ناحية بصرى فسبقوا الفريخ اليها فالتوا بينهم وبينها ووقعت العين على العين فانهمزوا الكفار وولوا الادبار وتسلم معين الدين بصرى وعاد الى صرخد فسلمها وعاد العسكر ان الى دمشق فوصلها يوم الاحد السابع والعشرين من المحرم وفي هذا الوقت وصل التوتاش الذى خرج من صرخد الى الفريخ بجعله وسخاقة عقله الى دمشق من بلاد الافريخ من غير امان ولا تروير وامتنان نوهامنه انه لا يكرم ويصطاع بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام فاعتقل في الحال وطالبه اخوه خطط بما جناه عليه من ثمل عينيه وعندهما اجلس حضره الفقهاء والفضاء واوجبوا عليه الفصاحى لثمل كمال اخاه واطلق الى داره بدمشق فافاهم بها قلت وقد ذكر ابن منير وقعة بصرى هذه وغرهم من الوقعات التى تأتي ذكرها في تصديده قد تقدم بعضها منها

أى شأن ادركت يانوردين الله اعبي على الملوك الحاقه

نطق الحاسدون بالجزع من * لك محلى بالنسرات نطاقه

غض أبصارهم لحاق جواد * ليس الا الى المعالى سبانه

سل بصرى اكم اعتقت يوم بصرى * من أسارى الموت الزوام عتاقه

لم عرام على العريضة شبت * ضاق منه على انصليب خناقه

ولكم هجرة بهاب واختب * هالهاصكت الاسارى رباقه

بسط النل فوق بسطة باسو * طاولكن طواه عنه ارتفاقه

وفي هذه السنة ولديك الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب وقيل في سنة فتح زنكي الرها قال أبو يعلى وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيع الأول توفي الائمة شيخ الاسلام: الفتح نصر الدين محمد بن عبد القوى المصيصى بدمشق كان بقية الائمة الفقهاء المفتين على مذهب الامام اشافى ولم يختلف بعده مثله قال وفي جمادى الآخرة تفررت ولاية حصن صرخد خلا مير مجاهد الدين بران بن مامين على مبلغ من المال والغلة وشروط ويا من دخل فيها وفام بها واستبشر أهل تلك الناحية لما هو عليه من حب الخير والصلاح والتدين والعفاف قال وفي الحادى والعشرين من شوال وهو مستهل نisan أظلم الجو ونزل غيث ساكن ثم أظلمت الارض في وقت العصر ظلاما شديدا بحيث كان ذلك كالغداة بين العشائين وبقيت السماء في عيب الناطر بن اليها كصفرة الورس وكذلك الجبال والأنهار والقوطة وكل ما ينظر اليه من حيوان وجادونات ثم جاء في أثر ذلك من الرعد القاصف والبرق الخاطف والمخدرات المزججة والرحقات المفزعة ما رتاع لها الشيب والنبان وكيف الرادان والسران وقلقت لذلك الخبول في مابطها وبقي الامر على هذه الحال الى وقت الغشاء الآخرة ثم سكن بهدرة الله تعالى وأصبح على الارض والأشجار وسائر النبات غبار في رقة الهواء بين البياض والغبرة قال ابن الاثير وفي سنة اثنتين وأربعين فيم نور الدين ارتاج بالسيف وحسن باراه بصرى فوكت وكفرا تاو كان الفريخ قد طمعوا ووطنوا انهم بعد ثمل الشهيد يستردون ما أخذ منهم فلما رأوا من نور الدين هذا الجدة علوا ان ما أملاوه بعيد

(فصل) في نزول الفريخ على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله عنها قال الرئيس أبو يعلى وفي هذه السنة تواصلت الاخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الفريخ والروم والاهل يظهرون ملك الافريخ من بلادهم منهم الالمان والفتش وجماعة من كبارهم في العدر الذى لا يحصر لقصد بلاد الاسلام بعد ان نادوا فى سائر بلادهم ومعاقلم النفر النفر اليها والاسراع نحوها وخالوا بلادهم وأعلمهم خالية شاغرة من جماتها والحفظة لها ثم استحبوا من ذخائرهم وأموالهم وعددهم الشيء الكثير اذى لا يحصى بحيث يقال ان عدتهم ألف ألف من الرجال والنفرسان ويقال أكثر من ذلك وغلبوا على اقال قسطنطينية واحتاج ملكها الى الدخول في مداراتهم ومسامحتهم والنزول على أحكامهم وحين شاع خبرهم واشتهر أمرهم شرعت ولان افعال المنه قبة لهم والاطراف الاسلامية القريبة منهم فى التأهب لمدافعة لهم والاحتشاد على المجاهدة فيهم وقصدوا مافهم ودرؤب معابرهم لكي يمنعوهم من العبور والنفوذ الى بلاد الاسلام وواصلوا شن الغارات على أطرافهم وابتغوا زلزال فيهم والفتك بهم الى ان هلك منهم

العدد الكثير وحل بهم من عدم القوت والعونات والمير وغلاء السعرا. أوجدو مما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض ولم تزل أخبارهم تتوالى على بلاءهم وفاة أعدادهم إلى وأخرسها أنتير وأربعين بحيث سكنت النفوس بعض السكون (ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة) وتوازت الأخبار بوصول مرآكب الفريخ وحصولهم على سواحل الثغور الساحبة صرورعكا واجتماعهم مع من بهامن الفريخ ويقال انهم بعد ما فنى منهم بالقتل والمرض والجوع وصل تقدير ثمانمائة ألف وقصدوا البيت المقدس وقضوا حجبهم وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر وقد هلك منهم بالموت والمرض الخناق العظيم وهلك من ملوكهم من هلك وبقى للامان أكبر ملوكهم ومن هودونه واختلفت الاراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية إلى ان استقرت الحال على منازلتهم دمشق وبلغ ذلك معين الدين فاستعذر بهم بخاؤاى تقدير خمسين ألفا ودنا من السلا ثم قصدوا المنزلة المعروفة بنزل العساكر فيها فصاروا الماء مقطوعا فقصدها ناحية ارتفعوا عليهم البر بهم من الماء وزحفوا إلى البلد فنجح لهم ورجلهم ووقف المسلمون بازائهم في يوم السبت سادس ربيع الاول ونشبت الحرب بين افرقيين واجتمع عليهم من الاعمال والاجناد والاراك والقتال واحداث البلد والمطوعة والغزاة الحزم اتعبر واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الاعداد وغلبوا على الماء وانتشر وائى البساتين وخيموا فيها وقرى بامن البلد وحصلوا منه مكان لم يتمكن أحد من العساكر قديما وحديثا منه واستهدفى هذا اليوم الفقيه الامام يوسف الفندلاوى المالكي رحمه الله قريبا الر بوة على الماء لوقوفة في وجوههم وترك الرجوع عنهم انبع أو امر الله تعالى في كتابه الكريم وقال بعنا واشترى وكذلك عبد الرحمن المحلول الر اهدرجه الله جرى أمره هذا الجرى

(فصل) قلت وزكر الامر راسامة بن منقذ في كتاب الاعة ابرام ملك الامان الفرنجى لما وصل إلى الشام اجتمع اليه كل من بالشام من الافريخ وقصد دمشق فخرج عسكرها وأهلها لقاتلهم وفي جملةهم الفقيه الوندلاوى المالكي والشيخ الزاهد عبد الرحمن المحلول رحمه الله وكان من خيار المسلمين فلما فار بومهم قال الفقيه عبد الرحمن اما هؤلاء الروم قال بلى قال فالى متى نخس وقوف قال سر على اسم الله فقدمنا فقتلنا حتى قتلنا في مكان واحد رجلا من الله تعالى ثم قال أبو يعلى وشرعوا في قطع الاشجار والتحصن بها وهدوا القنطرة وبناوا تلك الميلة على هذه الحال وقد لحق الناس من الارتياح لول ما شاهدوه والرو ع ما عاينوه ما ضعف به القلوب وجرحت معه الصدور وباكروا الظهور اليهم في غدد ذلك اليوم وهدوا الاحسد وزحفوا اليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم وأكثروا القتل والجراح فيهم وأبلى الامير معين الدين في حربهم بلا حسا وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره بحيث لا يني في جهادهم ولا يننى عن دمارهم ولم تزل رعاء الحرب دائرة بينهم يخيل الكفار بحجة عن الجله المعروفة لهم حتى تنهيا الفرصة لهم ان مالت الشمس إلى الغروب وأقبل انيل وعلبت النفوس الراحه وعاد كل منهم إلى مكانه وبات الجند بازائهم وأهل البلد على أسوارهم للجرس والاحتياط وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم وكانت المكاتب قد نفذت إلى ولاية الاطراف بالاستمرار والاحتياط وجعلت خيل الزكبان تواصل ورجاله الاطراف تتابع وباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوذهم وزال عنهم ووثبوا بارائهم وأطلقوا فيهم السهام ونزل الجرح بحيث يقع في مخيخهم في راجل أو فارس أو فرس أو رجل ووصل في هذا اليوم من ناحية القناع وغيرها رجالة كثيرة من الرامة فزادت بهم العدة وتضاعفت العدة وانفصل كل فريق إلى مستقره في هذا اليوم وباكرهم من غد يوم الثلاثاء وأحاطوا بهم في مخيخهم وقد تحصنوا بالبحار البساتين وأفسدوا غار شقا بالنشاب وحذوا بالابجار وقد أجمعوا عن البروز وخافوا وفساوا ولم يظهر منهم أحد ووطن انهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة ولم يظهر منهم الا نفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المظاردة والمناوشة خوفا من المهاجرة إلى ان يجردوا لقتلهم بحالا وإس يدنو منهم أحد الاصرع برشقة أو طعنة وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الاحداث والضيايع وجعوا ليقصدونهم في المسالك وقد آمنوا بقتلهم من ظفر وابه ويحضر رومهم لطلب الجوائز عليها وحصل من رومهم العدد الكثير ونوازت اليهم أخبار العساكر الاسلامية بالمرارة إلى جهادهم واستصال شاقهم فبقوا بالهلاك والبور وحاول الناس اءاوا الاراء بينهم فلم يجدوا النفوس خلاصا من الشبكة التي حصلوا فيها غير الزجيل فرحلوا سحر يوم الاربعاء إلى السالى

في أخبار (٥٣) الدولتين

مفلولين وحين عرف المسلمون ذلك برزوا اليهم في بكرة هذا اليوم وسارعوا في آثامهم بالسهم بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دغائن قتلهم وخيولهم ما لا عدوله ولا حصر يلحقه بحيث لها أربع من حيثهم تكاد تصرع في الجؤ وكانوا قد أحرقوا الروبة والقبعة الممدودة في تلك الأيلة واستبشروا بالناس بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم وأكثروا من الشكر له تعالى على ما أولاهم من اجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدة فقلته الجد على ذلك والشكر واتفق عقيب هذه الرحلة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قرية من دمشق للانجادهما وقال ابن الأثير خرج ملك الألمان من بلاد الأفرنج في جيوش عظيمة لا تحصى كثيرة من الفرنج إلى بلاد الشام فاتفق هو ومن ساحل الشام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ولا يشك ملك الألمان إلا أنه ملكها وغيرهالأكثرة جوعه وعساكره قال وهذا النوع من الفرنج هو أكثرهم عددا وأوسعهم بلادا وملكهم أكثر عددا واعداد وان كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلا فلما حاصروا دمشق وبها صاحبها بجير الدين اتقى بن محمد بن توري ابن طغتكين وليس له من الأمر شيء وإنما كان الأمر إلى ملوك حنابلة طغتكين وهو معين الدين الذي انزفهم وكان الحياكم والمدبر للبلد والعسكر وكان عاقلا دينيا خيرا أحسن السيرة فجمع العسكر وحفظ البلد وحصرهم الفرنج وزحفوا اليهم سادس ربيع الأول فخرج العسكر وأهل البلد عنهم وكان فين خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دنواس المغربي الفندلاوي شيخ المالكية بدمشق وكان شيخا كبيرا زاهدا عابدا خرج راجلا فرأى معين الدين فقتصد دوسلم عليه وقال له يا شيخ أنت معذور ونحن نكفئك وليس بك قوة على القتال قال قد عتبت وأسستى ولا تفتنه به يعني قول الله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) الآية وتقدم قتلت حتى قتل رحمه الله عند النيرب شهيدا وقوى أمر الفرنج وتقدموا فقتلوا بالميدان الاخير وضعف أهل البلد عن ردهم عنه وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغيث به ويطلبه ويسأله القدوم عليه ويعلمه شدة الأمر فجمع سيف الدين عساكره وسار بجند إلى مدينة حصا وأرسل إلى معين الدين يقول له قد حضرت ومعى كل من يطيق حمل السلاح من بلادى فان أبا جنت اليسك ولقينا الفرنج وليس بدمشق بيدى وأحسبى وكانت الفرجة والعماد بالله علينا لا يسلم منا أحد بل بعدلادنا عنا وحينئذ ملك الفرنج دمشق وغيره فان أردتم ان أفسدهم وأفادتهم فقتلهم فقتلهم البلد إلى من أتى إليه وأنا أحلف لك ان كانت النصرة لنا على الفرنج انى لا آخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مدة اربما برجل العدو وعنها وأعود إلى بلادى فما طله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج فأرسل سيف الدين إلى الفرنج الغرباء فهدم وعلمهم انه على قصدهم ان لم يرحلوا وأرسل معين الدين اليهم ايضا يقول لهم قد حضر ملك الشرق معكم من العساكر ما لا طاعة لكم به فان أنتم رحلتم عنا والاسلمت البلد اليه وحينئذ لا نظم معون في السلامة مه وأرسل إلى فرنج الاسام يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم ويقول لهم أنتم بين أمرين مدمومين ان ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا يقرن عليكم ما يديكم من البلاد وان سلمت أبادم إلى سيف الدين فانتم تعلمون انكم لا تقدر ان على منعه من البيت المقدس وبكل لهم ان يسلم اليهم بانياس ان رحلوا ملك الألمان عن دمشق فأجابوا إلى ذلك وعملوا عهده واجتمعوا بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع امداده واهربا ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل فأجابهم إلى الرحيل عن دمشق فرحل ورجل فرنج الساحل وتسلبوا حصن بانياس من غير الدين وبقي معهم حتى فتحه نور الدين محمود رحمه الله كما سئذ كره

(فصل ٥٤) قلبه وذكر الحافظ أنوالتاسم من عساكره رحمه الله في تاريخه ان الفقيه الفندلاوي رأى في المنام

فقيل له ان أنت قال في جنات عدن على سر من المؤمنين وقبره الآن برز عباير باب الصغير من ناحية حائط المصلى وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله وأما بعد الرجن الحيلول فبقبره في بستان الشبانى في جهة شرقه وهو المسجد المحاذى لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت وكان مقامه في حياته في ذلك المكان رحمه الله وقرأت قصيدة في شعر أبى الحكم الاندلسي شرح فيها هذه القصة منها

نشطى نهر داريا * أمور ما تؤانينا * وأقوام رأوا سفك الـ * دماء في جلق دينا
أنا ما تأسا ألف * عبيدا أو يزيدونا * فمعضهم من اندلس * وبعض من فلسطينا

كتاب (٥٤) الروضتين

ومن عكا ومن صور * ومن صيدا وتبنينا * إذا أبصرتهم أبصر * ت أقواما مجانينا
ولكن حرقوا في عا * جل الحال البساتينا * وجازوا المرج والتعدي * بل أيضا والمياديننا
تخالفهم وقد ركبوا * فطائرها حراذينا * وبين خيامهم دعوالا * غنازر والقرايينا
ورايات وصلباننا * على مسجد خاتونا * وقامنا إذا رأيناهم * لعل الله يـكـفينا
سماهم معين قد * أعن الخلق والدينا * وفتيان تخالفهم * لدى الهيجا شياطينا
قولوا بطلبون المر * ج من شرق جسرنا * ولكن غادروا اليا * ست تحت التراب مدفونا
وشخافند لاويا * فيها يعضد الدينا * وفتيانا تفانوا من * دمشق نحو سبعينا
ومهم مائتا عـلـج * ونيل نحو تسعينا * وباتهم الى الآ * ن من القتل يقرونا
وللعرقلة حسان في مدح بحير الدين صاحب دمشق حينئذ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج أولها
عرج على نجد لك مـنـجـدى * بنسيمها وبذكر سعدى مسعدى

يقول فيها

من قاتل الافرنج ديننا غيرة * والخيل مثل السيل عند المشهد
رد الامان بكل ندب باسل * ومن الجياد بكل نهـد أـحـرـد
ومن السيوف بكل غضب أبيض * ومن الحجـلـج بكل تقع أسود
حتى لوى الاسلام تحت لوائه * وغدا يـجـد من ثـرـة أـجـد
وقرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني قصيدة في مدح تاج الملوك بوري جد بحير الدين أنشددها ياهـا عند كسرة
الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن بحير الدين أول القصيدة

الحق مبتهج والسيف مبتسم * ومال أعداءه بحير الدين مقتسم
قدت الجياد وحصنت البلاد أوة * منت العباد فانت الحل والحرم
وجئت بالخيـل من أقصى مرابطها * معاقد الحزم في أوساطها الحزم
حتى إذا ما أحاط المشركون بنا * كالليل يلبتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا لامن الاقبال في عدد * يؤدحاسبه الاعياء والسأم
أجريت بحرامن الماذى معتكرا * أمواجه بأواسي اليأس تلتطم
وسست جندك والرحن يكلؤه * سياسة ما يعي اثرها ندم
وقفت في الجيش والاعلام خافقة * بالنصر كل قناة فوقها علم
يحوطك الله صونا عن عيونهم * والله بعصم من بالله يعتصم
حتى إذا دببت الآراء ضاحكة * وأقبلت أوجه الاقبال بتسم
اتبع جئ سراياهم مضرة * فيهم انجوم إذا جد الوغي رجوا
والنصر دان وخيل الله مقبله * ترجوا الشهادة في الهيجا وتغنم
صاب الغمام عليهم والسهام معا * خادروا أيما الهطالة الديم
سر واليتهبوا الاعمار فانتهبوا * قلاو يغتموا الاموال فاغتموا
وأقبلت خيلنا تردى بخيلهم * مجنونة وعلى ارماحنا القـمـم
وأدبر الملك الطاغى برعزعه * حر الاسنة وهو البارد السيم
وافوا دمشق فظنوا انها جـدة * ففارقوها وفي أيديهم العدم
وأبقنوا مع ضياء الصبح انهم * ان لم يزولوا سراعا زالت الخيم
فغادروا أكثر القربان وانجفلوا * وخلقوا أكبر الصليبان وانهمزوا
مستسلمين لا يدي المسلمين وقد * أغرى الفنا بتماذي خطفهمهم

في أخبار (٥٥) الدولتين

لا يملك الحسم دمعاً عن مقاتله * كأنه حين يغشاه الردى صنم
وحاولوا المسجد الأدنى فاعبرت * عن مسجد القدم الاتصى لهم قدم

(فصل) قال ابن الاثير لما رحل الفرنج عن دمشق سار معين الدين انزلى بعلبك وأرسل الى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله أن يحضر عنده فاجتمعوا فوصل اليهما كتاب القمص صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العريضة وأخذه من فيه من الفرنج وكان سبب ذلك أن ولد الفنش صاحب صفلية خرج مع ملك الألمان الى الشام وتغلب على العريضة وأخذها من القمص وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضاً فوجد هذا الذي ملك العريضة هو الذي عزأ افر بقة وفتح مدينة طرابلس الغرب فلما استولى هذا على العريضة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده فسار اليه مجذبن فصبحاه وكتب الى سيف الدين يستجده و يطلبان منه المدد فأمدها فحصر الحصن وبه ابن الفنش وقتلوا السور فأخذ من الفرنج واستسلموا وألقوا بأيديهم فلما المسلمون الحصن وأخذوا كل من به من رجل وصبي وامرأة فقيم ابن الفنش وأخروا الحصن وعادوا الى سيف الدين وفتح نور الدين أيضاً بسوطا وهاج وقال الرئيس أبو يعلى قتل أكثر من كان فيه يعني في حصن العريضة وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه ونهب ما فيه من العدد والخيول والالآت عسكر سيف الدين الى شحيمه بجحس ونور الدين عاد الى حلب ومعه ولد الملك وأمه ومن أسر معهم ما وانكنا معين الدين الى دمشق قال وورث الاخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجه في عسكره الى ناحية الأعمال الافرنجية وقصد اقامية ونظر بعدة من الحصون والمعاقل الافرنجية وبعده وافرة من الافرنج وان صاحب انطاكية جمع الكمية فرنج وقصد على حين غفلة منه قتال من عسكره وأتقاه وكرأه ما أوجبه الاقدار التاركة وانزعم نفسه وعسكره وعاد الى حلب سالماً في عسكره لم يفقد منه الا النفر اليسير بعد قتل جماعة وافرة من الافرنج وأقام يجلب أياماً بحيث جدد ما ذهب له من البرك وما يحتاج اليه من آلات العسكر وعاد الى منزله وقيل لم يعد وذكر بن أبي طي أن أسد الدين لما كان في نفسه على نور الدين من تغدي ابن الداية عليه لم ينصح يومئذ وهي وقعة يغرا ومن به نور الدين فقتل له ما هذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا وافتال ياخوند ايش تنفع نحن انما يقع عند الدين أبو بكر فهو صاحب الامر فاستدرك نور الدين ذلك وطيب قلب أسد الدين بعد ذلك وألزم محمد الدين ان يعرف لاسد الدين حقه وأصلح بينهما مال وقتل في هذه الكفرة شاهنشاه بن أيوب أخوا الملك الاصر وقيل في كسرة البقية قتل وعومر والد عز الدين فرخشاد وقي الدين عمر والسبب عذرا المنسوب اليها العذراوية داخل باب النصر بدمشق وقبره الآن بالتربة النجمية جوار المدرسة الحسامية بقبرة العونية ظاهر دمشق رحلهم الله قتل ولا بن منير من قصيدة تهمت اعتذارا عا جري في هذه القراءة قال

لم يشنه من ماء يغرا أن ترالا * الاشابات ذاعنها اندلاقه
كان في بالث العرين حى الا * شبال منه غضبان كالنار ماته
وشبيهه النسي يوم حنين * اذ علا أرواءهم درياقه
وهي الحرب خلفها حسن الكسر إن عى بأسها لاساقه

(فصل) وقال ابن الاثير وفي سنة ثلاث واربعين ايضا سار نور الدين الى بصرى وقد اجتمع بها الفرنج في قضمهم وقضيضهم وندعزمو على قصد بلاد الاسلام فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشتد قتال ثم أنزل الله نصره على المسلمين وانهم الفرنج وكانوا بين قتل وأسروا وفي هذا الوقعة يقول النفساني من قصيدة أولها

يا ليت ان الصدود مصدود * اولاً غليت النوم مردود
الى متى تعرض عن مغرم * في خذل للدمع اخمدود
قالوا عيون البيض بيض الظبي * تلم ولكن ههه سدود
يخاف منها وهي في جفنها * والسيف يخشى وهو مغمود

ثم خرج الى المدح فقال

وكيف لانتى على عيشاالا * محمود والسultan محمود
فلانك الناس ظلال المنى * ان رواق العدل ممدود

كتاب (٥٦) الروضتين

ونيرات الملك وهاجة * وطالع الدولة مسعود
وصارم الاسلام لا ينقئ * الاوشوا الكفر مقدود
مناقب لم تك موجودة * الا ونور الدين موجود
مظفر في درعه ضيغ * عليه تاج الملك معبود
نال المعالي مالمحكما * فهو سليمان وداود
ترتشف الافواه اسيافه * ان رصاب العز مورود
وكم له من وقعة يومها * عند ملوك الشرك مشهود
والقوم امام رهي صرعة * اوموتى بالقدر مشدود
حتى اذا عادوا الى مثلها * قالت لهم هيتة عودوا
طالب بنار صمته الظبي * فكل ما يضمن مردود
والكثر والفرج حال الوعى * فطارد طورا ومطرود
وانما الافرنج من بينها * عادوا وقد عاد لها عود
قد حصص الحق فاجاهد * في قلبه بأسك مجعود
فكل مصر بك مستفتح * وكل نعر بك مسدود
وقال ايضا قصيدة في نور الدين وأنشدها ياها بظاهر حلب وقد كسر الافرنج على بغرا وهزمهم الى حصن حارم وقد كانت الافرنج هزمت المسلمين أولا بهذا الموضع أولها

تفي بضمائها البيض الحساد * وتقضى دينها السمر الصهاد
وتدرك نارها من كل باغ * فوارس من عزائمها الجلال
وينشئ حومة المحجهاهم * يشد بضبعه السبع الشداد
أظنوا ان نار الحرب تحبو * ونور الدين في يده الزناد
وجند كالصقور على صقور * اذا انقضوا على الابطال صادوا
اذا اخفوا كم يدتهم أخافوا * وان أبدوا وعداوتهم أبادوا
ونصرة دولة حاميت عنها * وهل يخشى وأنت لها عماد
وان تتسل القوا في ماتلته * بآئب ما يؤنبها سناد
جرت بالنصر أعلام العوالى * وليس سوى النجم لها مداد
وطالت أروس الاعلاح خصبا * فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحطت بهم فكان القتل صبرا * ولا طعن هناك ولا طراد
ولابرنس فوق الرمح رأس * توسد والسنان له وساد
ترجل السلام ففرسوه * وليس سوى القناة له جواد
غضيض المغلطين ولا نعاس * وعابرها وليس به سهاد
فسر واستوعب الدنيا فتوحا * فلا هضب هناك ولا وهاد
وزر بنى الوغى مثنوى حبيب * فمن عن باب مسلحه ذباد
ولا في باب فارس غير ثكلي * بفارسها بضئى بها الحداد
لانطاكية بجى ذراها * وقد دانت لسطوتك البلاد
واذغت الممالك واستجابت * مليحة لدعوتك العباد

قالت ووقعة أنب هذه كانت عظيمة وقد أكثر كذلك الشعراء لها وسيا في ذكرها قريبا ان شاء الله تعالى

في أخبار (٥٧) الدولتين

(فصل) قال أبو يعلى التيمي وفي رجب من هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بان صاحبها نور الدين ابن أتابك أمر بإبطال حى على خير العمل في وأخرنا ذنب الغداة والتظاهر بسب الصحابة وأنكر ذلك انكارا شديدا وساعده على ذلك جماعة من أهل السنة بحلب وعظم هذا الامر على الاسماعيلية وأهل التميع وضاعت له صدورهم وهاجروا وما جواثم سكنوا وأحجموا الخوف من الطسوة النورية المشهورة والهبة المخدورة قلت وأنشده ابن منير في رمضان

فذاك من صام ومن أفطرا * ومن سعى سعيتك أو قصر
وما لورى أهلا فتغدى بهم * وهل يوازى عرض جوهر
عدل تساوى تحت كفافه * مذافل العين واسد الشرى
يانور دين الله كم حادث * دجى واسفرت له غامرى
وكم حى للهرك لا يمتدى الـ * وهم له غادرته مجزرا
يا ملك العصر الذى صدره * افصح من أقطارها مصدرا
وابن الذى طاول أفلاها * فلم يحسد من فوقه مظها
مناقب تكسر كسرى كما * تقصر عن ادراكها قيصر
ما عاى فى اوصافها شاعر * الارأى أوصافها أشعرا
لله أصل أنت فرع له * ما أطيّب المجنى وما أظها
ما حلب البيضاء هذه صفتها * الاحرام مثل أم القرى
شيدت فى معمر ارجائها * لكل باغى عمره مشعرا
فاصبح السادى اذا نوب الـ * داعى له هلل أو كبرا
لا عدم الاسلام من كفه * كفى لمن ارهق أو احصرا
كما ساحت حنة * أجرت بها راحتته كوثر
تصرم الشهر الذى كنت فى * أوقاته من قدره أنصرا
جهاد ليل فى نهار غزا * اذ كنت فيه الاصر الانكرا
أصدق ما رشفه سامع * ما هز من أوصافك المنبرا
أبقاك للدين والدين من * خللك فى ايلهم مانبرا
حتى ترى عيسى من القدس قد * نجا الى سيفك مستنصرا

قال أبو يعلى وفي رجب أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم فى الجامع المتحور بدمشق على جارى العادة والرسم فبدأ من اختلافهم فى أحوالهم وأغراضهم والخوض فى نضايا الحاجة اليها من المذاهب ما أوجب صرفهم عن هذه الحال وابطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد وطمع سفهاء الأوعاد وذلك فى آخر شعبان من هذا وكثر فساد الفرنج المقيمى بدمشق وعكا والثغور الساحلية فى الاعمال الالهية بعدد حيلهم عن دمشق فأغاروا من الدين على اعمالهم ونعيم فى ناحية من حوران بالعسكر وكانت العرب واستدى جماعة وافرقت من الزنكان وأطلق أيديهم فى نهبهم وألفنتك بهم فلم يزل على النكاية فيهم والمضايقة لهم الى ان ألجأهم الى طلب المصالحة

(و) دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة * فحدثت المهادنة فى المحرم مئة سنتين وأنفذ نور الدين الى معين الدين بعلبان صاحب انطاكية قد جمع افرنج بلادهم وظهر بذلب بهم الافساد فى الاعمال الحلبية وأنه قد برز فى عسكره الى ظاهر حلب للقاءه والحاجة ماسة الى معاضدته فندب معين الدين بمجاهد الدين زان بن مامين فى فريق وافر من العسكر المشقى للصير الى جهته وبذل المجاهد فى طاعته ومناجحته وبقي معين الدين فى باقى العسكر ناحية حوران قال وفى صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بآؤلاه الله تعالى وله الحمد على حشد الفرنج المخذول ولم يفلت منهم الا من أخبر بيوارهم وتجهيل دماؤهم وذلك ان نور الدين اجتمع له من العساكر ستة آلاف فارسا مقاتلة

كتاب (٥٨) الروضتين

سوى الاتباع والسواد فنهض بهم الى الفرج في موضع المعروف بأنب وهم في نحو أربعمائة فارس وألف راجل فقتلهم وغنمهم ووجد اللعين البرنس مقتد بهم صريعين جانه وأبطاله عرف وقطع رأسه وحل الى نور الدين وكان هذا اللعين من أبطال الفرج المشهورين بالفروسية وشدة البأس وقوة الحيل وعظم الخلفعة مع انتهاز الهبة وكثرة السطوة والتناهي في الشر وذلك يوم الاربعاء الحادي والعشرين من صفر ثم نزل نور الدين في العسكر على باب انطاكية وقد خلت من جاتها والذابين عنها ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة عددهم وحصانة بلادهم وترددت المراسلات بينهم وبينهم في طلب التسليم اليه وإيمانهم وصيانة أموالهم فوقع الاحتجاج منهم بأن هذا أمر لا يمكنهم الدخول فيه الا بعد انقطاع أموالهم من الناصر لهم والمعين على من يقصدهم وحلوا ما أمكنهم من الخف والمال ثم أاسة هلوا فامهلوا ثم رتب نور الدين بعض العسكر وللأقامة عليها والمنع لمن يصل اليها ونهض في بقية العسكر لمنازلتها ومضايقتهم فالتسوا الامان فأومئوا على أنفسهم وسلوا البلدي في امان عشر ربيع الاول وانكسار نور الدين في عسكره الى ناحية انطاكية وقد انتهى الخبر بنهوض الفرج من ناحية الساحل الى صوب انطاكية لانجادم منها فاقتضت الحال مهادنة من في انطاكية وموادعتهم وتقرير ان يكون ما قرب من الاعمال الخلية له وما قرب من انطاكية لهم ورحل عنهم الى جهة غيرهم بحيث كان قد ملك في هذه النوبة ما حول انطاكية من الحصون والقلاع والمعقل وغيرها المتعاضدة الجلة وفصل عنه الامير مجاهد الدين زن في العسكر الدمشقي وقد كان له في هذه الواقعة ولن في جلته السلاء المشهور والذكر المشكور لما هو موصوف به من الشهامة والبسالة وأصابه الرأي والمعرفة بما وقف الحروب وقال ابن أبي طي حل أسد الدين على حامل صليب الفرج فقتل وقتل البرنس صاحب انطاكية وجماعة من وجوه عسكره ولم يقتل من المسلمين من يقوم به وعاد المسلمون بالغنائم والاسارى وكان لاسد الدين في هذه الحرب اليد البيضاء ومدحها بعض الشعراء الجليلين بقصيدة يقول فيها

ان كان آل فرنج أدركوا فلجيا * في يوم يفرأوا لوامنة الظفر
ففي الخطم خطمت الكفر منصلنا * أبا المطر بالصمصامة الذكر
نالوا يغير أنسابا واتبعت لنا * على الخطم نفوس المعسر البتر
واستقودوا الحيل عرا واستقدت لنا * قوامص الكفر في ذل وفي صفر

قال وحصل لاسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير وعدة أسارى وخيول كثيرة فأنفذ لآخيه نجم الدين منها شيئا وفي هذه السنة عظام أمر أسد الدين وقال ابن الاثير سار نور الدين الى حصن حارم وهو للفرنج حصره وخرّب روضه ونهب سواده ثم رحل عنه الى حصن أنب فحصره فاجتمعت الفرج مع البرنس صاحب انطاكية وساروا اليه ليرحلوه عن أنب فلم يرحل بل لقيهم وتضاف الفريقان واقتتلوا وصبروا وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حدائنه سنة ما تجب منه الناس وأنجحت الحرب عن هزيمة الفرج وقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا وفيمن قتل البرنس صاحب انطاكية وكان عاتيا من عتاة الفرج وذوى التقدم فيهم والملك ولما قتل البرنس خلف ابنه صغيرا وهو يميند فيق مع أمه بانطاكية فترجعت أمه ببرنس آخر وأقام معها بانطاكية بدبر الحيلس ويقودهم ويقائل بهم الى ان يكبر يميند ثم ان نور الدين غزا بلد الفرج غزوة أخرى وهزمهم وقتل فيهم وأسروا وكان في الاسرى البرنس الثاني زوج أم يميند فلما أسره ملك يميند انطاكية ببلد أيه وعتكن منه وبقي بها الى ان أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسائة على ما ذكره ان شاء الله تعالى وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتمنّته بهذا الفتح وقتل البرنس فمن قال فيه القيسراني الشاعر من قصيدة أنشدها يهاجم الحديب الفاضل بين عمل حلب وعمل انطاكية أولها

هذي العزائم لا ماتدعي القضب * وذى المكارم لا مافالت الكتب
وهذه الحمى الا لاني متى خطبت * تعثرت خلفها الاشعار والخطب
صاحت بآبن عماد الدين ذروتها * براحة للساعي دونها تعب
ما زال جئتك يني كل شاهقة * حتى أبنتي قبة أوتادها السهب
لله عزمك ما مضى وهلك ما * أقضى اتساعا بما ضاقت به الحقب

في أخبار (٥٩) الدولتين

باسأهد الطرف والاحقان هاجعة وثابت القلب والاحشاء تضطرب
 أغرت سبوقك بالافرنج راجعة * فؤاد رومية الكبرى لم يجب
 ضربت كبشهم منها بقاصمة * أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
 قل للظفاعة وان صحت مسامعها * قولاً لصم القنا في ذكره أرب
 ما يوم آنب والايام دائسلة * من يوم يغربعيد لا ولا كتب
 أغتر كم خدعة الآمال ظنكم * كم أسلم الجهل ظنا غرة الكذب
 غضبت للدين حتى لم يفتك رضى * وكان دين الهدى مر ضاته الغضب
 ظهرت أرض الاغدى من دماهم * طهارة كل سيف عندها جنب
 حتى استطار شرار الزند قاده * فالجرب تضرم والآجال تحتطاب
 والخيول من تحت قتلها تنقر لها * قوائم خاتن الركن والخباب
 والنقع فوق صقال البيض منعقد * كما استقل دخان تحتها هب
 والسيف هام على هام معركة * لا البيض ذومة فيها ولا اليلب
 والنبل كالو بل هطال وليس له * سوى القسى وأيد فوقها سحب
 ولا ظبي ظفر حبلو منذ اقته * كنما الضرب فيما بينهم ضرب
 ولا سنة عما في صدورهم * مصادر أذلوب تلك أم قلب
 خاف الخائف رماح الطعن أيديهم * فاستسلموا وعي لا تبع ولا غرب
 كذلك من لم يوق الله مهجته * لاقى العدى والقنا في كفه قصب
 كانت سبيوقهم أوحى حتوفهم * يارب حائنة منجياتها العطب
 حتى الطوارق كانت من طوارقهم * ثارت عليهم بها من تحتها النوب
 أجسادهم في ثياب من دماهم * مسلوكة وكان القوم ماسلبوا
 أبناء ملحمة لوانها ذكرت * فيما مضى نسيت أيامها العرب
 من كان يغز وبلاد النزل كم تسيا * من الملوك فتور الدين محاسب
 ذو غرة ماتت والليل معتكر * الاتمرق عن شمس الضحى الخجب
 أفعاله كاسمه في كل حادثه * ووجهه نائب عن وصفه القلب
 في كل يوم لفكرى من وفائعه * شغل فكل مدجى فيه مقتضب
 من باتت الاسد أسرى في سلاسله * هل بأس الغلب الامن له الغلب
 فلكك واسلب الابرنس قاتله * وهل له غير انطاكية سلب
 من للشقى بما لاقت فوارسه * وان دسائرهما من تحتها قتب
 عجبت لاصعدة السمراء مثمرة * برأسه ان أثمار القنا عجب
 سما عليها سموت الماء ارفقه * أنبوبى فى صعوداً صلها صلب
 ما فارقت عذبات الساج مفرقه * الاوهى منه لا تاج ولا عذب
 اذا القناه ابتغت في رأسه نفقا * بدا لتعلبها من تحره سرب
 كننا نعدجى أطرافنا ظفرا * فلكك الظبي ما ليس تحتسب
 عمت فتوحك بالعدوى معاقها * كان تسليم هذا عند ذاجرب
 لم يبق منهم سوى يبيض بلارمق * كما التوى بعد رأس الحية الذنب
 فانهر الى المسجد الأقصى بذي لجب * بوليك أقصى المني فالقدس مر تقب
 واذن لوحك في تطهير ساحله * فانما أنت بحر لجه لجب

كتاب (٦٠) الروضتين

يامن أعاد ثغور الشام ضاحكة * من الظبي عن ثغور زانها الشنب
مازلت تلحق عاصمها وظائعها * حتى أقت وأنطاكية حاب
حلت من عقلها أيدي معاذها * فاستحلفت والى ميثاق الحرب
وأيقنت أنها تتساو من أكرها * وكيف يثبت لاجوق ولا طب
أجريت من ثغر الاعناق أنفسها * جرى الجفون أم ترها بارح حصب
ومار كزت القنالا ومنك على * بحر الحديد هز برغيلة اشب
فاسعد عافاته من كل صالحة * بأوى الى جنة المأوى لها حسب
ان لا يكن أحد الا بدال في فدانها * نقوى فلان تبارى انك القطب
فلو تناسب أفلاك السماء بها * لك كان ينسك من عنة نسب
هذاهل كان في الاسلام مكرمة * الاشهدت وعباد الهوى غيب
وله فيه من قصيدة أخرى

ألا لله درك أى در * صريح جاء بالكرم الصريح
وعسرك الذى استولى مسحا * على ما بين فامية وسج
ووقعك التى بنت العوالى * صوادى عن قتيل أو جريح
بأنب يوم أبرزت المذاكى * من النقع الغزال فى مسوح
غداة كأنما العاصى اجارار * من الدم عبرة البغض القرع
وقد وافاك بالابرئ حشف * أتبعه من القدر المتع
قتلت أشعهم بالنفس اذلا * يحد بنفسه غير السهم
ملأتهم ضرأتهم فامسا * وليس سوى النشاع من ضريح
وعدت الى ذرا حلب جيذا * سمو البدر من بعد الجنوح
فان جلبت بغرتك الليالى * فكلمناك من زمن ملج
رويك تسكن الحيا فوفا * بحيث ترجى من تعب المرج
فأنت وان ارحلت الخيل وقتا * فهمك غيرهم المستريح

وقال أحمد بن منير رحمه الله وكر ظفره بالبرنس وأحسب به وجل رأسه الى حلب وأشهده أيضا ياها بجسر الحديد

أوى الضلال واقفرت عرصاته * وعلا الهدى ونبلجت قسيماته
واتشاش دين محمد مجوده * من بعد ما غلبت دما عبراته
ردت على الاسلام عصر شبابه * وثباته من دونه وثباته
ارسى قواعده همد عماده * صعدا وشيد سور سوراته
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا * اصلاته وصلاته وصلاته
لما تواكل خزيه وتمخذا ذلت * أنصاره وتقا صرت خطوانه
رفعت لنور الدين نار عزيمة * رجعت لها عن طبعها ظلماته
ملك مجالس لهوه شداته * ومشوقه بين الصفوف شداته
تقرى بجحش البراع شانه * ان لاذ حخته الكؤس لدانه
وبروقه ثغر العدى قان دما * لا الثغر يعبقى فى الماء لثاته
فصبوحه نجر الطلى وغبوقه * نطف النفوس تديرها نشواته
فبح تجمت السماء بفخره * وهفت على أغصانها عذباته
سبغت على الاسلام ببيض مجوله * واختال فى أوضاعها جبهاته

في أخبار (٦١) الدولتين

وانهبل فوق الابطين غمامه * وسرت الى سكنها ففحاته
لله بلجة ليلة محصت به * واليوم ذبح وشبه ساعاته
حظ القوامص فيه بعد قاصها * ضرب يصلصل في الطلي صغفاته
نبذوا السلاح لضيق عادته * فرس الفوارس والقناغاياته
لمحروب عمرينه غضبياته * لله معصية غزواته
تحيما لضيق صفاده اسراره * وتفيض ماشؤ ونها نعماته
بين الجبال خواضعا لعناقتها * كالذود نابت عن براه حيداته
نشرت على حلب عقود بنردهم * حلل الربيع تناسقت زهراته
روض جنباه لها مكر جيباده * واستوارت جماله حملاته
متساندين على الحال كما انتشى * سرب امالت هامه قهوانه
لم تنبت الأجام قبل رماحه * سحجرا فروع أصوله ثمراته
فليجد الاسلام ماجدحت له * شرب غرس هذه مخبئاته
وسقى صدادك الحيا صوب الحيا * خير الثرى ما كنت أنت نباته
نصب السر برؤيه عنه ومهدت * لمقر من صلبك السرى سراته
ماض هذا البدر وهو محلى * ان الكواكب في الذرى ضراته
في كل يوم تستطيل قناته * فوق السماء وتعلو درجاته
وترى كشمس في الفحي آثاره * مجدا وألسنة الزمان رواه
أين الاولى ملاؤ الطروس زخارفا * عن نرف بجر هذه قطراته
غسدقوا بأعناق العواطل ماله * من جوهر فأتهم فذاته
لوفصلوا سمط بعض فتوحه * سخرت بما افعلوا لهم فعلاته
تسمى قنانيه نبات قيونه * فوق القوانس والقناقيناته
صلتان من دون الملوكة تقرها * حركاته وتنبها يقظاته
فعدت بهم عن خطوه هياتهم * وسعت به عن قطوهم هياته
سكنوا معجزة الجبال وأسكنت * زحل الزحال مع السها هزmate
لولا ح للطاني غيرة فحبه * بأت بحمل تأوه با آته
أوهب للطبرى طيب نسيمه * لاحتس من تاريخه حشواته
صدم الصليب على صلاية عوده * قفرت ايدى سبا خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة * بالروح همقر ما جنت غدراته
فانقاد في خطم المنية أنفسه * يوم الخطيم واقصرت زواته
ومضى يؤنب تحت أنب همة * أمست زوافر غيها زفراته
أسد تبرا كالغمر تفجأته * قنبوات طرف السنان شواته
دون النجوم مغضا ولطاما * اغضت وقد كرت لها الخطاته
بجنونه تبيك الا صادق تحتسه * بدم اذا خحك له شماته
تمسى القنائة برأسه وهو الذي * نظمت مدار النيرين نباته
لوعانق العيوق يوم رفعت * لارالك شاهد خفضه اخباره
ما انقاد قبلك أنفسه بحزامه * كلا ولاهت لها هدراته
طيان خلف السرح طال زثيره * نطق سطاك له فطال صماته

كتاب (٦٢) الروضتين

لماذا مسود رأيك فوقه * مبيض نصرك زكست رأياته
ورأى سيفك كالصواعط واوحت * مثل الكرين فقلصت كثراته
ولى وقد شربت ظباك كمانه * تحت الجحاح وأسلمته جماته
ترك الكنائس والكاس لذهاب * بالبيض نهب ما حواء عفاته
غلاب اروع لا يمت عذاته * ذاء المطال ولا تعيش عذاته
والآن ملقى بالعرا يقتاته * ما كان قبل يصيده يقتاته
اليوم ملكك القراع قلاعه * مقسما ما استسرفت شرفاته
وغدا تحل لك الخلائل اسهم * متوزعات بين من بناته
اوطأت أطراف السنايك هامه * فتقاذفت بعينها قذاته
لا زال هذا الملك يشخ شأه * أبدا وبلغت فى الحضيض وشاته
ما أخطأتك بالزمان فدونه * من شاء فلتسرع اليه هناته
أنت الذى تحلى الحياة حياته * وتهب أرواح القصيد هباته

(فصل) قال ابن الاثير وفيها سار نور الدين الى حصن فامية وهو للفرنج أيضا وبينه وبين مدينة حماه مائة فرسخة وهو حصن منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حار وشيزرونيهنونها فاهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار فسار نور الدين اليه وحصره وضيق عليه ومنع من به القرار ليلا ونهارا وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة فاجتمعت الفرنج من سائر بلادهم وساروا نحو حلب فزحزحوا عنها فلم يصلوا اليه الا وقد ملك الحصن وملاؤه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال وجميع ما يحتاج اليه فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم فحين رأوا جده فى لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم وكان قصارهم ان صالحوه على ما أخذ ومدحه الشعراء واكثر وامنهم أبو الحسين أحد بن منير حيث قال

اسنى الممالك ما طلعت منارها * وجعلت مرهفة الشفار دنارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها * رؤف تكنف عدله أوفارها
من عام سام الحماقين وحامها * مننا وزاد هوى فقص زارها
مضرية طبع مضاير به وان * عدته ذروة فارس اسوارها
آل الرعية وهى تجهل آلهها * وتعاف نطفتها وتكره دارها
فأقرت ضجعتها وأبنت نيهها * وأساعجرتها وأثبت زارها
ملك أبوه سماها فسميها * وأجارها فعلت سبيلا جارها
نهج السبيل له فأوضع خلفه * وشده الله بين العلى فانارها
أنشئت بالمحمود ملة أحمد * من بعد ما شمل البلى اصهارها
ان جانأت عدل السنان قرامها * أو نانأت كان الحسام جبارها
علقت مع العصم العواصم مذغذ * هذى العزائم أسرها واسارها
وتكفلت لك ضمرة انضبتها * فى صونها ان تسترد ضمارها
كلائت هوا ملها ورد مظارها * ما أريشته وثقت أطارها
كم حاولت من كفتها غرة * غلب الاسود فقلت أنظارها
انى وحامى سرحها من لوسمت * للفلك بسطته أحال مدارها
فى كل يوم من فتوحك سورة * للدين يحمل سفره أسفارها
ومطيلة قصر المنابر ان غدا ال * غطباء تنثر فوقها تقصارها
هم تجعلت المسلول زارها * بدم العثار وما اقتفت آثارها

في أخبار * (٦٣) * الدولتين

وعزائم تستور الآساد عن * نهش الفرائس ان أحس أوارها
أبدأ تقصر طول مشرفة الذرى * بالمشرفة أو تطيل قصارها
فغرت افاميسة فاقمتها * كوابر أجناعها الاران بوارها
أرهفت رائك فوق رائك تحتها * فخططت من شغفاتها أعفارها
أدركت نارك في البغاة وكنيت يا * مختار أمة أجد مختارها
عارية الزمن المغير سماها * منك المغيرة فاسترد معارها
زار الهزير فقيدت عانها * عصر الضلال وأسملت أعيارها
ضاعت نجومك فوقها ولربما * بانفتحتها النجوم سرارها
أسمت مع الشعري العبور وأصبحت * شعراء تستقل النجوم سوارها
ولكم قرعت بقر بائك مثلها * تلعاو قلدت الكلمة عذارها
حتى إذا اشتلتك أشرق سورها * عزا وحلاها سناك سوارها
خر الصليب وقد علت نغماتها * واستولبت صلواته نكرارها
لما وعأها سمع انطاكية * سرت الوفا وكشفت أستارها
فاليوم أضحت تستدتم مجيرها * من جوره وغلت تذم جوارها
علت بأن ستذوق جرعة أختها * ان رز أطواق إقباء وزارها
ماض إذا قرع الركب بلدة * ألفت له قبل القراع ازوارها
وإذا مجانقه ركن لصعبة الـ * حلقة أسجد كالخدير جدارها
ملا البلاد مواهبها ومهابة * حتى استرقت آية أحرارها
بذكي العيون إذا أقام لعينها * أبدا ويفضي بالظي أبكارها
أوما إلى رم التندى فأعاشها * وهما لسابقة التي فازارها
نبؤ تشبيهه لفتوح كأنما * أنصاره رجعت له أنصارها
أجبال الصرح سلامها سلمتها * وأمانت تحت عمارها عمارها
ان سار ساروق قد تقدم جيشه * رجف يقصم في اللهى دعارها
أوحل حل حبا القروم بهيبة * سلب البدور بدارها ابدارها
وإذا الملوك تنافسوا درج العلى * اربى بنفس أفرعته خييارها
ونهى إذا هيضت نذل الجبرها * وسطى نذل إذا عنت جبارها
تهدى لجمود السجايا كاسمه * لوز فاعلة بهنا لا بارها
الفاعل الفعلات ينظم في الدجى * بين النجوم حسودها اسمارها
ساع سعى والسابقات وراءه * عنقا فعصر منمأ عثارها
كم المضر جى إذا يصصر اربا * خرس البقا وهاجرت أوكارها
عسفت لزور الدين نور فائز * يغشى إذا اكتحلته أبصارها
مشهورة سطعت وقدحها ولها * لاقدار عجزا ان تشق غبارها
لله وجهك والوجه كأنما * حطت بها أوقار هبت قارها
والبيض تخنس في الصدور صدورها * هبوا وتكحل الشفور سفارها
والخيل تدلج تحت أرسمة القنا * جذب المواجع غاورت أبارها
فبقت تسجل الفتوح عرائسا * متملبا صدر العلى وصدارها
في دولة للنصر فوق لواثها * زبر تنق في الطلى أسطارها

كتاب (٦٤) الروضتين

فالدين مومة رفعت بها الصوى * وحديقة ضمنت يدك ابارها
وله فيه من قصيدة أخرى

خمس الثعالب حين زحجر محجر * ملأ البلاد هماها وزئيرا
تركوا مشاجرة الرماح لحاذق * جعلت مخافة الفصور قبورا
لربيب حرب لم تزل فعلااته * كالأرءاء يلزم لفظها الشكرا
أسد اذا ما عاد من ظفر بفسوس * أحسب ثلثه اظفورا
يتأذرا لا عدا منه سطوة * ملأ الزمان تعظيضا وزفيرا
عرفوا لنور الدين وقع وقائع * وفيها الاسلام أمس ندورا
أبدا يظفر فك القضاء على الدي * تبسقى فرجع ظافرا منصورا
قوضت فانقع الطهاير ظلمة * وقفلت فاشتعل الدجاير نوراً
وعلى العواصم من دفاعك عاصم * ينشئ الرشيد ونشرا منصورا

(فصل) في وفاة معين الدين ابن دمشق وما كان من الرئيس ابن الصوفي في هذه السنة قال أبو يعلى التيمي
فصل معين الدين من عسكره بمحوران ووصل الى دمشق في أوخر ربيع الآخر لا مراً أو جب ذلك ودعا اليه وأمعن في
الاكل فلققه عقيب ذلك انطلق فتمادي به وحمله اجتماده فيما يدبره على العود الى عسكره بناحية حوران وهو على
هذه الصفة من الانطلاق وقد زاد به وضعت قوته وولد معه مريض في الكبد فأوجب الحال عوده الى دمشق في
محفة لداواته فوصل وقضى نحبه في ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر ودفن في ابوان الدار الانباركية التي
كان يسكنها ثم نقل بعد ذلك الى المدرسة التي عمرها قلب قبره في قبة بقارب العونية شئنا في دار البطيخ الآن واسمه
مكتوب على بابها فلعنه نقل من ثم اليها وفيه يقول الامير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وكتب بها اليه من مصر لما التقى
الفرنج في أرض بصرى وصرخه من نور الدين وقد تقدم ذلك كتب اليه قصيدة يقول فيها
كل يوم فتح مبين ونصر * واعتلاء على الاعادى وقهر
صدق الثعت فيك أنت معين الـ * دين ان الذعوت فال وزجر
أنت سيف الاسلام حقا فلا كل غراريل أيها السيف دهر
لم تزل تضيء الجهاد مسرا * ثم أعلنت حين أمكن جهر
كل ذخر الملوكة يفتنى وذخرا * كلها الباقان أجرو شكر

قال وفي يوم الجمعة ناسع رجب قرئ المذمور المنشأ عن مجير الدين بعد الصلاة على المنبر بابطال الفسوخ المستخرجة من
الرعية وازالته حكمها وتعفيته رسمها وابطال دار الضرب فكند دعا الناس له وشكرهم قال واستوحش الرئيس
مؤيد الدولة من مجير الدين استحياساً أو جب جمع من أمكنه من سفهاء الاحداث والغوغاء وحمله السلاح من
الجهل العوام وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدراً لا حتماً بهم من مكروهية عليهم اودك في ثالث عشر
رجب وقعت المراسلات من مجير الدين بما يسكنها ما يطيب أنفسهمها واثبات ذلك وجسد اذى الجمع والاحتشاد
من العوام وبعض الاجناد وأثاراً التنتة قصصاً واثبات المجن وكسر واغلاقه والاطلاق من فيه واستنفر واجتماعه
من أهل الشاغور وغيرهم وقصدوا الباب الشرقي وفعلاً ما مثل ذلك وحصلوا في جمع كثير وامنلاً بهم الازقة
والدروب حين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة واجتمعوا في التلعة بالسلاح الشاكي واخرج ما في خزائنه من
السلاح والعدد وقرقت على العسكر وعزموا على الزحف على جميع الاواباش والابقاع بهم والنكابة فيهم فسأل
جماعة من المقدمين التهل في هذا الامر ونزل الحملة بحيث تحقن الدماء ويسلم البلدان من النهب والحرق والحوال
عليه الى ان أجاب سؤالهم ووقعت المراسلة والتلذذ في اصلاح ذات البين فاشتراط الرئيس وأخوه شروطاً أجيباً الى
بعضها وأعرض عن بعض بحيث يكون ملازماً لداره ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الدوان ولا يركب الى
القلعة المستدعى اليها وتقررت الحال على ذلك وسكنت الدهماء ثم حدث بعد هذا التغيير عود الحال الى ما كانت

في أخبار (٦٥) الدولتين

ليه من العناد واثارة الفساد وجع الجمع الكثير من الاجناد والمقدمين والزعاع والفلاحين واتفقوا على
رحف الى القلعة وحصر من بها وطلب من عين عليه من الاعداء الاعيان في أواخر رجب ونشبت الحرب بين
فريقين وجرح وقتل بينهم نفير سير وعاد كل فريق منهم الى مكانه ووافق ذلك هر وب السلار بن الدين اسماعيل
شحنة وأخيه الى ناحية يعاك ولم تزل الفتنة نائرة والحمالة متصلة الى ان اتفقت الصورة بعد ما اتفقت ابعاده
من خواص بجير الدين وسكنت الفتنة وأطلقت أيدي النهاية في دار السلار وب أصحابها وماوعها الثوب والخراب
بدعت الضرورة الى تطيب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهم ما وعادة الرئيس الى الوزارة والباسة بحيث لا يكون
ه في ذلك معترض ولا مشارك قلت وفي هذه الفتنة يقول العرقلة

ذرا لترك والعرا * وكن في حزب من غلبا * يخلق أصبحت فن * نجر الويل والحرا
لثمت فوا أسفا * وان تحرب فوا عجا

يقال في الرئيس لما زحف الى القلعة

زحفوا في المجد يا ابن علي * هكذا من أراد ان يتعالى * قد حوى الدين بأموئده منه * مك هز بر او ديمة وهـ لا
وغدت جلق تناديك عجا * هكذا هكذا والافلا * جنتها في الظلام خيلا ورجلا * وحيت النفوس والاموال
لن تسالي من بعدها بعدو * اما الكان قنعا فلا * قد بلغت المراء من كل ضد * وكفى الله المؤمنين القتلا
قال أبو يعلى التيمي وفيها ورد الخبر من ناحية مصر بوفاة المستخلف بها الملقب بالحافظ واسمه عيسى المجيد بن
الأمير بن المستنصر في خامس جمادى الآخرة وولى الأمر بعده ولده الأصغر أبو منصور اسماعيل ولقب بالظافر
وولى الوزارة له أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربي

(فصل) في وفاة سيف الدين غازي بن زكي صاحب الموصل وهو أخو نور الدين الأكبر قال ابن الأثير كان
أتابك الشهيد يعني زكي ملك دارا وبقيت بيده الى ان قتل فأخذها صاحب مارد بن ثم سار اليها سيف الدين بن
الشهيد في سنة أربع وأربعين فحاصرها وملكها واستولى على كثير من بلاد مارد بن بسببها ثم حصر مارد بن عازما
على ان يدخل ديار بكر ويستعيد ما أخذ من البلاد بعد قتل والده ففرق العسكر في بلدها ينهايون ويحربون فقتل
صاحب مارد بن كائنكمون أتابك وأبى أيامه فلقد كنت أعياها فند حصرنا غير مرة فلم يتعد هو وعسكر محاصر
السلطان ولا أخذوا كافا من اتين بغير ثمن

رب دهر بكيت منه فلما * صرت في غير بكيت عليه

تم انه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد وزوجه ابنته الخاتون ورحل سيف الدين عن مارد بن وعاد الى الموصل
وجهزت الخاتون وسيرت اليه فوصلت الى الموصل وهو مرض فتوفى ولم يدخل بها وذلك في أواخر جمادى الآخرة
وكان عمره نحو أربعين سنة وكان من أحسن الناس صورة ودفن بالمدرسة التي أنشأها بياطين الموصل وخلف ولدا
ذكر أخذه نور الدين محمود فراه فراه فأحسن تربيته وزوجه ابنة عمه قطب الدين وودود فلم تطل أيامه وادركه أجله في
عنقوان شبابه فتوفى وانقرض عقب سيف الدين وكان كرميا شجاعا عازما وزعم وهو أول من حمل على رأسه سنخيق
من أصحاب الاطراف فانه لم يكن فيهم من يفعله لاحل السلاطين السجوقية وهو أول من امر عسكره ان لا يركب
أحدهم الا والسيف في وسطه فبأمر هو بذلك اتقوا به غيره من أصحاب الاطراف وبني بالموصل المدرسة الانباركية
العتيقة وهي من أحسن المدارس وأوسعها وجعلها وقعا على الفقهاء الشافعية والخنفية بصفيين وبني رباط الصوفية
بالموصل أيضا وهو رباط المجاور لباب المنشرة ووقف عليهم ما الوقوف الكثيرة وكان كرميا قصده شهاب الدين
حيص يبص وأمدحه بقصيدته المشهورة وهي من جيد شعره فأجازه عنها ألف دينار أميرى سوى الاقامة والتعهد
مدة مقامه وسوى الخلع والثياب قلت أول تلك القصيدة الى ميراث في المجد يري شاعر يقول في آخرها

اتابك ان سميت في المهدي غازيا * فسابقة معدودة في البشار

وفوت بها والدين قد مال روقه * وصدقتها والكفر رادى الشاعر

وعزى أبو الحسين أحمد بن منير نور الدين بأخيه بقصيدة تقدم بعضها أولها هو الجذب التمام البدورا يقول فيها

كتاب (٦٦) الروضتين

سوى كل ما جنت الحادنا * كنت ظلالا علينا قرا
أساءه وأحسن كن الهلال * وملائنا منك بدر انفسا
ادا نبح البحر أخطأته * فلا غرو ان يشفن الغديرا
وأصغر بقصدنا الذهب * بين ما عشت نابل ملكا كبيرا
وما أغمد الدهر ذاك الحسا * م ما سل حدك عضباتورا
قسيم علاك ونم القس * أخ شاف نزا وأعطى كثيرا
وكان نظيرك غار الزما * من من اب يرى لك فيه نظيرا
فذلك نفوس بك استوطنت * من الامن نورا وقد كن يورا
وغيرك يمد بسط العرا * ويولى المسلمين سمعا وقورا
وما نقص الدهر اعدادكم * اذا نصف قطرا وأبقى بحورا
ولو أنصف المجد موتاكم * لخطهم في السماء القبورا
حياتك أحييت رميم الرجا * وأمطت من الجود ظاهرا وظهيرا
بقيت معزا من الهالكين * توفى الرد وتوفى الاجورا

وللقيسراني قصيدة منها

ما أطرق الجوّ حتى أشرق الأفق * ان أغمد السيف فالصمصام بألق
دون الاسى منك نور الدين في حلب * مملك نجلي عن وجهه العسق
هو الشقيق الشقيق الغيب حين نوى * أراق ماء الكرى من جفنك المرق
تلقى الاسى من لباس الصبر في جن * حصينة فتحها الاحساء تحترق
ومدة الاجل المحتوم ان خفيت * فان أيا منا من دونها طرق
وانما نحن في مضمار حلبتها * خيل الى غاية الاعمار تتبع
شاو اذا ابتدر الاقوام غايته * كان المؤخر فيها من له السبق
ان كان صنوك هذا قد نوى قذوى * ففي مغارسك الانهار والورق
أو أصبحت بعده الاهواء نافرة * أيدى سبأ فاعلى عليك تنفق
ما غاب من غاب عن آفاق مطالعه * الا ليفتر عن أنوارك الافق
مادام شمسك فينا غير أفلة * فالدين منتظم والمذك منتسق

(فصل) قال ابن الاثير لما توفى سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل فاتفقت كلمة جمال الدين وزير الدين على توليته وتقليبه كالمالك لسلامة منه فانه كان لين الجانب حسن الاخلاق كثير الحلم كريم الطباع فاحضره من داره وحلفوه لهم وحلفوا له ونزل بدار المملكة وحلف له الامراء والاجناد واستقر في الملك وأطاعه جميع ما كان لاجه سيف الدين لان المرجع كان في جميع المملكة الى جمال الدين وزير الدين ولما ملك واستقر في الملك تزوج امرأته أخيه التي مات ولم يدخل بها الخاتون ابنة حسام الدين تتراش صاحب ماردن فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده على ما سذكروه ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد غير أولادها قال وكانت هذه الخاتون يحمل لها ان تضع خنجرها عند خمس عشر ملكا من آبائها وأجدادها واخوتها وبني اخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها ثم ذكرهم ابن الاثير في كتابه وبما هم وذكر انها أشبهت في ذلك فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وزوج عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لها ان تضع خنجرها عند ثلاثة عشر خليفة وهم معاوي يرضى الله عنه الى آخر خلفاء بني أمية سوى آخرهم وهو مروان بن محمد فانه ابن عم له ليس بحرم والباقيون محارم لها ومات له ذلك الابعد ذكره ان أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية فعاد به جد أمها يزيد جدتها لأنها ومعاوية بن يزيد خالها ومروان جدتها لانيها وعبد الملك أبوها والوليد وسليمان وهشام بن يزيد اخوتها وعمر بن

كتاب (٦٨) الروضتين

يدفعونه ديانة وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم وإذا كنت عند أخيك فالنفع اليك عائد وأريد من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي فأجابه الى ذلك فقال له جمال الدين أنت عليك خرج كثير لاجل الكفار فيجب مساعدتك وأنا أقتع منك عشرة آلاف دينار كل سنة فأمر له بها فكان نائب جمال الدين يقضيها كل سنة ويشترى بها أسرى من الفرنج ويطلقهم قلت وقرأت في ديوان القيسراني وقال في نور الدين عند قدمه وقد استولى على سنجار وأعمال الرحبة والفرات وذلك في منتصف ذي القعدة سنة أربعين وخمسمائة

هذا الذي ولدت له الأفكار * وتمحضت فالأبنة انعمار
وجرت له خيل النهي في حلقة * وردت وصعوز غيرها المضمار
وأتته نذر القوا في برهنة * ان القوا في وجهها انذار
حكمت لسيفك بالماثنة * حكما لعمري ما عليه غبار
يا ايها الملك المطيل بجاده * برّيد بن يهديه الاربار
يا ابن السيوف وهل تغرب بنسبة * الاسما بك للجدود فخار
فارقت دار الملك غير مفارق * لك من علاك بكل ارض دار
في عسكر يخفي كواكب ليله * نفعافم طلعهما الله بالخطر
جزار أذبال العجاج وراءه * وأمامه بل محفل جزار
تدني لك الغايات أكبرهمة * نورية هم المملوك كبار
حتى ملأت الخافقين مهابة * دانت لعظم نظامها الاقطار
وملكت سنجارا وما من بلدة * الا تمت انها سنجار
وبسطت بالاموال كفاطما * طالت بها الآمال وهي قصار
وجرت بامداد الجياد شعابها * جرى السبول وباسواك قرار
وشئى الفرات الى يدك عنانه * والبحر ما اتصلت به الانهار
وملكت رحبة مالك فتبرجت * منها عينك كاعب معطار
جاءتك في حلل الربيع وحلها * قبل الربيع شقائق وبهار
نثرت عليك هوى القلوب محبة * ونود لوان النجوم نثار
فأقت كالشمس المنيرة ان ناءت * عن أفقها فلهابه أثمار
من كان نور الدين ثم أخيه * ليل السرى حفت به الانوار
تدعو البلاد اليك ألسنة النظمي * فيحيبك الانجاد والاعوار
حتى عمّت الدين يا ابن عماده * بقنا أستنها عليه منار
وقفلت من أسفار جلدك فادما * كالصبح ثم يغره الاسفار
يعني البصائر نور وجهك بعدما اعتركت على قسمااته الابصار
حتى عمّت بكل قلب صدره * حيث الصدور من القلوب وقنار
ان نس في حلب يا حاك غصنة * ظله بانطاكية اعصار
وغدت جيارك بالآم مقيمة * ولها بأطراف الدروب مغار
هم سبقت بها الى مخرج العدى * بصرف الردى ومسيره احضار
وأرى صياح القمص كان خديعة * فطاني وجار وليس ثم وجار
خان الصنيعة غير محقوق بها * والخبر يهدم ما بنى الختار
ذئب اذا ما غبت أقدم عاتيا * اقدام من لم يدن منه قرار
أضنى السلاح على عدوك بغيه * بالغدر يطعن في الوعى الغدار

في أخبار * (٦٩) * الدولتين

فاحسم عناد ذوى العناد بحقل * كالليل فيه من الصفيح نهار
جند على جرد امام صدورها * صدر عليه من اليقين صدار
قد بايع الاخلاص بيعة نصرة * ولكل هادى أمة أنصار
ملاك له من عدله ووفائه * جيش به تستفتح الامصار
واذا الملوك تناقلت عن غايه * وأرادها خفت به الاقدار
واذا انتعشت الى النور عزيمه * قامت مقام جنوده الاخبار
ولا بن منبر من قصيدة فيه

ترنج معطف الزوراء لما * دعاك لزور سخبار امام
وزلزلت الصعيد وراء مصر * غداة علتك في قطن الخيام
رجاء هزيمتك وتلك خوف * ولو قد شئت ضمهما قرام
بعيشك يا مبيد الخيل ركضا * حمام هن تحتك أم حمام
وقال ابن منبر أيضا بهذه بتسليم قلعة حص من ينال وأنشده في القلعة قصيدة أخرى

ارحها فهي ازلام المعالي * لهن الى الوعى توق المغالي
أما ومقيلهن بكل تقسع * يقوض بالهدى عمر الضلال
وأى سيوفك الجراحواشى * منزلة متى دعبت نزال
مواض ان سلان سلكن جزما * نفاه من الطلى لفظ اعتلال
لقد غلب الصليب بحرب * يشب أوارها لم الليالى
وشمت لنصر هذا الدين ناسا * تحترق منه كل حى حلال
وقايع جوها داهى العزال * وقايع جوها داهى العزال
تسائل حص عن منسى دين * تقاضاه لان الحج الخوالى
فوانت وهى أخت النجم بعدا * ووعدا صيغ من مطل مطال
تسأله أنفها عزا وسدت * على ان لاتنال يدينال
فما زالت رفاك تجدد تقضا * لما تشبه من مر والخيال
الى ان أطلق الحسناء كرها * وآل الى ملاوحة المانى
يصد الوحه عن شما الفت * بد الاشم ذى باع طوال
شغلت بها يمينك والمواضى * تكفل ان مصر الشمال
اذا فتح القتال عليك أرضا * أياحك أختها لاعن قتال

فصل قال الرئيس أبو على اتصل الخبر بوزراء الدين بافساد الفرنج في الاعمال الخورانية بالنهب والسبي
فعزم على التناهب لقصدهم وكتب الى من يدمشق يعلمهم عازم عليه من الجهاد ويستدعى المعونة على ذلك بألف
فارس تصل اليه مع مقدم يعول عليه وقد كانوا عاهدوا الفرنج على ان يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر
المسلمين فاحتج عليه وغرولط فلما عرف ذلك رحل ووزل بمرج بيوس وبعض العسكر يعرضون فلما قرب من دمشق
وعرف من بها خبره ولم يعلموا ان قصدهم قد كانوا اساءوا الا فرنج بجنده وقرر وامعهم الانجاد عليه وكانوا قد نهضوا
الى ناحية عسقلان لعمارة غزوة وصلت أذانهم الى بانياس وعرف نور الدين خبرهم فلم يحفل بهم وقال لا تخرف
عن جهادهم وهو مع ذلك كافى أيدي أصحابه عن البيث والافساد في الضمائر وأمر بحسان الرأى في الفلاحين
والخفيف عنهم والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها وسائر البلاد وأطرافها وكان الغيث قد انحبس
عن حوران والمرج والغوطه وزح أكثر أهل حوران عنها للحل واستداده الامر فلما وصل نور الدين الى بعلبك
اتفق نزول المطر يوم الثلاثاء ثالث ذى الحجة وأقام الى مشله فروى الاكام والوهاد وجرت الاودية وزادت الانهار

كتاب (٧٠) الروضين

وامتلا ت برك حوران ودارت ارحمتها وعاد ما صوح من الزرع والنبات طر يا وحشد الناس بالدعاء لنور الدين
وقالوا هذا بركته وحسن معدلته وسيرته ثم رحل من منزله بالا عوج ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العسا كرفي
السادس والعشرين من ذي الحجة وأرسل الى جبر الدين والرئيس وقال انني ما قصدت بنزول هذا المنزل طلبا لمخاربتكم
ولا منازلتكم وانما دعاني الى هذا الامر كثرة شكايته المسلمين من أهل حوران والبرمان الفلاحين أخذت أموالهم
وسبيت نسائهم واطفالهم بيد الا فرنج وعدم الناصر لهم ولا يسعى مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصره
المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ان أقدم عنهم ولا اتصرف معهم معرفتي لعجزكم عن حفظ أموالكم والذنب
والتقصير الذي دعاكم الى الاستصراخ بالا فرنج على محاربتى وبذلك لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعيمة
ظلمتهم وتعد يا عليهم وهذا ما لا يرضى الله تعالى ولا أحد من المسلمين ولا بد من المهونة من ألف فارس مزاحي
العله تجرد مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخلص ثغر عسقلان وغزة قال فكان الجواب عن هذه الرسالة ليس
بيننا وبينك الا السيف وسوا فينا من الا فرنج ما بيننا على دفعه ان قصدنا ونزلت اليها فاما عاد الرسول بهذا
الجواب ووقف عليه أكثر التجب منه والانكار له وعزم على الزحف الى البلد ومحاربتة في غد ذلك اليوم فأرسل
الله من الامطار وتداركتها ودوامها مانعه من ذلك

﴿ ثم دخلت سنة خمس وأربعين ﴾ ففي مستهل المحرم تقرر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق والسبب في ذلك ان
نور الدين اشفق من سفك دماء المسلمين ان أقام على حربها والمضايقة لها بعد ما اتصل به من أجناد دعتة الى ذلك
واتفق انهم بذلوا له الطاعة وافادة الخطبة له على من بر دمشق بعد الخليفة والسلطان وكذا السكوة وقعت الايمان
على ذلك وخلع نور الدين على جبر الدين خلعة كاملة بالظوق وأعادهم ك ما محترما وخطب له على من بر دمشق يوم الجمعة
رابع عشر محرم ثم استدعى الرئيس الى الخيم وخلع عليه خلعة كاملة أيضا وأعاد الى البلد وخرج اليه جماعة من
الاجناد والخوفا الى الخيم واختلطوا به ووصل من استماحه من الطلاب والقرعاء والضعفاء بحيث ما خاب فاصدده
ولا اكدي سائله ورحل عن مخيمه عائدا الى حاب بعد احكام ما ذكر وتكبير ما بر قلت وفي ذلك يقول القيسراني

لك الله ان حاربت فالنصر والفتح * وان تثبت صلحا عد من حزبك الصلح
وهل أنت الا اليم في كل حالة * فطور له حديد واوراه صفح
سقيت الردينيات حتى رددتها * ترخ من سكر فخل الفنا تنحو
وما كان كف العز الا اسارة * الى الخرم لو لم يغب السيف والرمح
وقد علم الاعضاء مذبح جانحا * الى السلم ما تنوى بذلك وما تنحو
اذا ما دمشق مد يديك عنانها * تيقن من في ايليا اله الذبح
مقي التف تقع الجفنين على الهدى * فلامهم يحوى الضلال ولا سفع
اذا سار نور الدين في الجيش غازيا * فقول لا لبس الا فاك قد طلع الصبح
ثرت قلوب الشرك تشكورا جاحا * فلزال الشكوى ولا تامل المرح
صبرت فكان الصبر غير مغبة * فسبق اليك الملك يسعى به النجم
كان القناح اوله وجه امره * ولوا مهلت بلقيس ما غرها الصرح
يدولتلك القراء أصبح ضدها * بهما ولولا الحسن ما عرف الفتح
وكم من قريح القلب لوبات واردا * موارد هذا العدل ما مسه قرح
سجلك هذا الدهر جودا على الوري * على انه مازال في طبعه سمع
وقد كان يحور رسم كل فضيلة * ونحن نراه اليوم ثبت ما يعمو
بك ابتهج الالباب واتهجم الحجي * وأتمرت الآداب واطرد المدح
ولا ذبتك التقوى وعادت بك العلي * ودانت لك الدنيا وعز بك السرح
فلا قلب الا قد تملكته هوى * ولا صدر الا قد جلا ملك النصع

وما الجود في الاملاك الاتجارية * فن فاته حمد الوري فاته الرج

ولم اختصر ما قلت الانسنى * اعبر عما لا يقوم به الشرح

(فصل) في فتح عزاز قال أبو يعلى وورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكر هامن التركمان ظفر بابن جوسلن صاحب عزاز وأصحابه وحاصلوا في قبضة الاسرى قلة حلب فسر هذا الفتح كافة الناس وتوجه نور الدين في عسكره الى عزاز ونزل عليها وضايقها وواظبه الهام الى ان سهل الله تعالى ملكها بالامان وهي على غاية من المنعة والحصانة والرفعة فلما تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثقه ورجل عنها ظفر امسر وراعنا الى حلب في أيام من شهر ربيع الاول قلت وذكر ابن منبر فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدة أولها

فذلك القلوب بألبابها * وساح المسالك بأربابها

كأب ترمي جنود الصلح * ب من باب تقطيع أصلابها

اذا ما انثنت من قراع الكما * فكست وفدها ونوى أسلابها

تبرنس منها البرنس النيا * ب وحلته من وقع احلابها

عشمة غصت على آنب * نفوس النصاري بغصابها

وفام لاجد محمودها * يجذع موارن أحرابها

نجلي لها حيدري المصاع * أغلب مود بغلابها

مورث أركاسها من أب * أكل الفوارس شرابها

هام اذا أعصو صبت نبوة * دهاها بها شم اعصابها

مضى وجنى لك حلو الشها * دما تطلق من صابها

وأوصى بها لك من بعدما * تجترع عمقرا وصابها

واقسم جدك ان لا يلب * في غيرك ملابس أنوابها

صجبت دمشق بمشق الجيا * دزبور الوغى بين أحداها

واصلت رايبك قبل الحسا * م محمد جرة احلابها

فاعطت لك ما لم تنله يد * وفازت رقاك باصحابها

وأنت تصرف فضل الزما * من حص تأخير ركابها

تخونها الجور فاستدركت * بعد لك أغبار ظيظابها

وفاجأت قورس بالشائلات * نتج القنا شم اذناها

فأمرت حتى رمت بيضنها * اليك أزمه ضرابها

وعزت عزاز فادلتها * بحجري مضيق لاسهابها

باشمخ من أنفه امكنكبا * وأكثر من عد طورابها

دلفت ليعطا أم النجو * في الامر ابطاء أنرابها

وعذرا مدعرت ما اهدت * ظنون الليالي لآرابها

تفرعها بفرع الوشح * مئمة هام أوشابها

وعوج اذا انبضت اغضت * ذكاء لارمال نشابها

ومحدوبات نظير الخطوب * ملافظ ألسن خطابها

تصوب عقبان ريب المئون * متى زينت باعقابها

وماركت حول شم الهضا * بالاسجد دن لانصابها

فلاذت بجمعهم بالسكنا * بهووب الممالك سلامها

بغتصم النري والهدى * هوس السرى غير هيلها

كتاب (٧٢) الروضين

محل المحل بوصف القنو * حوصف الثمان وأربابها
وتعجز مذانحه أن تحيط بأدابه فلك آدابها
بدائع لورد دهر رمسين بنات حبيب باحبها
وأبن ابن أوس وآياته * من اللاء أودت بحسابها
من اللاء عادعتني لها * ورد عليها ابن خطابها
فأيامه من حبور تكا * دبسط بها فرط اعجابها
لك الفضل ان راسلك الجيا * د وقامت أدلة أنجبها
أقول لمؤجره بالغرو * رتظت هواها فأهوى بها
حذار عند انقسام الغيو * ث تخشى صواعق الهوى بها
ولا تتخذ عوايا فترار الليو * ث فالنار في برد أنسابها

(فصل) في صفة أسرجوسلين قال ابن الأثير سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمال حلب منها تل بشار وعين تاب وعزاز وغيرهما من الحصون فجمع جوسلين الفرنج وأرسلهم وراح لهم ولقوا نور الدين وكان بينهم حرب شديدة فاجلعت عن انهمزام المسلمين وظفر الفرنج وأخذ جوسلين سلاح داركان لنور الدين أسير أو أخذ ما معه من السلاح فأنفذه إلى السلطان مسعود بن تلج أرسلان السلجوقي صاحب قونية واقصرا وغيرهما من تلك الاعمال وكان نور الدين قد تزوج ابنته وأرسل مع السلاح إليه يقول قد أنفذت لك سلاح صهرك وسبايتك بعد هذا وغيره فعظمت الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين وعلم ان هوجع العساكر الإسلامية لقصد جوسلين والفرنج وحذر وامتنع فاحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والاموال ان هم ظفروا بجوسلين اما قسلا واما اسرا فاتفق ان جوسلين خرج في عسكره وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبي فاستحسن من السبي امرأة منهم خلاها تحت شجرة فعاجله التركمان فركب فرسه ليقاطلهم فأخذوه أسيرا فصانعهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه واجابوه إلى ذلك وأخفوا امره عن نور الدين فأرسل جوسلين في احضار المال فأتى بعض التركمان إلى نائب نور الدين يطلب فاعلم الحال فسير معه عسكر أخذوا جوسلين من التركمان قهرا وكان نور الدين حينئذ مجبوس وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين فانه كان شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج شديد العداوة للمسلمين وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم لئلا يعلمون من شجاعته وجودته وشدة عداوته لليلة الاسلام وقسوة قلبه على أهلها وأصيب النصرانية كافة بأسره وعظمت المصيبة عليهم بفقدته وخلت بلادهم من حاميتها ونفورها منهم من حافظها وسهل أمرهم على المسلمين بعده وكان كثير القدر والمكر لا يقف على عيني ولا يفي بعهده طالما صالحه نور الدين وهادنه فإذا امن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر فلقبه غدرة وحقا به مكره ولا يفتق المكر السيئ الا باهله فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم فنهبا عين تاب وعزاز وقورس والراوندان وحصن البارة وتل خالد وكفر لانا وكفرسوب وحصن نسر فوب بجبل بني عليم ودلولك ومرعش وتهرا لجوز برج الرصاص فال وكان نور الدين رحمه الله اذا فتح حصنا لا يرسل عنه حتى يملأ من رجاله وخاثر تكبمه عشرين شهرا من خوفه من نصرته بمحمد للفرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا منهم القيسراني قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها واذ كرتل البرنس وأسر جوسلين وأخذ بلاد

دعا مادعي من غره النبي والامر * فما الملك الا ما حباك به الامر
ومن ثبت الدنيا اليه عنانها * تصرف فيما شاء عن أذنه الدهر
ومن راهن الآدمي في صورة العلي * فلن تدرك الشعري مده ولا الشعر
اذ الجذأ مسمى دون غايته المني * فماذا عسى أن يباغ النظم والنثر
ولم لا يلى أسنى الممالك مالك * زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقاً أن كرسى ملكها * حي منك صبرا ضاق عن هه الصدر

في أخبار (٧٣) الدولتين

وانك نور الدين مسذرت أرضها * سميت بل حتى انحط عن نسرهما النسر
خطبت فلم يحجبك عنها ولبها * وخطب العلي بالسيف مادونه ستر
جلاها لك الاقبال حورية السنا * عليها من الفردوس أودية خضر
خلوب أكننت من هواك محبة * نمت فأنمت جهرا وسرا هوى جهر
فسقت اليها الامن والعدل نخلة * فامست ولا سر تخاف ولا اصر
فان صاحبت بمنك من بعدهم هجر * فاحلى التلاقى ما تقدمه هجر
وهل هي الا كالحصان تمنع * دلالا وان عز الحيا وغلا المهر
ولكن اذاما تسبها بصداقتها * فليس له قدر وليس لها قدر
هي الثغر أمسى بالكراديس عابثا * وأصبح عن باب الفاراديس يفتى
على انها لو لم تجيبك امانة * لارحقها من بأسك الخوف والذعر
فاما وقفت الخيل نافعة الصدى * على بردا من فوقها الورق النضر
فن بعد ما أوردتها حومة الوغى * وأصدرتها والبيض من علق حجر
وجلاتها نغما أضع شياتها * فلا شهيم اشهب ولا شقرها شقر
علا النهر لما كثر القصب القنا * مكثرة في كل نحس لها نحس
وقد شرقت أجرافه بدم العدى * الى ان جرى العاصى وخضاضه غر
صدعهم صدع الزجاجة لا يد * لجأ برها ما كل كسر له جبر
فلا يتخل من بعدها الفخر دائل * فن بارز الارز كان له الفخر
ومن بن انطاكية من مليكها * أطاعته الحياظ المؤلة الخزر
أخو الليث لولا غدره نزعت به * الى الذئب ان الذئب شيمته العذر
أق رأسه ركضا وغودر شواوه * وليس سوى عافى النسر له قبر
وقد كان فى استبقائه لك منه * هي الفتك لو لم تغضب البيض والجر
كما أهدت الاقدار للقمص اسره * وأسعد قرن من حواه لك الاسر
طغى وبغى عدوا على غلوائه * فاوبقه الكفران عدواه والكفر
والقت باليديها اليك حصونه * ولولم تجب طوعا لجاء بها القسر
وأمت عزاز كاسمها بل عزة * تشق على النسر لو انها الوكر
فمر واملأ الدنيا ضياء وبهجة * فبالاقى الداجى الى دا السنا فقر
كانى بهذا العزم لافل حده * وأقصاه بالاقصى وقد قضى الامر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا * وليس سوى جارى الدماء له طهر
وقد أدت اليمن الحساد فروضها * فلا عهدة فى عنق سيف ولا نذر
وصلت بعراج النسي صوارم * مساجدها شفع وساجدها وزر
وان يتيم ساحل البحر مالكا * فلا عجب أن يملك الساحل البحر
سلت سيموفا أنككت كل بلدة * بصاحبها حتى تتوفك البدر
اذا سار نور الدين فى عزمانه * فقولا ليل الافك قد طلع الفجر
ولولم يسرق عسكر من جنوده * لكان له من نفسه عسكر بحر
مليك سميت شم المنابر باسمه * كما زهيت تيهابه الانعم الزهر
فيا كعبة مازال فى عرساتها * مواسم حج لا روعها النضر
خلعت على الايام من حل العلى * ملايس من اعلامها الحمد والشكر

کتاب (۷۴) ۛ الروضتين

وتوجت ثغر الشام منك جلالة
فلا تفر مصر علينا بنيلها
ردد الجهاد الصعب سهلا سعيه
وأطعت في الافرنج من كان بأسه
وأقمت جرد الخيل أعلى حصونها
ومن يدعي في قلبك الشرك شركة
هي القاتات الحافظات فروعها
ولولم يكن في فضلها وكمالها

تمنت لها بقدر داد لو أنها فخر
فمناك نيسل كل مصر بها مصر
ويا طالما أمسى ومسلكه وعمر
تخوف أن يعتاده منهم فكر
ولولاك لم يهجم على كافر كفر
إذا لم يكن عند القوافي له ذكر
قشاهد عادل ورائقها سحر
سوى انها من بعد عمر الفتى عمر

وله من قصيدة يصف فيها من وقائعها أولها

أما وخيال زار من أحبه * لقد هاج من ذكره ما لا أعبه
إذا ما صبا قلب المحب إلى الصبا * ذكرت نسيما بالثغور مهبه
فيا نحات الشام رفقا بهجة * يحامى عليها مدنف القلب صبه
فلا تسألن العصب أين فؤاده * فان فؤاد المرء مع من يحبه
في شعب الاكوار من هو عالم * غداة استطار البرق من طارليه
يشم ثنور المزن تمحي كأنها * سنا بشر نور الدين تنهل سحبه
إذا ما سما في مبهم الخطب وجهه * تمزق عن بدر الجنة محبه
تولد بين الغيث واليث والتقى * منافسة أى الثلاثة تربه
يعدّ مضاء في الناطي لا وضربه * بها قلل الاعداء ما السيف ضربه
مكين الحجي أرضى الزمان بنفسه * الى الآن حتى لان وانقاد صعبه
حجي قبة الاسلام بالخيال فاغثدت * وأوتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوة أودعن بالكفر تحتها * فما انقضت الا واللذل جنبه
كيوم الرها الورهاء والهام بانع * ملئ برعى الهندو الى خمسه
وشبها هاجتها ونغى صرخدية * ثناها وليل الحرب ينقض شهبه
وعارم يوما بالعريمة فاغثدت * كوادى عمودا زرغا فيه سقبه
وعاصى على العاصى بارعن خاطب * دم الافك حتى ألك النصل خطبه
بأنبل المكسب المال وانثني * بصاحب انطاكية وهو كسبه
غداة هوى شطرين للسيف رأسه * ولترج حتى توج الرأس قلبه
على حين الخطى فيه عوامل * يعاقبه خفض الحسام ونصبه
وقائم مع مجودية النصر لم تزل * غربا بهاعن موطن السيف غربه
يقوم مقام الجيش فيها وعيده * ونفعل افعال الكائب كنبه
وحين انتضته عزمه من قرابه * مضى وهو نصل والممالك قربه
الى أن دعتهم بها كل بلدة * فليس من الامصار ما لا يربه
ولما يرى بالقص يحجب هوى به * على أم رأس البغي والغدر يحبه
فاصبح في الجليل ينكر خطوه * بعيد على الرجلين في السبي قربه
تعاقبه البشرى بأخذ حصونه * فيا عانيا ضرب البشائر ضربه
تساجى عزازيا سمه تلّ باشر * فيلعنه لعن الصريح وسببه
فان يكن المعهود من تلّ عرشه * فهذا عمود الكفر قد طاح طنبه

في أخبار (٧٥) الدولتين

فقل لمولك الخفافين نصيحة * كذا عن طريق الليث برأرغلبه
 وخالوا عن الافاق فالشرق شره * بحكم الردينيات والغرب غربه
 ولا يعتصم بالدرب طامع على القنا * فان القناني ثغرة النحر دربه
 رحيب فضاء الحلم عن ذات قدره * اذا ضاق من صدر الملك رحيبه
 عقوق عن الجاني يكاد الذي جنى * يكثر به شوقا الى العفو ذنبه
 أمخذ الاخلاص لله جنة * ومن يعتصم بالله فإله حسبه
 أبوك استرد الشام بالسيف عنوة * وللروم بأس طالما غال خطبه
 اذا ذب عن أضغاث دنياه مالك * فانت الذي عن حوزة الدين ذبه
 رأيت أتباع الحق خير مغبة * فافرح عن رأي يسرك غبه
 وأوصحت مابين الفريقين سنة * بهاعرف المربوب من هوربه
 وينت نور الدين ما كان يتغنى * دليلا بأن الله من أنت خزبه

وقال ابن منير يمدح نور الدين بظاهر حص

هيأت بعصم من أردت حذار * اني ومن أوهافك الاقدار
 طلع عليك بجوسلين ذريعة * لاسجل انشائها ولا امرار
 وسعادة ما زلت تمرى خلقها * فيشف وهو الناقى المردار
 فارتك ما يجني الوفي وفاؤه * وأرته كيف تحمين الغمدار
 عودا مرة على ابارك طلعه * فاحيل ذاك البر وهو بووار
 ما زلت تنعم وهو يكسر عاتيا * والله يهدم ما بنى الكفار
 حتى أتاه لقومه ماجزه * لثود من عقرا الفصيل قدار
 اسرى فاصبح في براثن اسما * لازال يدعى ظفروه الاظفار
 يهب التلاد من البلاد وما حوت * ان السماحة للبحار بحار
 يقظان يمشي الله في خالواته * لامسترف لاه ولا جبار
 نصب المراقب للعواقب ناظرا * فيها كذلك تربأ الابرار
 لا كالأذين نجحوا حسواتها * وتفسدوها بعد وهي خسار
 درجوا وأدرج في ملف رفاتهم * اسوا نساء لذكرها الآثام
 والمرء من يظوى فينشر طيه * ما أودعته صدورها الاخبار
 قل للأولى ناموا على ناماته * ما كل هبة بارح اعصار
 لا تأمنوا في الله بطشة نائر * لله مسل سريه اسرار
 صافي اذا كدر المعادن عادل * ان حافى حكام الملوكة وجاروا
 أعلى أبوه له الخباد وشيد في * صمواتها بما ابتناه منار
 محمود المجد آثارا اذا * نظمت على جيد الدجى الاسمار
 دانت له الايام صاغرة كما * دانت له في ظله الامصار

وله من أخرى أولها (ما الملك الاما حوائجاده) يقول فيها

وتدين حسده لمحكم آيه * والفضل ما شهدت به حساده
 شمس اذا ما الحرب زرجيوها * حصل المعاهد كره وطسرا ده
 الوى الدجى الشريعة جهده * وأذل ناصية الضلال جهاده
 صقع البرنس وقد تلا لبرقه * واطار ساكن جاشه ارعاده

كتاب (٧٦) الروضتين

وليوقدسلت فسلت ضعفه * زيرتلقى فودهن فؤاده
 مستلثما مستسليا لاعدته * رد المناعنه ولا استعداده
 ولجوسلين احتمهن فاصبحت * نهبي لهن بلاده وتلاذه
 جاءت به بعد الشمس عوايس * قوديلين لعنفهن قياده
 وبه تصيدك السعد وقلبا * نجو بخير من أردت مصاده
 داني له قيناه أدهم كفا * غناه طار شماته عواده
 سلبت عزازعزاه وبقورس * محجوبة فرشت له اقتصاده
 وبتل خالد يوم تل جبينها * خلط الثرى بجبينه اخلاصه
 وغدا يباشر تل باشر قلبه * باحر ما حل القلوب عداه
 منت أمانيه بشأرك التي * عادت لهن ما شأ أعياده
 وجوبت ملائك من نظم تغوره * حلياتنايه تحته اجياده
 لا يخذ عنك فانما اصلاح من * يخشى انتشاط خناقه افساده
 أنزله حيث قضت له غدراته * واحده طغيانه وعناده
 في حيث لا يأوى له سبحانه * حنفا ويكشط جلده جلاده
 وثن هدمت بني الضلال يهدمه * وعدت عبادك عنوة عباده
 فتصكت به آيات من لمجد * ولدينه ابداؤه وعواده
 أو انشط اللدا الحرام نواءمت * ثننى عليه تلاعه ووهاده
 ولوان منبره أطاق تركلما * نطق بباهر فضله اعواده
 نام الخليفة واستطال لاذبه * عن دقيه واستطبر رفاده
 رجعت لك العز القديم سيوفه * ما زان رونق ما ثما انعماده
 من بعد ما نعى الصليب لحزبه * ورايت زرع الملك حان حصاده
 اني تميل الحاد نأت رواقه * بهو بها وابن العباد عماده

(فصل) قال ابن الاثير لما سار نور الدين الى قلاع جوسلين ملك بعضا وأبقى بعضا واجتمعت الفرنج فالتقوا

مع نور الدين بدلوك فهزمهم واستولى على دلوك وغيرها ففما يقول أجدن منبر قصيدة منها

هي الخيل خير عتاد الكرى * يحضر ملاهم احضارها
 ائت فأدررت افواهها * وسرت فقلت أظفارها
 الام ولم تبق بما غرو * ت قلوبا تكابد اذ عارها
 أما في مفصل أى القرا * عن ان تضع الحرب أوزارها
 عسى ان نعم لهذا الجا * م أن يتوكر أو كارها
 وما يوم من غلته واحد * فتودعه اللسن أشعارها
 وأين المقاول مما فعلت * ولوشقع الفطراء كنارها
 فكما جلبت خلفك الجناخا * ت فصلل نخره فغارها
 أعدت بعصرك هذا الانبيى * فتوح النسي واعصارها
 وكان مهاجرها تابعيك * وانصار رأيك انصارها
 فجددت اسلام سلمانها * وعسر جدك عمارها
 وما يوم آتب الاكثيب * لك بل طال بالبوع اشبارها
 وأيامك الغرم من بعده * يعيد الى الطي اغرارها

في أخبار (٧٧) الدولتين

ولما هبت بهرى سمكت باهبا خيلا أبصارها
ويوم على الجون جون السرا * عسز فسعطاعارها
صدمت عزمها صدمة * أذابت مع الماء أحجارها
وفي تل باشر باشرتهم * بزحف تسور أسوارها
وان دالك تكهم دلو كفتسد * شدت قصدت أخبارها
وشب التدامر حتى طلعت عليها فولت أدبارها
مشاهد مشهورة نمت * على صفحة الدهر اسطارها
يلذ الا غاني ترجيعها * وتسفر السفر اسفارها
بنيت لوفد المني كعبه * يجير المعلق استارها
ملكك الاراضي مغبره * تكاد تحدث أخبارها
فازلت تدجن حتى محو * تدجاها وشعث أنوارها
وصلت فأعززت مسكنها * وصلت فأذلت جبارها
وصغت حلي من على أحكت * على عنق الدهر ازرارها

قال أبو يعلى وفي رجب وردت الاخبار من ناحية نور الدين بظفره بعسكر الافرنج النازلين بازالته قريبا من تل باشر وعظيم النكاية فيهم والفتك بهم وامتلاّت الايدي من غنائمهم وسيبهم واستولى على حصن خلد الذي كان مضايقه ومنازله قال وفي أيام من الحرم وصل جماعة من حجاج العراق وخراسان المأخوذ في طريق الحج عند عودهم بجماعة من كفار العربان وحكوا مصيبة منازل مثلها بأحد في السنين الخالية ولا يكون أشبع منها وكرانه كان في هذا الحجاج من وجوه خراسان وأعيانها وفقهائها وعلمائها وقضاتها وخوانين أمر العساكر السلطانية والحرم العدد الكثير والاموال الجبة والامعة الوفرة فأخذ جميع ذلك وقتل الاكثر وسلب الاقل وهتك النساء وسلبن وهلك من هلك بالجوع والعطش فضاعت الصدور لهذه المنازلة فكسا العارى منهم وأطلق لهم ما استعانوا به على عودهم الى أوطانهم من أصحاب المروعة بدمشق ذلك تغدير العزيز العليم

(فصل) قال وكان مجاهد الدين بزاق قد توجه الى حصنه صرخدلية ففقد أحواله فعرضت نفرة بين مجير الدين والرئيس بسعاليات أصحاب الاغراض والفساد واقضت الحال استدعاء مجاهد الدين لاصلاح الحال فوصل وتم ذلك بوساطته على شرط ابعاد الحاجب يوسف صاحب مجير الدين عن البلاد مع أصحابه وتوجهوا ولم يتعرض لشيء من أموالهم وقصد بعلبك فأكرمه واليه اقال ووردت الاخبار من مصر بالخلف المستقرين وزيرها بن مصال وبين الامير المظفر ابن السلار ووقوع الحرب وسفك الدماء الى ان أسفرت الحال عن قتل ابن مصال الوزير وانتصاب ابن السلار موضعه في الوزارة قال وفيها في سابع عشر رجب توفي القاضي بها الدين عبد الملك ابن الفقيه عبد الوهاب الحنبلي وكان اماما فاضلا منظارا مستقلا مفتيا على مذهب الامامين أحمد وأبي حنيفة بحكم ما كان عليه عند اقامته بخراسان لطلب العلم والتقدم وكان يعرف اللسان الفارسي مع العربي وهو حسن الحديث في الجدل والهزل وكان له يوم مشهود وفي جوارأبيه رجده في في مقابر الشهداء قال وتوفي عقيب وفاته الشريف القاضي النقيب فخر الدولة أبو الحسين ابن أبي الجن وتجمع الناس لخبرته وشرف بيته

(وردت سنة ست وأربعين) ففيها حاد من نور الدين دمشق لمعاونة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم ومدحهم ابن منير بقصيدة يجرضه فيها عليهم وكتب اليه من حماه وهو محاصر دمشق وقد تخلف عن الخدمة لمرض عرض له منها

اخليفة الله الذي ضمنت له * تصديق واصفه سرا المنير
لا المستطيل بمصر ظل قصوره * والمستطال اليه شقة صرصر
بانوردين الله وابن عماده * والكوتر بن الكوتر بن الكوتر
صفر بحمد السيف دارا شائب * عقلوا جيا دك عن بنات الاصفر

كتاب (٧٨) الروضتين

هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا * ناراً تخش بهم غدا في المحشر
 اذ كوا يجلق حرها واستسمرت * لنجاتها بين الصفا والمشر
 شردتهم من خلفهم مستنجدا * ما ظاهرا لكفار من لم يكفر
 لا تعف بل سقى الهدى نفس الذي اذرع الضلال على اغرمة مهر
 قلده ما هدى على لمرحب * فلقد تمك في الخداع الخبيرى
 ما القش بمن أمه نصرانة * لم تختن كالغش من متنصر
 اذ كنت لنا هذى العزائم لا خبيت * ما غار من سنن الملوك الغبر
 انقلب اراء المعز ونحطق را * بات العزيز وبقظة المستنصر
 شمر فقصدمت اليك رفا بها * لا يدرك الغايات غير مسمر
 أولست من ملا البسيطة عدله * واجتب بالمعروف أنف المنكر
 حذب الالب البرالكبير ورأفة الـ * دم الحفية بالينيم الاصغر
 يا هضبة الاسلام من يعصم بها * يؤمن ومن يتول عنها يكفر
 كانوا على صلب الصليب سرادقا * انبت بنيتيه بكله ذكر
 آثارهم انجس اذال المسجدا * رقصي فقصن ما دنسوه وظهر
 جارا لخليل ومن بغزة هاشم * بله املك المتدمشق المتحصر
 بعمرهم صلت وعأوعه عرى * اسماع جحون وسيف البربر
 يفتر عن ملك الملوك منحل الـ * نوا بل سعد السعود الاكبر
 عن طاعن الفرسان غير مكذب * ومتم الاحسان غير مكدر
 بدر الجحافل والجحافل فارس الـ * ساد في غاب الوشيع الاسعر
 ملك تساوى الناس في أوصافه * عذر المقل وبان عجز المكثر
 يا أيها الملك المنادى جوده * في سائر الآفاق هل من معسر
 ان القصائد أصبحت أبقارها * في ظل ملكك غاليات الامهر
 ان كمت أحييت ابن جدان لها * فانا الذي غبرت في وجه السرى
 ولانت أكرم من أناس نوهوا * باسم ابن اوس واستخصوا البحترى
 ذلت لدولتك الرقاب ولا تزل * ان تغز تغنم أو تغنا تغلظر

وكتب اليه من جهاد أيضا وهو محاصر دمشق قصيدة ينال فيها من صاحبها يقول

ابوك اب لو كان للناس كلهم * ابا ورضوا وطاء النجوم لفتدوا
 ومامات حتى شد ثمة ملكه * بك الله ترمي مارماه فتصرد
 صدمت ابن ذى اللغدين فأنحل عقده * وكالسك قد أمسى يحل ويعقد
 يقلب خلف السحيف عينا سخيته * ويبكى بأخرى ذات شتر ويسهد
 ولا غرو قد أبقى أبوه وجده * له كل يوم ثوب عجز يجدد
 فيارا كما ما عرضت قبلن * بيوتا على جبروت بالدل تجمد
 وقل لمبيد الدين وهو مجيره * بزعم له وجه الحقيقة أزد
 حلت الصليب باغيا ونبذته * وثغرك مطووس النبات وأرد
 وحاربت حزب الله والله ناصر * لنا صره ودين احمد احمد
 تنصرت حيننا والبلاء موكل * ولا بد من يوم به تنهؤد
 وأقسم ماذا اليهود بابليا * وموضعها من تحت نصر أسود

في اخبار * (٧٩) : الدولتين

كبعض الذي جرحته فصرطته * وأيد نفسه من عمالك المؤيد
ولابته عزل اليسك موجه * ونصيفه قتل عليك مؤيد
رمالك بياقلا دمشق فـ تكن * سوى بقلة جقاء بالحق تصد
وجالدت جلادا وأنت مؤث * تذكرت والجلاد أدهى وأجلد
تطاوالت لانس تسمى ولأب * وراءك زحفا انما أنت مقعد
امسعاة نور الدين تبغي ودونها * لسنة تبر والعوامل تعضد
بمحمود المحمود سيفا وساعدا * حلت لقد ناجتكما مؤيد
وهل يستوى سارتأسد طاويا * ونشوان يعنوم عصما ويؤيد
تنصرت اما بل تجست والدا * وعما فرق الكفر فيك مردد
تخذت بنى الصوفى اسرا واسرة * لكي يصلحوا ما في يدك فأفسدوا
لعمري لنعم العبد أنت تجيعه الـ * حوالى وتوليه هو انما فيحمد
اليكم بنى العلات عن متشاس * له الشام مر فاوالعراق مر فد
وما مصر الابعض امصاره التي * الى امره تسبى قاء وتنفد
انيدوا اليه فهو أرحم قادر * له الصفح دين واقبالا النصيح ترشدوا
ولا ترشفوا نفس المؤيدانه * عن الخبر يروى أوالى المين يسند
وفروا الى مولاكم والذى له * عليكم أياد وسهمها ليس يجمد
ولا تكفر وه انما أنت له * ومنه ويوم عند حوران يشهد
غداة على الجولان جول وللطبي * رعود فربص الموت منهن برعد
ولما كفهز اليوم واربد وجهه * وعوز مرهون وفسر مزيد
وأيقن من بير السدير وجاسم * بان الجرار السرد بالجردي تجرد
ردتهم على بصرى وصرخذ خيله * وقد أبصرت بصرى رداها وصرخد
وطاروا تهنز المرهفات طلاهم * كما انصاع من اسد نعام مشرد
وليلة ألقي الشرك بالمرج بركه * وما زج نيران الوغى تتوقد
رمى وأخذه مغرب الشمس دونكم * بشرقها غضبان يعدو ويسند
فخذوردت ماء الارط مغدة * أنارت بشور اغسله ليس تبرد
أيا سيف شامته يد الملك صارما * فجمهد اذ بصرى وبصرى فيحمد
دمشق دمشق انما القدس سرحة * ومركها صرح عليها مررد
جوها لكي يحجوا وقد باغ المدى * بهم أجل حتم وعمر محدد
متى اناراء طائر الفتح صادحا * يرفرف فى أرجائها ويغرد

وله من قصيدة أخرى

نذكرك بالقوطتين قد ضمنت * وبوتها ربعه ومقراها
أطلع لها الشمس من جبينك لم * ترج سواها فى النوم جفناها
فالخيل صور الى تساهم سهميه * هاوملها فى بيت لهاها
دولة من دانت البلاولة * وعما ظله فأغناها
لابسواها يلبق بهجتها * ولاسواء تسبى رعاياها

قال أبو يعلى وفى عاشر المحرم زلت أوائل عسكر نور الدين على أرض عسرا من عمل دمشق وما والاها وفى الغد قصد
فريقا وافر منهم ناحية السهم والثيرب وكنوا عند الجبل لعسكر دمشق فلما خرج منها اليهم أسرع النذير اليهم فحذرهم

وقد ظهر الكمين فانهزموا الى البلد وفي القدر نزل نور الدين بعسكره على عيون قاسم يابن عذرا ودومة وامندوا الى تلك الجهات ونزلوا من الغدنى أراضي حجير اوراوية في الخلق الكثير والجمل الغفير وانسبطت ابدى المفسدين من العسكر الدمشقي والاباش من أهل العيث والنفساد في زرع الناس فخصدوها وفي الخمار فاقنوها بلا مانع ولا دافع وتحرك السحر وانقطعت السابلة ووقع التأهب للحصار ووافترس نزل نور الدين الى ولادة البلد يقول اناما أثر الاصلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين وخلاص من في أيديهم من الاسارى فان ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد فذلك المراد فلم يعد الجواب اليه بما رضاه فنزل في أرض مسجد القدم وموالا من الشرق والغرب وبلغ منتهى الخيم الى المسجد الجديدي قبل البلد قلت هو الذي يسمى في زماننا بمقبرة المعتمدين مسجد القدم ومسجد فلوس قال وهذا منزل ما نزله أحد من مقدمي العساكر فيما سلف من السنين وأهل الزحف الى البلد اشفاقا من قتل النفوس ووصلت الاخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لاجتباؤهم أهل دمشق فضاقت صدور أهل الصلاح وزاد انكارهم امثل هذه الاحوال المنكرة والمناوشات في كل يوم متصلة من غير منازعة ولا محاربة فلم يزل ذلك الى ثالث عشر صفر فرحل العسكر النورى من هذه المنزلة ونزل في أراضي قدايا وحلبتين والخامسين المصافة للبلد وما عرف في قديم الزمان من أقدم على الدونمنا ثم رحل في العشرين من صفر الى ناحية داريا بالواصل الارجاف بقرب عساكر الافرنج من البلد لقوة عزمه على لقاءهم وصار العسكر النورى في عدد لا يحصى وفي كل يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائف التركان ونور الدين مع هذه الحال لا يأذن لاحد من عسكره في التسرع والظهور ولا يعودون الا خاسرين مغلوبين وأقام على هذه الصورة ثم رحل الى ناحية الاعوج لقرب عسكر الافرنج وعزمهم على قصده واقتضى رأيه الرحيل الى جهة الزبداء في استحضار الهمم وافرق من عسكره بقايا ناهز أربعين ألف فارس مع جماعة من المقدسين ليكونوا في أعمال حوران مع العرب لقصد الافرنج ولقاءهم وترقبوا لوصولهم وخروج العسكر الدمشقي اليهم واجتماعهم بهم ثم يقاطع عليهم وانفق ان عسكر النفرنج رحل عقير رحيله الى الاعوج ونزل به في ثالث ربيع الاول ودخل منهم خلق كثيرا الى البلد لقضاء حوائجهم وخروج بحير الدين ومؤيد الدين في خواصهما جماعة وافرة من الرعية واجتمعوا بملوكهم وخواصه وما صادفوا عنده شيئا مما همجس في النفوس من كثرة ولا قوة وتقرر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لملكه واستغلال أعماله ثم رحل عسكر الافرنج الى رأس الماء ولم يتبها خروج العسكر الدمشقي اليهم لجزهم واختلافهم وقصد من كان بحوران من العسكر النورى ومن انضاف اليهم من العرب في خلق كثير ناحية الافرنج للايقاع بهم والنكاية فيهم والتجأ عسكر الافرنج الى بلدة حوران للاستعصام بها وفي الخبر الى نور الدين فرحل ونزل على عين الجرمس البقاع عاندا الى دمشق وطالبوا بقصد الفرنج والعسكر الدمشقي وكان الافرنج حين اجتماع العسكر الدمشقي قد قصدوا بصرى لمضايقتها ومحاربتها فلم يتبها ذلك لهم وظهر اليهم سرخالها واليهافي رجاله وعادوا عنها خاسرين وانكفأ عسكر الافرنج الى أعماله وراسوا بحير الدين ومؤيد الدين يلمسون باقي القطيعة المبدولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق وقالوا لولا نحن ندفعه ما رحل عنكم قال أبو يعلى وفي هذه الايام ورد الخبر بوصول الاسطول المصرى الى نفور الساحل في غاية من القوة وكثر من العدة وذكر ان عذرة اكب سبعون مركبا حربية مسلحة بالرجال ولم يخرج مثله في السنين الخالية وقد انفق عليه فيما حكي وقرب ثلثمائة ألف دينار وقرب من يافا من نفور الافرنج فقتلوا أسرا واهرقوا ما ظفروا به واستولوا على عذرة وافرة من مركب الروم والافرنج ثم قصدوا ثغر عكا فضعوا فيه مثل ذلك وحصل في أيديهم عذرة وافرة من المركب الحربية الفرنجية وقتلوا من هاجبهم وغيرهم خلقا عظيما وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس فعدوا في الكمل مثل ذلك ووعد نور الدين بمسيره الى ناحية الاسطول المذكور لرواعته على تدويج الفرنجية فانفق استغاله بأمر دمشق وعوده اليها لمضايقتها وحدث نفسه بملكها العله بضعه لعميل الاجناد والرعية اليه وأشارهم لولايته وعده قال وذكر ان نور الدين أمر بعرض عسكره فبلغ كمال ثلاثين ألفا مقاتلة ثم رحل ونزل بالدهمية من عمل البقاع ثم نزل بأرض كوكبا غربي داريا ثم نزل بأرض داريا الى جسر الحشب ونودي في البلد بخروج الاجناد والاحداث اليه فلم يظهر منهم الا اليسير من كان يخرج أولا ثم تقدموا ونزل القطيعة وما والاهاود نامنا بحيث قرب من البلد وقت للمناوشة بين الفريقين من غير

في اخبار (٨١) الدولتين

زحف ولا شد في محاربة تخرج من قتل المسلمين وقال لاحاجة الى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضا وانا اوفرهم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين قال وورد الخبر الى نور الدين بتسلم نائبه الامير حسن النحوي مدينة تل باشربالامان في الخامس والعشرين من ربيع الاول وورد مع المبعوث جماعة من أعيان تل باشربالامان وترددت المراسلات في عقد الصلح مع أهل دمشق على شروط واقترحات وترد فيها التقيمه برهان الدين على البلخي والامير أسد الدين شيركوه واخوه نجم الدين أيوب وتقارب الامر في ذلك الى ان استقر الحال على قبول الشروط المقترحة ووقعت الايمان من الجهتين على ذلك والرضى به في عاشر ربيع الآخر ثم رحل نور الدين من القدطالبا ناحية بصرى للنزول عليها والتمس من دمشق ما تدعو اليه الحاجة من آلات الحرب لان واليهام سر خاك كان قد شاع عصبانته وخلافه ومال الى الافرنج فاعتضد بهم فأذكر نور الدين ذلك عليه وانفض اليه فريقا وافر من عسكره قاتل ولابن منير في نور الدين بذكر وقعه الجولان وغيره فقصده أوها

ما برقت يعضك في غمامها * الاوغيث في الدين لا بتسامها
محمود المجد جدا وجدا * ارض جلد الارض حكم عامها
ملك ازال الروم عن صلبانها * دفاعه وكب من اصنامها
جال على الجولان امس حولة * صفرت الاذني من نعامها
والجسون قد جرعها اجونه * وفل مشهودا من اعتزامها
وشد في القدله مليكها * قودعتود القوط في شبامها
وفي الراه صابت له سحابة * صاروا حفاء خف في التظامها
وهب في هاب له عواصف * تجهمتها الهف من جهامها
وكفر لا الاث في جبينها * لم ظي ايت على اشامها
وقابع برقص تحت وقعها * نظم الثريا في فضا مصامها
فساعة البيض اذا عتدها * سوط عذاب صب في أيامها
واجبنا لعصب الشرك التي * لم يعصب الرشد على احلامها
حكمة استواؤها في غيها * في تقض ما حصد من ابرامها
منقر الرايات والراي اذا * حرب مشت تعثر في خطامها
عشت به حد العلاء هم * هن النجوم أو نواصي هامها
جلبت له الدنيا على زبرجها * عفوا فلم يروع على حطامها
رائته وهو الثالث يدعى ظفره * انشئت في المشكل من حكاهما
فتوجه العز في مرتبة * تمنطق الجوزاء في نظامها
غضبان للاسلام لا بغضه اس * تسلامها للقسر من اسلامها
خط على مثل اب طاعت له الا * دحاق واستشرف لا غشامها
تصرف الدنيا على ايشاره * عراقها مسترد فابشامها
لوم يكن دون منى فات المنى * واتعد الفائر من قوامها
وامتك فيما مكه راضع * يقصر باع الدهر عن قطامها
وصار كالبحر الجار وخلا * من أهله الا شرف من مقامها
ودونها لازلت ترقى في حى * من مؤلم الارداء او امامها
تلبس بيت الله وشي يمن * يقرأ آياتك من اعلامها
فانما الدين رحي قطبتها * وبازل مكنت من زمامها
امت بنا الا مال منك كعبة * سلم اليها اية استسلامها

يمدك اصحاب الجدل الحزون * واطلع بفره الفتح المبين
 وفي كنفك سولت الليالي * وفارق طبعه الزمن الخؤون
 ومنك تعلم القطع المواضي * وقد زينت بها الحرب الزبون
 وأنت السيف لم تمسه نار * ولا شحنت مضاربه القيون
 ترقرق فوق صفحته الاماني * ويقطر من غرابيه المنون
 وقبلك ما سمعت بذي فقار * يشير الفقير كان ولا يكون
 ولا غيث سماوته سرير * ولا ليل وسادته عرين
 ولا قمر له الهجاء هال * ولا نازح له الدنيا جبين
 جبلت ندى وعفوا وانتقاما * وماء كل مجبول وطين
 وملكك عمر الاقطار قطرا * فأمرعت الاواعث والخزون
 تلا لأتحته غرر الليالي * اذ الايام عند سواك جون
 وأنت أقت للجدوى منارا * يبين لسانه ولا يبين
 وعندك مضرب النجمي زلال * اذا عبقث مشاربها الاجون
 تحكم في عطائك كل عاط * وقد شيدت من المنع الحصون
 لقد أشعرت دين الله عزا * تنيه له المشاعر والخبون
 وقام بنصره والناس فوضى * قوى منك في الجلي أمين
 رجعت ملوكهم وهم خيوف * أسير في صفادك أو تكون
 فبرزت البرنس لفاع خف * وجزع مر جوسك جوسلين
 اذا ما الفعل علت تلاه حذف * يتاح له سهاد أو سكون
 غنوا حتى غزوتهم فغنى الصدى في أرضهم حف القطمين
 وكم عبر الصليب بهم صليبا * فردته قناك وفيه لين
 وما خطرت بدار الشرك الا * هوى الناقوس وارتفع الاذن
 ملأت عظام ساحهم عظاما * فكل ملا لقوك به جرين
 وبينهم القنا تجرى نجيعا * كان عيون أكعبها عيون
 وبين حرا صرخد ذبن حرا * له في كل حجة كين
 وفين من العريضة في عرام * له في جونها الاقصى وجون
 وكم حرم لحارم غادرته * ودارته لمنسفه درين
 وفي شعراء قورس صغن شعرا * تدار على غرابيه اللجون
 وقائع صرن في صنعاء طيرا * يوقعها على عدن عدون
 نماك أب اذا عد انتسابا * تراق مصعدا والناس دون
 شما لا كان املاك البرايا * وقد قيسوا به وهو اليمين
 فصار قضاؤه في الارض حتما * فطاعة أهلها البنيه دين
 لهذا ليوم تنخب القوافي * ويذخر نفسه الدرامصون
 ونحن أحق منك بأن نهني * اذا قررت برؤيتك العيون
 سلمت لنا فانا كل صعب * نواز به بأن تسقي جون

ترابطنا بعقوبتك التهاق * ويعطنا بدولتك القرون

(فصل ٨) في باقي حوادث هذه السنة قال أبو يعلى وورد الخبر من ناحية ديار مصر بأن أهل دمياط حدث فيهم فناء ما عهد مثله في حديث ولا قديم بحيث أحصى المفقود منهم في سنة خمس وأربعين فيبلغ سبعة آلاف شخص وفي سنة ست وأربعين مثلهم فصار الجميع أربعة عشر ألفا وخلصت دور كثيرة من أهلها وبقيت مغلقة لا ساكن فيها ولا طالب لها وفيها في ثاني جمادى الآخرة توفي القاضي السيد الخطيب أبو الحسن بن أبي الحديد خطيب دمشق وكان خطيبا بليغا صديقا عفيفا ولم يكن له من يقوم مقامه في منصبه سوى أبي الحسن الفضل ولد ولده وهو حدث السن فنصب مكانه وخطب وصلى بالناس واستتر الأمر له ومضى فيه قال ووردت الحكايات بحدوث زلزلة وافت الليلة الثالثة عشرة من جمادى الآخرة اهتزت الأرض لها ثلاث رجفات في أعمال بصرى وجوران وما والاها من سائر الجهات وهدمت عدة وافرقة من حيطان المنازل بصرى وغيرها ثم سكنت بقدره من حركتها سبحانه وتعالى قال وفي ثاني عشر رجب توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصه ووصل إليها ودخل على نور الدين صاحبها فأكرمه وبالغ في الفعل الجليل في حقه وقتر مرعه تقريرات اقترعها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق ورجع إلى دمشق مسرورا في سادس شعبان قلت وفي ذلك يقول القسراي

وقت لك الدنيا بعبادها * باذلة أفلاذ أكبادها
وأوفدت غر سلاطينها * عليك في همه انجادها
تبغى سناء أقصدت قصده * طائعة طاعة أجنادها
خاضعة تعدد أعمارها * يوم التلاقي يوم ميلادها
شامت دمشق بك برق العلي * فأرسلت أصدق روادها
رأى نور الدين نار الهدى * قد أشرق الأفق بأبقادها
فيصمت منك حياض نبت * يبيض الأيادي ورد زادها
فأسأل مجير الدين عن خبرة * أوردتها بمجودارها
تبوأ من عزها قبلة * سمر القنأطناب أوتادها
تنافس الناس على دولة * فتبها أعين حسادها
يغدو المعادي كالموالي لها * فوالها إن سئمت أوعادها
يامل كبريها باسمائه * منابر تسمو بأعوادها
وتأخذ الأسماع أوصافه * عن جمع الدنيا وأعوادها
كم للعالي فيك من رغبة * تنفى الأمانى دون تعدادها
لك المساعي الغريبا عا * من طرفها بين أضدادها
يغشى الورى أفرس فرسانها * وفي التقي أرهد رهادها
فأنت نسكا غيث ابد لها * وأنت فتكاليث آسادها
في أمة أنت حي دينها * حينئذ حينئذ شمس عبادها
يطوى بك العبر إلى غاية * حسيك تقوى الله من زادها
هذا وكم من سنة بدعة * أعدمتها من بعد إيجادها
ما أثر لو عدت راويا * تكفل النظم بأسنادها

قال أبو يعلى وفي أواخر شعبان أغار بعض التركان على ظاهر بانياس فخرج إليهم واليهام من الأفرنج في أصحابه وظهر التركان عليهم وقتلوا وأسروا وفي رمضان قصد بعض الأفرنج ناحية من البقاع وأغاروا فأنهض إليهم وإلى بعلبك رجاله فلقوهم وقد أرسل الله عليهم من الثلوج المتدركة ما تبطهم فاستخلصوا منهم الغنيمة قلت وإلى بعلبك هذا هو نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف قال بن أبي طي في سنة ست وأربعين أغار التركان على بانياس فخرج أهل

بانياس من الفرنج استنقذوا ما أخذوه فعاد التركان عليهم فكسروهم واتصل ذلك بصاحب دمشق فأغضبه فعزل التركان لمكان الهدنة المتعقبة بينه وبين الفرنج فأنفذ عسكر الى التركان استعداد منهم مأخذوه واتصل خبر التركان بالفرنج فحشروا وخرجوا في جيش عظيم وحشروا الغارة على البقاع والناس غافلون فامتألت أيديهم من الغنائم والاسارى واتصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب وهوفي بعلبك وعنده جماعة من عسكر دمشق وأصحابه فقدم عليهم والده شمس الدولة فخرج وأوقع بالفرنج واتفق انه كان قد أصاب الفرنج ثلج عظيم فهلك أكثرهم وجاء شمس الدولة وهم متوزطون فقتل فيهم مقتلة عظيمة وخلص من كان عند الفرنج من الاسارى قال وفي هذه السنة فارق صلاح الدين والده وصار الى خدمة عمه أسد الدين بحلب فقدمه بين يدي نور الدين فقبله واقطعه اقطاعا حسنا قال أبو يعلى وفي ثلث شوال وهو الثاني من شباط وافق قبيل الظهور زلزلة اهتزت لها الارض ثلاث هزات هائلة وتحركت الدور والجدران ثم سكنت قلت وفي هذه السنة في شرة جمادى الاولى كتب أحد من منبر من جماء الى نور الدين قصيدة يهيمه بوصول الخلع اليه من بغداد من عند الخليفة على يد الشيخ شرف الدين بن أبي عمرو ويصف الفرس الاصفر الاسود القوائم والمعارف والسيوف العربي أهلها

لعل تلك التأييد والتأييد * ولملكك التأييد والتأييد
أبدانهم وتقتنى فتنال ما * عزالورى ادراكه وتقبل
اما كتاب يستقل به الكا * ثاب أو رسول النجاح وسيل
لك من ألى سعد عجم سعادة * قن تفاعل فيك ليس يقبل
نعم الحسام جلولته وبسوته * يرضيك حين يصل ثم يصول
سهم تعوذ في الكانة عودة * ويقصر المطلوب وهو طويل
سدنه قضى وقرطس صادرا * كالنجم لا وهل ولا تمليل
فتنا القلوب الى ولائك حوّل * منه بما يجنى رضاك كنيل
وأقام ينشر في العراق ودجلة * آيا تأولها مصر النيل
وكسالك من رأى الخلة نجية * لا النقص يوشها ولا التقليل
كنت الشريف أفضت في ثمر يفه * ماء عامه من سنالك دليل
اليوسف لما طلع مرقطقا * طمشت حصان واستخف أيل
أم عن سليمان يفرج ضاحكا * يحف الرواق وضعف الكبول
وملك في السرج أم ملك سيات * لبهائه عقل وتاه عقول
وبرزت في لبس الخلافة كالهلال جلاه في حلل الدجى التهلل
خلع خلعت على القارب مسرة * سدكاتها التعظيم والتجليل
نثرت نضارا جامدا أعلامها * وتكاد تجرى رقة وتسيل
لقضى لها ان لا عدل لغيرها * رب براك لا تلاك عدل
أنت المهند من سلته العلى * لم يخل من مهج عامه تسيل
مذهرفائمه الامام تألفت * غر رشدين لملكه وحول
والبث دولته قهت بدولة * متكل بصعيدا الا كليل
ونصرته فخلالك أبيض دونه * صرف الزمان اذا استكل كليل
تأمدته وكلا كما تلهنم * غضب قران المتمد المسلول
وحبار كابل حين قرير حقه القرآن واستخدى له الانجيل
باقب أصفر مشرف الهادى له التسجيل لون والمبا التجميل
قسم الدجى بين الغدائر والشوى واعنام رونقه الاصيل أصيل

في أخبار * (٨٥) * الدوتين

وتقسام الزاوية تحتك أنه * حيزوم مصرف عطفه جبريل
تختال في حبك الحلي مخيلا * ان الشوايح للبدور خيول
مرعى الذوائب كلعر وس يزينه * طرف باطراف الرماح كحيل
تصاعق النعرات تحت لبانه * ان شب زفروا سجنس صهيل
لم يجب مثلك مثله مهسولم * يشلل على برق سواه شليل
وأشده في هذه السنة أيضا بحض قصيدة منها

الدهر أنت ودارك الدنيا ومن * في العذب بعده وتل معدود
وأزمة الاقدار طوع يدك وال * ايام جندك والانام عبيد
فت الوري وعقدت ناصية المدى * بنذر الشعرى فأين تريد
نال أباك فهل سليمان يرى * في الدست مهده ملكه داود
جلي وسدت مصليا لا يرفع الـ * معدوم الم يشفع الموجود
لم يخترم جذعك ولا أب * ان النباهة في الخفاف خلود
شمنت منارلك في اليفاع وأنها * من لم يسد فارتبه كيف يسود
وهيب للسلام وهو مصقوح * فاهتز اعضاء ورق تجود
وقنات جرة صالمه بصيلم * نصع الاجنة يومها المشهود
خطمتهم فوق الخطيم لوافح * نفس الارين لو أرهت برود
ورمواعلى الجولان منك بجولة * توغيد هانس الضلال وتويد
ولحاضا مهمم بعرقه عارق * مازلت تحض جوه فيجود
وشالت بالروح السروج وفوقها * زرع لحصده الرماح حصيد
وعلى عزازعنا وتل عروشهم * ملاك مقيد من عصاه مقيد
وبتل باشر يا شررك فعا فسوا * أهب الاساود حشون أعود
أردوا كما أودى بعدا غيها * وعقوا كما استغوى التفصيل غود
ان الما عقر افانك صالح * أوأوا غندرا فانك هود
وزعتهم فبكل مهبط لعة * خذبه من وازع أخذود
وعصبتهم بعصائب ملء الملا * شتى وان خل البسالة عود
أثارها مجودة واثارها * مشهودة وشعارها مجود
لبست من اسمك في الكريمة ملبسا * يلي جديد الدهر وهو جديد
وقصيرة الاحال طول باعها * بوع يسامى هاهها وقود
مظرورة الاسلاب مذخرعتها * نام الهدى وتختار التوحيد
أشرعتها فعلى شريعة أحمد * بما حنته بوارق وعقود
ولم كن نثر نظمها في موقف * تغريد صالى حره التغريد
يجلو سنك ظلامه ويحل ما * عقدت قناه لواؤك المعقود
في هبوة زحم السماء واقها * والارض ترجف تحتها وتميد
ضربت مخيمها فكان كائنا * أو تاده القصى وأنت غود
في كل يوم من فتوحك صادق * هزج الغناء وطائر غريد
تهدى لعانة كاسه فرغانه * وتسبق زبدة ماشده زريد
ففرار سيفك لا حابش محبس * ومشار تقفك للصعيد صعيد

كتاب (١٦) الروضتين

لاتعدمن هذا المقلد أمة * ملقى إليه لرعيها الاقليد
الورد قرو والمسارح رجة * والرفد مذ والضلال مديد
والعيش أبلى مشرق القيمات والن * شجار غرو والاصائل غيد
والملك محدود الزواق منثور ال * فاق وضاء المنى محسود
في دولة مذ هب نشر ربيعها * نشر الزفات وأثمر الجلود
محمودة الا نار مجى ودية * كل المواسم عندها تعيد

وقال يهنيه بليلة الميلاد ويصف النازلين في الجبل من قلعة حلب بقصيدة منها

هنت روزى ذراك صومك والميلاد جاء والسعد في نسق
فذاك انحلت فيه كل يد * وذاك أنحلت فيه كل نقي
وجه كصدر الحسام تصبؤه ال * وينقد القلب من فرق
ومقلة شوقها لقطتها * شوق لحساده الى الارق
ومرتقى تعجب السماء له * اذا استطالت اليه كيف رقى
توجهت شهباءها بشرقة * مشرفة شهباء على الافق
جوتها دى منه كواكب * طرفه طرف رجوم مسترق
قوارس تذهل القوارس ان * نهافت من ارشاقها الرشق
من راصض في الهواء أهوى * ومن الفتح مجرم تحت لبوق
شاو من الحصر لو تحاوله ال * خضرات عن موطن زلق
يقول من دينه الفروسية * لاقك الا ضرب من الاق
بدائع تعبط السماء بها الار * ض ويدكى الاشفاق في الشفق
في دولة جعت ابايتها * من بدد الحسن كل مفترق
تذر أطواقها على ملك * مكتفل رزق كل من رزق
محمود اسماء وميسا وندى * واعتصب الدم كل من تقى
طبق طوفانه فلسا ترى * الاغميما شف على غرق
يا بحر لا خلق دعى شهباء * فات المدى ما حوت من خلق
ملكك هذا الذي تملأه * صباه يجرى والدهر في طلق

(ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة) قال أبو يعلى وورد الخبر في المحرم: نزول نور الدين على حصن انطرسوس في عسكره وافتتاحه له وقتل من كان فيه من الافرنج وطلب الباقون الايمان على النفوس فأجيبوا الى ذلك ورتب فيه الحفظة وعاد عنه وملك عدة من الحصون بالسبي والسيوف والارباب والاحراق والايمان قال وورد أيضا نظفر رجال عسقلان بالافرنج المجاورين لهم بغزة بحيث هلك منهم العدد الكثير وانهمز الباقون قلت وقرأت في ديوان بن منبر مجد نور الدين ويهنيه بفتح انطرسوس ويحجرو عوده عنهم فاذا كره صيدتها

ابدا يباشر وجهه غزو ضاحكا * وتؤب منه مؤيدا منصورا
تدنى لك الامل البعيد سواهم * محقت اهلتها وكن بدورا
مثل السهام لو ابغى ذو اربع * في الجوم مطلبها لكان طمورا
نبئت علائقها بجمص واعلقت * سحر اجمرق عسرة الاظفورا
وعدون صافى ثاء لاح سوارها * قد اتلعت عنقا الباك مشيرا
القلب أنت فان تعامى عن هدى * عضواها ببه فعاد بصيرا
عرفوا مكانك والظهير بينهم * يفرى بياض أدبها الذي يجورا

في أخبار (٨٧) الدولتين

أين الذبال من الغزاة أشرفت * وجهها وطبقت البسيطة نورا
غضبان أقسم لا يشيم حسامه * والارض تمحل في الكفور كغورا
غسل العواصم امن من ادرانهم * واليوم رقبه السواحل بورا
لم يبق بين الجديتين وآمد * وترا لمضطغن ولا موقورا
اخلى ديار الشوك من اوائنها * حتى غدا ثالوثين نكيرا
رفع القصور على نضائدها مهم * من بعدما جعل القصور قبورا
بشواحب الالباط تقطوف في الظلا * مقطا وتهوى في الصباح نشورا
غادرت انطرسوس كالطرس انمى * رسما وجسر دعهما يمحورا
وهي الزناد لفتنة كانت على الا * لسلام احكم كسره اكسيرا
هتمت طرابلسا فاصبح نغرها الى * بسام من عز الشغور نغبرا
اقليدها كانت وقد انظيته * واسأل به من دهنه خبيرا
ان الاولى امنوا وقاعك بعدها * غروا وقدر كبوا الا غرغورا
التي العصافين أطاع ومن عصى * منهم ودمر أرضهم تدميرا
لا يلههم ان قدمنت وشنها * شعواء تصلى الكافرين سعيرا
باكر بر كزقنا تنسف اسها * والحيل صوركي تترك صورا
وتريك لامعة التريك بساحة الا * أقصى مطهرة لها تهبيرا
اولست من قوم اذا هزوا القنا * فتلاو معاصمهم لها تورا
واذا هم خطبوا اليراع غريرة * ساقوا الشفار على المهار مهورا
التي قسيماهم اليك ازمة الا * ملك المظل على السهات أثيرا
ضحكك لك الايام واكأب العدا * قلقا بجئت مبشرا ونذيرا
لاملك الاملك محمود الذي * اتخذ الكتاب مظاهرا ووزيرا
تمشى وراء حدوده احكامه * تأتمن فيكم التقديرا
يقظان ينشر عدله في دولة * جاءت اطوى السماح نشورا
خلف الخلائف قائما عنهم بما * عيوا به الوى الذ غيورا
البر والمعصوم والمهدى والمأمون والسفاح والمنصورا
بشروا به فعهودهم وعهادهم * بمنحن تحت لوائه منشورا
وانشد بحلب في هذه الدنة قصيدة أولها

المجد ما أدرعت ثراك هضابه * وتثقتك شعبه وشعابه
ملك تكنف دين أجد كنهه * فأضاء نيره وصاب شهابه
فالعذل حيث تصرف احكامه * والامن حيث تصرمت اسرابه
متهلل والموت في نبراته * يرجو يربح خوفه وعقابه
عقد اللواء وسار يقدمه وما * حلت عقود غيها انزابه
اسد فرائسه الفوارس والظبي * انظفاره والمهربية غابه
طبع الحديد فكان منه جنانه * وسنانه واهابه وثيابه
وتهش ان تكتب الوجوه كأنما * اعداؤم تحت الوغى احبابه
نصرت بمحمود شريعة أحمد * وأرى الصحابة ما احتداه صحابه

كتاب (٨٨) الروضتين

ما غاب اصلع هاشم فيها ولا ا * فزارق باء بخطبه خطابه
 ابناء قبيلة قائمون بنصره * ان اجلبت من قاسط احزابه
 صبوا محلقه البرنس بحالق * حش الضباب من القلوب ضبابه
 ما زال يغلب من بغاه ضلاله * حتى اتبع من الهدي غلابه
 ملق يوحش الاصرمين زيلت * آراؤه و زابلت آلا به
 دون الارنط سخط به نجده * ونجاده وقرابه وقرابه
 سلبته درة تاجه يد ضيغ * لم تجبه من بأسه اسلابه
 واتته فحلب جوسلين جنائب * هبت فقل الى القتال هبابه
 اسرته لا منعت سراه وغره * بالقاع ان رام الورود سراه
 لاتل باشره ولا كيسونه * صدت منى عنه ولا عتابه
 ضمنت شقاوته سعادة صافح * غطى على اعنائه اعتابه
 ما زال يغدر ثم يغدر قادرا * حتى اناه بجماع اصحابه
 قصر الاماني ان يعلأ عصره الا * لسلام مضروبا عليه حجابه
 مجر يجر الى الغنائم قبسه * وحي يرار على الفتوح قبابه

وانشده بحلب في شوال من هذه السنة قصيدة منها

لقد اوطأت دين الله عزاء * اديم الشعر بين له رغام
 دعاك وقد تناوشت الزايا * له اهبايوزعها العظام
 ففقت بنصره والناس فودى * فيام ذم ما اقترفت فثام
 جذبت بضبعه من قعر يم * له من فوق مقدمه النظام
 وملت على معاقلهم نفرت * ولاء مثل ما انتة غرض النظام
 بصر خدوا الخطيم وفي عزاز * وفابح هزم شهدا الانام
 ولولم تعترف وتشم امسى * وأصبح لاعراق ولا شام
 صبيت على الصليب صليب بأس * قواه تحت كل كلة حطام
 ويوم بالعرمة كان حنفا * على الاشرار أمقره العرام
 لقنوك كأن ماسلوه سيج * وما اعتقلوه من خور ثمام
 وهاب وقورس وبكفر لانا * ذممت وأنت للجمل ذمام
 صدمتهم بارعن مرجح * كان مطارا نسر غمام
 وأبة لبلة لم تلف فيهما * لهم طيفار وعيه منام
 بنور الدين أنشر كل عدل * تعفت في الثرى منه الرمام
 وعاد الحق بعد كلال حد * حجي من ان زراع له سوام
 تألق عدله وذكت سطاء * فلاحيف يخاف ولاهتفام
 بقاؤك خير ما ير جوهر راج * وأنفع ما يسيل به أوام

(فصل) وفي هذه السنة ولد يحيى لنور الدين ابن شهاب أحمد وهنأه به ابن منير في بعض قصائده ثم توفي بدمشق
 وقبره خلف قبر معاوية رضي الله عنه اذا دخل الحظيرة في مقابر الباب الصغير وقصيدة ابن منير قد تقدم بعضها في
 أول الكتاب ومنها في ذكر المولود

توالت الاعباد لازلت لها * تبلى دايح البقاء ونجد

في أخبار (٨٩) الدولتين

الفطر والميلاد والمولدو * قابله بدر التمام لمجد
ثلاثة تعسرب عن ثلاثة * لملهايد كرحام من جد
فتح مبين وطلاب مدرك * ودولة ماتت إلى أمد
وله من أخرى يقول

وجئت بأحد ثلاث جدا * موارد كان معذبا عذابا
تهلل وجهه ملكك يوم أهدت * قوابله لك الملك البابا
شبهك لا يغادر منك شيئا * سناوحيا وبلا واستلا
قسيم الحد الآن حفا * من اسمك زاد لغيري منابا
ألا الله يوم فتر عيننا * وركب نص بالبشرى الركابا

قال أبو يعلى في أوخر صفر توجه بحير الدين في العسكر معه مؤيد الدين الوزير إلى ناحية حصن بصري ونزل عليه
محاصرا لسرخا واليه الخالفة وجوره وأراد بحير الدين المصير إلى حصن صرخد لمشا هذته فاستأذن مجاهد الدين
واليه في ذلك فقال له هذا المكان يحكمك وأنا فيه وال من قبلك وأنفذ إلى ولد هسييف الدين محمد النائب فيه بأعداد
ما يحتاج إليه وبلغ بحير الدين بما يجب له فخرج في أصحابه ومعه المنافع وأخلى الحصن من الرجال ودخل إليه في
خواصه وسر بذلك وتجنب من فعل مجاهد الدين وشكره على ذلك وعاد إلى حصنه على بصري وحاربها عدة أيام إلى
أن استقر الصلح والدخول فيما أراد وعاد إلى دمشق وفيها في شوال توفي الأمير سعد الدولة أبو عبد الله محمد بن الحسن
ابن المحلى ودفن في مقابر الكهف وكان فيه أدب وكتابة حسنة ونظم جيد وتقدم في حلب في التدبير
والدياسة وعرض الاجناد قال ابن الأثير وفيها توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمدان وعهد إلى ابن أخيه
ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد وخطب له بلاد الجبل وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود
خاص بك بن بلنكرى فقام بأمر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود وهو
بخوزستان يستدعيه إليه لخطب له السلطنة وكان غرض خاص بك أن يقبض عليه أيضا فيخا وجده من منازع
من السلجوقية وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه فلما كاتب محمد أجا به إلى الحضور عنده وسار إليه وهو بهمدان واجتمع
به وخدم خاص بك خدمة عظيمة فلما كان القدر دخل عليه خاص بك فقتله محمد وألقي رأسه إلى أصحابه فترقوا
واستقر محمد وثبت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعا وكان قتل خاص بك سنة ثمان وأربعين وبقى مطروحا حتى
أكلته الكلاب وكان ابتداء أمره أنه كان من بعض أولاد التركان فخدم السلطان قال إليه وقدمه حتى فاق سائر
الأمراء واستولى على أكثر البلاد وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود فان الأمراء الأكابر
كانوا ينفون من أتباعه لما كان يقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم وذكر الوزير يحيى بن هبيرة في كتاب
الافصاح أنهما تناولوا على الخليفة المقتي أصحاب مسعود وأسأوا الأدب ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة اتفق الرأي
على الدعاء على مسعود بن محمد شهرا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على رعل وذو كوان شهرا فأتى هو
والخليفة سرا كل واحد في موضع يدعوه ويحرم من ليله تسع وعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين
وجمعة وأستمر الأمر على ذلك كل ليلة فلما كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة كان موت مسعود على
سريره لم يرد عن الشهر يوما ولا ينقص يوما وعمل القصاص بذلك من هذان إلى بغداد في ستة أيام فازال الله يده ويد
اتباعه عن العراق وأورثنا أرضهم ودارهم فبارك الله رب العالمين بحبيب دعوة الداعين قال وكان الشيخ محمد بن

يحيى يقول لأدل على وجوده وجود أعظم من أن يدعى فيحجب

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وجمعة (١) ففهيما أخذت الفرخ فخدم الله عسقلان وبقيت في أيديهم إلى أن
فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سنة ثلاث وثمانين كما سيأتى إن شاء الله تعالى قال الرئيس أبو يعلى التيمي
وتوصلت الأخبار من ناحية نوازلين بقوة عزمه على جمع العساكر والتركان من سائر الأعمال والبلدان للغزو في أحزاب
الشرك والظغيان ولتصرة أهل عسقلان على الأفرنج النازلين عليها وقد ضايقوهما بالزحف إليها بالبرج المخدول وهم

كتاب (٩٠) الروضتين

في الجمع الكبير ثم اقتضت الحال توجيه مجير الدين صاحب دمشق الى نور الدين في جهود وعسكه للتعاضد على الجهاد في ثالث عشر محرم واجتمع معه في ناحية الشعال وقدم لك نور الدين الحصن المعروف بأفليس بالسيف وهو في غاية المنعة والحصانة وقتل من كان فيه من الافرنج والارمن وحصل العسكر من المال والسي التي الكثير ونهضوا طالبيين ثغر بانياس ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حماته وتسهلت أسباب ملكته وقد تواصلت استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور الدين فقضى الله تعالى بالخلف بينهم والقتل وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل فاجفوا عنها من غير طارق من الافرنج طردهم ولا عسكر رهقهم ونزلوا على المنزل المعروف بالاعوج وعزموا على معاودة النزول على بانياس وأخذوها ثم أجمعوا عن ذلك من غير سبب ولا موجب وتفرقوا وعاد مجير الدين الى دمشق ودخلها سالما في نفسه وجملة حادى عشر ربيع الأول وعاد نزل الدين الى حصن ونزل بها في عسكره ووردت الاخبار بوصول استيول مصر الى عسقلان فقبضت نفوس من بها بالمال والرجال والغالل ونظره وأبعده ووافره من مرأى كعب الفرنج في البحر وهم على حالهم في محاصرتهم ومضايقتهم والزعزعة بالبرج اليهم واستمر ذلك الى ان تيسرت لهم أسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها فهذه مودود ومجتمعا بالبلد وقتل من الفرقة بين الخلق الكثير وألحقت الضرورة والغلبة الى طلب الامان فأجيبوا اليهم مخرج من أمكنة الخروج في البر والبحر الى ناحية مصر وغيرها و قيل ان في هذا النفر المتفتح من العدد الحربية والاموال والميرة والغلال ما لا يحصر فذكر ولما شاع هذا الخبر في الاقطار ساء سمعها وضاعت الصدور وتضاعفت الأفكار بحدوث مثله فسبحان من لا يرذنا فذقضائه ولا يدفع محتموم أمره عند نفوذ ومضائه

(فصل) قال و عرض بين الرئيس ابن الصوفي وبين اخويه عز الدولة وزير الدولة مشاحنات ومشاحرات اقتضت المساعاة الى مجير الدين في جمادى الاولى فأقنع مجير الدين الى الرئيس يستدعيه لاصلاح بينهم في القلعة فامتنع من ذلك وجلس في داره وهم بالتحصن عنه باحداث البلد والغوغا وآلات الحمال الى تمكن زين الدولة منه بمعاونة مجير الدين غايه وتقرر بينهم اخراج الرئيس من البلد وجماعة الى حصن صرخند مع مجاهد الدين بزبان واليه بعد ان قرر له بقا داره وبستانه وما يخصه ويخص أصحابه وتقلد اخوه زين الدولة مكانه وأمر ونهى ونفذ الاشغال على عادته في الجوز والتقصير وسوء الافعال والتماس الرشا على أقل الاعمال ورأى مجير الدين عقيب ذلك التوصل الى بعلبك لطبيب نفس واليه اعطاء الخادم واستنجا به معه الى دمشق لينوب عنه في تدبير الامور وعاد وهو معه واستشعر مجاهد الدين بزبان ان نية مجير الدين قد تغيرت فيه فاستوحش من عودته الى البلاد فغير بين يحلف له بها على امانته في نفسه فوجد عذبا لاجابة فعاد الى داره بدمشق ثم هجم في خاطره من مجير الدين وأصحابه ما أوحشه منهم فدعاه ذلك الى الخروج من البلد سرا طالبا صرخند فخب في عرف خبره امضى في طلبه وقص أثره فأدرك وتكرب من صرخند فقبض عليه واعيد الى القلعة بدمشق واعتقل بها اعتقالا لاجل انهم تجدد من الرئيس الوزير حيدرة المقدم ذكره اشياء ظهرت عنه مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسبب من المعرة بانسي والفساد ما انتقضت الحال استدعاه الى القلعة على حين غفلة عن الغضاء النزل به لسوء افعاله وقبح ظاهه وخبثه ثم عدل به الجاندي الى الحمام بالقلعة مستعمل ذى القعدة وضربت عنقه صبرا واخرج رأسه ونصب على حافة الخندق ثم طيف به والناس يلعبونه ويصفون أنواع ظله وتقننه في الغساق ومقاسمة المصوص وقطاع الطريق على أموال الناس المستباحة بقريرته وتدبيره وحايثه وكثر السرور وعصره واتهم به ثم زحف العامة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العيش الى منازل ونزائمه ومخازن غلاته وأثائه وخائره فانتهموا منه ما لا يحصى وغلبوا أعوان السلطان وجنده عليها بالكثرة فلم يحصل للسلطان من ذلك الا انزاله الى سيرة ورور أمر الرئاسة والنظر في الباد الى الرئيس رضى الدين أبى غالب عديد المنعم بن محمد بن اسدين على التهمي في اليوم المقدم ذكره فطاف في البلد مع اقاربه وأهله وسكنت الدهماء وولغ في اخراب منازل الظالم ونقل أخشابها قال وكان عطاه الخادم قد استبد بتدبير الامور ومثله في الظلم واطلق لسانه بالهجو وافرط في الاحتجاج وقصر في قضاء الاشغال ففقه ثم مجير الدين باعته الله وتقيده والاسير لاء على ما في داره ومطالته بتسليم بعلبك وما فيه من مال وغلال ثم ضربت عنقه ونهبت الاعوام والقوغاء بيوت أسبابه وأصحابه قال وورد الخبر من ناحية مصر بان العادل المعروف بابن السلا الذي كانت رتبته

في أخبار (٩١) الدولتين

قد علت ومنزله في الوزارة قد تمكنت كان لزوجه ولدي يعرف بالامير عباس قد قدمه واعتمد عليه في الاعمال ولعباس هذا ولد قدمه الوزير وأنعم عليه وأذن له في الدخول بغير إذن اليه فدخل عليه وهو نائم في فراشه فقطع رأسه وحصل عباس في منصب العادل ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره قلت هو أبو الحسن علي بن الساروزر خليفة مصر وهو الذي بنى مدرسة الشافعية بالاسكندرية لحافظ أبي ظاهر السلفي رحمه الله وكان قتله في سادس المحرم بمواطاة من الخليفة الملقب بالطاهر بن الحافظ وفيها في آخر شعبان توفي الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي البلخي رئيس الخنيفة ودفن في مقابر الباب الصغير المجاورة لقيور الشهداء وكان من التفقه على مذهبه ما هو مشهور شائع مع الورع والدين والعفاف والتصوف وحفظ ناموس العلم والتواضع والتودد الى الناس على طريقة مرضية وسجية محمودة قال وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الاديب أبي الحسين أحمد بن منير الشاعر في جمادى الآخرة ووصل في ثاني عشر شعبان الى دمشق الاديب الشاعر أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسري من حلب باستدعاء مجير الدين له رماث بعد عشرة أيام في الثاني والعشرين من شعبان تلتها شاعر الشام في وقتها وقد شبهها العباد الكاتب في كتاب الخريدة بالفرزدق وجرير وكذلك كان اتفق موتها في سنة واحدة ومات جرير بعد الفرزدق بقليل وقد سبق من شعرهما في مدح نور الدين رحمه الله قصائد حسنة وسيأتي غير ذلك في موضعه لغرض سنذكره ومما قاله ابن منير من قصيدة له

أي سيفاً أعز الدين منه — غرار العضب والنوم الغرار
ملأت جوانح الاقطار رجفا * كان الارض خامر هادوار
علاك حلى على الدنيا قناج * بمقرتها وفي يدها سوار
أضاعت شمس عدلات في دجاها * فكل زمان ساكنها نهار
فخرق من عصاك وأنت ماء * وتغرق من رجلك وأنت نار
الاله وجهك والمنايا * مكحلة والبيض افترار
هكت حجابها والنصر غيب * وللهبوات طي وانتشار
يطعن للفساويب به انتظام * وضرب للرؤس به انتشار
تبادره كان الموت غنم * وما من عادة البدر البدار
انخت على الصليب مطايلها * به من صك مبركده دار
بمعرفة المناكب مقربات * لهن بمن كل ونغي حصار
جبين بآب أنيب العناصي * وأضن واللقنا منها ثمار
وفي هاب أهبت بها فجاعت * كما أجلي من الكسم الصور
وكم في نيج حارم من حريم * عفته فلاجدير ولا جدار
وانطا كمة استنت اليها * فاجفل خيطها وله عرار
وصبح في عزراز بها عزراز * فامسى وهو وعث أوخبار
يشق بهادجي الغمران عسفا * جواد لا يشفق له غبار

وله من أخرى

وما يوم الفرنجة منك قد * فقصر عده خطط الحباب
أجاش الاربعاء لهم خيسا * بعيد الغور ملتطم العباب
واحكم بالخطيم لهم خطاما * أمر برعسه مرة الضراب
مشوا متساندين الى صليب * بيرقع هبوه الضم الصلاب
تلفهم المنيا في الثنايا * وتقعاهم شعوب من الشعاب
أطاشت سبهم كبشهم هناة * فيكتب ذباب طائشة الذباب

كتاب (٩٢) الروضين

جالت التاج عنه وحل تاجا * مكان العقمن عقد الكعاب
 أناف على العقاب فكان أشهى * وأبهى منه في ظل العقاب
 فاشرف وهو عن شرف معروف * واصعدوه في غاية الانصباب
 تكاشره الشوامت وهو مغض * ثناه مناه عن رجوع الجواب
 بعبدان قراع واقتراع * يؤوب له الى يوم الحساب
 ولم سوط بجيدك اقباسه الصـ * سدور فكان سوطا من عذاب
 تركتهم بارض الشام شاما * انظر تنقيسه أولناب
 هتكت حجابهم والشمس وسنى * بشمس لا توارى بالجاب
 بابيض من حبيك الهند صاف * مصون المتن مبتذل الذباب
 له سمة الشيوخ صفاء شيب * وفي خطواته ترف الشباب
 الا يا ناظر الدنيا بعين * أرتبه علابها خدع السراب
 تبطنها افظعها ثلاثا * على عز التلق والخلاب
 فلا ياوى الى رأى شعاع * ولا يبنى الى أمل خراب
 ترفع عن مجاوزة الامانى * وحلق عن محاضرة التنصاي
 صلاة الله كل درور شمس * على مشوى أيبك من التراب
 فقد ألقي الى الاسلام عضبا * يطبق في النواثب غير يابى
 تجيش له رواس كالرواسى * تمدها جفان كالجواى

وله من أخرى

مظفر العزم مدود الرواق على * معالم الدين يرفها وبينها
 رد الكائنس كنس الهمى فينت * نار الضلال ووارثها انا فيها
 وأورد العلم عدا من اياته * فاستن واقتن عبا في صوافها
 وبث للشرك اشرا كافا درجت * طريدة منه الاستوهقت فيها
 يا بدرمذا شرفت في الدست غرته * غيث الزعية واخضلت مراعيها
 أقام أحمد من محمودها علما * به استقام على البيضاء ساريها
 محي شريعته من بعدما انهدمت * واستجبت بعد افصاح معانيها
 شابت مواهبه فيها مهاتبه * حتى استقرت على سمع سوارها

وله من أخرى

عزت سيفوك فالعراق عراقها * والشام غير مدافعات شامها
 ان أغمدت حل العزائم حلها * أوجرت حرم الكرى احرامها
 نخب عداك بها فلا شراقها * بمفازة منها ولا إعتامها
 سربت فصيحها بياقظاتها * هدأت فستها بها احلامها
 كالماء الان في رشفانه * نار احشاشات النفوس ضرامها
 خفت على أيمانكم أوزانها * يوم الوغى واستشعلتها هامها
 حتى احلن الشام ما صرصرت * فيه جنادها وصدع هامها
 ورخص اردان الجزيرة بعدما * غمرت بها وهداتها اكامها
 شطرا أبرت ومثله أنظرته * وقع الخطوب نكرها أيامها
 بالنايات الغاب ترأرأسده * والجحفي الحبي اللقاح صيامها

في أخهار (٩٣) الدوائين

أوردتها اجبات انطاكية * عتقا وقد شبت الصدا اجواها
 تلقى المشافر في مرأشف كلها * بردت بها الأباد زاده يامها
 فعدت وقد عز السراح سراحها * وتوزعت في ككنسها ارامها
 ومشى الضلال القهقري واستأصل السردان من رجع الاذان صلامها
 وغدا يخد لها الخليل سواحبا * عذابا يمر لها العذاب غمها
 غضب الدين الله حص جناحه * بغيا وأدعى صغتيه لدامها
 فالآن رد النور في نوره * وانجاب من تلك الهنات ظلامها
 محمود المحمود اقداما اذا * خام السكاه وزلزلات اقدامها
 الفارج الكرب العظام تضاجت * اشداقها وفر القلوب ضغاما
 وله من أخرى

أما لرعايا فانها رشفت * لديل نعي عذابا شايها
 سلكت نسيج العدل القويم لها * فاجدت دينها ودينها
 وكم امنيت خوفا فامتها * مة الف الخوف خوفك الله
 لله أقطارك التي قطرت * لها مناسها الى منايها
 أنب في أنب فوارسها * تزدى فردى أولئك أنراها
 أشجبت لها البرنس هبوتها * وكمتاعا تبا فانبجها
 وجوسلين استساغ نطقها * فاحتلب الذل تحت مغداها
 رذته صفرا من كل ماملكت * يدها أيد ماضل مسراها
 جوسل جاستك أوجه لارأت * بوسا وجاد الحيا محياها
 في سرية لوت كون فارسها * يومئذ ما انتعث أشقاها
 لازال ظل النعماء عن ملك * ما الشمس كقوله اذا باها
 والله جازيه عن معبده * أعزها الله سيدتولاها
 محمود المعتلى الى فلك * الحمد وثير الله ولاياها
 أعطا كه جدد المتوج بالحد * ونفس لله مغزاه
 نفس عزوف عن الخنا طبع * نزهه الله يوم سواها
 أنت الذي سلم الانام له * بمنى طباق العلى وسراها
 وأنت مولى الملوكة قاطبة * من كل فنا خسرو وشاهنشاه
 والشعر هذا لا قول أحمده * أوه بديل من قولتي واه
 وله من أخرى

يا ابن الذي لم يال في فحده الا * لسلام ادلاج ونهجير
 تكذب الشام وقشامير * ق الخوف انجناد وتغور
 وكف كلب الروم من بعدان * انشبهه نابا واظفورا
 فاهله ركب ان انصفوا * رقا بجذ السيف مسطورا
 بديرهوى واستخلف الشمس في * دستك اشراقا وتائيرا

وله من أخرى

ملك كسى الاسلام من ذبه * بردا يدبج الظني معلا
 من أصبح الشام به شامية * يقطر من قتل عيداها

كتاب (٩٤) الروضتين

ولم يقم منصلنا دونه * لم تلتق في أقطارها مسلما

وله : حبه بعد مصالحة صاحب جاه واهتمامه بالعرس وعوده الى حلب

الدهر ما روضته بالجود والياس * مقسم بين اغراس واعراس
فتح تعاقبه فتح ومطلب * داني المنال وملك ثابت راسي
نصر ابصري وصنعا عن حماة لند * أحسنت للاء حمائمها الآسي
يا ابن الذي عنت الدنيا لدولته * من فاطمي اعزته وعباسي
وله فيه أيضا

غدا الدين باسمك سامي العلم * أمين العماد مكين القدم
لذلك لقبك نورا له * وقد أغطش الظلم فيه الظلم
أضأت بعد ذلك آفاقه * وفضت عرى الذين لما ادلم
ولم تمش رهوا لنصر الزها * ومثلك أدرك لما عزم
ويوم بسوطا بسطت الجبا * م على الخضب من ركنها فاندحم
وبصري وصرخ دلولم تثر * دراكا لكانا رديني ارم
ومدفع جيشك في القوط * بين قصر الصليب له ما نظم
وفي كفر لانا وهاب حلال * عقد البرنس بيض خذم
عودة امها لا تسأل الامم * لمة للقم
ويوم يسرفد جرتهم * أجاأ اغصم واضطلم
وفوق العريسة غشاعم * عرام جيوشك سيل العرم
وأنت بكلمهم في الكبر * لمباح الحرم مذل الحرم
وارتقم أدنت انها * ابارتقم فليدوا بدم
بنوها واعلوا ولم يعاوا * بما خط في الماوح منك القلم
وانك خادم مأحكو * هو من دبتنا راقع ما تخرم
فرفع من بعد خفض هدى * وتخفض من بعد رفع صنم
سمكت المدارس فوق النجو * م فكم مخيم تحتها قد نجم
وعاش الخني في والشافعي * بما شئت منها وكانا رم
وان لم تكن هاشمي الا صو * ل فانك فرع الميزير الحشم
ومن يدعي في العلي ما اذعي * وأنت ابن من عز لما احتكم
واقم ما غاب ميت سقت * مغارسه عين هندی الشم

قلت وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة ونفسه فيها طويل ولم يبق بعد موت القيسراني وابن منير ظل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي الابن اسعد الموصلي وسيأتي شيء من شعوره الى ان قدم العماد الكاتب الشامي في سنة اثنتين وستين فتسلم هذا الامر وعبر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته باحسن العبارات وأتمها نظما ونثرا وسيأتي كل ذلك في موضعه ان شاء الله تعالى قال ابن الاثير وفيها توفي صاحب ماردن حسام الدين قمر تاش ووليها بعده نجم الدين الجي بن قمر تاش اراق قلت وقدمه القيسراني والعرقلة وغيرهما من الشعراء (ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة) قال ابن الاثير فتبعه بملكها ان الفريخ ملكها في السنة الخالية عسقلان وهي الدين أنق بن محمد وكان الذي حمل نور الدين على الجدي ملكها ان الفريخ ملكها في السنة الخالية عسقلان وهي مدينة فلسطين حسنا وحصانة ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلف ولا يقدر على ازعاجهم عنها لان دمشق في طريقه وليس له على غيرها معبر الا هراض بلاد الفريخ في الوسط وقوى الفريخ ملكها حتى طمعه وافي دمشق

في اخبار (٩٥) الدولتين

واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارة على اعمالها كثيرا والفك بها والنهب والسبي وزاد الامر بالمسلمين بها الى ان جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة وكان رسولهم يحيى الى دمشق ويحييها من أهل البلد ثم اشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وأبناءهم الذين نهبوا من سائر بلاد النصرانية وغيرهم بين المقام عندمواليهم والعود الى أوطانهم فمن أحب المقام تركوه ومن أحب وطنه سار اليه وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد الى ان حصروه في القلعة مع انسان منهم كان يقال له مؤيد الدين ابن الصوفي فلما كانت الامور بها هكذا خاف أهلها وأشد فقروا من العدة فلجأوا الى الله تعالى ودعوه ان يكشف سايهم من الخوف فاستجاب لهم وأذن في خيولهم مما هم فيه على يد أحب عباده اليه وأحسنهم طريقه وأمثلهم سيره وهو الملك العادل حقا نور الدين محمود فحسن له السعي في ملك البلدة وألقاه في روعه فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعزم ان رام ملكه بالقوة والحصار فتعذر عليه لان صاحبه متى رأى شيئا من ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم قات وقد كان سبق له بذلك سوابق قد تقدم ذكر شيء منها ولذلك قال العرقلة يمدح أنبا يهبة معين الدين أنز من قصيدة

يظن صلاح الدين فرسان جلق * كفر سانه ما لا سدمثل الثعالب
رجال اذا قام الصايب تصلبت * رماهم في كل ماش وراكب
غدا يطلع الشام الفرنج فيلق * مـهودة ابطاله للصايب
لها الليل تقع والاسنة أنجم * لها غير ابطال وغير جنائب

وصلاح الدين هذا المذكو رليس هو يوسف بن أيوب المشهور فان ذلك لم يكن حينئذ ملكا قيود الجيوش وانما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الباغساني صاحب جماعه أحد أصحاب زنكي وقد تقدم ذكره مرارا وكانه كان في مقدمة الجيش النوري لما قصد دمشق في المرتبة الاولى أو في احديهما وفي زمن حصار زنكي لها والله أعلم قال ابن الاثير وكان أبغض الاشياء الى الفرنج ان يملك نور الدين دمشق لانه كان يأخذ حصونهم ومعاقبهم ويست له دمشق فكيف اذا أخذها وقوى بها وانضاف الى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين فان الدم كان عـده عظيما لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل فلما رأى الحال هكذا عمد الى اعمال الحيلة فراسل مجير الدين صاحبها واستماله وواصله بالهدايا وأظهر له المؤدة حتى وثق اليه ثم صار يكتبه في بعض الاوقات ويقول له ان فلانا ويدكر بعض الامراء الذين لمجير الدين قد كاتبني في المخامرة عليك فاحذره فتارة بأخذ اقطاع أحدهم وتارة بقبض عليه فلما خلت دمشق من الامراء قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم وكان شهـما شجاعا وقوض اليه أمر دولته وكان نور الدين لا يثق من دمشق معه فقبض عليه بمجـر الدين وقتله فقال له عند قـله ان الحيلة قد تمت عليك فلان قلتي فانه سينظرك ما أقول فلم يصع الى قوله وقتله قلت وفي بعض قصائد ابن منير ما يدل على ان عطاء هذا كان له مع نور الدين في دمشق حديث فانه قال

ودمشق في دمشق رجال سلم * لحور نسائم منهم نساء
هي الفردوس أصبح وهو عاف * من العاك ومن خال خلا
جنان تعرف الجنات فيها * ولا رأى هناك ولا رواء
لا سمع صعما ونبت قصاعا * وامكنك اقتياد وامتطاء
وباتم العطاء عطاء رب * توسطه فانشطه عطاء
تساءل باسمه فالقال وعد * يكون على ظباك بد الوفاء
هو السبب الذي شرت قواه * وهذه لخدمتك الصفاء
وسيف أن تـهـم حساما * وان يـمـد قنار بل ذكاء
حنته لك السعادة قطف رأى * لنقب الخادعك به هناء

وميجوز انه لم يكن له في ذلك حديث وانما هذه الايات أو ما في معناها كانت سبب قتله بالمبلغ مجير الدين ذلك وعطاء هذا هو الذي ينسب اليه مسجد عطاء خارج الباب الشرقي بدمشق وجورة عطاء بيت أبيات وهي أرض فيها أشجار

كتاب (٩٦) الروستين

كبار من الخويزمي أو تاراجامع دمشق وهي وقف عليه وقدمه العرقلة وغيره من الشعراء قال ابن الأثير فلما قتل عطاء قوى طمع نور الدين في دمشق فراسل أحداث البلد وناظرته واستلمها فأجابوه إلى تسليم البلد فسار إليهم وحاصروهم عشرة أيام فكاتب بحير الدين الفرنج وبذل لهم الأموال وقلة لتبليغ أن رحلوا نور الدين عنه فأتى أن جمعوا وجازوا بلغهم أخذ نور الدين دمشق فعادوا يخفي حنين وأما نور الدين فإنه لما حاصروهم وضيق عليهم ثارا لأحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من الباب الشرقي فدخله بالآمان عاشر صفر وحصر بحير الدين في القلعة ورأسه وبذله الإقطاع الكثيرين من جلته مدينة شخص فأجاب إلى تسليم القلعة وصار إلى حصص وقال ابن أبي طي أنفذ نور الدين أسد الدين شيركوه رسولاً إلى صاحب دمشق فخرج في تجهل عظيم ومعه ألف فارس فعظم على بحير الدين ذلك وقال فها هذه رسالة هذه مكيدة ولم يتجاسر على الخروج إلى لقاءه ولا أحدم من أمره أدمشق فاستوحش أسد الدين ونزل بمرج القصب وأغلظ لصاحب دمشق في المقال وأنفذ إلى نور الدين يعترف بما جرى عليه فسار نور الدين في عسكرة وحذف إلى البلد من شرقيه وكانت الحرب في عاشر صفر وتولى أسد الدين القتال وأبلى الجبهة وكسر عسكرة دمشق إلى الأسوار من قبلي البلد ولم يكن أحد من القسائل على السور من ذلك الجانب لاق نور الدين كان من شرقها وحل العسكر مقابله ورأى من كان مع نور الدين من الجانبين إلى خلاء السور من القسائل فقتلوا السور وتعلقوا به وحصلوا في الحال على الأسوار ويقال أن أمره كانت على السور فذلت حبلاً فسد رافيه وصار على السور جماعة ونصبوا السلام وصعد جماعة أخرى ونصبوا علما وصاحوا بشعار نور الدين فوق على أهل البلد الحسد لأن وكسر باب البلد ودخلت الخيلة منه وملك نور الدين دمشق وكان لأسد الدين اليد الطولى في فتحها ففولاه نور الدين أمرها ورذاليه جميع أحوالها وفي هذه السنة أفضعه نور الدين الرحبة وقال الرئيس أبو يعلى في العشر الثاني من المحرم وصل الأمير أسد الدين شيركوه رسولاً من نور الدين إلى ظاهر دمشق وخيم ناحية القصب من المرح في عسكر يتأهز ألف فأنكر ذلك ووقع الاستخوان منه وأهال الخروج إليه لتلقيه والاختلاط به وتجزت المراسلات فيما اقتضته الحال ولم تسفر عن سداد ولا نيل مراد وغلاسر الاقوات لانتطاع الواصلين بالغات ووصل نور الدين في عسكره إلى شيركوه ثالث صفر وخيم بعمون القسار بأعند دومة ورجل في الغد ونزل بيت الأبار من انعطوة وحذف إلى البلد من شرقيه وحذف إليه من عسكره وحادثه الخلق الكثير ووقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه ثم حذف يوماً بعد يوم وتأكد الحذف يوم الاحد عاشر صفر وظهور إليه العسكر الدمشقي فاندفع بين أيديهم حتى قربوا من سور باب كبسان والدباغة من قبلي البلد وليس على السور أحد من العسكرة والبلدية لسوء تدبير صاحب الأمر غير نفر يسير لا يؤبه لهم فتسرع بعض الرجالة إلى السور وعليه أمر أيمودية فأرسلت إليه حبلاً فصعد فيه وحصل على السور ولم يشعر به أحد وتبعه من تبعه وطلعو على ما نصبوه على السور وصاحوا أنور الدين يا منصور وامتنع الاجناد والرمية من المانة لما هم عليه من المحبة أنور الدين وعدله وحسن ذكره وبادر بعض قطاعي الخشب بذأسه إلى الباب الشرقي فكسر اغلاقه وفتح فدخل منه العسكر وسعوا في الطرقات ولم يقف أحد بين أيديهم وفتح باب توما أيضاً ودخل الناس منه ثم دخل نور الدين وخواصه وسر كافة الناس من الاجناد والعسكرة لما هم عليه من الجوع وفلاء الاسعار والخوف من منازلة الفرنج الكفار وكان بحير الدين لما أحس بالغلبة والقهرة تذاثرهم في خواصه إلى القلعة وأنفذ إليه فأومن على نفسه وماله وخرج إلى نور الدين فطيب نفسه وعده الجليل ودخل ثور الدين ألقعة في اليوم المتقدم ذكره وأمر بالنادية بالآمان للرمية والمنع من انتهاب شيء من دورهم وتسرع قوم من الرعا والاباش إلى سوق على وغيره فعالتوا بينهم وأنفذ نور الدين إلى أهل البلد بما طيب نفوسهم وأزال نفرتهم وأخرج بحير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزان من المال والآلات والأثاث على كثرة إلى الدار الابكية دار جده وأقام أياماً ثم تقدم إليه بالمسير إلى حصص في خواصه ومن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه بعد أن كتب له المنشور باقضاء عده ضياع بأعمال حصص برسمه ورسم جنده وتوجه إلى حصص على القضية المتروكة ثم حضر نور الدين غد ذلك اليوم أمثال الرمية من القضاء والفقه والنصار وخطوباً بما زاد في انسابهم وسرور نفوسهم وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم فأكثر والدعاء له والنساء عليه والشكر لله تعالى على ما صارهم إليه ثم تلا ذلك ابطال حقوق دار البطح وسوق البهل وضمان الانهار

وأنشأ بذلك المنشور وقرئ على المنبر بعد صلاة الجمعة فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس برفع الدعاء الى الله تعالى بدوام أيامه ونصرة أعلامه وقال ابن الاثير لما استقل نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرمة عظيمة وأظهر فيهم عدلا عما قلت قد تقدم ذكره في أول الكتاب وسيأتي منه أشياء مقترقة فيما بعد قال والفي الاسلام حرا به دمشق وثبتت أوثاده وأيقن الكفار بالبور ووهنوا واستكانوا وصار جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين وأما مجبر الدين فانه أقام بحمص وأرسل أهل دمشق في إثارة الفتنة فانتهمى الامر الى نور الدين فخاف ان يحدث ما يشق تلافيه بل رجعا تعذرا لاسيما مع مجاورة الافرنج فأخذ حصص من مجبر الدين وعوضه عنها مدينة بالاس فلم يرضوا وسار عن الشام الى العراق فأقام ببغداد وابتنى دارا فاجاور المدرسة النظامية وتوفي بها قال ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج وعلوا الله لا يقعد عنهم وعن غزو بلادهم والمبادرة الى قتالهم فراسله كل كند وقص وتقرىوا اليه ثم ان من بتل باشر راسلوه بذلوله تسليمه اليه فأرسل الى الامير حسان المنجي وهو من أكابر أمراء نور الدين واقطاعه منبج فأمر ان يتسلها منهم فسار اليها وتسلها وحصنها ورغع اليها ذخائر كثيرة

(فصل ١٠) قال الرئيس أبو يعلى وقد كان مجاهد الدين بنان أطلق يوم الفتح من الاعتقال وأعد الى داره ووصل الرئيس مؤيد الدين المسيب الى دمشق مع ولده النائب عنه في صرخدا الى داره معولا على زوجهما ترك التفرغ لشئ من التصرفات والاعمال ففسد امره من الاسباب المعروفة عن اصحاب الفساد والعدول الى خلاف منهاج السداد والرشاد ما كان داعيا الى فساد الدنيا فيه وكان في احدي رجليه فتح كد طال به ونسيه ثم لحقه مرض وانطلق متداركا أفرط عليه وأسقط قوته مع فراق متصل وقلاع في فيه زائد فقضى نحبه في رابع ربيع الاول ودفن في داره واستبشر الناس بهلاكه والراحته من سوء أفعاله قال ووردت الاخبار بقتل خليفة مصر المنقب بالظافر بن الحافظ وأقيم ولده عيسى مقامه وهو صغير يناهز ثلاث سنين ولقبوه بالفاتر وعباس الوزير ثم ورد الخبر بان الامير فارس الدين طلائع بن رزيك وهو من أكابر الامراء المتقدمين السجعيان المذكورين لما انتهى اليه الخبر وهو غائب عن مصر قلق لذلك وامتنع وجمع واحتشد وقصد العود الى مصر فلما عرف عباس بما جع خاف الغلبة فتأهب للهرب في خواصه وأسبابه وحره وماترأس ماله وسار معذرا لاقرب من أعمال عسقلان وغرر خرج اليه جماعة من خيالة الافرنج فاعتز بكثرته من معه وقتله من قصده فلما جاؤا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه وانهمز أقبج هزيمة هو وابنه الصغير وأسرا بنه الكبير الذي قتل العادل بن السلار مع ولده وحره وماله وكرامه وحصلوا في أيدي الفرنج ومن هرب لقي من الجوع والعطش شدة ومات العدد الكثير من الناس والدواب ووصل في أثرهم فارس الدين فوضع السيف فيمن نظره من أصحاب عباس وانتصب في الوزارة وتدير الامور موضعه ووصل الى دمشق منهم من الجأء الحرب على أشنع صفة من العدم والعري في آخر ربيع الآخر قلت وفي ذلك يقول عمارة اليمني من قصيدة له

لکم یا بنرزيک لازال ظلمکم * مواطن سحوب الموت فيها مواطر

سلامت علی عباس بیض صوارم * قهرتم بها سلطانه وهو قاهر

وذكر الامير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار ان نصر بن عباس لما قتل ابن السلار وتوزر أبووه عباس كان نصر يعاشر الحليفة الظافر ويخالطه وعباس كره ذلك مستوحش من ابنه لعلمه بجذبه القوم وضرب بعض الناس بعض حتى يفنوه وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على أبيه ومواصلته بالعطايا الكثيرة ففانتخني في ذلك فغيبته فاطلع والده على الامر فاستماله أبووه ووظفه بقرته وبعثه قتل الظافر وكانا يخرجان متشكرين زهاتر بان سبهما واحد فدعاها الى داره ورتب من أصحابه معه في جانب الدار نفرا ثم لما استقر به المجلس خرجوا عليه وقتلوه وذلك سلخ محرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ورموه بجيب الدار وأصبح عباس جاء الى القصر مخفوة نهارا للسلام وخس في مجلس الوزارة بتمنظر جلوس الظافر فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى صاحب زمام القصر وقال ما مولانا مجلس السلام قبله الاستاذ في الجواب فصاح عليه وقال مالك لا تتجاوز بني قال يا مولاي مولانا ما ندرى أين هو قال مثل مولانا يصع ارجع واكشف الحال فغضب ورجع فقال ما وجدناه ولا ناقلا يبي الناس بلا خليفة فدخل الى الموالى اخوته يخرج منهم واحد لنبايعه قضى وعاد وقال الموالى يقولون لك ما لتساقى الامر شئ والدنا عزله عنا وجعله في الظافر والامير لولده بعده قال أخرجه

کتاب (۹۸) الروضتين

حتى نباهه وعباس قد قتل الظافر وعزم على ان يقول لاخته انتم قتلتموه وبقي لهم فخرج ولد الظافر ولعل عمره خمس سنين يحمله الاستاذ فأخذ عباس خفيه وبكى وبكى الناس ثم دخل به الى مجلس أبيه وهو حامله وفيه أولاد الحافظ قال ابن منقذ ونحن في الرواق جلوس وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين قاراعنا الا قوم قد خروا من المجلس مجتمعين الى القاعة فاذا السيوف تختلف على انسان فقلت للغلام ارمني انظر من هذا المقتول فضى وعاد قال ماهؤلاء مسلمين هذا مولاي ابراهيم امانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه ثم ان واحد اشقى بطنه يجذب مصاريه ثم خرج عباس وهو أخذ رأس الامير يوسف تحت ابطه وفي رأسه ضربة سيف والدم يفيض منها وأوالقاء ابن أخيه مع ابنه نصر ثم ادخلوها خزانه في القصر فقتلوهما وفي الخزانة ألف سيف مجرّد قال وكان ذلك اليوم من أشد الايام التي جرت على لا رأيت من الفساد والبغي ما ينكره الله سبحانه وجميع خلقه وذكر الامير أسامة بن منقذ في ديوانه قال كان لعباس أربع مائة رجل يحمل أثقاله ومائتا بغل ومائتا جنّيب فنأرا اذا خرج من مصر يوم الجمعة رابع عشر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة وقد قام عليه أهل مصر وعسكر يتهافرونهم وراجلهم تقدّم بثبّ خيله وبغاله وجاله ليخمد ويخرج فلما صار الجميع على باب داره وتدمّلا ذلك الفضاء الى قصر السلطان الى الايوان خرج غلام يقال له عكر بن علي أشدّ غلا وغلبا كانهم تحت يده فقال للجمالين والخربسندية والركابية روجوا الى يونسكم وسيبوا الدواب ففعلوا ذلك وانحاز هو الى المصريين يقفاته معهم وكان ماجرى من تمسك الدواب لطفاً من الله تعالى به فانها سادت الطريق بينه وبين المصريين ومنعتهم من الوصول اليه وهم في خلق كثير ونحن في قلعة مانلغ خمسين رجلاً وثمانين عباس ومما لي في ألف ومائتي غلام ياخيول الجياد والسلاح التمام وثمانمائة فارس من الأتر الخرجوا كلهم من باب النصر ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطابية فرأى من القتال ففرع المصريون في نهب الخيل والجمال والبغال فلما ذهبوا طردهم اليه خرج عباس من باب النصر وجاءوا في أثره حتى أقفوا الباب وعادوا الى نهب دوره وكان عباس قد أحضر من العرب نحو من ثلاثة آلاف فارس يتقوى بهم على المصريين واستخلفهم ووجههم هبات عظيمة فلما خرج من باب مصر غدر وابيه وفاتناه أشدّ قتال سنة ايام يقفانهم من البحر الى الليل فاذا نزل أمهوا الى نصف الليل ثم يركبون ويهدّون خيلهم على جانب الناس ويصيحون صيحة واحدة فتحفل الخيل وتقطع ويخرج اليهم من مافيها منعة وقوة فيأخذونه فكان ذلك سبب هلاك خيله وقد كن الا فرنج منه واشتغاله عن سلوك طريق لا يقصده الفرنج اليه قال ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة حتى نهار الى آخر يوم الخميس ثم جاءوا اليه وأخذوا منه حساباً على أموالهم وأنفسهم ويوتهم ظناً منهم ان له عود اليهم وأنصروا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس ويوم الاحد صجّتهم الا فرنج وقد هلك الناس من الجوع والغش وماتت خيلهم قتلوا ابنه الاوسط وأسر ابنه الاكبر وقتلوا خلقاً كثيراً وأخذوا نساء عباس وخزائنهم وأسروا أولاد الله صغاراً وأنصروا قتل عباس هذا هو عباس بن أبي القحطوج بن تميم بن المعز بادي الجعري ويليقب بالافضل ركن الدين ويكنى بأبي الفضل ورأيت علامته في الكتب ايام وزارته الحمد لله وبه أنق وفيه يقول أسامة بن منقذ لقد هم جود الافضل السيد الوري * وأغنى غناء الغم حيث نصوب

ومن آيات لابن أبي أسعد فيه لما قتل الظافر

وَأَنْفَقَ مِنْ أَنْعَامِهِمْ فِيهِمْ لِأَكْم * وَأَظْهَرَ مَا قَدْ كَانَ عَنْهُ تَنَاقُقٌ

ومنذ بدا قد طولوها اليهم * وحلت بأهل القصر منه البوائق

سقى ربه كأس المنيا وما انقضى * له الشهر الا وهو لكأس ذائق

وكان عباس قد تخيل من أسامة عند دخروجه من مصر لما يعلم بينه وبين الملك الصالح من المودة والمصافة فأحضره واستقبله أنه لا يتفصل عنه ثم لم يقنع بذلك حتى أنفذ من أساتذى داره من يدخل على حرمه إلى داره فأخذ أهله وأولاده فتركهم عند أهله وأولاده وقال قد جلت ثقلهم عنك لهم أسوة بوالدة ناصر الدين يعنى ولده ناصر الدين وباخوانه فلما خرجوا وهبت دودهم ودوابهم بمنجز عن حل من يخصه فأعادهم أسامة من بلبس وانفذ إلى الملك الصالح يقول لقد انغذت أهلى وأولادى اليك وأنتولى ماترأفهم فأنزلهم في دار وأجرى عليهم الجارى الواسع

وأحسن اليهم غاية الاحسان وكان يكاتبه في الرجوع الى مصر وهو لطف الامر معه قصدا لخلاص أهله وأولاده فلما عرف ذلك منه سبه الى وحشة قلبه من القصور ونفوره من المصريين فأنفذ اليه يقول له تصل الى مكة في الموسم وبلغك رسول الله يسلم اليك مدينة أسوان وانفذ اليك أهلك وأهلك بالاموال وهي كما علمت الثغرينا وبين السودان وما يستذل الثغر مثلك وأكثر من الوعد وكرهته في قربه ورعايته وما ربه وبينه من قديم المحبة فاستأذن أسامة في ذلك الملك العادل نور الدين وكان في خدمته فقال يا فلان ما تساوي الحياة الشث والرجوع الى الاخطار والبعد عن الاوطان ومنعه من ذلك بأحسنه ووعدته ان يستخلص أهله فكتب أسامة الى الملك الصالح يعترف ويسأله تسخير أهله وتردته بينهما مكاتبات واشعار متصلات الى ان سيرهم وهم سيف وخمسون نسمة في الاكرام والاحترام الى آخر ولايته وذكر ان أهل القصور والامراء أنكر واتسبرهم وقالوا تكون أهلهم رهائن عندنا لمن ما يكون منه ووصله بعض أصحابه بمن دمشق وهو في العسكر النوري لمحب فأخبره ان من كان له بمصر من الأهل والاولاد والاصحاب وصلوا وان المرأب انكسرت بهم في ساحل عكا ونهب الفرنج كل ما فيه ولم يصلوا الى دمشق الا بأنفسهم وان عتقك الافرنج أعطاهم خمسمائة ديناراً صلحوا منها حالهم وأكثروا ظهر الى دمشق قال أسامة

الى الله أشكو فرقة دمت لهما * جفون واذكت بالهموم ضميري
تمادت الى ان لاذت النفس بالمني * وطارت بها الاشواق كل مطير
فلما قضى الله اللقاء تعبرضت * مساء دهرى في طريق سروري

(فصل) قال أبو يعلى وفي آخر ربيع الأول وصل الامير محمد الدين أبو بكر محمد نائب نور الدين في حلب الى دمشق عقيب عودته من الحج وأقام أياماً عاد الى منصبه في حلب وتدير اعمالها قلفت مجد الدين هذا هو ابن النابية وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى اخوته وسبكر ذكرهم في هذا الكتاب ومجد الدين أكبر اخوته وقد مدحه الشعراء قال القيسراني من بعض ما قاله فيه

دعوا ماضى من قبل هذا المابعد * فاقسم لولا المجد ما عرف المجد
كريم سمع أوصافه لمع فاته * ترى ان كل اثنين بينهما عقد
محياه والبشرى ويمناه والندى * ونجواه والدنيا وتقواه والزهد
ففي قسره الزلنى وفي وعده الغنى * وفي نيله الحسنى وفي رأيه الرشـد
أدواجه نور الدين قابل مجده * فقل في كمال البدر قابله السعد

وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرميين هاشم بن فتيته وولى الحرميين ابنه قاسم بن هاشم وهو الذي أرسل عمارة الجيني الفقيه الشاعر الى الديار المصرية وسبأ في ذكره قال أبو يعلى وفي ثامن جمادى الأولى ورد الخبر من ناحية مصر أن عدّة وافرة من مرأب الفرنج من صفية وصلت الى مدينة تنيس على حين غفلة من أهلها فوجهت عليها وقتلت وأسرت وسببت ونهبت وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام وتركتها صفرا وبعد ذلك عاد من كان هرب منها في البحر بعد الحادثة ومن سلم واختفى وضاعت الصدور عند اجتماع هذا الخبر المكروه فان في شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة القاضي فخر الدين أبي منصور محمد بن عبد الصمد بن الطرسوسي وكان ذاهمة ماضية وبقطة ومهروة ظاهرة في داره وولده ومن يلبه من غرب ووافد وقد نفذ أمره وتصرفه في اعمال حلب في الايام النورية وأثر في الوقوف أثر احسانا توفّر به ارتفاعها ثم اعترل عن ذلك أجد اعترال

(ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة) ففيها تسلم نور الدين بعلبك من واليهاضاك ذكر ابن الاثير ان ذلك كان في سنة اثنين وخمسين وقال كان ضحك البقاى ينوب بعلبك عن صاحب دمشق فلما ملك نير الدين دمشق امتنع ضحك بها ولم يكن نور الدين محاصرتها لقره من الفرنج فلطف الحال معه الى ذلك الوقت فلما كها واستولى عليها وقال ابن أبي طى لما فزع نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب فكتب نور الدين في تسليم بعلبك فانفذ اليه ونسبها منه وألقه بها بصاحبه قال ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر ان مجبر الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة وجعله في البلد وولى القلعة رجلا يقال له ضحك فلما ملك نور الدين دمشق خرج الى بعلبك واستنزل منها ضحاكا

كتاب (١٠٠) الروضتين

وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين فأقطعه أقطاعا وسره إلى دمشق فأقام فيها وردنظر دمشق إليه وولى ولده نور انشاء شحنة دمشق فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن توفي فولى صلاح الدين شحنة دمشق قلت هذا وهم نور انشاء هو الملك المعظم شمس الدولة الذي فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين فكيف يقول أنه مات قبل أن يلى صلاح الدين شحنة دمشق وأما كونه ولي الشحنة بدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب وقد رأيت ما يؤكده قرأت في ديوان العرقله وقال يهنييه بالشحنة بدمشق وهو في دار عمه أسد الدين شيركوه بن شاذي قلب لحسانك زيد وأفي الحسد * قد سكن الدار وقد حاز البلد لا تجسوا أن حبل دار عمه * اما تحل الشمس في برج الاسد وقال في صلاح الدين لما ولي الشحنة

لصوص الشام تو بوا من ذنوب * تكفرها العقوبة والصفاد
لئن كان الفساد لكم صلاحا * فولاى الصلاح لكم فساد
وله فيه أيضا

رويدكم بالصوص الشمام إلى لكم ناصح في مقال
واياكم وسمى النبي يوسف رب المحي والجمال
فذا لمقطع أبدى الناساء وهذا مقطم أبدى الرجال

قال ابن أبي طي وولى صلاح الدين شحنة دمشق والديوان فأقام فيه أياما ثم تركه وصارا إلى حلب لأجل واقعة جرت بينه وبين صاحب الديوان أبي سالم همام فانهذ نور الدين وأخذ ابن همام وحلق لحيته وطيف به في دمشق قلت وابن همام هذا هو الذي ذكره الشافعي في قصيدته وأشار إلى حلق لحيته بقوله

كأبي سالم بن همام لما * قام للنصح عاديشي ملثم

ثم قال ابن أبي طي واستخص نور الدين صلاح الدين وألقه بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر وكان يفوق الناس جميعا في لعب الكرة وكان نورا الدين يحب لعب الكرة قال أبو يعلى ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصة بالملك فليج أرسلان بن الملك مسعود بن سليمان بن قبيش ملك قونية وما والاها فلك عدة من قلاعها وحصونها بالسيف والامان وكان الملك فليج أرسلان وأخواه ذر النون ودولات مشتغلين بحاربة أولاد الدانكشند ونصروا عليهم في وقعة كانت باقصرافى شعبان فلما عاد فليج أرسلان وعرف ما كان من نور الدين في بلاده عظم عليه هذا الامر واستبدع مع ما بينهما من الموادعة والمهادنة والصحير وراسله بالمكانة والانكار والوعيد والتهديد فاجابه نور الدين بحسن الاعتذار وجعل المقال وبقى الامر بينهما مستمرا على هذه الحال وعاد نور الدين من حلب إلى دمشق فال وولى الاسطول المصرى مقدم شديد البأس بصير بأشغال البحر فاختر جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفريج والبسهم ثيابهم ونضهم في عدة من المراكب الاسطولية وأقطع في البحر لكشف الاماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرف أحوالها ثم قصد منها صور وقد ذكر له أن فيه مخبورة رومية كبيرة فيها رجال كثير ومال واخرة فجمع عليها وملكها وقتل وأسر واتهب وعاد مصر بالغنائم والأسرى قلت وفي هذه السنة ورد أمر الخليفة ببغداد وهو الملقب إلى أمير الحرمين فاسم بن هاشم بأمره أن يركب على باب الكعبة المكرمة باب ساج حديدا قد ألبس جميع خشبه فضة وطلّى بذهب وان يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه ويسير إليه خشب الباب ألقديم مجرد اليعلة تاو تابند فيه عند دموته وذكر ذلك الشاعر وقال سألتني أمير الحرمين أن ايسع له الفضة التي أخذها من الباب في اليمن ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم فتوجهت إلى زيد وعدت من مكة في صفر سنة احدى وخمسين وحججت في الموسم منها فدفع لى أمير الحرمين ماله والزمنى الترسل عنه إلى مصر يعنى مرة ثانية بسبب جنابة جناها خدمه على حاج مصر والشام

ثم دخلت سنة احدى وخمسين وخمسمائة * قال ابن الاثير فيها حاصر نور الدين قلعة حارم وهي حصن غرنى

في أخبار (١٠١) الدولتين

حلب بالقرب من انطاكية وضيق على أهلها وهي من أمنع الحصون وأحصنها في غور المسلمين فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد وسار وانحوله معه وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون الى رأيه فأرسل اليهم يعرفهم قوتهم وانهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة ويشير عليهم بالمطاوله وترك اللقاء وقال لهم ان لقيتوه هنكم وأخذنا حرم وغيرها وان حفظتم أنفسكم منه أطلقنا الامة متناع عليه فنعلموا ما أشار به عليهم وراسلوا وزير الدين في الصلح على ان يعطوه حصنة من حرم فأبى أن يبيعهم الا على مناصفة الولاية فأجابوه الى ذلك فصالحهم وعادوا في ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدة وذكر أبا تانم قصيدة لابن منير وقد سبق ان ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين فاما ان يكون ابن منير قال هذا الشعر في غير هذه الغزاة واما ان تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة وقد قرأت في ديوان ابن منير وقال مدحه ويهنيه بالعود من غرة حارم

ما فوق شائك في العلى مزداد * فعلا م يلق عزمك الاجداد
هم ضربن على السماء سرادقا * فالشهب اطناب لها وعماد
أت الذي خطبت له حساده * والفضل ما اعترفت به الحساد
قام الدليل وسلم الحصم اليلند * دوانجلى للآثر الاسناد
زهرت لدولتك البلاد فروحها * ارج المهب ودوحها مباد
أحيار بيع العدل ميت ربوعها * فالبرض نجم والحشم مراد
فالعش الآتي جنايك ميتة * والنوم الا في حمالك سهاد
واذا العدى زرعوا التفاق واحصدوا * كيدافعزك ناقض حصاد
بالمقربات كان فوق متونها * جن الملا وكأنها أطواد
تدأى رومن وحى الكجاة صفورها * فالزبر قيسد والندى قياد
سحب اذا سحبت أرض ذيلها * فالخزن سهل والمضاب وهاد
يهدى النواظر في دجنة نفعها * بدر برجرجك نير وقاد
ألبست دين محمد يافوره * عزلا له فوق السها إساءد
مازلت تسمكه ببياد القنا * حتى تنقف عوده المياد
لم يبق مذكأرهفت عزمك دونه * عدد براعه ولا استعداد
ان المنابر لو تطيق تكلمها * جدتك عن خطبائها الاعواد
واثنجت منك الاعادى مهلة * فلهم ألى المرعى الوى معاد
ولكم لكفى أرضهم من مشهد * قامت به نظبا كم الاشهاد
ملق باطراف الفرنجة كدكلا * ظرفاء ضرب صادق وجلاد
حاموا فلما عاينوا حوض الردى * حاموا برائش كيدهم أوكادوا
ورجا البرنس رقد تبرنس ذلة * حرما بحارم والمصاد مصاد
صحت ثعاليه فأخرس جرسها * بيض تناسب في الحديد حداد
وسواعد ضربت بهت وبالقنا * من دون ملة أجد الاسداد
يركزن في حلب ومن اقنانها * تجنى فواكه أمنها بعد اد
يا من اذا عصفت زعازع بأسه * خمدت جحيم الشرك فهو رماد
بجبال القوم حاولوك وحاولوا * عودا فواتاهم اليه مراد
ورأوا الواء النصر فوقك خافقا * فأقام منهم في الضلوع فؤاد
من منك ان ينسف السيل الربا * وأبوه ذلك العارض المسداد
أو ان يغيد الشمس كاسفة السننا * نار لها ذلك الشهاب زنداد

لا ينفع الآباء ما سمكوا من العلياء حتى ترفع الأولاد
ملك يقيد خوفه ورجاؤه * ولقبا تنظافر الاضداد
وقال يهنيه بالنصر يوم حارم قصيدة أولها (الملوك ما تشاء من الدوام) يقول فيها
حظيت من المعالي بالمعالي * ولاذ الناس بعدك بالاسامى
عزير المسمى على المراقى * بعيد المرتقى غالى المسامى
فما أحد الى العلياء يدلى * بمجدهك القسي القسامى
أبوك المعتلى قم الاعادى * اذا استعرت مذامرة القيام
زكاهرق العراق وقد تسكنى * به وأطال من شمم الشام
وجدك جد حتى قال قوم * على الفلك أبتنى عمدا الخيام
نشرت ففت آياه عظاما * اذا فخر المنافر بالعظام
وقفنا والنواظر مسجديات * وروح العز ذارى الختام
أساطر كالزبور مفصلات * كئنا من صلاة فى نظام
لدى ملك سبحانه سجال * تعاقب بين عفو وانتقام
كريم أكثر من يده أباى العفوة * وقلت عدد الكرام
فأهلنا السالف حتى هلال * وكفرنا الضاحكى حسام
ذهلنا والسماط تخال سمطا * وقد سجد المقاول للسلام
هل الست استقل بليث غاب * أم الفلك ارتدى بدر التمام
يطربه الى العلياء نفس * غروب عن ملاءمة الملام
وخير سماعة ضرب مدام * اذا طرب المسلول الى المدام
سقى الله العوامل من جبال * سغن النفع عن نفع الاوام
فكم انجبت من أمل عقيم * بها وحمت من داء عقام
بآب والرعاع كان ثولا * تطاوح تحت غير من ايام
مقام كنت قطب رجاه أرجى * مقام بين زمزم والمقام
رهينهم بار عن مرجح * ابارهم وكنت أبر رام
وقت وقد تناعس كل راع * وقام وقد تناعس كل حام
فايدى الخيل نذرع بحرج * من الدم من يد التشنج طام
أحلت الدين فيه وكان هما * عزير القوم مع تبدل القوام
وفى شجر اعارم شاجرتهم * سواهم كالسهم بكالسهام
فلوقدمثل الاسلام شخصا * لشف ما وطمثت من السلام
فاكذب مدعين هقوا وغزوا * بان الارض تخلو من همام
أولى الابصاركم هذا التعاشى * عن النور المبين بل التعامى
عن القمر الذى يحلوه ظل العواصم فى ضيا الليل النهاى
هو المهدى لامن ضل فيه * كثير واستخف سوى هشام
وقائم عصرنا لا ما يسنى * به من صوغ أضغاث المنام
بنور الدين أنشر كل حق * أطيل ثوابه تحت الرجام
وطالت قبة الاسلام حتى استوت بين الفوارس والنعام

تطابق لاسمه لفظ ومعنى * أحله الطباقي على الانام
جري قدومه ابن سبكتين * وقبل الويل هيمنة الرهام
وكان من النجوم بحيث توى * اليه من عنابات التكاوي
وجئت فصار أشمخ ما بناء * لما شيدت الطامن رغام
أطاعك اذا طعت الله جدد * ركبته الزمان بلا زمام
ألا ياربما اتفق الاسماي * وفاضل بينها درج التسامى
جنى شرفا من استغواء حنف * اليك وكم حياة من حمام
ترشفك الحكمة وأنت موت * كأنك من طعان في طعام

(فصل) قال الرئيس أبو يعلى توجه نور الدين الى ناحية حلب في بعض عسكره في الرابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج اليه بعينهم في أعمال حلب وافسادهم وعمادة في طريقه بالمشر بظفر عسكره الحلبى بالافرنج المفسدين على حارم وقتل جماعة منهم وأسرهم ووصل مع المشرعة وافر من رؤس الافرنج المذكورين وطيف بها في دمشق قال وعاد نور الدين الى دمشق في بعض أيام رمضان سالنا بعد تذبذب حلب واعمالها وتنفذ أحوالها واستقرت المارادة بينه وبين ولد السلطان مسعود صاحب قونية وزال ما كان حدث بينهما وفي سؤال تقررت المارادة والمهادنة بينه وبين ذلك الافرنج مدة سنة كاملة وألها شعبان وان المقاطعة المحجولة اليهم من دمشق ثمانية ألف دينار صورية وكتبت الموصفة بذلك بعد تأكيدها باليمان والمواثيق المشددة قال وفي العشر الاخر من ذي الحجة غدر الفرنج ونقضوا ما كان استقر من المارادة والمهادنة بحكم وصول عدة وكفرة من الفرنج في البحر وقوة شوكتهم بهم ونهضوا الى ناحية الشعواء المجاورة لانياس وقد اجتمع فيها من جشارات خيول العسكرة والارعية وعوامل فلاحى الضياع ومواشي الخلاين والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي لا يحصى فيذكر الحاجة الى الرعى بها والسكون الى الهدنة المستقرة ووقع للندوين بحفظه اتقصير فانهزوا والفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه وأفقروا أهلهم منه مع أسرهم من تركان وغيرهم وعادوا غائمين ظافرين آمنين والله عادل في حكمه يتولى المكافأة لهم والادالة منهم وقد نعل سبحانه ذلك على ما سيأتى في حوادث السنة الآتية وفيها توفي القاضي أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس كاتب الانشاء بالحضرة المصرية وأصله من دمياط ذكره النعماد الكاتب في الحريدة وأثنى عليه ومن شعره في رجل كان يكثر التكبير في آخر الصلاة

وفاتر الزينة عتبتها * مع كثرة الرعدة والحمة
مكبر سبعين في مرة * كأنه صلى على حمزة
وله في وصف كتاب

مداده في الطرس لم يدا * قبله الصب ومن يزهد
كأنما قد حل فيه اللما * أوزاب فيه الحجر الأسود

وبلغني ان القاضي الفاضل كان بعظمه كثير اوسميه هذا البلاغتين وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه وكان لا يتمكن من اقتباس فوائده غالب الا في ركوبه من القصر الى منزله بمصر ومن منزله الى القصر فيساير الفاضل ويجاربه في فنون الكتابة والآداب والشعر قال وفيما في يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الاول من هذه السنة توفي الفقيه الزاهد أبو البيان بن أحمد المعروف بابن الحوراني وكان حسن الطريقة مدتاً صبياً ان قضى متديناً تقيا عفيفاً سخيّاً محباً للعلم والآداب والمطالعة للغة العرب وكان له عند خروج سريره لقبه في مقابر الباب الصغير المجاورة لبقبور الصحابة من الشهداء رضى الله عنهم يوم مشهور ومن كثرة المتأسفين له والمتنين عليه قلت وفي هذه السنة والى بعدها كثرت الزلازل بالشام قال أبو يعلى في ليلة الثاني والعشرين من ربيع الاول واغتزلت له هائلة وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار وفي الابل ثم جاء بعد ذلك ثلاث دونهن بحيث أحصيت ست مرات وفي ليلة الخامس والعشرين منها جاء زلزاله ارتاع الناس منها في أول النهار وآخره وتواصلت الاخبار من ناحية حلب وجاءها بتهدام مواضع

كثيرة وانهدام برج من أبراج اقامية بهذه الزلازل المباركة وذكر ان الذي أحصى عدده منها تقدر الاربعين وما عرف مثل ذلك في السنين الماضية والاعصار الخالية وفي التساع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار وبالليل ثمانية في آخره وفي أول شهر رمضان زلزلة مريعة وثانية وثالثة وفي ثالث رمضان ثلاث زلازل وأخرى وقت الظهر وأخرى هائلة أبقت النيام وروعت القلوب انتصاف الليل وفي ليلة نصف رمضان زلزلة هائلة أعظم مما سبق وعند الصباح أخرى وفي الليلة التي يليها زلزلتان أولها وآخرها وفي اليوم الذي بعدهما وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مريعة وفي ثاني شوال زلزلة أعظم مما تقدم وفي سابعه وسادس عشره وفي اليوم الذي جاء بعده أربع زلازل و ليلة الساني والعشرين منه ودفع الله تعالى عن دمشق وضواحيها ما خاف أهلها من نوال ذلك وتتابعه برأفته بهم ورحمته لهم فله الحمد والشكر لكن وردت الاخبار من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها وانهدام مساكنها وأما شيرخان الكثير من مساكنها انهدم على سكانه بحيث قتل منهم العدد الكثير وأما كفرطاب فهرب أهلها منها خوفا على أرواحهم وأما حماة فكانت كذلك وأما باقي الاعمال الشامية فما عرف ما حدث فيها من هذه القدرة الباهرة والله أعلم (ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة) ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلزلة عظيمة وتلاها أخرى وكذا في ليلة العشرين واليوم بعدها وتواصلت الاخبار من الشام بعظيم تأثير هذه الزلازل وفي ليلة الخامس والعشرين من جمادى الاولى وافت أربع زلازل وضج الناس بالتهليل والتسبيح والتقديس وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان وترادفت الاخبار من ناحية الشمال بأن هذه الزلازل أثرت في حلب تأثيرا أعرج أهلها وأقلقهم وكذا في حصص وهدمت مواضع فيها وفي حماد وكفرطاب واقامية وهدمت ما كان بنى من مهدوم الزلازل وحكى ان تيمنا اثرت فيها هذه الزلازل تأثيرا مهولا وفي رابع رجب نهارا وافت بدمشق زلزلة عظيمة لم يزل فيها فيما تقدم ودامت رجفانها حتى خاف الناس على أنفسهم ومنازلهم وهر بوا من الدور والسقائف وانزعجوا وأثرت في مواضع كثيرة ورومت من فص الجامع الشيء الكثير الذي يجزى عن اعادته ثم وافت عقيمية زلزلة في الحال ثم سكنتا بقدرته من حركتهما تسع ذلك في أول ليلة اليوم المذكور زلزلة وفي وسطه زلزلة وفي آخره زلزلة وفي ليلة الجمعة نامن رجب زلزلة مهولة أثرت في الناس وتلاها في النصف منها ثمانية وعند انبلاج الصبح ثالثة وكذلك في ليلة السبت وليله الاحد وليلة الاثنين وتابعت بعد ذلك بما يطول به الشرح ووردت الاخبار من ناحية الشمال بما يسوء سماعه ويرعب النفوس ذكره بحيث انهدمت حماه وقلعتها وسائر دورها ومنازلها على أهلها من الشيوخ والشبان والاطفال والنسوان وهم العدد الكثير والجمل الغفير بحيث لم يسلم منهم الا القليل اليسير وأما شيرخان وبغها سلم الا ما كان خرب أولا وأما حصنها المشهور فانه انهدم على واليهابا الدولة بن أبي العساكر بن منقذ ومن تبعه الا اليسير ممن كان خارجا وأما حصن فان أهلها كانوا قد اختلفوا منها الى ظاهرها فلم يروا وتلفت مساكنهم وتلفت قلعتها وأما حلب فهدمت بعض دورها وخرج أهلها منها الى ظاهر البلد وكفرطاب واقامية وما والاها ودانها وما بعدهن من الحصون والمعاقل الى جبله ترجيل وأتلفت سلمية وما اتصل بها الى ناحية الرجة وما جاورها ولولم يدرك العباد والبلاد درجة الله تعالى وطفه ورأفته لكان الخطب أقنطع وقد نظم في ذلك من قال

رؤعتنا زلازل حادثات * بقضاء قضاء رب السماء
هدمت حصن شير وجماعة * أهلكت أهلها بسوء القضاء
وبلاد كثيرة وحصونا * ونغوراموشات البناء
واذا مارنت عيون اليها * أجرت الدمع عندها بالدماء
واذا ماقتني من الله أمر * سابقي في عبادته بالمضاء
حار قلب اليب فيه ومن كا * ن له فطنة وحسن ذكاء
وزاه مسجدا بأكى العيسر * من وعامن مسخرة بلاء
جبل ربى في ملكه وتعالى * عن مقال الجهال والسفهاء

في اخبار (١٠٥) الدولتين

قال وأما أهل دمشق فلما وقعهم الزلزلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها وأجفلوا من منازلهم والاماكن المسقفة الى الجامع والاماكن الخالية من البنيان خوفا على أنفسهم ووافت بعد ذلك أخرى ففتح البلد وخرج الناس الى ظاهره والبساتين والصحراء وأقاموا عذة لئلا يأثم على الخوف والجزع يسبحون ويهللون ويرغبون الى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم قال وفي الرابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة عظيمة رعت الناس وأزعجتهم الموضع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشام من تتابع الزلازل فيها ووافت الاخبار من ناحية حلب بأن هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقت من دورها وجد رانها العدد الكثير وانها كانت بجاه أعظم مما كانت في غيرها وانها هدمت ما كان عرفها من بيوت تلجئ اليها وانها دامت فيها أياما كثيرة في كل يوم عذة وافرة من الرجفات الهائلة تتبعها صيحات مختلفات توفى على أصوات الرعود القاصفة المترجعة فسبحان من له الحكم والامر وتلا ذلك ردقات متوالية أخف من غيرهن فلما كان ليلة السبت العاشر من شوال وافت زلزلة هائلة بعد صلاة العشاء آخرها زعجت وأقلقت وتلاها في أثرها زلزلة خفيفة وكذا في ليلة العاشر من ذي القعدة وفي غدها زلازل وليلة الثالث والعشرين والخامس والعشرين منه أيضا زلازل نفر الناس من هولها الى الجامع والاماكن المنكشة وضجوا بالبكاء والكبر والتهليل والتسبيح والدعاء والتضرع الى الله تعالى وفي يوم الجمعة انسلخ ذي القعدة وافت زلزلة رجفت لها الارض وازعج لها الناس وقال ابن الاثير في سنة اثنتين وخسين كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة آخرت البلاد واهلكت العباد وكان أشد هاجد بئس جهاد وحسن شيز رافهم ما خبر بالآفة وكذا ما جاورها تحصن باريين والمعزة وغيرهما من البلاد والقرايا وهلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصىه الا الله تعالى وهذه من الاسوار والدور والقلاع ولان الله تعالى من على المسكين بنور الدين جمع وحفظ البلاد والا كان دخلها الا فرج بغير حصار ولا قتال قال ولقد بلغني من كثرة الهلكى ان بعض المعلمين بجاه ذكر انه فارق المكتب لمهم فجاءت الزلزلة فآخرت الدور وسقط المكتب على الصبيان جميعه قال المعلم فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب قلت وقرأت في ديوان الامير القاضى مؤيد الدولة أسامة بن مرشد من نقد وقال في الزلازل التي اهلكت كثيرا من أهل الشام وكان ابتدأها في شهر الله رجب سنة احدى وخسين وخمسائة وهلك بها من هلك من الخلق وكان نحو ما من عشرة آلاف نسمة قال وكتب هذا المکتوب والزلازل الى الآن تتعاهد البلاد

فمناع الموت والمعادوا أصبحنا نأظن اليقين احلاما

فكرتنا هذى الزلازل أى * تيقظوا لكم يناتم ناما

وقال أيضا

ايها الغافلون عن سكر الملو * ت واذ لا يسوغ في الخلق ريق

كم الى كم هذا التشاغل والغفلة * لته حار السارى وضل الطريق

انما هزت الزلازل هذى السرى * لرض بالغافلين كي يستيقظوا

وقال في الزلازل أيضا وقد سكن الناس بعد الدور والزهرة في أكوخ عملوها بالاحشاب لئلا تهدها الزلازل

بأرحم الراحمين ارحم عبادك من * هذى الزلازل فهى الهلك والطب

ما جت بهم أرهم حتى كأنهم * ركاب ببحر مع الانفاس يضطرب

فمنهم هلكوا فيها ونصفهم * لمصرع السلف الماضين يرتب

تعوضوا من مشيدات المنازل بالأكواخ فهى قبور سقفاها خشب

كأنها سفن قد أقبلت وهم * فيها فلا لمجانها ولا هرب

وقال يرى أهل الذين هلكوا بالزلازل يحصن شيز رصيدة منها

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم * ولا تخرمهم متى ووجدنا

فكنبت اصبر عنهم صبر محتسب * وأجد الخطيب فيهم عز اوهنا

واقندى بالورى قبلى فكيف فقدوا * أنا وكفار قوا أهلا وجيرانا

كتاب (١٠٦) الروضتين

لكن سقيمت المنايا وسط جمعهم * رغا فروا على الاذقان اذعانا
 وفاجأتهم من الايام قارعة * سقتهم بكمؤوس الموت ذبقانا
 ماتوا جميعا كرجع الطرف وانقروا * هل ما ترى تارك للحين انسانا
 اعزز على بهم من معشر صبروا * على الحفيظة ان ذلولثة لانا
 لم يترك الدهر لك من بعد قد هم * قلبا أجسده صبرا وسألونا
 فلورأوني لقالوا مات أسعدنا * وعاش اللهم والاخزان اشقانا
 لم يترك الموت منهم من يجبرني * عنهم فيوضح ما قالوه تيبانا
 بادوا جميعا وما شادوا فواجبا * للخطب أهلك عمارا وعمرانا
 هذى قصوهم أمست قبورهم * كذلك كانوا بها من قبل سكانا
 وبع الزلازل أفتت معشري فادا * ذكرتهم خلتي في القوم سكرانا
 لا التقي الدهر من بعد الزلازل ما * حيث الا كسر القلب حيرانا
 أختت على معشري الادنين فاصطلت * منهم كولا وشبانا ولدانا
 لم يحجم حصنهم منها ولا رهبت * بأساب دره الاقران ازمانا
 ان اقترت شيزر منهم فهم جعلوا * منيع اسوارها يضا وخرسانا
 هم جوها فلوشاهدتهم وهم * بها شاهدت اسادا وخفانا
 تراهم في الوري أسدا ويوم ندى * غيثا مغينا وفي الظلماء رهبانا
 بنوأي وبنو عى دمي دمهم * وان أروني مناواة وشنأنا
 يطيب النفس عنهم انهم رحلوا * وخلفوني على الآثار عجلانا

وكتب اليه الصالح بن رزيك قصيدة يعز يد عن أهلها منها

باني شخصك الذي لا يغيب * عن عياني فهو البعيد القريب
 يا خلاي بالشام ان غبتكم فشوق اليكم لا يغيب
 غصبتنا الايام قربكم من اولاد ان ترد الغصوب
 كره الشام أهله فهو محقو * ق بأن لا يقيم فيه ليب
 ان تجلت عنه الحروب قليلا * خلقتما زلازل وخطوب
 رقعت ارضه عشية غنى السرعد في الجؤوالكريم طروب
 وثبتت حيطه انه اذا مالت هاشمال بزمرها وجنوب
 لاهبوب لنا من أمانيه وللعاصفات فيها هبوب
 وأرى البرق شامتا ضاحك السن والجؤو بالخم قطوب
 ذكروا انه يذوب به السحاب فما للصخور أيضا ذوب
 أذنب أصابها قدرا لله فلا ارض كالانام ذنوب
 ان ظني والظن مثل سهام السرعى منها المخطي ومنها المصيب
 ان هذا لأن غدت ساحة القد * س وما للاسلام فيها نصيب
 منزل الوحي قبل بعث رسول الله فهو المحجوج والمحجوب
 نزلت وسطه الخنازير والنجس وبارى الناقوس فيه الصليب
 لوراء المسج لم يرض فعلا * ذكروا انه له منسوب
 لطف نفسي على ديار من السكان أوت فليس فيها محجوب
 ان تخصبكم نواذب مازا * لتلكم دون من سواكم تنوب

في أخبار (١٠٧) الدولتين

أبعد الناس عن عبادة رب الناس قوم الالههم مصلوب
فاحتسب ما أصاب قومك محمد الدين واصبر فالخالدات ضروب
فكذلك الفناء يكسر يوم السروع منها صدر وتبقى الكعوب

وقرأت في ديوان العرقله كان المولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عبيد غلام المولى وكان عبيده هذا موصوفا
بالثقل في بيت بمدينة حماد يوم الزلزلة فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذي حماه فيه فقال العرقله
قل لصلاح الدين رب الندى * بلغ عبيدا كل ما أمله
بنقله لما نضاجمه * سلمك الله من الزلزلة

وقرأت في بعض كتب أبي الحسين الرازي عن شيوخه انه وقع بدمشق في ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين
زلازل عظيمة حكى عنها نحو مما مضى ذكره وأكثر نسال الله تعالى تمام العافية

(فصل) قال الرئيس أبو يعلى في ثالث عشر ربيع الأول توجه نور الدين الى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها
وتقرير أمر المستحقين لها وتواصلت الاخبار من ناحية حصن وحماد باغارة الفرنج الملاعين على تلك الاعمال وفي
خامس عشر ربيع الأول ورد المبشر من العسكر المنصور برأس الماء بأن ناصر الدين أمير أميران لما انتهى اليه خبر
الفرنج انهم قد انهمضوا سرية وافرة العدد الى ناحية بانياس لتقويتها أسرع النهضة اليهم وعدتهم سبع مائة فارس سوى
الرجال فآذركم قبل الوصول الى بانياس وقد خرج اليهم من كان فيهم من حاتمها فأتعهم وقد كان كن لهم في مواضع
كننا من شجعان الانزانة واندفع المسلمون بين أيديهم في أول المجال وظهر عليهم الكنافة فأرسل الله نصره على المسلمين
بحيث لم ينبغ منهم الا القليل وصاروا بأجمعهم بين قتل وجرح ومسلوب وأسير وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم
وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤس قتلهم ما لا يحصى وكثرت ومجقت السيوف عامرة رجالهم من الافرنج ومسلو جبل
عامة المضامين اليهم ووصلت الاسرى ورؤس القتل والعدد الى دمشق وطيف بهم وقد اجتمع لمشاهدتهم الحلق
وكان يوم ما مشهودا وانفذ نور الدين الى بعلبك جماعة من أسرى المشركين فأمر بضرب أعناقهم صبرا قال وتبع
هذا الفتح ورود البشرى الثانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير اليه من شجعان التركان وأنه قد ظفر من المشركين
بسرية وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال فانهمزمت وتحطفت التركان منهم من ظفروا به قال ووصل أسد
الدين الى بعلبك في العسكر من مقدى التركان وابطالهم للجهاد وهم في العدد الكثير والجسم الغفير واجتمعوا بنور الدين
وتقرر الحال على قصد بلاد المشركين لتدبيرها والابتداء بالنزول على بانياس وقدم نور الدين دمشق في اخراج
آلات الحروب وتجهيزها الى العسكر بحيث يقيم اياما بسيرة ويتوجه وأمر بالبدء بدمشق في الغزاة والمجاهدين فتبعه
من الاحداث والمطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول وفي
سابع ربيع الآخر عقبت نزول نور الدين على بانياس ومضاهيته لها بالمجنبيات والحرب سقط بدمشق الطائر من
العسكر المنصور بظاهر بانياس يتضمن كتابة الاعلام بورد المبشر من معسكر أسد الدين باحذية هونين في التركان
والعرب بأن الافرنج خذلهم الله تعالى انهضوا سرية من أعيان مقدمهم وابطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم
لكبس المذكورين ظننا منهم بأنهم في قل ولم يعلموا منهم في ألوف فلما دنا منهم وثبوا اليهم كاللبيث الى فراشها فاطبقوا
عليهم بالقتل والاسر والسلب ولم يبق منهم الا اليسير ووصلت الاسرى ورؤس القتل وعددهم من الخيول المنخبة
والطوارق والقطاربات الى دمشق وطيف بهم فيه يوم الاثنين تالي اليوم المذكور قال وتلاه هذه الموهبة المتحدة
سقوط الطائر من العسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء تالي المذكور يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف فها على
مضى أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور عند تنهاى النقب واطلاق النار فيه يسقط البرج المنقوب وهجوم
الرجال فيه وبذل السيف في قتل من فيه غيب ما حواه وانزاع من سلم الى القلعة وانحصارهم بها وان أخذهم بمشقة الله
تعالى لا يبطئ والله يسلمه ويجهله قال واتفق بعد ذلك ان الفرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنقري
صاحب بانياس ومن معه من أصحابه المحصورين بقعة بانياس وقد أشر فاعلى الهلاك وبادر واو القوا في السؤال
لنور الدين الامان ويسلون ما في أيديهم من القلعة وما حوته ليجبوا سالين فلم يجهم الى ما سألوه ورغبوا فيه فلما وصل

مكتاب (١٠٨) الروضتين

ملك الافرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازل على بانياس لحصارها والنازل على الطريق لمنع الواصل اليها اقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا اليها واستخلصوا من كان فيها وحين شاهدوا ما عم بانياس من اضرار سورها ومنازل سكانها يتسوا من عمارتها بعد خرابها قال وفي تاسع جمادى الاولى سقطت الاطيار بالكتب من المعسكر النوري تتضمن الاعلام بأن الملك العادل نور الدين أعز الله نصره لمبا عرف أن معسكر الكفرة الافرنج على الملاحيتين طبرية وبانياس نهض في عسكره المنصور من الاتراك والعرب ووجد في السير فلما شارفهم وهم غيارون وشاهدوا رايته قد أظلمت بمادر ولبس السلاح والركوب واقتربوا أربع فرق وحلوا على المسلمين فعد ذلك ترجل الملك العادل نور الدين فترجلت معه الابطال وارهقهم بالسهم وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الاقدام ودهمهم البوار والحمام فأنزله الله نصره على المسلمين وتمكروا من فرسانهم قتلوا وأسروا واستأصلت السيوف الرجال وهم العدد الكثير فلم يفلت منهم غير عشرة نفر وقيل ان ملكهم لعنه الله فيهم وقيل انه في جملة القتلى ولم يعرف له خبر ولم يفقد من عسكر الاسلام سوى رجلين أحدهما من الابطال المذكورين وقتل عند حضور أجله الى رحمة الله والآخر غريب لا يعرف وكل منهما مضى شهيدا مثابا مأجورا رحمة الله وقتل أربعة من شجعان الكفرة وامتلأت أيدي العساكر من خيولهم وعددهم وكرامتهم وأنات سوادهم وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بالانتهاء المشهورة وكان فتحا مبيد ونصر اعز راو وصلت الاسرى ورؤس القتلى الى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح وقدرت بوا على كل جل فارسين من ابطالهم ومعهم اربعة من راياتهم منشورة وفيها من جلود رؤسهم بشعرها عتة والمقدمون منهم وولاة المعاقل والاعمال كل واحد منهم على فرس وعليه الزرديّة والخوذة وفي يده راية والرجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في جبل وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يحصى لهم عدد من الشيوخ والشبان والنساء والصبيان لما شاهدوه من ما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المبين وأكثر واشكر الله تعالى والدعاء لنور الدين المحامي عنهم المرامي دونهم والثناء على مكارمه والوصف لحاسنه ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى

مارأيتا فيما تقـدم يوما * كامل الحسن غاية في البهاء
مثل يوم الفرج حين علمتهم * ذلة الاسر والبلاء والقضاء
وبراياتهم على العدى زفوا * بين ذل وحسرة وعناء
بعد عز لهم وهيبة ذكر * في مصافى الحروب والهياء
هكذا هكذا هلاك الاعداء * عند شئ الاغارة السعواء
شؤم أخذ الجسار كان وبالا * عنهم في صباحهم والمساء
نقضوا هدنة الصلاح بجهل * بعدئا كيدها بحسن الوفاء
فاقوا بغيبهم بما كان منهم * من فساد بجهلهم واعتداء
لاحى الله شملهم من شتات * بمواض تفوق حد المضاء
جزاء الكفور قتل وأسرى * وجزاء الشكور خير الجزاء
ولرب العباد حمد وشكر * دائم مع تواصل النعماء

قال وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتلكها وتدوينها والله المعين والموفق وقال ابن أبي طي في سنة اثنتين وخمسين أغارت الفرنج على بلد حص وجماء وأفسدوا وأكثروا الغيث واتصل ذلك بنور الدين فانهض اليهم عسكرا كثيفا فأوقع بهم وهزمهم الى أرض بانياس وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس وحاصرها أشد حصارا حتى اقتحمتها في الثامن والعشرين من ربيع الاول وأخذ جميع ما كان للفرنج فيها وأنفذ النجعة والاسارى مع أسد الدين الى دمشق وأنفذ معه مقدار ألف رأس واتصل ذلك بالفرنج فانهضت الى معارضة أسد الدين قطعة من خيالتها واتصل هذا بأسد الدين وقدرهته الفرنج فلبس لامتة وتقدم في جماعة من محاليكه بين يدي العسكر وأمر الرجال ببقاء الفرنج وناجزهم الحرب فلم يتحسروا بين يديه ورجعوا على أدبارهم وتبعهم مقدار فرسخين يقتل ويأسروا وغنم منهم غنيمة حسنة وعاد الى

أصحابه ظافرا وتوجه في وجهته مؤيدا

(فصل ١٠) قال الرئيس أبو يعلى وفي العشر الثاني من حادي الآخرة تواصلت الاخبار بوصول ولد السلطان مسعود في خلق كثير للزول على انطاكية وأوجبت الصورة تقرير المهادنة بين نور الدين وملك الأفرنج وتكررت المراسلات بينهما والاقترحات والمشاكرات بحيث فسد الامر ولم يستقر على مصلحة ووصل نور الدين الى مقر عزه في بعض عسكره وأقر باقيه ومقدمه مع العرب بازاء أعمال المشركين قال وفي ثالث رجب توجه نور الدين الى ناحية حلب واعمالها التجديد مشاهدتها وامعان النظر في حمايتها عند ما عاث المشركون فيها وقرت عساكر الملك ابن مسعود منها قال بعد ذلك وقد تقدم من ذكر نور الدين ونهوضه في عساكره من دمشق الى بلاد الشام عند انتهاء الخبر اليه بتجمع أحزاب الفرنج خذلهم الله وقصدهم لها وطعمهم بحكم ما حدث من الزلازل والرجفات المتتابعة لها وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في اعمالها ونغورها لمجايتها والذب عنها وابناس من سلم من أهل حمص وشيزرو وكفر طاب وجهه وغيره بحيث اجتمع اليهم العدد الكثير والجيش الغفير من رجال المعادل والاعمال والتركمان وخيم بهم بازاء جمع الفرنج بالقرب من انطاكية وحصرهم بحيث لم يقدر فارس منهم على الاقدام على الفساد فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حاد فلما اشتد به وخاف منه على نفسه استدعى أخاه نصره الدين أمير اميران وأسد الدين شيركوه وأعيان الامراء والمقربين وأوصى اليهم بما اقتضاه رأيه واستوصو به وقرر معهم كون أخيه نصره الدين القائم في منصبه من بعده والساد لثمة فقلده لاشتهاره بالشهامة وشدة البأس بكون مقيما بحلب ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصره الدين واستخلف الجماعة على هذه القاعدة فلما تقرر استدبه المرض فتوجه في محفة الى حلب وحصل في قلعتها وتوجه أسد الدين الى دمشق لحفظ اعمالها من فساد الأفرنج وتواصلت الاراجيف بنور الدين فقلقت النفوس وازيجت القلوب فتفرقت جوع المسلمين واضطربت الاعمال وطعم الأفرنج قصدوا مدينة شيزرو وهجموها وحصلوا فيها قتلوا وأسروا ونهبوا ونجح مع من عدة جهات خلق كثير من رجال الاسماعيلية وغيرهم وظهر واعلهم فقتلوا منهم وأخرجوهم من شيزرو واتفق ووصل نصره الدين الى حلب فأغلق والى القلعة محمد الدين في وجهه الابواب وعصى عليه فنارت أحداث حلب وفالوا هذا صاحبنا وما كتبنا بعد أخيه فزحفوا في السلاح الى باب البلد وكسروا اغلاقه ودخل نصره الدين في أصحابه وحصل في البلد وقامت الأحداث على والى القلعة بالهزم والانكار والوعيد واقترحوا على نصره الدين اقتراحات من جلته اعاد رسهم في التأييد بحى على خير العمل بمحمد وعلى خير البشر فأجابهم الى ما رغبوا فيه وأحسن القول لهم والوعود نزل في داره وأنفذ والى القلعة اليه والى الحلبيين يقول مولانا نور الدين حى في نفسه وما كان الى ما فعل حاجة فقبل الذنب في ذلك والى وصعد الى القلعة من شاهد نور الدين حيا يفهم ما يقول وما يقال له فأنكر ما جرى وقال أنا أصفح للأحداث عن هذا الخطل ولا أؤاخذهم بالزلل وما طلبوا الاصلاح حال أخى وولى عهدي من بعدى وشاعت الاخبار وانتشرت البشائر في الاقطار بعافيته فأنست القلوب بعد الاستيحاش وابتهجت النفوس بعد القلق والازعاج وتزايدت العافية وصرفت الهمم الى مكاتبات المتقدمين بالعدو الى جهاد الملاعين وكان نصره الدين قد ولى مدينة حران وما أضيف اليها وتوجه نحوها ولما تناصرت الاخبار بالبشائر الى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزاه على استدعاء العساكر الاسلامية للجهاد سارع بالنهوض من دمشق الى حلب ووصل اليها في خيله فاجتمع بنور الدين فأكرم لقاءه وشكر مسعاه وشرعوا في حياية الاعمال من شرعصب الكفر والضلال قال وتظلمت هذه الايات في هذا المعنى

لقد حسنت صفاتك يا زمانى * وفزت بمارجوت من الامانى
فكبر أصبحت مر تاعا لخوف * فبسلت الخفاة بالامان
وجاءتسا أراجيف بملك * عظيم الشأن مسعود الزمان
فروعت القلوب من البرايا * وصارت شعاعها مثل الجبان
وثارت فتنة تخشى أذاها * على الاسلام في قاص ودان
ووالى بعد ذلك بشير صدق * يعافية المليك مع التمانى

مكتاب (١١٠) الروضتين

فولى الخوف منهدم المباني * وعاد الامن معمر المغاني

قال ابن ابي طي وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شيزن فخرج نور الدين وأخذها من بني منقذ وسلمها الى مجد الدين بن الداية وسار الى سرمين لانه بلغه حركة الفرنج فاعترضه هناك مرض أشفي منه فاحضر شيركوه وأوصاه بالعساكر وان يكون الامر بعده لآخيه نصرة الدين أمير أرمغان فسار أسد الدين الى دمشق وأقام بمرج الصفر خوفا أن يفزعك الفرنج الى جهة دمشق أو غيرهما ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين فعاد الى خدمته مهنته بالعاية وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب في مدة مرض نور الدين فلما آفاق نور الدين من مرضه سيره الى حران وجعل ولى عهده أخاه قطب الدين صاحب الموصل قال وكان مجد الدين طامع في الملك لنفسه فتحزم لامره وتقرب الى الناس وجعل له أصحاب أخبار وشحن الطرقات والسبل بالرجال بتفتيش الخارجين من حلب وغيرها والداخلين إليها فلابن منير ثمشة لنور الدين بالعاية من مرض غير هذا

ياشمس لا كسف ولا تكدار * ولا خلت من نورك الانوار
البدر منقوص وأنت كامل * لك السرايا وله السرار
برؤك للسلام من ادوائه * بر وفي اعداؤه بوار
هأنت الا سيف صد صدأ * عن مثنه مضر به البتار
لو كان محمولا أذى عن منفس * لجلته دونك الابصار
ولو فدت أرض سماء ساقبها * ملوك في فدائك الامصار
أنت غياث محلمهم ان أجذبوا * وخيرهم ان ذكر الخبار
وفي سرير الملك منها ملك * لله في سرائه اسرار
خير ملوك الارض جدا وابا * ان هز عطفى ماجد نجار
مد على الدين رواق دولة * تنازعت أسماؤها السماء
هلت بناء وطلعت في يده * فهى عليه السور والسوار
محمد المجد عصر ملكه * فلحميا من مزنه اعتصار
يا نوردين أظمت آفاقه * لولم تبجل هذه الآثار
لله أيامك ما تخطه * بالمسك من أسفارها الاسفار
سليت للاسلام نزعى سرجه * اذا دنا رعاته وجاروا
شكوت فالدينا على سكانها * قرارة جانبها القرار
كادت تموت الارض من اشفاقها * لولا شفاه ردها غمار
زرت عليك الترك حبيب نسب * يحسدها برنه زار
لا عدت منك الأمانى ريبها * معطى من الاقبال ما ينتار
ما سمع الدهر بان تبقي لنا * فكل جرح مسنا جبار
وله من قصيدة أخرى

لا نؤدى لانم الله شكرا * بك يا أعظم البرية قدرا
روز عشر وافي لاقلاع ذا * جعل المنة المنة عشرة
أم مضناك ضامننا ان أيا * ملك تقنى الاحقاب عصر افصرا
في محمل له السما كان سمك * وجسد ودلها المجرة مجرى
أيما العادل المظفر لا قصت شبها الدهر من شبائك ظفرا
جعل الله ما استعمل من الاشهر ينهل في مغازيك نصرا
أبد ابشر التاني على سا * حثك الزهر في المواسم نشرا

في اخبار (١١١) الدولتين

أنت أسرى الملوكة نفسا وقلبا * والى أسرهم من الطيف أسرى
ملك عنده المشارب تستمرى واخلاف الجود تفرى ففرى
فلك الله من معمر بذر * يصطفي صالحا ويحصد أجرا
عش ملكا أصبحت في الدست منه * فوق كمرى عدلا وشعبا وكسرا
تفطر الطيبات للقطر فطسرا * وتم الاعداء في النحر نعرا
يقتنى من كسالك أنفوس ملبو * سويقنيك منه أطول عسرا
أنت تملى ونحن ننظم ماتنثره الغرم مساعيك نثرا
صرف الله عنك عين زمان * بك صارت بعد الاصابة عبرى
وتوالت لك الفتوح الى ان * تملأ الخافقين نبيا وأمرأ
كلما اتجعت ملابس نعمى * وتلمنهن جددت أخرى

وقال القيسراني من قصيدة

أشرق البدر باجبين الهلال * فخلاه لوجهك المتلال
عن لبال حجين عنا سناها * انما غيبة الهلال ليالي
لم يكن ما ألم يا نجم شكوى * فتنى لوافسد الاقبال
لا ولا كان زائرا من سقام * انما كان طائفا من خيال
وعسكة أقطعت وأنت صحج * وبصح النسيم بالاعتلال
أوما هذه السماء سرار السبدر فبقها على طريق الكمال
نعمته الله لا يخص بها الخنا * لق الا من كان منه سال
ولباس من المثوبة والغفران ألبست صافي الاذيال
فهنيئا لك البقاء وان كا * ن هناه يخص فيه المعالي
والتقى والندى ومعرفة الخيل ويض الظبي وسمر العوالي
والخلال التي اذا ما تحلت * صدرت منك عن كريم الخلال
ان وقتك النفوس ماتتوقى * فحقبق فدى الموالى الموالى
أوتحصنت في شعار من التقوى فازلت منه في سريال
فشفي الله من أجل دوائيه صريح الدعاء والابتهال
ملكا أبدل المخافة بالامن وأضخى بعد في الابدال
وهو تاج الملوكة فالملك العا * طل حال به على ككل حال
واذا التبران غا بافتور الدير شمس جفيرة الاصال
قدأرت وجهك العلى ماير بها * وهى مرآة صالح الاعمال
وقضى الله ان نجبك في الانحسار وان جدك عال
كل يوم هذا المحيا محيى * بالتهانى على يد الاقبال

(فصل) في ذكر حصن شيزر وولاية بني منقذ قال ابن الاثير وهو حصن قريب من حماه بينهما نحو من نصف نهار وهو من أمنع القلاع وأحصنها على حجر عال له طريق منقور في طرف الجبل وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب فاذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود اليه وكان لا ل منقذ الكائنين بنوار ثونه من أيام صالح ابن مرداس الى ان انتهى الامر الى الامير أبى المرحف نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبى الحسن على فبقي به مدة طويلة الى ان مات بشيزر سنة احدى وتسعين وأربعمائة وكان شعبا كريما صواما قواما فلما حضره الموت استخلف أخاه الامير باسلامة بن شاذ بن علي وهو والد أسامة فقال والله لا وليها ولا يخرجني

كتاب (١١٢) الروضتين

من الدنيا كاد خلثها وكان عالما بالقرآن والادب كثير الصلاح فولأها أخاه أبا العساكر سلطان بن علي وكان أصغر منه فاصطحبا أجل محبة مدة من الزمان فولد أبو سلامة من شدة عدة أولاد كور فكبيرا وواسدا ومنهم عز الدولة أبو الحسن علي ومؤيد الدولة أسامة بن مرشد وغسبرها ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى ان كبر فجاهه أولاد ففسد أخاه على ذلك فكان كلما رأى صغرا أولاده وكبرا أولاد أخيه وسيادتهم ساء ذلك وخافهم على أولاده وسعى المفسدون بينهم فغسبروا وكلامها على أخيه فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعرا يعاتبه على أشياء بلغته عنه فأجابها بآيات جيدة في معناها وكاهم كان أدبيا شاعرا فخا

فلو لم أبت في الظلم إلا تماديا * وفي الصد والمجبران الاتناها
شكت هجرنا في ذال والذنب ذنبها * فيا عجبا من ظالم جاء شاكا
وطاوعت الواشين في وطامنا * عصيت عدولا في هواها وواشيا
ومال بهائيه الجمال إلى القفلا * وهيهات أن أمسى لها الدهر قاليا
ولاناس ما أودعت من عهدها * وان هي أبدت جفوة وتناسيا
ولما أتاني من قريضك جوهر * جعلت المعالي فيه لي والمعاني
وكننت هجرت الشعر حين لانه * تولى برغي حين ولي شبانيا
وأين من الستين لفظ مفوق * اذارمت أدنى القول منه هصانيا
وقلت أني برغي بنى وأسرقي * ويحفظ عهدى فيهم وزماني
ويجزهم ما لم أكلفه فعليه * لنفسي فقد أعددت من ثرائيا
فمالك لما انحنى الدهر صعدني * ولمعني صار ما كان ماضيا
تكرت حتى صار برك قسوة * وقربك مني جفوة وتناثيا
فاصبحت صفر الكف مارجونه * كذا اليأس قد عني سبيل رجائيا
على أني ما حلت عما عهدته * ولا غيرت هذي السنون وداديا
فلا غمر وعند الحادثات فاني * أراك تيمسني والانام شماليا
تمن بها عذراء لو قسرت بها * نجوم سماء لم تعد دراريا
تحتل بدر من صفائك زانها * كما زان منظوم اللاكي القوانيا
وعش باننا للبود ما كان واهنا * مشيدامن الاحسان ما كان واهيا

قال وكان الامر فيه في حياة الأمير بعض السرة فلما مات سنة إحدى وثلاثين وخمسائة قاتل اخوه ولا ده ظهر المجن وبادهم بما يسوءهم وتمات الايام بينهم إلى ان قوى عليهم فاخرجهم من شيزروكان أعظم الاسباب في اخراجهم ما حدثت به عن مؤيد الدولة أسامة بن مرشد قال كنت من الشجاعة والاقدام على ما علمه الناس فيينا أنا بشيزرواذا قد أتاني انسان اخبرني ان بدجلة يغار بها أسد اضاربك فركبت فرسي وأخذت سيفي وسرت اليه لا قتله ولم أعلم أحد من الناس لئلا منع من ذلك فلما قربت من الاسد نزلت عن فرسي وربطته ومشيت نحوه فلما رأني قصصني وثب ففترسته بالديق على رأسه فانطلق ثم أجهزت عليه وأخذت رأسه في محلاة فرسي وعدت إلى شيزروا دخلت على والدتي وألقيت الرأس بين يديها وحدها الحال فقالت يا بني تجهز للفرج من شيزروا لله لا يمكنك منك من المقام ولأحد من اخوتك وأنتم على هذه الحال من الاقدام والجرأة فلما كان القصد أمر عني باخراجنهم عنده والزمن به الزاما لمهلة فيه ففترقنا في البلاد فقصدا الملك العادل نور الدين وشكوا اليه ما لقوا من عهم فلم يمكنه قصده ولا الاخذ بشارهم وعادتهم إلى أوطانهم لاشتغاله بجهاد الفرنج وخوفه من ان تسلم شيزروا إلى الفرنج ويق في نفسه وتوفي الأمير سلطان وولي بعده أولاده فبلغ نور الدين عنهم من أسئلة الفرنج فاستدما في نفسه وهو ينتظر الفرصة فلما خربت القلعة بالزلة ولم يسلم منها أحد كان بالحصن فبادر اليها وملكها واضافها إلى بلاده وعمرها وسوارها وأعادها كما لم تخرب وكنكك أيضا فعمل مدينة حماء وكل

في اخبار (١١٣) الدولتين

ما خرب بالشام بهذه الزلزلة فعدت البلاد كاحسن ما كانت قلت وسأني ذكر اسامة بن مرشد في أخبار سنة اثنتين وسبعين وهي السنة التي قدم فهادمشق من بلاد الشرق وذلك انه لما خرج من شيرزراستوطن دمشق ثم فارقها الى الديار المصرية وكتب الى معين الدين ان انا بك صاحب دمشق يعاتبه في أسباب المفارقة قصيدة أولها

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا * فليتهم حكوا فينا بما علموا
 مامة يوما بفكرى ما يريهم * ولاسعت بي الى ماساءهم قدم
 ولاضعت لهم عهدا ولا اطلعت * على ودائعهم في صدرى التهم
 فليت شعري بما استوجبتهم * ماوافصدهم عن وصلى السأم
 حفظت ماضيعوا اغضيت حين جنوا * وفيت اذ غدروا واصلت اذ صرموا
 حرمت ما كنت أرجو من ودادهم * ماالرزق الا الذي تجبى به القسم
 وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما * تختار من زينة الدنيا لقلت هم
 لهم مجال الكرى من مقلتي ومن * قلبي محل المني جاروا أو اجتموا
 تبذلوا بي ولا ابني بهم بدلا * حسبي هم انصفوا في الحكم أو ظلموا
 بلغ أميري معين الدين مالكة * من نازح الدار لكن وده أم
 وقل له أنت خير الترك فضلك الا * حياء والدين والاقدام والكرام
 هل لانت حياء أو محافظه * من فعل ما انكرته العرب والجم
 اسلثنا وسوف الهند مفسدة * ولم يرو سنان السهمى دم
 وكنت احسب من والاك في حرم * لايعتبه به شيب ولاهـرم
 وماطمان بأولي من اسامة بالسوء * لكن جرى بالكائن القلم
 هبنا جنينا ذنوبا لا يكرها * عذرفاذا جنى الاطفال والحرم
 القيتهم في رضى الا فرنج متبعا * رضى عدى يخط الرحمن فعلهم
 جربهم مثل تجربتي لتجربهم * فلرجال اذا ماجروا قسم

وهي طويلة وطمان المذكور خدام تركي كان لاتبك ملك الامراء عنكي بن اقسقهر ب من خدمته الى دمشق فطلبه وبلغ فيه فاشتمل عليه معين الدين للجنسية وجاء فلما لج فيه سيره العرب وقام له بما يحتاج الى ان رده لخدمته بدمشق وبقى اسامة بمصر الى ان خرج منها مع عباس كما سبق ذكره وأسر الفرج اخاه فجم الدولة محمد بن مرشد وطلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان صاحب شيرزرا لا عانة في فكاهة فلم يفعل قال واذر الله سبحانه اجر خلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه الله فوهبه فارسا من مقدمى الدواية يقال له المشطوب قد بذل للافرنج فيه عشرة آلاف دينار فاستخلص به أخاه من الاسر وبلغ اسامة ان القاضى كمال الدين بن الشهرزورى أنشد نور الدين

ملك بني منقذ تولى * وكان فوق السماء سكه
 فاعتبروا وانظروا وقولوا * سبحان من لا يزل ملكه
 والمعروف ملك بني برمك فغيره المتشدد لما مثل به في غرضه فاجازها اسامة بهذه الايات
 وكل ملك الى زوال * لايعترى ذا اليقين سكه
 ان لم يزل بالتشقال حال * ازاله الملك عنه هلكه
 والله رب العباد باق * وهالك نده وشركه
 فقل لمن يظلم البرايا * غرك امهاله وتركه
 تنسى ذنوبك عليك فحصى * يحصرها تقده وحكه
 كم ناسك نسكه رياء * او يفتى للمعاد نسكه

كتاب (١١٤) الروضين

فاحذر فاجتنب على * من عبده صدقه وافقه

وما أحسن ما قال أسامة في كبره

مع الثمانين عاث الضعف في جلدي * وساء في ضعف رجلي واضطراب يدي

أذا كسبت فخطي خط مضطرب * نخط من تعش الكفين من تعد

فاجب لضعف يدي عن جلها قلنا * من يعدظم القناني لية الاسد {

وان مشيت وفي كفي العصي ثقلت * رجلي كافي أخوض الوحل في الجلد

فقل لمن يئسني طول مدته * هنى عواقب طول العمر والمدد

(فصل) في بواقي حوادث سنة اثنين وخمسين قال الرئيس ابو يعلى تناصرت الاخبار بنظهور امر المؤمنين المقتضى

على عسكر السلطان المخالف لآمره ومن انضم اليه من عسكر الموصل وغيره بحيث قتل منهم العدد الكثير ورحلوا

عن بغداد مفرقين مغلولين خاسرين بعد المضايقة والالتها في المحاصرة والمصارعة قال ووردت الاخبار في أوائل

رجب ب وفاة السلطان غياث الدين ابى الحارث صغير بن ابى الفتح بن السلطان خراسان عقيب خلاصه

من الشدة التي وقع فيها والاسر الذي حصل فيه وكان يجب العدل والانصاف للرعا ياوحسن السيرة جميل الفعل وقد

علت سنه وطال عمره وكان قد ورد كتابه في او اخر صفر من هذه السنة الى نور الدين بالشوق اليه والاحقاد لخلاله

وما يتهى اليه من جميل افعاله واعلامه ما تم الله عليه به من خلاصه من الشدة التي وقع فيها والاسر الذي يلبي به في

ابدى الاعداء الكفرة من ملوك التركمان بحيلة دبرها وسياسة احكمها وقررها بحيث عاد الى منصبه من السلطنة

المشهوره واجتماع العساكر المتفرقة عنه اليه قال وفيها في شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب ب وفاة الشيخ مخلص

الدين ابى الركات عبد القاهر بن ابى جرادة الحلبي وهو الممين على خزائن مال نور الدين وكان كاتباً بليغاً حسن

البلاغة نظماً ونثراً مستحسن الفنون من التذهيب البديع وحسن الخط المحرز على الاصول القديمة المستظرفة مع

صفاء الذهن وتوقد الفطنة والذكاء وقال وفيها رابع عشر شوال ورد الخبر من ناحية بصري بان واليا خراطين

سرخاك قتل غيلة بموافقة من اعيان خاصته وكان فيه افرط في التورز واستعمال التيقظ ولكن القضاء لا يغالب

ولا يدافع قال وفيها في أوائل ذي القعدة ورد الخبر من حصص ب وفاة واليا الامير الملقب بصلاح الدين وكان في ايام

شعبته قد حظي في خدمة عماد الدين زنكي وتقدم عنده بالناجحة وسداد التدبير وحسن السانعة وصاب الرأي ولما

علت سنه ضعف عن ركوب الخيل والجلاته الضرورة الى الجل في المحفة لتقير الاحوال والنظر في الاعمال ولم ينقص

من حسه وفهوه ما ينكر عليه الى حين وفاته وخلفه من بعده اولاده في منصبه وولايته قال وورد الى دمشق امام

من أئمة فقهاء بلخ في عنقوان شبابه وغضارة عوده ما رأيت أفصح من لسانه بلاء غنية العربية والفارسية والاسراع

في جوابه يبراعته ولا طيس منه قلنا في كتابته ابو الحياة محمد بن أبى القاسم بن عمر السلي وعظ في جامع دمشق عدة

ايام والناس يستحسنون وعظه ويستظرفون فنه وسلاطة لسانه وسرعة جوابه وحدة خاطره وصفاء حسه قال ابن

الاثير وفيها في ذي الحجة توفي الامير عز الدين ابى بكر الديلمي صاحب خزرقة ابن عمر وكان من اكابر الامراء يأخذ

نفسه مأخذ الملوك وكان عاقلاً حازماً ذاكراً وكيداً مكرماً وملاك الجزرة قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل

اخو نور الدين

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة قال الرئيس ابو يعلى في أوائل المحرم تناصرت الاخبار من ناحية الفرنج

المقيمين بالشام خذلهم الله تعالى بمضايقتهم حصن حارم ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق الى أن ضعف وملاك

بالسيف وزايد طمعهم في شن الغارات في الاعمال الشامية واطلاق الايدي في الغيث والفساد في معاقلها وضياعها

بحكم تفرق العساكر الاسلامية والخلاف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقيل المرض العارض له ولله المشيئة التي

لا تدافع والاقضية التي لا تمنع وقال وفي صفر ورد الخبر والبشر بتزول نور الدين من حلب للتوجه الى دمشق

واتفق للكفرة للملاعين تواتر الطمع في شن الغارات على اعمال حوران والاقليم واطلاق ايدي الفساد والغيث

والاحراق والاحزاب في الضياع والنهب والسبي والاسر وقصوداريا والتزول عليها في انسلاخ صفر واحراق منازلها

في أخبار (١١٥) الدولتين

وجوامعها والتناهي في آخرها وظهر اليهم العسكرة والاحداث وهموا بقصدهم والاسراع الى لقائهم وكفهم فنعوا من ذلك بعد ان قربوا منهم وحسين شاهد الكفار خذلهم الله تعالى كثرة العدد الظاهر اليهم رحلوا في آخر النهار المذكور الى ناحية الاقليم ووصل نور الدين الى دمشق وحصل في قلعة سادس ربيع الاول سالما في نفسه ورجلته ولقي بأحسن زى وترتيب وجعل واستبشر الصالح بقدومه المسعود وانهجوا وبالقوافي شكر الله تعالى على سلامته وعافيته والدعاء له بدوام أيامه وشرع في تدبير أمر الاجناد والتأهب للجهاد قال وفي اواخر ربيع الاول ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق واخر من عسكرها الى غزة وعسقلان واغاروا على اهلها وخرج اليهم من كان بهامن الفريخ الملاعين فظهر الله تعالى المسلمين عليهم قتلوا واسرا بحيث لم يفلت منهم الا اليسير وغنما وظفروا به وعادوا سالمين ظافرين وقيل ان مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب المسلمين وهي مشحونة بالفرنج فقتل واسر منهم العدد الكثير وحاز من اموالهم وعددهم واناههم ما لا يكاد يحصى وعاد ظافرا غانما قات وارسل الى مؤيد الدولة اسامه بن منقذ من مصر وزير الملك الصالح ابوالغارات طلائع بن رزيق قصيدة يشرح فيها حال هذه الغزاة ويحرض فيها نور الدين على قتال المسلمين ويذكره بما من الله تعالى عليه به من العافية والسلامة من تلك المرضة المقدم ذكرها وكان كثيرا ما يكتبه طالبامنه اعلام نور الدين بالغزاة لحنه عليهم او اول هذه القصيدة

الا هكذاني الله تمضي الغزائم * وتنضي لدى الحرب السيوف الصوارم

وتستذل الاعداء من طول عزهم * وليس سوى سمر الرماح سلام
وتغزي جيوش الكفر في عقد دارها * ويوطى جاهها والانوف راغم
ويوفي الكرام الناذرون سذرهم * وان بذلت فيها النفوس الكرام
نذرنا مسير الجيش في صفها انسيثني نصفه حتى انتهي وهو غائم
بعثنا من مصر الى الشام قاطعا * مفاوز وخدا العيش فيهن دأثم
فما هاله بعد الدبار ولا تسنى * عزيمته جهد النظم والسمائم
يسمر والعصفور في قصر وكرة * ويسرى الى الاعداء والليل ناثم
يبارى خيولا ما زال كأنها * اذا ما هي انقضت نسورة شاعم
يسير بها ضرغام في كل مارق * وما يصعب الضرغام الا الضراغم
ورفته عيين الزمان وحاتم * ويحيى وان لاقى المنية حاتم
وواجههم جمع الفريخ بمجملته * يهون على الشجعان فيها الخزائم
فلقوهم زرق الاسنة وانطوا * عليهم فلم يرجع من الكفر ناجم
وما زالت الحرب العوان أشدها * اذا ما تلافى العسكر المتضاحم
يشبههم من لاح جمعهم له * بلجة بجر موجهها متلاطم
وعادوا الى خز السيوف فقطعت * رؤس وحزت للفريخ غلاصم
فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر * ولا قيل هذا وحده اليوم سالم
تقتلهم بالرأى طورا وتارة * تدوسهم من المذاكي الصلادم
فقلوا انور الدين لافل جده * ولا حكمت فيه اللبالي الغواشم
تجهز الى أرض العسود ولا تنهن * وتظهر قوتها ان مضت منك جارم
فما مثلها تبدي احتفالا به ولا * يعرض عليها السلوك الا باهم
فعدك من أنطاف ربك مابه * علمنا يقينا انه بك راحم
أعادك حيا بعد ان زعم الوري * بانك تدلا قيت ما الله حاتم
بوقت أصاب الارض ما قد أصابها * وحلت بها نك الدواهي العظام
ونجم جيش الكفر في أرض شيزر * فسيقت سبايا واستحلت محارم

كتاب (١١٦) الروضتين

وقد كان تاريخ الشام وهلكه * ومن يحتويه انه لا عادم
 فقم واشكر الله الكريم بنهضة * اليهم فشكر الله للخلق لازم
 فنحن على ما قد عهدت نروعهم * ونحلف جهدا اننا لانسلم
 وغاراتنا ليست تفر عنهم * وليس ينفي القوم منا الهزائم
 فاسطولنا اضعاف ما كان سائرا * اليهم فلاحصن لهم منه عاصم
 وزجوبان يحتاج باقيهم به * ونحوى الاسارى منهم والغنائم
 وكتب اليه ايضا

ياسيد ايسعوبهم ته الى الرتب العلية
 فينال منها حين يحرق * م غيرة أوفى مزيه
 أنت الصديق وإن بعد * ت وصاحب الشيم الرضيه
 يهنيك ان جيوشنا * فعلت فعال الجاهليه
 سارت الى الأعداء من * ابطالها مائتا سره
 فتغير هذى بمكره * وتعاود الاخرى عشييه
 فالويل منها للفرنسج * فقد لقوا جهدا بلييه
 جاء رؤسهم تلو * ح على رؤس السعهره
 وقلائع قد قسمت * بين الجنود على السويه
 وخلائق كشرت من السرى * تقاد الى المنيه
 فانهم فقد أتيت مجدد الدين بالجال الجليه
 والم بنور الدين واعلمه بها تيك القضية
 فهو الذي مازال يخلص منه افعالا ونيه
 ويبيد جمع الكفر بالبيض الرقاق المشرقيه
 فعساه ينهض نهضة * يفنى بها تلك البقيه
 اما لنصرة دينه * أو ملكه أو للحميه

وكتب اليه ايضا يقول

أيها المقتدى لانت على البعد صديق لنا ونم الصديق
 ليس فيما تأتيه من بر افعا * لك للطالب الحقوق عقوق
 فلهذا نرى مواصلة الكتب تباع اليك ما يليق
 وتناجيك بالمهمات اذ انت بالقائما اليك خليق
 وأهم المهم أمر جهاد الكفر فاسمع فعندنا التحقيق
 واصلتهم منا السرايا فاشجبا * هم بكور منا لهم وطروق
 وأباححت ديارهم فاباد القوم قتل ملازم وحريق
 وانتظرنا برحمننا نور الدين علامنا بان سيفيق
 وهو الآن في أمان من الله وما يعتره امرء يعوق
 ما لهذا المهم مثلك مجد الدين فانهم به فانت حقيق
 قل له لاعداء رأى ولازا * ل لديه لكل خير طريق
 أنت في حسم داء طاعية الكفار ذاك المرجو والمرموق
 فاغتنم بالجهاد أجرك كي تلتقى رفيقاه ونم الرفيق

فأجاب به أسامة بقصيدة منها

يا أمير الجيوش ما زال للاسلام والدين منك ركن وثيق
أسمعت دعوة الجهاد قلبا * هاملتك بالمكر مات خليف
ملك عادل أنار به الدين فم الاسلام منه الشروق
ماله عن جهاده الكفر والعد * لوفعل الخيرات شغل يعوق
هو مثل الحسام صدر صقيل * لبن مسه وحسد زليق
ذواناة تنهالها الغراها * لا وفيها حتف الا عادي المحيق
فاسلم للاسلام كفين ماطم * رز ثوب الظلام برق خفوق

وكتب اليه ايضا

قل لابن منقذ الذي * قد حاز في الفضل الكمالا
فلذلك قد أضخى الانا * م على مكارمه عيال
كم قد دبثنا نحوك الـ * شعار مسرعة بحالا
وصدوت عنها حين را * مت من محاسنك الوصالا
هلا بذلت لنا مقا * لاحسن لم تبذل فعلا
مع اننا نؤليك صبرا * رافي المودة واحتمالا
ونبشك الاخبار ان * أضحت قصارا أو طوالا
سارت سرايانا لقصد * الشام تعسف الرمالا
ترجى الى الاعداء جر * د الخيل انبعاثا والا
تمضي خفا فالغصا * ر بها وتأنينا ثقلا
حتى لقد رام الاعا * دى من ديارهم ارتحالا
وعلى الوعية معشر * لم يعهدوا فيها القتالا
لما نأت عن عمى * يحف بهائينا أو شملا
نهضت اليها خيلنا * من مصر تحتمل الرجالا
والبيض لامعة وبيض * الهند والاسل النبالا
فقدت كأن لم يعهدوا * في أرضها حيا حلالا
هنا وفي نسل الجها * ل ملان بالقتل التلالا
اذ مر مرى ليس يلوى * غخور فقتنه اشتغالا
واستاق عسكرنا له * أهلا يحجم ومالا
وسرية ابن فرنج الطا * في طالبهم ووصالا
سارت الى أرض الخليل فلم تدع فيها خللا
قلو ان نور الدين يجعل * فعلنا فيهم مثالا
ويسير الاجناد جهرا * كى ينالهم زالا
ووفى لنا ولاهل دولته بما قد كان قالا
لرأيت للافسر فنج طرا * في معاقلها اعتقالا
وتجهزوا للسير نحو * الغرب وأقصدا الشمالا
واذا أبى الا اطرا * حال النصيحة واعتزالا
عدنا بتسلم الامو * ر لحكم خالقنا تعال

يا أشرف الوزراء اخلافا وأكرمهم فعلا
 نهت عبدا طالما * نهته قدرا وحالا
 وعتبته فانلتته * نفرا ومجدا لن ينالا
 لكن ذاك العتب يشعل في جوانبه اشتعالا
 أسفا لجد حال عنقه الى مساءته ومالا
 أما السرايا حين تر * جمع بعد خفتها ثقالا
 فكذلك عاد وفودها * بك مثقلين ثنا ومالا
 ومسيرها في كل أر * ض تبتغي فيها المجالا
 فكذلك فضلك مثل عد * لك في الدنيا سارا وجالا
 فاسلم لنا حتى نرى * لك في بني الدنيا مثالا
 واشدد يدك بودنو * والدين والقي به الرجالا
 فهو المحامي عن بلا * دالشام جمعان بذالا
 ومبيد املاك الفرنسج وجمعهم حالا فحالا
 ملك يتيه الدهر والدين يا بدولته اختيالا
 جمع الخلل الصالحا * ت فلم يدع منها خلا
 فاذا بدا للناس ظريبن رأيت عيونهم الركامالا
 فقيمتا للسلطين حيا وللدينا جالا

وكتب اليه الصالح من قصيدة تقدم ذكرها في الزلازل

ولعمري ان المناصيح في الدين على الله أجره محسوب
 وجهاد العدو بال فعل والقو * ل على كل مسلم مكتوب
 ولك الرتبة العلية في الامر من مذ كنت اذ تشب الحروب
 أنت فيها الشجاع مالك في الطعن ولا في الضراب يوما ضريب
 واذا ما قرضت فالشاعر المنفق فيما يقوله والخطيب
 واذا ما أشرت فالخزم لا ينكر ان التدبير منك نصيب
 لك رأى يقظان ان ضعف الرأى على حاملي الصليب صائب
 فانهض الآن مسرعا فبامثا * لك ما زال يدرك المطلوب
 ألقى منار سالة عند نور الدين ما في القائما ما يريب
 قل له دام ملكه وعليه * من لباس الاقبال برد قشيب
 أيها العادل الذي هو لديدن شباب والحروب شبيب
 والذي لم يزل قدما عن الاسلام بالعزم منه تجلى الكروب
 وغدا منه للفرج اذا لا * قوه يوم من الزمان عصيب
 ان يرمز في حقدهم فلا شطا * ن قناه في كل قلب قليب
 غيرنا من يقول ما ليس بمضيبه بفعل وغيرك المكذوب
 قد كتبنا اليك ما وضع الآ * ن بما اذا عن الكتاب قبيح
 قصدنا ان يكون منا ومنكم * أجل في مسيرنا مضروب
 فلدينا من العساكر ما صا * ق بادناهم الفضاء الرحيب

في أخبار (١١٩) الروتين

وعليتنا ان يستهل على الشا * م مكان الغيث مال صبيب
أوتراها مثل العروس نراها * كله من دم العدا مخضوب
لطين السيف في فلق الصبح على هام أهلها نظرب
ولجمع الحشود من كل حصن * سلب مهمل لهم ونهوب
وبحول الاله ذاك ومن غا * لبري فانه مغلوب
وكتب اليه أيضا

أيها السائر المجدد الى الشا * م تبارى ركابه والخيول
خذ على بلدة بهادر مجد الدين لاريم ربعها المأهول
وتعرف أخباره وأقره مناسلا ما فيه العتاب يجول
قل له أنت نعم ذخر الصديق اليوم لكنك الصديق الملول
ما ظننا بان حالك في القصر * ب ولا العبد بالسلال تحول
لا كتاب ولا جواب ولا قو * ل به لبقين منا حصول
غير انافا وصل الكتب اذ قصص منك البر الكريم الوصول
ذا كرين الفتح الذي فتح الله علينا فالفضل منه جيل
جاءنا بعد ما ذكرناه في كتب أئامكم بهن منار رسول
ان بعض الاسطول نال من الاقر فخرج ما لينا له التأميل
سار في قلة وما زال بالله وصدق النيات بحى القليل
وبقايا الاسطول لدس له بعد الى جانب الشام وصول
خوى من عكا وانظر سوس * عده لم يحط بها التحصيل
جمع ديوية بهم كانت الاقر فخرج تسطو على الوري وتصول
قيس في وسطهم مقدمهم * دى البناء وجيده مغلول
بعد مشوى جماعة هلكوا بالسيف منها الغربي والمغلول
هذه نعمة الاله وتعدبدا يادى الاله شئ بطول
بلغوا قولنا الى الملك العا * دل فهو المرجو والمأمول
قل له كم تامل الدين في الكفا فاحذر ان يغضب المطول
سر الى القدس واحسب ذلك في الله فيا لبر منك بشئ القليل
واذا ما أبطا مسيرك فالله اذا حسبنا ونعم الوكيل

فأجابه أسامة بقصيدة منها

يا أمير الجيوش يا عدل الحكام في فعله وفيما يقول
أنت حليت بالمكارم أهل ال * عصر حتى تعرف المجبول
وقسمت الفرخ بالغزو وشرطت من فهذا عان وهذا قتيل
بالغ العبد في النيابة والتخريض وهو الحقوه المقبول
فرأى من عزيمة الغزو ما كا * دت له الارض والجبيل تمين
واذا عاقت المقادير فالله اذا حسبنا ونعم الوكيل

وكتب الصالح اليه جوابا قصيدته الطائفة التي أولها

هي البسر لكن الثريا لها قوط * ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط
ذخرنا سطاها للفرخ لانها * بهم دون أهل الارض أجدرا نسطو

كتاب (١٢٠) الروضتين

وقد كاتبوا في الصلح لكن جوابهم * بحضر تنامات كتب الخط الخط
سطور خيول لا تنب ديارهم * لها بالمواضى والقنا الشكل والنقط
إذا أرسلت فرعا من النقع فاجا * أثينا فاستان الرماح لها مشط
رودنا به ابن الفئس عنا وانما * يشبه في سرجه الشد والربط
فقولوا لنور الدين ليس لحائف السجرات الا الكى في الطب والبط
وحسم أصول الداء أولى بعائل * لبيب اذا استولى على المدنف الخط
فدع عنك ميلا للفرج وهدنة * بها أبد يخطى سواهم ولم يخطوا
تأمل فكم شرط شرط عليهم * قديما وكم غدر به نقض الشرط
وشمر فانا قد اعدنا بكل ما * سألت وجهاز الجيوش ولم يسطوا

قال العماد في كتاب الخريدة الصالح أبو الفارقات طلائع بن رزيك سلطان مصر في زمان الفاطم وأول زمان العاضد ملك مصر واستولى على أمر صاحب القصر ونفق في زمانه النظم والنثر وقرب الفضلاء واتخذهم جلساء ورحل اليه ذوو الرجا وأفاض على الداني والقاضي العطاء وله قصائد كثيرة مستحسنة انقذها الى الشام يذكر فيها قيامه بنصر الاسلام وما يصدق أحدان ذلك شعره لجودته وأحكام معاني حكيمته واقسام معاني بلاغته فيقال ان المهذب ابن الزبير كان ينظم له وللجليل بن الحباب كان يعينيه وله ديوان كبير واحسان كثير ولما جلس في دست الوزارة نظم هذه الايات بعده

انظر الى ذى الدار كم * قد حل ساحتها وزير
ولكم تخضر آمنة * وسط الصقوف بها امير
ذهبوا فلما واللهما * يبقى الصغير ولا الكبير
ولمثل ما صاروا اليه * من القناعات انصير

(فصل) قال أبو يعلى ورد الخبر في خامس عشر ربيع الاول من ناحية حلب بحدوث زلزلة رعت أهلها وأزعجتهم وزعزت مواضع من مساكنها ثم سكنت بقدرة مخرها سبحانه وتعالى وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الاول واقت زلزلة في دمشق روعت وانقلبت ثم سكنت وفي التاسع من ربيع الاخر برز نور الدين من دمشق الى جسر الحشب في العسكر المنصور بالآلات الحرب لجهاد الكفر وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جعله من فرسان التركان أغار بهم على اعمال صيدا وما قرب منها فغنموا أحسن غنية وأوفرها وخرج اليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالها وقد كدوا لهم فغنمواهم وقتل أكثرهم وأسر الباقون وفيهم ولد المقدم المتولى حصن حارم وعادوا سالمين بالاسرى ورؤس القتلى والغنية ولم يصب منهم غير فارس واحد قال وفي أوائل شهر تموز الموافق لاول جمادى الآخرة من السنة وفي البقاع مطر هطل بحيث حدث منه سيل أجر كما جرت به العادة في تنبؤ الشتاء ووصل الى برداو وصل الى دمشق وكثر النجيب من آثار قدرة الله تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت قال وفي الليلة الثالثة والعشرين من رجب واقت زلزلة عند تاذين الغداة ثم أخرى في الليلة بعد ها وقت صلاة الغداة وورد الخبر من العسكر المنصور بان الفرنج تجمعوا ورحلوا الى العسكر وان المتولى نور الدين نهض في الحال في العسكر والتقى الجمعان واتفق ان عسكر الاسلام حصل فيه فشل لبعض المتقدمين فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع وبقى نور الدين ثابتا مكانه في عدة يسيرة من شجعان غلمانه وابطال خواصه في وجوه الفرنج وأطلقوا فيهم السهام فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير ثم ولوا منهم من خوفا من كين يظهر عليهم من عسكر الاسلام ونجى الله ولما لجند نور الدين من بأسهم بمعونة الله تعالى وشدة بأسه وثبات جاشه ومشهور شجاعته وعاد الى تخيمه سالما في جماعته ولا من كان السبب في اندفاعه بين يدي الفرنج وتفرق جمع الفرنج الى اعمالهم وراسل ملكهم لنور الدين في طلب الصلح والمهادنة ورض على ذلك وترددت بين الفرنجين مراسلات ولم يستقر بينهم حال وعاد نور الدين الى دمشق سالما قلت وذكركم أبو الفتح بن أبي الحسن بن الاشترى المعيد كان بالمدسة النظامية في سيرة مختصرة جمعها لنور

في اخبار (١٢١) الدولتين

الدين وقد تقدم شئ منار جهما الله قال وبلغنا ان نور الدين خرج الى الجهاد في سنة ست وخمسين وخمسة مائة فغضى الله بانهم ازم عسكر المسلمين وبقي الملك العادل مع شزيمة قليلة وطائفة يسيرة واقفا على تل يقال له تل جيش وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالة المسلمين مع رجالة الكفار فوق الملك العادل بجذائهم مولدا وجهه الى قبله الدعاء حاضر اجمع قلبه مناجيا به يقول يارب العباد أنا العبد الضعيف ملكتي هذه الولاية واعطيتني هذه النيابة عمرت بلادك وتحت عبادك وامرهم بما أمرني به ونهيتهم عما نهيتني عنه فرغت المنكرات من بينهم واظهرت شعار دينك في بلادهم وقد انهمز المسلمون وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونيك محمد صلى الله عليه وسلم ولا أملك الانفسى هذه وقد سلمتها اليهم ذابعن دينك وانصر لنبيك فاستجاب الله تعالى دعاءه وأوقع في قلوبهم الرعب وأرسل عليهم الحذلان فوققوا مواضعهم وما جسروا على الاقدام عليه ونظنوا ان الملك العادل عمل عليهم الحيلة وان عسكر المسلمين في الكين فان أقدموا عليه يخرج عساكر المسلمين من الكين فلا ينفلت منهم أحد فوققوا وما قدموا عليه قال ولولا ان ذلك الهام من الله تعالى لسكانا قد اسنا أسر والمسلمين وما كان ينفلت واحد من المسلمين قوة عسكر الكفار وبرز اثنان منهم بجولان بين الصفيين يطلبان البراز من المسلمين فأمر الملك العادل لخط الخراهد مولى الشهيد بالخر وج اليهما فخرج وجال بينهما ساعة وحمل على واحد منهما فقتله ثم جال ساعة وعمل حيلة وخدعة ورجع الى قريب صف الكفار وحمل على الآخرة فقتله ورجع الى الصف قال وحذنا الشيخ داود المقدسي خادم قبر شعيب على نينوا عليه السلام قال كان أعطاني ملك القدس بغله كنت را كاعليا يعني في ذلك اليوم واقفامع أملك العادل فلما وصل الكفار وقر بوا مناشئت بغلتي رائحة خيل الكفار فضهلت تطلب خيلهم فسمعوا صهيل بغلي ففقا لواءه اذ اودر اكب على البغلة مع نور الدين واقف ولولا الحيلة والكين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشرذمة القليلة والطائفة اليسيرة فمحق ذلك في قلوبهم فوققوا وما جسروا على الاقدام عليه قال فترجل كل من كان مع الملك العادل وتشفعوا اليه وباسوا الارض بين يديه وقالوا أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع وفي هذا الاقليم فان جرى والعباد بالله وهن وضعف من استيلاء الكفار على المسلمين في الذي بقدر على تداركه قال وحلف هذا الشيخ داود انهم أخذوا بعنان فرسه كرها ورحلوا من ذلك الموضع وما كان في عزم الملك العادل ان يرحل من ذلك الموضع فلما عرف الكفار ذلك وانه ما كان عليهم حيلة ولا كين ندما على ذلك ندامة عظيمة قال وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسر الملك العادل الكفار وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسرمهم خلقا كثيرا على ما حكى عن صلاح الدين صاحب حصن انه قال قد جازا الترك ان علينا فحصل في الجريدة ألف أسير مع الترك ان هذا ما جاز على بلد حصن وحده وكان قد انفلت ملك القدس ودخل الى قلعته فلما جن عليه الليل خرج من القلعة ومضى

(فصل) قال أبو بعل في رجب تجتمع قوم من السقها العوام وعزموا على التخريض لنور الدين على اعادة ما كان أبطل وسامحه أهل دمشق من رسوم دار البطح وعروسة البقل والانهار وصانهم من اعنات شرار الضمان وحولة الاجناد وكرروا السخف عقوهم الخطاب وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار بريض وكتبوا بذلك حتى أجيبوا الى ماراموا وشرعوا في فرضها على أبواب الاملاك من المتقدمين والاعيان والراعا فاهتدوا الى صواب ولا تنجح لهم قصد في خطاب ولا جواب وعسفوا الناس بجهلهم بحيث تألموا وأكثروا التضييع والاستغاثة الى نور الدين فصرف همهم الى النظر في هذا الامر فنحن له السعادة واشار العبد في الراية الاعادة الى ما كان عليه فأمر في عاشر رمضان باعادة الرسوم المعتادة الى ما كانت عليه من امانتها وتعزية أثر ضمناها وأضاف الى ذلك تبرعاً من نفسه بابطال ضمان الهريسة والجبن والبن ورسم كتبت منشور يقر أعلى كافة الناس بابطال هذه الرسوم جميعها وتعزية ذكرها فبالغ العالم عند ذلك في مواصلة الادعية والثناء عليه والنشر لحاسنه قال وفي الحادي والعشرين من رمضان وصل الحاجب محمود المسترشد في ناحية مصر بجواب ما تحمله من المراسلات من الملك الصالح متولى أمرها ومعه رسول من مقدمي أمرها ومعه المال المنقذ رسم الخزانة النورية وأنواع الثياب المصرية والجياد العربية وكانت فرقة من الفرنج خذله الله قد صبروا لهم في المعابر فاظفر الله بهم فلم ينفلت منهم الا القليل التز ثم تلا ذلك وردا الخبر من العسكر المصري بظفره بجملة وافرة من الفرنج تناهزاً ربعائة فارس وتزيد على ذلك

كتاب (١٢٢) الروضتين

في ناحية العرش من الجفار بحيث استولى عليهم القتل والاسر والسلب قال وقد كانت الاخبار تنصرت من ناحية القسطنطينية في ذي الحجة يروى ملك الروم منها في العدد الكثير لقصد الاعمال والمعاقل الاسلامية ووصوله الى مروج الديباج ونخبه فيها وبث سرايا لا غارة على اعمال انطاكية وما والاها وامن قوما من التركان ظفروا بجباة منهم هذا بعد ان اقتحم من اعمال لابن ملك الارمن عدة من حصونه ومعاقله ولما عرف نور الدين هذا شرع في مكاتبه الولاء بالاعمال والمعاقل باعلامهم ما حدث من الروم وبغهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم والاستعداد للكتابة بين يظهر منهم قال ابن الاثير وفي سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن السلطان محمود فحصر بغداد وبها الخليفة المقتفي لامر الله ومعه وزيره عون الدين بن هبيرة فكتب اصحاب الاطراف فبحر كوا وصل الخبر الى الملك محمد بأن اخاه ملك شاه قصد همدان ودخلها في عسكر كبير ونهب وأخذ ثمنه الامراء الذين معه وأولادهم فاختلط العسكر وتفرقوا عاد محمد نحو همدان وخرج أهل بغداد فنبهوا وأخار العسكر المنقطعين وشعروا دار السلطان قلت وفي هذه السنة توفي أبو الوقت عبد الأول المحدث المنذر دبعلور وابنه كتاب الجامع الصحيح البخاري رحمه الله تعالى (ثم دخلت سنة أربع وخمسين) قال أبو يعلى في أول يوم منها واقت زلزلة عظيمة ضجى نهاره وتلاها ثنتان دونها وكان قد عرض لنور الدين مرض ترابيه بحيث اضعف قوته ووقع الارجاف به من حساد دولته والمفسدين من عوام رعيته وارناعت الرعايا واعيان الاجناد وضائق صدور قطان الثغور والبلاد خوفا عليه واشفاقا من سوء يصل اليه لاسيما مع اخبار الروم والفرنج ولما أحس من نفسه بالضعف تقدم الى خواص أصحابه وقال لهم انني قد عزمت على وصية اليكم كما وقع في نفسي فكونوا لها سامعين مطيعين وبشر وطها عاملين اني مشفق على الرعايا وكافة المسلمين من يكون بعدى من الولاة الجاهلين والنظلة الجائرين وان أخى نصره الدين اعرف من اخلاقه وسوء فاعاله ما لا يرتضى معه بتوليته أمر من أمور المسلمين وقد وقع اختيارى على أخى قطب الدين مودود متولى الموصل لما برجع اليه من عقل وسداد ودين وجمعة اعتقاد خلفوا له وأنفذ رسالته الى أخيه باعلامه صورة الحال ليكون لها مستعدا ثم تفضل الله تعالى بابل له من المرض وتزايد القوة في النفس والحس وجلس للدخول اليه والسلام عليه وكان الامير محمد الدين النائب في حلب قد رتب في الطرقات من يحفظ السالكين فيها فظفر المقيم في منجبر جبل جمال من أهل دمشق ومعه كتب فأنقلبها الى محمد الدين متولى حلب فلما وقف عليها أمر بصلب محملها وأنفذها في الحال الى نور الدين فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبى القاسم متولى ديوانه ومن عز الدين والى القلعة بملوكه ومن محمد بن جفرى احد حجاجه الى أخيه نصره الدين أمير أميران صاحب حران باعلامه بوقوع اليأس من أخيه وبمحضونه على المبادرة والاسراع الى دمشق لتسلم اليه فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على اربابها فاعترقوا بها فأمر باعتقالهم وكان رابعهم سعد الدين عثمان وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين ووردي الحال كتاب صاحب قلعة جعبر يخبر بقطع نصره الدين الفراء مجددا الى دمشق فانهمض أسد الدين في العسكر المصور رده ومنعه من الوصول فاتصل به خبر عودته الى مقره عند معرفته بعافية أخيه فماد أسد الدين الى دمشق ووصلت رسال الملك العادل من ناحية الموصل بجواب ما تحمله الى أخيه قطب الدين وفارقوه وقد برز في عسكره متوجها الى ناحية دمشق فلما فصل عن الموصل اتصل به خبر عافيته فأقام بحيث هو وأنفذ وزيره جمال الدين أباج فمر محمد بن على لكشف الحال فوصل الى دمشق يوم السبت الثامن من صفر في أحسن زى واجبى تجمل وخرج الى لقائه الخلق الكثير قال وهذا الوزير قد أسلمه الله تعالى من جيل الافعال وحيد الخلائل وكرم النفس وانفاق أمواله في أبواب البر والصقات والصلوات ومستحسن الانار في مدينة الرسول عليه السلام ومكة ذات الحرم والبيت العظيم شرفه الله تعالى ما قد شاع ذكره وتضاعف عليه حمده وشكره واجتمع مع نور الدين وجرى بينهما من المفاوضات والتقريرات ما انتهى الى عودته الى جهة بعد الاكرام له وتوفيقه حقه من الاحترام وأصبح به رسم قطب الدين أخيه وخواصه من الملاحظة ما اقتضته الحال الحاضرة وتوجه معه الامير أسد الدين وقال ابن أبى طلى لما وصل الوزير جمال الدين الى حلب تلقا موكب نور الدين وفيه وجوه الدولة وكبراء المدينة وانزل في دار ابن الصوفي واكرم غاية الاكرام وأعيد الى صاحبه شاكر أعين نور الدين

في أخبار (١٢٣) الدولتين

وسير معه الأمير أسد الدين شيركوه رسولاً إلى قطب الدين بالشكر له والثناء عليه وأنفذت معه هذا ياسنية فصار وعاد إلى حلب مكرماً فوجد نور الدين عازماً على الخروج إلى دمشق لما بلغه من أفساد الفرنج في بلد حوران فسار في صحابته ووصل نور الدين إلى دمشق فأمر الناس بالتحضر لقتال الفرنج ثم انفض أسد الدين في قطعة من العسكر للآغاثة على بلد صيدا فصار وسار معه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده ولم يشعر الفرنج أنه قد عاث في بلد صيدا وقتل واسر عالة عظيمة وغنم غنيمة جليلة وعلافاً جمع نور الدين على جسر الخشب قلت وهذا هو ما تقدم ذكره بعد المرضة الأولى وكان ابن أبي طي جعل المرضين واحدة بحلب وأبو يعلى ذكر أن الأولى بحلب والثانية بدمشق وهو أصح والله أعلم

فصل قال أبو يعلى وكان قد وصل من ملك الروم رسول من معسكره ومعه هدية التحف بها الملك العادل ديباج وغير ذلك وجعل خطاب وفعل وقول بمثل ذلك وحكى عن ملك الفرنج خذله الله أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقررت والمهادنة انعقدت والله يريد بأس كل واحد منهما إلى شجرة ويذيقه عاقبة غديره ومكره فال ووردت أخبار من ناحية ملك الروم باعتزامه على انطاكية وقصد المعقل الاسلامي فبادر نور الدين بالتوجه إلى البلاد الشاميه لئلا يناس أهلها من استباحتهم من شر الروم والفرنج خذله الله تعالى فسار في العسكر صوب حصن وجاه وشيز قال وفي ثالث ربيع الأول وافت زلزلة هائلة ما جت أربع موجات وأيقظت النيام وانزعجت اليقظي وخاف كل ذي مسكن مضطرب على نفسه وعلى مسكنه قال وفي تاسع جمادى الأولى هبت ريح عاصفة شديدة قامت يومها ولياتها فالتفت أكثر الخمار صيفها وشتموها وافسدت بعض الأشجار ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ما جت موجتين ازيجت واقلقت فال وتجددت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم بعد تكرر المراسلات والاقتراحات في التقريرات واجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدمي الفرنج المقيمين في حبس نور الدين فأنفذهم بأسرهم وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يرضاه من الاتحاق بأثواب الديباج الفاخرة المختلفة الجناس الوافرة العدد ومن الجوهر النفيس وخيصة من الديباج لها قيمة وافرة وما استحسن من الخيول الجبلية ثم رحل عقيب ذلك في عساكره من منزله عائداً إلى بلاده مشكوراً محموداً ولم يؤذ أحد من المسلمين في العشر الاوسط من جمادى الأولى فاطمأنت القلوب بعد ازعاجها وقلقها فال وورد بعد ذلك الخبر بان نور الدين صنع لآخيه قطب الدين ولعسكره وان ورد معه من المتقدمين والولاء وأصحابهم الواردين لجهاد الروم والفرنج سماً طاعظيها ثلاثاً في فيه وقرق من الحصن العربية والخيول والبغال العدد الكثير ومن الخلع من أنواع الديباج المختلفة وغيره والنخوت الذهب الشيء الكثير الزائد على الكثرة وكان يوماً مشهوداً في الحسن والتجمل وانفق إن جماعة من غرباء التركمان وجدوا من الناس غفلة باشغفهم بالسماط واتهابه فغاروا على العرب من بني اسامة وغيرهم واساقوا ما شئهم فلما ورد الخبر بذلك انفض نور الدين في أثرهم فربقوا وفر من العسكر فأدركوهم ثم انهم استخلصوا منهم جميع ما أخذوه واعيد إلى أربابه قال وتقرر رأى النورى على التوجه إلى مدينة حران لما نالها واستعادتها من يد آخيه نصرمة الدين حسبما رآه في ذلك من الصلاح فرحل في عسكره أول جمادى الآخرة فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات إلى أن تقرر الحال على أمان من بها وسلمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة وقررت أحوالها وأحسن النظر في أحوال أهلها وسلمها لأمير بن علي سبيل الاقطاع وفوض إليه تدبير أمورها

ثم دخلت سنة خمس وخمسين هـ قال الرئيس أبو يعلى في صفرتوفي الأمير مجاهد الدين بزبان بن مامين أحد مقدمي امرء الاكراد وهو من ذوى الوجاهة في الدولة موصوف بالسجاعة والبسالة والسماحة مواظب على بث الصلوات والصدقات في المساكين والضعفاء والفقراء مع الزمان في كل عصر ينقضي وأوان جيل المحيا حسن البشري للقاء وحسن من دار مباب الفرديس إلى الجامع للصلاة عليه ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه فدفن فيها في اليوم ولم يحل من بالك عليه ومؤثر به ومتأسف على فقد جليل أفعاله وحيد دلاله قلت وله أوقاف على أبواب البر منها المدرستان المنسوبان إليه أحدهما التي دفن فيها وهي لزيق باب الفرديس المجتدد والآخرى قبالة باب دار سيف

كتاب (١٢٤) الروضتين

الغربي في صف مدرسة نور الدين رحمه الله وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الحضرة بجامع دمشق وغير ذلك وقدمه العرقه وغيره قال أبو يعلى وفي مستهل صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى ابن علي القرشي قاضي دمشق إلى الملك العادل نور الدين رغبة يسأله فيها الاعفاء من القضاء والاستبدال به فأجاب سؤاله وولي قضاء دمشق القاضي كال الدين بن الشهرزوري وهو المشهور بالتقدم وفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الاحكام وشروط استعمال الانصاف والعدل والزهادة وتجنب الهوى والظلم واستقام له الامر على ما يراه ويؤثره ويرضاه على ان القضاء من بعض أدواته واستقر ان يكون النائب عنه عند اشتغاله ولده رحمه الله تعالى الصدقة الجارية بعده على الفقراء كل جمعة واليه ينسب الشباك الكمال بجامع دمشق من الغرب وهو الذي حكيت فيه القضية مدة ويصاين فيه الجمعة في زماننا وإلى هاهنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التيمي فإنه أخر كتابه وفي هذه السنة توفي رحمه الله قال ابن الاثير وفيها توفي أمير المؤمنين المقتدي لأمر الله بن المستظهر بأمر الله ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة وكانت خلافة أربعمائة وعشرين سنة وشهرين وبويع ولده أبو المظفر يوسف ولقب بالمستجد بالله فأقر ابن هبيرة على وزارته قال وفيها جازي الدين علي وأحسن إلى الناس في طريق مكة وأكثر الصدقات فلما وصل بغداد أكرمه المستجد بالله فلما لبس الخلع كانت طوبى له وكان قصيرا جدا يتدبه إلى كبراته وأخرج ما شذبه وسطه وقصر الجبهة فنظر المستجد إليه واستحسن ذلك منه وقال لمن عنده مثل هذا يكون الأمير والجندي لا مثلكم قلت وفيها توفي المستخلف بمصر الملقب بالفائز بن الظاهر بن الحافظ وولي بعده ابن عمه العاصم بن يوسف بن الحافظ وهو آخر خلفاء مصر ووصل من الصالح بن زيك كتاب إلى ابن منقدا سامة بذلك فكتب إليه

هنا بنعي قل عن قدرها الشكر * وصبرا لرزة لا يقسم به الصبر
مضى الفائز الطهر الامام وقام بالامامة فينا بعده العاضد الطهر
امام اهدى الله في نعل ذالتي * كرامته وفي اقامة ذاسر
ففسح أبدا واسلم لهم يا كفيهم * تدافع عنهم كل حادثة تعرو

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة قال ابن أبي طي في هذه السنة حج اسد الدين من الشام وخرج في نجمل عظيم وشارقة واستعجب معه من الازواد والكنى أشياء عظيمة ويقال انه كان معه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب ورجع على كوجك العرف بن الدين من العراق ورجع معهم أخو ضرغام وزير مصر فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثيرا الخبر واستغنى بسببهم أهل الحجاز وعاد أسد الدين سالما وخرج نور الدين إلى لقائه وكان يوم وروده يوما عظيما وقال أيضا وفيها قتل الصالح بن زيك بمصر وكان سبب قتله أن عمه العاضد علمت على قتله وأنفذت الاموال إلى الامراء فبلغ ذلك الصالح فاستعاد الاموال واحتاط على عمه العاضد قال وانما كرهته عمه العاضد لاستيلائه على الامور والدولة وحفظه للاموال وقتل الصالح بسببها جماعة من الامراء ونكبه من الدولة تمككا لحسن ان عمه العاضد عادت واحكمت الحيلة عليه وبذلت لقوم من السودان ما لا يخفى لاحتى وأقوعوا به الفعل جلسوا له في بيت في دهليز القصر محتفين فيه فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر ودخله وسلم على العاضد وخرج من عنده فخرج عليه الجماعة وقعت الصحة فعثر الصالح باذاله قطعته أحد هدم بالسيف في ظاهر رقبته فقطع أحد عمودي الرقبة وحمل إلى باب القصر وأصيب ولده زيك في كتفه ولما حصل الصالح في داره أوصى ولده زيك ومات بعد ساعة من ذلك اليوم قال العماد وانكسفت شمس الفضائل ورخص سعر الشعر وانخفض علم العلم وضاق قضاء الفضل وعمر زبن زيك وملك صرف الدهر ذلك المليك فلم تزل مصر بعده منجوسة الحظ منجوسة الجذبة منجوسة الريبة معكوسة الآية إلى ان ملكها يوسف الثاني وجعلها معان المعاني ونشر رممها وعمار نسيمها وتسلم قصرها والترم خصرها قال زين الدين الواعظ عمل فارس المسلمين أخو الصالح دعوة في شعبان من السنة التي قتل فيها فاجل هذه الايات وسلها إلى

في اخبار (١٢٥) الدولتين

انست بكمرها فلما ظعنتم استتقرت بقلبي وحشة لتتفرق
وأعجب شئ اني يوم بينكم * بقيت وقلبي بين جنبي ما بقي
أرى البعد ما بيني وبين أحبتي * كبعدي لمدى ما بين غرب ومشرق
الاجدري يا نفس وجد او حصرة * فهذا فراق بعدد لس نلتقي

قال فلم يبق بعدها لهم اجتماع في مسرة وقتل في شهر رمضان قلت ولعمارة اليمنى وتغيره مدائح في الصالح ومرات
جليلة وقد أننى عليه كثيرا في كتاب الوزراء المصرية ولم يكن مجلس انسه يقطع الا بالماكرة في أنواع العلوم
الشرعية والادبية وفي هذا كره فائع الحروب مع امراء دولته قال وكان من تاضا قدشم أطراف المعارف وتميز عن
اجلاف الملوك وكان شاعرا يحب الادب وأهله بكرم جلسه ويسط أنيسه ولكنه كان مفرط العصبية في مذهب
الامامية وكان من تاضا حصيفاً قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم قال ودخلت عليه قبل ان يموت بثلاث
ليال وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره فلهما في تلك الساعة

نحن في غفلة ونوم وللسو * ت عيون يظفانة لاتنام
قد رحلنا الى الحمام سيندنا * ليت شعري متى يكون الحمام

قال ومن عجيب الاتفاق اني أنشدت ابنه محمد الاسلام في دار عيد السعداء ليلة السادس عشر من شهر رمضان
أو السابع عشر قصيدة أقول فيها

أبولك الذي تسطو الليالي بجده * وأنت بمن ان سطا وشمال
لرتبته العظمى وان طال عمره * اليك مصير واجب ومآل
تخالسك اللغظ المصون ودونها * حجاب شريف لا انقضى ومجال
قال فاتنقل الملك بعد ثلاث اليه قال وعمار ثبته به قولي

أفي أهل ذا النادى علم أسائله * فاني لما ذاهب اليك ذاهله
سمعت حديثاً أحسد الصم عنده * ويذهل واعيه ويجرس قائله
فقد رايتني من شاهد الحال اني * أرى الدست منصوبا وما فيه كافله
واني أرى فوق الوجوه ككابة * تدل على ان الوجوه ثوابله
دعوني فهاهنا بوقت بكائه * سيأتيك طيل البكاء ووابله
ولم لا نبكيه ونندب فقده * وأولادنا أيتامه وأرامله
فياليت شعري بعد تحسين فعالة * وقد غاب عنا ما بنا الدهر فاعله
ايكرم مشوى ضيفكم وغريبكم * فيسكن أم تطوى بسين مراحله

وله من أخرى يرثيها ويذكر ولايته أنه

طمع المرء في الحياة غرور * وطويل الآمال فيها قصير
ولكم قدر الفتي فاتته * نوب لم يحط بها التقدير
فض ختم الحياة عنك حمام * لا براعي اذنا ولا يستشير
لا تخطي اجل ذلك اليوم الا * قدر أمره علينا قدر
يا أمير الجيوش هل لك علم * ان حراسي علينا أمير
ان قبرا حلاته لقني * ان دهرنا فارقت له فقير
انطوى ذلك البساط وعهدى * وهو بالعلم والندى مغرور
لا تظن الايام انك ميت * لم يمت من ثناؤه منشور
ان مضى كافل فهذا كفيل * أو وزير يرغب فهذا وزير
دولة صالحية خلقتها * دولة عادلية لتجور

كتاب (١٢٦) الروضتين

ماشكرونا كسر النوائب حتى * قيل في الحال كسر كم مجبور
 نصر الناصر العلي بالعوالي * ولعم المولى ونعم النصير
 وقال أبصار ثيه وبذر الظفر بقاتليه ويصف نقل تابوته الى مشهد بالقرافة قصيدة طويلة منها
 قد كنت أشرق من شماد مدامسى * أسفا فكيف وقد طوى التيار
 عم الوري يوم الخميس وخصني * خطب بانف الدهر منه صغار
 ما أوحش الدنيا غدية فارقت * قطبارحى الدنيا عليه تدار
 خربت ربوع المكرمات لواحد * عرت به الاجداث وهي قفار
 نعش الجود العاثرات مشيع * عشت برؤية نعشه الأبصار
 نعش بوذبات نعش لو غدت * ونظامها أسفا عليها تثار
 شخص الانام اليه تحت جنازة * خفضت رفة قدرها الاقدار
 سار الامام امامها فعلت ان * قد شيعتها الخمسة الابرار
 ومشى الملوك بها حفاة بعدما * حفت ملائكة بها أطهار
 فكأنها تابوت موسى أودعت * في جانيه سكةينة ووقار
 لكنه ماض غير قيمة الاسلام * وهو الصالح المختار
 اقطنته دار الوزارة رثما * بنيت لنقلته الكريمة قدر
 وتغار الهرمان والحمران في * تابوته وعلى الكرم بغار
 أثرت مصرامنه بالشرف الذي * حسدت قراقرها الامصار
 وجعلتها امنا به ومثابة * ترجو مثابة قصدها الزوار
 قد قلت ان نقلوه نقله طاعن * نزحت به دار وشط هزار
 ما كان الا السيف جدد غمده * بسواء وهو الصارم البتار
 والبدر فارق برجيه متبدلا * برطبه تشعشع الانوار
 والغيب روى بلدة ثم انتهي * أخرى فنوء سحابه مدار
 يامسبل الاستار دون جلاله * ماذا الذي رفع له الاستار
 ما لي أرى الزوار بعد مهابة * فوضى ولاذن ولا استثمار
 غضب الاله على رجال أقدموا * جهلا عليك وآخرين أشاروا
 لا تعجب القصد اناقة صالح * فلكل دهر راقدة وقدار
 واجعلنا نلبض كيف تظاولت * سفها يا بدي السود وهي قصار
 واحمرنا كيف انفردت لاعبد * وعبيدك السادات والاحرار
 رصدوك في ضيق المجال بحيث لا * السخطي متسع ولا الخطار
 ما كان أقصر باعهم عن مثاها * لو كنت متروكا وما تختار
 ولقد ثبت ثبات مقتدر على * خذلانهم لو ساعد المقدار
 وتعبثت أقدامهم بكهية * لولم يكن لك بالذيول عمار
 أحللت دار كرامة لا تنقضي * أبدا وحل بقا نليك بوار
 باليت عينك شاهدت أحوالهم * من بعدها ورأت الى ماصاروا
 وقع القصاص بهم وليسوا مقتعا * يرضى وأبن من السماء غبار
 ضاقت بهم سعة الفجاج وربما * نام العبد ولا ينام الثار
 ونوهوا ان الفرار مطيبة * نجي وأبن من القضاء فرار

في اخبار (١٢٧) الدولتين

طاروا فسدأبوا الشجاع لميدهم * شرك الردى فكأنهم ماطاروا
فتن بالاجر الجـ زيل وميته * درجت عليها قبلك الاخبار
مات الوصي بها وحجرة عمه * وابن البتول وجعفر الطيار
نلت السعادة والشهادة والعلی * حيا وميتا ان ذا الفخار
ولقد أثار العين بعدك أروع * لولاه لم يك للعلی استقرار
التناصر المهادی الذي حسنته * عن سينات زماننا أعذار
ولما استقام لحفظ أمة أجد * عسرت به الاوطان والاطوار

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسائة هـ قال ابن الاثير فيها جمع نور الدين العساكر وسار الى قلعة حارم وحصرها وجسد في قتالها فامتعت عليه لحصاتها وكثرة من بهامن فرسان الفرنج وشجعانهم واجتمع الفرنج من سائر البلاد وساروا نحو وليه حلاوة عنانها فباربه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه الى ذلك وراسلوه وتلففوا الحال معه فعاد الى بلاده ومن كان معه في هذه الفترة الامير مؤيد الدولة اسامة بن مردش بن منقذ وكان من الشجاعة في العناية التي لا مزيد عليها فلما عاد الى حلب دخل الى مسجد سبيرين وكان قد دخله في العام الماضي سائر الى الخ فلما دخله عاينته كعب على حائطه

لك الحمد يا مولاي كـمك منة * على وفضل لا يحيط به شكرى
نزلت بهذا المسجد العام قافلا * من الغزو موفور النصيب من الاجر
ومنه رحلت العيس في عالى الذي * مضى نحو بيت الله ذى الركن والمجر
فاذبت مفروضى وأسقطت ثقلها * تحملت من وزر الشيبه عن ظهري

قلت اذكرنى هذا ما كتبه اسامة ايضا بمدينة صور وقد دخل دار ابن ابي عقيل فراهها وقد نهضت ونعيرت زخرفتها فكتب على لوح من رخام هذه الايات

احضر من الدنيا ولا * تغتر بالجر القصير
وانظر الى آثار من * صرته منا بالغرور
عر وواشاد واما ترا * من المنازل والقصور
وتحولوا من بعد سـكـانها الى سكنى القبور

قلت ابن ابي عقيل هذا هو ابر الحسن مجدى بن عبد الله بن عياض بن ابي عقيل صاحب صور ويلقب عين الدولة مات سنة خمس وستين وأربعمائة واستولى على صور بانه النفيس والله اعلم

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسائة هـ قال ابن الاثير فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج فنزل بالبقعة تحت حصن الاكراد وهو للفرنج عازما على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس فبينما الناس في بعض الايام في خيامهم في وسط النهار لم ير عهـم الا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذى عليه الحصن فكسبوههم فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا فانهزموا ووضع الفرنج السيف واكثروا القتل والاسر وقصدوا اخية الملك العادل فخرج عن ظهر خيمته عجلان بنير قافركب فرسانه للثوبه ولمر عترة كبه وفي رجليه شبحه فقتل انسان من الاكراد فقطعها انجبا نور الدين وقتل الكردى فسأل نور الدين عن مخلفي ذلك الكردى فأحسن اليهم جزءا لقلعه وكان أكثر القتل في السوق والغلبان وسار نور الدين الى مدينة حمص فأقام بظاهرها واحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على بحيرة قدس على فرسخ من حمص وبينها وبين مكان الواقعة أربعة فراسخ وكان الناس يظنون انه لا يقف دون حلب وكان رجحه الله أن ينجح من ذلك واوقى عزما ولما نزل على بحيرة قدس اجتمع اليه كل من نجح من المعركة فقال له بعض اصحابه ليس من رأى أن تقيم هاهنا فان الفرنج ربما جملهم الطمع على المجي الينا ونحن على هذا الحال فوجهوا سكتة وقال اذا كان معى الف فارس فلا بالى بهم قالوا او كثر واد والله لا نستظل بجدار حتى أخذ بشار الاسلام ونارى ثم انه أرسل الى حلب ودمشق وأحضر الاموال والدواب والاسلحة والخيام

كتاب (١٢٨) الروضتين

وسائر ما يحتاج اليه الجند فأكثر وقر ذلك جميعه على من سلم وأمان قتل فانه اقرارا طاعه على أولاده فان لم يكن له ولد فعلى بعض أهله فعاد العسكر كأنه لم يقدمه أحد وأما الفرع فكل منهم كانوا عازمين على تصد حصص بعد الهزيمة لأنهم أقرب البلاد اليهم فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا انه لم يفعل هذا الا وعنده من القوة ان يمنعنا وكان نور الدين رحمه الله قد أكثر الخرج الى ان قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى غيرهما من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك وتقدم الى ديوانه ان يحضر والجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه فكل من ذكر شيئا اعطوه عوضه فحضر بعض الجند وادعى شيئا كثيرا علم بعض الثواب كذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحالهم فأرسلوا الى نور الدين يهنون اليه القضية ويستأذنه في تحليف الجندى على ما ادعاه فأعاد الجواب لانه لا تكدر واعطانا فاني أرجو الثواب والاجر على قليله وكثيره وقال له أصحابه ان لك في بلادك ادرايات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلوا استعنت بها الآن لكان امثل فغضب من هذا وقال والله اني لا رجاؤا ولئنك النصر فانتما تزفون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطى وأصرفها الى من يقا تل عني اذا رأني بسهام قد تخطى وتصيب ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال اصرفه اليهم كيف اعطيه غيرهم فسكتوا ثم ان الفرع أرسلوا الى نور الدين في المهادة فلم يجبههم اليها فتركوها عند الحصن من يحبه وعادوا الى بلادهم وتفرقوا قتل وفي هذه الحادثة تحت حصن الأكراد يقول أبو الفرج عبيد الله بن سعد الموصلى نزل حصن من جملة قصيدة فاقه مدح بها نور الدين رحمه الله أولها

ظلي المواضي واطراف القنا الذبل * ضوا من لك ما حازوه من نفل
وكأف لك كاف ما تحسوا له * عز وعزم وبأس غير من نفل
وما يعيبك ما حازوه من سلب * بالتحس قد توتر الآساد بالحيل
وانما أخلد واجبنا الى خدع * اذ لم يكن لهم بالحبش من قبل
واستبقوا وأراد الله غفلتكم * لينفذ الفدر المحتموم في الازل
حتى أتوكم ولا الماذى من أمم * ولا الظبي كبث من مرقع بجمل
قتالنا وقسي غير موزة * والخنيل عازبة ترعى مع الحمل
ما يصنع الليث لانا ولا ظفر * بما حو اليه من عفر ومن وعد
هلا وقد ركب الاسد الصقور وقد * سلوا الظبي تحت غابات من الاسل
وانما هم أضاعوا خزمهم رقعة * بجعههم ولكن من واثق خجل
بنى الاصافر ما نسلم بمكركم * والمكر في كل انسان أخوال الفشل
وما رجعت بأسرى خاب سعيكم * غير الاراذل والاتباع والسفل
سلبتم الجسر دمعة بلا لجم * والسمر مر كوزة والبيض في الخلل
هل أخذ الخيل قد اردى قوارسها * مثال أخذها في الشكل والطول
أم سالب الرمح فركوزا كسالبه * والحرب دائرة من كف معتقل
جيش اصابتهم عين الكمال وما * يجلو من العين الا غير مكتمل
لهم يوم حسنين اسوة وهم * خير الانام وفيهم خاتم الرسل
سيفتضيك بضره عند اهونه * البيض كالبيض والادراع كالخلل
ملك بعدد من الاناس ذوكلف * بالصدق في القول والاخلاص في العمل
فالسمر ما أصبحت والشمس ما أفلت * والسيف ما فلال والطود لم تزل
وكم تجلي بنور الدين من ظلم * وانجاب ما كان للاضلال من نطل
وكم لعمري كفوا الطرف من جين * عند اللقاء وغضوا الطرف من نجل
طلبتم السهل تبغون النجاة ولو * لذتم بملككم لذتم الى الجبل

في اخبار (١٢٩) الدولتين

اسلمته ووليتهم فأسلمكم * بئس ثوبها الطود لم يسئل
 فقام فردا وقد ولت محافلهم * فكان من نفسه في محفل زجل
 في مشهد لوليوث الغيل تشبهه * خرت لاذقانتها من شدة الوهل
 وسط العدى وحده ثبت الجنان وقد * طارت قلوب على بعد من الوهل
 يعود عنهم رويدا غير مكترث * بهم وقد كثر فيهم غير محتفل
 يزاد قدما اليهم من تيقنه * ان التأخر لا يجي من الاجل
 ما كان اقربهم من اسر ابعدهم * لو انهم لم يكونوا منه في شغل
 ثباته في صدور الخيل اتهمكم * لا تحسبوا ونبات الضمر الذليل
 ما كل حين تصاب الاسد غافله * ولا يصيب الشدد البطش ذوالاغل
 والله عونك فيما أنت مز معه * كما أعانك في أيامك الاول
 كم قد ملكك لهم ملكا بلا عوض * وحزن من بلد منها بلا بدل
 وكسفت العوالي من طلي ملك * وكمرت العوا في من قرابطل
 لا تكتم سبهك الاقدار عن غرض * ولا تثبتك الايام عن أمل

قلت حاول ابن اسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتنبى في قوله (غيري بأكثر هذا الناس بخدع) القصيدة فان كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنزومون وقد احسنهما معاني الله عنهما وعبدا لله بن أسعد هذا فقيه فاضل وشاعر مفلق كان مدرسا بجمص يعرف بابن الدهان وله ترجمة في تاريخ دمشق وقد ذكره العباد الكاتب في خبرته فأحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره وسيأتي ذكره أيضا في هذا الكتاب في أخبار سنة سبعين وست وسبعين وثمان وسبعين ان شاء الله تعالى وفي هذه السنة اعني سنة ثمان وخمسين وخمسمائة توفي عبد المؤمن بن علي خليفة المهدي محمد بن نور مت صاحب المغرب وولي بعده ابنه يوسف

(ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة) ففيها سار أسد الدين شيركوه بن شاذي الى مصر لانه الاول وهو من أكابر الامراء الذين في الخدمة النورية غاز ما على ملك الديار المصرية واستضافتها الى المملكة النورية وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب وهو أكبر ابنه شاذي من بلدوين وهي بلدة من آخر بلاد اذربيجان مما الى الروم وأصلها من الاكراد الزواذية وهذا القبيل هو أشرف الاكراد وقد جاء العراق وخدمه بجاهد الدين بهر وزا الخادم وهو شخصته العراق فرأى في نجم الدين عقلا ورأى باو حسن سيرة فجعله دزدارا بكنيت وهي بلدة فسار اليها ومعه أخوه أسد الدين فلما انهمز أتابك زنكي الشهيد والنور الدين بالعراق ومعه الخوارج الساقى وهو أتابك داود بن السلطان محمود وذلك زمن المسترشد بالله سنة ست وعشرين وخمسمائة وصل الى نكر يتخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن فعبه دجلة وتبعه أصحابه فأحسن نجم الدين محبتهم وسيرهم ثم ان أسد الدين قتل انسانا نصرانيا بكنيت الملاحاة جرت بينهما فارسا بجاهد الدين اليه والى أخيه نجم الدين فأخبرهما من نكر بت وقيل ان أيوب كان يحسن الزمالة فرمى شخصان بمالك بهر وز يسهم فقتله فحشى على نفسه فتوجه نحو الشام وخدم مع زنكي وقيل لما قتل أسد الدين شيركوه النصراني وكان عزيزا عند بهر وز هرب الى الموصل والتحق بأيوب به وسنوضح هذه القضية ان شاء الله تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمان وستين ثم ان أيوب وشيركوه قصد أتابك الشهيد فأحسن اليهما وعرف لهما خدمتهما واقطعها لهما فصارا من جملة جنده فلما فزع حصن بعلبك جعل نجم الدين دزدارا فيه فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق نجم الدين فأرسل الى سيف الدين غازي وقد قام بالملك بعده والده منهي الحال اليه فلم تفرغ بعلبك وضاق الامر على من بها وخاف نجم الدين ان تؤخذ عنوة ويثاله أذى فأرسل في تسليم القلعة وطلب اقطاعا ذكره فأجيب الى ذلك وحلف له صاحب دمشق عليه وسلم القلعة ووفى له بما حلف عليه من الاقطاع والتقدم وصار عنده من أكابر الامراء واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد وكان يتخدمه في أيام والده فقرر به نور الدين واقطعه ورأى منه في حروبه ومشاهدته ناراً يجر عن غيرته لشجاعته وجرأته فزاد اقطاعا

كتاب (١٣٠) الروضتين

وقر باحتي صارت له حص والرجبة وغيرهما جملته مقدم عكره فلما انطلقت الهمة النورية بملك دمشق أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين وهو بها في ذلك فطلب منه المساعدة على فتحها فأجاب الى ما يراد منه وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثير من الاقطاع والاملاك بلدهم في غيرهما فبذل لهما ما طلبا منه وحالف لهما عليه فوفي لهما لما ملكها وصارا عند في اعلى المنازل لاسيما نجم الدين فان جميع الامراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين الا أن يأمرهم او احدهم بذلك لانجم الدين فانه كان اذا دخل اليه قعد منهم غير ان يؤمر بذلك فلما كان سنة تسع وخمسين عزم نور الدين على ارسال العساكر الى مصر ولم ير لهذا الامر الكبير اقوم ولا أنشجع من أسد الدين فسيره وكان سبب ذلك ان شاور بن مجير اباشجباغ السعدي وهو الملقب أمير الخيوش الذي يقول فيه عماره من قصيدة
 صخر الحديد من الحديد وشاور * في نصر آل محمد لم يصخر
 حلف الزمان لبائتين بمثله * حنث يمينك يا زمان فكفر

وهو وزير الملقب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين بمصر كان قد وصل الى دمشق في سنة ثمان وخمسين سادس ربيع الاول الى نور الدين مستنجدا به على من أخذ منه منصبه قهرا وكانت عادة المصريين انه اذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا بعجزه وقوا للقاء منهم ورتبوه ومكنوه فان قوتهم انما كانت تكون بعسكر وزيره وهو الملقب عندهم بالسultan وما كانوا يرون المكاشفة واغراضهم مستقيمة وقوا عنهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال وكان شاور قد غلب على الوزارة واتزعها من بني رزيك وقتل العادل بن الصالح ابن رزيك الذي وزير بعده ابيه واسمه رزيك ويلقب بالناصر ايضا وهو الذي استخضر القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي من الاسكندرية واستخدمه بمحضته وبين يديه في ديوان الجيش على ما ذكره عماره البني في كتاب الوزراء المصرية وقال غرس منه للدولة بل للسلطنة شجرة مباركة متزايدة لما أصلها ثابت وفرعها في السماء ثم خرج على شاور نائب الباب وهو أمير يقال له ضرغام بن سواد ويلقب بالمنصور فجمع له جموعا كثيرة لم يكن له بها قبل فقلبه وأخرجه من القاهرة وولده طيا واستولى على الوزارة فحل شاور الى التمام قاصدا خدمة نور الدين مستصر خا به ومستنصرا فأحسن لقاءه وأكرم مثواه فطلب منه ارسال العساكر الى مصر ليعود اليها ويكون له فيها حصه ذكرها له ويتصرف على امره ونهيه واختياره ونور الدين يقدم في ذلك رجلا يؤخر أخرى تارة لتحمله رعا به قصد شاور وطلب الزيادة في الملك والقوى على الفرنج وتارة تمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه الا ان يوغاوا في البر فبتعوضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج ايضا ثم استخار الله تعالى وأمر أسد الدين بالتحضر ليسر معه قضاء الحق الوافد المستصرخ وحبسا للبلاد وتطلعا على أحوالها وكان هو أسد الدين في ذلك وكان عنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالي معه بمخافة فتحجز وسار مع شاور في جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين هكذا ذكر ابن الاثير والعماد الكاتب وقال القاضي ابن شداد كان ذلك سنة ثمان وخمسين والقول في ذلك قوله ما فقدينا ان قدوم شاور الى الشام كان في سنة ثمان وخمسين وارسال نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين قالوا وأمر نور الدين أسد الدين باعادة شاور الى منصبه والانتقام ممن نازعه في الوزارة وساروا جميعا وسار معهم نور الدين الى اطراف بلاد الاسلام مما يلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لاسد الدين فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ووصل أسد الدين سالما الى مصر هو ومن معه فهرب المنازع لشاور في الوزارة وقتل وظيفه أسه وعاد شاور وروى ان تمكن من منصبه وكان عماره قد مدح ضرغام بقصيدة منها

وأحق من وزير الخلافة من نشا * في حضرة الاكرام والاجال

واختص بالخلفاء وإنكسفت له * أسرارها بقرائن الاحوال

وتصرف الوزراء عن افعاله * كصرف الاسماء بالافعال

قال عماره ولما جازوا برأسه على الخليج وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة قلت ارجع جلالا

أرى حنك الوزارة صار سيفا * يحد بحمده صيد الفاب

كانك رايد البلى والا * بشير بالمنية والمصاب

ولعمارة الخيني من قصيدة مدح بها شاور وذكر وزارته قوله

فنصرت في الأولى بضرب زلزال السـد قدام وهي شديدة الاقدام
ونصرت في الاخرى بضرب صادق * أنحى بطير به غراب الهام
أدركت نارا واريجعت وزارة * نزعاً بسيفك من يدي صرغام
وكان صرغام أولاً من أصحاب شاور واتباعه وتندأشار الى ذلك عماره في قوله من قصيدته
كانت وزارتك القديمة مشرعا * صفوا ولك كذرت غدرانها
غصبت رجال تاجه وسيره * من بعدما سجدت له نجانها
وله من قصيدة أخرى في شاور

وزرتمته الوزارة أولاً * وثانية عفووا بغير طلاب
لخائته في الأولى بطانة وده * ورب حبيب في قبص حباب
وجاءته تبغى الصلح ناني مرة * فلم يرض الا بعد بضرب رقاب

ولم يغلب وزيرهم وعاد غير شاور وكان مدة أخذ الوزارة منه الى ان عادت اليه تسعة أشهر سواء وهي مدة الحلال نص
عمارة على ذلك وقال قتل ولده طي يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان وجاز رأسه على رمح تحت الطيقان والنساء
يولول بالصراخ وكان فيهن واحدة تحفظ قولي في الصالح

اينسى وفي العنين صورة وجهه الـ * كرم وعهد الـ لـ الـ قريب
فما زالت تكرر حتى رأيت رأس صرغام قال وأدرك شاور ناره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة
فيكون بينهم تسعة أشهر قال وقلت في ذلك

وزنعت ملكك من رجال نازعوا * فيه وكنت به أحق واقعة دا
جذبوا رداءك غاصبين فلم تزل * حتى كوت القوم أردية الردى
وبردت قلبك من حرارة حرقة * أمرت نسيم الليل ان لا يبردا
ناريح هذائته في مثله * يوما بيوم عبرة لمن اعتدى
جلبت به الايام تسعة أشهر * حتى جعلن له جمادى مولدا
وله فيه أيضا

لله درك مـوتورا اقض به * دست و سرج واجفان ومضطجع
ما غبت الا يسيرا ثم لحت لنا * والثارمة درلوا الملك مرتجع
قضية لم ينل منها ابن ذى برن * الا كما نلت والاثار تتبع

قال ابن الاثير وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة وغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية
ولأسد الدين أيضا فارس الى يامره بالعود الى الشام فانفأسد الدين من هذه الحال وأعاد الجواب يطلب ما كان
اسـمـه فـلم يجبه شاور له فلما رأى ذلك أرسل نوابه قدسوا مدينة بلبيس وحكم على البلاد الشرقية فارس شاور الى
الفرنج يستمدحهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك ان ملك كهن نور الدين فهم
خائفون فلما أرسل شاور اليهم يستمدحهم ويطلب منهم ان يساعده على اخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج
لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية دعوته والمبادرة الى نصرته وطمعوا في ملك يار مصر وكان قد نبذل لهم مالا على المسير
اليه فتحجزوا وساروا فاما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير سار يعسا كره في أطراف بلاده مما يلي الافرنج ليمتنعوا
من المسير فلم يمتنعوا العلم ان الخطر في مقامهم اذ ملك أسد الدين مصر أشد من الخطر في مسيرهم فتركوا
في بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس في الباقيين الى مصر وكان قد وصل الى الساحل جمع كبير من الفرنج
في البحر لزيارة البيت المقدس فاستعان بهم ملك الفرنج فأعانهم وسار بعضهم معه وأقام بعض في البلاد لحفظها فلما
قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس وأقام بها هو وعسكره وجعلها نظرا يتحصن به فاجتمعت

العساكر المصرية والفرنجية ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبليس وحصر ومها ثلاثة أشهر وقد امتنع أسد الدين بها وسورها من طين قصير جدًا وليس له خندق ولا جليل يحجبها وهو يغاديرهم القتال ويرأوهم فلم يبلغوا منه غرضًا ولا نالوا منه شيئًا فبينما هم كذلك إذا ناهم الخبر بزمعة الفرنج بجمار ومالك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس فحينئذ سقط في أيديهم وأرادوا العود إلى البلاد ليحفظوها ولعلهم يدركون بانياس قبل أن يخذلها فميدركوها إلا وقد ملكها على ماسيًا في بيانه أن شاء الله تعالى وراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل قال ابن الأثير فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبليس قال رأته وقد أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم ويسدهل من حديد يحي ساقهم والمسلمون والفرنج ينظرون قال فانه فرنجي من الفرنج الغرباء فقال له أما تتخاف أن يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج قد أحاطوا بك وبأصحابك فلا يبق لك معهم بقية فقال شكره بالتيهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثله كنت والله أضع فيهم السيوف فلا تقتل حتى تقتل رجالًا وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفي إبطهم فملك بلادهم ويفي من بقي منهم والله لو أطاعني هؤلاء يعني أصحابه لخرجت إليكم أول يوم لكنهم امتنعوا فقلب الفرنجي على وجهه وقال كأنه من فرنجي فنهض هذا الداروم بالفتيم في صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم ثم رجع عنه وسار شكره إلى الشام وعاد مسالمًا وقال العماد الكاتب وصل شاور إلى نور الدين ملتجئًا فالقاه على عدوه معديا مشيكًا وسير معه أسد الدين على قرار عينه وأمر يذنه وبغية يدر كها وخطة يملكها وبحجة واجهة في الملك يسلكها فغضى عنه ونصره وأصفي له مئصرة واسترد له موضعه وأظهره بعلوه وأظفره بعدوه فلما باد خصمه بدأوصمه وغدر بعده وأخلف في وعده وكان قد راسل الفرنج وهاداهم في حرب الاسلام فوصلوا فخصم شكره ومن معه بمدينة بلبليس فخاصره شاور ويخون مصر والفرنج ثلاثة أشهر من مستهل رمضان إلى ذي الحجة فبذلوا له قطعة فأنصرف عنهم وعاد إلى الشام وفي قلبه من شر شاور الآخر وكيف تمت بغدره تلك المحن قلت وقد أشار إلى ذلك عمار في قوله في مدح شاور وذكر الأفرنج فقال

وأخذت من مصر عدوا بمثلها * فله من ظفر قلت وناب
صدمت جموع الكفر والشام صدمة * أختبها للقوم سوق ضراب
وقد جردت أجناده مصر عزائم * مضاربها في العجز غير نوابي
تولوا عن الأفرنج فادح ثملها * ودارت رحاها منهم بهضاب
أقامت دروع الجند تسعين ليلة * ثيابا لهم ما بدلت بثياب
وهم بين مطروح هناك وطارج * وبين مصيب خصمه ومصاب

وقال القاضي بن شداد سار أسد الدين إلى مصر واستعجب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وجعله مقدم عسكره وصاحب رايه وكان لا يفصل أمرا ولا يقرر حالًا إلا بمشورته ورايه لما لاح له منه من آثار الأقبال والسعادة والفكرة الصحيحة والقران النصر بجر كاته وسكانه فسار واحتى وصلوا مصر وشاور معهم وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم وخافه أهل مصر ونصر شاور على خصمه وأعاده إلى منصبه ومرتبته ومقر قواعده وشاهد البلاد وعرف أحوالها وعلم أنها بلاد غير رجال تمشي الأمور فيها بغير الإيهاام والمحال وكان ابتداء رحيله عنها متوجهًا إلى الشام في السابع من ذي الحجة فافام بالشام مدبر الأمر مفرقًا في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية فحدثنا بذلك نفسه مقررًا لقواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين قلت ولفعّل شاور ما فعل مع أسد الدين وصفه الشعر العبا لغدره وقوعوا فيه قبل قتله وبعده على ما سنده من رويق متخوفًا من أسد الدين فقال عرقله الكلي من جلة قصيدة له وهيل هم يوم ما شبر كوه بجلقي * إلى الصيد إلا ارتاع في مصر شاور هو الملك المتصور والأسد الذي * شذاذ كرمه في الشرق والغرب سائر وفيها في ذي الحجة احترقت جبرون بعد رجوع أسد الدين إلى دمشق فقال العرقله بمدحه وبذكره كركل جابر الردي على جبرون * وسقى أهلها كؤس المنون

في اخبار (١٣٣) الدولتين

أصبحت جنسة وامست بجها * تنلظي بكل قلب حزين
كيف لاتذرف الدموع عليها * وهي في الشام نزهة للعيون
حينما حصنها الحصين لقد كا * ن جبال الكل حصن حصين
أي سيف سطا على دار سيف * وزبون أتى بحرب زبون
خلت نيرانها وكل ظلام * نار إلى تلوح للجنون
كم غنى اليمن امعى فقيرا * وفقير امسى غنى اليمن
كل حين لها حريق جديد * ليت شعري ماذا لها بعد حين
كل هذا البلاء عاقبة الفسق وشرب الخمر والتلحين
ولقد درّوها بهـ نـزم وخـرم * أسد الدين غاية المسكين
وحى الجوامع المقدس والمشهد من جرها بما معـين
ملك فعـله بدجلة والبنـا * ب فعال الامام في صفـين

(فصل) في فتح حارم قال العماد الكاتب وفي تلك السنة يعني سنة تسع وخسين اغتحم نور الدين خلوة الشام من الفرنج وقصدهم واجتمعوا على حارم فحاربهم معهم المصاف فرزقه الله تعالى الانتقام منهم فأسرهم وقتلهم ووقع في الأسار ابرنس انطاكية وقومص طرابلس وابن جوسلين ودوك الروم وذلك في رمضان وقال في الخريدة كانت نوبة البقية نوبة عظيمة على المسلمين واقلت نور الدين في أقل من عشرة من عسكره ثم كسر الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم وقتل في معركة واحدة منهم عشرين ألفا واسر من نجبا وأخذ القومص والارنس والدوقس وجميع ملوكهم وكان منها عظيم وفخامينا قال ابن الاثير والسبب في هذا الفتح ان نور الدين لما عاد من مزمار على ما سبق من غزو قناحية حصن الاكراد اقبل على الجذوالا جهاد والاستعداد للجهاد والاخذ بثأره وغزو العدو في عقرداره وليرتق ذلك الفتى ويحموا اسمه الوهن ويعيد رونق الملك فراسل أخاه قطب الدين بالموصل ونفر الدين قرا ارسلان بالحصن ونجم الدين البني بماردين وغيرهم من اصحاب الاطراف أما قطب الدين أنابك فانه جمع عساكره وسار مجدا وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه وأما نخر الدين قرا ارسلان فانه بلغني عنه انه قال له خواصه على أي شيء عزمت فقال على القعود فان نور الدين قد تحشفت من كثرة الصوم والصلاة فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك وكانهم وافقه على ذلك فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك ما عدا ما بدأ فارقناك بالامس على حال ونرى الآن عدوها فقال ان نور الدين قد سلك معى طريقا ان لم أنجدهم خرج أهل بلادى عن طاعنى واخرجوا البلاد عن يدي فانه كات زهادها وعبادها والمنقطعون عن الدنيا بدكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم ان يحشوا المسلمين على الغزاة فقد تعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤن كتب نور الدين ويكفون ويلعنون ويدعون على فلا بد من أجابة دعوته ثم تجهز أيضا وسار الى نور الدين بنفسه وأما نجم الدين الي فانه سبر عسكر انما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فزل عليها وحصرها وبلغ الخبر الى من بقى من الفرنج بالساحل انه لم يصر الى مصر فحشدوا وجاءوا بمقدم الفرنج ابرنس صاحب انطاكية والفنص صاحب طرابلس وأعمالها وابن جوسلين وهومن مشاهير الفرنج واباطها والدوك وهو رئيس الروم ومقدمها وجعوا معهم من الراجل ما لا يقع عليه الاحياء قد ملا والارض وحجبا وبسط لهم السماء فحزم نور الدين أصحابه وقرق نفائس الاموال على شمعان الرجال فلما قرب به الفرنج رحل عن حارم الى ارتاح وهو الى لقائهم من ارتاح واغار حل طمعان يتبعوه ويتكمن منهم اذ القوه فساروا حتى نزلوا عنى وهو على الحقيقة يصحيف الملقوه من النعم ثم تيقنوا انه لا طاقة لهم بقتاله ولا قدرة لهم على نزاله فعادوا الى حارم وقد حرمته كل خير وتبعهم نور الدين فلما تقاربوا اصطفاو القتال وبدأت الفرنج بالجملة على مينة المسلمين وبها عسكر حلب فخر الدين فبذروا نظامهم وزلوا اقدامهم وولوا الادبار وتبعهم الفرنج وكانت تلك الفرقة من المينة عن انفاق ورأى دبره ومكر بالعدو مكره وهوان يبعدها عن راجلهم فيميل عليهم من بقى من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ويرغوا منهم

كتاب (١٣٤) الروضتين

لأنوف فاذا عاد فرسانهم من أثر المنزمن لم يبقوا راجلا ليجيئون اليه ويعود المنزمنون في آثارهم وتأخذهم سيوف
 لله من بين أيديهم ومن خلفهم فكان الأمر على ما دبر وافان الفرنج لما تبعوا المنزمن عطف زين الدين في عسكر
 الموصل على راجلهم فافتنهم وقتلوا أسرا وعادت خباياهم ولم يجهنوا في الطلب خوفا على راجلهم من العطب فصاروا
 راجلهم على الصعيد معفرين وبدا ثم مضرجين فسقط في أيديهم وراؤا أنهم قد ضلوا وخضعت رقابهم وذلوا فلما
 رجعوا عطف المنزمنون اعنتهم وعادوا في القيد والوسط وقد احسق بهم المسلمون من كل جانب فحينئذ حذى
 الوطيس وبشر الحرب المروء والريث وقاتلوا الفرنج قتال من يرجو باقدا منه النجاة وحاربوا حرب من ايس من
 الحياة وانقضت العساكر الاسلامية عليهم انقضاض الصقور على بغاث الطيور فخرقوهم بددا وجعلوهم قددا فألقى
 الفرنج بأيديهم الى الاسار وعجز واعن الهزيمة والفراروا كثر المسلمون فيهم القتل وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف
 وأما الأسرى فلم يهتصوا كثرة وبكيتك دليلا على كثرتهم ان ما لوهم أسروا وهم الذين من قبل ذكرنا وسار نور الدين
 بعد الكسرة الى حارم فلكهها في الحادى والعشرين من شهر رمضان وأشار اصحابه عليه بالمسير الى انطاكية
 لئلا يهلكها الخسوف هاجم يجمع ما يدفع عنها فلم يفعل وقال أما المدينة فأمر هاسم وأما القلعة التي تحاها في منيعة
 لا تؤخذ الا بعد طول حصار واذا ضيقنا عليهم ارسلوا الى صاحب القسطنطينية وسلموها اليه وبجاء ردينا صاحب
 الى من مجاورة ملك الروم وبث سراياه في تلك الاعمال والولايات فنهوا وسوا وأغاروا في البلاد حتى بلغوا الاذقية
 والسويداء وغير ذلك وعادوا الى نينوى نور الدين اطلق يمينه صاحب انطاكية بمال جزيل أخذ منه واسرى كثيرة
 من المسلمين اطلقهم وقال المحافظ أبو التماس كسر نور الدين الروم والارمن والفرنج على حارم وكان عدتهم ثلثين
 ألفا قال ووقع يميندى أسره في نوبة حارم وباعه نفسه بمال عظيم انفق في الجهاد قتل وبلغني ان نور الدين رحمه الله
 لما اتى الجحمان أوقبله انفر دحمت تل حارم وسجد له به عز وجل ومرغ وجهه وتضرع وقال يارب هؤلاء عبيدك
 وهم أولياؤك وهؤلاء عبيدك وهم أعدائك فأنصر أولياءك على أعدائك اش فضول محمود في الوسط يشير الى انك
 يارب ان نصرت المسلمين فدينك نصرت فلا تمنعهم النصر بسبب محمود ان كان غير مستحق للنصر وبلغني انه قال
 اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا من هو محمود الكلب حتى ينصر وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار
 سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن ديباط بعد نزولهم عليها وهذا فتح عظيم ونصر عزيز انتم الله به على نور الدين
 والمسلمين مع ان جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه كما سبق وهذا من عجيب ما وقع وانفق

(فصل) في ذكر وزير الموصل جمال الدين الجواد الممدوح ووفاته في هذه السنة رحمه الله وقد ذكره العباد
 الكاتب في مواضع من مصنفاته واثنى عليه ثناء عظيما حسنا فما ذكره في كتابه الموسوم بنصرة القنطرة وعصرة الفطرة
 في أخبار الوزراء السلجوقية ان قال ذكر جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور وكان والده من اصفهان يدعى
 الكامل على وهو صاحب الوزر شمس الملك بن نظام الملك وكان أبوه أبو منصور فهدا في عهد السلطان ملكشاه
 ابن البارسلان وابنه الكامل أديب وراى في أيامه في السمو ويا منه في الفتوح حتى تنافس في استخدام الملوك
 والوزراء واستضاءت برأيه في الحوادث الاراء وقد كان زوج بنتا له بعض أولاد أحوال العزيز يعني عم العباد
 لكاتب قال فاشتمل لذلك العزيز بزرجه الله على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد وخرجه في الادب ودرجه في الرتب
 فأول ما رتبته في ديوان العرض السلطاني الممكودي وغلب في تجليته ذكر الابلج بفضله الا تراك بالابلج واستقام في
 نجابته على النهج واتفق انه لما نولى زنى بن اقسنقر الشام تزوج بأمرأة الامير كيد غدى وولدها مناص بك
 ابن كيد غدى من امراء الدولة وابنه الملكة وهو يسير معها قريبه العزيز لخا صلبك وزير افسار في العجبة وكان
 مقبل الوجهة مقبول الفكاهة شهي المشاشة يهي البشاشة فتوفرت من زنى على منادته وقصر صاحبه ومساءه
 على مساهمته وعول عليه آخر عمره في اشراق ديوانه وزاد المال وزان الحال بكنيته ومكانه فلم يظهر لجمال الدين
 في زمان زنى جود ولا عرف له موجود فانه كان يقتنع باقواته وزججه أوقافه ويرفع جميع ما يحصل له الى خزنة
 زنى استبقاها لجاهه واستعلا به على أشباهه فكنه زنى من اصحاب ديوانه فهم من استصرت بأساعته ومنهم من
 انتفعم باحسنه ولما قتل زنى صار للدولة الاتاكية معلاذ والبيت الاقسنقرى معاذا واستوزره الامير غازي بن

زنى وازره على كوجك على وزارته وحلفه على مظاهره ومظافره وحري بين جمال الدين الوزير وبين زير
الدين على كوجك وبين سيف الدين غازى التعاقد على التعااضد والتعاهد على التساعد وتولى جمال الدين وزارة
الموصل واستولاه فعاشر بندا الجود وعشا الى ناديه الوفود ونادت به الموصل قبلة الاقبال وكعبة الاسمال
فأثارت مطالع سعوده وسارت فى الآفاق صنائع جوده وعمر الحرمين الشريفين وشمل بالبرأهلهما وجمع بالامن
شملهما واجرى بحر السباح ونادى على الفلاح فصاحت بافضاله الفاظ الفصاح وأنواله من كل فج عميق
وقصد من كل بلد محيق فقصدته العزاء ومدحه الشعراء ومن وفد اليه أبوالفوارس سعد بن محمد الصفي المعروف
بحميم بيص قال وأنشدنى لنفسه فيه قصيدة أولها

بالصوارم والزماح أنبزل * نصر او من أنجدت عالم بخذل
لوشتما ومشيتة بمشيتة * جاد الزمان وبالعلي لم يخذل
فاقتنى غفارك يا مجاشع واعلى * انى لكم من هتى فى جففل
انافارس اليومين يوم مقالة * ووغى أصول بصارى وعقولى
ظلمت فضائلى المقاول مثل ما * ظلمت جمال الدين ماوى العيل
مدحوه كى يحو واما ذنب نفسه * فظلمت فسالت بالمدائح من عل
فاتيت ابذل ما استطعت ومن يرد * نقل الخضم الى المزايدة يخجل
شمس من الاحسان عم ضياؤها * بل اية جاءت بحجة مرسل
يعطى الجزيل لسانى معروفه * ويجود بالنعمى اذالم يسأل
وتريده شوس الخطوب طلاقة * فيكون أبسم ما يرى فى المعضل
ثقلت به الاعناق من من الندى * فالهام مطرقة لذلك الثقيل
فاذا اتلاقى الناس كان حديثهم * عن كل جف فى الجمالة مسدل
أسر امعروف الوزير فكلهم * عاف تراه مطلقا كمكبل
من سمرقند الى تمامه شاهد * فضل الجمال على الحيا المتل
السحب تمطر رما تظل وجوده * يسرى ودار مقامه بالموصل
وتقر عين محمد بمحمد * محي دريمى علمه والمزل
معمار مرقد وحافظ دينه * وهمين أمته بجود مسين
جعل المدينة مصر ربعا أهلا * نسوان يرح بالنعم المحصل
فكانها بالخصب من قربانه * بار على شط الفرات السلسل
فلوانه فى عصره نزلت له * فى مدحه سور الكتاب المنزل
عبد اخ فى ضيقه ووداده * لا يستميل وسيد فى المحفل
خرق نياط قيصه وردؤه * بعباب زخار وهضبة يذبل

قال العماد وكننت أنا فى ذلك العهد متفقه يا بعدا واتفق حضورى بالموصل سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فحضرت
عند جمال الدين بالجما مع فى جمعتين وتكملت عنده مع النفاة فى مسألتين وعما مدحته به قصيدة أولها

أنظنهم وقد عزموا ارتحالا * تنسوا عنا جبالا لا جبالا
سروا والصبح مببض الحواشى * فلما حال عهد الوصل حالا
هم اعتمدوا المدلال فكيف ملوا * وصالحهم وما ملوا الملالا
احادى عيسهم بالله رفقا * فان السيرا ورثها الكلالا
وعج نحو الاراك بها فانى * اراه لا اجتماع النمل فالالا
سقى صوب الحيات انا نجلد * وحييا بالحي تلك التلالا

كتاب (١٣٦) الروضتين

اخلائي وهل في الناس خصل * به اخلاي لوم الاخران بالا
لئن لم أشف صدري من حسودي * ولم أذق العدى داء عضالا
فلا درككت من أدبي مرادا * ولا صادفت من حسبي منالا
ولا وخذت اليكم في جمال * ولا واليت مولانا الجمالا
هو المغني اذا ما المرء أقوى * هو المجني اذا ما الخطب هالا
وفائله افي الدنيا كريم * سواء فقلت لا وأبي العلالا
اطلت على الوري كراما غفرا * كذلك من حوى هذين طالا
وحزت المجهد عن كسب وارث * فبا صدر الوري خزت الكمالا
خصصت بكل منقبة وفصل * تعالى من حباك به تعالى
قلت وقد أكر الشعر افي مدحه منهم العرقلة له قصيدة منها

يهوى تجنبه والصدود كما * يهوى المعالي محمد بن علي
جمال دين الاله خير فتى * لا سرزق اقلامه وللأجل
معطي القرى والقرى لقاصده * من غير من الخيل والخيول
مثل فتوح الفاروق نائله * شرقا وغربا في السهل والجبل
من قال لم يحوزا ويسكن ذا * أصبح مما بقول في خجل
محمد خاتم الكرام كما * سببه كان خاتم الرسل

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدة

كسي الحرمين لبسة عبد شمس * وهاشم غرتي نسل الخليل
وللبلاء الامن اجد امنا * تكنف مثله جد الرسول
عشيتم بولاية الامر عا * اتبع له من الاثر الجليل
وطارها وأشذقتم فشد السيد بن علي عرى المجد الاثيل
بيوت بالحجازة قدسات * وماها الدهر بالخطب الجليل
وكان اذا الحسن فصاب صونا * لمن آوته من ولد البتول
ماثر باقيات يوم يحني السمع قال ويحتجى طيب المقيـل
وكم للموصل الحدا بها * تبدل بداء من ريف ونيـل
برود الصفع ملغب الحواشي * مهيب البطش فراس الدخول

ولأبي المجد قسم الجوى فيه من قصيدة

اغرب بصرمته الناس في رجل * واللمث في بشر والبدر في غصن
سما بهمته في المعكر مان الى * علياء بقصر عنها همة الزمن
يلقاك واضع ليل الفكر راجية * لالكف طاهر ذيل السر والعلن
ماضي العزيمة ميمون النقية ريبال الكنية عين القائل اللسن
اذ انكلم واستحللت غمرته * في محفل رحمت حالي العين والاذن
كأن في الدست منه حين تنظره * شمس النهار وصب العارض الحسن

قال ابن الاثير وفيها في شعبان من هذه السنة وهي سنة تسع وخمسين وخمسمائة توفي الوزير جمال الدين محمد ابن علي بن أبي منصور الاصفهاني كان قد خدم الشهيد فولا نصيبين وظهرت كفايته فأضاف اليه الرحبة فابان هن كفاية وعفة وكان من خواصه فجعله مشرف مملكته كلها وحكاه بحكمه الامر بدعليه حتى كان وزير الشهيد ١١١٠ كوفي ملاده ضياء الدين ابن الكفر توفي بحكمه هن جمال الدين قال كان يدخل الى اناك قبل ويخرج بعدي

ولم يزل كذلك الى أن قتل الشهيد ثم وزر لولدي الشهيد سيف الدين ثم قطب الدين وكان بينهما وبين زين الدين علي كوجيك عهد ومواثيق على المصافاة والاتفاق وكان أصحاب زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدين فنهاهم وكانت الموصل في أيامه لمجال كل ملهوف ومأنا لكل خائف فسمي به الحساد الى قطب الدين حتى أغروا صدره عليه وقالوا له انه يأخذ أموالك فيصدق بها فليكم به أن يغبر عليه شيئا بسبب اتفاه مع زين الدين فوضع على زين الدين من غير عن مصافاته ومواثيق قبض عليه قطب الدين وحسبه بقلعة الموصل ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه لان خواص قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين فلما قبض تبسطوا في الامر والنهي على خلاف غرض زين الدين فبقى جمال الدين في الحبس نحو من سنة ثم مرض ومرضى لسبيله عظيم القدر والخطر كريم الورد والمصدر عديم النظير في سعة نفس لم يرو في كتب الا قبل ان أحد من الوزراء اتسعت نفسه ومروته لما اتسعت له نفس جمال الدين فلقد كان عظيم الفتوة كامل المروءة قال ابن الاثير حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصوفي وهو رجل من الصالحين كان يتولى خدمة جمال الدين في محبته قال لم يزل الجمال مشغولا بأمر آخره مدة حسبه وكان يقول كنت أخشى أن أقبل من الدست الى القبر قال فلما مرض قال لي بعض الايام يا أبا القاسم اذا جاء طائر أيضا الى الدار فعرفني فقلت في نفسي قد اختلط الرجل فبنا كان الغداة اكثر السؤل عن ذلك الطائر واد اطاره أيضا لم يزل منه قد سقط فقلت له قد جاء الطائر فاستبشر ثم قال جاء الحق وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى وتوفي فلما توفي طار ذلك الطائر قال فقلت انه رأى شيئا في معناه ودفن بالموصل نحو سنة وكان قد قال للشيخ أبي القاسم ان بيني وبين أسد الدين شيركوه عهدا من مات فمات قبل صاحبه حمله الحى الى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام قد فتنه بها في التربة التي علمها فان انا مت فامض اليه وذكره فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم الى أسد الدين في هذا المعنى فأعطاه ما لا يصلح له لعله به الى مكة والمدينة وأمر ان يحج معه جماعة من الصوفية ومن يقرأين يدي تابوته عند التزول والرحيل وقدم مدينة تكون في الطريق وينادون في البلاد بالصلاة على فلان ففعلوا ذلك فكان يصلى عليه في كل مدينة خلق كثير فلما كان في الحلة اجتمع الناس للصلاة عليه فاذا شاب قد ارتفع على موضع عال ونادى بأعلى صوته

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما ❀ سرى بره فوق الرقاب ونائله

يمر على الوادى قنتى رماله ❀ عليه وفي النادى قبكى ازاله

فلما ربا كأكثر من ذلك اليوم ثم وصلوا به الى مكة فصاروا به حول الكعبة وصاروا عليه بالحرم وجاوه الى المدينة فصاروا عليه أيضا دفنوه بالباط الذي أنشأه باؤ بين قبر النبي صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ذراعا قلت كذا قال ابن الاثير ولقد رأيت المكان ولعله أراد الحائط الشرقي من مسجد النبي صلى الله عليه وسلم لانفس القبر الشريف زاده الله شرفا وصلى على ساكنه ثم قال كان جمال الدين رحمه الله اسخى الناس وأكثهم عطاء وبذلا للمال رحما بالناس متعطفا عليهم عادلا فيهم فمن أعماه الحسنه انه جدد بناء مسجد الخيف بنى وغرم عليه أموالا عظيمة وبنى الخرج بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه ثم غير وبني غير وستة ست وسبعين وخمسة مائة وزحف الكعبة بالذهب والنقرة فكل ما فيها من ذلك فهو عمله الى سنة تسع وست مائة ولما أراد ذلك أرسل الى الامام المقتدي لامر الله هدية جليلة حتى أذن فيه وأرسل الى أمير مكة عيسى بن هاشم خلعا سنية وهدية كبيرة حتى مكته منه وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات وعلى الدرج الذي يصعد فيه اليه وكان الناس يلقون شدة في صعودهم وعمل يعرفات مصانع الماء وأجرى الماء اليها من نعمان في طريق معمره تحت الجبل مبنية بالكل فمر على ذلك ما لا كثيرا وكان يعطى أهل نعمان كل سنة ما لا كثيرا ليركوا الماء يجرى الى المصانع أيام مقام احتجاج بعرفات فكان الناس يجدون به راحة عظيمة قال ومن أعظم الاعمال التي عملها نفعه انه بنى سوراء على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فلما كانت غير سور بينهما الاعراب وكان أهلها في ضنك وضرهم رأيت بالمدينة أنسا ناصلى الجمعة فلما فرغ من حرم على جمال الدين ودعاه فساأنا عن سبب ذلك فقال يجب على كل من بالمدينة ان يدعو له لانا كافي ضر وضييق ونكد عيش مع العرب لا يتركون لاحد منا يواريه ويشبع جوعته فبنى علينا سوراء احتية نأبه من يريدنا بسوء فاستغنىنا

فكيف لاندعوله قال وكان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته اللهم من حريم من صان حرم نبيك بالسور محمد بن علي ابن ابي منصور قال فلو لم يكن له الا هذه المكرة لم لكفاءه خراف كيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الارض وغربها وسمعت عن متولي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره الفقراء سوى الادارات والتعهدات قال كان له كل يوم مائة دينار اميرة يتصدق بها على باب داره قال ومن ابنته العجبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالجسر النخوت والحديد والراسص والكلس الا انه لم يفرغ لانه قبض قبل فراغهم وبني ايضا جسرا على نهر الار باد عند الجزيرة ايضا وبني الرطب بالموصل وسجبار ونصيبين وغيرها وقصده الناس من اقطار الارض ويكفيه ان صدر الدين المحدث رئيس اصحاب الشافعي رضي الله عنه باصبيان وابن الكافي قاضي قضاة همدان قصده فخرج عليهم سالما لاجز بلا وكذلك غيرهما من الصدور والعلماء ومشايخ الصوفية وصارت الموصل في ايامه مقصدا ومجلا وكان احب الاشياء اليه اخراج المال في الصدقات وكان يضيق على نفسه ويسته يتصدق حتى لي والدي قال كنت يوما عنده وقد احضرني يديه قد تزلزل على وراي لم يلبس بخمسة دنانير فقال هذا الثمن كثير اشترى والي قد زاد دينارين وتصدقوا بثلاثة دنانير قال فرأجناه غير مرة فلم يفعل قال وحكي لي من اتى اليه من العدول بالموصل ان الاوقات تعذر في بعض السنين بها وغلت الاسعار وكان بالموصل رجل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملا فحضره جمال الدين وسلم اليه مالا وقال له تخرج هذا على مستحقه وكما فرغ ارسل الى لاتفذ غير فلم يرض الا ايام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين فانفذ له شيئا آخر فني ثم ارسل يطلب ما يخرج فقال جمال الدين للرسول والله ما عندي شيء ولكن خذوا هذه المحافر التي في داري بيعوها وتصدقوا بثمنها الى ان يأتيني شيء آخر فترسله الى الشيخ عرفني بيعت المحافر وتصدقوا بثمنها وعرفوه ذلك فلم يكن عنده ما يرسله فأعطاء ثيابه التي كان يلبسها مع العمامة التي كانت على رأسه وأرسل الجميع قال الرسول قل للشيخ لا يمتنع من الطلب فهذه ايام مواساة فلما وصلت الثياب الى الشيخ عركي وباعها وتصدق بثمنها وقال وحكي لي بعض الصوفية من كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل قال احضرني الشيخ فقال لي انطلق الى مسجد الوزير وهو بظاهر الموصل واقعد هناك فاذا أتاك شيء فاحفظه الى ان احضر عندك ففعلت واذا قد أقبل جمع من الجمالين يحملون أحمال الصافي والحام واذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ومعها فاشك كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجمال فقال لي تأخذ هذه الاجال وتسري الى الرحمة فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب الى متوليها فلان فاذا احضرك فلان العربي فتوصل اليه هذه الرزمة الاخرى وهذا الكتاب وتسير معه فاذا أوصلك الى فلان العربي فتوصل اليه هذه الرزمة وهذا الكتاب وهكذا الى المدينة على ساكنها افضل الصلاة والسلام توصل الى وكيلي فلان هذه الاجال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرج بها يقتضي هذه الجريدة ثم يأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة ويسير اليها فيتصدق به وكيلي بها بموجب الجريدة الاخرى قال فسرنا كذلك الى وادي القرى فرأينا به نحو مائة رجل يحمل الطعام الى المدينة وقد منعهم خوف الطريق فلما رأونا ساروا معنا اليها فوصلنا بها والحوطة بها كل صاعين دينار مصري والصاع خمسة عشر طل بالبغدادى فلما رأوا الطعام والمال اشترى كل سبعة أصع دينارا فانقلب المدينة بالدعاء له ثم سرنا الى مكة ففعلنا ما أمرنا قال وحكي لي والدي قال رأيت جمال الدين وقد حضر عنده رجل فقيه قبل ان يصير وزير فاطلب منه شيئا وترد عليه عدة ايام ثم انقطع فسأل عنه فقيل انه سافر فشق ذلك عليه ثم قال هكذا انتصرف الاحرار عن دور الكلاب ورد ذلك غير مرة ثم سأل عنه فقيل انه سار نحو مائة دينار فأرسل اليه خلعة وثيقة الى ماردن قال ولورومت شرح مفردات أعماله لاطلت واخبرت وهي ظاهرة لاحتياج البيان فلهذا تركا كثيرا وهذا قد ذكره الامير مؤيد الدولة اسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار فقال اجتمعت بجمال الدين الموصل على ستة نحس وخمسين وخمسمائة وانا متوجه الى الحج وكانت بيني وبينه مودة قديمة وعشرة ومائة فعرض علي الدخول الى داره في الموصل فامتنعت وزلت بجمتي على الشط فكان مدة مقامي كل يوم ركب يجوز على الجسر نحو نينوى وأتأكل قدر كركب الى الميدان وينفذ الي يقول اركب فانا واقف انتظره فاركب فاسير انا وهو ففتح فوجدت يوما منه خلوة من اصحابي فقلت له في نفسي شيء يتردد من حيث اجتمعنا اشبهني ان أقوله لك وما يتفق لي خلوة وقد خلونا الساعة قال قل قلت أقول ما قاله الشريف الرضي

في أخبار (١٣٩) الدولتين

ما ناصحتك خفايا الوء من أحد * ما لم يصبك بمكره من العذل

موتى لك تأبى ان نساخنى * بان أراك على شئ من الزلل

وقد بسطت يدك في انفاق المال في الصدقات ووجوه البر والمعروف والسلاطين بما يحفلون اخراج المال ولا تنصبر نفوسهم عليه ولوان الانسان بخرجه من ميراثه وهذا الذى أهلك البرامكة فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه فاطرق ساعة وقال جزاك الله خير الكن الامر قد عبر عما تخافه ففارقته وسرت الى الحجاز وعدت من مكة على طريق الشام ونكب جمال الدين ومات في الحبس قلت ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشافعى في هذا الوزير الجواد المالك

ما حظ قدرك من أوج العلى القدر * كلا ولا غيرت أفعالك الغير

أنت الذى عم أهل الارض نائله * ولم ينل شأوه في سودد بشر

سارت صفاتك في الافاق وانفخت * وصدق السمع عنها ما رأى البصر

فاصبر لصرف زمان قد منيت به * فاخر الصبر يا طود النهى الظفر

هما ترى أحدا في الخلق يسلم من * صروف دهره في أهله غير

سعوا بقصدك سرا واستبث لهم * ولوسعوا نحوه جهر الماقدروا

لولا الامانى التى تحبى النفوس بها * لمت من لوعة في القلب تستعر

وأصدق الناس في حفظ العهود اذا * ميزت بالعكر أحوال الورى عر

ازاهد العابد السبر التقي ومن * يزوره ويقوى أزره الخضر

وفال العرقة برئى جمال الدين الوزير والمصالح بن رزىك

لا خسر في الدنيا ولا أهلها * بعد جمال الدين والمصالح

بحمران لولا دمع باكيهما * ما كان ماء البحر بالمالح

قال ابن الاثير قال والذى كنت أرى من الوزير جمال الدين في الايام السعيدية من الكفاية والنظر في صغير الامور وكبيرها والمحاجة فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية فلما وصل الامر الى الملك قطب الدين مودود بن اتابك الشهيد وجمال الدين وزيره حينئذ وقد تمكن زين الدين على بن كتيكين في الدولة تمدكنا عظيما وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه فكان جمال الدين مع تمكنه وعلاق محله يميل بعض الامور قال فقلت له يوما ان تلك الكفاية التى كانت اها منكم في الايام السعيدية ما أرى الآن منها شيئا فقال لى والآن ما عندى كفاية فقلت ما هذا الجمل من ذلك شئ فقال أنت صبي غير ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان انما الكفاية ان يسلك الانسان في كل زمان ما يناسبه ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوى العزم لا يتنجس أحد على الاعتراض عليه ولا يتاخر باقوال أصحابه فحفظناه فكان ما أفعله هو الكفاية وأما الآن فلنا سلطان غير متمكن وهو محكوم عليه فهذا الذى أفعله هو الكفاية

ثم دخلت سنة ستين وخمسائة قال ابن الاثير فيها فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج وكان قد سار اليها بعد عودهم من فتح حارم وأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود الى بلادهم وأظهروا نية بدطرية فجعل من يقى من الفرنج همهم حفظها وتقويتها فصار نور الدين مجددا الى بانياس لعله بقله من فيها من الحماة الممانعين عنها وانازلها وضيق عليها وقتلها وكان في جملة عسكره أخوه نصر الدين أمير اميران فاصابه سهم أذهب احدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له لو كشف لك عن الاجر الذى أعد لك لثمنت ان تذهب الاخرى وجئت في حصارها وسمع الفرنج بذلك فجمعوا فلم يشكامل عدتهم حتى فقه الله تعالى على ان الفرنج كانوا قد ضعفوا يقتل رجالهم بحارم وأسرهم فلك القلعة وملاها ذخائر وعدة ورجلا عدسة وعاد نور الدين الى دمشق وفي يده خاتم يفض يا قوت من أحسن الجواهر فسطع من يده في شعراء بانياس وهى كثيرة الاشجار ملتفة الاغصان فلما أبعد من المكان الذى ضاع فيه الفص علم به فاعاد بعض

كتاب (١٤٠) الروضتين

أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه وقال أظنه هناك ضاع فعادوا اليه فوجدوه فقال بعض الشعراء الشاميين وأظنه
أجد بن منير من جملة قصيدة مدحه بها وهم بهذه الغزاة وعود القص الباقوت

ان عتر الشكك فيك فانك السهم هدى مطفي جرة الدجال
فلعودة الجبل الذي أطلتته * بالامس بين عناطل وجبال
مستر جعلك بالعبادة آية * ردت مطال الفال غير مطال
لم يعطها الاسلام وقد * نلت الرقاء بموشك الانجبال
فرج حري لسر برهك انه * كسر بره عن كل جذر عال
فلوالبحار السبعة استهوينه * وأمرتمن قذفه في الحال

قلت هذه الايات لابن منير بلا شك ولكن في غير هذه الغزاة فان ابن منير قد سبق انه توفي سنة ثمان وأربعين وفتح
بانياس كما تراه في سنة ستين وقد قرأت في ديوان ابن منير وقال يمدحه يعني نورا الدين ويمنيه بالعود من غزاة وضياع
فص يا قوت جبل من يده لا شغاله بالصيد شره ألف ومائة دينار وفي نسخة ووجدان خاتم ضاع منه في الصيد قيمته
ألف ومائة دينار وأنشده ياها بقاعة حصن فذكر القصيدة أولها (يوما لك يوم ندى ويوم نزال) يقول فيها

أخرست شدة الضلال وقدته * قود الذلول أطاع بعد صيال
ورميت دار المرصكين بصيلم * النحت فيها الحرب بعد حمال
وسعرت بين تريبهم وتراهم * ذعرا يشيب نواحي الاطفال
فوق الخطم وقد خطمت زعيمهم * ضربا سوابقه بغير توالى
ضربا ملات فرنجة من حره * رهبا به سيف الصقال صالى
وبفج حارم أحرمت لقراهم * هم أحلن النوم غير حلال
عجموا على حسر الحديد حديدتها * نبعيا بعدا ذمه ادير دصال
زلزلت أرضهم بوقع صواعق * أعطينا امننا من الزوال
في مازق شممت ذيلك تحته * والنصر فوقك مسيل الاذبال
في دولة غراء محمودية * سمحت رداء الحمد غير مذل
تنسى الفتوح بها الفتوح وتحتنى * زهر المقال بياهر الافعال
لبست بنور الدين نور حداثق * ثمرات غرائب الافصال
ملك تجبج في السرير برأرة * زرت حواسيها على ريبال
تجلب عن ذي ليدتين شداته * في بردني بدل من الابدال
رفع الزواق بروق انطاصكية * فرمى الخليج بمسرق اللبال
بدر لاربعة عشرة اقتبس السناب * من خمس عشرة سورة الانفال
فوز المأل أخاضهم ماء الطلى * وسواه يقعه احتيازال مال
متقسم بين القسيمين العلى * عن عم عم أو مخايل خال
لازلت تطلع من ثنايا جففل * بقفولواك كاللوى المنهال
لك ان تظل على الكواكب راقيا * ولحاسدك بكاعلى الاطلال

ومما يناسب هذه السعادة في وجدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياع ما بلغني ان موسى الهادي لما ولى
الخلافة سأل عن خاتم عظيم القيمة كان لبيه المهدي فبلغه ان أخاه الشيدأ أخذه فطلبه منه فامتنع فالج عليه فيه
حفن الرشيد ومضى على جسر بغداد فرماه في دجلة فلما مات الهادي وولى الرشيد الخلافة أتى لكان المكان بعينه ومعه
خاتم من رصاص فرماه ثم أمر الغطاسين ان يلتمسوه ففعلوا واستخرجوا الخاتم الأول فعقد ذلك من سعادة الرشيد وبقاء
ملكه قال ابن النير ولما فتح نورا الدين حصن بانياس كان ولده معين الدين انرا الذي سلم بانياس الى الافرنج قائما على

في اخبار (١٤١) الدولتين

رأسه فالتفت اليه وقال له الناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال كيف ذلك قال لان الله تعالى اليوم برّد جلدته والدك من جهنم وقد تقدم انه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرج عليها وفيها توفي وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبة الشيباني من بني ذهل بن شيبان ابن نعلبة بن الحصن وكان عالما دينيا مدبرا حنبلي المذهب وزير للقتي ثم للمستجد بعده وله عدة مصنفات منها الافصاح في شرح الاحاديث الصحاح وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الاربعة والنحاة وغيرهم ويجري بحضورهم فوائد كثيرة ثم توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الاحد ثالث عشر جمادى الأولى سنة ستين وخمسمائة ورؤيت له منامات حسنة ومدحه جماعة من الفضلاء ومولده في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دجيل تعرف بالدور وهو الذي محاروم سلاطين العجم من العراق وأجلاههم عن خطتها بحسن تدبيرهم ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف اجتهدان تستر العصاة فان ظهور معاصيهم عيب في الاسلام وأولى الامور سر العيوب ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة في فيها توفي فتح الدين بن أسد الدين شيركوه أخو ناصر الدين وقبره بالمقبرة النجيلة الى جانب قبر ابن عمه شاهنشاہ بن أيوب في قبة فيها أربع قبورها الاوسطان منها وفي هذين الاخوين ناصر الدين وفتح الدين يقول العزلة حسان

لله شيا أسد خادر * ما فيهم ما جبن ولا شبح

ما أقبل الا وقال القوي * قد جاء نصر الله والفتح

وفيها سار نور الدين أيضا الى حصن المنيطرة وهو للفرنج ولم يحشد له ولا جمع عساكر انما سار اليه على غرة من الفرج وعلم انه ان جمع العساكر حذر واوجعوا فانتز الفرجة وسار الى المنيطرة وحصرها وحذق قناها وأخذها عنوة وقهرها وقتل من بها وسبي وغنم غنيمة كثيرة لا من يدا فآخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يسعرون ولم يقدر الفرج على ان يجمعوا لدفعه الا وقدم له ملكه ولو علموا انه جرد جريده لا سرعوا وانما ظنوا ان نور الدين في جمع كثير فلما ملكه نفرقوا وايسوا منه هذا قول ابن الاثير وذكر القاضي ابن شداد ان ذلك كان في سنة اثنتين وستين كما سبأني والله أعلم وفيها توفي المجلس بن الخياط بمصر قال العماد في الخريدة القاضي المجلس أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الاغلي السعدي التميمي جلس صاحب مصر فضله مشهور وشعره ما توار وكان أوحده عصره في مصره نظما ونثرا ورسلا وشعرا ومات بها في سنة احدى وستين وقد أناف على السبعين أنشدني له الامير نجم الدين بن مصال من قصيدة يقول فيها

ومن عجب ان السيف لديهم * تحبض دماء والسيف ذكور

وتعجب من ذانها في أكلهم * تأجنا را والا كف بحور

قال وأنشدني له الشريف ادريس الادريسي قصيدة سيرها الى الصالح بن رزبل قبل وزارته يجرضه على ادراك شار الظافر وكان عباس وزيرهم قتله وقتل اخوته يوسف وجبريل يقول فيها

أصادفهم قولا وغيبا ومشهدا * نحوهم على عدب فعل أعادي

فان بنور زيل عنها ونصرهم * وما لهم من منعة وزياد

فلو عاينت عينك بالقصر يومهم * ومصرهم لم تكحل برفاد

فخر جوع المارقين فانها * بقايا زروع أذنت بحصاد

وله فيه من أخرى في هذه الحادثة

ولما زامى البربري بجهله * الى فتكة مارامها فذرائم

ركبت اليه من عزمتك التي * بأمثالها تلقى الخطوب العظام

أعدت اليهم ملكهم بعدما لوى * به غاصب حق الامامة ظالم

وأنفذ اليه في المعنى يقول

أعدت الى جسم الوزارة روحها * وما كان يرجى بعثها ونشورها

كتاب (١٤٢) الروضتين

أقامت زمانا عند غيرك طامشا * فهذا الاوان قرؤها وظهورها
من العدل ان يحظى بها مستحقها * ويخلعها مردودة مستعيرها
اذما لك الحسناء من ليس كفؤها * أشار عليه بالطلاق مشيرها
وله بشكوطيبيا

واصل بليتي من قد غزاني * من السقم المخ بعسكرين
طبيب طبه كغراب بين * يفرق بين عافيتي وبين
أقلى الحى وقد شاخت وباحت * فرد لها الشباب بنسختين
ودبرها بتسديد رطيف * حكاها عن سنان أو حنين
وكانت نوبة فى كل يوم * فصيرها بحقد نوبتين

قلت الايات الرائية تمثل بها المجلس وهى لصدر قراءتها فى ديوانه وهى من قصيدة يمدح بها وزير الخليفة ببغداد
نظر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جهر وبنه بعوده الى الوزارة وأولها

لحاجة قلب ما يفتق غرورها * وحاجة نفس ليس يقضى بسيرها
وقفنا صفوا فى الديار كأنها * ضما نف ملقاة ونحن سطورها
يقول خليسى والظباء سوانح * أهذى التى تهوى فقلت نظيرها
وقد قلت لى ليس فى الارض جنة * أما هذه فوق الركائب حورها
أراك الحى قل لى بأى وسيلة * وصلت الى أن صادفتك ثغورها
وما لى بها علم فهل أنت عالم * أفواهاها أولى بها أم نخورها
على رسلكم فى المحرنا عصابة * اذا ظنرت فى الحب عف ضميرها
فقل للبالى كيف شئت ثقلى * ففى يد عسل الساهدين أمورها
أمانى فى نفس الوزارة بلغت * به كنهها حتى استحققت نذورها
لوت وجهها عن كل طالب متعة * الى خاطب حل عليه سفورها
اذما مثل الاقوام دون عريسه * تساوى به ذوطيشها ووورها
تكد لما قد ألسنت من سكينه * ترف على تلك اروس طيورها

(ثم دخلت سنة اثنى عشر وستين وخمسمائة) ففضها عاد أسد الدين الى مصر تاسع ربيع الآخر وقد كان بعذر جوده
من مصر لا يزال يحدث نفسه بقصدها ومعاودتها حتى يصاعلى الدخول اليها يحدث مع كل من يثق اليه وكانها
يهيجه على العودز يادة حقدده على شاور ومعا على معا فلما كان هذه السنة تجوز وسار اليها وسير نور الدين معه
جاعة من الامراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وفى ذلك يقول العرقلة

أقول والاتراك قد أزمعت * مصر الى حرب الاعارب
رب كما ملكتهم يوسف الـ * صدق من أولاد يعقوب
يلسكها فى عصرنا يوسف الـ * صادق من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هام العدى * حقا وضراب العوايب

ثم ان أسد الدين جذى السير على البر وترك بلاد الافرنج عن يمنة فوصل الى الديار المصرية وقصدا اطفح وعبر
النيل عندها الى الجانب الغربى ونزل بالجيزة مقابل مصر وتصرف فى البلاد الغربية وأقام بها أربعة وخمسين يوما
وكان شاور لما بلغه بحجى أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم فأثروا على الصعب والذل وقسرة
يحتجم طمعهم فى ملك مصر حلى الجند والتشهير وتارة يجدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النورى على الاسراع
فى المسير فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم فلما وصلوا الى مصر عبروا الى الجانب الغربى وكان أسد الدين والعسكر
النورى قد ساروا الى الصعيد فبلغوا مكانا يعرف بالباين وسارت العساكر المصرية والفرنج من وراءهم فأدركوهم

به في الخامس والعشرين من جادى الاولى وكان قد ارسل اليهم جواسيس فعداوا واخبروه بكثرة عددهم
وعندهم وجدهم في طلبه فغزم على قتلهم ولقائهم وان تحركهم السيف بينه وبينهم الا أنه خاف من أصحابه ان تضعف
نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطير الذي عظمهم فيه أقرب من السلامة لقله عددهم وبعدهم عن بلادهم
فاستأثرهم فكلهم اشار عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقى والعود الى الشام وقالوا له ان نحن انهنزنا وهو الذي
لا شك فيه فالى أين تلجئ ويمن تخشى وكل من في هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا وبودون ولوشربوا
دماءنا وحق لعسكر عدتهم ألف فارس قد بعدوا عن ديارهم وقتل ناصرهم أن ترتاع من لقاء عشرات ألوف مع ان كل
أهل البلاد عدو لهم فلما قالوا ذلك قام انسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش وكان من الشجاعة
بالمكان المشهور وقال من يخاف القتل والجراح والامر فلا يخدم الملوكة بل يكون فلاحا ومع النساء في بيته والله
لئن عدتم الى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه لياخذن أقطاعاتكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه
الى يومنا هذا ويقول لكم أنا أخذون أموال المسلمين وتفرقون عن عدوهم وتسلمون مثل هذه الديار المصرية تصرف
في الكفار قال أسد الدين هذرا بى وبه ٤١٠ ووافقه ما صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم كثر المواقفون لهم على القتال
فاجتمعت الكلمة على اللقاء فأقام مكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبته وقد جعل الاثقال في القلب
بتكثيرها ولأنه لم يمكنه أن يتركها ابجكان آخر فينهب أهل البلاد ثم انه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له
ولن معه ان الفرنج والمصريين يظنون اني في القلب فهم يجعلون جرحهم بازائه وملتزم عليه فاذا جملوا عليكم فلا
تصدقوهم القتال ولا تلهكوا نفوسكم وان دفعوا بين أيديهم فاذا عادوا عنكم فاربعوا في أعقابهم واختر من شجعان
أصحابه جمعاً يبقى اليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ووقف بهم في المينة فلما تقابل الطائفتان قتل الفرنج ما ذكره
أسد الدين وجملوا على القلب ظنهم انه فيه فقتلهم من به قتل الأسير اثم انهنز موابين أيديهم فقتلهم فمئذ جعل أسد
الدين فيمن معه على من تخاف عن الفرنج الذين جملوا على القلب من المسلمين فهزموهم ووضع السيف فيهم فأنخن
وأكثر القتل والاسر وانهمز الباقون فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب أو امكن المعركة من
أصحابهم بلفعاليس بهامهم ديار فانهمزوا أيضاً وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ان في فارس تنهزم عساكر مصر وفرنج
الساحل ثم سار أسد الدين الى نهر الاسكندرية وجمي ما في طريقه من القرايا والاسود من الاموال ووصل الى
الاسكندرية فقتلها من غير قتال سلمها اليه أهلها فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد الى الصعيد وتملكه وجمي
أمواله وأقام بها حتى صام رمضان وأما المصريون والفرنج فانهم عادوا الى القاهرة وجعلوا أصحابهم وأقاموا عوض
من قتل منهم واستكبروا وحشدوا ووساروا الى الاسكندرية وبها صلاح الدين في عسكر منعونهم من قد أغناهم
أهلها خوفاً من الفرنج فاستد الحصار وقتل الطعام بالبلد فصبر أهلها على ذلك ثمان أسد الدين سار من الصعيد
نحوهم وكان قد أفسد بعض من معه من التركان ووصله رسول المصريين والفرنج يطلبون الصلح وبنوا له خسين
ألف دينار سوى ما أخذ من البلاد فأجابهم الى ذلك وشرط ان الفرنج لا يقيمون بمصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة
وان الاسكندرية تعاد الى المصريين فأجابوا الى ذلك واصطلحوا وعاد الى الشام فوصل دمشق ثامن عشر ذى القعدة
وتسلم المصريون الاسكندرية في النصف من شوال وأما الفرنج فانهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم
بالقاهرة شحنة ويكون أبوابها بيد فرسانهم ليتسع الملك العادل من انغاز عسكر اليهم ويكون الفرنج من دخل مصر
كل سنة مائة ألف دينار هذا كله يجري بين الفرنج وشاور وأما العاضد صاحب مصر فليس اليه من الامر
شي ولا يعلم بشئ من ذلك قد حكم عليه شاور ورجبه وعاد الفرنج الى بلادهم وتر كواجعة من فرسانهم ومشاهيرهم
وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة ثمان الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين
محمود الحارثي وهو من أكابر أمراء الملك العادل وهو خال صلاح الدين يوسف بنهي محبته وولاه ورساله ان بأمر
بإصلاح الحال وجعل الكلمة بمصر على طاعته ويجمع كلمة الاسلام وبذل ما لا يحمله كل سنة فاجابه الى ذلك
وجلوا الى نور الدين ما لا يجزى يلافيق الامر على ذلك الى أن قصد الفرنج مصر لملكها فكان ما ذكره ان شاء الله
تعالى في اخبار سنة اربع وستين قال القاضي أبو المحاسن ذكر عود أسد الدين الى مصر في المرة الثانية وهي المعروفة

كتاب (١٤٤) الروضتين

بوقعة البانين لم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك وداخله الخوف على البلاد من الأتراك وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد وأنه لا بد له من قصد هاهنا فكتب الفرنج وقرعهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويحكمونه فيها تمكيناً كلياً ويعينونه على استئصال أعدائه بحيث يستقر قدمه فيها وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين فاشتد خوفهما على مصر أن يملكها الكفار فيستولون على البلاد كلها فجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العسكر وألزم صلاح الدين رحمه الله بالمسير معه على كراهته منه لذلك وذلك في أثناس ربيع الأول وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الفرنج إليها واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم وجرى بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة وانفصل الفرنج عن الديار المصرية وانفصل أسد الدين وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين قدس الله روحه مجرد العساكر إلى بلاد الفرنج وأخذ المنيطرة وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم وعادوا وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب موافقة الفرنج والمصريين وما عاينوه من الشدائد وعائنه من الأهوال وما عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلهم عن مصر وعاد إلى الشام في بقية السنة وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها وعرفوها من الوجه الذي عرفها فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل والقضاء يحير له شيء قد قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك قال وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد مسير أسد الدين في رجب ونزح قلعة كاف بالبرية وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخوه قطب الدين وزين الدين بجاه للفرقة وساروا إلى بلاد الفرنج فخر بها وهونين في شوال منها وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين إلى مصر وفيه مات قرأ أرسلان بد باريكر

(فصل ١٤) وفي شعبان من هذه السنة قدم دمشق عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني مصنف كتابي الفتح والبرق فأنزله قاضي القضاء كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن الشهر زوري بالمدرسة النورية الشافعية عند حمام القصير باب النرج المنسوبة الآن إلى العماد وأما نسبت إليه لأن نور الدين رحمه الله ولأباه في رجب سنة سبع وستين بعد الشيخ النقيب بن عبد وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ابني شاذي من تكريت بسبب أن عمه العزيز أجد بن حامد عاقه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بقلعة تكريت وبنجم الدين أيوب آنذاك وإليها فانتسجت المودة بينهم من هناك فلما سمع بنجم الدين لوصول بكر إلى منزله لتبجيله وكان صلاح الدين وشيركوه حينئذ بمصر فدخل العماد بنجم الدين أيوب بقصيدة أولها

يوم التولي ليس من عسري محسوب * ولا الفراق أني عشي بمحسوب
ما اخترت بعدك لكن أزمان أتى * كرها بما ليس يا محبوب محبوبي
ارجوا إلى أبيكم ظافراً بجللا * فقد ظفرت بنجم الدين أيوب
موفق الرأي ماضي العزم من تفسع * على الأعمام مجدداً والأعارب
أحبك الله أذ لا زمت نجده * على جبين بتاج الملك معصوب
أحوك وابك أصدقا منهما اعتصما * بالله والنصر وعد غير مكذوب
هاها ما من في بومي ونغي وقسري * تعودا ضرب هاماً وأعراف
غدا يشيان في الكفار نار ونغي * بلغنها تصيح الشبان كالشبيب
ملك مصر ونصر المؤمنين غدا * تحطى النفوس بتاتيس وتطليب
ويستقر بمصر يوسف وبه * تقر بعد التناهي عين يعقوب
ويلتقي يوسف فيها بأخسوته * والله يجمعهم من غير ترتيب

وكان إنشاده هذه القصيدة في آخر شوال سنة اثنين وستين وخمسمائة وتم ملكهم مصر بعد سنتين قال فنظمت ما في القليب تقديره قال وكان أسد الدين قد جمع وسار إلى مصر في الرمل في النصف من ربيع الأول ووصل في سادس ربيع الأول إلى أطفح وعبر منها إلى الجانب الغربي واناخ بالجيزة بمحاذاة قصر قافام عليها نيفا وخمسين يوماً واستعان

الف. هـ. رتبه الله ما بالقاهرة وعبروا بهم من البلاد الشرقية إلى الغرب وعلم أسد الدين فسار أمامهم فالتقوا

بوضع يعرف بالبابين فكسرهم أسد الدين وأصحابه وقتلوا من الفرنج ومن تبعهم من المصريين الوفا وحصل منهم في الاسار سبعون فارسا من بارونيتهم فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا الى الاسكندرية فوجدوا مساعدة أهلها قد خلوها ثم قال أسد الدين أنا لا يمكنني ان احصر نفسي فأخذ العسكر وسار به الى بلاد الصعيد فاستولى عليها ورجى خراجها وأقام صلاح الدين بالاسكندرية فسار اليه شاو والفرنج فحاصره وأربعة أشهر وصدق أهل الاسكندرية القتال مع صلاح الدين وقوى أسد الدين بقوى واستنهض لقصص القوم العموم والخصوص فسمع الفرنج انه جاء يقصدهم فرحلوا عن الحصار وكان شاو قد استمال جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين بالذهب فلما راسلوه في المهادنة أجاب وطلب منهم عوض ما غرمه فبدلوا له خمسين ألف دينار فخرجوا من الاسكندرية في النصف من شوال ووصلوا الى دمشق ثامن عشر ذي القعدة وعادوا الى الخدمة النورية فاجتمع العباد بأسد الدين وأنشده هذه القصيدة

بلغت بالجسد ما لا يبلغ البشر * ونلت ما يحجز عن نيله القدر
من يهتدى للذي أنت اهتديت له * ومن له مثل ما أثرته أثر
أسرت أم بمرالك الارض قد طويت * فانت اسكندر في السير ام خضر
أوردت خيلا باقصي الصين صادرة * عن الفرات يقاضى وردها الصدر
تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها * الا حديثك ما بين الوري سمر
فانت من زانت الايام سيرته * وزاد فوق الذي جاءت به السير
لوفي زمان رسول الله كنت أنت * في هذه السيرة المجودة السور
أصبحت بالعدل والاقدام متفردا * فقل لنا أعلى أنت أم عمر
اسكندر ذكر وأخبار حركته * ونحن فيك رأينا كل ما ذكرنا
ورسم خببرنا عن شجاعته * وصار فيك عيانا ذلك الخبر
أنخرقنا ملوك الارض أذهلهم * ما قد فعلت فكل فيك مذكور
سهرت اذ قد وابل هبت اذسكنوا * وصلت اذ جنبو ابل طلت اذ قصرنا
يستعظمون الذي ادر كته عجا * وذلك في جنب ما نرجوه محقر
قضى القضاء بما نرجوه عن كتب * حتما ووافيك التوفيق والقدر
شكت خيولك اذمان السرى وشكت * من فلها البيض بل من حطمها السمر
يسرت فتح بلاد كان أسرها * لغير رأيك قفلا فقهه عسر
قرنت بالحزم منك العزم فاستقت * ما رب لك عنها أسفر السفر
ومن يكون بنور الدين مهتديا * في أمره كيف لا يقوى له المرر
يرى برائك ما في الملك يرميه * فانت منه بحيث السمع والبصر
لقديقت فتة الافرنج فانت صفت * منها باقدامك الهندية البتر
غرست في أرض مصر من جسامهم * اشجار خط لها من هامهم عمر
وسال بحر نجيع في مقام ونى * به الحديد نعام والدم المطر
انهرت منهم دماء بالصعيد جرى * منها الى النيل في واديهم سمر
راوا اليك عبور النيل اذ عمدوا * نصرنا عبر واحتي قد اعتبروا
تحت الصوارم هام المشركين كما * تحت الصواع يوم اخفت الأكر
افتت سيوفك من لاقت فان تركت * قوما فهم نقر من قبلها نفرنا
لم ينج الا الذي عاقته من خبت * وحش الفلا هو للصدور منتظر
والساكنون القصور القاهرة قد * نادى القصور عليهم أنهم قهروا
وشاور شاو وروفي مكايدهم * فكاده الكيد لها غانه الجذر

كانوا من الرعب موفى جلودهم * وحين أمنتهم من خوفهم نشروا
 وأن من شير كوه الشرك مخزل * والكفر مخزل والدين منتصر
 عزل على قشة عند اللقاء وقت * وعد عن تركان قبله غلدوا
 وكيف يخذل جيش أنت مالكة * والقائدان له التأيد والنظر
 أجاب فيك اله الخلق دعوة من * يطيب بالليل من أنفاسه السحر
 وقال العماد واتصلت بيني وبين صلاح الدين يوسف بن أخيهِ مودة تمت لي بها على الزمان هذه ولم يرل يستهينني
 نظمي ونثرى ويشعرني أنه يميل الى شعري فأؤل ما خدمته به هذه الكلمة

كيف قلتم بقلتيه فتور * وأراها بلا فتور تحيور
 مستجير جورى والى منسه * بآين أبوب يوسف مستجير
 فضله في الزمان سوار * مثاها رأيه على الملك سور
 كرم سابغ وجود عجم * وندى سائغ وفضل غزير
 أنت من لم يرل يحن اليه * وهو في المهدي سر جه والسرير
 من دم القادري غادرت بالاه * من صعيد الصعيد وهو غدير
 ولكل عما تظاوت فيهم * اصل قاصر وعمر قصير
 لا ذبا لئيل شاور مثل فرعو * ن فذل اللابجى وعز العبور
 شارك المشركين نعا وقدام * شاركتم باقر نطة والنضير
 والذي يدعى الامامة بالقسا * هرة ارتاع انه مقهور
 وغدا الملك خاقان سطاكم * ذا ارتعاد كانه مقررور
 وبنو الحفري هانوا ففروا * ومن الاسد كل كلب فرور
 انما كان للكلاب عواء * حيث ما كان للاسود زئير
 وقلب عند الفرار سليب * فهو بالرعب مطلق مأسور
 لم يبقوا سوى الا صاغر للسيبى * فوذوا الوان الكبير صغير
 وجيت الاسكندرية هتهم * ورجى من بهم عليهم تدور
 حاصر وهاموا الذي بان من ذب * عنها وحفظها محصور
 كحصار الاحزاب طيبة قدما * ونبي الهدي بها منصور
 فاشكر الله حيث اولاك نصرا * فهو نيم المولى ونم النصير
 ولكم ارجف الاعادى ققلنا * ما ماتدكر ونبه تأشير
 ورقبنا كالعبد عودك فاليو * مبه للانام عيسد كبير
 عاد من مصر يوسف والى يعقوب * بالتهنيات جاء البشر
 فلا يوب من اياك صلاح الدين * يوم به توفى النذور
 ولكم عودة الى مصر بالنم * ر على ذكر هاتم العصور
 فاستردوا حق الامامة من * خان فيها فانه مستجير
 واقترعها بكر الهاجدي الله * ر رواح في مدحكم وذكور
 أناس يرت طالع العزم منى * والى قصدك انتهى التسيير
 وأرى خاطرى بلدك الفا * انما يالف الخطير الخطير

وهي التي قبلها طولتان جدا فانما تمت معرفة العماد بصلاح الدين وكان له ساعدا عند نور الدين وقرأت
 في يد بران العرقلة وقال يمدح أسد الدين شير كوه وقد أخذ الشقيف وورحل طالب احصنا يقال له العراق

رحلت من الشيف الى العراق * بعزم كالمهندسة الزقاق
ونكست الاعادى منه قهرا * ومجدك في ذرى الجوز اباقي
بجاشك لا يجيشك نلت هذا * وبالتوفيق لا بالاتفاق
قد اؤك من مضى الحصن قبلي * الى دار الخلود من الزقاق
وما تخشى على الاسلام نؤسا * اذا هلك الجميع وانت باقي
اشاوركم تشاور كل خب * وتنفق هندا مثلك بالنفاق
انصبر ان ائتلك بحار خييل * وقنما ما صبرت على السواق
متى رفعت لك السودان رؤسا * وقد خلا هم مثل الزقاق
وعيشك ماله من مصر بد * ومن عندي ثلاثا بالطلاق
هو الاسد الذي مازال حتى * بنا مجدا على السبع الطباقي

(فصل) قال ابن الاثير وفي هذه السنة ارسل نور الدين الى اخيه قطب الدين يطلب ان يعبر الفرات اليه بمساكره فتجهز وسار هو ووزن الدين في المساكر الكثيرة فاجتمعوا بنور الدين على حصن فدخل بالمساكر الاسلامية بلاد الفرج واجتاز على حصن الاكراد فاغاروا ونهبوا واسروا وقصدوا هرقة ونزلوا عليها وحاصروها وحاصروا جبله واخربوها وتوجهت مساكر المسلمين يميناً وشمالاً تغربو البلاد وفتح الحرقة وصافيتا وعاد الى حصن فصام بها شهر رمضان ثم سار الى بانياس وقصد قلعة هونين وهي للفرنج ايضا من قلاعهم المنيعه فانهمز الفرج عنها واحرقوها فقصدها نور الدين فوصلها من القدوت غرب سورها جميعه واراد الدخول الى بيروت فتجدد في العسكر خلل اوجب التفرق فعاد وسار قطب الدين الى الموصل واقطعه مدينة الرقة فاخذها في طريقه قال وفي هذه السنة عمى الامير غازي بن حسان المناهجي صاحب منبج على نور الدين وهو كان اقطعه اياها فארسل اليه نور الدين عسكرا حاصره بها واخذها منه واقطعها اخاه قطب الدين ينال ابن حسان وكان عاقلا خيرا احسن السيرة فبقي بها الى ان اخذها منه صلاح الدين سنة اثنتين وسبعين كما ساقى وفيها توفي القاضي الرشيد اجد بن علي بن الزبير صاحب كتاب الجنان قال العماد في الحريدة كان ذا علم غزير وفضل كثير قتله شاور وورثه في سنة اثنتين وستين ونسب اليه انه شارك اسد الدين شيركوه في قصده واخوه المهذب ابر على الحسن بن علي بن الزبير اشعر منه وتوفي قبله بسنة لم يكن في زمانه اشعر منه وله شعر كثير منه قصيدة غرام في مدح الصالح بن رزبك وذكر فيها نور الدين اولها

أعلمت حسين تجاور الحيات * ان القلوب موافد النيران
يا كاسر الاصنام قم فانقض بنا * حتى تصير مكسر الصلبان
فالشام ملكك قد ورثت بلاده * عن قومك الماضين من غسان
واذا شككت بأنهم اوطانهم * قنما فسل عن حارث الجولان
أورمت ان تتلو محاسن ذكرهم * فاسندروايتها الى حسان
مازلت أرض العدى بل ذالما * بقلوب أهلها من الخفقان
وأقول ان حصونهم صعدت لما * أوتيت من ملك ومن سلطان
ولقد بعثت الى الفرج كتابا * لاسد حين تصول في خفان
لبسوا الدروع ولم تغل من قبلهم * ان البحار تحمل في غدران
عجلت في تل الجول قراهم * وهبك الضيفان بالذيقان
وثلت في يوم العرش عروشهم * يشا صراب صادق وطعان
ألجأتهم للبصر لما ان جرى * منه ومن دمهم معا بحران
ولقد أتى الاسطول حين غزاها * لم يأت في حسين من الاحيان
وأعند رسل ابن القسم اليه في * شعبان كي يتلام الشعبان

كتاب (١٤٨) الروضتين

والقال يشهد في اسمه ان سوف يفسدوا الشام وهو عليه كما قه مان
وأراك من بعد الشهيد أباله * وجعلته من أقرب الاخوان
وهو الذي مازال يفعل في العدى * ما لم يكن ليعد في الامكان
قتل البرفس ومن عساه أعانه * لما عساه في البني والعدوان
وأرى البرية حين عادر رأسه * مر الجنى يدع على المزان
وتعجبوا من زرقة في طرفه * وكانت فوق الرمح نصلا ثاني
عجب الجود يديه اذ بيني العلا * والسيل يهدم ثابت الاركان
قلدت أعناق البرية كلها * مننا تحمل ثقلها النقلان
حتى تساوى الناس فيك واصبح السقاصى بمنزلة القريب الداني
وفي هذه السنة ذكر القاضي كمال الدين بن الشهرزورى للسلطان نور الدين رجه الله حال الحماد الكاتب وعرفه به
وعرض عليه قصيدة له في مدحه مطلعها

مجد يحمى عيش بلدة * مال كلها بعدله مجودها
مؤيد أموره بعزيمة * من السموات العلى تأييدها
لوحظت يوم النوى عهدوها * ما مظلت بوصلكم وعودها
آثاره حميدة وانما * للمسر من آثاره حميدها
ان الورى بحبه وبغضه * يعرف من شقيها سعيدها
قد جاءكم نور من الله فغن * به اهتدى فانه رشيدها
جلا ظلام الظلم نور الدين عن * أرض الشام فله تمجيدها
ان الزعامة في رعاية * ونعمة مستوجب من يدها
لنومها يسهر بل لا منها * يخاف بل يخصها بجودها
بالدين والمالك له قيامه * والساوكة عنهما فعودها
ودأبه ثم تغور الكفرا * لثم تغور نافع برودها
قد أسبغ الله لنا بعدله * ظلال أمن وارف مديدها
غدا ملوك الروم في دولته * وهم على رغهم عبيدها
لما أبت هاماتهم سجودها * لله أصحى للظي سجودها
ان فارقت سيوفه غمودها * فان هاماتهم غمودها
كم مغلقات من حصون عزمه * مفتاحها وسيفه أقليدها
قدودت الفرغ لو قرت تحت * منك ولكن روعها مبيدها
قهرتها حتى لو حيا * من ذلة لو أنه قبيدها
أمانها رعيك في حصونها * كأنما حصونها لجودها
وان مصر لك تغرب بعدما * لسيفك الصعب عنا صعيدها
والملة الغر خال بالها * عال سناها بك حال جيدها
مفترة تغورها ممنوعة * تغورها بحفوفة حدودها
وان بغى جالوتها ضلالة * فانت في اهلاكه داودها
يا ابن قسم الدولة الملك الذى * خوت له من الملوك صيدها
دع العدى بغيتها فانما * يذيب أكباد العدى حقودها
بدولة نورية أمن الورى * وخصبها وجودها ووجودها

في اخبار (١٤٩) الدولتين

ما مثل الدنيا لمن يجمعها * بالحسرس الاقزة وودها
ابن الذي يرفضها عن قدرة * فلا يشوب زهده زهيدا
فابق لنا يا ملكا بقاءه * في كل عام للرعا يا عيدا
في نعمة جديدة سعدوها * ودولة سعيدة جدودها

وهي طويلة فترتبه نور الدين في ديوانه منشئاً لاستقـال سنة ثلاث وستين قال ووجدت على الامام منه الاعزاز
والتمكين قلت وذلك بعد ان استعفى أبو البشر شاكراً بن عبد الله من الخدمة في كتابة الانشا وقعد في بيته كذا
ذكر العباد في الخريدة وقال تولى ديوان الانشا بالشام سنين كثيرة وله مقاصد حسنة في الكتب وهو جيد السيرة جميل
السيرة وفيها توفي المحافظ أبو سعد عبد الكريم محمد السمعاني المروزي رحمه الله تعالى
(ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة) ذكر العبادان نور الدين رحل الى حصن ثم مضى الى حماء ثم شقي
بقلعة حلب ومعه الاسد والصلاح ونزل العباد بمدرسة ابن الجعي وكتب الى صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد عثر
فرسه في الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين رحمه الله تعالى

لا تنكرن لسابح عـثرت به * قدم وقد جعل الخضم الزائرا
ألقي على السلطان طرفك طرفه * فهو هنالك للسلام مبادرا
سبقت الرياح بحجـره وكفقه * عنها فليس على خلافك قادرا
ضعفت قـواه اذنذكرانه * في السرج منك يقل لبشا خادرا
ومتي تطابق الريح طود اشغنا * أو يستطيع البرق جونا مطرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره * فالبرق يسقط حين يحطف سائرا
وأقل جوادك عشرة ندرت له * ان الجواد لمن يقبل العائرا
وتوق من عين الحسود وشـرها * لا كان ناظرها بسوء ناظرا
وأسلم لنور الدين سلطان الوري * في الحادثات معاضدا ومؤازرا
فاذا صلاح الدين دام لاهله * لم يحذر والادهر صفا ضائرا

وجرت بين العباد وبين الامام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عمرو من مكاتبات كتب اليه العباد
أيا شرف الدين ان الشـا * بكافاته كف آفاته
وكفك من كرم كافها * لقد كفلت لي بكافاته
وانك من عرفه شكرنا * غدا عاجزا عن مكافاته

قال فكتب الى شرف الدين في جوابها

اذا ما الشتاء وأمطاره * عن الحـير حاسبة رادعه
فكافاته الست أعطيتها * وحوشيت من كافه السابعة
وكف الملهابة والاحتـشا * ملكني عن برمانعه
وهمة كل كريم البـخا * ريمسورا حبابه قافعه
ونفسي في بسط عذري اليـه * جعلت الفداء له طامعه
وشوقني الى قـربه زائد * ومعذرتي ان جفا واسعه

قال فكتب اليه جوابها

أيا من له همة في العلي * لذروتها أبدأ فارعه
ومن ككفه ديمة ماتـا * لبالعرف هامية هامعه
وللفضل في سوق افـضاله * بضائع نافقة نافعه
وهل كابن عصرون في عصرنا * امام أدلتـه قاطعه

مكتاب (١٠٠) الروضتين

خبر فوائده جمة * وبحر موارده واسعة
 أياشرف الدين شرفتي * بأهله راقية رائعه
 أطعت أوامرك الساميا * وتوابعه طائعه
 أرى كل جارحة في * ودلو أنها أذن سامعه
 وأما الشتاء وكافاته * وكفك عن كافه الرابعه
 فنفسى منزّهة بالعفا * ف عنها وفي غيرها طامعه
 وماذا تطيق اذا لم تكن * بيسور سبه دنا قانع

وهي أكثر من هذا قال وكان ابن حسان صاحب منج قد ساءت أفعاله فبعث إليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه ثم توجه نور الدين إليها تهذيب أحوالها ومدحه العماد بقصيدة منها يقول

بشرى المبالا ففتح قطعة منج * فليمن هذا النصر كل متوج
 أعطيت هذا الفتح مقتاحه * في الملك يفتح كل باب مرعج
 وافي يشر بالفتوح ورآه * فانهض اليها بالجيش وعرج
 أبشر في بيت القدس يتلو منجها * ولنجم لسواد كالاغودج
 ما أعجزتك الشهب في أبراجها * طلبا فكيف خوارج في أبرج
 ولقد مر من يعصيك أحقران يرى * أثر العيوس بوجهك المتبج
 لكن تهذب من عصاك سياسة * في ضمنها تقوم كل معوج
 فانهض الى البيت المقدس غازيا * وعلى طرابلس ونابلس عجم
 قدسرت في الاسلام أحسن سيرة * مأثورة وسلكت أوضح منج
 وجميع ما استقرت من سنن الهدى * جددت منه كل رسم مبهج

قال العمادوسار نور الدين من منج الى قلعة نجم وعبر الفرات الى الرها وكان بها يتال صاحب منج وهو سيد الرأي رشيد المنهج فنقله اليها مقطعا وواليا وأقام نور الدين بقلعة الرها مدة فمدحه العماد بقصيدة وتجب له صلاح الدين في عرضها وهي

أدركت من أمر الزمان المشتى * وبلغت من نيل الاماني المنتهى
 وبقيت في كنف السلامة آمنا * متكرما بالطبع لا متكرها
 لازلت نور الدين في فلك الهدى * ذاغرة للعالمين بها اليها
 يا محبي العدل الذي في ظله * من عدله رعت الاسود مع المها
 محمود المحمود من أيامه * ليها ثبات في الزمان وقهها

مولي الوري مولي الندي معلى الهدى * مردي العدي مسدي الجدي معلى الله

آراؤه بصوابها مقرونة * ومقتضاها دائر فلك النها
 متلبس بحصافه وحصانه * متقدس عن شوب مكر او دها
 يامن أطاع الله في خصاله * متاوبا من خوفه متاوها
 أبدا تقدم في المعاش لوجهه * عملا يبيض في المعاد الاوجها
 كل الامور وهي وامرك مبهم * مستحق لا تقض فيه ولاوها
 ما صين عنك الصين لحوالها * وللشرفان فكيف منج والرها
 ما للسلوك لدى ظهورك رونق * واذا بدت شمس الضحى غفي السها
 ان السلوك هو اوانك من غدا * وبما له الملك منه ما لها
 شرهت فخرهم الى دنياهم * وأبى لنفسك زهدا ان تشرها

مائت عن خير ولم يك ناغما * من لا يزال على الجبل منها
أخلت ذكر الجاهلين ولم تزل * ملكا ذكر العالمين منوها
ورأيت إرعاء الرعايا واجبا * تغني فقيرا أو تجبر مدها
لرضا هم متحفظا ولحالهم * متفقدا ولديهم متفقها
وعجابه أمر الإله أمرتهم * من طاعة ونهيتهم عما نهى
عن رحمة لصغيرهم لم تستغل * عن رافة لكبيرهم لن تشدها
بالأس عندك أمل لم تخن * بالرد دونك سائل لن يجيبها
أتعبت نفسك كي تنال رفاة * من ليس يتعب لا يعيش مرها
ققت الملوك سماعة وجماسة * حتى عسد منافهم لك مشها
ولك الغفار على الجميع فدوهم * أصبحت عن كل العيوب معزها
وأراك تعلم حين تصعب ساخطا * ويكاد غيرك ساخطا لن يسفها

قلت رحم الله العباد فقد نظم أوصاف نور الدين الجليلة بأحسن لفظ وأرقه وهذا البيت الأخير مؤكدا نقلناه في أول الكتاب من قول الحافظ أبي القاسم رحمه الله في وصف نور الدين رحمه الله لم يسع منه كلمة خش في رضاه ولا في جبره وقل من الملوك من لحظ من هذه الأوصاف الفاضلة والنعوت الكاملة قال العماد ثم عاد نور الدين إلى حلب في شهر رجب وضربت خيمته في رأس الميدان الأخضر قال وكان مولعا بضرب الكرة ورميها داخل الظلام فلعب بها بالشعوى في الليلة المسفرة وبركب صلاح الدين ميكر كل بكره وهو عارف بأدائها في الخدمة وشروطها المعتبرة قال وأقطعني تلك السنة ضيعتين أحدهما من ضياع حلب والآخرى من ضياع كفر طاب قال وكتب إليه في طلب كنبوش

أصبحت بغلتي تشكى من العر * ي واسرأ بها بلا كنبوش
قلت كفي بخير يوميك عندي * ان تفوزي بالتين أو بالحشيش
وافرح ليلة الشعير كما يفر * ح قوم يلبس لمة الماشوش
لو تبصرت حالتي لتصبر * ف فإياك عندها ان تطيشي
أوما مات في الشتاء من البر * دومن فرط جوعه اكذبشي
فتنى واسكني بجود صلاح الدين غرس الملوك ملك الجيوش
فهو يجهلوك للعيون بكنبو * ش جديد مستحسن منقوش
كم عسدت من بأسه في عنار * وولى بجوده من عسوش
والموالى على الأسرة والأعداء تحت الهوان فوق النعوش

قال وأقطع أسد الدين حصن وأعمالها فصار إليها قد تغورها وضبط أمورها وحجى جمهورها وكان نور الدين قد جدد سورها وحصن دورها وبلى الفرج منه بالمغادر المرائج ذى البأس الدامغ وانه نور الدين في السلو من حب مصر وقال قد تعبت مرتين واجتهدت ولم يحصل لك ما طلبت وقد أدعيتوا لطاغته وشققوا السؤال بالشفاعة وسمعو ابكل ما يدخل تحت الاستطاعة قلت وأنشد العماد أسد الدين في رجب من هذه السنة دمت في الملك أمرا ذا نفاذ * أسد الدين شيركوه بن شاذى
يا كريم عن كل شر بطشا * والى الخضر دائم الأغذاذ
ان كهف الاسلام أنت فلا زلت * لاهل الاسلام خير ملاذ
وبقلب الكفار رعبك قد حلل بصدع الأكباد والأفلاذ
لم تدع بالظنى رؤسا وأصنا * مامن المشرعين خير جذاذ
أنت من نازل الدهين في مصر لنصر الامام في بغداد

وبلاد الاسلام أتخذتها أنت من الشرك ايما انقاذ

(فصل) في وفاة زين الدين قال ابن الاثير وغيره في سنة ثلاث وستين سار زين الدين على بن بكه كين نائب أنابك قطب الدين عن الموصل الى أربل وسلم جميع ما كان يلاذه من البلاد والقلاع الى قطب الدين ما عدا أربل فانها كانت له من أنابك زكنى رحمه الله تعالى في ذلك سفار وحران وقلعة عفر الجديده وقلاع الهكارية جميعها وكان نائبه بتكريت الامير تبر فأرسل اليه ليسلمها فقال ان المولى أنابك لا يقبل بتكريت ولا بدله من نائب فيها وأنا كون ذلك النائب فليس له مثلي فما أمكن محاققته لاجل مجاورة بغداد وأما شهر زور فكان بها الامير بوزان فقال مثله ايضا فأقرت يسده فكان في طاعة قطب الدين وسبب فراق زين الدين انه أصابه عى وصمم وأقام بأربل الى أن توفي بهافي ذى الحجة من هذه السنة وكان قد استولى عليه الهرم وضعفت قوته وكان خيرا عا دلا حسن السيرة جوادا محافظا على حسن العهد واداء الامانة قليل العذر بل عديمه وكان اذا وعد بشئ لا بد له من أن يفعله وان كان فعله خطيرا وكان حاله من أعجب الاحوال ينما يئيد ومنه ما يدل على سلامة صدره وخفته حتى يئيد ومنه ما يدل على افراط الذكاء وغلبة الدهاء بلغني انه أتاه بعض أصحابه بذهب فرس ذكر انه نفق له فأمره له بفرس فأخذ ذلك الذنب ايضا غيره من الاجناد فأحضره وذكر انه نفق له دابة فأمره له بفرس وتداول ذلك الذنب اثنا عشر رجلا كماهم يأخذ فرسا فلما أحضره آخرهم قال لهم أما تستحيون مني كما استحيي أنا منكم قد أحضر هذا عندى اثنا عشر رجلا وأنا أتغافل لثلاثين رجل لا أعرفه بل والله واغما أردت أن يصلحكم عطائي بغير من ولا تكدير فلم تتركوني ليس الغبي بسيد في قومه * لكن سيد قومه المتغابي

قال وكان يعطى كثيرا ويجمع عظيما وكان له البلاد الكثيرة فلم يخلف شيأ بل أتخذ جميعه في العطايا والانعام على الناس وكان بليس الغليظ ويشد على وسطه كل ما يحتاج اليه من سكين ودوش ومطرقه ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلك وكان أشجع الناس ميمون النقيبة لم ينهزم له رايه وكان يقوم المقام الخطير فيسلم منه بحسن نيته وكان تركا أسمر اللون خفيف العارضين قصير اجدا وبني مدارس وربط بالموصل وغيرها وبلغني انه مدحه الحصيص فلما أراد الانشاد قال له أنا لا أدري ما تقول لكن اعلم انك تريد شيأ فأمره بخمسمائة دينار وأعطاه فرسا واخله وثيا ما يكون مجموع ذلك ألف دينار قال ومكافره كثيرة ولما توفي بأربل كان الحاكم بها خادمه مجاهد الدين قايماز وهو التولى لامورها وولى بعد زين الدين ولده مظفوق الدين كوكبرى مدة ثم فارقها بخلف كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز وجرت أمور بطول ذكرها ولما فارق زين الدين الموصل استناب أنابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده بموكة فخر الدين عبد المسيح فسلك غير طريق زين الدين فذكره الناس وذموه فلم تطل أيامه وسيجيئ ذكر عزله في أخبار سنة ست وستين ان شاء الله تعالى

(ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة) * ففي أولها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين بلك بن علي بن بلك العقيلي من آل عقيل من بني المسيب وكانت بيده ويداؤه من قبله من أيام السلطان ملكشاه وقد تقدم ذكر ذلك وهى من أمنع الحصون وأحسن المظلة على الفرات لا يطاع فيها بحصار وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها منه وقتل عليها عاد الدين زكنى والد نور الدين ثم اتفق أن يخرج صاحبها منها يوما يتصيد فصاده بنو كلب فأخذوه وأسيرا وأوثقوه وحملوه الى نور الدين فقرر بوابه اليه وذلك في رجب من سنة ثلاث وستين فحسبه يجلب وأحسن اليه ورغبة في الاقطاع والمال ليسلم اليه القلعة فلم يفعل فعذب به نور الدين الى الشدة والعنف وتهذبه فلم يفعل أيضا فسير اليها عسكر امقدمه الامير فخر الدين مسعود بن أبي العزى فحصرها مدة فلم ينظر منها شيأ فأمدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الامير محمد الدين أبابكر المعروف بابن الداية وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه والى معاقلة فأقام عليها وطلب حوالها ففر له في فتحها فجبالا ورأى أخذها بالحصار متعذرا محالا فسلك مع صاحبها طريق اللين وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى مروج واعمالها والملاحة التي في عمل حلب والباب ووزاعة وعشرين ألف دينار مجلبة فأخذ جميع ما شرطه مكرها في صورة مختار قال ابن الاثير وهذا انقطاع عظيم جدا لكنه لاحظ فيه وتسلم محمد الدين قلعة جعبر

وصعد اليها منتصف المحرم ووصل كتابه الى نو والدين بحلب فسار اليها وصعد القلعة في العشرين من المحرم ثم سبها نور الدين الى مجد الدين بن الداية فولاهما أعاه شمس الدين على وكان هذا آخر امر بني ملك ولكل أمر حد ولكل ولاية نهاية يؤتي الله الملك من يشاء وينزعهم من يشاء قال ابن الاثير بلغني انه قيل لشهاب الدين أيما أحب اليك وأحسن مقاما أسروج والشام أم القلعة فقال هذا أكثر مالا والعز بالقلة فارقتاه قال العماد وأنشدت نور الدين بقلعة جبر قصيدة أولها

أسلم لي بكر الفتوح مقترعا * ودم الملك البلاد منتزعا
فان أولى الوري بها ملك * غدا بعاء الخطوب مضطلعا
ان ضاق أمر قصير همته * لكشف ضيق الامور لن يسعا
يا محبي العدل بعد ميثته * ورافع الحق بعد ما اتضعا
ونور دين الهدى الذي قع الـ * شرك وعنى الضلال والبدعا
أنت سليمان في العقاف وفي الـ * ملك وتحكي بزهدك اليسعا
حزت البقا والحياة والكرم المحض * وحسن اليقين والورعا
أسقطت أقساطا وجدت من المعكس * بعدل والقسا طار ندعا
ولم تدع في ابتغاء مصلحة الـ * الدين لنا يا قيا ولن تدعا
وكل ما في الملوك مقترق * من المعالي لملكك اجتمعا
هتكت الربط والمدارس تبنيها * وتوبا وتهدم اليسعا
ما زلت ذا فطن متؤدة * على غيوب الاسرار مطلععا
بأسك البيض والطلي اصطبغت * بعدلك الذنب والطلا رتعا
كم صائد لم يقع له قنص * في شرك وهوفيه قد وقععا
وما لك حين رميت قلعتك * غدا مطيعا للأمر متبععا
عنا خشوعا لب ملكة * لغير رب السماء ما خشعا
كان مقيماتها على الفلك الـ * على شهاب ابنوره سطععا
لكنما الشهب ما تثير ادا * لاح عمود الصباح فانصدعا
يدفعها طامعا اليك وكم * عنها اباة يجهده دفعا
هي التي في علوها زحل * كرعلى وردها وما كرععا
وهي التي قارب عطار دفي الـ * دفي فلاحا والفرقدين مععا
كان منها السها اذا استرق السـ * مع آتاه في خفية ودعا
هضبة عز لولاك ما ارتقيت * وطود ملك لولاك ما فرععا
ما قبلت في ارتقاء ذروتها * مسن ملك لارقي ولا جذعا
عزت على الممالك الشهيد واعـ * طتك قيادا ما زال ممتنععا
للأب لوحل خطيها القندا * محسرا لابنه وما شرععا
لا زلت محمودة في أمورك محمو * دا بشوب الأقبال ممدععا

(وفيها) في سابع عشر صفر من هذه السنة توفي بها الدين عمر أخو محمد الدين بن الداية وفيه وفي أخويه يقول العماد الكاتب من قصيدة

أنت محمود كال محمد * متصاد في الأفعال والاسماء
يتلو أبابكر على حسناته * عمر الممدج في سنا وسناه
ويليه عثمان المرحى للعلا * وعلى المأمول في اللاه

كتاب (١٥٤) الروشتين

وتقبل الحسن المجاهد محمد * فهم ذوو الاحسان والنجباء
فرعت لمجد الدين اخوته الذرى * دون الورى فى المجد والعلياء
من سابق كرما وشمس سادة * شرفا وبدردجنة وبها
سرج الهدى سحب الندى شهب النوى * أسدا الحروب ضراغم الهيجا

يريد سابق الدين عثمان وشمس الدين على وبدر الدين حسن وبهاء الدين عمر ومجد الدين هو الاكبر فهم
خمسهم الله

(فصل) وفى هذه السنة فتحت الدار المصرية سار اليها أسد الدين من ثلاثة فوزه العدو وقتل شاور وولى الوزارة
مكانه ثم مات فوليه صلاح الدين وسبب ذلك ان الفرنج كانوا فى النوبتين الاوليين اللتين استعان بهم شاور فيهما على
أسد الدين شيركوه قد خبره الدار المصرية واطلعوا على عورتها فطامعوا فيها ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين
المصريين وأسد الدين من القواعد جمعوا وحشدوا وقالوا ما بصر من يصدنا واذا اردنا هاهنا برنا ثم قالوا نور الدين
فى البلاد الشمالية والجهة الغربية وعسكر الشام متفرق كل منهم فى بلدة حافظا لما فى يده ونحن ننفض الى مصر ولا
نظيل بها الحصر فانه ليس لها معقل ولا لاهلها ناموس والى ان تجتمع عساكر الشام نكون قد حصلنا على المرام وقويتنا
بتلك الدار المصرية على سائر بلاد الاسلام فتوجهوا اليها سائرين ونحوها نائرين واظهروا انهم على قصد حصن
وشابيعهم على قصد مصر جماعة من اهلها كابن الخياط وابن قزح وغيرهم امن اعداء شاور وكان الفرنج قد جعلوا
لهم شحنة بمصر والقاهرة واسكنوا فرسانهم ابواب البلد والمقايص معهم على ما سبق ذكره وتحكوا وتحكوا كبرا فطامعوا
فى البلاد وارسلوا الى ملكهم مرمى ولم يكن ملك الفرنج مخرجوا الى الشام مثله شجاعا ومكر اودها به يستدعون له ملك
البلاد واغلوه خلوهام من مانع عنها وسهلوا امرها عليه فليجئهم الى المسير واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأى والتقدم
وأشاروا عليه بالسير اليها والاستيلاء عليها فقال لهم الرأى عندي ان لا نقصد هاهنا طعمة لنا واما الها تاساق الينا
نتقوى بها على نور الدين وان نحن قصدنا هاهنا فملكها فان صاحبها وعساكره وجماعة اهل بلاده وفلاحه لا يسلمونها الينا
ويقاتلوننا ونهاو يحلمهم الخوف منا على تسليمها الى نور الدين وان أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك للفرنج
واجلاؤهم من ارض الشام فليضعوا الى قوله وقالوا ان مصر لا مانع لها ولا حافظ والى ان يصل الخبر الى نور الدين
ويجهز العساكر ويسيرهم اليها تكون نحن قد ملكناها وفرغنا من امرها وحينئذ يفتنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر
عليها وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم امرها فاجابهم الى ذلك على كره شديد وتجهزوا واظهروا انهم على قصد
الشام وخاصة مدينة حصن وتوجهوا من عسقلان فى النصف من المحرم ووصلوا اول يوم من صفر الى بلبس ونازلوها
وحصروها فكلوها قهرا ونهبوها وسبوا اهلها واقاموا بها خمسة ايام ثم اناخوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر
خفاف الناس منهم ان يفعلوا بهم مثل فعلهم باهل بلبس فحملهم الخوف منهم على الامتناع وحفظوا البلد وقتا لا ودونه
وبذلوا جهدهم فى حفظه ولوان الفرنج احسنوا السيرة مع اهل بلبس المكيومصر والقاهرة بسرعة ولكن الله تعالى
حسن لهم ذلك ليقتضى الله امرها كان مفعولا وكان شاور امر باحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم
يوم واحد وخوفها عليها من الفرنج فبقيت النار فيما تحرقها أربعة وخمسين يوما الى خامس ربيع الآخر ثم ضاق الحصار
وخيف الدوار وعرف شاور انه يضعف عن الحماية فشرع فى جعل الحيل وأرسل الى ملك الافرنج ينجده كره مودة ومحبة
القديمة وان هواه معه وتخوفه من نور الدين والعاضد وانما المسلمون لا يوافقونه على التسليم اليه ويشيرون الصلح واخذ المال
لثايلم البلاد الى نور الدين فاجابه الى الصلح على ائخذ الف دينار مصرية تجعل البعض ويؤخر البعض واستقرت
الاعداء على ذلك ورأى الفرنج ان البلاد امتنعت عليهم ورعى سلمت الى نور الدين فاجابوا كارهين وقالوا اناخذ المال
نتقوى به ونكرهم من الرجال ثم تعودوا الى البلاد بقوة لا نبالى معهم بنور الدين ولا غيره ومكر واومر الله والله خير الماكرين
فجعل لهم شاور مائة الف دينار وسألم الحيل عن البلد ليجمع لهم المال فراحوا قريبا وكان خليفة مصر العاضد
عقب حريق مصر ارسل الى نور الدين يستغث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وارسل الى الكتب شعور النساء
وقال له هذه شعور نسائي من قصرى يستغث بك لتنفذهن من الفرنج فقام نور الدين لذلك وقد وشرع فى تجهيز

في أخبار (١٥٥) الدولتين

العساكر الى مصر ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال عاود العاضد امر اسلحه نور الدين واعلامه بما لقي المساون من افرنج وبذل له ثاثل البلاد من مصر وان يكون اسد الدين شيركوه مقيما عند في عسكر واقطاعهم عليه خارباجن الثلث الذي لنور الدين هذا قول ابن الاثير وقال العماد بجعل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار رحيلة وخذاعا وارغاما له واطامعا واصل بكتبة الى نور الدين مستصرا خامسة نفرا وبما ناب الاسلام من الكفر مخبرا ويقول ان لم يبادر ذهبت البلاد وسير الكتب مسودة بعدادها كاسية لباس حدادها وفي طيها ذائب مجز ووزة وعصائب مجز ووزة اظن انها شعور أهل القصر للاشعار بما عايراهم من بلية الحصر وارسلها اتباعا وأردف بها تجايب سرعا وأقام منتظرا ودام متحيرا وعامل الفرنج بالمطال بقدهم في كل حين مالا ويطلب منهم امهالا وما زال يعطيهم ويستقبلهم حتى أتى القوت بعساكر نور الدين رحمه الله

(فصل) فيما فعله نور الدين كان نور الدين لما أتاه الرسل اولاً من العاضد قد أرسل الى أسد الدين ليس يستدعيه من حمص وهي اقطاعه فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها وكان سبب وصوله ان كتب المصريين أيضا وصلته في هذا الامر فبقي مسلوب القرار مغلوب الاضطراب لانه كان قد طمع في بلاد مصر فخاف خروجها من يده وان يستولى عليها الكفر فساق في ليله واحدة من حمص الى حلب واجتمع نور الدين ساعة وصوله فتعجب نور الدين من ذلك وتقال به وشكره وأمره بالتجهز الى مصر والسرعة في ذلك وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة وحكمة في العساكر والخزائن فاختر من العسكر ألفي فارس واخذ المال وجمع من التركمان ستمائة ألف فارس فكان في مدة حشدته للتركمان سار نور الدين لتسليم قلعة جبر ثم سار هو ونور الدين الى دمشق ورحلا في جميع العساكر الى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذي مع أسد الدين عشرين دينارا معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له وأضاف الى أسد الدين جماعة من الامراء والممالك منهم مملوكه عز الدين جريدك وغرس الدين قليم وشرف الدين برغش وناصر الدين خوارنكيين وعين الدولة ابن الباروني وقطب الدين بنال بن حدان المنجي وغيرهم ورحلوا على قصد مصر مستزينين من الله تعالى النصر وذلك منتصف ربيع الاول وخيم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء وأقام ينتظر ورود المبررات فوصل المبرر برحيل الفرنج عن القاهرة عائد فين الى بلادهم لسماعه بوصول عسكر نور الدين وسبب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر وامر نور الدين بضرب البشار في سائر بلاده وبث رساله الى الآفاق بذلك وقال القاضي أبو المحاسن لقد قال لي السلطان يعني صلاح الدين كنت أكره الناس للفرج في هذه الدفعة وما خرجت معي باختباري قال وهذا معني قوله سبحانه وتعالى وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وقال ابن الاثير احب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهب بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته ومملكه حكى لي عنه انه قال لما وردت الكتب من مصر الى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مسترخين ومستحضرين احضرتي واعلمني الحال وقال تضي الى عمك اسد الدين بخص مع رسول الله يامره بالحضور وتجهز انت على الاسراع فاحتمل الامر التأخير قال ففعلت فلما فارقتا حلب على ميل منها لقيناه قدامي هذا المعنى فقال له نور الدين تجهز للسير فامتنع خوفا من غدرهم ولا وعدم ما يفقه في العساكر ثانيا فأعطاه نور الدين الاموال والرجال وقال له ان تأخرت أنت عن المسير الى مصر فالمصلحة تقتضي ان أسبر انابغسي البها فانتان أهلنا أمر هاء لملكها الفرنج ولا يتي لنا معهم مقام بالشام وغيره قال فالتفت الى عمي أسد الدين وقال تجهز يا يوسف قال فكأنما ضرب قلبي يسكني قتلتي والله لو أعطيت ملك مصر سارت البها فقد قاسيت باللاستكندرية من المشاق ما لا انساها بدا فقتال عمي لنور الدين لا بد من مسيره معه فترسم له فامري في نور الدين وانا استقبله ثم انقضى المجلس ثم جمع اسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير فقال لي نور الدين لا بد من مسيرك معك فشكلت اليه المضايقة وقلة الدواب وما احتاج اليه فاعطاني ما تجهز به وكاننا اساقا الى الموت وكان نور الدين مهيبا مخوفا مع لينه ورحمته فصرت معه فلما استقر أمره وتوفى اعطاني الله من ملكه ما لا كنت أتوقعه قلت وحرره أيضا احسان العزلة بآيات من شعره من جملة قصيدة قدح بها قال

وهل أخشى من الانواء بخلا * اذا ما يوسف بالمال جادا

كتاب (١٥٦) الروضتين

ففي الدين لم يبرح صلاحا * وللإعداء لم يبرح فسادا
لئن اعطاه نور الدين حصنا * فإن الله يعطيه البلادا
الىكم ذا التواني في دمشق * وقد جاءكم مصر نهادا
عروس يعطها اسدهنر * يصيد المعتدين ولن يصادا
ألا يامعشر الاجناد سيرا * وراء لوائه تلقوا ارشادا
فما كل امرء صلي مع النبا * س ما موما كن صلي فرادا

فلما صار صلاح الدين الى مصر عبر العرقله على داره فوجدها مغلقه فقال

عبرت على دار الصلاح وقد خلت * من القمرا الوضاح والمنهل العذب
فوانته لولا سرعة مثل عزمه * لقره اطهر في وأحره اقلبي

ودار صلاح الدين هي التي وقفها بطاننا صوفية بخاره قطامش جوار قسارية القضاة واليهابيجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله فقضى الله ما قضى من رحيل الفرنج وتلك صلاح الدين على ماسيا في ولاه ابر الفاضل أسامة بن منقذ في صلاح الدين من قصيدة أولها (سلم على مصر لا ربع بندي سلم) يقول فيها

الناصر الملك الموفى بذمته * ومن ندى كفه يعني عن الديم
ومن اذا جرد البيض الصوارم في الهجاء اغدا في البيض والقلم
ومن حوى الملك من بعد الطاعة في استزاعه شبها الهندية الخدم
ور طاعة الافرنج يحسبها * رجاه من ملك مصر كان في الحلم
وفي وراحتة صفر وقد ملئت * بعد الطاعة من يأس ومن ندم
يصعدون على ما فاتهم نفسا * لولا فتح البحر أضحت الموج كالجم
وفي السلامة لولا جهلهم ظفر * لمن أراد نزال الاسد في الاجم
وهم اسود الشرى لكن أذلهم * ملك لديه الاسود الغلب كل غنم
وله من قصيدة أخرى

اقت عود الدين حين أماله * لطاغى الفرنج الغنم طاغى بنى سعد
وجاهدت حزب الكفر حتى رددتهم * خزاياعلهم خيبة الدل والرد
أفدت بما قدمت ملكا خلتدا * وزكر امدى الايام يقرن بالجد
وذكرك في الافاق يسرى كانه * صباح له نشر الاتوة والنسد

ولابي الحسن بن الذروي فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مرى

ولكم أثمرت الروم أشأم بارق * أختت مياه نفوسها من قطره
وأفالكبحر دروعها عن مده * ومضى وقد حكمت ظباك البيزره
ولقيت مر يا وطعم حياته * حاول فبذل له القتال بجزره
فاعقد اليه الرأى في عذب القنا * واحلل بها عجماء مقدمه
واطرده من وكر الشأم فانه * قد طار منك بضاق من ذعره

(فصل) في القبض على شاور وقتله وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر واجتمع بالعاضد خليفة مصر فخلع عليه وأكرمته وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوفيرة ولم يمكن شاور المنع من ذلك رأى العساكر كثيرة بظواهر البلد ورأى هوى العاضد معهم من داخله فلم يتجاسر على اظهار ما في نفسه فكتبه وهو بمطلس أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والاقطاع للعساكر وافراد ثلث البلاد لشور الدين وهو يركب كل يوم الى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه وما يعدهم الشيطان الا غرور اثم انه عزم على ان يعمل دعوة لاسد الدين ومن معه من الامر او يقبض عليهم فنهاه ابنه الكامل وقال له والله لئن عزمت على هذا الامر لا عترف

أسد الدين فقال له أبوه والله لن لم أفعل هذا النقتل جميعا فقال صدقت ولان قتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خبير من ان تقتل وقد ملكها الفريخ فليس ينك وبين عود الفريخ الا ان يسعوا بالقبض على شركوه وحيه نذلومشي العاضد الى نور الدين لم يرسل فارسا واحدا ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه فلما رأى العسكر النورى المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديل وغيرهما على قتل شاور وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم فقالوا اناليس في البلاد شيء مهم ما هذا على حاله فأنكر ذلك واتفق ان أسد الدين سار بعض الايام الى زيارة قبر الشافعي رضى الله عنه وقصد شاور عسكره على عادته الا لاجتماعه بلفقيه صلاح الدين وعز الدين جرديل ومعهم ما جمع من العسكر فخدموه وأعلموه ان أسد الدين في الزيارة فقال غضبي اليه فسار وهما معه قليلا ثم سار وروه وألقوه عن فرسه فهرب أصحابه وأخذ أسير اوليهم بكنهم قتله بغير اذن أسد الدين فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعا ولم يمكنه الا اتمام ما علموه وأرسل العاضد ليدن الله صاحب مصر في الوقت الى أسد الدين يطلب منه رأس شاور ويحمله على قتله وتابع الرسل بذلك فقتل شاور في يومه وهو سابع عشر ربيع الآخر وحمل رأسه الى القصر ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه فقال لهم أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور ففهدوها الناس ينهبونها فتترقوا عنه هذا قول ابن الاثير وقال ابن شداد أقام أسد الدين بها يتردد اليه شاور في الاحيان وكان وعدهم بمال في مقابلته ما خسروه من النفقة فلم يوصل اليهم شيئا وعلقت مخاليب الاسد في البلاد وعلم ان الفريخ متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد وان ترددهم اليها في كل وقت لا يقبلون شاورا يلعب بهم تارة وبالأخرى ولا كما قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم وعلموا انه لا سبيل الى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور فاجعوا أمرهم على قبضه اذ خرج اليهم وكانوا هم يترددون الى خدمته دون أسد اندين وهو يخرج في الاحيان الى أسد الدين فيجمع به وكان يركب على قاعدة وزارتهم بالطبل والبوق والعلم فلم يتحاصر على قبضه منهم الا السلطان نفسه يعني صلاح الدين وذلك انه لما سار اليهم راكبا وسار الى جانبه أخذ بتلابيبه وأمر العسكر ان خذوا على أصحابه فقتلوا ونهبهم العسكر وقبض شاور وأنزل الى خيمة مفردة وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول لآسدين من رأسه جريا على عادتهم في وزارتهم في تقرير قاعدة من قوى منهم على صاحبه فخرت رقبته وأنفذوا رأسه اليهم قال العماد ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الايوان وخلع عليه ولقي الاحسان وتردد شاور الى أسد الدين وتودد وتجدد بينهما من الوداد ما تأكد وأقام العسكر الضيافات الكثيرة والاطعمة الواسعة والحلوات والميرة فقال صلاح الدين هذا امر يطول ومساءل فرفضها بغير عمل ومعناها هذا العسكر الثقيل واقامته بالافامة يقصر عنها الامد الطويل ولا أمر لنا مع استيلاء شاور لاسيما اذا راوغ وغادر فأنفذ أسد الدين الفقيه عيسى الى شاور يشير عليه بالاحتراس وقال له أخشى عليك من عسدي من الناس فلم يكثرث بقاله وركب على سبيل انبساطه واسترساله فاعترضه صلاح الدين في الامراء النورية وهو راكب على عادته في هيئة الوزير به فيبغته وشجته وقبضه وأثبتته ووكل به في خيمة ضربها له وحاول أمهاله فجاء من القصر من يطلب راسه ويحمل من العرياسه وجاء الرسول بعد الرسول وأبوا ان يرجعوا الا ينجي السؤل فحم جامه وحمل الى القصر هامة قلبت وبلغني ان الذي خرقه شاور هو عز الدين جرديل وكان صلاح الدين لما لقيه في أصحابه سار بجنبه وأراد افراده عن العسكر فالتس منه المسابقة بفرسهما فأجابته ووافقهما في ذلك وكان ذلك عن أمر قد تقرر فخرت رقبته فدخلهم فلما بعدوا عن العسكر وقفوا قبض صلاح الدين وجرديل على شاور داخل الخيمة وقد كثر بهما شاور بغدوره ومكره حتى قال عرقلة

لقد فاز بالملك العقيم خليفة * له شركوه العاضد وزير
كان ابن شاذي والصلاح وسيفه * على لديه شبر وشبير
هو الاسد الضاري الذي جل خطبه * وشاور كلب الرجال عقور
بني وطني حتى لقد قال قائل * على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره * ولا زال فيها منكر ونكير

كتاب (١٥٨) الروضتين

وقال أيضا

ان امير المؤمنين الذى * مصر حماه وعلى - أبوه
نص على شاور فرعونها * ونص موساه على شيركوه

وقد وصف الفقيه الشاعر أبو جزة عمارة البني في كتاب الوزيراء المصرية الذى صنفه حال شاور في وزارته الاولى ثم قال
وزارة شاور الثانية فيها تكتشف صفحاته وأغرقت نخجانه وأعرق جرحاته وغضه الدهر وعصه وأوجعه الشكل
وأفضه وبان غمره ومثاده وجره ورماده ولم يحف من الانكاد لبلده ولا صفامن الاقتداء ورده وما هو الا ان تسلمها
بالراحه وسلمت له المهرم عوضا عن الراحة وفي أول ليلة دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طابا بلبليس فأقام بها
ثم عاد الى القاهرة فكسر الناس يوم الساج وأسرا أخوه صبيح وأصيب على باب القنطرة بحجر كاد يموت منه وتعب
ذلك ينقل القتال على القاهرة حتى دخلت من الثغرة ثم تبع هذا مجيئ الفريخ وعمل البرج وحصار بلبليس ثم تلا
ذلك قيام مجيئ بن الحياط طالب الوزارة ثم تلا ذلك نفاق لواته ومن ضامها من قبس وخروج أخيه نجم وابنه سليمان
وجماعة من غلمانهم لحربهم ثم خروج ابنه الكامل في بقية العسكر وفي أثناء هذه المدة قبضه على الاثير بن جلب
راغب وقتله وأسرع على بن فريخ ثم قتله واتصل اليه الخبر من قدوم أسد الدين الى اقطاع في بام الثوابت الكبير ووافق
مجيئ الفريخ وقدوم الفريخ ناصر بن للدولة وتوجهوا من مصر في البر الشرقي تابعين للفريخ لما احت الفرصة للفريخ فهادوا
الى مصر واقترحوا من المال ما تنقطع دونه الامال وخيموا على ساحل المقسم وأظهروا رجوعهم الى الشام فقهز
الكامل للسيرة بحجة الافريخ حدثني القاضي الاجل الفاضل عبد الرحيم بن علي البيهاسي قال أنا ذكر وقد خلونا
في خيمة وليس معنا أحد انما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم فعزم الكامل على النهوض مع الفريخ وعزم نجم على
التغريب الى سليم وماوراءها وقال شاور لكن لأبرح أقاتل بين صفامي حتى أموت ففحن في ذلك حتى وصل اليها
الداعي ابن عبد القوى وصنيفة الملك جوهر وعز وقد التزموا المال وتفزع على هذا الاصل مقام الغز بالجيزة وتوبة
البابن وحصار الاسكندرية وانصرف الفريخ راجعين والفريخ بعدهم فها هو الا ان توههم شاور ان الدهر قد نام وغفا
وصفح عن عادته وغفا واذا الايام لا تختطب الا زواله وفوته ولا تريد الا انتقاله وموته فكان من قدوم الفريخ الى
بليس وقتل من فيها وأسرعهم بأسرعهم ما أوجب حريق مصر ومكاتبه الاجل نور الدين بن القسيم وأخذاه كلمة الاسلام
بأسد الدين ومن معه من المسلمين الذين قتل فيهم وقد ربط الافريخ بالطريق عليهم

أخذهم على الافريخ كل ثنية * وقلتم لا يدي الخيل مري على مري
لن نصبوا في البر جسرا فانكم * عبرتم بحمر من حديد على الجسر

قلت وهذا البيتان من قصيدة ستأتي ومري هو اسم ملك الافريخ قال عمارة قضي قدوم الفريخ رحيل الفريخ عن
الدار المصرية ولم يلبث شاور ان مات قتيلا بعد قدوم الغز بثمانية عشر يوما وهذه السنوات التي وزر فيها شاور
وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له قال ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما رباهم
الصلاح بن رزيك ولا فني اعيانهم مثل ضرعام وكانت وزارته تسعة أشهر مدة جل الجنتين ولا تألف أمواهم مثل
شاور وشاور هو الذي أطمع الغز والافريخ في الدولة حتى انتقلت عن أهلها وما عاد من حصار الاسكندرية بأكثر من
سفك الدماء بغير حتى كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة ثم تسحب القتلى الى خارج
الدار وقال الحافظ أبو القاسم لما خيف من شر شاور ومكره لما عرف من غدره وخسره وانفض الامر في ذلك
واستبان تمارض الاسد ليقنتص التعلبان بجفاءه قاصدا لعيادته جاريا في خدمته على عادته فوثب جديك
وزرعش موليا نور الدين فقتلا شاورا وأراحا العباد والبلا دمن شره وما شاورا وكان ذلك بر أي صلاح الدين فانه
أول من تولى القبض عليه ومدّ به الكربة بالمكره واليه وصف الامر لاسد الدين وملك وخلع عليه الخلع وحك
واستولى أصحابه على البلاد وجرّت أموره على السداد وظهر منه جيل السيرة وظهرت كلمة السنة

(فصل) في وزارة أسد الدين وذلك عقب تمل شاور وتنفيذ رأسه الى القصر أنفذ الى أسد الدين خلعة الوزارة
فلبسها وسار ودخل القصر وترتب وزير اقلب بالملك المنصور أمير الجيوش وقصد دار الوزارة فنزلها وهي التي كان

في اخبار (١٥٩) الدولتين

بها شاور فن قبله من الوزراء فلير فيها ما بقعد عليه واستقر في الامر ولم يبق له فيه منازع ولا مناو وولى الاعمال من يثق اليه واستبد بالولاية فاقطع البلاد العساكر التي قدمت معه وصالح الدين مباشر للا مور مقر لها وزام الامر وانتهى مقوض اليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأنيه وسياسته قال العماد وكتب لاسد الدين منشور من القصر بسيط السرح طويل الطي والنشر كتب العاضد في طرته بخطه ولا شك انه بلاما كآبه (هذا عهد لاعبد لوزير بعثه وتقلد امانة رآك أمير المؤمنين أهلا لجله والنجة عليك عند الله بما أوصحه لك من مر اشد بسبه فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واحب ذيل الخبر بأن اعتزت خدمتك الى نبوة النبوة واتخذ لفلوز سيملا ولا تنقضوا الايمان بعد تو كيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) نسخة المنشور (من عبدالله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين الى السيد الاجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الائمة بحجر الامة أسد الدين كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العاضد يعضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كفته سلام عليك فانه يحمد اليك الله الذي لا اله الا هو يسأله ان يصل على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والائمة المهديين وسلم تسليما) ثم ذكر باقي المنشور وهو مشتمل على كلام طويل وحشو غير قليل على عادة الكتاب المتأخرين الذين تراهم بالالفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين وبالباغة عكس ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (بعثت بجموع الكلم واختصر في الكلام اختصارا)

ولما استقل أسد الدين بالوزارة طلب من القصر كتاب انشا فارس اليه بالفاضل عبد الرحيم البيساني وكان أبوه من أهل بيسان الشام ثم ولى قضاء عسقلان وخرج الفاضل الى الديار المصرية فولى كاتباً بالاسكندرية على باب السدرة ثم انه اتصل بالكمال بن شاور فاستكتبه وزاحمه بكتاب القصر فقتل عليهم أمره فلما طلب أسد الدين كاتباً أرسل اليه وظن رؤساء ديوان المكاتبات ان هذا أمر لا يتم وان أسد الدين سيقبل كما قتل من كان قبله فأرسلوا بالفاضل اليه وقالوا له يقاتل معه فنحله من من اجته لنا فكان من أمرهما كان واسم في الدولة ولم يزد في كل يوم الا تقباً بصدقه ودينه وحسن رأيه رحمه الله وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنته لاسد الدين أولها

بالجدا أدركت ما أدركت لا اللعب * كراحه جذبت من دوحه النعب
يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة من * نادى فعترف خير ابن بخير أب
حرى الملوكة وما حازوا بركضهم * من المدي في العلى ما حزت بالخب
تمل من ملك مصر رتبة قصر * عنها الملوكة فظلت سائر الزب
ففتحت مصر وأرجوان تصير بها * ميسرا فتح بيت القدس عن كتب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من * فتح البلاد فبادر نحوها وثب
أنت الذي هو فرد من بسائسه * والدين من عزمه في جفيل لب
في حلق ذى الشر من عدوى سطاك شجا * والقلب في شجن والنفس في شجب
زارت بنى الاصفر البيض التي لقيت * حمر المنايا بها مرفوعة الحب
وانها تقدم خلفها أسد * ارى سلامتها من أعجب العجب
لقد رفعا الى الرحمن أيدينا * في شكرنا ما به الاسلام منك جى
شكالك بنو الاسلام بهم * ففتحت فيهم مقام الوالد الحبيب
في كل دار من الافرنج نادبة * بما دهاهم فقد بانوا على ندب
من شر شاور انقضت العباد فكم * وكقضيت لم يرب الله من أرب
هو الذى أطمع الافرنج في بلد السلام * سلام حتى سعوا للقصد والطلب
وان ذلك عند الله محسوب * في الحشر من أفضل الطاعات والقرب
أذله الملك المنصور منتصرا * لمادعا الشرك هذا قد تنزى بي
وما غضبت لدين الله منتفعا * الا لنيل رضى الرحمن بالنصب

كتاب (١٦٠) الروضتين

وأنت من وقعت في الكفر هيئته * وفي ذويه وقوع النار في الحطب
 وحين سرت إلى الكفار فأنهموا * نصرت نصر رسول الله بالرعب
 يا محبي الأمة الهادي بدعوته * للرشد كل غوى منهم وغبي
 لما سمعت لوجه الله مرتقيا * ثوابه نلت عفوا لكل مرتقب
 أعدت تقمة مصر نعمة فقدت * تقول كم نكتك الله في النكب
 أركبت رأس سنان رأس ظالمها * عدلا وكنت لوزر غير مرتكب
 رد الخلافة عباسية ودع السدي فيها بصاف شر منقلب
 لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها * فالخزم عندي قطع الرأس كالذنب
 وقال العماد في الخريدة أنشدني الحافظ أبو القاسم لنفسه وقد أعفى الملك العادل نور الدين قدس الله روحه أهل
 دمشق من المطالبة بالخشب فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر فكتب إليه بهذه
 لما سمعت لاهل الشام بالخشب * عوضت مصر عما فيها من النشب
 وان بذلت لفتح القدس محتسبا * للاجر جوزيت أجر غير محتسب
 والاجر في ذلك عند الله مرتقب * فيما يثيب عليه خير مرتقب
 والذكر بالخبر بين الناس تكسبه * خير من النضة البيضاء والذهب
 ولست تعذر في ترك الجهاد وقد * أصبحت تملك من مصر الى حلب
 وصاحب الموصل الفيحاء ممثلا * لما تريد في بادئ الخاف والنوب
 فاحزم الناس من قوى عزيمته * حتى ينال بها العالي من الرتب
 فالجدة والجدة مقرونان في قرن * والخزم في العزم والادراك بالطلب
 فظهر المسجد الأقصى وحوزته * من التجاسات والاشراك والصلب
 عساك تظهر في الدنيا بحسن ثنا * وفي القيامة تلقى خير منقلب

(فصل) في وفاة أسد الدين شيركوه وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه توفي أسد الدين فجأة يوم السبت
 الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام قال ابن شذاد كان أسد
 الدين كسيرا لا كل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة تناوز عليه الختم والخواتيق ويجوهمنا باعد معاناة
 شدة عظيمة فأخذته مرض شديد واعتراه خافوق عظيم فقتله رحمه الله وقوض الامر بعده الى صلاح الدين واستقرت
 القواعد واستتب الاحوال على احسن نظام وبذل الاموال وملك الرجال وهانت عنده الدنيا فلكها وشكر نعمة
 الله عليه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد وما عاد عنه ولا ازداد الاجدا
 الى أن توفاه الله تعالى الى رحمة وقد سمعت من مرجه الله يقول لما يسر الله الى الديار المصرية علمت انه أراد فتح
 الساحل لانه أوقع ذلك في نفسه وحين استتب له الامر ما زال يشن الغارات على الفرنج الى الكرك والشوبك
 وبلادها وغشى الناس من سحائب الافضل والنعيم ما لم يؤرخ عن غير تلك الايام هذا كله وهو وزير متابع
 للقوم لكنه مقوم مذهب السنة غارس في البلاد أهل العلم والفقه والتصوف والدين والناس يهرعون اليه من كل صوب
 ويفدون اليه من كل جانب وهو رحمه الله لا ينجيب قاصدا ولا يعدم وافدا ولما عرف نور الدين استقرار امر صلاح
 الدين بمصر أخذ حصن من نواب أسد الدين وذلك في رجب من هذه السنة وقال ابن الأثير أما كيفية ولايته صلاح
 الدين فان جماعة من الامراء النورية الذين كانوا بصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة منهم الامير عيين
 الدولة البليار وفي قطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن أخي أبي النجباء الحمداني الذي كان صاحب أربل ومنهم سيمق
 الدين علي بن أحمد الحكاري وجده كان صاحب قلاع الحكارية ومنهم شهاب الدين محمود الحارثي وهو خال صلاح
 الدين وكل من هؤلاء قد خطبها وقد جمع ليغالب عليها فأرسل الخليفة العاضد الى صلاح الدين فأمره بالخصور
 في قصره ليخلص عليه تلخ الوزارة وبوليه الامر بعده وكان الذي حل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين فانه ظن

انه اذا ولى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته بحكمه ولا يجبر على المخالفة وانه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم اليه فاذا صار معه البعض أخرج الباقي وتعود البلاد اليه وعنده من العساكر الشامية من يجبرها من الفرنج ونور الدين فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فالزم به وأخذ كارها ان الله ليحب من قوم يقادون الى الجنة بسلاسل فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة الجبة والعمامة وغيرها ولقب بالملك الناصر وعاد الى دار أسد الدين فأقام بها ولم يلقفت اليه أحد من أولئك الامراء الذين يريدون الامر لأنفسهم ولا خدمه وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه فسعى عند سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله اليه وقال له ان هذا الامر لا يصل اليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل قال الى صلاح الدين ثم قصد شهاب الدين الحارمي وقال له ان هذا صلاح الدين هو ابن اختك وملكه لك وقد استقام الامر له فلا تكرر أول من يسعى في اخراجه عنه فلا يصل اليك ولم يزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه له ثم عدل الى قطب الدين وقال له ان صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الباري وفي وعلى كل حال فالجمع بينك وبين صلاح الدين ان أصله من الاكراد فلا يخرج الامر عنه الى الأثر وعده وزاد في إقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضا وعدل الى عين الدولة الباري وكان أكبر الجماعة واكثرهم جمعاً فلم تنفعه رفاة ولا نفذ فيه سحره وقال أنا لأخدم يوسف أبدا وعاد الى نور الدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقه وقد فات الامر ليقضي الله أمرا كان منقولا وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه وهوناب عن الملك العادل نور الدين والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ولا يتصرفون الا عن أمره وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالامير الاسفهلار ويكتب علامته في الكتب تعظيما أن يكتب اسمه ولا يقرده في كتاب بل يكتب الامير الاسفهلار صلاح الدين وكافة الامراء بالدار المصرية يفعلون كذا وكذا واستعمال صلاح الدين فلوب الناس وبذل لهم الاموال مما كان أسد الدين قد جمعه وطلب من العاضد شيئا يخرج به فليمنعه فقال الناس اليه وأحبوه وقويت نفسه على القيام بهذا الامر والثبات فيه وضعف امر العاضد وكان كالباحث عن حتمه بظلفة وارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل اليه اخوته فلم يجبه الى ذلك وقال أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد ثم ان الفرنج اجتمعوا لاليسر والى مصر فسير الى مصر نور الدين العساكر وفيهم اخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تور انشاه بن أبوب وهو أكبر من صلاح الدين فلما أراد أن يسير قال له ان كنت تسير الى مصر وتنظر الى أخيك انه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت فاعد فلا تفسد فانك تفسد البلاد وأحضره حينئذ وأعاقبك بما تستحقه وان كنت تنظر اليه انه صاحب مصر وقائم فيها مقامى وتخدمه بنفسك كما تخدمنى فسر اليه واشدد أزره وساعده على ما هو بصدده قال افعل معه من الخدمة والصاعمة ما يصل اليك ان شاء الله تعالى فكان كما قال وقال العماد لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت أراؤهم واختلطت أهاؤهم وكاد الشمل لا ينتظم والخلل لا يلتئم فاجتمع الامراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعده وعقدوا لصلاح الدين الرأى والرايه وأخلصوا له الولاء والولايه وقالوا هذا قائم مقامهم ونحن بحكمهم وألزموا صاحب القصر بتوليته ونادت السعادة بتبليته وشرع في ترتيب الملك وترتيبه وقض ختم الخزان وأبصر رسوم ائزاز وسلط الجود على الموجود وبسط الوفور والوفود وفرق ما جمعه أسد الدين في حماه وأنارت على منار العلى آياته ورأى أولياءه تحت الويته وورايته وأحبوه وما زالت محبته غالبة على مهابته وهو يبالغ في تقيدهم كما أنهم ذوو قرابته ومازاده الملك ترفعا وما أفاده الأتصافى السماع ونفرا وعزم من أمر المملكة ما كان منشورا وكتب له العاضد صاحب القصر منشورا وهو بالمثل الكريم الفاضل الذى هو السحر الخلال والعذب الزلال ثم أوردته العماد وهو شبيه بمشور أسد الدين ٤٦ وجرى القلم فيه بما خط له القلم فى الازل من وصف جهاده وسلمه فى ذلك المنشور والجهاد أنتر ضيع دره وناشته بحره وظهور الخيل مواطنك وظلال الخيام مساكنتك وفى ظلمات قساطله تحلى بحاسنتك وفى أعقاب نوازله تتلى مناقبك فشرعن ماق من القنا وخض فيه بحرا من الظبا وأحل فى عقد كلمة الله وثيقات الحبا واسل الوهاد بدم العدى وأرفع بر رؤسهم الربا حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذكورا لا يامك وشهودك يوم مقامك وفى طرته بالخط العاضدى ولم يذكره العماد فى كتابه (هذا عهد أمير المؤمنين اليك وحجته عند الله سبحانه عليك فأوف بعهدك ويمينك وخذ كتاب أمير

كتاب (١٦٢) الروضتين

المؤمنين بيمينك ولبن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوه ولبن تبق من تبعته بنا أعظم سلوة تلك
الدار الآخرة فجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين يعني بن مضى أسد الدين وبن بنى
صلاح الدين ثم قال العماد وهذا آخر منشور وطوبى به تلك الدولة وختمت وتبددت عقودها وانتظمت ووصلت
كتب صلاح الدين إلينا إلى الشام بما تسمى له من المرام ولبن يقصده بالاستدعاء والاستبطاء ولبن تأخر عنه بالخلع
والعطاء وترددت الكتب الصلاحية بذكر الاشواق وشكوى الفراق وشرح الاستبحاش وبرج القلوب العطاش
فان أصحابنا وان ملكوا أو نالوا مقاصدهم وادركوا حصولا بين أمة لا يعرفونها بل ينكرونها ولا يألونها ورأوا وجوها
هناك بهم عابسه وأعينا الملك كائنه متيقظة وعن الودنا عسه فان أجداد مصر كانوا في الدين مخالفين وعلى عقيدتهم
معاقدن مخالفين وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتابا أوله

أيها الغائبون عني وان كنتم لقلبي بذكركم جيرانا

انني مذ فقدتكم لاراكم * بعيون الضمير عندى عيانا

فسألني المكتوب إليه ان اكتب جوابه فقلت

أيها الظاعنون عني وقلبي * معهم لا يفارق الاطمانا

ملككم امصر مثل قلبي وفي * ذواها تيك أصبحوا سكانا

فاعدلوا فيهما فانكم اليو * م ملككم عليهم اسطانا

لازوعوا بالمحجر قلب محب * أورثته روعاته الخفقنا

حبذا معهود قضينا به العيب * فكنا بربعه جيرانا

اذ وجدنا من الحوادث أمنا * وأخذنا من الخطوب أمانا

ورتعنا من المني في رياض * وسكانا من المغاني جنانا

وبعد فان وفود الهناء واما داء الدعاء متواصلة على الولاء صادرة عن محض الولاء إلى عالي جنباه المأنوس ومنيع
ككفه المحروس فليمنه الظفران بالملك وبالعدو وفرع حضاب المجد والعسل وكيف لا يكون النصر مساوقا للدين
هو صلاحه والتأيد مرافقا لعزمه ونجاحه وفلاحه

فالشام يغبط مصر امذ حلات بها * كما الفرات عليك كمحسد النبالا

نلت من الملك عفوا مالم لوك به * عنوا قدما وراموه فمالا

قال العماد ورثت أسد الدين بقصيدة خدمت بها نور الدين وعزيت بها أخاه نجم الدين منها

تضعض في هذا المصاب المباغت * من الدين لولا نوره كل ثابت

فايام نور الدين دامت منسية * لنا خلفا من كل مود وفائت

فما بالنائب دى التصام غفلة * وداعى المنايا ناطق غير صامت

ثم مل في دار الفناء بقاءنا * وزرجو من الدنيا صداقة مافت

وما الناس الا كلفصون بد الردى * تقرب منها كل عود لناحت

لقد أبلغت رسل المنايا واسمعت * ولكنها لم تحفظ منابنا صامت

فله في على تلك الشمايل انها * لقد كرمت في الحسن عن نعت ناعت

وله من أخرى عزى بها أخاه نجم الدين أيوب وولده ناصر الدين محمد يقول

ما بعد يومك للمعنى المندف * غير العويل وحسرة المتأسف

ما أجزأ الحد ثان كيف سطا على * أسد الخوف سطا ولم يخوف

من ذار رأى الأسد المحصور فريسة * أم أبصر الصيم المنير وقد خفي

من ثابت دون الحكمة سواه ان * زلت بهم أقدامهم في الموتف

ما كان أسنى البدر لولم يستتر * ما كان أبهى الشمس لولم تكسف

في اخبار (١٦٣) الدولتين

أيام عرك لم تزل مقسومة * لله بين تعبدا وتعرف
متجسدا لعبادة أو تاليا * من آية أو ناسرا في مصحف
بجع الندي والبأس منك بحاتم * وبجيدرو والحلم منك باحنف
بالمالك فزت وحزته عن قدرة * ومضيت عنه بسيرة المتعفف
ووصفت بأسدا لدين محمد * مدحا بما ملك به لم بوصف
وقفوت أنار الشريعة كلها * وقد اهتدى من الشريعة يقتنى
أنفت من دنياك حين عرفتها * فلويت وجه العارف المتكف
ياناصر الدين استعذ بتصير * مدن إلى مرضاة رب مزلف
وتعزجهم الدين عنه مهنا * أبدا الزمان بملك مصر ويوسف
لا نستطيع سوى الدعاء فكلنا * إلا بما في الوسع غير مكلف

ولعمارة اليمنى في صلاح الدين مدائح منها قوله

لك الحسب الباقي على عقب الدهر * بل الشرف الراقى إلى قمة النسر
كذا فليكن سعي الملوك إذا سعت * بها اللهم العليا إلى شرف الذكر
نهضتم بأعباء الوزارة نهضة * أقلمت بها الأقدام من زلة العثر
مكشفتهم عن الأقليم غتمه كما * كسفتهم بأنوار الغنى ظلمه الفقر
حجبتهم من الأفق بسرب خلافة * جريت لها مجرى الأمان من الذعر
ولما استفتا ابن النبي بنصركم * ودائرة الانصار أضيقت من شبر
جلبتم إليه النصر أوسا وخزرجا * وما اشتقت الانصار الأمان النصر
كائب في جبرون منها أواخر * وأولها بالنيل من شاطئ مصر
طلعت فاطمتكم كواكب نصرة * أضاعت وكان الدين ليلا بلا فجر
وأبت اليكم بابن أيوب دولة * ترأسلكم في كل يوم مع السفر
حى الله فيكم عزمة أسدية * فكلكم بها الإسلام من ريقه الاسر
أخذتم على الأفق نجم كل ثنية * وقلمت لا يدى الخيل متى على مرى
لئن نصبوا في البر جسرا فانكم * عبرتم بهجرا من حديد على الحسر
طريقى تقارعت عليها مع العدى * ففترمت بها والصخر تفرع بالصخر
وأزججه من مصر خوفا بلزده * كماله مهزوم من الأسى بالنجر
وكم وقعة عندها لما اقتضضتها * بسيفك لم تترك لغيرك من عنبر
وأيدىكم بالبأس كاسرة العدى * ولكنها بالجود جابرة الكسر
أبولك الذى أضفى ذخيرة محمدكم * وأنت له خير النفائس والذخر
ومن كنت معروفه فاستقره * بمثلك تبهقه وفى أوسع العذر
فكيف أبأ أصبحت نار زاده * كنور البدر من سنه البدر
توقره وسط الندى كرامته * وتحمل عنه ما يؤود من الوقر
وتخلفه حربا وسما خلافة * تؤلف أضدادا من الماء والجمر
وكمقت فى بأس وجود ورتبة * عماره فى الخطب والدست والشجر
ولو أنطق الله الجمادات لم تقم * لنعتمكم بالمنسحق من الشكر
يدلا يقوم المسلمون بشكرها * لكم آل أيوب إلى آخر الدهر
بكم أمن الرحمن أعظم يثرب * وأمن أركان الثنية والحجر

كتاب (١٦٤) الروضتين

ولورجعت مصر الى الكفر لانطوى بساط الهدى من ساحة البر والبحر
ولكن شددتم أزره بوزارة * غدا لفظها يشق من شدة الازر
فهنيتم ففعا تقدم حمله * وبشر أن الكل ينالو على الاثر
وما بقيت في الشرك الا بقية * تنمها في ذمة البيض والسمر
وعند تمام الملك أتى مهنتا * ولمتسا أكر الكهانة والزجر
ولولا اعتقادي ان مدحك قربة * أرجى به نيل المنوبة والاجر
لما قلت شعرا بعد اعفاء خاطري * ولي سنوات منذ تبثت عن الشعر
فاوص في الايام خيرا فانها * مصرفة بالنهي منك وبالامر
وجازني تسهيل اني عليكم * وملقاكم بالطلاقة والبشر
وقال أيضا من قصيدة

يا شبيه الصديق عدلا وحسنا * وسماحا كفا معنى ومعنى
هذه مصر يوسف حل فيها * يوسف ما لك كار ما حل سجننا
أنت حرمت ان نثلك فيها * بسوى الله وحده أو يثني
انما الملك والوزار ذجهم * أنسروح فيه وفي الاعظم معنا

وقال أيضا من قصيدة

ملك صلاح الدين لا قوضت * أطنابه ملك البقا والصلاح
سيرة عدل حسنت عندنا * ما كان من وجه اليماني القباح
سافر في الدنيا واقنارها * ذكر غدا عنه جيلا وراح
قل لابن أيوب وكم ناصح * أنفع من هو شاكي السلاح
حارب على مثل نجوم السماء * فذلك مصر ما عليه اصطلاح
قول لمن في عزه فترة * ارجع الى الجد ونخل المزراح
فالقدر قد أذن اغلاله * على يدى يوسف بالانتصاح

وقال أيضا من قصيدة

ونبت بصرع سمى يوسف * كتابا عن سكب الحياة واكف سكب
حذوت على سبيل نداء وهدية * وان كنت لاسبحن حواك ولا جب
ووافقت في الصفيح عن كل مذنب * فحاشك تريب وان عظم الخطب

وللعكيم عبدالمتم الجلياني من قصيدة طويلة

أبو المنظر مأوى كل مضطهد * بحكه ونداء يضرب المثل
مهما يمل جائر او عاث عه * فعند عدل صلاح الدين يعتدل
احياه الله مصر افي نائرة * وافتكها من عدو ما به قبل
كم للفرح بها وردا ومنجعا * وناهرم حوله اندكو وتشتعل
فاطفا لناصر المنصور جذوتهم * وادبر وابقاوب شههم او جل
ملك تقلد سلك الملك متخاما * وقال للمال هذا منك لى بدل
ففرق المال جعل للصلوب به * وحسبه فهم ادر الشاسأوا
ان الملوكة الذين امه ذأمرهم * لم يخزنوا المال بل مهمما حووا بذلوا
كذا السياسة فالاجناد لو علموا * بخل المليك وجاءت شدة خذلوا

(فصل) وهذا الذي ذكرناه من قصة شاور وما جرى بسببه في الديار المصرية الى ان تمت وزارة صلاح الدين

قد وجدته مدسوطا مشتملا على زيادات وفوائد في كتاب لحي بن أبي طي الحلبي في السيرة الصلاحية فأجبت ذكره مختصرا ذكر ان الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الديار المصرية لما قتل في رمضان سنة ست وخمسين بتدبير عمة العاضد عليه أوصى عند موته ابنه رزيك بشاور وقال له لا تنزل له من ولايته فإنه أسلم لك ويقال انه أنشد ابيات منها فاذ ابتدئ شمل عقدك * لا تأمناس شاور السعدني

وكان شاور متولى قوص والصعيد الأعلى فلما دفن الصالح استوزر ابنه رزيك ولقب بالعدل ولما استقرت أحواله أرسل الى عمة العاضد حقه وأجمع الى رزيك أولاد عمته ومن جلتهم عز الدين حسام وأشاور عليه بعزل شاور فامتنع ثم ألحوا عليه فأجاب وبلغ شاور الجاهز بالعصيان وجمع العربان وأهل الصعيد وزحفوا الى القاهرة وخرج اليه جماعة من أمرائها كانوا كاتبوه فخرج رزيك نصف الليل فضل الطريق وتاه فوقع عندا طفيح وشم بيوت عرب فقبضوا عليه وحملوا الى شاور وقد دخل القاهرة وتسلمها وأخرجت اليه خلع الوزارة وتم أمره ولما حصل رزيك عند شاور كرمه وصلب الذي أتى به ونادى عليه هذا جزء من لري الجليل وكان للصالح اليه احسان وتفرق آل رزيك في البلاد ونجا حسام الذي كان سبب هلاك بني رزيك بأموال وصار الى جهاد فأقام بها واشترى القرى ولم يزل بها الى أن مات وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار فوفوا له وردوها عليه ثم أراد تقي الدين أخذها منه فقال من العجب ان القرنجي يفي بى بردها وتأخذها أنت منى فكشف عنه قال وعين شاور وكان له ثلاثة أولاد طي والكامل وسليمان فقبسطوا على الناس وتعاطوا ما فتحهم الانفس وكان ملهمها وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك فلما شاهدوا ميل الناس عن شاور بسبب أولاده أخذوا في مراسله رزيك بن الصالح وهوى السجين والحمل له في اعادته الى الوزارة واتصل ذلك بطي بن شاور فدخل على أبيه وقال له أنت غافل وملهم وضرغام يفسدان أمرك وقد شرعاني أمر رزيك واستخلفه جماعة من الأمراء ولا يمكن تلافى حالك الا بقتل رزيك فقال له شاور ان الصالح أولانى جبالا بسببه حالات هذا المحل فتترك ولده طي ودخل على رزيك فقتله في سجنه وسع شاور ذلك فقامت قيادته ونفى الخبر الى ضرغام وأخيه ملهم فثاروا وأثاروا من استخلفا من الأمراء وزحفا بالعساكر الى شاور فانهزم وخرج من باب القاهرة وهرب الى الشام وأدرك ضرغام ولديه طي وسليمان فقتلهم وأسر الكامل فأخذهم ملهم واعتقله عنده وأراد ضرغام قتله فنهعه منه ملهم وحفظ له جيلا كان قد فعله معه واستقر امر ضرغام في الوزارة وخلع عليه ولقب بالملك المنصور ولما استقر به الامر بلغه ان جماعة من الأمراء حسدوه واستصغروه وكاتبوا شاورا وكان صار الى الشام فأخذ في أعمال الحيلة عليهم واحضرهم الى دار الوزارة لئلا يقتلهم جميعا ولم يعرض لأمورهم ولما نازهم قيل انه قتل منهم سبعين أمرا ويقال انه جعلهم في توابيت وكتب على كل تابوت اسم صاحبه فكان ذلك أكبر الاسباب في هلاكه وخرج دولة المصريين عن يد أممها لانه أضعف عسكر مصر بقتل الأمراء وأما شاور فانه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصل الى دمشق بعد تحقيقه قتل ولديه ولما وصل الى بصرى اتصل خبره بنور الدين فندب جماعة الى تلقيه وانزله في جوسق الميدان الاخضر واحسن ضيافته واكرامه ثم بعد سبعة أيام من مقدمه احضر نور الدين ابن الصوفي وجماعة من وجوه الدمشقيين وقال لهم اخرجوا الى هذا الرجل وسلموا عليه وعرفوه اعذارنا في التقصير في حقه وسأوفى بما قدم وما حاجته فان كان ورد علينا فاختارنا للافادة فردنا له من جهاتنا ما يكفيه ويقوم بأريه واوده ويكون عون له على زمانه وان كان ورد لغير ذلك فنفصم عن حاجته فخرج الجماعة اليه بالرسالة فذكر احسان نور الدين وسكت عما وراء ذلك فسأله القوم الجواب فقال اذالم يبيت الرأى جاء فطير افصاد القوم الى نور الدين وعرفوه مادار بينهم وبينه فأمرهم بالعود اليه من غد ذلك اليوم ففعلوا وطلبوا الجواب فسكت ايضا واطال ثم قال ان رأى نور الدين اطل الله بقاءه الا جماعى في قله عساكر الرأى فعز فوا نور الدين بمقاتلته فأجاب نور الدين ان يكون الاجتماع على ظهر الميدان الاخضر وركب نور الدين من الغدي وجوه دولته وخوادم مملكة في أحسن زى وأكل شاره فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقي في وسط الميدان بالحقبة فقط ولم ترجل أحد منهم لما حابه ثم سار من موضع اجتماعهم وهو نصف الميدان الى آخره ثم انفصل من هناك وعاد نور الدين الى قلعة دمشق وأخذ من وقته ذلك في جمع العساكر وأما ضرغام فانه حين استقر به

الامر انشا كتابا الى نور الدين على يد علم الملك بن النحاس يظهر فيه الطاعة ويعرض بخذلان شاور فاطمه نور الدين لعلم الملك القبول في الظاهر وهمع شاور في الباطن وأجاب عن الكتاب وانفصل علم الملك عن دمشق فلما كان بظاهر الكرك أخذ فليب بن الرقيق القرنجي وحصل على جميع ما كان معه وانهمز علم الملك بنفسه وتوجه الى الساحل وسار الى مصر وفي هذه الايام انفذ نور الدين واستحضر أسد الدين شيركوه من اقطاعه من الرحبة وكان نور الدين قديين بأسد الدين وتبرك بيمون تقيدينه لانهم يرسله في أمر الانجح ولم يوجه في مضيق الانفتح ولما حضر أسد الدين الى دمشق خلا به نور الدين وتحدث معه بأشياء في أمر مصر وأمره بالاستعداد وكان نور الدين قد أراح عسلة العسكر الذي ير يدنسيه الى مصر فخرج من يومه وكان شاور قد اطمع نور الدين في أموال مصر ورغبه في ملكها وانه اذا ملكها كان من قبله فيها والمبلغ شاورا استتباب أمر العسكر سأل عن التقدم عليه فقيل له أسد الدين شيركوه فلم يطبله ذلك لانه ظن ان التقدم تكون له فلما روجهم هذا القود سقط في يده وقت في عنده ولم يجد بدا من السير فخرج واجتمع بأسد الدين وسار اجمعا حتى وصلوا أطراف البلاد المصرية ونزلوا على تل في الحوف قريب من بليس يعرف بتل بسطة وضر بواخيماهم هناك ولما اتصل بضرغام خبر ورود شاور وأسد الدين بالعساكر الشامية جمع أمره مصر واستشارهم فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتخرج جريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر وهو على يمين من القاهرة فانهم لا يثبتون لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء ولم يكن قلة الماء عليهم لان المسافر الى مصر يحمل الماء من ايلة مسيرة ثلاثة أيام فلم ير واذك واختاروا ان يلقوهم على بليس فأمر ضرغام الامراء بالخروج فخرجوا في أحسن زى وأكل عذة والمقدم عليهم ناصر الدين ملهم أخوا ضرغام وجاؤا حتى احاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلا عليه ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر وانهم قد ملكو اعليهم الجهات وسدوا منافذ الطرقات قال لشاور يا هذا القدر هفتنا وغررتنا وقلت انه ليس بمصر عساكر فثنا في هذه الشريعة فقال له شاور لا يهولك ما تشاهد من كثرة الجوع فأكثرها الحياكة والفلاحون الذين يجوعهم الطبل وتفرقهم العصا فما ظنك بهم اذا جى الوطيس وكتبت الحرب وأما الامراء فان كتبهم عندى وعهودهم معى وسرتى ذلك اذ القية اهتمم قال أريد ان تأمر العساكر بالاستعداد والركوب ففعل ونهاهم شاور عن القتال ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب الى ان جى النهار والتب الحديد على أجساد الرجال فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار ودخلوا السلاح ونزلوا عن الخيول وجلسوا في الظل فأمر شاور الناس بالجملة فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزما وتركوا خيمهم وأموالهم ليس بها حفظ فاحتوى عليها أصحاب أسد الدين وأسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين ولم يمكن شاور من تقييدهم والاحتياط عليهم فهر بواوصاق أسد الدين وشاور في أثر الناس ونزلوا على القاهرة وفاتلواها ياما وراسل شاور العاضد في اصلاح الحال وان يأذن له في الدخول الى القاهرة فاذن له وكان ضرغام صار الى تحت القصر وقال اريد أمير المؤمنين يكلمنى لأسأله الفاعل فلم يجبه أحد فذهب على وجهه منهزما وخرج من باب زويلة والعامه تلعه وتصبح عليه فالتحقه رجل من اهل الشام ليشتله فقال له ضرغام وصلنى الى أسد الدين ولك منال فلم يقبل منه وجل عليه فطعنه فارداه ونزل اليه واحترأ رأسه ووجهه الى أسد الدين واعلم بما جرى بينهما فصعب على اسد الدين واجبه ضرغام واراد قتله فشفع فيه شاور ودخل شاور القاهرة وقتل ملهم ما خاضرغام عند بركة القليل ونجى ابنه الكامل من دار ملهم وكان معتقلا فيها وخرج معه القاضي الفاضل وكان ايضا معتقلا فيها معه واستقام أمر شاور في الوزارة واقام اسد الدين على المقسم ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين وارسل اليه يقول له قد طال مقامنا في الخيم وقد سجن العسكر من الحر والعباد فارسل اليه شاور ثلاثين ألف دينار وقال ترحل الآن في امن الله وفي دعتي فلما سمع اسد الدين ذلك ارسل اليه ان نور الدين اوصانى عند انتصالي عنه اذا ملك شاور تكون مقما عنده ويكون لك ثلث مغل البلاد والثلث الثاني لشاور والعسكر والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه فقال شاور انما قرت شئنا ما تقول انما طلبت نجدة من نور الدين فاذا انقضت شغلى عادوا الى الشام وقد سيرت اليكم نفقة فخذوها وانصر فو انما انفصل مع نور الدين فقال اسد الدين انالايك منى محالقة نور الدين ولا اقدر على الانصراف الا بامضاء امره فأمر شاور باغلاق باب القاهرة وأخذ في الاستعداد للحصار واستعد اسد الدين أيضا

وسير صلاح الدين في قطعة من الجيش الى بلبس لجمع الغلال والاتبان والاحطاب وما تدعو الحاجة اليه ويكون جميع ذلك في بلبس ذخيرة واخذ في قتال القاهرة وكاتب شاور ملائكة الفرنج مرى يستخذه ويقول له ان شيركوه طلع معي نخبة على ضرغام فلما حصوا في البلاد طمعوا فيها ومتى ملكوها مضافة الى بلاد الشام لم يصكنك معهم عدش ولا قرار وضمن له في كل مر حلة يرحلها الى ديار مصر ألف دينار وقرر شيركوه ان يستأجره بنسبه مخرج مرى من عسقلان في جموعه الى فاوقس في سبع وعشرين مر حلة وقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار ولما تحقق اسد الدين قرب الفرنج من القاهرة اجفل عنها الى بلبس وانضاف اليه من أهلها الكثابة وخرج شاور في عساكر مصر واجتمع بالفرنج وجاء حتى خيم على بلبس واحاط بها محاصر الاسد الدين بما كرا الحرب ويراوحها وأفاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين وكان اتصل بنور الدين وهو بدمشق خبر سيرة الفرنج الى ديار مصر وغدر شاور فكتب الاطراف بقدم العساكر فقدم عليه عساكر الشرق جميعها واجتمعوا باراض حلب فقتل بهم محمد الدين بن الداية وكان نائب نور الدين بحلب الى جهة حارم ونزل على ارناع وخرج نور الدين من دمشق وشن الغارة على الساحل وقتل وأسر عالما عظيما ثم قصد جهة حلب وجعل طريقه حصن الاكراد فلما حصل بارضه شن الغارة فيها وغنم غنيمة عظيمة ونزل في مرجه فخرج اليه الفرنج الاخوان ومن حصن الاكراد وجمعوا عسكرهم وقتلوا جماعة من المسلمين وكان عسكر نور الدين غافلا فلم يمتسك الناس وساروا على وجوههم وسار نور الدين الى ان اجتمع بعساكره على ارناع وكان اخوه نصر الدين مع الفرنج فلما عاين اعلام نور الدين لم يمتسك ان حمل بمجمع اصحابه باقصا اخاه نور الدين فلما قرب منه نزل وقبل الارض بين يديه فلم يلتفت اليه فتم على وجهه واصطف الناس للرب فحملت الفرنج فكسرت الميسرة ثم عادت فوجدت راجلها جميعه قد قتل والخيول قد اطبقت عليهم فمتهوا عن الخيول وألقوا اسلحتهم واذعنوا بالامان فأخذوا جميعا قبضابا لا يدي وساروا الى حارم ففتحها واراد النزول على انطاكية فلم يتمكن لسفل قلبه بمن في مصر من المسلمين فانحرف باقصا لدمشق ونزل على بانياس فافتتحها وازار على بلد طبرية وجمع اعلام الفرنج وشعافهم وجعلها في عمية وسلمها الى نجاب وقال له اريد ان تمل الحيلة في الدخول الى بلبس وتغبر اسد الدين بما دفع الله على المسلمين وتعطيه هذه الاعلام والسعاف وتأمره بنشرها على اسوار بلبس فان ذلك مما يفت في أعضاد الكفار ويدخل الوهن عليهم ففعل ذلك فلما رأى الفرنج الاعلام والسعاف قلقوا لذلك وخافوا على بلادهم وسألوا شاور والاذن والانفصال فانزعج شاور لذلك وخاف من عاقبة الامر وسألهم التهل اليما وجمع امرائه للمشورة فاساروا عليه بمصالحة اسد الدين وتكفل له اتمام الصلح الامر بمسح الخلافه فانفذه اليه فتم الصلح على يديه على ان يحمل شاور الى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى وحكى ان شاور ارسل الى أسد الدين وهو محصور ببلبس يقول له اعلم انني اقيمت عليك ولم امكن الفرنج منك لانهم كانوا قادين عليك وانما فعلت ذلك لامر من أحد هاتين ما اختار ان أكرم جاهد المسلمين وأقوى الفرنج عليهم والثاني اني خفت ان الفرنج اذا فتحوا ببلبس طمعوا فيها وقالوا هذه لنا لانفتحناها بسببهم وفناهم يوم كان بعضى الاوآيا أنفذ الى كبار الفرنج الجيلة من المال وأسألهم ان يكسروا هامة الملك عن الزحف قال وأقام أسد الدين نظاها ببلبس ثلاثة أيام ورحلت الفرنج الى جهة الساحل وسار أسد الدين باقصا الشام وجعل مسيره على البرية واتفق ان البرنس ارناط صاحب الكرك والشوبك تأوّل لبيته التي حلفها لاسد الدين وقال أنا حلفت اني ما ألحق أسد الدين ولا عسكره في البر وأنا أريد ان الحق في البحر وصار في يوم واحد الى عسقلان وخرج منها الى الكرك والشوبك وجمع عسكره القيم هناك وتقدم تقبنا ورج أسد الدين من البرية ليوقع به وعلم أسد الدين بمكيدة ارناط بالحدس والخمين فسلط طريقا من خلف المكان الذي كان فيه ارناط شق الى القور وخرج من البلقاء وسلمه الله تعالى منه ودخل دمشق فاجتمع بنو الردين وأخبره بالاحوال وعلمه بضعف ديار مصر ورغبة فيها وشوقه الى ملكها فرغب فيها نور الدين وأمره بتجنيد الاجناد واستخدم الرجال رما شاور فانه بعد رحيل أسد الدين والفرنج الى بلادهم عاد الى القاهرة ولم يكن له همة الاتبع من علم ان بينه وبين أسد الدين معرفة أو صيغة كان استفسد جماعة من عسكر أسد الدين منهم خشتين الكردى واقطعه شطونوف وقتل شاور جماعة من أهل مصر وشرد آخرين ثم توجه أسد الدين في ربيع الاول سنة اثنتين وستين فاصد الديار المصرية وكنم أخباره فغاراع

شاورا الاور وكتب مري ملك الفرنج يعرفه فيه ان أسد الدين قد فصل عن دمشق بعساكره قاصدا ديار مصر
فطلب شاور منه إعادة النجدة والمقرر من المال يصل اليه على ما كان يصل اليه في العام الماضي فسار مري
في عساكر الفرنج الى مصر على جانب البحر وكان أسد الدين سائرا في البر فسبقه الفرنج ونزلوا على ظاهر بلبس
وخرج شاور بعساكر مصر واجتمع بالملك وقعدوا جميعا في انتظار أسد الدين وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج بشاور
على بلبس فنكب عن طريقهم وأم الجبل وخرج على اطلقهم وهي في الجنوب من مصر وشن الغارة هناك واتصل
بشاور بخبره فسار في عساكره والفرنج في محبته ينفوا أثره واتصل بأسد الدين ذلك فاندفع بين أيديهم حتى بلغ شرونة
من صعيد مصر وتجهيل في مراكبهم واعدى الى البر العربي ولما استكمل تعديته أدرك شاور بعض ماقيه ومنقطعي
عسكريته فاقوع بهم وأحضر شاور أيضا مراكب وقطع النيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج وسار
أسد الدين الى الجزيرة ونجم بها مقدار خمسين يوما واستمال قوما يقال لهم الاشراف الجعفر بين والطهجين والقرشين
فانفذ أسد الدين الى شاور يقول له أنا أحلف لك بالله الذي لا اله الا هو وبكن يمين يثق بها المسلم من أخيه اني لا أقيم
ببلاد مصر ولا أعاد اليها أبدا ولا يمكن أحدا من التعرض اليها ومن عارضك فيها كنت معك بالإعلية وما أؤمل
منك الا النصر الاسلام فقط وهوان العدو وقد حصل بهذه البلاد والنجدة عنه بعدة وخلاصه عسر وأريد منك ان
تجتمع أنا وانت عليه وتنتم في الفرصة التي قد أمكنت والغلبة التي قد كتبت فستأصل شاقته وتجحد نثرته وما
أظن انه يعود يتفق للاسلام مثل هذه الغلبة أبدا فلما صار الرسول الى شاور وأدى الرسالة أمر به بقتل وقال ما هؤلاء
الفرنج هؤلاء الفرنج ثم أعلم الفرنج بما أرسل اليه أسد الدين وأعلمهم بما أحياه وجددهم ايمانوا فتوابعوا بلغ ذلك
أسد الدين فاكل يديه أسفا على مخالفة شاور وفي هذا الرأي وقال لعنه الله لو أطاعني لم يبق للشام أحد من هؤلاء
الفرنج ونزل شاور في اللوق والمقسم وأمر بعمل الحصرة والجزيرة وأمر بالمرابك فنهجت بالرجال وأمرهم
ان يتخاو من خلف عسكر أسد الدين ولما رأى أسد الدين ذلك كتب الى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور
لاجل ادخاله الفرنج الى دار الاسلام وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم ققاما معه وأمر واعليهم نجم الدين
ابن مصال وهوان أحد وزراء المصريين وكان لجأ الى الاسكندرية مستخفا فافظهر في هذه الفتنة
حدثني الشريف الادريسي نزيل حلب قال كنت بالاسكندرية يومئذ فكاتب معي ابن مصال كتابا الى أسد الدين
وقال لي قل له اني أخبرك ان السلاح واصل وكان أنفذ لاسد الدين خزائنه من السلاح قال فسبقته بايومين وحضرت
بين يدي أسد الدين وأعطينها الكتب وشافهته برسالة ابن مصال في معنى السلاح والالات ثم وصلت الجزيرة بعد
يومين مع ابن أخت الفقيه ابن عوف قال وبقينا على الجزيرة يومين فوصل اليه نارسل ابن مدافع يخبر أسد الدين بقرب
شاور ومنه يأمره بالنجدة فترك أسد الدين الخيام والمطابخ وما ينقل حمله وسار سيرا حثيثا حتى فاز بدجلة فامر أسد
الدين بنهبها فهبت وزل الناس لتعشية الدواب فلم تستقم عليها حتى أمر أسد الدين بالرحيل وأوقدت المساعل لئلا
وسرنا فاذا الجاوش ينادي في الناس بالرجوع وعاد أسد الدين الى دجلة فقتل عليها ونزل شاور على الاسميون وأمر
أسد الدين الناس ان ينفوا على تعبئة فاصبحوا على ذلك والتفوا فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة وانهمزوا
وكان أسد الدين قد فرق أصحابه فربقن قرب قامعه وفريقا جعله مع صلاح الدين وأنفذه ليلاني من خلف عسكر شاور
فدخل الضعف من هذا الطريق ثم ان أصحاب أسد الدين تجمعوا وتما سكاوعلوا انه لا منجى لهم الا الصبر وتحالفوا
على الموت وحملوا وطلع صلاح الدين من ورائهم فلم تزل الحرب قائمة الى الليل فقلت عساكر الا فرنج والمصريين
الادبار وكاد مري ملك الا فرنج يئوس وصار شاور ومن سلم معه الى منية ابن خصيب وسار أسد الدين على الفيوم الى
الاسكندرية فدخلها ووزل القصر وجعل فيه محبس للفرنج الذين أسرههم وكان فيها ابن الزبير متوليا ديوانها فحمل
الى أسد الدين الاموال وقوام بالسلاح وخاف أسد الدين ان يقصده شاور والفرنج فيحصره فخرج مما تاذى بالحصار فأمر
صلاح الدين بالقيام بالاسكندرية وترك عنده جماعة من العسكر ومن به مرض أوجراح أضعف واستخلفه
وجوه الاسكندرية وأوصاهم به ورحل في اقوياء عسكره قاصدا الى الصعيد ونزل الفرنج وشاور على الاسكندرية
وحاصرها مدة ثلاثة أشهر واشد القتال وبذل أهلها في نصره الملك الناصر أموالهم وأنفسهم وقتل منهم جماعة عظيمة ولما

صار أسد الدين بالسيعة حصل من تلك البلاد أموالا عظيمة ولم يزل هناك حتى صام شهر رمضان واتصل به اشتداد الامر على الاسكندرية فرحل من قوص الى جهتها واتي به جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد وبلغ ذلك شاورا فرحل هو والفرنج واضطروا الى الصلح ونجرت الفرنج أيضا فتوسط ملك الفرنج في ذلك فقرر أمر الصلح على أن شاورا يحمل الى أسد الدين جميع ما غرمه في هذه السفارة ثم يعطى الفرنج ثلاثين ألف دينار و يعود كل منهم الى بلاده وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مرا ك يحمل فيها الضعفاء من أصحابه فانزله عدة مرا ك قال الادرسي كنت في جملته من خرج في المراكب فلما وصلنا الى ميناء عكا أخذنا واعتقلنا في معصرة القصب الى أن وصل الملك مري فأطلقنا فخرجنا الى دمشق وخرج صلاح الدين من الاسكندرية بعد أن استخلف شاورا لاهلها بان لا يتعرض لهم بسوء واجتمع بهم أسد الدين ثم أنفذ شاورا ورفض على ابن مصال وجماعة من أعان صلاح الدين وضيق عليهم وتتبع اهل الاسكندرية واتصل ذلك بصلاح الدين فاجتمع ملك الفرنج وقال له ان شاورا نقض الايمان قال وكيف ذلك قال لانه قبض على من لجأ اليه فقال ليس له ذلك وأنفذ الى شاورا وقال له ان الايمان جرت على أن لا يتعرض لاحد من أهل مصر ولا الاسكندرية وأزمه مينا أخرى في أن لا يتعرض لاحد من لجأ الى أسد الدين أو صلاح الدين ولما شاهد من التجأ الى الاسد والصلاح فساد تلك الاحوال خافوا من شاورا فأخذوا في الرحيل الى الشام واتصل ذلك بشاورا فخرج بنفسه وجمع جميع من عزم على الرحلة الى الشام وحلف لهم على الاحسان اليهم وحماية أنفسهم وأموالهم فذهب من سكن الى ايمانهم ومنهم من لم يسكن ورحل والهم الله تعالى أسد الدين ان الفرنج ربما خطر لهم في مصر فخطر قصدها فراسل الملك مري وقال له قد سأل أهل مصر عين الملك أن لا يدخل اليهم ولا يتعرض لهم فامتنع الملك ثم أجاب خوفا أن يحقق أسد الدين وشاورانه ربما قصد ديار مصر فرما اجتماع عليه فلم يجدها من البين خلف وحلف أصحابه وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الداء الذي منها لانه شاهد ما شاهد مغلها فوجدها أمر اعظيها فأخذ نور الدين في تهوين أمر مصر عليه وأقطع حصص وأعمالها وحدثنى أبي رحمه الله قال حدثني غير واحد ان شاورا كاتب نور الدين في ذلك وضعه أن لا يحمل في كل سنة عن ديار مصر مالا مصانعة ولما بلغ شاوران نور الدين صرف هبة أسد الدين عن ذكر مصر وانعرض لها أنفذ رسولا بهدية سنوية وأصبحه كتابا حسنا أوله (ورد كتاب استدعى شكرى وجدى واستخلص من الصفاء ما عندي واستفرغ في النساء على مرسله جهدى فكأنما استملت معانيه مما عندي واشملت على حقائق قصدى وسررت للاسلام وأهله والدين الذي وعد الله أن يظهره على الدين كله بأن يكون مثله ملكا من ملوكه يرجع اليه في عقده وحله وتشيرا لاصابعه وتقدرا لخصاصه على عوكله والله يزيد به مكانه تثبيتا وقوة ويحقق على يديه محال النصر المرجوه فأأسعد أسد الدين على نصرته الكاهن ودعا الى سبيل الفتنة المسلمة ووفر على مصالح الامة لوجب رعاياها المنقسمه وأنما تم من هذا الامر ما صدر مني وبقى منه على ما نقل عني لا أتغير عن المصلحة فيه ولا أعدل عما أظهره منه لما أخفيه ولا استكبر كبريا أصل اليه وأوصل به لما سبق للملك العادل من حقوق استوجب شكرها قولا وفعلا وتسررت كانت في هجير الخطوب بردا وظلا وأنتم لا تزال أياها بالنسب المجدتلى وتلى ولعمري لقد علانا بناءها فخرا وارتنع على الاملاك قدرا واذكرا ووجب أن يستتمها فلا يصل الى موارد الكدر ويحوطها فلا تطرق الى جوانبها الغير ووراء هذه المكاتب من اختتامى مالا يعوقه أثاق الانظام العقد على الامور المألوفة ويقام التوثيق باليمين المنصوصة الموصونة مع ان قوله كمينه وكذابه كصفحه يمينه والنقطة واقعة على كل حال والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرق أسباب الاختلال)

قال وفي سنة أربع وستين طمع مري ملك الفرنج في مصر وعول على الدخول اليها والاستيلاء عليها وذلك لما انكشف له من عوارها وظهوره من ضعف لم يبق فيها جميع اليه ملوك الفرنج وكبراء الدولة والاستبارية وتشاوروا واخبرت بينهم في ذلك خطوط ثم أجابوه الى الخروج معه الى الدار المصرية فاحضروا زهروا مراه باقطاع لاد مصر لحيته وفرق قراها على أجناده وكان لعنه الله ما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قري مصر جميعها وتعرف له خبر ارتقاها ثم سار حتى نزل الداروم فقامت قيامة شاورا بالغة الخبر وانتخب أميرا من أمراءه يقال له بدران وسيره الى لقاء مري يسأله عن السبب في قصده فاجتمع به وسأله فقلكا عليه ثم استلان جانبه وضمه له رضىجة على أن

كتاب (١٧٠) الروستين

يورى عنهم ولا يكشف لشاور حالهم ويقال ان الملك أقطعهم ثلاث عشرة قرية على أن يتم على المصر بين الحيلة ويعلم شاور انه انما قصد مصر للخدمة ففعل ذلك بدران ولما سمع ذلك شاور أشفق منه وأحضر الامير شمس الخلافة محمد بن مختار وقال له كأن بدران قد غشني ولم يصحني وأما فواتيك بك فأريد تخبرني وتكشف لي حال الفرنج فصار شمس الخلافة الى مصر وكان بينهما مؤامرة فلما دخل على الملك قال له مرحبا بشمس الخلافة فقال له مرحبا بالملك العذار والاما الذي أقدمك اليه فقال له انما قال لي ان الفقيه عيسى زوج أخت الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب وزوج الكامل أخت صلاح الدين ففلنا هذا عمل علينا فقال له شمس الخلافة ليس لهذا صحة ولو فعل ذلك لم يكن فيه نفع للعهد فقال له الملك الصحيح ان قومنا وراء البحر اتهموا بنا وغلبنوا على أرائنا وخر جوا طامعين في بلادكم تخفنا من ذلك فخر جناننا توسط الامر بينكم وبينهم فقال شمس الخلافة فأى شيء قد طلبوا قال أنبي ألف دينار فقال مكانكم حتى أصل الى شاور وأبلغه مقالكم وأعود بالجواب فقال له ملك الفرنج فحين تنزل على بليس الى أن تعود قال وحكي ان ملك الفرنج لما وصل الى الداروم كتب الى شاور يقول له اني قد قصدت الخدمة على ماقررتني لي من العطا في كل عام فأجابه شاور ان ائذي قررتك انما جعلته متى احتجت اليك أو اذا أقدم على عدو فأما مع خلواي من الاعداء فلا حاجة لي اليك ولالك عندي مقرر فأجابه مري أن لا بد من حضوري وأخذى المقرر فعلم شاور انه قد غدر بالعهود ونقض اليمان وانه قد طمع في البلاد فأخذ في تجهيد الاجناد وحشد العساكر الى القاهرة وأنفذ الى بليس قطعة من الجيش وميزه وعده ثم ان ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لايلاوى على قول حتى خيم على بليس في صفرو وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك ابن الحساس وابن الخياط يحيى وابن قرجلة وأرسل الى طي بن شاور وكان بليس وقال له أين تنزل قال على أسنة المراح وقال له أنخسب ان بليس جبنة تأكلها فأرسل اليه مري نعم هي جبنة والقاهرة قد بدت فاقبل بليس ليلا ونهارا حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلفا عظيما وخرب أكرها وأحرق حبل أدرها ثم أخرج الاسارى الى ظاد البلد وحسروا في مكان واحد وحل في وسطهم برحمة ففرقهم فرقتين فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره عسكره وقال لفرقة قد أخذتكم شكرا لله تعالى على ما أولاني من فخر ببلاد مصر فاني قد ملكتها ببلاتك ووقف الى ان عدى أكرهم النبل الى جهة منة فجعل وأخذ العسكر نصيبهم من الاسارى فاقسمهمهم وبقى أهل بليس الذين أسر وأكرم من أربعين سنة في أسر الفرنج وهلك أكرهم في أيديهم وأفلت منهم اليسير لان الملك الناصر رحمه الله لما ملكه دار مصر وقف مغل بليس على كثرته على فكلك الاسرى منهم وسامح أهل بليس بخراجهم الى آخر أيامه ولما اتصل بشاور ماجرى على أهل بليس من القتل والاسر وان الفرنج فتح جنوها بالرجال والعدد وجعلوا حالهم ظهر أشفق من ذلك وطلب الاذن على العاضد فلما اجتمع بيديهم وقال اعلم ان البلاد قد ملكت علينا ولم يبق الا أن تصحب الى نور الدين وتشرح له ماجرى وتطلب نصرته ومعونه فكاتب جميع ذلك وأرسل شاور على تلك الكتب كتبنا وسخيم أعالها بالمداد قال وحذثنى شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار قال انما كتب هذا الكتاب برأى أبى شمس الخلافة لانه لما رجع من عندهم الى لعنه الله بعد أخذ بليس اجتمع بالكامل بن شاور وقال له عندي أمر لا يمكن ان أفضي به اليك الا بعد ان تحلف لي انك لا تطلع أبدا عليه فما حلف له قال له ان أبالك قد وطن نفسه على المصاهرة وآخر أمره يسلم البلاد الى الفرنج ولا يكتب نور الدين وهذا عين الفساد فاصعد أنت الى العاضد وأزمه ان يكتب الى نور الدين فليس لهذا امر غيره فقصد الكامل وكتب الكتاب فلما وصل الى نور الدين انزعج انزعجا عظيما وأنفذ أسد الدين وكان ذلك من مناه وأرسل الفقيه عيسى الحكاري الى مصر برسالة تظاهرة الى شاور يعلمه ان العساكر واصله ترسالة سرية الى العاضد وأمره ان يستخلفه على أشياء عينا وان يكتم ذلك من شاور وأما الفرنج فسار والى جهة مصر وأمر شاور باحراق مصر وانذر أهلها فخرج الناس منها على وجوههم وهجوا في بلاد مصر وبايعوا جزا لجل الى القاهرة ثلاثين دينارا وترك الناس أكر أموالهم فنهبت وأحرقت مصر في تاسع صفر وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوما ثم ان الفرنج لعنهم الله زلوا في ركبة الجيش وابنت أخبارهم في الأطراف وقطفوا من ظفروا به فأنفذ شاور شمس الخلافة الى مصر لعنه الله فلما دخل عليه سأله

ان يخرج معه الى باب الخيمة ففعل فأراه ثمن الخلافة جهة مصر وقال له أترى دخانا في السماء قال نعم قال هذا دخان مصر ما آتيت الا وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة تنفط وقرقت فيها عشرة آلاف مشعل وما بقي فيها ما يؤمل بقاءه ونفعه فخل الآن عنك مدافعتي ومخاتلتي وكن كساقط لك انزل في مكان تقاتل فيه الى غير ما بقي لك الآن تنزل بالقاهرة فقال هو كما تقول ولا بد من نزول بالقاهرة ومعنى فرنجي من وراء البحر قد طعمه ووافى اخذها ثم رحل فزل على القاهرة مما يلي باب البرية نزولاً نار به البلد حتى صارت مهمم البرج تقع في خيمته فقاتلوا البلد أياماً فلما تبين شاور الضعف عدل الى طريق المخادعة والمخاتلة والمغارة والمداخلة الى ان اتصل عساكر الشام فأنفذ ثمن الخلافة الى مري لعنه الله تعالى برسالة طويلة قيل بها في غار به ودار من حواليه وفي ضمنها (ان هذا بلد عظيم وفيه خاق كبير ولا يمكن تسليمه اليه ولا أخذه الا بعد ان يقتل من الفريقين عالم عظيم وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة والراى ان تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابي وتحصل شيئاً أدفعه لك يحصل لك عفواً) فاستمرت المصانعة على أربع مائة ألف دينار وفيل ألبي ألف دينار يحصل له منها مائة ألف دينار فأجاب مري الى ذلك واعتقدت الهدنة وحلف مري ورحل الى ركبة الحشم وحمل ساور اليه مائة ألف دينار في عدة دفعات سؤف فيها الاوقات ثم أخذ عظه بالساقى انتظارا لقدم العساكر ويومهم انه يجتمع لهم الاموال فيبشر الفرنج بالاجحوم عسكر الشام عليهم فلما رأوه هم رحلوا الى بليس ونزل أسد الدين بالمقسم ثم رحل ملك الفرنج ونزل على قاوس وأبناه أسد الدين ونزل على بليس وكان لما اتصل بشاور وصول أسد الدين الى صدر أنفذ ثمن الخلافة الى ملك الفرنج يستطلق له منه بعض المال فصار اليه واجتمع به وقال قد قل عليه ان المال فقال ملك الفرنج اطلب منه شيئاً قال اشترى ان تهبى الى النصف قال قد فعلت فقال ثمن الخلافة ما بلغنى ان ملك كافي مثل حاله وقد رتب علينا وهب مثل هذه الخبة فلقومهم في مثل حالنا فقال ملك الفرنج أنا أعلم انك رجل عاقل وان شاور املك وانك كما ما سألنا ان أهيك هذا المال العظيم الا لا امر تدحدث فقال له صدقت هذا أسد الدين قد وصل الى صدر نصرة لنا وما بقي لك مقام وشاور يقول لك أرى ان ترحل ونحن باقون على الهدنة فانه أوفق لك واننا اذا حصل هذا الرجل عندنا رضينا به من هذا المال بشئ وجلنا الباقي اليك متى قدرنا وان نحن أخرجنا في رضاهم أكثر من هذا المال عندنا عليك بما يبقى علينا من المقدار فقال ملك الفرنج بأراض بذلك وان بقي على شئ حملته اليك وعول على الرحيل فقال له بعد ان تطلق طي ابن شاور وجيعة مع في عسكرك من الاسارى ولا تأخذ من بليس بعد انصر افك شيئاً فأجابه الى جميع ذلك ولما رحلت الفرنج عن القاهرة نزل اسد الدين بأرض يقال لها الموق وأخرج اليه شاور الا فامات الحسنة والخدم الكثيره ولما اجتمعوا قال ساور لاسد الدين قد رايت من الراى ان أخرج أنا وأنت وان ندرلك الفرنج ونوقع بهم فقال أسد الدين هذا كان رأى والفرنج على البر العفرى وليس لهم وزر وأما الآن فلا لانهم على البر المتصل بلادهم ونحن فقد خرجنا من البر في أسوأ حال من الضعف والتعب وقد كدنا ما الله شرهم ونحن الى الراحة والاستجمام أحوج ولما نزل أسد الدين بالقوق أرسل له العاضد هدية عظيمة وخدما كثيرة وأخرج الى خدمته أكبر أصحابه ثم انه خرج اليه في الليل سرا متكررا واجتمع به في خيمته وأفضى اليه بأمر كثيرة منها قتل شاور ثم عاد الى قصره وكان شاور قد رأى اليه نزل أسد الدين على القاهرة كأنه دخل دار الوزارة فوجد على سرير ملكه رجلا وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها بأقلامه فسأل عنه فقيل هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما حصل أسد الدين بالدار المصرية وانفصل عنها الفرنج أممت البلاد وترجع الناس الى بيوتهم وأخذوا في اصلاح ما شعثه الفرنج وأفسدوه وتقاطر الناس الى خدمة أسد الدين فتلقاهم بالرحب والسعة وأحسن اليهم وأما شاور فانه أخذ في التودد الى أسد الدين والتقرب الى قلبه بجميع ما وجد السبل اليه وأقام له ولعسكره الميرة الكثيره والتفقات الغزيرة حتى استحوذ على قلبه ونوى ببقائه في ملكه وصفا له قلبه حتى أنفذ اليه سرا أحرس نفلس عساكر الشام وأما عسكر الشام فانهم لما رأوا طبيب بلاد مصر وكثرة خيرها وسعة أموالها تافت أنفسهم الى الاقامة بها واختاروا ساكنا هاور غبار وفيه سارعة عظيمة فتوى طمع أسد في الاستيلاء عليها والاحتداد بملكها ثم علم انه لا يتم له ذلك وشاور باق فيها فأخذ في اعمال الحيلة عاياه وكان العاضد قد قدّم اليه بقتله فجمع أصحابا

كتاب (١٧٢) الروضتين

وشاورهم في أمر شاور وقال لهم قد علمت رغبتي في هذه البلاد ومحبتي لها ورحمتي عليها ولا سيما وقد تحققت ان عند
الفرنج من امانا عندى وعلمت انهم كسفو اعورتها وعلومها الكثرة عنها وتيقنت انى متى خرجت منها عاذا واليها
واحتووا عليها وهي معظم دار الاسلام وحلوة بيت مالهم وقد قوى عندى ان ائيب عليها قبل وثوبهم وأملكها قبل
ملكهم وأخلص من شاور الذى يلعب بنا وهم ويفرتنا ويفترهم ويضرب بيننا وبينهم وقد ضيع أموال هذه البلاد
في غير وجهها وقوى بها الفرنج علينا وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبهم الى هذه البلاد التى قد قل رجالها
وهلكت أبطالها فجلت الاراء بين الامراء انه لا يتم لهم أمر الابعد القبض على شاور ونفرتوا على ايقاع القبض
به وكان شاور يركب في الابهة العظيمة والجلالة الجسمية والعدة الحسنة والآلة الجليسة على عادتهم الاولى وكان من
جملته قواعدهم ان الوزير اذا ركب حمل في موكبته الباطل والوق وكان شاور قليل الركوب فجعل الامراء يترصدونه
ورأى أسد الدين قبل قبض شاور بليمة كأن شاور ادخل اليه الى داره وناولوه سيفه وعمارته فتأوله أسد الدين
بالقبض عليه وأخذ من نصيبه ثم ان شاور اركب يوميا في أهبة وجلالة فلما عايناه الامراء هابوه وأحجموا عنه وكان
يوم اعظم الضباب وكان خروج شاور من باب العنطرة للسلام على أسد الدين فتقدم صلاح الدين فلم عليه ودخل
في موكبته ثم سار به ثم مديده الى تلاميذه وصاح عليه فرجله ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت عزما تم وقوعوا
في عسكر شاور فنهبوا ما كان مع رجاله وتلوا منهم جماعة وحمل الملك الناصر شاور ارجلا الى خيمة لطيفة واراد قتله
فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يداهم فأمره فسيه بقتل
شاور فأنفذ التوقيع الى صلاح الدين فقتله في الحال وأنفذ رأسه الى القصر وبلغ الكامل بن شاور قتل أبيه فهرب
الى القصر وخلع العاضد على أسد الدين وقلده الوزير وأنفذ اليه طبق فضة فيه رأس الكامل بن شاور ورؤس
أولاد اخوته ولما خرج منشور الوزارة الى أسد الدين أمر بقراءته على رؤس الاشهاد وفرح به غاية الفرح وأعيدت
قراءته عليه عدة دفعات استحسانا لمعانيه واستظرافا لما اودع من بديع الكلام فيه قال ولما اتصل بنور الدين
ففتح يدا يار المصرية فرح بذلك فرحاشيدا وواصل الحمد والثناء على الله تعالى اذ كن في زمته وعلى يده وأمر بضرب
البشار في جميع ولايته وترزين جميع بلاد وجلس للهناء بذلك وأنشده الشعراء في فتحه عدة اشعار غير انه لما
اتصل به ان أسد الدين وزر له ماضدا واستبد بالامر في ذلك الصقع امضه ذلك وألقفه وظهرت في مخايل قسماته
وفلتات كلماته الكرامة وأخذ في الفكرة في أمر دوسره ليأتى واقتضى بسره الى محمد الدين بن الداية حدثني جماعة
عن شمس الدين علي بن الداية أني محمد الدين وحديثي الموفق محمود بن الحساس الفقيه الحلبي وقد جرى ذكر فتح مصر
وان نور الدين استبج به فقال والله ما استبج به لقد كان وذه أن لا يفتح وأن لا يصير أسد الدين وصلاح الدين الى ما صاروا
اليه ولقد ظهرت الكرامة منه لذلك في ألفاظه ووجهه ولقد أعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين
لخاتمه أله لاسيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر فانه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحدا من ابراهه واهتم لذلك
حتى اقضى عليه الهلم ولم يكن الفتح اليه منسوبا وعليه فضله محسوبا بالمصير على ما جرى ولا اغضى الملك العادل على
القدى ولقد كتب العاضد عدة دفعات في أمر الاسد والصلاح فلم يحصل له فيهما النجاح وكثيرا ما يوحى في كتب
نور الدين الى العاضد التعريض بانفاذ أسد الدين ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال فن بعض مكاتباته (ولقد افتقر العبد
الى بعثته وأعوز عسكره من تقيته واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيته لانه ما زال يرمى شياطين الضلال بشمابه
الثاقب ويصمى مقل الشرك بسهمه الناذل الصائب) قلت لعل نور الدين رحمه الله انما ألقفه من ذلك كون أسد الدين
وزر له ماضد خاف من ماله الى القوم والى مذهبهم وان يفسد بئذ دعاهم بذلك السبب هذا ان صح ما نقله ابن أبي طي
والله أعلم قال وكان أسد الدين لما ولى الوزارة لم يغير على أحدثها وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمرهم الى
ان انتقض أيامه وفيت أعوامه وكان ترمي يجب اكل اللحم ويؤاخذ عليه بلانها رافقت ارت عليه النخم وانصلت به
مرضاته ان أن ظهرت بحلقه خواتم كان فيها تلافه ويقال انه أكل في ذلك اليوم مضيرة ودخل الحمام فلما خرج
منها أصابه الخناق قال وكان شجاعا بارعا قويا جلد في ذاته شديد اعلى الكفار وطأته عظيمة في ذات الله صولته
عفيفا دينيا كثير الخير وكان يحب أهل الدين والعلم كثير الايتار حذبا على أهله وأقاربه وكان فيه امساك وخلف

في أخبار (١٧٣) الدولتين

مالا كثير او خلف من الخيل والدواب والجمال شيئا كثيرا وخلف جماعة من العلماء خمسة مائة مملوك وهم الاسدية وهو كان مشيد قواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية وكان ابتداء أمره يتخمد مع صاحب تكريت على اقطاع مبلغه تسعمائة دينار وتنعزل الى ان ملك الديار المصرية وعقد له العزاء بالقاهرة ثلاثة ايام قلت واليه تنسب المدرسة الاسدية بالشرق القبلي ظاهر دمشق وهي المطلة على الميدان الاخضر وهي على الغائتتين الخنفية والشافعية والخانقاة الاسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين قال ابن أبي طي وساعة وفاته وقع الاختلاف فيمن يولى الوزارة بين العسكر الشامي ومالت الاسدية الى صلاح الدين وفي تلك الساعة أنفذ العاضد وسأل عن يصلح للوزارة فأرشد من جماعة من الامراء الى الشاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين فأنفذ اليه وأحضره وخطابه في تولى الوزارة فامتنع من ذلك وأشار بولاية الملك الناصر وكان الحارمي أولا تدرغب في الوزارة وتحدث فيها وحصل ما يحتاجه فلما رأى من اجهة عين الدولة بين باروق وغيره عليها خاف ان يشتغل بطلبها فيغوثه ويربما فانت صلاح الدين فأسار به لانها كانت في ابن أخته وكانت في بيته وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بوقع وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته وأقداره على شاور في موكبه وانه له حين جاءه أمره ولم يترص ولا توقف فسارع الى تقليده الوزارة وخرج شهاب الدين الحارمي من حضرة العاضد الاوخلع الوزارة قدس بقى الى الملك الناصر وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنسب بطارز ذهب وثوب ديبق بطارزى ذهب وجبة تحتها سقلاطون بطارزى ذهب وطيلسان ديبق بطارزى ديق ذهب وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار وسف محلى بمجوهر قيمته خمسة آلاف دينار وقرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمته ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية اسبق منها وطوق وتحدث وسر فسار ذهب بمجوهر وفي رقبة الخمر مشددة بيضاء وفي رأسها مائتا حبة جوهر وفي أربع قوائم القرس أربع عقد وجوهر وقصة ذهب في رأسها طائفة بجوهر وفي رأسها مشددة بيضاء باعلام ذهب ومع الخلعة عدة بقمج وعدة من الخيل وأشياء آخر ومنشرا للوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وقرئ المشور بين يدي الملك الناصر يوم جلوسه في دار الوزارة وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والسامية وكان يوما عظيما وخلع السلطان على جماعة الامراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد وعم الناس جميعهم بالهبات والصلوات ولما استقرت قدمه في الوزارة والرئاسة قام في الرعاية مقام من قام بالنسبة والسياسة ونظم بحسن تدبيره من الدولة بددها وجرى في مناهج العدل على جددتها وحيول الى جوده وفضله وادى الى رفد دولته وكاتب الاطراف بمصار اليه من السلطان وسر قلوب الاصدقاء والاحباب ما حصل عليه من شريف الرتبة والمكان واستدعى الى حوزته الاصحاب والاهل وزوى بفسيح كرمه من بعده ومن أهل الفضل وتاب من الخمر وعدل عن اللهو وتيقظ للتدبير وسها عن السهو وتقص بلباس الدين وحفظ ناموس الشرع المبين وشمر عن ساق الجد والاجتهاد وافاض على الناس من كرمه وجود جوده شأنيب فضله النائب عن العهد وورد عليه القضاة والوزراء وأمر بتفائس الخطب وجواهر الاشعار حدثني بعض الامراء قال أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر وأحبه محبة عظيمة وبلغ من محبته انه كان يدخل اليه الى النصارى كما إذا حصل عنده قام معه في قصره اليوم والعشرة لا يعلم أين مقره قال ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ومال اليه العاضد وحكمه في ماله وبلاده وحسده من كان معه بالديار المصرية من الامراء السامية كابن باروق وجرديك وجماعة من علماء نور الدين ثم انهم فارقوه وصاروا الى الشام وحدثني أبي رحمه الله قال حدثني جماعة من أصحاب نور الدين ان نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزار صلاح الدين وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا أعظم لذلك كرهه وتأفف منه وأنكره وقال كيف أقدم صلاح الدين ان يفعل شيئا يغبر أمرى وكتب في ذلك عدة كتب فإيلتفت الملك الناصر الى قوله الا انه لم يخشع عن طاعته وأمره وانه ما فارق قبول رأيه وأشار به وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروجه اليه وطلب منه حساب مصر وما صار اليه وكان كثير ما يقول ملث ابن أيوب قلت هذا كله مما تقتضيه الطباع البشرية والجملة الادمية وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك الامن عصم الله ومن اتصف عنده ومن عرف صبره والذى انكره نور الدين هو افرط صلاح الدين في تفرقة الاموال

كتاب (١٧٤) الروميتين

ولست بداده بذلك من غير مشاورته هذا مع ان ابن أبي طي متهم فيما ينسبه الى نور الدين مما لا يليق به فان نور الدين رحمه الله كان قد اذل الشيعة بحلب وأبطل مشاعرهم وقوى أهل السنة وكان والد ابن أبي طي من رؤس الشيعة فنفاه من حلب وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طي في كتابه مفرقا في مواضع فلهذا هو في الكتاب الذي له كبير الجمل على نور الدين رحمه الله فلا يقبل منه ما ينسبه اليه مما لا يليق به والله أعلم قال واما الملك الناصر مصر أنزع نور الدين حصن والرجسة من ناصر الدين ابن أسد الدين وورق عاله واعطاه تل باشر ثم أخذ هامة ولقد كان يتألم لملك الملك الناصر ويقال انه لما مرض قال ما أخطأت الا في انفاذي أسد الدين الى مصر بعد علي برغبته فيها وما يجزئني شيء كعلي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب ثم التفت الى أصحابه فقال اذا اقامت قصير وابتني اسماعيل الى حلب فانه لا يبقى عليه غيرها قال ابن أبي طي ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتغضه غير انه بلغها بصدر رجب وخلق عذب حدثني أبي عن ابن قاضي الدهليز وكان من خواص الملك الناصر قال جرى يوم ابن يدي السلطان ذكر نور الدين فأكثر الترحم عليه ثم قال والله لقد صبرت منه على مثل خالمدى ووخز الابروما قد رأيت أحدا من أصحابه ان يجعد على ما يعتده ذنبا ولقد احتمر هو بنفسه ايضا ان يجرد لي هفوة يعتدها على فلم يقدر ولقد كان يعتمد في محاطباتي ومراسلاتي على الاشياء التي لا يصبر على مثلها على ان تضرب أو تغير فيكون ذلك وسيلة له الى منابذتي فما أبلغته اربيه بما قط قلت تدوقت على كتاب بخط نور الدين رحمه الله يشكر فيه من صلاح الدين رحمه الله وذلك منذ ما فله ابن أبي طي كتب نور الدين ذلك الكتاب الى الشيخ شرف الدين بن أبي عصر ون رحمه الله وهو بحلب ليوليه قضاء مصر ضرورته (حسبي الله وكفى وفق الله الشيخ الامام شرف الدين لطاعته وختم له بخير غير خاف على الشيخ ما أنا عليه وفيه وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين وما يقربني الى الله والله ولي التوفيق والمطلع على نيتي وانت تعلم نيتي كما قال عز من فائل (ومن عنده علم الكتاب) أنت تعلم ان مصر اليوم قد لزنا النظر فيها فحسى من الفتوحات الكبار التي جعلها الله تعالى دارا سلام بعدما كانت دارا كفر ونفاق فقله المنة والجدد الان المتمد على كل شيء أمور الدين التي هي الاصل وبها النجاة وأنت تعلم ان مصر وانما هي قايمة وهي خالية من أمور الشرع وما تدخر الدموع اللثة الدندو اما كنت أحنى ولا أشتى مفارقك والا ن فقد تعين عليك وعلى أيضا ان نظار الى مصالحها وما لنا أحد اليوم لها الأنت ولا أقدر وأولى أمورها ولا أخلدها الا لا حتى تبرأ ذمتي عند الله فيجب عليك وفقك الله ان تشرعن ساق الاجتهاد وتولى قضاءها وتعمل ما تعلم انه يقربك الى الله وقد برئت ذمتي وأنت نجابوب الله فاذا كنت أنت هاتو ولدك أبو المعالي وفقه الله فطيب قلبي وتبرأ ذمتي وقد كتبت هذا الخطي حتى لا يبقى على حجة تصل أنت وولدك عندي حتى أسيركم الى مصر والسلام بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين وفقه الله فأنامنه شاكر كثير كثير كثير جزاه الله خيرا وأبقاه في بقاء الصالحين والاخيار صلاح عظيم ومنفعة لا هل الاسلام الله تعالى يكسر من الاخبار وأعوان الخير وحسن الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما قال ابن أبي طي وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم ما يستخرج بدوان صناعة مصر مائة ألف دينار وما يستخرج بالاعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار فسامح جميع ذلك وأمر بكتابة سجل به من ديوان الانشاؤنفذ الى سائر أعمال مصر فقرأ على المنابر وعرض عليه سياقة جزائد الدواوين في جهات المستخدين والعاملين لعدة سنين مقدمة آخرها سنة أربع وستين وخمسة مئة فكان مبلغه ينيف عن ألف دينار وألني ألف أردب غلة فسامح في جميع ذلك وأبطله من الدواوين واسقطه عن المعاملين وانتهى اليه ما يستأدى من الجحاج بالجهاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره وعرض عنه بعدة ضياع فأعانت أهل الجحاز بما أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شرحها قلت وسياقي كل ذلك في موضعه ونسخة مفشورة اسقاط المكوس في أخبار سنة سبع وستين وذلك بإشارة نور الدين رحمه الله وفي أيامه

(فصل) ذكر العماد في ديوانه قصيدة يمدح بها نور الدين ويهينه بملك مصر ولم يذكرها في كتاب البرق منها
 • ملك مصر اهني مالك الامم • فاسعد وابشر بنصر الله عن أم
 اخني بعدك شمل الملك ملتما • وهل بعدك شيء غير ماتم
 بافاعل الخير عن طبع بلا كلف • ومولى العرف عن خلق بلا سام

في اخبار (١٧٥) الدولتين

وواما قائم ثمة سر الكفر فنجده * لاثم ثغر شنيب واضح شيم
 لله دزك نور الدين من ملك * بالعمزم مفتتح بالنصر مختم
 أثار عزمك في الاسلام واضحة * وسر ملك باد غير مكتم
 بامن العدل والاحسان تنشره * تخاف ربك خوف المذنب الاثم
 أوردت مصر خيول النصر عادمة * ثنى الاغصه اقداما على الجهم
 فأقبلت في صحاب من ذوابلها * وقضيتها بدماء الهام منسجم
 تمكن الرعب في قلب العدو بها * تمكن النار بالاحراق في الخيم
 سرت لتقطع ممالك كفر من سبب * واه وتوصل مالمدين من رحم
 مستسهلات وعور الطرق في طلب الس * عليها قمحات اصعب القهم
 وعاجلات من الافرنج غلهم * والقيد في موضع الاطواق والحزم
 لقد شفت غلة الاسلام وانتهت * من العدو بجد الصارم الحزم
 أعانها الله في اطفاء جرادى * من شرشاور في الاسلام مضطرم
 وأصبحت بك مصر بعد خيفتها * للامن والعز والاقبال كالطرم
 والسنة اتسقت والبدعة انمحقت * وعادت دولة الاحسان والكرم
 ملوكها لك صاروا اعبدا وغدا * بها عبيدك املا كاذرى حرم
 انبت عنك بهائم ما ينوب بها * في البأس عن عنت في الجود عن هرم
 لله دزك نور الدين من ملك * عدل لحفظ أمور الدين ملتزم
 كانت ولاية مصر قبل عزتها * بك كشف دولتها الجماع على وض
 فالنيل ملتطم جار على خجل * جارا لبحر نوال منك ملتطم
 أغز الفرج فهداوت غزوههم * واحطم جموعهم بالادبل الخطم
 وطهر القدس من رجس الصليب وثب * على البغات وثوب الاجدل القطم
 فحك مصر وملك الشام قد نظما * في عقد عزم من الاسلام منتظم
 محمود الملك الغنازى يسوسهما * بالفضل والعدل والافضل والنعم
 بالشكر كل لسان ناطق أبدا * بمجد ودامك محمدي بكل قسم
 فاشك مصر واظهر عز سنتها * كم تعنى والى كم تشمكى وكم

ولعلم الدين الشافى في نور الدين رحمه الله

مانال شاؤك في المعانى سنجر * كلا ولا كسرى ولا اسكندر
 ياخير من ركب الجياد وخاض في * بلج المنايا والاسنة تقطر
 هل حاز غيرك ملك مصر وصار من * اتباعه من جده المستنصر
 والمستضى بالله معتد به * ويجده ويحده مستنظر
 أوسد بالشام الثغور محاميا * للدين حتى عاد عنها قيصر
 يبكي في روى الارض بحرد موعه * والجو من انفاسه يتسعر
 أوما أبوك بسيفه فتح الرها * والاسدقة تنص الكماه وترأر
 هابت ملوك الارض بأس كاتها * فتقاعدوا عن قصدها وتأروا
 ماضره طوى المنية ذاته * وصفاته بين السيرة تنشر
 فلكم على كل الملوك مزية * لوقائع مشهورة لا تنكر
 واذا عهدنا للانام مناقبا * فعليك قبل الكل يثى المختصر

كتاب (١٧٦) الروشتين

في الرأي قيس في المماحة حاتم * في النطق قس في البسالة حميد
 دانت لك الدنيا وأنت تعافها * وسواك في أماله يتعثر
 من ذا بصون الصين عنك وأنت من * أسد الشرى منه تخاف وتجنح
 قال العماد وأنفذ صلاح الدين من مصر خلع الجماعة من الاعيان وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة فكتب اليه قصائد
 في هذا المعنى منها

يا صلاح الدين الذي أصلغ الفا * سدا للعدل من خطوب الزمان
 أنت أجريت نيل مصر الى الشا * م نوالأم سال نيل ثاني
 وعنى نيلها لك فيك فضل * فهما بالنضار جاريتان
 وصلت اعطياؤك الفرغزرا * فتلقت آمالنا بالتهاني
 خلعت راقب العيون ورقى * وعدلا وصفها عن الامكان
 مذهبات كأنها خلعت الرضوان * قد أهديت لاهل الجنان
 مشرقا بطرزا ذهبيا * ت الحسان الرفيعة الاعنان
 فالعمامات كالعمامات والظر * زربوق كثيرة اللعان
 والموا الى بهامن التيه والنخس * ر على الدهر صاحبو الاردان
 كيف خص العماد بالادون المخلوق * من دون عصبة الديوان
 اخليق من نسجه لك في المد * ح جسد يد بامهن الخلقان
 وكذا عدة الليالي تخص البفاضل * المستحق بالحرمات
 لم تزل سائر ان جودك بالسهم * له غزيرة التهمات
 فاذا لم تزده مصر كالا * في المنى فاجحه من نقصان

وكتب الى نحر الدين أنى صلاح الدين قصيدة منها

عبدك شمس الدولة المرتجا * منتظر تشريفك المذهب
 فاعتب صلاح الدين لي حالي * عساه بالاصلاح ان يعتب
 عسرفه ما تم فاني أرى * من فضله للفضل ان يغضب
 وكيف يرضى ذاك بعض الرضى * ويحسده بأباه كل الابا
 وقل له جاءته ملبوسة * تخلفت ممن تبع في سبها
 عمامة رقت ورثتها * نشرتها الاوطار هبا

قال فوصل الى من نور الدين عمامة مذهبة وكتب يعتذر عن العمامة التي قبلها وكتب الى سعد الدين كشتكين
 يقول فيه استعير لسانه في الاعتذار الى العماد فاني استقل امرامه ارم ذات العاد فكتب العماد
 أما العماد فقد تضايف شكره * نعاك شكر الروض نعي الصيب
 لعمامة ذهبية ككفامة * يسدوا بهارق الطراز المغربي
 ما كان أحسن حاله لو انه * شفت عمامته بثوب مذهب

قال وكتب اليه

أهني الملك الناصر * صرا بالملك وبالناصر * وما مهد من بنيا * بن دين الحق في مصر
 وما أسداه من ر * بلاعد ولا حصر * وما أحياه من عدل * وما خفف من اصر
 واعلاء سنا السنفة في بحبوحة القصر * قد استولى على مصر * بحق يوسف العصر
 وأحياسنة الاحسا * ن في البدور في الحضر

وكتب اليه الامير اسامة بن منقذ من قصيدة أولها يقول

في اخبار (١٧٧) الدولتين

ديار الهوى حيا مع الملك القطر * وجادل جرد الناصر القندق المهر
به رجعت في عنفوان شبابها * ونضرت من بعد ما همرت مصر
وكم خاطب ردت لم يكفوها * الى ان اتاهها خاطب سيفه المهر
جاءها حبي اللبث العربي وصانها * كما صان عينا من مسلم القذى شفر
وكان بها بحر اجاج فاصبحت * ومن جوده العذب النخيلها بحر
وله فيه من أخرى

فما أنت الا الشمس لولاك لم تزل * على مصر ظلماء الظلالة سرمد
وكان بها طغيان فرعون لم يزل * كما كان لما ان طغي وتمرد
فبصرتهم بعد الغواية والمعى * وأرشدتهم تحت الضلال انى الهدى
وله فيه من أخرى

قل للولوك ترحلوا عن ذروة السعيا لملك الهمام الناصر
يعطى الالوف ويلتقيها باسمها * طلق المحيا في القنا المتشاجر
وقرأت في ديوان العرقلة وقال في المولى الملك الناصر وقد أنفذه من ديار مصر ذهباً ولبعضه سلاماً
صلاح الدين قد أصحبت دنيا * شقي لم يبت الا حريصا
وأرسلت السلام لنا عوما * وجودك جاءني وحدي خصوصا
فكنت كيوسف الصديق لما * تلقى منه يعقوب القيصا
وكان العرقلة من جملة المترددين الى صلاح الدين أيام كونه بدمشق فلما صار الى مصر وعده انه متى ملكها اعطاه
ألف دينار فلما تم أمره بمصر كتب اليه العرقلة قصيدتها

اليك صلاح الدين مولاى أشتكى * زمانا على الحر الكريم مجبور
نرى أبصر الالف التي كنت واعدى * بها في يدى قبل المات نصير
وهيهات والا فرنج يبنى وينسك * سياج قتل دونه وأسير
ومن عجب الا يا مائك ذو غنى * بمصر ومثلى بالشام فقير

وقال ايضا

قل للصلاح معيني عند اسارى * يا ألف مولاى أين الالف دينار
أخشى من الاسران حاولت أرضكم * وما تفي جنحة الفردوس بالنار
جسد بها عاضدات مسطرة * من بعض ما خلف الطاغى أبو الطارى
جمرا كاسيا فكم غبرا تخيلكم * عيفا تقالا كعدائى واطارى
وأنفذه من مصر عشرين ألف دينار فقال

يا مال كما برحت كفه * تجود بالمال على كفى
أفخ بالعشرين من لم يزل في * رأس عشرين من الكهف
يا ألف مولاى ولكنها * محسوبة من جملة الالف

وذكر العادى الحريصة ان العرقلة تصد صلاح الدين الى مصر فأعطاه ذلك وأخذله من اخوته مثله فعاد الى دمشق
وهو مسرور مجبور وكان ذلك ختام حياته ودنا أجل وفاته فمات بدمشق في سنة ١١٠٢هـ أو ١١٠٣هـ ونجمته
قلت وفي ديوانه ما يدل على قدمه مصر فان فيه وقال وكتبها على جام عمرها المولى الملك الناصر يد يار مصر المحروسة
بادخل الحمام هنيئها * دائرة كالفك الدائر
تأمل الجنة قد زخرت * وعسرت لملك الناصر
كأنما فيض أنا يبيها * نداء للوارد والصادر

كتاب (١٧٨) الروضتين

(فصل) وفي قتل المؤمنين بالخزفانية ووقعة السودان بين القصرين وغير ذلك قال العاد شرع صلاح الدين في نقض اقطاع مصر بين قطع منهم الدوائر من أجل من معه من العساكر وكان بالقصر خصى يدعى بمؤتمن الخلافة متحكم في القصر فاجتمع هو ومن معه على ان يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الاسديّة والصلاحية لان صلاح الدين يخرج الى انفرنج من معه فيؤخذ من بقي من أصحابه بالقاهرة ويتبع من ورائهم فتكون عليهم الدائرة فكاتبوا الفرنج واتفق ان رجلا من التركمان عبر البحر الأبيض فرأى مع انسان ذى خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشى فأنكرهما فأخذهما وجاه بهما الى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكتابة للفرنج فيها من أهل القصر يرجون بجركنهم حصول النصر فأخذ الكتاب وقال دلوني على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودى من الرهط فلما أحضره وليسأله وبعابه على خطه ويقالوه نطق بالشهادة قبل كلامه ودخل في عجمته اسلامه ثم اعترف بما جناه وشيده من الامر وبناء وان الاثر به مؤتمن الخلافة وانه يرى من هذه الآفة حسن لدى السلطان اسلامه وثبت اعتصامه وعرف استسلامه ورؤى اخفاء هذا السر واكتتامه واستشعر الحصى العصى وخشى ان يسبقه على شق العصا العصى فصار يخرج من القصر مخافه واذا خرج لم يجد مسافه وصلاح الدين عليه مغضب وعنه مغض لا يأمر فيه بسط ولا قبض الى ان استرسل واستبسل فظن ان مانسله من الشر العقيم نصل وكان له قصر فى قرية يقال لها الخزفانية لخزفه ورقم ما يتبع عليه من خزفه وهو بقرب قليوب فخلفا فيه يوما للذلة ولم يدرا انه يوم ذلته وانقضاء ساعاته بانه قضاء دولته فانهمز اليه صلاح الدين من أخذ راسه وترع من جاءه لباسه وذلك يوم الاربعاء الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة أربع فوردته وارده من رداد على ادون مشرع قال ولما قتل غار السودان وثاروا وكانوا أكثر من خمسين ألفا وكانوا اذا قاموا على وزير قناوه واجتأه واذلوه واستباحوه واستخلوه فحسبوا ان كل بيضاء شجعهم وان كل سرادقهم فشار أصحاب صلاح الدين الى الهجى ومقدمهم الامير المصطفى واتصلت الحرب بين القصرين وأحاطت بهم العسكر بية من الجانبين ودام الشر بومين حتى حس الاما حرم الجانبين وكما الجؤوا الى محلة اخرقوا عليهم وحووا ما حولهم واخرجوا الى الجيزة واذلوا بالثقي عن منازلهم العزيزة وذلك يوم السبت السامن والعشرين من ذى القعدة فمخلص السودان بعدها من الشدة ولم يجدوا الى الخلاص سبيلا وانهوا قوا أخذوا وتملوا تقتيلا وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصورة وكانت بهم المعجزة المعجزة فأحلى بنيانها من القواعد فأصبحت خاوية ثم حرقها بعض الامراء واتخذها سنانا فهي الآن جنة لها ساقية قال وكان قد وصل الى صلاح الدين قبيل هذه النبوة اخوه الأكبر خفر الدين شمس الدولة تيران شاه بن أيوب أنفذه اليه نور الدين من دمشق يشد ازره بمصر لما سمع حركة الفرنج وأهل القصر فوصل القاهرة فى نالت ذى القعدة قال وبأمر نفسه ووقعة السودان هذه وكان له فيها أثر عظيم ومن عجيب ما ذكرني ان العاضد كان يتطلع من المنظره يعاين الحرب بين القصرين ف قيل انه أمرهم بالقصر ان يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ففعلوا وقيل ان ذلك كان عن غير اختياره فأمر شمس الدولة الزرافين بأحراق منظره العاضد فهم أحد الزرافين بذلك واذاباب المنظره قد فزع وخرج منه زعيم الخلافة وقال أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم العبيد الكلاب اخرجوهم من بلادكم كانت العبيد مشدّة الانفس بان العاضد راض بفعالهم فلما سمعوا ذلك فت فى أعضادهم فحينئذ اوتجأوا لادبروا وبما كتبه العاد على لسان غيره الى صلاح الدين قصيدة منها

بالمالك الناصر استنارت * فى عصرنا أوجه الفضائل
على من حققه فروض * شكر الما جاد من بوافل
يوسف مصر الذى اليه * تشدأ مألنا الرواحل
أجريت نيلين فى ثراها * نيل نجيع ونيل نائل
وما قبئت السودان حتى * احكبت البيض فى المقاتل
صيرت ربح القضاء ضيقا * عليهم كفه بمحائل
وكل رأى منهم كراه * وأرض مصر كلام واصل

في اخبار (١٧٩) الدولتين

وقد خلت منهم المغاني * واقفرت منهم المنازل
وما أصيبوا الا بطل * فكيف لو امطر واوبل
والسود بالبيض قد أبيضوا * فحسب نواز لهم نوازل
مؤمن القوم خان حتى * غالته من شره غوائل
عاملكم بالحننا فاضحي * ورأسه فوق رأس عامل
يا مخجل البحر بالايادي * قد آن ان تفتح السواحل
قدس القدس من خباث * ارجاس كفر غم أراذل

قال العماد وما مدحت به صلاح الدين في ذلك التاريخ ثم نشأ له بالملك وتعزية بعمه

أيا يوسف الاحسان والحسن خير من * حوى الفضل والافضال والنهي والامرا
ومن للهدى وجهه النجاس برأيه * تجلى ونصر النصر من غزوه افترا
حى حوزة الدين الحنيف بحوزة * من الخالق الحسنى ومن خلفه الشكرا
أبو أبى الامعالي وعمه * بعروفة عم الورى البدو والحضرا
وطال الماولك سير كوه بطوله * وما شاركوه في العلا فحوى الفخرا
بنو الاسفر الافرنج لا قوا ببيضه * وسمر عواليه منا ياهم حمرا
وما أبيض يوم النصر واخضر روضه * من الخصب حتى اسود بالثقع واغبرا
رأى النصر في تقوى الاله واكل من * تقوى بنقوى الله لا يعدم النصر
ولما رأى الدنيا بعين ملالة * اغذمن الاولى مسير الى الاخرى
وقام صلاح الدين بالملك كافلا * وكيف ترى شمس الضحى تخلف البسرا
ولما صبت مصر الى عصر يوسف * أعاد اليها الله يوسف والعصرا
فأجرى بها من راحتيه بجرده * بحارا فسيماها الورى اثملا عشر
هزمت جنود المشركين برعيكم * فلم يلبثوا خوفا ولم يحثوا ذعرا
وفرقت من حول مصر جموعهم * بكسر وعاد الكسر من أهلها جبرا
وأمنتم فيها الرعا يا بعدلكم * وأطفأتم من شرها ورها الجبرا
بسفك دم حطتم دماء كثيرة * وحزتم بما أبدىتم الحد والشكرا
وما يرتوى الاسلام حتى تغادروا * لكم من دماء الغادرين بها غدرا
فصبوا على الافرنج سوط عذابها * بأن يقسموا ما بينها القتل والاسرا
ولانهم ملوا البيت المقدس واعزموا * على فتحه غازين واقترعوا البكرا
تديمون بالمعروف طيب ذكركم * وما الملك الآن تديموا لكم ذكرا
وان الذى أثرى من المال مقتر * وان تقفه في كسب محمدا أثرى

قال وكثرت كتب صلاح الدين الى أصدقائه مبشرة بطيب أنباءه فنها كتاب ضمنه هذا البيت

ما كنت بالمنظور أفتع منكم * واقدر ضيت اليوم بالسموع

فقلت في جوابه أيا تامنهاذه

يا هل لسا الف عشتى بفنائكم * من عودة محمودة ورجوع
مذغبت عن ناظرى ما أذنت * للقلب شمس مسرة بطاوع
كنت المشفع في المطالب عندكم * فغدوت أطلب طيفكم بشفع
أصبحت أفتع بالسلام على النوى * وبقر بكم كم بت غير قنوع

قال ووصل أيضا منه كتاب ضمنه هذا البيت

وانتذر الدمع من قبل أيضا * وقد حال مذبذبتم فاصبح يا قوتنا

فنظمت في جوابه أياتا منها

هنيئاً للمصر حوز يوسف ملكها * بأمر من الرحمن قد كان موقوتنا

وما كان فيه اقتل يوسف شاورا * بماثل الاقتل داود جالوتنا

وقلت قلبي ابشر اليوم بالمنى * فقد نلت ما أملت بل خرت ما شئتنا

قال وفي هذه السنة قتل العاصد بالقصر ابني شاور الكامل وأخاه يعني الطارى يوم الاثنين الرابع من جمادى الآخرة وذلك انه لما قتل شاور عاد وفي القصر فكانت زلوا في القبر فلو انهم جاؤا الى أسد الدين سلموا وامتنعوا وعصموا فانه ساء قتل شاور وان كان أمن بقتله ما حذر قتل الكامل هو شجاع بن شاور وكان له اخوان طي تقدم ذكر قتل ضرغام له والاخر الطارى قال الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي السرور الرازي في تاريخه أخذ ابن شاور شجاع الملقب بالكامل والطارى الملقب بالمعظم وأخوه الملقب بفارس المسلمين فقتلوا ودير برؤسهم قال ولما ولي صلاح الدين ساس الرعية وأظهر لهم من العدل ما لم يعلموه فاجتمع أهل البلاد وكرهوه فأوقع راجلهم وأخرجهم من القاهرة أخرجاً عنيفة فأخرج بعد ذلك فارسهم وشتت شملهم فقتل بيوتهم خاوية بما ظلموا قال ولما كانت سنة ست وستين رفع جميع المكوس صادرها وواردها جليلها وحقيرها وغزا بلاد الشام غزوتين قال ابن شداد وفي المحرم من هذه السنة توفي ياروق الذي تنسب اليه الباروقية يعني المحلة التي بظاهر حلب قال غيره وفيها احترق جامع حلب وأسواق البر وأخذ نور الدين في عمارته آخر السنة

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسةائة * ففي أول صفر منها زل الفرج فخذلهم الله تعالى على دمياط من الديار المصرية قال ابن الأثير كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا ويقتلوا بالهلاك فكتبوا الفرج فخذلهم بالاندلس وصقلية يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر وانهم خائفون على البيت المقدس وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح واعتمدوا على النزول على دمياط ظناً منهم انهم يملكونها ويتخذونها ظهراً لملكون به ديار مصر فلما نزلها حصروها وضيقوا على من بها فأرسل اليها صلاح الدين العساكر في النبل وحشرفها كل من عنده وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر وتابع رساله الى نور الدين يشكو ما هو فيه من الخوف وانه ان تخلف عن دمياط ملكها الفرج فخذلهم وان سار اليها خلفه المصربون في مخلفه ويخلفي عسكره بالسوء وخروجهم من طاعته وصاروا من خلفه والفرنج من امامه فجذب نور الدين اليه العساكر ارسالاً لئلا تتجهزت طائفة أرسلها فاسارت اليه بتلو بعضها بعضاً ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر فدخل بلاد الافرنج ففتحها وأغار عليها واستباحها ووصلت الغارات الى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد عن ممانع فلما رأى الافرنج تتابع العساكر الى مصر ودخل نور الدين بلادها ونهبها وأخربها وجوعا خائبين ولم يظفروا بشئ وهذا موضع المثل ذهب النعمانية تطلب قرنين فعدت بلاد ذنين فوصلوا الى بلادهم فزوها خاوية على عروشها وكان مدة مقامهم على دمياط خسين يوماً أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تحصى حكى عنه أنه قال ما رأيت أكرم من العاصد أرسل الى مدة مقام الفرج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها قال القاضي ابن شداد لما علم الفرج ما جرى من المسلمين وعساكرهم ومات من استقامته الامر في الديار المصرية علموا ان صلاح الدين يملك بلادهم ويخرب ديارهم ويقطع آثارهم لما حدث له من القوة والملك فاجتمع الفرج والروم جميعاً وحدثوا نفوسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها أو أرادوا قصد دمياط لئلا تكن القاصد لها من البر والبحر ولعلمهم انها ان حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم بأورون اليه فاستنصبوا المخنقيات والديابات والجروح وآلات الحصار وغير ذلك ولما سمع الفرج بالشام ذلك اشتد أمرهم فسبر قوا حصن عكار من المسلمين وأسروا أصحابها وكان مملوكا نور الدين يسمى خطيط العبدار وذلك في ربيع الآخر منها وفي رجب منها توفي العمادى صاحب نور الدين وأمير حاجبه وكان صاحب بعلبك وتدمر ولما رأى نور الدين ظهور الفرج ونزولهم على دمياط قصد شغاف قلوبهم فقتل على الكرك محاصراً لها في شعبان من هذه السنة فقصدته فرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يلقوا له ثم بلغه وفاة محمد الدين بن الداية

يجلب في رمضان فاشتغل قلبه لانه كان صاحب أمره فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة فاجلب التي خربت كثير من البلاد وكانت في ثاني عشر شوال من السنة المذكورة وهو عشرين افسار يطلب جلب فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحجة وبلغه الخبر وهو يتل باشر فصار من ليلته طال بالبلاد الموصل ولما علم صلاح الدين شدة قصدهم العتوة مياط أنفذ إلى البلد وأودعه من الرجال والابطال والفرسان والميرة وآلات السلاح ما آمن معه عليه ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات وازعاج العتوة عنهم ان نزل عليهم وبالغ في العطايا والهبات وكان وزيراً متحكماً لا يرد أمره في شيء ثم نزل الفرنج عليهم في التاريخ المذكور واشتد زحفهم اليها وقتلهم لها وهو رجع الله عليه يشن الغارات عليهم من خارج والعسكر يقتلهم من داخل ونصر الله المسلمين يؤيدهم وحسن قصده في نصرته دين الله يسعدهم وينجدهم حتى بان لهم الخسران وظهر على الكفر الايمان ورأوا انهم يخون برؤسهم ويسلون بنفوسهم فرحلوا خائبين خاسرين فخرقت مجانيقهم ونهبت آلاتهم وقتل منهم خلق عظيم وسلم البلد بحمد الله ومثله وقال العماد أقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه ومدار فلكه ينهض اليها المدد بعد المدد ويرسل اليها العدد بعد العدد يسهر ليله ولا يقبل نهاره وقد أخلص لله سره وجهاره ولا ينام ولا ينام وعنده من ذلك المقعد المقيم وسبقه في الدين ابن أخي السلطان إلى دمياط ودخلها وكذا خاله شهاب الدين محمود فتحها واتصل الحصار وتواصل الانصار ودب في الفرنج القنا وهب عليهم البلا فرحلوا عنها في الحادي والعشرين من ربيع الأول بالذل الاكل والصغار الاشمل وكان لما وصل الخبر إلى نور الدين بوصولهم واجتماعهم على دمياط ونزولهم اغتم واغتم واستعصب المم وأنقض من عنده عسكر اقل مائة الف من دمياط وقطب الدين خسر والهذبان وكان مقدماً مائة ما وهما معاً وأمره ان يسير بالعسكر ويخوض بهم بحجز البحاج الاكثر فوصل في النصف من ربيع الأول قبل رحيل الفرنج بأسبوع فوقع روعه من الكفر في كل روع قلبه وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط انه قرئ عليه جزء من حديث كان له به رواية بخاء في جملة تلك الاحاديث حديث مسلسل بالتبسم فطلب منه بعض طلبة الحديث ان تبسم لتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث فغضب من ذلك وقال اني لا استحي من الله تعالى أن يراني متبسمًا ومسلمون محاصرون بالفرنج وبلغني ان اماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له اعلم نور الدين ان الفرنج قدر حلوا عن دمياط في هذه الليلة فقال يا رسول الله ربما لا يصدقني فاذكر لي علامة يعرفها فقال قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت يا رب انصر دينك ولا تنصر مجردهم هو محمود الكلب حتى ينصر قال فانتبهت ونزلت إلى المسجد وكان من عادة نور الدين انه كان ينزل اليه بغلس ولا يزال يترك فيه حتى يصلي الصبح قال فتعرضت له فسلني عن أمرى فأخبرني بالمنام وذكرت له العلامة الا أنني لم أذكر لحظة الكلب فقال نور الدين اذكر العلامة كلها وأخ على ذلك فقلتها فبكي رحمه الله وصدق الرؤيا فأمرت تلك الليلة بخاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة

(فصل) أرسل نور الدين كتاباً إلى العاضد صاحب القصر بمنه برحيل الفرنج عن نجر دمياط وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الازك في مصر خوفاً منهم والقتصار على صلاح الدين والزامة وخوفاً منه فكتب اليه نور الدين يمدح الازك ويعلمه انه ما أرسلهم واعتمد عليهم الا لعله بأن عنظار يات الفرنج ليس لها الاسهام الازك فان الفرنج لا يرهبون الا منهم ولولاهم زاد طمعهم في الديار المصرية وتحصنوا منها على الامنيته فعمل الله يسير فتح المسجد الاقصي مضاعفاً إلى نعمه التي لا تحصى قلت ولعمارة النبي من قصيدة

من شاكر والله أعظم شاكر * ما كان من نعمي نبي أيوب
طلب الهدى نصر اقبال وقد أنوا * حسبي فأتتم غاية المطلوب
جلبوا إلى دمياط عند حصارها * عز القوي وذلة المغلوب
وجلوا عن الاسلام فيها كربة * لولم يجلوها أنت بكروب
فالناس في اعمال مصر كلها * عتقوا هم من نازح وقريب

كتاب (١٨٢) الروضتين

ان لم تظن الناس قد افارغا * وهم اللباب فانت غير لبيب

ولاشهاب فتبان الشاغورى من قصيدة يقول

ولا غر وان عاد الفرغ هزيمة * ولولم تعد لم يبق للشرك ساحل
فقد أيقنت اعداؤه ان حظهم * لديه رماح اشرفت أو سلاسل
ولما أنواد دمياط كالبحر طاميا * وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الاحصاء والعد جمعهم * ألوف ألوف خيلهم والراحل
وأودونهم أسدا بأيديهم القنا * ويضار قافا أحكتها الصيائل
ودار وابها في البحر من كل جانب * ومن دونها سد من الموت حائل
رجال الكلب ملك الروم اذ ذك فتحتها * تخاف فأم الملك والروم هابل
فعادوا على الاعقاب منها هزيمة * كانوا هم ذل انعام جوافل
وما ملوا ان يلحقوا ببلادهم * لتعصمهم مما رأوه المعاقيل

قال العماد وسألني كريم الملك ان أعمل له آياتا في صلاح الدين تهنئة بالنصر في دمياط فعملت قصيدة منها

يا يوسف الحسن والاحسان يا ملكا * بجده صاعدا أعداؤه هبطوا
حلت من وسط العلياء في شرف * ومن كراشم من افلا كه الوسط
هتيت صونك دمياط التي اجتمعت * لها الفرغ فاحلوا ولا ربطوا
مصر بيوسفها أخت مشرفة * وكل أمر لها بالعدل منضبط
وحين وافي صلاح الدين أصلحها * فللمصالح من أيامه غلط

قال العماد وما سيرته الى صلاح الدين قصيدة منها

كأن قلبي وحب ماله * مصروفها المليك يوسفها
هذا بسلب الفؤاد يظلمني * وهو يقتل الأعداء ينصفها
الملك الناصر الذي أبدا * بعز سلطانه يشرفها
قام باحوالها يدبرها * حسنا واثقالها يخففها
بعده والصلاح يعمرها * وبالنسدى والجيسل يكتفها
من دنس الغادين برخصها * ومن خبايا العدى ينظفها
وان مصر بملك يوسفها * جنة خلد بروق زخرفها
وانه في السماح حاتمها * وانه في الوقار أحسنفها
يوسف مصر الذي ملاحها * جاءت بأوصافه تعرفها
كتب التواريخ لا زينها * الا بأيامه مصنفها
وحطت دمياط أذلحاط بها * من رجوم البلاء يقذفها
لاقت غواة الفرغ خبيثها * فزاد من حمرة تأسفها
أوردت قلب القلوب ارشية * من القنا للآدماء تترفها
وليسها سفكها أفعالها * عاملها والسنان مشرفها
يمضي لئلا الله في قتالهم * عزيمة للجهاد ترهفها
وله فيه من أخرى

فداستقرت أموري * فيه بحسب اقتراحي

تسبر شمس أبديته في سماء السماح * وأمره مستفاد * من القضاء المتاح

وأرسله نور الدين الى خلط ومتوليا حينئذ ظهير الدين سكيك المعروف يشاه أرمن قال فلما كنت بهماردين كتبت

قد زلنا في جوارك * وطلبنا قرب دارك * وسرنا في الدياجي * فهدانا ضوء نارك
قد دارك أمرنا اليو * مبطول متدارك * وتفرد باغتنام الشكر من غير مشارك
قال العماد وفي هذه السنة خرج نور الدين الى داريا فأعاد عمارتها معاه وعمر مشهد أبي سليمان الداراني وشق بدمشق
(فصل) في مسير نجم الدين أيوب الى مصر بساقي أولاده وأهله وقد وصف ذلك عمار في قصيدة مدح بها
السلطان صلاح الدين تقدم بعضها يقول فيها

صحت به مصر وكانت قبله * تشكو سقاما ليعن بطيب
عجبا المعجزة أنت في عصره * والدهس ولا لكل عجيب
ردا لاله به قضية يوسف * نسقا على ضرب من التقرب
جاءته اخسوته والوده الى * مصر على التدرج والترتيب
فاسعد باكرم قادم وب دولة * قد ساعدك رباحها بمحبوب

قال العماد لما دخل فصل التبر ووزاد استأذن الأمير نجم الدين أيوب نور الدين في قصده ولده صلاح الدين
والخروج من دمشق الى مصر بأهله وجماعته وسيدته ولده ونسيم بظاهر البلد الى ان بان وضوح جسده وسار في
حفظ فوصل الى مصر في السابع والعشرين من رجب وقضى صاحب القصر العاضد من حق قدمه ما وجب وركب
لاستقباله وزاد اقبال البلاد بأقبله ولما عز على الرجل الى مصر شرع في تفرق املأكه وتوفير ما في شركه على
اشراكه وما استعجب شيئا من موجوده وجعله نية لجوده قلت ووقف رباطا داخل الدرب برقا القونية يباب
البريد ثم قال العماد ولما نصب نجم الدين أيوب لقصده مصر مضاربه وسحب للعلی على روض الرضى صهاثيه خرج
نور الدين الى رأس الماء بعسكره وخيامه وأرهب للجسد في الجبهة احدث اعتزامه ثم أقام بعد توديعه والوفاء بحق
تشجيعه الى ان اجتمعت اليه عساكره وحضر بادي خنده وحاذره وعب بجزره وما ج زانره ثم توجهنا الى بلاد الكرك
مستمل شعبان ونزلنا اياما بالبقاء على عمان وأقننا على الكرك أربعة أيام نحصها ونصبا عليها مخنيين فورد
الخبر ان الفرنج قد تجهعوا ووصلوا الى ما عين فقال نور الدين بى ان نعطف أعنتنا وبالله نستعين فانا اذا كسرناهم
وقبرناهم وقتلناهم وأسراهم أدركنا المراد وما كنا البلاد فرحلنا اليهم فولو ما دبرين حين سمعوا رجوعنا وقالوا
رحيلهم عن الحصن قد حصل وهوة قصودنا وعاد نور الدين الى حوران فخم بعشرا وعصام رمضان وقال ابن الاثير
كان سبب حصر نور الدين الكرك ان نجم الدين أيوب والصلاح الدين سار عن دمشق الى مصر فسر نور الدين معه
عسكرا فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة ما لا يعد خفاف نور الدين عليهم فسار الى
الكرك فقل عليه وحصره وسار نجم الدين أيوب ومن معه المئين ونصب نور الدين على الكرك المجانيق فأتاه الخبر
ان الفرنج قد جعوا وساروا اليه وان ابن الهنقرى وفليب بن الرقيق وهما فارسا الفرنج في وتهمنا في المقدمة اليه
فرحل نور الدين رحمه الله تعالى نحوهما للقاءهم ومن معه ما قبل أن يلحق بهما باقى الفرنج وكانا في مائتي فارس وألف
تركلي ومعه من الرجال خلق كثير فلما قارب بهما رجعا القهقرا الى من وراءهم من الفرنج وقصد نور الدين وسط
بلادهم ونهب ما كان على طريقه ونزل بعشرا وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم خوفا منه
وقال ابن شداد أنفذ صلاح الدين في طلب والد دليلك له الامر وروى مجمع القصص مشا كلمة ماجرى النبي يوسف
الصادق عليه السلام فوصل والد نجم الدين اليه وسلك معه من الادب ما كان عادته والبسه الامر كله فأبى ان
يلبسه وقال يا ولدي ما اختارك الله لهذا الامر الا وانت كقولنا فاني نبي ان نصير موقع السعادة فحكه في الخراف
بأسرها وكان رحمه الله كره بما يطق ولا يردول برز صلاح الدين وزير المحكم الى ان مات للعاضد ابو محمد عبد الله وبه
ختم أمر المصريين وقال ابن أبي طي الحلبي أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد الى نور الدين بعاتبه من تأخير
اقامة الدعوة له بمصر فأحضر الأمير نجم الدين أيوب والزعمه الخروج الى ولده بمصر بذلك وجهه رساله منها (وهذا أمر
نحب المبادرة اليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفتور لاسميا وامام الوقت

كتاب (١٨٤) الروضتين

متطلع الى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمميته) وسار نجم الدين وأعجبه نور الدين هدية سنة للملك الناصر وخرج العاضد لتلقيه الى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الالهيلج ولم يجر بذلك عادة لهم وكان من أعجب يوم شهده الناس خلع العاضد عليه ولقبه الملك الافضل وحمل اليه من القصر الاطاف والخف والهدايا وأظهر السلطان من ربه وتقديره أمر ما أجزبه الشكر والاجرا فردد له دار الى جانب داره واقطعه الاسكندرية ومياط والجيزة واقطع شمس الدولة أخاه قوص واسوان وعيذاب وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي ألف وستة وستين ألف دينار وسار شمس الدولة الى قوص ولولا هاتين الخلافة محمد بن مختار وكان السلطان قبل اقطاعها شمس الدولة قد سير رسلان بن دغش لحماية خراجها فخرج عليه عباس بن سادي في جماعة من الاعراب والعبيد في مخرج بني هيم ففخه رسلان وعاد الى القاهرة وفي هذه السنة ليلة عيد الفطر رزق السلطان ولده الملك الافضل نور الدين على وفرح به فرحا عظيما وخلع واعطى وتصديق بما بهر به العقول ومن قصيدة للحكم عبد المنعم قد تمة ثم بعضها

في مشرق المجيد نجم الدين مطلعته * وكل أنبائه شهب فلا أقفوا
جاؤا كي عقوب والاسباط ادوردا * عني العزيز من أرض الشام واشتقوا
لكن يوسف هذا جاء أخوته * ولم يكن بينهم نزع ولا زل
وملك وأرض مصر في شمس شمس * ومنها لرجال مثله مسم نزل

(فصل) في ذكر الزلزلة الكبرى قال ابن الاثير وفي ثاني عشر سؤال كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلهما عت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها الا أن أسد خا وأعظمها كان بالشام فخرت ببلبيس وحصن وحماد وشيرز وبعرين وغيرها وتمتدت أسوارها وقلاعها وسقطت الدور على أهلها وهلك من الناس ما يخرج عن العدد والاحصاء فلما نفي نور الدين خبرها الى بلبيس ليحرم ان يهدم من أسوارها وقلاعها وكان لم يبلغه خبر غيرها فلما وصلها أنها خبر باقي البلاد بخراب أسوارها وخراب أهلها فكتب اليها من بلبيس وبعرها وسار الى حصن ففعل مثل ذلك ثم الى حماد ثم الى بارين وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بارين فانها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البتة فجعل فيها طائفة سالحة مع العسكر مع أمير كبير ووكيل بالعمارة من يحث عليها ليلانهارا ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد فانها كانت قد أتت عليها وبلغ الرعب بين نجا كل مبلغ فكانوا لا يقدرون يأوون الى بيوتهم السالمة من الخراب خوفا من الزلزلة فانها عاودتهم غير مرة وكانوا يخافون بقاءهم بظاهر حلب من الفرنج فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وأهلها أقام فيها وأبشر عمارتها بنفسه وكان هو يقف على استعمال القلعة والبنايين ولم يزل كذلك حتى أحكم أدارها وجر جميع البلاد وجوارعها وأخرج من الاموال ما لا يقدر قدره وأما بلاد الفرنج خذلهم الله تعالى فانها أيضا فعلت بها الزلزلة فزاد من هذا وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم فاستغل كل منهم بمحاربة بلادهم من قصد الآخر قال العماد وكانت قلاع لفرنج النجا ورفل بعين ولخص الاكراد صافينا والعريضة وعروا في بحر الزلازل غرق لاسيما حسن الاكراد فانهم يبق له سور وقد تم عليه فيه دحور وثور فثقلهم سوءهم عن سواء وكل اشتغل بمادهاه وتواصلت الاخبار من جميع بلاد الشام بما أحدثته الزلزلة من الانهدام والانهدام قال وما سكنت النفوس من رعبها وتسلت القلوب عن كربها الا بآدم الكفارة من أمرها وعراهم من ضررها فلقد خضعتهم بالامض الاشق وأخذتهم بالرفقة بالحق فانها وافقت يوم عيدهم وهم في الكنائس فاصبحوا الردي فرائس شاخصة أبصارهم ينظرون فخر عليهم السقف من فوقهم وأنهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم ذكر العماد قصيدة في مدح نور الدين ووصف الزلزلة مطلعها

هل لعاني الهوى من الاسرفادى * ولسارى ليل الصبا به هادى
جنبوني خطب البعاد فسهل * كل خطب سوى النوى والبعاد
كنت في غفلة من البسين حتى * صاح يوم الاثيل بالبين هادى
قد حللت من مهجتي في البودا * عومن مقلتي محمل السواد
ومخلت من الوصال باسعا * في أما كنتم من الاجواد

في اخبار (١٨٥) الدولتين

وبعثت نسيبكم يتخلفا * في فعاد السيم من عوادى
سمتوني تجلدا واشتبافا * ومجال تجمع الاضداد
لبقاء بعد الاحبة يا قلمي ماهذه شروط الوداد
ذاب قلبي وسال في الذمعي * ذام من نار وجسده في اتقاد
مال الذموع التي تحذرهما الاشواق الاقنات الاكباد
حبذا ساكوفزادى وعهدى * بهم يسكنون سفيح الوادى
أتمنى بالشام أهلى بغداد * دوأين الشام من بغداد
ما اعتياضى من حبه يعلم الله * تعالى الاحب الجهاد
واشتغالى بخدمة الملك العا * دل محمود المكرم الجواد
امامنه على سر سرورى * راتع العيش في مراد مرادى
تيمدتن بالشام منه الابدادى * والابدادى للمسر كالاقياد
قد وردت البحر الخضم وخلفى ملوك الدنيا به كالحقاد
هو من الملاذ من نائب الذهب رونق المعاد عند المعاد
جسل زره الفرح فاستبدلوا منه بلبس الحديد بلبس الحديد
فرق الرعب منه في أنفس الكفار بين الارواح والاجساد
سقطوا قزئت بسكانها الار * ض وهدت قواعد الاطواد
أخذتهم بالحق رجفة بأس * تركتهم صرعى صرعى انغوادى
خففت من قلاعها كل عال * وأعادت تلاعها كالقوادى
أنفذ الله حجة فهو ماض * مظهر سر غيبه فهو بادى
أية أثرت ذوى الشرك بالهلا * لك وأهل التوحيد بالارشاد
والاعادى جرى عليهم من الد * ميرما قد جرى على قوم عاد
أشركت في الهلاك بين الفرق بين دنة الانراك والاحاد
ولقد حار بالقضاء فامسى * حكمه فيهم بغير جلال
والاله الروفى في الشام عما * دافع لطفه بلاء البلالاد

قال العباد ومنها معنى متبكر انة دعه في الزلزلة وهو

وبحق اعيت الارض لما * استكت من مقام أهل الفساد

قال والعباد في هذه السنة عند وصولنا الى حلب في الخدمة النورية كنت معرظا للفضائل الشهر زوريه وكان الخاتم
بها القاضى محيى الدين ابو حامد محمد بن فاخى قضاة الشام كمال الدين ابى الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم
الشهر زورى وكان كمال الدين قد علم به تنفيذ الاحكام واليه امور الديوان وهو ذو المكانة والامكان في بسط العدل
والاحسان ومحبي الدين وله من ربه في القضاء حجاب وبلدانها وبسط ايضا في امور ديوانها وبجاء وحسن من بين
الشهر زورى فاضنيان وهما حاكمان متحكمان ركن هذا شئى الدين من اهل الفضل وله نظم ونثر وخطب وشعر
وكانت معرفتي به في ايام الفقه بغداد في المدرسة النظامية منذ سنة خمس وثلاثين والمدرس شيخنا معين الدين سعيد
ابن الرزاز وكان مذهب الشافعي رضى الله تعالى عنه بعلمه معلم اذهب الطراز وكانت الزلزلة تجلب قد خربت دار
محيى الدين وسلبت قراره وغلبت اصطباره وحلبت افكاره فكثبت اليه قصيدة مطلعها
لو كان من شكوى الصباية مسكيا * لعد اعلى عدوى الصباية معديا
مات الرجاء فان اردت حياته * ونشوره فارج الامام المحييا
أفضى القضاة محمد بن محمد * من لست منه للفضائل محصيا

كتاب (١٨٦) الروصتين

فاض به قضت المظالم نجحها * وغدا على آثارهن معقبا
يا كاشفا للحق في أيامه * غررايدوم لها الزمان مغطيا
لم تنعش الشهباء عند عثارها * لولم تجدك لطود حملك مرسيا
رجفت لسطوتك التي أرسلتها * نحو الطغاة لحدعزمك مهيما
وتظلمت من شرهم فتملمت * عجل اجازتها عليها مبقيا
انفت من النعلاء فيها انزمت * أثقالها ورأتك منها ملجيا
حلب لها حلب المدامع مسيل * ان لاقت الخطب الفظيع المبكيا
وبعدل نور الدين عاودافتها * من بعد غم الغم جوا محجيا
أضحى لبعثتها معيدا بعدما * ذهبت وللأمروف فيها مبديا
لامورها متدبرا لشتاتها * متألفا لصلاحها متوليا
فالشرع عاد بعدله مستظها * والحق عاد بنظله مستنديا
والدهر لا ذبفه مستغفرا * مما جناه مطرفا مستحيا

(فصل د) في غزو صاحب البيرة ووفاته صاحب الموصل قال ابن الأثير كان شهاب الدين محمد بن الياس بن البغا زى بن ارتق صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره وهم ما انفارس إلى الخدمة النورية وهو يستتر فلما وصل إلى البيرة وهي من أعمال بلعبك ركب متصدا فصادف الممثلة فارس من الفرنج قد ساروا للقارة على بلاد الاسلام وذلك سابع عشر شوال فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا وصبر الفريقان لاسباب المسلمين لان ألف فارس منهم لا تقصر لجهة الممثلة فارس من الفرنج وكثرا حتى بينهم وانزعم الفرنج وعهم القتل والاسرف فيقتل منهم الام لا يعتد به ولو تواعدتم لاختلفتم في المعاد ولا يكن ليقصي الله امر اكان مغفولا وسار شهاب الدين بالاسرى ورؤس التتلى الى نور الدين فركب هو وعسكره الى لقائه واستعرض الاسرى ورؤس القتلى فرأى فيها رأس مقدم الاستتارية صاحب حصن الاكراد وكانت الفرنج تعظمه لشجاعته ودينه عندهم ولانه سحى في حياق المسلمين وكذلك ابصار رأى رأس غيره من مشهورى الفرنج فازداد سرورا والله الحمد قال وفيها في سؤال توفي المائكة قطب الدين مودود بن زكي صاحب الموصل وكان لما اشتد مرضه اوصى بالملك بعده فولده عماد الدين زكي بن مودود وهو أكبر اولاده وأعزهم علمه وأحبهم اليه وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقائم بأمر دولته خفر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين زكي لانه كان قد أكثر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى وخدمه وتزوج ابنته وكان عزيزه وحبيبه وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لظلم كان فيه وبذمه ويلوم اخاه قطب الدين على رايته لا موره وخاف عبد المسيح ان يتصرف عماد الدين في اموره عن امره فيعزله ويبدله فانفق هو والحقاقون ابه حسام الدين تمر تاسر وجه قطب الدين فردرعه عن هذا الرأي فلما كان الغدا حضر الامراء واستخلافهم فولده سيف الدين غازي وتوفي وقد جاوز عشرين سنة وكان تام القامة كبير الوجه أبيض اللون واسع الجبهة جهورى الصوت وكانت ولايته احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا لما توفي استقر سيف الدين غازي في الملك ورحل عماد الدين الى عمه نور الدين ساكنه اومستقصرا وكان عبد المسيح هو يتولى أمور سيف الدين ويحكم في مملكته وليس لسيف الدين من الامر الا اسماء لا بدنى عنقوان سبابه وعزة حدائمه قال وهذه حادثة تحدث على العدل كان من جملة أعمال خيرة ابن عمر قرية تسمى العقيقة مقابل الجزيرة من الجانب الشرقى يفصل بينهما دجلة لها بساكنين كثيرين بعضهم يبيع أرضه ويؤخذ على كل جريب من الارض التي قد زرعت شئ معلوم وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه وبعضها ملق منهم فاما المسيح منها لا يحصل لاصحابه منه الا القدر القريب وكان له ابعا دة بساكنين في كل واحد والى قال جاءنا كتاب خفر الدين عبد المسيح الى الجزيرة وأنا حينئذ أنولى ديوانه اياما بأن تجعل بساكنين العقيقة كلها مسوحة فتشقق ذلك على لاجل أصحابها فقها ناس صالحون ولى بهم أنس وهم فقراء فراجعتهم وقالت له لا تظن انى أقول هذا لاجل ملكى لا والله وانما أريد ان يدوم الناس على الدعاء للمولى قطب الدين وأنا أصبح ملكى جميعه قال فأعاد الجواب بأمر المساحة ويقول تسبح اولاد ملكك

يفتدي بك غيرك ونحن نذا لك ما يكون عليه فشرع النواب بمسحون وكان بالعمية رجلان صالحان يني وينهما
مودة اسم أحدهما يوسف والآخر عامد فغضرا عندي وتضررا من هذا الحال وسألا في المكتبة في المعنى فأظهرت
لهما كتاب عبد المسيح جوابا عن كافي فشرقا والاول أيضا تعود تراجع فماتت القول فأصرت على المساحة
ففرقتهما الحال فلما مضى عدة أيام عدت يومالي داري وإذا هما قد صادفاني على الباب فقلت لنفسي عجبا لهما
الشيخين قدرا يأمر اجعني وهما يذللان مني ما لا أقدر عليه فقلت لهما والله اني لا استحي منكما كلما جئتكم في هذا
المعنى وقد رأيتما الحال كيف هو فقالا لصدقته ولم تحضرا الا لنعرف ان حاجتنا تضيق فظننت انهما قد أرسلوا الى
الموصل من يشفع لهما فدخلت الى داري وأدخلتهم معي وسألتهما عن الحال كيف هو ومن الذي سعى لهما فقالا
ان رجلا من الصالحين الابدال شكرونا اليه طاعة فقال قد قضيت حاجة أهل العمية كلهم فال وقوع عندي من هذا
ولكن نارة أصدتة هما لما أعلم من صلاح أحواهما وتارة أعجب من سلامة صدورهما كيف يعتمدان على هذا القول
ويتماديه واقبالا خل فيهما فلما كان بعد أيام وصل فاصدم الموصل بكتاب يأمر فيه باطلاق مساحة العمية
واطلاق كل مسجون وبانصدقة فسلئت القاصد عن الديب فأخبر ان قطب الدين شديد المرض قال فأفكرت في
قولهما ونجيت منه ثم بوي بعد يومين من هذا قال ورأيت والدي اني أراي أحد الرجلين بالغ في اكرامه ويحترمه
وبقضى اشغاله واتخذها صديقين قال وكان قطب الدين من أحسن الملوك وأعفهم عن أموال رعيته محسنا اليهم
كبير الانعام عليهم محبوا الي صغيرهم وكبيرهم حليما عن المذنبين سريعا الانتفال للغير حسنة والدي قال
اسند عاني يوما وهو بالجيزة وكنت أنوي اعمالها فلما في بعض الامر فقلت أخاف من الاستقصا لودعي على
بعض هؤلاء الملوك وأومات الى اولاد لكانت شعرة منه تساوي الدنيا وساقهم اولنا موضع تحت العماره لو عرت لخصل
منها أصعاف هذا فقال جزاك الله خيرا لندفحت وأذبت الامانة فأشروع في عمارة هذه الاماكن فعملت وكبرت
منزاتي عنده ولم يزل يبنى علي قال وكان كبير الصبر والاحتمال من أصحابه لقا صبر من نوابه زين الدين وجمال الدين
وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين كثير المساعدة والنجادة
بنفسه وعسكره وأمواله حضر معه المصاف بحارم وفجها وفتحها بآسار وكان يجذب اليه في بلاده باختياره من غير خوف
وكان احسانه الى أصحابه متباها من غير طلب منهم ولا تعريض وكان يرضى الظلم وأهلوه وبعا من يفعله قال وبالله
أقسم اذا فكرت في الملوك اولاد زكي سيف الدين ونور الدين وقطب الدين وما جمع الله فيهم من مكارم الاخلاق
ومحاسن الافعال وحسن السيرة وعمارة البلاد والرفق بالرعية الى غير ذلك من المسباب التي يحتاج الملك اليها
اذ كر قول الشاعر

من تلقى منهم ثقل لا قيت سيدهم * مثل النجوم التي يسرى بها الساري

قلت وقرأت بخط الشيخ المزارجه الله في كتاب كتبه الى بعض الصالحين وسأله فيه الدعاء لقطب الدين صاحب
الموصل وقال فيه (يا أي لودعبت أسرح لك سيرته في بلاده وعيش رعيته في ولايته أطلت وأعجرت غير اني أذكر لك
ما خصه الله به من الاخلاق الصالحة هوم اكران اسرجة وأسدهم حياء وأعدهم نواضعوا وأظلم طمعوا وأزهدهم
في الظلم وأكثروهم صبرا وأبعدهم غضبا وأسرعهم رضاهوم من هذه الاخلاق على حذا حبه أبا محبة لا أقدر
أصفها ويني وبينه اخاه ومنزلة زوروني وأوروه)

(فصل) قال ابن الاثير والمبالغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين ومملك ولده سيف الدين بعده واستيلاء عبد
المسيح واستبداده بالامور وحكمه على سيف الدين أنف من ذلك وكبر ليه وشقي عليه وكان ييغض به عبد المسيح لما يلفه
من خشوته على الرعية والمبالغة في اقامة السياسة وكان نور الدين رحمه الله لينار قبعا عادلا فقال أنا ولي بتدبير بني
أخي وملكهم ثم سار من وقته فغير الفرات عند قلعة جعبر أول المحرم

(ثم دخلت سنة ست وستين وخمسائة) وقصد الرقة فامتنع الكاتب بها شيئا من الامتاع ثم سار الى شئ
اقترحه فاستولى نور الدين عليها وقرأ أمرها وسار الى الحابور فلما كمل جميعه ثم ملك نصيبين وأقام بها يجمع العساكر
فانه كان قد سار حريده فأتاهم نور الدين محمد بن قرا ارسلان صاحب الحصن ودار بكر واجتمعت عليه العساكر

كتاب (١٨٨) الروضتين

وقد ترك أكثر عسكره بالشام لحفظ غوره واطرافه من الفرنج وغيرهم فلما اجتمعت العساكر سار الى سنجار
 فحضرها وأقام عليها ونصب المجانيق وكان بها عسكر كبير من الموصل فكتبه عامة الامراء الذين بالموصل
 بحذونه على السرعة اليهم لئلا يلبسوا البلد اليه وأشاروا بترك سنجار فقبل منهم وقام حتى ملك سنجار وسلمها الى ابن
 أخيه الاكبر عماد الدين زنكي ثم سار الى الموصل فأبى مدينة بلد وعبر دجلة في مخاضة عندها الى الجانب الشرقي
 وسار فقتل شرق الموصل على حصن تسمى ودجلة بينه وبين الموصل قال ومن الحبب انه يومئذ وله سقط من سور
 الموصل بدنة كبيرة وكان عبد المسيح قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين الى أنابك المذكور صاحب بلاد الجبل
 وأذربيجان وأران وغيرها يستغفده فأرسل اليه ليلدكر رسولا الى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل ويقول له ان هذه
 البلاد لاسلطان ولا سبيل لك اليها فقلت نور الدين الى رسالته وكان بسنجار فسار الى الموصل وقال للرسول قل
 لصاحبك أنا أرفق ببنينا أحمى منك فلا تدخل نفسك بيننا وعند الانراغ من اصلاهم يكون الحديث معك على باب
 هذان فانك قد ملكك النصف من بلاد الاسلام وأهلته الغور حتى غلب الكرك عايلها وقد بليت أو أوحدي
 بأشجع الناس الفرنج فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه فانه يجب علينا
 القيام بحفظ ما أهلته من بلاد الاسلام وإزالة الظلم عن المسلمين فعاد الرسول بهذا الجواب وحصر نور الدين الموصل
 فلم يكن بينهم قتال وكان هوى كل من بالموصل من جنسدى وعامى معه لحسن سيرته وعده له وكتبه الامراء يعملونه
 على الوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد اليه فلما علم عبد المسيح ذلك أرسله في تسلم البلد اليه وتقرر به على سيف
 الدين ويطلب الامان واقام عايدكون له فأجابه الى ذلك وقال لا سبيل الى ابقائه بالموصل بل يكون عندي بالشام فأبى
 لم أنت لاخذ البلاد من أولادى إنما جئت لخلص الناس منك وأتولى أمانته وأولادى فاستقرت القاعدة على ذلك
 وسلمت الموصل اليه فدخلها نالك عشر جمادى الاولى وسكن القلعة وأقر سيف الدين غازي على الموصل وولى بقلعتها
 خادما يقال له سعد الدين كشتكين وجعله ذرذرا فيها وقسم جميع ما خلفه أخوه قلب الدين بين أولاده بمقتضى
 الفريضة ولما كان يحاصر الموصل جاءت خاتمة من الخليفة فلبسها فلما دخل الموصل خلعهاعلى سيف الدين وأطلق
 المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فقهه من البلاد وأمر ببناء الجامع النورى بالموصل فبنى وأقيمت الصلاة فيه
 سنة ثلاث وسبعين وخمسائة وأقام بالموصل نحو عشرين يوما وسار الى السام فقبل له انك تعقب الموصل والمقام بها
 ونراك أسرع العود فقال قد تقر قلبى فيها فان لم أفرقها ظلمت ويمعنى أيضا انتى ها هنا لا كون من ابطال العدو
 وملازم الجهاد ثم أقطع نصيبين والخابور العساكر وأقطع جزر دابن عرس سيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل وعاد
 الى الشام ومعه عبد المسيح فغير اسمه وسماه عبد الله وأقطعه اقداعا كثيرا وقال العماد استدعانى نور الدين ونحن بظاهر
 الرقة وقال قد انت بلك وأمنت اليك وأنا غير مختار للفرقة لكن المهم الذى عرض لا يبلغ فيه غيرك الغرض فمضى
 الى الديوان العزيز جريده وتؤدى عنى رسالة سديدة سعيدة وتنهى الى قصدت بيتى وبيت والدى ومعنى طريقي
 وتالدى وأنا كبيره ووارثه والذى له حدثه وحادثه فامض وخذلى اذنا فى أعذ كل جارحة لنا أنا طيب به اذنا وامثل
 ما يصلنى من المنال لدفع كل مكروه وكأمر ناصر الدين محمد بن شيركوه ان يسيرنى الى الرحبة فى رجال مأمورين بالصحة
 وسرت منها على البرية غرى الفرات بختير من بنى خفاجه فذكر انه وصل وفتنى الحاسه ثم رجعت عن الخليفة
 المستنجد الى نور الدين وهو يحاصر سنجار فاخذها وسنها الى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي
 قال ثم رحل على عزم الموصل وتصد بدله واستوضع فيها الجدد ودل هناك فى دجلة على مخاضه وكان ذا اخلاق
 وهم مرتاضه فاستسلم من خوضها والعبور فيها ما طاق مستصعبا وسهل الله لذلك ولأياه أمر العجا و جاء دليل
 تركانى قدامنا ودوى قطع دجلة ارة طولا وتارة عرضا أماننا ونحن وراءه فكيف واحد لا يميل عينا ولا يسار ولا نجد
 لنا فى سوى ذلك الجحاز اختيارا حتى عبرنا من الجانب الغربى الى الجانب الشرقى برحلتنا وثقنا بنا واخلينا
 وبغنا وجمنا وأقتنا بية ذلك اليوم حتى تم عبور القوم ثم رحلنا وبرزنا على الموصل من شرقها وخيمنا على تل
 توبه فاستعظم أهلها تلك النبوه وما خطر بالهم أنان غيرهم راكب وأنا نأخذ عليهم ذلك الجانب فغرفوا انهم
 محصورون مقهورون محسورون وانقطعت عنهم السبل من الشرق وتعذر عليهم الرقع لاتساع الخرق وبسط العطا

في اخبار (١٨٩) الدولتين

وكشف الغطا وتكلم في المصلحة والمصلحة الوسطا ومدة المجلس وقضى الامر وأتم نور الدين على أولاد أخيه ومثلا بناديه وأترسيف الدين غازي على قاعدة أبيه وألبسه التشریف الذي وصله من أمير المؤمنين المستضي ثم دخل قاعة الموصل وأقام بها سبعة عشر يوما ثم قدمنا شير أهل المناصب وتوقيعات ذوى المراتب من القضاء والتمابة وغيرها وأمر بإسقاط جميع المكوس والضرائب وأنشأ بذلك منسورا وقرأ على الناس فيه (قد قمنا من كثرة الاموال باليسير من الخلال فسمحنا للسلح ومحقق الترام للحقيق بالقت وبعد ما لم يعد من رضى الرب وبقي من محل القرب وقد استخرنا الله وتقربنا اليه وتوكلنا في جميع الاحوال عليه وتقدمنا بإسقاط كل مكس وضرب به في كل ولاية بنا عيدة أو قربة وازالة كل جهة مشبهة مشوبة ومحكوم سنة سنة سنين وفي كل مظلمة مظلمة فظلمه واحياء كل سنة حسنة وانتهاز كل فرصة في الخير يمكنه واطلاق كل ما حرت العادة بأخذه من الاموال المحظورة خوفا من عواقبها الرديئة المحذورة فلا يبقى في جميع ولا يتجاوز جارجاريا ولا لعل لا يكون به الله راضيا ايسارا للدواب الاجل على الحظام العاجل وهذا حق لله قضيناه وواجب علينا أن نياه بل هي سنة حسنة سنناها ومحجة واضحة بينها وداعدة محكمة مهندناها وفائدة مغفة أفندناها)

(فصل) قال العماد بن بالموصل رجل صالح يعرف بهر الملا سمي بذلك لانه كان يملأ ثنائير الجص بأحثة يتقوت بها وكل ما عليه من قميص ورداء وكسودوكاء قدم لك سواد واستعاره فلا يملك يزيد ولا أواره وكان له شيء فوهبه لاحد من يديه وهو تجر لنفسه فيه فاذا جاءه ضيف قراد ذلك المريد وكان ذا معرفة باحكام القرآن والاحاديث النبوية وكان العلماء والفقهاء والمولوك والامراء يزورون في زاويته ويبركون بهمه وية ثمن يبركته وله كل سنة دعوة يحثقل بها في أيام مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضر فيها صاحب الموصل ويحضر الزعماء ويشدون مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك المحفل وكان نور الدين من أخص محبيه يستشير في حضوره وكتابه في مصالح اموره وكانت بالموصل خربة واسعة في وسط البلد اشيع عنها انه ما شرع في عمارتها الا من ذهب عمره ولم يتم على مراده فأشار الشيخ عمر على نور الدين بانياتها ورفع ثمنها بما عاتقها فيه الجمع والجماعات فعمل وانفق فيه أموالا كثيرة ووقف عليه مضمعة من ضياع المرسل ورتب فيه خطيبا ومدتسا وكان قد وصل في تلك السنة واذا الفقيه عماد الدين أبو بكر التوفاني الشافعي من أصحاب الامام محمد بن يحيى فسأله ان يكون مدرسا في ذلك الجامع وكتب له به منشور اقال وحضر بجماهد الدين قايم از صاحب اربل الى الخدمة النورية بالموصل وان دخلهم اياها في بجبوحة الشتاء فكتب العماد الى بعض كبراء الموصل قصيده منها

ما يمنع الخادم من قصده السخمة غير الطرق والوجل
كأنما موصلكم مقدع * ما يهتدى فيه الى وصل
وكل معروف بها منك * كآثره ضيق السبل
وكل من حل بها لا يرى * في زمن الخصب سوى الخجل
ومد دخلناها حصننا بها * كرها على خرج بلاد دخل
أعصب ما تلقاه من أهلها * قول بلا اهل ولا سهل
وكنتم أهواغا ولكنتي * لفيت منها كل ما يسلى
وأنت من أصبح احسانه * حلية هذا الزمن العطل

قال وعاد نور الدين الى سنجار قاعا دعارة اسوارها ثم أتى حران وقد اقتطعها عن صاحب الموصل هي ونصيبين والخابور والمجدل ووصل حلب في خامس رجب قال ابن شداد دخل حلب في شعبان وزوج صاحب الموصل ابنته قال العماد وفوض القضاء والحكم خصيبين وسنجار والخابور الى الشيخ شرف الدين بن أبي عمرو فولى بها نوابه وحكم فيها أصحابه وقال القاضي ابن شداد لما صارت الموصل الى سيف الدين بن أبي نور الدين كان قد استولى عليه وتولى أمر البلد رجل يقال له عبد المسيح كان نصرانيا فاسلم وقيل انه كان باقيا على نصرانيته وله بعة في داره وتبع أرباب العلم والدين فشتهم وأبعدهم وأذى المسلمين فبلغ نور الدين ذلك وكتب له قصص في ذلك فسار وزل

كتاب (١٩٠) الروضتين

على الموصل من جانب الشط والشط بينهما وقال لأقاتل هذه البلدة وأهنتك حرمتها وهي لولدي وراسل سيف الدين وقال له أنا ليس مقصودي البلد وإنما مقصودي حفظ البلد لأنه قد كتب إلى في عبد المسيح كذا ألف قصة بما يعمل مع المسلمين وأما مقصودي أزيل هذا النصراني عن ولاية المسلمين قال وعبد المسيح يدبر البلد ويدور فيه والأمر إليه وبذل الصلح لنور الدين فقال نور الدين أنا قد جئت ولا بد لي من دخول البلد فقال نعم لا يدخل إلا من باب السر فقال نور الدين ما أدخل إلا من باب السر فخرجت بين نور الدين وبين ابن أخيه من أسلحة إلى أن علم أن نية صلاحه فصالحه في السر وركب عبد المسيح وخرج بدور بين السورين فجاء بعض أصحابه وقال له أنت ما تم ودمك قد راح وأنت غاف فقال ما الخبر فقال سيف الدين قد صالحهم وأنت في ديارهم فجاء ودخل على سيف الدين والفريق سر رشمه بين يديه وقال له أنت قد صالحت علمك وقد علمت ما علمت في حفظ بلدك وما لي طاقة بما له نور الدين فأثله الله في دمي فقال له ما لي طاقة يدفعه عنك ولكي عليك بالسبح عزم الملاقاة قال والله لو مضيت إليه لم يفرح لي لعمري ما جرى منه في حق المسلمين ولكنني تشرفت إليه وأنا نفسي سيف الدين إليه واستخضرتهم وكان معه كذا فقال له ما الخبر فقال سيف الدين لعبد المسيح ذلك إليه فوقف بين يدي يديكي فالتفت إليه السبح عزم وقال من يعادي الرجال يبكي مثل النساء فقال له قد غشيت بك وأطلب منك حق دمي فقال أنت أمس على دمك فقال وعلى ما لي فقال وعلى مالك فقال وعلى أهلي فقال وعلى أغلك وكان سرف الدين بن أبي عصرون مع نور الدين حينئذ فقال سيف الدين لعمر الملاح لما تخلف نور الدين فاحضر الغفهاء وعملوا نسخة من نور الدين ونسخة من عبد المسيح فأخذها عمر وخرج إلى نور الدين فقام نور الدين وخرج من حبيته والتمها وأكرمها فقال له عمر الناس يعلمون حسن عقيدتك في وقد خرجت في كذا وكذا وأوله النسخة التي تعلق بسيف الدين فقرأها وناوه إلا بن أبي عصرون فقال نسخة جيدة فقال له السبح عزم أنا لا أرى سعي تقول في نسخة النسخة فقال جده فقال إذا حلب بها على هذا الوجه أليس انها تقع لأمره فقال بلى فقال للحاصر من أسهدها وعلى السبح كذلك يسير إلى أن نور الدين كان يجري منسه إيمان في وفائع وكان أس أبي عصرون نية بالخرج من سفاهة عدله القول فأجاب نور الدين إلى ذلك فقال له قد علم الناس حسن عقيدتك في وإن قولي مسموع عندك وقد خرجت إليك ولا بد لي من صياقة فقال كيف لي بذلك وأنت لا تأكل طعامي ولا تقبل مني شيئا فقال تخلف لي بهذه النسخة فودع عليها وتغير وجهه وقال أما ما جئت إلا في هذا لأخلص المسلمين منسه فقال السبح عزم فما نطلب من أن أوليه على المسلمين فقال قد أمسته على نفسه فقال وعلى أهله فقال ومن أهدى له فقال نصاري فقال امتنهم فقال وعلى ماله فقال ومن أين هذا الكلب مال هذا ما لك أن لا فقال قد أعنت وماله له وهو اليوم بأن صاحب الموصل قال قد أمسته على ماله الخلف له على ذلك جميعه واستقر الصلح وخرج سيف الدين إلى خدته نور الدين فوقف بين يديه فأكرمته نور الدين وكان وصله خلعة أمير المؤمنين فخلعها عليه فدخل إلى الموصل بها وقال قل للجانب الشط الآخر ولم يدخل إلى الموصل إلى أن جاءه مرشد يد جفا فدخل من باب السر إليها وأقام بهامدة ورثب أمورها وولى فيها كاستسكن فرأى النبي صلى الله عليه وسلم دات ليلة وهو يقول له جئت إلى بلدك وشاب لنا انما تم به وركت الجهاد وقاتل أعداء الدين فاستدعته من منامه وسار سحر ذلك اليوم ولم يلبث ولم يعلم بدأ كبر

الاس حتى خرج ولحقه فوجه الله

(فصل) وصل الخبر موت الامام المستنجد بالله أبي المنذر يوسف بن المظفر بالله ونور الدين مجتهد بن شرف الموصل بل توبه وكانت وفاته يوم السبت التاسع ربيع الآخر وربعه المنهضي بأمر الله أو شهيد الحسن وكان مولد المستنجد بالله من ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وخمسمائة وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وستة أيام وهو الثاني والملايون من خلفاء بني العباس وهذا العدد له بحساب الجمل اللام والواو فيقول بعض الادبا أصبحت لبني العباس كاسم * ان عذبت بحساب الجمل الخلفاء

وكان امير تمام القائمة طوبى الى من كان من احسن الحماة مع الرعية كان عادلا فيهم كثير الرقي بهم وأطلق من المكوس أمير أولم يترك بالعراق مكسا وكان شديد على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس قال ابن الأثير بلغني انه قبض على انسان كان يسمى بالناس ويكتب فيهم السعايات فأطال حبسه فغضب بعض أصحابه يشفع فيه وبذل

في أخبار (١٩١) الدولتين

عشرة ألف دينار فقال له اما أعطيك عشرة آلاف دينار وتغضرنى انما انا آخر مثله احبسه لا تكف شره عن الناس وفي أيامه توفي شيخ السموخ اسماعيل ابن أبي سعد وصار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ السموخ وذلك سنة احدى وأربعين وفي سنة ثمان وأربعين توفي محمد بن نصر القيسرائي وأحمد بن منير الناعران وقد تقدم ذلك وفي سنة تسع وأربعين توفي الحكيم أبو الحكم الشاعر الاندلسي وفي سنة احدى وخمسين توفي الواو الساعر الحلبى وفي سنة ثلاث وستين توفي الشيخ أبو الجيب الصوفي الفقيه الواعلى قال أحمد وجاءه برسول دار الخلافة بمبشرين بخلافة المستضىء وانفق ذلك يوم عبور دجلة وركب يوم التزول على دن توبنى الالهية السوداء واليد البيضاء وذلك برأى ومنظر من أهل الموصل الحدباء ثم أرسل الشيخ سرف الدين بن أبي عصرون الى بغداد نائباً عنه في خدمة الامام ومما نفاذه العماد فيه

قد أنصأ الزمان بالاستضىء * واراد البرد وابن عم النبي
جاء الحق والبرية والعبد * ل فيا مهر حبا بهذا المحي
فمنبتا لاهل بغداد فازوا * بعد بؤس بكل عيش هني
ومضى "ن كان في الزمان * فاعلوم العود في الزمان الخفي"

وله من قصيدة أخرى

لحقى على زمن السباب فانتى * بسوى الأسف عنه لم اتعوض
نقضت عهد الغنابات وانها * لولا نقاء شيبتي لم تنفض
يا حسن أيام الصبا وكأها * أيام مولانا الامام المستضى
ذو البهجة الزهراء يشرق نورها * والدلمعة الثراء والوجه الوضى
قسم السعادة والسقا وقربا * في الخلق بين محبهم والمغض
فضل الخلائق والملائق بالافى * والفضل والافسان والخلق الرضى
فانعم أمير المؤمنين بدولة * مانتهى وسعادته مانتضى

قال ووصل نور الدين رحمه الله تعالى الى دمشق وأدى فرض العيام وخرج بعد العدة الى الخيام وأخرج سراده الى جسر الخشب وسرنا الى هضام ذكر العماد هشام بن محمد صاحب البرز الارثى بالبلد وقد مضت في أخبار سنة خمس وستين فتم ذكرها من الأثر

(فصل) فيما جرى بمصر في هذه السنة قال العماد كان محمد بن حبس للنهض يعرف بدار المعونة فأعادها صلاح الدين مدرسة للشافعية في أول سنة ست وستين وعمل في النصف من المحرم دار القزل مدرسة للمالكية وولى صدر الدين عبد الملك بن دواس القضاء والحكم معه والده أسرة وأعمالها وذلك في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة ثم خرج الى القزاء وأغار على الرملة وعسقلان وشجعمر بض غردم رجوع الى القاهرة ثم وصله الخبر بخروج هائلة من دمشق فيها أهل فاسد في عابها وأحب ان يجمع بها ثم ذهب لخرق في النصف من ربيع الأول وكانت باليلة قاعة في البحر قد حتم أهل الكد فجمع لها أكب وجاء الى ساحلها على الجبال وركبها الضناع هنالك وشتمها بالرجال وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر وأساقها للقتل والاسراء لها ولائها بالعند والعند وحصنها بأهل الجلال والجلد واجتمع بأهل عليها وسار بهم على سمت القاهرة ودخلوا في السادس والعشرين من جمادى الأولى اليها وسار الى الاسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان لبشاعة ما عاور تب واعدتها وهى أول دفعة سار اليها في أيام سلطانه وعم أهلها باحسانه وأمر بعمار أسوارها وبراها وابدانها وفي النصف من شعبان اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه وهو ابن أخى صلاح الدين منازل العزمه وصر جعلها مدرسة للشافعية واشترى الروضة وحمام الذهب وغيرهما من الملاك ووقفها عليها وفي النصف من جمادى الآخرة أغار شمس الدولة أخو السلطان بالصعيد على العربان ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان وفي الثالث والعشرين من جمادى الآخرة توفي القاضي الموفق أبو الحجاج يوسف بن الخليل وكان من الاما نل الافاضل ولم يزل صاحب ديوان الانشاء الى ان اكبر وكان الاجل الفاضل يوصل اليه كل ما كان له وقام به مدة حياته يكرم عهده ونكفله وقال في الخريدة هو ناظر ديوان

كتاب (١٩٢) الروضتين

مصر وانسان ناظره وجاه مع مفاخره وكان اليه الانشا وله قوة على الترسل يكتب ما يشاء عاش كثير او عطل في آخر عمره
واصر ولم ينه الى ان تعوض منه القبر ومن شعره

يا أبا الغرة حسب الدهر من * عظة المغرب وما أصبح يدي
تؤثر الدنيا فهل نلت بها * لحظة تخلص من هم وكدي

قلت وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري في أول كتابه المسمى بالوشى المرقوم في حل
المنظوم قال حدثني عبد الرحيم بن علي اليبساني رحمه الله بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة قال كان
فن الكتابة بمصر في زمن بني عبيد غضا طريا وكان لا يتجاوزون المكتابات من رأس برأس مكانا وبسانا ويقم
لسلطانه بقله سلطانا وكان من العادة أن كلما من أرباب الدواوين اذناشاه ولدوشهذا سئنا من علم الادب احضره
الى ديوان المكتابات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع قال فأرسلني والدي وكان اذذاك فاضيا بنفر عسقلان
الى الديار المصرية في أيام الحافظ وهو أحد خلفائهما وأمرني بالاصبر الى ديار المكتابات وكان الذي برأس به في تلك
الايام رجلا يقال له ابن الخلال فلما حضرت الدواوين مثلت بين يديه وعرفه من أنا وما طلبي رحبني وسهل ثم قال
ما الذي أعددته لفن الكتابة من الآلات فقلت ليس عندي شيء سوى اني أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحاشية فقال
وفي هذا بلاغ ثم أمرني بملزمته فرددت اليه وتذرت بين يديه ثم أمرني بعد ذلك ان أحل شعر الحاشية فخلته من
أوله الى آخره ثم أمرني ان أحله مرة ثانية فخلته

وقال ابن أبي طي في هذه السنة سرع السلطان يعني صلاح الدين في عدة سور الفاهرة لانه كان قد تم دم أكثره وسار
طريقا لا يرد اخلالا ولا خارجا وولاه قراقوش الخادم وقبض على القصور وسلمها اليه وأمر بتغيير شعار
الاسماعيليه وقطع من الاذان حتى على خبير العمل وشرع في تهديد أبواب الخطة ليني العباس وفيها طلب شمس
الدولة من أخيه السلطان ربع الكمال بالهافر وازداد على اقطاعه بوش وأقال الحيرة وسمنود وغيرها قلت وقد وقفت
على كتاب فاضلي وصف فيه غزاهما صلاح الدين رحمه الله في زمان وزارته وكان الكتاب الى مدينة قوص وأطش
هذه الغزاه هي التي أشار اليها العماد في انشاء كلامه السابق أول الكتاب (واهلها وابنة منة من الله وفضل لم يسهم سوء
واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) وفيه (بوجهنا من ركدا الجنب يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول
ووصلنا بشارب السابيع والعشرين من الشهر المذكور والعساكر السهل والوعر من ظهروا لهم على السهل والصعب
من دمه وجنود الله في الارض المعلة قد أبدت لها جنود السماء المسومة وصاحبنا الذي يوم الاربعاء بقتال جعل كل من في
حصن النير رها ونبضنا عليه مخنقيا لا يزال بشباب القذف ضاربا فلما على النهار لم نذكر بضه وأطلقنا فيه النيران
ورمينا الرجال بالدم وارمنا النسمان وزحفنا الى ابراجه وهي ابراج قد استعدت للجلابا بجعلنا لكل واحد جورة
مفردة وبابا وسر حنا اليهم رسل المشاي من الشباب وتصدنا أحد الابراج والبيوت تؤتي في الحرب من غير الابواب
وقد تم اليها نقابة الحامية فباتت ليلتها ساورة وزاجعه بالسنة المعاول وتشاوره واسفر الصبح وقد أمكن تعليقه
وتيسر تحريرقه فأوردنا تلك العقود الآلات والوفد فلم يكن الا مقدار اشعثها على حتى خرصه رعا سريعا وعفر بين أيدينا
سامعا مطيعا وانتزعت الرجال على أشجاره وتوالت الى أمثاله من الابراج وأنظاره فخلعت في القبضه وعجز من كان
فيها عن النهضة واحتكم فيها العذاب بالسيف والنار وضاق عليهم مجال النفس والفرار واستقبلنا يوم الخميس نقب
اللقاه وتقديم المخنيق وتيسر السبل للقتال وتخلص الطريق هذا والساوب والنوب قد انارت منها العساكر
وخرجت فيها مكذرات الدخان وأشبه اليوم يوم تبلى السرائر وظهر الارض منهم بالدم الماشر فلما كان بكرة الجمعة وردتنا
الاخبار بأن الملك قد زحف من غزوة في فارسه وراجله وراحمه وناطه وحشود ياره وجنود أنصاره فربكنا مستبشرين
بزحفه موقنين بحتفه ولقيناه فاحطنا من بين يديه ومن خلفه وناوشته الخيل الطراد واحدت به احداق الاغلال
بالاجياد وانتظرت حلتها التي كانت لها قبل ذلك اليوم موقع وصدته التي لها من رجال الحرب موضع فلا الله
قبله رعبا وثني صدقه كلبا ولمزل يختال ولا يقاتل ويواصل المسير ولا يباطل والقتل في أعقابها وأبدى السيوف
وسواعد الزماح لاتي في عقبها حتى تحصل في الدبر وهو وخيله ورجله ولم يبق له من ملك الشام الا ما وطئته رجله

فناصبناه

فناصبناه الحصار في ليلة السبت مستهل ربيع الآخر بالكوب اليه والوقوف عليه لعله يبرز وبارز ويخرج ولا يحاجز فخرست غماغم واستاذبت ضراغم فتركاه وراء ظهورنا وجعلنا بلاد امام صدورنا فكن في توليته من ضين لله سبحانه لا مغضبين وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته من الله متقربين وأواجهنا غزاة بعساكرنا المنصورة وأطفنا بها في أحسن صورة وهي على عالم من كونها بكر المقتدر عليها الحوادث وحصان لم يطعها أمل طامت هي معقل الديوية الذين هم جرة الشرك وداية الألف وأل الله يبتليها من القواعد وأنجز فيها من النصر صادق المواعد وورودها بأعين الموارد وفخناها من عذة جوانب ووطئناها واذأهي كاس الداهي فالتبنا فلا ذكبدها وذخيرتيها فخر بين مواش يخرب البلاد التي منها خرجت وخيل مسومة كنهال كوشا أسرجت وألجت وحوامل أنقال وزوامل خففت عن عساكرنا وخرجت وميرة كثيرة تحمكت مهابد الاجناد وأفرجت وأسارى المسلمين فكروا من القيد والقد وأنقذوا بلطف الله من سوء المكيدة وشدة الجهد فأما الرؤس المقتطوعة وأسارى الفريخ الذين أيد بهم الى أعناقهم مجموعهم فان الفناء الفضى تصفر من دماهم ونذهب وجى منها ما به اضطرم وقد انجهم وتلهب وفي الحال أمرنا بالنار ان تشتعل بها وتشتعل وبالهدم ان يتقل عنها معاوله ويتقل فويل ترى لهم ما يقيه أو تنظر الاطولا على عروشها خاوية وعراصا من سكانها غالية قد بقيت عبرة للعابرو دكرى لذا كرمو وعظة سارة للمسلم من غمة للكافر ثم عدنا بقية يوم السبت الى الملك خذله الله راجين ان يحمله السكل على الاقدام ويخرجه من النار الى مقام الانتقام فاذا شيطاناه فذبحه وقتل أعجابه قد جرحه فبنا عليه والاسنة بفرار تغيره واستناره بقرعه ويقرره وأصحبنا يوم الاحد ثاني شهر ربيع الآخر والكسب قد أنهل المقاتله ونصر الله قد بلغ الغاية المستأصله ورحلنا والسلامة لصغير عسكرنا وكبيره شامله والعدو قد غزى في عقره وعقر وأذل في دار ملكه وأحققر ووصلنا الى مستقر سلطاننا في يوم الاثنين الحادى عشر من الشهر المذكور فاستقبلنا من مولا باصولات الله عليه وتسريفة واستقبال ركابه ومشافهتنا بقبول دعائه الشريفة ومجابه ما عظمت به النعم وجلت وزالت به وعشاء الاطريق وتجلت وبادتها سماء انعامه التي لم تزل تجودنا واستملت قلت ومن قصيدة لعمارة في مدح صلاح الدين أوها

(فؤاد بنار الشوق والوجد محرق) يقول فيها

لعل بني أيوب ان علمرا بما * تطلعت منه ان يرقوا ويشقوا
غزوا عقر دار المشركين بغزة * جهاروا طرف الشر لشخيان مطرق
وزاروا مصلى عسقلان بارعن * يفيض اناه البرمته ويفهق
وكانت عل ما شاهد الناس قبلهم * طرائق من سلوك الله ليس نظرق
وما عصمتهم من مسك الامعاقل * تأذاعلى تحصينها وتأنقوا
جلبت لهم من سورة الحرب ما التقي * بوادره سور عليهم وخسندق
وأخرب من أعمالهم كل عامر * بتربه طيف الخيال فيفرق
أضفت الى أجر الجهاد زيارة الـ خليل فابشرا فت غازموفق
وهجت للبيت المقدس لوعة * يطول بهامنه اليسك التسوق
تششق من ملقائك أعظم نفحة * تطيب على قلب الهدى حين تشق
وغزوك هذا سلم نحو فحه * قريبا والارائد ومطرق
هو البيت ان تفتح الله فاعل * فابعده باب من الشام مغلق

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة (١٢٥٦) فاستفتحها صلاح الدين رحمه الله بأقامة الخطبة في الجمعة الاولى منها بمصر لبني العباس وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة وانقطع ذكر خلفاء مصر وتوفي العاضد يوم عاشوراء بالقصر وانقضت تلك الدولة بانهامادام همام العصر وذكر العباد أيضا في أخبار سنة اثنتين وسبعين كما سأتى ان الذى خطب بمصر لبني العباس أولا هو أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الحسين بن أبى المضا البعلبكي وذكر ذلك أيضا ابن الدبشي في تاريخه وقد أشار اليه القاضي الفاضل في كتابه الى وزير بغداد سأتى ذكره قال ابن الاثير كان السبب في ذلك ان

صلاح الدين يوسف بن أيوب لما نبتت قدمه في مصر وزال المخالفون له وضعف أمر العاضد وهو الخليفة بها ولم يبق من
العساكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة العباسية
فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وأهتدعهم من الإجابة إلى ذلك ما يلهمهم إلى العلويين فلم يصغ نور الدين
إلى قوله وأرسل إليه بلزمه بذلك إلزاماً لا فسخة له فيه واتفق أن العاضد من ض. وكان صلاح الدين قد عزم على قطع
الخطبة فاستشار الأمر كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية فخم من أقدم على المساعدة وأشار بها ومنهم من
خاف ذلك لأنه لم يتمكن الامتثال أمر نور الدين وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمي يعرف بالأمير العالم وقد رأناه
بالموصل كثير الفلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال أنا ابتدى بها فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب
ودعا للمستضيء بأمر الله فلم ينكر ذلك أحد عليه فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع
خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ففعلوا ذلك ولم ينقطع فيها اعتزان وكتب بذلك إلى سائر الديار
المصرية وكان العاضد قد اشتد من ضه فلم يعلمه أهلها وأصحابه بذلك وقالوا إن سلم فهو يعزم وإن توفي فلا ينبغي أن تغض
عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجله فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم قال ولما توفي جلس صلاح الدين للعرزاء واستولى على
قصره وعلى جميع ما فيه وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بها الدين قروش وهو خصي لحفظه وجعله كاستباز دار
العاضد لحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد ووكّل لحفظهم وجعل أولاده وعمومته
وأبناءهم في الأيوان في القصر وجعل عندهم من يحفظهم وأخرج من كان بالقصر من العبيد والاماء فأتى البعض
ووهب البعض وابعاع البعض وأخلى القصر من أهلها وسكانه فسبحان من لا يزل ملكه ولا يغيره من الأيام وتعاقب
الدهور قال ولما استسلم من العاضد أرسل يستدعي صلاح الدين فظن أن ذلك خديعة فلم يرض إليه فلما توفي علم
صدقه فقدم على خلفه عنه قالت أخبرني الأمير أبو القروش العاضد وقد اجتمعت به سنة ثمان وعشرين وسبتمته وهو
محبوس مفيد بقلعة الجبل بمصر أن أباه في مرضه استدعى صلاح الدين فحضره وأحضرت ابنتي أولاده وهن جماعة
صغاراً فوصاهن بأن لا تترنم أكرامنا واحترامنا رحمه الله وأماند صلاح الدين فبلغني أنه كان على استيصاله بقطع خطبته
وهو مريض وقال لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما تطعت أن أكون يموت قال العماد وجلس السلطان للعرزاء وغرب
في الحزن والبكاء وبلغ الغاية في أجال أمره والتوابع له إلى تبره ثم تسلم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه وكان مذ
نافق مؤتمن الخلافة وقتل صرف من هو زمام القصر وعزل بها الدين قراوش بالقصر وجعله زماعه واستنابه
مقام نفسه وأقامه فادخل إلى القصر شيئاً ولا تخرج إلا أمرأى منه ومعه ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو منزع
فلما توفي العاضد بطلت تلك القواعد وهت المعاهد وأمر السلطان بالاحتياط على أهلها وأولاده في موضع خارج
القصر جعله يرسمهم على الانفراد وقرم ما يكون لهم رسم الكسوات والاقوات والارواد قلت أخبرني أن ألو التفتح أنه
جعلهم في ديار بر جوان في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة وهي دار كبيرة واسعة كان عيشهم فيها طيباً ثم ثقلوا بعد الدولة
الصلاحية منها وابتعدوا عنها قال العماد وهم إلى اليوم في حفظ قراوش واحتياطه راسية ظهارة يكافؤهم ويحرسهم
بعين حزمه في ليله ونهاره وجع الباقين من عوتمهم وعترتهم من القصر في أيوان واحترز عليهم في ذلك المكان بكل
امكان وابتعد عنهم النساء لئلا يتسلسلوا فيكثروا وهم إلى الآن محصورون محصورون لم يظهروا وقد نقص عددهم
وقلص منددهم ثم عرض من بالقصر من الجوارى والعبيد والعدة والظريف والتلذ فوجدوا أكثرهن حرائر
فاطلمهن وجع الباقيات فوهبن وفقرهن وأخلى دوره وأغلق قصوره وسلط جوده على الموجود وابطل الوزن
والعدع الموزون والمعدود وأخذ كل ما صلح له ولا ضل وأمر الله بالحرص على ملكه وأولائه من أخائر الذخائر وزواهر
الجواهر ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد والدرر اليتيمة والياقوتة العالية الغالية القيمة
والمصوغات التبرية والمصنوعات العنبرية والأواني الفضية والنسوان الصينية والمنسوجات المغربية والمزجات
الذهبية والمخوقات النضارية والكرائم واليتائم والعقود والتمائم والنقود والمنظوم والمنصود والمحول والمسدود
والممنوع والمختون والدرر والياقوت والحلى والوشى والعبير والخبير والونير والنشير والعيني والجيني والبسط
والفرش وما لا يعد احصاء ولا يجد استقصاء فوقع فيها الفناء وكشف عنها الغطاء وأسرف فيها العطاء وأطلق البيع

في اخبار (١٩٥) الدولتين

بعد ذلك في كل حدث وعتيق ولبس وسحق وبال واسمال ورخيص وغال وكل منقول ومجول ومصوغ ومعمول واستمر البيع فيها مدة عشرين سنة ونقلت الى البلاد بايدي المداشرين الواردين والصادرين ونقلت من ديوان العمار بخطه قال وما وصل خبر موت العاضد الذي كان بمصر في القصر موسويا بالمر في ليلة عاشوراء سنة سبع وستين بعد الخطبة بالمسنن: بالله أمير المؤمنين علمت هذه الايات ذكر قصيدة منها
 توفي العاضد الذي في * دفع ذو بدعة بمصر فها
 وعصر فرعونها انقضى وغدا * يوسفها في الامور محتكما
 وانطعأت جمره الغواء وقد * باح من الشرك كلما اضطرسما
 وصار بمنال الصلاح ملتئما * بها وعقد السداد منتظما
 لما غدا معلنا شعار بني العباس حقا والباطل اكثما
 وبات داعي التوحيد منتصرا * ومن دعاء الاشراك منتقما
 وظل أهل الضلال في ظلمل * داجية من غيابة وعي
 وارباك الجاهلون في ظلم * لما أضاعت منابر العلم
 وعاد بالمسعى ممتدا * بناء حتى قد كان منهدما
 واعتلت الدولة التي اضطهدت * وانتصر الدين بعد ما اعتنما
 واهتز عطف الاسلام من جدل * واقتصر اليمان وابتنما
 واستبشرت أوجه الهدى فرحا * فليقرع الكفر سنه ندما
 عاديهم الاعضاء منتبها * حتى وفي الطفاة مقتسما
 قصور أهل القصور آخرها * عامر بيت من الكمال عيما
 ازيع بعد السكون ساكنها * وبات ذلا وانفسه رغما

ومن كتاب فاصلي عن السلطان صلاح الدين الى وزير بغداد علي بن الخطيب من الدين بن أبي المضا في بعض السنين (كتب الخادم هذه الخدمة من مستقر دوين الولاة مشروع وعلم الجهاد مرفوع وسودد السواد متبوع وحكم السداد بين الامة موضوع وسبب الفساد مقطوع بمنوع وقد نالت الفتوح عربا وعينا وشاما وصارت البلاد بل الدنيا والشهر بل الدهر حراما فاضحي الدين واحدنا كُن ادينا والخلافة اذا ذكرها اهل الخلاف لم يختر واعلموا الاصما وعيانا والبدعة خاسمه والجمعة جامعها والمذلة في شيع الضلال شاعه ذلك ما نهم اتخذوا عباد الله من دونه اولياء وهم اعداء الله اصفاء وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا وقرقوا أمر الامم وكان مجتمعها وكذبوا بالنار فجعلت لهم نار الختوف وثرت اقلام الظبا حروف رؤسهم نثر الاقلام للثروف ومنقروا كل عرق واخذ منهم كل مخنق وتقطع دايرهم وعظا ايهم غابهم ورعت انفهم ومنابرهم وحقت عليهم الكلمة تشريدا وقتلوا وتمت كلمات بك صدفا وعدلا وليس السيف عن سواهم من كفار الترفج بصائم ولا الليل عن سير المهم بتائم ولا خفاء عن المجلس الصاحي ان من شد عقد خلافه وحلى عقد خلاف وقام بدولة تعد باخرى قد عجز عنها الاخلاف والاسلاف فانه مفتقر الى أن يشكر مانصع ويقلد ما فتح وبلغ ما اقترح ويقدم حقه ولا يترج ويقرب مكانه وان نزع وثانية التشريرات الشريفة وتتواصل اليه امداد التقويات الحليمة اللطيفة وتبلي دعوتها اقام من دعوه وتوصل غزوته بما وصل من غزوه وترفع دونه المحجب المعترض وترسل اليه السحب المروضة فكل ذلك تعود عوائده وتبدو فوائده بالدولة التي كشف وجهه لنصرها وجرد سيفه لرفع منارها والقيام بأمرها وقد أقي البيوت من ابوابها وطلب النجعة من سحابها ووعدها ماله الواثقة بجواب كتابها وانقض لا يصال ملطقاته وتخبر تشريفاته خطيب الخطباء بمصر وهو الذي اختار له صعد درجة المنبر وقام الامر بقيام من بر واسنفق بباس السواد الاعظم الذي جمع الله عليه السواد الاعظم املا انه يعود اليه بما يطوى الرجاء فضل عقبه ويخلد الذكر في عقبه)

ولصاحبنا محمد الدين محمد بن الظهير الاربلي من قصيدة في مدح بعض ذرية السلطان رحمه الله تعالى

مكتاب (١٩٦) الروضين

ملك من القوم الذين رماهم * دعائم هذا الدين في كل مشهد
 هم نصر والتوحيد نصر أموزرا * به عزنى الآفاق كل موحد
 وهم قهر وأغلب الفرغ بآسهم * فدانوا لهم بالرغم لا عن تودد
 وردوا إلى البيت المقدس نوره * وقد كان في ليل من الشرك أسود
 وهم سهوا سبيل الحج وآمنوا * به الركب خوفا الكافر المتشدد
 وقد ركب فرسانه بحرايلة * يخوضون في بحر من الكيد مزبد
 وهم رجعو أمصر إلى دعوة الهدى * بعزم ورأى في العظام محمد
 وهم شيد وأركن الخلافة بالذى * أعادوه من حق طريف ومتلد
 وهم شرفوا قدر المنابر بأسمها * وذكر منوط بالرسول محمد
 وهم وهبوا عز المال وأكتفوا * بسم العوالي والعلاء المشيد
 فصل عن ظباهم يوم حطين كم قضت * بمرمى الله في كل أصيد
 وضعف حديث العدل والبأس والندى * إذا كان عن أيامهم غير مسند

وقال ابن طي الحلي قد قدمنا ذكر مكانة نور الدين والحاحه على صلاح الدين في أقامة الخطبة بمصر للعباسيين
 وأنه أنفذ إليه أباه الأمير نجم الدين أيوب لاجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد إلى نور الدين في ذلك ولما ولي ابنه
 المستنجد أقبل أيضا على مكانة نور الدين فيه وألح نور الدين على صلاح الدين في طلبه وأغضى به الأمر إلى أن انتهت
 صلاح الدين وسمع عاياه بسببه وأكرهه في ذلك ولما قدم الأمير نجم الدين حذاه على فعل ذلك فاعتذر إليه بأن
 أحواله لم تستقر بعد وأمره مضطرب وأعداه كثيرون وأن المصريين لهم جماعة كبيرة متمردة في بلاد مصر من
 السودان وغيرهم وأن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التدريج والافسدت أحواله فلما وقع السلطان الملك الناصر
 بالسودان والأمر ونكب أمر المصريين وقطع أخبارهم وترك أجناده في دورهم ثم قطع إقطاع العاضد وقبض
 جميع ما كان بيده من البلاد واستولى على القصور ووكل بها وبن فيها قراقوش الخادم ونحلت له بلاد مصر من معاند
 ومناذب ثم شرع وأبطل من الأذان حتى على خير العمل وانكر على من يتسم بذهبيهم والانتساب إليهم فلما رأى أموره
 موءتية وأعداه قليلون سرع حينئذ في الخطبة إلى العباس ولما عول على ذلك أمر والده الأمير نجم الدين بالزول
 إلى الجامع في جماعة من أصحابه وأمره ولته وذلك في أول جمعة من السنة وأمره أن يحضر الخطيب إليه ويأمره بما
 يختاره وأما فعل الملك الناصر ذلك ووكل الأمر إلى غيره استظهره وأخوفاه من فادحة رجا طارت وأعد دورا بما ناز
 فيكون هو معتذر من ذلك ولما حصل نجم الدين بالجامع حضر الخطيب وقال له أن ذكرت هذا المقيم بالقصر ضربت
 عنقك فقال لم أر أخطب قال للمستنجد العباسي فلما صعد المنبر وخطب ووصل إلى ذكر العاضد لم يذكر
 أحد السكنة دعا الأئمة المهديين والسلطان الملك الناصر ونزل فقيل له في ذلك فقال ما علمت اسم المستنجد ولا نعتيه
 ولا أتقرمعي في ذلك شيء قبل الجمعة وفي الجمعة الثانية أفعّل أن شاء الله ما يجب فعله في تحوير الاسم واللقاب على جاري
 العادة في مثل ذلك قال وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة قال لمن خذ قبيل لم يخطب
 لأحد معنى قال في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل معنى وأنتى أنه مات قبل الجمعة الثانية قيل أنه أفكر واستولى عليه
 الفكر وألهم حتى مات وقيل أنه لما سمع أنه قد تمت خطبته أهتم وقام ليدخل إلى داره فغمر وسطها فقام متعللا خمسة أيام
 ومات وقيل أنه امتص فص خاتمه وكان تحتة سم فمات ولما اتصل بموته بالملك الناصر قال لوعلم أنه يموت في هذه الجمعة
 ما غصصناه ورفع اسمه من الخطبة فبكى أن الفاضل الفاضل قال للسلطان لو علم أنكم ماتر فقول اسمه من الخطبة لم
 يمت أشار إلى أن العاضد قتل نفسه وكان موته يوم عاشوراء قال وحكى ابن المارستان في سيرة ابن هبيرة دالوزي قال
 أن من عجيب ما جرى في أمر المصريين أن رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمسة مائة كأن
 فريز أحد هبيرة أنور من الأسر والأزور منها مسامت للقبلة وله خمسة سوداء فها طول ويهب أدنى نسيم فيحترها وأثر
 حركتها وظلها في الأرض وكان الرجل يحب من ذلك وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤون بالحن وأصوات لم يسمع

في اخبار (١٩٧) الدولتين

قط مثلها وكأنه سأل بعض من حضر فقال ما هذا أقصا لو اقد استبدل الناس بامامهم قال وكان الرجل استقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله اماما براً اتقيا واستيقظ الرجل وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير اذ كان في بغداد فغير المنام بأن الامام الذي بمصر يستبدل به وتكون الدعوة لبني العباس لمكان الخليفة السوداء وقوى هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين الى مصر في أول مرة بأنه يظفر بمصر وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده وقيل في ذلك الزمان اشعار في هذا من اقصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن تركان وكان حاجب ابن هبيرة قالها حين سمع تأويله المنام

لثمنتك يا مولاي الانام بشارة * بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت بها هام الاعادي بهمة * تقاصر عنها السهرى المثقف
بعثت الى شرق البلاد وغربها * بعوثا من الاراء تحبي وتلف
فقامت مقام السيف والسيف قاطر * ونابت مناب الرمح والرمح رصف
وقدت لها جيشا من الروع هائل * الى كل قلب من عدائك يعرف
ملكته به أقصى المغارب عنوة * وكادت بمن فيها المشار ترصف
لينك يا مولاي فتحا تابعت * اليك به حوص الركائب توجف
أخذت به مصر او قد طال دونها * من الشرك ناس في لهي الحق تقذف
وقد نبت منها المنابر عصبية * يعاف التقي والدين منهم ويأنف
قطرهما من كل شرك وبدعة * أغر غرير بالمكارم يشغف
فعدت بحمد الله باسم امامنا * تنبه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو ان دانت لموسى مصره * وكانت الى علمائه تنشوق
تملكها من قبضة الكفر يوسف * وخلصها من عصية الرافض يوسف

قال يحيى بن أبي طي ريد يوسف الأول يوسف الصديق النبي صلى الله عليه وسلم ويوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذ وقال على سبيل الفال ألا زاه قال بعده هذا البيت

فشا به خلقا وخلقوا عفة * وكل عن الرحمن في الارض يخلف

وجرى الفال في البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لان المستجدمات قبل تغيير الخطبة لبني العباس وهذا من عجيب الاتفاق قلت وذكر ابن المارستاني في السيرة المذكورة وكان هذا المنام سببا الى ان كاتب الوزير ابن هبيرة نور الدين بن زنكي يحثه على التعرض لمصر والبعث اليها واتفق في أثناء ذلك نوبة شاور وزير صاحب القصر وقدمه هاربا منه الى نور الدين فترك ذلك لما كان تخمر في نفسه مما كان كاتبه به ابن هبيرة فاستطلع من شاور الاسباب التي يمكن بها الدخول على المصريين فشرحها وأوضحها فسير اليها أسد الدين كما سبق ذكره قال ولما قطعت خطبة العاضد استطلأ أهل السنة على الاسماعيلية وتبعوهم وأذلّوهم وصاروا لا يقدر على الظهور من دورهم وادوا جرد أحد من الأتراك مصر يأخذ ثيابه وعظمت الاذية بذلك وجلى أكثر أهل مصر عنها الى البلاد وفرح الناس بذلك وكتب الكتاب به الى الاقطار وتحدث به السمار ولما وصل خبر ذلك الى نور الدين نبى للبشارة الى بغداد شهاب الدين أبي المعالي المطور بن أبي عمرو وكتب معه نسخة بشارة بقرا بكل مدينة يمر بها يقول فيها (اصدرنا هذه المكتابة الى جميع البلاد الاسلامية عامة بافع الله على أيدينا تاجه وأوضح لنا مناجاه وهو ما اعتمدنا من اقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والاقطار والامصار المصرية والاسكندرية ومصر والشاهرة وسائر اطراف الدانسة والقاصية والبادية والحاضرة وانهت الى القريب والبعيد والى قوص وأسوان بأقصى الصعيد وهذا شرف لنا انما هذا وأهله نفخر به على الازمنة التي مضت من قبله ومارحت همنا الى مصر مصره وعلى افتتاحها موقوفه وعزائنا في اقامة الدعوة الهادية بهلما ضيه والا قدر في الأزل بقضاء أرائنا وتجنيز مواعيدنا فاضيه حتى نظرنها بعد بأس الملوك منها وقد رنا عليها وقد تجزعا عنها وظلما مررت عليها الحقب

كتاب (١٩٨) الروضتين

الخوالى وآبث دونها الايام والاليالى وبقيت ماثبتين وثمانين سنة ممتدة بدعوة المبطلين مملوءة بحزب الشياطين سافرة
 فلالها للضلال مقفرة المحل الامم المحال مقفرة الى نصرته من الله يملكها ونظرة سترتها رافعة يدها في أشكاتها
 متظنة اليه ليكفل باعدائها على أعدائها حتى أذن الله لفتحها بالانفراج ولعلمها بالعلاج وسبب قصد الفرج لها
 وتوجههم اليها طامع في الاستيلاء عليها واجتمعوا أن الكفر والبدعة وكلاهما شديدا لروعه فذكر الله تلك
 البلاد ومكانها في الارض او قدرنا على ما كنا نؤمل في ازالة الاحاد والرفض من امامة القرض وتقدمنا الى
 من استنباه ان يستفتح باب السعادة ويستخرج باب الماناس الارادة ويقوم الدعوة الهادية العباسية ههناك ويورد
 الادعاء ودعاة الاحاد بها المهالك وهو كتاب طويل اختصرت منه القرض وهو هذا حال وسائر شهاب الدين بن أبي
 عصرون الى جهة بعد ادولم ترك مدسة الادخلها بهذه البشارة الجلية القدر وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر
 والذكر حتى وصل الى بغداد فخرج الموكب الى تلقيه وجميع أهل بغداد مكرمين لحظير وروده معظمين لجليل موروده
 ونزت عليه دنانير الانعام وجي بكل احسان واکرام وأرسلت التشر بقات الى نور الدين وصلاح الدين كما سيأتي
 ذكره وقال العماد كان صلاح الدين لا يخرج عن أمر نور الدين ويعمل له في القوى الامين ويرجع في جميع
 مصالحه الى رأي المتين وقد كان كتيبه نور الدين في شوال سنة ست وستين بتغير الخطية وتذليل أمورها الصعبة
 واقتراع بكرة هذه القضية وفرع الرتبة وأبقى ان أمره متبوع وقوله مشهور وحكمه مشهور ونطق بذلك قبل التمام
 أسن الخواص والعوام فسير نور الدين شهاب الدين أبي المعالي المطهر ابن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه
 البشارة واساعة ما تقدم له بهما من الاشاعة وأمر في بانشاء بشارة عامة تقرأ في سائر بلاد الاسلام وبشارة خاصة
 للديوان العزيز بحضرة الامام في مدينة السلام ثم ذكر نسخة الكتابين ونظامت قصيدة مسجلة على الخطبة بمصر أولها

قد خطبنا المستضي بمصر * نائب المصطفى امام العصر

وخذ لنا نصرة العبد العاصد والقاصر الذي بالقصر

أراد بالعضد وزير بغداد عهده الدين بن رئيس الرؤساء والعماد في كتاب الخريدة قصدت بالعضد والعاخذ
 المجانسة ونصرة وزير الحليفة كصرت ثم قال

وأشعنا به اشعار بنى العبد اس فاستبشرت وجوه النصر

وتركنا الدعوى بدعو ثبورا * وهو بالند تحت حجر وحصر

وتباهت منابر الدين بالخطبة لله اسمي في أرض مصر

ولدينا تضاعفت نعم الله وجلت عن كل عدو حصر

فما غدتى الدين ثابت الركن في مصر محط الجي مصون الثغر

واستنارت عزائم الملك العا * دل نور الدين الكريم الاغر

وبنو الاصفر القوامص منه * بوجوه من المخافة صفر

عرف الحق أهل مصر وكانوا * قبله بين منكر ومقر

قل لداي الدعوى حسبك والاله اقتر الحقوق خير مقر

هو فجع بكرون البرايا * خصنا الله بافتراع البكر

وحصلنا بالجد والاجروا النص * وطيب التناوحسن الذكر

ونشرنا أعلامنا السود قهرا * للعدى الرزق بالمنايا الجمر

واستعدنا من ادعاء حقوقا * بدعى بينهم لم يذوعر

والذي يدعى الامامة بالاهر * فالحط في حضيض القهر

خاناه الدهر في مناه ولا يظ * مع ذواللب في وفاء الدهر

ما يقام الامام الابحقي * ما تحاز الحسنة الابهر

خلفاء الهدى سراف بنى العباس والطيبون أهل الطهر

في اخبار (١٩٩) الدولتين

بسم الدين ظافر مستقيم * ظاهر قوة قسوى الظهور
 { } { } { } شموس النخعي كسل بدور الستم كالسحب كالنجوم الزهر
 قد بلغنا بالصبر كل مراد * وبلوغ المراد عني الصبر
 { ليس مثرى الرجال من ملك الما * لولنا أحوال مثرى
 ولهذا لم يتفجع صاحب القصر وقد شارف الدثور بدثر
 دام نصر الهدى بملك بنى العباس حتى يقوم يوم الحشر

بالعماد في ديوانه ونقلته من خطه قال ووصل الخبر ان الخطبة قامت في الاسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان وفي مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشر شهر رمضان مولانا الامام المصطفى بأمر الله أمير المؤمنين واقامه شعار بنى العباس بها فقلت ونحس نزول بحسب الخشب من دمشق في عاشر شوال هكذا كتبها الى بغداد فذكر هذه القصيدة وقال في البرق يوصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين بن حنبل وشوم أكار بالخدم المقتوية من ذوى الروية والهمة لقويه وتولى استاذية الدار العزيزة بعد عزل كمال الدين عضد الدين عن أفا كرم نور الدين بارسال مشك اليه وعول في هذا الامر المهم عليه وهو أكرم رسول وصل فانجح الامل وجاء بالتشريف الشريف نور الدين مكمل معظمها مجلا باخيته لسوداء العراقيه وحلله الموشيه وطوقه التبتيل ولوائه الجليل وعين يوم يحضر في الرسول ونصوا على من يحضر في مجلس نور الدين واغفلوا ذكر العماد فطلبه نور الدين لما حضر واقام لقيام الرسل له لما حضر وقصد ان يعرفهم منزله عنده وناوله الكتاب ليقرأه قال فتناوله معنى الموفق بن القيسر اني خالو كان عنده في مقام الوزير وله انساب زائد ندرارته وما ماريته وفكرته يقرأ أنار دعليه وأرشده في التلاوة الى ما لا يمتدى اليه حتى انهاء وأنا على اقيانه على أنهاء فأعجب نور الدين صحتي وسعتي وأحمدني فضل النأي والتأي واجتباب الالهية وليس الفرجة فوقها وتقلد مع تقلد السيفين طوقها وخرج وركب من داخل القلعة وهو حال باعليه من الحله واللاء مشهور والنصار من نور المركان الشريفان أحدهما موكبه والاخر عليه مجنوبه قال وسأت عن معنى تقليده السيفين فقيل لي هما للسام بمصر وللجمع له بين السلاطين وخرج الى ظاهر دمشق حتى انتهى الى منتهى الميدان الاخصر ثم عاد شرف المخمر جميل المنظر جليل المحضر حميد الخبر سعيد المورد والمصدر لبيبا بالاعظمة السرى والمتميز وكان وزن الطوق مع كرتة ألف دينار من الذهب الاحمر وجعلوا لصلاح الدين تسريفا فاضلا فائقا رائعا رائعا لجماله وكاله لا تقا لكن تشريف نور الدين أميرنا أفضل وأجل واكمل فسير تشريفه برمته اليه بمصر ليحظى به وسير ايضا يجتمع من عنده يكرم بها اصحابه وصلت تلك الخلعة اليه ولبسها وأنس من السعادة فاندأتمه بقبسها وطاف بها في الحادى والعشرين من رجب وهي ولأهبة عباسيه دخلت الديار المصريه يعنى بعد استيلاء بنى عبيد عليا قال وكانت وصلت مع الرسل اعلام وينود رايات سود واهب عباسيه للخطباء في الديار المصريه فسبغت الى صلاح الدين ففرقها على المساجد والجموع الخطباء والنضاة والعلماء والجند على مائتهم وأولى ووهب وأعطى قال ابن أبى الحى ولما فرغ السلطان من أمر المدينة مر بالقض على القصور وجميع ما فيها من مال وذخائر وقرش وسلاح وغير ذلك فلو بوجده من المال كبير أمر لان سادور كان قد ضيعه في اعطائه الفرنج في المرات التي قد منادى بها ووجد فيه ذخائر جليله من ملابس وقرش وخيول وخيام وكثر وجواهر ومن عجيب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله سبروكسره وقطعة واحدة وكان سميت بحججه مقدار الابهام ووجد فيه طيل للقولنج ووجد فيه ابريق عظيم من الحجر المانع ووجد فيه سبع مائة بيعة من الجواهر فأما قضيب الزمرد فان السلطان أخذوه وأحضر صانعها ليقطعه فأبى الصانع قطعه فرماه السلطان فاقطع ثلاث قطع وفرقه السلطان على نسائه وأما طيل القولنج فانه وقع الى بعض الأكراد فلم يدر ما دوف كسره لانه ضرب به فخرق وأما الأبريق فانه فقه السلطان الى بغداد واحتاط السلطان على أهل العاصيه وأولاده في موضع في خارج القصر جعله برسمهم على الافراد وقرر لهم ما يكفهم وجعل أمرهم الى قراقوش الخادم وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع الى انقراضهم واستعرض من بالقصر من الجوارى والعبيد والعذرة والطريق والتلبد فأطلق من كان منهم حرا وأعتق من رأى اعتاقه ووهب من أراد هبته وفرق على الامراء والاصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئا كثيرا

كتاب (٢٠٠) الروضين

وحصل هو على الثمن وقطع الجملحش والياقوت وقضيب الزمرد وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق فأقام البيع بالقصر مدة عشر سنين قال ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري ويقال إنها كانت تحتوى على ألف كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة شيء كثير وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير حيث شغف بحبها وذلك أنه دخل اليها واعتبرها فكل كتاب صلح له قطع جاده ورماه في بركة كانت هناك فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألفها في البركة على أنها مخزومات ثم جمعها بعد ذلك ومنها حصل ما حصل من الكتب كذا أخبرني جماعة من المصريين منهم الامير شمس الخلافة موسى بن محمد واقسم الناس بعد ذلك دور القصر وأعطى السلطان القصر الشمالي للامراء فسكنوه وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة وهو قصر عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري ونقل الملك العادل الى مكان آخر منه وأخذ باقي الامراء مكان دور من كان ينتمي اليهم وزاد الامر حتى صار كل من استحسن دارا اخرج منها صاحبها وسكنها وانقضت تلك الدولة برمتها وذهبت تلك الايام بجمعتها بعد ان كانوا قد احتوا على البلاد واستخدموا العبيد مائتين وثمانين سنة وكسورا قال وحكي ان الشريف الجليش وهو رجل كان قريبا من العاضد يجلس معه ويحدثه على دعوة لنفس الدولة بن أيوب أخى السلطان بعد القبض على القصور وأخذ ما فيها وانقرض دوائهم وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة ما لا كثير أو حضرها أيضا جماعة من أكابر الامراء فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف حدثني ما عجيب ما شاهدته من أمر القوم قال نعم طلبني العاضد يوما وجماعة من الندماء فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم اقبية مثل اقبيةكم وقلانس كقلانسكم وفي أوساطهم مناطق كمنطقكم فقلنا له يا أمير المؤمنين ما هذا الذي مارأنا قط فقال هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا وذخائرها قال العماد وأخذت ذخائر القصر فقصتها كما سبق ثم قال ومن جملتها الكتب فاني أخذت منها جملة في سنة اثنتين وسبعين وكانت خزائنها مستقلة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة مؤبده من العهد القديم بخلافه وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الابدى واقتطعه التعدي وكانت كالبراث مع أمناء الايتام يتصرف فيها بشرة الانتباه والاتهام ونقلتها ثمانية احوال الى الشام وتقام الخواص بدور القصر وقصوره وشرع كل من سكن في تخريب معوره وانتقل اليه الملك العادل سيف الدين المناب عن أخيه واستمرت سكناه فيه وخطب لاما من المستضي في قوص واسوان والصعيد والقاضي والداني واقرب والبعيد وشاعت البشائر وذاعت المفائير وسار بها البادي والحاضر وتملك السلطان أملاك أسياعهم وضرب الاواح على دورهم ورباعهم ثم املكها امراءه وخص بها أوليائه وباع أما كس وذهب مساكين وعنى الاثار القديمة واستأنف السنن الكريمة وقال ابن الاثير لما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد وذهب أهله وأمرأه وباع منه كثيرا وكان فيه من الجواهر والاعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوكة قد جمع على طول السنين وعمر الدهور فخره القضيبي الزمرد طوله نحو قبضة ونصف والجبل الياقوت وغيرهما من الكتب المنخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد

(فصل) ولما خطب بالديار المصرية لبني العباس ومات العاضد انقضت تلك الدولة وزالت عن الاسلام بمصر بانقراضها الله واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه وكلامهم من قبل نور الدين رحمه الله هم أمرأه وخدمه وأصحابه وفيهم يقول العرقلة

أصبح الملك بعد آل على * مشرقا بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقبو * مومصر ترز هو على بفذاذ
ماحووها الا بحزم وعزم * وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا ككفرعون والعزير ومن كا * ن بها كالحصيب والاستاذ

يعنى بالاستاذ كافور الاخشيدي وقوله بعد ال على يعنى بذلك بنى عبيد المستغلقين بها أظهر والناس انهم شرفاء فاطميون

في أخبار (٢٠١) الدولتين

فاطميون فلكوا البلاد وقهر والعباد وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء انهم لم يكونوا ذلك أهلا ولا نسبهم صحيحا بل المعروف انهم بنو عبيد وكان والد عبيد هذا من نسل القذاح المجدح المجوسي وقبل كان والد عبيد هذا يهوديا من أهل سلمية من بلاد الشام وكان حدثا ذا وعيد هذا كان اسمه سعيدا فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله وزعم انه علوي فاطمي وأدعى نسب الدليس يصحح لم يذكره أحد من مصنفى الانساب العلوية بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه وهو ما قد منذ ذكره ثم ترقب به الحال الى أن ملك وتسمى بالمهدى وبني المهدي بالمغرب ونسبت اليه وكان زنديقا خبيثا عدوا للاسلام متظاهرا بالتشيع مستترا به يصاعلي ازاله الله الاسلام قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة وكان قصده اعدامهم من الوجود لتبني العالم كذبا ثم فيمكن من افساد عقائدهم وضلالتهم والله متم نوره ولو كره الكافرون ونشأت ذريته على ذلك منظورين يجهرون به اذا أمكنتهم الفرصة والا أسروا والدعاة لهم منبثون في البلاد بضلون من أمكنهم اضلاله من العباد وبني هذا البلاء على الاسلام من أول دولتهم الى آخرها وذلك من ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين الى سنة سبع وستين وخمسمائة وفي أيامهم كثرت الرافضة واستحكمت أمرهم ووضعوا المكوس على الناس واقتدى بهم غيرهم وفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بشغور الشام كالنصيرية والدرزية والحشوية ونوع منهم وعكس رعايتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتكلموا من غيرهم وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة الى أن من الله على المسلمين بظهور البيت الانبيكي وتقدمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزادوا هذه الدولة على ارباب العباد وكانوا أربعة عشر مستخلفا ثلاثة منهم بافرقية وهم الملقبون بالمهدى والقائم والمنصور واحد عشر بمصر وهم الملقبون بالمعز والعزير والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والآخر والحاظ والظاهر والفائز والعاضد يدعون الشرف ونسبتهم الى المجوسي أو يهودى حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام فصاروا يقولون الدولة العاطمية والدولة العلوية وانما هي الدولة المجوسية أو اليهودية الباطنية المخذوعة من قبايحهم انهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر ويكتبونه على جدران المساجد وغيرها وخطب عبيدهم جوهر الذي أخذ لهم الديار المصرية وبني لهم القاهرة المعزية بنفسه خطبة طويلة قال فيها (اللهم صل على عبدك واليكثرة النبوة وسليل العترة الحادية المهديية معد أبي عيسى الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين كاصلت على آباءه الطاهرين وسلمته لانتخبين الائمة الراشدين) كذب عدو الله اللعين فلا خير فيه ولا في سلفه أجمعين ولا في ذريته الباقين والعترة النبوية الطاهرة منهم بمجزل رحمة الله عليهم وعلى أمثالهم من الصدر الاول وقد بين نسبهم هذا ووضح بحالهم وما كانوا عليه من التقوية وعداوة الاسلام جماعة من سلف من الائمة والعلماء وكل متورع منهم لا يسميهم الا بنى عبيد الادعية اذ يدعون من النسب بما ليس لهم ورحمة الله على القاضي أبي بكر محمد بن الطيب فانه كشف في أول كتابه المسمى بكشف أسرار الباطنية عن بطلان نسب هؤلاء الى علي رضي الله عنه وان القذاح الذي انتسبوا اليه دعى من الادعياء مغرق كذاب وهو أصل دعاة القرامطة لعنهم الله وأما القاضي عبد الجبار البصري فانه استقصى الكلام في أصولها وبينها ما يشافيا في آخر كتاب تثبيت النبوة له وقد نقلت كلامه ما في ذلك وكلام غيرهما في مختصر تاريخ دمشق في ترجمة عبيد الرحيم بن الياس وهو من تلك الطائفة الذين هم بنس الناس وهذا امامان كبيران من أئمة اصول دين الاسلام وأظهر عبد الجبار القاضي في كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفرات التي بقفت الشرع عند استماعها ولكن لا بد من ذكر شيء من ذلك تنفير المن له ليعتقدا ما منهم وبخفي عنه محالهم ولم يعلم قبايحهم ومكابرهم ولعذر من ازال دولتهم وأما بدعتهم وقل عذتهم وأقضى أمتهم وأطفا جرتهم ذكر عبد الجبار ان الملقب بالمهدى لعنه الله كان يتخذ الجبال ويسلطهم على أهل الفضل وكان يرسل الى الفقهاء والعلماء فيدعهم في فرشهم وأرسل الى الروم ولسلطهم على المسلمين وأكثرت الجور واستهفاء الاموال وقتل الرجال وكان له دعاة يضلون الناس على قدر طبقاتهم فيقولون لبعضهم (هو المهدى بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجة الله على خلقه) ويقولون لآخرين (هو رسول الله وحجة الله) ويقولون لآخرى (هو الله الخالق الزاقي) لا اله الا الله وحده لا شريك له تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم مقامه وزاد شره على شرايسه اضغاثا

كتاب (٢٠٢) الروستين

مضاعفة وجاهر بشت الانبياء فكان ينادى في أسواق المهديّة وغيرها (ألعنوا عائشة وبعلمها ألعنوا الفاروماحوى) اللهم صل على نبيك وأصحابه وأزواجه الظاهرين والعن هؤلاء الكفرة النجسة المحدين وارحم من أزالهم وكان سبب قلعهم ومن جرى على يديه تفرق جمعهم وأصلهم سعييرا ولقهم ثبورا وأسكنهم النار جعما واجعلهم من قلت فهم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (رجعنا الى الأصل) وبعث الى أبي طاهر القرمطى المقيم بالبحرين وحشه على قتل المسلمين واحراق المساجد والمصاحف وقام بعده ابنه المسمى بالنصور فقتل أبا يزيد مخذلا الذي خرج على أبيه ينكر عليه فقبض فعله المقدم كره وسلطه وصلبه واشتغل بأهل الجبال يقتلهم ويشردهم خوفا من أن يشور عليه نأثر مثل أبي يزيد وقام بعده ابنه الملقب بالمعز فبث دعائه فكانوا يقرءون هو المهدى الذي ملك الارض وهو الشمس التي تطلع من مغربها وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الزوم بلادهم وأحجب عن الناس أياما ثم ظهر وأوهم أن الله رفعه اليه وأنه كان غائبا في السماء وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها اليه جواسيس له فامتلات قلوب العامة والجهال منه وهذا أول خلف خلفائهم عصر وهو الذي تنسب اليه القاهرة المعزية واستمدى ببقية الشام أبي بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملي ويعرف بابن النابلسي فحمل اليه في قفص خشب فأمر بسلطه فسلخ جوارحه وحشي جلدته بتنا وصلب رحمه الله تعالى قال أبو ذر الهروي سمعت أبا الحسن الدارقطني يذكره ويبيكي ويقول كان يقول وهو يسلم كان ذلك في الكتاب مسطورا قلت وفي أيام الملقب بالحاج كم منهم أمر بكتيب سب الصحابة رضي الله عنهم على حيطان الجوامع والقياسر والشوارع والطرقات وكتب السجلات الى سائر الاعمال بالسب ثم أمر بقلع ذلك وأمر أنه مقلوعا في بعض أبواب دمشق في الامكئة العليا من قورا في البحر وداني اول الكلام وأخبر على ذلك ثم جدد ذلك السباب وأزيل الحجر وفي أيامه طوف بدمشق برجل مغربي ونودي عليه هذا جزاء من يحب أبابكر وعمر ثم ضربت عنقه وكان يجري في أيامهم من نحو هذا أشياء مثل قطع لسان أبي القاسم الواسطي أحد الصالحين وكان أذن بيت المقدس وقال في أذانه على في الفلاح فأخذ وقطع لسانه ذلك وما قبله من قتل المغربي وأبى بكر النابلسي الحافظ أنوال القاسم في تاريخه وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين الا محنة من الله تعالى ولهذا طالبت مذهبهم مع قلة عدتهم فان عدتهم عدت خلفاء بني أمية أربعة عشر وأولئك بقوا ينافوا وتسعين سنة وهو لا بقوا مائة سنة وثمانينا وسنتين سنة فالجند لله على ما يسره من هلكهم وابدأ قتلهم ورضي الله عن سعي في ذلك وأزالهم ورحم من بين خمرتهم وكذبهم ومخالهم وتكذف أيضا حالهم الامام أنوال القاسم عبد الرحمن بن علي بن نصر الشاسي في كتاب الرد على الباطنية وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش في أيام زاروما بعده ووصل الامر الى ان وصف بعضهم ما كانوا فيه في قصيدة سماها الايضاح عن دعوة القذاح أولها

حي على مصر الى خلع الرسن * فم تعطيل فروض وسن

وقال لو وفق ملوك الاسلام لصرفوا أعتة الخبل الى مصر لغزو الباطنية الملاعين فانهم من شر أعداء دين الاسلام وقد خرجت من هذا المذاهقين الى حد الجاهل من لما ظهر في الكمال الاسلام من كفرها وفسادها وتعين على الكافة فرض جهادها وضررها ولا أشد على الاسلام وأهلها من ضر الكفار اذا لم يقم بجهادها أحد الى هذه العاية مع العلم بعظيم ضررها وفسادها في الارض قلت ثم ان لم يقنعني هذا من بيان أحوالهم فأفردت كتابا لذلك سميته كشف ما كان عليه بنوعيد من الكفر والكذب والمنكر والأكيد فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به فاني بتوفيق الله تعالى جمعت فيه ما ذكره هؤلاء الاثمة المصنفون وغيرهم ووقفت على كتاب كبير صنفه الشريف الهاشمي رحمه الله وكان في أيام الملقب بالعزيز ناني خلفاء مصر فينبه أحوالهم اتم بيان وأوضح كيفية ظهورهم وغلبيتهم على البلاد وتبعية كرفضائهم وما كان يصدر منهم من انواع الزندقة والفسق والخرفة فقلت منه الى ما كتبت جمعته قطعة كبيرة وبالله التوفيق وما أحسن ما قال فيه بعض من مدح بني أيوب بقصيدة منها

أستم مزبلى دولة الكفر من بني * عبيد بصران هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية * مجوس وماني الصالحين لهم أهل
يسرون ككفرنا ظهورن تشيعا * ليستروا شينا وعهم الجاهل

اما فعله هؤلاء من الانتساب الى علي بن ابي طالب عليه والتسبب بالتشيع قد فعله جماعة القرامطة وصاحب الزنج وخارج البصرة وغيرهم من المغسدين في الارض على ما عرف من سيرهم من وقف على اخبار الناس وكلامهم كذبة في ذلك وانما غرضهم التقرب الى العوام والجهال واستباحتهم لهم واستجلابهم الى دعوتهم بذلك البلاء ويقول الله ما يشاء ولا يغتر بايات الشريك الرضى في ذلك فقد حصل اليه واب عن في ذاب الكشف بوجه حسنة وبالله التوفيق وقد صنف الشريف العابد المديني رحمه الله كتابا في بطلان نسبهم الى علي بن ابي طالب رضي الله عنه وفضل ذلك بقصدا حسنا وأطنب في ذكر اخبار اخوانهم من القرامطة لعنهم الله تعالى

(فصل) في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة قال ابن شداد واستمرت الفواعل على الاستقامة وصلاح الدين كلما استولى على خزائن مال وهبها وكلما فتح لخزان ملك انهبها ولا يفي لنفسه شيئا وشرع في التآهب للفرقة وقصد بلاد العدو وتعبية الامر لذلك وتقرر رعاؤه وأما نور الدين فاندعزم على الفرقة واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه فوصل بالعساكر الى خدمته وكانت غزوة عرافا أخذها نور الدين ومعه ابن أخيه في المحرم سنة سبع وستين وقال ابن أبي طي جمع نور الدين عساكره وخرج الى عرفة ونازلها وفاتلها أيلما حتى فتحها واحتوى على جميع ما فيها وغنم الناس غنية عظيمة قال ابن الأثير خرجت مراكب من مصر الى الشام فأخذ الفرنج في الاذقة من كمين منها ملوطين من الامتعة والتجار وغدروا المسلمين وكان نور الدين قد هادنهم فنبكوا فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه وراسل الفرنج في ذلك وأمرهم باعدا أخذوه فغالطوه واحتجوا بأموالهم ان المركبين كانوا قد دخلوها ما بالبحر كسر فيها وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء كانوا كاذبين فلم يقبل مغالطتهم وكان رضي الله عنه لا يعمل أمرا من أمور رعيته فلم يردوا شيئا فجمع العساكر من الشام والموصل والحجاز ووثب السرايا في بلادهم بعضهم نحو انطاكية وبعضهم نحو طرابلس وحصره وحصن عرفة واخبر بضره وارسل طائفة من العسكر الى حصني صافيتا عرصة فأخذها عنوة وكذلك غيرها ونهب وخرب وغنم المساكين الكثير وعادوا اليه وهو بعرفة فسار في العساكر جميعها الى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب وأما الذين ساروا الى انطاكية فانهم فعلوا في ولايتهم ما فعل من النهب والحريق والتخريب لولاية طرابلس فراسلهم الفرنج وبدلوا عاداتهم أخذوه من المركبين وبيعتهم مع الهدنة فاجابهم وكانوا في ذلك كما يقال اليهودي لا يعطي الجزية حتى يذلهم فذلك العرف نعم ما عادوا أموال التجار التي هي أحسن فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها قال وكان لوالدي في المركبين بحارة مع شخصين فلما عادوا الى الناس أموالهم لم يصل الى كل انسان الا ليدروا وكان يحمل المتاع فكل من كان اسمه عليه أو على ثوب أخذه وكان في الناس من يأخذ ما ليس له وكان أحد هذين المضارين فيه أمانة وكان نصرانا فزادوا على ما عليه اسمه وعلامته فذهب من ماله ومالهنا شيء كثير بهذا السبب وكان الذي حصل من مالنا كثر من الذي حصل له فلما عاد اليه اننا الى والدي فامتنع من أخذه وقال خذ أنت الجميع فأتى أحوالهم وأبى غنى عنه فلم يفعل فقال خذ النصف وأنا النصف واحتديه والذي فلم يفعل فلما كان بعض الأيام وإذا قد جاء الغلام ودهه عذبة من الثوب السوسية وغيرها وقال هذا من قاشنا قد حضر اليوم وسبب حضوره اننا قد قاسنا عيما من أهل تبريز كان معاني المركب وقد عادوا عليه ماله فرأى هذه الاثواب وأسما عليها فلم يسأل عنه ان ردها يعني عليهم وسأل عنى وقد تصدني وهي معي وحضر عندي الساعة وسلمها الي وقال قد تركت طريق تبريز فأتيت فأتيت فأخذنا نحن ما عليه انما بعد الجهد وطلب والذي الرجل وسألته ان يقوم عندنا ليسلم اليه ما لا تخبر فيه فلم يفعل وعاد الى بلده قال وهذا الرجل ان يدارن في هذا الزمان

(فصل) في عزم نور الدين على الدخول الى مصر قال العماد وكان صلاح الدين واعد نور الدين ان يجتمعوا على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك فخرج من القاهرة في الثاني والعشرين من المحرم بالغرم الاجزم والراي الاجزم فاتفقوا لاجتماع عائق ولم يقدر لاتفاق قدر موافق فلق في تلك السفرة شدة وعدم خيالها وظهور وعده وعاد الى القاهرة في النصف من ربيع الاول قال ابن الأثير وفي سنة سبع وستين أيضا جري ما أوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين وكان الحادث ان نور الدين أرسل الى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسيرة بها الى بلاد الفرنج والتزول على الكرك ومحاصرة ليجتمع هو أيضا عساكره ويسير اليه ويجتمعها هناك على حرب الفرنج

والاستيلاء على بلادهم فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم وكتب الى نور الدين يعترف ان رحيله لا يتأخر وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز وأقام ينتظرو رودة الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكرك فوصل اليه وأقام ينتظر وصول صلاح الدين اليه فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد اليها فلم يقبل نور الدين عذره وكان سبب تقاعده ان أصحابه وخواصه خافوه من الاجتماع بنور الدين في حيث لم يمثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده رجزه على الدخول الى مصر واخراج صلاح الدين عنها فبلغ الخبر الى صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده نجسم الدين وخاله شهاب الدين الحارثي ومعهم سائر الامراء واعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشئ فقام ابن أخيه تقي الدين عمر وقال اذا جافنا فالتناهد وصدناه عن البلاد ووافقه غيره من أهله فشقمتهم نجسم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وكان ذا رأي ومكر وكيد وعقل وقال لتقي الدين اقم دوسه وقال لصلاح الدين أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك أنظرن في هؤلاء كما هم من محبكم ويريدك الخير مثلنا فقال لا فقال نجسم الدين والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لا يمكننا الا ان نترجل اليه ونقبيل الارض بين يديه ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لقلعنا اذا كنا نحن هكذا كيف يكون غيرنا وكل من ترأه من الامراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يقاسر على الثبات على سرجه ولا وسعته الا التزول وتقبيل الارض بين يديه وهذه البلاد له وقد أقامك فيها فان أراد عزلك فأي حاجة اليه الى الجي يا مراك بككتاب مع نجيب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريه وقال للجماعة كلهم قوموا عنا نحن بمالك نور الدين وعبيده ويقبل بنا ما يريد ففرقوا على ذلك واكتب أكثرهم الى نور الدين بالخبر ولما خلا نجسم الدين أيوب بانه صلاح الدين قال له أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما في نفسك اذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الامور اليه وأولاه بالصد ولو قصدك لم نرمعك من هذا العسكر أحد او كانوا أسلوك اليه وأما الآن بعد هذا المجلس فكيف يكون اليه ويعرفونه قولي وتكتب أنت اليه وترسل في هذا المعنى وتقول أي حاجة الى قصدي يجي بنجيب يأخذني بحبل يضعه في عنقي فهو اداسمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده والا يام ندرج والله كل وقت في شأن ففعل صلاح الدين ما أشار به والده فلما رأى نور الدين رجه الله الامر هكذا عدل عن قصده وكان الامر كما قال نجسم الدين نوى نور الدين ولم يقصده ولا أزاله وكان هذا من أحسن الاراء وأجودها

(فصل ١٠) في الحام فال ابن الأثير وفي سنة سبع وستين أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحام الهوادي وهي المناسيب التي تظير من البلاد البعيدة الى أوكارها فاختذ في سائر بلاده وكان سبب ذلك انه انسعت بلاده وطالت مملكته فكانت من حد النوبة الى باب هذان لا يتخللها سوى بلاد الفرنج وكان الفرنج لهم اليد بماناز لو ابعض الثغور فالى ان يصله الخبر ويسير اليهم يكرنون قلبه فوابعض الغرض حينئذ أمر بذلك وكتب به الى سائر بلاده وأجرى الجرايات لها وليريهافو جدها راحة كبيرة كانت الاخبار تأتيه لوقتها لانه كان له في كل نفر رجال من تبتون ومعهم من حجام المدينة التي تحاورهم فاذا رأوا أو سمعوا أمر اكتبوه لونه وعلقوه على الطائر وسرحوه الى المدينة التي هو منها في ساعته فتقبيل الرقعة من طائر الى طائر آخر من البلد الذي يحاورهم في الجهة التي فيها نور الدين وهكذا الى ان فصل الاخبار اليه فانحفظت الثغور بذلك حتى ان طائفة من الفرنج نازلوا لقتاله فأتاه الخبر ومعه فكتب الى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع واسير بسرعة وكبس العدو ففعلوا ذلك فظفروا والفرنج قد آمنوا لبعث نور الدين عنهم فرحم الله نور الدين ورضي عنه فما كان أحسن نظراً لرعايا البلاد وقال العماد وكان نور الدين لا يقيم في المدينة أيام الربيع والصيف لمحافظة على الثغور وناما من الحيف ليجي البلاد من العدو بالسيف وهو مدق الى أخبار مصر وأحوالها وتحقيق اعتدالها تحقيق اعتدالها فأتى اتخاذ الحام المناسيب وتدرجها على الطيران ليعمل اليه الكتب أخبار البلدان وتقدم الى بكتب منشور لا رابها و اعزاز أصحابها وهو حينئذ يظا هر دمشق بحمى بوادي اللون ونحن مستظفرون في ذلك الا وان عادون على أهل العدوان وذلك في سابع عشر ذي القعدة من السنة ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحام فقال (هي برائد الانبياء المخصوصات بفضيلة الالهام والايحاء وهي فيوج الرسائل

في اختصار (٢٠٥) الدولتين

المأمونة الإبطاء والساعات المخرج في الاهتداء والحاملات ملطقات الاسرار في أقرب مدة الى أبعد غايه والموصلات مهمات الاخبار في وقتها من أفاضى الامصار بأكل هدايه والقاطعات في ساعته الى السلاذ أجوار الغفار والمواحي والنافذات بنجيج المرام بعود السهام الى المرامي وهي تطوى الفراخ البعيدة والاشواط في ساعه وتنتهى الى أقصى عنايات الطاعة بأنم استطاعه وقدعهم بانفع المراتبين والغزاة والمجاهدين في سبيل الله في اهدهاء أخبار الكفرة اليهم من أمانتها دالة على مكايدها ومكائدها طائفة بكتبهم الى من وراءهم من الطلائع والسر يا مظهر لهم من أحوالها خبايا الامور الخفايا وانهم الميمونة المطار مأمونة العشار سالمه على الاخطار مهديه في الاسفار امينة على الاسرار سابقة الى الاوكار صادرة بالاطوار من الاقطار سائرة الى المؤمنين بنبا الكفار قلت وكل هذه اوصاف حسنه وعبارات مستحسنه وقد بلغني عن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى انه وصفها بالطف من هذه الاوصاف واخصر فقال (الطيور ملائكة الملوك) يشير الى ان زولها على الملوك من جواهر الزول الملائكة على الانبياء عليهم السلام من السماء مع فرط ما فيهم من الامانة لا يتوهم من جهتها خيانة فلقد أحسن فيما وصف وأبدع فيما استنبط وأنصف وهو بذلك أولى وأعرف برحم الله الجميع

في فضل وفي باقي حوادث هذه السنة قرأت نسخة من سجل باسقاط المكوس عصر قرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمسمائة عن السلطان الملك الناصر في أيام نور الدين رحمه الله فهو كان الأمر وذلك المباشر يقول فيه (أما بعد) فأتناحمد الله سبحانه على ما مكن لنا في الارض وحسنه عندنا من أداء كل نافلة وفرض ونسبنا له من ازالة النصب عن عياده واختارنا له من الجهاد في الله حق جهاده وزهدنا فيه من متاع الدنيا القليل وألحمنا من محاسبة أنفسنا على التقير والقتيل وأولانا من شجاعة السماحة فيوما نهب ما شئت عليه الداو بن ويوما نقطع ما سقاء النيل فالدشار في أيامنا ترى شفعا ووزرا والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الاخرى والمساحات قدملات المسامع والمطامع وامضت الخيمة والصنابع وأرضت المنبر والجامع ولما نقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة أولى ما نقلناها من ان تكون لنا في الدنيا ان تكون لنا في الآخرة وان تجرد ومنها اللبس أنواب الاجر الفاخرة ونظهر منها مكاسينا ونصون عنها مطالبنا ونكفي الرعية ضررهم الذي يتوجه اليهم ونضع عنهم اصرهم والاخلال التي كانت عليهم ونعيد لها اليوم كأمس الداهب ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب ولا قلم كاتب فاستخبرنا الله وبجئنا اليه ليرضى ورأينا فرصة أحرل تقض عليها ابصار الابصار ولا يغضي ونخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمساحة أهل القاهرة ومصر وجميع النجار المترددين اليهما والى ساحل القسم والمنية بأبواب المكوس صادرها واردها فير الدناجر ويسد زرع يغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويخبر براو بحرا مر بكاو ظهرا سرا وجهرا لا يحل ماشده ولا يحاول ما عنده ولا يكتشف ما ستره ولا يسأل عما أورده وأصدره ولا يستوفى في طريقه ولا يشرب برقه ولا يؤخذ منه طعمه ولا يستباح له حرمة والذي أشملت عليه المساحة في السنة من العين مائة ألف دينار مساحة لا يشوبها تاء ويل ولا يتخونها قبول ولا يعتريها زوال ولا يعتبرها انتقال دائمة بدوام الكلمة قائمة ما قام دين القبه من عارضها ردت أحكامه ومن باضها نقض نعماه ومن ازالها زلت قدمه ومن أخلها حل دمه ومن تعقبها خلدت اللعنة فيه وفي عقبه ومن احتاط لذياه فيها أحاط به الجحيم الذي هو من خطبه من قرأه أو قرئ عليه من كافة ولاه الامر من صاحب سيف وقلم ومشارف أو ناظر فليمتثل مامثل من الامر وليضه على عز الدهر من ضياله به مضيا لما أمر به وفيه توفى الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي المقرئ النحوي وهو زيل الموصل رحمه الله تعالى وفيه اولد العزيز والظاهر ابن صلاح الدين والمنصور ومحمد بن تقي الدين وفيه في ثالث شوال توفى أبو الفتوح نصر بن عبد الله الاسكندري المصري وبابن قلاؤنس الشاعر بعيدا وبمولده بالاسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة فيكون عمره نحو من خمس وثلاثين سنة

في ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة في فيها توفى ملك الجهاد الحسن بن صافي وفيها رتب العاد الكاتب مشرفا ديوان نور الدين مضافا الى كتابة الانشاء قال وكان نور الدين ذككيا لمعيا فظنا للوزعيا لا يشتهه عليه

كتاب (٢٠٦) الروضتين

الاحوال ولا يبرح عليه الرجال ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الافضل قال ولما عرض صلاح الدين بعد العاصد خزانته واستخرج دقائمه سير مناعذة من الامتعة المستحسنه والاكالات الممنه وقطع البلور واليشم والاواني التي لا يتصور وجودها في الوهم ومعها ثلاث قطع من البلخس أكبر هانيف وثلاثون منقالا والثمانية ثمانية عشر والاخرى دونها وقرن بهامن اللآلى مصونها ومكنونها وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار ووصلت من غرائب المصنوعات بما لا يجتمع مثله في اعصار واعمار ومن الطيب والعطر ما لم يتخار به سال عطار فشكر نور الدين همة وذكر بالكرم شيمته ووصف فضيلته وفضل صفته وقال ما كانت بنا حاجة الى هذا المال ولا نسد به خلة الاقلال فهو يعلم انما انفقنا الذهب في ملك مصر وسالى الذهب فقر ومال هذا المحمول في مقابلة ما جدنا به قدر وتمثل بقول أبي تمام

لم ينفق الذهب المرى بكثرة * على الحصا به فقر الى الذهب

لكمه يعلم ان تغور الشام مفتقرة الى السداد ووفور الاعداد من الاجناد وتدعهم بالفرج بلاء البلاد فيجب أن يقع التعاقب على الامداد بالمعونة والامداد فاستنزره وما استقره واستقل المحمول في جنب ما حرره وتروى فيما يدره وأفكر فيما يقدمه من هذا المهم ويؤخره قال ابن أبي طى لم تمنع هذه الهدية من نور الدين موقع وجرد الموفق بن القيسرى الى مصر وأمره بعمل حساب البلاد واسـتعلام أخبار حارها ورعاها وأين صرفت أموالها فاذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة وعظم على نور الدين أمر مصر وأخذ من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد وأكثرى من اسلته في حل الاموال حدثني أبي قال لم يخف حال نور الدين في كراهية الملك الناصر ولقد علم ذلك جميع الاجناد والامراء وتحدث به العوام ولا سيما حين أنفذ هذه الهدية واشتد بعد ذلك في مراسلته وأنفذ ابن القيسرى لكشف الاحوال ولوطال عمره لم يكن له بد من دخول مصر قال العماد وكان نور الدين من مملكت مصر وتوجهه فيها النصر يؤثر أن يقرر له فيما مل الحمل يستعين به على كاف الجهاد وتخفيف حاله من النقل والايام تحاطله والاعوام تطاوله وهو ينتظر ان صلاح الدين يبتدى من نفسه بما يريد وهو لا يستدعى منه ولا يستزده فلما حل من أواخر الدخائر والمال الحاضر ما حمله وعرف بجملة ومفصله تقدمت الى الموفق خالدين القيسرى الى أن مضى وبطل وبقضى ويعمل أيضا بالاعمال المصرية يتحازره ولا يلقى في نفوس ديوانه من أمرها حارزه وأرسل معه الهدايا والتحف السنايا وأقام العماد مقامه في ديوان الاستيفاء بجمع بين الاشراف والاستيفاء ومصبب النساء ثم كان من أمره ما سأتى ذكره قال العماد وخرج صلاح الدين في النصف من شوال ومعه الفيل والحمار العتائية والدخائر النفيسة التي كان انتخبها من خزانة العصر وهي معدودة من محاسن العصر قد سبق ذكر سيرها الى نور الدين وقوبلت بالاحسان والتحسين ووصات الحمار وكثرت لها النظارة وأما الفيل فانه وصل الى ساقى سنة تسع وستين وتحن بحلب في الميدان الاحضر وأهداه نور الدين الى ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل مع شئ من تحفة الثياب والعود والعنبر ثم سيره سيف الدين الى بغداد هدية للخليفة مع ما سيره معه من التحف اللطيفة وسير نور الدين الحمار العتائية الى بغداد مع هذا وتحف سنايا

(فصل ١٠) في جهاد السلطان بالفرج في هذه السنة قال العماد وزل صلاح الدين على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون فبرح بها وفرق عنها عزمها وخرب عماراتها واشتد على أعمالها سرايا به بغاراته ووصل منه كتاب بالمثل الفاضلى (سبب هذه الخدمة الى مولانا الملك العادل أعز الله سلطانه ومدأ بد احسانه ومكن بالنصر امكانه وشيد بالتأيد مكانه ونصر أنصاره وأعان أعوانه علم المحاول بما يؤثره المولى بأن يقصد الكمار بما يقص أختهم ويقتل أسلحتهم ويقطع موادهم ويحرب بلادهم وأكبر الاسباب المعينة على ما يرويه من هذا المصلحة أن لا يبقى في بلادهم أحد من العربان وان ينتقلوا من ذل الكفر الى عز الايمان وما اجتهد فيه غاية الاجتهاد وعده من أعظم اسباب الجهاد لتحليل كثير من أبقارهم والحرس في تبديل دارهم الى أن صار الاعداء اليوم اذ انقض لا يجد بين يديه دليلا ولا يستطيع حيلة ولا يبتدى سبيلا) ثم ذكر باقي الكتاب قال ابن شداد: وهذه أول غز وتغزاها صلاح الدين من الديار المصرية وانما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لأنها كانت أقرب اليه وكانت في الطريق تمنع من قصد الديار المصرية وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها ببلاد العدو فأراد توسيع الطريق

في اخبار (٢٠٧) الدولتين

يسهله ليتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة فخرج قاصدا الحافي أنساء سنة ثمان وستين فحاصرها
جى بيته وبين الفرنج وقعت وعاد عنها ولم يظفر منها بشئ في تلك الدفعة وحصل ثراب القصد وأما نور الدين فانه
بعث من عشق في ذى القعدة من هذه السنة وأخذ بهنى في ذى الحجة منها وقال العماد حضرت عند الملك العادل
وزالدين بدمشق في العشرين من صفر ووجهه ينور البشر قد سفر والحديث يعبرى في طيب دمشق وحسن الانها
برقة هوائها وبهجة بهاها وازهار أرضها كزهر سمائها وكل مناعيد لها وبهجته يحجها وكل منيا يطربها فتعال
وزالدين أناحب الجهاد يسلمنى عنها لها أرغب فيها فارتجلت هذا المعنى في الحال فقلت

ليس في الدنيا جيعا * بلدة مثل دمشق
وبسائى عنها * في سبيل الله عشق
والنقى الاصل ومن * يتركها بشق ويشق
كم رشيق شاغل عنه * بهم الغرور شق
وامتدأق البيض يغنى * عنه بالاقلام شق

قال وسألتى نور الدين أن أعمل دوبيتات في معنى الجهاد على لسانه فقلت
للغز وناطى واليه مطربى * مالى في العيش غيره من أرب
بالجهد وبالجهاد تنجح الطلب * والراحة مستودعة في التعب
وقلت أيضا

لاراحة في العيش سوى ان * أغزوسنى طربا الى الطلى يهتز
في ذل ذوى الكفر يكون الغز * والقدرة في غير جهاد عجز
وقلت أيضا

أقسمت سوى الجهاد مالى أرب * والراحة في سواء عندى تعب
الابالسة لا ينال الطلب * والعيش بلا جهد جهاد لعب

قال واتفق فرج كلب الروم اللعين في جنود الشامين بقصد الغارة على رواد من ناحية حوران وهم في جمع غلب
كثرت الخبر والعيان وزلوا في قربة تعرف بمسكين فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة اليهم وأقدم بعساكره
عليهم فلما عرفوا وصوله رحلوا الى الفوارم الى السواد ثم زلوا بالكلالة ونزل نور الدين في عشرا وقد سره ما جرى فأنفذ
سرية الى أعمال طبرية وأغتم خلقها فأدلت تلك الليلة وجدت في شمس الغارة غدوها فلما عادت لحقها الفرنج
عند المخاضة فوقف الشجعان وثبت من ثبته الايمان حتى عبرت الممرية وانفصلت تلك القضية ورحل نور الدين
من عشرا فنزل بظاهر زرا قال العماد وكنت راكبا في لقائهم مع الملك العادل وهو يقول لى كيف نصف
ما جرى فحدثه بقصيدة

عقدت بنصرك راية الايمان * وبدت لعصرك آية الاحسان
يا غالب الغلب الملولك وصائد السباع * صيد اللبث وفارس الفرسان
يا سائب التيجان من أربابها * حزن الخمار على ذوى التيجان
محمودا المحمود ما بين الورى * في كل اقليم بكل لسان
يا واحد فى الفضل غير مشارك * أقسمت مالك فى البسطة ثانى
أحلى أمانيك الجهاد وانه * لك مؤذن أبدا بكل أمان
كم يكره فتح اولدته فبالك من * حرب القمع المشركين عوان
كم وقعة لك بالفرنج حديثها * قد سار فى الاقطاف والبلدان
فخصت قوم مصهم رداء من ردى * وقرنت رأس برنهم بستان
وملكت رق ملوكهم وتركتهم * بالذل فى الاقياد والاشجان

كتاب (٢٠٨) الروشدين

وجعلت في أعناقهم أغلالهم * وسهبتهم هوانا على الأذقان
 انقضى السوابغ تحطيم السم القنا * والبيض تخضب بالنجيم القاني
 وعلى غشاء المشرفة في الطلي * والهام رقص عوالى المزان
 وكان بين النقع لمع حديد لها * نار تالق من خلال دخان
 في مازق ورد الوريد مكفل * فيه برى الصارم الظمآن
 غطى المجاج به نجوم سمائه * لتنوب عنها أنجم الحرصان
 أوما كفاهم ذلك حتى عاودوا * طرق الضلال ومركب الطغيان
 يا خيبة الأفرنج حين نجعوا * في حيرة وأتوا إلى حوران
 وجلوت نور الدين فآلة كفرهم * لما أثبت بواضع البرهان
 وهزمتهم بالرأى قبل لقاءهم * والرأى قبل شجاعة الشجعان
 أصبحت للإسلام ركنا ثابته * والكفر منك مضجع الأركان
 قوضت أساس الضلال بعزمك الماضى * وشدت مباني الأيمان
 قل أين مثلك في الملوك مجاهد * لله في سر وفي أعلان
 لم تلقهم ثقة بقوة سوكة * لكن وثقت بنصرة الرحمان
 ما زال عزمك مستقلا بالذى * لا يستقل بشعله الثقلان
 وبلغت بالتأييد أقصى مبلغ * ما كان في وسع ولا إمكان
 دانت لك الدنيا فقا صبا إذا * حققته لنفاذا أمر كداني
 فن العسراق إلى الشام إلى ذرا * مصر إلى قوص إلى أسوان
 لم تله عن باقي البلاد وانما * الهالك فرض الفوز عن هذان
 للروم والأفرنج منك مصائب * بالترك والأكراد والعربان
 إذ عنت لله المهيمن إذ عنت * لك أوجه الاملاك بالأذان
 أنت الذى دون الملوك وجدته * ملائ من عرف ومن عرفان
 في بأس عروفي بباله حمدر * في نطق قس في نقي سلمان
 سير لوان الوحي ينزل أنزلت * في شأن أسور من القرآن
 فاسلم طويل العزم المدى * صافي الحياة مخلد السلطان

وهي قصيدة طويلة وصف فيها أمره الحاضر من الجهاد معه ومدحهم

(فصل) وفي فتح بلاد النوبة قال العباد وفي جادى الأولى غزائهم الدولة تورنا شاه بن أيوب أخو صلاح الدين بلاد
 النوبة وأراهم سطا المروبه وفتح حصنها لهم يعرف بآريم والآن لا يريم وهي بلاد عديمة الجدوى عظيمة البلوى ثم
 رجع بالسي وعاد به إلى أسوان وفرق على أصحابه في الغنائم السودان وقال ابن أبى طى الحلبي وفيها اجتمع السودان
 والعبيد من بلاد النوبة وخرجوا في أعم عظيمة فاهذين ملك بلاد مصر وصاروا إلى أعمال الصعيد ومحمدا وعلى
 قصد أسوان وحصارها ونهب قراها وكان بها الأمير كثر الدولة فأنفذ إلى الملك الناصر وطلب منه نجدة فأنفذ قطعة
 من جيشه مع الشجاع البلبيكي فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عن باعدان أخرى وأرضها فاتبهم
 الشجاع والكنز فجرت حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال
 العبيد وتمكنهم من بلاد الصعيد فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة
 فسار قاصد بلادهم وشحن مراكب كثيرة في البحر بالرجال والميرة وأمرها بالحقاق إلى بلاد النوبة وسار إليها ونزل
 على قلعة أريم واقتحمها بعبدة ثلاثة أيام وغنم جميع ما كان فيها من المال والكرع والميرة وخلص جماعة من
 الأسرى

في اخبار (٢٠٩) الدولتين

الاسرى واسر من وجده فيها وهرب صاحبها وكتب الى السلطان بذلك فأنشد السلطان أبو الحسن بن الذروري يهنيها
بفتح ابريم قصيدة منها

فقدّم العزم فذا مبتداه * بقصر عن ملك الارض منتهاه
واسحب ذبول الجيش حتى ترى * أنجه طالعة عن دجاء
سواك من ألقى عصاه بها * فناعه لما استقرت بواه
عليك بالروم ودع صاحب الننا * ج اذا شئت وتور انشاء
فقد غدت ابريم في ملكه * تبرم أمر افييه كبت العداه
لا بد للنسوبة من نوبة * نرضى لسخط الكفر دين الاله
نظلم من نوبة منسوبة * لعزومة كامنه في اناه
تكسو الغزاة القاطني أرضها * مانسحت للحرب أذى الغزاه
سود وتجمهر الطباحولها * كاعين الرمد بدت للاساء
أولاف سر يحجبها القنا * مثل دنان بزتها السقاء
لله جيش منك لا ينثنى * الابنصل دميت شفرتاه
ما بين عقبان ولا كنها * خيل وفرسان كمثل اليزاه
أساد حرب فوق أيديهم * أساد الطعن فهم كالخواه
تقلدوا الانهار واستلوا موال السفدران فالنيران تجري مياه

قال ثم رجع شمس الدولة الى أسوان ثم الى قوص وكان في حبيبته أمير يقال له ابراهيم الكردي فطلب من شمس الدولة قلعة ابريم فاقطعها باها وأنفذ معه جماعة من الاكراد البطالين فلما حصلوا فيها تفرقوا فرقا وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة حتى ربحوا بهم واكتبوا أموالا كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم واتفق انهم عدوا الى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجيزرد بدان ففرق أميرهم ابراهيم وجماعته من أصحابه ورجع من بقي منهم الى قلعة ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها بعد مقامهم بهاسنتين فعاد النوبة اليها وملكوها وأنفذ ملك النوبة رسولا الى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية عسجد وبارية فكتب له جواب كتابه وأعطاه زوجه ونشاب وقال مالك عندى جواب الالهذا وجهز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبي وأوصاه ان يكشف له خبر البلاد وليدخلها فاسار الحلبي مع الرسول حتى وصل دنقلة وهي مدينة الملك قال مسعود فوجدت بلاد اضيقة ليس لهم زرع الا الذرة وعندهم نخل صفار منه ادامهم ووصف ملكهم بأوصاف منها ان قال خرج علينا يوما وهو عريان قد ركب فرسا عريا وقد التفت في ثوب أطلس وهو أقرع ليس على رأسه شعر قال فأنت فسئت عليه فضحك وتغاشى وأمرني ان تكوي يدى فكوي عليها هيئة صليب وأمرني بقدر خمسين رطلا من الدقيق ثم صرفني قال وأما دنقلة فلدي فيها عمارة الادار الملك فقط وياقها الخصاص

(فصل) في وفاة نجم الدين أيوب والصلاح الدين وطرف من أخباره قال العماد وركب نجم الدين أيوب فشب به فرسه بالقاهرة عند باب النصر وسط المحجة يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة وحل الى منزله وعاش ثمانية أيام ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة وكان كريما جبارا عظيما فاحليا وبابه مزدحم الوفود وهو متلف الموجود ببذل الجود وكان ولده صلاح الدين عنه غائبا وفي بلاد الكرك والشوبك على الغزاة مواظبا فدفن الى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية ثم نقل بعد سنتين الى المدينة الشريفة بالنسوبة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام والجلال والاغظام وعلى آله وصحبه وسلم قلت وقبره في تربة بالوزير جمال الدين الاصفا في وزير الموصل المقدّم ذكر درجهم الله وقال القاضي ابن شداد لما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله الى مصر وفاة نجم الدين فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس رحمه الله وكان شديد الرخص ولع بالعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول ما يموت الا من وقوعه عن ظهر

كتاب (٢١٠) الروضتين

الفرس ومن كتاب فاضلي عن السلطان الى عز الدين فرحشاه بمصر يقول فيه (صح من المصاب بالمولي الدارح فغفر الله له ذنبه وسقى بالرحمة تزيه ما عظمت به الوعة واشتدت الروعة وتضاعفت لغيبتنا عن مشهده المحسره فاستنجدنا بالصبر فابى وانحدرت العبرة فيا له فقيدا فقد عليه العزاء وهانت بعده الارزاء وانتشر مثل البركة بفقده فهي بعد الاجتماع اخزاء وتخطفته يد الردى في غيبيتي * هبني حضرت فكنت ماذا اصنع

قال ابن أبي طي الحلبي هو الامير نجم الدين أيوب بن شاذي ولا يعرف في نسبهم أكثر من والده شاذي وحدثنني أبي رحمه الله قال كان قتي الدين عمر يزيد فيقول شاذي بن مروان قلت وسعت أنامن يقول شاذي بن مروان بن يعقوب قال ابن أبي طي وقد ادعى ابن سيف الاسلام لما ملك اليمن انهم من بني مروان بن محمد الجعدي المعروف بالجاريعي آخر خلفاء بني أمية قال وقد ثبت عن ذلك فاجع الجماعة من آل أيوب ان هذا كذب وان جميع آل أيوب لا يعرفون جد افوق شاذي وكذلك أخبرني السلطان الملك الناصر رحمه الله قلت ودليل صحة ذلك اني وقفت على كتاب وقف الرباط النجمي بمشقى ولم يرد فيه على نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شاذي العادلي وابن سيف الاسلام هذا هو الولد الفداء بما عيل بن طغتكين بن أيوب بن شاذي بن أخي السلطان صلاح الدين ملك اليمن يعدأبيه وتعاظم اني اني نفسه الخلافة وادعى انه من بني أمية وعزم على إعادة الخلافة من بني هاشم الى بني أمية وله في ذلك اشعار كثيرة وتلقب بالامام الهادي بنور الله المعز لدين الله امير المؤمنين ومدحه كثير من الشعراء بذلك وزينوا له فعله وما هو فيه من شعره

واني أنا الهادي الخليفة والذي * أدوس رقاب الغلب بالضمير الجرد
ولا بد من بغداد طويروها * وانشرها نشر النخا سر السرد
وانصب اعلامي على شرفاتها * وأحيي بهما كان أسسه جدي
ويخطب لي فيها على كل منبر * وأظهر دين الله في القور والنجد

قال ابن أبي طي وكان نجم الدين أيوب عدلا مرصيا كثير الصلاة والصلوات غزير الصدقات والخيرات يحب العلماء ويميل الى الفضلاء وكان محمدا مدحه العباد الكاتب بحجة قصائد قال وكان مولد نجم الدين أيوب ببلد شجنتان كذا حكاه مؤيد الدين ابن منقذ وحدثنني جماعة ان مولد نجم الدين كان بجبل جور وروى في بلد الموصل ونشأ شجاعا باسلا وخدم السلطان محمد بن ملكشاه فأرى منه أمانة وعقلا وسدادا وشهامة فولاة قلعة مكرت فقام في ولايتها أحسن قيام وضبطها أكرم ضبط وأجلى من أرضها المفسدين وقذاع الطريق وأهل العيث حتى عمرت أرضها وحسن حال أهلها وامنت سبلها فلما ولي السلطان مسعود الملك أقطع قلعة مكرت لجناحه الذين بهروا الخادم شحنة بغداد ومتولى العراق وكان هذابهر وزاميرا ينفذ أمره في جميع العراق الى البصرة الى الموصل الى أصفهان وكانت خيله خمسة ألف فارس فاقر الامير نجم الدين في ولاية مكرت وأضاف اليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له وقرر أمره عند السلطان مسعود وجعل بهروا قلعة مكرت خزانة أمواله وبيت عقائله وجعل جميع ذلك معنوطا بالامير نجم الدين ومغذوقا بحمته وكان نجم الدين عظيما في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السيادة وكان لا يمر أحد من أهل العلم والدين به الا حمل اليه المال والضيافة الجليلة وكان لا يسمع بأحد من أهل الدين في مدينة الا انذاليه وقد ذكر العباد الكاتب في سيرة السليمانية الامير نجم الدين وقرظه وأثنى عليه وذكر من دينه وعفته ووقور أمانته وكثرة خيره أشياء حسنة وحكى قضية عمه العزيز زين حبس عنده بقلعة مكرت من جهة الوزير الدركر بنى وأمره بقتله فابى نجم الدين الى ان قتله بهروا بنفسه بامر الدركر بنى ثم ان السلطان مسعود احسنه وخرج في أخذ السلطنة وطمع هو وأتابك زنكي ابن آق سنقر في بغداد وجر داعسكرا اخضا وسارا الى مكرت طامعين في بغداد وطلعوا بالارث لا قيا مع قراجه الساقى وهو أتابك بن السلطان محمود بن آق فارس عليهم ثم اردتهم بعسكر مخم فانهزم من زنكي وقتل جماعة من أصحابه وجله من سكان في عسكره ولجأ الى سور مكرت وبه عدة جراحت وعلم به الامير نجم الدين وأخوه شير كوه فهاجموا الى القلعة بحبال وداووا جراحتهم وحسنوا أحسن خدمة وتقرر اليه فاقام هندها بكتبت خمسة عشر يوما ثم اراد ان الموصل وأمره بقتله فاهطاه جميع ما كان عندهما من الظهر حتى انهما أعطياه بجلته من البقر جل عليهما سلم معه من

امتنته فكان زنديقي لا يوب هذه اليد يعرف له هذه الصنعة ويواصله بالهدايا والالطاف مدة مقامه في تكريت فلما انفصل عنها على ما سنده ذكره تلقاه زنديقي إلى الحب والسعة واحترمه واحتراما عظيما واقطعه عدة قطائع وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبات قلوبهم وكان أخوه شيركوه معه في القلعة وكان لمجاعة بالسلطان من القلعة ويصعد اليها في أسبابه وحاجاته وكان نجم الدين لا يفرق القلعة ولا ينزل منها فاتفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوما لبعض شأنه ثم عاد إليها وكان ينعوين كاتب صاحب القلعة قوارص وكان رجلا نصرانيا فاتفق في ذلك اليوم أن النصراني صادف أسد الدين صاعدا إلى القلعة فقبض به بكلمة محضه بجر دأسد الدين سيفه وقتل النصراني وصعد إلى القلعة وكان مهيبا فلم يجاسر أحد على معارضة في أمر النصراني وأخذ النصراني برجله فالتقى من القلعة وبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ماجرى وحضر عنده من خوفه جراءة أسد الدين وأنه ذو عشرة كبيرة وأن أخاه نجم الدين قد أسدحه وذلي قلوب الرعايا وأنه ربما كان منهمأ أمر مخشي عاقبته ويصعب استدراكه فكسب إلى نجم الدين ينكر عليه ماجرى من أخيه ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سيره بحجة الكتاب فأجاب نجم الدين إلى ذلك بالسمع والطاعة وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهل ومال واجتمع هو وأخوه أسد الدين وصحبا على قصد عماد الدين زنديقي بالموصل وتعلم أن أسد الدين كان خرج إلى الموصل قبل نجم الدين وأغنام أهل تكريت خروج نجم الدين من بين أظهرهم ولم يبق أحد الا خرج لتو يبعه وأظهر البكاء والأسف على مفارقتها ولما اتصل بانابك زنديقي قدومهما أفرح به ذلك وأمر الموكب بلقائم ما وأمرهما أن يركبا على أعظيما واقطعهما في بلد شهر زورا قاطعا غاسيا وقيل أنه أقطع أسد الدين بالموز وروجي بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة حتى حلف كل واحد منهما لآخر أنه يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته ويقبر دجال الدين في أمر أسد الدين وأمر أخيه نجم الدين حتى قربهما من قلب أنابك وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة وخرجهما إلى الشام وشهدا معه حروب الكفار وقتل الفريخ لعنهم الله وكان لأسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء والنعلة الغراء وحدثني أبي رحمه الله قال حدثني سعد الدولة أبو الميمان الموثلي وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب قال وحدثني أيضا بهذه الحكاية بمجد الدين بن دابة الملك الصالح قال حدثني حسام الدين سنقر غلام الأمير نجم الدين أبي طالب وكان سنقر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي قال كنت في صحابة الأمير نجم الدين لما انفذوه نور الدين بن زنديقي إلى ابنه السلطان الملك الناصر إلى مصر من أجل قطع خطبة المصريين وأقامه دعوة بني العباس في أول سنة سبع وستين وخمسائة واتفق أني كنت حاضرا وقد اجتمع السلطان الملك الناصر ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة وقد قعدا على طرحة واحدة والمجلس غاص بارباب الدولتين وعند الناس من الفرح والسرور وما قد أذهل العقول فبينما الناس كذلك إذ تقدم كاتب نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين فقبل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين والتفت إلى نجم الدين فقال له يا مولاي هذا أنا ويل مقاتلي لك بالاسم حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال صدقت والله ثم أخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه والتفت إلى الجماعة الذين حولوه والقضاة والأمرأه وقال لكلام هذا النصراني حكاية عجبة وذلك أنني ليلته زرت هذا الوليد يعني السلطان الملك الناصر أمر في صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من أخي أسد الدين شيركوه رحمه الله وقتله النصراني وكنت قد ألفت القلعة وصارت لي كالوطن فنقل على الخروج منها والتهول عنها إلى غير ما واغتمت لذلك وفي ذلك الوقت جاني الشيرب بولادته فتشاهمت به وتظيرت لما جرى علي ولم أفرح به ولم أستمثر وخرجن من القلعة وأما على طيرتي به لا أكاد أذكره ولا أسمية وكان هذا النصراني معي كذا فإلما رأيت ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاهم به استدعني مني أن أذن له في الكلام فأذنت له فقال لي يا مولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي وأي شيء له من الذنب وبما استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يفتي شيئا وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله سبحانه وقد رحم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكا عظيم الصيت جليل المقدار فطعفتي كلامه عليه وها هو قد أوقفتني على ما كان قاله تعجب الجماعة من هذا الاتفاق وجد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه قلت ولما جرى في نجم الدين مدائح ومراث منها قوله

تسهر الزمان بنجم الدين مهتم * ووجهه بدوام العزم متم

مكتاب (٢١٢) الروضتين

اضحى بك النيل بحجوجا ومعتبرا * كأنما حل فيه الحبل والحرم
جاءت بنوك وشمل الدين منتثر * فقار عوا عنه فهو اليوم منتظم
وما درى أحد من قبل رؤيتهم * أن الحظوظ باثم الأرض تقسم
نامت عيون الورى فى عدل سيرتهم * كان يقظتنا فى عصرهم حلم
والناصر ابنك كاف كل معضلة * إذا الحوادث لم تكشف لها غم
اعز بالأس والاحسان حوزتنا * فلم يزل بنا خوف ولا عسدم
تبسم الدست من أيوب عن ملك * تهبط عن قدره الاقدار والحمم

وقال فى مرثيته

هى الصدمة الاولى فى بان صبره * على هول ملقاها نضاعف أجره
اذم صبايح الاربعاء فانه * تبسم عن نعر المنيه فجره
أصاب الهدى فى نجه بصية * تداعى سمالك الجوف منها وفسره
فلا تعذلونوا واعوذنا فى بكى * على فقد أيوب فقد بان عذره
اقام بأعمال الفسرات وخيله * براع بهما نيل العز يزوم صره
الى ان رماها من أخيه بضيق * فرى نابه أهل الصليب وظفروه
فلما قضى نحبى حياة ودولة * بأمرك فى ادراكها تم أمره
تعا قبها مصرا تعاقب وابيل * بيت بقطر النيل ينهل قطره
نزلت بدار حلها خلقتها * فغناك مغناه وقطرك قطره
وواخيته فى البرحيا وميتا * فقدرك فى دار القرار وقبره
وقد شخضت أهل البقيع الكما * والافسكان المحبون وحجره
هنيئ الملائمات والعسر عزه * وقدرته فوق الرجال وقدره
وأدرك من طول الحياة مراده * وما طال الا فى رضى الله عمره
وأسد خلق الله من مات بعدما * رأى فى بنى ابنائه ما يسره
ثميد تلقى ربه وهو صائم * فكان على أحر الشهادة قطره
مضى وهو راض عنك لم ترم صدره * لضيق ولا جاشت من القبط قدره
سمى حوزة الاسلام والدين بعده * غمانية من أجلهم عز نصره
فكيف لحس آل أيوب أسده * لقد بان خوف الدهر منه وذعره
رعى الله نجما تعرف الشمس انه * أبوها ونور البدر منها وزهره
وابقى المقام الناصرى فانه * لدوائكم كثر الرجاء وذخره

وقال أيضا

صفوا الحياة وان طال المدى كدر * وحادث الموت لا يبقى ولا يذر
وما يزال لسان الدهر ينسدرنا * لو أثرت عندنا الآيات والنذر
فلا تقل غرت الدنيا مطامعنا * فنامع الموت لا غش ولا كدر
كأن اذا ما الردى حيا الحياة بها * لم ينج من سكرها أنى ولا ذكر
كم شاخ العز لافى الدل من يدها * ما أضعف القدران الوى به القدر
فى كل جيل وعصر من وقائعها * شعوا يقطر منها التاب والظفر
اودى هلى وعثمان بمحلبها * ولم يفتها أبو بكر ولا عمر
ومن أراد التأسى فى مصيبتها * فللورى برسول الله معتبر

في اخبار (٢١٣) الدولتين

نجم هوى من سماء الدين منكدرًا * والنجم من افقه هوى وينكدر
منظومة أبحر الجوزاء من جزع * له وعقد الثريا منه مثير
وكيف ينسي بحياه الكريم ومن * نعماء في كل عيش مصالح أثر
جذدت من أسد الدين الشهيد لنا * خنابه ينساوى الصبر والصبر
قد كان للدين والدينا بعزمكم * ذكر بعبر عنه الصارم الذكر
ان فاح نشر كلام تمدحانه * مسكا فستره أيوب إلهي العطر
تخفى ذبال مصابيح اذا طلعتوا * صبحا ونقسي ملوك الارض ان ذكروا
كانما صور الله الكمال بهم * شخصوا ويوسف منه السمع والبصر
لا شوبك منه معصوم ولا كرك * ولا خليل ولا قدس ولا زغر
لم يرتحل قافلا الا وساكنها * اماما حياه أودم هدر
مامات أيوب الابعد محجرة * في المجد لم يؤتها من جنسه بشر
مضى سعيدا من الدنيا وليس له * في رتبة ارب باق ولا وطر
وطول الله منه باع أربعة * منها الندى والتقى والملك والامر
واشرف الملك ما امتدت مسافته * في حجة اخاها العقل والكبر
ومن سعادته ان مات لاسأم * يشكوه منه معانيه ولا ينجر

(فصل) قال العماد وسار نور الدين قاصدا جانب الشمال لتسديد ما اختل هناك من الاحوال فسار الى حلب ومنها الى حمص ثم حلب وفعل في كل منها من المصالح ما وجب وقصد بلاد قلعج ارسلان ملك الروم ففتح مرعش في العشرين من ذي القعدة ثم فتح بهسي واتبع في كل منهما الطريقة الحسنى وكتب العماد الى صديق له بدمشق وكان سافرا عنده في أطيب فصولها وهو زمن الشمس

كأنى قد تسك من مرعش * وخوف نوائها مرعش
وما مر في طريقها مبصر * صحح النواظر الاغشى
وما حل في أرضها أمن * من الضيم والضر الاغشى
ترنحتي نشوات الفراء * م كأنى من كاسه منتشى
أسر وأعلن بريح الجوى * فقلبي يسرود معي يشي
بذلت لكم مهجتي رشوة * فماكم جبكم مرعش
وكيف يلذ الكرى مغرم * بنار الغرام حشا حشى
بمرعش ابني وبوطها * مضاهاة خلق والشمس

قال العماد في الخريدة فسارت هذه القطعة ونفى حديثي الى نور الدين قال فاستشدينها فأنشدته ياها ونحن سائر في واد كبير مع يتيين بدت بها في الحال وهما

وبالملك العادل استأنست * نجاها مني كل مستوحش
وما في الامام ككرم سوا * فان كنت تذكر ذا قش

بال ابن الاثير وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين رحمه الله نحو ولاية الملك عز الدين قلعج ارسلان بن مسعود بن ليح ارسلان بن سليمان السلجوقي وهي ملطية وسيراس وتونية واقصرا عازما على حربه وأخذ بلاده منه وكان سبب ذلك ان ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من تاذك البلاد قد صدق قلعج ارسلان وأخذ لاده وأخرجهم عنها طريدا فصار الى نور الدين مستجيبا ومتجائلا ظله فأكرم نزله وأحسن اليه رجل له ما يليق أن يجعل للملك ووعده النصر والسعي في رد ملكه اليه وكانت عادة نور الدين انه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين الا ضرورة أما المستعين بها على قتال الفرنج أو لثوق عليها منهم كما فعل بدمشق ومصر

وغيرها فلما قصد ذوالنون راسل قليج أرسلان وشفع اليه في اعادتها عليه من بلاده فلم يجبه الى ذلك
فأرسل نور الدين نحو مفايتدا بكيسون وبه سني ومرزبان فلكها وما بينهما من الحصون وسير طائفة
من عسكره الى سيواس فلكوها وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التي تلي
الشام الى وسطها خوفا وفرقا ورأسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه فوقف نور الدين عن
قصد رجاان ينصلح الامر بغير حرب فاتاه من الفرنج ما أزعجه فاجابه الى الصلح وكان في جملة رساله نور الدين
اليه (اني أريد منك أمورا وعادومهم ساركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء أحدها ان تجدد اسلامك
على يد رسول حتى يحصل لي اقرارك على بلاد الاسلام فاني لا اعتقدك مؤمنا وكان قليج أرسلان يتهم باعتقاد
مذاهب الفلاسفة والثاني اذا طلبت عسكرك للفرقة تسير فانك قدمك طرفا كبيرا من بلاد الاسلام وترك
الروم وجهادهم وهادتهم فأما ان تكون تجند بعسكرك لاقتل بهم الفرنج وأما ان تجاهد من يجاورك من الروم
وتبذل الوسع والجهد في جهادهم والثالث ان تزوج ابنتك لسيف الدين غازي ولد أخى ودكر أمور أخرى فلما
سمع قليج أرسلان الرسالة قال ما قصد نور الدين الا الشناسة على بالزندقة وقد أجبتة الى ما طلب أنا أجدد اسلامي على
يد رسوله واستقر الصلح وعاد نور الدين وترك عسكره في سيواس مع خضر الدين عبد المسيح في خدمة ذى النون ففي
العسكر بها الى أن مات نور الدين فرحل العسكر عنها وعاد قليج أرسلان ملكه قال العباد (وفيها) وصل الفقيه الامام
الكبير قطب الدين التيسابوري وهو فقيه عصره ونسج وحده فسر نور الدين به وأثره بحلب بمدرسة باب العراق
ثم أطلعه الى دمشق فدرس براوية الجامع الفرية المعروفة بالشيخ نصر المقدسي رحمه الله وزل بمدرسة الجاروق وشرع
نور الدين في انشاء مدرسة كبيرة فاشافعية لفضله وأدركه الاجل دون ادراك عملها لاجله فقلت هي المدرسة العادلية
الآن التي بناها بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين وفيها رتبة وقد رأيت أنا ما كان بناه
نور الدين ومن بعده منها وهو موضع المسجد والمحراب الآن ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة وبناها
هذا البناء المتقن المحكم الذي لا نظير له في بinaan المدارس وهي المأوى وبها المشوى وفيها قدر الله تعالى جمع
هذا الكتاب فلا أقصر ذلك المنزل ولا أقوى وبقي قطب الدين الى أن توفي في الايام الناصرية في سنة ثمان وسبعين
وقد وقف كتبه على طلبة العلم ونقلت بعد بناء هذه المدرسة اليها فاثارتها ثرة اذ فاتها مباشرة رحمه الله قال العباد
وكان وقد في سنة أربع وستين شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن محمد بن حمويه فأقبل عليه نور الدين
وأمرني بانشاء منشور له بمشيخة الصوفية ورغبه في المقام بالاخسان اليه بالشام ومن جملة ما أنفق به عامته بأربعة
ذهبية كان قد أنفذه صلاح الدين من مصر فقبل فيها ألف دينار ثمة ذهبها فليجيب من ساءه الى طلبها قلت
وقد سبق ذكر هذه العمارة في أخبار نور الدين أول الكتاب من كلام ابن الاثير وابن المعطي اياها وهو الشيخ تاج الدين
عبد الله رحمه الله ثم ذكر العباد نسخة المنشور وفيه (فليت نظر في رباط السجياطى وقبة الطواويس ورباط
الطاحونة وغيرها من الرباط الذي للصوفية بدشق المعمورة ويعليك) ثم ذكر العباد ثمة في آخره بيان من هذه
السنة قبل الرحيل من دمشق كان أهدى الى صديقه العاضل الاديب علم الدين الحسن بن سعيد
الشاماني قطائف وكتب اليه

ماراقدات في حصون مستوطنات في سكون * أو كالعقائل في الحدو رقدا اعتقلن على ديون
أو كالتائم للعها فومانسبن الى جنون * صرعى ومادامت لها يوم ارمى الحرب الزبون
يجعين بالتفرق بل يمين في ضيق المجون * نضدن بالترصيع في السجيمات كالذر المصون
وقد اشتغلن من اللطا ثقب والصفقات على فنون * يحلين أمثال العرا ثس بين أبعكار وعون
هسن اللبذبات اللوا ثنيا المهول من الحزون * الكريات القري سقات الغلائل والشؤون
لغفن في أكتافهن على المنى لاللون * المستطابات الظهو را مستلذات البطون
المستعجات للصيفو فوهن كالخيل الصغون * اسمع حديثي في انبسا طي فالحدث أخوشجون

في اخبار (٢١٥) الدولتين

﴿فصل﴾ قال العماد قد سبق ذكر ملج بن لاون مقدم بلاد الارمن والتجائه الى نور الدين وتطاوله بقوته على الروم والارمن وكانت الدروب تحت اذنه والمصيصة وسيواس يحجها كلب الروم ويضبطها يجنده حتى استولى عليها ملج بن لاون فكسرهم وقتل وأسروا قتل نور الدين من مقتدى الروم ثلاثين أسيراً فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين النهرزوري بالأسرى والهدايا الى الخليفة المستضيء بأمر الله ومع كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد ويقول فيه (وقطنططينية والقدس يجريان الى أمد الفتوح في مضمار المنافسة وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدهم على انتظار صباح الموائسة والله تعالى بكرمه يدي قطاف الفتحين لاهل الاسلام ويوفى الخدام الجيازة مراضى الامام) وفي آخره (ومن جملة حسنات هذه الايام الزاهرة ما تيسر في هذه النبوة من افتتاح بعض بلاد النبوة والوصول الى مواضع منها لم تظفر بها سنايل الخيل الاسلاميه في العصور الخالية وكذلك استولت عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها وتحكموا في محكم معاقلتها وموطنها حتى بلغوا الى حدود المغرب فظفروا من السؤل بعنقاء مغرب) قلت اتفق في هذه السنة وصول قراقوش غلام تقي الدين من الدار المصرية مع طائفة من الترك فانضم اليهم جماعة من العرب فاستولى على طرابلس وكثير من بلاد افرقية ما خلا المهديّة وسفاقس وقفصة وتونس وفي آخر ذلك الكتاب (ونسأل الله التوفيق لاستدناء قوامي المني واقصاء عبدة الصليب الانجاس من المسجد الأقصى وان يجعل فتح البيت المقدس مفتوح مراده ومقدح زناده ومقرحه في جهاده وان يملكه الساحل بجميع بلاده) وسير العماد معه قصيدة منها

بالمستضيء أي محمد الحسن * رجعت أمور المسلمين الى السن
في أرض مصر دعاله خطباؤها * وأنت لتخطب بكر خطبته عدن
فالمغرب الأقصى بذلك مشرق * وينصر مصر محقق بن الجمن
ورأى الآله المستضيء لشرعه * وعبادته نعم الامين المؤمن
مر النبوة كامن فيه ومن * فطر الامامة مشرق نور الفطرس
تقوى أبي بكر ومن عر الهدي * وحياه عثمان وعلم أبي الحسن
ويجده عرفت مقالة حيدر * لامد د أنى ولا منى الددن

ومنها في مدح نور الدين رحمه الله

هل مثل محمود بن زكي مخلص * متوحد يبغي رضاك بكل فن
ورع لدى المحراب أروع محرب * في سالتيه ان أقام وان ظعن
يمسى ويصبح في الجهاد وغيره * يصحى رضيع سلافة ويصحب دن
وبعزة الاسلام منتصر آخر * وبذلة الاشرار منتقم فن

قال ابن أبي طي وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عسرون من بغداد ودهه توقيع لنور الدين بدر هارون وصريقين وخسين ديناراً من دنائير النشار التي نثرت يوم دخل الشهاب الى بغداد بالبشارة بالخطبة في مصر وزن كل دينار عشرة دنائير قال العماد وكانت ناحيته ادرب هارون وصريقين من أعمال العراق ارنكي والد نور الدين قديمان انعام أمير المؤمنين فسأل نور الدين احياء ذلك الرسم في حقه فأقيم بها الخليفة عليه ووجهه مامثلة الشريف اليه وكان من مراده ان يستوهب ببغداد على شاطئ دجله ارضاً ينهبها مدرسة للشافعية ويقيم عليها الناحيتين طلب اللاجر والذكر الباقي على عمر الدهر فقبل له ما ثم موضع يصلح لهذا الادراك المثر فهاهنا أمر القسدر عن قدرته على هذا الامر

﴿﴾ ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة ونور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها وملج بن لاون ممتلك الارمن في خدمته ووصل الى خدمته ايضا ضياء الدين مسعود بن قحطاج صاحب ملطية وكان في خدمته ايضا الامر من المجدل فسرهم بالعلاء الاجزل والسمت الاجمل وأظهر ابراه ينزل على قلعة الروم على الفراء فتقبله مستخلف الارض بالبراء وحمل خمسين ألف دينار على سبيل الجزية مصانعة بئله وصغار وعاد الى حلب وقد نجح

في كل ما طلب وأراد ان يصرع الى دمشق فالتأت سريره لالتفات سريره وحظى بمرض القلب ارض جسم محظية وجرت شكايته سكاية جارته فتصدق عنها بألوف والتزم لله في شقائها لنور ووف ثم سر بها في محفة تحمل على أيدي الرجال في خفة وسارت على الطريق المهييع مع العسكر يحملها من الخدم والخواص العشر بعد المعشر ف تقرب اليه بمثل جلها والمشي معها وتقدم بحق لازم من مجده تشيعها وتأخر نور الدين جريده مع عدة من مماليكه وأمرائه الما حصين في ولايته وتقدم الى ان أسأره في طريقه وأطوره وأحضره في منازل واسامره وسرنا على طريق قبة ملاعب والمشهد وسلميه لجاءه الخبر ان الفرنج قد أغارت على حوران فثنى الى الجهاد العنان وسمع الفرنج به فتفرقوا وتلقوا بعدما كانوا ألقوا ودخلنا دمشق قلب وفي جبادى الاولى أبطل نور الدين رحمه الله فرية الاتبان ورأيت منشوره بذلك وعلامته عليه بخطه (الجلد لله) يقول فيه (وبعد فان من سنننا العادلة وسير أيامنا الزاهرة وعوائد ولتنا الفاهرة أساعة المعروف وأغائه الملهوف وانصاف المظلوم واعفاه رسم ماسنه النظامون من جازرات الرسوم ومنازل تجدد للربعة من الاحسان يرتعون في رياضه ويرتوون من حياضه ونستقري أعمال بلادنا المحروسة ونصفيها من النسيب والشواثب ونلحق ما يعثر عليه من بواقى رسوماه الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقربا الى الله تعالى الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذ من فرية الاتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة وضيايع القوطة والمرج وجبل سنين وقصر هجاج والشاغور والعقبة ومن ارعها الجارية في الاملاك وجميع ما يقسط بعد المفاصة الى الاتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة ووفرنا على أربابه طلبا لمراضاه الله وعظيم أجره ونوابه وهربا من انتقامه وأليم عقابه وسبيل الثواب اطلاق ذلك على الدوام وتمتعية آثاره والاستعفاء من أوزاره والاحترام من التدنس بأوضاره وأبطال رحمه من الدواوين لاستقبال سنة تسع وستين وما بعده على تعاقب الايام والسنين)

(فصل) في فتح العين قال العماد في رجب توجه تورانشاه أكبر اخوة صلاح الدين الى العين فلكها وكان يحثه على المسير اليها عمارة البني شاعر القصر وكان كثير المدح لتورانشاه ففخجه وسار الى مكة ثم الى زيد فلكها وقبض على الخارجى بها وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ ومضى الى عدن فأخذها واداب كتاب فيها عز الدين عثمان الزنجيسى وفتح حصن تعز وغيره من القلاع ففتح اقلها ومنعه لمكا عظيما واقرع بركا وشيع ذكرا وقال ابن شذاد ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره وكثرة عددا خوته وقوة بأسهم وكان بلغه ان بالعين انسانا استولى عليها وملك حصونها وهو يختل بنفسه يسمى عند النبي بن مهدي ويزعم انه ينشر ملكه الى الارض كلها واستتب أمره فرأى ان يسير اليها أخاه الأكبر الملك العظيم تورانشاه وكان كريما رجيما يحسن الاخلاق سمعت منه يعنى من صلاح الدين رحمه الله الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه وترجيحه اياه على نفسه فضى اليها وفتح الله على يديه وقتل الخارجى الذى كان بها قتل وكان أخوه هذا الخارجى قد خرج بالعين قبله ذكر عمارة البني في أول كتابه في وزراء مصر في أثناء كلامه قال وكان جماعة من أمثال الناس مثل بركات المقرئ وعلى بن محمد النبلي والذقيه أبى الحسن على بن مهدي القاسم الذى قام بالعين وأزال دولة أهل زبيد وغيرهم قد سبقوني يعنى الى صاحب عدن فذكر كلاما يتعلق به وقال العماد في الخريدة على بن مهدي ملك العين في زماننا هذا وسفك الدماء وسبى المسلمين وأقبل على شرب الخمر وأدعى الملك والامامة ودعا الى نفسه وكان يحدث نفسه بالمسير الى مكة فأت سنة ستين وتولى بعده أخوه وله شهر حسن يدل على علو همة قال ابن طي كان سبب خروج شمس الدولة الى اليمن انه كان كريما جوادا وكان اقطاعه بمصر لا يقوم بفتوته ولا ينضج بمرقته وكان قد انتظم في سلطه عمارة الشاعر وكان من أهل اليمن وكان ورد الى مصر ومدح أصحابه ونفى عليهم فلما زالت دولتهم انصوى الى شمس الدولة ومدحه وكان اذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها وضعف من فيها وانها قريبة المأخذ لمن طلبها قلت فمن جملة شعره في ذلك قوله من قصيدة أولها

العلم مذ كان محتاج الى العلم * وشفرة السيف تستغنى عن القلم
كم ترك الأبيض في الاجفان ظامية * الى الموارد في الاعناق والقلم

أمامك الفتح من شام ومن يمن * فلا تزور رأس الخيل بالبحر
فصمك الملك المنصور سوتوها * من الفرات الى مصر بلا سأم
فاخلق لنفسك مذكلا لتضاف به * الى سواك وأور النار في العلم
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته * كما يقول الوري لجماعتي وضم
وقد تزي الى ان امسكت يده * من الكواكب بالانفاس والكظم
حاسب ضميرك عن رأي أتاك وقل * نصيحة وردت من غير متهم
وله من أخرى

أفانح أرض النيل وهي عظيمة * على كل راج ففقهها ومؤمل
متى توقد النار التي أنت قادح * بغمدان مشبو بأسناها بمندل
وتفتح ما بين الحصين وانت * وصنعاء من حصن حصين ومقل
وتغلق من مختلف طرف وجعفر * تقيضين من حزن خصب ومسهل
وتخلق ملكا لا يميل بغره * على أحد الاعلى عزمك العلى
وله من أخرى

فالوا الى اليمن الميمون رحلته * فقلت مادونه شيء سوى السفر
سير يسر بني الدنيا وطيب ثنا * وطول عمر كذا يحكي عن الخضر
لا تؤخذ لها النار التي خدت * خفض عليك نمل ماشئت بالشرر
المال ممل يد والقوم ملك يد * ولا أطيل وهذا جلة الخبر

قال ابن أبي طي: ووافق ذلك انه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم وأطمعه في المعاونة لان صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم فأعلن شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن فاجابوه ففجهر ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن فأذن له وأطلق له مغل قوس سنة وزوده فوق ما كان في نفسه وأحسبه جماعة من الامراء ومقدار ألف فارس خارجا عن سيره من حلقته وسار في البر والبحر في البر والعساكر وفي البحر الاسطول يحمل الازواد والعدو والالات فوصل الى مكة ثم فيها الله تعالى فدخلها اثر اثم خرج متوجها منها الى اليمن فوصل زيدا في أوائل شوال فنزل عليها ولقية الشريف هاشم بن غانم الحسني وجميع الاشراف بنو سليمان في جمع جم وعدد كبير فهجم زيد وتسلها واحتوى على ما فيها وقبض على صاحب اليمن عبد النبي أخي علي بن مهدي ثم رحل الى عدن وفي محبته ابن مهدي ففتحها معه وتوولاها عازدين الزنجبيلي ثم سار الى المخلاف وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي كعز وغيرها وسار الى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها فاحرق صنعاء فدخلها شمس الدولة فلم يجد بها الا شيئا وامر آة بجوزا فاقام بها ثمانية ايام ثم لم يستطع المقام لقلته الميرة فرجع الى زيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي وكان شمس الدولة قد استتاب بن زيد الامير سيف الدولة المبارك بن منقذ وأمره بمجمله فلما بعد شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره فرأى المصلحة في قتله فقتله ابن منقذ بن زيد فلما بلغ شمس الدولة قتله استصوبه ولما حصل شمس الدولة في زيد انفذ اليه صاحب طاروصا ليه هو وباقي الملوك على اداء المال ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها وكتب بذلك الى أخيه الملك الناصر فارس الى نور الدين يخبره بما أفاض الله عليه من الاحسان ونحوه من ماله الدار والبلدان فارس نور الدين مهذب الدين أبا الحسن علي بن عيسى النقاش بالشارة بذلك الى بغداد

(فصل) ذكر العباد هاهنا الامير محمد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ المستتاب بن زيد ووصفه بأنه من الكفاة والكرماء والذاهة ذوى الاراء وهو فاضل من أهل بيت فضل كتب العباد من شعره

لما نزلت الدير قلت لصاحبي * قم فاخطب الصهباء من شماسه
فاني وفي بناء ككأس خلتي * مقبوسة في الليل من نبراسه

مكتاب (٢١٨) الرومانيين

وكان مافي كأسه من خذّه * وكان مافي خذّه من كأسه
وكان لده طعمها من ريقه * وأريجها الفياح من أنفاسه
لم أنس له شربها بفنائها * أذبات يحلوها على جلاسه
اذا قام سقينا المدام وكلما * عاتبتهم رد الجواب براسه
قلت ومدحه أبو الحسن بن الذروري المصري بقصيدة غراء ذالية ما أظن انه نظم على فافية الدال أرق منها لفظا وأدق
معنى أولها

لك الخبير عرج بن علي ربهم فذى * ربوع يفوح المسك من عرفها الشذى

يقول فيها

مبارك عيش الوف — دباب مبارك * وهل منقذ القصاد غير ابن منقذ
قال العماد ثم سير نور الدين الى بغداد بشارة بامر من أحدهما فتح الين والآخر كسر الروم مرة ثانية ومقدمهم الدوقس
كلتان وكان قديما أسير عند نور الدين من نوبة حارم وفداءه بنجمة وخمسين ألف دينار وخمسمائة وخمسين نوبا
أطلسا وسير معه أسرى من الروم وذلك في شعبان هذه السنة وما قضى منه كتاب البشارة (ولم ينج من عشرة ألف غير عشرة
جر مستنفره قرت من قسوره) وقبل ذلك بشهرين سيرت قصيدة للعماد في جمادى الآخرة على لسان نور الدين الى
بغداد أولها

أطاع دمي وصبري في القرام عصى * والقلب جرح من كأس الهوى غصصا
وان صفوحياتي ما يكدره * الاشتياقي الى أحبابي الخلصا
ما أطيب العيش بالأحباب لو وصلوا * وأسعد القلب من بلواه لو خلا
من ذا الذي سار سيرى في ولائكم * غداة قال العذى لاسير عند عصا
قد نال عبيدك محمود بها ظفرا * مازال رقبه من قبيل مر تبصا
من خوف سطوته ان العبد واذا * أم النغور على أعقابها نكصا

وكلف نور الدين في هذه السنة بإفاداة اللطاف والزينة في الأوقاف وتكثير الصدقات وتوفير النفقات وكسوة
النسوة واليايى في أيامها واغناء فقراء الرعية واتخاذها بعد اعدامها وصون الأيتام والأرامل ببذله وعون الضعفاء
وتقوية المقومين بعده ثم ذكر ما قد منذ ذكره في أول الكتاب من مناقب نور الدين وأفعاله الكريمة قال العماد وفي يوم
الاثنين رابع شهر رمضان ركب نور الدين على العادة وجلسنا نحن في ديوانه حافلين في ابوابه ليستطعده واحسانه
وتفخذه وأمر سلطانه فجاء في من أخبرني أن نور الدين نزل الى المدرسة التي أتولاهها وبسط سجادته في قبتها لسنة
الضحية وصلها فقمت في الحال ومضيت على الاستجمال فلقيت في الدهليز خارجا في آخر العباداة تاجها ولهاج
العادة تاجها فلما رآني توقفت ولقولي تشوق فقلت له ان الموضوع قد تشرف أما ترى انه من أيام الزلزلة قد تشعث فلما
رأى حاله تلبث وقال نعيمسدا الى العماره ونكسوه حلل النضاره ثم حملته وجوهه سكر وسيتنا من ثياب وطيب
وعنبر وكتبت معها هذه الايات

عند سليمان على قدره * هدية الخلة مقبولة
ويصغر الملوكة عن غلة * عندك والرحمة ما موله
رقى لمولانا وملكى له * وذمتي بالشكر مشغولة
وكيف يقضي الحق ذممة * ضعيقة بالهجر معاوله
وانما شية مولى الورى * طاهرة بالخير مجبولة

قال وكان رأى قبله المدرسة غير مفضصة وبالترخيم والتذهيب والتليب غير مخصصه فانفذ لي لعمارتها فصوصا
مذهبة وذهباً ثم حم مقدور حمامه وعاق القدر عن اتمامه ودفعته الى الموصل فرأيت في المنام وهو يجاري نبي
في الكلام ويقول ما يعود الى المدرسة معناه وقال الصلاة الصلاة فعرفت انه أشار الى المحراب وانه لآن على هيئة

في اخبار (٢١٩) الدولتين

الخراب فكتبت الى الفقيه الذي كان عنده الذهب ان يشرع في عمارة ودخات دمشق يوم فراغ الصانع منه
(فصل) قال ابن أبي طي، وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق بن القيسراني الى الديار المصرية واجتمع
 بالسلطان الملك الناصر وأنهى اليه رسالة نور الدين وطالبه بحساب جميع ما حمله وارفع اليه من الغل فصعب ذلك
 على السلطان وأراد شق العصى لولا ما تاب اليه من السكينة والعقل فامر بمل الحساب وعرضه على ابن القيسراني، أراه
 جرائد الاجناد بمبالغ اقطاعهم وتعيين جامكاتهم ورواتب نفقاتهم فلما حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هدية الى نور
 الدين على يد الفقيه عيسى قال ووقفت على برنامج شربها بخط الموفق بن القيسراني وهي خمس خفقات احداها خفقة
 ثلاثون جزءا مغشاة باطلس أزرق مضطربة بصفائح ذهب وعليها أقفال ذهب مكتوبة بذهب بخط يائس وخفقة بخط
 راشد مغشاة بدبابيخ فستقي عشرة أجزاء وخفقة بخط ابن البواب مجلد واحد يقبل ذهب وخفقة بخط مهلهل جزء واحد
 وخفقة بخط الحاكم البغدادي * ثلاثة أحجار لحش حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالا وحجر وزنه اثنان عشر مثقالا وحجر
 وزنه عشرة مثاقيل ونصف * ست قصبات زمرد قصبه وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلاث وربع وقصبه وزنها ثلاثة مثاقيل
 وقصبه وزنها مثقالان ونصف وقصبه وزنها مثقالان وربع وسدس وقصبه وزنها مثقالان وثلاث وربع وقصبه وزنها
 سبعة مثاقيل * وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس * مائة عقد حوهر محتومة وزنها جميعها ثمانمائة وسبعة
 وخمسون مثقالا * خمسون قارورة دهن بلسان * عشر ون قطعة بلور * أربعة عشر قطعة جرجع وذكر تفصيلها ابريق
 يشم * طشت يشم * سقرق من ماء ذهب * صحن صيني وزبادي وسكاج * أربعون قطعة عود طيب قطعتين كبار * كرتان
 وزن احداها ثلاثون رطلا بالصري والاخرى احد وعشرون رطلا * مائة ثوب أطلس * أربعة وعشرون بيقار ماء ذهب
 أربعة وعشرون ثوبا حري * أربعة وعشرون ثوباً من الوشي حريري يمش * حلة فاعلى مذهب * حلة مراميش صفراء
 مذهب * وذكر غير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية وعدة من الخيل والغلمان
 والجواري وشيئا كثيرا من السلاح على اختلاف ضربه قال وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل الى نور الدين لانهم اتصل
 بهم وفاته فقاموا أعيدها واستلمت لان الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعوا عليهم من نهيهم واستبدوا ما كثرها
 وقيل انها وصلت جميعها الى السلطان لانه اتصل به خبر موت نور الدين فانفذه من ردها قال وحديثي من شاهد هذه
 الهدية انه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره وقال العماد اواصل الى صلاح الدين رسول نور الدين وهو الموفق
 خالد اطلعه على كل ما وقفه وأحصى له الطريف والتالذ وقال هؤلاء الاجناد فاعرضهم وثابت أخبارهم وما
 يضبط مثل هذا الاقليم الا بالمال العظيم ثم أنت تعرف اكابر الدولة وعظماءها وامرهم اعتادوا من السعة والدعة على
 نعمائها وقد تضرعوا في مواضع لا يحصى من انتزاعها ولا يسمعون بأن يقص ارتفاعها فالوارد مشفوهه والشدائد
 مكروهه والمقاصد بدورها محبوهه والهمم بما شدوهه وشرع في جمع مال يسيره وتحمله بجهد بذله ويخطر بحمله
 وحصل لحسابه ما لم يكن في خلد وجهه مطرف غناه أضعاف مثله

(فصل) في طلب عمارة الشاعر البني وأصحابه قال العماد واجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية
 المتعصبة المتعصبة المشددة المتصلبه وتوازروا وتوازروا فيما بينهم خيفة وخفيه واعتقدوا أمنية عادت بالعقي
 عليهم منه وعينوا الخليفة والوزير وأحكوا الرأي والتدبير وتبينوا أمرهم بلبيل وستر واعليه بذيل وكان عمارة
 البني الشاعر عقيدهم ودعاة الدعوة قريهم وبعيدهم وكانوا قد أودعوا سرهم عندهم إذا دعاه واستغفروا من
 أضعاه وأدخلوا عدته من أنصار الدولة الناصرية في جملتهم وعرفوهم بجهلهم وكان الفقيه الواعظ زين الدين على
 ابن نجيبا جهم فما زلن لهم من سوء أعمالهم وبدا خلهم في عزهم وخرجهم مطلة على أحوالهم وتقاسوا الدور
 والاملاك وكادت آمالهم تدن من الادراك فجاء زين الدين الواعظ واطلع صلاح الدين على فسادهم وماسؤلوه من
 مرادهم وطلب ما لا ين كمال الادعي من العقار والدور وكل ماله من الموجود والذخور فبذل له السلطان
 مكل ما طلبه وأمره بمخالطتهم ورغبه ثم أمر السلطان باحضار مقدميهم واعتقالهم لاقامة السياسة فيهم وصلب يوم
 السبت ثاني شهر رمضان جماعة منهم بين القصرين منهم عمارة وأقني بعد ذلك من بقي منهم ومات عنهم الخبر عنهم
 وكان منهم داعي الدعاة ابن عبد القوى وكان عارفا بمحبيا القصر وكنوزه فبادلهم بسم بادئهم لو بقيت تلك الخرافات

كتاب (٢٣٠) الروضتين

مدفونه وتلك الدفاتر مخزونه قد دفن دافنها وخزن تحت الثرى خازنها الى أن يأذن الله في الوصول اليها والاطلاع عليها وجمع من أموال هؤلاء ما يحمل الى الشام للاستهانة به على حياية تغور الاسلام قال ابن أبي طى وفي هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين والعوام وناس وافيا بينهم خفية وبكروا على انقراض دولة المصريين وباصاروا اليه من النذل والفقير ثم اجتمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيرا يجمعوهم وجماعة عيشوهم من الامراء وغيرهم وان يكاتبوا الفرنج وان يشيروا الملك الناصر وأدخلوا معهم في هذا الامر ابن مصال وأعدوا جماعة من شبيعة المصريين ليلة عيشوها وكتبوا الفرنج بذلك وقرر وامعهم الوصول اليهم في ذلك الزمان المقرر فخافهم ابن مصال فيما عاهدهم عليه ونكث في العيى وكفر عنها وصار الى الملك الناصر وعرفه بجذبة ما جرى قال فأحضرهم واحدا واحدا وقررهم على هذه الحالة فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قطعت أرواقهم وأخذت أموالهم فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم في أمرهم فأشوهه بقتله وصلبهم ونفيهم فأمر بصلبهم وقيل أن الذي أذاع شرهم زين الدين على الواعظ وطلب جميع ما لابن الداعى من العقار والمال فأعطاه جميع ذلك وكان الذين صلبوا منهم المفضل بن كامل القاضي وابن عبد القوى الداعى والعوريس وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك وشبرا كتاب السر وعبد الصمد القشة أحد أمراء المصريين ونجاح الحمائى ورجل مخيم نصرانى أرمنى كان قال لهم أن أمرهم يتم بطريق علم الصوم وعمارة اليمنى الشاعر قلت وبلغنى أن عمارداً كان يحرضه له على المسيرة الى اليمن ليم هذا الامر لان فيه تقليد لالعسكر صلاح الدين وابعدا لآخيه ناصربه عنه قال العبادى الخريدة وقعت اتفاقات عجيبه من جلته انه نسب اليه بيت من قصيدة ذكر والله يعنى فى القصيدة التى حرض فيها شمس الدولة على المسيرة الى اليمن أولا (العلم مذ كان محتاج الى العلم)

وقد تقدم ذكرها وأما البيت فهو هذا

قد كان أول هذا الدين من رجل * سعى الى أن يدعو سيد الامم

قال العماد ويجوز أن يكون هذا البيت معمولا عليه فأفنى فقهاء مصر بقتله وحرضوا السلطان على المثلثة بمثله قال ولعمارة فى مصلوب بمصر يقال له طرخان وكان خرج على الصالح بن رزبك فظفر به الصالح وصلبه وكان يستحسن أيباب عمارة فيه وهى

أراد علوه من نية وقدر * فأصبح فوق جذع وهو عال

ومد على صليب الجذع منه * يمر لا تطول على الشمال

ونكس رأسه لعاب قلب * دعاها الى القواية والضلال

قال العماد فكانه وصف حاله وما آل اليه أمره وقال فى البرق ووصل من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين الى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية وهو بخط ابن قريش يعنى المرتضى وقال ابن أبي طى وقد كتب القاضي الفاضل الى نور الدين كتابا شرح فيه قضية المصلين فقال بعد مطلع الكتاب (قصر هذه الخدمة على منجد دسار لاسلام وأهله وإشارة مؤذنة بظهور وعد الله فى اظهاره على الدين كاه بعدان كانت لها مقدمات عظيمة الا أنها اسفرت عن النجى وأوائل كالأله البهية الا أنها انفرجت عن الصبح فالاسلام بيركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطنا بعد أن كان غريبا وضرب فى البلاد بجراحه بعدان كان كالكفر يتم عليه تخيلا عجيبا الآن الله سبحانه اطلع على أمرها من أوله وأظهر على سرها من مستقبله والمولك يأخذ فى ذكر الخبر ويعرض عن ذكر الاثر لم يرل يتوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم وقض من عرى دولتهم وخفض من رفوع كلمتهم أنهم أعداء وان تعدت بهم الايام واضداد وان وقعت عليهم كلمة الاسلام وكان لا يحتقر منهم حقيرا ولا يقعد منهم شريرا كبيرا ويعينون لمقاصدهم موكله وخطراته فى القوم زمنهم مستعمله لا تتخاوسه تمر ولا شهر يكر من مكر يجتمعون عليه وقصاد ينسرعون اليه وجيلة يريمونها ومكيدة يتهمونها وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون اليه المكاتبان المتوازيه والمراسلات المتقاطرة الى الفرنج خذلهم الله التى يوسعون لهم فيها سبل المطامع ويجمعونهم فيها على العظام الفلانة ورسن لهم الاقدام والقنوم ويخلعون فيها ريقه الاسلام خلع المرتد المحضوم ويد الفرنج بمحمد الله

في اخبار (٢٢١) الدولتين

قصيرة عن اجابتهم الا انهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه الاستئثار في مراسلتهم والتحليل في معارضتهم سير جرج كاتبه رسولا ليناظره او اليهم باطناءا راضعا ليناظره الجليل الذي ما قبلته قط أنفسنا وعاقدهم القبيح الذي يشغل عليه في وقته علمنا ولاهل القصر والمصريين في أثناء هذه المدة درسلا تتردد وكتب الى الفرنج يتخدد ثم قال (والمولى عالما ان عادة أوليائه المستفادة من أدبه أن لا يسطوا عقابا مؤثما ولا يعذبوا عذابا محكما وإذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال أطلق سراحهم وخصي سبيلهم فلا يزيدهم العقوبة الا ضراره ولا الرقة عليهم الا قساؤه وعند وصول جرج في هذه الدفعة الاخيرة رسولا ليناظره ورد الينا كتاب من لارباب به من قومه يذكر ان رسول مختاله لارسول بحامله وحامل بلبه لاحمل هديه فأوهناه الاغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه واليه فتوصل مره بالخر وج ليلامر به بالركوب الى الكنيسة وغير هاتئارا الى الاجتماع بحاشية القصر وخداهم وبامراء المصريين وأسبابهم وجماعة من النصارى واليهود وكلا بهم وكلامهم قد سئنا اليهم من طائفتهم من داخلهم فصار ينقل الينا أخبارهم ويرفع الينا أحوالهم ولما كثرت الاقوال وكاد يشتر علمنا بهذه الاحوال استخرا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسده وطائفة من هذا الجنس مفرده قد اشملت على الاعتقادات المارقة والسرائر المنافقة فكلما أخذ الله بذنبه فنه من أقرطائعا عند احضاره ومنهم من أقر بعد ضر به فانكشف أمورا أخرى كانت مكمومه ونوب غير التي كانت عندنا معلومه وتقرر ان مختلفه في المراد متفقة في الفساد ثم ذكر نصير لاحصائه انهم عينوا خليفه ووزيرا مختلطين في ذلك فنه من طلب اقامه رجل كبير السن من بني عم العاصد ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاصد وان كان صغيرا واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولديه وأما بنو رزيك وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير ان يكون لهم غرض في تعيين الخليفه ثم قال وكانوا فيما تقدم والمساو على الكرك والشوبك بالسكر قد كتبهم وقالوا لهم انه بعيد والفرصة قد أمكنت فاذا وصل الملك الفرنجي الى مصر أو الى ايلة ثارت حاشية القصر وكافة الجند وطائفة السودان وجوع الارمن وعامة الاسماعيليه وفسكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة ثم قال ولما وصل جرج كتبوا الى الملك الفرنجي ان العسكر متباعدة في نواحي اقطاعاتهم وعلى قرب من موسم غلاتهم وانهم يقيم في القاهرة الابعضهم واذا بعث اسطولا الى بعض الثغور انهم قد فزنا من عنده وبقي في البلد وحده ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة ثم قال وفي أثناء هذه المدة كتبوا سائنا صاحب الحشيشية بان الدعوة واحدة والكافة جامعة وان ما بين أهلها خلاف الا فيما لا يفرق به كله ولا يجب به تعود عن نصره واستدعوا منه من يتم على الملوك غيلة أو بيت له مكيدة وحيلة والله من ورائهم محيط وكان الرسول اليهم عن المصريين خال ابن قرجة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج ولما صح الخبر وكان حكم الله أولى ما اخذ به وأدب الله امضى فيمن خرج عن أدبه وتناصرت من أهل العلم القتاوى وتوالى من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من القواة القلاة الدعاء الى النار الداملين لانقائهم وانقال من أضلوه من التجار وشنقوا على أبواب قصورهم وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ووقع التبع لاتباعهم وشردت طائفة الاسماعيليه ونفوا وودى بأن رحل كافة الاجناد وحاشية القصر وراجل السودان الى أقصى بلاد الصعيد فأما من في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم الى أن ينكشف وجهه رأى فيهم ولا رأى فوق رأى المولى والله سبحانه المستخار وهو المستشار وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده وقضى الحدود بتجديده ورأى الملوك انخارجهم من القصر فانهم مهمابوا فيه بقيت مادة لا تنحصر الاطماع عن افان حباله للفضلال منصوبه وبيع للبدع محجوجه قال المؤلف لعلها محجوجه وما يطرف به المولى ان نقرأ الاسكندرية على عموم مذهب السنة في أطلع البحث ان فيه داعية خبيثا أمره محققا شخصه عظيما كفره يسمى قديد القفاص وان المذكور مع خوله في الدار المصرية قد قشت في الشام دعوته وطبقت عقول أهل مصر فتننته وان أرباب العايش فيه يملكون اليه جزءا من كسبهم والنسوان يعش اليه شطرا وافيا من أموالهن ووجدت في منزله بالاسكندرية عند القبض له والجموم عليه كتاب مجرودة فيها خلع العذار وصرح الكفر الذي مانعه اعتذار ورفاع يخاطب بها في ما ما تشع منه الجاود وبالجملة فقد كفى الاسلام امره وحاق به مكره

كتاب (٢٢٢) الروضتين

وَصُرَّعَهُ كَفَرَهُ قَلْتُ وَفِي قَضِيَّةٍ عَمَارَةٍ هَذِهِ يَقُولُ الْعَلَامَةُ تاجُ الدِّينِ السَّكَنْدَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَتَقْلَتُهُ مِنْ خُطِّهِ

عَمَارَةٌ فِي الْإِسْلَامِ أَبَدِي جَنَانِيَّةٌ ❊ وَبَابِعٌ فِيهِ بَابِيَّةٌ وَصَلِيْبِيَّةٌ
وَأَمْسِيَّةٌ شَرِيْكُ الشَّرِّ فِي بَعْضِ أَجْدٍ ❊ فَاصْبِرْ فِي حُبِّ الصَّلِيْبِ صَلِيْبِيَا
وَكَانَ تَحِيْثُ الْمَلْتَقَى أَنْ يَجْعَلَهُ ❊ تَجِدْ مِنْهُ عَوَاقِبُ التَّفَاقُ صَلِيْبِيَا
سَلِيْقِي غَدًا مَا كَانَ يَسْعَى لِأَجَلِهِ ❊ وَيَسْقِي صَدْرِي فِي لُظَى وَصَلِيْبِيَا

قَلْتُ الصَّلِيْبُ الْأَوَّلُ النَّصَارَى وَالثَّانِي بِعَنِي مَصْلُوبٌ وَالثَّلَاثُ مِنَ الصَّلَابَةِ وَالرَّابِعُ وَدَلُّ الْعِظَامِ وَقِيلَ هُوَ الصَّعْدِي
أَيُّ يَسْقِي مَا يَسِيلُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا وَكَانَ عَمَارَةٌ مَسْدُورًا مِنَ الْغَزْزِ وَهِيَ أَيْضًا مَعْنَى لَانَهُ كَانَ مِنْ أَتْبَاعِ الدَّوْلَةِ
الْمِصْرِيَّةِ وَهِيَ أَنْ تَفْعَلَهَا وَخَلَّ أَمْرُهُ بَعْدَهَا فَمِنْ تَصَفِّفِ الْفُلُوبِ بَعْضُهَا بَعْضٌ وَصَارَ يَنْظُرُ فِي فُلَانٍ لِسَانَهُ فِي نَظَاهِهِ
وَنَثَرُهُ مَا يَقْتَضِي الْخَرَجَ مِنْهُ وَابْعَادُهُ وَهُوَ يَرَى ذَلِكَ مِنْهُمْ فَيَزِيدُ أَفْسَادًا فِي نَيْدِهِ وَأَنْ مَدَحَهُمْ تَكْلَفُ ذَلِكَ وَصَرَّحَ وَعَرَضَ
فِيهِ بِمَا فِي ضَمِيرِهِ وَقَدْ قَالَ فِي كِتَابِ الْوُزَرَاءِ الْمِصْرِيَّةِ ذَكَرَ اللَّهُ أَيَّامَهُمْ بِحَدِّ لَا يَكِلُ لِنَظَاهِهِ وَلَا يَدْوِي بِسَاطِهِ فَتَدْرُجُ وَجَدَتْ
فَقَدَّهُمْ وَهَنَتْ بَعْدَهُمْ وَقَالَ مِنْ قَصِيدَةٍ مَدَحَ بِهَا نَجْمَ الدِّينِ أَيُّوبَ

وَكَانَ لِي فِي مَلُوكِ النَّيْلِ قَبْلُكُمْ ❊ مَكَاتٍ عَرَفْتُمُ الْعَرَبَ وَالْجَحْمَ
وَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْقَوْمِ مَحْكَمَةٌ ❊ فِي حَرْبِهَا لَسَ الْأَدْيَانُ تَخْتَصِمُ
وَمَا تَزَالُ إِلَى دَارِي عَوَارِفُهُمْ ❊ يَسْعَى إِلَى بِهَا الْأَنْعَامُ وَالْكَرْمُ
تَرَكْتُهُ قَصْدُكَ لِمَا قِيلَ لَا ❊ تَجُودُ إِلَّا عَالِيٍّ مِنْ مَسْأَلَةِ الْعَدَمِ
وَلَسْتُ بِالرَّجُلِ الْمُجْهُولِ مَوْضِعُهُ ❊ وَلَا تَنْزِرُ مِنَ الْإِحْسَانِ أَغْنِيَكُمْ
وَلَا إِلَى صَدَقَاتِ الْمَالِ أَطْلُبُهَا ❊ وَلَا عَمَى نَالِ الْأَعْضَاءِ وَلَا صَمِّ
وَأَنَا أَنَا ضَيْفٌ لِلْمَلِكِ لَوْ كُنْتُ لِي ❊ دُونَ الصِّيُوفِ لِسَانُ نَاطِقٍ وَقَمِ

وَقَالَ مِنْ قَصِيدَةٍ مَدَحَ بِهَا صَالِحَ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ

قَرَّرْتُ لِي أَبَا رَزِيْقٍ رِزْقًا ❊ كَانَ فِي عَصْرِهُمْ مَسْنَمَانَا
وَأَنْتَ بَعْدَهُمْ مَلُوكُ فَنَسُوا ❊ فِي مَا كَانَ صَالِحُ الْقَوْمِ سَنَا
وَرِعًا وَلِي أَمَا اقْتَدَا بِمَاضٍ ❊ أَوْلَعْنِي فَكُلَّهُمْ بِي يَعْنِي

وَلَهُ فِيهِ مِنْ أُخْرَى

فَقَدْ صَارَتْ الدُّنْيَا إِلَيْكُمْ بِأَسْرَهَا ❊ فَلَا تَنْسَبُوا مِنْهَا وَتَحْنُ جَمَاعَ
أَذَاكُمُ تَرِيدُونَا فَكُونُوا كُنْ مَضَى ❊ فِي النَّاسِ أَخْبَارُهُمْ وَسَمَاعَ
وَلَيْسَ عَمَلِي مِنَ الْفُظَامِ أَقَامَةٌ ❊ قَوْلِي فِي ضُرُوعِ الْكَرْمَاتِ رِضَاعَ

وَقَالَ فِي قَصِيدَةٍ مَدَحَ بِهَا تَقِي الدِّينِ

هَلْ تَأْذَنُونَ لِي أَنْ أَرَادَ عَابَكُمْ ❊ أَمْ لَيْسَ فِي اعْتِبَابِكُمْ مِنْ مَطْمَعِ
ضَمِيرِي مِنْ حَقِّ ضَيْفِكُمْ الَّذِي ❊ مَا زَالَ قَبْلَ الْيَوْمِ غَيْرُ ضَيْعِ
وَتَقَاعِلِ السُّلْطَانِ عَنِّي حَسِيلٌ ❊ أَكْشَفَ قَنَاعَ مَذَلَةٍ وَتَصَرَّعِ
وَرَجُوتُ نَفْعِكُمْ بِالشَّاعَةِ عِنْدَهُ ❊ فَسَمِعْتُ لِي بِشَفَاعَةٍ لَمْ تَنْفَعِ
وَإِذَا نَاطِقُ الرِّزْقِ ضَاقَ بِجَنَالِهِ ❊ أَمْسِي بِحَالِ النُّطْقِ غَيْرِ مَوْسَعِ

وَقَالَ أَيْضًا

تَيْمَمْتُ مِصْرًا أَطْلُبُ الْجَاهَ وَالْغَنَى ❊ قَلْتُمْ هِيَ فِي ظِلِّ عَيْشٍ مَنَعِ
وَزَيْتُ مَلُوكِ النَّيْلِ أَرَادَ نَيْلَهُمْ ❊ فَاجِدْ مَرْتَادِي وَأَخْصِبْ مَرَبِي
وَقَزْتُ بِأَلْفِ مَسْنُونٍ عَطِيَّةً فَائِزٌ ❊ مَوَاجِبُهُ لِلصَّنْعِ لَا لِلتَّصْنَعِ
وَجَادَ ابْنُ رَزِيْقٍ مِنَ الْجَاهِ وَالْغَنَى ❊ بِمَا زَادَ عَنْ مَرِي رَجَائِي وَمَطْمَعِي

في اخبار (٢٢٣) الدولتين

وأوحى الى سحبي ودائع شعره * تخبرته مني بأكرم مودع
ولست أياذي شاور بذيمة * ولا عهدا عندي بعهد مضيع
ملوك رعدوا لي حرمة صاربتها * هشا رعته النائبات وما رعى
مذهبهم في الجود مذهب سنة * وان خالفوني باعثة قادات شيع
فقل لصالح الدين والعدل شأنه * من الحاكم المصطفى الى فادى
أقت لكم ضيفا ثلاثة أشهر * أقول لصدري كلما ضاق وسع
وكم في ضيوف الباب من لسانه * اذا نطعوه لا يقوم بأصبعي
في اراعي الاسلام كيف تركتنا * فريقي صباغ من عرايا وجوع
دعونا لك من قرب وبعد فبه لنا * جوابك البارى يوجب اذا دعى

وقال أيضا

اسفى على زمن الامام العاضد * اسف العقم على فراق الواحد
جالست من وزرائه وصحبت من * أمرائه أهل الثناء الخالد
لحنى على حجرات قصر كاذخلت * يابن النسي من ازدحام الوافد
وعلى انفرادك من عساكر كاذلى * كانوا كما مواج الخضم الزاكذ
قلدتهم وتمن الخلافة أمرهم * فبكوتصر عن صلاح الفاسد
فعسى الليالى أن ترذ اليهم * ما عودتكم من جيل عوائد

وقال أيضا

قست أفة الدنيا فلا الدهر عاطف * على ولا عبد الرحيم رحيم
عفا الله عن آرائه كل فترة * كلام العدى فيها على كلوم
وسامع في قطع رزق بعضه * وصلت اليه والزمان ذميم
الاهل له عطف على فاني * فقير الى ما اعتدت منه عديم

عبد الرحيم هو القاضي الفاضل رحمه الله وبلغني ان عارفنا موابد ليصلب عبرا به على جهة دار الفاضل فطالب
الاجتماع به فتعيل ليس اليه طريق فقال عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص هو العجب
قال وعذبه القصيدة تحقق ما ذكر من الاجتماع على مكتبة العرفج والخوض في فساد الدوائر بل الله وتوضع عذر
السلطان في قتله وتتل من شارك في ذلك وعي

رميت يادهر كف المجد بالشلل * وجيده بعد حلى الحسن بالعطل
سعت في منيخ الرأى العور من * قد رت من عثرات البغي فاستقل
جذعت ما رتك الاقنى فانفك لا * نفل ما بين نقص الشين والتجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل * سقيت مهلا ما نمشى على مهل
لحنى ولحنى بني المال فاطبة * على بغيتهنا في أكرم الدول
قدمت مصر فاولتني خلافة بها * من المكارم أأربى على الامل
قوم عرفت بهم كسب الالوف ومن * كالحما انها جاءت ولم أسئل
وكننت من وزراء الدست حيث سما * رأس الحصان يهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش تكسرة * وخلة حرس من عارض الخل
يا عاذلى في هوى أبناء فاطمة * لك الملامة ان قصرت في عذلى
بأنه زر ساحة القصرين وابك مسعى * عليه سما على صفين والجل
وقل لاهلها والله ما التحمت * فيكم قروحي ولا جرحى بمن دمل

كتاب (٢٢٤) الروضتين

ماذا نرى كانت الافرنج فاعلة * في نسل آل أمير المؤمنين على
 هل كان في الامر شيء غير حقهما * ملككم بين حكم السبي والنفل
 وقد حصلت عليها واسم جدكم * محمد وابيكم غير منتقل
 مررت بالقصر والاركان خالية * من الوفود وكانت قبلة القبل
 فلت عنها بوجهي خوف منتقد * من الاعادي ووجهه الود لم يزل
 أسبلت من أسف دمي غداة خلت * رحابكم وغدت مهجورة السبل
 أبكى على مازات من مكارمكم * حال الزمان عليها وهي لم تحل
 دار الضيافة كانت انس واقدم * واليوم أوحش من رسم ومن طلل
 وفطره الصوم ان أصغت مكارمكم * تشكو من الدهر حيرة فاغير محتمل
 وكسوة الناس في الفصلين قد درست * ورث منها جد بد عنهم وبلي
 وموسم كان في كسر الخليج لكم * يأتي تجلحكم فيه على الجمل
 وأول العام والعيدان كان لكم * فيمن من ويل جود ليس بالوشل
 والارض تهتز في عيد الغدير بما * تهتز ما بين قصر يكمن من الاسل
 والخيل تعرض من وشى ومن شبة * مثل العرائس في حلى وفي حلل
 ولا جلمت قري الاضياف من سعة * لطباق الاعلى الاعناق والجهل
 وما خصصتم بمرأه اهل ملتكم * حتى عستم به الاضي من الملل
 كانت روايتكم للذمتين وللضيوف المقيم وللطاري من الرسل
 وللجوامع من أحبابكم نعم * لمن تصدروا في علم وفي عمل
 وربما عادت الدنيا لمقلها * منكم واتخذت بكم محولة العقل

وقال العماد في الخريدة أبا القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل كان داعي الدعاء بمصر للادعيا وقاضى القضاة
 لاؤلك الاشقى يلقبونه بخز الانما وهو عندهم في المحلة العليا والمرتبة الشما والمترلة التي في السما حتى
 انكدرت نجومهم وتغيرت رسومهم وأقيم قاعدتهم وعضد اعاضدهم وأخلت منهم مصرهم وأجلت عنهم
 قصرهم فحرق ابن كامل ناقص الذب عنهم والشذمهم فامال قوم على البيعة لبعض أولاد العاضد ليلغوا به
 ما تخيلوه من المقاصد وسؤلوه من المكاييد فأنثرت بجهنم الجذوع واقفرت من جسومهم الربوع وأحكمت
 في لحومهم النسوع وهذا أول من ضمه جبل الصلب وأمه فافقره الصلب وهذا صنع الله فيمن ألد وكفر النعمة
 وبجهد وذلك غرة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة سمعت الملك الناصر صلاح الدين يذكره وقد ذكره عنده
 بالفضل والادب ونسبوا اليه هذين البيتين في غلام رفا وأنشدها الملك الناصر وذكرانه كان ينكرها

يارافنا خرق كل ثوب * ويارشاحبه اعتقادي

عسى يكف الوصال زفو * مامزق الحجر من فؤادي

(فصل) في التعريف بحال عمارة ونسبه وشعره قال العماد وقد أوردت شعر عمارة ابن أبي الحسن البغلي
 في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ونقلت الى هذا الكتاب يعني كتاب البرق الشامي لما من ذلك فن ذلك
 ما أنشدني به نجم الدين أبو محمد بن مصال

لوان قلبي يوم كاظمة معي * للكتمة وكظمت غيظ الادمع

قال العماد انما أنشدني فيض الادمع قرأت غيظ الادمع البقي بالكظم

قلب كفناك من الصباية انه * لبي نداء الظاعنين ومادعي

ومن الظنون الفاسدات توهمي * بعد اليقين بقاء في أصلي

ما القلب أول غادر فالومه * هي شجة الايام مذخلت معي

في أخبار (٢٢٥) الدولتين

قال وأنشدني لمارتة أيضا

ملك اذا قابل بشر جبينه * فارقه والبشر فوق جبينه
واذا لثمت يمينه وخرحت من * أبوابه ألثم الملوك يمينه

قال وأنشدني له عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن أسامة بن متقد يقول

في في هوى الرشاء العذري أعذار * لم يسبق في سداقر الدمع انتكار
في في النقا ودوفي لثم الحدود وفي * صم التهود لبانات وأوطار
هذا اختياري فوافق ان رضيت به * أولا غدغني وما هوى واختار
لمني جزافا وسامحني مصارفة * فالتاس في درجات الحب أطوار
وخل غدلي في داري ودائري * من المها درة قلبي لها دار

قلت ويرى (وغير غيري في أمري ودائري) والايات العينية من تصيدة في مدح تقي الدين والنونية في مدح نجم الدين أيوب والرائية في مدح شمس الدولة بن أيوب وكان عمارة هذا عرييا فبقاها أدبيا وله كتاب صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن ثم بمصر فذكر أنه أقام بن يزيد ثلاث سنين يقرأ عليه مذهب الشافعي رضي الله عنه قال ولي في القرائض مصنف يقرأ باليمن وفي سنة تسع وثلاثين زارني والذي وخسة من اخوتي الى يزيد فأنشدته شيئا من شعري فاستحسنه ثم قال تعلم والله ان الادب لنجمة من نعم الله عليك فذكرها بذي الناس واستخلفني ان لا أهجوم مسلما بيت شعر خلفت له على ذلك ولطف الله لي فلم أخرج أحدا معادي انسانا هجاني بحضرة الملك الصالح يعني ابن رزيك بيتي شعر فاقسم الصالح على اني ان أجيبه ففعلت مثالا قول الله عز وجل ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل وقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم قال ولم يكن شيء غير هذا

وحجبت مع الملكة أم فاتك ما لذ يزيد وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع ما ياله من حاج اليمن راويعراو بجميع خفارات الطريق فذكر أنه حصل له وجاهة عندها فانتفع بها حتى أترى وكثر ما له وجاهه ثم طرأت أمور اقتضت ان يهرب من اليمن ورجع سنة تسع وأربعين وخمسائة قال وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم بن فليته وولي الحرمين ولده قاسم بن هاشم فالزمني السفارة عنه والرسالة منه الى الدولة المصرية فقدمتها في شهر ربيع الاول سنة خمسين والخليفة بها يومئذ العاشر بن الظافر والوزير له الملك الصالح طلائع ابن رزيك فلما حضرت لاسلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما

الحمد للعيس بعد العزم والهم * حمد ايقوم بما أولت من النعم
لا أجد الحق عندي للركابيد * تمت اللهم فيهار تبسة الخنطم
قربن بعد من الرالعزم من نظري * حتى رأيت امام العصر من أم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم * وفد الى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت اني بعد زورته * ماسرت مس حرم الا الى حرم
حيث الخلافة مضروب مرادقها * بين البقيضين من عفوف ومن نعم
وللا مامة أنوار مقدسة * تجلوا البقيضين من ظلم ومن ظلم
وللبسوة آيات تضي لنا * على الحفيين من حكم ومن حكم
وللكارم اعلام تعلمنا * مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلى السن تنني محامدها * على الجيدين من فعل ومن شيم
وراية الشرف البساذخ ترفعها * يدالرفيعين من مجد ومن همم
أقسمت بالعاثر المعصوم معتقدا * فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقد حى الدين والدينا وأهلهمها * وزيره الصالح الفراج للقمم
اللابس الخضر لم تمنع غلاظه * الايد الصنعتين السيف والقلم

كتاب (٢٢٦) الروضتين

وجوده أو جذا الايام ما اقترحت * وجوده أعدم الشاكين للعدم
 قدم لكته العوالي رقي مملكة * تعير أنف الثر يا غرة التعم
 أرى مقام اعظم الشأن أو هني * في بقظتي انها من جملة الحلم
 يوم من العمر لم يحظر على أمل * ولا ترق اليه رغبة الحمم
 ليت الكواكب تدنو لي فانظما * عقود مدح لها أرضي لكم كلى
 نرى الوزارة فيه وهى باذلة * عند الخلافة نهما غير منهم
 هو اطفأ أعلنتنا ان بينهما * قرابة من جيل رأى لا الرحم
 خليفة ووزير مدد عدلها * ظلا على مفرق الاسلام والام
 زيادة النيل نقص عند فضهما * فاعسى بتعاطى منسة الديم

قال وعهدى بالصالح وهو يستعيد هافى حال التشديد مرارا والاستاذون والامراء والكبراء يذهبون في الاستحسان
 كل مذهب ثم أقيمت على خلع من ثياب الخلافة مذهبة ودفع الى الصالح خمسمائة دينار واذ بعض الاستاذين
 قد خرج لي من عند السيدة بنت الامام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى وجعل المال معي الى منزلي واطلقت لي من
 دار الضياء فخر سوم لم تطلق لاحد قبلي وتنادتني أمراء الدولة الى منازلهم للولائم واستحضرتني الصالح للبحاسنة
 ونظمني في سلك أهل المؤانسة واتالت على صلاته وغمرني به ووجدت بحضرة من أعيان أهل الأدب الشيخ
 الجليلس أبا المعالي ابن الحبيب والموفق أبا الحجاج يوسف بن الحلال صاحب ديوان الانشاء وأبا الفتح محمود بن قادوس
 والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير وغيرهم وامن هذه الحلية أحدا لا وتضر في الفضائل النفسانية والرياسة
 الانسانية بأوفر نصيب وما زلت أأخذ على طرائقهم حتى نظموني في سلك فرأيتهم فقلت

ليالى بالفسطاط من شاطئ مصر * سقى عهدك الماضي عباد من القطر
 ليال هي العمر السعيد وكل ما * مضى في سواها لا يعد من العمر
 أفادتني الاقدار فيها مواليا * صفت بهم الايام من كدر القدر
 نواصوا على أن لا ترد ارا دني * ولو سمعتم نثر الكواكب في هجرى
 وله في الصالح من قصيدة

ولولم يكن أدري بما جهل الورى * من الفضل لم تنفق لده الفضائل
 لئن كان مناقب قوس فينننا * فرائض من اجلاله ومراحل

قال وأنشدت الصالح وهو بالقبوم دار الوزارة قصيدة منها

دعوا كل برق شمتهم غير بارق * بلوح على الفسطاط صادق بشره
 وزوروا المقام الصالحى فكل من * على الارض ينسى ذكره عند ذكره
 ولا تجعلوا مقصودكم طلب التنى * فتجربوا على مجد المقام وغيره
 ولكن ساوا منه العلى تظفر واها * فكل امرء يرجى على قدر قدره

قال ولما جلس شاورني دار الذهب قام الشعراء والخطباء ولقيف الناس الا الاقل يالون من بني رزيك وضرغام
 نائب الباب ويحيى بن الحياط الاسفهلر فأشعده

محت بدلتك الايام من سقم * وزال ما يشتك به الدهر من ألم
 زالت ليالى بني رزيك وانصرفت * والحد والدم فيها غير منصرف
 كأن صالحهم يوما وعاد لهم * في صدرنا الدست لم يقعد ولم يقم
 كأنظن وبعض الظن مائمة * بأن ذلك جمع غير منفرم
 فخذ وقعت وقوع النمر خانهم * من كان مجتمعا في ذلك الرحم
 ولم يكونوا عدوا ذل جانبسه * وانما غرقوا في سيمك العمرم

في اخبار (٢٢٧) الدولتين

وما قصدت بتعظيمي عداك سوى * تعظيم شأنك فاعذرنى ولا تلم
ولو شكونت لى بالهم محافظة * لعهدها لم يكن بالعهدين قدم
ولو فقت فى يوما بذههم * لم ير فضلك الآن بسدلى
والله يأمر بالاحسان عارفة * منه ويهوى عن النحاش فى الكلم

قال فشكرنى شاو رؤاؤنا وعلى الوفاء لبنى رزك قلت وشعر عارة كثير حسن وعندى فى قوله الحمد للعيس وان
كانت القصيدة فائقة نبرة عظيمة فانه اقام ذلك تمام قولنا الحمد لله ولا ينبغي أن يفعل ذلك مع غير الله عز
وجل فله الحمد وله الشكر فهذا اللفظ كالتعظيم لجهة الربوبية المقدسة وعلى ذلك اطراد استعمال السلف والخلف
رضى الله عنهم

(فصل فى وفاة نور الدين رحمه الله تعالى) قال العماد وأمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم
عيد الفطر واختلفنا لهذا الامر وغدونا يا ما قال ونظمت لاهنا بالعيد والطهور قصيدة منها

عidan فطر وطهر * فتح قريب ونصر * كلاهما لك فيه * حقاها ناء وأجر
وفيها بالتهانى * رسم لنا مسخر * طهارة طاب منها * أصل وفرع وذكر
نجل على الطهر نام * زكاه منك نجبر * محمود الملك العاد * لالكريم الاغر
وبابنه الملك الصا * نخ العيون تقرر * مولى به اشتد للدين والشرية ازر
نور تجسلى عيانا * مادونه اليوم ستر * أضحت معاك غرا * كما اباديك غر
وكل قصدك رشد * وكل فعلك بر * وان حبك دين * وان بغضك كفر
لنا بيمينك بمن * كما يسراك يسر * وللوالين نفع * وللهادين ضر
وللمماء سحاب * وسحب كفيك عشر * ناديك بالفرح حب * نذاك للوفد بحر
للحرم مد وجزر * وما لجودك جزر * عدل عيم وجود * غر ورسو بشر
وفى العطية حلوا * وفى الميسة مر * قد استوى منك تقوى السالة سروجر
تقائك والملك عند السفة ياس عقد ونحر * يا أعظم الناس قدرا وهل لغيرك قدر
وساهرا حين ناموا * وقائمحين قروا * ما اعتدت الا وفاء * وعادة القرم غدر
وفعلك الدهر غزو * للشركين وقهر * وفعل غيرك ظلم * للمسلمين وقهر
يقتر من ككل ثغر * الى ان سامك ثغر * روم به وفرنج * فى شفعمك وثر
حرب عوان وفتح * على مرادك بكر * بنو الا صاقر من خشية اتقامك صفر
لم يبق اليك كفر ظفر * لا كان لك كفر ظفر * ولما دجى ليل خطاب * الا وعزك جفر
أصحت بالغزو صبا * وعنه مالك صبر * لكسر كل ينجم * اسعاف بر كجبر
فى كل قلب حسود * من حراياك جمر * تمل قطه سيم ملك * له الملوكة تخسر
يزهى سر روتاح * به ودست وصدور * وكيف يعمل للظا * هرا المظهر طهر
هذا الطهور وظهور * على الزمان وأمر * وذال الختان ختام * بمسكة طاب نشر
رزقت عرا طويلا * ما طال للسدر عسر

قال وفى يوم العيد يوم الاحد ركب نور الدين على الرسم المعتاد بحقوقان الله بالاسعاد مكتوفان السماء والارض
بالاجناد والقدر يقول له هذا آخر الاعباد ووقف فى الميدان الاخضر الشماى لطن الحلق ورمى القبق وكان
مسحود صلاته فى الميدان القبلى الاخضر وأمر بوضع المنبر وخطب له القاضي شمس الدين محمد بن المقدم قاضى
العسكر بعد ان صلى به وذكرك وعاد الى القلعة طالع البهجة بهيج الطلاء وأنبأ العطايا والالعام على رسم
الازراك وأكابر الاملاك ثم حضرنا على خوانه الخاص وله عقد كمال مصون من الانتفاض والانتقاص وما أوضح
بشره وأصنع نشره وأضحك سنه وأبرك يمنه وفى يوم الاثنين ثانى العيد بكر ربك وجل الموكب وكان الفلك

مكتاب (٢٢٨) الروضتين

بنير مجار والطود الثابت بمروا السحاب في وقار وكأنه القبر في حالته والقدر في جلالته والبدر في دائرته سائر بين
سيارته ودخل الميدان والعظما يسائر وونه والفهما يحاور وونه وقهم همام الدين مودود وهو في الأكابر معدود
وكان قديما في أول دولته وإلى حلب وقد جرب الدهر بحكمته ولا شطره حلب فقال لنور الدين في كلامه عظة
لمن يقترب أيامه هل تكون هاهنا في مثل هذا اليوم في العام القابل فقال نور الدين قل هل تكون بعد شهر فإن السنة
بعيدة فجرى على منطقة هما ما جرى به القضاء الباقى فان نور الدين لم يصل إلى الشهر والحمام لم يصل إلى العام ثم شرع
نور الدين في اللعب بالكره مع خواصه البرره فاعترضه في حاله أمير آخرا اسمه برتقش وقال له باش فأحدث له الغيظ
والاستيحاء وأغتاظ على خلاف مذهبه الكرم وخلقه الحليم فزجره وزره ونهيه وساق ودخل القلعة
ونزل واحجب واعتزل فبقي اسبوعا في منزله مشغولا بنازله مغلوبا عن عاجله بحديث أجله والناس من المختار
لا هو ن في أطوارهم في الاوطان فهذه ابروج بجوده وذلك بجود بروحه فغاصت تلك الافراح بالابالاجراح وما صلح
الملك بعده الا بملك الصلاح قال واتصل مرض نور الدين وأشار عليه الاطباء بالقصد فامتنع وكان مهيبا فخار وجع
وانتقل حادى عشر شوال يوم الاربعاء من مريع الفناء الى مرتع البقاء ولقد كان من اولياء الله المؤمنين وعباده
الصالحين وصارا إلى جنات عدن أعدت للثقيين وكانت له صفة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال
وكان جلوسه عليها في جميع الاحوال فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بازاء تلك الصفة بيتا من الاخشاب مأموون
الاضطراب فهو بيت فيه ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح فدفن في ذلك البيت الذي اتخذته حى من الحمام
وأذن بناؤه لبانيه بالاهدام قال العماد وقلت في ذلك

عجبت من الموت كيف أتى * إلى ملك في سحبا يا ملك
وكيف نوى الفلك المستدير في الارض والارض وسط الفلك

وله في رجمه الله تعالى

يا ملكا أيامه لم تزل * لفضله فاضلة فآخره
غاصت بحار الجود مذ غيبت * أغلك الفائضة الزاخره
ملكك دنياك وخلقتما * وسرت حتى تملك الآخرة

قال ابن شداد وكانت وفاة نور الدين رحمه الله بسبب خوانتي أعترته بحجز الاطباء عن علاجها ولقد حكى لي صلاح
الدين قال كان يبلغنا عن نور الدين انه رجا قصدا بالدار المصرية وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف
ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف رده اذا تحقق قصده وكنت وحدي أخالفهم وأقول لا يجوز ان يقال شئ
من ذلك ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاة رحمه الله ورضي عنه قال ابن الاثير وكان نور الدين قد شرع
بتجهيز المسير إلى مصر لاختدها من صلاح الدين لا يرى منه فتورا في غزو القرين من ناحية فأرسل إلى الموصل
وديار الجزيرة وديار بكر يدب العساكر ليركها بالشام لمنع من الفرنج ليسير هو بعساكره إلى مصر وكان المانع
لصلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين فانه كان يعتقد ان نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه
فكان يحثي بهم عليه ولا يؤثر استنصاحهم وكان نور الدين لا يرى الا الجذ في غزوهم بجهده وطاقته فلما رأى اخلال
صلاح الدين بالفرز وعلم غرضه بتجهيز المسير اليه أنامه أمر الله الذي لا يرد قلب ولو علم نور الدين ما دأخر الله تعالى
للاسلام من الفتوح الجلية على يد صلاح الدين من بعده لقرت عينه فانه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد
المشركين وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها رجمه ما الله تعالى قال وحكى لي طبيب يد مشق يعرف بالرحي وهو
من حذاق الاطباء قال استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الاطباء فدخلنا عليه وهو في بيت
صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانتي منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخوفه للتعبد في أكثر
أوقاته فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه فلما دخلنا عليه ورأينا ما به قلت كان ينبغي ان لا يؤخر احضارنا إلى ان
يشتد بكم المرض إلى هذا الحد فالآن ينبغي ان تنتقل إلى مكان فسبح فله أثر في هذا المرض وشرعنا في علاجه فلم
ينفع فيه الدواء وعظم الداء ومات عن قريب رضى الله عنه قال ابن الاثير وكان أسمر طويل القامة لبس له الحية

في اخبار (٢٢٩) الدولتين

الافى حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جدا فلك الموصل وديار الجزيرة وأطاعه أصحاب ديار بكر وملك الشام والديار المصرية واليمن وخطب له بالحرمين الشريفين مكة والمدينة وطبق الأرض ذكره لحسن سيرته وعدله ولم يكن مثله الا الاناذا لنا در رحمة الله تعالى عليه قال الحافظ أبو القاسم بعدما ذكر أوصاف نور الدين البداية المتقدمة مفرقة مجموعة في هذا الكتاب هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين والرأى الساقب الرصين والافتدأ بسيرة السلف الماضين والتشبه بالعلماء والصالحين والافتدأ لسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم واسمعه وكان قد استخبر له من سمعه وجعله حراصا منه على الخير في نشر السنة بالاداء والتحديث ورباه ان يكون من حفظ على الامة أربعين حديثا كما جاء في الحديث فمن رآها شاهد من خلال السلطنة وهيبة الملكات ما يبهره فاذا فاضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحسره يحب الصالحين ويواخيمهم ويرزقهم ما يحسن ظنه فيهم واذا احتلم عليك أعتقهم وزوج ذكرانهم بانانهم ورزقهم ومتى تكررت الشكاية اليه من أحد من ولاته أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكائه فم لم يرجع منهم الى العدل قابله بالسقاط المنزل والاعزل فلما جمع الله له من شريف الخصال تسير له جميع ما يقصده من الاعمال وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع ومكن له في البلدان والبفاع ثم قال بعد كلام كثير ومناسبة خطيره ومما حده كثيره ومما حده جماعة من الشعراء فافكروا ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصروا وهو قائل الابتهاج بالشعر زيادة في تواضعه لعلو القدر ومولده على ما ذكرني كاتبه أبو اليسر شاكر بن عبد الله وقت طلوع الشمس من يوم الاحد سابع عشر شوال سنة احدى عشرة وخمسمائة وتوفي يوم الاربعاء الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ودفن بقلعة دمشق ثم نقل الى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي خنيفة رضى الله عنه جوار الخواصين في الشارع الغربي رحمه الله قلت وفي هذه المدرسة يقول العرقلة

ومدرسة سيدرس كل شئ * وتبقى في حبي علم ونسك
تصوّر ذكرها شرقا وغربا * بنور الدين محمود بن زنگي
يقول وقوله حق وصدق * بغير كاية وبغير شك
دمشق في الدائن بيت ملكي * وهذى في المدارس بيت ملكي

والما اشتهر من قلة ابتهاجه بالمدح لماعلم من تزايد الشعراء وهي طريقة أربع بن عبد العزيز زاهد الخلفاء قال يحيى بن محمد الوهراني في مقامه له وقد سئل في بغداد عن نور الدين (هو سبهم لادولة سديد وركن للخلافة شديد وأمير زاهد وملك مجاهد تداعده الافلاك وتعضد الجيوش والاملاك غير انه عرف بالمارى الويل لابن السبيل وبالحل الجديب للشاعر الاديب خاير زى ولا يهزى ولا الشاعر عنده من نعمة تجزى) واياه عنى أسامة بن منقذ بقوله

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا * له فكل على الخيرات منكش
أيامه مثل شهر الصوم طاهرة * من المعاصي وفيها الجوع والعطش

قلت رحمه الله ما كان يبذل أموال المسلمين الا في الجهاد وما يعود نفعه على العباد وكان كما قيل في حق عبد الله بن محير يزوهوم سادات التابعين بالشام قال يعقوب بن سفيان الحافظ حدثنا صخرة عن الشيباني قال كان ابن الدبلي من أنصر الناس لاخوانه فذكر ابن محير في مجلسه فقال رجل كان بخيلا مغضب ابن الدبلي وقال كان جوادا حيث يحب الله بخيلا حيث يحبون وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في ليلة الميلاد يمدح نور الدين رحمه الله

في كل عام للبرية ليلة * فيها تشب النار بالايقاد
لكن لنور الدين من دون الورى * نار ان تارقى ونار جهاد
أبدا بصرة فماتداه وبأهه * فالعام أجمع ليلة الميلاد
ملك له في كل جيدمة * أبهى من الاطواق في الاجياد
أعلى الملوك يد او أمنعهم حى * وأمد هم كفاي سذل تاد

مكتاب (٢٣٠) الروضتين

يعطى الجزيل من النوال تبرعا * من غير مسألة ولا ميعاد
لازال في سعد وملك دائم * مادامت الدنيا بغير نفاد

وقد تدم من شعرا بن منير وابن القيسراني والحمد والكاتب وغيرهم من مدح نور الدين بالكرم والجود ما قليل منه ردة قول الوهراني وابن منقذ على ان ابن منقذ قد رددنا شعره كآثرنا وانما الشعراء وأكثرا الناس كما قال الله تعالى في وصف قوم فان أعطوا منهم ارضا ولو ان لم يعطوا منها اذاهم يسخطون وما كل وقت ينفق العطاء ويغفل الله ما يشاء

(فصل ١٠) قال ابن الاثير لما توفي نور الدين جلس ابنه الملك الصالح اسماعيل في الملك وحلفه ولم يبلغ الحلم وحلف له الامراء والمقدمون بدمشق واقام بها واطاعه الناس في سائر بلاد الشام وصلاح الدين بمصر وخطب له بها وضرب السكة باسمه فيها وتولى تربيته الامير شمس الدين محمد بن المقدم قال العماد واخرجوا يوم وفادة نور الدين ولده الملك الصالح اسماعيل وقد ابدي الحزن والعويل وهو يحجز الزوايا مشقوق الجيب حاسر الفم ما جفا وجهه من الريب واجلسوه في الاوان الثمالي من الدست والتحف الباقي من عهد تاج الدولة تنش فاستوحى كل قلب خزنه واستوحش فوقه الناس يضطرمون ويضطربون ويتلهفون ويلتمسون وما كفن بحلة الكرامه ودفن في روضة بابها الى باب رضوان من دار المقامه وقضوا الجزع وقضوا الفزع وغيبوا الدمه واحضروا الربعه حضر القاضي كمال الدين وشمس الدين بن المقدم وجمال الدولة ربحان وهو اكبر الخدم والعدل ابو صالح بن الجهي أمين الاعمال والشجاع اسمعيل خازن بيت المال وتحالفوا على أن تكون ابدية واحدة وعزائمهم متعاقده وان ابن المقدم مقدم العسكر واليه المرجع والمقدر قال وانشأت في ذلك اليوم كتابا عن الملك الصالح الى صلاح الدين في تفرغته بنور الدين ترجمته (اسماعيل بن محمود) وفيه (اطال الله بقضاء سيدنا الملك الناصر وعظم آثرنا واجر في والدنا الملك العادل نذب الشام بل الاسلام حافظ ثغوره وملاحظ اموره ومقدام الجهاد مقتنى فضيلته ومؤدى فريضته ومحصى سنته وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره على انه يعزان يرى الزمان نظيره وماها هنا ما يشغل السر ويقسم الفكر الأمر الفرخ نجدهم الله وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه اليه الا مثل هذا الحادث الجلل والصرف الكارث المذهل فقد اخره لكفايات التوايب واعده لحسم ادواء المعضلات اللوارب وأمله ليومه ولغده ورجاه لنفسه ولولده ومكنه قوة لعصده خاف قدر حجه الله الاصوره والمعنى باق والله تعالى حافظ لبيته واق وهل غيره دام سموه من مؤازر وهل سوى السيد الاجل الناصر من ناصر وقد عرفناه المقترح لبروض برأيه من الامر ما جمع والا هم شغل الكفار عن هذه الديار بما كان عازما عليه من قصدهم والنيكاية فيهم على البدار ويجري على العادة الحسنى في احياء ذكر الوالد المحمد بذكرنا راغبيا في اغتنام ثنائنا وشكرنا قلت وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين فأرسل كتابا بالمثل الفاضلي فيه (ورد خبر من جانب العدو اللعين عن المولى نور الدين أعادنا الله فيه من سماع المكره ونور بعافيته القلوب والوجوه فاشتد به الامر وضاق به الصدر وانقصم بجدائه الظهور وعز فيه التثبت وأعوز الصبر فان كان والعباز بالله قد تم وخصه الحكيم الذي عم فلعوا حدثن انصال وللايام تصطنع الرجال وما رتب الملوك مما لكها الا لا ولادها ولا استودعت الارض الكريمة البذر الا لتؤدى حقها يوم حصادها فانه الله ان تتخلف القلوب والايدى فتبلغ الاعداء مرادها وتقدم الاراء عرصادها وتنقل النعم التي تعبت الايام فيها الى ان اعطت قيادها فكروا في اواحدة واعضادا متساعده وقلوبها مجمعه اود وسيوفها بضمها غمد ولا تتخلفوا فتكلموا ولا تنازعوا فافتشوا وقوموا على امشاط الارجل ولاتأخذوا الامر باطراف الاغل فالعداوة محدقه بكم من كل مكان والكفر مجمع على الايمان ولهذا البيت منابصر لا تخذه وقائم لا تسلمه وقد كانت وصيته اليه ساقية ورسالته عندنا محققة بان ولده القائم بالامر وسعد الدين كشتكين الاتباك بين يديه فان كانت الوصية ظهرت وقبلت والطاعة في الغيبة والحضور أدبت وفعلت والا فخص لهذا الوليد على من باواه وسيف على من عاداه وان اسفر الخبر عن معافاه فهو الغرض المطلوب والنذر الذي يحل على الايدى والقلوب) قال العماد وورد كتاب صلاح الدين بالمثل الفاضلي معز يال ابن نور الدين وفي آخره (وأما العدو خذله الله فوراه من الخادم من يظلمه طلب ليل لنهاه وسيل لقراره الى ان يرتجعه من مجاثمه ويستوقفه عن مواقف مغافه وذلك من أقل فروض البيت الكريم

وايسر لوازمه اصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذى القعدة وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم وصرح فيه بذكره في الموقف العظيم والجمع الذي لا غفوه ولا تأثم وأشبهه يوم الخادم أمسه في الخدمة ووفى ما لزمه من حقوق الشئمة وجمع كلمة الاسلام عالما ان الجماعة رحه والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه ويؤكدهم هذا النعماء الزاخرة لديه ويجعل للاسلام واقية باقية عليه ويوفى الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشبيده ومضاعفة ملكه ومزيدة ويسر من كل أمر صالح وتقريب بعيدة ان شاء الله ومن كتاب آخر (الخادم مستقر على بدائه من الاستشراف لاوامر ها والتعرض لمراسمها والرفع لكلماتها والبالغة لسكرها والتحقق بتخدمتها في بواطن الاحوال وظواهرها والتربح لان يؤمر فيقتل ويكلف فيقتل وان يرمى به في بحر العدو فيستدد بجهدده ويوفى أيام الدولة العالية يوما يكشف الله فيه للمولى صميم عبده) قال العماد لما توفي نور الدين اختل أمرى واعتل سرى وعلت حسادى وبلغ مرادهم اضدادى وكان الملك الصالح صغيرا فصار العدل ابن العجمي له وزيرا وتصرف المحتالفون في الخزانة والدولة كأرادوا وولوا وصرفوا ونقصوا وزادوا واقتصروا على الكفاية محروم الدعوة من الاجابة ومما نظمته في مرثية نور الدين قصيدة منها

لقد الملك العلى * دلى بيكى الملك والعدل * وقد أظلمت الافا * قلا شمس ولا ظل
ولما غاب نور الدين * عنا أظلم الحفل * وزال الخصب والخير وزاد الشر والمحل
ومات البأس والجو * ودعاس البأس والجمل * وعز النقص لماها * بن اهل الفضل والفضل
وهل ينطق ذوالعلم اذا ما نطق الجهول * وما كان لنور الدين لولا نجله مثل

(فصل) قال العماد وافق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على المغر وقصدهم بانياس وجوان يتم لهم الامر ثم ظهرت خيبتهم وبان الياس وذلك ان شمس الدين ابن المقدم خرج وراسل الفرنج وخوفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم وانه قد عزم على جهادهم وتكلموا في الهدنة وقطع مواد الحرب والقتنه وحصولا بقطيعة استجملوها وعدة من اسارهم استطلقوها وتمت المصالحة وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره ولم يعجبه وكتب الى جماعة الاعيان كتابا دالة على التوبخ والملام ومن جملتها كتاب بالنسأل الفاضلى الى الشيخ شرف الدين ابن ابي عصرون يخبره فيه انه لما أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج تجهز وخرج وسار أربع مراحل ثم جاء الخبر بالهدنة المؤدنة بذل الاسلام من دفع القطيعة واطلاق الاسارى وسيدنا الشيخ أوى من أطاق لسانه الذى تعذله السيوف وتجرد وقام في سبيل الله قيام من يقطع عادية من تعذى وتمرد وفي آخره وكتب من المنزل بفاقوس والفجر قدمه من يشق ثوب الصباح لولان الثريا تعرضت تعرض أثناء الوشاح وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثانى عشر ذى الحجة بلغه الله فيه عمله وقبل عمله بالغاسنى المراد وأفضله وقال ابن الاثير لما توفي نور الدين قال الامر انهم شمس الدين ابن المقدم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحى وغيرهما من أكابر الامراء قد علمت ان صلاح الدين من ممالك نور الدين ونوابه والمصلحة ان نشاورة فيما ينفعه ولا تخبره من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح ويجعل ذلك حجة علينا وهو أوى منا لان له مثل مصر وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح فلم يوافق اغراضهم هذا القول وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويجزوا قال فلم يرض غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح حينئذ بالملك ويعز به بآييه وأرسل دافن مصرية وعليها اسمه ويعرفه ان الخطبة والطاعة له كما كانت لوالده فلياس سريسيك الدين غازى بن عمه قطب الدين وملك الدار الجزرية ولم يرسل من مع الملك الصالح من الامراء الى صلاح الدين ولا أعلموه الحال كتب الى الملك الصالح يعقبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلادهم ليحضر في خدمته وجمعه وكتب الى الامراء بقوله ان الملك العادل لو علم ان فيكم من يقوم مقامى أوثق اليه مثل ثقته بسلم الله مصر للتي هي أعظم محالكة ولولاه ولولم يجعل عليه الموت لم يهمل الى أحدث بية ولده والقيام بخدمة سوانى وأرا كقد تفردت بخدمة مولاى وابن مولاى دونى فسوف أصل الى خدمة مولاى جزى انعام والده بخدمة يظهر أثرها وأقبل كلالا منكم على سوء صنيعه واهمال أمر الملك الصالح ومصلحته حتى أخذت ولاده فأقام الصالح بدمشق ومعه جماعة من الامراء لم يكنوه من المسير الى حلب لئلا يعلم عليه شمس الدين على بن اذاية فانه كان أكابر الامراء النورية وانما تأخر عن خدمة الملك

الصالح بعد وفاة نور الدين مرض لحقه وكان هو واخوته يحلب وأمرها اليهم وعسكرها معهم في حياة نور الدين وبعده ولما عجز عن الحركة أرسل الى الملك الصالح بدعوه الى حلب لينزع البلاد من سيف الدين ابن عمه وأرسل الى الامراء يقول لهم ان سيف الدين قد ملك الى الفرات ولئن لم ترسلوا الملك الصالح الى حلب حتى يجمع العساكر ويسترد ما أخذ منه والا عبر سيف الدين الفرات الى حلب ولا تقوى على منعه فلم يرسلوه ولا مكثوه من قصد حلب قال وكان نور الدين من قبل ان يمرض قد أرسل عساكره فلما سكن بعض الطريق أتاه الخبر بموت عمه نور الدين فعاد الى نصيب خذلها وأرسل الشحنة الى الخابور فاستولوا عليها وسار هو الى حران فحصرها عدة أيام ثم أخذها وملك الرها وازقة وسر وج واستكمل ملك سائر ديار الجيزة سوى قلعة جعفر فقال له نور الدين عبد المسيح وكان قنقارقي سواس بعد وفاة نور الدين وقصد سيف الدين ظننا منه ان سيف الدين يرعى له خدمته وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين على ما ذكرناه أولاً فلم يحن ثمره ما غرس وكان عنده كبعض الامراء ليس بالشام من يمنك فاعبر الفرات وأملك البلاد فاشأر أمير آخره وهو أكبر أمر أنه قد ملكك أكثر من والدك والمصلحتان تعود فرجع الى الموصل

(فصل)

قال ابن الاثير قد سبق ان نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكه اذ زدار له وهو سعد الدين كشته يكن بعض خدمه الحصيان فلما سار سيف الدين الى الشام كان في مقدمته على مرحلة فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب وأرسل سيف الدين في أثره فلم يدركه فذهب بركه ودوابه وسار الى حلب وتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية واخوته واستقر بينهم وبينه ان يدبر الى دمشق ويحضر الملك الصالح فصار الى دمشق فاخرج ابن المقدم عسكرا لينبيه فعاد منه زما الى حلب فاخلف عليه شمس الدين ابن الداية ما أخذ منه وجوزة وسير الى دمشق وعلى نفسها تجني براقتن فلما وصلها سعد الدين دخلها واجتمع بالملك الصالح والامراء واعلمهم ما في قصد الملك الصالح الى حلب من المصالح فاجابوا الى تسييره فصار اليها لما وصلها اوصعد الى قلعتها قبض الخادم سعد الدين على شمس الدين ابن الداية واخوته وعلى ابن الحشاش رئيس حلب قال ابن الاثير ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ولا حرم من ذلك الخلف والوهن شيء وكان أمر الله قدرا مقدورا فاستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح فخافه ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق وكتبوا سيف الدين ليسلموا اليه دمشق فلم يفعل وخاف ان تكون مكيدة عليه ليحضر الفرات ويسير الى دمشق فيمنع عنها وقصد ابن عمه من وراء ظهره فلا يمكنه الثبات فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار ما أخذ به يدو يقي الملك الصالح بحجاب سعد الدين بين يديه يدبر أمره وتمكن منه متمككا عظيما يقارب الحجر عليه قال العماد كان كشته يكن الخادم النائب بالموصل قد سمع عرض نور الدين فخافه واستأذن في الوصول الى الشام فطلب سيف الدين غازي رضاء وخرج وسار مرحلتين ومع البغي فاغذ السير والسقي ونجابهه وبجابهه وندم صاحب الموصل على الرضى بترحاله وكانت عنده وفاة ٤٤٠ بشاره وظهرت على صفحاته منها اماره فانه لم يرل من كشته يكن متشككا فانه كان لجر الامر عليه مذكا وكان المرحوم قد أمر بإقامة الجور وازالة المحظور واسقاط المكوس واعدام افساط البوس فتودى في الموضع يوم ورود الخبر بالضمحة في الشرب جهارا ليلا ونهارا وزال العرف وعاد النكر وأنشد قول ابن هاني (ولاتقنى سرا فقد أمكن الجهر) وقيل أخذ المناسدي على يده وادنا عليه قدح وزمر وزعم انه خرج بهذا أمر فلاحرج على من يغنى ويشرب وعادت الضرائب وضربت العوائد فلما كشته يكن فانه وصل الى حلب بعد ان جرى ما جرى وتمثل عند الصباح بمجد القوم السرى واجتمع هناك بالامر شمس الدين على ابن الداية واخوته أخوه بمجد الدين وأظهر انه لم من الحصين وكان بمجد الدين أبو بكر أخو رضاء نور الدين وقد تربى معه ولزمه وتبعه الى ان ملك الشام بعد والده فقوض الى مجد الدين جميع مقاصده من طريقه وتآله وحكمه في الملك ونظمه في السلك فلا يحل ولا يعقد الا برأيه وكانت حصونه محصنة وهو يسكن عنده في قلعة حلب والحاضر عنده صباحا ومساء اذا طلب وشي زرع أخيه شمس الدين على وتلعة جعفر رتل بأشهر مع سابق الدين عثمان وحارم مع بدر الدين حسن وعين ناب وعزاز وغيره انوا به فيها وهو يصونها ويحميها ولما توفي حرت اخوته في القرب والازدياط على عادته وهم أعيان الدولة وأعضاءها وابدال أرضها وأوتادها واجدادها وأجوادها فلما توفي نور الدين لم يشكروا في انهم يذكرون ولده ويرثونه ويحبهم لاجل سابقتهم ويحبونه فاقام شمس الدين على وهو أكبرهم وأوجههم ودخل قلعة

في اخبار (٢٣٣) الدولتين

حلب وبها واليا شاذبخت وسكنها وأسر مصالحة الدولة وأعلنها وعرف ماجرى دمشق من الاجتماع وانفاق ذوى
الاطماع فكاتبهم وأمرهم بالوصول اليه في خدمة الملك الصالح وانفذ أخاه سابق الدين عثمان وكان قليل الخبرة بعيدا
من الدهاء فاستقر الامر على ان يجالوا الملك الصالح اليه ويقدموا به عليه وهو يتسلم ممالكه ويكون أبا بكة ووصل
كششكين الى دمشق في تلك الايام فواقفهم على مآبر وهم المرام وسار الصالح معه كششكين والعدل ابن العجي
واسماعيل الخازن فبقعوا أخوة محمد الدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم وجاء ابن الخشاب أبو الفضل مقدم الشيعه
فسفكوا دمه وأقام شمس الدين ابن المتقدم بدمشق على عساكر هامقما وفي مصالحيها محكما وجمال الدين ربحان
والى القلعة والشحن من قبله والامر اليه بتفصيله وجعله والناسى كمال الدين الشهر زورى الحاسك النافذ
حكاه الصائب سمعه الشاقب نجمة وكان مسير الملك الصالح من دمشق في الثالث والعشرين من ذى الحجة وغازط
صلاح الدين ما فعل بأخوة محمد الدين وقال ابن أبي طى الحلبي لمسامات نور الدين اجتمع أسراء دولته وانفقوا على ان
يكونوا في خدمة الملك الصالح بن نور الدين وكان يومئذ صديا واجعوا على منابذة الملك الناصر وقبض أصحابه
الذين بالشام ومصالحة الفرنج على بدان المتقدم شمس الدين مقدم العساكر وتم ذلك واستقر وركب الملك الصالح
بدمشق وخطب له وكانت الفرنج قد تحركت الى قصد دمشق فخرج ابن المتقدم ونزل على بناس في عساكر نور الدين
وراسل الفرنج في الهدنة فأجابوه بعد ان دفعوا اقطيعه على المسلمين فجهل حملها وتم أسرار الصلح وعادت الفرنج الى
بلادها وابن المتقدم الى دمشق واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر وكان قد خرج من مصر أربعين مائة
فأعظم أمرها وأكبره واستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم فراسل ابن المتقدم وغيره من الامراء بانكار ذلك
والتوبخ عليه وقال في كتابه الى ابن أبي عسرون (ورد الخبر يصلح في الفرنج والدمشقيين وبقيته بلاد المسلمين
مادخلت في القعد ولا تنظمت في سلك هذا القعد والعدو هما واحد ومرف مال الله الذي أعد لهم الطاعة
ومصالحة الجماعة في هذه المعصية المقضية لله ولرسوله ولصالحى الامه وكان مذكور الكشف القمه فصار عونا وان
أسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأهم شديدة وشوكتهم حديدية دفعوا في اقطيعه وجعلوا الى السلم السبب
والذريعة فلما بلغنا هذا الخبر وتقنا بين الورد والصدر وان آمننا ظننا بنعيمنا مزيد وان قعدنا العدو من بقية
الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد وان فرقنا العساكر لذي ينافا اجتماعها بعد افتراقها شديد فربا ان سيرا الى حضرة
الامير شمس الدين أبي الحسن على وأخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك وأنه امر ربما يجزئ به عن الاستدراك
وان العدو طالب لا يغفل وجاد لا يسكل وليث لا يضيع الفرصه مجد لا يميل الى الرخصه فان كانت الجماعة ساخطين
فيظهر امارات السخط والتغير ولا يمسك في الاول فيجزع عن الاخر لاسيما ونحن نغار الله ونغير ونقص للمسلمين ما يجمع
به صلاح الراى وصواب التدبير وقد منعنا عساكرنا ان تغترق خوفا أن يقصد العدو ناحية حارم بالمال الذي قويت به
قوته وثرت به ثروته وان بسطت به خطوته فانه مادام يعلم اننا مجتمعون وعلى طلبه مجمعون لا يمكنه أن يراى من أكره ولا
يبادر منا هزه) قال وكان متولى قلعة حلب شاذبخت الخادم النورى وكان شمس الدين على أخوة محمد الدين بن الداية
اليه أمور الجيش والديوان والى أخيه بدر الدين حسن الشحنة وكان يديده احوته جميع المعاقل التي حول حلب
فمالبغ عليا موت نور الدين سعد الى القلعة وكان مقعدا واضطرب بالدمشق سكه ابن الخشاب فامتنع من الصعود اليهم
وترددت بينهم الرسالة فحزب الناس بحلب أهل السنة مع بنى الداية والشيعه مع ابن الخشاب وحررت أسباب اقتضت
أن أنزل حسن بن الداية جماعة من القلعين وأهل الحاضرة وزحفوا الى دار ابن الخشاب فلكوها ونهبوها واختفى
ابن الخشاب واتصلت هذه الاخبار بمن في دمشق وأخذوا الملك الصالح وساروا الى حلب في الثالث والعشرين من
ذى الحجة وسار مع الملك الصالح سعد الدين كششكين وجرديك واسماعيل الخازن وسابق الدين عثمان بن الداية
وقد وكلت الجماعة به وهو لا يعلم وساروا الى حلب ونزع الناس الى لقاءهم وكان حسن قد رتب في تلك الليلة جماعة
من الخلبين ليصيح ويضلهم فلما خرج الى لقاء الملك الصالح وقعت عينه عليه نزجلا ليخدمه هو وجماعته من
أصحابه فقدم جرديك وأخيلده وشبهه وجذبه فأركبه خلفه ودينا لقبض سابق الدين أخوه في الحبال وتخطفت
أصحابهم جميعهم واحتيط عليهم وساروا مجددين حتى سبقوا الخبر الى القلعة وصعدوا اليها وقبضوا على شمس الدين

كتاب (٢٣٤) الروضتين

على ابن الداية من فراشه وجل الى بين يدي الملك الصالح فاستقبله أحد مماليك نور الدين المعروف بالحنفية فركله برجله ركلة دحاهبا على وجهه فانسقت جبهته ثم صفدوا جميعا وحبسوا في جب القلعة وقبضوا على جميع الاجناد الذين حلقوا لاولاد الداية وآخر جوار جميعا من القلعة قتل وفي آخر هذه السنة توفي مولى الفرنجي الملك الذي كان حاصر القاهرة وأشرف على أخذ الداية بالمصرية وفي كتاب فاضلي (ورد كتاب من الداروم يذكر انه لما كان عشية الخميس ناسع ذي الحجة هلك مولى الملك الفرنج لعنه الله ونقله الى عذاب كاسمه مشتقا وأقدمه على نارتلطي لاصلاها الاشقي)

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة هـ قال ابن أبي طي في أولها ضمن القطب ابن العجمي أبو صالح وابن أمين الدولة لمردك ان قتل ابن الحشاش ردوا عليه جميع ما نهب له في دار ابن أمين الدولة فدخل على الملك الصالح وتحدث معه وأخذ خاتمه أما نال ابن الحشاش ونودي عليه فحضر وركب الى القلعة فقتل وعلق رأسه على أحد أبراج القلعة وبقي الملك الصالح في قلعة حلب ومضى العماد الكاتب الى الموصل قال وعمرت على خدمة سيف الدين صاحبها وقد أخذ من بلاد الجزيرة الى حد الفرات ومضى اليه ابن العجمي فأصلح بين ابن العجمي وعلق رهن أخوة مجد الدين في الاعتقال وضيقوا عليهم في الفيود والغلال وأزموهم بتسليم الحصون وتقديم الرهون الى أن غصبوا دورهم وخر بواصمورهم قال وكان الموفق خالد ابن القيسراني قد وصل ونحى بدمشق من مصر فزمن داره ولم يدخل مع القوم فأما صلاح الدين فإنه اعتقد أن ولد نور الدين لا بعده أخوة مجد الدين لما جرى ما جرى ساء ذلك وقال أنا أحق برعي اليهود والسعي محمود فإنه ان استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المتجتمعة وضاعت المناهج المتبعة وانفردت مصر عن الشام وطمع أهل الكفر في بلاد الاسلام وكتب الى ابن المقدم يسكر ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة وكيف اجتروا على اعضاء الدولة وأزكائها بل أهلها واخوانها وأنه يلزمه أمرهم وأمرها ويصره ضرهم وضرها فكتب ابن المقدم اليه برده عن هذه العزيمة ويقبل له استحسان هذه الشجة ويقول له (لا يقال عليك انك طمعت في بيت من عرسك وبالذوأسسك وأصفي مشربك وأصفي ملبسك وأجلى سكوك الملك مصر وفي دسسته أجلسك فما يليق بمالك ومحاسن اخلاقك وخلالك غير فضلك وافضالك) فكتب اليه صلاح الدين بالانشاء الفاضلي (الانؤثر للاسلام وأهل الاما جمع سلمهم وأنف كلتم والبيت الاناكي أعلاء الله الاما حفظ أصله وفرعه ودفع ضره وجلب نفعه فالوفاء انما يكون بعد الوفاء والمحبة انما تذهروا ثارها عند تكاثر اطاع العداة وبالجله انافي وادوا الظاؤون بناظر السوء في واد ولنا من الصلاح مراد ولن يبعدنا عنه مراد ولا يقال لمن طلب الصلاح انك قاذح ولن ألقى السلاح انك جارج)

(فصل) قال العماد ثم عزم السلطان على أن يسارع الى تلافي الامر فاعترضه امر أن أحدهما وصول اسطول صقلية الى الاسكندرية وادراكه والثاني نوبة الكثر وذهابها وهلاكه أما وصول الاسطول فكان يوم الاحد السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين وانهزم في أول المحرم سنة سبعين ثم ذكر كتابا بوصول من صلاح الدين الى بعض الامراء بالشام يشرح الحال وحاصله ان أول الاسطول وصل وقت الظهر ولم يزل عواصلا متكاملا الى وقت العصر وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر لاعلى حين خنا من الخبر فأمر ذلك الاسطول كن قد اشتهر وروعه ابن عبد المؤمن في البلاد المغربية وهدده في الجزائر الرومية صاحب قسطنطينية فشوه في الثغر من وفور عدته وكثرة عدته وعظيم الهمة به وفرط الاستكثار منه ماملأ البحر واشتد به الامر فحصى أهل الثغر عليهم البر ثم اشير عليهم أن يقر بوا من السور فأمكن الاسطول النزول فاستنزلوا اخيوهم من الطرأ وراجلهم من المراكب فكانت الخيل ألفا وخمسمائة رأس وكانوا ثلاثين ألف مقاتل مابين فارس وراجل وكانت عددة الطرأ ستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل وكان معهم مائتا شني في كل شني مائة وخمسون راغلا وكانت عددة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الاخشاب الكبار وغيرها ست سفن وكانت عددة المراكب الحاملة برسح الازواد والرجال أربعين مراكبا وقها من الراجل المتفرق وغلان الخيالة وصناع المراكب وراجل الزحف ودباباته والمجنبة مائتم خمسين ألف رجل ولما تكاملوا ازال ابن علي البرنارجين من البحر جموا على المسلمين جملة أوصلوهم الى السور وفقد من أهل

في اخبار (٢٣٥) الدولتين

الثغر في وقت الجملة ما ينهز سبعة أنفس واستشهد بمجودين البصار وبسهم جرح وحذفت مراكب الفرع داخله الى المينا وكان به مراكب مقاتله ومراكب مسافره فسبقهم أصحاب اليها فشقوها وغرقوها وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها واتصل القتال الى المساء فضر براخيائهم بالبر وكان عدتهم ثلثمائة ختم فلما أصبحوا زحفوا وضاعوا وحاصروا ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها وثلاثة مجانبتي صكبار المقادر تضرب بمجاعة سود استمحبوها من صقلية ونجيب أصحابنا من شدة أثرها وعظم حجرها وأمال الدبابات فانها تشبه الابراج في جفأه أخشابها وارتفاعها وكثرة مقاتلتها واتساعها وزحفولها الى ان قاربت السور وجلوا في القتال عامة النهار المذكور ورد الخبر الى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو على جناح الظائر فاستنصنا العساكر الى الثغرين اسكندرية ودمياط احترازاً عليها واحتياطاً في أمرها وخوفاً من مخالفة العدو اليها واستمر القتال وقدمت الدبابات وضربت المجنبيات وزاجت السور الى ان صارت منه بقعة داراماج البحر واهاج الدور فاتفق أصحابنا على ان يفتحوا ابواباً قبالة الثغرين السور ويتركوها معلقة بالشعور ثم فتحوا الابواب وتركوا صالح أهل الثغرين كل الجهات فاحرقوا الدبابات المنصوبة وصدقوا عندها من القتال وأزل الله على المسلمين النصر وعنى الكفار الخذلان والقهر واتصل القتال الى العصر من يوم الاربعاء وقد ظهر فشل الفرنج ورعبهم وقصرت عزائمهم وفتح بهم وأحرق آلات قتالهم واستخر القتل والجراح في رجالهم ودخل المسلمون الى المغر لاجل قضاء فريضة الصلاة وأخذوا به قيام الحياه وهم على نية المباكره والعدو على نية الحرب والمبادره ثم كرم المسلمون عليهم بقتة وقد كاد يحتل الظلام فهاجمهم في الخيام فقتلوا بها ما فيها وقد كرم في الرجاله أعظم قتل وتسلوا الخيمه ولم يسلم منهم الا من نزح ليلسه ورمى في البحر نفسه وتقم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فحسبوها وأتلفوها فولت بقية المراكب هاربه وجاءتها أحكام الله الغالبه وبقي العدو بين قتل وغرق وأسروفرق واحتمى ثلثمائة فارس منهم في رأس تل فأخذت خيولهم ثم قتلوا وأسروا وأخذ من المتاع والآلات والأسلحه ما لا يحصى من هذه الأسطول عن الثغر يوم الخميس وذكر ابن شداد ان نزول هذا العدو كان في شهر صفر وكانوا ثلاثين ألفاً في ستمائة قطعه مابين شينى وطراذه وبسطه وغير ذلك

(فصل ٤) وأما نوبة الكثرة فقال ابن شداد الكثرة انسان مقدم من المصريين كان قد انتزح الى أسوان فأقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويخيل لهم انه ملك البلاد ويعيد الدولة مصريه وكان في قلوب القوم من المها والى مصرين ما تنصغر هذه الاعمال عنده فاجتمع عليه خلق كثير وجمع واقر من السودان وقصد قوص وأعمالها فاتهته خبره الى صلاح الدين فخره له عسكر اعظيماً شاكين في السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصريه وخافوا على فوت ذلك منهم وقد علمهم أخاه سيف الدين وسار بهم حتى أتى القوم فلقبهم بمصافى فحسبهم وقتل منهم خلقاً عظيماً واستأصل شافتهم وأخذنا نثرهم وذلك في السابع من صفر سنة سبعين واستقرت قواعد الملك قال العماد وفي أول سنة سبعين مستهلها فامام المعروف بالكثرة في الصعيد وجمع من كان في البلاد من السودان والعبيد وعداود عا القريب والبعيد وكان عنده من الامراء أخ لحسام الدين ابى الهجاء السجين ففتك به وبمن هنالك من المنقطعين فغارت حمية أخيه ونارت النار وساعده أخو السلطان سيف الدين وعز الدين موسى بن خاله وعدة من أمرائه ورجاله وجاءوا الى مدينة طود فاحت عليهم وامتنعت فأمرت البلية اليها وبها وقعت وأتى السيف على أهلها وبات بعد عزها بندها ثم قدم الكثرة وهو في طغيانه وعدوانه وسوءه وسودانه فسفك دمه وظهر بعد ظهور وجوده عدمه وارتقب دماء سوده وهجم غابه على اسوده ولم يبق للدولة بعد كثره اكنز وطل دمه ولم ينتطع فيه عز وارتدع المارقون فخار قوا بعدة سلم فثاق والله لنا صرى دينه ناصر وواق وقال ابن أبى طى واتفق أعضان خرج بقريه من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شاذى وثارى في بلاد قوص ونهبها وخرها وأخذ أموال الناس واتصل بذلك بالملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب وكان السلطان قد استأبته بعصر فجمع له العساكر وأوقع به وبقتله وفض جوعه وقتله ثم قصد بعده كثر الدولة الوالى بأسوان وكان قصد بلد طود فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله

(فصل ٥) في توجه صلاح الدين الى دمشق ودخوله اليها في يوم الاثنين آخر شهر ربيع الاول قال العماد لما خلا

كتاب (٢٣٦) الروضتين

بألهما تقدم ذكره تجهز لقصد الشام فخرج إلى البركة مستهل صفر وأقام حتى اجتمع العسكر ثم رحل إلى بلبس ثالث عشر ربيع الأول وكانت برسل شمس الدين صاحب بصرى صديق ابن جادى وشمس الدين بن المقدم عنده تستورى فى الخث والبعث زنده وتستقدمه وجنده وسار على صدرواثة ووصل السير بالسرى حتى أراح على بصرى بصيرا بالعلى نصيرا للهدى فاستقبله صاحب بصرى وشذازره وسدد أمره واستضاف إلى بصرى صرخد وتفرذ بالسبق إلى الخدمة وتوحد وسار فى الخدمة معه إلى الكسوة وبكر صلاح الدين يوم الاثنين أنسلخ الدهر وسار فى موكب قوى بالعدد والعدد وحسب ان يمتنع عليه البلد وان الاطراف تونق والاراب تغلق فأقبل وهو يسوق وأقبله يشوق حتى دخل دمشق وخرقها وكان الله تعالى له خلقها ودخل إلى داره فى مسكن أبيه وبقي جبال الدين ربحان الخادم فى القلعة على تأييه فراسله حتى استماله وأغزله نواله وتلك المدينة والقاعة وزل بالبلعة سيف الاسلام وأخو السلطان صلاح الدين وملك ابن المقدم داره وكل ما حاربتها وبذل له طلبته التى أشار إليها ونص عليها وأطهراته قد جاءه لترية الملك الصالح وحفظ ماله من المصالح وتدير ملكه فهو أحق بصيادته واجتمع به أعيانها وخلص لولاية أسرارها وأعلنها وأصبح وهو سلطانها وزار القاضي كمال الدين ابن النهر زورى فوفاه حقه من الاحترام وأوفر له حظ النجيب والاعظام ونفذت الكتب بالاثلة الفاضلية إلى مصر بهذا الصرخ والنصر وفى بعضنا اليوم وصلونا إلى بصرى وتبناه وفدت وهاجرت وتراحت ونكارت وتوافت الامراء والاجناد الاراء والاكراد والعربان وراجل الاعمال وأعيان الرجال ورود كذب من دمشق بعد كتاب وكل مخبر وذاكر وهو غائب بكابه حاضر يذكر ان البلاد مكنة القياد مذعنة إلى المراد وأما الفرنج خذلهم الله فاناقى غذه السفر المبارك كتر لنا فى بلادهم نزول المتحكم واقتناها فامة الحاضر المتخيم وعيونهم متناومة وجزنا ونوفهم راعمة وروضة خاور قايم صغر ومرنا وعيشهم مر والله يزيدهم ذلا ويجعل عداوة الاسلام فى صدورهم غلا وفى أعناقهم غلا وفى كآب آخر (وكان رحيلنا من بصرى يوم الاربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول وقد توجه صاحبنا بين أيدينا فاما شىروط الخدمة ولوارهم فام لقينا الاجل ناصر الدين ابن المولى أسد الدين رحمة الله عليه وأدام نعمته والامر سعد الدين ابن أرفى يوم السبت السابع والعشرين ونزلنا يوم الاحد بجسر الخشب والاجناد الدمشقية الينا متوافيه والوجود على أبوابنا متارمية ولم تأخر الامن أبقي وجهه وراقب صاحبه ومن اعتد بالقيود انه قد نذر لنفسه فى العقابه ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خير الله تعالى وعرض دون الدخول عدد من الرجال فدعستهم عساكر بالمنصورة وصدمتهم وعرقهم كيف يكون اللقاء وعلتهم ودخلنا البلد واستقرت بنا دار والذارجة الله عليه قررة عيوننا مستقرا سكنون الرعية وسكوننا وادعنا فى أرجاء البلد انداء باطية النفوس وإزالة المكوس وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت واليد المنعذبة قد امتدت إلى أحوالهم وأججت فشرعنا فى امدال أمر الشرع ورفعها واعفاء الامة منها برضعها قال ابن الاثير لما خاف من بدمشق من الامراء ان يقصدهم كسكين والملك الصالح من حلب فبعثهم بمالهم بما عامل به بنى الداية وأسلوا سيف الدين غازى ليمسها اليه فلم يجيبهم فعلمهم الخوف على ان راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب مصر وكان كبيرهم فى ذلك شمس الدين ابن المقدم ومن أشبهه أباه فاطم فلما أتته الرسل لم تتوقف وسار إلى الشام فلما وصل دمشق سلمها اليه من بهام الامراء ودخلها واستقر بها ولم يقطع خطبة الملك الصالح وانما أظهر انى انما جئت لخدمته واسترته ببلاده التى أخذها من عمه وجرت أمور آخرها له اصطلح وهو سيف الدين والملك الصالح على ما يده وقال القاضي ابن شداد لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين وكون ولده طفلا لا ينض باعباء الملك ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد تجهز للخروج إلى الشام اذ هو أصل بلاد الاسلام تجهز بجمع كبير من العساكر وخلف بالدار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ونفذ أمورها وسياساتها وخرج هو سائر جمع من أهل وأقاربه وهو يكتب أهل البلاد وأمرها ما واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح واختلت تدبيراتهم وخاف بعضهم من بعض وقبض البعض على جماعة منهم وكان ذلك سبب خوف الباقي من فعل ذلك وسبب التنفير قلوب الناس عن الصبي فاقتضى الحال ان كتب ابن المقدم صلاح الدين فوصل إلى البلاد مطا بالملك الصالح ليكون هو الذى يتولى أمره وزيرية حاله فدخل دمشق يوم الثلاثاء سابع ربيع الآخر وكان أول دخوله إلى دار أبيه واجتمع

الناس اليه وفرحوا به وانفق في ذلك اليوم في الناس ما لا طائل ولا ظهر الفرح والسرور بالدمشقيين وانهضوا الفرح به وصعد القلعة واستقر قدمه في ملكها فلم يلبث ان سار في طلب حلب فنزل حص وأخذ مدينتها في جادى الاولى ولم يستغل بقلعتها وسار حتى أتى حلب ونزلها سلخ جادى المذكور وهى الدفعة الاولى وقال ابن أبى طى بلغ السلطان ان ابن المقدم تقضى عهد الملك الصالح وهو كان السبب في خروج سيف الدين صاحب الموصل واستيلائه على البلاد الشرقية ومضاهيته للملك الصالح في ممالكه وقيل ان ابن المقدم كاتب السلطان ودعاه الى الخروج وقيل انما خرج الى الشام خوفا من حركة تشأس من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام وشغل بعضهم ببعض وبجواب همض ورد من ابن المقدم ولما تيقن ابن المقدم خروج السلطان الى جهة دمشق أشفق من ذلك واستدرك ما بدا منه وتذلل له ووعده تسليم دمشق اليه قال ولما حصل على دمشق وقلعتها واستوطن بقعتها نشر علم العدل والاحسان وعفى آثار الظلم والعدوان وابلل ما كان الولاة استخذوه بعد موت نور الدين من القبايح والمكرات والمجون والضرائب المحرمات قلت وكان قد كتب اليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أولها

تهنئ بأطول المسالك بدا * في بسط عدل وسطوة وندى
أجرا وذكر من ذلك الشكر في السدينا * ومن ذلك الجنان غدا
لا تستقل الذى صنعت فقد * قت بفرض الجهاد مجتهدا
وجست أرض العدى وأفنت من * أبطالهم ما يجاوز العدا
ومارأى أغزى الفرنج من السلوك * فى عقودهم أحدا
فمر الى الشام فاللائكة السلوك * لبرار تلقاك ملتي جدا
فهو فقير اليك بأمل أن * تصلى بالعدل منه مافسدا
والله يعطيك فيه عاقبة النصر كما * فى كتابه وعدا
فأحباك الورى والهكم العدل وأعطاك ما ملكت سدى
ومدح وحيش الاسدى صلاح الدين عند أخذ دمشق بقصيدة أولها

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطجبا * فكن لضعاف هذا النصر مر تقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد * أدنى فرسته الايام ان وثبا
رأيت جلقى ثغر الانظـمير له * بجفئتها عامر امنها الذى خربا
نادتك بالذل لما قتل ناصرها * وأزعم الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد * أعدت من عدلها ما كان قد ذهبها
هذا الذى نصر الاسلام فاتخذت * سيده وأهان الكفر والصلبا
ويوم شاور والايام قد هزمت * جيموشه كان فيه الخلف للعبا
أبت له الضيم نفس مرة و يد * فعالة وفؤاد قط ما وجبا
يستكثر المدح يتلى في مكارمه * زهدا ويستهزئ الدنيا اذا وهبا
ويوم دميماط والاسكندرية قد * أصارهم منلا في الارض قد ضربا
والشام لوليدارك أهله اندرست * آثاره وعفت آياته حقبها

(فصل) في ما جرى بعد فتح دمشق من فتح حص وحصار حلب قال ابن أبى طى لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر وميل الناس اليه وانعكافهم عليه خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته فحملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أوعدها فيها وأبرقوا وقالوا له هذه السجوف التى ملكتك مصر يا ديننا والرياح التى حوشت بها قصور المصربين على أكثافنا والرجال التى ردت عنك تلك العساكر هى ترذك وعمما تصدبت له تصدك وأنت فقد تعديت طورك وتجاوزت حدك وأنت أحد غلمان نور الدين ومن يجب عليه حفظه في ولده قال ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان عليه رسولا تلقاه بموكبه وبغضه وبالغ في اكرامه والاحسان اليه ثم أجضره بعد ثلاثة لسماع

كتاب (٢٣٨) الروضتين

الرسالة منه فلما فاه ابن حسان بتلك الشقايق الباطلة ووقع بتلك القويها العاطلة لم يعرفه السلطان رحمه الله طرفا ولا سمعا ولا رد عليه خفضا ولا رفعا بل ضرب عنه صمغها وتقاضيا وترك جوابه احسانا وتجاوبا وجرى في ميدان أريحته واستن في ستن مروته وظاطبه بكلام لطيف رقيق وقال له يا هذا اعني وصلت الى الشام لجمع كلمة الاسلام وتهذيب الامور وحياطة الجمهور وسد الثغور وترسية ولدنور الدين وكف عادية المعتدين فقال له ابن حسان انك انما ورت لاخذ المالك لنفسك ونحن لانطاولك على ذلك ودون ماتر ومه خرط القناد وقت الاكباد وإيتام الاولاد فباتت السلطان لمقاله وزاد في احفاله وأوى الى رجااه باقامته من بين يديه بعد ان كاد يسطو عليه ونادى في عساكره بالاستعداد لقدد السام الاسفل ورجل متوجه الى حصن فتسلم البلد وقاتل القلعة ولم يرتضييع الزمان عليه فوكل بهامس يحصرها ورحل الى جهة حماه فلما وصل الى الرستن خرج صاحبها عز الدين جرديك وأمر من فيهامن العسكر بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع أمره وسار جرديك حتى لقي السلطان واجتمع به بالرستن وأقام عنده يوما وليلة وظهر من نتيجة اجتماعه به انه سلم اليه جادوسأله أن يكون السفير بينه وبين من يحلب فأجاب به السلطان الى مراده وسار الى حلب وبقى أخو جرديك بقلعة حماه قال وسار جرديك الى حلب وهو وطن انه قد فعل شيئا وحصل عنده من يحلب بدا فاجتمع بالامراء والملوك الصالح وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر فاتهمه الامراء بالخيانة وردوا مشورته وأشاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح وجلس سعد الدين كستكي في القبض عليه فقبض وثقل بالحديد وأخذ بالعذاب الشديد وحمل الى الحب الذي فيه أولاد الداية قال ولما قُتِم جرديك وشد في وسطه الحبل ودلى الى الحب وأحس به أولاد الداية قام اليه منهم حسن وشمة أتبع شتم وسبه الأوسب وحلف بالله ان أنزل اليهم ليقنتنه فامتنعوا من نذليته فاعلم سعد الدين كستكي خفيصا الى الحب وصاح على حسن وشمة وتوعده فسكن حسن وامسك وانزل جرديك الحب فكان عند أولاد الداية واسمعه حسن كل مكروه قال وكب أبي الى حلب حين انفصل به قبض أولاد الداية وجرديك وكانوا تعصبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حاب قصيدة منها

بنوافلانة أعوان الضلالة قد * قضى بدسهم الافلاك والهمذر
واصحو ابعس دعر المالك في صفد * ونعصر مقلعة بغشي لها البصر
وحرد ألدهر في جرديك عزمه * والدهر لا ملجأ منه ولا وزر

قال ولم يزل السلطان مقيما على الرستن ثم طال عليه الامر فصار الى حباب الركبان فأنه أحد غلمان جرديك واخبره بما جرى على جرديك من الاعتقال والقهر فرحل السلطان من ساعته عائدا الى حماه وطلب من أخى جرديك تسليم حماه اليه وأخبره بما جرى على أخيه ففعل وصعد السداد ان الى قلعة حماه واعتبر أحوالها وأولادها مما راز الدين علي بن أبي الفوارس وذلك مستهمل جمادى الآخر وسار السلطان الى حلب ونزل على أنف جبل جوش فوق مشهد المذكور ثالث الشهر وامتنعت عساكره الى الخناقية والى السعدى وكان من يحلب يظنون ان السلطان لا يقدم عليهم فلم يرعاهم الا وعساكره قد نازلت حلب وخيمه تضرب على جبل جوش واعلامه قد نذرت خفافوا من الحلبيين أن يسلبوا البلد كما فعل أهل دمشق فأرادوا تطيب قلوب العامة فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان ويقبل عليهم بنفسه ويخطبهم بنفسه انهم الوزر والملجأ فأمر أن ينادى باجتماع الناس الى ميدان باب العراق فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس فترسل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم يا أهل حلب انار بيكم وتراكم واللاحي اليكم كبير كعندي بمنزلة الاب وشابكم كعندي بمنزلة الاخ وصغيركم كعندي بحمل الولد قال وخنقته العبرة وسقته الدفعة وعلا شجيه فافتتن الناس وصاحوا بصيحة واحدة ورموا بحجارةهم ونحوا بالبكا والعيول وقالوا نحن عبيدك وعبيدك تقاتل بين يديك ونسذل أموالنا وأنفسنا لك واقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح انه يعيد اليهم شرقية الجامع يصلون فيها على قاعدة تم التقدمة وأن يجهر بحجى على خير العمل والاذان والتذكير في الاسواق وقدام الخنازير بأسماء الائمة الاثني عشر وان يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات وان يكون عقود الانسكة الى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسنى وان تكون العصبية مرتفعة والناموس وانزع لمن أراد الفتنة وأشياء كثيرة فاقرحوها مما كان قد أبطله نور الدين رحمه الله فأجيبوا الى ذلك قال ابن أبي طي

فأذن المؤذنون في منارة الجامع وغيره يحي على خير العمل وعلى أبي في الشريعة مسيلا وصلى وجوهه الحليين خلفه
وذكر وافي الاسواق وقدام الجائز أسماء الأئمة وصلوا على الاموات خمس تكبيرات وأذن للشرى في أن يكون عقود
الحليين من الامامية اليه وفعلوا جميع ما وقعت الايمان عليه

فصل قال ابن أبي طي وكانت هذه السنة سديدة البرد كثيرة النواج عظيمة الامطار هائجة الاهوية وكان
السلطان قد جعل أولاد الداية علاله له وسببا في دفع به السنة من شكر عليه الخروج الى الشام وقصد الملك الصالح
ويقول أنا ما أنيت لاستخلاص أولاد الداية وأصلاح شأنهم وأرسل السلطان الى حلب رسولاً يعرض بطلب الصلح
فامتنع كمشة تمكن فاشتد حيثئذ السلطان في قتال البلد وكانت ليا الى الجماعة عند الملك الصالح لا تنقضي الانصب
الحبائل السلطان والسكر في محاملته وارسل المكر وه اليه فاجعوا آراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشية
في ارضاد المتألف للسلطان وارسل من رفقته به وضمنوا له على ذلك أموالاً لاجتماعه وعدة من القرى فأرسل سنان جماعة
من قتل أصحابه لا يغتيال السلطان فخاضوا الى جبل جوشن واختلطوا بالعسكر ففرهم صاحب بوقيس لأنه كان
مشاغراً لهم فقال لهم يا بكم كيف تجاسرتم على الوصول الى هذا العسكر ومثلي فيه فخافوا غائلته فوثبوا
عليه فقتلوه في موضعه وجاء قوم لادفع عنه جرحاً وابعضهم وقتلوا البعض وبدر من الحشيشية أحدهم ويده
سكنية مشهور ذليقة صمد السلطان ويهجم عليه فلبا صار الى باب الحمية اعترضه طغر بل أمير جندار فقتله وطلب
الباقون فقتلوا بعد ان قتلوا جماعة قال ولما فات من محلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشية كاتبوا خص
طرابلس وخنه والاشياء كبر دستي رحيل السلطان عن حلب وكان لعنه الله في أسر نور الدين منذ كسرة حارم
وكان قد بذل في نفسه الاموال العظيمة فلم يقبله انور الدين فلما كان قبل موت نور الدين سعى له خفر الدين مسعود بن
الزعفراني حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار وفضلاً ألف أسير واتفق في أول هذه السنة موت ملك
الفرنج صاحب القدس وطبرية وغيرهما فقتل هذا الفتح بأمر ولده المنجذوم فغظم شأنه وزاد خطره فأرسل
الى السلطان في أمر الحليين وأخبره الرسول ان الفرنج قد تعاضدوا وصاروا بيدا واحده فقال السلطان لست بمن
يرهب ثأب الفرنج وهما أساسا للهيم ثم انقض قطعاً من جيشه وأمرهم بقصد انضاكه ففغو اغتيمه حسنة وعادوا
فقصد الفتح جهة حمص فرحل السلطان من حلب اليها سمع الملعون فكس راجعاً الى بلاده وحصل الغرض
من رحيل السلطان عن حلب ووصل الى حمص فتسلم القلعة ورتب فيها واليا من قبله قال وفي فتح قلعة حمص يقول
العماد الكاتب من قصيدة وستأني

يا باب ابرأيوب نحو الشا * على كل ما يرتجيه ظهور

ببوسف مصر وأيامه * قمر العين وتشفي الصدور

رأت منك حمص لها كافيا * فواتنا منها القوى العسير

ومن كتاب فاضلي عن السلطان الى زير الدين بن نجب الواعظ يقول في وصف قلعة حمص (والشيخ الفقيه قد شاهد
ما يتهدي به من كونها نجافي صاحب وعقاب في عقاب وهامة لها النمامه عامه واعلم اذا خضبت الاصيل كان المحلل
منها قلامه عاقلة حبة صالحها الدهر على أن لا يحلها بقرعه عاهدة عصمة صالحها الزمن على أن لا يروعهما بجماعه
فاكتشف بها عارب مخنبيقات لا تطمع طمع حمص في العقارب وضربت بحجارة الحجارة فأنطوت فيها العداوة
العلومة بين الاقارب فلم يكن غير ثلاثة من الحد الاوقدا نرت فيها جدر ياصر بها ولم تصل السابع الا والبحران منذر
سقيها واتسع الحرق على الزايع وسقط سعد هاع الطالع الى مولده والياها الطالع ونفت الابراج فكانت
أربابا وسيرت الجبال بها فكانت سرايا فهناك بدت تقوى يرى فائهم من دونها ما وراها وحشيت فيها النار فلا
الشعاع من الشعاع اضاءها) ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان الى أخيه العادل (قد اجتمع عندنا الى هذه الغاية
ما يراحم سبعة آلاف فارس وتكاثفت الجموع الى الحلق الذي يخرج عن العد وبعد أن نزل احوال حمص حرم الله
تنوجه الى حماه والله المعين على ما نويه من الرشاد وننظفه من طرق الجهاد) وقال العماد لما سمع المديرون للآل
الصالح باقبال صلاح الدين المؤذن بادبارهم سقط في أيديهم وارسلوا المواسلة وكاتبوهم وارسلوا الى صلاح الدين

كتاب (٢٤٠) الروضتين

بالاغلاظ والاحفاظ وكان الواصل منهم قطب الدين بنال بن حسان وقال له هذه الديوف التي ملكتك مصر وأشار الى سيفه البهار ذلك وعما تصدبت له تصدك فحلم عنه السلطان واحتمله وتغافل كرموا غفله وخاطبه بما أرى أن يقبله وذكر أنه وصل لترتيب الامور وتهذيب الجهور وسدد الثغور وزرية ولدنوا الدين واستنقاذ اخوة بمجد الدين فقال له أنت تريد الملك لنفسك ونحن لا نترع في قوسك ولا نأنس بأنسك ولا نترتع لجرسك ولا نبني على اسك فارجع حيث جئت او اجهد واصلع ما شئت ولا تطمع فيما ليس فيه مطعم ولا تطمع حيث ما السعودك فيه مطلع ونال من قطيب القطب بنال كل ما أحال الحال وأبلى البال وأبدى له التيسم واخفى الاحتمال ثم انه استناب أخاه سيف الاسلام طغتكين بدمشق وسار بالعسكر ونزل على حصن فأخذها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الاولى وامتنعت القلعة فأقام عليها من يحصرها ورحل الى حماء فأخذها مستهل جمادى الآخرة ثم مضى ونزل على حلب فحصرها ثالث الشهر فلما اشتد على الحلبين الحصار واعززهم الانتصار استغاثوا بالاسماعيلية وعينوا لهم ضياعا وبلدوا لهم من البذل انواعا فجاءهم في يوم بارد شت من قما كهم كل عات ففرهم الامير ناصر الدين خمار تكين صاحب بوقيس وكان مشاعر الاسماعيلية فقال لهم لا شيء جئتم وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتهم فقتلوه وجاءهم يدفع عنه فأتخوه وعدا أخذهم ليهمج على السلطان في مقامه وقد سهر سكين انتقامه وطغريل أمير جاندار واقف ثابت ساكن ساكت حتى وصل اليه فشعل بالسيف رأسه وماتل الباكون حتى قتلوا عده ولا في من لاقاهم شدة وعصم الله حشاشه في تلك التوبة من سكاكين الحشيشه فأقام الى مستهل رجب ثم رحل الى حصن بسبب ان الحلبين كاتروا قص طرابلس وقد كان في أسر نور الدين مذكسرت حارم وبقي في الاسر أكثر من عشرين ثم فد انفسه بمبلغ مائة ألف وخمسين ألف دينار وركاك ألف أسير فتوجه في الافرنجية الى حصن فلما سمع بالسلطان رجحنا كصاعلى عقبه خوفا مما يقع فيه ورم عليه ومن كتاب فاضلى عن السلطان الى العادل (قد أعنتنا المجلس أن العدو خذله الله كئن الحلبيون قد استجدوا بصلبانهم واستصاوا على الاسلام بعدوانهم وانه خرج الى بلد حصن فوردنا جاء وأخذنا في ترتيب الاطلاب لطلبه ولقاه فسار الى حصن الاكراد متعلقا بجبله متحصنا بجبله وهذا فتح تقع له أبواب القلوب وظفروا ان كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب فان العدو قد سقطت حشمته وانخطت فيه همته وولى ظهره ان كان صدره يصونه ونكس صلبا كانت ترفعه شياطينه)

وقال العبادى الخريدة لما خيم السلطان بظواهر حصن قصده المذهب بن اسعد بقصيدة أولها

ما دام بعد البين يستحيل الكرى * الا يطرقه الخيال اذا سرى

كلف بقصر بكم فلما عاقه * بعد المدى سلك الطريق الاخصر

ومودع أمر التفرق دمعه * ونهته رقبة ككانع فتخيرا

تردى الكئاب كتيه فاذا غدت * لم يدرا نفاذ اسطرا أم عسكرا

لم يحسن الازاب فوق سطورها * الا لان الجيش بعقد عسيرا

فقال القاضي الفاضل لصالح الدين هذا الذى يقول (والشعر ما زال عند الترك متروكا)

فجعل جائرة له تكذيب قوله ونصديق ظنه فشرقه ووجع له بين الخلعة والضيعة وعنى الفاضل ما قاله في قصيدة فى مدح

الصالح بن رزيك التى أولها (أما كفاك تلافى فى تلافىكا)

يقول فيها باكعبة الجود ان الفقر اعدنى * ورقة الحال عن مفروض حجيكا

من ارجى يا كرم الدهر نعتنى * جدواه ان خاب سعي فى رجائىكا

أمدح الترك أبغى الفضل عندهم * والشعر ما زال عند الترك متروكا

أم أمدح السوقه النوى لرفدهم * واضيعنا ان نخطتى أياديكا

لا تتركنى وما أملت فى سفرى * سواك أقبل نحو الاهل صعلوكا

قلت وقد مضى ذكر ابن أسعد هذا فى اخبار سنة ثمان وخمسين وسياى من شعره أيضا فى أخبار سنة ست وسبعين

وشان وسبعين وما خرج ابن الدهان من التزل الى مدح ابن رزيك فى قوله من قصيدة أولها

اذالاحرق من جنباك لامع * أضاء لواش ماتجنت الاضالع

يقول فيها

نمادى بناتى جاهلية نخلها * وقد قام بالمعروف في الناس شارب
وتحسب ليل الشخ بمتمدعنا * بداط العاشم السخاء طلائع

فصل ثم ارسل السلطان الخطيب شمس الدين بن الوزير اى المضا الى الديوان العزيز بر رسالة ضمنها التماسى
الفاضل كابا بولار اقفا نقاشتم على تعداد ما للسلطان من الايدى من جهاد الافرنجى في حياة نور الدين ثم
فتح مصر واليمن وبلادهم من اطراف المغرب واقامه الخطبة العباسية بها يقول في اوله للرسول (فاذا قضى التسليم حق
اللقاء واستدعى الاخلاص جهد الدعاء فليعد وليه حدوا دما كانت حديثا يفتري وجوارى امور ان قال فيها
كثيرا فاكثرت منه ما قد جرى وليسر صدرنا منها نعله يشرح مناصدرا ويوضح الاحوال المستمرة فان الله لا يعبد سرا
ومن الغرائب ان تسير عرائب * في الارض لم يعلم بها المأمول
كالعيس اقبل ما نكون لها الصدى * والماء فوق ظهورها محمول

فاما كانت قبس النار با كفتنا وغير باستنير ونستنبط الماء بايدنا وسوانا ستمير ونلقى السهام بخورنا وغيرنا يعتمد
التصوير ونصافح الصفاح بصدرنا وغيرنا يدعى التصدير ولا بد ان تستر بصداعتنا جوف العبد الذى رزقه
الفصوب وتظهر طاعتنا كأخذ بحظ الاس كما أخذنا بحظ العلوب وما كان العائى الا ابا كانت نظره ابتداء من
الجانب الشريف بالنعمه يضاهى اشداءنا بالخدمة وانجبا بالحق لنا كل انجبا بالاسبق كان اول امرنا انا كفى الشام
لفتح الفتوح مباشرين بانفسنا ونجها هذا الكفار مقتدئين لعساكرنا نحن والذنا وعنا فى اى مدينة فتحت أو معقل ملك
أو عسكر لاعدوكم اوصاف الاسلام معه ضرب فما يجهل أحد صعدنا ولا يجحد عدونا انا نصطفى الجره وغلك
الكره وتقدم الجماعه وترتب المعاتله ونذر التعبه الى ان ظهرت فى الشام الانار التي لنا احرها ولا يضربان يكون
لغيرنا ذكرها وكانت اخبار مصر تتصل بنا بما الاحوال عليه فيها من سوء تدبير ومجادولتها عليه من غلبة صغير على
كبير وان النظام ما قد فسد والاسلام بها قد ضعف عن اقامه كل من قام وقعد والفرنج قد احتاج من يدبرها الى
ان يقطعهم باموال كثيره لها مقادير خطيره وان كله السنة بها وان كانت مجموعها فانها مجموعها واحكام الشريعة
وان كانت مسماها فانها امتحامها وتلك البدع بها على ما يعلم وتلك الضلالات فيما على ما يفتى فيه بفراق الاسلام ويحكم
وذلك المذهب قد خالط من اهل اللحم والدم وتلك الانصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون الله وتعظم ونظم فتعالى الله
عن شبه العباد وويل لمن غره قلب الذين كفروا فى البلاد فسمت همته تادون هم اهل الارض الى ان نستفتح مقلها
ونستر حرم الاسلام ساردها ونعيد على الدين ضالته منها فسرنا اليها فى عساكر خضعه وجوعه وبأموال
انتهكت الموجود وبلغت منها الجحود وود أنفقنا هاهنا حاصل ذمتنا وكسب أيدينا وثمان أسارى الفرنج الواقعين فى
قبضتنا فرضت عوارض منعت وتوجهت للصبر ومن رسل باستجداد الفرنج قطعت ولكل أجل كتاب ولكل أمل باب
وكان فى تقدير الله انا على الوجه الاحسن وتأخذها بالحكم الاقوى الامكن فقد رافرنج بالمصريين غدرة فى
هدنة عظم خطبها وخبطها وعلم ان استتصال كلمة الاسلام محطها فكانتبا المسلمون من مصر فى ذلك الزمان كما كانتبا
المسلمون من الشام فى هذا الاوان بانان لم نذكر الامر والاخرج عن اليدوان لم ندفع غريم اليوم لم نهل الى الغد فسرنا
بالعساكر للمجموعة والامراء والاهل المعروفة الى بلاد قد تمهد لنا بها امران وتقررتنا فى القلوب وذان الاول ما علموه
من ايتارنا للمذهب الاقوام واحياء الحق الاقدم والاحرامير جونه من فك اسارهم واقالة عثارهم ففعل الله ما هو
أهله وجاء الخبر الى العدو فانقطع حبله وضاقته به سبله وأفرج عن الديار بعد ان كانت ضياعها اورساته قها وبلادها
واقالها قد نفذت فيها وامره وخفقت عليها صلبانه ونصبت بها اوتانها وايس من ان يسترجع ما كان بايديهم حاصل
وان يستنقذا صارى ما كرمه اخلا ووصلنا البلاد دويها أجناد عددهم كثير وسوادهم كبير واموالهم واسعة وكثتهم
جامعه وهم على حرب الاسلام أقدر منهم على حرب الكفر والحيلة فى السر فمهم أنفذه من العزيمة فى الجهر وبها راجل
من السودان يزيد على مائة ألف كلهم أغتنام أنجم ان هم الا كالانعام لا يعرفون ربالا ساكن قصره ولا قبله الا

ما يتوجهون اليه من ركنه وامثال أمره وبما عسكر من الارمن باقون على النصرانية موضوعه عنهم الجزية كانت لهم شوكه وشكته ووجه توجيه ولهم حواش لقصورهم من بين داع تلتطف في الضلال مداخله وتصيب العلوب مخاتله ومن بين كتاب تفعل أقل ما فعل الاسل وتقام يجمعون الى سواد الوجود سواد الخجل ودولة قد اكبر عليها الصغير ولم يعرف غير هال الكبير ومهابة تمتع ما يكتنه الضمير فكيف بخطوات التدبير هذا الى استباحة للمحارم ظاهره وتعطيل للفرائض على عادة جارية بآثره وتعريف للشريرة بالتأويل وعدول الى غير مراد الله بالتزويل وكفر سمي بغير اسمه وشرع يستتر به ويحكم بغير حكمه فازلنا سحتهم سحت المبارك للشفار ونخيفهم تخيف الليل والنهار بجنايب تدبير لا تحتملها المساطير وغرائب تقدير لا تجملها الاساطير ولطيف توصل ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا اعانة المقادير وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرقة دفعة الى بليس ودفعة الى دمياط وفي كل دفعة منهم ما وصلوا بالعدد المجهر والخسدا الاوفر وخصوصا في ثوبه دمياط فانهم نازلوا بها جرافى ألف من كب مقاتل وحامل ورافى مائتى ألف فارس وراجل وحصر وهاشميرين يباكر ونهاو براو حونها ويمامونها ويصاحبونها القتال الذي يصبه الصليب والقراع الذى ينادى به الموت من مكان قريب ونحن نقاتل العدو بن الباطن والظاهر ونصابر الضدين المناقق والكارفر حتى أرى الله بأمره وأيدنا نصرة وخابت المضامع من المصيرين والفرنج وسرعنا في تلك الطوائف من الارمن والسودان والاجناد فأنخرجناهم من القاهرة تارة بالاداء والمرهقة لهم وتارة بالامور الفاضحة منهم وطورا بالسيوف المجردة وبالنار المحرقة حتى بقي القصر ومن به من خدم ومن ذرية قد تنفرت شيعه وتمزقت بدعه وخفت دعوته وخفيت ضلالتة فهناك تملأ امامة الكلمة والجهر بالخطبة والرفع للواء الاسود الاعظم وما جل الله الطاغية الا كبر بهلاكه وفنائه وبرأنا من عهدتين كان اثم حننا أنسر من اثم ابقائه لاندعوج لفرط روعته ووافق هلاك شخصه هلاك دولته ولما خلا ذرعنا ورحب وسعنا نظرنافى الغزوات الى بلاد الكفار فلم تخرج سنة الا عن سنة آثمت فيها براو بجرا من كواظها الى ان أوسعناهم قتلا وأسرنا ولم نذكر فابهم قهرا وتسرا ونحنناهم معاقل ما خطر أهل الاسلام فيها منذ أخذت من أيديهم ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركبتهم مذملكها أعادهم فغنما ما حكت فيه يد الخراب ومنهما استولت عليه يد الاكتساب ومنها قلعة بشغرا له كان العدو قد بنى بها فى بحر الهند وهو المسلول منه الى الحرمين والين وغزا ساحل الحرم فساء منه خلقا ونرق الكفر فى هذا الجانب خرقا فكادت القبلة ان يستولى على أصلها ومشاعر الله ان يسكنها غير أهلها ومقام الخليل عليه السلام ان يقوم به من ناره غير دوسلام ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم ان يتفرقه من لا يدين بمجاها به من الاسلام فاخذت هذه القلعة وصارت معقلا للجهاد ومؤيلا لسفار البلاد وغيرهم من عباد العباد) ثم قال (وكان باليمن ما علم من امر ابن مهدى الضال المحدث المبدع المتمرد وله آثار فى الاسلام وبارطاله النبي صلى الله عليه وسلم لاندسى السرائف الصالحات وباعه باليمن الجحش واستباح منهن كل ما لا يقر مسلم عليه نفس ودان بدعه ودعا الى قبرا به ومما كعبة وأخذ أمر الارباء بالمعصومة واجاحها واحل الفروج المحرمة وأباحها فانهم ضلوا به أخطأنا بعسكرنا بعد ان تكلفنا له نفقات واسعة واسلحتهم رايحه وسارفا اخذناه والله الحمد وأنجز الله فيه القصد والكلمة هالك بعثة الله الى الهند سامية الى ما بقى من الاسلام عذرتة متماديه ولنا فى الغرب أثر أغرب وفي افعالهم اعمال دون مطلبها ما لك كما يكون الهالك دون المذنب وذلك ان بنى عبد المؤمن قد استهتر ان أمرهم قد أضر وملكهم قد فدمر وجيوشهم لا تطاق وأمرهم لا يشاق ونحن بمجد الله قد تملكنا كما مجاورنا منه بلاد اترىد مساقمتا على شهر وسبرنا الباعس كرا بعد عسكر فرجع بنصر بعد نصر ومن البلاد المشاهير والاقاليم الجاهسير برقه قفصه قسطيليه توزر كل هذا انتقام فيها الخطبة لولانا الامام المستضىء بامر الله أمير المؤمنين سلام الله عليه ولا عهد للاسلام باقامتها وينفذ فيها الاحكام بعلمنا المنصور وعلامتها وفي هذه السنة كان عندنا وقد شاهدنا هذه وفود الامصار ورموه باسماع وأبصار مقدار سبعين روكبا كلهم يطلب سلطان بلده تقليدا ويرجون ما وعدوا ويخافون عيدا وقد صدرت عنا بمجد الله تقليدا والتفت اليها بما قلدها وسبرنا الخلع والمناسير والالوية بما فيها من الامر والاقضية فاما الاعداء المحدثون بهذه البلاد والكفار الذين يقاتلوننا بالملك العظام والعزائم الشداد فغنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الاكبر والجالت الاكفر وصاحب

في اخبار (٢٤٣) الدولتين

المملكة التي أكلت على الدهر ونسرت وفاتم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغلبت جرت لنامعه غزوات بحريه ومناقلات ظاهرة وسريه ولم تخرج من مصر الى ان وصلتنا رساله في جمعة واحدة نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح والغاء السلاح والانتقال من معاداة الى مهاداة ومن مفاخحة الى مناصحة حتى انه انذر بمصاحب صقلية واساطيله التي تردد ذكرها وعساكره التي لم يخف أمرها ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية كان حين علم بان صاحب السام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعوا في نوبة مياط فغلبا وتوسرا وهزما وكسرا أرادان يظهر قوته المستقلة فمر اسطولا يستوعب فيه ماله وزمانه فله الاثنا عشر سنين تكبر عدته ونخب عدته الى ان وصل منها في السنة الحالية الى الاسكندرية أمر رائع وخطب هائل ما أثقل ظهر البحر مثل حمله ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله وما هو الا قليم بل أفليم نقله وحيدش ما احتفل ملك قط بنظيره لولان الله خذله ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياسنة والجنوية كل هؤلاء مارة كونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تنفاسر ارة ضرهم وتارة يصكون سفارا يحتكون على الاسلام في الاموال المحلوية وتمصر عنهم يد الاحكام المرويه وما منهم الا من هو الا ن يحلب الى بلدنا آله قتاله وجهاده وبقرب البناء اهلاء طرائف اعماه وتلاذه وكلهم قد قررت معهم المواصلة وانتظمت معهم المسالمة على ما نريد ويكرهون وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون ولما قضى الله سبحانه بالوفاة السورية وكفى ذلك السنة على نية الغزاة والعساكر قد تجهرت والمضارب قد برزت ونزل الفرع على بانيس واسرفوا على احتيازا ورواها فرصة مذوايد انتهازها استصرخ بها صاحبها فسرنا مر احل اتصل بالاعدد وأمرها وعوجل بالهزيمة الدمشقية التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها ثم عدنا الى البلاد وتوافت النسا الاخبار بما المملكة النورية عليهم من شعب الاراء وتورعها وتشتت الامور وتقطعتها وان كل قلعة قد حصل فيها صاحب وكل جانب قد طمخ اليه طالب والفرع قد باقلا عا يحفون بها الاطراف الاسلاميه وبضايقون بها البلاد الساميه وأمرء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعونهم ورواوا والمال كالا عماد الدين خلقوا الاطراف للصدور وجعلوا الاقيام للتعوق في المجلس المحصور قدموا اليندي والاعين والسيوف وسارت سيرتهم في الامر بالتمكر والنهي عن المعروف وكل واحد يتخذ عند الفرع نارا ويحلم لظهره سندا وعلمان البيت المقدس ان لم تيسر الاسباب لفتحها وأمر الكفران لم يثبت رد العزم في قلعه والانبت عروقها واتسعت على أهل الدين خروقه وكانت الحجة لله فائمه وهم القادرين بالقعودائه والبالندكر عصر منه مع بعد المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوه واذا جاورها ننت المحلة بايدي والمتنعة بجامعه واليدقادره والبلاد قريبه والغزو يمكنه والمرة منعه والخلل مسترحبه والعساكر كثيرة فالجوع والافاق مساعدته وأصلحنا ما في الشام من عقائده معتله وأمر مختله وأراء فاسده وأمرء متخاسده واطماع عابيه وعقول غابيه وحفظنا الولد القاسم بعد أسه فانا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ويظهرون الوفاء في خدمته وهم عاملون بظلمه والمراذلاتن هوكل ما يهوى الدوله ويؤكد الدعوة ويجمع الامه ويحفظ الالفه ويضئ الزأفه ويفتح بقية البلاد وان يطبق بالاسم العباسي كل مناطق العهاد وهو تقياد بجامع عصر والين والمغرب والشام وكلما تشغل عليه الولاية النورية وكل ما يفعله الله للدولة العباسيه بسمرقند واسيوف عساكرها وبن نقيه من أوج أو ولد من بعدنا تقليدا بضمن للتمه تخليدا وللادوة تجديدا مع ما ينعم به من الهبات التي فيها الملك والجله والشام لا ينتظم أمورهم في فيه والبيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه والفرع فتحهم يعرفون مناخصه الايل الشرحي يملوا وقرا لا يزال محرم السيف حتى يحلوا واذا شد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غنمه وبلغنا المني بمسئة الله ويد كل مؤمن تحت برده واستفقدنا أسيرا من المسجد الذي أسرى الله اليه (بعده) ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان الى الديوان في تعداد ماله من الالادي (والذي أجزاه الله على يد المملوك من الممالك التي دوتها وسنى الضلال التي نمضها وعقود الاحاد التي فسخها ومنابر الباطل التي رخصها وحجج الزندة التي دحضها فقه عليه المنة في اذهاله لشرف مشهده وما فعله الالوجهه وبدا الله كانت عون يده والافسدت قضت الليالي والايام على تلك الامور وما تحركت للفق في قلعهها نابعه وغيرت الاحوال على تلك البدعة وما نارت لافراسها رابعه فشدك ربك الله تعالى فيما أبراه على يده

كتاب (٢٤٦) الروضتين

متى تجد الرى بالقربتين * خواص أثر فيها المحبير
 ونحو الجليل أرحم المطى * لقد جل هذا المرام الخطير
 ترى أنيخ بأدنى ضمير * مطايا براها الوجا والعمور
 وعند القطيفة والمشتهة * قطوف بها للاماني مسرور
 ومنها بكورى نحو القصير * ومنية عرى ذاك البكور
 ويا طيب بشرى من خلق * اذا جاء فى النجاس البشير
 ويستبشر الاصدقاء الكرام * هنالك فى وثقى النذور
 ترى بالسلامة يوما بكون * سبب السلامة معنى عبور
 وان جوازي سبب الصغير * لعمري من العر حظ كبير
 وما جنة الخلد الا دمشق * وفى القلب شوق الياسعير
 ميادينا الخضرة الرحاب * ولها لها العذب صافى غير
 وجامعها الرحب والعبدة المنيفة والفلاحة المستدير
 وفى قبلة النسرلى سادة * بهم للكارم أفق منير
 وباب الفراديس فردوسها * وسكانها أحسن الناس حور
 والارزة فالسهم فالنيران * بخشات مزنتها فالعكفور
 كان الجواسق مأهولة * بروح تطلع منها السدور
 بنسب بها تنسب اليهموم * برؤوسها يتربى السرور
 وما غسرت فى الرنة العاسقة * بين بالحس الا الى باب الفرر
 وعند المغارة يوم الخميس * أغار على القلب منى مغير
 وعند المنديع عين الحياة * مدى الدهر رابعة ما تغور
 بحسب ابن شواش ثم السكون * لنفسي بقى تلك الجسور
 وما انس لانس انس العصور * على جسري حمرين الى جسور
 وكم بيت الهو بقرب الحيد * ببيت لهما واما الغيور
 فان اغتباطى بالقوطيس * وتنت اللباني وتلك العصور
 وأشجار سطر ابدت كالسطو * رمتهم البليغ البصير
 وأبن تأملت فلك يدور * وعين تفور وبحر عمور
 وأين نظرت نسيم ريق وزهر روق وروض نصير * وبين السينا يتجلى سنير
 الام القساوة يا فاسيون * ومنى ثوى نور دين الاله
 ومنى ثوى نور دين الاله * لم يسبق للدين والشام نور
 وللناس بالملك الناصر * صلاح صلاح ونصر وخير
 هو الشمس أفلاك فى البلاد * ومطاعه سرجه والمرب
 اذا ما سطا أو جسي واجتبي * فى الليث ما حاتم ماثير
 ييوسف مصر وأيامه * تفر العيون وتشقى الصدور
 ملكك فاسبح فى البلاد * سواك مجير ومولى نصير
 وفى معصم الملك للفر منى * سوار ومنك على الدين سور
 لك الله فى كل ما تنبغي * بحق ظهوره فى الظهير
 اما المفسدون بمصر عصوك * وهذى ديارهم اليوم فور

في أخبار (٢٤٧) الدولتين

اما الادعياء بها اذ شطت لابعادهم زال منك الفتور
ويوم الفسرج اذا ما القوك * عبوس برعمهم قطر
نهوض الى القدس يشفي العليل بفتح الفتوح وماذا غير
سل الله تسهيل صعب الخطو * ب فهو على كل شيء قدير
اليك هجرت ملوك الزمان * فإلّا والله فيهم نظير
وجفرك فيه السرى والقرآن * جميعا وبغرا لجمع الفجور
وأنت تربي دماء العر نج * وعندهم لاراق الخجور

❖ (فصل) في فتح بعلبك قال العماد ولما فرغ السلطان من حصنها سار الى بعلبك فتسلمها في رابع شهر رمضان قال ابن أبي طي وكان بها خادما يقال له بن فلما شاهد كثر دعسا كرا السلطان اضطرب في أمره وراسل من يحلب على جناح طائر فإبرجع اليه منهم خبير فطلب الامان وسلم بعلبك الى السلطان قال العماد وهناته بآيات منها

بفتوح عصرك ينجح الاسلام * وينور نصرك تشرق الايام
وبهق قلعة بعلبك تهذب * هذى الممالك واستقام الشام
وبكى المسود دما وبغرا لغرم * فرح بنصرك للهدى بسام
فنج تسنى في الصيام كاتنا * شكر المانع الاله صيام
من ذارأى في الصوم عدى سعادة * حلت لنا والفطر فيه حرام
أسدى صلاح الدين والدنايدا * سوا لها سوق الرجاء تقام
فقبل فتحك واقصد الفتح الذي * بحصوله لفته وحك الاتمام
دم للعلى حتى بدوم نظامها * واسلم يعز بنصرك الاسلام

قال ولزمت خدمته ارحل برحيله وأترن بنزوله وكنت ليلة عنده وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان وعنده ديوان الاديير مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن سديد الملك على بن منقذ وهو به مشغوف وخطره على تأمله موقوف والى استخسانه مصروف وقد استحسن قصيدة لطائية لوعاس الطائيان لا قرا بفضلهما وان خواطر المبتكرين لتقصير عن ملها على ان الشعراء المحدثين ما هم الامن نظم على رويها ووزنها واستمد خصب خاطرهم من مزنها فمنهم المعري وابن أبي حصينة والارجاني والصالحي ابن ربك وقد أدونت جميعها في كتاب الخريدة ومطلع قصيدة المعري (لمن جيرة سموا النوال فلم ينطوا)

فنظمت في السلطان ونحن على بعلبك بشاريح انسلاخ شعبان قصيدة طائية منها

عفا الله عنكم ما لكم أيها الرهط * قسطن ومن قلب المحب لكم تسط
شرطتم لنا حفظ الوداد وخنتم * خبايتكم ما هكذا الود والشرط
جعلتم فؤاد الله تنهاتكم بكم لكم * محطافعه ثقل همكم خطوا
ملكتم فانكتم قديم مودتي * كان ليكن في البين معرفة قط
فدت معجبتى من لا يذم لمعجتي * اذا ما كتبه وهو في المحكم مشط
وما كنت أدري قبل سطوة طرفة * بان ضعيفا فأترا مثله بسطو
واهيف للسفاق من ضعف خصره * يحل نطاقا للقلوب بهر بط
يلازم قلبي في الهوى القبيض مثلي * يلزم كف القاصر الملك البسط
مليك حوى الملك العقيم بضبطه * كريم وواللحال في يده ضبط
اذ التمت أيدى الملوك فعنده * مدى الدهر اجلاله تائم البسط
عنا لك طوعا نيل مصر ودجسها العراق ودان العرب والجهم والقبط

كتاب (٢٤٨) الروضتين

والنبل شـسـط ينتهى سـيـبه * ونـكـلـلـلـرـاجـنـ نـيـلـ وـلـاـشـط
عـدـلـكـ مـثـلـ الشـمـعـ فـيـ نـارـ حـقـدـه * لـهـ عـنـقـ اـصـلـاـحـ فـاـسـدـهـ القـطـ

وهي ثمانية وثمانون بيتا وتسعة ايام قصيدة طائية في السلطان سيأ في ذكرها قال العماد وما وصلت الى السلطان ورغبت منه في الاحسان وجدته لا مري مغفلا ولشعبي مهملًا ثم عرفت ان حسادي قالوا له متى أعدت ديوان الكتابة الى العماد وهو لا شك يجعل الوثوق والاعتماد وهذا منصب الاجل الفاضل وهو عنده في أجل المنازل وما ضاق صدره وتشتت سره فلما عرفت هذا المعنى لجأت الى الفضل الفاضل لانه به يعنى فقام بامري وتوه بقدرى وأراح سرى وشدة أزرى

(فصل) وفيما جرى للمواصله والخليبين مع السلطان في هذه السنة قال ابن شذا وما احس سمف الدين صاحب الموصول اجري علم ان الرجل قد استخجل أمره وعظم شأنه وعلت كلمته وخاف انه ان غفل عنه استحوذ على البلاد واستقر قدمه في الملك وتعدى الامر اليه فجهز عسكر اوافر اوجيشا عظيمًا وقدم عليهم أخاه عز الدين مسعودا وساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردع من البلاد فوصل الى حلب والسلطان بمحس وأنضم اليه من كان يجلب من العسكر وخرجوا في جمع عظيم ولما عرف السلطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرقون جاءه وراسلهم وراسلوه واجتهد ان يصالحهم فاصالحوه ورأوا ان المصافر بما نالوا به الغرض الاكبر والمقصود الاوفر والقضاء يجير الى أمور وعملها لا يشعر ون فام المصاف بين العسكرين فقتل الله تعالى ان انكسر وابن يدي. وأسر جماعة منهم ومن عليهم وأطلقهم وذلك عند قرقون جاءه في تاسع عشر شهر رمضان ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية وصالحوه على ان أخذوا المعرفة وكفر طاب وبارن قال العماد لما تسلم السلطان قلعة بعلبك عاد الى محس وقد وصل عز الدين مسعودا أخو صاحب الموصول الى حلب فجدت ولما عرفوا ان السلطان مشغول بالحصون جاؤا الى جاءه فحصر وهما وساروا في الصلح فقدم السلطان في خوف من أحمابه وجاء كفتكين وابن الجهمي وغيرهما وأجابهم السلطان الى ما طلبوا وان رد عليهم الحصون وان يفتح بدم مسبق نائب عن الملك الصالح وله خاطبا وعلى الانتماء اليه مواظبا وان رد كل ما أخذ من الخراب وان يسلك فيه سبيل الامانة فلما رآوه محببا الكل ما يلتبس منه وهو في عسكر خفيف قالوا ما خبره صحيح فشرعوا في الاستطاط فطلبوا الرحبة واعمالها فقال هي لابن عمي ناصر الدين محمد بن شيركوه وكف الحق به في رضاكم المذكور فنفروا وجفوا وأصبحوا على الرجل الى جانب العاصي قرياس شيرز وجعوا العسكر وأظهروا انهم على المصاف وعزموا الانتصاف فغبر السلطان الى سفع قرقون وجاء خيامه وركز على مقابلتهم اعلامه ووصل العسكر المصري في عسرة من المتقدمين منهم فرخسأه واخوه تقي الدين والتقا فلهزمهم السلطان ونزل في منزلهم قال العماد وما اندامت في هذه الواقعة في مدح ناصر الدين محمد بن شيركوه قصيدة فقد كان له فيها عناء وبلاء حسن منها

ولقد ألفت نفاها وديوتها * اذ ليس يشكر للظباء نفا
ياجارة للقلب جائرة دعي * ظلمي والا قلت جار الجار
قلبي كطاري ما يفيق افاقه * سكران مادارت عليه عقار
صب صب الدمع محترق الحشا * خطرت ببال بلانه الاخطار
لم يخش من خطر الهوى حتى حمى * ذلك القوام شبيه الخطار
يذرى الدموع كانهن عوارف * لابن الملك شيركوه غزار
من آل شاذي الشاذين بنا العلي * اركانس لهادم وشفار
حسنت بهم للدولة الايام والسـدـالـعمال والا حوال والا نار
قد سار ملك الشام يوسف الذي * في مصر تعبط عصره الاعصار
نصر الهدى فتوطد الاسلام في * أيامه وتضعف الكفار
لما لقيت جموعهم منظومة * صيرت ذلك النظم وهو نثار
في حالي جود وبأس لم يرل * للبر والاعداء منسك تبار

في اخبار (٢٤٩) الدولتين

ثمب الاولف ولا تهاب أولفهم * هان العدو عليك والدينار
لما جرى العاصي هنالك طائعا * بدما تهم جرت به الانهار
وتحطمت عند القرون قرونها * بل كات الاثباب والاطفار
عبروا المعرفة ما لكين معرفة * والعار يملك تارة ويعار
أوما كما هم يوم حص وكفهم * في بعلبك يملك تارة والانداز

قال وهنأت الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بقصيدة منها

لا تفن من فرق الفراق الارمعا * فهي النهود على الغرام المذعى
واستبقى صبرك ما استطعت فانه * عون لقلبك ان هائبته ما
قلب أصابته العيون ولم يرزل * من مسها بالهاجسات مروعا
ما باله قد صد عند صدودهم * غنى ولما ودعوى ودعا
ومن التخيير انى أبصرته * في ظعنهم وسألت عنه الاضعا
أصبحت اذ سميعتهم لثلاثه * صبرى وغضى والفؤاد مشعا
أوما أنقيتم حين رعنم سربه * فيه تقي الدين ذاك الاروعا
عمر بن شاهنشاه من هو عامر * أركان ملك الشام حين تضععا
خضع العدو وذل بعد تعزز * لكم وحق عدوكم ان يخضعا
من معشر غر يرون جميع مالم * يسذلوه في السماح مضعا
في مصر واليمن اجتلينا منهم * في عصره تابعي اليوسف تبعنا
الحاويان ملك مصر ومكة * والشاه واليمن الخطا بالاربعنا
لما عصى الاعداء بالعاصي جرى * بدما تهم طوعا سيولا دفعا

وقال ابن أبي طى لما تسلم السلطان بعلبك وأزاح عهدها عاد الى حصن ونزل بهم افاضل به وورد عز الدين مسعود أنى سيف الدين صاحب الموصل نجدة للملك الصالح وكان سبب ورودهم ان جماعة من أمراء حلب لما كان السلطان نازلا على حلب أجمعوا آراءهم وكاتبوا سيف الدين والزوه نجدة ابن عمه وأخبروه ان السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصد الا الموصل وأرسلوا بذلك أمين الدين هانما خطيب حلب وقطب الدين بنال بن حسان وغرس الدين قلعج وكان سيف الدين منازلا لا شجار وفيما أخوه عماد الدين بن زكي وكان عاد الدين قد أظهر الانتماء الى السلطان فأنجده السلطان بقطعة من جيشه فكسروهم ونهبهم عاد الدين بهم وبعسكره فلما وصلت رسالة الحلبيين الى سيف الدين صالح أخاه عماد الدين وحشد عسكره وأنة ليجي بهم مع أخيه عز الدين مسعود فورد حلب بعد رحيل السلطان عنها الى بعلبك فاعتنم الحلبيون بعد السلطان عنهم فاحتشدوا وخرجوا جميعا حتى خيموا على حماه وأخذوا في حصارها واتصل بالسلطان ذلك فرحل من بعلبك الى حمص وبلغ عز الدين فعاد على حماه ورل قرييما من جناب الزكركان الى جهة العاصي الى قرييما من شيز وراسل النائب بجماه على بن أبي الهوارس يقول له انما وصلت في اصلاح الحال ووضع أوزار القتال وسأله مكتوبة السلطان فيما يجمع الكهله ولم شعب الفرقة فكاتب ابن أبي الفوارس بذلك الى السلطان وحسن له الصلح وتلطف في ذلك غاية التلطف وقدم أبو صالح ابن الهجي وسعد الدين كشتكين لطلب الصلح فاجابهما السلطان الى ما أرادوا وقرر الامر على انه يرد اليهم جميع الحصون والبلاد ويقنع بدنه شق وحدها ويكون نائبا للملك الصالح فلما عين سعد الدين أجابة السلطان الى الصلح والتزول عن جميع الحصون التي أخذها حصن وجماه وبعلبك طمع في جانب السلطان وتجاوز الحد في الاقتراح وطلب الرحبة واعمالها فقال هي لابن عمي ولا سبيل الى أخذها فقام سعد الدين من بين يديه ناظرا وكان ذلك برأى أبي صالح ابن الهجي لانه كان معه فاجتهد السلطان به ان يرجع فلم يفعل وخرج الى عز الدين مسعود وكان بعد نازلا على حماه وحشد ثما دار بينه وبين السلطان وهون عليه أبو صالح أمر السلطان وأخبره بقلته من معه وكان السلطان لما كوتب في أمر الصلح سار في خف من أصحابه

كتاب (٢٥٠) الروضتين

فلما علموا بذلك طمعوها في جانبه وعزوا على لقائه واتبأاز الفرصة في أمره فكانت باقي أمجابه واستعدوا لهم وساروا إلى أن نزل على قرون جاء وأخذ في مدافعة الأيام حتى يقدم عليه باقي عسكره وراسلهم في التلطف للاحوال فلم ينجع ففهم حال وكافوا في كل يوم يعززون على لقائه وقتاله فيبطل عزهم بمراسلته يقتلعها تسويها ولا وفات وتقطيعا للزمان حتى يقدم عليه عسكره وكانت هيئته قد ملأت صيدور القوم ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفرصة ونالوا منه الغرض قال وفي يوم الاحد تاسع عشر رمضان التقوا ولم يكن بعد قد وصل للسلطان من عسكره أحد فجمع أمجابه السلطان كرد وسوا واحدا واحدا ويحلقون به ويسيرة ويدافعون الاوفات رجاء ان يتصل بهم بعض العسكر وضري عسكر حلب والعسكر الموصل على أمجابه السلطان حين شاهدوا قتلهم واجتماعهم وكاد أمجابه السلطان يولون الادبار فوصل في الدين عر عند الحاجة اليه لتمام السعادات للسلطان فانه لو تأخر ساعة لانكسر عسكره فوصل في الدين في عسكر مصر وجماعة من الامراء وهم غير عابدين بالحرب وقسمها فلما رآوا الناس في الكر والضرب الهبر جملوا جميعا بعد ان افترقوا في الميمنة واليسرة فصدموا عسكر الموصل صدمة ضعفتهم وكان السلطان في هذه المدة قد كتب جماعة من عسكرهم واستقصدهم اليه وحمل اليهم الاموال وهذا هو الذي ابطأ بهم الى ان وصلت عساكره والافلوكان عسكر حلب اصبح لم يقدر السلطان على التمسك ساعة فلما استند القتال لم يتسرع الجماعة التي كاتبها السلطان بل كانوا مبشرين بخوفين لم يقرب منهم ثم انهم بعد ذلك انهزموا وتبعهم عسكر السلطان واستباحوا اموالهم وخيامهم وامر السلطان أمجابه ان لا يوغلوا في طلبهم ولا يقتلوا من رآه منهم ما ولا يدفقوا على جريح ويرحل حتى نزل في منزلهم ثم سار من وقته مجدها حتى نزل بمخرج قرا احصار ولم يرل هناك حتى عبد عبد القطر فجاءه رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة وأن يقر الملك الصالح على ما في يده وما هو جار تحت حكمه من الشام الاسفل الى بلد حماه فليرض بذلك فجعلوا له مع جماء المعركة كقرطاب فرضي بذلك وحلف على نسخة رأيتها وعلبها خطه قال وكان في جملة الذين انه متى قصد الملك الصالح عدو حضر نفسه وجوشه ودافع عنه وان لا يغير الدعا له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولاية أمجابه وان تكون السكة باسمه ولما حلف السلطان والملك الصالح وامرأوه عاد السلطان فاصدا دمشق فلما وصل الى حماه وصلت اليه رسل الخليفة المستضي ومعهما التشرى بقات الجبالمة والاعلام السود وتوقع من الديوان بالسنة ببلاد مصر والشام وفي هذه الخليفة يقول ابن سعدان الحلبي

يا أيها الملك العزيز بفضلته * لقد غدوت بالعلى مليا
 كفى أمير المؤمنين شرفا * انك أصبحت له وليا
 طارحك الود على سخط النوى * فكنت ذاك الاصادق الوفا
 أولئك من لباسه زحزحة * لم يولها قبلك آدميا
 ناسبت الروض سنوا بجمعة * حتى حكته رونقا وريا

قال ورحل السلطان من حماه الى بعري وكان فيها خفر الدين مسعود ابن الزعفراني وكان خرج الى السلطان لما وصل الى الشام وتطارح عليه وخدعه وغان ان السلطان يتقدمه على عساكره فلم يلتفت اليه فترك السلطان وعاد الى حصن بعري فاغضب السلطان ذلك وسار اليه وحاصره حتى تسلم حصنه ودخل الحماة نزل السلطان قرا احصار بنية الحصار فجاءت رسلهم بالانقياد وأجابوا الى المراد وقالوا اقتنعوا بما أخذتموه الى حماه ولا تسموا وابنا العداة فاستردنا عليهم كقرطاب والمعرفة واستوفينا عليهم الايمان المستقره وسألهم في المعتقلين اخوة محمد الدين فأجابوا وأفرجوا عنهم وتم الصلح وعم الحج ورحلنا ظاهرين ظافرين وزلنا جماء يوم الاثنين ثاني عشر شوال وبها وصلت اليه رسل الديوان العزيز بالشري بقات والتقليد بما أراد من الولايات وأفاضوا على السلطان وأجابه الخلع وخص ناصر الدين محمد بن شيركوه بمزيدة فضيل على أقارب السلطان وكانته رعاية لحق والده أسد الدين رحمه الله ثم تسلم السلطان حصن بعري وكان يسدال امير خفر الدين مسعود ابن الزعفراني وهو من أكابر امراء نور الدين وذلك في أواخر شوال واقطع مدينة حماه لابن خاله وصهره الامير شهاب الدين محمود وانهم يحبس على ابن عمه ناصر الدين قال العمادواذكرنا عن ابن تيمر العاصي عائدين وقد انكسفت الشمس وادلهم النهار وغلب على القلوب الاستشعار

وطاحت الانوار وخفيت الرسوم وظهرت النجوم وجئنا حصن ثم بعلبك ثم البقاع ووصلنا دمشق في ذي القعدة
 (فصل) قال العماد قد سبق ذكر ما قرره حسادى في خاطر السلطان وقالوا شغله المكاتبه وهى منصب
 الاجل الفاضل وهو يستيب فيه من رآه من الافاضل وهذا تصرفه برفد خيل ووجه جمل والسلطان مع شدة
 رغبته متوقف الى ظهور وجه النجاش في أمرى متوقف وكانت قد استمدت مقامى بالعسكر بنى المجد والمخير
 ومورد الكرم والمصدر الامير نجم الدين بن مصال وهو ذو فضل وافضل وقبول واقبال وله من السلطان ومن الاما نزل
 لجلالة قدره اجلال وقدمال الى فضله ونباهته ونبله وكان أبوه قد وزر للخافظ في آخر عهده مفردا بسودده ومجده
 وكان من أهل السنة والجماعة والى والورع والعفاف والفاخه وله يد عند السلطان في النوب التى قصدوا فيها
 مصر وأجل عنده الاحسان والبر لاسيما عند كونه بالاسكندرية محصورا وكان احسانه مشكورا واعتناؤه لحفظه
 منهمورا فلما ملك أجه واختار قربه فلزمته التودد وجعلته الوسيط بينى وبين الاجل الفاضل واتخذته من الخ
 والوسائل ووقعت خاطرى على تفاسيه نظمها ونزرا ورسالة وشعرا فى ذلك ما كتبته اليه
 لعل نجم الدين ذا الفضل * يذكر الفاضل في شغلى
 ان أجل الناس قدرا فتى * بفضله يتعب من أجلي
 ومثله من يعتنى بالعللى * ويستديم الحمد من ملى

قال وأول ما أهديته للفاضل مدحة حين لقيته بمحض في شعبان منها

عائيت طود سمكينة ورأيت سمس فضيلة ووردت بجزر فواضل
 ورأيت سحبان البلاغة ساحبا * ببيان ديب الفخار لوائل
 أبصرت قسا في الفصاحة مهيذا * فعرفت اى في فهاهة باقل
 حلف الحصافة والفصاحة والسا * حة الحماسة والنقى والنائل
 بحر من الفضل الغزير خضيه * زامى العباب وماله من ساحل
 وجميع ما فى الارض سبعة أبحر * وبحره تسمى بعذر أمانيل
 فى كفه قلم يعجل حربه * ما كان من أجمل ورزق أجل
 يجرى ولا جرى الحسام ادا حرى * حدهاء بل جرى القضاء النازل
 نائب كتابته مناب كتيبة * كملت بهزم كتابت وجمائل
 فعدو فى عدوه ووليه * فى عدله اكرم بعاد عادل
 ريان من ماء التنى صادالى * كرب الحمامد وهى خير مناهل
 يا واحد العمر الذى بدورى * فضلا بغير مشابه ومشاكل
 مالى وجه الجاهلين فاغنى * عنهم كفتيم وجد الجاهلى
 أرجو لك معنيا لدى السلطانى * كراما ذلك يعنى بأمانلى
 ترزلى الشغل المجل محليا * بالى من الهم المقيم الشاغل

قال فدخل الفاضل الى السلطان وعرفه انه فى راغب وقال انا لا يمكننى الملازمة الدائمة فى كل سفره وغد
 يكاتبك ملوك الاعاجم ولا تستعنى فى الملك عن عقد اللطفات وحل الراجم والعماد بنى بذلك ولك احترام وقد
 عرف فى الدولة النورية مقداره وأخذنى خط السلطان بما قرره لى من شغلى وقد عرف ان الاجل الفاضل قد أجل
 فضلى قال وخدمت أمير المؤمنين المستضى بالله فى ذي القعدة مع الرسل بهذا القصيدة

أصبح عقود الغائبات مريضها * وافك الحماظ الحسان غضيضها
 ومن يحجب صلت لقبيلة بأسسهم * رؤس أعدام ظباهم محييضها

قال ابن ابى طى وظهر فى مشغراته من قرى دمشق رجل ادعى النبوة وكان من أهل المغرب وأظهر من الفخايل
 والتوبيكات ما فتن به الناس واتبعه عالم عظيم من الفلاحين وأهل السواد وعصى على أهل دمشق ثم هرب من

كتاب (٢٥٢) الروضتين

مشغراً في الليل وصار إلى بلد حلب وعاد إلى أفساد عقول الفلاحين بما يريهم من الشعذة والتخايل وهوى امرأة وعلمها ذلك وأدعت أيضاً النبوة قال وفيها توفي شهاب الدين الياس الارتنقي صاحب البيرة وأوصى إلى الملك الناصر صلاح الدين بولده شهاب الدين محمد

ثم دخلت سنة احدى وسبعين * قال العماد والسلطان بازل برج الصفر من دمشق فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم أموراً عاتية لم يوافقها وكان الأشام ذلك العام جدياً باذن السلطان للعساكر المصرية في الرحيل إلى بلادهم وإذا استغلوا خرجوا إليه وسار معهم العاضل واعتمد على العماد فيما كان يصدره وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل وعلى الصيد ومداحه العمادية صيداً منها

سواك لهم العلي بن ريشا * فسأل رب العلي أن تعدسها
من الناس بالبرصت الكرا * موبالأس في البرصت الوحوشا
وكمرت من مصر نحو العربشش فهتمت للمشركين العربش
سراياك تبعث قدامها * من الرعب نحو الاعادى جيوشا
ويوم حاة تركت العدا * فكأطرت بالفلا الريح ريشا

قال ومدحت مستهل ربيع الأول في الدين بقصيدة موسومة وكان قد قوض اليه ولاية دمشق ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيها ولم أسبق إليها

يفقد العاتل اليقظ التغابي * ليدرك في الفنى حظ الفنى
ولم تصب السمهام على اعتدال * بها لولا اعوجاج في القسي
فقل للدهر بقصر عن عنادى * أما عويتى في بأس التفتى
حلفت برب مكة والمصلى * وراوى ترب طيبة وانغرى
لانسئم باني أيوب خسير الـ وري بعدد الامام المستنصى

قال وفي أول هذه السنة وصل إلى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد لموافقة قطب الدين فاجاز فاحذوا الانفسهم بالانجاء إلى السلطان والاحسنار وكان قائماً زهداً محكمياً في الدولة الامامية من أول الأيام المستنجديه وقوى في الأيام المستنصيه على وزير الخليفة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء سامه أنواع البلاء وأخافه ورام انلافة حتى استعاذ منه برباط صدر الدين سبع السيوخ فسلم به ثم ان فاجاز خالف الخليفة وشق العصي وعزل حصار الدار فأمر الخليفة بالقبض عليه فلم ينجح ما المحيط بداره الا بهج باب في جداره وانهمز فوصل إلى الخلة في أوائل ذي القعدة سنة سبعين وهو في موسم الحج فجمع رجاله وتوجه إلى الموصل وখানে اخوانه ونخله أنحابه فتوفي في بعض قرى الموصل وتدفق أجمعاء في البلاد فمنهم من رجع إلى بغداد ومنهم من أتى الشام منهم حسام الدين تريك وعز الدين اقبورى بن ازغش وكان مهر السلطان قدما وعنده كرم فاقطعه في الدار المصرية وكتب في حقه إلى الديوان شفاعته في تخليص ماله واستقامته حاله وكان ذات اثنى عشرة وخيل مسومة فلم يكن ذنبه عندهم في متابعة فاجازها يقبل الصفح وكان اقبورى زوج أخت السلطان والسلطان خال بنته وهي زوجة عز الدين فرخسار ابن أخي السلطان قلت وفي بعض الكتب المحررة عن السلطان إلى وزير بغداد بالمشال الفاضلى (وما تحسب أمانع الموالاة للمتاصرة المستظهره والماسعى التي كانت ناراً في هذه الدولة بالغة غير متقاصره ولما نزعهم الامر قاصحه ولما جاز بهم الحق واقع وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمه وكونا ما اعانهمنا بنجدة من رجال ولا عبادة من مال ولا باعانة بحال من الاحوال برؤسؤ الناس الدولة علاها الله في ذى قري لا نستطيع دفعه ولا يقبل اسباب النفع اذا أردنا نفعه فالاجبار عندنا واسعه والاعراض لدينا غير متعذره والولايات التي نفوضها اليه عن كفايته غير مستغنية ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكاناً ولا أثر غير سلطاننا سلطاناً وله اعدا لا بأس ان نغيره فيها ساوياً) ثم ذكرها ثم قال (وهذا الامير جزمنا فكيف يعد جزمنا عاصياً وبالشتنا وسوفنا يدعى الخلق إلى الطاعة وكيف نتخذ داراً للخلافة من واحد من أهلنا ينوب عنا وعن بقية الجماعة فتحن في أنفسنا نشنع وعن جاهنا ندفع ومن مكاننا نسأل ويحفظنا

في أخبار (٢٥٢) الدولتين

الذي لا نسبح به إلا سلام نجل وأنت أيها الأمير السائر ثالث رسول نذب في أمر هذا الأمير والله ولي التدبير) وقال العماد في الخريدة كنت جالسا بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق في دار العدل أنفذا ما أمر به من الشغل فحضر سعادة الاعشى من أهل حصن وكان مملوكا لبعض الدمشقيين مولدا ويكتب على قصائده سعيد بن عبد الله قوقوف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة إحدى وسبعين

حيثك اعطاني القصد وديانها * لما أنتت تيبها على كتبناها

ثم ذكر القصيدة وغزها في وصف دمشق ثم قال

سلطانها الملك ابن أيوب الذي * كشفه لا تكف عن هطلانها

بـواهب لولم أكن نوحا لما * نجيت يوم نداء من طوفانها

سمع بروح إلى الندى براحة * قد أعشب المعروف بين بنانها

وفسقى إذا زخرت بحار نواله * غرقت بحار الأرض في خيلانها

تلك السيوف المرفقات بكفه * أمضى على الأيام من حداثها

ملك إذا جليت عرائس ملكه * رصعت فريد العدل في تيجانها

فأسلم صلاح الدين وأبقى لدولة * ذلت لدولتها مملوك زمانها

وانهض إلى فتح السواحل نهضة * فارت لك الأعداء بعد حراتها

وهي طويلة فالوفام اليوم الذي به وقد جلس السلطان للعدل فأنشده قصيدة منها

هبل بعد جلقى الآن ترى حلما * وقد تحلل منها مسك عقد

وقد أنتك كاختنار طائفة * وقد عنالك منها الحصن والبلد

قال وكان سعادة سافر إلى مصر في أول ملكة الملك الناصر فحدثه بقصيدة طائفة فأعطاه ألف دينار فنها بصف غارته على غزه وعوده من ذلك الغزو بالعره

فتي مذكري بالحيل والرجل غزوة * نأى عن نواحي الرضى وذنا السخط

رماها بأأسد ما حلق من إبط * ولا أحم إلا الذي تثبت الخط

وإن ضواحيها حتى بكثيب * من انترك لأنوب طعام ولا قبض

وله في السلطان قصائد آخر فالوفام البهاء السنجاري وأنشد الملك الناصر قصيدة في دار العدل بدمشق سنة إحدى وسبعين في شعبان منها

يا طيبة الحرمين من مصر على السلام إذا تقوض أو عفا

أصبوا إلى عصر تعدم عهده * فأزيد من وله عليه تلهفا

أحبنا يا بالعصر لو قصرم السهمجران ما شمت الحسود ولا اشتفى

اتسكو إلى الوادي فيحنو أنه * من رقة الشكوى على نطقفا

وجرى إلى الملل الدموح فأمرى * سلطان أرض الله طرابوسفا

التاهب الأرواح في طاب العلى * والواهب الآجال في حصن الوفا

في فصل في فيها تجد للمواصله والخليين قد سبق ذكر الصلح الذي جرى بين السلطان والخليين فلما سمع به المواصله عتبوا عليهم ووبخوهم ونسبواهم إلى الجيلة في ذلك وسلك غير طريق الحزم فملاهم على النقض والنكث وأنفذوا من أخذ عليهم الموائيق وتوجه ذلك الرسول منهم إلى دمشق ليأخذ للمواصله من السلطان عهده ويكشف أيضا ما عنده فلما خذله طالبه السلطان بنسخة الرأى فقلط وأخرج من كه نسخة بين الخليين لهم ونالوها إياه فتأملها وأخفى همة وما أبداه وأطلع على ما اتفقوا عليه وردّها إليه وقال لعلها قد تبدلت فعرف الرسول أنه قد غلط ولم يمكنه ثلاثي ما فرط وقال السلطان كيف حلف الخلييون للمواصله ومن شرط إيمانهم أنهم لا يعتمدون أمر إلا بما راجعهم لنا واستئذناهم وعرف من ذلك اليوم أن العهد منقوض والوفاء منقوض وشاع الخبر عن المواصله بالخروج في الربيع

كتاب (٢٥٤) الروضتين

فكتب السلطان إلى أخيه العادل وهو نائبه بمصر يعلمه بذلك وأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد للخروج في شعبان
 قلت وفي كتاب طويل فاضل جليل إلى بغداد عن السلطان (بطلان الحلبين والموصلين لما وضعوا السلاح
 وخفضوا الجناح اقتصرنا بعد أن كانت البلاد في أيدينا على استخدام عسكر الحلبين في السكاكيات إلى الكفر
 وعرضنا عليهم الأمانة فملوها والایمان فبذلوها وسار رسولنا وحلف صاحب الموصل محض من فقهاء بلده وأمره
 مشهده مينا جعل الله فيها حكما وضيق في تكلم المجمال على من كان حنيفا مسلما وعاد رسوله ليسمع من المؤمنين لما
 حضر وأحضر نسخته بأمر يده ليضربها فخرج نسخة من كنت بين الموصلين والحلبين مضعوبها الاتفاق على
 حربنا والتساعدي إلى حربنا والتساعدي على إزالة خطبنا والاستنفار إلى هو على بعدنا وقرينا وقد حلف بها
 كمشكين الخادم محلب وجماعة معه مينا قاصت الأولى فرددنا المؤمنين إلى بين الرسول وقتلنا هذه من عن الإيمان
 خارج وأردت عرا وأراد الله خارجا وانصرف الرسول عن بنا وقد زنا الله أن يكون اسمه معرضا للثلاث العظيم
 والثلاث الذميمة وعلمنا الناس بصير والاختذ قدير والمواقف الشريفة انثبوية أعلاها الله مستخرجة إلا وأمر إلى
 الموصل ما يكتب مؤد بأن لا ينقض عهد الله من بعده ميثاقه وأما أن تكون الفصحى واقعة لنا في تضيق خناقته ثم
 ذكر أمر الفرنج ثم قال (والمملوك بين عدو ولا ميثاق كونه في هذا الاسم لفظا ولا ينوون لما استحققوا واحفظا وعدوك
 فما يجاورهم إلا بلاد ولا يقارعهم إلا أجناده ثم طلب خروج الأمر بحطاب جميع ملوك الأطراف أن يكونوا للمملوك على
 المشركين أعوانا وإن يمثل أمر نبيا محمد صلى الله عليه وسلم في أن يكونوا بنا فبعضده إذا سعى ويلبوه إذا دعا ولا
 يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المتمدن الذي طابت النفوس عن نار ووطأت الرؤس تحت عزه وصارت القلوب
 صخرة لا ترق على محضته والعزائم قاصية عن تطهير إقصاه من رجس الشرك ومعرفة فان قدمت بهم العزائم وأخذتهم
 في الله لومة لائم فلا أقل من أن لا يكونوا أعوانا عليه يلقتونه عن قصده حريصين على اتصال المكروه اليه قال ابن
 شداد لما وقعت الواقعة الأولى مع الحلبين والمواصلة كان سيف الدين صاحب الموصل على سفح الجبل يحاصر أخاه عماد
 الدين بقصد أخذ هانمته ودخوله في طاعة وكان أخوه قد أظهر الانتماء إلى السلطان صلاح الدين واعتصم بذلك واستد
 سيف الدين في حصار المكان وضر به بالفتن حتى استهدمهم سورته كثيرة وأمر على الأخذ فبأنه وقع هذه
 الواقعة تخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشد أمره ويؤيد جانبه فراسل في الصلح فصالحه ثم سار من وقته إلى نصيبين وأهت
 بجمع العساكر والاتفاق فيها وسار حتى أتى الفرات وعبر باليرة وخيم على جانب الفرات السامى وراسل كمشكين
 والمملك الصالح حتى تستقر قاعدة يصل عليها إليهم فوصل كمشكين إليه وخرجت من أجهات كبيرة عزم فيها على
 العود مرارا حتى استقر راجعة معه بالمملك الصالح وسعى بوابه وسار ووصل حلب وخرج الصالح إلى لقائه بنفسه فالتقاء
 قريب القلعة واعتنقه وضمه إليه وبكى ثم أمر بالعود إلى القلعة فعسا إليها وسار هو حتى نزل بعين المباركة وأقام بها
 مدة وعسكر حلب فخرج إلى خدمته في كل يوم وصعد القلعة جردة وأكل فيها خبزنا ونزل وسار أرا حلالا إلى قل
 السلطان ومعه جمع كبير وأهمل ديار بكر والسلطان رحمه الله قد أنفذ في طلب العساكر من مصر وخور قب
 وصولها وهؤلاء يتأخرون في أمورهم ونداءهم وهم لا يشعرون أن التأخير يدمر حتى وصل عسكر مصر فسار رحمه
 الله حتى أتى قرون حماد فبلغه أنه قد قارب عسكرهم فأخبروا بالبرك وجهه وأمس كشف الأخبار فوجدوه قد وصل
 جريده إلى جباب التركان وتفرق عسكره يسقى فلأراد الله نصرته لم يقصده في تلك الساعة لكن صبر وأعليه حتى
 سقى خيمته هو وعسكره واجتمعوا وتعبوا تعبهم القاتل وأصبح القوم على مصاف وذلك بكرة الخميس العاشر من ربيع
 فالتقى العسكران وتصادما وجرى قتال عظيم وأنه كسرت ميرة السلطان بابن زين الدين بن مظفر الدين فانه كان في
 مينة سيف الدين وحمل السلطان بنفسه فأنكسر القوم وأسر منهم جمعا عظيما من كبار الأمراء منهم الأمير غفر الدين
 عبد المسيح فن علبهم وأطلقهم وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزائنه وسار حتى عبر الفرات وعاد إلى بلاده
 وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم فانهم كانوا قد أبقوا الثقيل على ما كان عليه
 والمطايخ قد علمت ففرق الأصطبلات ووهب الخراش وأعطى خيمة سيف الدين عز الدين فرخشاها وقال العمار رحلنا
 في شهر رمضان من دمشق مستأنفين فغيرنا العاصي لله طائعين وإلى المسار مسارعين فاعرجنا على بلد ولا نتظرنا

في اخبار (٢٥٥) الدولتين

ما وراء ناه من مدد ونزلنا الغسولة وجزنا حاه وخينا في مرج بوقيس وجاء الخبر انهم في عشرين ألف فارس سوى سوادهم ورواءهم من امدادهم وانهم موعودون من الفرنج بالنجدة وانهم يزيدون في كل يوم قوة وشده وما كان اجتمع من عسكر بأسوى ألف فارس قرب السلطان عسكره وقوى بقوة قلبه عليه وأمد الله بحزب ملائكته خزيه ولما وصل المواصله الى حلب أطلقوا من كان في الاسر من ملوك الفرنج منهم ارناط ابن سركاكر وجوسلين خال الملك وقزروا معهم ان يدخاوا من مساعدتهم في الدرك فلما عيذنا وصل الى السلطان الخبر بوصوهم الى قل السلطان فغيرنا العاصي عند شيزر ورتبنا العسكر وأعدنا الانتقال الى حاه ثم وصف الوقعة الى ان قال وركب السلطان أكتافهم فسل مثيهم والأفهم حتى أخرجهم من خيامهم وأشرقهم عائمهم ووكل بسرا دق سيف الدين غازي ومضارب ابن أخيه فرخشاه وركض ورواه حتى علم انه تعداه ووقع في الاسر جماعة من الامراء المقتدمين ثم من عليهم بالحل بعد ان نقلهم الى حاه وأطلقهم ثم نزل في السرا دق السبي فسلمه بخرائنه ومحاسنه واصطبلاته ومطابخه ورواسي عزه ورواسحه فبسط في جميع ذلك أيدي الجود وفرد بها على الحضور والشهود وأبقى منها نصيبا للرسل والوفود ورأى في بيت السراويل في السرا دق الخاص طيور من القهاري والسلايل والحزار والبغني الاقناس فاستدعى أحد التندماء مظفر الاقرع فأتته وقال خذ هذه الاقناس وانقلب بها الخلاص واذهب بها الى سيف الدين فأوصلها اليه وسلم منها عليه وقل له عد الى اللعب بهذه الطيور فهي سلمية لا توهك في مثل هذا المحذور قال ولما كسر القوم ولوا مدبرين الى حلب فلم يقف بعضهم على بعض وظنوا ان العساكر وراءهم ركضوا وراءهم فتهبعت خيولهم وتوجهت سيولهم وما صدقوا كيف يصلون الى حلب وبغلقون أبوابها ويسكنون اصطرباها وأما سيف الدين فانه ركض في يومه من قل السلطان الى براعه وجوز في سوقه الاستضاعه وفرق وفارق الجماعه وفي كلب ابن أبي طي ان ميسرة سيف الدين أنكرت فقهره الى جانبها ليكون ردا لها وودد اقلن باقي العسكر ان قدما منهم فانهم ما حققوا ما كان وهما فسار على وجهه لا يلبى على شيء وتبعهم السلطان فيلكن منهم جماعة قتلا وغرقوا وأمر جماعة كثيرة من وجوههم وأمرائهم ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس وترك التعرض لمن وجد منهم يقتل وأنهب وفرق ما وجد في خزائن سيف الدين وسير جواريد وخدانا الى حلب وأرسل اليه بالاقناس وقال له عد الى اللعب بهذه الطيور فانها الدمس مقاساة الحرب ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الجور والبرايض والعيدان والجنوك والمغنمين والمغنمات قال واشتراته ان كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنيه وان السلطان أرى ذلك اعساكره واستعاذ من هذه البلية وكان أنفذ الامراء الذين أسروهم الى حاه ثم ردوهم وخلع عليهم وأرسلهم الى حلب وهنأ العماد للسلطان بقصيده منها

فالحمد لله الذي افضاله * حلوا الجني على السوء واضاحه
عاد العبدو بظلمه من ظلمه * في ليل ويل قد خيام مصاحه
وجنا عليه جهله بوقوعه * في قبضة اليازي فهيض جناحه
حمل السلاح الى القبال وبادري * ان الذي يجني عليه سلاحه
أنجي يربدموا عليه مسدوده * وغدا يجي يدركه مداحه
ان أفسد الدين الفلاة بجنهم * فالناصر الملك المصلح صلاحه
قد كان عز ملك لاله مصما * فيهم فلاح كمارأيت فلاحه
وكانني بالساحل الاقصى وقد * ساحت بخردم القرنجة ساحه
فاعبر الى القوم الفرات ليسرنا الموت الاجاج فقد طمى طفاحه
لثفك من أيديهم رهن الزها * عجلا ويدرك ليلها اصباحه
وابغوا لحر ان الخلاص فكها * حران قلب نحوكم ملتصاحه
نجوا البلاد من البلاء بعدكم * فالظلم ياذي الجميع صراحه
واستقبحوا ما كان من مستغلق * فيها فر بكم لكم فتاحه

كتاب (٢٥٦) الروضتين

أنتم رجال الدهر بل فرسانه * ولى الخوارج الطائشات رجلا
فتأكله نساككم ضاراه * تفاعسه مناعه مناحه
وأبو المظفر يوسف مطعمه * مطعانه مقدمه مجاحه
وإذا اتدى فى محفل خييه * وإذا غدى فى محفل قوفاه
قال وكان لغز الدين فرخ شاه فى هذه الواقعة يدبضاه وهو محب للفضل وأهله باعث للخواطر على منحه يذله فنظامت فيه قصيدة منها

نصر أنار المالككم برهانه * وعلاذلة سائلكم شانه
ما أسعد الاسلام وهو مظفر * وأبو المظفر يوسف سلطانه
الملك مرفوع لكم مقداره * والعدل موضوع بكم ميزانه
والدهر لا يأتى بغير مرادكم * فهل القضاء لا جاكم جريانه
وكأن الله فى أحكامه * فلك على أئسركم دورانه
خفرا بنى أيوب ان فخاركم * بذه الملوك السابقين رهانه
بكفى حسودكم اعتقالاته * فكأنما أشجانه أسجانه
الدين عز الدين عز بنصركم * والكفر ذل بعونكم أعوانه
قد كان حبسكم كبحر زاجر * واللايسون جواسشأ حينانه
قطا الهلكه عليهم بحركم * بأسا وغرق فلككم طوفانه
فضل الملوك الأكرمين بفضله * فعلا زمانهم البهيم زمانه
فى فضله فى عدله فى حلمه * صديقه فاروقه عثمانه
هوى السماع وفى اللقاء عليه * هوى العفاف وفى التقى سلانه
من آل شاذى السائدين لمجده * ببنيه يتا عاليا بنيانه
بيت من العلياء سام شاهق * بينى على كيوانها أيوانه
يا سالب التجان من أربابها * ومن الشاء مصوغه نصانه
والحمد مال أنتم بذله * والمال حمد أنتم خزانه

قال ثم ان صاحب الموصل أسرع عودته وواصل لدته والخاصين وأوثقوا الأسسباب وغلقوا الابواب وسقط فى أيديهم حين أفرطوا فى تعذيبهم وتمشوا للخصار وخافوا من البوار وتبذروا وتلدوا وتجادلوا ثم يجلدوا وقال ابن سعدان الحلبي من جملة قصيدة يبنى بها السلطان بهذا الكسر

وما شئت قوم حين قت عليهم * غداه التقي الجمعان انك غالب
ولو لم تقدر تلك المقانب لا غندى * لنفسك فى نفس العدو مقان

قال ابن أبى طى وأما سيف الدين فانه امتدت به الهزيمة الى بزاغة فأقام بها حتى تلاحق به من سلم من أصحابه ثم خرج منها حتى قطع الفرات وصار الى الموصل وصار الى عسكر حلب الى حلب فى سابع شوال فى أقمع حال وأسوته عراة حفاة فقراة يتلاومون على تقض الايمان واليهود وخاف أهل حلب من قصد السلطان هم فأخذوا فى الاستعداد للخصار وجاء السلطان وخيم عليها أياما ثم قال الراى ان نقصد ما حولها من الحصون والمعقل والقلاع فنهجها فاننا اذا فعلنا ذلك ضعفت حلب وهان أمرها فصوروا رأيه فجزلوا على بزاغة فسلمها بالامان وولاهها عز الدين خشر بن الكردى

فصل فى فتح جملة من البلاد حول حلب قال العماد ثم نزل السلطان على حصن بزاغة وتسلمه فى الثانى والعشرين من شوال ثم فتح منبج فى التاسع والعشرين منه وكان فيها الأمير قطب الدين بنال بن حسان والسلطان لا ينال به احسان بل كان فى عسكر الموصل اليه أقوى سبب ولا يماذقه ولا يحفظ معه شرط أدب وبواجهه بما

في أخبار (٢٥٧) الدولتين

يكره فسلم الفلعة بما فيها وقوم ما كان ساء بثلاثمائة ألف دينار منها عين ونقود ومصوغ ومطبوع وهه صنوع ومنسوح وغسلات وسامه على أن يخدمه فأبى وثف وكبرت نفسه فتعبر سره وذهب ما جمعه ومضى الى صاحب الموصل فاقطعه الزقة فبقي فيها الى أن أخذها السلطان منه مرة ثانية في سنة ثمان وسبعين والعماد

نزولك في منسج * على الظفر المبهج * ونحك في المرتجى * ونحك للمرتج
دليل على نفيح ما * تحاول أوترجي * أمورك فيما ترو * مواضع المنهج
وشأنيك دمي الشؤ * من منك شقي شجي * ومن كان في حصنه * ومن قبل لم يخرج
يقال له ليس ذا * بعثك فم فادرج * قرأك يستنزل السحب * منبجوم من الأبرج
فجمل عبور الفراء * وأسر وسروا * وعج نخوتك البلا * وعن غيه هاعرج
فخران والرقما * ن تاليتا منج * وحل عن الممسين * ليهم المذبح

قال ابن أبي طي لما ملك السلطان منج وتسلم الحصن سعد عليه وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره فكان في جملته أمواله ثلثمائة ألف دينار ومن القفزة والآتية الذهبية والاسلحة والذخائر ما يناهز ألف دينار فخان من السلطان التفاتة فرأى على الأيكاس والآتية مكروبا يوسف فسأل عن هذا الاسم فقيل له ولدي يجه ويؤثره اسمه يوسف كان يذخر هذه الأموال له فقال السلطان أبا يوسف وقد أخذت ما خبي لي فتعجب الناس من ذلك قال ولما فرغ من منج نزل على عزاز ونصب عليها عدة مجانيق وجند في القتال وبذل الأموال قال العماد ثم نزل السلطان على حصن عزاز وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الحواز وهو حصن منيع رفيع فحاصره ثمانية وثلاثين يوما وكان السلطان قد اشفق على هذا الحصن من موافقة الحلبيين للفرنج فان الغيظ حلقهم على مهادة الفرنج واطلاق ملوكهم الذين تعبدوا لادن رحمه الله في أسرهم فرأى الاعداء أن يحاط على المعازل ويصونها صون العقائل فذاع الحادى عشر ذى الحجة بعد مدة حصارها المذكورة وقال العماد قصيدة منها

أعطاه رب العالمين دولة * عزه أهل الدين في اعزازها
حاز العلي بأسه وجوده * وهو الحق الخلق باحتيازها
يجده أفي كنورا في السجود * حاكوك في الحد على اكتنازها
مهلك أهل السرك طرارومها * ارمها افرنجها انخازها
تفاخر الاسلام من سلطانه * تنافس الفرس بابر اوازها
تم من فتح عزاز نصرة * أوقعت العداة في اهترازها
واليوم دلت حلب فانها * كانت سال العزم من عزازها
وحلب تبقى كسنة كينها * كما انتفت بغداد من قمازها
ربت في نصر الهدى بحجة * وضوح نعيم الحق في ابرازها
كم حامل الرمح عاده بديا * بنزج وراحي عن عكازها
ارفع حظون لي من حضيض نقصها * وعدع هازها لمازها
والشعر لا يثله من باعث * كحاجة الخيل الى مهمازها

قال وأغار عسكر حلب على عسكرنا في مدة تمامنا على عزاز فاخذوا على غرة وغفلة ما تعجلوه وعادوا فرك أصحابنا في طلبهم فأدركوا الأفراسا واحدا قام السلطان بقطع يده بحكم حده فقلت للأموور ذلك بجمع من السلطان تمهل ساعة لعله يقبل مني شفاعا ثم قلت هذا ليحل وقد ركبك دينك عن هذا ليحل وما زلت أكر رعليه الحديث حتى تبسم وعادت عافطه ورجم وأمر بحبسه وسرى سلامة نفسه ودخل ناصر الدين بن أسد الدين وقال ما هذا الفشل والونا وان سكتم أنتم فما أسكت أنا ودمدم وجزجر وغضب وزار وقال لم لا يقتل هذا الرجل ولماذا اعتقل فوعظه السلطان واستعطفه وسكن غضبه وتعطفه وتلا عليه ولا تزر وازرة وزر أخرى وأطلق سراحه وتم في نجاته نجاحه

❦ (فصل ٤) في وثوب الحشيشية على السلطان مرة ثانية على عزاز وكانت الاولى على حلب قال العماد وفي حادي عشر ذي القعدة قفز الحشيشية على السلطان ليلة الاحد وهو نازل على عزاز وكان للا ميرجاو على الاسدي خيمة قريبة من المنجنيقات وكان السلطان يحضر فيها كل يوم شاهدة الاالات وترتيب المهمات وحض الرجال والحث على القتال وهو ياربث بأبيه قار على الدهر تكف عواده والحشيشية في زى الاحد ذوقوف والرجال عنده صفوف اذ قفز واحد منهم فضرب رأسه بسكينه فعاثه صفائح الحديد المدفونة في ثلته عن تمكينه ولحقت المديبة خذته فخذته فقوى السلطان قلبه وحاش رأس الحشيشي اليه وجذبه ووقع عليه وركبه وأدركه سيف الدين بازكوج فأخذ حشيشة الحشيشي وبضعه وقطعه وجاء آخر فاعترضه الامير داود بن منكلا ن فغره الحشيشي في جنبه فان بعد أيام وجاء آخر فعاثه الامير على بن أبي الفوارس وضعه من تحت ابطيه وبقيت يد الحشيشي من ورائه لا يتك من الضرب ولا يتأني له كصف ما عراه من الكرب فسادى اقلونى معه فقد قتلني واذهب قوتي وأذهلني فطعنه ناصر الدين بن شيركوه بسيفه وخرج آخر من الخيمة منهزما وعلى القتل بن يعارضه مقدما فخار عليه أهل السوق فقطعوه وأما السلطان فانه ركب وجاء الى مرادقه وقد غره الحادث وفزعه الكارث وصوته جهورى وزئيره قسورى ودم خده سائل وعطف روعه مائل وطوق كراغنده بتلك الضربة مفكوك ونهيج سلامته مسلول وكان سلامته وأقام القوم قيامته ومن بعد ذلك رعب ورهب واحسرز واحجب وضرب حول سرادقه على مثل حشب الخركه تآزرا ووقفه تمجيسيرا وجلس في بيت الحشب وبرز للناس كالحجب وما صرف الام عرقه ولم يعرفه صرفه واذار كب وأبصر من لا يعرفه في موكبه أبعده ثم سأل عنه فان كان مستشفعا أو مستهدا أسعفه وأسعده ومن كآب فاضلى الى العادل (السلامة شامله والراحة بمجد الله للجسم الشريف الناصرى حاصله ولم يثله من الحشيشي الملعون الا خدش قطرت منه قطران دم خفيفة انقطعت لوقتها واندملت لساعتها والر كوب على رسمه والحصار لعزاز على حكه وليس في الامر بمجد الله ما يضيى صدره ولا ما يشغل سرا) وقال ابن أبى طى لما فتح السلطان حصن زاعة ومنج أيق من يحلب بخروج ما في أيديهم من المعازل والقلاع فعادوا الى عادتهم في نصب الجبال للسلطان فكانوا سنا ما صاحب الحشيشية من ثابته ورغبوه بالاموال والمواعد ودجلوه على انفاذ من يقتل بالسلطان فأرسل لعنه الله جماعة من أصحابه فجاءوا بربى الاجناد ودخلوا بين المقاتلة وباشروا الحرب والباو فيها أحسن البلاء وامتزجوا باصحاب السلطان لهمجد يجدون فرصة ينهزونها فبينما السلطان يوما جالس في خيمة جاولى والحرب قائمه والسلطان مشغول بالنظر الى القتال اذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينه على رأسه وكان رحمه الله يحتر راخا فنام من الحشيشية لا يتزع الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد عن رأسه فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئا لمكان صفائح الحديد وأحسن الحشيشي صفائح الحديد على رأس السلطان هتده بالسكينه الى خد السلطان فخرجه وجرى الدم على وجهه ففتت ع السلطان لذلك ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه ووضعه على الارض وركبه ليخرجه وكان من حول السلطان قد ادر كم دهشة أخذت بعقولهم وحضر في ذلك الوقت سيف الدين بازكوج وقيل انه كان حاضر اما اخترط بسيفه وضرب الحشيشي فقتله وجاء آخر من الحشيشية أيضا يقصد الدمان فاعترضه الامير منكلا ن الكردي وضربه بالسيف وسبق الحشيشي الى منكلا ن فخرسه في جبهته وقتله منكلا ن ومات منكلا ن من ضربة الحشيشي بعد أيام وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الامير على بن أبي الفوارس فهجم على الباطني ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه على تحت ابطيه وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتك من ضربه فصاح على اقلانه واقتلونى معه فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه فطعن بطن الباطني بسيفه ومازال يخضخضه فيه حتى سقط ميتا ونجا بن أبي الفوارس وخرج آخر من الحشيشية منهزما فظف الامير شهاب الدين محمود خال السلطان فتنكب الباطني عن طريق شهاب الدين فقصده أصحابه وقطعوه بالسيف وأما السلطان فانه ركب من وقته الى سرادقه ودمه على خده سائل وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاختراز وضرب حول سرادقه رجاء من الحشب كان يجلس فيه وينام ولا يدخل عليه الا من يعرفه وبطلت الحرب في ذلك اليوم وخف الناس على السلطان واضطرب العسكر وخاف الناس بعضهم من بعض فاجلأت

في اخبار (٢٥٩) الدولتين

الحال الى ركوب السلطان لبشاده الناس فركب حتى سكن العسكر وعاد الى خيمته وأخذ في قتال عزاز فقاتلها مدة ثمانية وثلاثين يوما حتى عجز من كان فيها وسألو الامان فتسلمها احدى عشر ذى الحجة وصعد اليها واصبح ما تم منها ثم أقطعها لابن أخيه تقي الدين وعمر وكانت عزاز أولاً للجنسية غلام نور الدين فلما ملك السلطان منيع أخذها منه الملك الصالح وقواها لعله يحفظها من الملك الناصر فلم يبلغ ذلك ولما فرغ السلطان من أمر عزاز حقد على من يحلب لها فعاذهم من أمر الحشيشة فسار حتى تزل على حلب خامس عشر ذى الحجة وضربت خيمته على رأس الباروقية فوق جبل جوشن وجبى أموالها واقطع ضياعها وضيق على أهلها ولم يقنع لعسكره في مقاتلتها بل كان يمنع أن يدخل اليها شيء أو يخرج منها أحد وكان سعد الدين كشتكين في حارم وكانت اقطاعه في يد نوابه وكان انتزعها من يد أولاد الداية بعد أن عصي نائبها وكان سبب خروجه اليها أن السلطان لما تزل على عزاز خاف كشتكين أن ينتقل منها الى حارم فخرج اليها فلما تزل السلطان على حلب ندم كشتكين على كونه خارجا في حارم وخاف أن يجرى بين السلطان وبين الامراء الحلبيين صلح فلا يكون له فيه ذكروا لاسم فراسل السلطان يتلطف معه الحال ويقول لو فرغ في الدخول الى حلب لسا رعت في الخدمة وأصلحت الامر على ما يريه السلطان وراسل ايضا الملك الصالح والامراء بحلب يقول لهم قد حصلت خارجا وقد بلغتني امور ولا بد من طلي من الملك الناصر لئلا نل في الضرورة اليكم فإن الذي قد حصل عندي لا يمكنني الكلام فيه فراسل الملك الصالح السلطان في الاذن له في الدخول الى حلب فأذن له وطلبوا الرهائن منه فأنفذ السلطان اليهم رهينة شمس الدين ابن أبي المصالح الخطيب والعماد كاتب الانسا وأنفذوا من حلب الى السلطان رهينة نصره الدين ابن زكي وحكي العماد الكاتب قال لما حصلنا داخل حلب أخذنا برأى العدل ابن الجعي وجعلنا في بيت ومنع منا غلمانا ولم يحضر لنا طعام ولا مصباح وبنينا في كدعش وفي تلك الليلة دخل كشتكين الى حلب فلما أصبحوا أحضرت أنا وابن أبي المصالح الى مجلس الملك الصالح وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود وجماعة من أرباب الدولة وكان صاحب الكلام العدل ابن الجعي فأخذ يتحدث بليغته ويترجم بليكمته ويضرب صفحا عني وبوهم الجماعة اني واني

وما درى الغمر بانى أمرؤ * أمير التبر من التبر

قد عارك الاهوال حتى غدا * بين الورى كالصارم العضب

قد راضه الدهر فلو أمه * بخطبه ما ريع الخطب

قال وعرضت نسخة اليين علينا وصرفنا ولم يلتفت اليها فلما صاروا الى السلطان واخبراه بما جرى في حقهم من الهوان علم ان ذلك كان حيلة عليه حتى دخل كشتكين الى حلب فأطاق نصره الدين وقاتل أهل حلب ولم يرزل منازل حلب الى انسلاخ سنة احدى وسبعين وخمسمائة ثم كان ماسما في ذكره

(فصل ١٠) في بواقي حوادث هذه السنة ودخول قراقوش الى المغرب قال العماد في سابع شوال وصل أخو السلطان شمس الدولة من اليمن الى دمشق وذكر ابن شداد انه قدم في ذى الحجة قتل ولما سمع السلطان بقدومه أرسل اليه بالمال الفاضلي كتاباؤه (أناب يوسف وهذا أخى قدامن الله علينا) وقال في آخره (ولقد أحسن عدنان المبشر أطلع علينا طوع النجر قبل شمس وغرس في القلوب ما يسترنا ويرتجى غرسه) قال ابن أبي طي كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد والشرق الى أخيه الملك الناصر وان يرى ملوك الشام وغيره وأمر للعساكر بما أنعم الله به عليه من النعم والاموال قال وحكي انه لما تحدث الناس بنجروج شمس الدولة من اليمن كان باليمن رجل يقال له عباس وكان صهر ياسر بن بلال الحبشي صاحب سعدن وكان بين عباس وياسر عداوة فاقطع عباس كتابا على لسان ياسر وزور عليه علامته الى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه ان شمس الدولة سائر الى أخيه الملك الناصر الى الشام وسبب خروجه ضعفه عن اليمن فامسكوا ما كنتم تمهلون اليه من الاتاوة والرشوة يبق لكم واحتمال حتى وصل الكتاب الى شمس الدولة وكان بازلا على حصن يعرف بالحضرا يحاصره فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسر وقال له هذا خطك وعلامتك قال كانه هو قال بأي شيء استحققت منك هذا وقد ربت منزلتك وأقيمت عليك بلادك ورفع بصبعتك على أهل اقلبك وأراه الكتاب فلما وقف عليه ياسر حلف انه

ما كتبه ولا يعرفه ولا املاه لاحد ولم يعلم خبره فلم يصدقه شمس الدولة وأمر به فقتل بين يديه صبرا فهاب شمس الدولة مساوئ الذين وجأوا اليه الاموال وحلفوا له على الطاعة ثم ان شمس الدولة خرج الى تهامة وتوجه الى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة بمبارك بن كامل بن منقذ وعثمان بن علي الزنجيلي على عدن وتوجه الى حضرموت ففتحها واستناب عنه بها رجلا كرديا يسمى هارون وكان قمامة بيهام واستقر الكردى بهام مذهب ثمان صاحب حضرموت فتحوه وجمع فقتل وعاش هارون في تلك البلاد واستقام أمره وولى شمس الدولة تغر بن ملكه ياقوت وجعل اليه أمر الجنود وولى قلعة يعكر بمالوك فاما زال وكان وصول شمس الدولة الى السلطان قبل وقعة الموصل فاستدعى وكرمهم وكان شمس الدولة هو سبب الظفر واعطاء السلطان سر اديق سيف الدين صاحب الموصل عما كان فيه من الفرش والاثاث والاكت والولاء دمسق واعمالها والشام وأمره ان يكون في وجه الفرنج لان السلطان خاف من الحلبيين ان يكاتبوا الفرنج كما دتتم قال وفيه اقل صديق بن جولة صاحب بصري وصرح خد قتل اس أخيه وملك بعده بصري وصرح خد شهرزاد فكتبه شمس الدولة أخو السلطان وحلف له على ما يريد من اقطاع واقترح شمس الدولة ان يكتب هو ما يريد له يحلف عليه فانفذ من بصري نسخة من كتبها فاذى بصري وكان قليل المعرفة بالقلعة والتصرف في القبول فلم يستقص فيها وجوه التأويل فلما استوتق بهام شمس الدولة وخرج اليه تأويل عليه شمس الدولة في اليمن وقبضه ثم اقطعه عشرين ضيعة ثم أخذها منه بعد ان قتلها قال وفيها عصي الامير غرس الدين قليج بيل خالده بسبب كلام جرى بينه وبين كشيكن فانفذ اليه من حلب عسكر الحماة ودا يما وسلم الحصن وصحلت حاله قال ولما ملك شمس الدولة اليمن سمع نفسه بن أخيه تقي الدين الى الملك وجعل ير تادما كانا يحتوى عليه فأخبره ان قلعة از برى هي فهدب المغرب وكانت خرابا فأسير عليه بعمارتها وقيل له متى عرت وسكنها اجنادا قويا بهاجعان ملكك برقة واذا ملكك رقة ملك ما وراءها فانفذ بمالوك بهاء الدين ترافوش وقدمه على جماعة من اجناده ومالوكه فصار الى القلعة المذكورة وشرعوا في عمارتها واجتمع بقرا قوش رجل من المغرب فخذته عن بلاد الجريد وفران وذكر له كثرة خبرها وغزارتها ومواهلها وضعف أهلها ورغبه في الدخول اليها فأخذ جماعة من أصحابه وسار في حادى عشر المحترم من هذه السنة فكان يكن النهار ويسير الليل مدة خمسة أيام وأشرف على مدينة أوجلة فاقبضه صاحبها وكرمه وسأله المقام عنده ليه تضديه وزوجه بنته ويحفظ البلاد من العرب وله ثلث اربعة اضعافها ففعل قرا قوش ذلك فحصل له من ثلث الارض ثمانون ألف دينار فأخذ عشرة آلاف لنفسه وفرق على رجاله عشرين ألفا وكان الى جانب أوجلة مدينة يقال لها الازراقية فبلغ أهلها صنيع قرا قوش في أوجلة وانه حرس غلالهم فصاروا اليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خبره وطيب هوائه ورغبوه في المصير اليهم على انهم لم يكونه عليهم فاجاب على ذلك واستخلف على أوجلة رجلا من أصحابه يقال له صباح ودهه تسعة فوارس من أصحابه فحصل لقرا قوش أموال كثيرة واتفق ان صاحب أوجلة مات فقتل أهل أوجلة أجناب قرا قوش فخاف قرا قوش وحاسر ها حتى اقتحمها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل وغنم أصحابه منها غنمية عظيمة واستولى على البلد ثم ان أصحابه رغبوا الى الرجوع الى مصر وخشى قرا قوش ان نعم وحده فرجع معهم فلما حصل بمصر طاب له المقام وقُتل عليه العود وزوجه تقي الدين باحدى جواريه وكان استناب بأوجلة وقال لأهلها أنا أمضى الى مصر لتحديد رجال وأعدوا اليكم قال ابن الاثير وفيها في ربيع الآخر سنة ٦٠٠ زوز سيف الدين صاحب الموصل جلال الدين بابا الحسن على بن جمال الدين الوزير رحمه الله تعالى وقدمه في ولايته فظهرت منه كفاية لم يظن ان الناس وبدا منه معرفة بقواعد الدول وأوضاع الدواوين وتقدير الامور والاطلاع على دقائق الحسابات والعلم بصناعة الكتابة الحسابة والانشاء حبرت العقول ووضع في كتابة الانشاء وضع ما يعرفه وكان عمره حين ولى الوزارة خمساً وعشرين سنة ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين وشفع فيه كمال الدين بن بلسان وزير صاحب آمد وكان قد تزوجه بنته فاطمى وسار اليه وبنى بامديسير امر يضام فآمره قرا قوش ان يذبحه سنة أربع وسبعين وحمل الى الموصل فدفن بها ثم حمل منها في موسم الحج الى المدينة ودفن عند والده وكان من احسن الناس صورة ومعنى رحمه الله تعالى قال ثم ان سيف الدين استناب دزدان اقلعة الموصل الامير مجاهد الدين فاما زنى ذى الحجة سنة احدى وسبعين ورد

في اخبار (٢٦١) الدولتين

اليه أزمة الامور في الحل والعقد والرفع والخفض وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة أربل واعمالها ومعه فيها ولد صغير
لزين الدين علي لقبه أياضار زين الدين فكان البلد لولد زين الدين اسماعيل المعنى تحته وهو لمجاهد الدين صورة ومعنى قلت
وفيها في حادى عشر رجب توفي حافظ الشام أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر صاحب التارخ الدمشقي رحمه الله
تعالى وحضر السلطان صلاح الدين جنازته ودفن في مقابر باب الصغير وفيها قدم دمشق أبو الفتوح عبد السلام
ابن يوسف بن محمد بن معلى الدمشقي الاصل البغدادى المولود لتنوخى الجاهرى الصوفى ابن الصوفى ذكره العماد
في الخريدة وقال كان صديقي وجلس للوعظ وحضر عنده صلاح الدين وأحس اليه وعاد الى بغداد وذكر العماد
من أسعاره مقطعات منها في الحقائق وأنسدها في مجلسه

يا مال الحكام مهتبي يا منتهى أسمى * يا حاضر اشاهد في القلب والفكر
خلقتني من تراب أنت خالق * حتى اذا صرت تمثالا من الصور
أجريت في فالي روحا منورة * تمر فيه بجرى الماء في الشجر
جعت بين صفا روح منورة * وهيك صغته من معدن ككر
ان غبت فيك فيا غفري ويا شرفي * وان حضرت فيا سعي ويا بصري
أواحيجت فصرى منك في دله * وان خطرت فعلي منك في خطر

تيسرو فتمحو رسومي ثم نبتها * وان قضيت عني عشت بالاثر
ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة * قال العماد السلطان مقيم بظاهر حلب فغرف أهلها ان العقوبة
أليمه والعاقة وخيمه فدخلوا من باب التذلل ولا ذوا انوسل وخطبوا في التفضل وطلبوا الصلح فاجابهم وعفا
وعف وكفى وكف وأبقى للملك الصالح حلب واعمالها واستقرى كل عترة لهم وأفائها واراد له الاعزاز فرد عاياه
عزاز وقال ابن شداد أخرجوا اليه ابنة لنور الدين صغيرة سألت منه عزاز فوهبها اياها قال ابن أبي طى لما تم الصلح
وانعقدت الايمان عول الملك الصالح على مراسلة السلطان وطلب عزاز منه فاشار الامراء عليه بانفاذ أخته
وكانت صغيرة فأخرجت اليه فاكرمها السلطان اكراما عظيما وقدّم لها أشياء كثيرة وأطلق لها قلعة عزاز
وجميع ما فيها من مال وسلاح وميرة وغير ذلك وقال غيره بعث الملك الصالح أخته الخاتون بنت نور الدين الى صلاح
الدين في الليل فدخلت عليه فقام فأمّا وقبل الارض وبكى على نور الدين فسألت ان يردها عنهم عزاز فقال سمعنا
وطاعة فاعطاها اياها وقدّم لها من الجواهر والخف والمال شيئا كثيرا واتفق مع الملك الصالح ان له من جاءه وما فتحه
الى مصر وان يطلق الملك الصالح أولاد الداية قال العماد وحلفوا له على كل ما شرطه واعتذر رواعن كل ما سخطه
وكان الصلح عاماهم وللواصله وأهل ديار بكر وكثبت في نسخة الجين انه اذا غدر منهم واحد وخالف ولم ينف بمعا عليه
حالف كان الا باقون عليه بدوا وحده وعزيمة متعاقد حتى يفي الى الوفاء والوفاق ويرجع الى مرافقة الرفاق
فلما انتظم الصلح ذكر السلطان ثاره عن الاسماعيليه وكيف قصدوه تلك الية فرحل يوم الجمعة لعشر بقين
من المحرم فحصر حصنهم مصيان ونصب عليه الجنائقي البكار وأوسعهم قتلا وأسر اساق ابقارهم وخرب ديارهم
وهدم اعمارهم وهتك أستارهم حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب جاء وكانوا قد اسالوه
في ذلك لانهم حيرانه فرحل عنهم وقد اتقم منهم قال وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع فخرج اليهم شمس الدين
محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وهو متولى بعلبك ومقطع اعمالها ومدير أحوالها والمتحكم في أمورها
فقتل منهم وأسرا أكثر من مائتي أسير وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصيان فخذ منه الى غزو
الفرنج والابيعات قال ابن أبي طى وهذا كبر الدواعي في مصلحة السلطان لستان وخروجه من بلاد الاسماعيليه
لان السلطان خاف أن تهيج الفرنج في السام الاعلى وهو بعيد عنه فرعاظفر وامن البلاد بطائل فصالح سنا وعاذ
الى دمشق قال العماد وكان قد خرج شمس الدولة أخواله سلطان من دمشق حين سمع ان الفرنج على الخروج
وباسطهم عند عين الجري فلما المروج ووقع من أصحابه عتدة في الاسار منهم سيف الدين أبو بكر بن السلاور وصل
السلطان الى جاء وقد استكمل الظفر واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه الى

كتاب (٢٦٢) الروضتين

اليمين السفر وتعاني الاخوان في المحجم بالميدان وتحذنان في الحدائق وروعات الفراق ولوعات الاوقاف وكان قد وصل الى السلطان من أخيه هذا عند مغارته بلاد اليمين كتاب ضمنه أبياتنا اظن ان من شعر ابن المخيم المصري أولها

الشوق أطلع بالقلوب وأوجع * فسلام أدفع منه ما لا يدفع
وحملت من وجد الاحبة مفردا * ما ليس تحمله الاحبة أجمع
لا يستقر في النوى في موضع * الا تقاضى الترحل موضع
فالى صلاح الدين أشكو اني * من بعده مضى الجوانح موجع
جزع البعد الدار منه ولم أكن * لولا هواه لبعد دار أزعج
فلاركن اليه من عزائي * ويحب في ركب الغرام ويوضع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة * من أفعها أصبح السعادة يطلع
قال العماد فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رويها ووزنها فقلت فذكر قصيدته منها

مولاي شمس الدولة الملك الذي * شمس السيادة من سناه تطلع
مالى سواك من الحوادث ملجأ * مالى سواك من النوائب مفزع
ولأنت خير الدين غفرى في العلى * وملاذ آمالي وركنى الارتفاع
الابجد متك المجمل موقى * والله مال الملك عندي موثع
وبغير تبرك كلما أرجوه من * درك المني متعذر منفع
للنصر ان أقبلت نحوى مقل * واليمين ان أسرعت نحوى وسرع

قال ثم سرنا الى دمشق ووصلنا اليها سابع عشر صفر وفوض ملك دمشق الى أخيه الملك المعظم شمس الدولة وعمر الى مصر السفر

(فصل) في ذكر جماعة من الاعيان تجدد لهم ما اقتضى ذكره في هذه السنة قال العماد في السادس من المحرم توفي بدمشق القاضي كمال الدين بن الشهر زوري وعمره ثمانون سنة لان مولده في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وكان في الايام النورية بدمشق هو الحاكم المتحكم وصلاح الدين اذ ذلك تنولى السجكية بدمشق وكال الدين يعكس مقاصده بتوجيه الاحكام الشرعية ورعا كسرا غراضه وأبدى عن قبوله اعراضه ويغصص في كل ما يعرض له اعترضه وكم صبر على جماعه بحله وراضه الى أن نقله الله سبحانه من نيابة السجكية الى الملك وصار كال الدين من قضاء ماله كماله المنتظمة في السلوك وكان في قلبه مما فرط فيه وما فرط منه ما فات وقت تلافيه فلما ملك دمشق يجره على حكمه ولم يؤاخذ به بحرمه واحترام زبانه وأكرم أصحابه وفتح للسرع بابيه وخالطه واستحسن جوابه ولم يزل استفتيه ويستهديه ويعرض على رأيه ما يعنده ويبديه وكان ابن أخيه ضياء الدين ابن تاج الدين السهروروري قد هاجر الى صلاح الدين بمصر في ريعان ملكه وأذنت هجرته في درك ارادته بادارة فلكه وأنتم عليه هناك بجزيرة انذهب ومن دار الملك بمصر يدار الذهب ووفر حظته من الذهب وملكه دارا بالقاهرة فبسة حبله حلة حبله ورتب له وظائف ونصه بوظائف ووصل مع صلاح الدين الى الشام وأمره جار على النظام ولما اشتد بكال الدين المرض وكاد يفارق جوهرة العرض أرا أن يبي القضا في ذويه فوصى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين ابن أخيه علما منه بأن السلطان مضى حكمه لاجل سوائفه ويجعله عنده من عوائد عوارفه ومات ولم يخلف مثله ومن شاهده شاهد العقل والفضل كله بارا بالابرار مختارا للاختيار مكرمالا لكرام ماضيا في الاحكام وتقوى نور الدين رحمه الله وولده في أيامه وستدعى امى امى وهو الذى سن دار العدل لتنفيذ احكامه بحضرة السلطان فلا يبقى عليه مخمز ولا منزلة لوى الشنآن وهو الذى تولى له بناء أسوار دمشق ومدار عمارها والبيمارستان فاستمرت عادته واستقرت قاعدته في دولة السلطان وتوفي ونحن يحلب محاصرون وذكر العماد في الخريدة لابن عجي الدين قصيدة في مراثيه منها

أولاً بسفحى فاسميون فسلموا * على جد بآدى السناتوز حوا
وبالرغم منى أن أباجيه بالمنى * وأسأل مع بعد المدى من يسلم

في أخبار (٢٦٣) الدولتين

لقد عذمت منك البرية والدا * أحسن من الام الرؤف وأرحم
ولاسما اخوان صدق بجلقي * هم في سماء المجد والوجود أنعم
نشرت لواء العدل فوق رؤسهم * فما كان فيهم من بضام ونظم
لقيت من الرحمن عفوا ورحمة * كما كنت تغفو ما حيت وترحم

قال العاد وجلس ابن أخيه ضياء الدين مكانه وأحسن احسانه وابتى نواب عمه وأخذ أحكامه نافذ حكمه وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون قد هاجم من حلب الى السلطان وقد أنزله عنده دمشق في ظل الاحسان وهو شيخ مذهب الشافعي رضي الله عنه والاقوم بالفتيا وأعزهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدين والدنيا والسلطان يؤثر ان يفوض اليه منصب القضا ولا يرى عزل الضياء فافضى بسر مراده الى الاجل الفاضل وكان الفقيه ضياء الدين عيسى يتعصب لشيخه فاستسعر الضياء من العزل وأشير عليه بالاستعفاء ففعل فاعفى وقيمت عليه الوكالة الشرعية عنه في بيع الاملاك قال العاد وأول ما استرقت منه بوكالة السلطان الارض التي ببستان بقر الوحش التي بنيت فيها المواضع من الحمام والدور والاصطبل والحناء وكنت قد احتكرتها في الايام الزورية هلكتها في الايام الصلاحية نلت قد خربت هذه الاماكن في سنة ثلاث وأربعين وسبب الحصار واستمر خرابها وعفت آثارها وصارت طريقا على حافة بردا وانت خارج من جسر الصفي خارج باب الفرج مارا الى ناحية الميدان قال فلما استعفى ضياء الدين ابن الشهر زوري من القضاء لم يبق في منصب القضاء الا فقيه يعرف بالواحد داود بن ابراهيم بن عمر بن بلال الشافعي وكان جنوب عن كمال الدين فأسره السلطان ان يجرى على رسمه ويتصرف في حكمه وكان السلطان لاهياء القضاء في البيت الزكوي مؤثرا ولدا كرمناقه مكرما وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وهو راح وبطلب نجا زعده مناح ففوض اليه القضاء والحكم والانفاذ والامضاء على ان يتولى محيي الدين أبو المعالي محمد بن زكي الدين والا وحدا قضيين في دمشق يحكمان وهما عن نيابته يوردان ويصدران وتوليتهما توقيع من السلطان ولم يزل الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون متوليا للقضا منفردا بالحكم والامضاء سنة اثنتين وثلاثين وسبعين في ولاية أخى السلطان الملك المعظم خفر الدين فلما عدما الى الشام تكلم الناس في ذهاب نور بصره وانه لا يقوم في القضاء بوردته وصدره ففوض السلطان القضاء بالاشارة الفاصلية الى ابنه محيي الدين أبي حامد محمد كانه نائب أسسه ولا يظهر للناس صرفه عما هو تولى واستمر القضاء الى انقضائه أشهر من سنة سبع وعشرين ثم صرف واستقل به ابن زكي الدين فأقام في مدة ولايته للشرع القواعد والقوانين وفوض ديوان الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد الى أخيه مجد الدين ابن الزكي فتولا داني ان انتقل من أعمال الوقوف الى موقف اعتبار الاعمال ونولا هابعده أخوه محيي الدين على الاستقلال الى آخر عهد السلطان وبعده قلت وفيها في صفر وقف السلطان قرية خرم بالوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو يعلم يحتاج اليه الفقيه والحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدسي رحمه الله وعلى من هو مدرسه بهذا الموضوع من أصحاب الامام الشافعي رضي الله عنه وجعل النظر لقطب الدين النيسابوري رحمه الله ورأيت كتاب الوقف بذلك على هذه الصورة وعليه علامة السلطان رحمه الله (الجد لله وبه توفيق) قال العاد وفيها في ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر ونحن في طريق الوصول الى دمشق توفي شخص الدين ابن الوزير أبي المصايد دمشق وهو أول خطيب باند يار المصرية لادولة العباسية وكان يتولى الرسالة الى الديوان العزيز ويقصده الاشعراء وبحضره الكراماء فيكثر خلعهم وجوائزهم ويبعث على مدحه غرائهم فعمل السلطان هم وقرب ولده وجبر بر بيه بيه ثم تعين ضياء الدين ابن الشهر زوري ببعده للرسالة الى الديوان وصارت منصبه باله بنافس عليه واستنبت له هذه السفارة الى آخر العهد السلطاني وذلك بعد المضي الى مصر والعود الى الشام فانه بعد ذلك طاب في هذا المرام فأما في هذه السنة فانه كان في مسيرنا الى مصر في الصحبة وهو متودد الى بصفا المحبة وفيها في آخر صفر تزوج السلطان بالحنان المنتوعة عصمة الدين بنت الامير معين الدين انر وكانت في عصمة نور الدين رحمه الله فلما توفي اقامت في منزلها بقلعة دمشق رفيعة القدر مستقلة بامرها كثيرة الصدقات والاعمال الصالحات فأراد السلطان حفظ حرمتها وصابتها

كتاب (٢٦٤) الروضتين

وعصمتها فأحضر شرف الدين ابن أبي عمرو بن وعد وله وزوجه أياها بحضورهم أخوها لايتها الأمير سعد الدين مسعود بن ازناذنها ودخل بها ووبات عندها وقرن بسعد ساعدا وخرج بعد يومين إلى مصر وذكر العاد بعد وفاة ابن النهر زوري وابن أبي المضيا الأمير مؤيد الدولة بأبا الحارث أسامة بن مرشد بن سيد الملك أبي الحسن علي بن منقذ وعوده إلى الشام عند علمه بوصول السلطان فقال هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء والكرماء الصكبراء والسادة القادة العظام، وقدمتعه الله بالعمرو طول البقاء وهو من المعدودين من شجعان الشام وفرسان الاسلام ولم تزل بنومند ملاك شيزر وقد جمعوا السيادة والمخبر والمناظر دبا لمعقل منهم من تولاه لم يرد ان يكون معه فيه سواه فخر جوامعهم في سنة أربع وعشرين وخمسمائة وسكنوا دمشق وغيرها من البلاد وكلهم من الاجواد الاجماد وما فهم الا ذو فضل وبذل واحسان وعدل وامانهم الامن له نظم مطبوع وشعر مصنوع ومن له قصيدة وله مقطوع وهذا مؤيد الدولة أعرقهم في الحسب وأعرفهم بالادب وكنت جرت له نبوة في أيام الدمشقيين وسافر إلى مصر وأقام هناك سنين في أيام المصريين فمقت نوبة قتل المنعوت بالظافر وقتل عباس وزيره أخوته وأقامه المنعوت بالفائز وما رد في ذلك من الهزاهز فقام مؤيد الدولة إلى الشام وسار إلى حصن كيفة وتوطن بها ولما سمع بالملك الصلاحي جاء إلى دمشق وذلك في سنة سبعين وقال

جئت على طول عمرى المنيا * وان كنت أكرت فيه الدنوب

لاني حيت إلى ان لقيت به * عد العدوص سدبقا حيينا

قال وكنت أسمع بفضلته وأبا صباه في أيام السببية وأنه قد لي له مجد العرب العامري بأصفهان في سنة خمس وأربعين هذين البيتين وهما من مبتكرات معانيه في ست قلعهما

وصاحب لا أمل الدهر حجبته * يسقى لنفقى ويسعى سعى مجتهد

لم ألقه منذ تصاحبنا حين بدا * لنا نظري افترقنا فرفه الادر

قال فقال ليته بدمشق في سنة سبعين أنشدنيهمه نفسه مع كثير من شعره المبتكر من جنسه قلت ومن عجيب ما اتفق إلى وجدت هذين البيتين مع يمين آخر بن المجموع أربعة أبيات في ديوان أبي الحسين أجد بن منير الاطرابلسي ومات ابن منير سنة ثمان وأربعين وخمسمائة قرأت في ديوانه وقال في الضرس

وصاحب لا أمل الدهر حجبته * يسعى لنفقى وأجنى ضريدي

أدنى إلى القلب من سمعي ومن بصرى * ومن تلادى ومن مالى ومن ولدى

أخاوي يسنى من خال بوجنته * مداده زائد التقصير للدد

ثم قال (لم ألقه منذ تصاحبنا البيت) فالأسبهان ابن منير أخذها وزاد عليها أولها غير فيما كلمات وقد وجدت هذا البيت الأول على صورة أخرى حسنة (وصاحب ناصح لي في معاملتي) ويجوز ان يكون أسامة أنشدها متمسلا فتنسب اليه لما كان مظنة ذلك ويجوز ان يكون اتفاقا والله اعلم قال العماد وسأهدت ولده عضد الدين أبا الفوارس من هفا وهو جديس صلاح الدين وأنيسه وقد كتب ديوان شعر أسامة لصلاح الدين وهو لثغفه به بفضلته على جميع الدواوين ولم تزل هذا الأمير العضد من هف مصاحبا له بمصر والسام والى آخر عصره وتوطن في مصر فلما جاء مؤيد الدولة أنود أنزله أرحب منزل وأوردته أعذب منزل وملكه من أعمال المعرفة ضيعة زعم انها كانت قديما تجري في املاكه وأعطاها بدمشق دارا وادارا واذا كان بدمشق جالسه وآتته وذاكره في الادب ودارسه وكان ذارأى وتجربه وحكمة مهذبه فهو يستشير في نوائبه ويستشير برأي في غياضه واذا غاب عنه في غرواته كاتبه واعلمه بواقعاته ووقعاته واستخرج رأيته في كشف مهماته وحل مسكلاته وبلغ عمره مائة وتسعين سنة فان مولده سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وتوفي سنة اربع وثمانين وخمسمائة قلت وقد تقدم من أخباره في قتل الاسد في شبابه أيام كونه بشير زود كرت أيضا له ترجمة حسنة في تاريخ دمشق

(فصل) في رجوع السلطان إلى مصر خرج من دمشق يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأول قال العماد لما استمعت

في اخبار (٢٦٥) الدولتين

للسلطان بالشام أمور ماله وأمن على مناهج أمره ومساكنه أنزع الى مصر الاياب وقد أحملت من بعده من جود جود السحاب وتقدمه الامراء والملوك وخرج بكرة الجمعة وتزلج الصفر ثم رحل عنه قبل العصر الى قريب الصغين وخرجت معه وقلبي مروع الى أهلى فأنزلت منزلا الأنظمت أيباتا فقلت يوم المسير وقد عبرت بالخياريه

أقول لك بالخياره تزلج * أنيروا خالى في المقام خيار
هم رحلوا عنك الغداة وما دروا * بانهم قد خلفوك وساروا
حليف اشتياق لا يرى من يحبه * وفي الغلب من نار الغرام أوار
أجير وأمن بالوى فؤادى فعندكم * نمام له ياسادنى وجوار

وقلت وقد تزلنا بالفقيع

رأيتنى بالفقيع منفردا أضيق من ققع قاعها الضائع
بعث بمصر دمشق عن غرر * متى فياغبين صفقة البائع
صيرى والقلب عاصيان وما * غير هوى وأدمع طائى

وقلت بالفوار

تحتد بالفوار دمعى على الفور * فقلت لجيرانى أجير وأمن الجور
وأصعب ما لا قيت انى قانع * من الضيف سذبتم بزور من الزور

وقلت بالزرقا

ولم انس بالزرقاء يوم وداعنا * أأمل تدعى حيرة للثندم
أعدتلك يازرقاء حراء انى * بكيتك حتى شيب ماؤك بالدم
تأخر قلبي عنسدهم متخلفا * وخالفتم فى عزمتى والتقدم
فبالت شغرى هل أعود اليهم * وهل ليت شعرى نافع لاتبم
قال وقلت وقد عبرنا على مسالك قريه من قلعة الشوبك وفيها تخطف الافرنج القاصدين الى مصر

طريق مصر ضيق المسلك * سالكه لاشك فى مهلاك
وحب مصر صار حبا لمن * أوقعه فى شبك الشوبك
لكنا من دونها كعبه * محجوجه مبرورة المنك
بها صلاح الدين يشكى الى * اليه من أيامه يشكى

قال ونظمت فى طريق مصر قصيدة مشتملة على ذكر المنازل بالترتيب وأراد البعيد منها والقريب وانفق ان السلطان سير الى مصر الملك المظفر تقي الدين وكان لا يستدعى من شاديه الا انشادهائى ناديه وبطرب لسماعها ويحبب بأبداعها وكان قد فارق أهله بدمشق كما فارت بها أهلى وجمع الله بهم بعد ذلك شملى وهى هذه

هجرة لكم لاعن ملال ولا غدر * ولكن لمقدور أتبع من الامر
واعلم انى مخطفى فى فراقكم * وعذرى فى ذنبى وذنبى فى عذرى
أرى نوبالدهر تحصى ولا أرى * أشد من المجران فى نوب الدهر
بعينى الى نقباسواكم غشاوة * وسعى عن نحوى سواكم لذو وفر
وقلبي وصبرى فارقا لبعيدكم * فلا صبرى قلبي ولا قلب فى صدرى
وانى على العهد الذى تعهدونه * وسرى لكم مرى وجهرى لكم جهرى
تجرت صرف الهم من كاس شوقكم * وهأنانى صموى تريف من السكر
وان زما ليس يعمر موطنى * بسكاكم فيه فليس من العمر
واقسم لو لم يقسم البسين بيننا * جوى الهم ما أميت مقسم الفكر
أسير الى مصر وقلبي أسيركم * ومن عجب أسرى وقلبي فى أسر

اخلاى قد شط المزمار فارسلوا الى خيال وزوروا في الكرى واربعوا حرمي
 مذكرت احبابي بخلق بعدما * ترحلت والمشتاق يانس بالذكر
 وناديت صبري مستقيما فلم يجيب * فاه سبلت دمي للبكاء على صبري
 ولما قصه نامن دمشق غبا غبا * وبننا من الشوق المض على الجمر
 نزلنا برأس الماء عند دواعنا * موارد من ماء الدموع التي تجري
 نزلنا بحراء الفقيع وغودرت * فراقع من فيض المدام في الغدر
 ونهنت بالفوار فيض مدامي * ففاضت وباحت بالدم من صبري
 سربنا الى الزرقاء منها ومن يصب * او امانا سرحتي برب الورد أو يسري
 مذكرت حمام القصير وأهله * وقد جرت بالحمام في البلدا العفر
 وبالقرتين القريتين وأين من * مغاني الغواني من نزل الدم والعفر
 وردنا من الزتون حسي واية * ولم ندرج حتى صدرنا الى صدر
 غشينا الغواشي وهي يابسة النرى * بعيدة عهد العطر بالعهد والعطر
 وضح علينا بالندى عند الحصى * ومن يرتجى ربا من التمدد النزر
 فقلت اشرحي بالخمس صدر امطبي * بصدر والاجادك النيل للعشر
 رأينا بها عيين المواساة لنا * الى عيين موسى نبذل الزاد للسفر
 وما حشرت عيني على فيض عبرة * اكفككها حتى عبرنا على الجسر
 وملنا الى أرض السدير وجنة * هناك من طلع نضيد ومن سدر
 وجبنا الصلاح حتى أصبنا مباركا * على بركة الحب المبشر بالعصر
 ولما بدا الفسطاط بشرت رفقتي * بمن يتلقى الوفد بالوفر والبشر
 بكت أم عمرو ومن وسيلك ترحلي * فيا خجلتي من أم عمرو ومن عمرو
 تقول الى مصر تصبر تعجبا * وماذا الذي تبغني ومن لك في مصر
 فقلت ملاذي الناصر الملك الذي * حصلت بجدواه على الملك والنصر
 فقالت اقم لا تعدم الخير عندنا * فقلت وهل تقضي السواقي عن البحر
 نفي رجوع يضمن الله نجحه * ولا يقضي ان تبدل العسر باليسر
 عطية قد ضاعفت منه الرحا * ونعمته قد أصعفت منه السكر

قال وكان الدخول الى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الأول بالزى الاجل والعز الاكل وتلقى السلطان
 أخوه ونائبه الملك العادل سيف الدس الى صدر وغير الساعند بحر العازم الجسر وثقة ناحير مصر ووصلت اليها غرامها
 وجلبت علينا زهراتها فظهر بنا نشاطها وزاد اعتبارها ودخل السلطان داره ووقف الله في جميع الامور ابراهه
 واصداره وكانت قد صعبت على مغارة دمشق وأهلها قلقة لوقوفها في احصل بمنها فظنتم يوم خرج منها
 أباها الى ناصر الدين محمد بن شيركوه منها

في حثي خنث العطش مستلذ الدلال * يقول لي بانكسار * ورة واعتلال
 معاتبنا بحديث * اصفي من السلسال * ما مصر مثل دمشق * بعث الهدي بالضلال
 فقلت عنت أمور * عجيبه الاشكال * أسير في طلب السمر مثل سير الهلال
 لم يبلغ البدر لولا السمر أوج الكمال * وكيف أترك شغلي * وانه رأس مالي
 صلاح حالي صلاح السدين الغرر النوال * مالي أفارق ملكا * ملصخته أمالي
 يا ناصر الدين قلبي * عليه في بلبل

في أخبار (٢٦٧) الدولتين

ثم ذكر العباد المحسنين اليه بالقاهرة وسيدهم المولى الاجل الفاضل وقدمه بحقه قصيدة منها
 كف لا يغتدى لى الدهر عبدا * وأنا عبد عبد عبد الرحيم
 بدوام الاجل سيدنا الفا * ضل بادولة الافاضل دوى
 اذا رآه ينوب عني لدى الملاك مناب الارواح عند الجوى
 ملاك الحل في الممالك والعقد دوح حتم التحليل والتعريم
 معمل للنفاذ في كل قطر * قلما حكا على اقليم
 بتلقى الملوكة في كل أرض * كتبه القاديات بالتعظيم
 ناحل الجسم ذو خطاب بد بص * فزالدهر كل خطب جسم
 ثم ذكر الاخوين تقي الدين عمر وعز الدين فرنشاه وهما ابنا اخي السلطان وهو شاعر مشاهير بن أيوب وهما الذين
 برغش السبائشي والى القاهرة ومدح فرخشاه بقصيدة حسنة منها

سادن كالتصيب لدن المزهرة * سلبت مقلته قلبي بغمزه
 كلما رمت وصله رام هجرى * واذا زدت دله زاد عزه
 للصبام عذاره نسج حسن * رقم المسك في الشقائق طرزه
 وعزير على ان اصطبارى * فيسه قد عره الغرام وبره
 مارأى مارأيت مجنون ليلي * في هواه ولا كخير عزه
 ما ذكرنا القسطاط الانسينا * مارأى ابانيريين والارره
 فهما الجيزة الجوارى لها المي * مرة حشنا على ظباء المزه
 ونصيرى عليه نائل عز الدين * ذى الفضل خلد الله عزه
 ففرغ الكثر من ذخائر مال * مالمش نفائس الحمد كثره
 همة مستهامة بالمعالى * لاندنا يا أيه مشتمره

قال العماد ونوفرا على الاجتماع في المعاني لاسماع الاغانى والتزني في الجزيرة والجيزة والاماكن العزيرة
 ومنازل العز والروضة ودار الملك والنيل والمعتمدين ومراى السفن ومحارى افلاك والقصور بالترافه وربوع
 الضيافة ورواية الاحاديث النبوية والمباحثة في المسائل الفقهية والمعاني الابية قال واقترحنا على القاصى
 صياء الدين ابن الشهرزورى أن يفرجنا في الاهرام فغد سعة باباخبارها في الشام فخرج بنا اليها ودار بنا حولها ودارنا
 تلك البرابي والبرارى والرمال والعمارى وأجدنا المنقار والمقارى وهما كالأبرار حول وناق في وصفه بحال النول
 ورأينا الجبابب وروينا الغرائب واستصغرنا في جنب الهرمين كل ما استعظمناه وتداونا الحديث في الحرم
 ومن بناء فكل يأتى في وصفهما بما نقله لاجماع عقله واجتمدوا في الصعود اليه فلم يوجد من توقله وحارت العقول
 في عقوده وطارت الافكار عن توهم حدوده فيسأله من مولود لادهر قبل الضرفان انقضت القرون الحاسية على
 آثامه وجدوده وسماخ الاخبار بذلك حديث اجسادنا تاد وتود ويدل كاهمه وعلوه على همة بانيه في بأسه
 وجوده وان في الارض الهرمين كمان في السماء الفرقدين وهما كالطودين الزاحفين وكالجبلين الشاسخين
 قد غنيت الدهور وهما باقيان وقاصرت القصور وهما اقيان وكأتهما الام الارض ثديان وعلى ترائب التراب
 نهدان وسلطان العالم علمان والى مراى الاملاك سلمان وهما الليل والنهار رقيبان وروضى وشمام نسيبان
 ومن زحل والمرج قريبان ولعواذى الخطوب خطيبان ولشور الفناكش روفان ولشخص الكثرة الترابية سافان
 قلت ثم ذكر العباد جماعة ممن كان يقيم الضيافة وله من الفضلاء والاعيان فذكر منهم الناصب مؤدب أولاد
 السلطان وله دار مشرفة على النيل وذكر منهم اللسان الصوفى البخنى وكان له بحجة قديمة بنجم الدين أيوب والد
 السلطان وله دار أيضا على شاطئ النيل برسم ضيافة من نزل بدال ثم وقف السلطان داره على الصوفية من بعده
 واتقل بعد سنين الى النعم وخلفه

(فصل ٤) في بيع الكتب وعمارة القلعة والمدرسة والبيمارستان قال العماد وكان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان وهي تباع بأرخص الأثمان وتخزأنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة بالمعروف فقيل للأمير بهاء الدين قراقوش متولى القصر والحال والعاقلة لا يمر هذه الكتب قد عاث فيها العث وتسأوى سميتها والعت ولا غنى عن ترميمها ونفضها وإخراجها من بيوت الخزانة إلى أرضها وهو تركى لاجبة له بالكتب ولا ديرة له بأسفار الأدب وكان مقصود دلالة الكتب أن يوكسوها ويخرموها ويكسوها فأخرجت وهي أكثر من مائة ألف من أمائها وغربت من مساكنها وخربت أوكارها وذهبت أنوارها وشتت شملها وبت حبها واختلط أديبها بنجومها وشرعها بمنطقها وطبيعتها بنسبها وتوارى بها بنسبها وبجاءها بمشاهيرها وكان فيها من الكتب الصكبار وتوارى بها الأصمار وصفات الأخبار ما يستعمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءا مجلدا إذا فقد منه جزء لا يتخلف أبدا فاختللت واختبطت فكان الدلال يخرج عشرة عشره من كل فن كتبها ميمره فتسام بالدون وتباع بالهون والدلال يعرف كل شدة وما فيها من عده ويعلم أن عنده من أجناسها وأنواعها وقد شارك غيره في ابتاعها حتى إذا لقي كتابا تدقق عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة قال فلما رأيت الأمر حصرت القصر واشترت كما اشتروا ومريت الأطباء كأمروا واستكثرت من المنافع المبتاع وحويت نفائس الأنواع ولما عرف السلطان ما انتفع به كان يثمن أنعم على بها وأرأى من ذهبها ثم وهب لى أيضا من خزائن القصر ما عينت عينه من كتبها ودخلت عليه يوما وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر وهو ينظر في بعضها ويسط بدى لقبضها قال وكنت طلبت كتباً عنتها فقال وهل في هذه شيء منها فقلت كلها وما استغنى عنها فأخرجتها من عنده بجمال وكان هذا منه بالإضافة إلى مائة أقل نوال

قال وكان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يمنعها فقال ان أفردت كل واحدة سوراً احتاجت إلى جنده مفرد يحميها وإنى أرى أن أدبر عليها سوراً واحداً من الشاطئ إلى الشاطئ وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به إلى أعلى مصر يبروج وصلها بالبرج الأعظم ووجدت في عهد السلطان يتارفعه النوازل وكل في الحساب ومبلغه وهودائر البلد من مصر والقاهرة بمائة ألف من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة ذراعاً من ذلك ما بين قلعة المقسم إلى شاطئ النيل والبرج بالكروم الجبل من مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراعاً ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة وأثنان وتسعون ذراعاً ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكروم الجبل من مصر سبعة آلاف ومائتا ذراعاً ودائر القلعة بجبل مسجد سعد الدولة ثلاث آلاف ومائتان وعشرون ذراعاً وذلك طول قوسه في أبعاده وإبراجه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل وذلك بالذراع القاسمى بتولى الأمير شهاب الدين قراقوش الأسدى وبني القلعة على الجبل وأعطاهم إحقاقهم إحقاق العمل وقطع الخندق وتعميقه وحفر واديه وتصديق طريقه وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجبل وحفر في رأس الجبل بئرًا ل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين ولم يأت له هذا كله في سنين متقاربة لولا أناته به المعين وتوفى السلطان وقدي من السور ومواضع العمارة فيه مستمرة ووظائف نفقاتها مستندرة قال وأمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية وربت قواعد بافرط الإجمية وتولاهما الفقيه الزاهد نجم الدين الحبوبانى وهو الشيخ الصالح الفقيه الورع النقي الذى قال وأمر بالتحذار في القصر بيمارستان المرضى وأستغفر الله بذلك وأسترضى ووقف على البيمارستان والمدرسة وقوقا وقد أبطل منكر أو أشاع معروفًا وأضرب عن ضرائب نفعها وهب إلى مواهب فأسداها واهتم بفرائض وزاقل فأذاها

(فصل ٥) في خروج السلطان إلى الإسكندرية وغير ذلك من بواق حوادث هذه السنة قال العماد ثم خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شعبان واستعجب ولديه الأفاضل علياً والعز بن عثمان وجعل طريقه على دمياط ورأى في الحضور بالغر المذكور ومشاهدته الاحتياط وكان له ماسى كثير جليلة إلا طول فامتد بظاهر البلد يومين وذهب منه جارية ثم وصلنا إلى نهر الاسكندرية وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبى طاهر

في اخبار (٢٦٩) الدولتين

أحمد بن محمد السلفي وداودنا الحضور عنده واجتلبنا من وجهه نور الايمان وسعده وسعنا عليه ثلاثة ايام الخيس والجهة والسبت رابع شهر رمضان واغتنتنا فرصة الزمان فتلك الايام الثلاثة هي التي حسبناها من العمر فهي آخر ما اجتمعنا به في ذلك الشهر وشاهدنا ما استجده السلطان من السور الدائر وما أبقاه من حصص الامتار والمآثر وما انصرف حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول قال ابن أبي طي - ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها رأى انه لا يحل في نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد الى بلاد الكفار والجهاد في المشركين فرأى الاسطول وقد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته فأمر بتعمير الاسطول وجمع له من الاخشاب والصناعات أشياء كثيرة ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الاسطول اليه وشحنه بالرجال وولى فيه أحد أصحابه وأفرده أقطاعا مخصوصا ودوناً مفردا وكتب الى سائر البلاد يقول القول قول صاحب الاسطول وان لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج اليه وأمر صاحب الاسطول ان لا يبارح البحر ويفرز الى جزائر البحر قال العماد وقتل في معنى تنقل في البلاد

يوما بحتي ويوما في دمشق وبالسفسطاط يوما وبما بالعراقين
كان جسمي وقلبي الصب ما خلقا * الا ليقنه ما بالشوق والبين

وقلت يوم الخروج من القاهرة

يا باخلا عند الوداع بوقته * لوسامني رويحي بهالم باجل
ما كان ضرك لو وقفت لسائل * ترك الفؤاد بدائه في المنزل
هلا وقفت لقلب من أحرقت * مفدرا طفاها الحريق المشعل
ان أسمرم تحلا في أسر الهوى * قلبي ليدل مقيد المرحل
عذب العذاب لذي فؤادى المبطل * اذ كنت أنت معذب والمبطل

وقلت وقد نزلنا بين منية غمر ومنية سمند

زلت بأرض المنتبين ومنيتي * لقائكم الشافي ووصلكم المجدى
سابلي ولا تبسلي سريرة وذكى * وتؤنسني أن مت في وحشة اللحد

قال وعدنا من الاسكندرية في شهر رمضان فعمدنا ببقية الشهر بالقاهرة والسلطان متوفى في ليله ونهاره على نشر العدل وانشاره وافاضة الجود واغزازه وسماع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأخباره وأشاعه العلم والاعلان بأسراره وأبدأ شعار الشرع وانظاره وابقاه المعروف على قراره وافناء اعلام الباطل وانكاره وقال ومن مدائح في السلطان ما أنشدته اياه سادس شوال

فديتكم من ظالم منصف * وناهيك من باخل مسرف
أبلغ دهرى قصدى وقد * قصدت بمصر ذرايوسف
ويوسف مصر بغير التقي * وبذل الصنائع لم يوصف
فسروا فتح القدس واسفك به * صما متي تجبرها بنظف
واهدا الى الاستبثار البنا * ورو هذا السقوف على الاسقف
ونخلص من الكفر تلك البلا * دخلصك الله في الموقف

وفيما وصل رسل المواصله وصاحب الحصن وما رزى الى دمشق فاستمتموا بتخلف أخی السلطان شمس الدولة قورا انشاه بن أيوب ثم قصدوا مصر ووقع رسول صاحب حصن كيفا في الاسر قال ابن أبي طي وصل رسول الموصل الفاضلي عماد الدين بن كمال الدين بن الشهرزوري بهدية وقود فخرج الموكب الى لثائه وأكرمه السلطان واحترمه وقدم بعده رسول نور الدين قرا أرسلان ورسول صاحب مارد بن يهدا باوا اجتماعي دمشق وخرجوا الى السلطان بمصر فاعتز بهم الفريخ فاسر رسول صاحب الحصن ولم يرزل في الاسر حتى فتح السلطان بيت الاجزان فأطلقه وأحسن اليه قال وفيها رجع قرا فوش الى أوجلة وتلك البلاد فجمع أموالا ورجع الى مصر ثم أراد الرجوع فنهه العادل ثم خلصه

كتاب (٢٧٠) الروضتين

فرخشاہ فرجیم وفتح بلادفران باسرها فال العباد ثم خرج السلطان الى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لارهاب العدو وهو ركب للصيد والقنص والتطلع الى أخبار الفرنج لانهما الفرض واقترح علي ان أمدح عز الدين فرخشاہ بقصيدة موسومة ألزم فيها الشبن قبل الهاء فعملت ذلك في أواخر ذى الحجة فقلت

مولای عز الدین فرخشاہ * الدهر من رجبك لا بحشہ
تلقاه سمح الکف دفاہا * طلق الحیا کرم ابذہ
ان شئت فو بالردی فائقہ * أوسئت فوز بالعلی فاعشہ
بدیم بالیدی وبالابد فی * حزی لهما والعدی بطشہ
کم ملک عاد اکم لم بیت * الاجعلتم عرشہ نعلہ
خوفتم الشرک فلا قصہ * أمنتہ يوما ولا فتنہ
أورثک السودد بالار العلی * وأندک السید شاہنشہ

وهال في الخريدة كما تخمين بمرج فاقوس معجمين على الفزاة الى غزو قد وصلت أساطيل بغري دسباط والاسكندرية بسبي الكفار وقد أوفت على الرأس عدة من وصل في قيد الاسار فصرابن راحة مشداهننا ابعد البحر سنة اثنتين وسبعين ومعرضهما وهبه الملك الناصر من الاماء والعبيد قصيدة منها

لقد خسر التحارب منه خرم * وقلب هسرة فظور البص
فساق الى الفرنج الخيل برا * وأدرکهم على بحر بسف
وقد جاب الجواری بالجوارى * بمدن بكل قدم من بحر
يريدهم اجتماع الشمل بؤسا * فمریان یوح على مرین
زهدت اسکندر یذیوم سيقوا * ودمیاط الى المینا بغین
برون - یاله کالطیف بمری * فلو هجوا أمانهم بعدوه
أبادهم مخوفة فامسى * مناهم لو تبتهم بأمن
تکلی - ولهم سر فاغمرنا * فصاروا لاقتناص تحت ره
أفام بال أب - ویر باطسا * رأت منه الفرنجة صیق
رجأ أقصى الملوك السلم - لم یرجهده فی البأس یعنی

وفيها أبطل السلطان المكس الذي كان يهكم على الحاج وسأى ذكر في أخبار سنة أربع وسبعين قال ابن الأثير وفي سنة اثنتين وسبعين سرع مجاهد الدين يعني فایا ارد دار قلعة الموصل في عمارة جامعها بفتاها الموصل بباب الجسر وهو من أحسن الجوامع ثم بنى بعد ذلك الزمان والمدرسة والبيمارستان وكلاهما متحاوران قال وتوفي في شهر ربيع الأول من سنة خمس وتسعين بقلعة الموصل وهو متوليها والحاكم في الدولة الاتباكية النورية وكان ابتداء ولايته القلعة في ذى الحجة سنة إحدى وسبعين ثم قبض عليه سنة تسع وعشرين وأعيد الى ولايتها بعد الافراح عنه وبقي الى الآن وكان أصله من أعمال شنجان وأخذ منها وهو طفل وكان أعاقلا خيرا دينا فاضلا تعلم اللغة على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وكان يحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئا كثيرا الى غير ذلك من المعارف الحسنة وكان كثير الصوم وله وردي صاميه كل ليلة وكثير الصدقة وبني عدة جوامع منها الذي بظاهر الموصل وبني عدة خانقاهات منها التي بالموصل ومدارس وتناظر على الانهار الى غير ذلك من المصالح ومناقبه كثيرة قال العماد في الخريدة تزلنا ببركة الحب لقصده فرض الجهاد وعرض الاجناد فكتب الاسعد بن عماد الى قصيدة في الملك الناصر ويعرض بالشر فنهاته كان يستغل بذلك في ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين

باكریم الخیم فی الخیم * أشیف كلیم ذریم * بحی للشمس اذا طلعت * منه فی داج من الظلم
کیف لا تعجبی لو احظه * ورماء الطرف فی العجم * لا تصد قلب المحب لکم * لا یجل الصيد فی الحرم
باصلاح الدین یا ملکا * مذسرا لله للامم * أنجت الکفار فی نقم * وغدا الاسلام فی نعم

في اخبار (٢٧١) الدلتين

ان يك الشطر فتح مشغلة * لعني القدر والمحم * فهي في ناديل تذكرة * لامور الحرب والكرم
فلكم ضاعفت عذتها * بالعاء الجسم لا القلم * ونصبت الحرب نصبها * فاننت كفاك بالفهم
فابق للاقدار زفعها * وأمر الاقدار كالخدم
وفيه اتوفي بالاسكندر ية الفاضلي الشريفة أبو محمد عبد الله العثماني الدياجي من ولد الدياج محمد بن عبد الله بن
عرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنهم ويعرف بان أبي الياس من بيت القضاء والعلم وكان واسع الباع في علم
الاحاديث كثير الرواية قبا بالادب متصفا في النظم والنثر الا انه مقل من النظم وأحد عشر في علم الشرط وقوله
المقبول على كل العدول ذكر ذلك العادرجه الله في الخريدة
(ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة) والاساطان مخيم مر ح فاوس فظم العما في الاجل الفاضل
قصيدة ميمية في منتصف المحرم وخدمه بها هناك في الخيم وأولها

ريم هضم بوم هضمي * من سقم عيني ع-ين سقي

ان رمت باعاذي صلاحي * نخلني والهدوي وزعي

لومك يدي الغرام قلبي * أنت نتمجي أم أنت خصمي

ايا زماي العشوم افسر * انك لا تستطيع غشبي

عبد الرحيم الرحيم انجي * عوني على خطبك الملم

الفاضل الافضل الاجل المفضل الاسرف الاشرف

غيت غيان و جود جود * وبجر علم وطود حلم

براعه في اليمين منه * تسخر ج الدزم خضم

قال وكان عند باب الخميم بالعباسة في المحرم علم الدين السائلي وهو من ادباء الموصل وشعرائها وفيها ثمان وطرقاتها
وقد سنة اثنتين وسبعين الى مصر وأهدى النظم والنثر واصطنعه عز الدين فرخشاها وأزله في جواره وجمع له من رده
ومن الامراء الف دينار فذبح السلطان بالخميم بكلمة مطلعها

غدا النصر مع قود ابريك الصنرا * فسر واقع الدنيا فانت بها أخرى

قلت لم يذكر العما من هذه القصيدة غير هذا البيت وان لقاءهم قام قصائد كثيرة والسائلي هو أبو علي الحسن بن
سعيد له ترجمة في تاريخ دمشق وذكره العما في الخريدة وذكر فيها من هذه القصيدة

يميك فيم اليمين واليسرى اليسرى * فبشري لمن يرجو الندي من مأشري

والعما وكان كاتب الاعلام السلطانية صفرا لا يشارك في شعرها نصرا قلت وفيها يقول بعض الفضلاء

واسود خدب دونه الموت أجمر * أنت بالأيدي الذين أعلامه الصفر

وقد ظهرت منصوبه جزم بها * ظهور العدي من رفعها الخفض والجبر

واضحت تجوز الزنر سر داو غراب * وله في اعلاء رقبته سر

وقال العما عاد السلطان الى القاهرة وأقام بها ثمانا ثم انتمت بالغزاة همه الى غزوة قتلان فخرج يوم الجمعة ثالث جادى
الاولى بعد الصلاة ونجم بظاهر باليس في خامسة بمجده ثم تقدمنا منه الى السيد وخيمنا بالبرز ثم نودي خذوا زاد
عشرة أيام أخرى زادة لا تستطاع ولا عوا ذلك عند توسط ديار الكار اقال العما فركبت الى سوق العسكر للاقبال
وقد أخذ السعر في الارتماع فقلت اقلامي قد بدالى وقد خطر الرجوع من الخطر بالى فاعرض للبيع اجمالى وأنقلى
واتهز فرصة هذا السعر الغالى وأنا صاحب قلم لا صاحب علم وقد استعرت نفسي في هذه الغزوة من عاقبة تدم
والمدي بعيد والمخطب شديد وهذه نوبة السيوف لآتوبة الاقلام وفي سلامتنا سلامة الاسلام والواجب على كل
منا ان يلزم شغله ولا يتعدى حده ولا يتجاوز محله لاسيما وزاب انديوان قد استأذنا في العودة وأظهر وأقله العده
وأظهرت سرى للولى الاجل الفاضل فسر ذلك اسفا فاعلى واحسانا الى وكان السلطان ايضا مؤثر اثارى ويختار
اختيارى فقال لى أنت معنا أو عزمت ان تدعنا ولا تتبعنا فقلت الامر للولى وما يختاره لى فهو أولى فقال تعود

كتاب (٢٧٢) الروميين

وتدعولنا وتسأل الله ان يبلغنا من النصر سؤلنا وكنت قد كتبت أيتها الى المخدوم الفاضل ونحن بالمبرز في العشرين من الشهر

قبل في مصر نائل عسدد الرسل ووفر كنيها الموفور
فاغترنا بها وسرنا اليها * وقعنا كاتري في الغرور
وحظينا بالرميل والسير فيه * ومنعنا من نيلها الميسور
وبرزنا الى المبرز نشكو * سدرنا من نزولنا بالدير
قيبل الى سراي الجهاد وماذا * بالغ في الجهاد جهد مسيري
ليس يقوى في الجيش جاشي ولا قو * سي يرى مسوتورا الى مونور
اما للكتب لا الكائب اقدا * مي والصحف لا الصقاح حضوري
كاد فضلي يضيع لولا اهتمام الفاضل الندي بأمرى
فاما منه في ملابس جاه * رافلامنه في حير حبوري
فهو رقي من الحضيض حظوظي * وسماي الى سرر السرور

وقال وما انقطعت عن السلطان في غزواته الا في هذه الغزوه وقد عظم الله فيها من النبوه وكانت غزوات السلطان بعد هاموئيه والسعادات فيها مجده وكنت لما فارقت القاهرة استودحت وتسوقت الى اصدقائي وتشوشت وكتبت من الخيم بلبس الى القاضي ثم الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراس وقد أقام بالقاهرة وكان صاحبالي من الايام النورية واستشرته في التأخر عن السلطان فكتب في الجواب رافقه ولا تفارقه فكرهت رايه فكتبت اليه

اذا رضىتم بكموهي فذاك رضا * لا أبتغي غير ما تبغون لي غرضا
وان رأيت شفاء القلب في مرضي * فاني مستطيب ذلك المرضا
أنتم أشرتم بتعذبي فصررت له * مستعذبا استلذت لهم والمضضا
أصبحت متمطبا في محبتكم * لحاش لله ان أبتى بكم عوضا
لله عيش تقضى عندكم ومضى * وكان مثل سحاب يرفه ومضضا
العيش دان جناء الغض عندكم * والقلب محترق مني بحجر غضا
ما كنت أعهد منكم ذا الجفاء ولا * حبيت ان ودادي عندكم كرفضا
قد أظلم الافق في عيني لغيبكم * فان أذنت لشخصي في الحضورا
واست أول صب من أحبتة * لما حقوا ما قضى أوطاره وقضى
مروا بما شئتم من محنة واذى * فقد رأيت امثال الامر مفترضا
طوبى لكم صروا دارا التي قضيت * فيها المأرب والعيش الذي خفضا
بعيشكم ان خالوتكم بانيساطكم * تذكر واضجر بالعيش منقبضا
رضيتم سفرى عنكم واعهدكم * بسفرى عنكم لا تظهرون رضا
هلاتكم كلفتم قدولا أسربه * هبات جوهركم قد عاد لي عرضا
تفضلوا وشر حواصدي بقرىكم * أوفاشر حوالى ذا المعنى الذي غمضا

فكتب الى في جوابها أيتها ناهما

لا تنسبونى الى اشارة بعدكم * فلت أرضى اذا فارقتكم عوضا
ولى وداد نولى الصدق عقدته * فآزاه على الايام منتقضا
يلقاك قلبى على سبل العتاب له * بهمة ليس يخشى بعدها مرضا
وصرت كالدهر يجنى أهله أسفا * ويلتقى من عتاب المذنب المضضا

قال ثم ودعت وعدت ونهضوا وقعدت

(فصل) في نوبة كسرة الرمل وكانت على المسلمين بالجملة وذلك يوم الجمعة غرة جمادى الآخرة أو ثانيه ورحل السلطان بعساكره فزل على عسقلان يوم الاربعاء التاسع والعشرين من جمادى الاولى فسي وساب وغنم وغلب وأسرو قسر وكسب وكسر وجمع هنالك من كان معه من الاسارى فغضب أبناعاقهم وتفرق عسكره في ال٤٤ آل مغيرين ومبيدين فلما راوا ان الفرنج خامدون استرسلوا وابسطوا وتوسط السلطان البلاد واستقبل يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة بالرمل هراة للاقصدي بعض المعاقل فاعترضه نهر عليه تل الصافيه فازدجت على العبور أنقال العساكر المتوافيه فهاشعروا الابالفرنج طلبة باطلا بها حازبة باخرها بها ذابة بذئابها عاوية بكلاهما وقد نفر نصيرهم وفرز فريرهم وسرايا المسلمين في الضياع مغيرة وزحى الحرب عليهم في دورهم مديرة فوق الملك المظفر تقي الدين وتلقاهم وباشرهم بيبضه وسمعه فاستشهد من أصحابه عدة من الكرام انتقلوا إلى نعيم دار المقام وهلك من الفرنج اضعافها وكان لتقي الدين ولد يقال له أحد أول ما طر شاربه فاستشهد بعد ما أوردى فارسا قال وكان لتقي الدين أيضا ولد آخر اسمه شاهنشاه وقع في أسر الفرنج وذلك ان بعض مستأمنى الفرنج بمد مشق خدعه وقال له تجي الى الملك وهو يعطيك الملك وزوره كما بافسكن الى صدقة وخرج معه لما تقرب به سد وثاقه وغله وتقيده وحله الى الداوية وأخذ به مالا وجد عنددهم حالاً وجالاً وبقي في الاسر أكثر من سبع سنين حتى فكاه السلطان بال كثير وأطلق للداوية كل من كان لهم عنده من أسير فغلظ التلب القوى على ذلك الولد جرحه لاله أخيه ولما عاد من الغزوة رزناه للتعزية فيه قال ولوان لتقي الدين رداء لاردي القوم لكن الناس تفرقوا وراء ألقاهم ثم نجوا راحلهم وصوب العدو بجملتهم حملتهم على السلطان فذبت ووقف على تقدمه من تخلف وسمعت به يوماً يصف تلك النوبة ويشكر من جاعتهه الصحيحه ويقول رأيت فارسا سبحت نحوى حصانه وقد وثب الى نحري سنانه فكاد يبلغني طعانه ومعه آخران قد جعلوا شانهما شانه فرأيت ثلاثة من أصحابي خرج كل واحد الى واحد منهم فبادروه وطعنوه وقد تمكن من قربيها مكنوه وهم ابراهيم بن قنار وفضل الفيضى وسويد بن غشم المدري وكانوا فرسان العسكر وشجعان المعشر واتفق السعادة السلطان ان هؤلاء السلافة رافقوه وما فارقوه ومارعوا العدو وروى وصايقوه فصار السلطان يسير ويقف حتى لم يبق من نظرائه يتخلف ودخل الليل وسلك الرمل ولما ولا دليل ولا كثير من الزاد والعلف ولا قليل ونعسوا السلوك في تلك الرمال والاعاث والاوعار وبقوا أياماً الى بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا الى الديار وأذن ذلك بتلف الدواب وترجل الركاب ولغوب الاحجاب وفقد كثير من لم يعرف له خبر ولم يظهر له أثر وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير ومن كان في صحبتهم فضل الطريق عنهم وكانوا سائرين الى وراء فأصبحوا يقرب الاعداء فاكتموا في مفارقه وانتظروا من يدهم من بلد الاسلام على عماره فدل عليهم الفرنج من زعم انه يدل بهم وسعى في أسرههم وعطبتهم فاسروا واساخص الفقيه عيسى وأخوه الابدع منى بسين اوسبعين ألف دينار وفكلك جاعة من الكفار قال وما شئت هذه النوبة بكسره ولا عدم نصره فان الكفاية في العدو وبلاده بلغت منتهاها وادركت كل نفس مؤمنة مشتمها لكن الخروج من تلك البلاد شئت السهل وأوعر السهل وسلك مع عدم الماء والدليل الرمل وبما قدره الله تعالى من أسباب السلامة والهداية الى الاستقامه ان الاجل الفاضل استظهر في دخول بلاد الاعداء باستعجاب الكفاية والادلا وانهم كانوا يفارقونه في القداء والعسا فلما وقعت الواقعة خرج بدوابه وعلمانه وأصحابه وأدلائه وأثاله وبث أصحابه في تلك الرمال والوهاد وانتسلل حتى أخذ خبر السلطان وقصده وأوضح بأدلائه جدد وفرق ما كان معه من الازواد على المنقطعين وجمعهم في خدمة السلطان أجمعين فسهل ذلك الوعر وأنس بعد الوحشة القفر وجبر الكسر وكان الناس في مبدأ توجه السلطان الى الجهاد ودخول الاجل الفاضل معه الى البلاد ربما تحذروا وقالوا لو قعد وتخلف كان أولى به فان الحرب ليست من دأبه ثم عرف ان السلامة والبركة وانجاة كانت في استعجابه وجاء الخبر الى القاهرة مع نجابين خلع عليهم وأركبوا وأشيع بأن السلطان نصره الله وان الفرنج كسروا وغلبوا فركبت لاسمع حديث النجابين وكيف نصر الله المسلمين واداهم يقولون ابشروا فان السلطان وأهله سالمون وانهم واصلون غاغون فقلت لرفيقي ما بشر بسلامة السلطان الا وقد تمت كسره وماثم

كتاب (٢٧٤) الروضتين

سوى سلامته نصره ولما قرب خرجنا لتأقيقه وشكرنا الله على ما سرته من ترقيه وتوقيه ودخل القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر ونابت سلامته مناب الدهر وسيرنا به البشائر وأنهم ضابطا فاتها الطائر لآخر السنة الراجيف وابدال التأمين من الخوف فقد كانت نوبتها هائله ووقعنا غائله قال القاضي ابن شداد خرج السلطان يطلب الساحل حتى واثى الفريخ على الرملة وذلك في أوائل جمادى الاولى وكان مقدم الفريخ البرنس انراط وكان قد بيع بحلب فانه كان أسيرا بها من زمن نور الدين رحمه الله وجرى خلل في ذلك اليوم على المسلمين ولقد حكى السلطان قدس الله روحه صورة الكسرة في ذلك اليوم وذلك ان المسلمين كانوا قد تعبوا تعبيرة الحرب فلما هارب العدو رأى بعض الجماعة تغيير الميمنة الى جهة اليسرة واليسرة الى جهة الغلب ليكون حال اللقاء وراء ظهرهم فلما عرف بأرض الرملة فبينما اشتغلوا بهذه النعمة هجم الفريخ وقد رآه الله كسره فاندكسروا كسرة عظيمة ولم يكن لهم حصن قريب يأوون اليه فطلبوا جهة الديار المصرية فوضوا الى الطريق وتبددوا وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى وكان وهما عظيما جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة وبه الجدد قاتل ذلك بعد عشرين سنين فكسرة الرملة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين وكسرة حطين كانت في سنة ثلاث وثمانين قال العماد الكاتب وحيث كانت للملك المظفر تقي الدين في هذه الغزوة اليد البيضاء أنشدته قصيدة منها

سقى الله العراق وساكنيه * وحياه حيا الغيث المهنون
وجيرانا امنتم الجور منهم * وما فيههم سوى واث أمين
صفوا والدهر ذو كدر وقدا * وفوا بالعهد في الزمان الخون
بنو أيوب زانوا الملك منهم * بجلية سودد وتقي وبين
ملوك أصبحوا خسر البرايا * لخير رعية في خير دين
أسانيد السيادة عن علاهم * معنسة مصححة المتون
بنو أيوب مثل قريش مجددا * وأنت لها كازعها البطين
أخفت الشرك حتى ادع منهم * يرى ذيل الولادة في الجنين
ويوم الرملة المرهوب بأسا * تركت الشرك منزعج القطين
وكنتم لعسكر الاسلام كففا * أدى منه الى حصن حصين
وقد عرف الفريخ سدا لكما * رآوا آثارها عين اليقين
وأنت ثبت دون الدين تحمي * حماه أوان ولي كل دين

قال واهتم السلطان بعد ذلك بأفاضة الجود وتفرق الموجود وتعويض ما نفق من الدواب فسلوا ما بههم ولم بأسوا على ما أصابهم قال ابن أبي طي وقال ابن سعد ان اخلى يمدح السلطان ويدكر ما فعله على عسقلان ويهون عليه أمر هذه الكسرة من قصيدة

قرت من عسقلان كل نائبة * بانت تقبل بوكاف من الاسل
فاض النجيع عليها وهي محلة * فأصحت مر تعال الخيل والابل
قل للفريخية الخذلنى رويدكم * بالنار أوتخرج الدهرى من الحبل
ترقبوها من الفوارط العنة * خوارق الارض تمحور ونق الاصل
كأننى بنوا صيهن يقدمها * كاس من الجود عريان من البخل
حسب العدا يا صلاح الدين حسيمهم * أن يقر فوك يجرح غير منسدم
وهل يخاف لسان النخل ملتس * مرت على أصبعيه لذة العسل

(فصل) في وفاة كمشكين وخروج السلطان من مصر بسبب حركة الفريخ قال العماد وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبري الملك الصالح واستولى على أمره العدل ابن العجي وكان سعد الدين كمشكين الخادم مقدم العسكر

في اخبار (٢٧٥) الدولتين

وامير المعسر وهو صاحب حصن حارم وقد حصد له امثاله من الامر اءواخذاهم فسلموا لابن العجمي الاستبداد بتدبير الدولة فقفز عليه الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة في جامع حلب فقتلوه واستقل كشتكين بالامر فقتلهم فيه حساده وقالوا الملك الصالح ما قبل وزيرك ومشارك ابن العجمي الا ككشتكين فهو الذي حسن ذلك للاسماعيلية وقالوا له انت السلطان وكيف يكون لغيرك حكم او امر فازالوا به حتى قبض عليه وطالبوا بد تسليم ثلعه حارم وأتبعوا بها لاجله العظام فكتب الي نوابه بما قد فعلوا وأبوا فقتلوه ودفنوا به تحت العلمعه وخوفوه بالصرعه فبأطال أمره قصر عمره واستبد الصغار بعده بالامور الكبار وامتنعت عليه قلعة حارم وجردها اليها الغنائم ونزل عليه الفرنج ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح واستنزل عنها أصحاب كشتكين وولى بها مملوكا لايه يقال له سرخك وقال ابن الاثير سار الملك الصالح من حلب الى حارم ومعه كشتكين فعاقبه لما مر من بها بالتسليم فلم يجيب الي ما طلب منه فملق منه كوسا ودخن تحت أفتنه فات وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها ثم انه أخذها بعد ذلك قال ابن شداد أما الملك الصالح فانه تعقب أمره وقبض كشتكين صاحب دولته وطلب منه تسليم حارم اليه فلم يفعل فقتله ولما سمع الفرنج بقتله تزلوا على حارم طمعا فيها وذلك في جمادى الآخرة وقاتل عسكر الملك الصالح العساكر الفرنجية ولما رأى أهل القلعة خطرهما من جانب الفرنج سلموها الى الملك الصالح في العشر الاواخر من شهر رمضان ولما عرف الفرنج بذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ثم عاد الصالح الى حلب ولم يزل أصحابه على اختلاف عيل بعضهم الى جانب السلطان قدس الله روحه قال العماد ووصل في هذه السنة الى الساحل من البحر كند كبير يقال له قلندس أكبر طروا غبت الكفر واعتقد دخوله الشام من ناصري الاسلام ومن جلة شروط هذنه الفرنج انهم اذا وصل لهم ملك أكبر ما لهم في دفعه تدبير انهم يعاينونه ولا يباينونه ويحالفونه ولا يخالفونه فاذا عادت الهدنة كما كانت وهانت الشدة ولانت وبمحكم هذا الشرط حشدوا الحشود وجندوا الجنود ونزلوا على جمادى العشر من جمادى الاولى وصاحبها شهاب الدين محمود الحارمي مريض ومائب السلطان بدمه في يومئذ أخذه الاكبر ثورا شاه وهو الامراء مشغولون بذانهم وكان سيف الدين علي بن أحد المشطوب بالقرب فدخلها وخرج للحرب واجتمع اليه رجال الطعن والضرب وجرت ضروب من الحروب وكادت الفرنج تهجم البلد فاخرجوهم من الدروب ونصر الله اهل الاسلام بعد حصارهم لهم أربعة أيام فانهزم الملاعين ونزلوا على حصن حارم كما تقدم ذكره فحلهم عنه الملك الصالح بعد حصار أربعة أشهر ومن كتاب فاصلى الى بغداد (خرج الكما الى البلاد الشامية فاصبح لعقد كان محكما غادر غدار صريحا مقتدر بن ان يجهز واعلى الشام لما كان بالجدى جريحا ونزلوا على ناهر جمادى يوم الاثنين الحادى والعشرين من جمادى الاولى وزحفوا اليها في نايه فخرج اليهم أصحابنا وتضمن كتاب سيف الدين (يعنى المشطوب) ان القتلى من الفرنج تزيد على ألف رجل ما بين فارس وراجل شفي الله منهم الصدور ووزق عليهم النصر والظهور ثم انصرفوا مجموعا لهم بين تكليس الصلب وتحطم الاصلاح مفارقة أحراهم عن المدسة المحروسة كما افترقت عن المدينة النبوية الاحزاب) قال العماد وتسمع الخليليون بيوم رحيلنا من مصر قصد السام لنصرة الاسلام وهاتوا أول ما يصل صلاح الدين تسليم حارم فراسلوا الفرنج وهارونهم وأرغبوهم وأرهبوهم وقالوا لهم صلاح الدين واصل وما لك بعد حصوله عندهم حاصل فرحل الفرنج بقطيعة من المال أخذوها وعدة من الاسارى المصوبوا ثم توفي خاله السلطان شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي في جمادى الآخرة وتوفي ولده تكش بن خال السلطان قبل ثلاثة أيام وذلك وأن وقعت الزلعة ولما سمع السلطان بنزول الفرنج على حارم رحل من البركة يوم عيد الفطر بعساكره ووصل الى يلة في عاشر الشهر واستتاب بمصر أخاه العادل وأقامها ايضا القاصى الفاضل بنية الحج في السنة القابلة ووصل السلطان الى دمشق في الرابع والعشرين من شوال ومما نظمه العماد في التشوق الى مصر قوله

ساكنى مصر هنا كم طيبها * ان عيشى بعدكم لم يظب
لاعدمتم راحة من قربها * فاما من بعدها في نعب
بعد العهد باخباركم * فابعثوا اخباركم في الكتب
ليت مصرا عرفت انى وان * غبت عنها فاهوى لم يغب

كتاب (٢٧٨) الروضتين

ولوهرقت لظي سطوات عزمي * لكانت من سطاي على حذار
تقيم خفين تبصر من أناني * تبات الطود تسرع في الفرار
تفارقني على غير اغتسال * فلم أحصل لزورها إزارى
أياشمس الملوك بقيت شمسها * تنير على الممالك والديار
أجلك استعارت لفخ ناز * لعزمك لم تزل ذات استعار

(فصل) قال العماد وفي العشر الأول من ذي القعدة قبل عضد الدين بن رئيس الرؤساء وزير الخليفة بغداد على أيدي الملاحدة وكان قد توجه إلى الحج فوقف له في مضيق وطفنا غري دجلة كهل في يد قصه يزعم أنه يريد رفعها إلى الوزير من يده إلى يده فأرأى ما وصل قصته فاتهز فيه فرصته فقتله وبدر كمال الدين أبو الفضل بن الوزير فقتل قاتل أبيه بسيفه وكان مع ذلك الجاهل المحدث فبان له فجر أحداهما حاجب الباب ابن المعوج فأتى وجرح آخر ولد القاضي القضاة وقطاع الملاحدة وأحرقوا واسقل ظهير الدين أنوكر من مصور بن نصر المعروف بابن العطار صاحب المخزن بالدولة وكان للسلطان خدنا مصافيا قتل وابن العدار هذا هو المرحوم المشهور بعد موت سيفداد كما سيأتي ذكره في آخر حوادث سنة خمس وسبعين قال ابن الأثير وكنت حينئذ ببغداد عارما على الحج فعبر عضد الدين دجلة في شبرة فلما ركب دابته والناس معه ما بين راكب وراجل تقدم إليه بعض العامة ليدعوا له فنهضه أصحابه فزجرهم وأمرهم أن لا يمتنعوا أحداهم فقدم إليه الباطنية دقة لونه بالجانب الغربي فتوفي بها قال العماد ووردت مطالعة الفاضل إلى السلطان تسمى التوجع لقتل الوزير عضد الدين وفيها (ومار بك يظلام للعبيد فقد كان عفا الله عنه قتل ولدى الوزير بن هبيرة وأزهرق أنفهم ما وجاعة لا تحصى (من ذا يسر بذنبه * والدهر لا يغتر به) وهذا البيت بيت ابن المسلمه عريق في القتل وجده هو المقتول بد الباسي سيري في وقت إخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالمستنصر عصفري ومن ذكره لم تزل تائهة مقولة وما زالت السيف عليها ومنها مسلوله فهم في هذه الحادثة المسعفة المعصية كما قال دريد (أبى الموت إلا لا سم) والاسات المولى يحفظها وهي في الجاسة وقد ختمت له السعادة بما ختمت به له الشهادة لاسما وهو خارج من يده إلى بيت الله قال الله سبحانه ومن يخرج من يده مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يذكره الموت فتدفع أجرد على الله

ان المساءة قد تسمر وربما * كان السرور وما كرهت جدرا

ان الوزرور يرآ لمحمد * أودى فني يشاك كان وزيرا

وهذان البيتان قيل في أبي سلمة الخلال أول وزير لرئيس العباس تلت وبلغني ان الفاضل قال في ذلك

وأحسن من نجل الوراثة للفتي * حياة تزيه مصرع الوزراء

قال العماد وكان ضياء الدين بن الشهرزوري قد سار في الرسالة إلى بغداد وتوقف في الموصل لحادثة الوزير

ووافق وصوله إلى الموصل وقاذان عه القاضي عماد الدين احمد بن القاضي كمال الدين بن

الشهرزوري وكان سابا وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك وفيه (يذكر ابن عشرين

في لحده والتسعون صاحبها رافع اغتبط الولد مع نصارة الشباب المقتبل

وعر الولد مع ذبول المشيب المشغل ليعلم ان الشيب ليس بمسلم وان

الشباب الغض ليس بممانع وليكون العبد حذرا من

بغفات الآجال في كل الاحوال والله يطيل للمولى

العمر كما أطل له في القدر ونسمع منه

ولا نسمع فيه ويبقيه سندا

للدين الحنيفي

فان بقاوه

يكفيه

في أخبار (٢٧٩) الدولتين

وهذا آخر الجزء الاول من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين يتلوه ان شاء الله تعالى في الجزء الثاني ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة قال العماد وكان يمس الدين ابن المقدم من أكابر الامراء الى آخره قال ناسخ نسخة الاصل التي حصل عليها تمثيل هذا الطبع ووافق الفراغ من نسخه يوم الاربعاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة على يد اضعف الخلق وأوجههم الى عفوان الله أحمد بن العلم بن عبد الله غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وازواجه الطيبين الطاهرين وسلم تسليما

وعلى نسخة الاصل المذكورة أيضا نص هذه العبارة المستطوره شاهدت على نسخة الاصل المنقول منها هذه النسخة وهي جميعها بخط فاضل الفضالة نجم الدين المصري الشافعي رحمه الله ماصورته يقول شاهدت على آخر الجزء الاول من الاصل المنقول منه هذه النسخة بخط المؤلف في آخر المجلد الاول من كتاب الروضتين فرغ منها مصنفها نسخا في حادى عشر شهر رمضان المبارك سنة احدى وستين وستمائة واستمكت هذه النسخة المبينة على زيادات كثيرة فانت النسخ المتقدمة على هذا التاريخ المنقولة من المسودة وكل متقل من هذه النسخة هو الاصل الذي يعتمد عليه ويركن اليه كتبه عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعي مصنفه عنه الله عنه

وشاهدت عليه ماصورته مختصرا سمع جميع هذا المجلد على مؤلفه الشيخ نهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعي ولده محيي الدين الواهدى أحمد وشهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرح الاسيلى وزين الدين علي بن أحمد بن يوسف القرطبي وسمع الدين اسماعيل بن أحمد بن ابراهيم المالكي وابنه محمد وعفيف الدين محمد بن أبي بكر ابن ابراهيم المؤذن الساغورى ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الكنعي وسمع آخرون بقوات عينوا في الاصل وسمي ذلك بقراءة يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي في مجالس آخرها نام محمد سنة أربع وستين وستمائة بدار الحديث الاسرفيه كتبه هارث يوسف بن محمد حامد الله مصليا على نبيه محمد ومسلما نقل ذلك كله مختصرا أحمد بن مصرى التغلبى الشافعي غفر الله له

وشاهدت عليه أيضا بخطه ماصورته مختصرا قرأ على هذه المجلد جميعها الامام الناضل محمد الدين محمد بن أحمد ابن عمار الاربلى سمعه بقراءة شهاب الدين أحمد الامام بن الدين أبي ركر يا يحيى المصري وآخرون بقوات ذكر وافي الاصل وفرغ من ذلك يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الاول سنة خمس وخمسين وستمائة في أربعة عشر مجلسا كتبه مصنفه عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعي عنه الله عنه

وقرل العبد النقيب المعروف بابي السعد أفندي محرر جمعية وادى النيل قدمت بمحمد الله وحسن توفيقه بطبعة وادى النيل في اواخر سنة ١٢٨٧ طبع هذا الجزء الاول من كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين الذي هو

كالا يخفى على كل ذى فضل فضيل كتاب جليل وسفر جميل ولقد اعنتى هذا العبد الضئيل باحياء مواته وتهجيجه واستحياء رفاة وتخليجه على قدر الطاقة حتى جاء

بعون الله كثر رضى الغما وقد صاح فيها البلبل وغنى يحيى من اطلال

الاسلام بعض دوارسها ويعيد من آثار السلف الصالح شيئا من

مغارسها والمرجوم المولى سبحانه ان يتم احسانه

ويعين على نجاز الجزء الثاني كما أعان على

تمام طبع هذا الجزء الاول وصلى

الله على سيدنا محمد وسلم

وشرف وعظم

وكرم

وبجل

(مالايد من التنبيه عليه من الخطأ والصواب في الجزء الاول من هذا الكتاب)

صفحه	سطر	خطا	صواب	صفحه	سطر	خطا	صواب
٥	٢٩	جارم	حارم	٨٦	١٣	توجهت شهباءها	توجهت شهباءها
٦	٣٦	سيئاتكم	سيئاتكم	٩٧	٠٩	المبجي-منج	المنجي-منج
١٤	٢٧	بكا	بكي	٩٧	٢٠	معدا	معدا
١٧	٠٧	بجبل	بجبل	١٠١	٢٥	جث	جث
٢٢	١١	ياسوطه	باسوطه	١١٥	١٨	ونخد العيش	ونخد العيش
٢٢	١٦	بثم	بثم	١٢٢	١٠	الحفار	الحفار
٢٢	٣٠	الغار	الغار	١٣٠	٣٦	حنك	حنك
٢٤	٢٤	ثم	ثم	١٣٢	٠٢	جبييل	جبييل
٢٥	١٥	منقد	منقد (وهكذا)	١٣٤	٠١	لاؤوف	لاؤوف
٢٦	٣٦	وحفظا	وحفظا	١٤٩	٢٨	السابعه	السابعه
٢٨	٢٥	شجر	شجر	١٥٢	٢٧	بلك	فلك
٢٨	٢٨	قلج ارسلان	قلج ارسلان (وهكذا)	١٥٣	٠٢	ملك	فلك
٣٤	١٠	انابك	انابك (وهكذا)	١٦٤	٣٠	فاشرة	فاشرة
٣٤	١٦	ليه الحرير	ليه الحرير	١٧٠	٣٣	واصله برسالة	واصله برسالة
٣٤	٣٧	مقترع	مقترع	١٧١	٣٧	احصاه	احصاه
٣٩	١٥	بغا	بغا	١٨٥	٢٧	قال العادوني	قال العادوني
٤٠	١٦	فاخلتها	فاخلتها	١٩١	٣٣	منازل العز	منازل العز
٤٠	٣٥	البثره	البيره	١٩٦	١٥	المستعصى	المستعصى
٤٧	٣٠	اسعد	اسعد	١٩٨	٠٦	استنباه	استنباه
٥٠	١٧	البستاني	البستاني	٢٠٧	٠٤	الاشها	الاشها
٥١	١٢	اعتقت	اعتقت	٢١٥	٣٠	مثاله	مثاله
٥٦	٢٢	عياوتهم	عياوتهم	٢٤١	١٠	عرائب	عرائب
٦٥	٣٤	الى ميراك في المجد	الى ميراك في المجد	٢٦٢	٢٦	مرأى مرأى	مرأى مرأى
٦٦	٠٢	ولملائنا	ولملائنا	٢٧٢	٢٠	السعاده	السعاده
٦٦	١٣	الرد	الردى	٢٧٢	١٥	تسجد	تسجد
				٢٧٧	١٥	عفا	عفا

هذا ولى بالمرزىل يوجد في طبع هذا السفر المثير بعض تحريف وتجهيف كتنقص بعض نقط أو عدم ضبط في طبع بعض الحروف لا تحفى على فهم القارئ البصير والله سبحانه وحده هو المتزود عن الغلط والسط وهو العالم الخبير

خطبة الكتاب	٢
مقدمة الكتاب	٣
فصل في الدولة النورية وسلطانها	٥
فصل في مدح نور الدين رحمه الله تعالى بأشعار كثيرة وأوصافه فوق ما مدح به	١٨
فصل في أصل البيت الأتابكي	٢٤
فصل في قتل الوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق	٢٥
فصل عاش السلطان ملك شاه بعد نظام الملك خمسة وثلاثين يوما	٢٦
فصل ذكر أخبار زنكي	٢٧
فصل في ولادة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله	٢٨
في تولية السلطان محمود السلطنة وأمر أرائيه مسعود على الموصل	٢٩
في ولاية زنكي الموصل وغيره من البلاد	٣٠
في جهاد زنكي للفرنج	٣٣
في فتح شهر زور وبعثك وحصار دمشق	٣٣
في مسير أتابك الشهيد إلى بلاد الفرنج وأغارته عليها	٣٤
في مسيره إلى بلد الهكارية وكان بيد الأكراد	٣٦
في فتحه الرها	٣٦
في مسيره إلى قلعة البيرة بعد فراغه من خذل الرها وإصلاح حالها واستيلائه على ما وراءها من البلاد والولايات	٤٠
في وفاة زنكي رحمه الله	٤٢
في بعض سيرة الشهيد زنكي	٤٣
فيما جرى بعد قتل زنكي من تفرق أصحابه وتملك ولديه غمازي ومحمود	٤٦
فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والأفرنج المخذولين	٤٨
في توقيع كتب عن خليفة مصر الملقب بالحافظ	٥٠
في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم مخذولين	٥١
في اجتماع كل من بالشام من الفرنج بملك الألمان لما وصل إلى الشام وقصدهم دمشق	٥٢
في رؤية الفقيه العذلاوي في المنام وذكر موضع قبره وقبر عبد الرحمن الحطول	٥٣
في رحيل الفرنج عن دمشق وما من بعد ذلك	٥٥
في مسير نور الدين إلى بصرى وقتل اجتماعها الفرنج وقد عزموها على قصد بلاد السلام	٥٥
في ورود الخنجر من ناحية حلب إلى صاحبها نور الدين بن أتابك أمره بإبطال حتى على خبر العمل	٥٧
في مسير نور الدين إلى حصن فامية وهو للفرنج	٦٢
في وفاة معين الدين أتر بدمشق وما كان من الرئيس ابن الصوفي في هذه السنة	٦٤
فصل في وفاة سيف الدين غمازي بن زنكي صاحب الموصل	٦٥

فصل فيما جرى بعد وفاة سيف الدين	٦٦
فيما جرى بعد تولية قطب الدين على الموصل	٦٧
في اتصال الخبر الى نور الدين بافساد الفرنج في الاعمال الحورانية	٦٩
في فتح عزاز	٧١
في صفة أسرجوسلين	٧٢
في ذكر مسير نور الدين الى قلعة جوساين وملاك بعضها واجتماع الافرنج والتقاتلهم به	٧٦
في توجه مجاهد الدين بران الى حصن صرخه لتفقد أحواله وما جرى في غيابه واقتضاء الحال	٧٧
لرجوعه وما فعل بعد ذلك	
في بقية حوادث سنة خمس وأربعين	٨٣
فيما جرى في سنة سبع وأربعين	٨٦
في ولادة ابن لنور الدين سماء أجد	٨٧
فيما جرى في سنة ثمان وأربعين	٨٩
فيما عرض من المشاحنات بين الرئيس ابن الصوفي وبين اخويه عر الدولة وورين الدولة	٩٠
في وصول الامير محمد الدين أبوبكر نائب نور الدين في حلب الى دمشق عقيب عوده من الحج	٩٩
في حوادث سنة احدى وخمسين وخمسمائة	١٠٠
في توجه نور الدين الى حلب في بعض عسكره عند انتهاء خبر الافرنج اليه بعيشهم في اعمالها	١٠٣
في توجه نور الدين الى بعلبك لتفقد أحوالها	١٠٧
في تواصل الاخبار بوصول ولد السلطان مسعود في خلق كثير لازول على انطاكية الى آخر ما ذكر	١٠٩
في ذكر حصن شيرز وولايته بنى منقذ	١١١
في بواقي حوادث سنة ائتين وخمسين	١١٤
فيما ترتب على الزلزلة الهائلة التي حدثت بناحية حلب	١٢٠
في تجمع قوم من السفهاء النعوام وعزمهم على التحريض لنور الدين على اعادة ما كان أبطل وسامح	١٢١
به أهل دمشق من الرسوم الى آخرها ذكر	
في دخول سنة أربع وخمسين	١٢٢
في وصول رسول ملك الروم بهدية اتحف بها الملك العادل	١٢٣
في حوادث سنة ست وخمسين وخمسمائة	١٢٤
في حوادث سنة سبع وخمسين وخمسمائة	١٢٧
في حوادث سنة ثمان وخمسين	١٢٧
في حوادث سنة تسع وخمسين	١٢٩
في فتح حارم	١٣٣
فصل في ذكر وزير الموصل ووفاته	١٣٤
في حوادث سنة تسعين وخمسمائة	١٣٩
في حوادث سنة احدى وستين وخمسمائة	١٤١

- ١٤٤ فصل في قدوم عماد الدين الكاتب الى دمشق الى آخر ما ذكر
- ١٤٧ في طلب نور الدين من أخيه قطب الدين ان يعبر الفرات بعسكره
- ١٤٩ في حوادث سنة ثلاث وستين وخمسمائة
- ١٥٢ في وفاة زين الدين
- ١٥٢ في حوادث سنة أربع وستين
- ١٥٤ في فتح الديار المصرية
- ١٥٥ فيما فعله نور الدين
- ١٥٦ في القبض على شاور وقتله
- ١٤٠ في وفاة أسد الدين شيركوه
- ١٦٤ فيما ذكر من قصة شاور وما جرى بسببه في الديار المصرية الى ان تمت وزارة صلاح الدين
- ١٧٤ في ذكر بعض قصائد مدح بها نور الدين وهنئ بها حين تملك مصر
- ١٧٨ في تمل مؤتمن الخلافة بالحرقانية ووقعة السودان بين القصرين وغير ذلك
- ١٨٠ في حوادث سنة خمس وستين وخمسمائة
- ١٨٠ أرسل نور الدين كتابا الى العاضد صاحب القصر يهنيئته برحيل الفرنج عن بغداد ياط الى آخر ما ذكر
- ١٨٣ في مسير نجم الدين أيوب الى مصر يباقي أهله وأولاده
- ١٨٤ في ذكر الزلزلة الكبرى التي عمت أكثر بلاد الشام
- ١٨٦ في غزو صاحب البصرة ووفاته صاحب الموصل
- ١٨٧ في عبور نور الدين الفرات لتدبير أولاد أخيه سيف الدين بعد وفاته
- ١٨٩ في ذكر رحيل صالح الموصلي يسمى عمر الملا
- ١٩٠ في وصول الخبر بموت الامام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن التقي
- ١٩٠ في بقية ما جرى في سنة ست وستين وخمسمائة
- ١٩٣ في حوادث سنة سبع وستين
- ٢٠٠ فيما جرى بعد موت العاضد وانقراض دولة القواطم واعادته الخديجة بالديار المصرية لابني العباس
- ٢٠٣ في ذكر غزو الفرنج في سنة سبع وستين
- ٢٠٥ في باقي حوادث هذه السنة
- ٢٠٥ في حوادث سنة ثمان وستين وخمسمائة
- ٢٠٦ في جهاد السلطان الفرنج في هذه السنة وفي فتح بلاد النوبة
- ٢٠٩ في وفاة نجم الدين أيوب والصلاح الدين وطرف من أخباره
- ٢١٣ فصل في مسير نور الدين قاصدا جانب الشمال
- ٢١٥ في بقية ذكره لمجيئ لاون مقدم بلاد الارمن والتجباؤه الى نور الدين الى آخر ما ذكر
- ٢١٥ في حوادث سنة تسع وستين وخمسمائة
- ٢١٦ في فتح اليمن
- ٢١٧ في ذكر الامير محمد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن محمد

٢١٩	فصل في صلب عمارة الشاعر البني وأصحابه
٢٢٤	في التعرف بحالة عمارة ونسبه وشعره
٢٢٧	في وفاة نور الدين رحمه الله
٢٣٠	في جلوس الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين في الملك بعد وفاة أبيه
٢٣١	في قصد الفرنج على الثغرة بعد هدم بانياس بعد وفاة نور الدين إلى آخر ما ذكر
٢٣٤	في دخول سنة تسعين وخمسمائة
٢٣٤	في عزم السلطان على أن يسارع إلى تلافى الأضرار إلى آخر ما ذكر
٢٣٥	في نوبة الكفر
٢٣٥	في توجه صلاح الدين إلى دمشق ودخوله إليها
٢٣٧	فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حصص وجماعة
٢٣٩	فيما حصل من البرد العظيم وكثرة البلج في هذه السنة
٢٤١	في إرسال الخديب شمس الدين بن الوزير من طرف السلطان إلى الديوان إلى آخر ما ذكر
٢٤٤	قال العماد وكانت بالموصل فتمثلت نظم مرثية في نور الدين إلى آخر ما ذكر
٢٤٨	فيما جرى للمواصلات والحلبين مع السلطان في هذه السنة
٢٥١	في طلب الفاضل العماد الكاتب من السلطان أن يكون معه ويلزمه بالديوان
٢٥٢	في حوادث سنة إحدى وسبعين وخمسمائة
٢٥٦	فصل في فتح جملة من البلاد حول حلب
٢٥٨	في وثوب الحنيشية على السلطان
٢٥٩	في بواقي حوادث سنة إحدى وسبعين وخمسمائة
٢٦١	في حوادث سنة اثنين وسبعين وخمسمائة
٢٦٢	في ذكر جماعة من الأعيان
٢٦٤	في رجوع السلطان إلى مصر
٢٦٨	في بيع الكتب وعمارة القلعة والبيمارستان
٢٦٨	في خروج السلطان إلى سكندرية وغير ذلك
٢٧١	في حوادث سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة
٢٧٣	في نوبة كسرة الرملة
٢٧٤	في وفاة كشتكين وخروج السلطان من مصر بسبب حركة الفرنج إلى آخر ما ذكر
٢٧٨	في قتل عضد الدين بن رئيس الرؤساء وزير الخليفة ببغداد

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين
تأليف الشيخ الامام العالم الفاضل الصدر الكامل
الاوحد فرید عصره وحید دهره مجموع الفضائل
شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسمعيل
ابن ابراهيم المقدسي الشافعي
تقريبه الله تعالى

برحمته

آمين

م

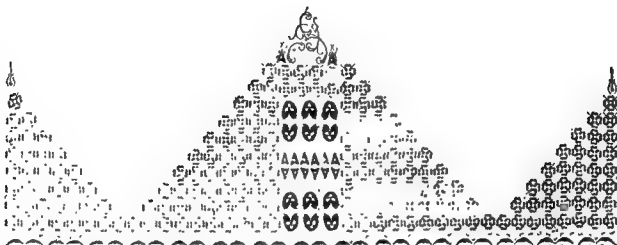
رواه الشيخ الامام محمد الدين أبي المنصور يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي سماه

﴿الجزء الثاني﴾

(طبعة جديدة)

مطبعة وادي النيل بمصر القاهرة

سنة ١٢٨٨



(كتاب الروضتين في أخبار الدولتين)
(النورية والصلاحية)

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة قال العماد وكان سمى الدين ابن المقدم من أكبر الامراء وهو السابق الى مكتبة السلطان في تصويب رأيه في الوصول الى الشام وتدارك امر الاسلام وكان السلطان عند تسلمه بعلبك انتم بها عليه ورد أمورها اليه فافهم بها مستقرا ولا خلافا عانت مستدرا وما وصل السلطان في هذه النوبة الى الشام لم يحضر كاجرت العادة للخدمة والسلام فانه كان غمى اليه ان الملك المعظم محمد الدين سمى الدولة تورا نشاء ابن أيوب طلبها من أخيه وانه لا يمكنه الرضا في من الحضور ان تم الامور وروجع في ذلك امرارا سرا وجهارا والتزم له ان يعوض عنها ما هو اوفى منها فاي الا لبا وسارف السلطان منه ومن أخيه الحيا وسمى الدولة لا يقبل عذرا ولا يرى عما طلبه سبيرا ثم استأذن أخاذه في التوجه اليها فأذن له وتوجه عز الدين فرخ شاه الى حوران لحفظ الثغور وسار السلطان الى حمص ونزل على العاصي عارما على الجهاد ووردت من الناضل كتب من بعض فصولها (وأما سور القاهرة فعلى ما أمر به المولى شرع فيه رطهر العمل وطلع البناء وسلكت به الطريق المؤدية الى الساحل بالمقسم والله يعمر المولى الى ان يراه نفاقا مستد راعى على البلد من ومورا بل سارا يكون به الاسلام محلي الدين محلا للدين والامير من الذين قرا قوش ملازم الاستخفاف بنفسه ورجاله لازم لما به نعيمه بخلاف أمثاله قليل تشقيل مع جيله لا عبا والتدبير وانقاله) ونهاى حق نغل القضاء من عرف الدين بن أبي عمرو ن لما ذهب بصره الى ولده (ان يتجاوز الامر من قمعين والله يختار للمولى خيرة الاقسام ولا ينبغي له هذا الخرج الذى لا يبلغه ملك من ملوك الاسلام اما البقاء الامر باسم المولى بحيث يبقى رأيه ومشاورته وفتياه وبركته ويتولى ولده النيابة بشرط عليهم المجازاة لا ولزله وترك الاقالة لاؤل عمره فطما بعث حب المسافة الراجحه على اكتساب الاخلاق الصالحة واما ان يعوض الامر الى الامام قطب الدين فهو رقيقة المشايخ وصدر الاصحاب ولا يجوز ان يقدم عليه في بلد الامر هو ارفع طبقة في العلم منه) ومنها في اقامة عذر التأخر عن الجهاد (وأما تأسف المولى على أوفات بنقض عاظمها من الفريضة التي خرج من بيته لاجلها ويجدد العوائق التي لا توصل الى آخر جيلها فاعلموا نية رشده وأليس الله العالم بعبدته وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله لانه غير مقدور له ولكن عن النية لانها محمل تكليف

الطاعة وعن مقدور صاحب المفعول بحسب الاستطاعة وإذا كن المولى آذنا في أسباب الجهاد وتنظيف الطرق إلى الميراد فهو في طاعة قدامن الله عليه بأول أمدا وهو منه على أدل في نفع موعدها والتواب على قدر شقته وانما عظم الخ لاجل جهده وبعد شقته ولوان المولى فتح الفتوح العظام في أقل الأيام ونفصل القضية بين أهل الاسلام واعداء الاسلام لكن كانت تكاليف الجهاد قد وضعت وصحائف البراءة مكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت ومنها في ذكر أولاد السلطان (وقبل الاجابة عن الفصول فنبشّر بما جرت العادة به لا قطع الله تلك العادة من سلامة وصحة وعافية شملت موالينا وأولاده السادة أطاب الله الخبر اليهم عن المولى وإلى المولى عنهم وبجمل لقاءه لحسم ولقاءهم له فانهم من تلق منهم بل كل منهم ملك دسته برجه وفارس مهده سرجه فهم بحمد الله بحجة الدنيا وزينتها وريحانة الحياة وزهرتها وان فؤاد اوسع فراقهم لو اوسع وان قلبا قنع باخبارهم لقانع وان طرفا نام على البعد عنهم لما جاع وان ملكا ملك صبره عنهم لما ازم وان نعمة الله فيهم لنعمة بها العيش ناعم اما يشتاق جيدا للمولى ان يتطوق بذرهم أما تلمح عينه إلى أن تروى بنظرهم أما يحس تابه على قلبه أما ينقبض هذا الطائر بتقيلهم ما خرج من حبه وللمولى أبقا ما لله تعالى ان يقول

وما مثل هذا الشوق تحمل مضغة * ولكن قلبي في الهوى متقلب

وفي أخرى (والمملوك الاولاد في كفاة العافية لا رفعت عنهم كمالها وعلمهم جلالة السلطنة لا فارقتهم جلالها وكل من للمولى السادة الامراء الاولاد والقادة كلهم جوهر وكلهم المقدم وليس فيهم بحمد الله من يؤخر على ما عود الله من صحة وسلامه وكفاية ووقايه وزوم المستقل منهم باسم الكتاب ولوقوف الامايج ومخائل الخفر فيهم من تحت ليل الصبا والنور ذلاله من ضوء السراج والله تعالى يدعى المولى إلى أن يرى من ظهورهم ما رأى جدهم رحمه الله في أهل بيته من البطش الرابع فوارس الحرب الرائحة ومملوك الاسلام التي منهم للاسلام كاسرة وتبابعه وكافهم عند العلاء صغير وصغير ابنا الجبار كبير نجوم الارض وذريه بعضهم بعض والحلف الصالح المحض وهم في الدنيا والآخرة فرسان القوة والتي في يوم الحرب ويوم العرض) ومنها في ذم ما دمشق ووخها (عرف المملوك من الكتب الواصلة للتيان جسم المولى الامير عثمان والحقيق ما يسال ذلك الجسم الكريم بوقد في قلوب الاولياء الاثر العظيم وقليل قذاة العين غير قليل وماذا يقول في بلد لو سمحت الحية من مائه لسكانت من أكبر أسباب صحة المحتج وشفاؤه فانه ما يوك وبقيّة المياه تشرب ويجدد خامته من نصف ولا يشعب) ومنها (وأما المأمور به في معنى المنكرات الظاهرة وازالة أسبابها واغلاق أبوابها وتحصين كل مبتوتة من عصمه ونظهير كل موسومة بوجهه فالله ينبب المولى ثواب من غضب ارضيه بغضبه وحل الخلق على منهاج شرعه وادبه) ثم أورد العباد فصولا كثيرة وقال انما أوردت الفصول الفاضلة لان في كل فصل منها ذكر كسيرة وفوائد كثيرة

(فصل) قال العباد من جملة ما غفلت عن ذكر ما أسقطه السلطان من مكس مكة شرفها الله تعالى عن الحاج وتعويض أميرها بحلاب غلته يحمل اليه في كل سنة وتعين ضياع موقوفة عليها بالاعمال المصرية كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤس ما ييسر إلى الضرائب والمكوس فادخل حاج حبس حتى يؤدي مكسه وبفك بما يطامونه منه نفسه وإذا كان غير الامك فهو يحبس ولا يترك وبفقه الوقفة ومرفقه ولا يدرك فقال السلطان نريد ان نعوض أمير مكة عن هذا المكس بمال ونغنيه عنه بنوال وان أعطيناه ضياعا استوعبها ارتفاعا وان تنفعا فلا يكون لاهل مكة فيه انصيب فقر رعبه ان يحمل اليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف أردب قمح إلى ساحل جده فان الامير بها يحتاج إلى بيعها للارتفاع بائناها ويتق أهل الحرمين من الدولة بدوام احسانها وقرر ايضا جل الغلات إلى المجاورين بالحرمين والفقرا ومن هؤلاء من الشرفا ووقف لها وقفا وخلدها إلى قيام الساعة مع وفا فسقطت المكوس واغبطت النفوس وزاد الشر وزال العيوس واستمرت النعمي وزال البوس وذلك في سنة اثنتين وسبعين ومن كلام الفاضل في ذلك في بعض كتبه (من البشائر التي لا عهد لها جديار مصر بملها ولا عهد لملك من ملوك الديار المصرية بالحصول على غلها واجرها انقصاع المكاس عن جنة وعن بقية السواحل ويكني ان تمام هذه المنوبة بموجب الاستطاعة مقيم بحجة الله في الخ فقد كانت الفتيما على سقوطه مع وجود الحامل وما

كتاب (٤) الروضتين

أكثر ما جرى الله للعلائق على يد المولى من الارزاق التي تفضل عن المستحقين وأولاءه بان يتوخى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من اسعاف أهل الاقتدار والمحروم من قدر فيهما على خير فاضاع فرصته بترك البدار وغير خاف عن مولانا همة الفرع بالقدس براوحه ومركا وظهرا وسلمنا وحيا وبعد او قريبا وتوافيهم على حاسبه وهو أنف في وجه الاسلام ومسارعتهم الى نصرته أهليه بالارزاق والاموال على مر الايام ومعاذ الله ان يستبسر وافي الضلال ونصرف نحن عن الحق ويضيق بنا في التوسعة على أهله سعة الجمال والمملوك في مستهل رجب بمشيئة الله معول على السفر الى الحجاز القضاء الفريضة قولاً وفعلاً والسائر في هذه السنة بطمعة وقته الجمعة وبفسحة وضع المكس خلق لا يحصى والمولى شريك في أجرهم فليهنه ان المملوك عمرت بيوتها فخرت وان المولى عمر بيت الله فمن كرمه سبحانه ان يعزيت المولى وما أشد نجل المملوك من النبي صلى الله عليه وسلم في التقصير في قوت جيرانه في هذه السنة وما هكذا أوصى للطبيع ولكن للغائب حجة قلت وفي هذه المكرمة التي فعلها صلاح الدين رحمه الله بالحاجية قول الشيخ الفاضل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الاندلسي من قصيدة له يمدح بها صلاح الدين وستأتي فيما بعد أخبرني بها ثمة نلها من خطه

رفعت مغارم مكن اخفا * زاناعامك الشامل الغامر
وأمنت أ كافي تبت البلا * دفهان السبيل على العابر
وسحب أ ياديك فيا ننة * على وارد وعلى صادر
وكم لا بالمركى من حاد * وكلك بالغرب من شاكر
وكم بالدعاء لكم كل عا * بمكة من معلى جاهر
وقد بقيت حصة في فلا * ن وثك الدحية للداخر
يعنف حجاج بيت الاله * وبسة وبهم سطوة الحار
ويكشف عما بآيدىهم * وباشيك من موقف صاغر
وقد وقفوا بعد ما كنفوا * كأنهم في يد الأسر
و يلزمهم حلما باطلا * وعقبى اليمين على الفاجر
وان عرضت بينهم حرمة * فليس لها عند من سائر
أليس يخاف غدا عرضه * على الملك الفادر الفاهر
أليس على حرم المسليد * من ذلك المساهد من غابر
الحاضر بافع زجره * فياذله الشاهد الحاضر
الا اصح مبلغ نفعه * الى الملك الاحمر الظافر
فلو لم نعلم مال الزكا * ذلعت تصفة الخاسر
يسر الخبيث اننى باطى * ويبدى النعمية في الظاهر
فاوقع به حادثا انا * يقبح أ حدوته الداكر
فما لنا كبر من زاجر * سواك بالعرف من آمر
وحاشاك ان لم تزل رسمها * فمالك في الناس من غادر
ورفعك أمنا لها موسع * رداء فخارك للنائمه
وأنا نارك الغر تبقي لها * وتلك الماثر لا تثر
نذرت النعمية في حقكم * وحق الوفاء على النادر
وحبك أنظفنى بالقرىض * وما بتنى صلة الشاعر
ولا كان فيما مضى مكسبي * وبئس البضاعة للتاجر
اذا الشعر صار شعرا الفتى * فناهيك من لقب شاهر

في اخبار (ه) الدولتين

وان كان نظمي له نادرا * فقد قيل لاحكام النادر
واسكنما خطرات الهوى * تعفن فلعب بالخطا
وأما وقد زان تلك العلى * فقد فاز بالشرف الباهر
وان كان منك قبول له * فتلك الصكرامة للزائر
ويكفيه سمعك من سامع * ويكفيه لحظك من ناظر
وربهي على الروض غب الحيا * بما حاز من ذكرك العاطر

قال العماد وفي المحرم من هذه السنة توفي الحكيم مذهب الدين أبو الحسن علي بن عيسى المعروف بابن النقاش البغدادي بدمشق وكان كنعته مهذباً ومن الملوك لشرفه بفضلته مقرباً وهو مبرز في فنه حتى ان من شدي أسماء من الطب تعجب بانه قرأ عليه وتردد لاستفادته اليه وقدر امتته العلوم الرياضية وأحكمت أخلاقه المعارف الحكيمة وفي الثاني عشر من جمادى الاولى توفي الامير نجم الدين بن مهسال بمصر وحاً بأهله وبمن يجتمع في فوز اغتمام السلطان برزته حذره وجلس في بيت الحسب مستوراً شواحدة وقال لا يخلف الدهر في صديقه ما مله بعده وأحرى ما كان له جميعه لولده وحفظ عهدده وكان جماعة من الاعيان والسعراء والامثال والادباء بعناية ووساطته من السلطان رزق ابناءه عليهم كما نذ عليه مسخ في العصر الاول من ربيع الآخر عارت طائفة من الفرع على بلاد حماه فخرج اليها منولى عنكم حماه الامير ناصر الدين منكور بن منجارية كسر صاحب حصن زقيدس فأمر المقاتلين وسفلت بسيفه دم الجن وجاء الى الخدمة السلطنة بفخار حصن وساق معه الاسارى فأمر السلطان بضرب أعناقهم وان تولى ذلك أهل التقى والذين من الحاضرين فتقدم امامه الضياء السبري وصر بعتني بعضهم ولاذ الشيخ سليمان المغربي ثم الامراء بنان بن ياروق واستدعى العماد وأمر بذلك فلم يفعل وطلب ان يملكه السلطان ان منهم صغيراً فغوض عنه ثم رحل السلطان على طريق الزراعة الى بعلبك فنارها خداساً من غير قتال فطال أمر حائلهم مع ما صاحبها ودخل فصل السنة فرحل السلطان عما إلى دمشق وكل بهما من يحصرهما باليمن من الخروج والدخول من غير قتال وهم جماعة مع طغور الجنادار ودخل الى دمشق في العشر الاواخر من رجب وعمادى الامر الى ان رضى ابن المقدّم بخصن ومر من وأعماله وبلد كهرطاب وأعيان فاحى وقرى من بلد المعمر وسلم تسليم بعلبك من المصرة والمعزة وكان الذي أخذه أثاراً ونفع ما خلاه وما حذر به ما حصل له ولا ترجاه ولا تمناء

في فصل بجم كادى قبلة في حوادث متفرقة قال العماد كتب النواب بدمشق الى السلطان ان الاموال ضائعة وان الاطباع فيها رائحة وان في أبواب الصدقات أغنياء لا يستحقونها ولما هم رتبة من الله ينقونها وان أرباب النعماء استعجبوها وما السجوجها وان المنحلة تقتضي افراد جهات لما سخر من مهمات وكانت الصدقات مبلغ أحد عشر ألف دينار فقال لي اكتب عليها جميعها بالامضاء ولا تصكدر على دوى الاكمال موارد العطاء فقلب أما أتو عليك الاسماء فقال لا بل زهني عن هذا الاشياء فبقيت تلك الرسوم دارة والامال بها سازه قال وفي شعبان من هذه السنة توفي متولى المقياس بمصر فتوفي السلطان من نصه الى أخيه قال وهذا المقياس موضع مبني من عهد خلفاء بني العباس يعرف بزيادة الماء ونقصانها المقياس وهناك عيون في الماء مقسومة بالادع والادع مقسومة بالاصابع في مسجد يثوب في الجبل رعى الجامع تصلى فيه الجماعات والجمع وتولاه من العهد القديم متول من ولد أوز الراد من هو معروف بالزراعة والعلم والساد وله راتب دارة ورسم وقرار قلت بلغني ان أبا الراد هذا كان معانا من أهل الصدق والصلاح رتبة جعفر التوكل على الله في ولاية المقياس وبقى من بعده على ولده وقرأت في تاريخ آخر بالذين قدموا مصر لاني سمع من يونس قال (عبد الله بن عبد السلام بن الراد العيني بصرى قدم مصر وحدث بها وكان قد جعل على قياسية النيل توفي عصر لسبع بقس من رجب سنة ست وستين ومائتين وذكره أبو يوسف في أهل مصر أيضاً وقال فيه ولده هو وأبوه عصر) قال ابن الاثير وفي سنة أربع وسبعين وخمسةائة استبد الغلاء وعم أكثر البلاد العراق ومصر وديار بكر وديار الجوز والاسام وغير ذلك من البلاد ودام الى ان انقضى سنة خمس وسبعين وخرج الناس في البلاد يستسقون فلم يسقوا ثم ان الله تعالى رحم عباده ولطف بهم وأزل عليهم الغيث وأرخص الاسعار ومن

كتاب (٦) الروضتين

عجب ما رأيت تلك السنة اني كنت في الجزيرة فاقبل انسان تركاني قد أنزف به الجوع وكان قد أخرج من قبر بيكي وشكا الجوع فأرسلت من اشترى له خبزاً فأتاه احضاره لعدمه وهو بيكي ويتمرغ على الارض فتعيت السماء وجاءت نقطة مطر متفرقة وضحج الناس ثم جاء الخبز فأكل التركاني وأخذ الباقي معه ومضى واستند المطر ودام من تلك الساعة فرخصت الاسعار ووجدت الاقوات بعد ان كانت معدومة ثم تعقب الغلاء وباء شديد كثير وكان مرض الناس شديداً واحداً وهو سر سام فمات فيه من كل بلد أئمة لا يحصون كثرة ولقي الناس منه ما أعجزهم حمله ثم ان الله تعالى رفعه في سنة ست و مائة وخمسة و قد وضع العالم

(فصل) في عمارة حصن بيت الاحزان ووقعة الهند في قال العماد في مدة مقام السلطان على بعلبك واشتغاله بامرها التهاز في الفرصة فبنوا حصناً على محاصرة بيت الاحزان وبينه وبين دمشق مسافة يوم وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم وقيل للسلطان متى أحكم هذا الحصن تحكم من البغرا الاسلامي الوهن وغلق الزهى فتنقزل اذا أعوزت لسان عليه وهدمناه الى الاساس وجعلناه من الرسوم الادراس فكان الامر يعدسه على ما جرى لفظه من عدة حسنة فلما انقضى امر بعلبك وصل السلطان دمشق فأقام بها وأمر الحصن من همه وقصد حصاره من عزمه وكان العام مجدداً والجذب عاماً وقيل للسلطان ايس هذه سنة جهاد فان استحوك السلامة فامح وان خنجره الماس فامح فقال السلطان ان الله أمر بالجهاد وكفل بالرزق فأمره واجب الامتثال ووعدوه مضام الصدق فنانى بما كافئناه فوز بما كلفه ومن أغفل أمره أغفله قال ووصل في هذه السنة رسول دار الخلافة وهو الخادم فاضل وكان من أفضل الخدم ندب بافضل الخدم وفرح السلطان به واستحبه معه الى القراء ووقف على الحصن الذي استجده الفريخ بالشمس يد العقوبى وتخطف من حوله من الفريخ جماعة وأقام على أهل المعصية بجهاده الطاعة وعاد وقد عرف ما يعزم عليه من أمر فتحه قال وفي مستهل ذى القعدة كانت وقعة هنفري ومكة له وذلك ان الاحبار توازت بان الفريخ قد تجعوا في جمع عظيم وامم عارمون على الخروج على المسلمين على غرة فقدم السلطان ابن أخيه فرخسار على عساكر دمشق وأمره ان يخرج الى التعرف هل وأمره ان علم بخبر وجههم ان يتفدالى السلطان يعلم بذلك ولا يلقاهم بل يتركهم حتى ترسلوا اليه لادفون بغير طلائع فرخسار الا وقد سألواهم على غرة ف وقعت الوقعة فقتل صاحب الناصرة و جماعة من مقدمهم وطلب الملك فطرح حصانه وجرح فرسانه وجاء الهنفرى ليجميه ف وقعت فيه جراحا واحداً ناسية وقعت في سارنه فجذعته وفتد الى فيه وموت بضرسه فقلعه وخرجت من تحت فكاه و وقعت أخرى في مشط رجله فذهبت الى أحصه وأخرى في ركبته وضرب ثلاثا في جنبه فكسر له ضلعين وقتلت عدة من الرجال والخيلة ورجعت الفريخ بنجزي عظيم ايس فيهم الاجروح وكل يوم زدد البشرى بموت مقدم من جراحة أصابته ووردت بطاقة الطير في ذلك اليوم الى دمشق فخرج السلطان فواصل الى الكسوة الاور وسمم وأمر أزم فجدى بها فراجع مظفر منصور اودلت الفريخ بعدها وانكسرت بموت الهنفرى ثم سار السلطان الى الحصن الذي بنوه فأنجمهم ودعهم وعاد على عزم العود اليه قال ثم وجه السلطان أخاه الأكبر تورانشاه السام الى مصر بمن ضعف من الاجناد لاجل محل البلاد قريب من بعلبك ثوابه وودعه السلطان من مرج الصفر وذلك في أواخر ذى القعدة ومضى على بصرى ومنها الى الازرق ومنه الى الجفر الى الله الى صدر ووصل معه خلق كثير من التجار والرجال والنساء والاطفال

(فصل) قال العماد وسافر الفاضل الى الحج في هذه السنة وركب البحر فكتب اليه كتابا فيه (طوبى للبحر والجنون من ذى الحجر والحجى منيل الحداء ومنه الدجى ولندى الكعبة من كعب الندى وللهاديا المشعرات من مشعر الهدى وللقام الكريم من مقام الكريم ومن حاطم فقار الفقر للعظيم ومتى رنى هرم في الحرم وحاطم ما تمع زمزم ومتى ركب البحر البحر وملك البر البر لقد عاد قدس الى عكاظه وعاد قدس بحفاظه وباجمال الكعبة يقصدها كعبة الفضل والافضال ولقبه يستقبلها قبله القبر والاقبال) قلت ومدحه أبو الحسن بن الذرورى عند عودهم من الحج بقصيدة حسنة منها

علم البهرائك المخلق واما * فامسى حشاه يخفق رعبا

في أخبار (٧) الدولتين

وغدا دَرَه لَدَيْهِ حَقِيرًا * اذْ رَأَى الدَّرَمَ مَكَانَ نَشَأِهَا
وَلَوْ احْتَازَ قَطْرَةً مِنْكَ يَا بَحْرٌ لَاضَعِي أَجَاجَهُ الْمَخْعَبَا
هَاجِمٌ لَمْ يَزَلْ دَعَاؤُكَ حَتَّى * هَوَّنَ اللَّهُ مِنْهُمْ مَا كَانَ صَعْبَا
وَلَقَدْ نَامَ اذْ رَكَبْتَ وَالرَّجَحُ هَيُوبٌ وَجِئْتَ أُرْسِيَتْ هَبَا
حَبِيزًا مَا صَنَعْتَهُ مِنْ أَيْدَادٍ * عَادَ جَدِبُ الْحِجَازِ مِنْ خُصْبَا
رَمَتْ كَتَمَاتُهَا فَاذَاعَتْ وَهَلْ يَقْدِرُ غَيْثٌ يَخْفِي عَنِ الْأَرْضِ سَكْبَا
قَدَرَاتُكَ مِنْكَ كَعِبَةِ اللَّهِ لَمَّا * جِئْتُمَا حَاتِمًا وَإِنْ شَقَّتْ كَعْبَا
بَلْ رَأَى مِنْكَ يَتِمُّ بَيْتُ مَجْدٍ * أَحْرَمَ الْجُودَ حَوْلَهُ تَمْلِي
وَرَأَى الرُّكْنَ مِنْ بَيْنِكَ رُكَا * جَاءَ اللَّحْمُ أَيْضَ اللَّوْنِ رَطْبَا
وَزَهَتْ زُخْرُمُ بَشْرِكَ مِنْهَا * وَعَجِبَ أَنْ يَظْهَرَ الْمَاءُ عَجْبَا
وَتَوَجَّهَتْ لِلْمَدِينَةِ عَنْ مَكَّةَ لَمَّا تَنَاشَأَ وَكَافَيْكَ حَسْبَا
وَأَتَيْتَ السَّامَ تَسْلُوقَتُوحٍ * سَارَ شَرَفُهُ الْهَنَاءَ وَغَرَبَا
أَنْ تَكُنْ غَيْبَتْ عَنْهُ وَاللَّهُ يَبْقِيكَ لَامُثَالَهُ فَاغَيْبَتْ قَلْبَا
سَرَتْ وَالرَّأْيُ فِيهِ مِنْكَ مَقِيمٌ * وَبَعَثَ الدُّعَاءَ فِي اللَّيْلِ كِتْبَا

وتدوَقَفْتُ عَلَى الرِّقْعَةِ الَّتِي كَتَبَهَا الْقَاضِي الْفَاضِلُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِخَطِّهِ إِلَى السُّلْطَانِ يُلْتَمَسُ مِنْهُ الْإِذْنُ لِي فِي سَفَرِي إِلَى
فَاحْبَبْتَ نَفْلَهَا هُنَا وَمَا كَتَبَ السُّلْطَانُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا وَمَا كَتَبَ بِسَبِيلِهَا إِلَى بَعْضِ نَوَازِبِ تَقَلَّتْ مِنْ خَطِّ الْفَاضِلِ
رَحِمَهُ اللَّهُ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) كَتَبَ الْمَمْلُوكُ هَذِهِ الرِّقْعَةَ بَعْدَ أَنْ اسْتَحَارَ اللَّهُ سَجْدَةً مِنْهُ مِنْ مَسْئَلِ رَجَبٍ فِي الْكَثْرَةِ لِأَيِّهِ
وَالِي آخِرِ هَذِهِ السَّاعَةِ وَهُوَ يَنْهَى أَنْ قَدْ شَارَفَ الْأَرْبَعِينَ وَمَا يَدْرِي لَعَلَّهَا عَقِبَةُ الْقَاءِ، وَفَرَضَ اللَّهُ فِي الْحُجَّةِ قَدْرَتَيْنِ
وَوَعَدَ الْمَوْلَى بِقَدْسٍ سَبَقَ عِنْدَ الْإِلَهِ وَمَذَّةَ الْقَبِيضَةِ قَصِيرَةً وَالنَّائِبُ يَنْفِذُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي السَّفَرِ وَالْحَصْرُ وَالثَّقَّةُ بِهِ حَاصِلَةٌ فِي
الْمَرَادِ مِنْ الْكَاتِبِ وَهِيَ الْكَثْمَانُ وَالْمَعْرِفَةُ وَحِظَ الْمَوْلَى فِي حُجَّتِهِ وَتَلَّهَ أَضْعَافَ حِظِّهِ لِمَا لَهُ أَنْ كَانَ يَنْفَعُهَا
فِي الدُّنْيَا فَهُوَ يَنْفَعُ هُنَا فِي الْآخِرَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لِأَنْ يَسْتَحَبَّ مِنْهُ فَاللَّهُ أَهْلٌ لِأَنْ يَجِبَ فِي الْمَوْلَى وَالْمَمْلُوكِ مَا
تُعْمَلُ فِي سَوَالٍ وَلَيْسَ لِأَنْ الْمَوْلَى لَا يَقْضِيهَا وَلَكِنْ لِمَا يَنْفَعِيهِ عَنِ السُّؤَالِ فِيهَا وَهَذِهِ حَاجَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَبَعْدَهَا يَسُدُّ

مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا يُلْفِ حَاجَةٌ * لِنَفْسِي الْأَذْقَضِيَّتِ قَضَاهَا

وَمَا أَرَادَ الْمَمْلُوكُ أَنْ يَسْتَشْفَعَ بِمِنْ يَشَارِكُ الْمَوْلَى فِي الْأَجْرِ وَمَا يَرِيدُ الْأَدَسْتَورَ عَنْ نَفْسٍ طَيِّبَةٍ وَرَضَى ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَلَا يَرِيدُ
خِلَافَ الْغَرَضِ فَمَا بَقِيَ لَهُ بِقَضَاءِ الْمُقَرَّرِ وَاللَّهُ الْمَغِيرُ بِرَحْمَتِهِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَصَلَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَامُهُ

وَعَلَى رَأْسِ الرِّقْعَةِ فِي سَطْرِ الْبَسْمَةِ يَخُطُّ السُّلْطَانُ رَحِمَهُ اللَّهُ مَا صَوَّرْتَهُ (عَلَى خُبْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْيَقِينِ كُنْتُ مَعَكُمْ فَافُوزُ
دَوَائِعِظِي) تَقَلَّتْ مِنْ خَطِّهِ وَتَقَلَّتْ مِنْ خَطِّ بَعْضِ الْكُتُبِ مَا تَقَلَّتْ مِنْ خَطِّ السُّلْطَانِ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى بَعْضِ النُّوَابِ
فَصَلَّ مِنْ كِتَابِ هَلْ بِحَالِطِ الْعَالِي النَّاصِرِيِّ أَعْلَاهُ (وَرَدَتْ بَارِئُ السَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ
أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ) (وَصَلَّى كَابُ الْقَاضِي الْفَاضِلُ وَهُوَ يَذْكُرُ أَنَّهُ مَعَهُ عَلَى الْحُجَّةِ لِيَجْعَلَهُ يَذْكُرُ مَعَهُ وَلَكِنْ
لَا تُفَسِّحُ لَهُ فِيهِ إِلَّا بَعْدَ اثْنَيْنِ وَاحِدَةً أَنَّهُ لَا يَرْكَبُ بَحْرَ يَسِيرُ مِنَ الْعَسْكَرِ إِلَى الْإِلَهِ مِنْهَا يَتَوَجَّهُ وَيَقِيمُ الْعَسْكَرَ عَلَى الْإِلَهِ لِيلَةً
وَعَلَى أَرْمِ لِيلَةٍ وَدُونَ أَرْمِ لِيلَةٍ وَقَاطِعَ أَرْمِ لِيلَةٍ فَيَكُونُ هُوَ قَدْ بَعْدَ وَمَا يَبْقَى عَلَيْهِ خَوْفٌ أَنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَنَايَةً تَأْخُذُ بِهِ
وَتُجْلِفُهُ بِرَأْسِي أَنَّهُ لَا يَجَاوِرُ وَثَلَاثَةَ عَشْرَةٍ مِنْ مَالِ الْجَوَالِي ثَلَاثَةَ أَلْفٍ دِينَارٍ وَتَقُولُ لَهُ لَا بَدَانَ يَخْرُجُ هَذَا عَنِّي لَاعْنُكَ
فِي الْجَاوِرِينَ بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَفِي أَهْلِهَا هَذَا أَمْرًا لَدَيْهِ فَانَ النَّاسَ لَا يَدْلَهُمْ مِنَ الطَّلَبِ وَلَا يَدْلَهُ مِنَ الْعَطَا وَإِنْ قَالَ
أَنْ الشَّيْءُ قَلِيلٌ فَانْتَ تَقْرَضُنِي مِثْلَ هَذَا الْمُبْلَغِ مِنْ مَالِكَ وَتُعْطِيهِ يَا دُوبَاوَالَا فَاذْنُ لِي فِي الرُّوْحِ إِلَى الْحُجَّةِ الْأَعْلَى هَذِهِ
الشُّرُوطُ الَّتِي قَدْ شَرَطْتُهَا وَأَمَّا جَيْشِي فَيُجْبَى إِلَى السَّامِ فَأَنَا مَابَقِيَ لِي دَارَ الْإِلَهِ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْفَرَجِ وَهُوَ خَيْرُ

كتاب (٨) الرومانيين

الحاكمين) وكتب الفاضل الى بعض مشايخ مكة بعد رجوعه (سقى الله الخبز وحيا كعبته ويا طول ما ترشقى سهام الشوق الذى أصبح الذكر جعبته أهاعلى تلك المواقف وتبالم رضى ان يصكون مع الخوفا فرعيما ونعجى وحسنة وحسنى لمجاورى ذاك الحرم ولعامى ايامه التى هى الايام لأيام ذى سلم فى الحلف الصدور وطول ظمأها الى ورود ما مرضه وطوبى لمن استضاء فى مضال الظلم بعلمه ومهما نسيت فلا أنسى ردالك ببحر صيفها وموسم الانس بثلاث مناهوا وخفها

أهاعلى ليلال ما ترك لنا * الا الاسى وعلالات من الحلم

عسى الراح ادا سارت مبلغة * توفى فقد غدر الا حباب بالذم

ثم قال فاما الطريق المباركة فقد جرى فيها خطوب وشؤون وأحداث كلها تخبرون وكانت العقبى الى سلامة ولما قربنا الكرك نهض العدو فلم تكن الرجعة ولا التفرج جانبا ثم من الله تعالى بالنجلاء النوبة ووصلنا الى بلاد السلطان ولقينا ذلك الوجه فلا عذمة نابشره وذلك الفضل فلا قارفت أعيننا بخره ووجدناه فى العزاة جاهدا ولعدو مجاهدا وأوفاته مستغرقة وعزماته محققة

(فصل) فيما فعل مع الفرنج فى باقى هذه السنة وأول الاخرى ووقعه من جعيون نال ابن أبى طى كانت الفرنج قد عثرت بيت الاحران وكان على المسلمين منه ضرر عظيم فراسل السلطان الفرنج فى هدمه فاجابوا انه لا سبيل الى هدمه الا ان يعطينا ما غرمنا عليه فبذل لهم السلطان مائة الف دينار زادهم الى ان بلغ مائة ألف دينار وكان هذا الحصص الداوية وكذا فى قرون من فيه بالاموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين فاشارت على الدين على السلطان يبذل هذا المال لاجناد المسلمين ويخرج بهم الى الحصص ويهدمه ففعل ذلك كما سنده قال العماد والمودع السلطان أخاه ورجع أعار فى طريقه على بلاد الفرنج وقصد الحصص الذى نوه ورجع بالاسراء وانقاعهم وخيم السلطان بمرح السعراء ثم اشعل الى باس وبلغت الخيم الى حدود بلاد الكفرة وأضرهم عليهم طوب النيران المستعرة وكان كل يوم ركب بحجة الصيد وينزل على النهر ويجرد فرسان الجلا والقرير ويسير قبائل العرب الى بلد الصيد ويرتوت حتى يهصدوا غلات العدو ويبيع مكانه حتى يعودوا بجملهم واجمالها موقفة باناقها حتى جف زرع الكفار قال وفى هذه السنة انتهى رأى الفرنج ان يعبروا المسلمين فى كل ناحية خوفا من اجتماعهم على جهة واحدة فغدر برنس انطاكية وأغار على سيزر وغدر الفمص بطرابلس بجماعة من التركمان بعد الامان فرتب السلطان ابن أخيه قتي الدين عرفتى بفرجاء ومعه عيسى الدين ابن المقدم وسيف الدين على المشهور ورتب ابن عمه ناصر الدين فى بصرى فى مقابلته الفمص وكتب السلطان الى أخيه العادل وهو نائبه بمصر ان يتجه له من عسكر مصر ألفا وخمسة مائة فارس يقوى بهم مع عسكر الشام على العدو

(ثم دخلت سنة خمس وسبعين) والسلطان نازل على تل الفاضى بباناس فاجمع رأيهم مع بقية المسلمين على ان يقتحموا على الكنار ديارهم ويستوعبوا ما بقى فى أيديهم من الغلات فى يوم واحد ثم رجعوا ففرحوا صوب البقاع فمضوا تلك الليلة وهى ليلة الأحد الى المحرم فلما أصبح السلطان جاءه الخبر بان الفرنج قد خرجت فالتقاهم وأزل الله نصره على المسلمين وأمر فرسانهم ومجماهم وانهمزت رجالهم فى أول اللقاء فكان من جلة الاسرى مقدم الداوية ومقدم الاستبارية وصاحب طبرية وأخو صاحب جبل وابن النعمانية وابن بارزان صاحب الرملة وصاحب جيبين وقسطنطينا وابو ابن صاحب مرقية وعدة كثير من خيالة النفوس وعكاهم البارونية وغيرهم من المتقدمين الا كبار ما زاد على مائتين ونيف وسبعين سوى غيرهم ثم قدمت الاسارى وهم يتهدون كأنهم سكارى قال العماد وأنا جالس بقرب السلطان استعزضهم بقللى ومن الطافى الله تعالى بأرواحه الحاضر بن لم نزل على عشرين والاسراء قد أفاوا على سبعين وقد أنزل الله علينا السكينة وخصهم بالدلالة المستكنة وطلع الصباح ورفع المصباح وقضوا علينا بالوضوء الذى صلينا به العشاء ثم عرض الباقون من الاسرا ثم نقلوا الى دمشق فاما ابن بارزان فانه بعد سنة بذل فى نفسه مائة وخمسين الف دينار صورية واطلاق ألف أسير من المسلمين وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرملة هذهم من المأسورين فالترنم ادراكه وان يؤذى من قطيعة المذکور والطبيعة التى قرر بها فحكاه وأما ابن

في اخبار (٩) الدولتين

القمصية فانه استفكته أمه بخسة وخسب من الفاسم الدناير الصوريه وأما أودمقدم الداويه فانه انتقل من سجنه الى سجين فطلبت جيقته فاختذوها باطلاق أسير من مقلد المؤمنين وطال أسر الباقيين فنهزم من هلك وهو عان ومنهم من خرج بقطيعة وأمان وهذه هي وقعة مرج عيون وكان العدو في عشرة آلاف مقاتل وانهمز ملكهم مجروحاً وكان لعز الدين فرخ شاه في هذه الوقعة بلا عس حكي حسام الدين تمير لجن يونس وكان مع عز الدين قال كافي أقل من ثلاثين فارساً قد تقدمنا للعسكر فشاهدنا خيل الفرخ في ستمائة فارس واقفين على جبل وبيننا وبينهم الماء فاشار عز الدين بان نغير النهر اليهم ففعلنا ولحقنا عسكر السلطان فهزمتهم ومن أحسن ما اتفاقه في اليوم الذي كسرت فيه الفرخ عرج عيون ظفر الاسطول المصري بعشرة كبير فاستولى عليهم وعلى أخرى وعاد الى الثغر مستحجبا الرأس من السبي فأقرب ما بين النصرين في المصريين وما أعذب عذاب الفثنين وتجبر بهما الامر من النصرين لقد دعم النصر وتساقوا في البر والبحر وعما مدح به السلطان في هذا الفخ مدحة سيرها من مصر اليه فخر الكتاب أبو علي الحسين بن علي العراقي الجويني أولها

لا تارب السماء خير معين * وكفاه بما تحب ضمين
فله الحمد أي نصر عزيز * قد حباياه وفتح مبين
أدرك النارحين نازله المغر * وارحيف الكفار ليت العرب
الهام الغضنفر الملك النسا * صر مولى الوري صلاح الدين
بأمليكأضخى الزمان يتاجيه * بلطف المذل المسكين
قد فت أهايا الحصون الى بأ * سلك حتى عوضتهم بالسجون
وأراهم رب السماء بسيا * فلك ما لم يحيل لهم في ظنون
لا قلب عند اللقاء مكين * وله من لقاء ألف كين
بأمليكألقى الحروب بحول الله * مستعصما وصدق اليقين
ان هذا الفخ المبين شفاء * لصدور وروقة لعيون
هو يوم أضحى كيوم حنين * سهل الله نصره في الحزون

قال العماد وكان تقي الدين غائباً عن هذه الوقعة راى تغل عنها بغيرها وذلك ان سلطان الروم قلعج ارسلان طلب حصن رعبان وادعى انه من بلاده وأما أخذه منه نور الدين رحمه الله على خلاف مراده وان الملك الصالح ولده قد انهم عليه ورضي بعوده اليه فلم يفعل السلطان وكان هذا الحصن مع ابن المقدم فارس قلعج ارسلان عسكر اجمعاً في عشرين ألفاً صارا الحصن فلقبهم تقي الدين ومعهم سيف الدين على المشطوب في ألف مقاتل فهزمهم قال ولم يزل تقي الدين يبدلهم مدد النصر فانه شره بأحد ألوفا وارغم باعداد من الاعداء أنوفا وقال ابن أبي طى وانصل بالسلطان ان قلعج ارسلان قد طمع في أخذ رعبان وكبدون لما دخل دمشق وصله رسوله يظلم حاميته ويدعى ان نور الدين ابن زكي اغتصب حاميته وان الملك الصالح قد أنعم عليه بما فاغتصا السلطان وزجر الرسول وتوعد صاحبه فعدا الرسول واخبر قلعج ارسلان فغضب وسير عسكرا الى رعبان فحاصرها وسبع السلطان فندب تقي الدين عشرين ألفاً من فارس فسار فلما قرب رعبان أخذ معه جماعة من اخبايه مقدار ما أتى فارس وتقدم عسكره وسار حتى أشرف على عسكر قلعج ارسلان لئلا يفرأهم قد سدوا النصارى وهم عازون آمنون وادعون فقال تقي الدين لا يصحابه هؤلاء على ما ترون من الظماننة والامس والغفلة وقد رأيت ان نجل الساعة فهم بعد ان تفرق في جوانب عسكرهم ونصبهم فهم فأنهم لا يثبتون لنا فاجانوه الى ذلك فانفذ واحداً من أصحابه الى باقي عسكره وامرهم ان يتفرقوا أطلاوا وان يجعل في كل طاب قطعة من الكوسات والبوقات فاذا سمعوا الضجة ضربوا كوساتهم وبوقاتهم وجدوا في السير حتى يلقوا به ففعلوا ما أمرهم ثم انه حل في عسكر قلعج ارسلان وصرخ أصحابه في جوانبه وكان عدة عسكر قلعج ارسلان ثلاثة آلاف فارس فبايعوا الضجة وحس الكرات والبوقات وشدة وقع حوافر الخيل وحلبة الرجال واصطكاك اجرام الحديد هالهم دلاء وظفروا ان قد فوجئوا بعباء عظيم فلم يكن لهم الا ان جالوا في كواكب خيولهم

كتاب (١٠) الروستين

عربا وطلبوا النجاة وأخذتهم السيوف فتركوا أخيارهم واشتغلهم بجملها وأكثرت في الدين منهم القتل والأسر وحصل على جميع ما تركوه فلما أصبح جمع المأسورين ومن عليهم بأموالهم وكرأهم وسرحهم إلى بلادهم قال وقيل إن الخبر بهذه الكثرة وصل إلى السلطان في اليوم الذي كسره السلطان الفرج على مرج عيون فتوافت البشارتان إلى البلاد قال وقد مدح ابن التعاويذي السلطان الملك الناصر بقصيدة أنفذها إليه من بغداد يذكر فيها وقعة مرج عيون يقول فيها

كاد الأعداء أن يصببك كيدها * لولم تكدك برأيها المدفون
تخفى عداوتها وراء بشاشة * قد شفى عن نظرها مشفون
دفنت حباثل مكرها فردتها * تدرى بغيظ صدورها المدفون
وعلمت ما أخفوا كائن قلوبهم * أفضت إليك بسرها المخزون
كنوا وكم لك من كين سعادة * في الغيب تظهر من وراء كين
فهوت نجوم سعدهم وقضى لهم * بالنفس طائرهم بمرج عيون
قلت هكذا أنشده وهو حوس وقد كسفته في نسخة من ديوان ابن التعاويذي فوجدت آخر هذا البيت (طائر جلدك الميؤن) وأول هذه القصيدة

إن كان دينك في الصبا ديني * فقف المطى برملتي بهرين

ثم قال بعد تمام الغزل

ليت الضنين على الحب بوصله * لنس السماحة من صلاح الدين
ملك إذا علفت بدنه مامسه * علفت بحبيل في الحفاظ متين
فأد الجياد معا قلا وان كفى * بمعاقل من رأيه وحصون
سهرت جفون عدا خيفة ماجد * خلقت صوارمه بغير جفون
لوان للثالمس زرسا لم * يلحأ إلى غاب له وعسرين
أخبت دمشق وقد حلت بجوعها * مأوى الطريد وموئل المسكين
لك عفة في قدرة وتواضع * في عزرة وشراة في لين
وأرقتنا بحبيل صنعك ماروي * راوون عن أم خلعت وقرون
وضمنت أن يحيي أسا أيامهم * بالمكرات فكنت خير ضمين

قال ابن أبي طي نزل السلطان على تل القاصي بباساس على المريج الذي يعرف مرج عيون وأنفذ في نالي المحترم قطعة من عسكره مع عز الدين فرخشاه لنس الفارة على بلاد الفرج فلما أصبح ركب يسوق أخبار فرخشاه فأخذا والآن خرج من الخيم حتى رأى اغنام بانياس قد أقبلت من المراعى حاجة على وجوهها من الغياض والأودية فقال هذه غارة فأمر بلبس السلاح والاستعداد للحرب وصل بعض الرعا فآخبر أن الفرج قد عبروا وصاروا قريباً منه على هيئة المتفلة فسار حتى أشرف على الفرج فأذا هم في ألف فرسخ فأخذتهم السيوف والنباييس حتى فرشت الأرض منهم والتي جماعه منهم سلاحهم وسلطانهم أسارى وبجاملت الفرج هنفري هارباً ويقال أنه وقع به فرسه فخمله أحد خيالاته على ظهره ثم رجع السلطان إلى معسكره وسيفه بقطر دماو لبس لاسعراض الأسارى ذكر نحو ما سبق وفي باب الغناضل إلى صاحب له بمكة وقد سبق بعضه قال (وجرت نوب منها قتل الهذلي لعنه الله وتما سبعين فارساً من كبار الخيلة وطرح ملك الفرج من على ظهر دابته وقتلها بأخرمق مع بقية من نجاة خيالاته ومنها نوبة وادى الحربي وقد جمع الله العدة وبارسه وراجله ومنها نصر الله الذي ما كن قبله الملك من ملوك الأرض قتل ابن بارزان ومقدم الداوية وابن صاحب طبرية وأخواسقف صور وصاحب جبيل وأصحاب الحصون والقلاع ومقطعو القاليم والضبايع وحصل تحت اليد الناصرية أعلاها الله مائة وسدسون كاهم بتني عليهم المختاصر وتقطر بهم العساكر ومنها دخول العساكر إلى بيروت وصور وغارتها على غرة من أهلها وقطع كل شجرة مثمرة من أصلها قال

في اخبار (١١) الدولتين

وكانت الاساطيل المنصورة قد تضاعفت عدتها الى أن بلغت ستين شينة وبعشرين طريدة فسارت الشواني خاصة فدخلت البلاد الرومية ودوت السواحل الفرنجية وأسرت ألف عجم احضرتهم اسرى في قيد الاسار وقتلت الرفاق البكار وغت من هذه الغزوة أقوام كانت أعينهم لا تعرف عين الدرهم ولا وجه الدينار

(فصل) في تخريب حصن بيت الاحزان وذلك في شهر ربيع الأول قال العماد جمع السلطان جموعا كثيرة من الخيالة والرجال فوصل الى المحاصرة يوم السبت التاسع عشر الشهر والحصن مبني دونه من الغرب فحجم منها بالقرب وضاق ذلك المرجع عن العسكر واحتاج الى نصب ستائر لاجل المخنقيات فركب السلطان بكرة فلما حاد الى ضياع صفد وكانت قلعة صفد يومئذ للدلاوية وهو عشر البلية وأمر بقطع كرومها وحل أخشابها فأخذ كل ما احتاج اليه ورجع بعد الظهر وزحفوا الى الحصن بعد العصر فحاصمى الماء الاوهم قد اسد وتلوا على الباشورة وانتقلوا بكايتم اليها واتوا طول الليل يحرسون وخافوا ان يقع الفرنج الالاب وبغير واعليم على غرة واذا بالفرنج قد أتوا قدوا خلف كل باب نارا ليأمرهم المسلمين اغتراروا فاطاحوا المسلمين وقاتلوا ما بقى القنب السراج ففرقه السلطان على الامراء فأخذ فرخ شاه الجانب القبلي وأخذ السلطان الجانب الشمالي وقصد ناصر الدين بن شيركوه بقرين بقيا وكذلك بقي الدين وكل كبير في الدولة جعل له قسما وكان البرج محكم البناء فصعب نفيه لكن ما انقضى يوم الاحد الا وقد تم نهب السلطان وعلق وحشي بالحطب ليللة الاثني عشر وحرق وكان النقب في طول ثلاثين ذراعا في عرض ثلاث اذرع وكان عرض السور تسع اذرع فمات ثلثه بذلك فاحتاج السلطان صبيحة يوم الاثنين الى اطفاء النيران ليتم نفيه وقال من جاء بقرينة ماء فله دينار قال العماد فرأيت الناس بالقرب حاملين ولاوعة الماء فاقبلن حتى اغرقوا تلك الثقب فخدمت فعاد ثقلها ووقد بدت تخربت ووقد عوقوه وتحموه وفتقوه وسفوا حجره ووفلوه ثم حشوه وعلقوه واستنزهوا فيه يوم الثلاثاء والاربعاء ثم أحرقوه واشتد الحرق عليه لان الحبر أتاهم بان الفرنج قد اجتمعوا بدريه في جمع كثير فلما أصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول وتعالى النهار انقض الجدار وتباشرت الابار وكان الفرنج قد اجتمعوا وراء ذلك الواقع حطبا فثاقوا وقع الجدار دخلت الرياح فردت النار عليهم وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم فاجتمعوا الى الجانب البعيد من النار ولملبوا الا بالامان فلما سدت النيران دخل الناس وقتلوا وأسروا وغنوا مائة ألف قطعة من الحديد من جميع أنواع الاسلحة وشيئا كثيرا من الاقوات وغيرها وحي بالاسارى الى السلطان في كان مر تداورا ما فترت عقوه أكثر من أسر قتله في الطريق الغزاة المأخوذة وكان عدة الاسارى نحو سبع مائة وخلص من الاسر أكثر من مائة مسلم وسير باقي الاسارى الى دمشق وأقام السلطان في منزله حتى هددوا الحصن الى الاساس وطعم جب ماء معين كزاحفرو في وسطه ورمى فيه القتلى وكان عند السلطان رسول القمص معافي وهو شاعر بليغ أهل ملته وقد رز السلطان بدل لهم في هدمه ستين ألف دينار فقبل بفعلوا افرادهم حتى بلغ مائة ألف فأبوا وكان مدة المقام على الحصن في أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوما وبعد ذلك سار السلطان الى اعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها فأغار عليها وأرجف تلويحهم لوصولها اليها ورجع السلطان الى دمشق يوم الاربعاء ومرض جماعة من ذلك الوباء لان المراكب شديدة أو انتشت جيف القتلى ووقول السلطان المقام عليه بعد فتحه لاجل تيمم هدمه فتوفي أكثر من عشرة أمراء وعاد المشهد الملعون كما كان مزورا وتكبير المسلمين وصلاتهم معمورا وهنا الشعراء السلطان بفتح هذا الحصن في ذلك ما أنشده نشوا الدولة أجدن نقادة الدمشقي من جملة مدائحهم

هلاك الفرنج انى عاجلا * وقد آن تكسير صلبانها

ولولم يمكن قد ناحت حقها * لما عسرت بيت اخزانها

ولابي الحس علي بن محمد بن رستم الساعى الخراساني ثم الدمشقي من قصيدة أولها

يبتدئك اعفاف القناتعظ * وطرف الاعادى دون مجدك بطرف

شهاب هدى في ظلمة الشك نايب * وسيف هدى في طاعة الله مر دف

وقفت على حصن المحاض وانه * لموقف حقيق لا يوازيه موقف

فلما يسد وجه الارض بل حال دونه * رجال كآساد الثرى وهى ترجف

كتاب (١٢) الروتين

وجراء سلهوب ودرع مضاعف * وأبيض عنسدى ولدن مقف
ومار جعت اعلا ملك الصفر ساعة * الى ان غدتا بكاده السود تر جف
كبا من أعاليه صليب وبعثة * وشاديه دين حقيف ومحفف
صليبة عباد الصليب ومنزل السزال لقد غادرته وهو صنف
أيسكن أوطان النيين عصبه * تمسين لدى ايمانها وهي تحلف
نحسكم والدين في النصح واجب * دروايت يعقوب فقد جاء يوسف

ومن قصيدة لسعادة الصرير الجصى

حلات فككت الالامى المسددا * وسرف كنت السمرى المؤدا
وقت باعباء المبالا، باشضا * فأقعدت اعداءه ولم تقش مقعدا
تعودت ضرب السيف والطعن القنا * وكل امرء مغرى بما قد تغوا
نصرت الهدى لما تخاذل حزبه * فماد الحزب الله يا ناصر الهدى
غصبت لدين أنت حقاص للاحه * فارصيت لما ان غصبت محمدا
فيا يوسف الخسير الذى فى بينه * من الخير ما قد غار فينا وأنجدنا
وصلت لدى سلم وصلت لدى ونى * ففقت جميع الناس بالبأس والندى
وقدت الى الأعداء جيشا عرمرما * اذا انرقف فيه الصوارم أرعدا
فلم تبق للطفان سحلا بجمعا * ولم تبق للايمان سحلا مبدا
فناهيك من جيش نهضت بعينه * فأقعدت لما ان نهضت به العدى
حلت ذبالا فى ذوابل سمر * فلما دحى لبيل الجحاح توقدا
وزرت له الحصن الذى لوقته صدت * فوارسه بانتم أوردته الردى
قصمت به صلب الاعلى وورعه * وشهدته لما غفا فتهددا
هبيت اليه هبتمة يوسفية * تعيد هباء كل ما كان جلدا
وفنن بما قد فضله من سهامه * فواحد بغر الهنرى وقددا

قال ومنهم الامير نجم الدين محمود بن ناصر العراقى من أهل الحلة المزبانية وكان حاضرا فى نوبة ابن بارزان له
من قصيدة أولها

هنا اصلاح الدين بالفتح الممر * ونيل الامانى الغر السكة البكر
وما حزن فيها من نثار ومن علا * وحسن ثنائىنى الى آخر الدهر
سمعت لها المشرقة والقنا * سموانى لا ينام عسى لي وزر
وصلت بها حبل المنان مملما * قطعت بها يوم الوعى دابر الكمر
سلكت بياض الصبح وهو صوارم * وخضت سواد الليل وهو دم مجرى
وقد عرف الافرنج بأسل فى الوعى * وحر عتم منه أمر من الصبر
وظنوا بساء الحصن صونا للملكهم * فأعجب بالسعواء منتهك السمر
فما قبضت منهم يد العدر قطعت * أنا ملها الاعلى صفقة السمر
هى الفتكة الغراء لازلت فائما * ما ملها فى الدين فى السر والجهر
وأصبح فى أقصى خراسان ذكرا * وفى كل قلب منه جيش من الدعر
فلا ترض منهم بعدها بدل طاعة * فما خلقوا الاعلى شبة العدر
فسروا ملك الارض التى لو تركتها * لا غضت عيون المجد منها على أمر
فيا آل أبوب حوى ستم مناقبا * باخضها تعاو على الانجم الزهر

في أخبار (١٣) الدولتين

اذاعـ ذأرباب الفخار فانتـم * ذوو الفعلات الغر والنائل الغمر
وأنت الذي أصبحت بالأس والتقى * وبذل الله على السنا عطر الذكر

من كتاب فاضلى الى بغداد فى وصف الحصن (وقد عرض حائطه الى ان زاد على عشر أذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع أذرع الى ما فوقها وما دونها وعدت تازيد على عشرين ألف حجر لا يستقر الحجر فى مكانه ولا يستعمل فى بنيانه الا بالربعة دنانير فما فوقها وفيما بين الحائطين حشون من الحجارة الدم المرغم بها انوف الجبال الثمم وقد جعلت سقيته بالكلس الذى اذا انحطت قبضته بالحجر ما زجه بمثل جسمه وسما حبه باونق وأصلب من حرمه وأوعز الى حصنه من الحديد بان لا يتعرض لخدمه) ومنه فى وصف النار قال (وبات الناس فى ليلة الجمعة مطيقين بالحصن والنار به مطيقة وعليه مشتملة وعذاب السنتها على تاجه مسدله ومن خلفه مسدله ونارهم قد اطفأها الله بتيك النار الواقعة ومنعهم قد أذهب الله بتيك الابرجة الساجده بنعيج الفأله قد استحال حلتارا والشفق قد عم الايلة فلم يمتص اتصالا ولا امحارا ونفخاتها حيمية وقودها الناس والحجارة والمناى يادى بلسان مصابها اليك أعنى فاسمى بإجاره فوجلت النار والى يصيق منها الفكر ويعجز عنها الابر ونقلت النباشم العيس الى الاثر وقال الكفر انها لحدى الكبر وخولف المذل ان السعادة تلحظ الحجر وأغنى ضوءها لسان كل أمة ان يسأل هذا وهذاما الخبر وقدفت بسر ركاب الجالات الصفر ورفرت بغيظ تعمر له خدود الجبال الصعر وتلحقها بالكسب العفر وبات الليل والهاري نيله وكلمنا عمده الموجد جعل الوقوف يله الى ان بدا الصبح ككأنه منها امتار الانوار واشفق الشروق ومن عده رها صيغ الارار فحينئذ تقدم الحادى فاقبل بده الاحجار من أسما ومحاروف البدين من طرسها وتبعه الجيش ورافقه وكفقه من اسفل عليه نطاقة) وفى كتاب آخر (وكان من باعلى بل وفيه صهر من المالح المملون الحصن روافيه ما يهاهر أمت قنيل ودابة محروقة بالنار فسادت عرضته ولا ملأت حفرته وكان فيه نحو الف زردية والمائة ثمانين فارسا بعلمانهم وجسمه عشر معمره الرجال مع كل مقدم جسمون رجلا غدا الى الصناعات سابس باء ومهار وحذاذ ونجار وصيقل وسوى وصناعات انواع الاسلحة وكان يدمى أسرى المير ما يزيد على مائة رجل نزعته القيود من أرجلهم وسعلت فى أرحل الفريخ وكنت فيه أقوات لعدوه سنين وأنواع اللحم النضيب والحبية فيها بلاغ وماع الى حين ولما قوتل أول يوم هم حوشه وفيه جماعة من المقاتلة فضر بت رفاهم وأحدث دواهم وفى الحال علمت النقب على خمس جهات وحذيت بالنيران وتأخر وقوع الجدران لفرط عرض البينان ولم تزل النار توقد ثم فخرج ثم شعل ثم تخمد المان ثم كملت النقب وحسنت بالاحكام وأطلقت فيها النيران فى يوم المجلس فبومئذ وقعت الواقعة واشتقت الارحسة ففى يومئذ دواهم وملك المملون الحصن بمافيته ومن فيه واشتعلت النيران فى أرجائه ووافيه وكان الداغية مقدم الحصن شاهدا محل بنيانه وما نزل من البلاء بما حياه وأعواله ولما وصلت النار الى جهته ألقى نفسه من فوق ناصبار على حرها فى الحال ثقلته هذه الا الى تلك النار ولما أخذ أسارى الفريخ وهم عدة تزيد على ستمائة بعد المقلوبين وما يضر عدتهم عن ملها توفرت الجمعة على هدم هذا الحصن وقعه أثره وأزاله ضرره والحمت أعاليه بة واعدته وصار أثر ابعدين فى مشاهدتين هذا والفريخ محمرون فى طرية يشاهدون الامر عيانا ويندرون الى الحصن وقدملى نرايا وانزع دخانا وسارت العساكر الى اعمال صيدا وبيروت وصور فانت مغيرة باشتارت كل غامضه ووصلت الى كل ذخيرة وصارت بلاد الفريخ لا يسكن فيها الا قاعة وأمدية ولا يقيم فيها الامر نذبه اسند الخوف مغنق ليدى نفسه أو مضجعه) ومن كتاب آخر فاضلى عن السلطان الى وزير بغداد (أخرفلان لدرورات منها أمر اض كانت قد عمت بها البلوى وكثرت بها الشكوى وكان أكثرها خاصا بالعاشرين من العساكر من نوبة الخ حصن وكان خادما المجلس السامى ابن أخيه تقي الدين وان عمه ناصر الدين قد جهدهدا وأثخننا وبلغ حد الأس وامحنا وكذا يسقمان من ضمير المني فن الله تعالى بالشفاء وهذه البشرى بفتح الحصن وان كانت شريفة مواهبها غامة منافعها فقد تجددت بعد هابشارة طلعت بشارة راقته وجاءت فى مكان الرديف لاخرى لا فرق بينهما الا ان تلك سابقه وهذه لاحقه وذلك ان الاسطول المصرى غر اعزوة ثانية غير الاولى ونوجه عن السواد الاسلامية مرة أخرى من الله فيها مائة أخرى وكانت عدته فى هذه السنة قد أضعفت وقويت واستفرغت فيما عزا

الجهاد واستقصيت واحتلت به الرجال الذين يعملون في البحر ويشتكون في البر ومن هو معروف من المغاربة بغزو بلاد الكفر فسارت على سوارهم كائن الانهار قمر ورق السهام وروا كدهي مدائن الانهار من السحاب غير الجاهم فلا أعجب منها سمى غربا وتنتشر من ضلوعها أجنحة الحمام وتسمى جوارى وكثير يجري بها من النصر بعلام فطرق في الاحد حادى عشر جادى الاولى مينا عكا وهي قسطنطينية الفرج نوح داركفرهم أبدها الله من الكفر اسلا ما وخاع عنها الشرك البالى وخلع عليها من التوحيد اعلاما وكنت مفروسة فاصبحت مقترسه وباتت جميع الفرج محترسه وغدت مقترسه فاعى الان حذفت والحة على المينا وفيه المراكب والبضائع فاستولت على عدة من المراكب تحطها وتكسيرا ونضاها بقل ولو كان ثيرا واخلت ساحل انفرنج بقتالها وباشت مثل الماء بنزلها وترها وهذا ما لم يهد من الاسدول الاسلامي مثله في سالف الدهر لاني حالة قوة اسلام ولا ضعف كفر ومما سبله ان تكثر السير الكربة بفخره كما طرزانة الصحيفة الشريفة باجرة وقتل على قلعة عكا ثلاثة نفر بألم السهام أبعد ما كانوا وقوا عنها وآمن ما كانوا منها فصرعهم الايدي والاقواء وخرقوا سجدا على الجباه سجدوا لا يرفعون منه الرأس ولا ينتقلون منه الى حالة الجولس ولا يرفع فياير رفع لهم من عمل ولا لهم فيه من قبلة ولا لهم به من قبل وأقامت المراكب يومين تقابلها وتقاتلها وتناضلها

(فصل ١٤) في باقى حوايا هذه السنة منها حجة الفاضل الثانية ووفاة الخليفة المستضى بالله وغير ذلك قال العماد في العشر الاخير من شوال سنة خمس وسبعين خرج الفاضل من دمشق الى الحج ثم عاد الى مصر من مكة قلت وقفت على نسخة كتاب الفاضل الى الصفي بن القابض يصف له ما لقي في طريقه الى مصر وركوب البحر وكانت جماله ذهبت بحكمة في خامس عشر ذى الحجة فقال (خرجنا من مكة شرفها الله يوم الخامس والعشرين من ذى الحجة وفي هذه الايام زاد تبسط الممسين واسراف المسرفين وظهر من هوان أمير الحاج العراقي ومن ضعف نفاه وانخفاض جناحه ما أطعم المفسد وأخاف المتسلح ووصلنا الى جدة يوم الاحد السابع والعشرين من ذى الحجة وركبنا البحر في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه وبثنا فيه ليلتي الاربعاء والخميس وروية الریح الى جزر المغرب من بلاد اليمن سمى بدادب وكانت احدى الليلتين في البحر من ليلتي البلاء وبالله أقسم لقد شاب بعض رؤس أصحابنا في تلك الليلة وايوا من الازنة وقموا معاجلة الامر وتقصير العذاب وظنوا انهم أحيط بهم وتبوا أنفسهم ثم احتجوا عليهم بالاقدار التي لا حيلة فيها وصبروا الى ان قرع الله سبحانه ورننا للربة بحيث لا ماء يشرب ولا لعل يركب وانفذنا الى البحارة الذين على ساحل البحر حاضرنا واجالا ضعيفة أجرتنا أكثر من ثمننا واشمنا فركبناها ووصلنا الى عيذاب بعد عشرة أيام وندهلكننا ضعا فتعبنا وجوعا وعطشا لان الخلق كانوا كثيرا والراد سيرا وركبنا البرية من عيذاب الى اسوان فكانت أسقى من كل طريق سلكناها ومن كل مسافة قطعناها لا ناوردنا الماء في احدى عشر ذليلة مرتين وكانت الهمة فاصرة في المزد فكانت البلوى عظيمة في العطش فاما الخزون والوعور فهي تزيد على ما في برية الشام بكونها طريقا بين جباين كالدرب المتضايق والزقاق المتقارب وحرا الشمس شديد وقرب الوعد بينهم ما بعيد ولطف الله الى ان وصلنا مصر في السابع عشر من صفر قلت وللوجيه بن الذروري في الفاضل

لأن الله اما حجة أو وفادة * فمن مشهد يرضى الاله وموسم
تري تارة بين الصوامم والقنا * وطورا ترى بين الخطم وزهر
وكذلك باعذر الحبحم مآثر * لها في سماء النحر اشراق النجم
كانك لم تخلق لغير عبادة * واضهار فضل في الوري وتكرم

قال العماد وفي هذه السنة طهر الملك العزيز أبو الفتح عثمان بن عماد الدين ابن السلطان وكان أحب اولاده اليه وهو الذي قام بتدبير الملك بعده وولد بمصر ثامن جادى الاولى سنة سبع وستين وخمسة مائة كما سبق ذكره وكان السلطان لما قدم الشام زاد شوقه اليه فاستقدمه فقدم عليه عاشر رجب سنة احدى وسبعين وأنشد العماد السلطان عند قدمه قصيدة منها

في اخبار (١٥) الدلائل

بأسد ايجي عرين العلي * هنتت جمع الشمل بالشبل
عثمان ذى النورين بين الوري * من سود دسام ومن فضل
يحكيك اذ دام او باسا فها * أشبه هذا الفرع بالاصل
مخائل الرشد على بشره * شاهدة بالفضل والنبيل
ملك قضى الله له انه * على ملوك الارض يستعلي
بالملك الزاصر سلطاننا * طالت يد الاحسان والعذل

ثم لم يفار فاه واستعجبه الى مصر في سنة اثنتين وسبعين ثم عاد به معه الى الشام في شوال سنة ثلاث وسبعين واتخذ له معلما من مصر وهو نجم الدين يوسف بن الحسين المجاور فحصل من محبته رزقا واسعا لاسيما في عام الظهور فانه عم فيه السرور والحبور وكان متولى الانفاق في الظهور وصفي الدين بن القابض لانه كان متولى الخزانة والدبوان والاعمال بدمشق قال وحيي بن القابض سنة أربع وسبعين وفيها حج الفاضل من مصر يعني حجه الاولى وعاد الى الشام ومعه ابن العاض قلت فلما رجعا معا في حجة الفاضل الاولى الى الشام ثم انفراد الفاضل بالحج ثانيا من العام المقبل وهو سنة خمس وسبعين وتم له في رجوعه ما تم كاتبه بالكاتب الذي سبق ذكره يصف له ما تلقى في رجوعه وكانت حجة الفاضل الاولى من مصر ورجع الى الشام وكانت السابعة من الشام ورجع الى مصر وفي هذه السنة توفي الملك المنصور حسن ابن السلطان صلاح الدين وتبره القبر القليل من القبور الاربعة بالقبة التي فيها ساهن شاهين أيوب بالمقبرة النجمية بالعونية ظاهر دمشق قال العباد وفيها خرجوا الى بعلبك لتسليمها الى عز الدين فرخ شاه فساد كواطريق الرواديف وهي طريق ساقية وفيها أغار عز الدين على صفد ثامن عشر ذي القعدة وكان قد جمع لهم من رجال باناس وما حولها ورجع غاما سالما قال وفي مستهل ذي القعدة أو بانه توفي ببغداد بالليفة الامام المستضيء بالله أسير المؤمنين واستخلف ولده الناصر لدين الله أبو العباس أجدو وكان رسول السلطان صياء الدين الشهرزوري حاضر القصر وبايع وأخبر بحيلة الحال فبادر السلطان الى الحظبة له في جميع البلاد ومضى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسماعيل من بغداد رسولا الى بهلوان وألزمه حتى خطب بهمدان وأصفهان وعت الدعوة الهاديية في جميع بلاد خراسان ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاءه اليارسولا في سبته ست وسبعين وأخذه السلطان معه الى مصر ووجع منها وركب البحر كاسياني ذكره ولما هدى مدح الامام الناصر قصائد منها قصيدة بائمة مدحه باسنة ففح القدس وسيأتي منها ابيات عند ذكر فحها ومنها

الدهر ينصرى مادام ينسبني * لخدمة الناصر المنصور نساب
بطاعة الناصر بن المستضيء * أي السعاس أجد للايام اصحاب

ونال محمد بن القادسي في تدليل تاريخ أي الفريحي الجوزي مولد المستضيء ثالث عشر شعبان من سنة ست وثلاثين وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وواحد عشر يوما نوبع تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين وكان كريم مرحوما بابا بالريعية يعفوق الجرائم البكار عاد لاضر يوم مبايعته من رد النظام والاملاك المقبوضة والاخراج عن المسجونين واستقاط الضرائب والمكوس ماشاع واشهره قال وتقدم الى شيخ الشيوخ عبد الرحيم والى عبد الرحمن بن الجوزي فصاياه عليه ثم بايع الناصر أخو الامير أئوم صورها ثم شتموا عمامه وخواصه ثم الولة وأر باب المنصب والاعيان والوافدون للحج من بلاد خراسان وغيرهم وكان والده المستضيء قد عهد اليه قبل وفاته بيوم واحد قلت كذا نقلته من خطه ولعله أراد باسبوع واحد فسبق به قله فان ابن الدبيثي ذكر انه خطب للناصر بولاية العهد يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال ثم قال ابن القادسي وفي سابع ذي القعدة قبض على صاحب الخزن ظهير الدين أبي بكر بن العطار ووكل به وتببع أصحابه ومن يتعلق به وقتل النقيب مسعود الذي كان بيع يديه وكان أحد الاعوان بباب النوى قد نزعت الرحمة من قلبه فقطع قطعا وشذ في رجله جبل وسحبته العامة في الدروب ثم أحرقه بعد ذلك قال وفي حادي عشره جل ابن العطار ميتا وعلم به العامة فرجواتا بونه بالاجر فألقاه الجالون وهو برزا فأخذه العامة وشذوا في رجله سر يدا وسحب في جميع بغداد ومنافذها ودرورها ومحالها

كتاب (١٦) الروضتين

وقطع لجه قطعاً قال ونوجه شيخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم إلى البهلوان بن ابداك شحنة هذان لأجل الخطبة فتوقف عن ذلك فهاجت العامة عليه ووثب أهل المذكور وخطبوا وجاء كاب شيخ السيوح إلى الديوان سطرها فلان والخال في الجنوح قصة نوح من قرأ السورة عرف الصورة قال وفي هذه السنة استد الغلاء وكثر الوباء بغداد وغيرها من البلاد وذكر ابن رجب بواسط في حياته وأكلها وآخر مقرط من سبي وأخذ كبده وسواها وأكلها قال وفي رابع عشر ربيع الآخر زلزلت الأرض بعد العتمة فوق بلاد رابل فلما أصبح الناس عادت الزلزلة في الجبال فتصادمت ووقع منها الحجارة وسقطت قلاع كثيرة وهلكت قرى من فيها وكان يكون بين الجبل والجبل عشرون ذراعاً فقد هما الزلزلة في تضايمان وبعودان إلى مكانهما قال ابن أبي طي وفيها أحرقت الاسماعيلية أسواق حلب وافترق أهلها بذلك وكانت إحدى الجوامع التي أصابت حلب وأهلها قال وفيها خرج قراقوش التقوى إلى طرابلس المغرب ففتح بلاداً وصلح حروبهم إبراهيم السلطان الذي دخل بلاد المغرب أيضاً من أصحاب تقي الدين لأن نفسه أطمعته أن يفعل فعل قراقوش في تلك البلاد ثم أصحح بينهما

ثم دخلت سنة ست وسبعين (١٢٥٦) ففتحها تقي الدين الحافظ أبو طاهر السلفي رحمه الله بالاسكندرية وقدرت قبره بها داخل الباب الأخضر قال العماد وفيها هادن السلطان صلاح الدين الفرنج وتوجه إلى بلاد الروم فاصلى بن نور محمد بن قرا ارسلان بن داود بن أرتق صاحب حصن كيفا وبين زوج ابنته السلطان عز الدين قلع ارسلان بن مسعود بن فليح ارسلان واجتمعوا على نهر يقال له كوك سو وكثرت ثم الهدايا والدعوات والافراح والتهبات وفيها دخل السلطان بلاد الارمن لقمع ملكهم ابن لاون لأنه كان استمال قوماً من الترك كان حتى رعوياً منى بلاد بلالان ثم صبحهم بغدره وحصلوا بأمرهم في أسره فدخل السلطان بلاده وأذل أعوانه وأجناده ونصر الله المسلمين بالعرب بأحق من الخوف قلعة شامحة تعرف بالمنساكير وبأدار المسانين إلى إخراج ما فيها من الآلات والغلات فتفوقوا بها ونعموا وهدموا إلى الأساس قال ابن أبي طي ووجد المسلمون في أرضه هاضم يحاط به آلات نحاس وفضة وذهب لها من طول دل قال وبذل للسلطان جملة من المال وأنه يطلق من عنده من الأسارى فلم يرض السلطان بمبادلة ذلك في المال وأنه يشتري خمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويعتقهم فأجاب السلطان وأخدمهم رهينة على ذلك قال العماد وأدعى الارمني ودل وأطلق ما بيده من الأسارى ورجع السلطان مؤيداً منصوراً وصل إلى حماة في أواخر جمادى الآخرة وكان الجبال الواسطي أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاطب المقرئ شاهداً هذه الغزاة فنظرت قصيدة في السلطان منها

لقد جعل الله منك الورى * بأوفى مليك وفي شحان
تمش إلى نغمات السيو * وفي الهام لا نغمات القيان
أزرت ابن لاون لأواءه * فاضحى به خبراً عن عيان
ودان من الدل لا يرعوى * حذار من الراعفات اللدان
فلا قدم عنده لثبنا * ت وليس له بسداً كميدان
وأخلى اليك مناتيره * وعادراً لهدم تكت الميان
وأرسل بالأسراء أعنا * يسأل إطلاقه فهو عانى
رتقت بعز منك والمكرما * ت فوهم الارتقى الحبان
ورعت ابن سلجوق في ملكه * ففجع من رعبه بالشبان

قال ولما وصل السلطان إلى حصن وخيم بالعاصي أتاه الفقيه مهذب الدين عبيد الله بن أسعد الموصلي وأنشده وله في السلطان مدائح منها قصيدة غزراً مطلعها

أما وجه نيك المرضى الصحاح * وسكرة مقتلتيك وأنت صاحي
لقد أصبحت في العشاق فردا * كأصحت فردا في الملاح
يمزج الغصن فوق نقي وبرنو * بمجد ظبي ويسم عن افاح
وقد غرس الفضيبي على كنيب * فأنمر بالظلام وبالصبحاح

في أخبار (١٧) الدولتين

وما لم مع الوشاء ولا عجب * لغص ان يميل مع الرياح
قطنا الليل في عتب وشكوى * الى ان قيل حتى على للفلاح
ولاح الصبح يحكي في سناه * صلاح الدين يوسف ذا الصلاح
ولما ضاق حصد عن مداه * لفينا به بأمال فساح
فن هزم وكعب وابن سعدى * رعاء الشاء والنعم المراح
جواد بالبلاد وما حوته * اذا جادوا بالبان القحاح
ليفد حياه وجهك كل وجه * اداسئل الندى جهم وفاح
ما لك جلهم بمغرى بظلم * ومشغول بلهو وأمزاح
اذا ما جالت الابطال ولتى * ويقدم نحو حائله الوشاح
وبون بسين مالك بيت مال * ومالك رق املك النواحي
هم جمعوا وقد فرقت لكن * جمعت به الرجال مع السلاح
وما خضع الفرغ فنج لديك حتى * رأوا ما لا يطاق من الكفاح
وما سألك عقد الصلح ودا * ولكن خوف معلنة رداح
ماتت بلادهم سهلا وخزنا * أسودا تحت غابات الرماح

وقال ابن شداد لما عاد السلطان بعد الكسرة يعني كسرة الرمله الى الديار المصرية وأقام بها ريثما علم الناس شعهم وعلم تحبط الشام عزم على العود اليه وكان عود القزاة فوصله رسل قلعج ارسلان يلتمسون منه الموافقة ويستغيث اليه من الارمن فاحتمل نحو بلاد ابن لاون لنصرة قلعج ارسلان عليه ونزل بقر احصار وأخذ عسكر حلب في خدمته لانه كان قد اشترط في الصلح ذلك واجتمعوا على نهر الازرق بين هسني وحصن منصور وعبرته الى النهر الاسود طرف فلاداب لاون فأخذ منهم حصنا وأخر به وبذلوا له أسارى والتسوا منه الصلح وعاد عنهم ثم ارسله قلعج ارسلان في صلح الشرقيين بأسرهم واستقر الصلح في عاشر جمادى الاولى سنة ست وسبعين ودخل في الصلح قلعج ارسلان والمواصلة واهل ديار بكر وكان ذلك على نهر شيخه وهو نهر يرمى الى الفرات وسار السلطان نحو دمشق

(فصل ١٨) في وفاة صاحب الموصل قال العماد وفي أوائل هذه السنة توفي صاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل والسلطان شميم على كرسيه مومن حدود بلاد الروم وجلس مكانه أخوه عز الدين مسعود ابن مودود وجاء رسول مجاهد الدين بما يماز وهو الشيخ الفقيه خضر الدين أبوشجاع ابن الدهان البغدادي الى السلطان وطلب منه ان يكون معه كما كان مع أخيه من ابقاءه من وج والرها والرقه وخزان والخابور ونصيب في يده فلم يفعل السلطان وقد كانت له باطلاق الخليفة وأما جعله في سيف الدين غازي بالشفاععة على شرط انه يقوى السلطان بالعساكر فلما مات سيف الدين كتب السلطان الى الخليفة التماسه بعله بذلك وان هذه البلاد لم تزل تتقوى بها فتغور الشام فقوضت اليه على ما أراد وكان الكتاب الى صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ من انشاء العماد وفيه (قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية للدار اعززة الحمويه بما لم يخص به أحد وامتندت اليه من انشاء اقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما تمتد اليه يد وأزنا من الامايم الثلاثة أديا وخلفناهم للردا حيث دعوا بلسان الغواية خلفا ولا حفاء ان مصر اتاهم عظيم وبلد كريم بقيت مائتين وخسين سنة مصميه وعانت كل هضمه وعانيت كل عظيمه حتى أنقذها الله عز وجل بنامن عبيد بن عبيد وأطلقها عطلقات أعنتنا اليها من عناء كل قيد وفيها شيعه القوم وهم غير ما موى الشر الى اليوم وطوائف أقاليم الروم والفرنج من البر والبحر بها مطقة فمن حقها ان يتوفر عسكرها فلو حصل والعياد بالله بها فتق لا عضل رتقه واتسع على الرافع خوفه واحتجنا في حفظ بلاد الشام وتغور الاسلام الى استعجاب العسكر المصري اليها وله مدة خمس سنين في بيكارها منتفان من كفارها معتمدا لما شاقها على غلاء اسرارها وانما أوحى الى ذلك ان بلاد هذا الثغر قد اقطعت عنه وعساكرها اخذت منه وكانت في نولي نور الدين رحمه الله ثم ذكرها كما سبق فقوضت اليه كما سياتي وقال ابن الاثير توفي

كتاب (١٨) الروضتين

سيف الدين يوم الاحد ثالث صفر سنة ست وسبعين وكان مرضه السل وطال به قال ومن العجائب ان الناس لما خرجوا يستقرون بالموصل سنة خمس وسبعين للتغلب الحاد في البلاد خرج سيف الدين في موكبه فزار الناس وقصده واستغني به وطلبوا منه ان يأمر بالمنع من بيع الخمر فاجابهم الى ذلك فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين وخرى بوابها ومنه يهوها وأراقوا الخمر وكسروا الاواني وعلموا لا يحمل فاستغيثت اعيان الدور الى نواب السلطان وخصوصا بشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرح والفاق ولم يكن له في الذي فعله الناس من النيب فعل انما هو أراق الخمر والمأوى فعل العامة نهاهم فلم يسمعوا منه المالكى احضر بالقلة وضرب على رأسه فسقطت عمامته لما طلق لينزل من القلة نزل مكشوف الرأس فارادوا تعطيته بعمامة فلم يفعل وقال والله لا غطيته حتى يتشم الله من ظني فلم يرض غير قليل حتى توفي الدزدار المباشر لاذاه ثم تعقبه مرض من سيف الدين ودام مرضه الى ان توفي وكان عمره نحو ثلاثين سنة وكانت ولادته عشرين سنين وشهورا وكان من أحسن الناس صورة تام القامة مليح الشمايل ابيض اللون مستدير الوجه متوسط البدن بين السمين والدقيق وكان عاقلا وقورا قليل الالفاظ اذ اركب واذا جلس عفيفا لم يذكر عنه شيء من الاسباب التي تنافي العفة وكان غيورا سديا القبر لم يترك أحدا من الخدم يدخل دور سانه اذا اكبر اعاد دخل عليهم الخدم الصغار وكان لا يحب سفل الكدما ولا أخذ الاموال مع سعي فيه قال ولما اشتد مرضه اراد ان يعهد بالملك لولده معز الدين سخر شاه خفاف من ذلك لان صلاح الدين يوسف بن ايوب كان قد تمكن بالشام وقوت شوكمته وامتنع أخوه عز الدين من الادعاء والجابة الى ذلك فأسار امرأه البكار ومجاهد الدين فاجماز بان يجعل الملك بعده في اخيه لما هو عليه من كبر الس والسخافة والعقل وقدر النفس وحسن سياسة الملك وان يعطى اليه بعض البلاد ويكون من جمعهم الى عهدهما عز الدين ليقب لها ذلك فعزل ذلك وحلف الناس لاديه فلما توفي سيف الدين كان مجاهد الدين هو الممدد للدولة والنائب فيها والمرجع الى قوله ورأيه فركب الى الخدمة العزبة وعزاهم وركبه الى دار المملكة راخلا فدخلها وجلس للعرز وكانت الرعية تحفا فعمل ان يمد له لاقدا مه وحراة وحده كانت فيه وكان لا يلتفت الى أخيه سيف الدين اذا أراد امر الفما الى تعيرت احلاقه وصار رفيقا بالرعية محسنا اليهم قريب منهم قال ابن شداد وفي عاشر المحرم سنة ست وسبعين بل الملك الصالح بن نور الدين عصيان غرس الدين قليم بن بل خلدنا خارج اليه العسكر ثم بلغه وفاد ابن عه صاحب الموصل ثالث صفر

فصل في وفاة شمس الدولة بن ايوب اخي السلطان الاكبر وقصد وم رسل الديوان بالتفويض الى السلطان فيما طلبه قال ابن ابي طي كان السلطان قد أنفذ اخاه شمس الدولة الى الاسكندرية وجعل اليه ولايتها فلما حصل بهالم توافقه وكان يعتاده القلوب فلهذا به وفد بقصر الاسكندرية وكان أحد الاجواد الكرماء الافراد سحاجا بابلا عظيم الهيئة كبير النفس واسع الصدر محبا فيه يقول ابن سعدان الحلبي من قصيدة

هو الملك ان تسمع بكسرى وقمصر * فانهم في الجود والبأس عبده
وما حاتم من يقاس بمنسله * نخنما رأيناه ودع ماور وينا
ولد بذراه مسهبير افانه * يحسبك من جور الزمان وعدواه
فلاتحمل للسحاب منسمة * اذا غلبت جودا سخايب جدواه
ورسل كفيه بمناشيق مجما * فليمن يمناه وليسر يسراه

وقال العماد وفيها في المحرم توفي بنظر الاسكندرية تورانشاه أخوه صلاح الدين ووصل الخبر بذلك الى السلطان وهو نازل بظاهر حصن فخرن عليه خزانة يد او جعل يكثر انساد أسباب المراتي وكان كتاب الحماة من حفظه وكان صلاح الدين لما ملك مصر أرسله الى المن فادكها ثم استناب فيها وقدم السام سنة احدى وربعين ففاوضا لاجأ منه كتاب وفيه أبيات لشاعر ابن المنجيم منها

فهل لاني بل مالكي علم انني * اليه وان مال التردد راجع
واني يوم واحد من لقائه * للملك على عظم الزمة بائع
ولم يبق الا دون عشر بن ليلته * وتجنبي اني أبصارنا والمسامع

في أخبار (١٩) الدولتين

لدى ملك تعنو الملوكة اذا بدا * وتخشع أعظاما له وهو خاشع
كثبت واشواقى السالك بعضها * تعلت النوح الحمام السواح
وما الملك الا راحة انت زندها * تضم على الدنيا وتحس الاصابع

قلت وقبر نور انساها الآن بالنز به الحسمية بالعوية طاهره شق نقلته اليها اخته ست السام بنت أيوب وبنت القبر
عليه وعلى زوجها ناصر الدين محمد بن شير كوه وهو ابن عمها وعلى قبرها وقبر ابنها حسام الدين عمر بن لاجين وسائق
ذكره واليه تنسب التربة فهي ثلاثة قبور العلي لنور انساها والاوس فلان بن شير كوه والشامى لست السام وابنها
رحمهم الله قال العماد وفيه في رجب وصلت رسل الديوان العزيز الناصري صدر الدين شيخ الشيوخ ابو القاسم عبد
الرحيم ومعه مناب الدين بنبر الحاص بالفوبير والقلبد والتشريف الجديدي تلقى منهم بالتعظيم والتعجيد وركب
السلطان لالتقي وعلى صفحته بشارت الرقي فلما ترائى له الرسل الكرام ووجب لهم الاجلال والاعظام نزل وترجل
وابدى الخضوع وتوجه نزل الرسل اليه وسوا عن أمير المؤمنين عليه فتقبل القرض وقبل الارض ثم ركبوا
ودخلوا المدينة قال ابن أبي طي وكانت هذه أول خلعة قدمت من الامام الناصر على الملك الناصر وكانت
نوب أطلس أسود واسع الكم مذهب وبيقار أسود مذهب وطيلسان أسود مذهب ومشددة سوداء مذهب وطوق
ونخت وسرفسار وجوان كيت من مراكب الخليفة عليه سرح أسود ولسان أسود وطوق بحجر وقصبة ذهب
وعلم أسود وعدة خيول ويقع وركب السلطان بالخلعة وزين له دمشق وكان يوم عظيم قال العماد وظفر السلطان
من صدر الدين بصدق صدوق وكان قد عزم على قصد الديار المصرية وسلك طريق ايلة والبريه فحسن لسبح الشيوخ
مصاحبه ورغبه بارة قبر الشافعي رضي الله عنه فتمال قد عزم في هذه السنة على الحج فاصل معكم الى القاهرة
بشرط اقامة يومين ولا يدخلها وانما أسكن بالترية الشافعية واسير منها الى البحر عذاب فعلى ادرك الصوم رمضان بمكة
فالتزم له ذلك واعاد اصحابه لياؤه من طريقه الى الحجاز ورجع شهاب الدين بسير في جواب رسالته ومعه رسوله ضياء
الدين ابن الشهر زوري وأنشأ العماد كتابا في الجواب الى الديوان وفيه (وقد توجه الخادم الى الديار المصرية لتجديد
النظر فيها ثم يسخر الله في الحج وادائه ويعود الى مجاهدته أعدائه)

(فصل) في رجوع السلطان الى مصر مره ثالثة قال العماد ولما عزم السلطان على الرحيل استناب بالسام
ابن اخيه عز الدين فرخشاه وكان عزرائيل غزير الفضل وقال فيه العماد عند توديعه قصيدة منها

اسأل الله العلي ان يعيشا * الف عام نصره مستحيشا

لست اكدى شيئا سوى فروفه منى لك وابني لسفري اكدشا

كيف يخلو من دف عظه وظهر * سالك طرق ايلة والعربشا

ووقت على ثلاثة كتب للفاضل عن الملك العادل الى الولاة باليمن يعلمهم ان ملوك الشرق قد دخلوا في طاعة
السلطان وان عازم على القدوم الى مصر وصوم رمضان بها والحج الى بيت الله الحرام منها وأنمرهم بالاستكثار
مما يحل لاجله الى مكة من المال والازواد والخلع مما تستعمل عليه ذلك الاعمال ووقفت على كتابين آخرين أحدهما
الى أمير مكة والآخر الى أمير ينبع يعاها مبالغة ليناهاه القدومه ووقفت على كتاب سادس للفاضل الى السلطان في
ذلك يقول فيه (جعل الله الملك دمة لاسيانه ونشر تمام الاعداء منهم بطيغه وامس أهل الاسلام بعدله من جور الدهر
وحينه واشهد موقوف الحج الاكبر وزان يحضره منهم دخيمه وجعل وفدة الانام وضيغ بيته في هذه السنة في وفده
وضيغه) ثم هناء بما فتح الله عليه من محبة الجهاد وما أتره في بلاد الارمن وغيرها من البلاد وما تبع ذلك من نية
الحج بلغه الله منه المراد ودخل السلطان بلاد الارمن كان في هذه السنة كما سبق فلهذا سخر له الحج مع شيخ الشيوخ
ثم حصل له ما منعه منه قال العماد ورجل السلطان الى مصر يوم الاثنين ثامن عشر رجب ومعه صدر الدين شيخ الشيوخ
فاقام يومين كما ذكر ونوجه منها الى مكة على البحر فادرك الصوم قال العماد ووصلنا الى القاهرة على طريق ايلة
ثالث عشر سعيان واستقبلنا اهلها ولقينا الاكابر والاعيان والملك العادل اخو السلطان حينئذ بها ثابته وتلقينا

كتاب (٢٠) الروشتين

مواكبهم ومواهبه وخدمته بقصيدة ذكرت فيها المنازل والمناهل من يوم الرحيل من دمشق الى الوصول بالقاهرة منها

احبة قلبي طال ليلي بعدكم * اسي فني ألقى بوجهكم الفجرا
فقدت حياتي مذ قدت لقاءكم * فهل يجياني منكم نشأة أخرى
اجيران جبرون المجبرون جارهم * من الجور حوزوا في مشوقكم الاجرا
محبكم قد خاناه الصبر فاطلبوا * محبا سوا، عنكم يحسن الصبرا
ومذغبت عن مفرى مفرى قدنيا * سقى وري ربي مفرى في مفرى
احق الى عذرا وعذرى واضح * لان الهوى العذرى منى في عذرا
اذا القدر المحتوم من جلق بنا * الى مصر اسرى فانقلوب بها أسرى
رحلتنا ما باحت باسرارنا سوى * عبارة عين خوف يوم النوى عبرى
تركنا دمشقا والجنان وراءنا * وقد أمنا بالكسوة الرقيقة السفرا
وجئنا الى المرج الذى طاب نشره * فلزال من أحبا بنا طيبا نشرنا
رحلتنا بجر الصفر بالعيش غدوة * فسارت وحطت في محبتنا اظهرا
وقد طعت تبنا الى الدبر بعدها * وما عرست حتى اناخت على بصرى
نزلنا الدناح والجلاعب بعدها * وبعدها غدر الشامة الغزرا
ورأس الحشا والقريتين وكها * موارد فيها السحب قد غادرت غدرا
وردنا من الزيتون حمى وابلة * وجزنا عما كان مسلها وعرا
الى قلة الراعى الى نابع الى * جراول فالنخل الذى لم يزل قفرا
الى منزل في روضة الجبل اغتدت * به عيسنا في صدر شارحه صدرا
ودون حنايا حثثنا كتابنا * عيون موسى لم يزل مأوها مبرا
هناك تلقاها الوفود بيههم * فسر وابنا نفسا وزادوا بنا بشرا
قطعنا الى بحر الندى بحر لزم * ومن قصده بحر الندى يقطع البحر
عبرنا الى من كثر الرمل جوده * وجزنا اليه ذلك الرمل والجسرا
ولم يرونا ماء الحماد بهجرد * ولم يقتنع بالقل من يأمل الكثر
وجبنا البويب والمصانع قبله * الى بركتنا الجب التي قربت مصر
الى عزيمة في المجد غير قصيرة * وكان قصارى أمرنا ان نرى القصر
ولما نزلنا مصر في شهر رطوبة * وردنا بكف العادل النيل في مصر
غدا قاصرا عن قصرة قصه قصير * وابوان كسرى عند ابوانه كسرا

قال الحماد في هذه السنة بصر عرت كتاب كيميا السعادة تصنيف الامام أبى حامد الغزالي في مجلدين وفرت من تعريبه وعلم ما فيه بسعادتين وذلك بامر فاضل زبني امثاله وشملني في انعامه اقباله قال وفيها في خامس عشرى سؤال توفى صاحبى المعتبر ابراهيم بدمشق وأنا بصر قلت وهذا غير والى دمشق المعروف بالمبارز ابراهيم بن موسى ويلقب ايضا بالعمد وروى الحماد صاحب بقصيدة منها

أرى الحزن لا يجدى على من فقدته * ولو كان في حزني من يد لزده
تغيرت الاحوال بعدك كلها * فلست أرى الدنيا على ما عهدته
عقدت بك الايمان بالخير واتقا * فقلت يد الاقدار ما قد عقدته
وكان اعتقادى انك الدهر مسعدى * فخاننى الايام فيما اعتقدته
أردت لك العمر الطويل فلم يكن * سوى ما أراد الله لا ما أردته

في أخبار (٢١) الدولتين

وداع دعاني باسمه ذاكره * فاطر بني ذكرا اسمه فاستعدته

فقدت أحب الناس عندي وخيرهم * فمن لا تمى فيه اذا ما نشدته

قال ورثته بيتين وذكر العناصر الاربعة في بيت واحد منهما

لحنى على من كان صبحى وجهه * فعدمت حين عدمه أنواره

سكن التراب وغاض ماء حياته * مصادقات ربح المنية ناره

قال ابن أبي طي وفي هذه السنة سافر قراقوش الى قابس فذكر محاصرته لجملة من القلاع وقتله جماعة من البربر وما ذكره انه أسر جماعة على حصن وأمر بقتلهم وفهم صبي أمر فقبض فيه أهل القلعة عشرة آلاف دينار على ان لا يقتله فأبى فزادوه الى مائة ألف فأبى وقتله فما استتم قتله حتى نزل شيخ من القلعة ومعه مفااتيحها وقدمها لقراقوش فسأله عن الخبر فقال هذا الصبي الذي قتله ولدى ولم يكن لى سواه ولا جد له كنت أحفظ هذه القلعة فلما قتله علمت ان بقيت هذه القلعة في يدي ومتم صارت الى أولاد أخى وأبأ بعضهم فردّه الى القلعة وأخذ منه أموالا

ثم دخلت سنة سبع وسبعين * قال العماد والسلطان مقيم بالقاهرة وقد عين لسماع الاحاديث النبوية بقراءة الامام تاج الدين التنبهى السعوى مقيانا وجعه به من أهل العلم والعلماء عنده اشتاتا وورد كتاب عز الدين فرخ شاه من الشام يذكر ما من الله به على الانام من الانعام بكثرة ولادة الدوام في ذلك العام وجبر الله به ما كان قبله من الوباء وتغافوا بالخصب بعد الجذب والغلاء قال ودخلت الحمام الذي بناه زين الدين أبو الحسن على بن نجاة الواعظ في داره خارج باب زويلة بالقاهرة في ذي القعدة فقلت

ما نزل من يرى فيه غير عار فعار * به تماط الاذا با * وترحض الاوضار

والعيش فيه قرر * والطيش فيه وقار * والسبت في كل يوم * لمن يرى مختار

نار تطيب الالاعجب * لجنه هي نار

وله فيه

ومثل يدخله * لشغله كل أحد * يوجد فيه السبب في * كل خيس واحد

(فصل) في ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين رحمه الله وتمام في بلاده بعده وذلك بحلب قال ابن شداد وكان مرضه بالقولنج وكان أول مرضه في تاسع رجب وفي الثالث والعشرين منه أغلق باب قلعة حلب لشدة مرضه واستدعى الامراء واحد واحد واستأذنوا لعز الدين صاحب الموصل وفي الخامس والعشرين منه توفي رحمه الله وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس وقال ابن أبي طي كان سبب موته ان علم الدين سليمان بن جندر سقاه سمافي عنقود عنب وهو في الصيد وقيل الذي سقاه بأوت الاسدي في شراب وقيل انه أطعمه خمشا كانه وهو في الصيد قال ودفن بالمقام الكبير الذي في القلعة وحن الناس له حزنا عظيما وكان من أحسن الناس صورة واليهم اعطافا قلت وبلغني انه كان يقال ان موت الملك الصالح صغيرا كان من كرامات نور الدين رحمه الله فانه سأل الله تعالى ان لا يعذب شيئا من أجنائه بالنار وولدته زوفاة فقبل ان يدول عسره على أحسن سيرة وحالة رحمه الله قال ابن الاثير ولم يبلغ عشرين سنة ولما اشتد مرضه وصف له اطباء شرب الخمر فادوا بها فقال لا أفعل حتى استفتي الفقهاء وكان عنده علماء الدين الكسانى الفقيه الحنفى بمنزلة كبيرة يعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه فاستفتاه فافتاه بحجابه وشربها فقال له يا علماء الدين ان كان الله سبحانه وتعالى قد قرب اجلى اثره شرب الخمر قال لا والله قال والله لا لقيت الله تعالى وقد استملت ما حرمه على قلت يحتمل انه ذكر له ان من العلماء من ذهب الى جواز ذلك لانه كان يرى ذلك فان مذهبه بخلافه والله أعلم ثم قال ابن الاثير فلما ليس من نفسه أحضر الامراء كلهم وسائر الاجناد واستخلفهم لابن عمه أباك عز الدين وأمرهم بتسليم مملكته جميعها اليه فقال له بعضهم ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من هذان الى الفرات فلو أوصيت بحلب للمولى عماد الدين ابن عمك لكان أحسن ثم هو تربية والدك وزوج أختك وهو أضعاف المثل في الشجاعة والعقل والتدبير وشرف الاعراق وطهارة الاخلاق والخلال التي تفرد بها فقال ان هذا الميت عنى ولكن قد علمت تغلب صلاح الدين على

كتاب (٢٢) الروستين

عامة بلاد الشام سوى ما يدي ومعى فان سلت حلب الى عماد الدين يجر عن حفظها من صلاح الدين فان ملكها صلاح الدين فلا يبقى لاهلنا معه مقام واذا سلمتها الى عز الدين أمكنه ان يحفظها الكثرة عساكره وبلاده وأمواله فاستحسن الحاضر ون قرله وعلما وصيته وعجبوا من جوده رأيه مع شدة مرضه ومن أشبهه بأهه فإظلم فلما توفي أرسل دزدار حلب وهو شاذ بنجت وسائر الامراء الى أنابك عز الدين يدعونه الى حلب ليلسوها اليه فوردا الخبر ومجاهد الدين قايمار قد سار الى ماردن لهم عرض فلقى القاصدين عندها فافهموا الخبر فسار الى الفرات وأرسل الى أنابك عز الدين ويشير بتعجيل الحركة وأقام على الفرات ينتظره فصار أنابك مجددا فلما وصل الى المنزلة التي بها يجاهد الدين أقام معه وأرسل الى حلب يستحضر الامراء فحضروا كلهم عنده وجددوا الميثاق له فصار حينئذ الى حلب ودخلها وكان يوما مشهودا ولما عبر الفرات كان تقي الدين عزير أخى صلاح الدين بمدينة منبج فسار عنها اها را الى مدينة حماه ونازل أهل حماه ونادوا بشعار أنابك وكان صلاح الدين بمصر فأسارع عسكر حلب على عز الدين بفصد دمشق وأطعموه فيها وفي غيرهما من البلاد الشهامة وأعطوه محبة أهالها للبيت الاتابكي فلم يفعل وقال يستأين فلان تغدبه وأقام بمحلب عدة شهر ثم سار منها الى الرقة فأقام بها وجاءه رسول أخيه عماد الدين يطلب ان يسلم اليه حلب ويأخذ منه عوضها مدينة سنجار فلم يجبه الى ذلك وبلغ عماد الدين وقال ان سلمتم الى حلب والاسلمت انا سنجار الى صلاح الدين فأسار حينئذ الجماعة ببسليها اليه وكان أكبرهم في ذلك مجاهد الدين قايمار فانه مع تسليمها الى عماد الدين ولم يمكن أنابك عز الدين مخالفتها لتكن في الدواة وكثرة عساكره وبلاده فوافقوه وهو كره فسلم حلب الى أخيه وتسليم سنجار وعاد الى الموصل وكان صلاح الدين بمصر وقد أسس من العود الى الشام فلما بلغه ذلك برز عن آثاره الى الشام فلما سمع أنابك عز الدين بوصول صلاح الدين الى الشام جمع عساكره وسارع الموصل خوفا على حلب من صلاح الدين فاتفق ان بعض الامراء الاكابر مال الى صلاح الدين وعبر الفرات اليه فلما رأى أنابك ذلك لم يبق بعدد الى أحد من أمرائه اذ كان ذلك الامر او نفهم في نفسه فعاد الى الموصل وعبر صلاح الدين الفرات وملك البلاد الجزيرة ونازل الموصل فلم يتمكن من التزول عليها وعاد الى حلب وحصرها تسليها عماد الدين اليه وسبب ذلك ان عز الدين لما تسلم حلب لم يترك في خزائنها من السلاح والا موال شيئا الا نقله الى الموصل وتسليمها عماد الدين وهي كما يقال بطح حماره وكان السبب في تسليمها قال ابن شداد ولما توفي الملك الصالح سارعوا الى اعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك وبما جرى له من الوصية اليه وتخليل الياس له فسارع سائر الى حلب بمداخولها من السلطان فكان أول قادم من أمرائه الى حلب مفاخر الدين بن زبر الدين وصاحب سر ورج ووصل معهم ما من حلف الامراء له وكان وصولهم في ثالث شعبان وفي العشرين منه وصل عز الدين الى حلب وصعد القلعة واستولى على خزائنها ونحارها وتروح أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة المذكورة ثم أقام عز الدين بقلعة حلب الى سادس عشر شوال وعلم انه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجة الى ملازمة الشام لاجل السلطان والى عليه الامراء في طاب الزبادات وروا أنفسهم انهم قد اختاروه وضاق عنده وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايمار وكان ضيق العطن لم يتقدم قاسداً أمر الشام فرحل من حلب طالب الرقة وخلفه ولده ومظفر الدين ابن زين الدين بها فاتي الرقة وله فيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهما واستقر مقايضة حلب بسنجار وحلف عز الدين لأخيه عماد الدين على ذلك في حادى عشرى شوال وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين قلعة حلب قلت ووقفت على كتاب فاضلى عن السلطان الى عز الدين فرخشا وهو نائبه بدمشق ووقفنا على كتابه وعشنا ما تجد من الخبر مرض الملك الصالح واشتد ادخاله واتقطاع الدا خل عليه ثم أشار بتنفيذ عسكر الى جهة أخيه تقي الدين على اظهار قاعدة النصارى القضية الحادثة بين ديار بكر وابن قرا أرسلان والتوجه لفصلها قال (فيكون ظاهر حركة العسكر لهذا السبب المتقدم وباطنها لهذا السبب المتأخر وقد كتب الولد تقي الدين ان يتوجه الى منبج على الظاهر والباطل المذكورين وان يحفظ المعازى ويرابط الفرات ويمنع المعابر ولنا بالاس وقلعة جعبر ومنبج وتل باشروهي وجمهور الطرق بل كلها وقد أوعدنا الى تقي الدين بأن يكون حمام حماه في حلب وحمام دمشق في حماه والى الاجل ناصر الدين بأن يكون حمام دمشق في حمص وحمام حمص في حلب وولدتنا

في اخبار (٢٣) الدولتين

عز الدين يؤمر بأن يكون حام بصري في دمشق وقد بعثنا نجابين يكونون منبجحين بصري فان تحققت الوفاة فحين
سبق اليك من الجواب قولاً وقسلاً ووعداً ونجماً فالعلة مزاحه والعساكر مستريحه والظهر قد استعد
والمصلحة في الحركة ظاهرة ويتقدم المقتدر في هذه القضية ساقطه وقال العباد كان قصد السلطان اصلاح حال
الملك الصالح وانه القائم مقام أبيه فصد عنه مما يليكه فأخذت بلادهم بالجماعهم ومرضت دولته لسوء علاجهم
فاتتبع بحلب الى ان توفي ووصل ابن ٤٦ عز الدين مسعود صاحب الموصل الى حلب لجمع ظاهره وباطنه واخذ
خزائنه واستخرج دقائمه وأخلى كائنه ثم عرف انه لا يستقر به أمر فرغب أخاه عماد الدين زكي صاحب
سنجار في تعويضه له بحلب فقال الى بذله ورغب ولما سمع السلطان في مصر نوافه الملك الصالح فحرك عزمه وندم
على التزوج من الشام مع قرب هذا المرام فكتب الى ابن أخيه تقي الدين وهو يتولى له المعرة وحماه وأمره بالتأهب
للخروج وكذلك سجد عزائم توبه بالشام بتخدير المكانيات لهم ويعينهم على الاستعداد وجعلهم وكان نائبه بدمشق
ابن أخيه عز الدين فرخشاه قد نهض في مقابلة الفرنج بالكرك فان البرنس الكركي كان يحسد نفسه بقصد تيمنا
في البرية فمال فرخشاه في مقابله حتى نكس الناعين على عقبيه ذليلاً ولم يجد الى ما حدثته به نفسه سبيلاً
فعرّف السلطان اشتغاله بهذا المهم فكتب كتاباً يشرح الحال الى بغداد باللفظ العادي يقول فيه (وشاع الخبر
بغارة فرنج انطاكية على حارم وأتوا من السبي والهلب بالعنائم وشاع أيضاً ان عسكر حلب أعار على الراوندان وهي
في عملنا وروسهم عند الفرنج يستجدهم ويعزيم بنا وقد راسوا الحشيشية والمراد من الرسالة غير خاف والعلم المعتاد
منه كاف وابن أخى نائب في أقصى بلاد المرينج في أول برية التجازان طاغية منهم جمع خيل ورجله وحدته نفسه
الخبثية يقصد تيمنا وهي دهليز المدينة على ساكنها السلام واغتم كون البرية معيشة مختصة في هذا العام والعجب
انما نحاش عن قبر النبي صلوات الله عليه وسلامه مشتغلين بهم والمذكور (يعني صاحب الموصل) يزارع في ولاية
هي لنالها أخذها يد ظلمه وكهين من يحارب الكفر ويحمل اليهم قواصم الأجل وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين
ويحمل اليهم كرائم الأموال هذا مع ما نهض في الدولة الخنيزية والدولة الهادية العباسية من آثار لا يهدمونها ولا يبي
مسلم لانه أقدم ثم خامر والى ثمولى ولا آخراً لظفر بك فانه نصر ونصب ثم حو وجب وقد عرف ما فضلنا الله به
عليها في نصر الدولة وقدم من كان يمارع الخلافة رداءها وتظهر المنابر من رجس الأعداء ولم نفعل ما فعلنا لاجل الدنيا
غير ان النعت بشعة الله واجب والتجريح بالخدمة لله ريقه والافتحار بالتوفيق فيها على السجية غالب ولا غنى عن
بروز الامور السريفة الى المذكور بأن يلزم حذره ولا يتجسأ وزحمة فان دخول الأيدي المختلفة عن الأعداء المتفقة
شاغل ويحتاج الى مغرم ينقى فيه العمر بغير طائل فان الاعمار تمرر السحاب والفرص تمض ومضى السراب وبقاؤنا
في هذه الدار المليل اللبث القصير المكث بوزان نغمته في مجاهدة العدو والذى صار به البيت المقدس محسلاً
للارجاس ومضت عليه دهور ومولوك لم يحصلوا من رجاء نظهير ما على الياس وان كان القوم تذبذبوا للدور العزيزة
بدول ما عارة فقد أسلف الخدام خدامات ليست بهوار فانهم لو بدلو بلادهم كماها وافت بفتح مصر التي رحل عنها
أسامى الادعياء الزاكبة أعوادها وأعاد الى عنها بعد يبايض عمايتها من نور الائمة العباسي سوادها فان اقتضت
الامور الشرية ان يوعز لئذ كور في حلب بتقليد فالاول ان يقدد الجميع فرغبة فيما لا يؤمن معه شر الشريك
ولما لك الامر الحكم في ممالك المماليك) وكان في الكتاب أيضاً ما عناه ان حلب من جبهه البلاد التي استقبل عليها المليك
أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله له وأما ركها في يد بن زرار الدين لاجل أبيه والألا في جمع كل الى حقه وليتبع رقه
ومن ذاب فاضلى (فقد صرف وجهنا في هذا الوقت عن جهاد لو كما يصدده وعن فرض لو وصل يومه بغده لكان
الاسلام قد أعفى من شركه الشرك وانعل أهلهم من ريقه أهل الافك ولكنك الاسماء الشريفة قد قرعت منابر
طالما عزلت الصلب خطاياها ولكنك الدين المالص قد خلص الى بلاد صامو المشركون متوطنوها والمسلمون غرأها)
وفي كتاب آخره (وقد علم الله المحدثهم كارهون وفي مصالحة أهل الاسلام وفي مصالحهم راغبون واكبابنا بقوم
كالفراس أو أخف عقولا وكالنعلم أو أضل سبيلاً ابن بنى معهم فعلى غير أساس وان عذ الغدر منهم فهو أكثر من
الانفاس) وفي كتاب آخر (والخدام والجد لله يعدد سابق في الاسلام والدولة العباسية لا يعدها أولية أبى مسلم لانه

مكتاب (٢٤) الروضتين

والى ثم وارى ولا آخرية طغرليك لانه بصم ثم حجر والخادم بحمد الله خلع من كان ينازع الخلافة فتردها وأساس
 القصة التي ذكر الله للاساعة في سيفه ماها فرحل الاسماء الكاذبة الراكبة على المنابر وأعز بتأييد ابراهيم فكسر
 الاصنام الباطنة بسيفه الظاهر لا الأسائر وفعل وما فعل للدنيا ولا معنى للاعتداد بما هو متوقع الجزاء عنه في اليوم
 الآخر ومن كتاب آخر عند دخول صاحب الموصل حلب واسقلائه عليها وكانت داخله في تقليد السلطان السابق
 فقال (دخل حلب مستوليا وحصل بما معتديا وعقودا لخلقها لا تحمل والسيف في أوجه أوليائهم لا تسلم وانه ان فتح
 باب المنازعة أدنى من ندامه وأبعد من سلامه وخرق ما يعي على الراقع وجذب الرداء فلم تقن فيه الاحيلة الخالعة
 وليس الاستيلاء بحجة في الولايات لطالها ولا الدخول الى الدار بموجب ملك غاصبها الا ان تكون البلاد كالديار
 المصرية حين فتحها الخادم وأهلها حيث الجمعية مستريه والخلافة في غير أهلها غريبه والعقائد لغرب الحق مستحجبه
 فتلك الولاية أولى من مفهام فتحها وكان سلطانها من أدخل في كان شيطانها وأما حلب فان الكلمة فيها عالية
 والمنابر فيها بالاسم الشريف حاله فاما تكون لمن قلدها لاسل توردها ولمن بالحق تسلمها لاسل بالباطل تسلمها
 ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها الخادم ولم يشاور ولولجها ولم ينظر ولكنه أتى البيوت من ابوابها واستمطر
 القطار من مصابها) ثم ذكر ان المواصلة راسوا الملاحدة الحشيشية واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين وواسطة بينهم
 وبين الفرنج الكافرين ووعدهم بقلع من يد الاسلام تطلع وضيا عن في المسلمين وضع وبادر دعوة بحلب ينصب
 فيها علم الضلالة فبرقع وبالحجج من الحشم يهدم وله حق وهي تبنيه ومن العبد يني ملكها بنفسه وماله وذوبه وهي
 نراقب اعلاه فيه ودعوا في رسائلهم وغوا لثم ليست بدعوى لا يقوم شاهد لها ولا هي بشناعة لا يهتدى فائدها
 بل هذا رسوهم عند ثمان صاحب الملاحدة ورسوهم عند القمص ملك الفرنج وهذه الكتب الواصلة بذلك قد
 سيرت ولاستيجاب الولاية طرق أما السبق الى التقليد فللخادم السبق وأما العدالة والعدل فلو وقع الفرق لوقع الحق
 وأما بالانار بالطاعة فله فيها مالو لا معونة الخالق فيه لقصرت عنه أيدي الخلق ومتى استمرت المشاركة في الشام افضت
 الى ضعف التوحيد وقوة الاشراك وزامت الى اخطار يحجز عنها خواطر الاستدراك واحوجت قابض الاعنة الى ان
 يعلم الجد دور سبلها العراك وطريق الصلاح والمصالحات الايمان والمشار اليهم لا يلزمون ريقها ولا يوجبون صفقتها
 وكفى بالخراب ناهبا عن الفره ولا يبلغ المؤمن الامر واذا اجتمعت في الشام أيد ثلاث بدعا يدعيه ملة كاذبة
 نهض الكفر بتقليدنه وقصرت عن الاسلام دعيته ولم ينفع الخادم حينئذ تصحيح حسابه وتصديق حديثه وما يريد
 الخادم الا من تكون عليه يد الله وهي الجماعة ولا يؤثر الا ما يتقرب به اليه وهو اطاعه ولا يتوخى الا ما يقوم به الجملة
 اليوم ويوم يقوم الساعة) ومن كتاب آخر (قد احاط العلم بما طالع به أولا عند وفاة ولد نور الدين رحمه الله ان التقليد
 الشريف المستضيء لمواصلة بالبلاد وكان قد فتح أكثرها قلاعاً وأمصارا وحصونا وديارا ولم يبق الا قصبة حلب
 وهو على أخذها عدل ولد نور الدين عن القتال الى النوال وعن النزاع الى الاستئصال وقصد القصد الذي ما أوجبت
 المحافظة ان يتلقى بالرد فاقرو على الولاية فرعا لأصلا ونائبا لاستقلاله وسلم اليه البلاد وبيده الغلبة لا المغلوبه
 وسبوه السالبة لا المسلوبه ومضى الامر معه مستقيما رماثلا وجاروا عادلا ان أنقضى نجبته ولفي ربه فبدأ من
 المواصلة تقض الايمان والابتداء بالعدوان والتعرض البلاد والتصرف فيه بأعسر حجة يكون عليها الاعتماد
 فطالع الديوان بالقضية واستشهد بديلات قوانينه الجلية في هذا التقليد الذي نهاده المحاضر وأشاعته المنابر
 وسيرت الى الشرق والغرب نسخته وغلغلت الأيدي التي تحدثت أنفسها انها نسخته)

(فصل) قال العماد وتوجه السلطان بعد شهر رمضان الى الاسكندرية على طريق البحيرة وخيم عند السواري
 وشاهد الاسوار التي جددتها والعمارات التي مهدها وأمر بالانعام والاهتمام وقال السلطان يغتنم حياة الشيخ الامام
 أبي طاهر بن عوف فخصر ناعنه وصمغنا عليه موطأ ما لك الرضى الله عنه بروايته عن الطرطوشي في العصر الاخير من
 شتال وتم له ولاد ولنايه السماع والوالي يومئذ بها خضر الدين قراجا قلت ووجدت القاضي الفاضل كتابا كتبه الى
 السلطان يهنئه بهذا السماع يقول فيه (أدام الله دولة المولى الملك الناصر صلاح الدين والدين سلطان الاسلام والمسلمين
 محيي دولة أمير المؤمنين وأسعده برحمة العالم وأثابه عليها وأوصل ذخائر الخير اليه وأوصله اليها وأوزع الخلق شكرا

في أخبار (٢٥) الدولتين

لنعمته فيه فانهما نعمة لا توصل الى شكرها الا بابرارعه وأودع قلبه نورانية فانه مستقر لا يودع فيه الا ما كان مستعدا الى ابداعه وثله في الله رحلته وفي سبيل الله يوماء وما منما الا أغر يحجل والجد لله الذي جعله ذا يومين يوم يسفل دم المحارب تحت قلبه ويوم يسفل دم الكافر تحت علمه ففي الاول يطلب حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم فيجعل أثره عينا لا تستر وفي الثاني يحفل لنصرة شريعة هذه على الضلال فيجعل عينه أثر لا يظهر وقد استغرق الناس هم العلماء في ربحهم لنقل الحديث وسماعه والموا لا في طاب ثقتهم وأتباعه وصفوا في ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض لاهم والتنبيه والرفع من اتدأ رأاهم والتنويه فقالوا زحل فلان لسماع مسندة لان سار زيدا في عمر وعلى بعد المكان هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دعوته ووقف عليه فكره فلا يجاذب عنان همته الكثر فما القول في ملك خواطره كتابه مطروقه وأمر خلق الله كاهن وردين به معدوقه اذ هاجر الى بقية الخير في أضيق أوقاته وترك للعلم اشتد ضروراته ووجب له أياما مع اهل في الغزاة يجاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته وما يحسب المسالوك ان كاتب اليه كتب قدام الملك في صلب العلم الا لرسيد دهاور من رحمة الله عليه على انه خلط زيارته بوقته بطلب ورحل يولده الى مالكة رحمة الله عليه لسماع هذا الموطأ الذي اتفقت الهمتان الرشيدية والناصرية على الرغبة في سماعه والرحلة لا تصاحبه وقد كان الرشيد ساما لكارحه الله ان يجعل له ولولده الامين والمأمون مجلسا خاصا لسماع مصنفه فقال له ما معناه انها سنة ابن عمك صلى الله عليه وسلم وغيرك من سرتها ومثلك من نشرها فهذه رحلة ثانية في الزمان وأولى في الايمان بكتبهم الله لملوئى بقلم كاتب اليه ويقوم فيها مقام الرشيد ويقوم عليه وعظمائه مقام ولديه المأمون والامير وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالكة رحمة الله عليه في خزانة الكتب المصرية فان كان قد حصل بالخرافة الناصرية فهو بركة عظيمة ومنقبة كريمة وذخيرة قديمة والا فليكتسب وكذلك خط موسى بن جعفر في فتيا المأمون رحمه الله كان أيضا فيها وكلاهما يتبرك بثلثه ويعلم به فضل العلم لخل المولى بأقائه الله من فضله وقف المولى على ما يشربه من صنع المولى وتوفيته وصحة مزاجه في طريقته وانقطاع ما كان من دم واسترواح القلب من كل هم وقد استفتحت هذا الطريق بكل قال مباركة البكر والفال مأثورة عن سيد البشر فمن ذلك صحة جبهة فلتنه العصه وصحة قلبه دامت له الفصحى وانقطاع الدم وطريقة الى الشام يتقدمها الدم ويتصل النصر له وينتظم السلم وأخرى انه رحل الى الموطأ رحم الله مالكة ورحل فيما يطلب من الشام الى الموطأ أسعد الله به مالكة والله تعالى يحقق الخير ويبارك لملوئى في المقام والسير ان شاء الله قلت هكذا يقع في كتب الفاضل رحمه الله كثيرا وهو لا يخفى ما بالادعية متصلة بقوله ان شاء الله والتعليق بالمشيئة غير لائق بالادعية ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي ان شئت اللهم ارحمني ان شئت اللهم ارزقني ان شئت ليغزم مسئلته فانه يفعل ما يشاء لا مكره له

(فصل) في أمور تتعلق بولاية اليمن في هذه السنة قال العماد كان الامير محمد الدين سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ نائباً له من الدولة أخى السلطان يزيد وحصل له من أموالها الطريف والتلبد ثم ابتاع من السلطان الناحية المعروفة بالعربية بجمصر لما عاد اليها وبقي أخوه حطان بن يزيد واليا عليها فضع دعوة عظيمها ذكر العماد انه حضرها هو وغيره من الفضلاء الاعيان فبينما هم عنده في أسرحال اذ أحدق بهم الامير به الدين قراقوش فقبض على سيف الدولة واعتقل بالقرص وكان سببه ان أقارب السلطان وخراصة اكثر واعليه عنده انه استوعب مال يزيد وان له كنوز الاتييد وأشاروا عليه بقبضه وهو يدافع عنه الى ان أكثر وأوقيل فيه ان لم نذكره فأت فأمربه فاعتقل فسمع للسلطان خاصة من النقد المصري بمائتين ألف دينار لم يظهر فيها بيع متاع ولا تدانته من تجار وغرم لاخوى السلطان العادل وتاج الملوئى ما حافظ به على نفع الكرم المسالوك وخرج مشرفا مكرما مصر فاحتزما وزاد السلطان في تكريمه وانفذ اليه باقبضه منه خط يده بأن المبلغ دين في ذمته ثم باعه املا كاجمصر بتقدير ثلاثين ألف دينار وبذل له كل ما طلب عن ايشار واختيار وزاد في اقطاعه وبارك الله له في أشيائه وأتباعه قال العماد وكان هذا الامير من راحة عنقه وحصافة فضله ما سمعت منه شكوى ولا حكاية في بلوى وقتل أخوه حطان بن يزيد وأخذماله فلم يظهر منه لالسلطان كراهه وكل شئ من زناه ونسبائه قال وكان لما توفي الملك المعظم شمس الدولة أشفق

مكتاب (٢٦) الروضتين

السلطان من نوابه باليمن وذكر ما بين ولاته من الامن والعدل الحبر بما يجري بين الامير عثمان بن الزنجبلي والى عدن وبين الامير حطان والى زيد من الفتن فندب الى زيد عدة من الامراء لحفظ البلاد واصلاح الامور التي يخشى عليها من الفساد ومن جعلتهم والى مصر صارم الدين خطيبا وبقيت الولاية له بها في غيبته يقوم بها نوابه ويرجع الى رأى أهلها أصحابه فسرعت زوجته في عمارة دار هنيئة سنة وذكر العماد انه حصل له ولغيره من الاعداء بها ضيافة جليلة فتناقشه وقال ابن أبي طي كانت نفس سيف الاسلام طعنت في أخى السلطان تنسب الى اليمن من حيث مات أخوه شمس الدولة ويشتهى ان يصير اليها فامر ابن سعدان الحلبي ان يعمل تصديعة تعرض فيها بانفاذ سيف الاسلام الى اليمن فعمل التصديعة التي يقول فيها

جرد لها السيف النصيف فتنة * فالسيف لا يذخر الا لافتن
شد به أزر العلي قائد * نعم فتى من شرع الجود ومن
القائل المسموع في معاله * والصادق الندب الامير المؤمن
بادى القواد كى فما سيرته * حس الى دار الوعى ثمان

وفيها يقول

يا ابن الكرام الجباء والذى * تلقف العلماء فيها ولقى
لاتعد عينك عن المذخ * يخاف العلماء الامن ومن
قد فسد الملك وقد طال العدى * واقتسموا بعدك اموال اليمن

قال فلما سمع السلطان هذه القصيدة اذن لسيف الاسلام فى السير الى اليمن وقال العماد فى هذه السنة تفرم مع سيف الاسلام ظهر الدين طعنت في أيوب ان بعضى الى بلاد اليمن وزيد وعدن وان يقطع بها الفتن ويتولاهما ويولى ويعزل ويحسن ويعدل فصار بعد مسيرنا الى الشام وجرى مملكة فيها على أحسن نظام وذلك فى سنة ثمان ووصل الى زيد وحط حطان عن رتبته وأمنه وطمنه ثم اذن له فى الانفصال الى الشام فجمع حطان كل ماله من سبد ولبد ومطرف ومنلد واليمن وعسجد وباقوت وزبرجد وآلات وعدد وحصن وحجور عراب ومال اعتقده من اليمن بغير حساب ثم أراح جماله ورحل عليها حاله وقدم قدامه ائقاله وظن ان نجاة وفاز وركب الاوفاز فرداه اليه ليودعه ثم يشيعه ويركب معه فلما دخل عليه اعتقله وسير وراءه ماله من أقتله والى خزائنه نقله ثم أنفذه الى بعض معاقله فحبسه ثم قتله وفيما ذكر السلطان من خبر ذهابه وماله الداهب ما يعجب بحصر تفاصيل جملة أهل الحاسب ان يفا وسبعين غلاما من غلف الزرد كانت هلمه بالذهب الاحمر المنقد وقوم المأخوذ بقيمة ألف ألف دينار وأما صاحب عدن الامير عز الدين عثمان بن الزنجبلي فانه لما سمع بسيف الاسلام توجه الى الشام قتل ولهذا الامير أوقاف وصدقات بمكة واليمن ودمشق فاليه تنسب المدرسة والرباط المتقابلان بباب العمرة بمكة والمدرسة التي خرج باب توما بدمشق رحمه الله ومن كتاب فاضل عن السلطان اليه (البلادك فيها عدة سنين وأنت فيها مؤتمن على مال الله فاده الى من يجاهد به أعداء الله ويقم به كلمة الله ويحفظ به البيضة ويذب به عن الملة ويقاقل به أعداء القبلة ويضرب بالاسدادين الكفر والاسلام وينصب وجهه بين المعجبر والزاهر رعا ما فى أشرعهم وانظرب منك الباطل الذى لا يجوز لئان نظبه ولا لئان تدفعه ولا تريد الا الحق الذى لا يحل لئان تركه ولا لئان تهمه)

(فصل) فى ما فى حوادث هذه السنة قال العماد فى هذه السنة وصل السلطان من دمشق الى حطيم المزة وكان قد زور على السلطان مثالا يتنص له منالا ورفع الى عز الدين فرخشاه فاخفى تزويره عليه وهو بالايقاع به فقصده السلطان بمصر واطلعه على حاله فلما اكثرت به وقال تحقق ما زورت وأمر ان يكتب له توقيع يضعف ذلك الادرار قال وكان له امام يصلى به وهو يكتب مثل خطه فاطلق به اموالا واسلح وأنجح بتزويره لاصدقائه احوالا وما يشك صاحب ديوان ولا متولى خزانه فى انه صحيح فلما دام سيرا انكشف وشارف التلف وجلس اخوه السلطان وأمر اؤده عنده بفرغ به فقلت له يا العجيسرا انته لقرآن فقال نعم بنفس من خناقه وأمر باطلاقه وأبقى عامه خيره حتى استبدل به غيره وصار بعد الله عادل اماما وبقي شغله معه مستدما قال وفيها غدر الفرنج ونقضوا عهدهم واستولوا على تجار فى البحر

في اخبار (٢٧) الدولتين

وغيرهم وسهل الله تعالى بسلطه علم عظيمه من المراكب الفريجية مقلعة من بلد لهم يقال له بوله تحتوى على الفين وخمسة مائة نفس من رجال القوم وابطاهم فالتهم الرج الى نغرد مباط ففرق منهم الشعار وشمل الباقيين الاسر فحصل في الاسر منهم زهاء ألف وسثمائة وست وسبعين نفسا واتفق ذلك امام الاثتمام بالمسير الى الشام قال ابن أبي طي وفيها ولد للسلطان الملك المعظم تورانشاه والملك المحسن أحمد بينهما سبعة أمم وواصل الفرج بهم أربعة عشر يوما وفيها دار قراقوش الى افرقية فاوشل في بلاده واوتنهب ما قدر عليه وحارب عدو كرام ابن عبد المؤمن بالفرج وان ثم بلغه ان ابراهيم السلاج دارا تحتوى على أهل قراقوش وبلده فرجع اليه فهرب ابراهيم وسار الى خدمة ابن عبد المؤمن وملك قراقوش ما كان بيد ابراهيم قال ابن القادسي وفيها عشيبة الخنيس ثامن شعبان توفي الامام كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي السعادي الباري النحوي وكان فقيها نحوي زاهدا عابدا حسن العيش صبور على الفقر وكان يسرد النصوص ولا يقبل من أحد شيئا وكان يحضر في نوبة الصرعية بدار الخلافة المعظمة في الوقت فينفذ اليه بالشرىف والذهب فيعيد ولا يقبله وكان يحتمد به الوزير ابن رئيس الرئسا ان يقبل لولده شيئا فا كان يفعل وكان بغير على الخبز الحنككار ويتباع برغف أرز او ماشا وكان يابه معتدحا طالبي العلم لهم لوجه الله تعالى وكان اذا أحضر أحدهم في المصيف من وحدة يترجحها فاذا خرج يقول له خذ مني وحتمك معك فيجتهد به ذلك ان يجعلها عنده الى غد فها يفعل و نصف تصانيف كثيرة ودفن في تربة أبي اسحاق الشيرازي رضى الله عنه قلت وفيها توفي ناصر الشعرا ابن الذروي وهو أبو الحسن علي بن يحيى المصري وسنة حول الاربعين وتقدم من شعره في حج الفاضل وفي مدح ابن منقذ وغيرهم من ثاريف شعره قوله في أحدب

يا أخى كيف غيرت الاليالى * كيف حالت ما بيننا بالمحال
حاش لله ان أصافى خلا * فبرأى في ودهدا اختلال
زعـ واننى آتيت بهجـو * فيك نغمة بسم حلال
كذبوا انما وصفت الذى خـ * ت من النبل والسناو الكمال
لاتصن حذبة الظهور عيبا * فبى الحسن من صفات الهلال
وكذلك القسي محدوبات * وهى انكى من الذاب والعوالى
ودنانى القضاة وهى كانهـلم كانت موسومة بالجمال
واذا ما علا السنام فقيهـ * لقروم الجمان أى جمال
وارى الانحاء فى مشرالىـ * كاسر يلقى ومحب الريال
وأبر الغص أنت لا شك فيهـ * وهروب النوام والاعتدال
قد تحللت بالحناء فانت السـرا كع المستقر فى كل حال
وتحللت حمل وزرك فى الظهور فاه فى موتف الاحوال
ان حمل الدنوب اهلون فى اللهـسيما على انه من الاشمال
ككون الله حذبة فيك ان شئت من الفضل اومس الافضال
فانت ربوة على طرد حلمـ * منك اوموجة بهجر نوال
مارأتها النساء الا تمتـ * لو غدت حليلة لكل الرجال
عد الى ودنا القديم ولا تصـغ لقبل من الوشاة وقال

(فصل) في عرد السلطان من الديار المصرية الى الشام قال العماد سعدنا من الاسكندرية الى القاهرة في ذى القعدة وشرع السلطان في الاستعداد لدمر الشام فجمع العساكر السلاح واستمحب نصف العسكر وأبقى النصف الآخر يحفظ ثغور مصر وأمر قراوش باتمام الاسوار الدائرة على مصر والقاهرة قال وكان السلطان عشيبة نوديعه لاهل مصر جالس فى سراة هوكل بقدة بيتا فى الوداع فاخرج أحد مدوبى اولاده رأسه وانشد مظهرا لفضله ورافعا به مدبه

كتاب (٢٨) الروميين

تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار

فلما سمع جلدنا طاه وتبدل بالانقباض انبساطه ونحن ما بين مغضب ومغض ينظر بعضنا الى بعض ولا يقضى
الحجب من مؤثر ترك الادب فكأنه نطق بما هو كاش في الغيب فانه ما عاد بعددها الى الديار المصرية حتى اتصل
بفتح أني الى المنية قال ومن جلدت سبع المعالجين في القول ما حكا ذلكنا شيخنا ابو محمد بن الخشاب قال وصلت الى تبريز
فاحضرت يوما رايته في حافى داره وأجلس ولده ليقرأ بعض ما تلقنه على فقلت فرخ البط ساج فقال معله وكان حاضرا
نعم وجرو الكلب نايح فخلعت من خطأ خطابه واذابه على دابه في سوء آدابه ومقصوده ان يذكر قرينه ولا يبالي
بعينه فبررة ام يحبسها ودأب أدباء اولاد الملوك لاجترانهم على أعزة اولادهم الاجتراء على الآباء ويحتمل ما يصدر
منهم لغزاة الأبناء وانما يصلح لمجالسة الملوك من يخفظ في كلامه ويحفظ حتى في منامه

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين فقال العارذ في المحرم منها دخل السلطان من البركة قاصدا الى الشام ولم يعد بعدها
الى مصر حتى أدركه الحماهم وأخذ على طريق صدر وائلته في المفاز فبات البوب ثم كانت منازلة على الحسار
ووادى موسى وحشا وصدرو بعد خمس ليال وصل عقبة ايلة وهناك سمع باجتماع الكفار بالكرك لقصد قطع
الطريق فاحترز بحفظ الاطراف وانحاز بحمي ثم عقبة ستار ثم القرينين وأغار في تلك الايام على اطراف بلاد العدو
ثم تجرد السلطان في كجته وسلك بهم سميت الكرك الى الحسار وأمر أخاه تاج الملوك بوري على الناس وأمر بهان يسير
بهم عنه منه ثم اجتمعوا بالسلطان بالازرق بعد أسبوع وصل الخبر بنظر الملك المنصور عز الدين فرخ شاه قال العارذ
ويقلب أيضا معز الدين بما غنمه ايضا من بلاد العدو وذلك ان الفرخ لما سمعوا بمسير السلطان من مصر ومعه
خلق من التجار اجماعا بالكرك للقتال من الداريق لعاهم ينتزون فرصه فيقتذرون من القافلة فقتله فخرج
فرخ شاه من دمشق واغتم خلود يارهم فاعار على بلاد طبرية وعكا وفتح دوريه وجاء الى حبس جلدك بالسواد
وهو شقيف يشرف على بلاد المسلمين ففتحهم واسكاه المسلمين فبقي عينا على الكفار بعدما كان لهم ورجع
بالاسرى والغنائم مظهر منصورا ومعه ألف أسير وعشرون ألف رأس من الانعام ثم وصل السلطان بصري ودخل
دمشق سابع عشر صفر قال وفي العشر الاول من شهر ربيع الاول خرج السلطان وأعار على بلاد طبرية وبيسان
والصميم بينهم القتال تحت حصص كوكب واستشهد جماعة من المسلمين ولكن كنت الدائرة على الكافرين ورجع
السلطان بمجد الله ظافرا وكتب المائل العارذ الى الديوان (كان الخادم طالع بخر وجهه من مصر طالب بالفرقة المروضة
والمسافة بين مصر والشام ليس برفق في المسير لا تقصر عن ثلاثين يوما فخذ الفرخ ووزر لوال الكرك على ارجاف بالمصاف
ولم يزل الخادم على مداومة الاعمال الى اوساط الاعمال فحل بهاوش الغارة فابعد واذكى النار فاوتد وطلب الماء المحي
أزرقه بازرقه - ثم فاورد وفك دم الحطب بالنار وأخذ وفيها عدل السيف الجار بالجار وعلم ان الفرخ قد نسلوا الواد
وتعللوا بالحصون احتجازا ولياذا وانهم لا يبقون الا في قرى محصنة ولا يقاتلون الا على نجاة متيقنة وسرح الخادم
الى تلك الدار واستقر لها من كل فرقة منهم طائفه وساروا في طريق على العدو غير خافية ومنهم غير خائفه وركب
هو وجبة الاسلام الحماهم التي تستنض ارواح الكفر الى نار الله الحماهم وسلكت البلاد المؤدية اوديتها الى سمول
الشرك الطاميه وسيوف الضلال الداميه فجنموا جثوم الكسير وجذعوا أنف الاف جذعا قصر فيه رأى قصر
وجاز الخادم المسافة المبالغة لهم التي كانت تجاز في يوم واحد في أيام واورده عليهم طيف الخوف غير لابس ثياب
الاحلام ويسر الله الوصول ورفاب عصبة الكفر تكاد تنموث عليها راقها وعيون الاعيان منهم قد قهدها للذل
أطواها وتوجه يوم الاثنين سابع شهر ربيع الاول ونزل امام طبرية ليلية الثلاثا ناسع عشر ربيع الاول فجاءه
الخبر بان الفرخ رحل الى ليل ركب وجلا ولبسوه سترادون اللقا مسبلا وأصبحت الاطلاب الاسلامية طالبة الاردن
وأشرف عليهم الملوك فرخ شاه وكان على ميرة الالام فانخرج منهم من أخرج كفا ولا تظرف منهم من اجل طرفا ولا
ركض طرفا ولم يزل الخادم مقبلا ينادي للفرج الصم الذين لا يسمعون الدعاء الى ان طوى النهار لانه مستد عليهم
كلانا فانه رعى ما بينه وبين مناسبة وجوههم ومخافتهم بسواده ولأن الليل يدعى كافرا فهداهم ونجاهم في فؤاده
وانبرى لهم من المائلك ذووسهم كل رمية منطاعته وكل انه من قوسها تجاوبها الحين انه فاستخرجوا عمار كنانهم

في اخبار (٢٩) الدولتين

وقصدوا بها ضما نضغائهم فرت كأن التوفيق يقودها الى حيث أمت فاماتت وطارت جرادا نرى زرع الحياة
فبنت وما أبانت ولم يروا مضاجع ذوات حسك كضاجع حسكها السهام ولا ليلة لهم ذات أحلام كليلة حلمها بقظه
الجمام وأصانت خميلهم صواحبها وتعلت نصالهم بدعها فكأنهم في ظلماتها كواكبها فلما انشق الصبح غيظا من
شفاق كفرهم شوعدا وانار ابن من حصنم الذي كانوا اليه آوين وطالتي التباعد عنه الى حصن الطور الذي كانوا اليه
ناوين فاساقت اليم اطلاب الميرة بحجة المملوك فرخشا وساق المملوك عمر من المينة طالب الحومة القتال فروا والخطة
عليهم متضايقة وشهادات البلاء الى فتهم متناسقة وأزل الله النصر من سمائه على مطيعه في أرضه ومنع نافلة
الموهبة لمن قام في الجهاد بفرضه وتوالت من الفرج حملات الجأهم اليها الاضطراب لا الاختيار وثبت من دنا منهم من
المسلمين من الاطلاب ولقوهم وهم الاعداء لبقاء الاحباب وتعاثت لغير الوداد فصارت أيديها أوشحه وطارت الى
أقرانها فصارت أرجل الخيل لها أجنحه وصرعت للفرج أبطال وخياله وتمت الحملة الاسلاميه على من كان وراءهم
من الرجاله فخذل القتل كثيرا وتلازل ك وفرت روح الكافر من الحسد وعلت النار به سلك والجأهم البلا الى حصن
يعصرف بعصره بلا وسع الخوف منه ما هو ضيق وتعلق بالحياة منهم من هو متعلق ولم يتصرف صدور الخيل دون ان
اعتقلتهم في سجنه وأنتم به فصاروا قرا في أذنه وكان ذلك اليوم من الايام الذي اضطرمت فيها نيران الحميم ارتياحا
لأن قدمهم من أرواح الكفار وكان قائم الطهيرة في الثورة دمع من استقام عودة المغار وموردا الماء بعيد من غريمه
والرى ولوانه من حميم أجاب الى المرء من حميم خالت الجفون داني الماهل متفرقة عليها ومنصرفه اليها وحاقه بها من
حواليها وأذن الكفار بالحضر والندى من الاحجار والاعتماد على المطاولة والاضحار والاستعصام بما لا يطاق
من أنفاس المجبر الجزار وبات الحساد والمسلمون على الحسد المذكور الذي باتونه نارين قد حرقوا من أحوال اللقاء
ما كانوا يجاهلين وفعل الله سبحانه وتعالى في هذه الثوبة ما عواقيه مسفرة عن المراد ودلائله محقة لقوله تعالى
لا يفرزك تغلب الذين كنروا في البلاد وان الكفر مذهبهم فائمه والشام مذلة ظالمه لم يعبر أحد من ولاء الامر هذا
الجدا لا على حين غفلة من أهله ولم يواجه الكفر وهو يتجمع في خيله فضلا عن رجله ولم يهذد العدو بضرب مصاف
الاواست كانت العزائم تهديده ولم يجمع أمره على اتقاء الاصره عنه الامر يصرف ذهبه لاجبيده فاما الآن فقد
أنس المسلمون بحربه وتمرتوا بحربه

(فصل) في مسير السلطان الى بلاد الشرق مرة ثانية قال العادثم ان السلطان عزم على المسير الى حلب وبلغه ان
المواصله كاتبوا الفرنج ورغبوهم في الخروج الى الثغور ليشغوا السلطان عن قصدهم فتنوجه على سمع بعلبك
وختم بالبقاع وكان قد واعد اسطول مصر ان يحجز الى بلاد الساحل فبلغه الخبر انه وصل الى بيروت فبادره السلطان
بمسكره جريده قبل ان يفوت فلما وصل رأى ان أمر بيروت يطول وكان قد سبى الاسطول منها وسلب وظفر
من غنيمتها ما طلب فأغار السلطان على ثلاث البلاد ورجع وأعاد فرخشا الى دمشق ورحل الى بعلبك ومنها الى
حماص فخرج الفقيه المذهب عبيد الله بن أسعد بن الدهان وله في السلطان مدائح منها قصيدة أولها

أعلمت بـعدك وفقتي بالاجرع * ورضي مملوكك عن دموى الجمع
مطرت غضا في منزلتيك فذلوا بها * في أربعم ومؤججا في أضلع
هل يعلم المتخملون للنجعة * ان المنازل أخصبت من أدمعي
دعني وما شاء التلذذ والاسى * واتصد بولمك من طبعك أوبى
لا قاب لي فاعى السلام فاني * أودعته بالامس عند مودعي
قل للنجيلة بالسلام فوزعا * كيف استجبت دمي ولم تتورعي
وبديعة الحسن التي في وجهها * دون الوجوه عنانية للبدع
ما بال معتمر بربعك دائبا * يقضى زيارته بغير تنمع
ومنها

ووعدتني ان عدت عود وصالنا * هيأت ما أتيت الى ان ترجي

كتاب (٣٠) الروضتين

هل تسمعين سبيل أميرنا نائل * ان اشتكى وجدى الديك وتسمى
فتيقبني أنى بحبك مغرم * ثم اصنعي ما شئت به أن تصنعي
ومنها

عنى الربيع الجون ربعا طامنا * أبصرت فيه البسدر ليلة أربع
ولو استطلعت سقيته سبيل الغنى * من كفى يوسف بالادر الانفع
ييسدى فتى لو ان جود يمينه * للغيث لم يك مسكاً عن موضع
فاذ تيسم قال يا جـ ودأ ندق * فبضاً يا صهب الندى لانهلى
واذا تم قال يا أرض ارجنى * بالصاهلات يا جبال ترعزى
واذا علا فى المجد دأ على غاة * فالت له اللهم الجسام ترفع
كم وقفة لاني الوعى بمودة * أبدأوكم جوداً الموضع
والناس بعدك فى المسكارم واندى * رجلان اما سارق أو مدعى

قال ثم رحل السلطان الى حماه واستعجب معه ابن أخيه تقي الدين فلما قرب من حلب أقبل مفر الدرس كوكبرى بن
على كوجك صاحب حران حينئذ فاجتمع بالسلطان وسار في خدمته من جملة الاعوان وأشار عليه ان يعبر الفرات
ويجوز ماوراها ويترك حلب الى ما بعد ذلك لئلا تسغله عن غيرهما فاستصوب السلطان رأيه وعبر الفرات
وقال القاضى ابن شاذانزل السلطان على حلب فى ثامن عشر جمادى الاولى سنة ثمان وسبعين فأقام ثلاثة أيام
ورحل فى السادس والعشرين منه بطاب الفرات واستقر بالمال بينه وبين مفر الدرس ابن زين الدين وكان صاحب
حران وكان قد استوحش من جانب الموصل وخاف من مجاهد الدين فالتجأ الى الانان وعبر اليه فاطع الفرات
وقوى عزمه على البلاد وسمل أمرها عند قعر الفرات وأخذ الرها والركة ونصيبين وسروج ثم شحن على الخابور
وأقطعه وقال ابن أبي طى فى أول السنة أرمم مفر الدرس بن زين الدين وكان اليه شحنة حلب الاستيلاء على قلعة
حلب بأن يهجمها فلم يتمكن ونظر أمره بعد هذه الواقعة اجتمع الاخوان عز الدين وعماد الدين على الركة وتحالفوا
على بساط واحد وسلم عماد الدين ما كان يهدم من سنجار وغيرهما الى عز الدين وسلم عز الدين اليه حلب فسار اليها
ودخلها فخر مفر الدرس عنها وصار الى الفرات فلما اتصل به قصد السلطان حلب سار الى خدمته واجتمع به على
جسب التركان وأشار على السلطان بعبور الفرات والاستيلاء على بلاد الشرق وتأخير أمر حلب ففعل ورحل عن
حلب بعد ان أقام عليها ستة أيام وأقام على تل خالد ثلاثة أيام ثم رحل الى البيرة وفيها شهاب الدين محمد بن الياس
الارتقى فنزل اليه وقبل الارض بين يديه وسأله الصعود الى قلعة البيرة فأجاب وقدم له مفاتيح القلعة فردّها اليه
ووعده باستخلاص ما كان صاحب ماردين قد فعله ورحل السلطان الى سروج فنزل اليه صاحبها ابن مالك مستأمناً
فأعاده الى بلده وراسل صاحب ماردين فى رد ما كان تغلب عليه من أعمال البيرة ففعل ثم أخذ الرها ثم الركة ثم سار
الرها الى ابن زين الدين والركة الى صاحب الرها لانه سأل ان يكون فى خدمة السلطان ومن كتاب فاضلى
عن السلطان الى عز الدين فرحشاه يعلمه الحال وفى آخره (ولتجمل بحمل ما هنالك من الاموال فكلمنا ففتح البلاد
أبوابها ففتح الماطم أعفواها واستوعبت الخزائن اخرجوا نفاقا واستغفد الحواصل اعطاء واطلاقا وقدمنا
على بحمر لاسده البحر وعلى أيدان كن بها الغنى فى أنفسهم الفقر) ومن كتاب آخر الى العادل (يعلم مقدار الحاجة
الى الانتاق وكثرة الخرج الذى اشترك فيه أهل الآفاق واندمتى نصبت المواد وقت الامور التى قد اشرقت نهايتها
ونفرت المجموع التى تسادرت الاعاءة نكاتها وما دون تلك البلاد الا الوصول اليها والتزول عليها) قال العادل
وقال مفر الدرس للسلطان ما زلت شوقا اليك فى حران حران والى الرى مى ورد خدمتك ظاناً وهى لك بسدوله
وبأولئك من أهل الدين والدينا ماء هوله والى هالا يعسر أمرها والركة لرك وبعض حقت والخابور فى انتظار خبرك
ودار دارك ونصيبين نصيبك وملك الموصل موصلك الى الملك وماخذ أوانا فادن الينا وكل بعيدة دننا قال
ووصل البحر الى الفرات وخيم عليها من غربى البيرة ومذ الجسر وكانت البيرة قد طمع فيها صاحب ماردين واستولى

في اخبار (٣١) الدلتين

على مواضع من أعمالها فلما سمع بالسلطان تحلى عنها فأعاد اليها صاحبها شهاب الدين محمد بن الياس الارقي وكتب السلطان بالتمثال العماضي الى الديوان عند عبور الفرات كتابا بافتقاط ولا يقبل فيه (خدم الخادم متواليه الى الانواب الشريفة خلده الله سلطانه اشار الى احواله ومعنديها من صالح أعماله ومتوقعان الاجوبة عنها ما ينبغي فله من أمره رسدا ويفرق الاعداء اذ كادوا يكربون عليه لبدا فان الاراء العسرينة لم تفصح عنها الانساآت وتحتنها الاجابات والابنداآت لفحفت عنها موالاة الخادم التي استفتحت الدولة بعقائال الفتوح قبل خطبتها وردت الاسماء الشريفة الى أوطانها من المنابر بعد طول غربتها فتلک الاعمال كالجمرة واكمل مهاجرها هاجر اليه ونية المراء ثوبه فلا يلبس الا ما خلعتة النية عليه وكتاب الخادم الان من البيرة بعدما قطع الفرات وكان من لا تقرب عليه الغرائم ما هو بعيد ولا يلقى السمع وهو شهيد بظن ان سكر النبل يحول الفرات بينه وبين قصده وانه ينسى عزيمته رايه اذ اذكر طول مدته وهول مدته وكيف ما كان هذا المخرج قد أحسنت الى الخادم اساءته اليه وقربه من محل دار السلام بل الاسلام فاعا كثر ما قال السلام عليه واستشرف خنائه من جنابه امنا وذرأ اوجبهتم الموالاة والمهاجبة وطالعت عينه أنواء وانوارا تنسب اليه بركاتها كل سمحائه وكاد ينزل عن السروح والا كوار ويقبل الثرى لا جمل شرف الجوار ويسند عذلة ماء الفرات لانه يمر بتلك الديار ويقرأ من صفاته صفاء تلك الخواطر العظيمة الاخطار ومن عذوبته عذوبة ذلك الانعام الذي هو أهم وأغنى للاقطار من القطار وتنوذر دار السلام من منزلته فادناه النظر العالي واسلفه ماله حوز الفوز بما قرب به نجيا من قربه والا مال أمانى والله تعالى يشرف أرضا هو واطمها ويرعى سر وحاهو كالها وبسعد به امة هو بارها باطاعة من هو بارها ولما تحقق الخادم ان المواصلة قد واساها الفريخ مواصلة أخضر وافيا الضائر ولم يستطع عوافيها كتمان السرائر وخسبتم خطوط الايدي المتتمكة بعصم الكوافر وعقد واعمهم عقد أنه قد من هو حاضره ونقله الى من سمعه من هو ناظره وكان عقدهم احدى عشرة سنة والمستقر لهم في كل سنة عشرة آلاف دينار على ان تسلم نفور المسلمين الى الكدار منها بياض وشقيف ترون وحبيس جلدك وأسارى الفريخ في كل بلدة بأيديهم وفي كل ولديسترجعون من الخادم مساعده الفريخ ولما تم لهم هذا العقد وجعلوا الى الفريخ ذلك النقد ظنوا ان الحق يجادله الباطل فيمدحضه وان يدالكفر تنبسط الى الاسلام فتقبضه وان الخادم لا يمكنه أن يتوجه اليهم الان لا يكون للفريخ سلما ولا يستطيع أن يقسم العساكر فيجعل بازاء الفريخ تسما ويازانهم قسما وعلموا على هذا الوهم وبنوا على هذا الحكم استمضوا الفريخ على تناقل الخطوه واستخرجوهم على ما به من كوامم الغزو بعد الغزوه فحما ملت أرجل الكفار على ظلعها وخرجت على طامعها الى قعرها وانفتقت في رجائها لاجلاد اليهم جاجرت الى الاسلام جيشا جازوا من يدعى الاسلام لفظا وبغارقة حكما وتواعد المواصلة مع الفريخ ليطلبوا ولاية الخادم من جانب ويطلبها الفريخ من جانب ونظر وافيا يوصل المشاة الى الخادم ولم ينظر والا سلام في العراق فوصل المواصلة الى نصيبين محمد بن محمد بن وحر كوال الفريخ للخروج الى الشام متطرفين ومتوغلين فلاجرم ان أمر اعيانهم وخواص صاحبهم لم يسعهم المروق من الدين والاحترج عن امره الموحدين فارضوا الله باسخطاهم واشفقوا على دينهم اشفاقا قائل على تحرزهم له راحة يطاعهم فاتبعوا الحق وسلوكوا سبيله ورفع لهم الهدى مناره فاقفة نواديله لاتمدقوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله فاستعان الخادم عليهم بالله الذي استعانوا على دينه باعدائه ولما رأى انهم قد أموا النصر من أرضهم أمهه من سمائه قربت الخادم في رأس الماء بدمشق بازاء الفريخ المملوك فرخشا دابن أخيه وأبقى عسكر الشام وحاميه فيه واستتمض أخاه من مصر الى ما يليه من بلاد الكفر فنهض وقام الخادم بما أقامه الله ولله عز وجل بما فرض وسار الخادم بالعسكر المصري الى هذا الجانب الذي هو الآن فيه وكان أسره يكفيه وتناقل في الطريق انتظارا لان يأتيوا البيوت من أبوابها ويفرجوا عن الولاية أيدي اغتصابها ويعتدروا الى السيف بالسنة يشقى على رفاها فأبوا الا الاياه وراوا الملك ارثا ما ادعوا فسه تقليد الخلفاء بل الاياه ولما قرب الخادم من الفرات وصل اليه صاحب حران ابن زين الدين على كوجك ومقدم عسكرهم وابن أمير معشرهم وكذلك صاحب سروج وصاحب البصرة وكل بيده مفاتيح بلده وأماه أمان الخادم له قدما قدما له من مقلده ووراءه عسكره على كمال عدده وعدده وتواتت كتب أمر انهم الذين يأخذون اقطاعاتهم خداما ومصانعات وزعياهم الذين يأخذون أدوالهم جبايات

كتاب (٣٢) الروضتين

ومقاطعات ومكوسا وعشور واحتكارات يرغبون إلى الخادم في الانفاذ ويحسونه في المسير على الاغذاذ ويشكون انهم مع جواردار الخلافة المعظمة لا يسلك فيهم سنننا ولا يفتق فيهم شرائعنا وسنننا ونمى إلى الخادم من تفاصيل المغارم التي تلتزم الفريقين وبعدلها عن قصد الطريقين ما روع السامع ويسمع الزائع ويسجل عليهم بالخلاف ويشهد لهم بالانحراف لانهم ان ادعوا تقليدا فقد تفضه كونهم ابتدعوا وما اتبعوا ونقضوا وما اقضوا ومثلوا بالحق وما مثلوا وأمر وأكف الأيدى وقد بسطوها وبأخذ الاموال من حلها وقد خطوها وبرعاية أمة النبي صلى الله عليه وسلم وقد انحطوه فيها وانحطوها وابن الدعوة العباسية من رعاها لا من ادعائها والعهود وصايا وما الأولى بها من سمعها بل من عاها وأى عهد بل لا عهد له بالطاعة وأى ولاية أمور بأن يجمع أهل الفرقه ففرق أهل الجاعة فالجندى توكل الأرض باسمه ولا شيء بسده والعامى يرفع إلى السماء استغاثة ما لا يهمل الله عليه ولقد أعجب الخادم من اشتغاف النفس الغنسة الانها فقيهه والارتفاق بذلك الذم الجليسه وهى على الحقيقة الحفيرة يوم يحى عليها في نار جهنم فتكوى بها أجباهاهم وجنوبهم وظهورهم إلا بهذه إلى طاعة أخرى لا تقر عليها الجنوب ولا تدر عليها الخلوب ولا ينتم على سحر بارقه او ان كان الخلوب ودخان الخادم بلغه انهم كاتبوا جهة من الجهات التي الدولة منحرفة عنها وبدلوا الطاعة لها وقد أمر وأبالا متناع منها وهذا نصر في الخلاف لا يدخله التأويل وقول قد أحاط به العلم فلا يحتج به القول وكل صغيرة من هذه الكثر وكل واحد من هذا الجسع المتكاثر يتقض الولايه ويجرح العداله ويسلب الرشد ويثبت الضلالة ويمضى نية الولي فيها هو له ماض ويبحث عزمه فيفضي ما هو قاض ويخطه وكيف لا يخطه والولي غير راض ويفظه بما لا عذر له لمخاطب متفاض وما انسى الخادم مما اتصل به الا الاوائل والاطراف وما قول الاعلى ما يحته انفس دون ما خيله الارجاف واذا قد ساق الله إلى هذه الولاية حفظها من معدلة كان الزمان بها طويلا ماله وإنشأها صاحب احسان كان بعبد اعلمها طله فقد كفت الخواطر الشريرة ما كانت به على اهتمامها كما يجب للامة على امامها واليه بتقويض الله يرجع أمرها ويده يجلب نفعها ويجلب ضررها وقد تجددت للدولة الشربة قوة واستظهار وبسطه واتحدار وسيف به بناضل من يسئ الجوار ولسان يجادل به من يريد الدار وكان الخادم طالع بوصول الاسطول المصرى إلى الشام الفرنجى وما فعله في مواليه وسوا حله وما غنمه من اكبته وتوافقه وورد كتاب من مصر بأنه كسب بطشة فرنجيه خرج من فيها هارباً من القسطنطينية لعنته وقعت فيها بين رومها وفرنجها فقتل منهم خمسون ألف فرنجي واقتلت منهم بطش منها هذه البطشة وفما رجالاً كبار ومقدمون لهم ذكر سائر وغيم المجاهدون منهم ماملأ أيديهم من سبي وذخائر وانقلبوا بنعمة من الله وفضل وحازت القبط من الاسارى ما يزيد على أربعمائة بعد من درج بالقتل

فصل قال العباد ثم كاتب السلطان المملوك بالوفود لا تتفاق فن جاء مستسلماً سلبت بلاده على ان يكون من اجداد السلطان وتباعه في جهاد الكفار ثم ارسل صاحب حصن كيشا بالاذعان وهو نور الدين محمد بن قولا ارسلان ثم رحل السلطان من البصرة ونزل على الزها وكان فيها غفر الدين مسعود بن الزعفرانى فاذعن وانقاد وتسلمها مظفر الدين مضافة إلى حران ثم وصل السلطان إلى حران فترتبوا وانصل منها إلى الرقة وفيها الامير قطب الدين يتال ابن حسان فاذعن اأضوا ولم يوافق مر اعاد لصاحبه فاصلمها السلطان ورحل منها إلى مشهد الزمان ثم إلى عرابان فتسلمها وأصلح من شأنها وتواصلت أخبار وصول السلطان إلى خابور وما شرمن العدل في البلاد التي فتحها فاقتحمت رأس عين ودورين وما كسين والشمسانيه والغدين والمجدل والحصين قال وقطعت نهر الخابور على قنطرة التنبير إلى نصيبين فاستعصت قلعتها أياماً ثم فتحت استسلاماً ولولاها السلطان حسام الدين أبى الهيثم السمين وولى الخابور جمال الدين خورشيد بن شمر نال الموصل وقطعنا الاعمال بين النهرين ثم أعمال البقعة ثم سرنا إلى بلاد وأشرقنا على دجله وكأور دن خيلنا في أشهر من تلك السنة نيل مصر والفرات ودجلة ثم صممنا على قصد الموصل فلما قربنا من الموصل كبرنا تكبيراً من نظير بالوصل وتقدم السلطان في الامراء ذوى الاراء ودار حول السور وعين لكل مة قدم ما قبل هو راء البلد وتقى الدين من شرقيه وأخوه تاج المملوك يرى عند باب المعادية فخلصت المحاصرة والمضايقة وتولى مجاهد الدين قايمار حفظ البلاد بأحسن تدبير وكتب الديوان العزيزى ان يشفع لهم إلى

الى السلطان فقدم في ذلك صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير في الشفاعة فرحل السلطان عنها في شعبان
وقصد سنجار وتقدم امامه تقي الدين وقال القاضي ابن شداد كان نزول السلطان على الموصل في هذه الذفعة
يوم الخميس حادى عشر رجب سنة ثمان وسبعين وكنيت اذذاك بالموصل فسرت رسولا الى بغداد قيل تزوله بأيام
قلائل فسرت مسرعا في دجلة وأتت بغداد في يومين و... واعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم فلم يحصل منهم سوى
الانفاذ الى شيخ السيوخ وكان في محبة رسولنا من جانبهم يأمرونه بالحديث معه وتلطيف الحال معه وسير الى هلولان
رسول من الموصل يستنجده فلم يحصل من جانبه سوى تضرع كذا الدخول تحتة أخطروا من حرب السلطان ثم أقام
السلطان على الموصل أياما وعلم انه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالحاصرة دلى هذا الوجه ورأى ان طريقه أخذ
أخذة قلاعها وما حوله من البلاد واضاعه بطول الزمان فرحل عنه ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان فأقام
يحاصرهما وفيها شرف الدين ابن قطب الدين وجماعة واشتد عليه الامر حتى كان نال شهر رمضان فأخذها
عنوة وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوتين الى الموصل وأعطاهما السلطان ابن أخيه تقي الدين ورحل
عنها الى نصيبين وقال العماد لما قصد السلطان سنجار نزل بارتخان فوجد عسكرا من الموصل سائر اليها فأحاط به
وأخذ خيلهم وعددهم ووردهم الى الموصل رجالة ووصل الى سنجار ومعه سر دارة الخلافة ونزل الدين صاحب
حصن كيفا وكان في سنجار شرف الدين أخو صاحب الموصل فامتنع من تسليمها فصور وميت القلعة بالمخنة في
فانهدم منها ثلثة من السور فوكل بها من يحفظها ودخل شهر رمضان فكشف السلطان عن القتال ثم جاءه الخبر بيلة
ان الموكلين يحفظ تلك الثلثة نيام فأرسل اليهم من أوتقهم وحملهم اليه وكان فيهم جماعة من المقتدين والاعيان فلما
أصبح صاحب سنجار اذعن وسلم ورحل بأهله وماله ودخل السلطان القلعة ورتبها وأمر بعمارها ولولاها الامير
سعد الدين مسعود بن ابرو وكان السلطان يعقد عليه وأخته ابنة معين الدين كانت في حيلة السلطان وكان رؤسا
سنجاريين يعقوب فسرتك الرئاسة فهم وولى القضاء منهم نظام الدين نصير بن الظفر بن محمد بن يعقوب ثم رحل
السلطان الى نصيبين فأقام بها الا ان الايام كانت باردة ومناوذة رسل دار الخلافة وشكا أهل نصيبين من أميرها إلى
الهيضاء السمين فاستنجد به السلطان معه وسار الى دار أميرها صمصام الدين بهرام الارتقي قتل السلطان بأحسن
ملقى فأكرمه وسار الى حران وأقام بها للاستراحة وعاد كل الى بلده وسارت تقي الدين الى حماه هذا والمواصلة
في خدم من جمع الجوع واتباع الغوائل للسلطان

(فصل) في وفاة فرخشاه بن شاهنشا بن أيوب قال العماد في هذه السنة في جمادى الاولى توفي بدمشق
الملك المنصور عز الدين فرخشاه ووصل خبره الى السلطان عند عبوره الفرات فأقر السلطان ولده الملك الامجد
بهرامشاه على عهده وأعمالها مكان أبيه وانفذ شمس الدين ابن المقدم واليا مكانه على دمشق وأعمالها قال ابن
أبى طى كان فرخشاه من أكرم الناس يداو أطهرهم اخلاقا وأسد هم رأيا وأنجعهم قلبا ومما يحكى من كرمه انه
دخل الحمام يوما فرأى رجلا قد قد دبه الزمان وكان يعرفه من أهل اليسار وشاهد عليه ثيابا رثة يبين منها بعض
جسده فاستدعى بجميع ما يحتاج الرجل الى لبسه وأمر له بغلام وبغلة مسرعة وبألف دينار وقال لبعض غلمانه
اجعل هذا كله في موضع ثياب الرجل وخذ ثيابه واجعل هذا الغلام والبغلة ففعل فلما تغسل الرجل وخرج رأى
موضع ثيابه تلك الثياب وسأل الخدم عن ثيابه فقال انبذت بهذه الثياب فقدم اليه الغلام وأخبره بجميع ما صنع
عز الدين وأخبره بأنه قد أجرى عليه معيشة عشرين دينار في كل شهر فلبس الثياب وخرج من الحمام وهو من أغنى
الناس قال وكان فرخشاه محمدا حمدا بن سعدان بعدة قصائد من جملتها التي يقول فيها

تحذنا السارى لبداء عود الزان نايابا والمهند وانظرا
أبحمى الانساب قصر الاعراب عنه مبعبا ونظرا
هزمت كذبة الكائب جفلا * وأعادت دجى الحوادث جفرا
فهبسوكا لما زنى علما وكالا حشفت حلمانا كلف رزق شعرا

قال وكان فرخشاه مضافا الى شجاعته كونه عالما متفنا كثيرا الادب مطبوع النظم والنثر في شعره قوله

كتاب (٢٤) الروضتين

أنا في أسر السقام * من هوى هذا الغلام * رشاء ترشقي عينا * هفوا دي بسهام
كلما أرشفه - نى فا * دعلى حلالوام * ذقت منه الشهد فى التدسج المصفى فى المدام
قلت ونبغ ابنه الامجد أيضا شعرا وكن السلطان كثيرا لا اعتماد على فرخشاه وفى بعض الكتب الفاضلية عن
السلطان اليه (وصل كتابه يتضمن خروج الفرج وباديره من الاحوال واعده من مكائد القتال وأسنانه بدور ان
بدى الله به كل بعد من المراد وان يقلل بشد بديره ثقلب الدين كقروا فى البلاد وان يحيرى على يده أول النخل الذى
توعده اخرضا - وان يصب به على الممركين - وت ذاب ان رين لبالمصاد) وقال الحماد كن عز الدين فرخشاه
من أهل الفضل والفضل على أهله يغنى الكرام عن الاب - ذال بكرم دله ومن أخص خواصه وذوى اصطفاؤه
واستخلاصه الصدر الكبير العالم تاج الدين أبو الين الكندى أو حد عصره وسج وحده وقرب دهره وعلامه
زمانه وحسان احسانه ووزر دسته ومشى رفته وجلس أنسه ورفيق درسه وشعاع نسه وحبيب نفسه ولى
فى هذا الملك قصائد منها قصيدة هائية مرسومة مدخنة بها فى أول سنة بحيث فيها السلطان الى مصر وهى سنة
اثنين وسبعين وعارصها تاج الدين أبو الين بكلمة بدية فى وزنها ورويا وحسن ريبها فأما كلتى فهى
بين أمرت خلافة العيش النهى * وهوى حال غضارة الزمن الهى
وصبابة لا تميل بسرهما * عن حصرها حصر البايغ المدره
أحبتى ان غبت عنكم فالهوى * دان لقلب بالغمرام موله
انهى اليكم ان صبرى منى * بسل منته والسوق ليس بمنتهى
أما عقود مدامعى قد وهت * وأبت عقود الود منى ان تهى
ولقد ذهبت بينكم فاستقمكم * يامن لم ساق بينكم مدهى
فى شوقكم أيد الزمان تعكرى * وبد كركم عند الكرام تفكرى
لوقيل لى ما تشتهى من هذال - دنى بالقلب سواكم لأشتهى
ما كان أرفه عيشتى والدها * من دالدى يبقى بعيش أرفه
ومن السفاهة اتى فارتقمكم * من أين ذوالحم اندى لم يسفه

ومنها

وعقاب ايله ما يفارق جلقا * أحدا ايهما غير غمرا به
مالى ومصر والمصارع انما * ملككت قىمادى - حيث ثم أنتره
لاتننى يا غادلى فأنا الذى * تبسغ الهوى وأنى بما غنه منى
قد قلت للحادى وقد نادته * فى مهمه أقصر وصلت مهمه
حسام جسدك للزمام فأرخه * فلقد أنخت الى ذرى فرخه
متكرم بالطبع لامتكره * سستان بين تكرم وتكره
احسان ذى محمد وهمة ماجد * محمد وتوى عابدمناؤه
وهى ثلاثة وثمانون بيتا والقصيدة التاجية تسعة وأربعون بيتا أولها

هل أنت را حرم عيرة توله * ويجر صر عند ما منه دهى
هيات يرحم قاتل مقوله * وسنانه فى القلب غير مهمه
من بل من داء الغرام فانى * مذحللى مرض الهوى لم أنقه
انى نليت بحب أغير دساحر * بلحاظه رخص البنان برهه
أبنى شفاء تدهى من دله * ومضى يرق مدلل لدله
يامفر دال حسن انك منته * فيه كما أنى الصبابة منتهى
قدلام فيك معاشرا فاتهى * باللوم عن حب الحياة واذتهى

في أخبار (٣٥) الدولتين

ابكى لديه فان أحس بلوعة * ويشمقة أو ما طرف مفهقه
 اامن محاسنه وحال عنده * حيران بين تفكه وتفكه
 صدان قد جمعا بلفظ واحد * لى في هواه بمجنين موجه
 قلت يقال تفكهت بالشيء أى تمت به وتفكهت تعجبت ويقال أيضا تفككت تنذمت ومنه قوله تعالى فظلم
 تفكهون فهو في تفكه أى تمتع بالمحاسن وفي تعجب من حاله وتنذمت علمائهم قال

أنا عبد من سجد الزمان بججزه * عن أن يجي له بسند مشبه
 عبد لعز الدين ذى الشرف الذى * ذل المسلولك لعز عبد فرخشه
 طابت موارده فقص فداؤه * وشدة الحدادة ذكره في المهمة
 يفدك كل ملك متباه * أبدأ بالسنة الرعاة عمده
 لا يفقه النجوى إذا حدثته * وأدأتني بحديثه لم يفقه

قلت وذكر العادى ديوانه أيضا ناحسنة في مدح الشيخ تاج الدين أبى اليمن رحمه الله قال

تذاكر من وژاد مصر عصابة * حديث فتى طاب الندى بذكره
 وقالوا رأينا فاضلا ذابها * أدبيا يفوق الفاضلين بفخره
 يدين حبيب والوليد لنظمه * ويحمده عبدا الجميد لنثره
 ولوعاش قس في زمان بيانه * لكان مسيدا فى البيان بشكره
 فضاؤه كالشمس نورا ولم تزل * مناقبه فى الدهر اعداد زهره
 بيان هو السحر الحلال وانسا * نرى معجزا من فضله حل سحره
 ذو الفضل هم عند الحقيقة أبحر * ولكنهم أضحووا جدوا لبحره
 يצועع مهيب الجدم عرف عرفه * وتأرجح أرجاء الرجا بنشوره
 فقلت لهم هذا الذى تصفونه * أبو اليمن تاج الدين أوجه عصره

قلت وبلغنى ان أول معرفة فرخشاه أنه كان في مجلس القاضى الفاضل بالقاهرة ففخشاها الى الفاضل
 بقرى ذكر بيت من شعر أبى الطيب المتنبي فذكرهم فيه تاج الدين بما يليق به فأعجب فرخشاه وسأل القاضى الفاضل
 عنه فقال هذا فلان وعرفه بفضل فلباها من مجلس القاضى الفاضل أخذ بيد الشيخ تاج ونحو جبهه ولزمه الى ان
 توفي رحمه الله أجمعين

(فصل ١٠) في أخذ السالكين البحر لقصد الحجاز قال العادى في سؤال سنة ثمان وسبعين كانت نصرة الاسطول
 المتوجه الى بحر القلزم والمقدم فيه الحاجب حسام الدين لؤلؤا طلب الفرع السالكين بحر الحجاز وذلك ان الابرئس
 صاحب الكرك لما صعب عليه ما توالى عليه من تكايد أصحابا المقيمين بقلعة ايلة وهى في وسط البحر لا سيبل عليها
 لاهل الكرك فكر في أسباب احتماله وفتح أبواب اغتماله فبنى سفنا ونقل أخسائهم اعلى الجبال الى الساحل ثم ركب
 المراكب وشحنها بالرجال والآلات القتال ووقف منهم ركبين على جزيرة القلعة ففتح أهلها من استقاء الماء ومضى
 الباقيون في مراكب نحو عذاب فقطعوا طريق التجار وسرعوا في القتل والنهب والاسار ثم توجهوا الى أرض الحجاز
 وتعذر على الناس وجه الاحتراز فظلم البلاد وأعزل الدوا وأشرف أهل المدينة التوبة منهم على خطر ووصل
 الخبر الى مصر وبها العادل أخو السلطان فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤا فعمري بحر القلزم من اكب بالرجال البحرية
 ذوى التجربة من أهل النخوة للدين والحجة ومدار الى ايلة فظفر بالمركب الفرنجى عندها فغرق السفينة وأخذ
 جندها ثم عدى الى عذاب وشاهد بأهلها العذاب ودل على مراكب العدو فقتلها فوقع بها بعد أيام فأوقع
 بها وواقعها وأطلق للأسارى من التجار ورد عليهم ما أخذهم ثم صعد الى البر فوجد عاربا قد نزلوا منه شعابا
 فركب خيلهم ورواهلهم اربين وكانوا في أرض تلك الطرق ضارين فخصرهم في شعب لاء فيه فأسرهم بأمرهم
 وكان ذلك في أشهر الحج فساق منهم أسيرين الى منى كما يساق الهدى وعاد الى القاهرة ومعه الاسارى فكتب

كتاب (٣٦) الروشتين

السلطان اليه بضرب رقابهم وقطاع أسياهم بحيث لا يبق منهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف قلت ولابي الحسن ابن النروي في الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الواقعة أشعار منها

مر يوم من الزمان عجيب * كاذب يدى فيه السرور الجاد
اذأى الحاجب الاجل بامرى * قرنتهم في طيم الاصفا
يجمال كانهن جبال * وعلوج كأنهم أطواد
قلت بعد التذكير لما تبدى * هكذا كذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الاغادى * وسواه من اللاآتى يصاد
ومنها

قلت وقد سافرت يا من غدا * جهاده بعضه من حجه
اذ قيل سارا الحاجب المرتجى * في البحر يارب السما نجـه
البحر لا يعدو على لؤلؤ * لانه ~~يكون~~ من ثلجـه
ومنها

يا حاجب المجد الذى ماله * ليس عليه فى الندى حجه
ومن دعوه لؤلؤا عندما * نبت من البحر له نسبـه
لله ما تمسك من صالح * فيه وما تظهر من حـسبه
كفيت أهل الحرميين العدا * وذدت عن أجدوال كعبه
ومنها

لئن كنت من ذا البحر بالؤلؤ العلى * تمت فان الجود فيك وفيه
وان لم تكن منه لاجل مذاقه * فانك من بحر السماح أخيه
ومنها

اءأنت لؤلؤ للعالمى * جاء من أبحر السماح العذاب

وكتب السلطان الى العادل من كلام انفاصل (وصل كتابه المؤرخ بخامس ذى القعدة المسفر عن المسفر من الاخبار المنبسم عن المنبسم من الآثار وهي نعمة قضيت نعماً ونصرة جعلت الحرم حرماً وكفاية ما كان الله ليؤخر مجزئتيه صلى الله عليه وسلم بتأخيرها وبجنيته من بحار البحر التي يحدث عن تسييرها وتسييرها وما كان الحاجب لؤلؤ فيها الا سهما أصاب وحده مسدده وسيفاً قطع وذكر مجرده ورسولاً عليه البلاغ وان لم بهجلى ما أثرته يده وقد غبطناه بأجر جهاده ونجس اجتماعه ركب السبيلين برا وبحرا وامتطى السابقين مركباً وظهرا وخطا عا وسع الخطو وغزا فالتجس الغزو وحبذا العنان الذى فى هذه الغزوه أطلق والمال الذى فى هذه السكرة أنفق وهؤلاء الاسارى قد ظهروا على عورة الاسلام وكشفوها وقارقوا بلاد القبلة وظوفوها ولوجزى فى ذلك سبب والعياذ بالله لفساد الاعذار الى الله والخلق وانطلقت الاساس بالذمة فى الغرب والشرق ولا دمن تطهير الارض من ارجامهم والهواء من انفسهم بحيث لا يعود منهم مخبر يدل الكمار على عورات المسلمين وان هذا العدد القليل قد نال ذلك المنال الجليل وهذا مقام ان روى فيه حراسة الظاهر والوفاء للكافر حذب الفتى الذى لا يمكن فى كل الاوقات سد دورقه وادغ المؤمن مرتين والاولى تكفى لمن له فى النظر تنقه) وفى كتاب آخر الى العادل أيضا (وتحسبني المجلس السامى بظنره ولم لا يكرهه وينصره ولم لا يجهله ويشكره وليس فى قتل هؤلاء الكفار من ارجعه ولا التصرع فى ابقائهم فسحه ولا فى استبقاها واحد منهم مصلحة ولا فى التخاصي عنهم عند الله عذر مقبول ولا حكم الله فى أمثالهم عند أهل العلم بمشاكل ولا يجوز لفلان العزم فى قتلهم ليشأهى أمثالهم عن فعلهم وقد كانت عزيمة ما طرق الاسلام بمثلها وقد أنى الله بعد هذا بطيعة أجزاها على يد من رآه من أهلها) وفى كتاب آخر أيضا الى العادل (قد تكرر القول فى معنى أسارى بحر الحجاز فلا ندر

في أخبار (٣٧) الدولتين

على الارض من الكافرين ديارا ولا توردهم بعدما البحر الانارا فاقلمهم اذ ابقي جنى الامر الاصعب ومتى لم تجل الراحة منهم وعدت العاقبة بالاشق الاتعب) ومن كتاب آخر الى بغداد (وسارت المراكب الاسلامة طالبة شوكة المراكب الحربية المتعرضة للمراكب الحجازية والبنية وكانت من اكب العدو قد أوغلت في البحر ودلها على عورات الساحلين من العرب من أشبه كاهيا في الكهر فوصلت الى عيذاب فلم ينل منها مر ادا غير ان ما وجدته في طريقها أوفى فغصة عيذاب نالت منه وشعثت وافسدت فيه وعثت وتمادت في الساحل الحجازي الى رابغ الى سواحل الحوراء وهناك وقع عليها أبحاننا وأوقعوا بها أسدًا يقاع وأخذوا المراكب الفرجية على حكم البدار والاسراع ففر فرجها الى الساحل فركب أبحاننا ورآهم يحول العربان التي وجدوها وأخذوا الكفار من شعاب وجبال اعتمها وبها وقصدوها وكفى المسلون أسد فساد في أرضهم وأقطع فاطع لفرضهم وانبسطت أمامهم بقضهم وعميت على الكفار هذه الطريق التي لو كشف لهم غطاؤها قدما ولو أحاطوا بها علمنا لاشتقت نكابتهم واشتدت جناباتهم وعز على قدما ملوك مصر ان يصروا هذه الاقارن ويطفئوا هذه النيران ويركبوا غوارب الحج وبرخصوا غواي المهج ويقتصموا هذا الظاهر من جوه الذي لا يدرك لوحه ويدركوا هذا العدو الذي لا يدرك الا ان تستخذ عليه ملائكة الله وروحه) وفي كتاب آخر الى بغداد (كان الفرنج قد ركبوا من الامر نكرا واقتضوا من البحر كرا وعمروا مراكب حربية شحوها باقتالة والاسلحة والازواد وضربوا بها سواحل الين والحجاز واخضعوا غاواي البلاد واشتدت محاربة أهل تلك الجوانب بل أهل القبلد ما أومض اليهم من خلل العواقب وما ظن المسلمون الا انها الساعة وقد نشر مطوى اشراطها والديا وقد طوى منذور بساطها وانتظر غضب الله لفناء بيته المحرم ومقام حليته الاكرم وزنا أبنائه الاقدم وضرب نبيه الاكظم صلى الله عليه وسلم رجوا ان تستخذ البصائر آية كآية هذا البيت اذ تصده أصحاب الغيل ووكلا الى الله الامر وكان حسبه ونعم الوكيل وكان للفرنج مقصدان أحدهما قلعة ايلة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومدخله والاخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله وانقسموا فرقتين وسل كواطريقين فاما الفريق الذي قصد قلعة ايلة فانه قد ران بمنع أهلها من مورد الماء الذي به قوام الحياة ويقال لهم سار العطش المشبوب الشباء وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز والين فقد ران بمنع طريق الحاج عن حجه ويجول بينه وبين حجه يأخذ تجار الين واكرام عدن ويلبسوا حل الحجاز يستبج والعباد بالله المحارم ويهيج جزيرة العرب بغضية دونها العتائم وكان الاخ سيوف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها على الفرقين وأمرها بان تطوى وراءهم الشققين فاما السائرة الى قلعة ايلة فانها انقضت على مر ابطي الماء انقضاء الجوارح على سيات الماء وقذفتها في شهب السماء مسترى سجع الظلماء فأخذت مراكب العدو برمتها وقتلت أكرمت قتلتها الامن تعلق بهضبة فوما كاد أودخل في شعب وما عاد فان العربان اقتصوا آثارهم والتزموا احضارهم فلم ينبج عنهم الامن بنى عن المعاودة ومن قد علم ان أمر الساعة واحده وأما السائرة الى بحر الحجاز فمادت في الساحل الحجازي الى رابغ سواحل الحوراء فأخذت تجارا وأخافت رفاها ودلها على غوارب البلاد من الاعراب من هواشة كفر وانخافا وعماذتوع عليها أبحاننا وأخذت المراكب بأسرها وفرفرجتها بعد اسلام المراكب وسل كواي الجبال مهاوى الممالك ومعانن المعاطب وركب أبحاننا ورآهم خيل العرب يشلونهم شلا وبقتصونهم اسرا وتلا ومازوا لاتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا نهارا وليلا حتى لم يتركوا عنهم خبرا ولم يقولهم أثرا وسبق الذين كفر والى جهنم زمرا وتقدم منهم مائة وسبعون أسيرا) ومن كتاب آخر (ومن جملة البشائر الوالصة بمصر عود الاسطول مرة ثانية كسرا كسبا غاما غالبا بعد نكابتها في أهل الجزائر واخراب ما وجده فيهما من الاعمال والمخائر ومن جملة ما ظفرو به في طريقة بيشة من مراكب الفرنج تحمل أخشابا منجورة الى عكا ومعها تجارون لينبوا منها شواي فاسر التجارون ومن معهم وهم بنف وسبعون وأما الاخشاب فقد انتفع بها المجاهدون وكفى شرها المؤمنين وللخادم في المغرب عسكر قد بلغت اقصى افر بنية فتوجه وعاد به شخص الدين في تلك البلاد وروحه

(فصل) في باقى حوادث هذه السنة قال العاد في هذه السنه وهى سنة ثمان وسبعين اثم السلطان على نور الدين

كتاب (٣٨) الروستين

محمد بن قرا أرسلان بأعمال الهيثم وكانت جارية في عمل الموصل فلما سلمها جعلها من نصيبه وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله حين توجه إلى الموصل في أوائل سنة ست وستين عند وفاة أخيه مودود وعبد بن قرا أرسلان بقلعة الهيثم ثم سلمها إليه دون إعاءة لاحتجاله ليمينه وموفاؤه بوعده الكريم ودينه ولما جاء لمساعدته تنافى هذا العام خصه السلطان عاجلا بهذا الانعام ثم وهب له قلعة الجديدة وهي قرية من نصيبين ووعده بفتح أمدة له فوق بوعده كما سيأتي قال وكان شاه أرمن صاحب خلاط ظهر الدين سكمان وهو خال صاحب مارد بن ابغلازي بن أبي بن عمر تاش وصاحب مارد بن هذا هو ابن خال صاحب الموصل عز الدين بن مسعود بن مودود بن زنكي فأنفذ شاه أرمن يشفع إلى السلطان في الموصل وسنجار وهو على سنجار وأرسل إليه سيف الدين وهو من أعرابيه عليه فلم يسمع السلطان شفاعته فاجتمع هو وصاحب مارد بن صاحب الموصل وصاحب أرزن وبدليس وغيرهم من عسكر حلب وجمعوا جموعا وعزموا على لقاء السلطان وتزولوا ضيقة من أعمال مارد بن يقال لحارزم جمع السلطان عساكره وجاءه نفي الدين من جاءه إلى حران في خمس ليال فصاروا إليهم بعد العبد إلا كبر فلما وصل السلطان رأس عين وسمعوا بمجيئه فرقوا وأفرقوا وأعاد الخلاط إلى خلاطه باختلاطه ورجع الموصل إلى موصله لمواصلة احتياطه واعتصم الماردى بمحصنه المارد وهتكوا حرز حرزم للصنادير والوارد وهاب عسكر حلب القود اليها ونحس على طريقه فاذن جمعه بتفرقه ومضى معظمهم إلى الموصل فغير الفرات عند عانته ولم يجدوا أعانته ونسقتهم ربحنا وهم جبال وذهبوا بقلوب النساء وقد جاءوا وهم رجال ثم نزل السلطان منزلة القوم بحرم وفيما أقصر لصاحب مارد بن كان يتنزه فيه فقام فيه تاج الملك أخو السلطان قال ابن أبي طي وفي هذه السنة نزل قراقوش على بلاد زلوت وقاتله إلى أن انهزم منه أهله ودخل المدينة ليقضي بها أيام الشتاء فاصبح يوما فاذا حول المدينة عسكر مقدار خمسة آلاف رجل فقام واقفد أصحابه فلم يجد إلا جماعة من البوابين والركابارية وباقي الناس سكارى ورأى أحد البوقية فامر أن يضرب بالبوق وفتح الباب وخرج فظن العسكر أن قراقوش وعسكره قد شعروا بهم فانهزموا قال ثم أنه قصد طرابلس فحاصرها وضيق عليها وكان شيخها عبد الحميد ابن مطروح قد راسل قراقوش وطلب منه الأمان وسأله أن ينقذ إليه قوما يقر رعبهم أمر التسليم فأنفذ إليه وزيره وثلاثة من وجوه أصحابه فأخذهم عبد الحميد وأرسلهم في دار أخلأها لهم وأمر لهم بجميع ما يحتاجون إليه فلما خلا لهم الليل أخذوا الحاد وتضافوا إليها حتى قطعوها وقام بعضهم إلى صهرهم فمعلوا للشرب فأحدث فيه فأخبرت الرقاب عبد الحميد بما كان منهم فأحضر وجوه البلد وقص عليهم ما كان منهم وقال إذا كن هؤلاء خيرهم فما ظنكم بشراهم وكان أهل البلد قد أشاروا على عبد الحميد بتسليم البلد فمتنعوا حينئذ وحضر ابن مطروح من القديم إلى الدار ومعه وجوه البلد فقال لصاحب ضيافته لم أحضر هؤلاء السادة محاد مقطعه فقال ما أحصرتهم إلا محاد جددا ولكن اليوم أكلوا طعام الصوفية الذي لا تعرفه في بلادنا فاسخبي القوم وعلما أنهم قد فطنوا بمحادهم ونزل رجل إلى الصهرم فقرأ العذر على وجه الماء فقال من فعل فليرد واحدا منهم جوابا فقال ابن مطروح يا قوم ما أدخلناكم إلينا إلا عازمين على تسليم البلد اليكم وان تكون لكم رعايا وقد شاهدنا منكم أفعالا مانرها فان قلتم أن هذا الفعل من علمائنا وعبيدنا فما أقبح هذه الاحدثة عن خيار أصحاب هذا الرجل وان كان عندهم من هو خير منكم فلم بعسكم إلينا هذا طعن في عقله ثم أمر بأخراجهم فأخرجوا من المدينة فلما صاروا إلى قراقوش وعلم القصة عظم عليه الأمر وأراد الفتك بهم وعلم أنهم قد فتقوا عليه فملا لا يمكنه رقه أبدا ويتقن أنه لا يملك البلد أبدا وأنفذ عبد الحميد إلى قراقوش أنك لست بهادر على أخذ هذا البلد لأجل ما نقر به أصحابك قلوب أهله فان رأيت أن نجعل لك جمعا لنجملها اليك في كل سنة وترحل عنا فعلننا فأجاب إلى ذلك ورحل عنهم بعد أن احتوى عليهم قال وتوافت إليه الفرسان من مصر حتى صار في ثمانمائة فارس من الأتراك وسار من جبل نفوسة إلى قابس في يومين ثم إلى قصر الروم وغيره من المواضع والقلاع فجمعهم ونهب وغنم وغلب وخافه أهل تلك النواحي

(فصل) في فتح أمدة قال العماد ثم سار السلطان إلى أمدة ونزل عليها يوم الأربعاء سابع عشر ذي الحجة بعد أن استأذن الخليفة في ذلك فأذن له فنصب السلطان عليها المجانيق وضايقهم وطال حصارهم ثم أخذها في السنة الثانية كما سيأتي

في اخبار (٣٩) الدولتين

ثم دخلت سنة تسع وسبعين هـ قال ابن أبي طي والسلطان منازل لا مدواشدة قتال العامة بها فأمر السلطان بكتب رفاع فيها ابراق وارعاد ووعود ايعاد وان داموا على القتال لنستأصلن شافتهم وان اعتزوا وسلموا البلد لنحسن اليهم ولنضعن ما عليهم من الكلف والضرائب وأمر أن تعلق تلك الرفاع على السهام وترى الى آمد فرمى من ذلك شيء كثير فكفوا عن القتال وأشاروا على ابن تيسان بطلب الامان فأومر على أن يخرج بجميع أمواله دون الذخائر والسلاح وأمهل ثلاثة أيام فلما عول على نقل أمواله قعد به أصحابه فأرسل الى السلطان فأنفذ اليه غلانا ودواب وضربت له خيمة بظاهر آمد وجعل ينقل ما يقدر على نقله من المال والقماش والآلات الذهب والفضة مدة ثلاثة أيام به لم يعظم كانوا يريدون على ثلثة مائة انسان ولم ينقل عشر ما كان له وسرق من أمواله أكثر مما حصل له لانه ما أخرج أحد شيئا الا وأخذ نصفه أو أكثر وكان ابن تيسان قد حصل في آمد أشياء كثيرة لا يمكن وصفها من الاسلحة والاموال والغلال والكتب ولما انقضى الاجل أخذ ما حصل وسار قاصدا بلاد الروم وتسلم السلطان مدينة آمد بمأموالها وذاخرها ونصبت اعلامه على أسوارها وذلك في رابع عشر المحرم ووجد فيها من الغلال والسلاح والآلات الحصار من انجانيق والالعاب والزوائد أشياء كثيرة لا يمكن أن يوجد في بلد مثلها ووجد فيها برج من ابراجها فيه مائة ألف سمعة ورجل مائة بنصول النساء وأشياء يطول شرحها وكان فيه اخزانه كتب كان فيها ألف ألف وأربعمائة ألف كتاب فوهب السلطان المكتبة للقاضي الفاضل فانتخب منها رجل سبعين حجارة ويقال ان ابن قرا ارسلان باع من ذخائر آمد وخزائنها ما لا حاجة له به مدة سبع سنين حتى امتلأت الأرض من ذخائرها وكان السلطان لما تسلم آمد وهبها للنور الدين محمد بن قرا ارسلان بما فيها وكتب له بها وأعمالها وقوا وفي له بما وعد به وفيل للسلطان انك وعدته بأمد وما وعدته بما فيها من الاموال والذخائر وفيها من الذخائر ما يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار فقال لأمن عليه بما فيها من الاموال فانه قد صار من اتباعنا وأصحابنا قال وفي فتح آمد يقول سعيد الحلبي من قصيدة في السلطان

رمى آمد بالاصافات فأذعنت * له طاعة آكامها ووعورها
فما عز ناديا ولا اعتاص ثغرها * ولا جاش طامبها ولا ردسورها
وأنتزل بالكره ابن تيسان محرجا * كما أنزل الزبابة كرها قصيرها
نهضت لها حتى اذا انقاص عيها * تقضى على طول الشماش نفورها
سمعت بها جودا لمن نزل برهة * بغاورها طور او طور اغيرها
ومدكت ما ملكت منها تحولا * وكان قليلا في ندك كثيرها
وان بلاد انجيد تلك ملو كها * لاجدران ير جوندك فقيرها

وقال ابن سعدان الحلبي يذكر فتح آمد

فباسا كتي العزاء من سفع آمد * أرى عارضانيه بل الموت هاطله
لئن غضبت يوما عليكم عروشها * فهذا ابن أيوب وهذي معاقله
ولوراهما يوماسوا له لقطعت * أباهرهم دونها وأباجله

قلت وقال آخر

لو عرفت آمد من جاءها * يخطب في الاسلام تسليمها
لصيرت أعلى سرار يقها * لمن على الأرض سلاليعها

قال العماد وأما آمد فحصل فتحها يوم الاحد في العشر الاول من المحرم وكان مدبر آمد ابن تيسان فهو رئيسها والقائم بأمرها وكان لا تمد أمير قد يقال له ايكلدي من أيام السلاطين القدماء ولده محمود شيخ كبير عنده بطنه وسبقه وبدعى انه من علمائه وصطفعيه وانه يحفظ البلدة وانه لا يغدر به ولا يؤثر بدله واذا جاز رسول يحضره عند أميره ويسند ما يدبره الى تديره ويقول انه غلام ومما معه كلام وحافظ على سر هذه السريرة وأمن باختياره من جور الجيرة بل ما منهم الا من يخاف مكره ويحفظ منه مكره ويذكر عرفه ويعرف نكره ولم ينزل الحصار عليهم الى أن

كتاب (٤٠) الروضتين

أذعنوا الانقياد وخرجت نساؤهم بجر الى الخيم الفاضلي يطلب الامان فأمتهن السطان على انهم يخرجون بعد ثلاث ويحملون ماقدروا عليه من المال والاثاث وأعانهم السلطان على نقل الاموال بالدواب والرجال فلما انقضت مدة الامان تسلمها السلطان وسلمها الى نور الدين بن قرا ارسلان بأعمالها وما فيها وكان السلطان وعده بها قبل ذلك فأخبره الوعد وقد كان أبوه عاناها مده وتمناها فاقدر عليها ثم وصف العماد ما كان في قلعة آمد من الذخائر والاموال والحواسل والامتنع وان أصحابها لم يقدر وافي تلك الايام الثلاثة الا على تحويل ما خفي منها واستغنى المساعدون لهم في تحويلها اليهم وكتب العاضل عن السلطان الى الديوان بعداد (ورد الى الخادم التقايد الشريف بولاية آمد فلما رآه مستقرا عنده قال هذا مفتاحها وسمع الوصايا فاستضاء بها في ظلمات القصد وقال هذا مصباحها وتناولها فما ظنه الا ككتابا أنزل عليه من السماء في قرطاس وما يقنه الا نوراً يضيء به في الناس فسار به ولولا العادما استعجب جند يا وعول عليه ولولا الرتبة لما تقلد هندا يوطرق بابها بقليد ولولا ما استطاع للاولياء أن يظهره وما استطاعوا له نقبا وناشد المقيم بتقليده ثلاثة أيام بثلاث رسائل فلو كان ذا سمع أصبى ولو كان ذالبا لبي فلما انقضت ضيافة أيام النذاره واحتقر من أمدنا بالحرب جاهلان وقودها الناس الجارية عمدها في اليوم الرابع فزلزل عمدها وقتلها فأزال جلدتها وزيل جلدتها ثم رأى ان الشوكرة بما أصابت غير ذات الشوكة من جندتها وان المسلم قد لمن عذاب الحريق ولا يأمن أن تحرقه القسي من المسمار يزردها فسدل الى مخنيقه الذي أمل صاحبها منه مخانيقه ورأى ان سوط سسوطا يضرب الحجر ويضرب عن أن يبه اشتر البشر وتلك الاربعة قد شخت بأنفها ونأت بعطفها وتأهت على وامقها وغضت عين رماقها فهي في عقاب لوح الجوك كالظائر الآن المخنيق أغرى بها عقابه وضعها على ظهره وخضم امامها بياضها وقام الى الغريحا كها ويضرب بعصاه الحجر فتنجس من النقبوب أعين لا ترسل الماء ولكن ترى العطاش الى مثل المدينة وتتهل الظمأى كذلك أياما حتى يحى من الشرفات شنب شعرها وتناوبها كما من فلك تبين بهز ابراجها آثار سكرها وعلت الايدي الرامية لها وعلت الايدي المحامية عنها فلم يبق على سورها من يقع جفتا وش المخنيق عليها غارته الى أن صارت سنا وضفت صناديق الجارة المقله وفصلت منها الاعضاء السور المتصلة ووجب النثال للثلاثين بالخادم ان لا يخله الا جندله فأوعز بالتقدم اليها ودخول النفايين فيها فانحنت جراحا بالنقبوب وعتك الخباب من أضرار البلد كاد يتصل الى ما وراءها من القلوب وخشيت معر الجديش في وقت شحمه وروسل صاحبها بأنه كشف له الخذلان حتى نصر على شكه بعلمه فأعاد الرسول مستنكها تحجب النجا بارسال دوات الخباب وبرزهن رسمتكا باليد العلى لم يكن جوابه غير احرازه واحرازهن ولم يعارض في نفسه ولا في قومه ولا في أمراله وهي ماهي ذخائر موفره ومكاسب من أرباح خضمره كانت الحقوق عنها مذوده والامال دونها مطروده وغض الخادم كل عين عن عينه وورقه وصانته في شحمه من الذقر صانته في ذات سوره وخندقه واستوفى شرط الوفاء بأعطاه من موثقه وشذد أمدفه في مدينة ذكرها بين العالم متعالم وطال المصادم جانبها من تقدم فرجع مجذوعا وأنه وان كان حلالا وقرعها فريد الهمه واستعجب جفلا ورأى حجرها فقدر أنه لا يبق له حجر وسوادها غضب أنه لا يذبحه جرحية أنف أنفها فاعتقد له لا يستعجب من جرح من مالوك كلهم طوى صدره على الغليل الى مورد هاو ووقف بها ووقف الحب المسائل فزيفر ما أمل من جواب معيها) ثم ذكر تسليمها الى ابن قرا ارسلان ثم قال (ولما رأى صاحب ميا فارقين ان اخنت صاحبته قد ابنتي بها خاف ان يجمع له بين الاختين فراسل ببذل الخدمة التي يكون فيها النور الدين ثاى اثنين) ثم ذكر اجتماع المواصلة وشاه أرمن وصاحب ماردين وصاحب أرزن وبديس وغيرهم على قصد الخادم وزلوا تحت الجبل فلما صبح عندهم قصد طنوا انه واقع بهم فأخذوا عنه الفرار نفقوا وذكر ما في لقائه من عوائد كانت عندهم مخوفة وعندهم جوده وسار كل فريق على طريق بنية عدو وفعل صديق والخادم يقول مهما أرا دت فيه الاراء الشريفة أتاه ومهما نوت فيه من احسان قرب عليه ما نواه فهذه أمدلما أرسل اليه مفتاحها وهو التقليد فتحها وهذه الموصلة لما تأخر عنه المفتاح منعها وما منحها ولوأ عين بعلمت على الاسلام عانته وظهرت في رفع مناره فأنته لان اليد كانت تكون به على عدو الحق واحده والهمه لآلات النصر واجده فان رأى أمة المؤمنين ان عيز بين أوليائه وينظر أيهم أبر بأليائه وأشد على أعدائه وأقوم بحقه وحق

في اخبار (٤١) الدولتين

آياته وأهم أن ترك للفراس الممهد واهتك للطريق الممدد واهجر في سبيل الله لراحه واصبر في جهاد عدو الله على مضض جراحه واسلى عن رجحانة فؤاد وأكثر عمارسة لحمة ود فاختار هذه الامة التي جعله الله لها اماما وأماما أسعد من أجرى في طاعته ضامرا وملا بولايته ضميرا فغن عدله أن يولى عليها العدل الذي يقر عينها ومن فضله أن لا ينسى الفضل بينها وقد ورد ذلك المنشور بأمد فورد الميسور فان ورد المنشور المشار اليه بالجزم وما وسعت فانه يور على وير وما يحسب الخادم أن كيد اللعد والكافراً كيد ولا جهد الاهل الضلال اجهد ولا عائدته يغيظ رؤساء أهل الاتحاد أعود من تفخيم أمر الخادم بمزيد الاستخدام والا فليتنظر هل يشق على الكفار مزيداً حذسواهم من ولادة الاسلام فكل ذى سلطان هو الطاعم الكاسى المحبى بالماضى لا الحامى المكفى لا الكفاى بتضى عمره وهو لا يشهد الطعن الا فى الميدان ولا يتصل الحام طائرا لولا الكثرة فى الصولجان ولا يشقى بسهمه الا قرطاسه ولا يحظى برفده الا كياسه فأعاد الله بأمر المؤمنين هذا الدين الى معالم حقه الاولى وأطال يد سلطانه الصولى الى ان تأخذ الامور ما أخذها عدلا واعتدالا وسلاوقتا لا فيعود الى الاسلام عوايد ارتباحه وأيامه منصوره وسقاه) ومن كتاب آخر فاضلى عن السلطان الى وزير بغداد (أصدر هذه الوصيلة الى المجلس السامى معولا على كرمه فيما حلت من اللبانه مستغنيا بشهرة الحال المتجددة عن الابانه فان أمد قصر الامد فى النظر فيها وانقادها من المظالم التي كانت تلبس نهارها بقية غيبتها وسار البها ببقية العساكر بعد الذين ساروا الى الشام وأقاموا قباله الكفار بعدة اقتصصر عليها أكثرها من عساكر الدار المصرية على بعد تلك الديار ليظهر لمن نوى المناواه ويتبين لمن كان على منافاة الملاقاه ان رجالا من مصر فتحوا أمد بعدسة من اليسكار وبعد غزوتين تدطو لوع بها فى توار يخجها الى الكفار فى ذلك ما ينقص الحاسد ويغض الحاقد ويعلم ان فى أولياء الله دولة مارد كل مارد فلما حل بعقومتهم اراد ان يجرى الامر على صوابه ويلج الامر من بابيه وان يندرك الغتر ويوقفه ويعظه بالقول الذى رأى من الرقى ان لا يغلظه فبعث اليه ان يهب من كراهه ويعتد لصفى التقليد قراه ويجو بنفسه منجبا الذناب ولا يتعرض بان يكون منجبا للذناب فاذا عر بكنهه لا تلتى الا بالعراك وطريدته لا تصاد الا بالاشراك فهناك رأى عاجلا ما هناك وقول حتى القتال فى يوم واحد عرف ما بعده من الايام ووقع الاشفاق من روعة الحريم وسفك الحرام ونصب المنجنقيات فأرسل عارضها مطر وهظور السور بقدره الذى فطره وخطب امامها خطيب خطبه وأغد الصارم استكفا يضربه وقرقه أهل الحرب لحسن المناب منه عن حربه فصارت اقرب الاوقات جيلها كتيها مهيلا وعفرت الابرجة وجهاتر باونظرت القلعة نظرا كميلا حتى اذا أمكنت النقوب ان تؤخذ وكبد السور ان تفلذ رأى الذى لا يصبر على بعضه واعتذر اليه البناء الذى بناه ان لم يقضه فلا بد من يقضه ومأل فاجيب الى الامان على نفسه وخرج منها وانما أخرجه النظم وسلم وهو يرى السلامة امام من الحلم وامام من الحكم) ثم قال (ولو لا تقليد أمير المؤمنين لما فتح له الباب الذى قرعه ولا أنزل عليه النصر الذى أنزل معه ولا ساعد سيقا ساعد ولا تبتد مددت من مصر فأخذت أمدوم بآمد ولو قبلت مسأله فى تقليد الموصل لكان قد دلجها ولو دلجة أدلجها وأخذها ولو بمحصاة تبذها وهو يتوقع فى جواب هذا الفتح ان يمد بجيش هو الكلام وربما هى الاقلام ونصر هو اقد الامر وترشيد هو فك الخبر وليس ذلك لوسائل من دولة أقامها بعد ميل عروشها وللا دعوة قام فيها بما تصاغرت دونه جيوشها ولكن لان هذه الجزيرة الصغيرة منها تتبعت الجزيرة الكبيرة وهى دار الفرقه ومدار الشقه ولوانتفاخت فى السلك لا تنظم جميع عسكرا الاسلام فى دار الشرك ولكن الكرم يلقي يديه وينقلب على عقبيه وينشاه الاسلام من خلفه ومن بين يديه ويفترى من مصر برا وبحرا ومن الشام سرا وجهرا ومن الجزيرة مدا وجزا ويكون خادمه قد وجب ان يقتل بقوله تعالى ولقد متنا عليك مرة أخرى) ومن كتاب آخر (كتاب اهدا والمدينة قد فحت أبوابها وعذقت بدولتها أسبابها وتكلم لسان علمنا فى قم قلعتها وبعد ان ليستمد ولتناوفا جمع عدلها فالحمد لله الذى تتم النعم بحمده ونجى الامل بقصده ما يفتح الله للناس من رحمة فلا عسك لها وما عسك فلا مرسل له من بعده) قال العماد ثم دخل السلطان مدينة أمد وجلس فى دار الامارة وحلف نور الدين بن قرا أرسلان على انه يظهر بها العدل ويقمع الجور ويكون سامعا مطيعا للسلطان من معاداة الاعداء ومصافاة الخلائق فى كل وقت وزمان وانه متى استمد من أمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان

كتاب (٤٢) الروضتين

واليه عطشان قال وكان هذا نور الدين في خدمة السلطان بنفسه وعسكره منذ عبر الفرات ثم ان رسل ملوك الاطراف اجتمع عند السلطان كل يطلب لصاحبه الامان وان يتخذ من جهة الاعوان منهم صاحب ماردین وصاحب ميافارقین وهما قريبان قری أرسلان فرد السلطان كل رسول بسوله وأجاب اقباله بقوله ثم رحل السلطان من آمد وعبر الفرات لخدمة حلب وولایتها فتسلم في طريقة تل خالديارعب ولم تكن منهم بالقرب فافر أهلها فيها ثم نزل على عين تاپ فبادر صاحبها صاحب الدين محمد بن بخاريكین الى خدمة السلطان فأعادته الى مكانه بالاحسان وقال ابن أبي طی تسم السلطان تل خالدي في رابع عشر المحرم وسماها الى بدر الدين دلدرم ومن كتاب فاضلي (نزلنا لى خالدي يوم الثلاثاء نائى عشر المحرم وكان قد تقدمنا الاجل تاج الملوك اليها وأناخ عليها وفابلها وقتلتها وعالجها ولوشاه لعالجها ولما أظلت عليها راياتنا اتى من يهايده وانجز النصر صادق موعدة وأرسلتها حلب مقدمة لفتحها وقد أنعم الله علينا بنعم لا تحصى اعدادا ولا نستقصي اعدادا ولا نستوعبها ولو كان المار طرسا والبحر مدادا ورايتنا المنصورة قد صارت مغناطيس البلاء لتجذبها بطبعها وسيفوفا قد صارت مهاجع الامصار تفتحها بنصر الله لا يجدها ولا يقطعها قلت وما أحسن ما قال البلغوى من قصيدة في السلطان

قل للملوك نخوعا عن مالكم فعداى آخذ الدنيا ومعطيا

(فصل) في فتح حلب قال القاضي ابن شداد لما عاد السلطان بدأ بتل خالدي فقتل عليها وقاتلها وأخذها في نائى عشر المحرم سنة تسع وسبعين ثم سار الى حلب فقتل عليها في سادس عشر المحرم وكان أول نزوله بالميدان الاخضر وسير المقاتلة يقاتلون ويأسطون عسكر حلب ساقا وسوا باب الجنان غدوة وعية وفي يوم تزوله جرح اخوه تاج الملوك وكان عماد الدين زنكي قبل ذلك قد خرج وخرب قلعة عزازى في تاسع جمادى الاولى سنة ثمان وسبعين وخرب حصن كفر لانا وأخذها من يكش فانه كان قد صارع السلطان ون تل باشر فلم يقدر عليها وجرت غارات من الفرنج في البلاد يحكم اختلاف العساكر قال ولما نزل السلطان على حلب استدعى العساكر من الجوانب فاجتمع خلق كثير وقتلها في الاشديدات وحقق عماد الدين زنكي انه ليس له به قبل وكان قد ضرس من ارتراح الامراء عليه وجبههم اياه فاشار الى حسام الدين طمانان بسفره لنع السلطان في اعادته بلاده وتسلم حلب اليه واستقرت القاعدة ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الامر ثم أعلنهم وأذن لهم في تدبير أنفسهم فأنفذوا عنه عز الدين جرديك وزين الدين باك فيقوا عنه الى الليل واستخلفوه على العسكر وعلى أهل البلد وذلك في سابع عشر صفر وخرجت العساكر الى خدمته الى الميدان الاخضر ومقدموا حبل وخلع عليهم وطيب قلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضى اشغاله وينقل أقسنته وخزائنه الى يوم الخميس ثالث عشر صفر وفيه توفي تاج الملوك أخو السلطان من الجرح الذى كان أصابه وشق عليه أمر موته وجلس للعزاء قلت وكان أصغر أولاد أيوب ذكر ابن القادسي ان مولده سنة ست وخمسين في ذى الحجة فيكون عمره اثنتين وعشرين سنة وشيئا وأنشد له شعر اوقال العماد الكاتب في كتاب الخريدة انه لم يبلغ العشرين سنة وله نظم اظيف وفهم شريف ثم قال القاضي أبو المحاسن وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين الى خدمته وعزاه وسار معه بالميدان الاخضر وتقرررت بينهما اقوا عدا وانزله عنده بالحنية وقدمه بتقديمه سنية وخيلا جميلة وخلع على جماعة من أصحابه وسار عماد الدين من يومه الى قرا حصار سائرا الى سنجار وأقام السلطان بالحنية بعد مسير عماد الدين غير اكثر ثم بأمر حلب ولا مستعظم لثأنها الى يوم الاثنين سابع عشر صفر ثم صعد في ذلك اليوم قلعة حلب مسرورا منه صورا وعمل له حسام الدين طمانان دعوة سنية وكان قد تخلف لخدمته تخلف لعماد الدين من قماش وغيره وقال العماد وصل السلطان الى حلب وفيها عماد الدين زنكي بن مودود الذى كان صاحب سنجار وقد تحصن بكثرة الاجناد والعدد وأراد مقابلة السلطان ومقاتلته وأراد السلطان ان يظفر بها بدون ذلك من القتال وعداوة الرجال لكن الشباب وجهال الاحباب راموا القتال وأحبوا النزال وتقدموا وأقدموا والسلطان ينهم فليتجهون وكان فيهم تاج الملوك بورى أخو السلطان قطع في فخذه ثم مات بعد ذلك بامام بعد فتح البلد وكان السلطان ذلك اليوم قد صنع وليعة لعماد الدين زنكي وكان السلطان أول ما نزل على حلب نزل في صدر الميدان الاخضر وذلك في زمن الربيع الا انهم ثم رحل ونزل على جبل جوشن ونهى عن القتال وقال نحن هاهنا

في اخبار (٤٣) الدولتين

نستغل البلاد وما علينا من الحصن الذي بلغ منه هذا العناد وانفذ رسول التهريب اليهم ففكر عماد الدين زكي في أمره ورأى ان الصواب مصالحة السلطان فانفذ رساله اليه حسام الدين طغان وصاحبه وحلفه على أن يسلم اليه حلب ويرد عليه بلده سخجار ففعل وزاده الحباور ونصبيين والرقه وسروج واشترط عليه ارسال العسكر في الخدمة للفرقة ومن كتب فاضليه (تسلخا مدينة حلب وقطعتا بدم ودمعت بها الحرب أو زارها وبلغت بها الهمم أو طارها وعوض صاحبها بما لم يخرج عن اليد لانه مشترط عليه الخدمة بنفسه وعسكره ومحتلط بالجله فهو أحد الاولياء في مغيبه ومحضره وعوض عماد الدين عنها من بلاد الجزيرة سخجار ونصبيين والحباور والرقه وسروج فهو صرف بالحقيقة اخذنا فيه الدينار وأعطينا الدراهم ونزلنا عن المشيخات وأحرزنا العوام وسرنا انما الخبث والكافر المحارب والمسلم هو والمسلم واشترطنا على عماد الدين الخدمة والمظاهرة والحضور في واقف الغزو والمصاره فانظم الشغل الذي كان نثرا وأصبح المؤمن بأخيه كثيرا وزال الشعب وأخذ الاله واتصل السبب وأخذت للفرقة الاله ووصلت الى غاية الطلب والالفة واتمه والمصلحة جامعه واسعة أنوار الاتفاق شافعه) ومنها (فتحنا مدينة حلب بسلم ما كشفت بحرمتنا قناعا وتسلخنا قلعتها التي ضمنت أن تسلم بعدها بمشيئة الله قلاعاً وعوض صاحبها من بلاد الجزيرة ما اشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالعدة الموفوره فبني بيدينا بالحقيقة لان مرادنا من البلاد رجاها لأموالها وشوكتها لازهرتها ومناظرتها للعدو ولا نضرنا وان يعظم في العدو والكافر نكايتها لان تعذق بالولي المسلم ولايتها والاوامر بحلب نافذه والرايات بأطراف قطعها آخذة وجاء أهل المدينة يستبشرون وقد بلغوا ما كانوا يؤملون وامنوا ما كانوا يحذرون وعوض صاحبها ببلاد من الجزيرة على أن تكون العساكر بمجتمعة على الاعداء مرصدة للاستدعاء فالبلاد بأيدينا لا مغنمها ولغيرنا مغرمها وفي خدمتنا ما لا نسمح به وهو عسكرنا وفي يدنا ما لا نرضى به وهو درهمنا شترطنا على عماد الدين النجدة في أوقاتها والمظاهرة على العدة عند ملاقاتها فلم يخرج منا بلدا الا بنا عدا عسكره وانما استبقينا فيه من يحمل عناموته ونذره وتكون عساكره الى عساكرنا مضافه ونقتل قوله سبحانه وتعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) ومنها (نشر الامير بما من الله به من فتح مدينة حلب التي هي مفتاح البلاد وتسلم قطعها التي هي أحد ما رست به الارض من الاوتاد فقله الحمد وابيقع الحمد من هذه المنه ونسأل الله الغاية المطلوبة بعد هذه الغاية وهي الجنة وصدرت هذه البشري والموارد قد مضت الى مصادرها والاحكام في مدينة حلب نافذه في يادها وحاضرها وقلتها قد أرفأ لواءها على أنفها وقبضت على عقبه بكفها واعتذرت من لقائه أمس برشقها ورأينا أن نقشاغل بما بورك لنا فيه من الجهاد وان نوسع المجال فيما نضيق به قلب الذين كفر وافي البلاد) قلت ولابي الحدس بن الساعاتي في مدح السلطان عن داراده فتح حلب نصيده منها

ما بعد ليقال للعافين من أمل * ملك الملوك وعذى دولة الدول

فانضى الى حلب في كل سابعة * سر وجه اقل تقنى عن القل

ما فتحها غير اقايد الممالك والى * داعي اليه جميع الخلق والمال

وما عصمت منعة لكنه غضب * علام أهلها اهل مال مبتذل

غارث وحقك من جاراتها فشتك * ما باله فيصاى غير محتفل

ولقاضي السعيد بن سناء الملك من قصيدة

بدولة الترك عزت دولة العرب * ويا بن أيوب ذلت ببيعة الصلب

ان العوام كانت أى عاصمة * لنفسها بتعالسها عن الرتب

جلسة النجم في أعلى مراتبه * وطالما غاب عنها وهي لم تقب

وما نعتهم كمعشوق تفتحه * أحلى من الشمعدان أشهى من الضرب

فرعنها بلا غيظ ولا حنق * وسار عنها بلا حقد ولا غضب

نطوى البلاد وأهلها كائنه * طيا كطوط الكاب للكاتب

أرض الجزيرة لم تظفر بحالها * بمالك فطس أو سائس درب

كتاب (٤٤) الروضتين

ممالك لم يدبرها مديرها * الأبرأى خصي أبو بعل صبي
حتى أتاها صلاح الدين فأنصلحت * من الفساد كما صحت من الوصب
وقد حواها وأعطى بعضا هبسة * فهو الذي يهب الله نيا لم يهب
ومدأت صدءه عن ربها حلب * ووصله لبلاد الغير بالحلب
غارت عليه ومدت كف مقتفر * منها اليه وأبدت وجهه مكثب
واستعطفته فوافتها عواطفه * وأكتب الصلح اذ نادته عن كتب
وحل منها بأفق غير مخفض * للصاعدين وبرج غير منقلب
فخ الفتوح بلاسين وصاحبه * ملك الملوكة ومولاها بلا كذب
وقال ابن أبي طي * وكان كثير من الشعراء يخرجون السلطان على فتح حلب منهم أبو الفضل بن حميد الحلبي له
من قصيدة

يا ابن أيوب لا برحت مدي السدر رفيع المكان والسلطان
حلب الشام نحو مرآة ولهي * وله الصب ريع بالمجيران

وقال ابن سعدان الحلبي من قصيدة

دونك والחסنة أم القسري * ونارها الانهب والطود الاثم
واركب الى العلية كل صعبة * أبيت لعنا وخلاك كل ذم
وارم فكل الصيد في جوف العري * لا صارم السهم ولا باني الحكم
مسد الى أخت السهارة زرة * لا فسرق يعقبها ولا ندم
فيها لها شماء مسخرة * تطارح البرق وساحات الديم
ايه صلاح الدب شذازرها * واعزم عليها فالزمان قد عزم
ودونك المنعة من قباها * وبابها المغلق في وجه الامم

قال وفي آخر يوم السبت ثامن عشر صفر فنهض السلطان الاصفهري سور قلعة حلب وضربت له البشائر وفي ذلك
الوقت تخفي عماد الدين وخرج من القلعة ليلا الى الخيم وأخذ في اخراج ما كان له بالقلعة من مال وسلاح وأتات وكان
استناب الأمير حسام الدين طمان في القلعة حتى توافي رسله بتسامي سجنار ونصيين والخنا برأى نوابه وأعطى السلطان
طمان الرقة لوساطته في أمر عماد الدين وكان السلطان شرط انه ما يريد من حلب الا الحجر فقط وأذن لعماد الدين في
أخذ جميع ما في القلعة وما يمكنه حمله فلم يترك عماد الدين فيها شيئا وباع في السوق كل ماله من كن من حمله وأطلق له
السلطان بغالا وخيلا برسم حل ما يحتاج الى حمله وعمل له يوم الاحد تاسع عشر صفر دعوة عظيمة في الميدان
الاخضر وأحضرها جميع الامراء ومقدمي حلب قال وبينما السلطان على لذته بالدعوة والاخذ والاعطاء والانعام
والحبا اذ حضر اليه من عرفه وفاة أخيه تاج الملوكة بسبب الضربة التي أصابته على حلب فلم يتغير لذلك ولا اضطرب
ولا انقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح وبذل الاحسان وأمر بستر ذلك وتوعد عليه ان ظهر وكظم حزنه
وأخفى رزيقه وسبر على مصيبته ولم يزل على سلاطته وبشاشته الى وقت العصر وفي ذلك الوقت انقضت الدعوة
وتفرق الناس فحينئذ قام رحمه الله واسترجع وبكى على أخيه ثم أمر به بفعل وكفن وصلى عليه وأمر به دفن بمقام
ابراهيم صلى الله عليه وسلم بظاهر حلب ثم جعله بعدنلا الى دمشق ودفنه بها قال وكان تاج الملوكة شابا حسن الشباب
ملج الاعطاف عذب العبارة حلوا الفكاهة ملج الرمي بالقوس والطنع بالرمح وكان شجاعا باسلا مقداما على
الاهوال وكان قد جمع الى ذلك المكرم والعتيق في الادب وله ديوان شعر حسن متوسط فنه

باهذه وأمانى النفس قربكم * ياليتها بلغت منكم أمانيتها
ان كانت العين مذكافتمكم نظرت * الى سواكم خلفاتها ما قبلها

قال ولما انقضت تعزية السلطان بأخيه خلع على الناس في اليوم الرابع وفرق في وجوه الحلبيين الاموال وفي

في اخبار (٤٥) الدولتين

سادس عشرى صفر ورد أصحاب عماد الدين وأحضروا اليه العلا ثم بتسليم سخيار ونصيبين والخباور في ذلك اليوم تسلم قلعة حلب وانزل منها الأمير طمان وأصحابه ولما سلمها الى نواب السلطان ركب عماد الدين في وجوه أصحابه وأمرائه وخرج الى خدمه السلطان ظاهرا وركب السلطان الى لقائه فاجتمعا عند مشهد الدعاء الذي بظاهر حلب من جهة الشمال فقاما ولم يزل أحدهما يصاحبه ثم جاء بعد عماد الدين ولده قطب الدين فترجل للسلطان وترجل السلطان له واعتنقه وعاد افر كياوسار هو وأبوه في خدمة السلطان الى الخيم بالميدان الأخضر فأجلس السلطان عماد الدين معه على طراوته وقدم له تقديما حسنة عشرين بقجة صغرى فامانه ثوب من العاني والاطلس والمعتق والمهرس وغير ذلك وعشرة جلود قندس وخمس خلج خاص برسمه ورسم ولده ومائة قبا ومائة ثوبه وحجرتين عربيتين باداهما وبقعة بن مسرو وجنتين وعشرة أكاديش وخمس قطر بغال وثلاث قطر جمال عربيات وقطار بجنت ولما فرغ السلطان من عرض الهدية قدم الطعام لما أصاب منه عماد الدين نهض للركوب وخرج السلطان معه وركب لوداعه وسار معه الى قريب من بابي ووذعه وعاد وسار عماد الدين الى بلاده قال وفي يوم الاثنين سابع عشرى صفر ركب السلطان وصعد الى قلعة حلب وكان صعوده اليها من باب الجبل وسمع وهو صاعدا الى قلعة حلب يقرأ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء الآية وقال والله ما سررت بفتح مدينة ~~كسر~~ ورى بفتح هذه المدينة والآن قد تبينت اننى أملك البلاد وعلت ان ملكى قد استقر وثبت وقال سعدت يوما مع نور الدين رحمه الله تعالى الى هذه القلعة فسمعه يقرأ قل اللهم مالك الملك الآية قال ولما بلغ السلطان الى باب عماد الدين قرأ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضهم تطروها ثم صار الى المقام فغسل ركبتيه ثم سجد فأطال السجود ثم خرج ودار في جميع القلعة ثم عاد الى الخيم وأطلق المكوس والضرائب وسامح بأموال عظيمة وجلس لاهناء بفتح حلب وأنشده جماعة من الشعراء منهم يوسف البراعى له من قصيدة

شرفت باسمى مجدك الشهباء * وتجلىتها بهجة وضياء

ألفت اليك قيادها وبها على * كل السلوك ترفع واباء

ومنها سبعين بن محمد الخريزى له من قصيدة وتقدم بعضها

وصبحت شهباء العواصم مصلتنا * قواضب عزم لا يفل شهرها

فامطيت منها غاريا فيك راغبا * وعاديسيرا في يديك عسيرا

وأوطأت منها الخصيىك تنوفة * بعز على الشعرى العبور عبورها

وردة البهار وح عدلائر وحها * وكانت ريمى لا يرحى شورها

قال وقال الودى أبو طوى النخار من قصيدة

حلب شامة الشام وقد زيد * تجللا لا يوسف وجلالا

هى اس الفخار من نال أعلا * هاتعالي نخامة وتقالا

ومحل العلا من حل فيها * تاه كبر او عزه وجلالا

من حواها ملكا ملك الار * ضاقت سراسر له ووجيالا

فافتترعها مائة مجمل * سمن الانجسم الوضاه وطالا

قال وحدثني جماعة من الحلبيين منهم الركن بن جهيل العدل قال كان الفقيه محمد الدين بن جهيل الشافعى الحلبى قد وقع اليه تفسير القرآن لابي الحكم المقرئ فوجد فيه عند قوله تعالى ألم غلبت الروم الآية ان أبا الحكم قال ان الروم يغلبون في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ويفتح البيت المقدس ويصعد دار الاسلام الى آخر الابد واستدل على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه فلما فتح السلطان حلب كتب اليه المجدين جهيل ورقة يشره بفتح البيت المقدس على يديه ويعين فيه الزمان الذى يفتحه فيه واعطى الورقة للفقيه عيسى فلما وقف الفقيه عيسى عليها لم نجاسر على عرضها على السلطان وحدث بمافى الورقة لمحبي الدين بن ركن الدين القاضي الدمشقى وكان

كتاب (٤٦) الروضتين

ابن زكي الدين وانتساب عقل ابن جهيل وانه لا يقدم على هذا القول حتى يحققه ويثبته فعمل فصيحة مدح السلطان بها حين فتح حلب في صفر وقال فيها

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر * قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

ولما سمع السلطان ذلك تعجب من مقالته ثم حين فتح البيت المقدس خرج اليه المجدين جهيل مهتاله بفتحهم وحدثه حديث الورقة فتعجب السلطان من قوله وقال قد سبق الى ذلك محبي الدين بن ركي الدين غير اني اجعل لك حظا لا يراجح فيه أحد ثم جمع له من في العسكر من النقة وأهل الدين ثم أدخله الى القدس بعدما خرج الفرج منه وأمره ان يذكر درسا من الفقه على الصخر فدخل وذكر درسا هنالك حظي بمال يحفظ به غيره فالت وسياقي في فتح بيت المقدس في فصل المتبر ذكر ما قاله أبو الهولكم في تفسيره وغيره مما يناسبه وبالله التوفيق وقال العماد ثم فتح حلب في صفر من هذه السنة ومدح القاضي محبي الدين بن الزكي السلطان بأبانت منها وفتحكم حلبا بالسيف في صفر * مبشر بفتح القدس في رجب

فوانق فتح القدس كما ذكره فكانت من الغيب ابتكره قال ويثبه هذا اني في سنة اثنتين وسبعين طلبت من السلطان جارية من سبي الاسطول المنصور في أبيات وهي

يؤمل الملوكة مملوكة * تبسّ دل الوحشة بالانس

تخرجه من ليل وسواسه * بطلعة تشرق كالشمس

فوحده الغربة قد حركت * سواك البلبال والمس

فلاندع يهدم شيطانه * ما أحكم التقوى من الاس

فوقع اليوم بطوبه * مما سبي الاسطول بالامس

لازلت وهابا لما حازه * سيفك من حور ومن لعس

وانتي امس من بعدها * كرائم السبي من القدس

قال جفاء الامر على وفق الامر فوهب لي ما أملت تمام القدس

(فصل) فيما جرى بعد فتح حلب قال ابن أبي طي كاتب الوالي بحارم الفرج واستدعاهم اليه مطعما لهم في الاستيلاء على حارم بشرط ان يعصوه من المذات الناصرة وعدم الاجناد بقلعة حارم مما عزم عليه فتقارروا بينهم في القبض عليه وكان هذا الوالي يرمل من القلعة ويصعد اليها في أموره واداته فاتفق انه نزل منها لبعض شأنه فوثب أهل القلعة لما خرج وأغلقت أبوابها وبادوا بشعار السلطان وكان السلطان راسل والي حارم وبذل له في تسليم حارم اليه في أشياء كثيرة منها ولاية بصرى وضيفة في دمشق على كاهها ودار العقبي التي كان يقبض الدين أبوب والدا السلطان بسكنها وحمام العقبي بدمشق وثلاثون ألف دينار عينا ولاخيه عشرة آلاف دينار فاشتط في السوم وتغالي في العوض فأنفذ اليه السلطان وتوعده وتمردده فكاتب الفرج يطلب تجديتهم وقيل ان نقب القلعة أراد ان تنفق سوقه عند السلطان ويحصل منه شيئا فكاتب السلطان بالعمل على الوالي فكاتب اليه السلطان بتقييم ذلك ووعدته بأشياء سكن اليها وجرى الامر على ما ذكرناه من اغلاق الباب في وجه الوالي وقيل ان النقيب وأهل القلعة لما أغلقوا الباب في وجهه شنوا عليه بمكاتبة الفرج ولم يكن فعل ذلك اقامة لعذرهم وقد فؤدوا بالحجارة ونادوا بشعار السلطان ولما اتصل بالسلطان هذه الاحوال أنفذ في الدين الى حارم ليدسها فامتنع النقيب وأهل القلعة من تسليمه اليه فرحل السلطان اليها بنفسه جريدة فلما أشرف عليها نزل اليه النقيب ووجوه القلاعيين وسلموها اليه في تاسع عشر صفر ولما حضر واعند السلطان حدثوه بكيفية الحال وكان بدر الدين حسن ابن الداية حاضرا فقال للسلطان يا مولانا تالفتقت الى هؤلاء فانهم آذوا هذا الوالي وكذبوا عليه حتى قوتوه ما كان السلطان وعده به وما قلت هذا الا عن تجربة فانتني لما كنت متوليا لهذه القلعة جرى على من كذبهم في حق وتعرضهم على أمور كدت بها أهلك مع نور الدين وهم كانوا سبب خروجي من هذه القلعة وما أرى ان السلطان يقرهم في القلعة على هذه التجربة فيفتح السلطان وأمرهم بما كان وعدهم به وأفضل عليهم وولى في القلعة غيرهم وقال لابن الداية

في أخبار (٤٧) الدولتين

ان بين أيدينا أمكنة نريد أخذها ومتى تمف بما نعد ونحزل الطعام لم يشق بنا أحد ويات السلطان بقلعة حارم ليلتين وعاد الى حلب في ثالث ربيع الأول فرتبها وقرر ولده الظاهر سلطانها وقرر له في كل شهر أربعة آلاف درهم وعشرين كمة وبقا وما يحتاج اليه من الطعام وغيره وجعل معه واليا سيف الدين أركش الاسدي وولى حسام الدين ميرك الحليفتي شحنة حلب وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد الدمشقي ودار الضرب فضرب الدرهم الناصري الذي سكته خان سليمان ونقل الخطابة من بني العديم الى أبي البركات بن الخطيب هاشم بسفارة القاضي الفاضل وولى القضاء لمحسي الدين ابن زكي الدين الدمشقي فاستتب فيه ابن عمه أبا البيان بنسأبن البياضي وولى الجسامع والوقوف لابي علي بن الجعي وقال العماد كان في قلعة حارم محالوك من ممالك نور الدين فغصى وتأبى عن تسليمها فأخرجه منها أهلها لما أنهم موه بمكاتبة الفرنج وأرسلوا الى السلطان فسلمها ودبر أمرها وأحكمها وقال ابن شداد انفذ الى حارم من يتسلمها وادفعهم الى الوالي فانفذ الاجناد الذين بها يستخلفونه فوصل خبرهم اليه يوم الثلاثاء ثامن عشرى صفر خلف لهم وسار من وقته الى حارم فوصلها ناسع عشرى صفر فسلمها ويات بهاليتين وقرر قوا عدها وولى فيها ابراهيم بن شروه وعاد الى حلب فدخلها ثالث ربيع الأول ثم أعطى العساكر دستورا فاسار كل منهم الى بلدته وأقام يقرر قوا عدها حلب ويدير أمورها قال العماد ورجفت انطاكية بعد ذلك رعبا فأرسل صاحبها جماعة من أسارى المسلمين واتقادوسار الى أمان السلطان وولى السلطان القضاء بحلب بحبي الدين بن الزكي فاستتب فيها بن الدين بنسأبن الفضل بن سليمان المعروف بيا بن البياضي وأكشف السلطان عن حلب المظالم وأزال المكوس وولى قلعته سيف الدين يازكوج وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد وجعل حلب باسم ولده الملك الظاهر غازي وكان استجبه من مصر عند وصوله الى الشام وأقر عين تاب على صاحبها وأعطى تل خالد وتل بانر بدر الدين دلدنر من بهاء الدولة بن ياروق وأعطى قلعة عزاز علم الدين سليمان بن جندر ثلثة وفي توقيع اسقاط المكوس بحلب من كلام الفاضل عن السلطان (وانتهى البناء بمدينة حلب رسوما استمرت الى يدى على تناولها والالسنه على يد اولها وفيها بالراحة ارفاق وبالزعايا اضرار ولها مقدار الاغنى من كل شيء عنده بمقدار منها ما هو على الاثواب المجلوبة ومنها ما هو على الدواب المركوبه ومنها ما هو في المعاش المطلوبه وقد رأينا بنعمة الله ان تبطلها ونضعها ونعطها وندهمها ونضرب عنها في أيامنا ونضرب عليها بأقلامنا ونسلك ما هو وأهدى سبيلا ونقول ما هو أقوم قبيلا ونكر ما كره الله ونحظر ما حظر الله وتتأجر سبحانه فانه من ترك شيئا لله عوضه الله أمثاله وأرجح من غيره في الرعية اليوم بما يوضع عنهم من أصرها ولنا غدا عيشة الله ما يرفع من أجرها فعلى كافة أوليانا وولا تناو أمرنا والمتصرفين من قبلنا ان لا يمووا البهايدا ولا يردوا ولو بلغ الظأ منهم موزدا ولا يتغوا بها ميزان المال فتخف ميزان الاعمال ولا يرغبوا في كثير الحرام فان الله يغني عنه بقليل الحلال وليعلم ان ذلك من الامر المحكم والقضاء المبرم والعزم الثم) وفي منشور أهل الرقة بمنى ذلك (ان أشقى الامر اعم من سمن كيبه وأهزل الخلق وأبعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق ومن ترك لله شيئا عاقبه ومن أقرض الله قرضا حسنا فاما أقرضه ولما انتهى أمرنا الى دفع الرقة أشرف فنامنا على سحت يؤكل وظلم بما أمر الله به ان يقطع وأمر الضامون ان يوصل فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافة الولاد من قبلنا ان يضعوا هذه الرسوم بأسرها ويلقوا الرعايا من بشارت أيام ملكنا بأسرها ونعتق بلد الرقة من رقتها وثبت أحكام المعدلة فيها بمجهود هذه الرسوم وبحققها وقد أمرنا بأن نسد هذه الابواب ونقطل ونسحق هذه الاسباب وتبطل وسنحطب سحائب الخصب بالعدل ونستنزل ويعني خير هذا الضرائب من الدواوين ويساخ بها جميعها جميع الاغنياء والمساكين مساحمة ماضية الاحكام مستمرة الايام دائمة الخلود خالدة الدوام تامة البلاغ لغة التمام موصولة على الاحقاب مستنونة في الاعقاب ملعونان من بضع اليها نازره وتناو لها يده او يمك عنها اليوم على طمع لا يوصله اليه غده) قال العماد وورد على السلطان وهو نازل على حلب بشارتان احدهما ان الاسطول المصري غزا في خامس عشر المحرم ورجع بعد تسعة أيام وقد تفرق ببطشة مقلعة من الشام فيها ثلثمائة وخمسة وسبعون عليهما من خيالة وتجار والثانية ان فرج الداروم نهضوا فنذر بهم والى الشرقية فخرج اليهم فالتقوا على ماء يعرف بالعسيلة فاستولى عليهم المسلمون بعد ان كادوا يهلكون عطشان لان الفرنج كانوا قد ملكوا الماء فاراهم الله بماء

كتاب (٤٨) الروضتين

السما فكتب الفاضل عن السلطان الى بغدادتين البشارتين وبغض حلب وحارم كتابا شافيا أوله (أدام الله أيام الديوان العزيز ولا زالت منازل ملكتهم انزل التقديس والتماهير والوفاء بأهلى المضارح من أبوابه موجبا للتقديم والتصدير والامة مجموعة الشمل بامامته جمع السلامة لاجع التكسير الخادم ينهى ان الذى يقتحمه من البلاد وينسله اما بسكون التعمد او بحركة تمامي الاغناد انما بعده طريقا الى الاستنفار الى بلاد الكمار ويحسبه حاحا بكنه به المطار الى ما يلبسه الكمار من الاقطار وعلى هذه المقدمة فهو يستمدح بك ظرفن من الاسلام برى وبحرى شامى ومصرى أحدهما وهو البحرى عودا أحد الاسطولين الذين أغزاهم أخوال الخادم أبو بكر بمصر وكانت مدة غيبته من حين خروجه الى وقت عوده الى دمياط تسعة أيام فظفر بسطة مقلعة من الشام فيها ثلثمائة وخمسة وسبعون علجا منهم خيالة ذووشكة وازعه وتجارا ولورثة واسعه والثانى وهو البرى تموض فرنج الداروم الى أطراف بعيدة فنذرهم والى الشريعة فركب اليهم الليل فرسا كمار كبوه جلا وسروا يقتلا وسروا زملأ فتوافى الفريقان الى ما يعرف بالعسيلة سيق الفرنج الى موردته والسابق الى الماء محاصر للسبوق وورد الرزقة فتعصب لارزقهم فظن المؤمن ان الكافر مرزوق واشتد بالمسلمين العطش ثم تابوا الى الفرنج بقوة اتحاد السما بما علف بنج من الفرنج الارجلان أحدهما الدليل والثانى الدليل وعاد المسلمون برؤس عدوهم فى رؤس القنا وقد اجتنبوا غراتها وباروا معهم فى رؤس الظبا وقد أطفأوا بجانها جراتها) ثم قال (و بنى الخادم بذكر ما متله من الاوامر العلية فى اغناد سيف مجرده من استمدعى تجريده ومورده من عرض له ورده) ثم (ذكر تسليح حلب وانه لا يؤثر الا ان تكون كلمة الله هى العليا لا غير وتغور المسلمين لها الرعية ولا ضير ولا تختار الا ان تدور جيوش المسلمين متحاشدة على عدو عا لا متحاشدة بعوتها ولو ان أمور الحرب تصلحها الشركة للمعاذ عليه ان يكون كثير المشاركين ولا أساءة ان تكون الدنيا كثيرة المالكين وانما أمور الحرب لا تتحمل فى التدبير الا الوحدة فاذا صبح التدبير لم يتحمل فى اللقاء الا العدة فعوض عباد الدين من بلاد الجزيرة سنجار وخابورها ونصيبين والرقه وسروج على ان المظالم تمت فلا ينشر مقبورها والعساكت تشتر رأية غزوها فلا يطوى منشورها وأجاب الخادم عباد الدين الى ما سأل فيه من ان يصالح المواصله معها استقاموا لعاد الدين لانه لم يثق بهم وان كان لهم أخطا ولم يطمئن الى مجاورتهم الى ان يضرب بينه وبينهم من عنانية برزخا فليخ الا ان عنرا لا جنبى اذا لم يثق ولتكن هذه نصيحة من عوتى فى سكره بحسن الطق فلم يثق ومن شرب له على المواصله المعونة بعد سكرهم فى غزواته والخروج من المظالم فما زاد على ان قال سالمو امسلا وادربوا كافرا واسكنوا الكون الرعية ساكنة وأظفروا ليكون حزب الله ظاهرا وهذه المقاصد الثلاثة الجهاد فى سبيل الله والكف عن مظالم عباد الله والطاعة لخليفة الله هى مراد الخادم من البلاد اذا فتحها ومغفنه من الدنيا اذا فتحها والله العالم انه لا يقتال لعش آلين من عيش ولا غضب بلاء العيان من زرق ولا طيش ولا يرد الا هذه الامور التى قد توسم انها تلزم ولا ينوى الا هذه الزية التى هى خير ما يسطرى فى المحببة ويرتم وكتب الخادم هذه الخدمة بعد ان بات بحلب ليلة وخرج منها الى حارم وكانت استخفظت مملوكا لا يملكه دين ولا عقل غرما هذبه نفس ولأهل فاعتقد ان يسلمها الى صاحب اظنا كيسة يسر الله فتحها اعتقادا صرح بعقله وشعره بكتبه ورسله وواطأ على ذلك نفر من رجال يعرفون بالسمية ولا يعرفون خالقا الامن عرفوه رازقا ولا يجهدون الامن برونه فى نهر النهار ساجا وفى بحر الظلام غارقا فشنر به من فيها من الاجناد المسلمين فمردوه ومن تابعه على فعله وظفر به المملوك عمر بن أخيه فى ضواحي البلد فأخذه وأرسله الى قلعة حلب وسار الخادم اليها فقبلها ورتب بها حامية ورباطه ولم يعمل على انهاء العمل طرف بل انها لا تعد واسطه والخادم كاطالع بما ضيه الذى حارزه الامس المذكور يطالع بمستقبله الذى ينجزه بمشيئة الله القصد المشكور فهو متاهب للخروج نحو الكفار لتسام رايته النصب ولا جهة سيره الرفع ولا جيشه الحجر ولا يصنى الى قول خاطر الراحة القند لا تنفر وافي الحار ولا يجيب دعوة الفراش المهد ولا يرجع على الظل الممدد ولا دمية القصر المشيد ولا يطف على ريحانة فؤاد يفارقه حولا ولا يلقاه يوما ولا يقم على زهرة ولا يستهل فنى ذكره الفطر على راحتته قال انى نذرت للرحمن صوما (ومن كتاب آخر أنفذ من نصيين سنة ثمان وسبعين الى بغداد) (سبيل الخادم ان يبنى ولا يهدم ويوفر جانبه ولا يثل وان يفرق بينه وبين من يسكون أعنة الجياد المسومة ولا يطلقونها ويكنزون

في أخبار (٤٩) الدولتين

ويكثرون الذهب والفضة ولا ينفقونها فقد علم ان الخادم يوت أمواله في بيوت دجاله وان مواطن تزوله في مواقف نزله ومضارب خيامه أكنة ظلاله وانه لا يذخر من الدنيا الا شكسته ولا ينال من العيش الا مسكته وعدو الاسلام شديد على الاسلام كلبه مضطرم على أهله لخبه زجل اذا أصغت اسماع انتأمل لخبه ولوان أحد من يدعي الملك مرانا وبعد البلادة ترانا دفع الى مدافعة هذا العدو الكافر والى منافرة هذا الفريق النافر لعرته الا يامها هو جاله ولقد تله الحرب ما هو قاتله ولجلته الاحوال ما تحوز زحمته محاله وفي كتاب آخر (واذا أولاه أمير المؤمنين نغم المبيت في وسطه وأصبح في طرفه واذا سوغه بلدا عجز في ظل خيمه ولم يقم في ظل غسره واذا باتت بسيف له ضجيجا واذا أصبح أصبح ومعتزك القنائل له ريعا لاصكال الذين يغبون أبواب الخلافة اغباب الاستبداد ولا يؤامر ونها في نصر غاتهم مؤامرة الاستبعاد وكأن الله لهم اقطاع لا يدايع وكأن الامارة لهم تخليد لا تتقليد وكأن السلاح هزدهم زينة لحامله ولا بسه وكأن مال الخلق عندهم ودية فلا عذر عندهم لما نعه ولا لحابسه وكأنهم في البيوت دمي مصورة في لزوم جذرها لافي مستحسنات صورها راضين من الدين بالعرف واللقبيه ومن اعلى كلمته بما سمعونه على الدرجات الخشبية ومن جهاد الخارجين على الدولة باستحسان الاخبار المهلبية ومن قتال الكفار بانه فرض كفاية تقوم به طائفة فيسقط عن الاخرى في آخرها ومن طاعة الخلافة بذكر اسمها والخروج عن سبيلها فلا يقنعون بانهم لا يجاهدون الى ان يمنعوا من يجاهد عنهم ويشاغر وبانهم لا يساعدون المسلمين الى ان يساعدوا عليهم عدوهم الكافر فقد توالوا الشيطان تليدا وطريقا ووطئا الاسلام وأهله وطاعة عنيفا فاذا جاء وعد الاخر جاء الله بهم في زمرة الشيطان لفيقا وقال في هذا الكتاب (ان المواصلة ما فرغوا الى دار الخلافة الا بعد ان فرغوا والافطام الماطع والهمم كما طمعوا وقد يمدادوا الى طاعتها فاسمعوا وسمعوا وانما اتبعوا حتى ان الاولين منهم علموا وأولياء الدولة من الانراك ضد ما جبلت اخلاقهم عليه من عقوقها وسنوا لهم اضاعة حقوق الله باضاعة حقوقها فابن كان التعلق بالدار العزيرة وهم يحاصرون دار الاسلام باخراجه وبرامون التاج الشريف بشابهم ويمسكون محاصرته بالاسلحة والمنجنقات والازدادوا الافامات ويصافون الخلفاء مصافة والمواقف ويكاشفونهم مكاشفة المخالف ويعززون دزدان تركيت وهي من أهون بلاد الله بجور الجوار ويجعلونها سجن المليك الخلافة ذوى الاقدار ولوتحرك اليوم متحرك لكانوا له بكانه ولكان له بكانه ويرجوا الخادم بالموصل ان يكون الموصل الى القدس وسواحه ومستقر الكفر من القسطنطينية على بعد مراحله وبلاد الكرج فلوان لهم من الاسلام جارا الاستباح الدار وبلاد اولاد عبد المؤمن فلوان لهم اسياف لاطفام فيها من النار ان تغلوكمة الله العليا وتملا الولاية العباسية الدنيا وتعود الكائن مساجد والمذابح المستعبدة معابد والصليب المرفوع خطبا في الموائد والنافوس الصاهل أنرس اللهمجة في المشاهد ويضيف الى الديوان بمشينة الله تعالى ما يجاور اكنافه ويمد اطرافه مثل تركيت ودوقا والبواريج وخوزستان وكيش وعبان والذي وقع أعظم من الذي يتوقع والذي طلع أكثر من الذي يتطلع والذي روى أمس أكثر من الذي يسمع قلت يعني ان ما فتحه من البلاد أعظم من هذه التي يرجوها وأشار بفعل المواصلة الى ما سبق من فعل زنكي في حصار بغداد ومساعدته للسلجوقية على العادة في ذلك الزمان والله أعلم وفي آخر كتاب فاضلي الى حطان بن منقذ بن النعمان عن السلطان (فتح الله علينا ممالك وأضافها وبلاد آمنابنا ما أخافها وبلغنا غرائب صنع لا يبلغ أحد أوصافها منها بلاد الشام بأسرها ومملكة حلب بجملتها والمدينة بقلعتها وبلاد الجزيرة بدجلتها فنها ما أعيد على من اشترط عليه استخدام عسكره في يكرنا ومنها استقر في اليد وولاته من أولياءنا وأوصارنا ولما لم يبق في البلاد الاسلامية الا ما هو في دينا أريد مطيع لنا كان من شكر هذه النعمة ان نصرف القوة ونثني العزيمه ونفقد الشوكه ونلبس الشكك للفرنج الملاحين فننازلهم ونقارعهم ونخاصهم الى الله وننازعهم فنظهر الارض المقدسة من رجسهم بدمائهم الى ان ترق السيوف للصخرة الشريفة لما هم بهم من قودة كفرهم واعتدائهم فحين نرجوان نكون عين الطائفة من الامه التي أخبر نديننا صواب الله عليه انها لا تزال على الحق ظاهره وبواب الله وعدوه ظافره والله تعالى يعيننا على ما يعيننا ويظهرنا الاستجابة لدعوته الى ما يجيبنا

(فصل ١٠) في رجوع السلطان الى دمشق وخروجه منها للفرار بمخاضة الاردن رحل السلطان من حلب فرعلى حياه ثم حص ثم بعلبك ثم دمشق قال القاضي ابن شداد لم يبق السلطان في حلب الا الى يوم السبت الثاني والعشرين من ربيع الآخر وانشأ عزما على الفرار فخرج في ذلك اليوم الى الوضيحي مبرزا نحو دمشق واستنص العساكر فخرجوا يتبعونه ثم رحل في الرابع والعشرين منه الى حماه فوصلها ثم رحل في بقية يومه ولم يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الاولى فاقام بها ثمانية ايام الى السابع والعشرين منه ثم رزق ذلك اليوم وزل على جسر الخشب وتبعته العساكر مبرزة وأقام به تسعة ايام ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة حتى أتى القوار وتبعه فيه الحرب وسار حتى نزل القصر فبات به وأصبح على المحاض وعبر وسار حتى أتى بيسان فوجد أهلها قد ترحلوا عنها وتركوا ما كان من ثقل الاقشة والفلال والامتع بها فتهبها العسكر وغنوا وأحرقت ما لم يمكن أخذه وسار حتى أتى الجالوت وهي قرية عاصره وعند هاهنا جاريه فحجم بها وكان قد قدم عز الدين جديك وجماعة من المماليك النورية وجاءوا بمجمل أسد الدين حتى تكشفوا فاجه الفريخ فاتفق انهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين بجدة للفريخ فوقع أصحابنا عليهم وقتلوا منهم مقتله عظيمة وأسروا منهم زهاء مائة نفر وعادوا ولم يبق من المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشاوي فوصل اليه في بقية يوم الكسرة الواقعة وهو العاشر من جمادى الآخرة وفي سادى عشره وصل الخبر الى السلطان ان الفريخ قد اجتمعوا في صفوريه ورحلوا الى القولة وهي قرية معروفة وكان غرضه انصاف فلما سمع ذلك تعجب للقتال وسار لقاء العدو فالتقوا وجرى قتال عظيم وقتل من العدو جماعة وجرح جماعة وهم بنضم بعضهم الى بعض يحرق راجلهم فارسهم ولم يلحقهم والمصاف ولم ير الواسئين حتى أتوا العين فقتلوا عليها ونزل السلطان حولهم والقتال والجرح يعمل فيهم ليجرحوا الى المصاف وهم لا يخرجون خوفاً من المسلمين فانهم كانوا في كثرة عظيمة فرأى السلطان الاتراح عنهم فلهذه رحلوا من فيضرب معهم مصاف فرحل نحو الطور سابع عشر جمادى الآخرة فنزل تحت الجبل مرقباً راجلهم ليأخذ منهم فرصة فاصبح الرابع عشر راجعين وعلى اعقابهم ناصب فرحل وجهه الله نحوهم وجرى من رمى الشباب واستباحهم للمصاف أمور عظيمة فلم يخرجوا ولم يلزم السلطان حولهم حتى نزلوا القولة راجعين الى بلادهم وعاد السلطان منصوراً وقد مال منهم قتلوا وأسروا وخرب كفر بلا وبيسان وزرعين وقرى عديدة فقتل القوار وأعطى الناس ستوراً فامروا من أثر المسير وأتى هود دمشق يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة قال فانظر الى هذه المهمة التي لم يشغلها عن الفرار أخذ حلب ولا الظفر بها بل كان غرضه رحمه الله عليه الاستعانة بالبلاد على الجهاد والله يحسن جزاءه في الآخرة كما وفقه للاثمالات المرضية في الدنيا وقال العماد خرج السلطان الى القزو ورابط العدو بعين الجالوت وعبر المخاضة الحسنية نام جمادى الآخرة فوصل الى بيسان وقد أخلأها أهلها فاطلق الناس فيها التيران ونهبوا ما فيها وكذلك فعلوا ابراج وتلاع وغيرها وصادفت مقدمة العساكر لا يروى ولا يرجع للافريخ عابرين من نابلس ومقدمهم ابن هذفرى قتل منهم وأسروا وتوالت الباقون في الجبال ووصل الخبر بان الفريخ قد أقبلوا في ألف وخمسمائة رجع ومثله تركبى وخمسة عشر ألف راجل فأتاهم المسلمون وذلك على عين الحادوت فاخذهم الرعب وقهوا ما وعى الاقدام عليهم فخذلوا أحوالهم وأسندوا ظهورهم الى الجبل وأقاموا كذلك خمسة ايام فلما رأى المسلمون منهم ذلك رجعوا عنهم فتنفس خناقهم ونكصوا على اعقابهم الى الناصرة وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى لم يخلص العدو منها شيأ وذلك يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة وقد كانوا مدة مقامهم يحفظهم المسلمون من كل جانب ويرمونهم بالنبل ويتنظرون ان يجاوروا أولاً كما هو عادتهم فما فعلوا ومن كتاب فاضلى عن السلطان الى بغداد لما كان بتاريخ الثامن من جمادى الاولى سار الخادم من أدنى المنازل من بلاد الاسلام الى بلاد الكفر وقد تكاملت جنود الاسلام وتعبت ميامنه وميامره وأخذت أهله وشهدت قصبه وابعوا الله ما اشتراه ومثل لا عينهم ثوبه فكاكها نراه وساروا تحت ليل عجاج ستر السائر تحت سراه وأصبح الخادم وياهم بعين الله في سبيله على ماء الاردن وهو النهر الفاصل بين الاسلام والكفر والمخاضة المضروب منها بسور على ذلك القطر فحاض ذلك البحر وذلك النهر وامتدته نطف الحديد فاذا المايرة على بالشروق ويقذف بالجر وذلك يوم الخميس ثاني يوم المسير وهو ناسع الشهر ولما جاز المخاضة أخذ البلاد ضرب المخاض وزلزلت أرضها فاهى بالقوم ترس وللغنية

في اخبار (٥١) الدولتين

نراض وأخذت رجال الاسلام تنقص الارض من أطرافها وتقطع قلاع الجبال وتطير رؤسها من أكافها فإذا البلاد قد انهمز أهلها فالحقها المسلمون مساكنها في الهزيمة وعولوا فيما على سيوف المعاول فإذا هي راحلة وكانها مقيمة وهذه البلاد مدن ما كان عزم قبل منها مدنها وعمارات ما كان أمل اليها مفضيا بل طال ما كان عنها مفضيا مثل بيسان وكفر بلا وزعير وجنين كلها بلاد مشاهير لها قري معله وبساتين مظهره وأنهاره مظهره وقلاع مظهره وأسوار قدضت على جهاتها وأحاطت بجنباتها واتخذتها المدن سياجا على قصباتها فعم المسلمون ما فيها من أقوات تحتزنها وسفوها منها خزانات القلوب المضطغنة وأحرقوا أوعية كمرها بالنار وعذبوها عذاب أهلها من الكفار وقتلواها وكان الضرام كن هادما وكتبوا عليها الخراب وكان السيف كان فيها اقلاما فاجلوا عن حماها جمعا وتساقت جدرانها فأكادها أسارت فيها النوى لما ولما كان يوم السبت الحادى عشر ورد الخبر بان عسكر الكافرين قد ركب من مكان مجتمعه وزحف بلايسه ومدت رعه فركب الخادم وسوى المؤمنين في مواقف القتال ومنارل النزال فمن متسرع يطوف عليهم بصفاح ليطاف عليه بصحاف ومن مثبت يشى الى الموت مشى العروس ساعة الزفاف وهما لا ينظرون المؤمنين لو ان أميرهم لم ناظر كما هو به أمر ولا غرو ان يصفه الخادم ليسر الخدم لا لوصف الخادم ومن وصف ضربة السيف فاعا وصف الضارب ولم يصف الصارم ونزل العدو الى الارض مضطاعا عن سرجه ومخازا عن جفه وسالكها غير نهمه وأحرق به راحله وهوزهاه عشرين ألف راجل وركب صليب صليوته فاستوى في البحر المحول والحامل ونزل محصورا وخندق فكانما أصبح الكافر في حفرة لك الخندق مقبورا وأقام بازائه خمسة أيام غاسيه الوقائع وتصابحه وتماشيه للرائع وتصابحه ويقزع فيه الى الحفير ويتكر راليه في اليوم الواحد انفيرو بيعت اليه السم وهو في الحرب السغير فقبل تحية الضرب مرتدة ولا ردّها وتسم اليه صفحة الصل متوددة فلا يؤدّها ويحتد في استخراجه وقد رأى العزائم ولم يخرج له عونتها والمكارم ولم ير حل لبغيتها) ومن كذب آخر الى وزير بغداد (اناروا على يوم الكفر ليله عجاج جعلت ليل من وراهم من الاسلام سكا وصبروا وصابروا فكان ما كان السيف لهم أليفا وكان المعتز لهم وطننا وأخذت في البلاد اناسا ماخذها ونفذت فيها العير منافذها وثلاث عروشها وثلاث غروشها وجليت في مصبات النيران عروشها وأصبحت تناجى العيون نراكلها وتصف النوازل منازلها مدنا على الاطلاع مطالوله وصري يسوف البلاء مقوله وجاء العدو فأحدث به الابطال وتجزت عادة حمله فطلت وما كان خلقها المطال فلما كثر الله المسلمين في عروهم ورأوا به المالم كونوا به قتلها بنظنهم واستمجدوا ما على الشكوى لتبوح بها السنتهم اذا خلوا الى شياطينهم فأخذوا الى الارض زارلين وقعدوا عن الجلة تاكين واتقى فارسهم براجله وراحمهم بناله ولاذ سيفهم بحفنه ولاذ خيره في حامله ولاذ حفنه باطرافه خوفا من كنه بسهم قاتله وأقاموا محصورين لا يستطيعون وردا ولا صدرا ولا يجدون منقذما ولا متناخرا فما كان للكفر فتنة ينصر منه من دون الله وما كان منتصرا وعرف النصل في لحن السيف ان الشجاعة والذكول أمر ان يقدفهم ما الله في القلوب فلا يقل الناس كيف

(فصل ١٠) في ولاية الملك العادل حلب وولاية تقي الدين مصر وغير ذلك قال العماد وقد كان العادل نائبا بمصر فلما فتح السلطان حلب كتب العادل اليه يطلب منه مع أعماله ويدع الديار المصرية فكذب السلطان اليه ان يوانيه الى العسكر فانه سائر الى تخه فأشار القاضى الفاضل على السلطان ان يستنصب في الديار المصرية موضع أخيه العادل ابن أخيه تقي الدين فاستعجبه السلطان معه في رجب الى الكرك هذه السنة وخاف طريقه قبل وصوله اليها غنائم وخيم على الزبة ثم حصر الكرك ورماه بالمجانيق صباوحا ومساء وتناوب عليه الامراء حتى خرج شهر رجب وما حصل منه الطلب لكن عظام النكاية في الكفار بأخذ أموالهم وتخريب الديار ووصل الخبر ان الفرنج قد استجمعوا وتجهوا بالموضع المعروف بالواله على قصد المسلمين وخلاص الكرك من أيديهم ورأى السلطان ان أمر حصره يطول فعزل على الرحيل الى دمشق ووصل العادل الى السلطان وهو بعد على الكرك فجهز تقي الدين الى الديار المصرية واليا عليها وقرى عضده بصحبة القاضى الفاضل له وتولى العادل حلب وأعمالها ومنهج جميع قلاعها فسار اليها في رمضان ورجع منه الى دمشق الملك الظاهر وتواب السلطان قلبه وكتب العادل الى الفاضل

يستشير به في التعوض عن مصر بحلب فكتب إليه الفاضل كتابا فيه

انما أنت كغيث ماطر * حيثما صرفه الله انصرف

(والمولي أعلم وبسياسة الدنيا أقوم وقد تكرر الكتاب الناصري اليه بانص عليه وكشف له الغطاء وسنى له العطاء وقالت له المخطوبة هيت لك وأذى اليه مالا الامر ما قدم لك فلا زالت سعادته أنور من شمس وأدور من فلك ولا زال رابحا على الدهر ان امره خسر وما قبان امره هلك) ومن كتاب آخر اليه (أدام الله دولة حاى الحى وثبت الدولة الناصرية التى يقوم بها ملكان هما ان هذا اصلاح يمنع فساد وهذا سيف يحقق دما) قال ابن أبى طى كان السلطان يعظم الملك العادل ويعجز برأيه في جميع أموره ويتبين بسورته ولا يعلم بأنه أشار على السلطان بأمر فخالفه حدثني قاضى اليمن جمال الدين قال كان السلطان يجمع الامراء للمشورة فان كان العادل حاضر اسمع من رأيه وان لم يكن حاضر الم يقطع أمر افي المهمات حتى يكتبه بجيلة الاحوال ثم يسمع رأيه فيها قال وحدثني أبى قال حدثني جماعة قالوا كان السلطان ليس له غناء عن العادل ولا عن رأيه فلما حصل العادل بمصر وبعد عن السلطان هناك صار السلطان يتكلف في مكاتبة بالاجبار ويؤخر الامور الى ان يرد عليه جوابه فيقوته بذلك كثير من المنافع الحاصلة للدولة وللجهاد فلما حصر الكرك في هذه السنة كاتبه بالحضور اليه بعياله وأمواله وجميع أصحابه وولى مصر تقي الدين ولما حصل العادل عند السلطان وتغى نفسه ان يعرضه عن ولاية مصر ثم حارفي ولاية بوليه اياها قال وحدثني علم الدين قيسر الصلاحى قال انما أقدم السلطان العادل من مصر لاجل ولاية حلب وبذلك كاتبه ولما خرج العادل بأمواله وعياله وأثقاله قال وحدثني غيره قال لما حصل العادل عند السلطان بأمواله وأثقاله كانت الاموال قد قلت على السلطان وقد حصلت عند عساكر عظيمة فأحضر العادل ليلا وقال أريد ان تقرضنى مائة وخمسين ألف دينار الى المسور فقال السمع والطاعة ثم قام وخرج من عنده وكتب اليه بقول أموالى جميعها بين يديك وأنا مملوكك وأستبى ان أحمل هذا المال الى خدمة السلطان ويككون عوضا عنه مدينة حلب وقلعتها فأحابه السلطان ابنى والله ما أقدمت لك الا لا وليسك حلب واذا قد افترحت ذلك فقد وافق ما عندى فلما أصبح العادل أنفذ رسال السلطان ان يكتب له بمدينة حلب كتابا ويوصله ككتاب البيع والشراء فامتنع السلطان وقال انما تكون حلب اقطاء والمال على له فاعذّر العادل الى السلطان ولما اتفقما قال له السلطان انا من البلاذ يتباع وأما علقت ان البلاذ لا دلهما المرابطين بها ونحس خزنة المسلمين ورعا قلدين وحراس لا مواهم أو ما علمت ان السلطان ملك شاه السجوقى لما وقف طبرية على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاة ولا من الفقهاء ثم قرّر السلطان ولاية العادل لحلب وأعمالها الى رعبان الى الفرات الى حماء وكتب له التوقيع وقرّر عليه ما لا يحمله برسم الزرد خانات وخزانة الجهاد ورجالة من الحلبيين ورحل السلطان الى دمشق واستدعى ولده الظاهر من حلب فلما حضر أمره بالعود الى حلب وتسلمها الى عمه العادل ففعل وعاد الى دمشق وسار العادل الى حلب فالتقى بالرسن وباتاقه فكانت ولاية الظاهر بحلب فى هذه النبوة نحو ستة أشهر ولما واصل الظاهر الى دمشق أقبل على خدمة والده والتغرب اليه الا ان الانكارا خرج حلب عنه ظاهر عليه وهو مع ذلك لا يظهر شيئا الا الطاعة لو والده والاتقياد الى مرضاته حدثني أبى عن مجد الدين بن الخشاب قال حدثني الملك الظاهر قال لما بلغنى ان السلطان أعلى حلب للملك العادل لجرى على ما قدم وما حدث وأصاحى من المهم ما لم أقدر على النهوض به ووددت انى لم أكن رأيتها ولادخلت اليها لان قلبى أحبا وقبلها وطاب لى هوأها ولما فارتها كنت أحن اليها وأشتهتها قال ودخل العادل حلب فى رمضان وحل على المتقدمين والاعيان وكان قد قدم بين يديه كاتبه المعروف بالصنعية لتسلم حلب وقلعتها من الملك الظاهر وولى القلعة صارم الدين برغش وولى الديوان الاقطاعات شجاع الدين بن البضاوى صباغ ذنته وولى الانشاء وما يتعلق بأموال السر للصنعية ابن النحال وسكان نصرانيا ثم أسلم على يد العادل فولى ابن النحال الوظائف لجماعة من النصارى وفى ذلك يقول الشاعر

فان دين المسيح فى دولة العا * دل حتى علا على الاديان

ذا أمير وذا وزير وذا و * لو ذا مشرف على الديوان

في أخبار (٥٣) الدولتين

قال ولم يزل الملك العادل يهذب أمور حلب الى السادس عشر ذي القعدة ثم خرج متوجها الى دمشق بسبب ان السلطان اجتمع عنده في ذي القعدة عدة من رسل منهم رسل الخليفة ورسول طغرلن البهوان ورسول قزل آي البهوان ورسول شاه أرمن صاحب خلط ورسول الموصل ورسول عماد الدين صاحب سنجار ورسول قليج أرسلان صاحب الشمال فاراد السلطان احضار العادل لسماع الرسائل ولحضور الاجوبة عنها وتقرر أمور الفتح ويوم وصل العادل الى دمشق أحضره السلطان لسماع الرسائل وسمع ما عنده في الاجوبة ولم اقضى اجوبة الرسل ودفع السلطان وعاد الى حلب قال ولما بلغ سيف الاسلام ان السلطان كتب لتقي الدين عهد ابولية مصر عتب لاجل ذلك فكاتب السلطان له عهد ابولية لاجل جميعها قال وأقطع السلطان تقي الدين الاسكندرية ومياط وجعل لخاصة البحيرة والفيوم وبوش ثم عوّضه عن بوش بمنود وحوف دميس وذكر غير ذلك قال العادل انهم السلطان على تقي الدين بالاعمال الفيومية وسائر نواحيها بجميع جهاتها وحواليها وزاده القبيبات وبوش وأبقى عليه بالبلاد الشامية مدينة حماه وقلعتها وجميع أعمالها وواصل تقي الدين الى مصر اقتدى بالتدبير القاضي وكان السلطان لا يؤثر مفاقرته فثالم يجد من توجيه تقي الدين الى مصر بدا وكانت فيه حدة لم تكن في العادل احتاج في تقويمه الى نذبه لاجل الفاضل قال القاضي ابن شداد وقتل على الكرك في هذه الكركنة في الدين بزغش النوري شهيد ارحمه الله ثم رحل السلطان عنها مستحبة أخاه العادل الى دمشق فدخل دمشق في رابع عشر شعبان وأعطى العادل حلب في ثاني شهر رمضان فسار في ذلك اليوم نحوها فوصلها وصدق القلعة في يوم الجمعة الثاني والعشرين من رمضان وكان بها ولد السلطان الملك الناصر ومعهم سيف الدين يار كوج بيد برأسه وابن العميد في البلد وكان الظاهر أحب أولاده الى قلبه لما قد خصه الله به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السميت والنخف بالملك وظهور ذلك عليه وكان من أبر الناس بوالده وأطوعهم له ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها فخرج من حلب لما دخلها معه العادل وبارك كوج سائر بن الى خدمة السلطان فدخل دمشق يوم الاثنين ثامن عشر شوال فأقام في خدمة والده لا يظهر له الا الطاعة والانقياد مع انكسار في باطنه لا يخفي عن نظره والده قال وفي ذلك الشهر وردنا على السلطان ورسلا من جانب الموصل وكنا قد ترسلنا الى الخليفة الناصر لدين الله في انفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين رسولا وشفعنا الى السلطان فبهره معنا من بغداد وكان عزيز المروءة عظيم الحرمة في دولة الخليفة وفي سائر البلاد وكانت مكانته عند السلطان بحيث يتدبره اذ كان عنده في معظم الايام قال وكان الشيخ قد وصل الى الموصل وسار منها بعد ان سار في محبته القاضي محي الدين بن كمال الدين وكان بينهما محبة من الصبا وكنت مع القوم وسراحتي أتينا دمشق وخرج السلطان الى لقاء الشيخ ونحن في خدمته وأقفاً يا ملازج في فصل حال فلم يتفق صلح في تلك الدفعة وخرجنا راجعين الى الموصل وخرج السلطان الى وداع الشيخ الى القصر واجتهدوا في ذلك اليوم ان ينقضي شغل فلم يتفق وكان الوقت من جانب محي الدين فان السلطان اشترط ان يكون صاحب اربل والجزيرة على خبر ثم ما في الانتماء اليه والى صاحب الموصل فقال محي الدين لا بد من ذكرها في النسخة فوقف الحال وكان مسيرنا يوم الخميس سابع ذي الحجة قال وفي تلك الدفعة عرض علي السلطان مواضع اليها بصبر على لسان الشيخ فاعتذرت ولم أقبل خوفا من ان يحال توقف الحال على ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريعة مني أمر لم أعرفه الا بعد خدمتي له وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب فوصله رسول سنجر شاه صاحب الجزيرة فاستخلفه لنفسه وانتمى اليه ورسول اربل وحلف لهم وسار واوصل اليه أخوه العادل يوم الاثنين رابع ذي الحجة فأقام عنده وعيد وعاد الى حلب قال العماد وصلت رسل صاحب الجزيرة رمة عز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي ورسول صاحب اربل زين الدين يوسف ابن علي كوجك بن بكتمكين ورسول صاحب الحديث وتكرت يشكون من صاحب الموصل ويطلبون ان يكونوا من أولياء السلطان المنتهين اليه ففعل السلطان ذلك وكان أبو سنجر شاه بن سيف الدين غازي هو صاحب الموصل بعد والده مودود كما تقدم ذكره فعهد اليه سنجر شاه بما قبله عليها معه عز الدين مسعود بن مودود فقبضت الجزيرة بريد سنجر شاه وهو من تحت يده وفي ثلثه منه ما فيه وكانت اربل وأعمالها وما يليها كلها مضافة الى الموصل وصاحب الموصل هو الحاكم على جميعها فنظم طلب هو الانحياز الى خدمة السلطان فأجابهم وسمع بذلك صاحب الموصل

كتاب (٥٤) الروضتين

فاستشفع بدار الخلافة الى ان أرسل منها شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير الى السلطان ان يجدد لصاحب الموصل الايمان ويكون له من جملة الاعوان حربا لمن حاربه سلما لمن ساله وجاه رسول صاحب الموصل قاضي القضاة محيي الدين أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهري وري وزرع في أداء الرسالة وأغلظ في الكلام فالان له السلطان وقال أنا أقضي حاجته علي ما أورد ولكن قد سبق مني عين لا وملك السلاطين فانا استثنيتهم وأردتهم الى اختيارهم لي أوله فإني ذلك وأرا ان تكون الصداقة له دون سائر ذوى الممالك وأشار الى ان لهم من ينصرهم من جهة البهلوان ملك العجم فعظم ذلك على السلطان وكان ذلك محر كاله الى ان يعود الى الموصل ورجعت الرسل على ذلك غير ناطقين بطائل وكان منزل شيخ الشيوخ خرابا على المتبيع ومنزل القاضي محيي الدين في جوسق بستان الخخال وشهاب الدين بشير بجوسق الميدان وتوفي ولد شيخ الشيوخ بدمشق وكان في محبته فدفنه في المقبرة المحاذية للرباط وحضر عنده السلطان وجاعة الامراء العزاة

(فصل) في باقي حوادث هذه السنة قال العماد وكانت شتوة هذه السنة كثيرة الامطار وكثرت مكاتبات العماد للفاضل وأورد في بعضها أياها تامها

عذر الزمان بأى وجه يقبل * ومحسبك بالصدفة يقتل
ما لى سوى انسان عيني مسعدا * بالدمع انسان عليه أعول
الدهر ليس كله في ناظري * لاصبح الا وجهك المتهايل
خير من بين النيمة والمنى * لا تنجروا فاموت عندى أسهل
يا غائبين وهم يفكرى حضر * يا را حلين وهم يقطنى نزل
ما للسلطان الى فؤادى منهج * ما للصباية غير قلبى منهل
لا تعدلوا عني فالى معدل * عنكم وليس سوا كلى موئل
كل الخطوب دفعنها بخلدى * الا التفرق فهو حطب معضل
ان لم يجدنى طيفك في زورة * فلا تخنى منه أدق وأنحل
لا صبر لى لاقبلى لا غمض لى * لا علم لى بالبين ماذا أفعل

قال ابن الاثير وفي جمادى الاولى من سنة تسع وسبعين قبض عز الدين أنابك على مجاهد الدين قايمار وهو حينئذ نائبه في بلاده واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر في مضرة صاحبه وكان الذى أشار به عز الدين محمود زلفندار وشرف الدين أحمد بن أبى الحسير الذى كان أبوه صاحب الغزاف وهما من أكابر الامراء فلما قبضه كان يسده أربل وشهر زور ودقوا بخزيرة ابن عمر وكان بهما عز الدين بنجر شاه بن سيف الدين صغيرا والحكم فيها الى مجاهد الدين ولهم أيضا قلعة العقر فحين قبض امتنع زين الدين يوسف بن زين الدين على باربل وكان فيها لاحكم له مع مجاهد الدين وامتنع معز الدين بالجزيرة وأرسل الخليفة الناصر لدين الله عسكرا حصد دقوا فهاكها ولم يحصل لعز الدين الا شهر زور وصارت هذه البلاد التي كانت يسده أرض شتى على الموصل ربي مقبوضا فخرجوه وأعادته الى ولاية قلعة الموصل الا ان الذى أخلفه من السلاطين لم يعد الى طاعته وقبض عز الدين على من كان أشار عليه بقبض مجاهد الدين قال ابن الاثير وعلى الحقيقة ليس على الدول شئ أصغر من ازاله المدبر لها واقامة غيره فان الاول يكون كالطبيب الحاذق العارف بمزاج الانسان وممرضه وعلاجه وما يوافقه ويؤذي فالى ان يعرف حاله ينفسد كثر ما يصلح قال ابن القادسي وفي هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الابله الشاعر وهو من أسماء الاضداد واسمه أبو عبد الله محمد بن بختيار بن عبد الله وكان فصيحها هجاء وله أشعار رقيقة منها

زار من أحباب زورته * والدجى في لون طرته

يا لها من زورة قصرت * فألمات طول جفوته

(ثم دخلت سنة ثمانين) قال العماد وقد تراسل ليرد فلما طاب الزمان توجه السلطان بالعساكر المنصورة الى الكرك مرة أخرى وأرسل الى تقي الدين بجاء بالعساكر المصرية والاجل الفاضل وتابعت العساكر المصرية والملك العادل

في اخبار (٥٥) الدولتين

وجاء نور الدين بن قرا ارسلان صاحب الحصن وأمدو صاحب دار وأخو صاحب سنجار وعسكر مازدين فاجتمعت العساكر برأس الماء وأشفق السلطان على ابن قرا ارسلان من اقتحام المساق فأقامه برأس الماء بجوران الى حين العود وأمر العادل بالاقامة معه وقال القاضي ابن شداد سير السلطان الى العساكر يطلبها فوصل ابن قرا ارسلان نور الدين الى حلب ثامن عشر صفر فآكرمه الملك العادل أكراما عظيما وأصعد القلعة وبسطه ورحل معه طالبا دمشق وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفا فاد الله تعالى وبما بلغه وصول ابن قرا ارسلان خرج الى لقائه وكان رحمه الله يكرام الناس مكارمة عظيمة فالتقاء على الجسر بالبقاع في ناسع ربيع الأول ثم عاد الى دمشق وخلف نور الدين واصلا مع العادل فتأهب للقتال وخرج مبرا الى جسر الحسب ووصل العادل وابن قرا ارسلان دمشق فأقاما بها أياما ثم رحلوا ليتحققوا بالسلطان ورحل السلطان من رأس الماء ثاني ربيع الآخر طالباً للكرك فأقام قربها منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر الى ناسع عشر فوصل في الدين واجتمع به ومعه بنت العادل وخزائنه فسيرهم اليه وتقدم اليه ولابية العساكر بالوصول اليه الى الكرك فتتابع العساكر الى خدمته حتى أخذوا بالكرك في رابع عشر جمادى الاولى وركب المجانيق عليه وقد التقت العساكر المصرية وآسامية والجزرية وبالمبلغ الفرنجي ذلك خرجوا برجلهم وفارسهم الى الدب عن الكرك وكان على المسلمين فيه ضرر عظيم فانه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج الامع العساكر الى فاهم السلطان بأمره لتكون الطريق سائلا وبسر الله ذلك وله الحمد والمنه ولكن كان فتحها بعد ذلك ولما بلغ السلطان خبر خروج الفرنج تجمي لاهتال وأمر العساكر ان تخرج الى ظهر الكرك وسير النفل نحو البلاذ وبقي العسكر بركة ثم سار السلطان بقصد العدو وكان الفرنج قد تزلوا بوضع يقال له الواله وسار حتى نزل بالبلقاء على قرية يقال لها حسان قبالة الفرنج في طريقهم ورحل منها الى موضع يقال له ماء عين والفرنج مقيمون بالواله الى السادس والعشرين من جمادى الآخرة ثم رحلوا فاصدبن الكرك فسار بعض العسكر وراءهم فقتلواهم الى آخر النهار ولما رأى رحمه الله تصميم الفرنج على الكرك أمر العسكر ان يدخل الساحل لحاوه عن العساكر فجمعوا على نابلس ونهبوها وغنوا ما فيها ولم يبق فيها الا حصاها وأخذوا جبين والحقوا بالسلطان رأس الماء قتل وقد وصف القاضي الفاضل حصن الكرك في بعض كتبه فقال (هو شجيا في الجناجر وقذا في المهاجر قد أخذ من الآمال بمغنفتها وتعد بارصاد العزائم وطرقها وصار ذئبا للدهر في ذلك الفج وعذرا لتارك فريضة الله من الج وهو وحسن الشوبل يسر الله التحريك الواسف للاسدين

ما مر يوم الاوعندها * لحم رجال أويولغان دما

وفي كتاب آخر (وأما الكرك فكفاته المخيفات عليه متناهية ومجارتها على من فيه حارجه وقد جذعت أنوف الابرجه وأسبلت قناع الستائر وجوهها المتبرجه وكل جوانبها وعز المرتقى صعبة المحتفظي والسلطان يستعذب المشقاب التي تنعادي منها اللحم ويباسر جرات الشتاء الكالج بوجهه المتبسم) ومن كتاب آخر (وقد جذعت الحجارة في الاسقاط برر رؤس الابراج ورؤس الاعلاج فرمت الشرايف والواقفين عليها لجانيتها وأرت الفرنج باهتدائها الى اردائها غايه غوايتها ما أخرج أحد منهم برأس الا دخل في عينه نصل وما هجر قرب الاسلام سيف الاول مع رقاب الكفر غمد قطعه اواصل وما على الجحرف الاسراف والتبذير حجر ولكل ليلة من نقع الحوافر ومن سنا الاسنة حجر ولقد أخذنا من العدو بالخنق وشرعنا في طم الخندق والحائط واقع والواقعة بهم محيطه والدرع بالسيف مفصله وبالجرح محبطة) ومن كتاب آخر (غذاب الله بالحصن وأهله وأتاع ماله من دافع وان دليل النصر قد ظهر ومادونه من مانع وأما المخيفات فقد نكأت في الابراج بالهدم وفي الاعلاج بالهتك فلم تبق لها الحجارة الطائرة اليها حجارة قائمه وان لها من امطارها عليا ليلاتها رادية دائمه واما فناعليها بالزرجون حتى وقعت الاسوار من سكرها وضرب نادونها الستائر حتى رغبت لصخرها وعاطتها كفة المخنيق عقار عقرها فالسور القابل للمخيفات قد انهدمت أبراجه وأبدانه وانهدت قواعده وأركانه ولولا الخندق الذي هو واد من الاودية واسع عميق لما تعدر الى الزحف اليهم والمجمع عليهم طريق) ومن كتاب آخر (الحصن الذي نحن حاضره وحاصره في حصانة الحصانة

كتاب (٥٦) الروضتين

قد هدت الحجارة منه ما أحكموه بالحجارة وعدا عليه بالتحريب ما أعذوه للعماره فغسي المنجنيقات ترمى ولا ترمى
سهماها ويستنديم من أعداء الله ومعقلهم بالقتل والهدم انتقامها فاقابل المنجنيقات من الأبراج والابدان قد أدق
التحريب على ما فيه من العيران فلم يبق الاطم الخندق والاخذ بعد ذلك من العدو بالخنق والقلوب واثقة بحصول
الفتح وقد علم كل واحد من ان مخبره قد فاز بالربح فما سمع منابجده الله من أحد مل ولا ضجر ولا تسفر هذه النبوة
ان شاء الله تعالى الا عن نصر وظفر وقال الهامد رحل السلطان من رأس الماء على طريق الظليل والزرقا وعمان
والبلقاء ثم الرقيم وزر والنقوب والجبون ثم أدر ثم الزبة وذلك في بلد باب فملا تلاحت العساكر زل على وادي
الكر ك ونصب عليها تسعة مجانيق صفاء دام الباب فهدمت السور المقابل لها ولم يبق مانع الا الخندق الواسع
العميق وهو من الاودية الهائلة والمهاوى الخائفة والمهاالك الغائرة الغائبة ولا يكن في الرأي الا طمه وملاؤه بكل
يمكن وردمه فعند ذلك من الامور الصعاب وتحذر لوزنة الارض وتحجرها حفر الاسراب فأمر السلطان بضرب
اللبن وجمع الاخشاب وبناء الحيطان المقابل من المربض الى الخندق وتسقيفها وتلفيق ستائر ها وتأليفها ففتت
دروبوا وسعة لا يزعجهم فيها الجاني الذاهب وتوافدت رجال العسكر واتباعه وعلمانه وأشياعه على تقبل ما يرى في
الخندق وهان طم الخندق بالديابات التي قدمت والاسراب التي بنيت وأحكمت فوجد الناس الى الخندق طريقا
مهيما فهم يزدجون آمنين من الجراح عاملين بالاشراح والناس يجب القلعة على سفير الخندق لا يستشعرون حذرا
ولا يخشون سهما ولا حجرا وقدامتلا الخندق حتى ان اسير مقيدا ربح بنفسه اليه وتجا بعد ما توالى من رمى الفرنج
رمى الحجارة عليه وفي بعض الكتب العبادية (لولا الخندق المانع من الاراء وأنه ليس من الخنادق المعناده بل هو
واحد من الاودية واسع الافنية لسهل المشرع وهجم الموضع فلم يبق الا تدبير طم الخندق والاخذ بعد ذلك من العدو
بالخنق فعملنا دبابات قدمناها وبيننا الى سفير الخندق ثلاثة أسراب باللبن سقناها وأحكمناها فصارت منها الى
طرف الخندق طرق آمنه وشرع الناس في طم الخندق منها ونقومهم مطمئنة وقلوبهم ساكنة وكان الشروع فيه يوم
الخميس سابع جمادى الاولى وقد تسنى طمه ونشأ ردمه وتساخ الناس اليه وازدجوا عليه ولم يبق صغير ولا كبير
الا وهو مستبشر بالعمل منظر ليشرى نفع الامل وقد تجاسروا حتى ازدجوا تحت القلعة نهارا كازدجهم في المصلى
يوم العيد وليلنا كحضورهم في جامع دمشق ليلة النصف السعيد وهم مجد الله من الجراح سالون وبالنصر موقنون
عالمون وان أبدا العدو على الحجة فالنصر سريع والحصن ومن فيه صريع قد خرقت الحجارة حجابها وقطعت
بهم اسبابه وناولته من الاجل كايه وجرت لسان سورته وحلت نقابه فاناف الابراج بمجوده ونشأيا الشرفات
مقلوعه ورؤس الابدان محسوزة وحروف العوامل مهموزة وبطون السقوف مبقورة واعضاء الاساقف
معقورة ووجوه الجدر مسلوخة وجلود البواشر منسورة والنصر أشهر من نار على علم والحرب أذوم من ساق على
قدم قال واشرف السلطان على أخذها فوصل الخبر ان الفرنج قد تجمعوا وجاوا منجد بن لاهل الكرك ليزخروه
عن حصارها فنى السلطان عنان العزم اليهم وكانوا في منزلة الواله وتلك المواضع ضيقة صعبة المسالك فانتظر
السلطان ان يخرجوا الى البلقاء وتقدم عنهم بما يمال فرجوا وتفرقوا ولم يبقه واوعلى قصد الكرك عزموا ولما
رأى السلطان ان الفرصة من الفتيان فأتى مرة على نابلس فأغار وغنم وطرق على عودته زل على سبسطيه وفيها
مشهد ذكر يا عليه السلام وقد اتخذته الفرنج كنيسة وأودعوها لمتعة نفيه وبها من الفرنج اسقف وقس ورهبان
فقدوها بأسارى مسلمين ولأذوا بالامان معتمدين ثم أتاخ على جينين فاهبطوا وجها وهدم مرجها وآب بالهباب
والسبايا والمرباع والصفايا واجتمع بالجمباب على الفوار وتحدث بالايجاد لحوادث الغوري الفوار

(فصل ١٠) ثم رحل السلطان الى دمشق للاجتماع برسل الخلافة شيخ الشيوخ وبشير وكانوا واصلوا والسلطان
محاصر الكرك فاجتمع بهم وكرهم وكانوا قد مرصوا ومات جماعة من أصحابهم وعاد السلطان شيخ الشيوخ كل
يوم وليلة في الرباط بالمنبيع واستأذنوا في العود قبل الشفاء فضاقت الصدور وبصد ذلك الصدر على تلك الحال
وعجزت تلك العثرة كشاء الله عن الاقاله ثم استقل مودعا وداع الابد وكان حسام الدين طمان مقدّمه عسكر سبخار
مع السلطان حاضر في الجهاد فاخذ له في العود وأمروهم برفقة صدر الدين والرسل معه والرفق بهم في مسيرهم فساروا

في اخبار (٥٧) الدولتين

على سمت الرحبه فاغتنم الامير طمان بركة تلك الصحبه فادركت المنية شهاب الدين بشيرا بالسخره ووصلوا
 شيخ الشيوخ الى الرحبه وهناك لقي ربه قال ولقد توفاه الله على الوفاء بعهده والوفاء لعهده مشيم الكرم كريم
 الشيم صالح العمل ناجح الامل مفارق الدنيا في حياته مقبلا على الآخرة قبل وفاته فهو ومن رفعت سريره الملائك
 ووضعت له في عليين الارائك وكانت وفاته في شعبان يؤاء الله الجنان قلت كان صدر الدين هذا أحد السادة
 وأبوه وجده من أكبر الاعيان وشيوخ مشايخ الزمان وهو عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبي سعد احمد بن محمد
 النيسابوري وقد ذكرت ترجمة والدته في تاريخ دمشق والحقته من أخبار جده بما ذكره أبو سعد السمعاني في تاريخه
 وقال ابن القادسي توفي صدر الدين في رحب رحبه مالك بن طروق ودفن في قبة الى جنب تبر الشيخ موفق الدين
 محمد بن المتقنة الرحبي وكان مولده في ذي الحجة سنة ثمان وخمسمائة وكان شيخا ثائلا في العلم والدين والساداد
 ثابت الجنان في الحوادث المنزعة والوقائع الباغية المجلية سديد البديهة صافي الفكره جمع بين نظم
 الشعر ونثر النثرل وكان يرسل الى الاطراف ورتب في مشيخة الشيوخ منذ توفي والده في جمادى الاولى سنة إحدى
 واربعين وخمسمائة ولم يزل على ذلك الى أن توفي وتولى بعده مشيخة الرباط صفي الدين اسماعيل ومن شعره يعني
 صدر الدين

ولم أخضب مسيبي وهـ وزين * لا بشاري جهالات النصابي
 ولا صكن كى يرانى من أعادى * فارحمه بوثبات الشباب

قلت ووقفت على كتاب فاضلى اليه جوابا عن كتاب عتب فيه (وقف على التحية الطيبة والكرامة الصيبة والالفاظ
 العذاب الانام الغضاب والنعم الانه العذاب والمساخة الانام الحساب والمتشابهات الاوائ أولها أحسن
 تأويلها والمحكمات الثلاث هن أم الكتاب ويكنى انه مزج الصاب بعسله وارفع قلبه بما لا يعرفه الشجاع من
 انوف أسله وهذا باب قد آن سده وسيل قد وجب صدّه وعين دهر أصابت هذه الموده وقد آن لها أن تنطرف
 وتنصرف وبادرة هم قدحان ان تنكشف وتكف فلا تنظر بعدها لعين التي اصابت ولا خط في أثرها
 للخطرة التي آبت ولا كان للابام في فضل سيدنا على عبده نصيب ولا عدا ابدأ على شباب الرضى عنه شيب ولا
 تمكن من حبيب وذه الى القلب رقيب ولا ملك رقه غير تلك اليد الكريمة ولا سمعت حديثا لحواء تلك المودة
 القديمة قال العماد وخرجننا من دمشق في شعبان وخبرنا على سوسع ودعنا في الدين فأمره ان يرجع بالعسكر الى
 مصر فسار في منتصف الشهر ثم رجعا من فرض الجهاد الى فرض الصيام بدمشق ورجع كل عسك الى مركزه ومدح
 العماد في الدين في هذه الكثرة بقصيدة ثمانية نحو خمسة وثمانين بيتا أولها

اذا سئما عن غير قلبي تحمدنا * فما حل فيه المهم الا ليلى
 خذنا شهدى صدق على صحة الهوى * ضنا سنا كامن ووجدا محمدا
 مر يضكا أشقى على الناس سقمه * فلا تهلا في أمره وترشا
 رنى لى عدوى من جفا احببى * وناهيك من حال عدوى لشارى
 عهدكم بعهد النوى ما تمعت * وحاشى لداك العهد ان يتسعا
 واملك بالملك المظفر ظافرا * من الجد والجودى قديما ومحمدا
 مخوف السطا صعب الاباحس السنا * مريخى المدى سهل الرضى طيب النشا
 صفا آخر الممرين من عرا الذى * به العمران اليوم بالعدل ثلثا
 هم أحدنا واقع الضلالة بالهدى * فذلما كوا لم تلقى في الدين محمدا
 غنائى وغنى انت حامل نقصه * بفضلك ان البحر يحتمل الفنا

ومنها في وصف القصيدة

وقد سهلت والنساء أو عمر مرتقى * فلا فرق عندي بين تاه وبين تاء

(فصل) يحتوي على ذكر المفاضلة بين مصر والشام والتعريف بحال زين الدين الواعظ الذي كان صلاح الدين

كتاب (٥٨) الروضتين

يكتبه بوقائمه وهو الذي هم على عمارة وأصحاحه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة الناصرية مصرية كما سبق
وسبق ذكره هناك هو الذي شرع في تفضيل مصر بكتاب كتبه الى السلطان في هذا العام وقد تقدم للقاضي الفاضل
كلام في تفضيل مصر ودم الشام في أوائل أخبار سنة أربع وسبعين وله من كتاب آخر (قد عونا من بعلبك البلد
الاعسر ومن رأس عينها الضيقة الحجر ومن تلجها الذي تنفش الجبال بعينه ومن بردها الذي لا يشفق الحجر عنده
الاباذنه وعودوا الى ما زفرتم فيه ومسا كنكم فانها قد علمنا وحشة لقطبها فسألت مطالع دسوتها عن أقار سلاطينها
وذكرها النيل الذي وفي لكم في هذه السنة بحقه وأبى ان يكون ماؤه ذخيرة لغير جودكم الذي أحصاه الله ولم يحصه
واذكرها فيضها وما طوبتها فقد كان يقيم الحجة على شيخ الشام ووجهه وتغلغل برده فيسرى الى قلب العليل وكان جاريا
على غير طريقه واذكرها واحدة هوائلها وتقصبه لا يامك حتى أنعم الله عليكم قبل صحة أجسامنا بحجة اجسامكم) ومن
كتاب آخر (وأما أحوالي فاني لم أزل ملتأمة ذذخت دمشق لغرب ماؤها وهوائها وانبتها وأنباتها وأودتها وأدوائها
وقراها وقرانها ومن لي بمصر فاني أفتع ما تنبته أرضها من قفلا وقناها واتع بردي وما عساه بشرية من ماها وامطى
من السيف في هجر سوادها وسوداتها فالدلل هائل ولا طائل وما كنا نسمع به من تلك الفضائل متضائل حتى اذا
جاء لم يجد شيئا ففى بلاد تستحدي ولا تحدى وفعل المال بالازم التعدي) وقال الامام هذا زين الدين على بن نجما
الواعظ من أهل دمشق ومن ساكني مصر وهو ذو لجة في الوعظ فصحه وبهجة للفصل صححه وقبول من القلوب
وفصول في فصل الخطاب للخطوب وقد تأت وتأتل وقيل وأقبل وأحسن السلطان اليه بالاعطيات والاقطاعات
وأجل واعطاء واجزل وأتم له مراده اكل وكان السلطان يستشيره وبروقه تديره وعيل اليه لتقديم معرفته وكريم
سعيته ووصل في هذه السنة منه كتاب الى السلطان يشوقه الى مصر وزيلها ونعيمها وسلبيلها ودار ماكها وداره فلكها
ويحمرها وخليجها ونشرها واريجها ومقسمها ومقياسها وانبيساها وقصور معمرها ومنار عزمها وجبرتها وخزيرتها
ونخبتها وجبرتها وبركتها وبركتها وعدوتها وعدوتها وتعلق القلوب بقلوبها واستلاب النفوس بأسلوبها وملتقى
البحرين ومزق المهرمين وروضة جناتها وجنن رضوانها ومساجدها وجوامعها ومشاهدها ومرابعها ونواظر
بساتينها ومناظر ميا ديتها وساحات سواحدها وآيات فضائلها ورحاب شوارعها وحلاب مشارعها وشروق غربتها
وغروب شرفتها وطيب طوبتها ومسار مسراها ومجرى فلكها ومزساها ومجائب بانها وغرائب مينها وبيان
عينها باسان بلسانها وكياسة أخلاقها وفناسة أعلامها وشتاؤها في الفضل ربيع نضرها وغبارها عير وماؤها
كوثرى وزاها عيرى ثم وصف الامام غير ذلك ثم قال وذكر زين الدين الواعظ في كتابه ما دل به على فضيلة تلك الديار
من الآيات والاحبار والاداب والآثار ولوظفرت به لاوردته بلفظه وجاونه بوعظه أكننى فقدته فغزمت معانيه
وأحكمت مبادئه قال فكنتب الى زين الدين الواعظ في جوابه عن السلطان (ع فناطيب الديار المصرية ورقة
هوائلها ونحن نسلله المسئلة في طيبها وتوفير نصيها ورقة نسيها ورائق نسيها لكن لا ريب ان الشام أفضل وان
اجرسا كنه أجل وان القلوب الى قلبه أمل وان الزلال البرد به اعل وانهل وان الهواء في صفه وشتاؤه أعدل
وان الزهر به اشب والنبت به أكل وان الجمال فيه أكل والكمال فيه أجل وان القلوب به أروح والروح به أقبل
ودمشق عقيته المنسوطه وعقلته المنسوطه وحديثه الناضرة وحديثه الناظره وهى عين انسان بل انسان عينه
وصير في نقوده في عين نضاره ولجينة فستاهما مستاهم وعلى محبها ملام ومافى بونهاريه وفي كل حبوة حبيبه
ولكل شائب من نورها شيبه وعلى كل ورقة ورقا وعلى كل معانقة من قدود البانان عناقا وشادياتها على
الاعواد تطرى وتطرب رساجاتها بالارادتهم وتعرب وكفها من جوارساقيات وسواق جاريات وانمار
بلاثمان وروح وريحان وفا كهة وريمان وخيرات حسان وجميع ما في سورة الرحمن ونحن تتلوع عليه الآهالى
ان يرجع النافذ على منكرها فبأى الأمر يكاتك بيان وقد عكسنا بالآية والسنة والالجام وغيننا هذه الأدلة
عن الاختراع والابتداع أما أقسم الله تعالى بدمشق في قوله (والتين والزينون) والقسم من الله أنه أذل دليل
على فضله المصون أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الشام خير الله من أرضه يشوق اليها خيرة من عباده)
هذا أوضح رهان فاطع على انه خير بلاده أما المعصاة رضوان الله عليهم أجوعا على اختيار السكنى بالشام أما فنع

في أخبار (٥٩) الدولتين

دمشق بكر الاسلام ومانكر ان الله تعالى ذكر مصر وسماها أرضاً فالذكر والتمس في حنب فضيلة القمم ولا الأخبار
عنه دليل على الكرم وانما كتبت الفضيلة من الشام بنقل يوسف الصديق اليها عليه أفضل الصلاة والسلام ثم
المقام بالشام أقرب للرباط وأوجب للنشاط وأجرح للعساكر السائرة من سائر الجهات للجهاد وأيسر قطوب المقطب
من سناء سنير وأين ذرى منصف المشرف من ذروة الشرف المنيف المنير وأين الحرم المحرم من الحرم المحترم وبينهما
الرق ما بين الفرق والقدم وهل للنيل مع طول نيله وطول ذنبه واستطال تسليه بر دردى في تقع الغليل ونفع
فعليل ومال ذلك لكثير طلاوة هذا القليل وسيل هذا السليل وإذا فاخرنا بالجامع وقبة السر ظهر عند
ذلك قصر الفصر على أن باب الفرائس في الحقيقة باب النصر وما رأس الطابية كتاب الجاييه ولو كان لئاسها بأنا
لم يحتاجوا الى قياس المقياس ونحن لانجفح والوطن كالجفاء ولأنا في فضله كأبائه وحب الوطن من الايمان ومع هذا
فلا تنكر ان مصر اقلم عظيم الشأن وان مغله أكثر وماءها غزير وان عدها غفير وان ساكنها ملك أو أمير ولكن نقول
كما قال المجلس السامي الاجلى الفاضل اسماء الله ان دمشق تصلح ان تكون بدنا لمصر ولا شك ان أحسن ما في
البلاد البستان وزير الدين وفقه الله قد تعرض للشام فلم ير ضان يكون المساوى حتى شرع في عدا المساوى ولعله
يرجع الى الحق ويعبد سعدا سعداه وفاقه الى الاوق ان شاء الله قلت وقد قبل في وصف دمشق ومدحها شي
كثير من النظم والنثر واشتمل ما جمعه في أول تاريخ دمشق على قصيدة كبيرة حسنة من ذلك ما وصف شيخنا أبو
الحسن علي بن محمد المخاوي رحمه الله في مقامة تستمل على المفاخر بين دمشق ومصر ووصف كلا من البلدين بما يليق
به وكان أول ما قدم دمشق يذمها في مكاتباته الى مصر نظماً ونثراً حباً للوطن ثم لما استقر فيها قربت عينه وفضلها
في بعض مكاتباته وقد ذكرت كل ذلك في جزء مستقل به وأما القاضي الفاضل رحمه الله فقد قال في بعض مكاتباته
الى مصر (وما أسر به نلبه الكريم انني وصلت الى دمشق المحروسة حين شر دردها وورد دردها واخضر نبتها
وحسن نعتها وصفامؤها وصفادواؤها وتفت أطيارها وتبسمت ازهارها واقتزهر اقوامها فحكى لغور
غزلانها ومالت قضب بانها فانتذت نثني ولانها فلما قربت من بساتينها ولاح لي فجع ميادينها وتوسطت جنة
واديها ورأيت ما أبدعه الله فيها سمعت عند ذلك حاما يغرد وهزارا يشد دوبردد وقرانيا يروح وبلبلان يشجان
يروح فوقفت انني على باديتها وأكاد بالدمع أباديها أسفا على أيام خلعت بعدما حلت منها وفيها فعد ذلك
عادت روي وزال أئيني ونوي

وكانت النفس قد ماتت بنقصها * فعند ذلك عادت روحها فيها

قلت ووصف أيضاً دمشق من أهل مصر من يرجع الى قوله ويرضى بحكمه لفضله وقضله وهو الوزير العادل صفى
الدين أبو محمد عبد الله بن علي المعروف بابن شكر في كتاب البصائر له فقال (دمشق زهرة الابصار وعروس الامصار
ومجرى الانهار ومغرس الاشجار ومعرس السفار ومعبد الابرار المستغفرين بالاسفار ظلها الممدود ومقامها
المجود وماؤها المسكوب وعيها المسلوب ومحاسنها المجموعة وقضائلها المروية المسموعة ودرجتها المرفوعة وفائقها
الكثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ونسجها العليل وهجيرها الاصيل وماؤها السليل وقد شرفه الله تعالى بالذكر
في كتابه وآوى اليها من اختار من أنبيائه وأحبابه فقال تعالى في كتابه المبين (واويناها الى ربوة ذات قرار ومعين)
ولم تزل مقر البركات ومعبد النبوات ومثل الرسالات ومسهكن ارباب الكرامات وورد في تفصيل بقعتها
من الاخبار ما لا يشك في صحة استناده قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الشام صفوة الله من بلاده فيم اخيرة
الله من عياده) وبه في خبر آخر على عظم فضله فقال ان الله ترك كل لي بالشام وأهلها وبارك في سكانها وركب
في سكانها أهل الاسلام بقوله عليه السلام (البركة في الشام) وذهب بعض المفسرين من أهل الاجتهاد الى انها ارم
ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد قال (ولما أنعم الله تعالى على باسكانى في فنائنها وتخبرى لبنائها وزهق
في افنائها وانسى بانسانها مضيت الى جامعها الجامع وشفعت بادراك البصر منه ادراك السامع فلما وصلت اليه
وحلت الحبي لديه رأيت من آي صغرها وياه وروثها حصل من الحسن على التهاية ونورا يجلو الابصار وجمعا يفضل

كتاب (٦٠) الروضتين

على جوع الامصار وعبادة موصولة على الاستقرار وقرآنا يتلى في آنا الليل وأطراف النهار ومنقطع عن اليه قد انفقوا في الاعتكاف به ناعس الاعمار والبركات تحف بجوانبه والعلوم تنشر في زواياه ومحاربه والا حادث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسدور وى والمصاحف بين ايدي التالين تنشر فلا تطوى واعلام البريه ظاهرة فلا تخفى ولا تزوى والخلق منقسمون الى خلق قد نبذ أهلها ما وراءهم من العلق والاسلام فيه فاش والجهل به متلاش وهو مما بناه الاولون لعبادتهم وجعلوه ذرا لا تحترهم ومارح معبد الكل مله اتخذته المجوس واليهود والنصارى قبل الاسلام هيكله وقبله وهو بيت المتقين وسوق المتصدقين ليله للتعجبدين ونهاره للعلماء المجتهدين قال (وعاشرت أهلها وياشرتهم ثم كثرتهم وكاشتهم فرأيت سادة ادبها وعلما نجباء رأيتهم يتناظرون في الفقه مناظرة والودع ولده ويقفون عند كتاب الله فلا يعدلون عن واضح جده ويفسرونه عن علم واستبصار ويحتاطون في علمهم بصحيح الاخبار ويتبعون ما وردت به نقاة الآثار وعامتهم مشغولون بالمعاش آخذون من زينتهم عند كل مسجد أفضل الرياش لا يخوضون في لغظ ولا كسار ولا يجهعون على فسادية في مقم ولا بعيد الدار) قال (فاقت منها في أشرف البلدان التي هي اغدوج الجنان وعنوان الدار التي خازنها رضوان والقلوب فيها عند ذكر الله حاضره والنفوس بالخبر دون الشر أمره)

(فصل) في باقى حوادث هذه السنة قال العماد كائن اربل وما يجرى معهما من البسلا والقتلاع من ولايات الموصل معددة في ولاية السلطان فأراد صاحب اربل ان ينفر دغنه ويستبدل بالبلاد فادع الى السلا ان وكتبه وطلب منه منشور ايلاده فكسبه له وفيه (ان الله لما كن لنا في الارض ووقفنا في اعزاز الحق واطهاره لاداء الفرض رأينا ان تقدم فرض الجهاد في سبيل الله فنوضح سبيله ونقبل على اعلاء كلمة الدين وننصر قبيله وندعو أولياء الله من بلاد الاسلام الى غزو اعدائه ونجمع كلمتهم في رفع كلمته العلياني أرضه على استنزال نصر من سمائه فنساعدنا على اداء هذه الفريضة واقتناء هذه الفضيله يحظى من عوارفنا الجزيله بحسن الصنيعه وننجح الوسيله ومن أخذ الى الارض واتبع هواه وأعرض عن حق دينه بالاقبال على باطل دينه فان اناب قبلناه وان أصر على غوايته ارلنا دعوته وعزلناه) وتفصيل ما كتب في منشوره اربل ودلتها وأعمالها جميع ما قطعها الزاى الكبير شهر زور وأعمالها معاشيت فتحياق معاشيت الغرابي الدست والزرزاريه قال وفي هذه السنة مستهل جمادى الآخرة توفى صاحب ماردن وهو قطب الدين ايلغازي بن البين بن تماش بن ايلغازي ابن ارتق والامراء الارتقية هم الذين رتقوا فتوق الاسلام أولا وكانوا يتولون بيت المقدس وجوهه من الافرنج قبل المصريين وانما أخذ الفرنج سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من المصيرين فبقى الساحل كله مع أهل الشام لحمت الارتقية ديار بكر وما والاها وحلب وأعمالها وتوارثها ديار بكر كبر اعمن كبرالى ان انتهت الى هذا قطب الدين أعمال ميا فارقن وماردن فلما مات بقيت على ولده وله عشرين سنين وانتهى الى ابن عمه نور الدين محمد بن قرا ارسلان ابن داود بن سليمان بن ارتق حصص كيفا وخربت والبلاد التي تناسها وأضاف السلطان اليه أمردود وكان قطب الدين أولا على مصافاة صاحب الموصل لما بينهما من القرابة ثم أذعن السلطان ودخل تحت طاعته قلت وفي هذه السنة أيضا توفى خاتمة المغرب يوسف بن عبد المؤمن بن علي وولى ابنه يعقوب قال القاضي ابن شداد وبعد عود السلطان من حصار الكرك لوصول الخليفة ومعهم الخلع فلبس السلطان وألبس أخاه العادل ابن أسد الدين خلعا جاءن لهما ثم خلع السلطان خلعة الخليفة على نور الدين بن قرا ارسلان وأعطاه دستورا فصار الى بلاده ووصلت رسل زين الدين مستمر خا الى السلطان يخبران عسكر الموصل وعسكر قرقل نزوا على اربل مع مجاهد الدين قايمار وانهم نهيو واورقوا وانه مصر عليهم وكسرهم فلما سمع ذلك سار من دمشق يطلب البلاد وقد قدم الى العساكر فبعثه وسار على طريق المغار ويوس البقاع الى بعلبك ومصرض العماد فاقطع بها وسار السلطان الى حصص ثم الى حماه فأقام بها الى ان شق العماد ولحقه بها وكان الاجل الفاصل بدمشق فأرسل الحكيم ابن المطران واسمه أسعد بن اليس الى العماد ببعلبك لما سمع بمرضه فصار من دمشق الى بعلبك في يوم وليلة وعمل معه عمل من طب لمن حب فبرئ بعون الله تعالى فرجع الى دمشق فلما استقام من اجهر حل الى السلطان فواقعه بجماه

في اخبار (٦١) الدولتين

(ودخلت سنة احدى وعثمانين) **في** حال انه بادوا السلطان محم بنظا هرجهاء فسار الى حلب وتلقاه أخوه العادل واجتمعت له بها العساكر فخرج منها في صفر لقصده الموصل فسار وقطع الفرات وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور بها وكان السلطان قد سار الى معاقل الفرات وقلاعه ونزاحيه وضياعه وأمر أهلها بمجاعة كل سفينة في الفرات وزورق ومركب وجعلهم من كل مشرق ومغرب ثم وصل الى حران وفيها مظفر الدين بن زين الدين وهو أخوزين الدين يوسف صاحب اربل وقد كان أول من دخل في خدمة السلطان وأول ما قصده تلك البلاد في المرة الاولى واقتدى به أخوه وغيره من أصحاب الاطراف في الانتماء الى السلطان وحضر معه حصار عدة بلاد كالموصل وسنجار وآمد وحلب وأظهر من المؤدة فوق ما كان في الحساب وكان كثير الختل لانه كان على المسير الى الموصل هذه المرة برسوله وكابه وقال رسوله للسلطان ان مظفر الدين اذا عبرتم الفرات يستدرك كل ما فات ويقوم بكل ما يحتاج اليه في تلك البلاد من النفقات والقراعات والازواد وتقدم يوم الوصول الى حران خسين ألف دينار وكتب خطه بذلك فلما وصل السلطان الى حران لم ير منه ما التزمه الرسول فارتاب به وظن انه مال مع الموصل ووشى الاعداء فيه بذلك وأن نيته قد تغيرت فحلف للسلطان انه لم يتغير وان ما التزمه الرسول لم يكن بأمره وهو ابن ماهان فاعتزل عنده عن مرتبته وهان فقبض السلطان على مظفر الدين ليقبض أمره وتواور فيه أصحابه فأشار بعضهم بالتلافه وبعضهم باستبقائه واستتلافه ففعل السلطان عنه على ان يسلم اليه قلعتي الزها وحران ففعل ذلك وهو مصرور بقاء نفسه ثم أعيدت اليه القلعتان في آخر السنة لما رأى السلطان من حركاته المستحسنة قال انقادي ابن شذاد وسار السلطان حتى أتى حران على طريق اليه والتقى مظفر الدين بالبيرة في ثاني عشر المحرم وكان قد وصل اليه عز الدين بن عبدالسلام يعني الموصل رسولاً واسمه ابراهيم بن علي بن عبدالسلام ويكنى بأبي الخليل فلقبه بحماة يعتز بما جرى فأعطاه دستوراً بعد ان أكرمه وسار من غير غرض قلت وصحب ابن عبدالسلام في هذه السفرة من الموصل عمر بن محمد المعروف بابن السحنة فدخل السلطان بقصيدة أولها

على الحى من وادى الغضا اذ تفرقوا * سلام شوق قد براه التشوق

فلما بلغ مديحها الى قوله

وقالت لى الآمال ان كنت لاحقا * بانباء أيوب فانت الموفق

قال له السلطان لقد وقعت وأجازة جائزة سنه ثم قال الفاضى وتقدم السلطان الى سيف الدين المشطوب ان يسير في في مقدمة العسكر الى رأس عين ووصل السلطان حران في الثاني والعشرين من صفر وفي السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين لشيء كان جرى منه وحديث كان بلغه عنه رسوله ولم يقف عليه وأنكره وأخذ منه حران والرها ثم أقام في الاعتقال نادباً اليه الى مستهل ربيع الاول ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد عليه قلعة حران وبلادها التي كانت بيده وأعادها الى قانونه في الاحترام والاکرام ولم يختلف له سوى قلعة الزها ووعده بها ثم رحل السلطان ثاني ربيع الاول من حران الى رأس عين ووصله في ذلك اليوم رسول فبلغ ارسلا ن بخبره ان مالوك المشرق بأسرهم قد انققت كلتهم على قصد السلطان ان لم يعد عن الموصل وماردين وانهم على عزم ضرب المصاف معه ان أصر على ذلك فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصله ثامن ربيع الاول عماد الدين بن قرا ارسلان ومعه عسكر نور الدين فالتقاهم السلطان واحترمهم ثم رحل من دنيسر نحو الموصل حتى نزل بموضع يعرف بالاسماعيليات فرتب الموصل بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة حريفة تتحاصر الموصل فبلغ عماد الدين بن قرا ارسلان موت أخيه نور الدين فطلب من السلطان دستوراً طمعاً في ملك أخيه فأعطاه دستوراً وقال العماد خرج السلطان من حران في ربيع الاول فرعى الى رأس عين وداراً فخرج أميرها بأصحابه في الخدمة وقدم عماد الدين أبو بكر بن قرا ارسلان بعدا كر ديار بكر وأمدنيابة عن أخيه نور الدين فانه كان مريضاً ثم رحل الى نصيبين وقدم صاحب الجزيرة سنجرشاد ابن أخى صاحب الموصل فأكرمه السلطان ثم سار من أقرب الطرق من دجله وتبكت طريق الدولة ففاز على بلد آخر ربيع الاول ثم توجه الى الموصل ونخم على الاسماعيليات وقدم على السلطان زين الدين صاحب اربل وأول ما بدأ به السلطان يوم نزوله على بلد قبل

كتاب (٦٢) الروضتين

الاسماعيليات ارسال ضياء الدين أبا الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري الى الخليفة بما عزم عليه من حصر الموصل فان أهلها واصلون الاعاجم وخطبون لسلطانهم القائم وناقشوا اسمه في الدنانير والدراهم وانهم يتعززون بالبهلولان ويجزون الاعن الطاعق والاذعان وانهم يرسلون الى الفرنج ويقضون نفوسهم على قصد الثغور وتفرق الجهور وانه ما جاء طمعاً في استضافة ملك ولا استزادة ملك ولا تلغ ثبت تديم ولا تطع أصل كريم واعما مقصوده الاصلى ومطلوبه الكلبي ردهم الى طاعة الامام ونصرة الاسلام وكشف ما اعتادوه واعتودوه من الظلم والظلام وكظمهم عن استغلال الحرام وقطعهم عن مواصلة الانجم والزاهم مما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الارحام فهذا صاحب الجزيرة وهو ابن أخى صاحب الموصل ولى عهد أبيه لم يرع فيه ذمة أخيه وأبعده عما استحقه بالارت والتولية وحرمة ما يستوجب من التربة والتلبية وأخاف حرمة وقطع روجه ولو كان منه لاطاح دمه ولو لا خوفه من جانبه وتوقيه من ديب عقارب لما التجأ الى هذا الجانب ولما اختار الجانب على الاقارب وهذا صاحب اربل جابر الموصل أبوه زين الدين على هو الذى حفظ بيتهم وخلف في أحيائهم ميتهم وهذا ولد في جوارهم مسكوه بجورهم وحديث صاحب الحديث في حادثة لا تخفى وعين من شكريت من مخافتهم وآتهم لا تتركى قلت وفي بعض الكتب الفاضلية عن السلطان الى الديوان (وكان قد تحبب الى الخادم في وقت حركه صاحب تكريت والحديث وهو يستأذن في استنابها بمحكم التقليد الذى تناول هذا وغيره ولم يستأذن في ذلك استئذنا بمخصصة الانحلالهم من جوار دار الخلافة ولا نهما بما يرى الخادم اضافة الى ما يجري في خاص الديوان العز نزع غيرهما ما يجري بجوارها في القرب من الجوار والدخول في زمام شرف تلك الدار فان أذن له استئذنها في صلح ان نزعهم أو جأها مع مباينته ان اختار المشار اليهم البقاء عليهم وهذا برد شرف قد أعوزه علمه وتاج اذا أسلمه الخط الشرى ف نظم الحمار منتظمه) وفي **مكتاب آخر** (وما كتاب شهادة الله في قتال المذكوريين الا كقطع كفه ليسلم سائر جسمه وكراكب حد السنان مضطرا في حكمه) وأحب العباد الرسول قصيدة مدح بها صاحب مجد الدين أبا الفضل أولها

قضى الوجدلى ان لا أفق من الوجد * فياضلة اللامح اذا ظن ان يهدى
محبكم جلد على كل حادث * ولكن على هجر انكم ليس بالجلد
ببغداد حطوا وحكم ليخصم * أبو الفضل مجد الدين بالفضل والمجد
رآه الامام الناصر الدين ناصرا * فحاول تعويلا على تجده المجدى
ومنها

البك صلاح الدين الجاء أمره * فحظر ركنه والعقد بالشد والشد
ملك على حرب العدو مصمم * وما زال فيه غالب الجدد والجدد
تساور أفواه الجراح رماحه * مساورة الاميال للاعين الرمد
يحل المنايا الجرب بالآفسر محريا * دم الاصفر الرومى بالابيض الهندى
ومل امير المؤمنين كيو سف * فتى في مرضيه بمهجته يندى

قال وشرع السلطان في افضاع البلاد والتوقيع بها على الاجناد وسير الامير سيف الدين على بن أجد المعروف بالمشطوب الهكاري ومعه الامراء من قبيلته والاكراد من شيعته الى بلد الحكاريه وجاعة من الامراء الجديديه الى العقروا عملها لاستنقاذ قلاعها واستغلال ضياعها ونصب الجسر وملك الامير وعبر مظفر الدين صاحب حران وغيره من الامراء وخيموا بالجانب الغربى وكان الحرار ذلك شديد فأمر السلطان بالصبر عن القتال الى ان يطيب الزمان وأهل الموصل في الحصار وأشير عليه بتحويل دجلة وكان ماؤها قد قل بطريق ذكروه خبير بها زعم انه يمكن سد دجلة وسكها وثيق فرفضه أخرى وكسرها ونقلها وتحويلها الى دجلة تنوى وتقطش الموصل اذا الماء عنها اتزوى وعرض ذلك على رأى الفقيه العالم بخر الدين أبى شجاع ابن الدهان البغدادى وكان مهندس زمانه وانسان عين الفضل وعين انسانه وكان منذ عهد قديم سكن الموصل في ظل كبير من أصحاب زين الدين على ولما سمع بكرم

في اخبار (٦٣) الدولتين

السلطان تقياً بظله وتعرف الى فضله فصدق المشير بذلك وقال هذا ممكن ولا يتعذر ويتيسر ولا يتعسر ومن كتب عمادى الى بغداد (وذكر المهندسون أهل الخبرة أنه سهل تحويل دجلة الموصل عنها بحيث يبعد مستقى الماء منها وحينئذ يضطر أهلها الى تسليمها بغير قتال ولا حصول ضرر في تصنيق ولا نزال)

(فصل) في ما فعل السلطان في أمر خلاط وميا فارقين وغيرهما من البلاد قال العماد ثم وصل خبر وفاة شاه أرم من صاحب خلاط فحول اليها العزم وترج بها الحزم وكان ورود خبره موثق في العشرين من ربيع الآخر وكان موته في التاسع منه ولم يخلف ولداً ولا ذاق ربة يكون خلفه فيها ووردت كتب الاولياء من أهل بدليس وغيرها الى السلطان بخطبونه لها وهم خائفون من العجم ان يتولوها فاختلف الناس على السلطان فمن مشر بالاقامة الى انفصال أمر الموصل ومن مشر بالمسير الى بلاد الارمن فان الموصل غير فائتة ومن قائل بانقسام العسكر في الجهاتين فترجى رأى السلطان على المسير اليها فكتب الى الخليفة يطلب منه كتاب تقليد ببلاد الارمن وديار بكر والموصل فجاء بعد فتح ميا فارقين مثال شريف بتقليده النظر في أمر ديار بكر والنظر في مصالح أيتام ماؤها ثم رحل السلطان عن الموصل في أوخر شهر ربيع الآخر وقد تم في مقدمته ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه ومظفر الدين صاحب حران وأمرهما ان يسيرا الى خلاط من أطرب الطرق فلما وصلوا وجد أسف الدين بكتمر أحمداً اليك شاه أرم قد دخلها واجهاها وتقلب عليها وجاء بهلوان في عساکر الشرق وعوشس الدين ألو جعفر محمد بن ايلدر كرمولى ذلك البلاد قتل من الجانب الآخر وكان وزير خلاط محمد الدين بن الموفق بن رسيقي يظهر للسلطان المؤدة والمناجحة وهو على خلاف ذلك وكتب الى ناصر الدين ان يقيم على القرب فهو أشد لارهاب والزعج ففعل ولو خلاه لسبق اليها وقبل ان هذا الوزير أيضاً انفذ الى بهلوان وأمره بالانتيان وأظهر له المؤدة والاحسان ولما تداى الزمان وقرب منها البهلوان راسله بكتمر وحمل اليه مع ابنته زوجة شاه أرم الاموال التي أودعت المحزن ونذب السلطان اليها الفقيه ضياء الدين عيسى فدخلها وتخلها وتاملها وتكلم مع الوزير وشاوره فأحال الحال على البهلوان وابهاج ليهلك المكان ولو استجلمتم لسهل ما صعب الآن وهان ثم جرت امر اسئلة بين السلطان والبهلوان وانفصل الامر كانه ما كان وقال القاضي ابن شذاد وفي ربيع الآخر توفي صاحب خلاط وولى بعده غلامه يدعى بكتمر وهو الذى كان وصل رسوله الى خدمة السلطان بسنجار فعدل وأحسن الى أهل خلاط وكان متصوناً في طريقته فأطاعه الناس وماوا اليه ولما ملك خلاط امتدت نحوه الاطماع فسار نحوه البهلوان بن ايلدر كرم فمالبغه ذلك سيرا الى خدمة السلطان من يقر رعه تسليم خلاط اليه واندراجه في جلته قطع مع السلطان بخلاط وارتحل عن الموصل متوجهاً نحوها وسير اليه الفقيه عيسى وغرس الدين قلعج قمرير القاعدة وتجرى بها فوصلت الرسل و بهلوان قد فارب البلاد جد الخوفى بهلوان من السلطان وأشعره انه ان قصد سلب البلاد الى السلطان فطلب بهلوان اصلاحه وزوجه بنت لهم وولاه وأعاد البلاد اليه واعتذر الى رسل السلطان وعادوا من غير زبدة وكان السلطان قد نزل على ميا فارقين فحاصرها وقالتها قتالا عظيماً ونصب عليها مجانيق وملكها في آخر جمادى الاولى قال العماد واستشعر مولود ديار بكر من حركة السلطان وكان قد مات صاحب ماردين كما تقدم وبقيت الولاية لولده الكبير وله عشر سنين وكان القائم بتدبير ملكه نظام الدين ابن البقش ومات أيضاً صاحب آمد نور الدين محمد بن قرا ارسلان رابع عشر ربيع الاول من هذه السنة وتولى ابنه قطب الدين سكيان فاحسرت زوا من السلطان وخافوا ان يسترد بلاد آمد منهم فنفذ السلطان اليهم خمس الف من الفرسان ليختبر حالهم في المحاربة والمسالمة فوجدهم على الطاعة مقيمين واليه راغبين ومنه راهبين ووصل السلطان في جمادى الاولى الى ميا فارقين وكان دخلها من أمره صاحب ماردين أسد الدين يرتقى واستعصى فيها على السلطان فحاصره وفاته ثم رأى ان القتال يطول فراسل أميرها الاسدور غيحه في المواعيد ونهاه عن المقاطعة وكان في المدينة خاتون ابنة قرا ارسلان وهي زوجة قطب الدين صاحب ماردين الذى توفي فاحال الاسد الامر على الخاتون فراسلها السلطان ورغبها وضمن لها كل ما تطلبه منه ووعد لها ان يصاغر اليها زال بها وبالاسد حتى لا ناقر ر السلطان لها كل ما كان باسمها واسم خدامها وطلبت حصن اختها ليكون لها عشاء لا فراخ وزوج السلطان ابنه من مز الدين اسحاق باحدى كراتمها وابرهم العهد وأحكم العقد وسارع السلطان الى نداء كل

ما اقترحه وفتح ميفارقين وأقبل صاحب آمد قطب الدين سكان بن نور الدين على صغرسه الى خدمة السلطان فآكرمه وأعادته الى منصبه وكان معه وزيره قوام الدين أبو عبد الله محمد بن سحاقه وقتل غيلة في رمضان من هذه السنة كما سيأتي ثم سار السلطان لقصد الموصل وولى تلك الديار عماله حكام الدين سنقر الخلاطي فنزل السلطان على دجلة بكنز زمار بقرب الموصل في شعبان وعزم على انه يشقى في ذلك المكان فخرجت من الموصل نساء اتين اليه بكباب متعريضات للشهافة فآكرمه السلطان ووعدهن بالاحسان وقال قد قبلت شفاعتكن لكن لا بد من مصلحة تتم ومصلحة تقعها بعين واستقرار الامر على ان يكون عماد الدين زكي صاحب سنجار أخو صاحب الموصل وسيطافي اصلاح ذات البين وحكما فيما يعود لمصلحة الجانبين فانه كانت شفاعته مسابقة ورأى بهذا الرأي قضاء الحقين وتطف وتطف لاجلهم واجل لاهن وأنى بالكرامة بما يليق بأمثالهن وكن ظنانه لا يقسم حرمة قصدهن ولا يصدق ظنونهن وانه لا يعرف حقوقهن ويقضى بحكاهم دينونهن ولا يستغل بأمر لا يؤذن بمراهم فدخلن البلد متلوغات متذبات ويلطف الله لاندات معتصبات

(فصل) في انتظام الصلح مع أهل الموصل ومرض السلطان المرسدة المشهورة بحران قال العماد وكان السلطان لما دخل شهر رمضان داوم قراءة القرآن وحفظه واشتغل بالصيام والتقليل من الطعام فظهر انزعاجه وتغير من راجه وتعذر علاجه وطال مرضه وندم على رد السفراء وسير الى عماد الدين صاحب سنجار في انفاذ رساله ليوعز بكل ما يعود بسؤله فوصل رسوله شمس الدين بن الكافي وكان من قبل قد سبق القول في تسليم بلاد شهرزور وقلاعها وحصونها وضياها وكذلك ما وراء الزاب من البواريج والرساق وبلد القرابلية وبني قنجا في قد دخل شمس الدين بن الكافي وشمس الدين فاضى العسكر من جانبنا الى الموصل لاخذ العهد على هذا الملتزم وورحل السلطان قبل عيده الفطر يوم وهو من بحر بحرانه في عوم وخيمنا على نصيبين في سؤال ولم تقرب عود الرسول بنجارا لاشغال بل كان الارتحال على الارتحال ثم استمر الصلح وصلح الامر وخطب في جميع بلاد الموصل للسلطان بعد قطع خطبة السلجوقية وفي ديار بكر أيضا والولايات الارتقية وضرب باسمه الدينار والدرهم ونحل الاشكال وكشف المهم وكتب العماد عن السلطان كتابا الى أخيه سيف الاسلام باليمن بشرح الحال وفيه (ونزل لنا صاحب الموصل عن جميع ما وراء الزاب من البلاد والقلاع والحصون والضياح وشهرزور ومعاقها وأعمالها ولايتي قنجا وولايات العراق والبلاد وما وراءها وقررنا عليه الموصل وأعمالها على انه يكون بحكمنا ويفقد عكرنا الى خدمتنا وتكون الخطبة والسكة باسمنا وان يطلق المظالم ولا يرتكب المآثم وقد حصل لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة وعت الهبة والرهبة والعزائم الى الجهاد في سبيل الله نوازح وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع) قال ونفذ السلطان الى شهرزور عماله محمد الدين أيارسربك فملا بها وتلك ونال المقاصد وأدرك وكان الزكيان الايوائية مستولية بها فانتقت شملها وندب للمظفر في تلك الاعمال الفاضل شمس الدين بن القراش وأقطع اليوازي لبعض خواصه الممالك وسير الى البلاد دنوايه ورب فيها لانه من العدل والاحسان أعجابه ووقف ضيقة في البوازيج يعرف بنافيل على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد وقال القادسي بن شداد لما ايس السلطان من أمر خلاط عاد الى الموصل فنزل بعيدا عنها وهي الدفعة الثالثة بموضع يقال له كنز زمار وكان الحرس شديدا فاقام مدة وفي هذه المدة أتاه سحر شاه من الجزيرة واجتمع به وأعادته الى بلده ومرض السلطان بكفر زمار مرضا شديدا خاف من غائلته فرحل طالب حران وهو مرض وكان يتجملد ولم يركب في محفه ووصل حران شديد المرض وبلغ الى غاية الضعف وايس منه وأرجف بموته ووصل اليه أخوه العماد من حلب ومعه الاطبا قال وكان سبب صلحه مع المواصله ان عز الدين صاحب الموصل سيري الى الحليقة يستنجده فلم يحصل منه زبدة وسير الى الحزم فلم يحصل منهم زبده فلما وصلت من بغداد وأذيت جواب الرسالة ايس من نجده فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلاوة قلبه وسرعة انقياده في ذلك الوقت فسدلوا في ذلك الامن وبهاء الدين الرتيب وقوس الى أمر النسخة وقالوا أمض ما يصل جهدكم وطاقتكم اليه فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان وكان وصولنا في أوائل الحجة فاحترمتنا واحتراما عظيما وجلس لنا وكان أول جلوسه من مرضه وحلف

وحلف في يوم عرفة وأخذنا منه بين النهرين أخذنا من سحر شاه وأعطاهما المواصله وحلفته حينئذ انامة وحلفت أخاه العادل ومات قدس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه وسرنا عنه وهو بحران وقد تمائل ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حصص وكانت وفاته يوم عرفة ونحن في العسكر وجلس العادل في العز أو في تلك الأيام كانت وقعة التركمان والاكراد وقتل بينهم خلق عظيم وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن ايلدكرو وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة قال العماد وأقام السلطان على نصبين يأما قلائل ثم رحل الى حران فالتقي بها عصى النوى والقلوب بمرض السلطان متخاذلة القوى متواصله الجوى والفضل خائف من كساده أسف على عناده مشفق من انخفاض قدره وانقراض عصره والسماح يقول هذا أو أن كسوف سمائي ونضوب معاني والدين يندب والملوك يصيب والابدى الى الله تعالى مرفوعه والنيات بالاخلاص مشفوعة والكفر في أراحيف والقدر في تصاريف والسلطان كلما زاد الله راد في لطف الله أمه وكما بان ضعفه قوى على الله توكله وأما ملازمه ليملا ونهارا سرا وجهارا وهو على في كل وقت وصاياه ويفرق بقلبي على عفائه عطاياه ومن جملة ذلك انه اشتدت به الحال ليلة ايس بهامنه الاطباء وغلب القنوط وعدم الرجا فلما أصبح اجتمع المعنفون والوافدون الى بابيه والفاقدون المرتجون جنى جنباه ونحووا ضجة أرقيت منها الدهما ولانت لسماعها الصخرة الصماء فلعل ذلك قبيح هؤلاء وقدك قد اجتمعوا على بابك متأسفين على ما بانك فدعاني وأمرني بكتب أسماهم وتقريب ما جمع في خزانته من المال عليهم وأسماها وما على الباب سائل وكانظ ان سابع من الام شغل شاغل فوجدته تلك السماء حرة وراحت واستقر مده استقر امر مرضه على بذل جوهر ماله وعرضه وكان خلقه أحسن ما كان في حال الصحة يحاطبنا بسجاياها السهلة السجدة ولا يخلو مجلسه من ذوى فضل وأولى نباهه ونبل يتحاذون بحضرة أطراف الفوائد وبهزون لمكارمه أعطاف المحامد فارة في أحكام شرعيه ومساائل فقهيه وأونى في صناعات شعريه وألفاظ عربيه ومعان أدبيه ومرة في أساديب الاجواد وشيم الامجاد ودفعه في دكر فضائل الجهاد وفرأنا الضائب له والاستعداد وينذر انه ان خلصه الله من بقوة هذه النوبة وأعفاده من كدر هذه المرضى ومرارتها بالعافية الصافية الحلوة اشتغل بفتح البيت المقدس ولو يسهل نفائس الاموال والنفوس وانه لا يصرف بقية عمره الا في قتال أعداء الله والجهاد في سبيله واتحاد أهل الاسلام والاقبال على قبيله وانه لا يترك شيمة الجود والسماحة بالموجود والوفاء بالعقود والمحافظة على العهد واتجاز الموعد فالربما استروح في بعض ساعات الليل أو النهار الى السماع لاشارة الاطباء به لاجل التفرغ والامتناع ولقد كان ذلك المرض محيضا من الله للذنوب وتزيتها وتذكرة موقظة من سنة الغفلة وتنبيه قال ولما سمع العادل في حلب عرض أخيه السلطان ووصوله الى حران باد بالوصول وصادف وقت القبول وقام بضبط الامور وسياسة الجمهور والجلوس في كل يوم في النوبة السلطانية لتولي مصالح الرعية واقامة وظيفة السماط والعمل في كل يوم بالاحتياط والتصدى لكسف المظالم وبث المكارم وتنفيذ ما يخرج من المراسم ووقع كل خرق ورتق كل فتق وحفظ المهابه والقيام عن السلطان في كل مهم بحسن النجابة ولقد نفعا حضوره ورفقنا نديره فقد كاعلى خوف من ارجاف يقوى وانتشار خبر سوء لا يطوى لاسيما اذا خرج الاطباء وقالوا ما فيه أمل ولكل عراجل فهناك ترى الناس يستشرون وابلعاد ما يعز عليهم من اعلاقهم ودوابهم يستظفرون فرال بحضور العادل كل مخافة وسلم الله برأفته من كل آفة وكن الملك العزيز عثمان ولد السلطان مع أبيه مقتدا بآبائيه مقتفيا لمراضيه وكان من جملة وصاياه عند اشفاؤه وارجاء ترجى شفائه ان ادركني الاجل المحتوم وذا اليوم العلوم فقد خلقت بأبكر وعمر وعثمان وعليها وكلهم اراه بمرادى في اقامة الجهاد مليا فغني بأبي بكر سيف الدين أخاهو بعزتي الدين ابن أخيهو بعثمان وعلي ولدي الملك العزيز والفضل ورأى عليهم ما كفا له سيف الدين وتقى الدين في الشام ومصر المعول وأقام العادل الى ان وضع المزاج وضع المنهاج وطابت القلوب وغابت الكرب ثم وصل مع أخيه الى حلب وتم معه الى حصص ومدمشق وهب له نسيم مصر فاستخذ الى نشره الشق وسأني في ذكر مضيه الى مصر مع الملك العزيز في سنة ائنتسين وثمانين ووصول الملك الأفضل من مصر وبعده الملك المظفر تقي الدين قال العماد وكانت صدقاته الراتبه داره وبالا برار باره على ان جوده مستوعب الموجود ولا يترك فضلا للوفود ولما مرض وعرض له

كتاب (٦٦) الروضتين

من الامام معرض قال لي اكتب الى الولاة والثواب بالديار المصرية والشامية ان تصدقوا على الفقراء والمساكين من المال المعد للعمل بما نص على قدره في التعيين فليسبق في الممالك الامم وصل اليه نصيب ودعا بالصالحات ومن الله لدعائه بحسب فدفعت بالصدقة البلاء ورفع باصدق الولاة ونظر ابله الى النيات واسنى سنامننه السنيات ومن جملته تلك الصدقات انه امرني ان اكتب الى نائبه بدمشق الصفي بن القايب ان تصدق بخمسة آلاف دينار صوريه فقلت ما عند غير دناير مصرية فقال تصدق بهم مصرية خمسة آلاف لفيوز من الثواب باضعاف قال ولما امتد زمان مرضه أمر ببناء دار عند سراقه وحمام فبنيت في أربعة اوتخمسة أيام وكان قد استخضر من دمشق ولديه الصغيرين ثورانشاه وملكشاه وامهما فأسكنهم فيها مدة مقامه وسماها دار العافية للبرء فيها من سقامه ثم اخلاهما الى نزل بها ضيفا وجعلها للالوين البهاوقفا وبعدها اتصلت المواسلة بين السلطان والمواصلة فاهدى السلطان لهم هذا اعظيمة لصاحب الموصل ولوالدته ولصاحبته ولابنه نور الدين رحمه الله وقوم ماسيره اليهم بما يربى على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والطيب والنشئ البديع والقريب وجرى أمر المواسلة على السداد تجهيزا وفي النصر الناصرية على ماسياتي شرحه الى الجهاد وأول بركاب الانفاق فتح البيت المقدس وسائر البلاد فتجددت الفتوح وانجدت الملائكة والروح وامتحنت باليسر العسرة وصحت بحطتين الكسرة وخص الله السلطان بقضيلة ففتح القدس وقضى حاجاته التي كانت في النفس وسيأتي ان شاء الله شرح كل فتح في موضعه وكيف أشرف سناء النصر من مطلعته وكتب الفاضل من دمشق الى تقي الدين بمصر (ان العافية الناصرية قد استفاضت أخبارها وفاضت أنوارها وأثارها وولت العلة والجدللة واطفئت نارها وانجلي غبارها وتجدش راسها وما كانت الاقلنة وفي الله شرها وعظيمة كفى الاسلام أمرها ونوبة امتحن الله بها نفوسنا فرأى أقل ما عندنا صبرها وما كان الله ليضيع الدعاء وقد أخلصته القلوب ولا يوقف الاجابة وان سدت طريقها الذنوب ولا يخلف وعد فرج وقد ايسر صاحب المعصوب

نعي زاد فيه الدهر ميا * فأصبح بعد نبؤسناه نعيما

وما صدق التذير به لاني * رأيت الشمس قطع والخجوما

وقد استقبل مولا بالسلطان المالك الناصر العافية غصة جديدة والعزة ماضية جديدة والنشاط الى الجهاد والجنة مبسوط البساط وقد انقضى الحساب وجزنا الصراط وعرضنا نحن على الاحوال التي من خوفها كاد الجبل يلج في سم الخياط) و ن كتاب آخر (الاحوال بالحضرة مسخية والمنة بالعافية عظيمة والقبصة الموهوبة من العمر الناصري كريمة القيمة عرف وعرف الناس شكرها ولزم ولزموا قدرها فسيوف الجهاد قد كادت تهتز في اغمارها وخيل الله قد كادت تنادي أهلها الركب ليعدا طرادها والمجد الاقصى مبشر تأنيسه بما استوحش منه من القرآن وتظهيره مما استولى عليه من رجس الصليبان)

(فصل) في باقى حوادث هذه السنة ومن توفي بها من الاعيان قال العماد في هذه السنة توفيت الخاتون العصمة بدمشق في ذى القعدة وهي عصمة الدين امة معين الدين انرو كانت في عصمة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله فلما توفي وخلفه السلطان بالشام في حفظ البلاد ونصر الاسلام تزوج بها في سنة اثنتين وسبعين وهي من أعف النساء وأعصهن وأجلهن في الصيانة وأخزمهن متمسكة من الدين بالعرفه الوثيق ولها أمر نافذ ومعرف وصدقات ورواتب للفقراء وادارات بنت للفقهاء والصوفية بدمشق مدرسة ورابطة قلت وكلاهما ينسب اليها فالمدسة داخل دمشق بجملته حجر الذهب قرب الحمام السركسي والرباط خارج باب النصر راكب على نهر باناس في أول الشرف القبلي وأمام مجده خاتون في اخر الشرف القبلي من القرب فهو منسوب الى خاتون أخرى قديمة تقدم ذكرها وهي زمزم بنت جاولي أخت الملك دقاق لاهم وزوج زنكي والد نور الدين رحمه الله قال العماد وذلك سوى وقوفها على معتقها وعوارفها وأيادها وكان السلطان حينئذ بجرجان في بحر المرض وبجرانه وعنف الام وعنفوانه فأخبرناه بوفاتها خوفا على زياد علته وتودخلته وهو يستدعى في كل يوم درجا ويكتب اليها كتابا طويلا ويلقى على ضعفه من تعب الكتابة والفكر جلا ثقيل حتى سمع نعي ناصر

الدين محمد بن شيركوه ابن ٤٤ فنعيت اليه الخاتون وقد تعدت عنه الهم المأمون وكانت وفاة ناصر الدين محمد في سابع ذي الحجة فقامت من غير من وأجرى السلطان أسد الدين شيركوه ولده على ما كان لوالده ومقابله بأحسن عوائده قلت وقبرا الخاتون المذكورة في الزينة المنسوبة اليها بسفح جبل فاسيون قبلي المقبرة المصرية وأما ناصر الدين فنقلته زوجته انة عشت الشام بنت أيوب فدفتته في مقبرتها بمدرستها بالمعونة فهو القبر الاوسط بين قبرها وقبر أخيهار جهم الله وكانت ست الشام كثيرة المعروف والبر والصداقات وكتب الفاضل الى تقي الدين (ورد الخبر عشية يوم الاربعاء الحادي عشر من ذي الحجة من حبس بأنه لما كان عشية يوم الاحد وقت الوقفة انتقل الى رحمة الله ورضوانه المولى الاجل ناصر الدين محمد بن المولى أسد الدين رجهما الله بمرض حاد انجل من لمح البصر ومرد النظر فاما الله وانا اليه راجعون وشاهد المملوك كتابا من ولده أسد الدين شيركوه أحياء الله الى كتاب أبيه رجهما الله يقول فيه وكتبته وناصر في حقيره واستقر في قبره فسأل الله حسن المرجع والخلاص من هول المظلع والمعونة على ساعة هذا المصارع ونشكره الله ثم شكره ونذكر بأحسن ما يدركه من يدكره ادنى النفس السكر العالمة الشريعة الناصرية وقد تم قبل عام من لا يسره الله ثم بين يديه وجعل الله أنفستنا فداها فان تلك نعمة علينا كاهي نعمة عليه ولا فرق الله هذا البيت عملا ولا قضا له حملا وأعظم الله أجر الملك المظفر ابن ٤٤ وأتمعه بقاءه وأعاده من عقابله مقدور الله بهمه ودهمه فليس الا التسليم لما لا يستطيع الخلق له دفعا وتفويض أمر هذا النفس اليه تعالى فاننا لا نملك لها حاضرا ولا نفعا ولخوف المملوك ان يلتبس الخبر في مطالعه وبحرف السكم عن مرضعه عجل بالانهاء والاشعار وسبق بما لا يسرد السبق به من هذه الاخبار قال العلاء وفيها في جمادى الآخرة توفي أخو الخاتون المذكورة سعد الدين مسعود بن ابر ونحن قد فتحنا ميا فارقين بها ولقد كان من الاكارم الاكابر ومن ذوى المآثر والمفاخر وما رأيت أحسن منه خلفا وأزكى عرفا ولم يزل في الدولتين النورية والصلاحية أميرا مقدما وعظيما مكرما وفور فضائله وفور فواضله وجشها ماته وحدصرامته رغب السلطان وهو زوج أخته ان يكون هو أيضا زوج أخته فزوج به بالتي تزوجها مظفر الدين كوكبري بعده قلت وهي ربيعة خاتون بنت أيوب عورت الى ان توفيت بدمشق بدار أبيها وهي دار العتيق في شهر رمضان سنة ثلث وأربعين وسبغته وهي آخر أولاد أيوب لصلبه موتا وكان يحترها المملوك من أولاد اخوتها وأولادهم وزورونها في دارها قال وفيها توفي الامير عز الدين جاولي وهو من اكابر الامراء وله مواقف جيدة في الهجاء يحس بلاؤه ويصدق غناؤه ولما عاد بعد فمخ ميا فارقين الى الموصل طرقه البلا في طريقه قفر بمصانه على بعض السواقي فعثر به وانكسرت رحله ثم علت عليه قدمه واشتد ألمه وطال به سقمه وانتقل الى دمشق وتوفي في آخر هذه السنة أو في سنة اثنتين وثمانين ولقد جفع الاسلام منه بدمر مسج لنمار الكفر متع قال وفيها يوم الاربعاء ثامن رمضان قتل بآمدوز بران قرا ارسلان وهو قوام الدين أبو محمد عبد الله بن سماعقة قتلته مماليك محمد ومه غيلة وتحالوا له في مباغتته بالقتل حميله وذلك انه كان جالسا في ديوانه وابوانه متصدرا بمكانته في مكانه وعنده الاكابر والامائل فدخل عليه واحد منهم وقال له الملك يدعوك وحده فقام فدخل الدهليز وقد أغلق الباب الذي يصل منه الى الامير وأغلق وراءه الباب الآخر وقلقه ثم أخرجوا الصلاح من حسنه وهو أحد الامراء الاكابر فقتل أولئك القتالين وكانوا به واثقين قال وفيها توفي الفقيه مذهب الدين عبد الله بن أسعد الموصلي وكان المدرس بها وكان علامة زمانه في علمه وسبح وحده في نظمه وقد أوردت من شعره في صدر الكتاب ما يستدل به على فضله وانه من عقم الدهر بمثله واشترت كتبه باغلي الايمان ولكن أخرج بجمرة قلائد اللؤلؤ والمرجان قال وفي هذه السنة ورد السلطان تلعتي الرا وحران الى مظفر الدين كوكبري بن زين الدين لتوفره في الخدمة على حفظ القوانين وظهر منه كل ما حقق به الاستظهار وأوجب لامر الامراء ورغب في مصاهرة السلطان ولقد هطو الاثمنان قال وكان السلطان قد سكنت نفسه لتقام وأراد ان تكون حركته بعد استكمال السكون وعنده أولاده الاصاغر والملك العزيز والملك الظاهر بدمشق والافضل بمصر فلما وردتني الخاتون وناصر الدين وخلاشبه أسد الدين بعد في العرين وخيف على بلاده لصغر اولاده واحتج أيضا الى الاحتياط على مافي خزائنه واستخرج دافئته وكذلك الخاتون خلقت املا كاوزانا وأوقافا وأتمته وأنانا لم يكن من الحركة بقد وقدم الكتب الى

كتاب (٦٨) الروضين

البلاد بما صمم عليه عزمه وأجرى به حكمه وأمر بالاستعداد لترقب الاستدعاء ووصاهم في سائر المقاصد والانحاء وكتب (الى ولدنا ناصر الدين قد عرفنا المصائب بالدرج الله وعظم أجرنا وأجره فيه وان مضى لسبيله فولدنا أسد الدين أحياء الله نعم الخلف الصالح وان انتقل والده الى دار البقاء فهو في مكانه المستقر من المجد والعلاء والولايات والبلاد والمعاقل باقية عليه مسئلة اليه مقرر في يديه وماضى من والده رجه الله اعني ولولنا ذرة العيون وبه استقرار السكون والحمد لله الذي جبر به كسر المصائب وألبسنا وياه أثواب الثواب فليشرح ولدنا صدره ولا يشغل سره ويعرف خواصه وأصحابه ولاته ونوابه بمجس والرحمة وغيرها منهم باقون على عادتهم) وكان المندوب اليه القاضي نجم الدين أبو البركات بن الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون ولم يغارق الخدمة السلطانية في هذه السنة قال وفي هذه السنة لما كنا على ميسافارقين وقد فتحنا هاور وداستان مثال شريف امامي ناصري بتفويض ولاية ماردین والحصن وهو حصن كيفا والعلامة الشريفة الناصرية في ثاني سطره بالقرن الشريف (الناصر لدين الله) فلبث وفهم في جادى الاولى توفي الحافظ أبو موسى محمد بن عمر بن أحمد المديني الاصماني محدث مشهور له تصانيف كثيرة وفي هذه السنة توفي بمصر في شعبان الشيخ جمال الدين أبو الفتح أبو النشأ أبو محمد محمود بن أحمد بن علي بن أحمد بن المجودي المعروف بابن الصابوني وقد فسار به من العرافة ومولده ببغداد سنة خمس مائة وحدث أنه لما شيع الاسلام أبو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني فبه عرف بابن الصابوني وكان جدّه صاحب السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ونسبته بالمجودي اليه ودخل ابن الصابوني هذا دمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رجه الله واجتمع به ووزل الى زيارته وسأله الاقامة بمسقط فذكر له ان قصده زيارة الامام السافعي رضي الله عنه بمصر فغفزه وسيره صحبة الامير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سنة سار الى ولده بمصر وصار بينه وبينه صحبة اكيدة ومحبة عظيمة بحيث انه ما كان يصبر عنه ساعة واحدة وأقبل عليه ولما ملك ولد الملك الناصر صلاح الدين رجه الله مصر لم يكن من العود الى الشام ووقف عليه وفعال بالدار المصرية وعلى عقبه وغرباق بأيدهم الى الآن ورأى بخط صلاح الدين رجه الله ما كتبه في حقه الى الملك العادل لما كان نائبه بمصر (الاخ الاجل الملك العادل أدام الله دوائه غير خاف عنه تضحية الوتف الذي أوقفه الوالد نجم الدين نعمه الله رحمة ورضوانه على الشيخ النقيب ابن الصابوني وانه لما جرى له من المحاصمة مع الشيخ الفقيه نجم الدين (يعني الخبروشاني) ماجرى اقضت المسئلة لتسكين الفتنة وتطوع الكلام انتقاله الى موضع غيره لتقطع الفتنة والخصومة بينهم بأمرنا بالله مع بقاء الوتف في تصرفه وتصرف من عنده من العقهاء والاخ الاجل الملك العادل لا يقدّم مراعاته وحفظ جانبته وبكبره من التصرف في الوقف المشار اليه ورضع من يعترضه فيه بوجه من وجوه التأويلات وحسم ما دد الشكوى منه من يتعدى عليه ان شاء الله تعالى) وترأت بخط الشيخ عمر الملا الموصلي رجه الله كتابا كتبه الى ابن الصابوني هذا يسير ارباب لم يطلب منه فيه الداء ويصف حاله أوله أخوه عمر بن محمد الملا يقول فيه (وبعد فالذي يتطلع اليه من معرفة أحوالي فخلعت اخيرا وسلامة غارق في بحار النجاء ومغمور في هياطل الآلاء غير ان أيدى البلوى بالنعم رفعتي نارة الى مقام الصديقين وتضعني تارة أخرى الى مقامات المتخلفين ومع هذا فطلب العجاة لا يفتقر والحركة في طلب الفولر لا تسكن والعمر يقتضي بالعمالي والمي وما أشبهه حتى بحال القائل

آمل في يومى ادراك المسنى ❀ حتى اذا ولى غميت غدا

لا وطرا أقضى من الدنيا ولا ❀ أفعل للأخرى فعال السعدا

والعمر مضى بين هاتين فلا ❀ ضلالة خالصة ولا هدى

يا أنحى ما خبرت بأحوالي هذا لارجاء ان تحرك همك لي بالشفقة والارأفة فقد عرف الله لي بقلب حاضر منور نور الشفقة والرحمة ويؤمن على دعائك من حضر من السادة الاخوان وتقول اللهم عبدك الضعيف عمر بن محمد الملا يدعوك ويقول

لا تنهني بعدا كرامك لي ❀ فشد بدعادة منقطعه

وقد توسل بنا اليك نسائك ان تبلغه آماله وان تحيي حياة السعدا وان تجتبه موت الشهدا وتحشره في زمرة السعدا وان تجعل خير عمره آخره وخيرا اعماله خواتمها وخيرا أيامه يوما يملك فيه

في اخبار (٦٩) الدولتين

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين) قال العماد فرحل السلطان الى الشام وودع مظفر الدين صاحب حران من الفرات وورحل صوب حلب والعادل صاحبها على المقدمه وقدها أسباب التكرمه فوصل حلب في العشر الاوسط من المحرم ثم رتب العادل في حلب نوابه وصحب السلطان فوصلوا واجاه وفيها نائب تقي الدين ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين بخارتكين وهو صاحب بوقيس وقد جمع الفضة والامانة ثم وصل السلطان الى حصن وقرر أمر المجاهد أسد الدين أبا الحارث شيركوه بن ناصر الدين وكان عمره اذئذ ثلاث عشرة سنة سماه أبوه باسم جدّه ولقبه بلقبه وكتب له منشور بما أقر عليه من البلاد وذلك بحصن وسلميه وتدمر ووادي بني حصين والرحبة وزليبا وكتب منشور آخر بأسقاط المكوس بالرحبة وفيه (وهذا باب السلطان في جميع البلاد اقتصر منها على الرسوم التي يبيحها الشرع وهي الخراج والاجور والزرع) واعتمد على الأمير الحاجب بدر الدين ابراهيم بن شروذاهل كاري في ولاية قلعة حصن ثم نقله الى قلعة حلب واليه استسنيين ورثته العزيز في آخر عهد السلطان بقوص زال ورتب السلطان مع أسد الدين بحصن أمير من الاسديّة يعرف بارسلان بوناقدم على أصحابه بتولي مصالحه حتى تعهد بالاسد بالامر لسداد وبلغ مدي رشاده ونعت المالك المجاهد ونص بحمال المجاهد قال وأقنا بحصن أياما حتى استعرضا خزان ناصر الدين وقسمه ما بينه وكانت أخت السلطان الحسامية فزوجة ناصر الدين وهي مستحقة للثمن والباقي بين البنات والابن وخلف عينا وورقا بحجتها ومفترا فبلغ التراب في الملك والعين والانات ما عظم عن ان قدر بقدار واماف عن ألف ألف دينار فأعادها السلطان طرفه بل تركه على أهل الترك قال ولما شاع بدمشق خبر توبوا احتفل أهلها واجتمع بالساز شعلها وطلعت أعينها ونعت عيونها ووافقت اباكارها وعونها وظهر مكوثها ومخزونها وترامت الينا بنجراتها ومكث ما تساهلها وخزونها ودخلنا المدينة وزينة الدنيا خارجة وسكنة النعجي فارجه ودمشق كالتهدى من فوقه وبألهدى محفوفه وبالحسن موصوفه وكان الناس قد ساء لهم خبر المرض فسرهم عيان السلامه وأسهرهم الهم لئلا شفاق فراجعوا النشفاء كرى الكرامه وما أئذ الرجاء بعد الابلال والثرى غيب الافلاس والامل عقيب الياس وانهم ظفروا في حالة الايجاش بالاياس وأمنوا بمشاهدة الانوار السلطانية خندان الوسواس واجتمع السلطان في القلعة بأهلها وأطلع المرجف عن جهله وحسنت الاحوال وأمنت الاحوال وشاهدنا التفضل والكرم بالمساهدة العاضلية الكريمة وععدنا الى عادة السعادة القديمه واجتمع السلطان به فيه أسرار واسترال بصفورا به اكداره ودخل جنة من وجنى ثماره وزاره مرة واستزاره وراجعته في مصالح دولته واستناره وجلس السلطان في دار العدل لكشف المظالم وبث المسكارم وحياء المعالم واقامة مواسم المراسم وقال الفسادي ابن سداد ولما وجد السلطان نسا طامس مرضه رحل يطلب جهة حلب وكان وصوله اليها يوم الاحد رابع عشر المحرم وكان يومها مشهود الشدة فرح الناس بعافيه ولقائه فأقام بها أربعين يوما ثم رحل في ثامن عشره نحو دمشق فلقبه أسد الدرس شيركوه بن محمد بن شيركوه بن السلطان ومعه أخته وقد صحبه بخدمه عظيمة وقرب زائدة ومن عليه بحصن وأقام أياما يعتبر بتركها به ثم سار يطلب جهة دمشق وكان دخوله اليها في ثاني ربيع الاول وكان يومالم رمثله فرحا وسورا

(فصل) في ذكر ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل الولايات بين أولاده قال العماد وكان السلطان للامانة أخيه العادل له قديمال الى رأيه وكان الملك الافضل نور الدين على بمصر وهو وولده الأكبر وقد بدا يظهر وعلى تجويد الخط والادب وسامع الاحاديث النبوية يتوفر وقدمالت اليه بمصر جماعة وله منهم طاعه ورا بقم تقي الدين النائب هناك من أحد أمر افوقعت منه فيه شهاهه فكذب يشكوكم اختلال أمره واشتغال سره وكان في نفس السلطان ان ينقل ولده الملك العزيز بعثمان الى مصر لئلا يكون عز يزها ويحزها بكتها ويحزها وهو مفكر في طم يقي نديره ووجهه بقره حتى بدله نقل الافضل الى الشام فكاتب اليه بشوقه ويستدعيه بجميع أهلها وجماعته ووالدته وحشمه وأصحابه فخرج يوم لدمشق يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الاولى وخرج السلطان لاستقباله وأزله بالقلعة في دار رضوانه وكتب الى تقي الدين ان قد استقل أمره وزال عذره فابتهج بشفردته وخفي عنه انه كان في ذمة ولد السلطان وعصمته وان تمام حرمة بجرمته قال ولما وصلنا الى دمشق كان بها من أولاد السلطان الملك الظاهر غازي غياث الدين فزاره العادل وهو صهره وقد اشتد بصاهرته ظهرو فقال له قد نزلت عن حلب

كتاب (٧٠) الروضتين

لك وأنا أقتنع من أنى باقطاع أين كان وأزم الخدمة ولا أفارق السلطان فاطلمها من أبيك ان كانت ترضيك وجاء الى السلطان وقال هذه حلب مع رغبتى فيها بحجتي لتوليها أرى أن أحد أولادك بها أحق وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب ان اوترمها فقال السلطان المهم الآن تدبير ونذى الملك العزيز فان مصر لابد ان يكون لى بها ولد اعتمد عليه وأسند ملكها اليه ورحل الى الزرقاء معه ولده العزيز والظاهر وأخوه العادل فاتمس العادل عوض حلب بلاد اعينها ونواحي بصرى بينها وكان قد مال الملك العزيز اليه لاسفاهة عليه فسأل أباه ان يسير معه العادل فانه نعم الكافى الكافل فأعطاه السلطان بمصر البلاد المعروفة بالشرقية واعتمد عليه فى نيابته فى سائر الملك المصريه ولما سمع تقي الدين هذا الخبر نبأ ونفر وذم الغير واستبدل من النصف والكدر وغار من تغير الراى فيه واذا تولى أبو بكر فلا عر فغير الى الجيزة مظهر انه مضى الى بلاد المغرب ليتملكها وكتب يسأل السلطان ان لا يمنعه من سلوك مسلكها وسميت هته الى مملكة جديده وأقاليم ذات ظلال مدبده وبلاد واسعه ومدن شاسعه وقد كان أحدهما اليه المعروف بقراقوش قد جمع من قبل الجيوش وسار الى بلاد بركة فملكها وهزته الامنية للنقائس من بلاد نفوسة فادركها وتجاوز الى افريقية وهو يكتب أبدا الى مالكة الملك المظفر يرغبه فى تلك المملكة ويقول ان البلاد سائبة فلما تجددت تقي الدين ما تجدد وتمهد لعمه العادل ما تمهد عادله ذكر المغرب فغير بعسكره ومالت اليه عساكر مصر ليدله وتدم مملوكه يوزنا فى المقدمة فلما انتهى الى السلطان خبير عزمه قال لعمري ان في المغرب مهم لك ففتح البيت المقدس أهمم والفايدة فيه أتم والمصلحة منه أخص وأعم واذا توجهت تقي الدين واستحجب مع رجائنا المعروفه ذهب لعمري اقتناء الرجال اذا فتحنا القدس والساحل طوينا الى تلك الملك المراحل وعلم نتجاج تقي الدين فى ركوب تلك الجنة فكتب اليه يأمره بالقدوم عليه وجهز ولده العزيز الى مصر وتزوره قوس وأعماها وسار معه عمه العادل فدخل القاهرة فى خامس شهر رمضان وأما الملك الظاهر فسيره السلطان الى حلب وأنعم عليه بها وبسائر قلاعها وأقاليمها ونذب معه الحاجب شجاع الدين عيسى بن بلاش وعاد السلطان ومعه الافضل وقدم تقي الدين فى آخر شعبان وتلقاه الساعات وخيم على المصرى فوق قصر أم حكيم فلما قرب ركب الى موكبه ورحب ودخل دمشق وعاد الى ما كان له من البلاد ومنحه المعروف سائر أعماها ثم أضاف اليه ميافارقين وجميع مرفى ذلك الاقليم من المعامل وكتب الى مصر باستدعاء رجاله واعلامهم بتأخير عزم المغرب بل ابطاله فامتنوا الامر وفارقوا الى الشام مصر سوى مملوكه ربن الدين يوزنا فانه رتب له عسكر الى المغرب هضى واستحجبه وغلب على بلاد افريقية ثم قصد صواب المغرب فاخذه مأسورا ثم أغزاه مع الغزو ونفى نغم الغور الفاتح مشهورا مشكورا فقدمه عليهم قتل وكتب الفاضل الى تقي الدين (سبب هذه الخدمة ما اتصل بالمملوك من ترديد رسائل مولانا فى التماس السفر الى الغرب والدمستور اليه (يكفى الزمان فالتناستجمل) فامولانا ما هذا الواقع الذى وقع وما هذا الغريم من المهم الذى ما ندفع بالامس ما كان لكم الدنيا الا البلغه واليوم قد وهب الله هذه النعمه وقد كان الشبل مجموعا والمهم مقطوعا عما نصحوا فقتضى الآن الدنيا بضيقة علينا وقد وسعت والاسباب بنامه مقطوعة ولا والله ما انقطعت يا مولانا الى ابن وما الغاية وهل نخش فى ضائقة من عيش أو فى قلة من عدد او فى عدم من بلاد أو فى شكوى من عدم كيف نتخار على الله وقد اختارنا وكيف ندبر لانفسنا او هو قد دبر لنا وكيف نتجمع الجذب ونخش فى دار الخصب وكيف نفعدل الى حرب الاسلام المنهى عنها ونخش فى المدعو واليهما من حرب أهل الحرب معاشر الخدم والجيش وأرباب العقول والاراء أليس فيكم رجل رشيد

تعب الراى وانظر فى أواخره ❀ فطالما تممت قدما وأوائله

لا زال مولانا يعضى الاراء صائبه ويخطه ابادية وعاقبه ولا خلت منه دلائل خلت فهي بات ان تعم ولا عدته أيام ان لم تطع فيها خمس وجهه دخلت فى عداد الالىا فلم تذكر وقال القاضي ابن شداد فى سابع عشر جمادى الاولى سنة اثنين وعشرين وحصل الملك الافضل الى دمشق ولم يكن رأى الشام قبل ذلك وكان السلطان رأى رواح الملك العادل الى مصر فانه كان أنس باحوالها من الملك المظفر فزال بفاوضه فى ذلك وهو على حران مريض وحصل ذلك فى نفس العادل فانه كان يحب الديار المصرية فلما عاد السلطان الى دمشق ومن الله بعافيته سير يطلب العادل

في اخبار (٧١) الدولتين

الى دمشق فيجهز من حلب جريدة وأقام بدمشق في خدمة السلطان يجري بينهما أحداث ومراجعات في قواعده تقرر الى جمادى الآخرة فاستقر عود السلطان الى مصر وبسليم بلاد حلب الى الظاهر وسلم السلطان اليه ولده الملك العزيز وجعله أنابكاه قال ولقد قال لي الملك العادل لما استقرت هذه القاعدة اجتمعت بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر وجلست بينهما وقلت للعزيز اعلم يا مولاي ان السلطان قد أمرني ان أسير في خدمتك الى مصر وأنا أعلم ان المفسدين كثير وغدا لنا غلوم يقول ما لا يجوز عني ويخونك مني فان كان لك عزم تسمع فقل لي حتى لا أجي فقال لا أسمع وكيف يكون ذلك ثم التفت وقلب لملك الظاهر ما اعرف ان أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين وأنا فالي الأنت وقد نعت منك بمنجى متى ضاق صدرى من جانبك فقال مبارك وذكر كل خير ثم ان السلطان سير ولده الظاهر الى حلب وأعادها اليه وكان رحمه الله يعلم ان حلب هي أصل الملك وجزنومه وفاعدته ولهذا دأب في طلبها ذلك الدأب ولما حصلت له أعرض عما عهداهما من بلاد النصارى وتنع منهم بالطاعة والموعظة على الجهاد فسلمها اليه عاظمته بمخاضته وخزمو وحفظه فسار حتى أتى العين المباركة وسير في خدمته سحنة حسام الدين بشار وواليها سباع الدين عيسى بن بلاش ووزل يوم الجمعة العين المباركة وخرج الناس الى لقائه في بكرة السبت تاسع جمادى الآخرة وصعد القلعة ضاحي نهاره وفرح الناس به فرحاً شديداً ودمع على الناس جناح عدله وأفاض عليهم وابل فضله وأما الملك العزيز والعادل فان السلطان قرر حالهما وكتب الى الملك المظفر يخبره بسيرهما الى مصر ويأمره بالوصول الى الشام فسق ذلك عليه حتى ظهر لكاس وعزم على المسير الى ديار الغرب الى برقه فجمع ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة وعمر فوهان عنه السلطان يخرج من يده في الحال والله يعلم ما يكون منه بعد ذلك فرأى الحق بعين البصيرة وأجاب بالسمع والطاعة وسلم البلاد ورحل واصلا الى خدمة السلطان فسار السلطان الى لقائه فلفه بمهرج الصفر وفرح بوضوئه فرحاً شديداً وذلك في الثالث والعشرين من شعبان وأعطاه جاه وسار اليها وكان عقدين الظاهر وبعض بنات العادل عقدن كاح فقم ذلك ودخل بها يوم الاربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان ودخل الملك الافضل على زوجته بنت ناصر الدين محمد بن شيركوه في سؤال من هذه السنة ومن كاب فاضلى الى السلطان (الملك العادل والملك المظفر المذكوران ماهما أخ وأبن أخ بل هما ولدان لا يعرفان المالوى والداهما وكل واحد منهما مالعه عش كثير الفراخ وبيت كرقعة السطرنج فيه صغار وبارك كلبايدق والراخ فلا يقنع كل واحد منهما الا طرف يملكه وأقليم يتفرده فيسدر مولانا في ذلك بما يقضيه صدره الواسع وجوده الذى ما نظره مثله الساطر ولا يسمع السامع ولا ينس قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه مروا العرب ان يتزاوروا ولا يتجاورا وما على مولانا بحجة لى تدير يديه ولا فى أمر بيته (وسيدى لك الايام ما كنت عارفا) وفى غد ما ليس فى اليوم والله أقدر ولما امدوقدر زق الله مولانا ذرية تؤد لو قدمت أنفسها بين يديه ولوا كحلت احفاها بغير قدميه ما فيها من يشكى منه الا التزيد فى الطلب وهو من باب الثقة بكر المنعم ولهم أولاد والمولى مدال آمال لهم كما قال مولى الامة (تأخوئنا سوا عاى مكثركم الامم) طالمال لهم المولى ادوا على تجهيز الاناب وغنى الذكور وسواء على أفق هذا البيت طلوع الشمس والبدور قال العادل ومدحت تقي الدين بقصيدة سينية سية فطوفاها اني تجنيه تسفل على مائد واربين بيتاً أنشدته ياها فى الثالث شهر رمضان من هذه السنة بدمشق وأوردت بعضها ومطلعها

عفا الله عنكم عن ذوى الشوق نفسواي * فقد نلت مناقب وانفس
ألم تعلقوا الى من الشوق موسر * ألم تعلقوا الى من النضر منلس
ظننت بعنى انها تألف الكرى * ههلا بعن طيفكم بنجس
وليس لقلبي فى السرور تصرف * فقلبي على الاخوان وقف محبس
لقلت محبيه تيقظ طرفة * وتقصيه من سقم عينيه بغس
له ناظر عند الخلف مناظر * يقول دليل الدل عندى اقبس
اذا درست الحفاطة السحر أصبحت * رسوم اصطبارى در ساحن درس

ولم أنس أنسى الجلى رعى الجلى * عشيمة لى مجنى وبجلى وجلس
لخى الله أبناء الزمان فكلهم * صميقة أودى بها الملمس
ولولا ابتسامات المظفر بالندى * لما راق نفقى صحبه المتنفس
جلت شمس لغيره الخنادس بعدما * عز تناوهل يبق مع الشمس خندس
وصار به هذا الزمان ججهه * نهارا قال لاس ليل معسوس
إذا صال فالمغلول ألف مدرع * وان جاد فالمدول ألف مكيس
وليس بمغبون على فضل رأيه * ويغن فى الاموال منه ويخص
إذا أطلق الملك المظفر فى الوعى * اعنته فالشمس بالنقع تجبس
فذاك ملوك لا يلبون داعيا * وكلهم عن دعوة الحق يخنس
تشكى اليك الغرب جور ملاك * فاشكبه والجور بالعدل يركس
سيهدى الى المهديّة النصر والهدى * بهديكم فيها ونونس نونس
رددت كراديس الفرج وكاهم * لادى الاسرى غل الصغار كدرس
وبيضت وجه الدين يوم لقيتهم * وأيضكم من اسود القصر اسوس
أفاددم الانحاس طهره سيوفكم * وما يستفاد الطهر لولا التخنس
شموس ظى تغدو لها الهام سجدا * فقله نصرانه تهنس
وكم كفى الاسلام سوءا بلككم * كفيتم على رغم المعادين كل سو
ولا يفع البيت المقدس غيركم * ويبتكم من كل عاب مقدس
لهم كل يوم فى جهاد ملكت * اذا نصرنا والوحيدى فخنس
اذا ما فى الدين صال تساقت * لا قدامه من عشيبة الشراك رؤس
وما ع الاشده سمسه * سدد على الاعداء ثب عرس

في اخبار (٧٣) الدولتين

قل لاني الفضل قول معترف * مضى جادى وجاء نار حجب
وما جرت زعر عاكما حكموا * ولا بدا كوكب له ذنب
كلاد ولا أنطمت ذككاء ولا * أبدت أذى في قرانها الشهب
يقضى عليها من ليس يعلمها * يقضى عليه هذا هو العجب
فارم بقع عك القرات والاصطرلاب خير من سقر الخشب
قديان كذب المحسبين وفي * أى مقال فالواها كذبوا
مسدبر الامر واحسدمنى * للسبع في كل حادث سبب
لا المشترى سالم ولا زحل * باق ولا زهر نولا قطب
تبارك الله حصص الحق وانجا * ب التهادى وزالت الرب
فليطل المدعون ما وضعوا * في كتبهم ولتحرق الكتب

وقال عيسى بن مودود

مزيق القويم والزيج فقد بان الخفاء * احبا القويم والزيج هو وهواء
قلت للسبعة ابرا * مومنع وعطاء * ومتى يزل فى المبين ان يستولى الهواء
وتسير الرمل حتى * يتملى منه الفضاء * ويم الارض خسف وخراب وبلاء
وبصر القناع كل قصف وكالتود العراء * وحكمته فاني الحاء * كم الا ما يشاء
ما اتى الشرع ولا * جاء بهذا الانبياء * فبقية ضيكة تفسد من العلماء
حسبك خزايا عارا * ما تقول الشعراء * ثم ما طمعكم في السعك الا الامراء
ليت اذ لم يحسنوا في الدين ظنا ما اساءوا * فعلى اصطرلاب بطليموس والزيج العفاء
وعليه الحرجى ما * جادت على الارض السماء

ولم يذ كر شهر سبط ابن التعاويذي قال وفي السابيع والعشرين من شوال توفي محمد أبو عبد الله بن برى بن عبد الجبار
النهوى وكان آية في الخوثة عالما صالحا وكان مبلدا في أمر دنياه حدث عن ابن الخطاب ومرشد بن صادق وغيرهما
قال العماد وفي هذه السنة جاء نبي أنا بل محمد بن أنا بل ايلد كز المعروف بالهلوان وهو الذى كان نزل على خلطي العام
الماضى وكانت حياته متصلة الجود والجسدى واضطربت من بعده تلك الممالك واختربت اصفهان والى اليوم من
سنة أربع وتسعين ما وضعت الحرب أوزارها وبلى بعده أخوه قزل ارسلان فازال مهابة الممالك السجوى وسلك
نهمج السعيد الشقى الى ان ذهب فاقنع الملك وانقطع السلك واتسع الهلك وطمعت خراسان في العراق وعمدت
الافاق من الاتاق وأنطمت مطالع الاشراف قال واشتغل السلطان في بقية سنة اثنتين وثمانين بدمشق بالصيد
والقنص والانتهاز فيه وادار الفرس وكان يركب الى تل راهط للصيد بالزنا والشواهي مع محاليكه الخواص الميامين
وله شاهين يجرى كانه بحر اذا خلق فشرار وان أحرق فحمر فك صايد يوسف يعقوبا وعقر بانجاز وعدصيده عرقوبا
فطلبته من السلطان فقال أنت للقم والدواوين فمالك والسير والشواهي فقلت يكون في ملكي وكل ما يفتنه
يا أمرى به المولى وهذا أريح لى وانفع وأولى فقال نعم فلما أصبح سيرا في سبع عشرة قطعة من طبر ووجل وقال
هذا صيد شاهينك في طاق واحد على يحمل فلك ذلك الشاهين خمس ست سنين والسلطان بصطاديه
ولى قنصه وله مطالع ولى قنصه فزال لى على هذا الحق محافظا ولهذه النكتة ملاحظا الى ان أودى الجوارح
وانقطعت تلك المناجم فبالله درهم من سلطان لم ينس ذكر هذه القضية التي أعاد من حجاجدا واعتده لى حقا معدا
فدون حقه على مثله ان يوسف ومن حقا بعده ان تساو (يا أسنى على يوسف) قال ولما دخل شهر رمضان توع
أقسام الانعام واتفق ان بعض التجار كانت بضاعته ياقير رقيقه والمالها نفاق وهي أكثر من مائة قطعة فطمعها الى
الحزاة السلطانية في بضاعات وقال خذوها واكتبوا لي بأثمانها في مصر على بعض الجهات فاشتريت منه
بما كان برحومه من الربح وكان من كرم شيم السلطان اذا عرف في خزائنه موجودا انه لا يستطيع تلك البلية حتى

يفرقه جودا فقال لي قد اجتمعت لنا يا قير وعائث وقد تناقضت نفسي فخلعها على أهل الفضل والمكارم فنيذ بأهل الدين والتقوى وجعل لهم أوفر حظ من الجدوى وكان في الوافدين ومن أهل البلد وعاط وعلماء وحفاظ فيكون كل يوم بكرة نوبة لمن يتكلم على المنبر ويذكرنا بالحلال والحرام والبعث والمحشر ثم يطلع عليهم وعلى القراء فاشتغل مدة اسبوعين بالمواعظ ووضع المنبر في ابواب القلعة فقلت بقي احضار النقلة في المدة الباقية من الشهر فقال انهم يعرضون بهم الخلاف الى التشاجر والتضاعن فقلت انا اضمتهم ولا يحضر الا اوفرهم وأرزنهم فاستدل أول يوم برهان الدين مسعود مدرس الخنفيه في المدرسة المعجزة النورية واعترض عليه الهادي الكاتب وفي اليوم الثاني استدلى أكبر مشايخ الخنفيه بدر الدين عسكر واعترض عليه قاضي القضاة محيي الدين بن الرزكي فكان السلطان يجالس في كل يوم لطائفة فلما دنا العبد أمر بابنياع العام وغيرها وصرفها اليهم قال القاضي بن شداد وفي شهر ربيع الاول من سنة اثنتين وثمانين وقعت وتهاكت كثيرة بين التركمان والاكراد بارض نصيبين وغيرها وقتل من الفتيين خلق عظيم وبلغ السلطان ان معين الدين بن معين الدين قد عصى بالراوندان فكتب الى عسكر حلب ان حاصره وكان نزولهم عليه في العشر الاول من سنة اثنتين وثمانين وأعطى يرج الرصاص لتبكر في بقية ذلك الشهر وفي ثاني جمادى الاولى وصل معين الدين بن الراوندان وقد سلمه الى علم الدين سليمان ثم مضى الى خدمة السلطان قال ابن القادسي وقدم الحاج في عاشر صفر فأخبروا ان سيف الاسلام أخا صلاح الدين ملك مكة وضرب الدنانير فيها باسم أخيه ومنع من قولهم عى على خير العمل وشرط على العبيدان بالؤذوا الحاج وأخبر الحاج ان قفل باب الكعبة تعسر حتى فتح ولما فخمات في المدوسة أربعة وثلاثون شخصا من بين رجل وامرأة قال ووصل الخبر ان رجاهايت بالبصرة فكسرت نخيلا كثيرا وماتت بها ثم كثيرة ووصل الخبر الى بغداد بقتل البهلوان وان القتال وقع هناك واحرق المحال ونهبت الاموال واقتل أهل المذاهب واحترقت مدارس وبقي الامر على ذلك من سابع محرم الى ربيع الآخر فاحصوا من القتي أربعة آلاف رجل وسبع عشرة امة أتبعه اعدان احترق اطفال في اليهود بالليل وقام قتل اخوان البهلوان فكيف الناس وكان قتل قد ترتب شهنة في اصفهان بعد الفتنة التي وقعت بها ومعه ألف فارس فجازال هذب البلد والراستين بالقتل والصلب وصادروهم وأشير على قتل بان يلزم أهل البلد سبعين ألف دينار فقال له الشحنة أهل البلد فقراء فقال بعض المصالحة لقتل ما أخذ الامن الاغنياء فوثب عيار فقتل المصلحي وكان العيار متعلقا على قاضي البلد فوكل الشحنة بدار القاضى بجاء ابن الخجندی الى دار القاضى فحسن له اخراج الموكلين به وتحالفوا على اخراج الشحنة من البلد وان يقطعوا خطبة السلطان الذي نصب قتل ففعل ذلك في سابع شوال ثم كثر القتل في البلد فكل من في قلبه على أحد شروث عليه فقتله من رجل أو امرأه أو كان القتل الكثير في أصحاب ابن الخجندی وكان الحرق والنهب واحرق الله وفي أصحاب القاضى وجرى القتال يوم عرفة ويوم العيد ودام وبطل الناس من المعاش وخربت الاسواق ووقع الغلامات الناس من الجوع وبني أهل أصفهان على قدم الحرف وأخذت ثياب الناس فلا يتجاسر أحد ان يلبس ثوبا جديدا او العيارون يأخذون أموال الناس مقاواة وهرب الناس من أصفهان

(فصل) قال العباد ما قدره الله تعالى من أسباب نصره الاسلام ووهن الكفر ان قص طر المس وغيب في مصافاة السلطان والاتحاء اليه والمساعدة له على أهل ملته بسبب انه كان تزوج بالقمصية صاحبة طهيرة وكان أخوها الملك المجذوم لما هلك أوصى بالملك لابن أخته هذه وهو صغير فتزوج القمص أمه ووراهات الصغير وانتقل الملك الى أمه ثم انهما مدت عينها الى بعض المتقدمين من العرب فتزوجته وفوضت الملك اليه فسرع بطلب حساب البلاد من القمص فوقع الاختلاف بينهم لذلك فالتجأ القمص الى ظل السلطان فصار له من جملة الاتباع فقبله السلطان وقواه وشده فهدمه باطلاق من كان في الاسر من أصحابه فقيوت مناصحته للسلمين حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم وصار بدولة السلطان وملكه يقسم ومال اليه من الفريخ جماعه وظهر له منهم للطعامية طاعه ودخلت الى بلادهم من جانب السرايا وخرجت بالغنائم والسبايا وأعطى الدينية دينه بما استنداه من العطايا فصار الفريخ يدفعون شره ويجذرون مكره فتارة يدارونه وأتة بما رونه ولقمص قوم صدق يساعده في كل حق

في اخبار (٧٥) الدولتين

وباطل فبلى منهم أهل الساحل بشغل شاغل وهذا الملك المجذوم هو ابن الملك أماري بن فلك وهو مري الذي تقدم ذكره ونوفي أماري في آخر سنة تسع وستين سنة مات فوالدين رحمه الله تعالى وخلف الملعون هذا الولد المجذوم فبقي بينهم زهاء عشرين ملكا مضاعفا فلما حضر الموت أوصى لابن أخيه بذلك قال وكان ابن نرس الكرك أرباط أغدر الفرنجية وأخيهما وأخذهما عن الردي والرداءة وأبجتها وأقفضها للوراثين المحكة والإيمان المبرمة وأنكها وأخبتها ومعه شذمة لهاثر ذمه وهي من شر أمه على طريق الحجاز ومن ههنا على الطريق الجواز وكنا في كل سنة نغزوه وبالبواني نعروه، ويصيهه منا المكره فآظها على الهدنة وجعل السلم وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه ورحمه وبني الامر له شاملا والتفلس من مصر في طريق بلده تموصلا وهو يمكن الجاني والذهاب حتى لا حلة له فرصة في العدر فقطع الطريق وأخاف السبل ووقع في فاقة ثقيلة معها ثم جليله فأخذها بأسرها وكان معها جماعة من الاجناد فأوقعهم في الشرك وجعلهم الى الكرك وأخذ خطبهم والعهدة وسامهم التذو والتشده فأرسلنا اليه وودعنا فعاله وقبحنا احتياله وأغيا له فأتى الاصرار والاضرار فنذر السلطان دمه ووفى في ارافة دمه بما التزمه وفلا في السنة الآتية كما سيأتي ان شاء الله تعالى وأقام السلطان بدمشق بقية هذه السنة وهو في الاستعداد للجهاد وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقة والمصرية فانتمضت أموره على أحسن قضيه ومن كتاب فاضلي الى بعض اخوانه (كتب هذه المكتبة من جسر الحشب ظاهر دمشق وقد ورد السلطان أعز الله أنصاره للفرقة الى بلاد الكرك في عسكر فيه عساكر وفي جمع البادي فيه كنهه حاضر وفي حشد يتجاوزان بحمله الناظر الى ان لا يحصله الخاطر وقد نصبت به همة لا يرجي غير الله لانهاضها وبجته به عزيمة الله المسؤل في حسم عوارض اعتراضها وباع الله نفسا يستمتع أهل الاسلام بفضتها ويذهب الله الشرك بينيتها وأرجوان يتقمص عن زبدة وتستر بح الايدي بعد هاعن المحض وان يكون الله قد بعث سفينة نصره الاسلام وسلطانة قد نهض للقبض)

(ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين) وهي مئة كمره حدين ونح الساحل والارض المقدسة للباين قال العبادي كذب البرق وهي السنة الحسنة المحسنة والزمان الذي تقصت على انتظار احسانه الازمته وطهره في المكان المقدس الذي سلمت لسلامته الامكنه وخلصت بهجة الله من المحنة الارض المقدسة المعجزة وكفى الله شر الشرك وحكم على دماء الكفرة بالسفك ونصرت الدولة الناصرة وخذلت الملة الاسرائيلية وانتقم التوحيد من التثليث وشاخ في الدنيا بفساح الايام الصلاحية حسم الاحاديث ثم ذكر في بابي النفع والبرق ما جعلته ان قال فبرز السلطان من دمشق يوم السبت أول المحرم في العسكر العرمم وهي بأهل الجنة لجهاد أهل جهنم فلما وصل الى رأس الماء أمر ولده الملك الافضل بالاقامة هناك يستدعي اليه الاسراء الواصلين والاملاك ويجمع الاعارب والاعاجم والأتراك وسار السلطان الى بصرى وخيم على قصر السلامة وأقام على ارتباب اقرب الحاج وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن الجعين والدة أحب السلطان مع جماعة من الخراس وقد تقدم ذكر غدر ابرنس الكرك وهو على طريق العسكر المصري والحاج ووصل الحاج في آخره فوخلص السلطان من شغلهم ثم سار وزل على الكرك وأخاف أهله وأخذ ما كان حوله ورعى زرعهم وقطع أشجارهم وكرومهم ثم سار الى الشوبك وفعل به مسئ ذلك ووصل عسكر مصر فتنقاه بالقرتين وقرقه على أعمال القلعين وأقام على هذا الحال في ذلك الجانب شهرين والملك الافضل ولده مقيم رأس الماء في جمع عظيم من العظما وعنده الحفاقل الحافله والحواصل الحاصلة والعساكر الكامرة والفساور القاسرة وهو ينتظر أمر من أبيه ويكتب اليه ويقضيه وانقضى من السنة شهران وطالبهم انتظار السلطان فانهم سر به سريره وأمرها بالفرار على أعمال طبريه ورتب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبري صاحب حران وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرد من ياروق وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايمز النجمي فساروا مدججين وسروا مدججين وصحوا صفورية وساء صباح المنذرين فخرج اليهم الفرنج في حشد فاتهم الله النصر الهني والظفر السني وسفوا منهم حنين الحنايا وأدركوا فيهم مني المنايا وفازوا وظفروا وقتلوا وأسروا وهلك مقدم

كتاب (٧٦) الروضتين

الاستيثار وحصل جماعة من فرسانهم في قبضة الاسار وأفلت مقدم الداوية وله حصاص ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك خلاص وعادوا سالمين سالكين غائبين غاليين فكانت هذه بكورة البركات ومقدمة ما بعدهما من ميامن الحركات وجاءتنا البشرية ونحن في نواحي الكرك والشوبك فسار السلطان ووصل السير بالسرى وخيم بعشرا والقدر يقول له تعش ورتى وقد غصت بحزل الله الوها. واندرى وامة العسكر فراض عراضا طولا وملأ بالملأ حزونا وسولا وما رأيت عسكرا أرك منه ولا أكبر ولا أرك للكفر ولا أكثر وكان يوم عرضه مذكرا يوم العرض وما شاهده الا من تلا (ولله جنود السموات والارض) وعرض العسكر في اثني عشر ألف مديج في ابل الجحاح مديج ولما تم العرض حمم الفرض وسالت بأفلاك السماء والارض وتعين الجهاد وتبين الاجتهاد ثم رتب السلطان للعسكر اطلالا وخزبه اخزا وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الاخر انما على دخول الساحل فانا خلية السبت على خسفين ثم سار في الاردن الى ثغر الافعانة وأقام هناك خمسة أيام وقد عين مواقف الامراء وشعراهم وأحاط بهيرة طبرية ببحره المحيط وضاق بسائط خيامه ذلك البسيط ولما سمع الفريخ باجماع كذا الاسلام عليهم وسير ذلك الجيش اليهم علموا انه قديما هم سالاهم بماله وان الايمان كله قد برز الى الشرك كله فاجتمعوا واصطلموا وحشدوا وجعوا وانخروا ودخل القمص معهم بعد ان دخل عليه المائت ورجي بنفسه عليه وصفقوا بايهم بصغوريه ولوا الاولية وحشدوا الفارس والراجل والرايح والنايل ورفقوا صليب الصليبوت فاجتمع اليه عباد الطاغوت وضلال الناسوت واللاهوت ونادوا في نواحي اهل اقاليم اهل الافانم وصلبوا الصليب الاعظم بالتعظيم وما عصاهم مر له عصي وخر حوا عن العدو والاحصاء وكانوا عدد الحصى وساروا في زهاء خمسين ألفا اوزيريدون ويكيديون ما يكيديون قد نوافوا على صعيد وروافوا من قريب وبعيد وهم هناك مقيمون لا يرون والسلطان في كل صباح يسير اليهم ويشرف عليهم وراميمهم ويتكلم فيهم ويتعرض لهم بغير ضالة ويردوا عن رفاقهم سيموه وعن شعابهم سيموله فراضوا ومانعوا وقعدوا ومانعوا فلورز والامصاف اطلت عليهم يد الانتصاف فلما رأى السلطان انهم لا يبرحون ومن قرب صفو يري لا ينزحون أمر أمر اعدان يقيموا في مقابلتهم ودموا على عزم مقاتلتهم ونزل هوى خواصه العسسية على مدينة طبرية وعلم انهم اذا علموا بنزوله عليها بادروا بالوصول اليها فحينئذ يتمكن من قتالهم ويجهد في استنصافهم ثم أحضر الجاندرية والقاين والخراسانية والنجارين وأطاف بسورها وشرع في تخريب معمرها وأخذ النابون في التنب فبرج فهدوه وهدموه وتسلفوا فيه وتساهو ودخل الليل وصباح الفتح مسفر وليل الويل على العدو منكروا وامتدت القلعة بن فيها من القمصية وبنيها ولما سمع القمص بفتح طبرية وأخذ بده سقط في يده وخرج عن جلد جلده وسمح للفريخ بسبده بلبده وقال لهم لا تعود بعد اليوم ولا تذلتنا من لقاء القوم واذا أخذت طرية أخذت البلاد ونهبت الطرف والتلاد وما بقي لي صبر وما بعد هذا الكسر لي جسر وكان الملك قد حالفه فخالفه ورافقه فانا فقه ورحل بمجمعه وأتباعه وشياطينه وأشباعه فمادت الارض بحركة وغامت السماء من غبرته ووصل الخبر بأن انه رنج ركبوا ووثبوا ففصرح السلطان وقال جاء ما نريد ونحن أولو بأس شديد واذا سمعت كسرهم تم فطبرية وجميع الساحل ما دونهما منيع ولا عن فتحه وازع واستحار الله تعالى وسار وعدم القرار وذلك يوم الخميس ثالث عشر ربيع الآخر والفريخ سارون الى طبرية بقتلهم وقصصهم وعسم كالجبال السائرة والبحار الارخرة امواجهما ملطمة وأفواجهما زرجمة فرتب السلطان في مقابلتهم اطلابه وحصل بعسكره قدامهم وحجز بينهم وبين الماء واليوم قبض والقوم غيظ وحجز الليل بن الفريخين وحجز الخيل على الطريقين وهيئت دركات النيران وهشت درجات والجنان وانتظر المالك واستبشر رضوان في ليلة القدر خبر من أس شهر تزل فيها الملائكة والروح وفي شهر هاتنظر الفريخ وفي صباحها انفتوح فمألم جنابك الليلة الاخره فقد كنناهم قال الله تعالى فيهم فأتاهم الله ثواب الدين وحسن ثواب الاخره وبنوا الجنة معروضه والسنة مفروضة والكورثا نفعه سقائه الخلد اطفة جناته والسبيل واضحه سبيله والاقبال ناهرقبيله والظهور قائم دليله والله ناصر الاسلام ومدليه وسهر السلطان تلك الليلة حتى عين الجبال الشية من كل طالب وملأ جعابها وكثمها بالنبال وكان ما فرقه

في أخبار (٧٧) الدولتين

من الشباب أربعائة رجل ووقف سبعين جازة في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه وفرغ نشابه حتى اذا أسفر الصباح خرج الجالسيه تمخرق بغير ان اتصال أهل النار ورنث القمى وغنت الاوتار اذذاك واليوم ذاك والجيش شاك ولقيظ عليهم فبعض وبالمغيط منهم - م غيض وقدوقد الحمر واستشرى الثمر ووقع السكر والفقر والسراب طافح والظلمة لانح والجوى محرق والجوى مفلق ولا ذلك الكلاب من المثلث لثت وبالعيت عيث وفي ظنهم انهم يردون الماء فاستقبلتهم جهنم بشرارها واستظفرت عليهم الظهيرة بنارها وذلك في يوم الجمعة بمجموع أهلها المجتمعه ووراء عسكرنا بحيرة طبريه والورد عدد وامنته بعد وقد قطعت على الفرنج طريق الورد وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود فوقفوا صابرين مصابرين مكارين مضارين فكلبوا على ضرورتهم وشر بواقي اوتهم وشفوها ما حولهم من موارد المصانع واستترفوها وحتى ماء المدامع وأشرفوا على المصير الى المصارع ودخل الليل وسكن السيل وباتوا حيارى ومن العطش سكارى وهم على شغف البحيرة بحيرة وقوتوا أنفسهم على الشدة واستعدوا بالعزائم المحتدة وقالوا غدا نصب عليهم ماء المواضي ونقماضهم الى القواضب القواضي فأجدوا عزم البلاء وطلبوا البقاء بالتورط في الفناء وأما عساكرنا فاجتازت ومن كل ما يعوقها برئت فهذا السنانة شاذ وهذا العنانة أخذ وهذا سهم مفوق وهذا سهم موثق وهذا مكبر لا تكبير ومنظار لا تكبير وهذا تاج للسعادة وهذا راج للشهادة فبالله تلاء من ليله تحراسها الملائكة ومن سحر انفسها الطاف الله لتندركه والسلطان رحمة الله قد وثق بنصر الله فويعضى بنفسه على الصفوف ويحدهم ويدهم من الله نصرة بالولف ويعزى المتين بالالوف وهم عساكره اياهم يجيدون ويجهلون ويصدون اعدوهم وردون وكان للسلطان مملوك اسمه منكور رسلى في أول الناس وكان حصانه قوى الراس فابعد عن اخوانه ولم يتابعه أحد من أقرانه فانفرد به الفرنج فابنت في مستنقع الموت بجلده وقاتل الى ان بلغوا قتله فلما أخذوا رأسه ظنوا انه أحد اولاد السلطان وانتقل السهم الى جوار الرمح ولما شاهد المسجون استنهاده وجلده وجلاسه حيث جثمتهم وخلصت لله نفعهم وأصعب الجديش على تعبيته والنصر على تليته وذلك يوم السبت الحامس والعشرين من ربيع الآخر وهو يوم النصره ووقع الكسره وبرج بالفرنج العطش وأبنت عسرتهم ان تنعش وكان النسيم من امامها والخنيش تحت أقدامها فرمى بعض مطوعة المجاهد بن الناري الحديش فتأجج عليهم استعارها وتوهج اوارها فبلاوهم أهل التليث من نار الذناب لثلاثة اقسام في الاصطلا والاصطلام نار الضرام وار الاوام وار السهام فرجا العزيم فرجا وطلب عليهم المحر خرجا فكلما خرجوا جرحوا وبرج بهم حر الحرب فارحوا وهم ظماى وما لهم ماء سوى ما يابونهم من ماء الفرند فمشوهم نار الداهم واسوتهم وصمعت عليهم قلوب القمى القاسية وأسممهم وأبججوا وأخرجوا وأخرجوا وتما جازر دواور دوا وكما ساروا وشدوا وأسرأوا وشدوا وما دبت منهم غملة ولا ذبت عنهم غملة واضطروا واضطربوا وانتهوا وانتهوا وبنا بهم الشباب فعدت أسودهم فنانذ وضابته نسم الداهم فوسعت فيهم الحرق الا فؤاد فآوا الى جبل حنين اعصمهم من طوفان الذمان فاحاطت بحطين لوارق الاروار وشتمهم الجبى وفرشتم على الرى ورشتم الحنابا وقسرتهم المنايا وقسرتهم البليبا ورقشتم الزايا ولما أحس الغمض بالكسره حسر عن ذراع الحسره وأسال من العزيم واحتال في الخزيه وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجرح فخرج دابة يطلب الخروج واعوج الى الوادى وما وذا ن يعوج ومضى كومض البرق ووسع خناخره فبب اتساع الحرق وأقلت عدة معدوده ولم بلغت الى مؤدة صر دوده وكان قال لا يحبه انا أسبقكم بالجملة وأفضلكم في الجملة فاجتمع هو ومؤازروه وجماعته من انقذمين مضافروه وجمعه صاحب صيدا والبيان بن بارزان وتواسر واعلى انهم يحملون ويلغون الغنائ خمل القمص ومن معه على الجانب الذى فيه الملك الظفر تقي الدين وهو مؤرخ الله بالرفيق والتهكين ففتح لهم طريقا ورمى من اتباعهم فريقا فخصوا على رؤسهم وتجاوز بنقوسهم ولما عرف الفرنج ان القمص اخذ بالعزيم ونفذ في الخزيه وهنوا وهانوا ثم استدوا وما لا نوا وبثوا على ما كانوا واستعبلوا واستقبلوا واستقبلوا واستلموا وراجلوا وقتلوا عليهم ووقع الناري الحلفاء وصيب لمام الحديد لاطفاء فزاد في الاذكاء خطوا خياههم على غارب حطس حبر رأوا بهم محيطين فأنجحناهم عن ضرب الخيام بضرب الحمام ثم استخرج الحرب واستمر النعن والضرب وأحيط بالفرنج من حواليم ودارت الدوائر عليهم وترجوا خيرا فترجلوا عن الخيل

كتاب (٧٨) الروضتين

وجرفهم السيف جرف السيل وملك عليهم الصليب الاعظم وذلك مصابهم الاعظم ولما شاهدوا الصليب سلبيا ورتيب الردى قريبا أيقنوا بالهلاك وأثخنوا بالضرب الدراك فابرحوا بأسرور و يقتلون ويخمدون ويخملون وللو توب يخفون والجراح يثقلون ومن مصارع القتل الى معاصر الاسرى يعاونون ووصلنا الى مقدمهم وملكهم واربئهم فتم أسر الملك واربئ الكرك وأخى الملك جفرى وأولك صاحب جبيل وهنقرى بن هنفرى وابن صاحب اسكندر ورونه وصاحب مرقية وأسرى من نجاش القتل من الداوية وقدمها ومن الاستبائية معظمها ومن البارونية من اخطأه البوار فأصابه وساءه الاسار وأسرى الشيطان وجندوه وملك الملك وكنوده وجبر الاسلام بكسرهم وقتلوا وأسروا بأسرهم فمن شاهد القتلى قال ماهناك أسير ومن عاين الاسرى قال ماهناك قتيل ومذاستولى الفرنج على ساحل الشام ماشقى للمسلمين كيوم حطين غليل فالله عز وجل سلط السلطان وأقدره على ما أعجز عنه الملوكة وهدهد من التوفيق لا امتثال أمره ومن افاعة فرضه للهنج الملوكة ونظم له في حروف أعدائه والفتح لا واماؤه السلوك وخصه بهذا اليوم الاغر والنصر الابرو واليمن الاسر والعج الادر ولولا يكن له الافضيله هذا اليوم لكان متفردا على الملوكة السالفة فكيف ملوك العصر في السموات والارض غير ان هذه التوبة المباركة كانت للفتح القدسى مقدمه ولما قد انصر وقواعده مبرمة بمحكمه ومن عجائب هذه الوقعة وغرائب هذه الدفعة ان فارسهم مادام فرسه سالما لم يزل للصرعة فانه من لبسه الزردى من قرينه الى قدمه كان كانه قطعة حديد ردراك الصرب اليه غير مفيد لكن فرسه اذا هلك فرس وملك فلم يغم من خيلهم ودوابهم وكانت الوفاما هوسا لمات رجل فارس الا والظعن والرمى لمركوبه كالم وغنما ما لا يحصر من بيض مكنوز وزغف موضون وبلاذ وحصون وسهول وحزون وابذلنا منهم لهذا الفتح كل اقليم مصون وذلك سوى ما استبج من مال مخزون واستخرج من كنز مدفون وصحت هذه الكسرة وتمت هذه النصر يوم السبت وصربت ذلة أهل السبت على أهل الاحد وكانوا أسودا فعدوا من النقد فما أظلم من تلك الآلاف الاحاد وما نجا من أولئك الاعداء الأعداد وامتلا بالأسرى والقتلى وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذى تجلى وقصدت الاسارى فى الجبال واجبة القلوب وفرشت القتلى فى الوهاد والجبال واجبة الجنوب وحطت حطين تلك الجوف عن مثنى وطاب نصر النصر بنتها وعبرت بها فالفتية محمل الاعتبار وشاهدت ما فعل أهل الانبال باهل الادبار وعانيت أعيانهم خبرا من الاخبار ورأيت الرأس المثرى والنفوس باثره والعيون غائره والجسوم رسمتها السواقي والرسوم درسها العواقي واسلاء المسلمين فى الملتقى ملقاء بالعراء عرافة حمزة بالممازق مفصلة المفاصل مفرقة المراقق مقلقة المفارق محدوفة الرقاب مقصرة الاصلاب مقطعة الهام موزعة الاقدام مجذوعة الاثاف منزعة الاطراف معقوة العيون معوجة البدون منهفة الاجساد مقصدة الاعضاء مقلصة الشفاة مخلفة الجباه سائلة الاحداق مائلة الاعناق عديمة الارواح شبيهة الاشباح كالاهجار بين الاهجار عبرة لاولى الابصار ولما أبصرت خدودهم ملصقة بالتراب وقطعوا آرابا تلوت قول الله تعالى (ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا) فما أطيب نجات الظفر من ذلك الحثيث وما ألهب عذابات العذاب فى تلك الجثث وما أحسن عبارات القلوب بفتح ذلك السعته وما أجزأ صلوات البشائر بوقوع ذلك الحادث هذا احساب من قتل فقد حصرن السنة الامم عن حصره وعدده وأمام أسرف ترك كيف اضتاب الخيم لقيده وشده ولقد رأيت فى الحبل الواحد ثلاثين وأربعين يقدوهم فارس وفى بقعة واحدة ثمانين ومائتين يحجمهم فارس وهناك العتاة عتاه والاعداء عراه وذووا الاسرة أسرى وألوا لثرة عثرى والقوامص قنائص والفوارس فرائس وغوا الى الارواح رقائق وجوده الداوية عوايس والرؤس تحت الاخامص فكما أصيد صيد وفائد قيد وقيد وملك مملوك وهاتك مملوك وحرق الرق ومبطل فى يد الحق ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلבות وأهلك دون الطاغوت وهو الذى اذا نصب وأقيم ورفع سجد له كل نصرانى ور كع وهم يزعمون انه من خشية التى يزعمون انه صلب عليها معبودهم وقد غلفوه بالذهب الاجر وكالوه بالدر والجواهرى وأعدوه ليوم الروع المشهود ولموسم عيدهم الموعود فاذا أخرجته القسوس وحلته الرؤس تبادروا اليه واتوا عليه ولا يسع أحد منهم عنه التخلف والتخلف عن اتباعه فى نفسه التصرف وأخذه عندهم أعظم من أسر الملك وهو أسد مصاب لهم فى ذلك المعترك فان الصليب السليب ماله عوض ولا هم فى سواه

في اخبار (٧٩) الدولتين

غرض والتأله عليهم مقترض فهو ألهم تعفر له جباههم وتسبح له أفواههم يتغاثبون عند احضاره ويتعاشون لا يصاره ويتلاشون لظهاره ويتغاضون اذا شاهدوه ويتواجدون اذا وجدوه ويذلون دونه المهنج ويطلبون به الفرج بل صاغوا على مثله صليبا تابعدونها ويخشعون لها في سوتهم وشهدونها فلما أخذ هذا الصليب عظم مصابهم وهوت اصلاجهم وكان الجمع المكسور عظيما والموقف المنصور كريما فلما نهم ما عرفوا الخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد عن يومهم العصيب فهل كواقتلا وأمرأ وما كسوا قهرا وقسرا ولما صبح الكسر وقضى الامر وتمكن النصر وسكن البحر ضرب السلطان في تلك الحومة ددلميز السراوق ونوافت اليه حماة الحقائق ونزل السلطان اوصلى للسكر وسجد وجدد الاستبشار باوجد واحضر عنده من الاسارى الملك والبرنس وأجلس الملك بجنبه وقال في كذب الفخ وجلس السلطان لعرض أكابر الاسارى وهم يتهادون في القيسود تهادى السكارى فقدم بداية قدم الداويه وعذبه كبيرة فمنهم ومن الاسناريه واحضر الملك كى واحوج جفري وأوك صاحب جيبيل وهنرى والابرنس ارنات صاحب الكرك وهو أول من وقع في الشرك وكان السلطان نذر دمه وقال لا نخل عند وجدانه عذمه فلما حضر بين يديه أجلسه الى جنب الملك والمثلث بجنبه وقرعه على غدره وذكره بذنبه وقال له كم تخلف وتحنث وتعهذ وتكسث وتبرم الميثاق وتقض وتقبل على الوفاق ثم تعرض فقال الستر جان عنه انه يقول قد جرت بذلك عادة الملوك وما سلكت غير السنن المسالوك وكان الملك يدب ظمأ ويميل من سكرة الرعب منتشيا فأنسه السلطان وساوره وقتأسور ذا الوجه الذى ساوره وسكن رعيه وامن قلبه وأمر له بما مشايخ فشر به وأطأ به لجهه ثم داول الملك الابرنس الصدح فاستشفه وبرده بلفه فقال السلطان للملك لم تأخذنى سقيمه منى إذا فلا يوجب ذل له منى أمنا ثم ركب وحلاهما وبنار الوهل اصلاها ولم ينزل الى ان ضرب سرادقه وكررت اعلامه وبارقه وعادت الى الجي عن الحومة فيا لقه فلما دخل سرادقه استحضر الابرنس فقام اليه وتلقاه بالسيف فخل عاتقه وحين مرع أمر برأسه فقطع وجر رجليه فقام الملك حتى أخرج فارتاع الملك وانزعج فعرى السلطان انه خامر الفزع وساوره الهلع وسامر الجزع فاستدعاه واستدناه وأمنه وطمنه ومكنه من قربه وسكنه وقال له لا تزداءت أردته وغدرته كانه غادرته وقده لك بغيه وبغيه ثم جمع الاسارى المعروفين وسلمهم الى والى قلعة دمشق الناصح القيسدى فقال لهم أنتم تحت قيسدى وسلمهم الى أصحابه فسلمتهم الايدى وأمرهم ان يأخذوا خط الصفي اس القبايض فى دمشق بوصولهم ويحاط عليهم فى اغلالهم وكبوتهم ففرق العسكر بين فخته أيدي السبي أيدي سبا وبهاتهم الوهاد والرى قال ولما أصبح السلطان يوم الاحد استقام على الجدد وخيم على طبريه وراسل القمصية وأخرجها من حصنها بالامان ووفى لها والفرسان بينهم بشرط الايمان فخرجت بمالها ورعها ونساءها ورعها وسارت الى طرابلس بلد زوجه القمص بمالها وحالها وولى طبرية قائما بالجمعي وكانت طبرية في عهد الفريضة تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلت والبلقا وجبل عوف والحياتيه والسواد وتناصف الجولان وما يقربها الى بلد حوران فخلست المناصفات وصفت الصفات وأمنت الاقات هذا والسلطان نازل ظاهر طبريه وقد طب البريه وعسكره قد طبق البريه فلما أصبح يوم الاثنين بعد الفتح بيومين طلب الاسارى من الداويه والاسناريه وقال أنا أظهر الارض من هذين الجنسين النجسين فخرجت عاتدهما بالفساده ولا يقلعان عن المعاده ولا يتجذمان فى الاسر وهما أحببت أهل الكفر فقدم باحضار كل أسير داوى واستنارى ليعنى فيه حكم السيف ورأى البقاء عليه عين الحيف ثم علم ان كل من عنده أسير لا يسمح به وانه يضرب بعطيه فجعل لكل من يأتيه بأسير منهم ما من الدنانير المخرجسين فأتوه فى الحال بثمين فأمر باعطائهم وضرب رقابهم ومحو حسابهم وكان يحصرته جماعة من المتطوعة المتورعه والمتصونة المتصوفة والتمتعة المتصرفه ومن تمت له المعرفة بالزهد والمعرفة فسأل كل واحد فى قتل واحد وسل سيفه وحسر عن ساعد والسلطان جالس ووجهه باشر والكفر عابس والعسا كرصوف والامراء فى السماطين وقوف ففهم من فرى ويرى فسكر ومنهم من أبى وتبا وعذر ومنهم من يضحك منه وينوب سواه عنه وشاعت هناك الضحك والقتال ورأيت منه القوال الفعال فكعدا أنخره وحدا أحرزه وأجر استدامه بدم اجراه وبراعتى اليه بعنى براه

كتاب (٨٠) الروضتين

وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفرى وصاحب جبيل وقدمت الداوية وجميع أكابرهم الماسورين الى دمشق ليودعوا
المحبون وتستبدل حركاتهم بالسكون ونفرت العساكر يما حوت أيديهم من السبي وسبق بهم الى البلاد أناس
ولم يتبع على عددهم القياس فكتب الى الصفي بن القبايض نائبه بدمشق ان يصرب عنق من يجدهم الداوية
والاستبنايه فامتثل الامر في إرهابهم وضرب أعناقهم فما قتل الا من عرض عليه الاسلام فأبى أن يسلم ومأسلم
الآحاد حسن اسلامهم وثأ كد بالدين عزائمهم قال العمادومارلت أنبحث عن سبب نذر السلطان ارأه قدمه الأبرنس
حتى حدثني الامير العزيز عبدالعزيز بن شاذان بن تميم بن المعز بن باديس وهرذ والبيت الكبير والحب الجليل
وكان جده صاحب افرقية والقيروان وكانوا يوارثون ملكه الى قريب من هذا الزمان ذكر ان الاجل الفاضل
حدثه ان السلطان لما عاد الى دمشق من حران بعد المرونة التي صار بها كل قلب عليه حران ولك في سنة اثنتين
وثمانين وهومن عقابيل سقته لا يفارق الا نين قفلت له مامعناه نذايقظ الله وما يعيدك من هذا السوء سواء فانذر
انك اذا أبلت من هذا المرض تقوم بكل ماله من المعترض وانك لا تقتال من المسلمين أحدا أبدا وتكون في جهاد
أعداء الله مجتهدا وانك اذا نصرك الله في المعترك وظفرت بالقمص وابرس الكرك تقرب الى الله بارة دمهما
في أيتهم وجود النصر الابعدهما فأعطا يده على هذا النذر ونجدا لله ببركة هذا العذر من الدعر وخلصه اخلاصه
في مرضاة الله فأبى من مرضسته واستقل بنهضته واستقبل السنة القابلة بسنة الغزو وفرضته ثم جرى من
مقدمات الجهاد وتأنجها ما جرى وخيم السلطان في جوع الاسلام بعشرا وركب يوماني عسكره وعزم على نشر
الفساطل وطى المراحل ودخول الساحل والقذف بالحق على الباطل فبدأ ببقاء الطلعة المباركة من الاجل
الفاضل فقال له ليكن نذرك على دكرك واستزنة الله عنده عز يدسرك ولا تحط غير قع أهل الكفر
بفكرك فما أنفذك الله من تلك الورطة وانعكك من تلك السقطه الا ليوفر ذلك من هذه الغيبة فتوكل على الله
عازما وجاز الاردن جازما وارعب حاش الكفرة وكسرجيوشه وتل عروشه ووقع في الشرك أبرنس الكرك فوفى
بصرب عنقه نذره وأما القمص فانه أخذ في الملتقى بالهزيمة حذره وما وصل الى طرابلس أخافه في منامه انه سدر
وجاء في صفوه الكدر وتسلمه مالك الى مقر

(فصل ١٠) هذا الذي تقدم من وصف كسره حطين هو عين ما ذكره عماد الدين رحمه الله في كتابيه الفتح والبرق
اختصرته منها وهو مطول فيها وقد وقفت على كلام لغير في ذلك فابيت أيراده على وجهه لما فيه من شرح
ما تقدم وتقويه وربما اشغل على زيادات من فوائد تتعلق بذلك لم يتعرض العماد لها أو يغفل بعض ما ذكره فقال
القاضي أبو المحاسن بن شاذان لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على قصد الكرك فسير الى حلب
من سيحضر العسكر وبرز من دمشق في منتصف المحرم فسار حتى نزل بارض الكرك منتظرا لاجتماع العساكر
المصرية والشامية وأمر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارة على ما في طريقهم من البلاد الساحلية ففعلوا ذلك
وأنام رحمه الله بارض الكرك حتى وصل الحاج الشامي الى الشام وامتنوا غائلة العدو ووصل قتل مصر ومعه بنت
الملك المظفر وما كان له باليد المصيرية وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالفرنج بارض انطاكية وبلاد
ابن لاون ولذلك انه كثر قديما ووصى لابن أخيه لاون بالملك وكان الملك المظفر بما هو بلغ الخبر السلطان فامر
بالدخول الى بلاد العدو واتخذ نائره فوصل الى حلب ونزل في دار العفيف بن زريق وانتقل الى دار طمان
وفي ناسع صفر خرج بعسكر حلب الى حارم ليعلم العدو ان هذا الجانب ليس بهممل وعماد السلطان فوصل الى السواد
ونزل بعشرا سابع عشر ربيع الأول ولقيه ولده الافضل ومظفر الدين وجميع العساكر وكان تقدم الى الملك المظفر
بصالحه الجانب الحلبى مع الفرنج ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد فصالحهم وتوجه الى جهه يطلب خدمة
السلطان للغزاه فسارت العساكر الشرقية في خدمته وهم عسكر الموصل يقدمهم مسعود بن الزعفراني وعسكر مardin
الى ان أتوا عشرا فلقهم السلطان وأكرمهم ثم عرض السلطان العساكر منتصف ربيع الآخر على تل يعرف بتل
تسيل ورتبهم واندفع قاصدا بلاد العدو في وسط نهار الجمعة وكان أبدا يقصد بوقعاته الجمع لاسيما أوقات صلاة الجمعة
تبر كابداء الحظياء على المنابر فرما كانت أقرب الى الاجابه وبلغه ان الفرنج اجتمعوا في مرج صفرية بأرض

في اخبار (٨١) الدولتين

عكا فقصده نحوهم للصاف معهم فسار ونزل على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبره ورجل من هنالك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل لتعبية الحرب منتظرا ان الفرنج اذا بلغهم ذلك قصده فلم يتحركوا من منزلهم قتل جريده على طبرية وترك الاطلاب على جبالها قبالة وجهه العدو ونازل طبرية وزحف عليها ففهموها وأخذها في ساعة من نهار وامتدت الايدي اليها بالنهب والاسر والحريق والقتل وامتنعت الفلقة وحدها فرحل الفرنج وقصدوا طبرية للدفع عنها فاخبرت الطلائع الاسلاميه الامر ابصر كذا الفرنج فسيروا الى السلطان من عرفه ذلك فتل على طبرية من يحفظ قلعتها ولقي العسكر هو ومن معه فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها وحال الليل بين الفئتين فباتتا على مصافى شاكيتين في السلاح الى صبيحة الجمعة فركب العسكران وقصدا ذلك بارض قرية تسمى اللويا ولم تزل الحرب الى ان حال بينهم الظلام وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة والامور الجسيمة ما لم يحك عن من تقدم وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة وقد أقعده التعب عن النهوض حتى كان صباح السبت الذي يورث فيه فطلب كل من الفئتين مقامه وعلت كل طائفة ان المكسور منه ما مدحورة الجحش معدومة النفس وتحقق المسلمون ان من وراءهم الاردن ومن بين أيديهم بلاد القوم ولا يخفى سم الا الله وكان الله قد قدر نصر المسلمين فيسره وأجراه على وفق ما قدره فحملت الاطلاب الاسلاميه من الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد فالتى الله الرعب في قلوب الكافرين (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وكان القمص ذكي القوم وألعيهم فرأى امارات الخذلان قد نزلت باهل دينه ولم يشغل طن بجاسنة جنسه عن يقينه ففرب في أوائل الامر قبل اشتداده وأخذ طريقه نحو صور وتبعه جماعة من المسلمين فنجوا وحده وامن الاسلام كيده واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والظلمين من كل جانب فانهمزت منهم طائفة فتبعها ابطال المسلمين فلم ينبغ منها واحد واعتصمت الطائفة الاخرى بتل حطين وهى قرية عنده وعند هاجر النبي شيب عليه السلام قضايهم المسلمون على التسل وأشعلوا حوله النيران وقتلهم العطش وضاق بهم الامر حتى **كك** انوا يستسلمون للاسر خوفا من القتل فاسر مقدمهم وقتل الباقيون وأسروا وكان الواحد العظيم منهم يخاد الى الاسر خوفا على نفسه ولقد حكى الى من أتى به انه لقي بحوران شخصا واحدا معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا يجرهم وحده بخذلان وقمع عليهم وأما القمص الذي هرب فانه وصل الى طرابلس وأصابه ذات الجنب فاهلكه الله بها وأما مقدم الاسبنازية والداوية فان السلطان اختار قتلهم فقتلوا عن بكرة أبيهم وأما البرنس ارناط فكان السلطان قد نذر انه ان ظفر به قتلته وذلك انه كان عبر به بالشوبك قفل من الديار المصرية في حالة الصلح فترلوا عنده بالامان فقدر بهم وقتلهم فنادى الله والصلح الذى بينه وبين المسلمين فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم وقال قولوا لمحمد كملصكم وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحيمة على انه نذر ان ظفر به قتله فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس في دهليز الخيمة فانهم لم تكن نصبت والناس يتقربون اليه بالاسارى ومن وجده من المتقدمين ونصبت الخيمة وجلس فرحامسروا شاكر الما أنعم الله به عليه ثم استحضر الملك جفرى وأخاه والبرنس ارناط وناول الملك شربة من جلاب بشلج فشرب منها وكان على اشد حال من العطش ثم باول بعضها البرنس ارناط فقال السلطان للترجان قل لللك انت الذى تسقيه والا تأما سقيته وكان على جبل عادة العرب وكريم اخلاقهم ان الاسير اذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن فقصده بذلك الجرى على مكارم الاخلاق ثم أمر بمسيرهم الى موضع عين لزوهم فحسروا وكوا شيئا ثم عاد استحضروهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم فاقعد الملك في الدهليز واستحضر البرنس ارناط وواقفه على ما قال وقال ها أنا انتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل ثم سل البيعة ورضه بها فخل كفه وتم عليه من حضر وعجل الله بروحه الى النار فاخذورى على باب الخيمة فلما رآه الملك قد أخرج على تلك الصورة لم يشك في انه يثنى به فاستحضره وطيب قلبه وقال لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك وأما هذا فانه جاوز حده جفرى ماجرى ويات الناس في تلك الليلة على أتم سرور وكل حبور ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له والتكبير والتهليل حتى طلع الصبح في يوم الاحد فنزل رحمه الله على طبرية وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها وأقام بها الى يوم الثلاثاء قلت وذكر محمد بن القادسي في تاريخه انه ورد في هذه السنة كتب الى بغداد في وصف هذه الواقعة منها كتاب من عبد الله

ابن أحمد المقدسي يقول فيه (كنت هذا الكتاب من عسقلان يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة) وفيه (ولو جئنا الله عز وجل طول أعمارنا ما وقفنا بعشر معشار نعمته التي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم فاناخر جئنا الى عسكر صلاح الدين وتلاحق الاجنء حتى جاء الناس من الموصل وديار بكر واربيل فجمع صلاح الدين الامراء وقال هذا اليوم الذي كنت أنتظره وقد جمع الله لنا العساكر وانا رجل قد كبرت وما أدرى متى أجلى فاختتموا هذا اليوم وقاؤا لله تعالى لا من أجل فاختلفوا في الجواب وكان رأى أكثرهم لقاء الكفار فغرض جنده ورتبهم وجعل تقي الدين في المينة ومظفر الدين في الميسرة وكان هو في القلب وجعل بقية العسكر في الجناحين ثم ساروا على مرانهم حتى نزلوا الاقحوانة فتركوا بها اتفالمهم وساروا حتى نزلوا بكفرسبت فأقاموا يومين ينتظرون ان يبرز لهم الكفار وكان عسكر الكفار على صفورية فلم يبرزوا فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية فتمة ذفر سانه وجماته ورماته والنقابون قد خلوا تحت الحفص فلما تمكن النقب منه انهال من غير وقود نار ودخل المسلمون فاتهم يوم الخميس وأصبحوا يوم الجمعة فشرعوا في نهب القلعة فلما كان وقت الصلاة جاء الخبر ان الكفار قد توجهاوا إلى المنافر تحل صلاح الدين على صفوره فلقبهم ثم لم يزلوا يقدمون حتى صار المسلمون يحيطون بهم وصار قلب المسلمين خلفهم فتراموا ساعة وبات كل فريق على مصافهم ثم أصبحوا فاسار الكفار يقصدون طبرية والمسلمون حولهم لمحون عليهم بالرمي فاقبل المسلمون منهم فوارس وقتلوا اخیاله ورجاله فانهزوا إلى نل حطين فنزلوا عنسده ونصبوا الخيام وأقام الناس حولهم الى ان انتصف النهار وهبت الرياح ففهم المسلمون عليهم فانهزمو الى الابلون على شئ ولم يفلت منهم الا نحو من مائتين وكانوا كإقبل اثنين وثلاثين ألفا وقيل ثلاثة وعشرين ألفا لم يتركوا في بلادهم من يقدر على القتال الا قليلا وكان الذي أسر الملك هودرباس الكردي وغلالم الامير ابراهيم المهراني أسرا لبرنس وقتل صلاح الدين الابرنس بيده لانه كان قد غدر وأخذوا قلة من طريق مصر ثم عاد صلاح الدين الى طبرية فأخذ قلعته بالامان ثم ضرب أعناق الاسارى الذين كانوا في العسكر وأرسل الى دمشق فغضبت أعناق الذين بهامهم) قال وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح التي ما سمع بها قط هذا ذكر بعض ما يختصر مع انه لا يقدر أحد يصف ذلك لان الامر اكبر من ذلك الذي يشربه المسلمون ان مدينة طبرية فتح بالسيف وأخذت فلعنتها بالامان واجتمع عسكر الافرنج جميعهم والتقوا بالمسلمين عند بئر شعيب النبي صلى الله عليه وسلم وقتل من الافرنج ثلاثون ألفا وكان عدد الافرنج ثلاثة وستين ألفا بين فارس وراجل وأسر منهم ثلاثون ألفا وبلغ عن الاسير بدمشق ثلاثة دنانير واستغنى عسكر الاسلام من الاسرى والاموال والغنائم بحيث لا يقدر أحد يصف ذلك وما سلم من عسكر الفرنج سوى قص اطرالس مع أربعة نفر وهو مجروح ثلاث جراحت وأخذ جميع امراء الفرنج وكقدسبي من النساء والاطفال يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة ببيعة واحدة ولقد بيع بحضور رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابنتان ثمانين دينارا وأخذ صليب الصليبيوط فعلق على قنطارته من كساود دخل به القاضي ابراهيم عصرون الى دمشق وكل يوم يرى من رؤس الفرنج مثل البطيخ وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال ما لم يجبي من يشترها من كثرة السبي والغنائم قال وفي كتاب آخر (كان الفرنج خمسة وأربعين ألفا فلم يسلم منهم سوى ألف وقتل الباقون واستأسروهم وكذلك المسلول) قلت وبلغني ان بعض فقراء العسكر وقع يده أسير وكان محتاجا الى نعل فباعه بها فقيل له في ذلك فقال أردت ان يذكر ذلك ويقال بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثر منهم ان يبيع منهم واحد بنعل ولله الحمد وما أحسن ما قال أبو الحسن ابن الذرؤى من قصيده

شربت لبن الدين بالبحر والطبي * من المجد معنى كان من قبل بغمض
وما كاد جيش الروم يبرم كيد * الى ان سرت منك المهابة تنقض
حيث تغور المسلمين فأصحت * تغور اياموا الحسد بدت تمضض
أسرت مسلول الكفر حتى تركته * وما فيه عرق عن قوى النفس ينضض

وكان القاضي الفاضل غائبا عن هذه الكمرة بدمشق فلما بلغته كتب الى السلطان (ابن المولى ان الله قد أقام به الدين القيم وانه كإقبل أصبحت مولاي ومولى كل مسلم وانه قد أسبغ عليه التسمتين الباطنة والظاهرة وأورثه

في أخبار (٨٣) الدولتين

الملكين ملك الدنيا وملك الآخرة كتب المملوك هذه الخادمة والروس الى الآن لم نرفع من سجودها والدموع لم نسمح من خدودها وكلما فكر الخادم ان البيع تعودوهى مساجد والمكان الذي كان يقال فيه ان الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه انه الواحد جدد الله شكرنا تارة يفيض من لسانه وتارة يفيض من جفنه وجزء يوسف خيرا عن اخراجه من سجنه والمماليك ينتظرون امر المولى فكل من أراد أن يدخل الحمام بدمشق قد عول على دخول حمام طبرية تلك المكارم لاقعين من لبن وذلك الفتح لعمان واليمن وذلك السيف لاسيف ابن ذى يزن وللأسنة بعدى هذا الفتح شرح طويل وقول جليل وللمادرجه الله قصائد يذكر فيها وقعة حطين لم يذكر منها شيئا هنا بل ذكر بعضها عند ذكر فتح نابلس وبعضها عند رفع القدس فنقلت الى هذا المكان منها ما يتعلق به والباقي يذكر في مكانه فال

يا يوم حطين والابطال عابسة * وبالحاجة وجه الشمس قد عابسا
رايت فيه عظم الكفر محتقرا * معقرا خبثه والانف قد نعبسا
يا طهر سيف برى راس البرنس فقد * أصاب أعظم من الشرك قد نعبسا
وغاص اذ طار ذاك الرأس في دمه * كاله ضفدع في الماء قد غطسا
ما زال يعطس من كوما بغدرته * والقتل سميت من بالغدر قد عطسا
عزى طلباه من الانعام مهرة * دما من الشرك ردا هابه وكسا
من سيفه في دماء القوم منعس * من كل من لم ينزل في الكفر منعسا
افناهم قتلهم والاسراف تسكوا * وبيت كفرهم من خبثهم كنسا

وقال ايضا مخاطب صلاح الدين رحمه الله

سحبت على الاردن دنا من القنا * ردنيمة ملدا وخطبة ملسا
حطمت على حطين قدر ملوهم * ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا
ونعم بحال الخيل حطين لم تكن * معاركها للجمر دمرسا ولا دها
غداة أسود الحرب معقوا القنا * أسود تبغي من تحور العدا نها
أنواشكس الاخلاق خشنا فليت * حدود الرفاق الحش اخلاقها الشكا
طردهم في الملتقى وعكسهم * مجيدا يحكم العزم طردك والعكسا
فكيف مكست المشركين رؤسهم * ودأبك في الاحسان ان تطلق المكسا
كبرتهم اذ صبح عز ملك فيهم * ونكستهم اذ صار سهمهم نكسا
بواقعة رجت بها الارض جيشهم * دمارا كابيت جبا لهم يسا
بطون ذئاب الارض صارت قبورهم * ولم ترض أرض ان تكون لهم رسا
وطارت على نار المواضي فراشهم * صلاء فزاد من عودهم قسا
وقد خشعت أصوات ابطالها فها * يعي السمع الامن صليل الطيها
تقاديد اماء الدماء ملوكهم * أسارى كسفن الب نطبت بها القسا
سمايا بلاد الله مملاؤه بها * وقد شربت بنحسا وقد عرفت نخسا
يطاف بها الاسواق لا راغب لها * لكثرة ما كم كثرة توجب الوكا
شككا ليسار اس البرنس الذي به * تندى حسام حاتم ذلك اليسا
حسامه ماض الغرار لغدره * وما كان لولا غدره دمه يحمي
فله ما أهدي يدا فتكت به * وأطهر سيفا معدمار جسسه النجسا

كتاب (١٤) الروضتين

نسفت به رأس للبرنس بضربة * فأشبهه رأسي رأسه العهن والبرسا
تبوّخ في أوداجه دم بغيه * فصال عليه السيف يلحس لحسا
بعثت أمام أمة النار نحوها * فزار امام أرناطها ذلك الحبسا
ولله نص النصر جاء لتصله * فلا قونسا أبقى لرأس ولا قنسا
حكى عنق الداوى صل بضربة * طرير السباعود المضربه حسا
أبوم وغى تدعوه أم يوم نائل * وأنت وهبت الغائين به الخمسا
وقد طابر ياناعلى طبرية * فيا طيهارياو يا حسنهما مرسي
والشهاب فتيان الساغورى من قصيدة سياتى بعضها فى مدح صلاح الدين رحمه الله

جاست جيوش الشرك يوم بقيتهم * يتداامرون على متون الضمر
أوردت أطراف الرماح صدورهم * فولقن فى علق النجيم الاحمر
فهناك لم ير غـ سـير نجم مقبل * فى أثر عفريت رجبم مسدبر
فى الذى من جيشهم لم يخترم * ومن الذى من جمعهم لم يؤسر
حتى لقد بيعت عقائل أرهقت * بالسي باليمن الاخس الاحقر
سقت الممالك الكرام ملوكهم * كأسيابه سقت اللثيم الهنقرى
وعجمت عود صليهم فكسرت * وسواك الفاه صليب المدكر
أغلى الاداهم من أسرت وأرخصت * بيض الصوارم من نهاب العسكر
وجعلت شرق الارض يحسد غربها * بك فهو دواع دعوة المستنصر
لا بعد منسك المسنون فكيدا * أوليتهم معروفها لم تنكر
آمنت سريهم وصنت حريمهم * ودرأت عنهم فاصمات الاظهر
ما ان رأك الله الا آمرا * فيهم بمعروف ومنكر منكر
متواضع الله جل جلاله * وبك أضجعت سطوة المتكبر
لم يسل سمع من هناء مهنى * للمسلمين ومن سماع مبشر
واستعظم الاخبار عنك معاشر * فاستصغروا ما استعظموا بالخبر
فمضت المسلوكة ولم تل عشر الذى * أوتيتهم من منجى أو منخر
وقال أبو الحسن على بن الساعاى فى فتح طبرية

جلت عزماتك الفخ المينا * فقد قرت عيون المؤمنين
رددت أخيدة الاسلام * غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما * يعز على العوالى ان يهونا
يقاتل كل ذى ملك رياء * وأنت تقاتل الاعداء دينا
غدت فى وجنة الايام خالا * وفى جسد العلا عقد اثينا
فيا الله كم سرت قلوبا * وبالله كم أبكت عينا
وما طبرية الا هدئ * ترفع عن أكف اللامينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء * وسل عن اللبالي والسينا
ففضت ختامها قسرا ومن ذا * يصد الليث ان يلج العرينا
لقد أنكبتها صم العوالى * فكانتاجها الحرب الزبونا
هناك ندى أهل الارض طرا * سواك ومعقل أعياء القرونا
فست حتى رأيت كفو غلات * وغاية كل قاس ان يلينا

في أخبار (١٥) الدولتين

قضيت فريضة الاسلام منها * وصدقت الاماني والظامونا
تهز معاطف القدس ابتهاجا * وترضى عنك مكة والمجونا
فاوان الجهاد يطبق نطقا * لنادتك ادخلوها آمدينا
جعلت صباح آهلها ظلاما * وأبدلت الزئير بها أنينا
فخال حياة حوزتها نساء * يحضون الحديد مقنعينا
لبيصك في جاجهم غناء * لذيد علم الطير الخنينا
تميل الى الثقة العوالي * فهل أمست رماح أم غصونا
يكاد النقع يذهلها فلولاً * بروق القاضيات لما هدينا
فكم حازت قدود قناك منها * قدودا كالفنا لونا ولينا
وغيمد كالجاذ رأسات * كعيد نذاك ابكارا وعونا
ولما باكرتها منك نعي * بنان تفضع الغيث الهتونا
أعدت بها الليالي وهي يرض * وقد كانت بها الايام جونا
فليس بعام مرعى خصيبا * اخوسغب ولا ماء معينا
فلا عدم الشأم وساكنوه * طي تسقى بها الداء الدفينا
سهاد حقونها في كل فيج * سهاد ينج الغمض الجفونا
فالهم بالسوا حل فهي صور * اليك والحق الهام المتونا
فقلب القدس مسرور ولولا * سطاك لكان مكثبا خزينا
أدرت على الفرج وقد تلاقى * جوعهم عليك رحي طعونا
ففي بيسان ذا قوامك بؤسا * وفي صفد أتوك مصفدينا
لقد جاءتهم الاحداث جمعا * كان صروفها كانت يميننا
وخانهم الزمان ولا ملام * فلست بمبغض زمانخوونا
لقد جردت عزمانا صريا * يتحدث عن سناء طور سينا
فكنت كيوسف الصديق حقا * له هون البكواكب ساجدينا
لقد أتعبت من طلب المعالي * وحاول ان يؤس المسلميننا
وان تك آخر وخلاك ذم * فان محمد في الاخرينا

قال ابن أبي طي حدثني والدي عن أحد التجار قال كنت بالموصل في سنة خمس وخمسين وخمسمائة فزرت الشيخ عمر الملا
فدخل اليه رجل فقال أيها الشيخ رأيت البارحة في النوم كاني بارض غربية لا أعرفها وكأنها ملوءة بالخنازير وكان
رجلا في يده سيف وهو يقتل الخنازير والناس ينظرون اليه فقلت لرجل هذا عيسى بن مريم هذا المهدي قال لا
فقلت من هذا قال هذا يوسف مازادني على ذلك قال فتعجب الجماعة من هذا الرؤيا وقالوا انه سيقتل النصارى
رجل يقال له يوسف وحدث الجماعة انه يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب وكان المستنجد بالله قدولى الخلافة
تلك السنة فحدث بعض الجماعة عليه قال وانبئت انا هذه الواقعة فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها فكان
يوسف الملك الناصر رحمه الله قال وحدثتني ظمري من نساء الحلبين كانت تدخل أخت السلطان الملك الناصر
فالت كانت والدته السلطان تخبر انما التيت في نومها وهي حامل بالسلطان فقيل لها ان في بطنك سبيفا من
سيف الله تعالى

(فصل) في فتح عكا وغيرها وهي بالالف المدودة ويدل على ذلك انه يقال في النسبة اليها عكاوي وقد وجدت
ذلك في شعر قديم ومنهم من يقول عكها بالهاء ومثل ذلك حصن عرقه وبعضهم يقول عرقا بالالف ونهر تورا وبعضهم
يقول نهر توره بالهاء قال القاضي ابن شداد ثم رحل السلطان طالب عكا وكان نزوله عليها يوم الاربعاء سلخ بزع الآخر

وقالت له ابرهه الخبيث مستهل جمادى الاولى فآخذها واستقدم من كان فيهم من الاسارى وكانوا هزارا ربعة آلاف نفر واستولى على ما فيهم من الاموال والذخائر والبضائع والتجار فانها كانت مظنة التجار وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والاماكن المنيعه فآخذوا نابلس وحيفا وقيساريه وصفورية والناصرة وكان ذلك خلوا لزال بالقتل والاسر قال العماد دورجل السلطان ظهر يوم الثلاثاء والتوحيد ظاهرا على التليث والطيب قد امتاز من الخبيث ونزل بأرض لويه عشييه وأعادها بازهار بنوده وأثوار جنوده روضة موشيه ثم أصبح سائرا الى عكا فاشيا سره باراباهل الدين بره وكان أمير المدينة النبوية صلوات الله على ساكنها في موكبه فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيرا الى نصرته من يثرى به من يثريه وهذا الأمير عز الدين ابن فليته القاسم ابن المهنا الحسيني قد وفد في تلك السنة أو أن عودا الحاج وهو ذو شبيهة تقدر كالسراج ومابر مع السلطان مأثور المأثر ميمون الصببه مأمون المحبة مبارك الطلع مشاركا في الوقعه فامت فتح في تلك السنين الابجصوره ولا أشرق مطلع من النصر الانوره قرأته في ذلك اليوم للسلطان مسائرا ورأيت السلطان له مشاويرا محاورا وأنا أسير معهما وقد دونت منهما ليسمعاني وأسمعهما ولاحت أعمالهما وكان يبارق الفرع المرموزة عليها السنه من الخوف تشكى وكان عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها وقد توافرت عساكر الاسلام اليها من وعدها وسهلها ولما أشرفنا عليها مستظهرين أيقنا بفتحها مستبشرين فما كان فيها من محمها فاصدقنا كيف غلبت كها ونحوها وظهر على السور أهلها لأجل الممانه والنبات على المدافعه وخفقان ألويها يشعر بقولها الخافقه وأرواح جلدتهم الزاهقه ووقفنا تأمل طولها ونؤمل حصولها وخيم السلطان بقربها وراء التل وانبث عساكره في الوعر والسهل وبنينا تلك البلية وقد هزتنا الاطراب تقول متى يجمع الاصباح والاصحاب فما وجدنا ولا غرارا ولا وجدنا من الفرع قرارا والسلطان جالس ونحن عنده وهو يحض جنده ويقدم معهم في اقتباس الارزنده وضامن يستعجز وعده وضامن يستعجز رفته وضامن يواصله بالدعاء وضامن يشافقه بالهناء وأصبح يوم الخميس فركب في نجسه ووقف كالاسدي عزيسه ووقفنا بازاء البلد صقفا وأطلنا على اطلاله وقرفا فخرج أهل البلد يظلمون الامان ويبدلون الادعان فأنهم وخبرهم بين المقام والانتقال وهوب لهم عصمة الانفس والاموال وكان في ظنهم انه يستبج دماءهم ويسبي ذريتهم ونساءهم وأهلهم أياما حتى ينتقل من مختار النقلة فاعتصموا تلك المهله وفتح الباب الخاصه واستغنى بالدخول الى البلد جماعة من ذوى الخصاصه فان القوم ماصدقوا من الخوف المزيج والفرق المخرج كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون وعندهم انهم اذا انجوا بأنفسهم انهم يغفون فلما دخل الجند ركز كل واحد منهم على دار رجمه واسام فيها سره فحصلوا على دورا خسلها ربابها واموال خلاها اصحابها وكالا جيل الامان نهاها فطاب لولئك نهاها وجعل السلطان للفقيه عيسى الهكاري كل ما كان للدوايه من منازل وضياع ومواضع ورابع فآخذها بما فيها من غلال ومتاع واستخرجوا الدقائن وولجوا المخازن وداروا الاماكن وكذلك عماليك الملك الافضل وأصحابه وولاته ونوابه نبشوا المحارز وقتشوا المراكر واستباحوا الاهرا واجتاحوا الاشبا وكان السلطان قد قوض عكا وضياعها ومعاقها وقلاعها الى ولده الاكبر الملك الافضل نور الدين على ثم ذكر العماد أنواع ما استولوا عليه من الاموال ثم قال ومن جملة ذلك انهم احتاطوا بغير على على دار باسمي فباعوا منها ما عابى بمائة دينار وأخلوها ما كان فيها من آلات وأذخار وقلدوني المنة في تحصيل تلك الدار فانها كانت من أنفس الثمار وسلموها الى غلام صديق لي يصونها ويقوم بحفظها والذب عنها والدفاع دونها فذكر ان الغلام انتفع من آلاتها بعد خلوها بما قيمته سبعون دينارا وان الاولين تقبلوا منها من الذخار أوقارا قال وانما وصفت هذا ليعلم ما غنمه والتمهوا على حيازته والتمهوه وتصرف الملك المظفر تقي الدين في دار السكرا فافنى قنودها واستوعب موجودها ونقل قدورها وانتقاضها وحوى جواهرها واعراضها وقال في كتاب الفتح وخلى سكان البلد دورهم ونجرتهم ومذخورهم وتركوها لمن أخذها ونسبوا ما حووه لمن حواها وما بندها واقتقر من الفرع أغنياء واستغنى من أجنادا فقرء ولوذرت تلك الحواصل وحصلت تلك الذخائر وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر لكان عذبة ليوم الشدائد وعمدة

في اخبار (٨٧) الدولتين

لنحج المقاصد فرنعت في خضرائها بل في صفرائها وبضائها سروح الاطماع وطال مستغلبا ومستغلبا الامتاع بذلك المتاع قال في البرق وقرئ على السلطان ليلة من كتاب الفتح ونحن بالقدس يعني هذا المكان وذلك سنة ثمان وثمانين فقال السلطان هذم رفعة على ثلاثة اثنان منهم في جوار الرحمة والاخر باقى في مقر العصمه يعني بالاثنتين الفقيه عيسى وتقى الدين وبالاخر الباقي ولده نور الدين قال ولعمري هو كذا كره لكن الافضل ما حصل له ولخواصه بل لنؤى اختصاصه واستخلاصه وفتحوا البلديوم الجمعة مستهل جمادى الاولى فجننا الى كنيسها العظمى فازحنا عنها البؤسى بالنعى وحضر الاجل الفاضل فرتب بها المنبر والقبة وهي اول جمعة اقيمت بالساحل بعد يوم الفتح وكان الخطيب والامام فيها الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ ابي الخبيب الشهير وردى ولولاه السلطان مناصب الشريفة يعكاثون الخطابة والقضاء والحسبة والوقف ومن كتاب فاضلى الى بغداد بعد فتح عكا يصف كسرة حطين (صحيح الخادم طبرية فاقتض عذرنا بالسيف وهجم عليها اجمعوم الطيف وتفرق أهلها بين الاسر والقتل وعالجهم الامر فلم يقدروا على الخداع والختل وجاء الملك ومن معه من كفاره ولم يشعر ان ليل الكفر قد ان وقت اسفاره فاصرم الخادم عليهم نار اذا تشرار اذ كرت بما اعد الله لهم في دار القرار فترجل هو ومن معه عن صهوات الحيات ونسجها مضربة رجاء ان يحبسهم من حر السيف الحداد ونصبوا الملك خيمة جراء وضعو على الشرك عمداها وتولت الرجال حفظ اطناها فكانوا اوتادها فاخذ الملك اسيرا وكان يوما على الكافرين عسيرا وأسر الابرئ لعنة الله فخصد بذره وقتله الخادم بسده ووفى بذلك نذره وأسر جماعة من مقدمى دولته وكبراء ضلالاته وكانت القتلى تزيد على اربعين الفا ولم يسبق أحد من الديوية فقله هو من يوم تصاحب فيه الذنب او النسر وتداول فيه القتل والاسر اصدر الخادم هذه الخدمة من ثغر عكا والاسلام قد اتسع مجاله وتصف انصاره ورجاله والكفر قد ثبتت أوجاله ودنت آجاله قال العماد ومن جملة البشائر بكسرة حطين (ولما احيط بالقوم وى ملكهم الى جبل يعصمه من العوم فاسمعه السيف لاعاصم اليوم واستولى الخلدان عليهم بأسرهم وبردت أيدي المؤمنين بمحرق قتلهم وأسرهم ولم يبق لهم باقية وغصت بقتلاهم في الدنيا والآخره أرض الله الواسعه ونار الله الحامية بما يطاه من يصل الى تحنينا الاعلى رحمهم البالية وأسر الملك وأخوه وبارونته ومقدموه وبلغت منهم الاالقص وهو مسلوب والابدان نذر كه فهو مطلوب وقد كنا نذير ناضرب رقبة الابرئ صاحب الكرك الغدار كافر الكفار ونشيدة النار فلما رأى ناضر بناعته سر بها وسرنا الى عكا وهي بيضة ملكهم واسطة سلكهم ومر كردائرة كفرهم وجميع جمع برهم وبجرهم قتلناها بالامان والصخرة المقدسة الا ان بناصيرخ وتستغيث وعباد الله الصالحون قد وصلت اليهم بوعد الله الصادق الموارث والشارة بفتح القدس لا تأخر والحجم بعد هذا الفتح السني على ذلك تتوفر والحمد لله الذى تم الصالحات بحمده ما يفتح الله للناس من رحمة فلا محسك لها وما محسك فلا همرسل له من بعده)

(فصل في فتح نابلس وجملة من البلاد الساحلية بعد فتح عكا وطبرية وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك قال العماد وأقام الساطان أياما بعد فتح عكا على التل مجيما وعلى سائر بلاد الساحل مصيما وكان قد كتب الى أخيه العادل بمصر بما فتحه الله عليه فوصل بعسكره وفتح في طريقه حصن مجدل بابا ومدينة بافا عنوة فقصده من عسكر بالقصاد ووفد اليه الوفاة وأمره السلطان بأن يقيم في ذلك الجانب جامعة الكتاب ليجمع به الواسلون من مصر الاهليون معه بالنصر قال وتوجه عدة من الامراء والعسكريه الى الناصرة وقساربه والبلاد المجاورة لعكا وطبرية ومضى كل فريق في صوب وآواب الغنية والسبي خير اوب قال فأما الفولة فهى قلعة للدوية حصينة وفيها ذخائرهم وأموالهم فلما خرج الداوية منها وقتلوا المبقى فيها الاتباع وغلان قتلوها وجميع ما يجاورها كدبوزيه وجنين وزرعين والطور زاد في كتاب الفتح والبعون ويسان والقيون وجميع المعكا وطبرية من الولايات والازيب ومعليا والبنعنه واسكندرونه ومنوات قال وتوجه مظفر الدين كوكبى الى الناصرة فاستبا حها وصرفت صفورية من سكانها وتوجه بدر الدين دلدرد وغرس الدين قليج وجماعة من الامراء الى قيسارية فاقتحوها بالسيف وتسلمت بعدها حيفا وارسوف واستولى على تلك الشجوس والاقمار الكسوف

والخسوف وحيفابن عكا وقيسارية على البحر قال وأما نابلس فإن أهل ضياعها ومعظم أهلها كانوا مسلمين وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمين وهم يحبون كل عام منهم فرارا ولا يغيرون لهم شرعاً ولا شعاراً فلما عرفوا كسرهم وانهم لا يرجون جبرهم خافوا من مساكنة المسلمين فتفرقوا وكسبهم أهل الضياع في الدور والرباع وغنوا ما وجدوه من الذخائر والمتاع وأوقعوا بضعا فاتهم وضايقوا الحصون على أقويائهم وطلبها من السلطان ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين وهو عوز بز عند خاله ملئ بفضلها وافضلها فاقطعها السلطان نابلس وأعمالها وضياعها ونواحيها وقلعها فتوجه اليها بعسكره فأول ما أباخ على سبطية وفيها مشهد زكريا عليه السلام وقد اتخذها الاقسا كنيسة منذ فارقها الاسلام وهو تبعيدهم المعظم والمشهد المكرم وقد حجبوه بالاستار وحلوه بالفضة والنضار وعينوا له مواسم الزوار وقومته من الرهايين فيه مقيمة ولا يؤذن في الزيارة الا الايام معه هدية لها فيه فدخله وحوى ما فيه وأبقى ما لا يحسن أن يخلو من مثله المسجد وفتح للمسلمين أبوابه وأظهر للصليين محرابه ثم سار الى نابلس ففتحها بالآمان واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان وأجراهم على ما لهم من العمارة والبنيان وبقيت بيده الى آخر عهده وعمرت بعده وورفده قال العباد وأشدته يوم فتح القدس قصيدة أولها

استوحش القلب مذ غيمت فأأنسا * وأظلم اليوم مسدذتم فأشعسا
ما طبت نفسا ولا استحسنتم بعدكم * سيأتينا ساولا استعذبت في نفسا
قلبي وصبري وغمضي والسباب وما * الفتر من نسا طي كله خلاسا
وكيف يصبح أو يمسي محبكم * وشوقكم تسولاه صباح مسا
عادت معاهدكم بالجرع دارسة * وان معهدكم في القلب مادرسا
وكتب أحد منكم كل داهية * وما دهاها من المجران ما حدسا
لما هدت نار شوق طيفكم * قريبته بالكرى اذ راء قتبسا
ورمت تأنيسه حتى وجمبت له * انسان عيني أفديه فأأنسا
انا الخيال نحو لا فالحيال اذا * ما زارو كف يلقي من به التبسا
لحفي على زمن قضيت طربا * اذ لم أكن من صروف الدهر محترسا
عمى يعود شباني ناضرا ومتى * أرجو انضارة عود للسباب عسا
وشادن يقرس الأساد ناظره * فديته شادنا لا لاسد مقترسا
في العطف ابن وفي انلاقه سوس * بالين عطفه جنب خلقه الشوسا

ومنها في المديح

ان بان لبس مضينا لاجئين الى السقي الحسام بن لاجين نابلسا
يمت اعسداء به أسا وناثله * يحبي رجا الذي مي نجحه أيسا
ممزق المازق المنسوج عشيره * وقدح اليوم ليل النقع فانطعسا
لازلت مستويا فوق الحصان وفي * حصن الحفاظ من عادا المتكسا

وسأتي منها أيضا أبيات عند فتح القدس في مدح السلطان صلاح الدين رحمه الله ومن كتاب عن السلطان الى سيف الاسلام أخيه (كنت إذ أنا العادل أن يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب فلما بشر بكسر الفرنج وفتح عكا وطبرية كان قد وصل الى السواد فجاز العرش وزار الداروم وأجملت قدامه البلاد ووصل الى يافا فعصها عنوة ثم حصر مجدل يابا فطلب منه الآمان وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة بعددوهي

طبرية عكا الزيب معليا اسكندرونه تينين هوتين الناصره الطور صفوريه القوله جينين اربعين دوبريه عفر بلا بسان سبسطيه نابلس الجون اريحا سيجل البيره يافا ارسوف قيساريه حيفا صرفند صيدا بيروت قلعة أبي الحسن جبيل مجدل يابا جبل الخليل مجدل حباب زلداروم غزه عسقلان تل الصافيه التل الاحمر الاطرون بيت جبيل جبل الخليل بيت لحم

في اخبار (٨٩) الدولتين

لذ الرملة قريبا القدس صوبا هرمز ملع عفرا الشقيف قال ولم يذكر ما تخلفه امن القرى والضبياع
والاراج الحصينة الجارية بحري الحصون والقلاع ولكل واحدة من هذه البلاد التي ذكرناها اعمال وقرى ومن اراع
واما كن ومواقع قد جاسوا خلخالها واستوعبوا آثارها وغلاها قال العماد ومما انشأته من شرح الفتوح وكتبت
به الى الديوان وبدأ بقوله تعالى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون الحمد لله
على ما نتج من هذا الوعد وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد وجعل بعد عمر يسرا وقد أحدث
الله بعد ذلك أمرا وهون الامر الذي ما ذكرنا الاسلام يستطيع عليه صبرا وخوطة الدين بقوله ولقد مننا عليك
مرة أخرى فالاولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والآخرى هذه التي عنت فيهم من رق النكابة فهو قد
أصبح حرا ريان الكبد المأز والزمان كهيته استدار والحق بهجته قد استدار والكفر قد رما كان عنده من المتاع
المستعار فالحمد لله الذي أعاد الاسلام جديا ثوبه بعد ان كان جسيما حمله مبيضا نصره مخضرا انفسه متسا
فضله مجتمعا شمله والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والخصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ويغني
الخبير لكافة المسلمين ويؤد اليهم ما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر الى
يوم الخميس من سلخه وثلاث سبعمائة وثمانية أيام حسموا حصرها الله على الكفار فترى الفؤاد فيها صرعى كأنهم أعجاز
نخل حاوية وادارت ثم رأيت البلاد على عروشها خالية ورأيتهما الى الاسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكية
فيوم الخميس الاول ففتح طبرية ويوم الجمعة والسبت نور الهرم ففتح وكسر والعسرة التي ملهم بعدها قائمه
وأخذ الله أعداءه بأذي أوتائه أخذ القرى وهي ظالمه وفي يوم الخميس من سلخ النهر ففتح عكا بالامان ورفعت
بها اعلام الايمان وهي أم البلاد وأخت ارم ذات العماد وقد أصدر هذا المطالعة وصبب الصليب الصلبون مأسور وقلب
ملك الكفر الاسير بجيشه المكسور ومكسور والحديد الكافر الذي كان في يد الكفر يضرب وجه الاسلام قد صار
حديثا مسلما يوق خطوات الكفر عن الاقدام وأنصار الصليب وكباره وكل من الموحدة عمدة والدير داره
قد أحاطت به يد القبضة وغلق رهنه فلاقبيل فيه القناطر المقنطرة من الذهب والفضة وطبرية قد رفعت اعلام
الاسلام عاليا ونكصت من عكا مله الكفر على عقبها وعمرت الى أن شهدت يوم الاسلام وهو خير يومها وقد
صارت البيعة مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر وصارت المذابح مواضع لخطباء المنابر واهتزت أرضها
لموقف المسلم فيها وبما المار بجنت الموتى الكافر فأما القتلى والاسرى فأنها تزيد على ثلاثين ألفا وأما فرسان الدابة
والاستبشارية فقد أفضى حكم الله فيهم وقطع بهم وقرنوا بالخيم ورحل الراحل منهم الى السقاء المقيم وقتل الابرص
كافر الكفار ونشيدة النار من يده في الاسلام كما كنت يد الكليم والبلاد والمعاقل التي ففتح هي طبرية عكا
الناصرة صغورية نيسابور طبرستان حيفا معلية انزلة الطور السقيف وقلاع بين هذه كبيرة والملك
المظفر تقي الدين ظفره الله مضائق لسور وحصن تبين والاخ العادل سيف الدين نصره الله قد كوتب بالوصول
عن عنده من العساكر ليرز في طريقه على غزوة وعلان ويجهز مرابك الاسطول المنصورة الى عكا وما يتأخر
النهوض الى القدس فهذا هو وان ففتح ولقد رام عليه ليل الضلال وقد آن ان يسفر فيه الهدى عن صبحه
(فصل في فتح تبين وصيدا وبيروت وجبل وعبرها وهي المركس الى صور قال العماد أرسل السلطان
الى تبين لابن أخيه تقي الدين فضايقها وكتب الى السلطان أن يأتيه به ففصل اليها في ثلاث مراحل ونزل
عليها يوم الاحد الحادي عشر من جمادى الاولى فراسلوا السلطان وسألو الامان واستمهلوا خمسة أيام ليستولوا
بأموالهم فامهلوا وبذلوا رهاش من مقدمهم ووفوا بما بذلوا وقرنوا باطلاق الاسارى المسلمين فخرج الاسارى
مسرورين فسير بهم السليمان وسير بهم وأقرهم وقر بهم وكساهم وجباهم وآتاهم بعدد ذمهم المغانيهم غناهم
وهذا أدبه في كل بلدي ففتح وملك يريجه انه يبدأ بالاسارى فيقتل قيودها ويعيد بدعما وجودها فخلص تلك
السنة من الاسرى أكثر من عشرين ألف أسير ووقع في أسره من الكفار مائة ألف ولاحقوا القلعة وأخلوا البقعة
سيرهم ومعهم من العسكر المنصور من أولهم الى صور ولجأ يوم الاحد الثامن عشر من جمادى الاولى وكان
شرط عليهم تسليم القلاع والدواب والخزائن وقال القاضي ابن شداد ففتحها السلطان عنوة وكان بهار جال أبطال

كتاب (٩٠) الروضتين

شديدون في دينهم فاحتاجوا الى معاناة شديدة ونصر الله عليهم وأسر من بقي بها بعد القتل ثم رحل منها الى مدينة صيدا فنزل عليها ومن القدر تسلمها وهو يوم الاربعاء الحادى العشرون قال العباد سجدت له صيدا فتصدى لصيدها وكانت همة في قيدها وبادرها الشدا قامى مكر العداة وكيدها ووصلنا في يومين الى صيدا الى منزل نحتها صادين وعن حى الحق دونها لاهل الباطل صادين ولما نزلنا من الوعر الى السهل سهل ما توغر وصفنا من الامر ما ظن انه تكدر فصرقنا الاعنة الى صرف قدوهى مدينة لطيفة على الساحل مورودنا المذاهل ذات بساتين وأشجار ورياحين وازهار فأخذناها وخيمنا على صيدا وقد جاءت رسل صاحبها بما فيها وطلعت الراية الصفراء على سورها وأقيمت بها الجمعة والجماعة واستدعت بها بعد العصيان لله الطاعة ثم سار في يومه على سمت بيروت فنزل عليها يوم الخميس وضاضة بها واصلها ثمانيه أيام ثم طلبوا الامان فأمهم وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الاولى ومرض العاد فاملى كتاب صلح بيروت ورجع الى دمشق للسداواة ثم وجد الشفاء وعاد الى السلطان يوم فتح القدس كاسياتى قال وسمت بيروت بحضورى فكان من سبب ابلاى سرورى بفتحها وجبورى ونج منها ومن قلعتها الفرنج وامتلا بهم الى صور النج وعاد الاسلام الغرب فيها الى وطنه وتوطن الدين بها فى مأمنه وسكن فى مسكنه وأما جيبيل فان صاحبها أولئك كان فى جملة من نقل الى دمشق مع الملك الاسير فضاقت ذرعا بسجنه الذى تجهل له فيه عذاب السعير فحدثت مع الصفي بن القابض فى أمره وباح اليه بسرهم وقال للملك فى أسرى فائده ولا غنيمة على فتح جيبيل زائده وأنا أسلمها بشرط سلامتى فخذوها ولا تنفدوني فقد قامت قيامتى فانتهى الصفي حاله واستصوب ما قاله فأمر باحضاره فى قيده والاسترا من كيده فوصل به ونحن على بيروت فسلم جيبيل وسلم ورجع بجملته وغنم ومضى اليها من تولاها وانسل منها صاحبها وسلاها وتبعها فتح بيروت وتلاها فانتمت هذه البلاد المتناسقة بالساحل فى سلاك من الفتوح متسقى وأمر من الاستقامة متفق وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجيبيل مسلمين مساكن لمساكنة الفرنج مستسلمين فذاقوا الغزاة بعد الدله وفاة والكثرة بعد القله وصدقت البشائر وصدحت المنابر وظهر عيب البيع وشجع الجمع وقرئ القرآن واستشاط الشيطان وخرست النوافيس وبطلت النواميس ورفع المسلمون رؤسهم وعرفوا نفوسهم وكان كل من استأمن من الكفار يحضى الى سورهمى الفغار فصارت صور عرش غشهم ووكركهم وملجأ طريدهم ومخاض شريدهم وهى التى قرأ القصص اليها يوم كسرتهم بل يوم حسرتهم ولما عرف القصص قرب السلطان منها اخلاها واخلها وآوى الى طرابلس وثراها فامتاع بممالكه وكان كاقيل (راح يبنى نخوة من هلاك فهلك) وتوقفت صور عن القممص بالمركيس كما يتعوض عن الشيطان بابليس فأدرك ذمار الكفر بعدما أشفى وأيقظ روع الروع بعدما أغفى وضبط صور بن فيها من مهزومى الفرسج ومنفها وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفرة واغول شياطينه واضرى سراحيته وأحدث ثابته والتجس كلابه وهو الطاغية الداهية الذى خلفته ولما ناله الهياويه ولم يكن وصل الى الساحل قبل هذا العام واتفق وصوله الى ميناء كاهو وفتحها جاهل وعن فيها من المسلمين ذاهل فعزم على ارساء الشينى بالمينا ثم تجعب وقال ما زى أحد من أهليهم يلقينا ورأى زى الناس غير الزى الذى يعرفه فارتاب وارتاع وحدث عن الدخول توقفه وبان تنذمه وتأخر تقدمه وسأل عن المال فأحبرهم فكر فى النجاة والهوا ثم أكد والقضاء عنه راقد فانه لو خرج اليه مكرب لاخذه ولو وقف له فاصل دولته فاحتمال كيف يخرج بسفينته ولا يدخل مع ففقد سكينته فسأل عن متولى البلد وقال خدمواى منه أما ناحى أدخل وأرفع ما معى من المتاع وأنقل ما عندى من الثقل جئى اليه من الافضل بالامان فقال ما أتق الا بخط بد ولا أنزل الا بعهد الى بلده وهو ينتظر هبوب الريح الموافقة فما زال يرد الدارسل ويدير الحيل حتى وافقته الريح فأقلع وأقلت من الشراك بعدما وقع وصار فى صور فزم الامور وجرا الكفر بعد خوره وبصر الشيطان بعد دعاه وعوره وأرسل رسله الى الجزائر وذوى الجزائر يستعدى ويستعدى ويستودع ملأ الصليب عباده ويستريح ويستشير ويستزير ويستنفر ويستنصر وثبت فى صور ونبت وجمع اليه من الفرنج من تشتت وما فتح ببلد بالامان الاسار أهله فى حفظ السلطان حتى يصبروا

في اخبار (٩١) الدولتين

بصور ويأمنوا المخذور فاجتمع اليها أهل البلاد المفتوحة بالقلوب المغلقة المغلوبة المقرحة فامتلات وكانت خالية وانتاشت وكانت باليه وتعلات وكانت معتله وتعقدت وكدت مخله ويحتفل بها فآخر فتحها فاستحدثت رمقا بالهله وتصعبت بعد مقابلتها السهلة والهي عن طلبها طلب ما هو أشرف وهو البيت المقدس فان فتحه من كل فتح أنفوس والمركيس في أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكه ويعقد الموثق ويبرمه ويجمع المتفرق وينقذه

(فصل) في فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها قال الهمالما فرغ السلطان من فتح بئر وت وجبيل ثنى عنانه عائد على صيدا وصرف قنوده الى صور ناظر اليها وناظر عليها غمر مكثرت بأمرها ولا تمتد في حصرها ودلتها الفراسة على ان محاربتها تصعب ومن انتهت تعب وليس بالساحل بلدمنها أحسن فعطف الاعنة الى ما هو منها أهون وكان قد استحضرت ملك الفرنج ومقدم الداوية في قبودها وشرطه وهما واستوثق منها انه يطلقهما من الاسر والبلية متى تمكن باعائتهما من البلاد البقية وعبر والعيون صور الى صور وما شك المركيس انه بها محصور محصور فلما أرى من وثاقه واتسع ضيق خنائه خلق في مظاريطه وحرك لغوانه أوتار اوماره واجتمع السلطان بأخيه العادل واتفقا على طي المراحل ونشر القساطل فنزل على عسقلان يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وشديدها فلان فجلد من بها على الحصار وزبصوا وتصبروا فغصب السلطان عليها بجانيق ورماهم بها وجسر النقب خسر النعب بإشر الباشورة فرفع الخجاش واشتد القتال واحتد المصال وراسلهم عند ذلك الملك المأسور وقال قد بان عذركم من نقب السور وجرت حالات وتكررت حوالات وزدت رسالات وقال لهم الملك الاسير لانتقالوا ما به أشير واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم ولا تخفوا واغري بالكم فاني اذا تخلصت خلصت واذا استنقذت استنقذت وخرج المقتدمون وشاوروا الملك ونهجو الى التسليم فنهجه انديسله وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين واستوفوا بذلك الميثاق واليمين وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة خرجوا بنسائهم وأموالهم وعن استمده على عسقلان من الامراء الاكابر حسام الدين ابراهيم بن حسين المهراني وهو أول أمير افتتح بالشهادة واختتم بالعهاده وكان السلطان قد أخذ في طريقه اليها الرملة وتبين بيت لحم والخليل وأقام بها حتى تسلم حصون الداوية وغزة والنظرين وبيت جبريل وكان قد استنصب معه مقدم الداوية وشرط معه انه متى سلم معاناهم أطلقه وسلم هذه المواضع الوثيقة كما أخذهم رايعه كذا قال العادل في كتاب الفتح وقال في كتاب البرق وما برح السلطان مقبلا بظواهر عسقلان حتى تسا المعقل المجاورة لها والبلاد المحيطة بيايينها فذكر الداروم وغز الرملة وتبين بيت لحم ومشهد الخليل عليه السلام ولد بيت جبريل والنظرين قال ابن شدالما فرغ من الجانب من هذا الجانب يعني ناحية بيروت رأى قد عسقلان ولم ير الا اشغال بصور بعد ان نزل عليها ومارسها لان الاسكر كان قد تفرق في الساحل وذهب كل انسان يأخذ لنفسه شيا وكانوا قد ضربوا من القتال ومن ملازمة الحرب والنزال وكان قد اجتمع في صور يسر الله فتحها كل فرنجي بقي في الساحل فرأى قصد عسقلان لان أمرها كان أسير وتسلم في طريقه مواضع كثيرة كالرملة وتبين والداروم فأقام عليها المجتنيات وفاتلها قاتل شديد وتسلمها سلخ جمادى الآخرة وأقام عليها الى أن تسلم أعمامه غزة وبيت جبريل والنظرين وغير قتال قال وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة فان العدو ملكها في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسة مائة وذكر ابن القادسي نسخة كتاب كتبه السلطان الى بعض أهله وفيه (انتقلنا الى الجانب الذي فيه القدس وعسقلان ففتحنا قلاعها وحصونه جميعها ومعقله يجمع لها ومدنه بأسرها وهي حيفا وقيسارية وارسوف وياقاف والرملة ولد وتل الصافي وبيت جبريل والدير والخليل ونازنا عسقلان وهي المعقل المنيع والحصن الحصين والتل الرقيق وفيهم من القوة والعدة والعدد ما تنقص الامال عن نيل مثله فافتحنها اسبعا لتمام اربعة عشر يوما من يوم زولنا عليها ونصبت اعلام التوحيد على ابراجها واسوارها وعمرت بالمسلمين وخلت من مشركيها وكفارها وكبر المؤذنون في اقطارها ولم يبق في الساحل من جبييل الى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور والعزم مصمم على قصد القدس قاله يسمله ويجهله فاذا بسر الله تعالى فتح القدس ملنا الى صور والسلام) وفي كتاب آخر تقدم ذكر بعضه قال (وقد تفرق العسكر وتوجه قوم الى القدس وابن زير الدين وفق الدين نارلان على صور وفتح هونين بالسيف وتبين

كتاب (٩٢) الروشتين

بالسيف واسكندرونه بالسيف وفي كتاب آخر (وزلوا على صور وكانهم ملك بيت المقدس يطلب الامان فقال له صلاح الدين أنا أجيء اليكم فقال له المنجمون على نبحكم ان تدخل بيت المقدس وتذهب عين واحدة منك فقال قد رضيت بأن أعمى وأخذ البلد) قال (ولم يمعنهم من ذلك الا فتح صور وماهى شئ يقف عليه وقد خطب لامير المؤمنين الناصر لدين الله على ثلاثين منبراً من بلاد الرنج) قال العماد وقضى السلطان القضاء والحكم والخبايا وجميع الامور الدينية بمدينة عسقلان. وأعمالها الى جبال الدين ابي محمد عبد الله بن عمرو الدمشقي المعروف بفاضى الدين قال ووصل الى السلطان من مصر وولد الملك العزيز عثمان واجتمع على عسقلان فقرت عنه بولده واعتضد بعضده ووضع يده بتأييد الله في يده وكان قد استدعى بالاساطيل المنصورة فوافقت كافتح الصخر واسر بالفلك الماخر وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجاً وضغام غابهاهاها فطفق يكمر ويكعب ويسل ويسلب ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه وسياق ذكرك ان شاء الله تعالى

فتح البيت المقدس سرفه الله تعالى

قال القاضي ابن شداد لما تسلّم السلطان عسقلان والامّاكن المحيطة بالقدس شرع ساق الجند والاجتماع في قصده واجتمع اليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء ما ليا تمهات من الذهب والفضة فصار نحوه معتمداً على الله مقوضاً أمره والى الله منتزاعاً فرصة فتح باب الخير الذي حدث على انتهازه اذا فتح بقوله عليه السلام (من فتح له باب خير فليستز به فانه لا يعلم متى يلقى دونه) وكان نزولاً عليه بقدس الله روحه يوم الاحد الخامس عشر من رجب فنزل بالجانب الغربى وكان مشهوراً بالامانة من الخيرة والرحالة ولقد تحازر أهل المدينة عذّة من كان فيه من المقاتلة بما يزعم على ستين ألفاً ما عدا النساء والصبيان ثم انتقل رحمه الله تعالى لمنحة رآها الى الجانب الشمالى وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب ونصب عليه المخنقيات وضايقة بالرحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور وما على وادى جهنم في فرقة شماليه ولما رأى أعداء الله منازلهم من الامر الذي لا يندفع ونهوت لهم أمارات نصره الحق على الباطل وكان قد ألقى الله في قلوبهم ما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والاسر وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والاخذ غلما منهم الى ما صار واليه صائر ون بالسيف الذي قتل به اخوانهم بقتلهم فاستكانوا وأخذوا الى طلب الامان واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين وكان تسلمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وليته كانت ليس له المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد فانظر الى هذا الاتفاق الجيب كيف يمر الله عوده الى ادى المساجين في مثل زمان الاسر انا يصم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى قلت هذا أحد الأقوال في ليلة المعراج وفي ذلك اختلاف كثير ذكرناه في مواضع غير هذا والله أعلم ثم قال القاضي وكان فرحاً عظيماً ما شهد من أهل العلم خلق عظيم ومن ارباب الحرف والحرف وذلك ان الناس لما باغهم ما من الله به على يدهم فتوج الساحل شاع قصده للقدس قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلّف معروف عن الحضور وارتفعت الاصوات بالصبح والدعاء والتليل والتكبير وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة وكان شـ كلاً عظيماً ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقدر وكانت قاعدة الصلح انهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير وعن كل امرأه خمس دنانير وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً قلت كذا قال وسياق في كلام العماد ان على كل صغير دينارين وكذا قال ان الجمعة صليت بيت المقدس يوم فتحه وسياق في كلام العماد التصريح بأن يوم الفتح ضاق عن ذلك فصليت في يوم الجمعة الا في ثم قال العاذي من أحضر الفطيرة سلم بنفسه والا أخذاء سراً وخرج الله عن كان فيه من أسرى المسلمين وكانوا حقة اعظمها زهاء ثلاثه آلاف نفس وأقام عليهم الله يجمع الاموال ويقرها على الامراء والعلماء ويوصل من دفع قطيعه منهم الى مأمله وهو ور قال ولقد بلغني انه رحمه الله رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال شئ وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألفاً وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين كما سيأتى

(فصل) هذا الذي ذكره القاضي في أمر فتح بيت المقدس مختصرا مجموعا وقد بسطه العماد فقال رحل السلطان من عسقلان القدس طالبا وبالعزم غلبا وللتفرص مصاحبا ولذيل العز صاحبنا والاسلام يخطب من القدس عروسا ويبدل لها في المهر نفوسا ويحمل اليها نعي ليحمل عن ابوسى ويهدى بشرى ليذهب عبوسا ويسع صرخة الصخرة المستعمية المستعمدة لا عدايتها على اعدائها واجابة دعائها وتلبية نداءها واطلاع زهر المصابيح في سماءها واعادة الايمان الغرب منها الى وطنه ورد الى سكونه وسكنه واقصاء اعداء الدين اقصاهم الله تعالى بلغته من الاقصى وجذب قياد فتمه الذي استعصى واسكات اندام اوس منه بانطاق الاذان وكف كه الكفر عنه بايمان الايمان وتطهيره من النجاس تلك الاجناس وادناس أدنى الناس وطار الخبر الى القدس فطارت قلوب من به رغبا واطاشت وخدقت أفئدتهم خوفا من جيش الاسلام وجاشت وتمنت الفرغ لما شاعت الاخبار انها ما عاشت وكان به من مقدى الفرغ باليان بن بارزان وهو مولد لهم في التسلسل شيان بارزان والبطرك الاعظم وهو النشائي العظيم الشأن والذين اعطتهم حياضة حطين به من الزرسان انداويه والاسنادية وبالباروتيه من ذوى الكمر والششان وقد حشروا وحشدوا وتذرروا ونشروا وجمعت حيتهم وانت الضيم آتيتهم وحارت غيرتهم وغارت حيرتهم وتبلدوا وتلاذدوا وقاموا وقعدوا وصوبوا وصعدوا فاشغل بال باليان واشتغل بال بالريان ونجدت نار بطر البطرك وضافت باقوم منازلهم فكانت كل دار منها شرك للمشرك فاهو والتقدير في مقام الادبار ونقسمت افكار الكفار وايس الفرغ من الزرع واجمعوا على بذل الفخج وقالوا لها هنا طرح الرأس ونسوا النفوس ونسفت الانما ونهكت الدهما ونصبر على ارتعاق القروح واجترأ الجرح ونهجم بالارواح لمحا محال الروح فبهذا الاماكن فيها قاتمتنا ومنها انقوم قيامتنا ونهجم هامتنا ونهجم ندامتنا وتسبح علامتنا وبها غرامنا وعلينا غرامتنا وكرامها كرامتنا وبسلامتنا سلامتنا وباستقامتنا استقامتنا وفي اماندنا ام السدة امانتنا واذا تخافنا عتم الامت لامتنا ووجبت ملامتنا ففها المصلب والمطلب والمذبح والمقرب والمجمع والمعيد والمهدى والمصدر والمرقى والمرقب والمشرى والمعب والمحق والمذهب والمطلع والمطعم والمرب والمربع والمخدم والمحرّم والمحل والمحرّم والصور والاشكال والانظار والامال والاشباه والاشباح والاعده والالواح والاجسام والارواح وفيها عصور الحواريين في حوارهم والاحبار في اخبارهم والراغبين في صوابهم والاقصاء في جامعهم والسهرة رحبها ومثال السدة والسيد والهيكل والمولد والمادة والحوت والموت والخوف والخذل والعلم والمهدى والصبي المذموم وصورة الكس والحجار والخفة والنار والنواقيس والنواميس قالوا وفيها صلب المسيح وقرب الذبيح وتحسد اللاهوت وتآله الناسوت واستقام التركيب وقام الصليب وتزل انوار وول الذبيح ووردت الطبيعة لا تقوم وامتجح الموجود بالمعدوم وعدت عمودية المعبود ونهضت البتول بالمولود واصفا الى متعبد منهم من هذه الحلالات ماصلا فيه بالشبه عن نهج الدلالات وقالوا دون مقبرة ساموت وعنى خوف فونها لمنافوت وعنها ندافع وعليها تقارع وبالنالقاتل وكيف لا تنزع ولا تسازل ولاى معنى تتركهم حتى يأخذوا وذعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا وتأهبوا وبناها وما انتهوا بل نفاها ونصبوا المجانب على الاسوار وستروا بطلمات الستائر وجوه الانوار واستشاطت شياطينهم وسرحت راحيتهم وطغت طواغيثهم واعلست مصاليتهم وهاج هائجهم وماج مانجهم وحضتهم قدوسهم وحرضتهم رؤسهم وحركتهم نفوسهم وجاتهم بنجوى السوء واسيمهم نصبوا على كل نبي منجينا وحفروا في الخندق حفرا عيقا وشادوا في كل جانب ركنا وثيقا وفرقا على كل برج فربنا وجعلوا على كل طارق باردى للرد طريقا واعادوا كل نهج واسع بما وعد وعزروه بمضيقة ونهمل كل منهم ما لم يكن من قبل مطيقا وخرج جماعة منهم على سبيل اليك فاد بالويللا واعترضوا عدة من أصحابنا غارة على طريق السلامة ماره وكان قد شد من المقدمة المنصورة أمر تقدم وما تحرز ولا تحصر وما ظن ان قدماه من له جراءة الاقدام ومن يعتقد ان ربح كفره خسارة الاسلام وهو الامير جمال الدين شروين بن حسن الزراري فوقه واعلى في موضع يعرف بالقيديات فاستهدى رجه الله ولما بلغ السلطان خبره ساءه وغمه ثم أجبل باقبال سلعائه وايضا لشجعانه واقيال اولاده واخوانه واشبال مماليكه وغمايه وكرام امراءه وعظام اوليائه واصبح يسأل عن الاقصى وطريقه الادنى وطريقه الاسنى ويذكر

ما يفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى وقال ان أسعدنا الله على اخراج أعدائنا من يته المقدس فأسعدنا وأرى يده عندنا إذا أيدنا وأنه مكث في أيدي الكفر إحدى وتسعين سنة لم يقبل الله فيه من عابده حسنه ودامت بهم الملوك دونه متوسنه وخلت القرون عنه متخليه وخلت الفرج به متوليه فساد خيرا الله فضله فقهه الا لا لآل أبيوب ليعمق الله لهم بالقبول القلوب وكيف لا يهتم بفتح البيت المقدس الاقوى والمسيح الاقصى المؤسس على التقوى وهو مقام الانبياء وموقف الاولياء ومعبد الاتقياء ومزار أبدال الارض وملأه ملكة السماء ومنه المحضر والمنبر وبه وافد اليه من أولياء الله المعسر بعد المعسر وفيه الصخرة التي صفت جدتها بها جهام الانهاج ومنها مناج المعراج لها القبة السماء التي هي على رأسها كالسراج وفيه ومض البارق ومضى البراق واضاءت ليلة الاسراء بحول السراج المنير فيه الاتفاق ومن أبوابه باب الرحمة الذي يستوجب داخله الى الجنة بالدخول الى الخلود وفيه كرسي سليمان ومحراب داود وفيه عين سلوان التي تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود وهو أول النبلتين وثاني البيتين وثالث الحرمين وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي انها تشد إليها الرحال وتنفذ إليها بها الرجال وأهل الله يعيده بنا الى أحسن صورته كما نرفعه بذكره مع أشرف خلقه في أول سورة فقال عز من فائل (سبحان الذي أمرني بعبده ليلامس المسجد الحرام الى المسجد الأقصى) وله فضائل ومناقب لا تحصى ومنه كان الاسراء ولا ربه ففتح السماء وعنه تؤرث أبناء الانبياء وآلاء الاولياء ومشاهد الشهداء وكرامات الكرماء وعلامات العلماء وفيه مبارك المبار ومسارح المسار وصخرة الطوى والقبلة الاولى ومنها تعالت القدم النبوية وتوالت البركة العلوية وعند هاصلي نيسابا بالنبيين وسحب الروح الامين وصعد منها الى اعلى عشرين وفيه محراب مريم عليها السلام الذي قال الله فيه كذا دخل عليها زكريا المحراب ولما رآه العجوز ولما ولد الحما وهو الذي أسسه داود وأوصى بينائه سليمان ولما لاجل اجله انزل الله سبحانه وسبحان وهو الذي افقحه الفاروق واقفحت به ورة من الفرقان فما أجله وأعظمه وأشرفه وأخفمه واعلاه وأحلاه واسانه وأكرمه وأمين بركانه وأبرك ميامنه وأحسن حالاته واحلى محاسنه وأرين مبايحه وأبجج مزايته وقد أظهر الله طوله وطوله بقوله الذي باركنا حوله وكفيسه من الآيات التي أراها الله نبيه وجعل معه عاتنا من فضائله مروييه ووصف السلطان من خصائصه ومزايه ما وثق على استعداد الآتية موافقه وآله وأقسم لا يبرح حتى يرفعه ويرفعه باعلاه عنه وتخطى الى رياره موضع القدم النبوية قدمه وتصفى الى صخرة الصخرة اذنوه ارضا ثاقبا كمال النضره

(فصل) في نزول السلطان على البيت المقدس وحصره وما كان من أمره قال العماد انزل السلطان على غربي القدس يوم الاحد خامس عشر رجب وكان في القدس حينئذ من الفرج ستون ألف مقاتل من فارس وراجل وسائف وابل فاستهدفوا للسهم واستوفوا للهمام وقالوا لوال واحد من ابعشرين وكل عشرة بمئين ودون العمامه تقوم القيامه وبجب سلامتها قبل السلامة وأقام السلطان خمسة ايام بدور حول البلد ويقسم على حصاره أهل الجبل وأبصر في شماليه أراضيا لها الحصار متسعة المجال للاسماع والابصار ممكنة لادومته للثقب ان صار من حيز الانصار فانقل الى المنزل السما الى يوم الجمعة العشر من شهر رجب فأصبح يوم السبت الاعلى مخنيقات قد صبت بلا نصب فدام القتال والنزال وفرسانهم في كل يوم يباشر من دون الباشا وده امام جموعهم المحصورة المحصورة المحصورة ويرزون ويسارزون ويطاعنون ويحاجزون والمذنبون لله عليهم يحجون ومن دماهم ينهلون وينهلون كما قال الله تعالى فيهم (يجاهدون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) ومن استشهد مبارزا ولم يشهد بيته وبين الجنة حاجزا الامير عز الدين عيسى بن ملك كان أبوه صاحب قلعة جبر فانه حارل شهاده في المحضر المنجر وأكبر رود الموت الى ان ورد الكوثر وكان في كل يوم يفرس فوارس وبلقي بشروجه وجهه وجهه والمنون العوايس فاغتم المسجون صرخته وهان عليهم اتلاف المصع بعد تلافى مهجته فركبوا كفاف الهج حتى وصلوا الى الخندق فخرقوه وبددوا جمعهم وفرقوه والتفصوا بالار وفرتهم بدو وعلقوه وحشوه وخرقوه وصدقوا وعد الله في القتال لا عدائه وصدقوه ولما غصتهم الحرب ووقع السور واتسع النقب فصعب عليهم الهين هان لنا الصعب عقدا ما بينهم مشوره وقعدوا ما بينهم مشوره وقالوا ما لنا الا الاستئمان فقد أخذنا بخطة الخذلان والحمران واخرجوا كبارهم ليؤخذوا لهم

في أخبار (٩٥) الدولتين

الامان فأبى السلطان الاقتالهم وتدميرهم واستصلحهم وقال لا أخذ القدس الا كما أخذوه من المسلمين منذ احدى وتسعين سنة فانهم استباحوا القتل ولم يتركوا طرفا يستترسنة فابا افنى رجالهم قتلا واحوى نساءهم عيدا فبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموقفه وطلب الامان لقومه وتمنع السلطان وتسامى في سومه وقال لا أمن لكم ولا أمن وما هو اننا الان نديم لكم الهوان وتأخذكم ككم قسرا ونوسعكم قفلا وأسرا ونسفكم من الرجال الدما ونسطع على الذرية والنساء السبا وأبى في تأمينهم الا بالا فتعرضوا للقتل وتعرضوا لقتلهم وقالوا اننا نسلم أمانكم وخفنا من سلطانكم وخفنا من احسانكم وأبقنا الله لانجاة ولا نجاح ولا صلح ولا صلاح ولا سلم ولا سلام ولا نعمة ولا كرامة فاننا نسفل فنقاتل قتال الدم والندم ونقابل الوجود بالعدم ونلقى أنفسنا على النار ولا نلقى بأيدينا الى التهلكة والعار ولا يحرج منا واحد حتى يحرج عشرة وانا نخرق الدور ونغرب القبة ونترك عليكم في بيوتنا السبه ونقطع الصخرة ونوحكم عليكم الحسرة وقبة الصخرة ترميها وعين سلوان نعيمها والمصانع نخسفها والمظالم نكسفها وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير ما بين غني وفقير وكبر وصغير فبدأ يقتلهم وشتمهم وأما لاموال فاننا نعطى ما نلنا ونعطى ما نلنا وأما الدراري فاننا نساخر الى اعدامها ولا نستعذبها فلا يحصل لكم سبي ولا يقبل لكم سبي ولا يسلم عرو ولا عماره ولا نضار ولا نضاره ولا نساء ولا صبيان ولا جناد ولا حيوان فأبى فائدة لكم في هذا الشئ وكل خسر لكم في هذا الرجح ورب خيبة جاءت من رجاء النجح ولا يصح السوء سوى الصلح فشاوّر السلطان أصحابه فقيل له الصواب ان تحبسهم اسارى فتبتهم نفوسهم ونعم لصغار الجزية رؤسهم ويدخل في القديعة مرؤسهم ورؤسهم واستقر الحال بعد مرأودات ومعاودات ومفاوضات وتقويضات وضراعات من القوم وشفاعات على قطعة تكمّل بها القطعة ويحصل منها الحوطة اشترى ايامها انفسهم وأمواهم وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطعاهم على انه من عجز بعد أربعين يوما عازمه أو امتنع منه وسلمه ضرب عليه الرق ونبت في غلظته لئلا الحق وهو عن كل رجل عشرة دنابر وعن كل امرأة خمسة وكل صغيرة أو صغيرة ديناران الذكر والانثى فيهما سيمان ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدّم الدواوية والاسبان في هذا الضمان وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء وقام بالاداء ولم يتكلم عن الوفاء في سلم خرج عن بيته آمنا ولم يعد اليه ساكنا وسلموا بالاداء يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعه وردّوا بالرفع والغصب بالوديعه وكان فيه أ كثر من مائة ألف انسان من رجال ونساء وصبيان فأغلقت دونهم الابواب ورتب لعرضهم واستخرج ما يلزمهم النواب وكل بكل باب أسير ومقدّم كبير بمحصر الخارجين وبمحصر الداخلين فن استخرج منهم مخرج ومن لم يقم بما عليه فقد في الحبس وعدم الفرج ولوحظ ذلك المال حتى حفظه لقا زمنه بيت المال بأوفر حفظه لكن تم تأخير الفرج وعدم التخفيف فكل من رشاشي وتكسب منها هج الرشدا بالرشا فتم من ادلى من السور بالحيال ومنهم من حمل مخفيا في الرجال ومنهم من غير لبسته فخرج مخفيا برى الجند ومنهم من وثقت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالزد والثقة الا كابر استنابوا أصاغر فأقاموا في تقصيرهم المعاذر وقتوا الانفسهم الدخائر وادعى مظفر الدين كوكبرى ان منهم جماعة من أمر الرشدا وعددها ألف نسمة فجعل اليه أمرها وكذلك صاحب البيرة ادعى ما عده الكثير قزهاه خمسمائة أرمن ذكر انهم من بلده وان الواصل منهم الى القدس لاحل متعبده وكذلك كل من استوهب عدة استطلقها وحصل له مرفقها ثم تولى الملك العادل استخراجهم وقوم على الاداء منها جهنم وسمل على السلطان لفرط جوده الاستخراج والاخراج وتوفر لعامة الناس وخادتهم بهجة سماحة الابتهاج وما فينا الامن فاز باو في نصيب ورعى منه في مرمى خصب وكان السلطان قد رتب عدة دواوين في كل ديوان منها عدة من النواب المصريين وفيهم من الشاميين فن أخذ من أحد الدواوين خطابا لاداء انظر مع المظفر بعد عرض خطه على من بالباب من الامناء واوكلاء فذكر لي من لأشك في مقالة انه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله فرما كتبوا خطا لم تنقده في كيسهم وتلبس أمر نلبسهم فكانوا شركاء ببيت المال لامتناه وخاتوه على ما حصل لكل من الغنى والنفعة وما اضر غناه ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب ألف دينار وبقى من بقي تحت برق اسارى ينتظر به انتضاء المذمة المضروبه والعجز عن الوفاء بالقديعة المطلوبة وكانت بالقدس ملكة رومية متعبدة

كتاب (٩٦) الروضتين

مترهبه في عبادة الصليب متصلبه وعلى مصلبها مثله به وفي التسلل بلمتها متصعبة متعصبه انفسها متصاعدة للجن وعبراتهم متحدرتا القطرات من المزن ولها حل ومال ومتاع وأشياء وأشياء واتباع فاستعادت بالسلطان فأعادها ومن عليها وعلى كل من معها بالافراج وأذن في اخراج كل مالها في الاكياس والاخراج وابق عليها من مصوغات طلبها الذهبية المجوهره ونفا نساءها وكرائم خزائنها فخرجت بجميع مالها واطاعها ونساءها ورجالها واسقاطها واعدادها والصناديق باقها لها وتبعها من لم يكن من اتباعها فراح فرحى وان كانت من سجنها قرحى وكذلك خربت زوجة الملك الماسوري وهى ابنة الملك امارى وكانت مقيمة في جوار القديس مع مالها من الخول والخدم والجواري فاستأذنت في الامام بزوجهها وكان يقدره مقبلا في برج نابلس موكلا به ليوم وعدت سريره فأذن لها فخلصت هي ومن تبعها وأقامت عند زوجها وكذلك خرجت الابرنسة أم هنفري وهى ابنة قايي وزوجة الابرنس الذى سبك دمه يوم خطين وهى صاحبة الكرك والشوبك وهى بتواها محوطة وبرأيها منوطه بخاف من سائلة في ولدها العاني فودعت انها سمحت بحصنها سمح لها ببنها ثم أعفيت وأطلقت وعهدت على ان تحصر ابنها هنفري ابن هنفري من دمشق اليها وأقر برؤيته عينها وسار معهما من الامراء الامناء من يتسلم منهم تلك المعاقل فخرجت خضت الى حصونها لتسلمها فاعلمها لها ودفعها وردها دليله خائبة فكنت صور واستودعت السلطان ابنها المأسور ووعدنا باطلاقه اذا تسلم تلك الحصون

(فصل) في ذكر يوم الفصح وبعض كتب البشائر الى البلاد قال اعتماد تسلم المسلمون المدينة يوم الجمعة أو ان وجوب صلاتها وطلعت الرايات النصرانية على شرفاتها وأغلقت أبوابها لطلب القطعة والتأسيه وضاق وقت الفريضة وتعذر اداؤها وللجمعة مفعلمات وشروط لم يكن استيقاؤها وكان الاقصى لاسيما محروبا مشغولا بالجنائز والحناء ملوفا بما أحدثوا من البناء مسكونا بكفر وغوى وضل وظلم وحتى مغرورا بالجهاسات التي حرم علينا في تطهيرها منها ألوانا فوقع الاستغلال بالاهم الانفع والائتم الانفع وهو حفظهم وضبطهم الى أن يوجد بشرطهم ويؤخذ قسطهم واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليالته منة المعراج وتم بما ودخ من مناج النصر الاتباع وجلس السلطان بالتحشم ظاهر القديس لهناء وللقاء الاكابر والامراء والمتصرفه والعلماء ومجالس على هيئة التواضع وعيية الواريس الفقهاء وأهل العلم جلساته الاررار ووجهه منور البشر سافر وأهل به عزانجح ظافر وبابه مفتوح ورقدته منوح ووجهه مرفوع وخطابه معموم ونشاطه مقبل وبساطه مقبل وحناءه يوح ورياه يفوح فدخلت له حالة الظفر وكان دسبه بهالة القمر والقراء جلوس يقرؤن ويرددون والشعراء توف ينشدون ويستشدون والاعلام تبرز لتشمر والادلام تبرز لتبشر والعيون من فرط المسرة تدمع والقلوب للفرح بالنصرة تتشجع والالسنه بالابتهال الى الله تضرع وبشر المسجد الحرام بخلاص المسجون الاقصى وتلى مشرع الحكم من الدين ما وصى وهنئ الحجر الاسدي بالهجرة البيضاء ومنزل الوحي تحمل الاسرا ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بقصر الزلزال والانبياء وقام ابراهيم وضع قدم المقدس في حلى الله عاياه وعلمهم اجمعين وأدام أهل الاسلام بشرف بينته مستمتعين وتسامع الناس بهذا النصر الكريم والفتح العظيم فوجدوا انوار يار من كل فج عيسى وملاكوا اليه في كل طريق واحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق وتزدهوا من رهركرمانه في الروض الانيق وقد سبق ان العباد كان توجه الى دمشق والسلطان على يبروت والام الذي آلمه فلما سمع بزلزال السلطان على القديس ابل من مرضه وتوجه اليه فوصل يوم السبت ثاني يوم الفصح قال وطلعت عليه صبا عند طلوع الفصح فاستبشر بقدومي وخلع على البشير قبل رؤيتي وكان احبابه يطالبون بكتب البشائر يعزوا بها ويشترونها ويقول لهم هذه القوس بارولها المأذبة فار قال في كتابت في ذلك اليوم سبعة من كتاب بشاره كل كتاب يعنى بديع وعبارته فيها الكتاب الى الديوان العزيز بغير ادا فتحته بهذا الاية (وعاد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليسخروا منهم في الارض كما استخلف الدين من قبلهم وليكن لهم دينهم الذي ارضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا) الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستغلاف وتها بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافه ومكن دينه المرتضى وبذل الامن من الحشافة وذخر هذا الفخ الاسنى والنصر الاهنى للعصر

الامامى النبوى الناصرى على يد الخادم أخلص أوليائه والمختص من اعترازه باعتزائه اليه واتقائه وهذا
الفتح العظيم والنجح الكريم قد انقضى الملوكة الماضية والقرون الخالية على حسرة تمنية وحيرة ترجيه ووحشة
الأس من تسنيه وتقاصرت عنه طوال الهجم ونخاذلت عن الانتصار له املاك الامم فالجده الله الذى أعاد القدس
الى القدس وأعادهم من الرجس وحقق من فهمه ما كان فى النفس وبذل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالانس
وجعل عز يومه ما حيا دل أسس وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال من البطرك والقس وعبيدة
الصليب ومستقبلى الشمس وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المائتين العالمين وقطع دابر القوم
النظامين والجد لله رب العالمين فكان الله شرف هذه الامة وقال لهم اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التى بها
فضلكم وحقق فى حقهم امتثال أمره فى قوله المكرم (ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم) وهذا الفتح قد
أقده الله على اقتضاضه بالحرب العوان وجعل ملائكة المسمومة له من أعز الانصار وأظهر الاعوان وأخرج
من بيته اقدس يوم الجمعة أهل الأحد وقمع من كان يقول ان الله ثالث ثلاثة بن يقول هو الله أحد وأمان الله بازال
الملائكة والروح وأنى بهذا النصر المنوح الذى هو فتح الفتوح وقد تعالى ان يحيط به وصف البليغ نظا وثرا
وعبد الله فى البيت المقدس سراجها ومكنت بلاد الاردن وفلسطين غورا ونجدا ورواجرا ومثلت اسلاما
وكانت قد مثلت كفرا وتقاضى الخادم دين الدين الذى غلق رهنه دهرها والحمد لله شكرا حمدا يجتد للاسلام
كل يوم نصرا ويزيد وجوه أهله بشرى فتوجه بشرا وأبى الخادم الاستباحة أموالهم وأرواحهم وحسم داء
احتراحهم باحتياحهم وانه لا بد من تطهير الارض المقدسة من رجس دماهم وقتل راجلهم وسبي ذرارهم ونسائهم
ولما ايسوا من الجاه وفخوا ابوابها المرتجة من أسبابها المرتجاة خوفا بقتل الاسارى المسلمين وهم أكثر من ثلاثة
آلاف وانهم يفسدون جميع ما فى البلد من مال وبناء يهدم واحراق واقتلاف وعرف ان جهلهم يجهلهم على كل مكر
شنيع وانهم تدعوهم فظاظتهم الى كل أمر فظيع وبدلوا اطلاق الاسرى وشرطوا اجل مال العدا وما زالوا يبتلون
ويضرعون وينلون ويحشعون حتى استقر الامر انهم يفسدون وأجيب الصخرة المقدسة عند استصراحها
وبركت البركة الناهضة البها فى مناخها وغسلت من أوضارها وأزوارها بمرات العيون ورجع اضطرابها الى
السكون وفديت بنواظر أهل الايمان وصوخت للوفاء بعدها المجدد بالايمان وذكرت فى يوم خلاصها من رجب
بليسة المعراج وتجلي اظلامها بانارة سناء الصراج واعيدت الكنائس مدارس واضحت باحياء ريم التوحيد
رسوم الكثر عافية دوارس وزالت ضجرة الصخرة ونعشها الله من العثرة وبذل بالانس فيما كان من الوحشة
والحسرة والحمد لله على هذه النصره والمنة على هذه المبره وقد تسلمنا مع ريت المقدس جميع المصاقل من حد
الداروم الى حد طرابلس وكل ما كان جاريا فى ملكة ملك القدس ونابلس ولم يبق الا صور فانها قد تأخرت ازاعها
وتقدم امتناعها والفرغ فيها قد ضربت بأمالها اطامعها وهى بتأييد الله مسفحة والقلوب بتذليل جامحها
منشرحه) ومن كتاب آخر (فتح بيت الله المقدس الذى عجز الملوكة عن تمنيته فكيف تسنيه وماتت الاطماع دونه فلم
تطمع فيه من الله عليه بالتدليل صعبه واعذاب شربه وتسهيل وعره وتحصيل غره وقضى الملوكة ليله وجثنا
نحن عليه باسفار غره وقد كانت الصخرة تستفرخه ومطايا الكبر بلاكها عليها منوخه فأجبت دعوتها
وأصابت خطوتها وتناثر على حفرتها يواقيت الشفا وقوبلت قبلتها بقبل الافواه ودنا السجد الاقصى للقاصي
والداني وزال رين العاش وقوت عين الرائي هذا فتح عظيم قدره جسيم غره فاضل عصره كامل نصره غير منسى
الى يوم الحشر ذكره وقد افترض بنا بكرة واقتضى بسيفنا ورتبه وزهر زهره وظهوره وهلك الكافر وكفره وجاء
من أم الله ما لم على ابدي شكره أيننا الا احراقهم بنيران الصوارم واغراقهم فى امواج الطلى والجحاجم وسلمنا
القدس فى يوم كانت فى مثل ليلته ليلسة المعراج وحنن الصخرة حنين جذع المجرة الاولى فى ظلة ليلها الى ذلك
المراج الوهاج والحمد لله على ساول ما وضع من المنهاج ونضوب ما كان ينبع من الاجاج وخلات الله لقصد
الحجاج وصدق الحاج مبشرة بما فضل الله به عصرنا وبجل به نصرنا ونظم به سلكنا وطرز به ملكنا وهو فتح
بيت الله المقدس الذى غلق رهنه دهرها واغتصب من الاسلام قهرها وارتد كفرها وامتدت به الايام عرا فمرا

كتاب (٩٨) الروضتين

وتقاصرت الحمى عن استحقاقه وأصلدت الملوكة فيه نحر زواجر اقتصاده رزوا بالارغم على التماس الكفر
واقتراحه واحتملوا لحفظ مواضعهم نكايه اجترامه واجترحه فلاجرم أعداءه الله لا يمانا وذخر ما لو اسلم اعترافنا
وفقهه بشاظهارا لفضل هذه الايام واشارنا لما نحن نؤثره من اسلاء كلمة الاسلام فأصرخنا
الصخرة وأهدنا اليها النصر ومكانهم قلبها وان كان من الحجر الممره تسلكنا القدس يوم الجمعة السابع والعشرين
من رجب وقضيننا من حق هذا البيت ماوجب وجاء القدس الى القدس وزال الرجس وذهب وتولى فيه الاسلام
وتولى عنه الكفر وعظم الاحر ونقم الفخر وطاب النسر وزاد البشر وعنى الرجس وثبت الظاهر وهلك المشرك
وذلل البطرك وأقصى من المسجد الأقصى الساجد الى الشمس وتجلى الحق بنوره الكاشف للبس عاديت الله
المقدس الى طهارته ونطق منه لسان التقديس بعبادته وتغل وجه السعد بنضارته وهما القدس في اتمام امره
بخطابه واسارته وزادت الوجوه بشر ايشارته وقد أعاد الله الى الاسلام المسجد الأقصى ومكان أدناه وأقصاه
وأسنى دولتنا بجامعنا من فقهه وهنائه وعلوا انهم هالكون وأما لهم بالقوم ال يكون وفي سبيل القتل والامر
والسبي سالكون فخرجوا بلبون الامان ويذلون الاذعان حتى يسلموا المكان قليل لهم الآن وقد عصبتهم
ورضيت بما فيه هلاكهم وأيتهم فروعوا بقتل أسارى المسلمين هم ألوف وعرفنا انهم لا يقصرون في الشرفان
جولهم معروف فتضرعوا وتشفعوا وتعفروا في تراب الدل وتوفعوا وتقرر عليهم مال اشتروا به أنفسهم فتزعبوا
من الخوف ملبسهم وسلموا القدس فاعدنا الى القدس وطهرناه من الرجس وأجندنا دعوة الصخرة وغسلنا
عنها بوضر الكفر بعبرات العبره فتح يث الله المقدس الذي غلق رهنه وطال في يد الكفر أسره وسجنه واستمل
بقرأ يامنا منزه وأثار بجمه وعاد باحساننا حسنه وزال بنا خوفه وزاد امنه وبقي قريب مائة سنة في يد الكفر مسجوننا
وبرجس الشرك مشهونا حتى أعاد الله بنا رونقه وأذهب قلقه وأعدم فرقه وهذا فتح لم يكن منذ عصر الصحابة
رضي الله عنهم له نظير وافق الدين به منيف منير وشرف أيا منابه كبير وهو امام قدوحنا المذخر لنا والمها بتأييد
الله تأخير فتح البيت المقدس الذي لم يحط بخرمته بخاطر الملوكة وتوعد على عزائمهم نخرج طريقه للمسلوك وحالت
دونه فنتظر ايان الفرج وطوارقها وجئت على الاسلام فيه حوادث الليالي وطوارقها حتى دعانا الله لفقهه فاجبتنا
ووعدنا بالفوز فاصبنا وأوردنا من صفة فاستعذبنا وعرفنا طيب عرفة فاستطيننا وذخر لعصرنا هذا
الفخر فاستقبلنا رأوا ابحار المخنقات قد أنزلت الاسواء بالاسوار وغارت الصخور للصخرة المباركة فجئت
في انتقادها من الاسار وهمت ثنائيا بالابراج وأعضل بها في العلاج زاء العلاج فعانوا الحما وشاهدوا الموت
الزائم أقامت المخنقات على عصابة حد الرجم وواقعت ثنائيا شرافاته بالهتمة وقادرت الصخور في نصرة الصخرة
المباركة وحجرت على حكم السور بسفح الاحجار المتساركة وحسرت النقب عن عروس البلد بنقب الاسواء
واكتسفت للعيون انكشاف الاسرار نهضت لاصراخ الصخرة المقدسة الصخور وطارت من أوكار الجحاشق
كانها الصخور فأسر البيت الحرام بكلك أخيه من الاسر واجراء الاسلام فيم لعل أوضاع الكفر وانتقاد الصخر
المباركة من قلوبهم كالخارجة أو أسد قدوه والحافها من البهاء والرونق والعر الاسلاي بكسوه ولقد عدلت من أدران
الكفر واداناه وطهرت من ارجاس الجحاشه بياه العيون التي بها نذيت وصقلت بشفاة المؤمنين وطما ما يدي
الشرك صديت وأعيد اليها ذكرا لله تعالى بعد طول الغربة وكرب بصحبة الاولياء ما سلف لها في عهد الصحابة
رضي الله عنهم من حزن العجبة ودنا المسجد الأقصى فاقصى منه الساجد للشمس وسكن العلماء والفقهاء
في مواطن البطرك والقس وأبدل الناقوس بالاذان بل الكفر بالايمان وصلى بحراب الاسلام في المحراب الذي
أسلم وقد سنى الله تعالى هذا الفتح الاعظم والفتح الانعم وقد ندب فلان في الرسالة القدسية والشار الغريسه
التي فيها أنتم الكفر وعرس الاسلام وعاد بها المسجد الأقصى الى مدانها المقدس الحرام وتجت عروس الصخرة
لعيون الناظرين فاضت عليها مياه احداق الاولياء فرحمت عنها أوشار الكافرين وكان الاسلام منه غربا
فرجع الى وطنه وسكن منه الى الوطن في مكانه وزالت مخارقه وعاد الى مأمنه وض العرف من منيعه
وأثار التوحيد من مقلعه وهلا سنا السنه وحلابة الجنة وخلصت مواضع المخلصين من أولياء الامه ونخرج

في اخبار (٩٩) الدولتين

البطاركة والقسيسون من مساجد الأئمة وعادت الكنائس مدارس وآيات التثليث بهادوارس ووجوه الايمان باشرة ووجوه أهل الصليب عوايس ومحت أيام هذه الايام تلك الليالي الدوامس وقد أقيمت الجمع والجماعات ونظمت بل طهرت تلك الاحات وصلى في محراب المحرب ودرس فيه الخلاف والمذهب والحمد لله الذي تسنى بفضله هذا المطلب وتيسر تأييد الامر الاصعب

(فصل) قال العماد وكان الموتى الاجل الفاضل ما أخبر بدمشق بعارض مرض من الله بشفاؤه فن جملة ما كتب السلطان اليه (اما الفتح فن جملة تركت همة وآنار جذبات عزيمته فان الله تعالى سهل ما سهل أهل الدهر بانه صعب واهب اسم النصر ايان يقال ليس له مهيب وخصنا بهذا الشرف والحقنا في هذه الفضيلة بصالحى السلف وقصدت الكفر بالايمان والناقوس بالاذان وجلس العلماء والقهلاء في مجالس الرهبان وفتحت بهذا الفتح من بيت الله المقدس أبواب الجنان وتراحم الحارجون من البلدمس الفرنج والنصارى في دخول أبواب النيران وصلى محارب الدين في المحراب ورفع الملائكة ما كان تكاثف بانفاس الكفرة من الحجاب وغسلت الصخرة المباركة من أوضارها جماع العيون الفاضة الفائق غزاره الامواء وقبلت بالشفاء وبوشرت بالافواء وطهرت باهل العلم والحلم من ادناس أهل الجهل والسفاه والجدلثة ثم الحمد لله وما كان يجوزنا ووزله الاحضور المجلس السامى أسماء الله فالحمد لهذا الامر رواء البروآته وللانسان لقاءه وكذا تحف الفتح لولا صلح دعائه وحسن آلائه والحمد لله الذى جعلنا بهذه الحاديه ونضار النصر القدسيه وذكر لنا هذا البر الذى تجزى بل قصر عنه ملوك البريه والحمد لله على هذه النعمة السنيه فما أشوقنا وأشوق القدس الى قدومه وما أظمأنا وأظمأه الى خصوص الزى به وعمومه وباحظ هذا البيت الذى وأحوال البيت الحرام من زيارته وما أنقروضه وأوفق رضاه ادا غاب نظره ونضارته ونحن نعرف ان همته العالیه تتحدوه وان دينه الى اجابة دعوته تدعوه ونسأل الله ان يكمل محبته وينعش قوته ويقوى غرضه وما ألقا بهذا البلد اللطيف به وزيتب أمره وتديره) ومن كتاب آخر (نصرنا الله بلائكه المستومين وأولياؤه المؤمنين واستخلصنا بآيده البلاد واثرت عناها وافترضنا بالبيض الذكور من الحرب العوان أبكار الفتح وافتقر عناها وهذه موهبة مذهبه ومنقبه لا يبلغ الى وصفها بلاغته موجزة ولا مسميه ونوبه ما بعد هذا الاسلاموه وحظوق مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوه وبشرى تجلوا لوجوه يشرها وتضوع مهاب الحجاب بشرها ويعرف أهل الشرق والغرب سجال غربها وتقر عين المؤمنين فى البعد والقرب بانوار قربها عاد القديس الى الارض التى بدوسنت وأحاذت البركة بالبتعة التى بقوله تعالى باركنا بحوله عرفت ونظرت الصخرة المقدسة وطهرت وزعت أيام هذه الايام وزهرت وتعت الطائفة اللطيفة من أهل التثليث باهل التوحيد وقهرت واستبشر النير والمخرب بخباياه وامامه وافخر الزمان بعصر مولانا أمير المؤمنين وأيامه وقدمنا لك البلاد الساحلية وتسلمنا احصنا احصنا ونقض امن الكبرر كاركنا واجلينا الكفار منها فاجلينا بهام الحسنى حسنى ففتح شرف الله به هذه الامه وجلا به الغمه وكشف الله بل شرفنا بنجره وأعدنا لذخره وخصنا بفضله فى عصره وأجرى لنا ما كان قد أظمأ من عادة نصره وقهر بأهل دينه من عساكرنا أهل كفره وفامت بوزاننا نوتره وغرق البلاد الساحلية من دم الكفار ببحره واصرخت الصخرة وحفت بها النصره وزالت عنها المضرة وعادت اليها المبره ونعشت منها العثرة وقاضت لها من عين المؤمنين العبره وزفت عروسها البكر محصنة لم تقبض منها العذرة وحالت العسره ولاخت القره وظهورت من صدف قبتها الدره وصرفت آثار القدم النبوية بالايمان وجددت بعهد هافضه الايمان وبطل الناقوس بحق الاذان وتحت أبواب الجنان لاهلها وأخرج منها أهل النيران والحمد لله على هذا الاحسان حمدا مستمر على مر الزمان) ومن كتاب الى سيف الاسلام بالين (فتح بيت الله المقدس الذى غلق نيفا وتسعين سنة مع الكثرة رمنه وطال فى أسرهم هجته وأستحكم كرمته وقوى سكره وضعف ركنه وزاد حزنه وزال حسنه واجد بت من الهدى ارضه وأخلف حزنه وواصله خوفه وفارقه أمنه واشتغل خاطر الاسلام بسببه وساء حزنه وذكر فيه الواحد الاحد الذى تعالى عن الولد ان المسيح ابنه وربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه وافرد التوحيد فكاد يهى متنه ودرج المارك المقدمون على تبنى استنفاذه فابى

كتاب (١٠٠) الروضتين

الشیطان غیر استیلائه واستحواده وكان فی الغیب الالهی ان معاده فی الآخرة الی معاده وطنت أوطانه بقراءة القرآن وروایة الحدیث و ذکر الدروس و جلست الصخرة المقدسة جلاء العروس وزارها شهر رمضان مضیفاً لها نهار صومها بالتسبیح ولیل فطرها بالتراویح) ومن کتاب آخر (البيت المقدس صار مقدساً وأصبح للاسلام معزساً ورجع اهل التقوی الیه فقد کان بهاء مؤسساً وخرس الجرس وذهب الدنس وبذل الناقوس وخرج القوس وزال الاذی بالاذان وصوفت الصخرة المقدسة بإیمان أهل الايمان وما حلت فی محراب البيت المقدس النقاة حتی صلت فی محارب رقاب الکفر المشرقیات ومات الرضى بفتح المعبد الاقصى حی أقصی منه من أنصاه الله عن رضاه وماتوا المسلم المصلی فیهم مواء من الجنة حتی تبوأ الکافر المصلی بالنار مواء صوئع موضع القدم المبارکة لتلیل المعراج بالایادی وقال لاولیاء الله اهل الاخلاص اهلا بکم فإأحسن الخلاص من ولایة اهل التعدی وعاد المعبد الاقصى للمصلین المقربین الجنة ومنازراً بعد ان کان للمقصرین المصلین زاداراً وتسلم محراب الاسلام محرابه وأحبب لإفهلما النبی أصحابه وترغ المنبر لیرتغم الخطیم والنجر الدین بان کسار صلب عابد الیهب السلیب خلا لیه من أمر القدس باعادته الی قدسه وأخلأه من رجز الشریک وربحه واجلاء داوید واسبت ساره وبطركه وقسه وتغویضه من وحشة الضلال من الهدی بانسه ورد الاسلام الغریب الی بینه المقدس ونفی الکافره منه کاسف البال راغم المعطس ونصب المنبر للمعبد الاقصى لأقامة الخطبة الامامیه ورفع مرفع قدره من الاعلام العباسیه والاخراج عن محرابه بهدم مانی دونه من مبانی الشریک وكشف استار الکفره الی حجب الباطل والعتک وأقامه المجمع فیسه والجماعات وادامة أواراد العبادات بدو وظائف الطاعات وغسل الصخرة المقدسة بدم الکافر دمع المؤمن ونزع لباس بأس المسی عنهما بافاضة ثوب ثواب المحسن وتزید تلک الجنة من دنس أهل النار واعلاء ما کان درس من معالم الاررار ومطالع الانوار وقدرع الاسلام الغریب منه الی داره وخرج قر الهدی به من سراره وذهبت ظلم الضلالة بأنواره وعادت الارض المقدسة الی ما كانت موصوفة به من التقدیس وأمنت المخاوف فیها وبها فصار تب صباح السرى ومناخ التعریس وقد أقصی عن المعبد الاقصى الاقصون من الله الابدون وتوافد الیه المصطفون الاقربون والملائكة المقربون وخرس الناقوس بنزل المسبحین وخرج المفسدون بدخول المصلحین وقال المحراب لاهله مرحبا واهلاً وشمل جماعه الملمین من اقامة الجمعة والجماعة مابجمع للاسلام فیهم شلاً ورفع الاعلام العباسیه علی منبره فاخذت من بره أوفی نصیب وتلت بالسنة عذرها (تضرع من الله وفتح قریب) وغسلت الصخرة المبارکة بدموع المتقین من دنس المشرکس وبعد أهل الاحد من ترهباً قریب الموحدين فذكر بهما کادینسى من عهد المعراج النبوی وأقامت بدلائلها براهین الانجاز الحمیدی اعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الی تقدسه ورجع نبیانه من التقوی الی تأسیسه وزال ناموس ناقوسه وبذل نفس النصر قیاس قدسیه وفتح باب الرحمة لاهلها ودخلت فی الصخرة لفضلهما وباشرت الجیاء بهما مواضع سجودها وصاغت أیدی الاویاء أنار القدم النبویه تجدد عهدها وشهد مقام المعراج وموطئ برانه ورأى نورا لاسراء ومطلع إشرافه ودنا المسجد الاقصى للراکع والساجد وامتلأ ذلک الفضاء بالاتباع الاماجد) ومن کتاب فاضلی الی بغداد (تقلص ظل الکافر المسبوط وصدق الله اهل دینه فلما وقع الشرط وقع انشروط وجاء أمر الله وأنوف أهل الشریک راغمه وادبلت السیوف والاحال نائمه واسترد المسلمون ثانما کان عنهم أبقا وظفر واقضة بالمأیصدت والاهم یظفرون به طیفا علی النائم طارفا) ومنه فی وصف نقب السور (فاخلى السور من السیارة والحرب من النظارة وأمكن النقب ان یسفر للحرب النقب وان یعید الحجر الی سیرته من التراب فقد تم الی الصخر فخفض سرده بانیا بمعوله وحل عقده بصربة الاحراق الدال علی لطافة أمله واستمع الصخرة الشریفة حنینه فاستغاثه الی ان کادت ترق لمقتله وتبرأ بعض الحجارة من بعض وأخذ الخراب علیهم ما وثقال تنبرج الارض وثم استقرت علی الاعلی أقدامهم وخفتت علی الاقصى اعلامهم وتلاقت علی الصخرة قبلهم وشفت بها وان كانت صخرة کما شفی بالماء غلثهم وملك الاسلام خطة کان عهده بها دمنة سکان تخدعها الکفر الی ان صارت روضة جنان لاجرم ان الله أخرجهم منها وأهبطهم وارضی أهل الحق وأسخطهم وأوعز الخادم برdal الاقصى الی عهد المعهود وأقام لهم الاثمۃ من یوفیه ورده

في أخبار (١٠١) الدولتين

المورود وأقيمت الخطبة يوم الجمعة وأربع شعبان فكدت السعوات للجوم ينفطرن والكواكب منها للظرب ينتثرن ورفعن إلى الله كلمة التوحيد وكانت طريقها مسدودة وظهرت قبور الانبياء وكانت بالنجاسات مكدودة وأقيمت الحنس وكان التثليث بقعدها وجهرت الالسنه بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الاشراف من الميزن رجب به ترحيب من بر وخفق عمامه في حفافيه فلو طار سرور الطار بجناحيه وكان الخادم لا يسي سعيه الا لهدمه المقبة العظامي ولا يقاسي تلك البؤسى الا رجاء هذه النجى ولا يحارب من يستظله الا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هي العليا وليفوز بجوهر الاسخه لا بالعرض الادنى من الدنيا وكانت الالسنه ربحا لسلطته فاصح قلوبهم بالاكتفاء والاقتصار وكانت الخواطر ربحا لغلته عليه من اجلها فأطفاها بالاحتمال والاصطبار ومن طلب خطير خاطر ومن رام صفقة وافق حاسر ومن ساء لان تجلى غيرة غامر) ووصف فيه يوم حطين فقال (وكان اليوم مشهودا وكانت الملائكة له شهودا وكان الضلال صار خاوا وكان الاسلام مولودا وأسر الملك ويده أوثق وثاقه وأكد وصله بالدين وعلاقته وهو صليب الصليوت وقائد أهل الجبروت ماد هو أقط بأمر الاوامر بين دهماتهم يحترقهم ببسط لهم باعه وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه لاجرم انه يتهاقت على ناره فراشهم ويجمع في ظل ظلامه خستاشهم ويتنازلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال واصدده ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عقد وأوثق وبعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه ولم يفت منهم معروف الا القمص وكان لعنه الله جليسا يوم الذفر والقتال ومليثا يوم الخذلان بالاحتيال فجاوا كن كيف وطار خوفهم أن يلحقه منسر الرمح وجناح السيف ثم أخذ الله بعداً بام بيده وأهلكه اموعه وكان لعدتهم فذل ذلك وانتقل من ملك الموت الى مالك وبعد الكسرة من الخادم على البلاد فظواهرها بما يسر عليهم من الازياء السوداء صبغاً لبيضاء صنعائها الخافقة هي وتلويح أعضائها العالية هي وعزائم أوليائها)

(فصل)

قال العماد ومن قصائد التي دنا بها السلطان بفتح القدس وهو يخيم عليه
 أطيب بانفاس تطيب لكم نفسا * ونعتاض من ذكركم كوحشي أنسا
 وأسأل عنكم عافيات دوارس * غدت بلسان الحمال ناطقة خرسا
 معاهدكم ما بالها كهو دكم * وقد كرت من درس آثارها درسا
 وقد كان في حدسي لكم كل طارق * وما جئتم من هجركم خالف الحدسا
 أرى حسدنا الدهر ينسب حديثه * وأما حديث القدر منكم فلا ينسى
 نزول الجبال الراسيات وثابت * رسيس غرام في فؤادي لكم ارسى
 حسبت حبيبي قاسي القلب وحده * وقلب الذي هووى بهجلى الهوى أقسى
 أملككم يا مالكي الرق رقصة * يطيب بها ملوككم منكم نفسا
 وان سروري كنت أسمع حسه * فذسرت عنكم ما سمعت له حسا
 وان نهاري صار ليلا بعدكم * فما أبصرت عيني صباحا ولا ليلسا
 بكيت على مستودعات قلوبكم * كما قد بكت قديما على مخزها الخسا
 فلا تحبسوا عني الجيسل فانسى * جعلت على حبي أكم مهجتي حبسا
 رأيت صلاح الدين أفضل من هذا * وأشرف من أضفى وأكرم من أمسى
 وقيل لنا في الارض سبعة أبحر * ولست أرى الا انا ماله الخسا
 سبيته الحسنى وشيته الرضى * وبطشته الكبرى وعزمته القصى
 فلا عدمت أباه نامنه مشرفا * ينير بما يولى ليمالينا الدما
 جنودك املك السماء وظنهم * عداؤك جن الارض في القتل لا الانسا
 فلا يستحق القدس غيرك في الورى * فأنت الذي من دونهم فتح القدس
 ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا * فلا عدمت اخلاقك الطور والقدسا

كتاب (١٠٢) الروضتين

وطهـ ربه من رحمهم بلما نهم * فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجا
 نزع لباس الكفر عن قدر أرضهم * وألبسوا الدين الذي كشف اللبسا
 وعادت بيت الله أحكام دينه * فلا بطركا بقيت فيها ولا قسا
 وقد شاع في الاتفاق عنك بشاره * بأن أذان القدس قد بطل النقسا
 جرى بالذي تهوى القضاء وظاهرت * ملائكة الرحمن أجنادك الجسا
 وكم لبني أيوب عمد كعتر * فان ذكروا بالهاس لا يذكروا هسا
 وقد طاب ربنا على طبرية * فياطيها مغنى ويا حسن امرسى
 وعكوا وما عكوا قد كان فتحها * لاجلائهم عن مدن ساحلهم كنسا
 وصيدا وبيروت وتبين كلها * بسيفك الفى أنفه الرغم والتسا
 وباقا وارسوف وتبنى وغزة * تحذت بهابن الطلى والظلى عرسا
 وفي عقولان الكفر ذل يملككم * خنظره بل أمره اربذوا رجسا
 وصار بصور عصابة يرقبونكم * فلا تبطوا عنها وحسوهم حسا
 توكل على الله الذي لك أصبحت * كلاته درما وعصمته ترسا
 ودمر على الباقي واجتث أصلهم * فانك قد سيرت ديارهم فلسا
 ولأنس شرك الشرق غربك مرويا * بما الطلى من صادات الظلى الجسا
 وان بلاد الشرق مظلمة فخذ * خراسان والنهرين والنزك والفرسا
 وبعد الفرج الكرك فاقصد بلادهم * بعزمك واملأ من دماهم الرسا
 أقامت بغاب الساحلين جنودكم * وقد طردت عنه ذئابهم العسا
 وهى طوبى له وقد تقدم بعضها فى ذكر كسرة حطين والعماد بأضمان جله القصيدة التى مدح بها حسام الدين
 ابن لاجين وقد تقدم بعضها

قل لليلك صلاح الدين أكرم من * يمشى على الأرض أو من يركب الفرسا
 من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى * صورفان فتحت فاقصد طر ابلسا
 أترعى على يوم انطرسوس ذالج * وابعث الى ليل انطاكية العسا
 وأحل ساحل هذا الشام أجمعه * من العدة ومن فى دينه وكسا
 ولا تدع منهم نفسا ولا نقسا * فانهم يأخذون النفس والنفسا
 نزلت بالقدس فاستفتحته ومضى * تقصد طرابلس فانزل على قدسا
 ومن قصيدة أخرى له أنفذها الى الخليفة الناصر

أبشر بفتح أمير المؤمنين أنى * وصيته فى جميع الارض جواب
 ما كان يحظر فى بال تصوره * واستصعب الفتح لما أغلق الباب
 وخام عنه الملوك الا قدمون وقد * مضت على الناس من بلواه احقاب
 وجاء عصرك والايام مقبلة * فكان فيه لفيض الكفر انضاب
 نصر اجد صلاح الدين رونقه * ابعازه يبيع القبول اسهاب
 قرع الظلى بالظى فى الحرب بطربه * لا قينة صنع باللحن مطراب
 أحياهدى وأمات الشرك صارمه * لقد تجلى الهدى والشرك مخباب
 بفقه القدس للاسلام قد نحت * فى قمع طاغية الاشراك أبواب
 فى موافقة البيت المقدس لبيت الحرام لنا تيه وانجاب
 والصخر والجمر المثلوم جانيه * كلاهما لا عتار الخلق محراب

في اخبار (١٠٣) الدولتين

نفي من القدس صلحاً كما نفيت * من بيت مكة ازلام وانصاب
وكثر مدح الفضلاء السلطان عند فتح القدس وقد ذكر العباد من ذلك جلة في آخر كتاب البرق فرأيت تقديم
ما اخترته منها هنا وزدت عليه ما لم يذكره * فن ذلك قصيدة الحكيم أبي الفضل عبد المنعم بن عمر بن حسان الأندلسي
الجلياني منها

أبالمظفر أنت المجتبي لمهدي * أخرى الزمان على خب بخر بخرته
فلوراك وقد خزن العلي عمر * في قلعة انتسل قضى كنه عبرته
ولوراك وأهل القدس في وله * أبو عبيدة فدى من مسرته
غداة جزوا النواصي في قامته * وأعولوا بالتباكي حول صحرته
دارت بك المله الحسنى فحن على * عهد الصحابة في استمرار ملته
وأنت كاسمك صديق وصاحبه السلامك المظفر سام في مسرته
وفي الثلاثة عثمان يؤيده * عدلا على علي إثار نصرته
وكلميك ذوو قربي رقوا شرفاً * وكم بعيد رأى الزلفي بحجرته
شبهه الفتح مابين البراة لقي * ملك الفرنج أخبذ أبين عسرتة
أما رأيت معالي يوسف نسقت * حتى رمت كل ذي ملك بحسرتة
أخفى لنشر المهدي في فتح منهجه * وبات يطوى العدى في سد ثغرتة
واستقيم الرجس منواً بمشـهده * فاستفتح القدس محذواً بزمرته
لكن بأس صلاح الدين اذهلهم * لوقعة التل واستشر اسورته
يعي الجوارح والفرسان وهو على * بدء النشاط عسماً مثل بكرته
بافاق المسجد الأقصى على بهم * وقائن الجيش لا يحمي بقفرتة
أبشر بملك كظهر الشمس مطلع * على البسيطة فتاح بنشرتة
حتى يكون لهذا الدين لمحة * تحسكي النبوة في أيام فترته

قال وانفذ من مصر نجم الدين يوسف بن الحسين بن الجاور الوزير العزيزي قصيدة وعرضها على السلطان بالقدس
وفيهما ذكر الانكسار وقبح ياهاود ذكرها في آخر الكتاب فهما وسباني الباقي المختار أيضاً

الوقت أضيق من سماع قصيدة * موسومة لصفات أعيد أهيف
الجد في هذا الزمان مبين * والهزل فيه مع القواية مختلف
بالناصر المهدي والمهادي الى * سبل الجهاد أبي المظفر يوسف
المستعين ربه والوائق المنصور والمستطهر البر الوفي
شدت قوى أركان ملة أحمد * وتحملت بجهاده في الموقف
ملك اذا أم الملوكة جنابه * لاذوا باكرم من يؤم وأشرف
واذا أتوا أسرى الى أبوابه * وقفوا بأعظم من يصول وأراف
مولي غدا للدين أكرم والد * حذب على أبنائه متر فرف
عزل الفرنجة ثمولى جيشه * أعظم به من صارف وه صرف
قد أنصف التوحيد من تليثهم * وأقام في الانجيل حد المصحف
مسفرى : تخرج الرجال لانه * يروى أحاديث العوالي الزعف
ملك له في الحرب بمرتقه * وله غداة السلم زهد تصوف
وعليه أرل في الجهاد مفصل * فلذلك يقرأوه بمسبعة أحرف
عزم وحلم انصيا ما كان من * عزم ابن مرداس وحلم الاخنف

كتاب (١٠٤) الروضتين

يأبى الملك الذى لعابا عساه * وسيوفه خلقا رضى وتعسف
 لله يوم عـروبة اذا عربت * ساعاته عن نصرته المتعرف
 صفت سيفك فى الرؤس ختانة * ذهبت بمهجة كل عالج ألقف
 آفاتهم واقت باخذك منهم * يا فافكم من حسرة وتأسف
 أو مارأى الاعلاج حين دعوتها * بلسان سيف فى الكربة ملحف
 لم تستطع عصيان أمرك بل أنت * منقاد طوعا ولم تخلف
 فاستدع جارتها وثن باختها * وكذلك حتى الاربعين ونيف
 مالى سوا حل غير يحرك حافظ * بشبانان أو بصنحة مرهف
 هذا الطراز الاخضر استفتحته * فزهى بثوب من علاك مصحف
 أحييت دين محمد وأقتته * وسترته من بعد طول تكسيف
 وضبطت ديوان الجهاد بعامل * من عامل وشرف من مشرف
 ويجهض العزم الذى لا ينثنى * وبناظر الرأى الذى لم يطف
 نخذ الخراج من البسيطة كلها * واستأد فردى جزية وموظف
 واقبض على الدنيا بكف زهادة * وابسط لرحمتها جناح تعطف
 جاءت جنود الله تطلب نارها * وصنورها بل عن نايل تشفى
 فانهض بها وتفاض حقلنا * ان الاله بما تؤمله حنى
 هم فتية الانراك كل مجحف * بغشى الكربة فرق كل مجحف
 قوم يخوضون الحمام بجاعة * لا ينظرون اليه من طرف خفى
 ان صبوا الاعداء فى اوطانهم * تركوا ديارهم كقاع صفصف
 أنت اصطفتهم سم لـ نصره ديننا * لله در المصطفى والمصطفى

قلت وذكر بقوله (هذا الطراز الاخضر استفتحته) حكاية حسنة لاثقة بالحال حدثني بها شيخنا أبو الحسن على بن محمد السخاوى قال قرأت بخط شيخنا أبى الفضائل بن رشيد بمصر عقيب موته فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة قال رأى انسان كأن شخصاد اجهامة واقفا على حائط بمجامع دمشق يسمى النسر وهو يقول

ملك الصامى والصوامى ناصر * للدين بعدا باسمه ان ينصرا
 وسيفخ البيت المقدس بعدما * يذوى الطراز له ويقتل قيصرنا

قلت وهذا قبل ان يفتح صلاح الدين البلاد عشر سنين وقرأت بخط بعض أصحابنا قال وجدت على حاشية كتاب يروى عن خطيب كان بالرقعة انه رأى من ينشده هذا الشعر فى النوم سنة احدى وثلاثين وخمسمائة فذكر البيتين وهذا قبل الفتح باثنتين وخمسين سنة وقبل مولد صلاح الدين بسنة والمخفى بالطرراز الاخضر بلاد الساحل المصطفة على بلاد البحر من الداروم وغزة وعسقلان وعكا وصيدا وبيروت وجبيل وغير ذلك ولم يبق من انداز فى أثناء ذلك سوى دور بين صيدا وعكا وهكذا كن الامر على ما سبق بيانه فتح هذا الطراز أولا ثم فتح البيت المقدس وكنى بقيصر عن البرنس الذى قلبه بيده لانه كان من رؤس الكفر ومالوهم وغلاتهم فى معاداة الاسلام والله أعلم قال العماد وكان خرا السكاب أبو على الحسن بن على الجوينى المقيم بمصر من أهل بغداد ينفذ الى قصاده لاعرضها فرأيت ان أثبت له هذه القصيدة فى الفتح وهى مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهلهم له تسعين عاما حتى تجرد له سلطانا فذكرها منها

جند العماء لهذا الملك أعوان * من شاك فقيم فهذا الفخ برهان
 متى رأى الناس ما نكبه فى زمن * وقدمضت قبل أزمان وأزمان
 هذا الفخوخ فتوح الانبياء وما * له سوى الشكر بالافعال اثمان

في اخبار (١٠٥) الدولتين

أخضت ملوك الفرنج الصيد في ده * صيدا وماضعوا بيما وماها نوا
 كم من فحول ملوك خودروا وهم * خوف الفرنجة ولدان ونسوان
 استصرخت بملك شاه طرابلس * نخام عنها وجمت منه آذان
 هذا وكم ملك من بعده نظر الاسـ * لام يطوى ويحوى وهو سكران
 تسعون عاما بلاد الله تضرخ والـ * لاسلام انصاره صم وعيان
 فالآن لبي صلاح الدين دعوتهم * بأمر من هوللعوان معوان
 للناصر اذ خرت هذى الفتوح وما * سمت لها هم الاملاك مذ كانوا
 حباها والعرش بالنصر العز رفقا * لانساس داود هذا أم سليمان
 في نصف شهر غدا للشرك مصدا لما * قطهرت منه اقطار وبلدان
 فابن مسلمة عنها واخوته * بل أبى والدهم بل أبى مروان
 وعد عباسوا فالفرنجة لم * يدهم من ملوك الارض انسان
 لو ان ذا الفتح في عصر النبي لقد * نزلت فيه آيات وقمران
 باقح أوجه عباد الصليب وقد * غداير قعها شوم ونخذلان
 خزنت عند إله العرش سائر ما * ملكته وملوك الارض خزان
 فآله يقيقك للاسلام تحرسه * من ان يضام ويلقى وهو حيران
 وهذه سنة أكرم بها سنة * فالكفر في سنة والنصر يقظان
 باجاء كلالة الايمان قام مع من * معبوده دون رب العرش صليان
 اذا طوى الله ديوان العباد فما * يطوى لاجر صلاح الدين ديوان

والله يعرف النسابة المصري محمد بن أسعد بن علي بن ممر الحلي المعروف بالجوواني تقيب الاشراف بالديار المصرية
 من قصيدة

أرى مناما ما يعينى أبصر * القدس يفتح والفرنجة تكسر
 وقامة قت من الرجز الذي * بزواله وزوالها يتطهر
 ومليكهم في القيد مصفود ولم * يقبل ذلك لهم مليك يؤسر
 قد جاء نصر الله والفتح الذي * وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
 فتح الشام وطهر القدس الذي * هو في القيامة للانام المحشر
 من كان هذا فتحه لمجد * ماذا يقال له وماذا ذكر
 يا يوسف الصديق أنت لفتحها * فاروقها عمر الامام الاظهر
 ولانت عثمان الشريعة بعده * ولانت في نصر النبوة حيدر
 ملك غدا الاسلام من محببه * يمتلئ والدينا به يتختر
 نثر ونظم طعنه وضربه * فالمرح بنظام والمهمدينثر
 حيث الرقاب خواضع حيث العيو * ن خواضع حيث الجباه تعفر
 غاراته جمع فان خطبت له * فيها السيوف فكل هام منير
 اذ لا ترى الاطلا بسـ نايك * تحذى نعالا أو دماء تهدر
 وصوافنا تختار ان تقا الثرى * فيصدها عنه طلى وسنور
 تمشى على جيش العدا عرجا ولا * عرجها الكفها تتعسر

وقال أبو الحسين بن جبير الاندلسي

أطلت على أفقك الزاهر * سعد من الفلك الدائر

كتاب (١٠٦) الروضتين

- فابشر فان رقاب العدا * تمتد الى سيفك البازر
وكم لك من فتنة فيهم * حكمت ففكة الاسد الحادر
كسرت صلبهم عنوة * فلهه درك من كاسر
وغسرت آناهم كماها * فليس لها الدهر من جابر
وأمنيت جندك في غزوهم * فتعسا لجندهم العاثر
وأدبر ملعكهم بالشأ * مودى كأمهم الدابر
جنودك بالرعب منصوره * فناجز متى شئت أوصابر
فكلهم غمرق هالك * بتيار عسكر الزائر
نأرت لدين الهدى في العدا * فأترك الله من نائر
وقت بنصر إله الورى * فسمالك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهدا صابرا * فلهه أجرك من صابر
نبئت الملوكة على فرشهم * وزرقل في الزرد السابر
وتوثر جاهد عيش الجها * دعلى طيب عيشهم الناصر
وتسهر ليلك في حق من * سبرضيك في جفك اللهاهر
ففتحت المقدس من أرضه * فعدت الى وصفها الظاهر
وجئت الى قدسه المرتضى * فخلصته من يد الكافر
واعليت فيه منار الهدى * وأحييت من رسمه الدائر
لكم ذخرا لله هذا العسر * ح من الزمن الاول القابر
وخصك من بعد فاروقه * بها الاصطناعك في الآخر
محبتهكم ألقيت في النفوس * س بذكر لكم في الورى طائر
فكم لهم عند ذكر الملو * ك لملك من مثل سائر
- وباقى القصيدة تقدم في أخبار سنة أربع وسبعين وقال أبو الحسن علي بن محمد الماعاني
- أعيانا وقد عاينتم الآية العظمى * لاية حال نذر انشتر والنظم
وقد ساغ فيم القدس في كل منطق * وشاع الى ان اسمع الاسل الصما
حبامكة الحسنى وثنى بسرب * وأطرب ذبالك الضرب وماضما
فليت فتي الخطاب شاهد فتحها * فبينه ان السيف من يوسف ادعى
وما كان الا اللهاء أعيادواؤه * وغير الحسام العضب لا يحسن الحمما
وأصبح تغمر الدين جندلان باسمها * والسنة الاغمد توسعه لها
سلاوا الساحل الخفى عن سطرانه * فما كان الا ساحلا صادف اليا
- وله من قصيدة أخرى في السلطان
- عصفت به رمح الخطوب زعازعا * فلقين طود الانخسف امانه
هو منقذ البيت المقدس بعدما * طالت فما وجد الشفاء شكاته
بيت نأس بالسكون وانما * عند الزحف تحركت سكاته
أشمت الاعداء وهي حيافل * عن شمل دين جمعت اشتاته
أوتيت عزما في الحر وبمسددا * لازيغه بخشى ولا هفوانه
أحسن باليت العتيق ويثرب * ولك الفعال كثيرة حسناته
هذى سيفوك محرمات دونه * لبكائن تبسمت بحجرانه

وله من قصيدته أخرى

هو الفاتح البيت المقدس بعدما * تحامته سادات الدنيا ومسودها
فضيلة فتح مكان ثاني خليفة * من القوم مبدئيا وأنت معيدها
وله من قصيدته في بعض أبواب السلطان
الست من القوم الاولى بسيرة فهم * ثنوا حضرة البيت المقدس معجبا
والحمد للكاتب من قصيدة مدح بها الملك الأفضل
والقدس اعضل دائره من قبلكم * فوفيتهم بشفاء ذاك المعضل
دريج الملوكة على تمنى فتحه * زمنا وغلتم به لم تبل
وأنى زمانكم فامكن آخرا * ماقدتته ذرى الزمان الاول
ما كان قط ولا يكون كفتحكم * للقدس في الماضي ولا المستقبل
أوجدتم منه الذي عدم الورى * وقطعت في الفتح ما لم يفعل
أيدي الملوكة تفاصرت عن مخفر * طمته به قبلوا لبعض الانسل
أحييتهم شرع الكرام ولم يزل * نصر الحق بكم وقهر المبطل
وله من قصيدته في مدح الملك المؤيد

وكم لبني صلاح الدين فينا * على الاسلام من حق تأكد
وان لهم على الاملاك طرا * بفتح القدس فضلا ليس بمجد
وله من أخرى في مدح الملك الناصر غازي

هم الملوكة ذو وبأس ومكرمة * ان سالموا امنوا وواروا خيفوا
أغناهم القدس عن قول الورى ففتح * عكا وصيدا وبيروت وارسوف
جيش الفرنج اذا لاقى سوابقهم * كأنه جبل بالرّيح منسوف
وترأت على شيخنا أبي الحسن على بن محمد الهادي رحمه الله من جملة قصيدة مدح بها بعض ولد السلطان أظنه الملك
الحسن ظهير الدين أحمد بن صلاح الدين رحمه الله

ملك به وأبى به يفخر العلاء * وينوق فخرها السها والفرقد
ما يوسس صف من يقاس بهائم * أذى وقدوة بالمصون واصفدا
اولن يقال كأنه يوم الوغى * والروع كلاسده المصور اذا عدا
أومن يشهد به جوده بغمامة * أو من يقال انسله عر الردى
بل مالك الدنيا وما إلى رحبها * خيلا ورجلا ناصر دين الهدى
ومخلص البيت المقدس بعدما * رفع الصليب على ذراه ومجدا
ومن الملوكة الصيد يلقيهم اذا * رفع السراذق راكعين وسجدا
وبه أنى البيت الحرام وفوده * من كل فج أثنين المسردا
من بعد ما درست معالم سبله * دهر او عزت فوفها ان بتصد

(فصل) في صفة إقامة الجمعة بالاقصى شرفه الله تعالى في رابع شعبان ثامن يوم الفتح وقدهم محمد بن
القدس في تاريخه فيما قرأ بخطه فانه قال فتح صلاح الدين بيت المقدس وخطب على المنبر فيه بنفسه وصلى فيه
ولبس خلعة سوداء ولم يكن السلطان هو الذي بشر الخطبة على ما سنذكره وقد تقدم ان يوم الفتح وان كان يوم الجمعة
الان الوقت ضاق عن إقامة فرض صلاة الجمعة فيه قال العلامة تاسم السلطان القدس أمر بانظار المحراب وكان
الداوية قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه للقلع هربا وتميل كانوا اتخذوه مستراحا عداونا وبغيا وكانوا قد بنوا من
غربي القبلة دارا واسعة وكنيسة رفيعة فأوعز بكشف ذلك الحجاب وكشف النقاب عن عروس المحراب وهم

كتاب (١٠٨) الروضين

ما قد دامه من الانبياء وتنظيف ما حوله من الافنية بحيث يجتمع الناس للجمعة في العرصة المتسعة ونصب المنبر واطهر المحراب المظهر ونقض ما أحدثوه من السورى وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبورى وعلقت القناديل ونلى التنزيل فوحى الحق وبطلت الاباطيل وتولى الرفان وعزل الانجيل وصفت المجدبات وصفت العبادات واقامت الصلوات وأديمت الدعوات وتجلت البركات ونجلت الكربات ونجيات الضيائات واثابت الهدايات وتليت الآيات وأعليت الرايات ونطق الاذان وخرس الناقوس وحضر المؤمنون وغاب القسوس وزال العبوس والبوس وطابت الانفاس والنفوس وأقبلت السعادات وأدبرت النحوس وعاد الايمان القريب منه الى موطنه وطلب الفضل من معدنه وورد القراءه وقرأوا الاوراد واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد وعبد الواحد ووجد العايد وتوافدوا الى الكرم والساجد والناشع والواجد والزاهى والزاهد والحاكم والشاهد والجاهد والمجاهد والقائم والناقد والمتجهد والساهد والزائر والوافد وصدر المنبر وصعد المنذر وانبث المعشر وذكر البعث والمحشر واملى الحفاظ وابكى الوعاظ وتذاكر العلماء وتماظر الفقهاء وتحدثت الرواه وروى المحدثون وتحنف الهداه وهدى المتحنفون واخلص الداعون ودعا المحلصون وأخذ بالعزيمة المترخصون ولخص المفسرون وفسر المحصون وانتدى النضلاء وانتدب الخطباء وكثر المترشعون للخطابه المتوشحون بالاصابه المعروفون بالفصاحه الموصوفون بالحصافه خافهم الامن خطب الزينه ورتب الخطبه واستأعنى شائقا ووشى لفظا رائقا وسوى كلاما باموضع لا تقا وروى مبتكران البلاغ فائقا وفهم من عرض على خطبته وطلب منى نصيبته ونغنى ان ترج فضيلته وتحيم وسيلته وتسبى بمنيته فيها امنته وكلهم طال الى الانتهاء بها عنقه وسال من الالتباب عليها عرقه وما منهم الا من يناعب ويتقرب ويتوسل ويتقرب وفهم من يتعرض ويتضرع ويتشوق ويتشفع وكل قد لبس وقاره وقر لباسه وضرب فى انجاسه اسداسه ورفع لهذه الرياسه راسه والسلطان لايعين ولا يرين ولا يخلص ولا ينص ومنهم من يقول لىتنى خطبتي فى الجمعة الاولى وفرت باليد الطولى واذا نظرت بضالع سعدى فأبالى بمن خطب بعدى فنادى يوم الجمعة رابع شعبان أصبح الناس يسألون فى تعيين الخطيب السلطان وامتلأ الجامع واحتفلت المجامع وتوجست الابصار والمسامع وفاضت لفة القلوب المدامع وراعت لجليه تلك الحسالة وبها تلك الجمجمة الرائع وغصت بالسابقين اليها المواضع وتوسمت العيون وتقسمت الظنون وقال الناس هذا يوم كريم وفضل عظيم وموسم عظيم هذا يوم فجاب فيه الدعوات ونصب البركات وتسال العبريات وتقال العثرات ويتقطف الغافلون ويتعطف السامعون وطوى من عاش حتى حضر هذا اليوم الذى فيه انتعش الاسلام وانتاش وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة والعصبة الطاهرة والامة الظاهرة وما أكرم هذه النصره الاصريه والاسرة الاماميه والدولة العباسيه والمملكة الايوبيه والدولة الصلاحيه وهل فى بلد الاسلام أشرف من هذه الجماعة التى شرفها الله بالتوفيق لهذه الطاعة وتكلموا فمن يخطب وليس يكون المنصب وتفاوضوا فى التوفيز وتحدثوا بالتصريح والتعريض والاعلام وتعالى والمنبر يكسى ويحلى والاصوات ترتفع والجماعات تجتمع والافواج تزدهم والامواج تلتطم والعارفين من الضجيع ما فى عرفات للجيح حتى حان الزوال وزال الاعتدال وحمل الداعي وانجل الساعى فنصب السلطان الخطيب بنصه وابان عن اختياره بعد خصه وأوعز الى القاضى محمى الدين أبى المعالى محمد بن زكى الدين على القرشى بان يرقى ذلك المرقى وترك جباء النبايق بتقديمه عرفى فاعترته من عندى أهبة سوداء من تشريف الخلافة حتى بكل له شرف الافاضة والاضافه فرقى العود ولقى السعود واهتزب اعطاف المنبر واعتزت أطراف المعشر وخطب وانصتوا ونطق وسكتوا واقمعوا وعربوا وابعوا وغربوا وعجبوا وأعجزوا منهم ووعظ فى خطبته وخطب بموعظتيه وابان عن فضل البيت المقدس وتقديسه والمشهد الاقصى من أول تأسيسه ونظيره بعد تخييعه واخراس ناقوسه واخراج قصده ودعا الخليفة والسلطان وختم بقوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان ونزل وصلى فى المحراب واقتحم بسم الله الرحمن الرحيم من أم الكتاب فأمر بتلك الامه وتم ترول رجه وكل وصول النعمه وما نصبت الصلاة انتشر الناس واشتهر الايناس وانعدد الاجماع واطرد القياس وكان قد

في اخبار (١٠٩) الدولتين

نصب للوعظ تجاه القبلة سرير ليفرعه كبير جلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا فذكر من خاف ومن رجا ومن سعد ومن شقي ومن هلك ومن نجا وخوف بذى الحجة ذوى الحجا وجلاب نور عظاته من ظلم الشبهات مادبا وأى بكل عظمة للراقد من موقظه وتلقاها من موقظه ولاولياء الله مرقفة ولاعداء الله مغلظه وضع المتبا كون وعج المتشا كون ورقت القلوب وخفت الكروب وتضاعدت النعرات وتحدرت العبرات وتاب المذنبون وأتاب المتخوون وصاح المتناوون وناح الاوابون وجزت حالات جلّت وجلوات حلت ودعوات علت وضراعات قبلت وفرض من الولايه الالهيه انترز وحصص من العناية الربانيه أحرزت وصلى السلطان في قبسة الصخره والصفوف على سعة المحس بهامته له والامه الى الله بدوام نصره مبتهله والوجوه الموجهة الى القبلة عليه مقبله والايدى الى الله مرفوعة والدعوات له مسموعة ثم رتب في المسجد الأقصى خطيبا استقرت خطبته واستقرت نصيبته قلت هذه الفاظ العباد في هذا الفصل من كتاب الفتح وذكره في كتاب البرق بعبارة أخرى تشمل على فوائد زائده وفي تكرار ما تقدم أيضا بغير تلك العبارة فأراه فانها معان جديدة كلما ذكرت جلّت وكلمات ذكرت حلت

(فصل) قال العباد في كتاب البرق لما كان يوم الجمعة البالية للجمعة الفتح تقدم السلطان في المسجد الأقصى يبسط العرائس واخلائها لادل الاخلاص وتذقيةها من الانداس وكس ما في ارجائها من الارجاس وقد كان سبق أمر من مبدأ الامر بهدم ما هناك من أبنية الكفر وابرار الحراب القديم وأعاد موضعه الى الوضع الكريم فقد كان الداوية بنواغر بيه دارا وادخلوه فيها وخلطوه بجانيتها واتخذوا منه جانبا مستراحا لالاعل وجانبها هر بالغلل فأمر في العاجل يكف فداعه ورفع الوضيع من أوضاعه ونقل ما وقع من اقتضائه ونقض ما اعتور ذلك الجوهر النفيس من اعراضه حتى ظهر موضع المنابر والحراب واستظهر بالامانة قدمه من الحجاب واجتمع الخلق في ذلك اليوم على نرى ذلك الهدم الجموع وتعاونوا وتعاضوا حتى كشفوه ونفذوه وروسوه وفرشوه وكان قد أمر بانحاض منبري تلك الايام بنجره ووركه ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العليل مزاحه والهم مزاحه والخواطر الى ورد هامة من تاحه وهذا فضلا ببقاء وعباء أتقيا وكل منهم قد سبق بخطبة الخطبه وامل الفوز بفضيلة تلك الرتبة وأعد لذلك المقام مقالا ونسط بشقفة فصاحتهم من قرقم حصافته عقالا حتى اذا جعل الداعي وتعين الفرض على الساعى حضر السلطان صلاة قبلة الصخره بادية على أساره أسرار سروره بالاسره وامتلأت تلك العرائس والصفون واستعبر للفرح بما يسره الله العيون وأن لدن الله ان تقضى له الديون وتلك الزهون ووجلت القلوب وخشعت الاصوات وحسنت الظنون وعين السلطان القاضي محي الدين أبا المعالي محمد بن علي القرشي الزكي كن الركن للصلاة والخطبة وفرع تلك الرتبة فصعد وسعد وحسد وأحمد وأدت المعاني الثمر بقة الفاظه ونبه الافاض والاداني ابقاظه وجلال المسمع وحب الدامع وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوجه المشرع والنهج المتبوع والشروط الموضوع وذكر في الفتح البكر ما اقتض به ايكارا لاستعازات بآيدع البراعات واربع العبارات وصدق بالصدق وتفق بالحق وفاز بالسبق وحاز الفضيلة على فضلاء الغرب والشرق فهو لنشر المعاني أضخم خطيب له ببشر المعالي اصنع طيب فابن قس في عكاظه من قياس الفاظه وأين سحبان من سحباته وأين ابن نبانة من نياته ولوح شالاقته الى نقره واحتقرا اعراضه ما عند جوهرة ودعا لأمير المؤمنين ثم سلطان المسلمين ونزل وقام اماما أكمل بصلاته الفرض وأرضى بعمت دعواته والطمانينة في ركعاته وسجدة أهل السماء والارض وسر السلطان بنصبه ورفع وامتلاء صدره حيو امته بجلاء بصره وسعته فقد أخذت بالابصار اشعة أنوار الخطبة في سواد الابهة وعظمت أخطار المهابة في خواطر المحبة وكرمت سائر الرظي الى الله والقربه ثم رتب السلطان بعده خطيبا يستمر اقامته للجمع والجماعات وتسفر ملازمته لاداء الصلوات ولما قضيت الصلاة تلك الجمعة نصب سرير للوعظ انق تلك الامة للجمعة وتقدم السلطان الى زين الدين الواعظ ليفرع السرير وينفع بعظاته الصغير والكبير وحضر المجلس برأى منه ومسمع فكان أن أنزج مجلسه ومجلى وأسرف جمع وجمع لحقق ورقق وأشهدوا شفق وخلق بعبارة الخلو العبرات وشار العسل بمسول الاشارات وبشر البشر بشاره البشارات وذكر الفتح وبكراته والقدس وطهارته والدين وجسارته والكفر ونسارته والقدر وعاتته والظفر وباتته

والصخرة واصرارها والروعة واغرارها والنار ومراطها والقمامة واثر اطها والرجة وباها من باب الرحمة والجنة وتوجنها هذه الامه وما أعدده الله لهذا الطائفة وما أتزله من الامن على القلوب الحائقة ووصف بلاغته ما لا يبلغ اليه نطق الالسنه انواصفه ووصف الجهاد وفرائضه وقضائيه والخير ولائله والنهج ووسائله والشرع ومسائله والذنب وغوائله واحسان السلطان وفراصله والبحر وساحله والدين وحقه والكفر وباطله وكان يوم اراجها وسوم اراجها

(فصل) في ايراد ما خطب به القاضى محيى الدين رحمه الله قال العماد وخطب القاضى محيى الدين بن زكى الدين اربع خطب في اربع جمع كلها من انشائه وأودعها سر بلاغة عنيت بافشائه وذكرت الخطبة الاولى وبدا النصاحه فيها طولى افتتحها بهذه الايات

«فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا الا به الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الارض والحمد لله فاطر السموات والارض»

والخطبة هي

«الحمد لله معز الاسلام بنصره ومذل الشرك بقهره ومصرف الامور بامره ومديم النعم بشكره ومستند درج الكافرين بمكره الذى قدر الايام ودلا بعبدله وجعل العاقبة للتيقن بفضلله وافاء وعلى عباده من ظلمله وأظهر دينه على الدين كله القاهرة فوق عباده فلا يمانع والظاهر على خليفته»

«فلا ينازع والا مريم بما يشاء فلا يرجع والحاكم بما يريد فلا يدفع أحسده على اظفاره واطهاره واعزازه لا وليائه ونصره لانصاره وتطهيره بيته المقدس من ادناس الشرك وأوصاره حدم استشر الحمد واطن سره وظاهر جهاره وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد شهادة من طهر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله ورافع الشك وداحض الشرك وراضى الافك الذى أسرى به من المسجد الحرام الى هذا المسجد الاقصى»

«وعرج به منه الى السموات العلى الى سدره المنتهى عندها حنة المأوى اديغشى السدره ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى صلى الله عليه وعلى خليفته أبى بكر الصديق السابق الى الايمان وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان وعلى أمير المؤمنين عثمان ذى النورين جامع القرآن وعلى أمير المؤمنين وعلى بن أبى طالب منزل الشوك ومكسر الاوثان وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان أمها الناس وأبشر وارضوان الله الذى هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الامه الضالة وردّها الى مقرها من الاسلام بعد ابتذالها فى أيدي المشركين قريبا من مائة عام وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع وان يذكر فيه اسمه واماطة الشرك عن طرفة بعد ان امتد عليها روائه واستمر فيهم اسمه ورفع قواعده بالتوحيد فانه نبى عليه وبالتقوى فانه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه فهو موطن أيكم ابراهيم ومعرّج نبيكم محمد عليه السلام وقبلتكم التى كنتم تفصلون اليها فى ابتداء الاسلام وهو مقر الانبياء ومقعد الاولياء ومقر الرسل ومهبط الوحي ومنزل تنزل الامر والهنى وهو فى أرض الحشر وصعيد المنشر وهو فى الارض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين وهو المسجد الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين وهو البلد الذى بعث الله اليه عبده ورسوله وكلمته التى ألقاها الى مريم وروحه عيسى الذى شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته ولم يزخه عن رتبة عبوديته فقال تعالى لن يستكف المسبح ان يكون عبدا لله وقال لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم وهو أول القبلتين وثانى المسجدين وثالث الحرمين لا تشده الزجالة بعد المسجدين الا اليه ولا تمتقد الحناصر بعد الموطنين الا عليه ولولا انكم من اختاره الله من عباده وواصلناه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يحجاركم فيها بحجار ولا يباريكم فى شرفها بما يباريكم فى سطوتها

ومن جيش ظهرت على أيديكم المجزأت النبوية والوقعات البدرية والعزيمات الصديقية والفتوح العربية والجيوش العثمانية والفتكات العلوية جددتم للإسلام أيام القادسية والوقعات اليرموكية والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية بخاركم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء وشكركم ما بذلتموه من مهكم وفي مقارعة الأعداء وتقبل منكم ما قربتم به إليه من مهوراق الدماء وأتابك الجنة فهي دار السعادة فأقروا رجكم والله هذه النعمة حق قدرها وقوموا لله تعالى بواجب شكرها فله النعمة عليكم تخصصكم بهذه النعمة وترشيحكم ولهذه الخدمة فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السموات وتبليحت بأزواره وجوه النظماء وابتسج به الملائكة المرسلون وقر به عينا الأنبياء والمرسلون فإذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عاياه البيت المقدس في آخر الزمان والجنود الذي تقوم بسيرهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان فيوشك أن تكون النهاية به بين أهل الحضراء أكثر من النهاية به بين أهل القبراء اليس هو البيت الذي ذكره الله في كابه ونص عليه في خطابه وقال تعالى سبحان الذي أسرى بعبداً لبمن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله الآية اليس هو البيت الذي عظمتها الملوك وأئنت عليه الرسل وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الهكم عز وجل اليس هو البيت الذي أسسك الله عز وجل الشمس على يوشع لاجله أن تقرب وباعدين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه بإسناد قاده فلم يجبه إلا جلاله وغضب عليهم لاجله فالقاهم في التوبة وعقوبة العصيان فأحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنو إسرائيل وقد فضلهم على العالمين ووفقهكم لما خئل وفيه من كان قبلكم من الأمم الماضية وجعل لاجله لكم كنشقي وأغنامكم ما مضته كان وقد عن سوف وحتى فظلمكم إن الله قد كرمكم به فبم عنده وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لاهوتكم جنداً وشرككم الملائكة المنزلون وعلى ما أهديتكم إلى هذا البيت من طيب التوسيد ونشر التقديس والتحميد وما أعطتم عن طريقهم فبهم من أدى والشرك والتسليم والاعتقاد الفاجر الخبيث فالآن يستغفر لكم أملاك السموات وتصلى عليكم الصلوات المباركات فاحفظوا رجكم الله هذه الموهبة فيكم وأحرسوا هذه النعمة عندهم بنقوى الله التي من تمسك بها سلم ومن اعتمى بعروته المخاو عصم واحذروا من اتباع الهوى وموافقة الردى ورجوع القهقري والنكول عن العدا وخذوا في اتهاز الفرصه وإن الله ما بقي من نفسه وجهاد وفي الله حق جهاده ويسعوا عباد الله أنفسهم في رضاه وأجعلكم من خير عبادوا وإيا أن يستزلكم الشيطان وأن ينداخلكم الطغيان فيخيل لكم أن هذا النصر وبسوفكم الحداد ويحولكم الجياد ويجلادكم في مواطن الجلال لا والله ما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم واحذروا عباد الله بعد أن سرفكم بهذا الفتح الجليل والمنج الجليل وخصكم بهذا الفتح المبين وأعلق وأيدكم بحبله المتين أن تقتروا كبراً من مناهيه وأن تأتوا عظيمات من معاصيه فتكفروا كالتى تقضت غزوها من بعد قوة أنكانا والذي آتيناها آتيناها فأنسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين والجهاد الجاهد فومن وأفضل عباداتكم وأشرف عباداتكم أنصروا الله ينصركم وأذكركم وأيام الله يذكركم شكر الله والله يزدكم ويشركم جدوا في حسم الداء وقطع شاقة الأعداء وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله وأقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله فقد نادت الأيام بالازات الإسلامية والملة المحمدية الله أكبر ففتح الله ونصر غلب والله وفهر أنزل الله من كفر وأعلموا رجكم الله أن هذه فرصة فاتمروا بها وفرصة فأنجزوها ومهمة فأنجزوها الله بهمكم وأبرزوها وسيروا البها عزما تكم وجوزوها فالأمور باوآخرها والمكاسب بذخاؤها فقد أظفركم الله بهذا العدو والمخذول وهم مثلكم أو يزيدون فكيف وقد أغشى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون وقد قال الله تعالى وإن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين إنا أنزلنا الله وإياكم على اتباع أوامره والأزديار بزواجه وأيدنا مشرك المسلمين بنصر من عنده إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده

وقام الخطبة الثانية قريباً من مجازت به العادة وقال بعد الدعاء للخلق

واللهم وأدم سلطاننا عبدك الخاضع لهيئتك الشاكر لتعمتك المعترف بجهيتك سيفك القاطع وشهابك الالامع والحامى عن دينك المدافع والذاب عن حرمك المانع السيد الاجل الملك الناصر جامع كلمة الإيمان وقامع

وعبد الصليبان صلاح الدين والسلطان الاسلام والمسلمين مطهر البيت المقدس أبا المظفر يوسف بن
أيوب محيي دولة أمير المؤمنين اللهم عم بدولته البسيطة واجعل ملائكتك رايته مجيئة وأحسن عن الدين
والحنفي جزاءه واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاه اللهم أبق الاسلام مهجته ووفى للايمان حوزته وانصره
وفي المغرب والمشرق دعوته اللهم فكما فقت على بده البيت المقدس بعد ان ظنت الظنون وابنتى المؤمنين
وفاقع على يده ادا فى الارض وأقاصيا وملكه صياصى الكفرة ونواصيا فلاقاه منهم كتيسة الامرة هاء
ولاجاعة الافرقها ولا طائفة بعد طائفة الألفها من سبقها اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم اسمه
وأنتفى المشرق والمغرب أمره ونبيه اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها وارجاء الممالك وكافها اللهم ذل
وبه معاطس الكفار وأرغم به أنوف التجار وانشر ذواب ملكه على الامصار وأنب سرا يا جنوده فى سبل الاقطار
واللهم ثبت الملك فيه وفى عقبه الى يوم الدين واحفظه فى بنيه وبنى أيوب المولوك الميامين واشدد عضده ببقائهم
واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم اللهم كما أجريت على يده فى الاسلام هذه الحسنة التى تبقى على الايام وتخلد
وعلى مر الشهور والاعوام فازرقة الملك الايدى الذى لا ينفذ فى دار المتقين واجب دعاءه فى قوله رب أوزعنى
وأن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين
ثم ما جرت العادة به

(فصل) فى المنبر قال العماد لما افتحنه المقدس أمر بتعمير المحراب وترجيحه وتكميل حسنه وتقيمه ووضع
منبر رسمى فى أول يوم قضى به الفرض واحتج بعد ذلك الى منبر حسن رائق بحسنة لائق وبجالة شائق وبكمله
فائق فذكر السلطان المنبر الذى أنشاه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله لبيت المقدس قبل فتحه
بنيف وعشرين سنه وأودعه لمن ذخاؤه عند الله حسنه فامر ان يكتب الى حلب ويطلب فحمل وعمل على
ما أمر به وامثل فجاء كالروض النضير والوسى الحبير عديم النظير وكان من حديث احدا انه ما لهم الله نور الدين
رحمه الله لا تباح خاطره اليه وانبعائه وقد أوقع فى روعه من النور الفائق من ينبوع ضلوعه ان البيت المقدس
بعده سيفتح وان صدور المسلمين المارحة لاجله ستسرح وهم أولياء الله الملهمين وعباده المحدثين المكرمين
وكان يجلب تجار يعرف بالاختربنى من ضيعة تعرف باحثين لم يلف فى براعته وصنعتهم قرين فامر نور الدين
بعمل منبر لبيت الله المقدس وقال له اجتردار تانى يدعى النعت المهندم والخت المهندس فجمع الصناع وأحسن
الابداع وأتمه فى سنين واستحق بحق احسانه التحسين والناس يقولون هذا أمر مستحيل وحكم ماله دليل وذكر
جميل وأجر جليل لو كان اليه سيدل وهيأت ان يعود القدس الى الاسلام ويقضى الاصباح فيه على الاظلام فان
افرض عليه مستولون مستعلون وهم يكثرون على الايام ولا يقاوم أمانا صغفونا على أكثر اعمال حوران وقابلوا بالكفر
الايمان وقد أعجزوا ملوك الاسلام الى اليوم خا أصعب واتعب وقم الفوم ويقولون له قوة اليقين وعرف ان الله
كافل بصرة الدين اصبر وافلصر هذه الامة نأ وهو كما قال الله تعالى وصنع الفلك وكأمر عليه ملا ولم يزل لنور
الدين فى قلبه من الدين نور وأرتقوا له لتقير مأ نور أزهده العباد وأعبد الزهاد وهومس الاولياء الابرار والأتقياء
الاخيار وقد نظروا نور الفرة ان الفتح قريب وان الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيب. ويزيده قوة عزمه جدا وقده
بحياة الحياة الربانية مدا قد ظهره الله من العيب وأطلع على سر الغيب ونزهه من الريب لنقاء الجيب وشملت
الاسلام بعده بركته وختمت بافتتاح ملك صلاح الدين ملكته وهو الذى رباة ولياه وأحبه وجاء وهو الذى سن الفتح
وسنى النجج وانفق ان جامع حلب فى الايام النورية احترق فاحتجج الى منبر نصب فنصب ذلك المنبر وحسن المنظر
وتولى حينئذ التجار عمل المحراب على الرق وشابه المحراب المنبر على الرسم ومن رأى حلب الا ت شاهد منه على مثال
المنبر القدسى الاحسان والمافع السلطان القدس تقدم بحمله وصعبه فى محراب الاقصى ففريق شمله وظهر سر الكرامه
فى فوز الاسلام بالسلامه وتناصرت الالسن بالداء لنور الدين بالرحه ولصلاح الدين بالنصرة والنعمة وقال العماد فى
موضع آخر من كتاب البرق وكان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله فى عهده عرف بنور فراسه فتح البيت
المقدس من بعده فامر فى حلب بالتحذاد منبر للقدس تعب التجارون والصناع والمهندسون فيه سنين وابدعوا

في تركيبة الاحكام والتزيين وانفق في ابداء مجاسنه وابداء من اينه ألوفاً وكان اترديد النظر فيه على الايام ألوفاً وبقي ذلك المنبر يجامع حلب منصوباً سيقاً في صوان الحفظ مقروباً حتى امر السلطان في هذا الوقت بالوفاء بالنذر النوري ونقل المنبر الى موضعه للقديس فعرفت بذلك كرامات نور الدين التي اشرق نورها بعده بسنين وكان من المحسنين الذين قال الله تعالى فيهم والله يحب المحسنين قلت وهذا الذي نسبته الى نور الدين رحمه الله من انه كرامة من كراماته لا تفي بحمله وميزته من الدين ولبس بالبعيد من مثل ذلك وكان رحمه الله قد بدت له مخايل ذلك بما تنسب له من فتح البلاد الشاميه والمصريه وقهر العدو بين يديه مراراً وكان فتح القدس في هتمة من أول ملكه فان لم يكن حصل له مباشرة فقد حصل له تسبياً فان الفاتحين له رحمهم الله بنوا على ما أسسه لهم من الملك والتدبير وهم أمرأه واتباعه واجناده واشياعه ثم يحتمل ان يكون رحمه الله وقف على ما ذكره أبو الحكم بن برحان الاندلسي في تفسيره فانه اخبر عن فتح القدس في السنة التي فتح فيها وعمر نور الدين اذ ذاك احدى عشرة سنة وقد رأيت اما ذلك في كتابه ذكر في تفسير أول سورة الروم ان البيت المقدس استولت عليه الروم عام سبع وثمانين وأربعمائة وأشارانه يبقى بأيديهم الى عام خمس مائة وثلاث وثمانين سنة فالنقص في عام اثنتين وعشرين وخمس مائة فلم يستبعد نور الدين رحمه الله لما وقف عليه ان يمتد عمره اليه فهماً لأسبابه حتى منبر الخطابة فيه تفر بالي الله تعالى بما يبديه من طاعته ويخفيه وهذا الذي ذكره أبو الحكم الاندلسي في تفسيره من عجائب ما اتفق لهذه الامة المرحومة وقد تكلم عليه شيخنا أبو الحسن علي بن محمد في تفسيره الأول فقال وقع في تفسير أبي الحكم الاندلسي في أول سورة الروم اخبار عن فتح البيت المقدس وانه ينزع من أيدي النصاري سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة قال وقال لي بعض الفقهاء انه استخرج ذلك من فاتحة السورة قال فاحذت السورة وكشفت عن ذلك فلم أره أخذ ذلك من الحروف وانما أخذه فيما زعم من قوله تعالى غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيعلوون في بضع سنين فبني الامر على التاريخ كما يفعل المنجمون ثم ذكر انهم يغلبون في سنة كذا ويغلب في سنة كذا على ما تنص فيه دوائر التقدير قال وهذه نجامة وافقت اصابع ان صح انه قال ذلك قبل وقوعه وكان في كتابه قبل حدوثه وليس ذلك بما خذ من الحروف ولا هو من قبيل السكرامات أيضاً فان الكرامة لا تكتسب بحساب ولا تنسقر الى تاريخ ولذلك لم يوافق الصواب لما ادار الحساب على القراءة الاخرى الشاذة التي هي بفتح العين من غلبت الروم ويوضح ذلك انه قال في سورة القدر لو علم الوقت الذي أنزل فيه القرآن لعلم الوقت الذي رفع فيه

(فصل) قال النعمان وأما الصخرة المقدسة فان الفريج كانوا ينسبونها لابيها كنيسة واعادوا رسومها القديمة دريسه وسترها بالابنية وعوجوا اوضاعها رزم التسوية وكسوها صورا هي أشنع من التعرية وملئوها بتعاريف التصاور ونبشوا في رخيمها اشباه الخنازير وجعلوا المذبح لها مذبحاً ولم يتركوا فيه الا ايدي المتبركة ولا ليعيون المدركة ملصقا ولا مطمعا وقد زينوها بالصور وانما تامل وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل وكتابها أسباب التعظيم والتبجيل واغردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة بأربعة رخام منصبه وقالوا محل قدم المسيح وهو مقام التقديس والتسبيح وكان فيها صور الانعام منبئة في الرخام والصخرة المقصودة الزوره بما عليها من الابنية مستوره وبذلك الكنيسة المجرورة مقفورة فامر السلطان بكشف مقابها ورفع حجابها وحسرت لها ما وقشر رخامها ورحض وضرها وتقض ابنتيها ونقل حجورها واربازها للزائرين واطهارها للناظرين فباتت من الشين وبانت للعين وحيبت بالقبيل وفديت بالقل فعادت كما كانت في الزمن القديم شهدت حين شوهدت بحسبها الكريم وما كان يظهر منها قبل الفتح الا قطع من تحتها قد أساء الكفر في بنجتها فظهرت الا ن أحسن ظهور وسفرت أين سفور وأشرق القناديل من فوقها نوراً على نور وعلمت عليها حظيرة من شبايك حديد والاعتناء بها الى كل يوم في مزيد قال وكان الفريج قد قطعوا من الصخرة قطعاً وجلاصها الى قسطنطينية ونقلوا منها الى صقلية وقيل باعوها بوزنها ذهبا واتخذوا ذلك مكسباً ولما ظهرت ظهرت مواضعها وقطعت القلوب لما باتت مقامها فهي الآن مبرزة ليعيون بنجرها باقية على الايام يمزها مصونة لسلام في حذرنا وحزنا وقال في البرق ولما ظهرت الصخرة وجدناها وقد أبت لها النوايب حروزا وأودعت ضميرها من شر أهل الكفر شر امر موزا فان

الفرنجي نقلا منها الى بلادهم قطعوا وأبدعوا فيها بدعا حتى قيل انها يعبث بوزنها ذهباً وأفضى الامر بها ان يكون حجراً منتبها فغطاها بعض ملوكهم اشفاقا عليها لئلا تمتد يد ضيم اليها فابقت خرو زها في القلوب خزازات وسار حديث حادثها في الاقارب ورايات واجازات وقولها بعد ذلك الفقيه ضياء الدين عيسى فصانها بشبايك من حديد وثبت أركانها بكل تسديد وقال في الفخ ورتب السلطان في قبة الصخرة تاما ما حسنا ووقف عليها دارا وأرضا وبستانا وجل اليها والى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات وربعات مملكات لاتزال بين أيدي الزائرين على كراسيها مرفوعة وعلى أسرتها موضوعه ورتب لهذه القبة خاصة والبيت المقدس عامة قومة من العارفين العاكفين القائمين بالعبادة الواقفين فأبجج ايلها وقد حضرت الجموع وزهرت الشموع وبان الخشوع ودان الخضوع ودرت من المتقين الدموع واقشعرت من العارفين الضلوع فهناك كل ولي يعبدربه ويأمل بره وكل أسعث أغبر لا يوبة له لو اقسم على الله لا يره وهناك كل من يحجي الليل ويقومه ويسمو بالحق ويسومه وهناك كل من يحتم القرآن ويرتله ويطرد الشيطان ويبطله ومن عرفته لمعرفته الاسحار ومن افته لتبعده الاوراد والافكار وما أسعد نهارها حين يستقبل الملائكة زوارها ونلحق الشمس أنوارها وتعمل القلوب اليها أسرارها قال وناقس ملوك بني أيوب فيما يوثرونه بها من الآثار الحسنه وفيما يجمع لهم وذ القلوب وشكر الالسنه فامنهم الامن أجل وأحسن وفعل ما أمكن وجلى وبين وحلى وزير وأنى العادل أبو بكر بكل صنع بكر وتقى الدين عمر بكل ماعم وعمر ومن جله أفضاله المشكوره ومكرمانه المشهوره انه حضر يوما في قبة الصخرة ومعه من ماء الورد اجمال ولاجل الصدقة والرفد مال فانتزعت فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها وتولى بسده كنس تلك الساحات والعراض ثم غسلها بالماء من أراحتي تظهورت ثم اتبع الماء بماء الورد صبيا حتى تعطرت وكذلك طهر حيطانها وغسل جدرانها ثم أتى بمجامر الطبيب فتجفرت وتضوعت ثم فرق ذلك المال فيها على ذوى الاستحقاق واقتخران فاق الكرام بالانفاق وجاء الملك الأفضل نور الدين على بكل نور جلى وكرم على وبسط بها الصنيعه وفرش فيها البسط الرفيعه وسيأتى ذكر ما اعتمد من بناء أسوار القدس وحفر خنادقه وأعجز ما أعجب من سوابق معرفه ووفه ولواحقه وأما الملك العزيز عثمان فانه لما عاد الى مصر ترك خزائنه سلاحه بالقدس كلها ولم ير بعد حصونها به قلها وكانت اجالا بأموال واقبالا كجبال وذخائر وافيه وعدد اواقبه وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعدتهم قوتهم بذلك عدد البلد واستغنى به عما يصل من المدد فال وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الأقصى فانه في حصن عند باب المدينة منسج وموضع عال رفيع وهو الحصن الذي يقسم به الى اولى قرتب السلطان له اماما ومؤذنين وقواما وهو مشابة الصالحين ومزار القادين والراغبين فاحياء وجدده ونهج نقاصه بجدده وأمر بعمارة جميع المساجد وصون المشاهد وانجاح المقاصد واصفاء الموارد للقاصد والوارد وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام وكان يتنابها مقامه الانام وكان الملك العادل نازلا في كنيسة صهيون واجناده على بابها مخيمون وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء والا كابر الاربار والاقباء الاخبار في أن يبنى مدرسة للفقهاء الشافعية ورباطا للصالحاء الصوفيه فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندخته عند باب اسباط وعين دار البطريرك وهي بقرب كنيسة قمامة الرباط ووقف عليهم ما وقفوا واسدى بذلك الى الطائفتين معروفا وارناد أيضا مدارس للطوائف ليضيقها الى ما أولاه من العوارف

(فصل) قال في البرق وشرع الفرنج في اخلاء البيوت وبيع ما دخره من الاثاث والقوت وامهلا وحتى باعوا بأرخص الاثمان وكان خروجهم شيبا بالجمان لاسيما ما تعذر ثقله نقله وصعب جله وكانوا يقولون الله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك واورثناها قوما آخرين) فباعوا ما تنابهم على البيع اخر اخرجهم رخيصا وايقولوا يجدوا من تركه محيضا وغلبوا على ما في الدور من الماعون والمذخور أما الصناديق والاشباب والرخام وما يجرى مجراها مما توفرت منه الانواع والاتسام فانها بقيت بحالها متروكة ولن يسكن تلك الاماكن يملوكه وكانت قاصه وهي كنيسهم العظمى ومتعبد لهم الذي يجعون به الدين والدنيا مفروشة بالبسط الرفاع مكسوة بالسور النسيج والحبر المزوج من سائر الانواع والذي يذكرون انه قبر عيسى

في اخبار (١١٥) الدولتين

عليه السلام محلي بصفايح الفضة والعين ومصوغات الذهب واللبين مصفح بالنصار مثقل من نفائس الحلي بالاقطار فأعاد البطرك منه عطلا وزك طلا مائلا قفلت للسلطان هؤلاء ما أخذوا الامان على أموالهم فبال هذا المال وهو بألوف يحسونه في أنفاسهم فقال لهم ما يعرفون هذا التأويل وينسبون اليه الماحرمناه التحليل ويقولون انهم لم يحفظوا العهد ولم يحفظوا العقد ونحن نجريهم على ظاهر الامان ونقر بهم بذلك بحاسن الايمان وكانت المهلة انه من عجز بعد أربعين يوما على اداء ما عليه من القطيعه ضرب عليه الرق بحكم الشرية ووقف الشرية فقتلواهم الثواب بعد نحو وجنا من القدس وبقي منهم من ضرب عليه الرق خمسة عشر ألفا في الحبس ففرقهم السلطان وتناهبتهم البلدان وحصل في منهم سببا يانسوان وصبيان وذلك بعد ان وفي ابن بارزان بالضمنا وادي ثلاثين ألف دينار واخرج من ذكره كراهه قسير بحسب الامكان وكانوا تقدير ثمانية عشر ألفا واعتقد انه لم يبق غير فقير وبقي بعد اداءه على ما ذكرناه كثير وأما النصارى الساكنون بالقدس فانهم بذلوا مع القطيعه الجزية ليسكنوا ولا ينزعجوا ويؤمنوا ولا يخرجوا فأقرت بواسطة الفقيه عيسى وأقر من قسوس النصارى أربعة قوام لقمامه فأعفاهم ولم يكفهم الغرامه وأقام بمدينة القدس وأعمالها منهم الوف نشروا وعمروا وعرشوا وغرسوا ظلم منها بجان وقطوف وكانت لامراء الفرنج ومقدمهم بحارة للصحرة وعند باب الرحمة مقبره وقباب معمره فغفينا آثارها ورحضنا وضارها وقال في الفتح وأمر السلطان باغلاق كنيسة قمامه وحرّم على النصارى زيارتها ولا إمامه وتفاوض الناس عنده فيها فنفهم من أشار بهدم مبانيها ونفعية آثارها ونعمية نهج مزارها وقالوا اذا هدمت ونبتت المقبرة وعفيت وخربت أرضها ودمر طوبها وعرضها انقطعت عنها امداد الزوار وانحسنت عن قصد ما مواد اطامع أهل النار ومهما استمرت العماره استمرت الزبارة وقال أكثر الناس لافائدة في هدمها وهذا فان متبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء ولا يقطع عنها قصد الجناس النصرانية ولو نسفت أرضها في السماء ولما فتح أمير المؤمنين ع رضي الله عنه القدس في صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمر بهدم البنيان قال وأقام السلطان على القدس حتى تسلم ما بهر بها من حصون واستباح كل ماله كغيرها من مصون ثم عمد الى ما جمعه ففرقه واخره في ذوى الاستحقاق وانفقه فأكثر وأعدله على بذله واستكثر وأما افاضه بفضل له فقال كيف امنع الحق مستحقه وهذا الذي أنفقه هو الذي أنفقه وادأقبله معنى المستحق فأنفقه له على فيه فانه يخلصني من الامانة ويطلب منى من وثاقها فان الذي في يدي ودبعة احفظها لذوى استحقاقها وقيل له لو اذخرت هذا المال للآل فقال املئ قوى من الله الكافل بفتح الآمال وجمع الاسراء المطلقين وكانوا الوفا من المسلمين في كساهم وأساهم وواساهم وادهب أساهم فانطلق كل منهم الى وطنه ووطره ناجيا من ضرره وضرره وقال في البرق سمعت الملك العادل يوما في أثناء حديثه في نادية وهو يجرى ذكر افرار السلطان في ياديه يقول اني توليت استيفاء قطيعة القدس فانفذت له ليله سبعين ألف دينار فجاء في خازنه بكرة وقال زيد اليوم ما يخرجته في الانفاق فاعندنا ما كان بالامس شيء باقى فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال ففرقها على رجال الرجايد النوال

(فصل) قال العماد وليكريم أبي الفضل قصائد قدسيات طوال كبيرة القوائد قلت قد وقفت على بعضها وتقدم قبل ذلك ان قال لم أزل من أول ما ولي الملك الناصر الامر في مصر اعلم انه مؤيد بعناية من الله سبحانه فامتدحته في سنة خمس وستين يقصيدة تنيف على مائة بيت منها في التناشير

لتظفرن بجمال بحسوه ملك * بأبال المظفر حفاظا خطه الازل
دليل ذلك آراءك اقترنت * بالحزم والعزم لم يخص بها الاول

وفيها

قد ساد اسكندر أهل الزمان معا * في سن عشرين وامتدت له الخيل
وافي الثلاثين والاقطار أجمعها * طوعا له وسواك الارض والمنزل

قال ومدحته سنة سبع وستين عند قفوله من غزاة بقصيدة منها

كتاب (١١٦) الروشتين

أبا المظفر فاهناً حظاً منتخباً * أخرى الزمان لدين كاد ينسبتر
 زهدت فيما سبي الاملاك منكذرا * عليا بملك نعيم مابه كدر
 وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها * وجئت تقدم حيث الحول والخطر
 قال ومدحته ستة ثمان وستين بقصيدة تنيف أيضاً على مائة بيت منها في التبشير
 أرى الراهبة الصفراء برى اصطفاها * بني اصفر بالرافعات اللهازم
 فتسبي فلسطينا وتجبى جزائرا * وتملك من يونان ارض الاساحم
 وتعنوا لها الاملاك شرقا وغربا * بذاحمت حذاق اهل الملاحم
 قال وبعثت اليه في غزوة سنة اثنتين وثمانين وهو على حصن بقصيدة هنأته فيها بالعافية منها
 فيما مل كالم يبق للدين غيره * وهت عمداً السلام فاشد لها دعما
 فشؤم فريق الشرك في الشام طائر * فقص جناحيه باقصى القوى قصما
 خصصت بتمكين فم العدا ردى * فانهم بأجوج افرغ بهار دما
 اذا صفرت من آل الاصفر ساحة الـ * مقدس ضاها فتوح أم القرى قدما
 فذا المسجد الاقصى وهتك العلى * وعزمتك القصوى ورميتك الصبي
 فها هو الان تهم وقد أنت * فتوح كما فاض الخصم الذي طما
 وان أنت لم ترد الفرنج بوقعته * فن ذا الذي يقوى لبنانها هدا
 وما كل حين تمكّن المرأة فرصة * ولا كل حال أمكنت تقضى غنا
 وليس كفتح القدس منية قادر * وما ان تلقاها سوى يوسف جزما
 قال وأنشأت قصيدة أخرى في سنة اثنتين وثمانين وحضرت بهما بين يديه منها
 الله أكبر أرض القدس قد صفرت * من آل الاصفر اذ حين به حانوا
 أسباط يوسف من مصر أتوا لهم * من غـيرته بهاسلوى وامنان
 لهم فلسطين ان يخرج عداتهم * عنها والاعدت بيض وخرصان
 حتى نيت رواج القدس منفرا * وبصعد الصخرة الغـراء عثمان
 واستقبل الناصر المحراب بعد من * قد تم من وعده فبح وأمكان
 وجازع بنيسه البحر تجفل من * غارانه الروم والصقلا ب واللان
 حتى يوحـد اهل الشرك فاطبة * ويرهب القول بالنالوث رهبان
 ولا ين أبوبى الافرنج ملحمة * دلت عليها أساطير وحسيان
 ومن أحق بملك بالارض من ملك * كأنه ملك في الخلق حنان
 ثم قال وأما القصيدة العجيبة الناصرية فأولها

في باطن الغيب ما لا تدرك الفكر * فذو البصيرة في الاحداث يعتبر
 ما نرى ملك الافرنج في قفص * أين القواضب والعسالة السمير
 والاسبيتر الى الدواية التأموا * كأنهم سدياً جوج اذا استبحروا
 والنفس مواءة عجايب سيرتها * وفي المقادير ما تسلى به السـير
 يا وتعة التسل ما بقيت من عجب * تخاف ل لم يفت من جمعها بشر
 وياضخى السبب ما للقوم قدسيتوا * نهودوا أم بكأس الطعن قدسكروا
 وياضريح شعيب ما لهم جموا * كمدن أم اقوا رجفا بما كفروا
 خطوا بطين ملكا كافيا عجا * في ساعة زال الملك والقـدر
 أهوى اليهم صلاح الدين مقترسا * وهو الفضن فرعدى ظفـره الظفر

في أخبار (١١٧) الدولتين

أملى عليهم فصاروا وسط كفته * كسرت طير حواها الفانص الذكر
 وأنجز الله للسلطان موعده * ونذر في كفو دينه البطر
 وعاب الملك الارنس في دمه * فأت حياحي وهو يعتذر
 رأى ملكا ملوك الارض تتبعه * والنجم يخدمه والشمس والقمر
 اذا بدتهم ررا اعيان هيته * ويختفي وهو في الازهان مشتهر
 تقدم الجليل في أخرى الزمان به * على صدور عالا من قبلنا صدروا
 أما رأي أتم فتوح القادسية في * اكشاف لويست تجلي وذاعمر
 والحق يعرض والطمان منتجب * والكفر يطمس والايمان مزدهر
 هذا المليك الذي بشرى النبي به * في فتنة النبي للاسلام يقتصر
 أنى ملاحم ذي القرنين واعترفت * له الرواة بما لم ينه أنسر
 أعين اسكندر بالخضر وهوله * عون من الله يستغني به الخضر
 وصنع دى العرش ابداع بلاسبب * فلا تقل كيف هذا الحادث الخطر
 بينا سببا به تجلي في دمشق اذا * ملك الفرج مع الازلاء مخبر
 ازاه زعاه الساحلين معا * مصفين بجبل القهر قد أسروا
 بناوهم صلبون سيق منتكسا * وحوله كل قيس له زبر
 ونحن في ذا وذات طير محفته * بفتح عكا التي سدت بها الثغر
 تغزوا اساطيلنا منها حقلية * فتذعر الروم والقلب والخنزر
 من ذا بقول لعل القدس منفتح * اليك بل سفر يعقوب له السفر
 أبوا المظفر بنو بها خلد سقنا * من باب عكا الى طرطوش تنتشر
 يسى فرنجية من أقطارها وله * مع المجوس حروب قد حدها سمر
 وبعض أبنائه بالقدس منتدب * وبعضهم رومة الكبرى له وطر
 راية تحرق الارض الكبيرة في * جمع تقبوله الاجسام لا وزر
 قالوا أطلت مديحاه قلت كما * بدأت فالصب المحبوب مذكر
 وأما القصائد القدسيات التي له فمنها الثانية له وقد تقدم ذكرها ومنها القدسية الكبرى عدد هامة واثنان وخمسون
 بينا أولها

تصاريف دهر اعربت لمن اهتدى * وبسطه أمر اغربت من تمردا
 لصرعة فتح القدس سرمغيب * وفي صرعة الافرنج معتبر بدا
 أتوا كبحال ابرمت لاسارنا * فسقناهم فيها قطينا مجددا
 وسامو تجاراتش ترمينا غواليا * فبعناهم بالخص جهرأ على النداء
 وجروا جيوشا كالسبول على الصوا * فأضت غنائ في البطاح مجددا
 وقالوا ماولك الارض طوع قيادنا * اذا الكل منهم في القمود معبدا
 وقد أقطع الكند العراق موقعا * فأودع سجننا وسط خلق مؤصدا
 وأقسم أن يسقى بدجلة خيله * فما ورد الأردن الامصفا
 فكما واتى نجملان قهقه خمصه * وكم سائق نجملان قهقر مقعدا
 انى الكند من اسبان يحكى قامة * فكان تقضى ملكه قبل يندى
 فاعقد الرايات الاحملا * ولا حبل الرايات الامعقدا
 ووقعه يوم التل اذا قبضت به * جبارة الافرنج حبرى وشردا

عليهم من البلوى سراقة ذلة * ومن ذل ماتت نفسه فقتلها
 ترى المنسر الديوى يلقي سلاحه * وينساق ما بين السبايا ملهدا
 يباعون اسرا بشرائح احب لـ * كشلة عصفور من الريش جدا
 قتل في نصارى خلق في مائة * يسرونها الاشجى وتمهدا
 ألم تر للسلطان صدق نذره * دم الغادر الارنس فاقبيل داربدا
 وبارشه بالقتل وسط جناحه * وعينه الكند المليك فارعدا
 وضاق بنفس القمص الارض مهربا * فادركه الموت المفاجىء مكدا
 وما طرقت الاسماع من عهد آدم * كلحمة التل التي تلت العدا
 اتوا واديا مازال ينفي خبائثا * ويصفي يعقبي الدار طائفة الهدى
 به جمعت أصحاب ليحكة وهى فى * ذراه وذا فيه شعيب تأيدا
 أرى الله فيه معجز النصر مخلصا * لاهر صلاح الدين فى الناس محمدا
 واهدى جنود الرعب يردى عداته * وسلم جميع المسلمين مجندا
 ومن عجب خسوف ألف مقاتل * سبتهم جيوش ليس فيها من ارتدى

والرشيد بن بدر النابلسي

هذا الذى كانت الآمال تنتظر * فليوف الله أقوام بما نذروا
 بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت * فى سالف الدهر أخيرا ولا سير
 حين بهان هلك المشركين فيما * لله طيب العشايا منه والبر
 الآن قرت جنوب فى مضاجعها * ونام من لم يزل حلفا له السهر
 يا بهجة القدس اذ انحنى به علم السـ * سلام من بعد طي وهو منتشر
 يا نور مسجد الاقصى وقد رفعت * بعد الصليب به الايات والسور
 شتان ما بين ناقوس يدان به * وبين ذى منطقي يصنى له الحجر
 الله أكبر صوت تقسعر له * شم الذرى وتكاد الارض تنفطر
 يا مالك الارض مهدها فما أحد * سواك من قائم لاهد ينتظر
 ما اخضر هذا الطراز الساحلى ثمرا * الاتعلو به اعلامك الصفر
 أضحى بنو الاصفر الالكاس موعظة * فيها الاعدائك الايات والنذر
 صاروا حديثا وكانوا قبل حادثة * على الورى يقيمها البدو والحضر
 سلبتهم دولة الدنيا وعيشتها * حتى لقد ضجرت من قد هم سقر
 هذا الذى سلب الافرنج دولتهم * وملكهم باملوك الارض فاعتبروا
 مرأى ما اختطها الخوف من مائة * عاما ولا ربيع أهواها ولا دعروا
 ولا أصرح باسماء البلاد فقد * أسهبت والقائل المنطق يختصر
 بغنيك اجمال قولى عن مفصله * فى لفظة البحر معنى تحت الدور

وهي طويلة وله من قصيدة أخرى

ألم بدار الناصر الملك الذى * فى كفه الجود سبعة أبحر
 فاذا مررت بملكه وقتوحه * تماخر بما يروى عن الاسكندر
 واذا بصرت بجاشه ويحيشه * فاحث التراب على ذؤابة سنجر

وللشهاب فتيان الشاغورى من قصيدة

كسرت على كسرى اعدك دولة * قصرت مهايتها تطاول قيصر

اهدى صلاح الدين للاسلام اذ * أدى قبيل الكفر ماله بكفر
رب الملاحم لم يؤرخ من ماله العلماء قديما في قديم العصر
خلعت عليه خلعة الملك التي * زبدت بهارا بالطرار الاخضر
راياته صفرًا ثود وتثنى * جراتنج نجيع آل الاصفر
لم تذن شوس الملوكة له وقد * ملك السواحل في ثلاثة أشهر
واستنقذ البيت المقدس عنوة * من كل ذي نجس بكل مطهر
وأرتمهم بالتيق الجعان بالبيت المقدس هول يوم المحشر
ورددت دين الله بعد قطوبه * بالمعجد الاقصى بوجه مسفر
واعدت ما أبداه قبلك فاتحها * عسرة فانت شريكه في المتحسر
حتى جعلت لعشر الاسلام بين الصخرة العظمى وبين المشعر
فلصخرة البيت المقدس كفوها السجج المنفضل عند أفضل معشر
فكانه انسان عين صورة * يلقاك اسودده بمعنى أنور

(فصل) في حصار صور ووقع هونين وغير ذلك قال الحماد ثم ان السلطان مازال مقبلا بظاهر القدس يحقق
الآمال ويفرق الاموال حتى وردت كتب سيف الدين على بن أحمد المشطوب وكان نائب السلطان بصيد او بيروت
وهما مجاورتان لصور فكتب يحضر السلطان على حصار صور فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس
والعشرين من شعبان وأخذ صوب عكا وسبقه اليها الافضل وتقي الدين ودوع السلطان ولده العزيز و رده الى مصر
فكان آخر عهده به واستعجب السلطان أخاه العادل فوصل الى عكا مستهل رمضان فاصلح من شأنها ثم رحل فزل
على صور يوم الجمعة تاسع رمضان وخيم بازاء السور بعيد امنه على النهر ومعظم البلد في البحر وهي مدينة حصينة
متوسطة في البحر كانها سفينة وكان المركب الذي في صور قد حفر لها خندقا من البحر الى البحر وبني بواسيره
واحكم في التعمير تدبيره واستظهر تشكيرا للعدد والعدد واغتم اشتغال السلطان بفتح القدس فاهام السلطان بتلك
المتزلة على صور ثلاثة عشر يوما حتى تلاحت الامداد وكثرت العدد والآلات الجهاد وربت المنجنيقات ثم حوّل
السلطان مضاربته الى تقي الدين في صور يشرف منه ثم حاصرهم وقابل كلا من الملوكة بجانب بكفهم منهم الافضل
والعادل وتقي الدين اخصرهم وضايقهم ووصل في تلك الايام من حلب الملك الظاهر غازي ولده السلطان بعسكره
الحلبى فاستظهر السلطان به واستدعى الاسطول المصرى وكان بعكافه منه عشرة شوانى وكان للفرنج في البحر
مراكب وحرايق وفيها رماة الجروح والزبور كاتر مومن دما من البحر فلما جاء اسطول السلطان استطل عليهم
وأبعدها فحاط بهم المسلمون وقتلواهم برا وبحرا فبينما هم في أحسلى ظفر واهنا ورد وصد اذ ملك الفرنج خمسة من
شوانى المسلمين وأسرهم مقدميها ورتبها عبيد السلام المغربي ومتولي بهدرا الفارسي وألتي جماعة أنفسهم في البحر
من ناج وهالك وذلك انهم سهر واثلك الليلة بازاء ميناء صور الى السحر ثم غلبهم النوم فاستنبهوا الا والفرنج قد كبتهم
ونكبتهم فاصبح المسلمون وقد انتلموا وأتاهم من الامر ما لم يعلموا ونفذ السلطان الى المراكب الباقية ان يسيروا الى
بيروت وخاف عليها القلتان يستولى عليها بعد الطاغوت فجاءهما شينى رئيس جبيل والباقيات نظر الى الفرنج
ورآهم فالقوا أنفسهم في الماء ونزعوا الى البر على وجوههم ثم ان الفرنج بعد هذا طمعت فخرجت يوما وقت العصر
مستعدة للقتال فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على الكافرين وأسر مقدم كبير لهم وظن انه المركب فسلبه
السلطان الى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم ان المركب يعودى الحياة
فطال حصاره حتى شجر كثير من أمره المسلمين لانهم رأوا ما لم يألفوه من تصرف الفتح عليهم فاشاروا على السلطان
بالرحيل لثلاثي الرجال وتقل الاموال وكان البر قد اشتد عليهم وكان رأى السلطان والبقاء من الامراء
كالفقيه عيسى وحسام الدين طمان وعزالدين جريدك النورى الثابت الجنان الى الفتح لثلاثيهم فاصبحهم ما تقدم من
الاعمال وانفاق الاموال وقال السلطان قد هدمنا السور وقاربنا الامور فاصبروا وانفكحوا وصابروا وتفكحوا ولا تجلوا

فاظهر والمواقفة وفي أنفسهم ما فاقوا بصدق القتال وتعلوا بان الرجال جرحى والعافوات قد قلت فلم يسع السلطان بعد ذلك الا الرحيل فامر بنقل الاثقال فحمل بعضها الى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لئلا يناله العدو ورحل في آخر شوال وهو أول يوم من كانون الأول وسار حتى الدين الى دمشق على طريق هونين واستعجب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين ورحل السلطان الى عكا فوصلها في ثلاث مراحل لانه سلك طريق الناقورة وهي طريق ضيقة مظلة على البحر بها يضرب المثل لا يعبر بها الا لجل جبل فعبرت بها الاثقال والاجال في اسبوع وكان عيين يوم رحيله من صور أمر بقاء يقيمون عليها الى ان يعرفوا عبور الثقل وخيم السلطان عند التل وسار العادل الى مصر واطاهر الى حلب ويدر الدين دلدرد الى الرومي الى بلاده قال وفي مدة رحيل السلطان عن صور جاءه خبر سيف الدين محمود أخى عز الدين جاولي انه استشهد في عصر بلا تحت حصن كوكب كبسه الفرج فيها ليلاً وذلك انه كان قد بقي على السلطان بعد ما فتح من بلاد العدو من جملة اعمال طبرية والقور حصناً صقذ وكوكب وكان في صقذ جهرة الداوية وفي كوكب جهرة الاسبتارية فاحتاج السلطان في فتحهما الى المطاولة فوكل بصقذ جماعة يعرفون بالناصرية مائة منهم مسعود الصلبي ووكل بكوكب هذا الامير سيف الدين محمود فاقام في حصن عقربلا وهو قريب من حصن كوكب ونقص على المقيمين فيه المظف والمشرى وضيق عليهم المذهب الى ان دخل الشتاء فاخذت الحراسه واعتلت السياسة فلما كانت ليلة آخر شوال وكانت ليلة باردة ماطره حرس أصحاب سيف الدين حتى صبحوا فغلهم النعاس فاستيقظوا الا فرنج كوكب عليهم باركه فداغوا عن أنفسهم حتى استشهدوا وأخذ الفرج غنيمة المسلمين ودخلوا بها كوكب وكان هذا الامير محمود ادين متين ومساكن من النسك مكين وهو سيهرأ كثر ليله منبهجا وقد جعل منزله مسجداً لجمع بين التهجيد والجهاد وكان كثير الاجتهاد فاغتم السلطان بمصابه وزاد تألماً الى مابه وتقدم الى صارم الدين فايمار النجمي ان رباط كوكب في خمسمائة فارس ففعل ولم يزل بها الى ان فتحت كما سيأتي قال وفتحت هونين والسلطان محاصر صور وكان لها فتح تبين قدامتعت عليه هونين فوكل بها من رباطها وضابقتها حتى طلبوا الامان وجاء خبرها الى السلطان وهو على صور فنفذ الامير بدر الدين دلدرد ففتحها وخرج الفرج منها سالمين آمنين وكان قد بقي أيضاً من عمل صيدا قلعة ابي الحسن وشقيف الرزق وأقام السلطان بظاهر عكا ناظر افي أمور عيته ثم دخلها وسكن بالقلعة الا فضل برج الداوية وولى عكا عز الدين جرديك ووقف دار الاسبتار فصين تصفا على الفقهاء ونصفا على الصوفية ووقف دار الاسقف بمارستانا ووقف على كل من ذلك كفايته وأظهر به عنايته وسلم جميع ذلك الى فاضلها جمال الدين ابن الشيخ أبي العجيب وهو في ذلك مصيب

(فصل) في ورود رسل التهاني من الافاق وقدم الرسول العاتب من العراق قال العباد ووردت رسل الافاق من الروم وخراسان والعراق وكلهم بيني السلطان بما أفسرده الله به من الفضيله وأقدره عليه من نعيم الوسيله وهو فتح القدس الذي درجت على حسرته القرون الاولى وتقاشرت عنه أيديهم المتطاولة وقد كنت منه يده الطولى فامتهم الامن يعترف بجمسه ويفترق من جمعه ويقصر بحكم التنزيل له ويتزل على حكمه ويخطب بصداقته ويتقرب بالوفاء والوفاق ويتباعد عن الشقاء والشقاق فمن جلتهم رسول صاحب الرى ورسول المستولى على ممالك همدان واذر بيجان وازان فامن يوم مضى وشهر يقضى الا ويصل منهم رسول ويتصل به رسول وذكر العباد في البرقي انه وصل الى السلطان وهو يعاكر رسول أتاك مظفر الدين قزل ارسلان وهو عثمان بن أتاك البلدكر المستولى على بلاد النجم بعد أخيه البهوان ثم ذكر من خرقه في كرمه شيئا كثيراً ثم قال وهذا كله لا يكون في بحر سلطاننا جدولا كان السلطان مذهب المذهب ظاهر المحفل والمركب قد خصه الله بالصدر الارحب والنصر الاغلب عزمه الى الجهاد مصروف وخلقه بالمعروف معروف وهم بالسماع مشغوف ما يطقه بالسيف في البلاد يهيم ان يضرب معه بالسيف الى الجهاد وللخالق تقواه وللخواقين جدواه وانما يريد لئلا تحرقه دنياه فلا جرم نعم الله بالحسنى عقيباً قال ولا يكن في الملوكة السالفة أمضى منه عزماً وأجدى فضلاً وأعمر جدوى واكل جهداً في الجهاد وأملك جلدأعلى الجبلاد فانه باثر بنفسه الحرب ومارس الصعب وقذف بالحق حين حققه على

في أخبار (١٢١) الدولتين

الباطل فازه وهه ولاحد ولا عدل في سبيل الله من نفائس النفوس والاموال انفقته ومن أول هذا العام الى منتهاه لم يخف لورده لبسد ولم يغضب من ورده عد ولم يقر له جنب بل لقي في قصبي القبض والقتل مض الحروعض البرد بحر وجهه الكريم وقضى حق الدين موفيا بصدق غرامه حق الغريم وكل مات من النصر يوم حطين وفيم القدس وتسلم بلاد الساحل انما تسنى بشور سيقه في فصل الصيف وشهوره واستظهاره بظهور الاسلام وشذظهوره وأنشد العاد للفاضل في وصف اميافه

ما ضيات على الدوام دواي * هي في النصر نجدة الاسلام
في بين السلطان ان جردتها * أشبهت صواعق في غمام
تنثر الحام كالخروف فما أشبهه هذي السيوف بالاقلام
في محارب حربه البيض صلت * وركوع الظي محبوب الحام

وذ كر من كلامه في التوسط بين الاصدقاء (ما دخل بينكم الا كدخول المروفي الاجفان يرذ اليها ما ذهب منها من النور والغضب او كنسب بين الاغصان يعطف بعضها على بعض)

قال العماد ووصل أخى تاج الدين أبو بكر حامد من دار الخلافة بمرسالة في العتب على احداث ثقلت واحاديث ثقلت وشوايات أثرت وسعايات في السلطان شعثت وذلك في شوال ونحن على حصار صور وسبب ذلك انه لما تم الفتح الاكبر وخص وعم النجج الاظهر وقطع دابر المشركين وحط اقبال المسلمين أوزار ادبار الكفر بحطين أمر في السلطان بافشاء كتب البشائر الى الاقاق وتقديم البشري به الى العراق فقلت هذا فتح كريم ومنح من الله عظيم فلا ينبغي ان يكون مبسردا بالخلافة بما أنزه الله عليتنا من الرحمة والرافة الامن هو عندنا أجل وأجلى وأعلم وأعلى وأجمع لقنوني الفضائل وأعرف باداء الرسائل فلا رفع العظيم الا بالعظيم الرفيع فان الشريف يتضع شرفه بمقارنة الوضع فقال هذه نصره مبتكرة وموهبة مبشرة بذرت ونذرت فخص نجلهم ابشيرا ونؤخر لاجلال كما ذكرت سفيرا وكان في الخدمة شاب بغدادى من الاجناد قد هاجر للاسترقاق وتوجه بعد وصوله وتعبه بعد تحوله فسأل في البشارة الى بغداد وزعم انه يداوم بها الاغذاذ وشفعه له جماعة من الاكابر حتى حظى باشرف البشائر فقلت هذا لا يحصل له وقع ولا يصل اليه نفع والواجب ان يسير في مثل هذا الخطير خطير ويسفر في هذه النصر الكبرى كبير ثم سار المندوب وشغلت عن ارسال سواء الفتوح والحروب ولما فتح البيت المقدس أرسل بشارته بنجاب ونقذها كآب ووصل البشيرا الجندى فغفروه وما وقره فانه كان عندهم منظورا بعين الاحتقار فنظروه بتلك العين وحيوه بما يليق به من النقد والعين ونقم على السلطان ارسال مثله وتسمي المندوب بكلام أخذ عليه وبدر منه احاديث نسبت اليه وقال في سكره وحالة تركه مانع من عن ذكره خيل ومؤ وتسكر وتركه وظن ان لكلامه أصلا وللفظه مناوصلا وانتهى الى العرض الاشرف مقالا له وعلت جهالاته وتجنى على السلطان بارساله وطارق الى هدها ما انكره من مقال المذكور وضلاله ووجد الاهداء حينئذ الى السعاية طريقا وطلبوا التمثيل استعادة بالخدمة تقريبا واختلقوا اضائيل ولفقوا بأباطيل وقالوا هذا يزعم انه يقبل الدولة ويقلب الصولة وانه يبعث بالملك الناصر نعت الامام الناصر وبدل بماله من القوة والمساكن فاشفق الديوان العزيز على السلطان من هذه وبرز الامر المطاع بارسال أخى وأنقذه وقالوا هذا تاج الدين أخو العماد تكفل لثاني كشف سر الامر بالمراد فان أخاه هناك مذل على الاسرار وهو منتظم في سلك الالبياء الابرار وعول عليه الديوان في السفارة وردعه جواب البشارة وكتب له يذكره بموجبات مقاصد العتب ومكدرات موارد القرب والمخاطبة فيها وان كانت حسنة خشنة والمعانة مع شتمها للعواطف الامامية لئنه فسار الاخ الى دمشق وكان قد عاد المندوب ناديا عايدا جاحدا للنعمة شاكا وقال أخو العماد قد وصل بكل عتب وغضب ولفظ فظ ومعه الامانات المؤلمات فقلت له اسكت واحمت وقلت السلطان سمعوا طاعة لامر الديوان فان اظهاسر العتب لك من غاية الاحسان فقال نعم ما قلت ولما قرب أخى أصبحت لقدومه انتفى فأمر السلطان الامر اعل على مر اتهم بأسبقياه وتقدم بجلالة قدومه باجلاله وتلقاه الملوك الحاضرون العادل والمظفر والافضل والظاهر

ثم ركب ولفاه بنفسه وخصه من تقر به بأنسه ولم ينزل حتى أراه موضعا للحصار ومصارع الكفار ثم نزل وأنزله بالقرب ثم أحضره وقد أدخل مجلسه لى بوله وحده فأذى الامانة في مشافهته ووجهه مقابسه في مواجهته وأحضر التذكرة وقد جمعت المعرفة والنكره فقرأها عليه وكانت في الكتب غلظة عدت من الكتاب غلظه ونجيت سقطه وجلبت سقطه وقال ان الامام أجل من أن يأمر بهذه الألفاظ الغلظة والامسحاج الغلظة فقدمه كن ايداع هذه المعاني في ارق منها لفظا وأرقى وأوفى منها فضلا وأوفق معاذ الله أن يحبط على ويهبط أملى وأمتنع وأرتض ثم أعرض عما عرض ورجع الى الاستعفاف وانقيع يارق الاستعفاف وقال أمانا تمجده الاعداء وعدا به المتحاملون فما عرف مني الا الاعتراف بالعارفه وذكر السلطان أياديه السالفه في الفتوح واقامة الدعوة العباسيه بمصر واليمن وازالة الادعية وابادة الاعداء وفتح البيت المقدس قال وأما النعت الذي أفكر ونسبه على موضع الخطا فيه وذكر فهذا من عهد الامام المستضي والآن كل مباشر تخني به أمير المؤمنين من السنة فانه اسمى من الذي هو اسمي وأشرف وأرفع وأعرف وما عزي الاستكمال الفتوح لأمير المؤمنين وقطع دابر المنافقين بالمشركين ثم نذب مع أخى من سار في خدمته لزارة القدس ثم ودعه وادوعه من شفاعه كل مافي النفس وظهرت بذلك بالقبول آثار الرضى ومضى ماضى وكان بجاعة من الملوك والامراء كالعادل ومظفر الدين قد وبخوه لما قبل في حقه وأرادوا ان بغضبه فغضب بل غاض غيظه ونضب ونلقى ذلك بصدر رحيب ولفظ مصيب قلت ووقفت على كتاب كتبه صاحب قوام الدين ابن زياده من الديوان العزيز بن بغداد الى السلطان صلاح الدين وكان قوام الدين يومئذ استاذ الدار العزيزة يقول فيه (ولا مكان صلاح الدين من الخدمة والشعبه والمنافسة فيه لما جوهه بالعتاب ولا رفع دونه الحجاب بل كان يترك معه الامر على اختلاله ويدمل الجرح على اعتلاله وقد ذكرت الاسباب التي أخذها الديوان العزيز عليه واستغرب وقوعها من كاله ليوعها سمعه الكريم ويستورى فهاريه الاصيل وينصف في استماعها والاجابة عنها غير عارج على الجدول ولا مؤتم باراء المذمومين عقلا وشرعا بل يحمل قولى هذا على سبيل المحاضنة والاتصاح وصدق النية في راب التماضى والاصلاح فان ابحار الدواء المقر لا يتهم فيه الطيب المجتنب للعافية) ثم ذكر من تلك الامور (ان من انتفى من العراق بسبب من الاسباب لحا الى صلاح الدين فوجد عنده الاقبال عليه وكان الادب يوجب ابعاده من بعده وتقرّب من قرّب اليه) ثم قال (وان مما أضحك بشغرا الاستعبار ما انتهى عن العوام وأشباه الانعام وطعام الشام من الخوض في المذاهب والانتهاى في التشيع الى اختلاف كل كاذب ومنها ما جرى من سيف الاسلام بالحجاز من ازعاج الحجاج وارهاج تلك الحجاج والاقدام على مناسك الله وشعاره وأيقاد سبع الفتنه فيها وثاره واحتذاء السيرة القاسطه واجاء بدع القرامطه ما فرمته كل طبع ومجه كل سمع فكيف جاز لصلاح الدين ان يرعى عنان أخيه فيما يقترض سوابقه وأواخيه ومنها ما قضى الناس منه الجهد وفورق فيه الحزم والادب وهو ما وجب الثلق بالقلب الذي استأثر به أمير المؤمنين) ثم قال (وقد ساق زمان الدولة العباسية ثنتا الله خوارج دعووا البلاد وأسرفوا في العناد وجاسوا لخال الديار وأخافوا المساك واستضاموا الممالك واقصوا من الشقاق أشق الممالك فما اتسبى أحدهم فيما احتجب وارنكب الى المشاركة في القلب ومن الحكم الذائعة وجيز الكلام الذى يصلح للولى على العبد حرام ومنها ما كتبه كل طرف يتأخم أعمال الديوان من مواطن التركبان والاكراد وما اسلمتهم ومهاداتهم وقرع اسماعهم بما يعود واستلال أقدامهم وقيل عزائهم وهم لا يعرفون الا انهم رعية للعراق وخول للديوان يرثون الطاعة خالفا عن سالف) ثم قال في آخر الكتاب (وهذا كله لأقوله أنكارا لجلال مقامات صلاح الدين ومشاهير مواقف جهاده في سبيل المؤمنين فانه أدام الله علوه رجل وقته ونسج وحده والمرى على من سلف من صنائع الدولة وعلى من يأتى من بعده وهو الولي المخلص الذى عهد فوفوا واستكنى فكفى وطب فنفقا فكيف يجوز له مساعدته ان يجمع من ساعيه القرا المحجله ويخرج من مكاتبه المكربة المجله ويطل حقوقه الثابتة المسجلة) ثم قال (قد علم كل من نظرى التواريخ والآثار ونجته بصيرته في التبصر والاعتبار ان هذا البيت العظيم ما زال رفع الاقدار الخاملة فينزون عليه بطار افعار الله له منتصرا ويعقبه عليهم اظفارا

في أخبار (١٢٣) الدولتين

وظفرا كذاب آل طولون وآل سامان وآل بويه وآل سلجوق وقروناين ذلك كثيره فمن الذي زالوه فثبت ومن الذي حصده فثبت وأي نار اوقدوها فاختبت) ثم قال في آخره (اللهم قد بلغت وللراي الصلاح ما يزيد علوه ان شاء الله تعالى) وذكر ابن القادسي ان الجندى الذي أرسله صلاح الدين بالبشارة يعرف بالرشيد بن البوشنجي قال وكان صيبا كثيرا لادبار مشرف في دروب بغداد ثم توجه الى الشام هاربا من الفقر فحين وصل الى بغداد رسولا قامت القيامة بمراسته وكتب الى صلاح الدين بالانكار عليه وقيل له اما كان في أصحابك أمير من هذا ترسله الى الديوان فاعتذر صلاح الدين ووصلت كتبه بالاعتذار وقبل عذره وأما ابن البوشنجي فانه حين وصوله الى الشام أكثر الكلام عند صلاح الدين فأنتك ذلك عليه فلما مضى الاسبوع جاءته فثابة فذبحته

(فصل ١٢) في باقي حوادث سنة ثلاث وثمانين هـ بها قتل الامير شمس الدين ابن المقدّم وهو محمد بن هبة الملك يوم عرفة بها قال العماد وكن السلطان لما فرغ من فتح القدس وديناموس الحج قال الموفقون نخرم من المسجد الأقصى الى المسجد الحرام ونفوز بالحج مع ادراك فضيلة فتح بيت المقدس في هذا العام فالج والجهاد كمالا لاسلام فاجتمع جمع من أهل ديار بكر والجزيرة والشام وسار بهم الامير شمس الدين ابن المقدّم شيخ امراء الاسلام الكرام فودعه السلطان على كره من مفارقتها واستقبله بالحج في السنة الاخرى على مرافقته فقال ما معناه ان العمر قد فرغ والامر قد بلغ والشيب قد أذّر والقرض قد أذّر فاعتنم فرصة الامكان قبل ان يعتذر فضى والسعادة تقوده والشهادة تزوده حتى وصل الى عرفات وما عرف الآفات وشاع وصوله وذاع فقوله وضربت طوبوله وسالت سيوله وحالت خيوله وضربت خيامه وخفقت اعلامه فلما أسبحو انقرت كالعادة نقاراته ونعرت بوقاته فقاط ذلك أمير الحاج العراقي فركب اليه في اخراجه فأوقعه وبأصحابه وابلا بهم بجراحه ونهايه وجري حكم الله الذي كان الطبل أوكد اسبابه وقتل جماعة من حاج الشام وجرحوا وديكت أسنارهم وانقضضوا ونقل أمير الحاج طاشتكين شمس الدين ابن المقدّم الى خيمته وهو مجروح وفيه روح وحله معه الى منى فقتل ودفن بالمعلى وتم ذلك قضاء الله وقدره في قلب حوادث الدهر وغيره وارتاع أمير الحاج بما اجترمه وكيف لم يراقب الله وأحل حرمه وكيف عدا على الحاج العائذ بالله وسفك دمه فكتب محضر اعلی ما اقترحه بعذره فيما اجترحه والزم اعيان الحاج من سائر البلاد بوضع خطوطهم على ما عينه من المراد فكتبوا مكرهين غير متعنين وكان عذره انه أنكر عليه ضرب الطبل فأبى فلما انتهت الحالة الى الخليفة أنكرها النكار أندبا ونسبها الى طيش طاشتكين ولم يجد له رأيا سديدا فلا جرم اتضع عنده قدره وانفضحه وزره وهوى أمره وادخرهاله حتى تكبه بها بعد سنين وجبسه بها وأطال سجنه ثم عفا عنه بعد مدة مدیده وشدة شدیده وولاه حرب بلاد خوزستان ونجراها وولى اماره الحاج غيره ولما وصل الى السلطان خبر استشهاده ابن المقدّم وجماعته لاه على ترك الحزم واضاعته فاحتسبه عند الله غازيا شهيدا ساعيا الى الجنة بقدومه سعيدا وأقام ابنه عز الدين ابراهيم في بلاده بقمه وأقر عليه انعامه وقال محمد بن القادسي في تاريخه نقلته من خطه أراد أمير الحاج بالشام وهو ابن المقدّم أن يرفع علما على الجبل بالموقف فتعه أمير الحاج طاشتكين وجرت بينهما مراجعات اخضت الى الخصومة بين حاج العراق وحاج الشام ونهب البعض البعض وجرت جراحات فخرج ابن المقدّم ولم يغير العادة في ذلك ومات ابن المقدّم عني في اليوم الثاني ووصلت النجابه من مكة فأخبر بها مجرى من أصحاب ابن المقدّم وقد شهد الشهود بذلك من الحاج فقروا ذلك بجماع القصر الشريف قال وفي ثانی سؤال من هذه السنة توفي أبو الفتح محمد بن عبد الله بن عبد الله سبط ابن التعاويذي الشاعر وكان كاتب ديوان المقاطعات وخدم بيت ابن رئيس الرؤسا وأضر في آخر عمره ومولده عاشر رجب سنة تسع عشرة وخمسائة قال وفي خامس رمضان توفي الفقيه الحنبلي أبو الفتح نصر بن قتيبان بن مطر المعروف بابن المنى وكان فقهيا زاهدا صالحا عالما مولده سنة احدى وخمسائة وثقة عليه جماعة من أئمة الحنابلة كالخليفة عبد الله بن عبد الواحد بن سرور وأخيه ابراهيم والشيخ الموفق عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة ومحمد بن خلف بن راجح والناسخ عبد الرحمن بن نجيب بن عبد الوهاب وعبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الحنبلي وغيرهم

ثم دخلت سنة أربع وعثمانين **✽** قال العماد خرج السلطان من عكا قزلاً على كوكب في العشر الاوسط من المحرم فحاصرها وصابرها ما فاقم يتمكن منها المنعته وحصانتها واورأها تحتاج الى طول مصابرة وصرابطه ولم يكن معه جميع أمرائه وأولياؤه وانما كان في خواصه فوكل بها قاضياً بالخيصة ووكّل بصفتة طغرل الجائد اركل واحده منهما في تجمعاته وسيرا الى الكرك والشوبك سعد الدين ككشبه الاسدي وكانت هذه الحصون الاربعة ضيقة المسلك صعبة المدرك قال ثم ان السلطان اشغل بلقاء الرسل الواصلين من جلته رسول صاحب آمد قطب الدين سكران ابن نور الدين محمد بن قزلباشا وارسلان وكانوا خائفين على آمد أن يسترجعها منهم السلطان لانها كانت لهم من مواهبه كما سبق فاستوثقوا بالوصلة باحدى بنات العادل وكان الامداد قد وکل أخاه السلطان في ذلك لما سار الى مصر وقدم رسولهم في ذلك فتمت الوصلة بينهما قال وأول من وصل والسلطان بكوكب اختيار الدين حسن بن غفراس مدير دولة قلع ارسلان بالروم وكان هذا الرسول مغري بلبس الحلي والدياج والوشى في يديه زفرود وخواتيم مرصعة بزيينة قتيلة بجواهر وياقوت ثمينة وفي عقوده ادرية ثمينة وفي يده عود من العسجد وكل عدته تبرها بجواهر وكان اذ شاهده السلطان تبسم وعامله بخلقه وقال هذا سافر بنضاره لينظر وبديار ليمصر وقال القاضي ابن شداد لما دخلت سنة أربع وعثمانين رأى السلطان الاشتغال بأخذ هذه الحصون الباقية التي لهم مما يضعف دلوب من في صور وبهيء أمرها فاشتغل بذلك ونزل رحمه الله على كوكب في أوائل المحرم وكان سبب بداهته بكوكب انه كان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن يدخل اليهم قوة أو حدة يخرج الفرغ لئلا يأخذوا غرتهم وكبسوهم بعقر بلا وقتلوا مقدمهم وكان من الامراء يعرف بسيف الدين أختي جاولي وأخذوا أسلحتهم فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها من كان معه من خواصه بعكا فانه كان قد أعطى العساكر دستورا ولقي في طريقه شدة من النبل والبرد فحلت السلطان مع ذلك الحمية على النزول عليها وأقام بقاها لئلا يمتد وقال وفي تلك المدة وصلت الى خدمته فاني كنت قد هجيت سنة ثلاث وعثمانين وكانت وقعة ابن المقدم وخرج يوم عرفة على عرق فخلق جري بينه وبين أمر الحاج طاشتمكين على ضرب الطبول والديبة فان أمير الحاج نهاه عن ذلك فليته ابن المقدم وكان من أكبر أمرائه الشام وكان كثير الخير كثير المغزاة فقد رآه الله ان يخرج بعرفة يوم عرفه ثم حل الى منى فبحر وحافات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الاكبر وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم ودفن بالمعلى وهذا من أتم السعادات وبلغ ذلك السلطان قدس الله روحه فتق عليه قال ثم اتفق الى العود من الحج على الشام لقصصه القدوس وزيارته والجمع بين زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وزيارة أباه ابراهيم عليهم الصلاة والسلام فوصلت الى دمشق ثم خرجت الى القدس قبله خبر وصولي فظن اني وصلت من جانب الموصل في حديث فاستحضرني عنده بالغ في الاكرام والاحرام ولما ودعته ذهابا الى القدس خرج الى بعض خواصه وأبلغني تقدمه الى بأن أعود أمهل في خدمته عند العود من القدس فظننت انه يوصيني بهم الى الموصل وانصرف الى القدس الشريف يوم رحيله عن كوكب ورحل رحمه الله لانه علم ان هذا الحصن لا يؤخذ الا بجمع العساكر عليه وكان حصنا قويا وفيه رجال شداد من بقايا السيف وميرة عظيمة فرحل الى دمشق وكان دخوله اليها في سادس ربيع الاول وفي ذلك اليوم اتفق دخولي الى دمشق عائدا من القدس فأقام رحمه الله في دمشق خمسة أيام وكان له غائباتها أربعة عشر شهرا قال وفي اليوم الخامس بلغه خبر الفرغ انهم قصدوا جليل واغتالوا خارج من تحتها ساعة بلوغ الخبر وكان قد سيرا الى العساكر ليستدعها من سائر الجوانب وسار يطلب جليل فلما عرف الفرغ بخروجه كفوا عن ذلك وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ومظفر الدين الى حلب فأصدين الخدمة للقراءة فصار نحو حصن الاكراد في طلب الساحل الفوقاني ولما كان مستهل ربيع الآخر نزله على قلبة حصن الاكراد ثم سيرا الى الملك الظاهر ولده والملك المنظر بأن يجتمعاً وينزلان بيزنيز قلبة انطاكية لحفظ ذلك الجانب ففعلوا وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بخدمة السلطان في هذه المدة ووصلت اليه رحمه الله في هذه المدة لانه كان قد سيرا الى دمشق يقول لثقتنا نحو حصن فخرجت على عزم المسير الى الموصل فتحذر ذلك فوصلت اليه امثالاً لالامره فلما حضرت عنده فرحني وأكرمني وكنت قد جمعت له كتابا في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها بجميع آراءه وأحكامه فتقدمته بين يديه

في أخبار (١٢٥) الدولتين

فأنجبه وكان يلزم مطالعته ومازلت أطلب دستوراً في كل وقت وهو بدافعني عن ذلك ويستدعي الحضور في خدمته في كل وقت ويبلغني على السنة الحاضرين ثنائوه على ذكره أباي بالجيل فأقام في منزلته تلك شهر ربيع الآخر اجمع وصعد في أناته إلى حصن الكراد وحاصره يوماً يجسه به فأرأى الوقت يحتمل حصاره واجتعت العساكر من الجوانب وأغار على بدطربس في هذا الشهر دعتين ودخل البلاد مغيرة ومختبراً لمن بهما من العساكر وتقوية العساكر بالقنائم ثم نادى في الناس في أواخر الشهر أناداً خلون إلى الساحل وهو قليل الأزواد وهو محيط بنا في بلاده من سائر الجوانب فأجلاوا شهر ثم سيرا إلى مع الفقيه عيسى وكشف لي أنه ليس في عزمه أن يكتني من العود إلى بلادى وكان الله تعالى قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيت وجهه في الجهاد فاحببته إلى ذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى وهو يوم دخوله الساحل الأعلى وجميع ما حكيت من قبل انما هو رابتي عن أنى به من شاهدوه ومن هذا التاريخ ما أسطر الاما شاهدته. وأخبرني به من أنى به خبراً يتارب العيان والله الموفق

(فصل) قال العماد كان جماعة من أهل الحزم وأولى العزم قد أشاروا على السلطان لما فتح عكا بخربها وتغيبه آثارها وان يبقى المرباطون المحامون مكانها فلان من عود الفرج إليها وتلكها وان تبنى قلعة القيمون فكاد يوجب فقل له هذه مدينة كبيرة وعمارة كثيرة وأشير عليه بتبقيتها وان تعمروا وتحصن فولى أمر عمارتها وتديرها الأمير بهاء الدين قرقوش وهو الذي أدار السور على مصر والقاهرة فاستدعاه من مصر وأمره أن يستيب في تلك التجارة فقدم عليه وهو بكوكب ففوض إليه عمارة عكا فشرع في تجديد سورها وتعليق أبراجها وكان قدم من مصر ومعه أساتذ العمل وانفاره وآلاته ودوابه وبقاره قال ولما رتب السلطان على كوكب رحل مستهل ربيع الأول ودخل دمشق في سادسه وكان العسكر الغائب على مواعدة المعاودة في الربيع وأنه يجتمع على حصن بالجمع وكان طريق السلطان على بحيرة طبرية من شرقها وتجنب عقبه بقب لا تستعاب رقبها ولما فارب السلطان دمشق لتقاء الناس أحسن إقاء فقد كانوا متعطشين إلى رؤيته ومشوقين إلى طاعته لأنه غاب عنهم سنة وشهرين وخمسة أيام فكسروا رقبها الكفر ونصر الاسلام وفتح فيها الارض المقدسة واشباهها من البلاد التي كانت باوضار الكهر منجسه فأصبحت بالامان مؤسسه فلما استقر قراره أمر بإنشاء الكتب لاستدعاء الاجناد من الجهات للجهاد من سائر البلاد وابتدأ بالجلوس في دار العدل ويحضره القضاة والعلماء من أهل الفضل قال وكان السلطان قد ولى دمشق بدر الدين مودود المعروف بالشحنة وهو أخو عز الدين فرخشاه لأمه وفوض إليه في هذه الايام ولاية الديوان وكان مع الصفي ابن القابض فقيت معه الخزانة وحدها وكان الصفي قد بنى لسلطان داراً مطة على الشرفين بالقلعة وافق عليها أموالاً كثيرة وبالغ في تحبيرها وتحسينها ووطن انها تقع من السلطان مكاناً فأغارها طرفاً ولا استحسنها وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي أوجبت عزله عن الديوان وقال ما يصنع بالدار من يتوقع الموت وما خلقنا إلا للعبادة والسعي للسعادة وما جئنا دمشق لتقسيم وما نرمون ان لا نرم. قال ثم هم بالفتوة فبد أن يارة القاضي الفاضل وكان مقبلاً يجوسق أن الفراش بالتشرف الاعلى في بستانه فاستضاع برأيه فجار بدفعه وكن لا يأتى أمر الامن بابه فأقام عنده إلى الظهر ثم ودعه ورحل قلت وما أحسن ما قال ابن الذروري في الآراء الفاضلية من قصيدة مدحها

لأريك هذا النصر لادين ينقضى * فلا يتخذه كل عصب ولهم

وان كان فيه لاسنة والظبي * مساعدة فالفضل للثقتهم

تصبر على الاسلام منك فراسة * لها خزم طربوا حتر ازمنجم

وتحميه ألفاظ ليدك كأنها * قواطع بترأوا فذا سهم

الاحبذا فتح نشرت لواءه * وقلت لجيل الله يا خيل افدي

وقت وقد نام الانام مناجيا * بولاي نفع المسلمين وسلم

(فصل) في دخول السلطان ربه الله الساحل الآخر وفتح ما يديره الله تعالى من بلاده قال العماد ثم رحل السلطان فسلك في جبل نبوس إلى عين الجبر إلى الدلمية على البقاع واتى بعلبك وخيم بمرج عدوثة ثم رحل على

سمعت الببوة ثم أتى الدزاعه ووصل الخبر بوصول عماد الدين صاحب سمخار في جموعه وجنوده ونزوله على قدس من
 عمل حصص على نهر العاصي ولما زار آي موكمه لملوك السلطان تقابل القهران وتقارن التيران واجتمع السعدان
 وسعدا الجمعان فحجم السلطان عند محججه وسأل ان يزوره السلطان بموكمه فاجاب دعوته ثم رتب السلطان يوما
 لحضوره عنده وتماديا وتضافيا وكان أيام الشمس وقد وصل من دمشق فأفرح قدومه وضلعت في أبراج الاطباق
 فجموعه كأنها كرات من التبر مصوغه وبالورس مصبوغه صفرا كأنهم الثمر الزايات الناصرة حلا منظر اودقا
 ولونظم جوهره لكان طوقا كأنما هو خط من الصندل وخلط بالماندل وجذ من اللبج والعسل وتصاحب هو
 والسلطان في الركوب والجلوس والتناجي بما في النفوس وتكررت المشاوره في الموضع الذي يشتد بقصده
 واتفقوا على عرقا وعقرها والنزول بعقرها وانها اذا ملكت ملكت طرابلس فاقاموا بقدس الى آخر الشهر حتى
 اجتمعت الجموع ووصلت قبائل العربان ثم سار السلطان أول ربيع الآخر ونحيم بقرب حصن الاكراد على البقيعة
 ثم شن الاغارة على نواحي الحصن وصافينا والعربعة وتلك الحصون فاستخرج ما فيها من الخزون وقمع حصن
 يحجور وسامة الدمور ولم تزل الاغارات والغنائم وهم في تلك المزله الى آخر الشهر فوصل قاضي جبلة منصور
 نبيل وجماعه معه فاشار على السلطان بقصدها وتكفل بتفتيحها وفخ اللادقيه وتلك الحصون والمعقل الشماليه
 وكانت تلك البلاد قد سلمها اليه ارنس انطاكية وعزل عليه فيها وقال ان الاشغال بطرابلس مع احتراسها ذهب
 الزمان ويقوت الامكان والمسلمون بجبله محبسون على التسليم مؤملون ان يتبدل شقاؤهم منك بالنعيم فاصفى
 السلطان الى قوله وأصنى له وورد طوله وكان قد وصل اليه مقدم وجبل بهرا فوفر لهم رواتبهم وأجرى فندبوا الى
 أتباعهم وكتبوا الى أشياعهم

(فصل ١٠) في فتح انطربطوس قال العماد واجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكرو والمخافز
 فمرحل يوم الجمعة رابع جمادى الاولى فسرنا في أجام مؤتسبه واكم معسبه وخزون وسهول وشعاب وتاول حتى
 خر جنائنا ساحة الساحل ونزلنا بها وسرنا الساحل الساحل في ثلاث مراحل حتى وصلنا الى انطربطوس سادس
 الشهر فاحدقنا بها من البحر الى البحر فاخلي الفرنج البلد وما خر جوالا الحصص واجتمعوا في رحين عظيمين ها
 لانطربطوس كالتفتين ونفوا اليهم ما من الاموال ما قدروا عليه فحضر مظهر الدين كوكبرى أحد البرجين حتى
 أنزله بالامان ثم ثقبه من أساسه وألقاه على أم راسه وبخل دماره ورعى في البحر أشجاره وملك جميع ما فيه
 وامتنع البرج الآخر وفيه الدوابية وشركتهم ومقدمهم الذي أسر يوم حطين وأطلق لماسلم ما اشترط عليه من
 البلاد ثم اجتمع بها صباه في هذا البرج وقواه بالان الحضر فامتنع فتحه فاشتغل المسلمون بتعظيمه البلد واخفائه
 وقال القاضي ابن شذاد دخل السلطان الساحل على تعبئة لقاء العدو ورتب الاطلاب وسارت الميمنة أولا ومقدمها
 عماد الدين زنكي والقلب في الوسط والميسرة في الاخر ومقدمها منفر الدين بن زين الدين وسار على النقل في وسط
 العسكر حتى أتى المنزل فتهنأ تلك الليلة في بلد العدو ثم رحل في صبيحة السبت وزل على العربية فلم يقابلها ولم يعرض
 لها ولكن أقام عليها ببقية يومه ورحل يوم الاحد ووصل الى انطربطوس فوقف قبالتها ينظر اليها وكان في عزمه
 الاجتياز الى جبله فاستهان بها فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر وأمر الميسرة بالنزول على
 البحر من الجانب الآخر فاستتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور وغشم العسكر جميع من بها وما بها
 وخرج الناس والاسرى بايديهم وأموالهم وزك العلمان نصب الخيم واشتغلوا بالكسب والنهب ووفى بقوله
 رحمه الله فانه كان قد عرض عليه الغدا فقال تغدى بانطربطوس ان شاء الله تعالى وعاد الى خيمته فراح مسرورا
 وحضرنا عند مالهنا بما جرى ومد الطعام وحضر الناس وأكلوا على عادتهم ورتب على البرجين الباقيين الحصار
 فسلم أحدهما الى مظفر الدين فما زال يحاصره حتى آخر به وأخذ من كان فيه وأمر السلطان باخرا ب سور البلد
 وقصمه على الامراء وكان البرج الآخر حصينا منيعا مبنيا بالبحر النحيت وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والمقاتلة
 فيه وخندقه فيه الماء وفيه جروح كثيرة تقبح الناس عن بعد فرأى السلطان تأخير حصره والاشتغال بما هو أهم
 منه فاشتد في خراب السور حتى أتى عليه وخرت البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج اليها من أقفار بلادهم

وأمر بوضع أنثاري البلد فاحرق جميعه والا صوات مر تفعه بالتهليل والتكبير وأقام عليها يخربها الى رابع عشر الشهر وسار يريد جبلة وعرض له ولده الظاهر في أثناء طريق جبلة ومعه العساكر التي كانت بتيزن

(فصل ١٠) في فتح جبلة وغيره قال القاضي ابن شداد وكان وصول السلطان الى جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر وما استتم تزول العسكر حتى أخذ البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم وكان قد عمل على البلد فلم يتنع وبقيت القلعة محتجة ونزل العسكر محمداً بالبلد وقد دخله المسلمون واشتغل بقتال القلعة فقتلت قتلاً لا يقيم عذراً لمن كان فيها وسلمت بالآمان يوم السبت تاسع عشر الشهر وأقام عليها الى الثالث والعشرين وسارعها يطلب اللادقيمه وقال العماد بعد فتح انظر طوس وصل البناجرال حماة فرحل السلطان يوم الاثنين رابع عشر الشهر ونزل على مرقبه وقد أخلاها سكانها فخيم فيها أهل الاسلام وطاب لهم فيها المقام وكانت الطريق الى جبلة على الساحل ضيقة المسالك صعبة المراحل وهناك للفرنج الاسديار حصن يقال له المرقب مأهول معدور ولا طريق له الا تحت تله وانفق ان طاغية صقلية لما اشجاء ما تم على الفرنج في الساحل جهز اسطولا يستعمل من الشواني على ستين قطعة بحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعه وقدم عليها طاغية يقال له المرعيط فوصل وماضر ولا تنفع فان فرنج الساحل ما رفعوا به رأساً وتضجر وامنه وكان في عشرة آلاف رجل يحتاجون الى ميره وكلف كبيره فصار الى صور ثم رجع الى طرابلس وتردد في البحر وتلدد وابلس واضطرب أشورها لا يظهر له رأى ولا يرى له مظهراً فلما سمع بعبور عساكر المسلمين على الساحل الى جبلة جاء بالشواني وصفها على موازاة الطريق ومباراة الضيق وفيها الرماة فامر السلطان بنقل الجفاني الى هناك وتصفيقها وتكبير سائرها وأجلس الرماة من ورائها فزال الامر على ذلك والرماة ترمى وتسمى وعامة المسلمين في سلوك ذلك المضيق حتى خفت الانتقال وعبرت الاحمال وخلص المسلمون من ذلك الشق بغير مشقة وجاروا على مدينة يقال لها بلنياس وقد اتجلى عنها الناس فخيم المسلمون فيها ثم أصبحوا على الرحيل فاعتزضهم نهر عريض عميق مافيه طريق وهو مطرد من الجبل الى البحر وفيه منظر قواحدة فتكعبها السلطان بالحقول ومضى يمينا الى الجبل وأبعد حتى عبر فوق رأس العين واختلفت العساكر بالهر من الجانبين وتراجعت الانتقال على القنطرة فما خلصوا تلك الليلة الى آخرها ونزل السلطان قبل وصول الانتقال على بلده وهي بلدة كاسمها جلدوهي بلدة من غربي النهر على شاطئ البحر وجانبها الاخران بخندق وفيه البحران وقد أخلاها أيضاً أهلها وتفرق شملها وأصبح السلطان يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الاولى على جبلة فتسلمها المسلمون في الوقت وذلك ان فاضها كان قد سبق ودخلها وقرن بالنجح للمسلمين أملها فما وصلوها على الاعلام الناصرية على سورها وخلص المسلمون بها من مساكنة الكفرة وتخصص الفرنج بحصنها واحتموا بقلعتها فما زال قاضي جبلة يتخوفهم ويرعبهم حتى استعزتهم بشرط ان يستترهم الى ان يردوا من انطاكية رهائن جبلة من المسلمين فقبضت عنده جماعة من رؤس الفرنج والمقدمين حتى أعاد صاحب انطاكية الرهائن التي عنده فنك بهارها نائه وتولى قاضي جبلة الامر فاستخرج ذخائر الكفر ودفأته واستنظفهم من كل سلاح وعدة وخيل وقوة وجاء مقدمو الجبل سامعين مطيعين وفي الجبل على سمت طريق حماة حصن يعرف بيكر ائيل وكان أهل الجبل استعادوه من الفرنج منذ سنين فقتله السلطان أيضاً منهم ثم سلم جبلة الى سابق الدين عثمان صاحب شيزر وبجل قاضي جبلة وشرفه وحبس عليه ملكه نفيساً ووقته وصرفه في املاك آبائه وحكمه في ولاية حكمه وقضائه

(فصل ١١) في فتح اللاذقية قال القاضي ابن شداد وهي بلد ملح خفيف على القلب غير مسورة ولها ميناء مشهور وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد فقتل السلطان رحمه الله عليه يوم الخميس رابع عشر جمادى الاولى محمداً بالبلد وأخذ العسكر منازلهم مستدبرين على القلعتين من جميع نواحيهما الامن ناحية البلد واشتد القتال وعظم الزحف والنزال وارتفعت الاصوات وقوى الضجيج الى آخر النهار وأخذ البلدون القلعتين وغنم الناس منه غنمة عظيمة فانه كان بلد التجار وفرنق بين الناس الليل وهجومه وأصبح يوم الجمعة مقاتلاً مجتهداً في اخذ النقوب من شمالي القلاع وتمكن منها القبط حتى بلغ طوله على ماحكى من من ذرعه عشرين ذراعاً وعرضه اربع أذرعاً فاشتد الزحف عليه حتى صعد الناس الجبل وفاروا السور وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بجحارة اليد فلما رأى عدو

كتاب (١٢٨) الروضتين

الله ما خصل به من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الامان وطلبوا فاضى جبله بدخل اليهم ليقتر لهم قاعدة الامان فاجيبوا الى ذلك وكان السلطان رحمه الله متى طلب منه الامان لا يجذل به فعاد الناس عنهم الى خيامهم وقد أخذ منهم التعب فباتوا الى صبيحة السبت ودخل قاضي جبله اليهم واستقر الحال معهم على انهم يلقون بأنفسهم وذرائعهم ونسائهم وأموالهم خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب وأطلق لهم دواب ركوبها الى ما بينهم ورفق عليها العلم الاسلامي المنصور في بقية يوم السبت وأقنأ عليها يوم الأحد سابع عشر جمادى الاولى وقال الامام رحل السلطان الى اللاذقية يوم الاربعاء الثالث والعشرين من جمادى الاولى فبات بالقرب منها وصحبها يوم الخميس وقد لاذ أهلها بقلاعها وهي ثلاث قلاع متلاصقات على طول التل متناسقات كأنهن على رأس جبل راسخ وذروة أشم شامخ فسهل لنا فرعها وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها فطلبوا السجى الناصرى ونصبوه على السور عشرين يوم الجمعة فلما أصبحوا سعد اليهم قاضى جبله وانزلهم بالامان وتسلمت تلك القلاع بما فيها من عدة وذخيرة وأسلحة وميرة وخيل ودواب كثيرة وأمنوا على أنفسهم وأموالهم وانصرفوا بنسائهم ورجالهم وذريتهم وأطفالهم وخفوا من انقلاهم ودخل جماعة منهم فى عقد الذمة وتسكروا بجبل العصمة وانتقل الباقون الى انطاكية ثم ولى السلطان بهم ما لوكه سنقر الخنلاطى وركب السلطان الى البلد وطافه وهز الى احسانه اعطافه وأمنه بعد ما أخافه قال ورأيتها بلدة واسعة الافنية جامعة الابنية متناسقة المغانى متناسية المعانى فى كل دار رستان وفى كل قطر بستان أمكتها بخرمته وأروقتهما رجه وعقودها محكمه ومساكنها مهندسة مهندمه وسقوفها عالية وقطوفها دانسه وأسواقها قصية وآفاقها مضية وارجاؤها ضيعة وأموؤها صيحة لكن العسكرية عارثها وأذهب نضارتها ووقع من عذبة من الامراء الزحام على الرخام وتقلوا منه اجالا الى منازلهم بالنشام فتشوهوا وجوه الاماكن ومحووا سنن الحاسن قال وبظواهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة باجرا الاجراع مرصعة بألوان الرخام مجزعة واجناس تصاورها متنوعة وأصول تماثيلها متفرعة وهي متوازنة الزوايا متوازنة البناء قد تغيرت بها اشباح الاشياء وصورت فيها أمواج الامواه وزينت لاجوان الشيطان وعينت لعيدة الاوثان والصلبان ولما دخله الناس اخرجوا رنماها وشوهوا اعلامها وجروا نساها وكسروا اجرامها وأهدوا الاسى لها أساسها وأفاضوا عليها لباس ابلاسها وحكموا بعد الفنى بافلاسها فاقرت وأقرت وخربت وزبت ثم لما طابت النفوس وتجلى عن البلد بفقه البوس عاد الى هذه الكنيسة بالامان القسوس وهي مشوهة متشعبة متسكة بأركانها وقواعدها متشعبة قال ولقد كثرت أسفى على تلك العمارات كيف زالت وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت ولكنما زاد سرورى بأنها عادت للاسلام مراعى ولشموهه مطالع فلو بقيت بحليتها وحالتها بعدما تبدلت رشد هام من ضلالتها لساقت ورافت وكأنا فاقته فاقت ورغب فى إعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والارمن حبا للوطن ولما أراد السلطان الرحيل دخل المدينة ورأى سكانها السكينة ودار خللا ديارها وخرق أسواقها فى سائر أقطارها ووقف على البحر للنظر الى موانئها وشواطئها وأقاصيها وادانيتها وشكر الله على تمكنه من ملكها وتخصيصه بملكها وفى كتاب عمادى الى سيف الاسلام باليمن عن السلطان قال (وهذه اللاذقية مدينة واسعة وخططها معارضا وعلاقتها لا تنام وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها وأزندها اعمالا وصياعا وأزبنها ومافى البحر مثل مينائها وللراكب الواردة مثل مرسلاتها وهي جنة كان يسكنها أهل الجحيم وطما ما مكتب لا كفر دار برؤس فعدت بالاسلام دار نعيم) قال وكانت شوانى صقلية قد قامت فى البحر اللاذقية طمعاً فى امتناعها فلما خابت نيت ناراها وقصدت لجلبها أخذ من ركب من يخرج من أهلها حنقا عليهم كيف سلوا البلدة وجمعوا بيلها فكان ذلك مقتضى البقاء ساكنيها بالجزيرة تؤديها ولما وقف السلطان على شاطئ البحر بمساركة طلب مقدم تلك الشوانى امانه ليصعد ويشاهد سلطانه فأمنه فصعد وعرف وكف وزى ساعة وتفكر وقال ما معناه أنت سلطان عظيم وملك رحيم وقشاع عبدك وذاع فضلك وقهر سلطانك وظهر احسانك فلومنت على هذه الطائفة الساحلية الخائفة للمعصية قيادها اذا أعدت اليها بلادها وصاروا لك عبيدا وأطاعوك قريبا وبعيدا والاجاءك من وراء البحار فى عدد الامواج أفواج

في أخبار (١٢٩) الدولتين

هذا فوج وسار اليك ملوك ذوى الاقانيم من سائر الاقاليم وهؤلاء اهلون منهم فازكم واصفح عنهم فقال له سلطان قد امرنا الله بتهديد الارض ونحن فاعثون في طاعته بالفرض وعلينا الاجتهاد في الجهاد وهو الذى يقدرنا على دفع البلاد ولوا جمع علينا اهل الارض ذات الطول والعرض لولا كناعنا على الله في المقام ولم نبال باعداد الاعداء فصلب على وجهه وركب بكرة به ولم يغن خطابه عن خطبه

(فصل ٤) في فتح صهيون وغيرها قال القاضي ابن شدد ادرحل السلطان عن الازقية ظهيرة الاحد السابع والعشرين من جمادى الاولى طالب صهيون فزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الاربعاء ونصب عليها ستة مجانيق وهي قلعة حصينة منيعه في طرف جبل خدادقها اودية هائلة واسعة عيقه وليس لها خندق محفور الا من جانب واحد مقداره طول ستون ذراعا ولا يبلغ وهو قمر في حجر ولها ثلاثة اسوار سوران دون روضها وسور دون القلعة وسور القلعة وكان على قلعتها عجل طويل منصوب تحين اقبل العسكر الاسلامي شاهده وتوقع فاستبشر بذلك المسلمون وعلموا انه النصر والفتح المبين واشتد القتال عليهم من سائر الجوانب فضر بها مخنيق ولده الملك الظاهر وكان نصيبه في الجهة قريبة من سورها فاطع الوادى وكان صائب الحجر فلم يرل يضر بها حتى هدم من السور قطعة جيدة عظيمة تمكن الصاعد في السور من الترقى اليه منها ولما كان يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان على الزحف وركب وتقدم وتنازرت المنجنيقات بالضرب وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالكبير والتهلل ولما كان الساعة حتى رقى المسلمون على اسوار الارض واشتد الزحف وعظم الامر وهمج المسلمون الرض ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدر وقد استوى فيها الطعام فيما كلونها وهم يقفون القلعة وانضم من كان في الرض الى القلعة عما أمكنهم أن يخلصوه من أموالهم ونهب الباقي واستدار المنجنيقات حول اسوار القلعة فلما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الامان فامنهم السلطان على أن يسلموا بانفسهم وأموالهم وأخذ من الرجل منهم عشرة دنانير وعن المرأة خمسة دنانير وعن الصغير ديناران فسلمت القلعة وأقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيدو بلاطس وغيرها من القلاع والحصون تسلمها الثواب فانها كانت تتعلق بصهيون وقال المجاذكان الطريق الى صهيون في اودية وشعاب ومناقص صعب وأوعاث وأوعار واتحاد واغوار فقطعنا ذلك الطريق في يومين ووصلنا ليلة الثلاثاء ليلة الاثنين وخمينا على صهيون يوم الثلاثاء وهي قلعة على ذروة جبل بين واديين عميقين يلتقيان عليها ويدوران حولها والجانب الجبلى مقطوع منه بخندق عظيم عميق وسور وثيق مالى السوى للفضاء والقدر من طريق والقلعة ذات اسوار خمسة كأنها خمس هضاب ممتلئة بذئاب سخاب وأسد غضاب وأحاط العسكر بها يوم الاربعاء من نواحيه الاربع وهي ممتنعة على نياها الركن الامنع والسما لا تمتع ونقل السلطان خيمته الى جانب الجبل وأقام الظاهر غازي صاحب حلب بمنجنيقين ونهيج بهما من جانب الوادى الى رد الاعادى طريقين وكان له بفتح هذه القلعة الجدة العالى والجدة المتوالى فانه اتصل بنا قبل الوصول الى جبلته من طريق حماه وقد استعجب الكماة الجناء ومعه الرجال الحلبيه والمنجنيقية والجرحيه والجناد اريه والخراسانية واستعجب الحبارين والحذادين والتجارين فأظهر على صهيون اليد البيضاء وأبارق فضاء الفضائل واضاء وكان نازلا على جانب الوادى مقابل الحصن وشرع المجادى فى الانتفاض وأصبحتنا يوم الخميس والليلاميد وقوع للسور سجود وركوع وما زالت المجانيق من جانبها وجانبنا ترمى والحنايا سهام المنيا تصبى حتى قتل وجرح أكثر مقاتلة الحصن وهان عماد فيه من الوهن وأصبحتنا يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة وبحر الحرب في أمواجه الزاخرة وتطرق أصعبنا من قرنة خفيت عليهم من الخندق لم تحكم عمارتها كأن الله أعادهم عنها حتى يسلك الخندق اليهم منها فتعلقوا بالصخور وتساقوا السور وملكو اعليهم ثلاثة أسوار واحتوا على كل ما فيها من ذخائر وغلال ودواب وابقار وازدحم الفريخ في القلعة وتفاودا من الخوف لامن القلعة وصاحوا الامان وبذلوا الاذعان ونادوا مكنونا من السلامة وتسلموا المكان فما امنوا على المال والنفس حتى قربنا عليهم مثل قطعة القدس وأغلقت دونهم الابواب وسرت بهم الثواب وما استقر خروجهم حتى استخرج القرار وجى الدرهم والدينار وعم الصغار الكبار والصغار وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندادر ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ما حواه من

نخائر وأمواله الى الامير ناصر الدين منكور بن بخاريكين صاحب بوقيس فأحكه وحصنه وحفظه وحسنه وتسلم يوم السبت قلعة العيد ويوم الاحد قلعة الجاهريين ويوم الاثنين حصن بلاطس ونذب الى كل حصن من تسلمه وسلكه في سلك الفتوح ونظمه قال وفتح صهيون حصل الامن على اللادقية وقوى الامل في فتح انطاكية فانه قتل محكم على بابها وسبب قوى من أسبابها ففتح الرناج ووضع المنهاج

(فصل ١٠) في فتح بكاس والشفر والسرمانية قال القاضي ابن شداد ثم رحل السلطان وسرنا حتى أتينا بكاس وهي قلعة حصينة على جانب العاصي ولها نهر يخرج من تحتها وكان النزول بذلك المنزل على شاطئ العاصي يوم الثلاثاء سادس جادى الآخر وصعد السلطان جريدا الى القلعة وهي على جبل مطل على العاصي فاحدق بها من كل جانب وقال لها قتلا لاشديد بالخنفيات والزحف المضايق الى يوم الجمعة أيضا ناسع جادى الآخر ويسر الله فتحها عنوة وأسرم فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ما كان فيها وكان لها قلعة تسمى الشفر قريبة منها يعبر اليها منها بجسر وهي في غاية المنعة ليس اليها طريق فسلط عليها الخنفيات من سائر الجوانب ورأوا انهم لا ناصر لهم فطلبوا الامان وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشره وسألوا ان يؤخر واثلاثة أيام لاستئذان من انطاكية يسر الله فتحها فأذن في ذلك وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشره ثم عاد السلطان الى الثقل وسير ولده الظاهر الى قلعة تسمى سرمانية يوم السبت سابع عشره فقاتلها قتلا لاشديد واضاعها مضايقة عظيمه وتسلمها أيضا يوم الجمعة ثالث عشرى الشهر المذكور قال فاتت فتحوات الساحل من جبلة الى سرمانية في أيام الجمع وهو علامة قبول دعاء خطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر الله له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات قال وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتواليه لم يفتق مثلها في تاريخ وقال العماد سار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية ونزل على العاصي في طاعة الله على تل كسفهان فقتل حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر وحول خيمة خفيفة الى الجبل لحصار قلعة الشفر وهي قلعة شامخة من أعلى القلل مطلة على وادي عقيق وكان الكفار قد أدخلوا بكاس من الرعب واجتمعوا بقلعة الشفر وهي عالية حصينة منيعة لاتصل المجانيق اليها فاستصعب السلطان أخذها وخاف من طول أمرها فبينما هو مفكر في ذلك والفرح قد داخلهم الرعب فارسلوا في طلب الامان واستمسكوا ثلاثة أيام ففكر المساكين وفرحوا وأصبحوا يوم الجمعة والشفر شاغر والكفر صاغر فقتلها المسلمون ونصر فوافها وفيما تجو به من نخائر وعدود دواب وانعام وأنتم السلطان بها بقلعة بكاس وتلك الاعمال على غرس الدين فليج وكان هذا قليج قد تسلم كهردين وهو معقل حصين يسكنه الارمن في ذلك الصقع وبذل في استخلاصه غاية الوسع فولاه السلطان تلك الحصون وحاطا بالته أمرها المصون وعاد الى تخيمه يوم السبت وهو حسن السمعت كريم النعت قال وكان الملك الظاهر عند اشتغالنا بفتح قلعة الشفر قد نزل على سرمانية مضايقا لها بالحصر فقتلها يوم الجمعة ثالث عشرى الشهر وذلك بعد قطيعه قررهما وقبضتها وما أخرجهم عناد دخلها فابطل عمارتها وعطلها وهدم بنيانها وهذه أركانها ومارح حتى سواها بالارض وخطط طولها بالعرض قال وهذه ست مدن وقلاع فتحت في ست جمع تسباع جبلة والادقية وصهيون وبكاس والشفر وسرمانية وأطلق بها بالانفس والنفاس العائيه فقد كان في هذه المعازل من أسارى المسلمين عدّه لولا فتحها لما زالت عنهم تلك الشدة وهذا اقليم جبلة والادقية هو عين انطاكية التي فكتت ونخرها الذي عنه حلتت ولم يبق لانطاكية من الحصون سوى ثلاثة القصير وبغراس ودر بساك وقد أصبحت معدومة الاطراف قد قطعت أيديها وأرجلها من خلاف

(فصل ١١) في فتح حصن برزبه قال القاضي ابن شداد ثم سار السلطان جريدا الى قلعة برزبه وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الفرج والمسلمين يحيط بها أودية من سائر جوانبها وذرع عولقتها فكان خمسمائة ذراع وبقا وسبعين ذراعا ثم حرم عزمه على حصارها يمددونها واستدعى الثقل فتل تحت جبلها وفي بكرة الاحد الخامس والعشرين من جادى الآخر صعد السلطان جريدا مع المقاتلة والخنفيات وآلات الحصار الى الجبل فاحدق بالقلعة من سائر نواحيها وركب القتال عليها من كل جانب وضرب اسوارها بالخنفيات المتواترة الضرب ليلسا ونهارا وقتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين فغشم العسكر

ثلاثة أقسام ورتب كل قسم يقاتل شطرا من النهار ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر بحيث لا يفتقر القتال عنها أصلا وكان صاحب النوبة الأولى عاد الدين صاحب سخبار فقاتلها قتالا شديدا حتى استوفى نوبته وضر من الناس من القتال وراجموا عنه وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه وركب وتحرك عدة خطوات وصاح في الناس خملوا حمله الرجل الواحد وصاحوا بصيحة الرجل الواحد وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقى الناس على الأسوار وهجموا القلعة وأخذت عنوة واستغاثوا الأمان وتدملت الأيدي منهم فلم يك يبقهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ونهب جميع ما كان فيها وأسرجيع من كان بها وكان قد أوى إليها خلق عظيم وكانت من قلاعهم المذكورة وحصونهم المشهورة وكان يوما عظيما وعاد الناس إلى خيامهم غائمين وعاد السلطان إلى النقل وأحضر بين يديه صاحب القلعة وكان رجلا كبيرا منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر تمساخا عليهم السلطان ورق لهم وأنفذهم إلى صاحب انطاكية استمالته فانهم كانوا يتعلقون به ومن أهله وقال العماد وصف للسلطان قلعة برزيه وانها الحصن افاضية متأخمه وله مناصفة مقاسمه وان المسلمين من جوارها في جور وفي حوزة بعدد دور ووصفوا علوها فربك السلطان اليها وأشرف عليها فالقها كما وصفوها وبالغوافها وما انصفوها فنهس عليها المجانيق فوقعت أجارها دونها ولم تحرك سكنوها وكيف نهضوا لخنسها بصخر والعناء بصقر وجر الجبل بجر ومدار الفلك بمدر فلما رأى السلطان ذلك قوى رأيه على ان يفرق العسكر ثلاث فرق ويتناوبون على قتالهم زحفا ليتعبوهم ويضجروهم فانهم عدد محصور عاتل تفتى عدتهم وقتل عدتهم ففعل ذلك وكانت النوبة الاولى لصاحب سخبار والنوبة للسلطان وخواسمه امتزجت الثالثة بالنوبة وعادت رجال النوبة الاولى وتناصرت أنصار الله على الزلزال لاستئزال النصر واحدوا عاقبة الصبر في الحصر فطلب العدو الأمان وأرسلوا إلى السلطان وكان أصحابنا خاطبهم وبسطوهم وأحاطوا بهم وهناك جماعة من دهاة العسكر أشاعوا للناس ان السلطان يؤمنهم فرجع العالم عنهم ولم يلبوا منهم فلما رد السلطان رسوهم ولم يؤمنهم ساقوا ولثك السبا ياقدهم كما يسوقون أغنامهم وخافوا اخوانهم وراموا حرمانهم وتفرقوا بالسبي أيدي سبا وسافروا بها من العسكر إلى البلاد وابعوها في سوق الكساد وتسلم السلطان حصن برزيه ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جادى الآخرة وولاه الامير عز الدين ابراهيم بن الامير شمس الدين مجد بن المقدم وهو صاحب حصن افاضية مناظر برزيه وهو على الثغر وما بين الاثنين بحيرة تحجز الجانيين وصيادوها المسجون بافاضية فخلص للاسلام الثغر وسكن الدهر قال وكانت صاحبة حصن برزيه زوجة الابرنس صاحب انطاكية قد سبيت وخبيت فما زال يطلبها حتى أظهرها وأحضرها وزوجها وابنتها وجماعة من أصحابها وصهرها وكانت امرأة ابرنس انطاكية تعرف بدم سبيل في موالاة السلطان عينه على العدو تهديبه وتسامحه وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرها لذلك ويهذى اليها أنفس الهدايا فلما فتح حصن برزيه وحصل في أسره هذه الجماعة واقتربت بهم أيدي المسلمين تبعهم السلطان وخلصهم من الأسر وأنعم عليهم وجهزهم وسيرهم إلى انطاكية لاجل امرأة ابرنس فشكرته على ذلك ودامت مودتها ونفعها للمسلمين وفي بعض كتب البشائر العمادية (آخر ما فتحناه حصن برزيه الذي تضرب بحصانه الامثال ولا ترفى إلى ذروة تنميه الآمال وقد أخذناه بالسيف عنوة وفتحناه ضحوة فبالحام ضحوة ليوم الثلاثاء ظلمت على أهل التثليث والهي الله المؤمنين عن ذكر الفتوح القديمة بحدوث هذا الفتح الحديث ولو كان الله إلى اجتهادنا في الفتح لعذر ولكنه سبحانه سهل ويسر) ومن كتاب فاضلى إلى السلطان (وصلت كتب البشارة بفتح حصن برزيه وهو الذى تضرب به الامثال وتضرب عنه الآمال ويكاد يحزن اذا فادت أيدي السلاسل ازمة الجبال ويكاد يذم ساكنيه من خطرات الاجال بل من خطوات الآمال وكان لكفر درعا حصينة طالما كانت تهزأ بالنصال فعظمت المنية السلطانية عند أهل الاسلام ودعوا بان يفتح الله حجة مسيئة الداخل خصام وقد كان الناس بعدون مواهبه عما التحصى فقد تحققت بها افتقاراته فهى أيضا لا تحصر فرحنا بفتوحه بقول غائبها الحمد لله وحاضرها الله أكبر وما بقى الملوك يستبطى خبر انطاكية فقد ألقت الأرض افلاذها وقد ولدت ذكر مهذهبا ولنصره فولاذها ولم ترقى نعم الله مثلها نعمة كريمة وجبه ولا تعرف بعدها للزمن سيرة ولا كرمه الا انار جع في معرفة قدرها

واخلاص شكرها الحماضيه الله شكرهم نجاه من أهوال يوم القيامة وأدخله دار المقامه بانهم قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن الحمد لله الذي صدقنا وعده الحمد لله الذي هدانا لهذا وكان آخرو دعواهم أن الحمد لله رب العالمين فرضى بالحمد منهم ورضى عنهم وأثنى عليهم بانهم اختتموا به وافتحوا وقد سواه وسبحوا وثقلت به موازين أعمالهم فرجوا ونجوا ونحن نقول الحمد لله على بركة الدنيا بما لا نأونضرتها وعلى عز الملة بما لا ونصرتها وعلى بركة القلوب بمصرتها وعلى غنى الأبدى بمصرتها وعلى روعة قلوب الأعداء بمصرتها وان تعد وانعمة الله لا تحصىها وفتح مولانا من تلك النعم وان قصرنا في شكرها فانا نقص في ذكرها وان عجزنا عن حصرها فانا عجز عن المعرفة بفضل قدرها وتلك النعم بحمد الله منتظمة العقود مطردة السعد متوافية الرسل عامرة السبل خارقة العوائد قارة المساعي بالمساعد كادت العيون قبل وقوعها تلحظها وكادت المنابر لما يدرس عليها من كتبها تحفظها فما شرح صدر من خبرها فسمعته ذو صدر الانشرح وما يسأل الناس هل فتح الملك الناصر وانما يقال ما اسم البلد الذي فتح فن عند مولانا الجنان ومن عندنا اللسان فوعليه الجهد وعلينا الحمد فهى فوح كبريات الجنه لامة مقطوعة ولا منوعه واعمالها المبرورة الى الله مرفوعة ومن قصيدة لاشهاب فتيان الشاغورى وقد تقدم بعضها

لما ملك حصون انطاكية * يئس الصليب وخزه من مظهر
أريدت كل مثلث متكبر * بموحـد متراضع ومكبر
برزت الى برزيه عزمتك التي * مدت يدا عن مطلب لم يقصر
فتناولته بيدها من باذخ * فى الافق ذى مثل بروع مسير
فانقض لصور فهى أحسن صورة * فى هيكل الدنيا بدن لمصور
ما سور صور عاصم منه وهيل * سور العاصم عاصم المسـور

(فصل ١٠) فى فتح حصن در بساك قال الفاضل ابن شداد ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياما وسار حتى نزل على در بساك يوم الجمعة ثامن شهر رجب وهى قلعة منيعة قريبة من انطاكية يسار الله فتحها فقتل عليها وقتلها قتلا شديدا ما تخفى قات وضابطها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها وتمكن النقب منه حتى وقع وجوه الرجال والمقاتلة وتوقف فى الثغرة رجال يحجونها عن يصعد فيها قال ولما دنا شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل فام غير مقامه وهم قيام عوض الجند ارمكشوفين واشتد الامر حتى طلبوا الامان واشترطوا مراجعة انطاكية فوكت القواعد ان يتزلوا بانفسهم وثياب ابدانهم لا غير ورقى عليهم العلم الاسلامى يوم الجمعة ايضا ثانى عشر رجب وأعطاهم الدين سليمان بن جندر وسار عنهما من القديرة السبوت وقال العماد ثم عبر نهر العاصى الى شرفيه عند شقة يفر كوش وهو تغرق على الفرات للاسلام منيع بجزائه وخيمنا على جسر الحديد أياما حتى استكمل العسكر راحته وتكامل ونحن يقرب انطاكية وقد صوبت البها عزنا الناصيه ثم قلنا قد اقامها حصون وحماها بحمايتها مصون فاد اذ عبت معنا ثلها جاءتها غواؤها فتلنا على در بساك وهو حصن للدواية وقد اعتصموا ببعضه وامتنعوا بجمعه فصبنا عليه المنجنيقات فما زالوا يهاجمون ويتخلدون الى ان ضاق بهم الخناق وتسلى النقبون الى الباشورة وهـدوا بالنقب برجا وسعوا للزحف فتهجما فطلبوا الامان وفقدوا أنفسهم بالوفى فامتنعوا على انهم يخرجون بهم انهم وثياب ابدانهم ويدعون كل ما فى الحصن من خيل وعده وذخيرة وغله واثاث وقاش وذهب وفضه وأهملوا ثلاثة أيام ثم أخرجوا من ديارهم وتسلم الحصن يوم الجمعة الثانى والعشرين من رجب وفى بعض الكتب العمادية (هذه المكتبة مشرفة بالفتح الاهتى والنصر الاسنى وهو فتح در بساك الذى لم يكن لانطاكية الابيه الامتساك وقد قص الان جناحها وقتل سلاحها وحق قرحها وبطل اقتراحها وخرجت باخراج حصونها من ولايتها ارواحها وقد بقيت عرضا للعسكر وعرضا بلا جوهر وشهابا لغير روح وصدر اغير مشروح والكفر مغجوع بالنفس والبلد والامل والولد ونحن لاراحة لنا الى هذا التعب ولا أرب لنا فى غير هذا الارب ولا اجتهد لنا الى الجهاد ولا مغزى لنا غير القزاء وما نرجو من الله الا الفخار العبدات فى جميع العداة

أصبحنا يوم الثلاثاء وقد ساء صباح المثلثين وبان صباح الموحدين وأينما أنهم الان يقدوا نفوسهم وينزعوا من الحرب أبوسهم ويحلبوا باسمهم ويلبسوا بوسهم ويجبروا بئساب أبنائهم وقد أدوا خمسة آلاف دينار من أثمانهم

(فصل) في فتح بغراس قال القاضى ابن شداد وهي أيضا قلعة منيعة أقرب الى انطاكية من دريساك وكانت كثيرة العدة والرجال فقلز العسكر في مرج لها وأحدق العسكر بها جريده مع انا احتجنا في تلك المنزلة الى يرك يحفظ من جانب انطاكية لتلايخرج منها من هجم على العسكر فحضر يرك الاسلام على باب انطاكية بحيث لا يشذ عنه من يخرج منها قال وأما نحن كن في اليرك في بعض الايام لرؤية البلد وزيارة حبيب النجار المدفون فيه عليه السلام ولم نزل نقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الامان على استئذان انطاكية وروى العلم السلطاني عليها في ثاوي شعبان وقال العماد ولما فتحت دريساك لم يبق لنا همة الا بغراس وقد شارف رجاأ أكثر الناس في فتحه الياس وهو حصن حصين ومكان مكين هولاء ودي وجارضايعها وغاب سباعها وهو يقرب انطاكية حصارها وحصارها وما لدواء وبنه دوا فقلز العسكر بين انطاكية وبينه يتقاضون منها للدين دينه ويشنون الغارات ويسنون النكبات ولا يرحون بازاء انطاكية صغارهم ولا هلهما فتحاوحتفا يتناوبون على سبيل اليرك ويدعون العمدة الى المعتزك وانس بينهم الا انهم فصعد السلطان جريده الى الجبل وأمر بنصب المجانيق حولها على تلك التل وتقل البها أحواض الماء ورواياه وبث في النواحي سراياه وفرق على الجميع عطاياه وأثنا عليه اسبوعا نجري اليه من كل مخبئ من فيض المجارة بنبوعا ونحن نفكر فيما يكون ومتى تم الحركة وفهم السكون وهذا يسكار بطول وتعب لا يزول اذ رأينا باب الحصن وقد فتح وخرج من الحصن من أخذ الامان لاهله وسلم الحصن بما فيه من الاموال وتقدر ما فيه من الغلة تخمينا باثني عشر ألف غراره وسلمها السلطان مع دريساك الى صاحب عزار علم الدين سليمان بن جندر وكتب عليه جميع ما في القلعتين من الموجود من المكمل والموزن والمعدود وكانت الغلة بانطاكية غالبية السعر فقلت كافي من تولى القلعة وقد باع الغلة وشفى من فقره بها الغلة ثم أشار بتخريبها وهدمها ولم يلمزم يحكمها وقال انماؤها غرر وحفظها على المسلمين ضرر وخطر بقاء الامر على ما حبسته بعد سنين وعاد اخلاها بضرورة المؤمنين فانه أظهر ذلك الوقت انه أخلاها وانه التخريب خلاها بقاء اليها مقدم الامر ابن لاون قد خلعها وأتم غاراته وكلها وذلك في سنة سبع وأثمان وهذا الحصن دريساك وبغراس كانا لانطاكية جناحين ولطاغية الكفر سلاحين فتم السلطان فتح هذه الحصون المذكورة مع ابراج ومغارات وشققان كثيرة حتى خلع ذلك الاقليم وتم انفتح العظيم وعادت الكنائس مساجد والبسج معابد والصوامع جوامع والمذابح لعمدة الشيطان مصارع

(فصل) في عهد الهدنة مع صاحب انطاكية وعود السلطان قال العماد كان السلطان قد عزم على قصد انطاكية فرأى هم الاجتاد لاسيما الغرابة قد ضعفت ونياتهم في الجهاد قد قترت وتسوقوا الى بلادهم والراحة من جهادهم وكان صاحب انطاكية قد اشرف على الهلاك وعلم انه ان قصد غلب فنقد أخار وجمعه رسول الى السلطان متدلا لايطلب الهدنة على انه يطلق من عنده من أسارى المسلمين وهم جمع كبير فقدها معهم مدة تسيرة ثمانية أشهر ثم تشرن الاوّل الى انتضاء ايار فيكون انتضاء الهدنة قبل ادراك الغلة واوان حصادها فيستريح فيها الاجتاد ويعودون بعدها الى فرض الجهاد فتم كتاب الهدنة وتوجه شمس الدولة ابن منقذ لتخليص الاسرى وانتقادهم منه وقال القاضى ابن شداد وفي بقية ذلك اليوم يعني يوم فتح بغراس وهو ثاوي شعبان عاد السلطان الى المخيم الاكبر وراسله أهل انطاكية في طلب الصلح فصالحهم أشد صحر العسكر وقوة خلق عماد الدين صاحب سنجار في طلب الدستور وعقد الصلح بيننا وبين أهل انطاكية لا غير على ان يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم وكان الى سبعة أشهر فان جاءهم من نصرهم والاسلموا البلد الى السلطان ثم رحل عنه يطلب دمشق وسأله ولده الظاهر صاحب حلب ان يجتاز به فاجابه فدخلها حادى عشر شعبان فاقام بقلعتها ثلاثة أيام ثم سار الى دمشق فاعترضه ابن أخيه تقي الدين وأصعده الى قلعة جاءه وبات باليلة واحدة فاعطاه جبلة واللاذقية وسار الى بعلبك وأقام بدير جهايو ما ودخل حمامها ثم أتى دمشق فاقام بها حتى دخل شهر رمضان وما كان يرى تطيل وقته الى بعلبك

كتاب (١٣٤) الروشتين

عن الجهاد مهما أمكنه وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها صنف وكتب
 فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم وقال العماد وودع السلطان عماد الدين صاحب سنجار والعساكر
 الغربية واتجهفهم بالتحف العجيبة وارتاح إلى العبور على ارتاح ووصل إلى حلب وقد خرج كل من به التلقي مستشرين
 بالاقبال المتضاعف المترقى وشاهدنا من النظائر دعوى المحاسن ناطره ووجوهنا ناضره وقلوبنا حاضره والسناشكره
 وأيدى يافى بسطها إلى الله لا يتبال بالدعاء متظاهره فأقام بقلعتها أياما يسيره وألقى ولده الظاهر قدسار فيها أحسن
 سيره ثم سار منها على طريق المعرة وقصد زيارة الشيخ الزاهد أبي زكريا المغربي عند مشهده عن عبد العزيز
 رحمه الله فتبكر بزيارة أميت والحقى ثم وصل إلى حماة فتمزق بقلعتها ومعه أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل
 الصلاة والسلام وهو عز الدين أبو طهية القاسم بن المهنا وكان للسلطان في جميع انغرات مصاحبا وعلى معاضدته
 مواظبا وما حضر معنا على بلدنا وحصن الافتخانه وكان السلطان يستوحش لقيته ويأنس بشيئته وكان يجنب
 السلطان جالسا ونظره عليه حابسا وكانت قلعة جاه ذات تل منبسط فلقا نولاها حتى الدين رفع رطلها وعمق
 خندقها وحصنها فطلع السلطان تلك الليلة إلى القلعة وسر بما رأى من الحصانة والرفه ووقف الملك المظفر لعمه
 وجرى في الخدمة على رسمه وأصبح السلطان راحلا ولم يبق بمحس وجاء إلى بعلبك على طريق الدارعة والبلدة ووصل
 إلى دمشق قبل روضان وأشير على السلطان بأن يرجع عسكره فقد أجدى عامه مورد ومصدره وأرجع في سبيل الله
 مقصره فقال إن القدر غير مأمون والعمر غير مضمون والفرض أوقات وللدهر أوقات وقد بقيت مع الكفر هذه
 الحصون وإن لم يبادرها اختل أمرنا الحصون لا سيما صنف وكتب فانهم لا داوية والاستراتيجية في وسط البلاد
 والتغوير الإسلامية بها واهية السداد فخرج ونشوت عندها ونقصت عندها فإذا فتنها ما خلصت هذه البلاد
 وصفت الاوراد قال فما لبث السلطان ولا مكث ولا تنقض عهد عزمه على الغزاة ولا نكت وقال لا تبطل الغزوة
 ولا تعطل هذه الشئوه

(فصل) في فتح الكرك وحصونه قال العماد ووردت البشرية بنجع الدرك في تسليم حصن الكرك وذلك
 انها في مدة غيبتنا في بلادنا كابية لم تعد من محاصرتها المضايقة لنا كية وكان الملك العادل أخو السلطان
 مقبيا بتبين في العساكر محترزا على البلاد من غائلة العدو والكافر أقامه السلطان هناك عند توجهه إلى البلاد
 الشمالية لقصد جبلت واللاذقية فأقام بتبين مقر باللامراء المرتبين على الحصون حافظا على الدهاء بحركته
 في الامور عادات السكون وكان صهر سعد الدين كشيبة بالكرك موكلًا وبأهل من كلا قد غلق رهنه ونفى حصاره
 معضلا وأمره مشكلا حتى فنت أزوادهم ونفذت موادهم ويتشوا من نجدة تأنيهم وأجملت عليهم مصايفهم
 ومشتاتهم فتوسلوا بالملك العادل وأبدوا له ضراعة السائل فما زالت الرسائل تتردد والاقتراحات تتحدد
 والقوم يلبثون والعادل يشدد حتى دخلوا في الحكم وخرجوا على السلم وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة وخلصوا
 بأقامة عذرهم عند قومهم من الملامه وتسلم سعد الدين بعدها الحصن التي يقر بها كالشوبك وهرمز والوهر وسلمع
 وقال القاضي ابن شذاد في أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها وخلصوه بهما من الاسر وكان
 أسرى وقعة حطين المباركة وكتب العماد في بعض البشائر (سلم حصن الكرك وهو الحصن الذي كان طائغته
 يحدث نفسه بقصد الحجاز وقد نصب اشراك شركه منه على طرف الاجتياز فأدقناه عام أول كائن الحزام
 وتلك كنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العام واضطر الكفر في اسلامه إلى الاسلام وتم جعل هذا البيت
 أمن البيت الحرام) وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان شفاعا (أدام الله سلطان مولانا الملك الناصر وثبته
 وتقبل عمله بقبول حسن وأنبته وأخذ عهده فائلا وأوبته وأرغم أنفه بسيفه وكتبه خدمة المملوك هذه واردة على
 يد قلان خطيب عيذاب ولما تابه المنزل منها وقل عليه المرفق فيها وسعم بهذه الفتوحات التي طبق الأرض ذكرها
 ووجب على أهلها شكرها وحصل لمن جرت على يده أجراها من جميع عيذاب وملحها ساريا إلى ليله أمل كاهها
 ضاح فلا يدأ إلى من صبحها وقد غلب في خطابة الكرك وهو خطيب وتوسل بالمملوك في هذا المتهم وهو قريب

وزع من مصر الى الشام ومن عذاب الى الكرك وهو عجيب والفقر سائق عنيف والمذكور عائل ضعيف ولطف الله تعالى بالخلق بوجود مولانا طيف ورأيه أعلى ان شاء الله تعالى

(فصل) في فتح صفد قال القاضي ابن شداد ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد ولم يلتفت الى مفارقة الاهل والوطن والوالد في هذا الشهر الذي يسافر الانسان أين كان ليجمع فيه بأهله فأناها هو في قلعة منيفة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها فأحرق العسكر بها ونصبت عليها المجانيق وكانت الامطار شديدة والوحول عظيمة ولم يذمه ذلك عن جده ولقد كنت ليلة في خدمته وقد عين مواضع خمسة مجبائية حتى تنصب فقال في تلك الليلة ما ننام حتى تنصب الخمسة وسلم كل مجبائيق الى قوم ورسلة تتوازر اليهم يخبرونه ويعرفونهم كيف يصنعون حتى أضلنا الصباح وقد فرغت المجنيقات ولم يبق الا ركيب خنازيرها فيها فرويت له الحديث المشهور في الصحاح وبشرته بمقتضاه وهو قوله صلى الله عليه وسلم عينان اتسمهما النار عين بانت تحرس في سبيل الله وعين بكت من خشية الله قال المؤازر أخرج الترمذي هذا الحديث وقال هو حديث حسن غريب قال ولم يزل القتال متواصلا بالنوب مع الصوم حتى سلمت بالامان في رابع عشر شوال وقال العماد لما خرج السلطان من دمشق محبة الفاضل وجعل طريقه على مرج رغوث وعبر بمخاضة الاخران وجاء الى صفد وقد لان من فيها من الفرج وزادهم نفد فنزل عليه في العصر الاوسط من رمضان فضايقها ونصب المجانيق عليها الى أن سلمها مقدمها في ثامن شوال بالامان وراح الى صور وقد كانوا عديموا القوت ووجدوا الموت الموقوت وعلما انهم لم يخرج صفد من أيديهم دخلت ارجلهم في الاصفاذ فقتروا من الجهاد والجلاد وانها كانت في عين الاسلام قذى لا يتوقع منها على الام الماضرة وأذى فسهل الله صعبها وأوطأ هضبا وكشف عن البلاد كرها بها وقلد في قلوب أهلها رعبا خربوا مدعين واستسلموا مسلمين وتبرؤا من حصنهم وتزلوا بهوائهم وهنهم وأحضر وارهاقهم للاستهلال في نقل متاعهم وندموا على ما كان من امتناعهم قال واجتمع الفرج بصور ونحن نضايق حصن صفد وقالوا متى فُتح صفد فان كوكب لا تمتنع وأملنا عن حفظها يقطع والزأى ان نجرد لها مجددة لعلها تثبت الى أن نوافينا من البحر ملوكنا فبروا ما نثي رجل ففرقوا في تلك الاودية بكنون في النعاب والهضاب وافترق ان أميرا من أصحابنا خرج متقنصا فوقع أحدهم في قنصه وحصل طائر منهم في قنصه فاستغرب وجوده في ذلك المكان فهذه وتوعده وأقامه للعذاب وأقعدته حتى دل على مكن ذنابه فحاشوا الابصارم الذين قايموا بالنجوى وأجنداه الا وقد تزاولوا عليهم في آكام ذلك الشعب ووهاده قتلهم وهم من كل غار وجار ولم يبتدأ أحدهم من أولئك الضلال الى هج فرار فاشرفنا ونحن على مفد للحصار حتى وصل صاحب قايمنا بالاسارى مقرين في الاصفاذ مفودين في الاقياد وكان فيهما مقدمان من الاستبار وقد أشفيا على البتار فان السلطان رحمه الله ما كان يبق على أحد من الاستبارية والدوايه فاحضرنا عند السلطان للنبه فأنطقهم بما الله بما فسه حياتهما وانجابا بماه نجاتهما وقالوا عند دخولهما ما نظن اننا بعد ما شافهنالك يلحقنا سو فعرقت ان بقاءهما رجوا لى مقالهما وأمر باعتقالهما فان تلك الكلمة حركت منه الكرم وحقت منهما الدم وفتح الله علينا صفد ثامن شوال حين فرغنا من صوم ست منه بعد صوم رمضان وبخنا بين فضيلتي الصوم والجهاد وسلمت قلعة صفد الى شجاع الدين طغرل الجنادار واستبشرنا بانعكاس ما أحكمه الكفار

(فصل) في فتح حصن كوكب قال القاضي ابن شداد ثم سار رحمة الله عليه يريد كوكب فنزل على سطح الجبل ووجد العسكر وأحرق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعا يجاوزه نشاب العدو وبني له ما نطا من مخروطين يستروا به والنشاب يجاوزه ولا يقدر ان يقف أحد على باب خيمته الا أن يكون ملبسا وكانت الامطار متواترة والوحول بحيث تمنع الماشي والراكب الا بشقة عظيمة وعانى شدا اندوا هو الامن شدة الرياح وتراكم الامطار وكون العدو مستلطا عليهم بعلو مكانه وجرح وقتل جماعة ولم يزل راكبا كعبا كعبا بالجد رحمه الله حتى تمكن النقب من سورها ولما أحس العدو والمخدول بالنقب وقد تمكن من السور علم انه مخلول مأخوذ فطلب الامان فأنهم ونسلها في منتصف ذى القعدة ونزل الى القوراى النقل وكان قد أنزل النقب من شدة الوحل والريح

كتاب (١٣٦) الروضتين

في سطح الجبل وقال العماد وجئنا إلى كوكب فوجدناها في مناسط الكوكب كأنها وكر الغنقاء ومنزل العواء قد
نزتها كلاب غاوية ونزعت بها ذئاب غاوية وقالوا لوبي منا واحد لفظ بيت الاستتار ونخلصه إلى الأبد من
العار ولا بد من عود الفرخ إلى هذه الديار فتشددوا للاقتتار ثم وصف القتال بالرمي والمنجنيق والنقب والتعليق
والحفر والتحصين والحصر والتصيق ثم قال وكان الوقت صعبا والغيث سبكا وتكاثر السيول وتكاثفت
الوحول ودامت الدماء ولم يدم معها ريقه وبقيت الحميم في الطين غريقه **وكان** في شغل شاغل من تقلع الأوتاد
وتوتد الأقدام ووهي الاطناب ووقوع الخيام وقعدات الخيام مناخيل الابداء والانوار معدومة لوجود الأنواء
وماء الشرب مفقود مع سيل الماء والواحد في الطين ياركه وهي للعطف تاركه والطريق زلقه وهي مع سعتها ضيقة
فنقل السلطان خيمته إلى قرب المكان لتقرب وجوه الأماكن وبني له من الحجارة ما صار له كالستار ونزلت
الاتقال والخيم إلى أسفل التل بالغور وأقام السلطان على محاصرة الحصن ومصارته ونحن نركب إليه من الخيام
بكرة وعشية للسلام وتنفيذ المهام حتى بلغ الرجال أما كن القوب ويمكن لهم المطلوب فشرع الكفرة في التذلل
وسلو الحصن بالامان وعرضه على جماعة فقبيل ولايته أحد سوى قايم بالجمعي على كره منه وذلك في منتصف
ذي القعدة ونزل السلطان إلى الخيم بالغور ومن كآب فاضلى إلى سيف الاسلام بالين عن السلطان (مما تجدد
بجضرنا فمع كوكب وهي كرسى الاستتارية ودار كفرهم ومستقر صاحب أمرهم وموضع سلاحهم وذخرهم وكان
يجمع الطرق فاعدا ولتقى السبل راصدا فتغافت بهتجه بلاد الفتح واستوطنت وكنت طرقها وامنّت وعرت
بلادها وسكنت ولم يبق في هذا الجانب الا صور ولولان البحر يخبرها والمرابك تردها لئلا تقيادها فامكن
وجهاها قد أعن وماهم بحمد الله في حصن يحميم بل في سجن يحميم بل هم أسارى وان كانوا طلقاء وأمواتا
وان كانوا أحياء قال الله تعالى فلا تجعل عليهم غمنا بعد لهم عدا وكان نزولنا على كوكب بعد ان فتحنا صغد
بلاد الداوية المصونة وفتحنا الكرك وحصونه والمجلس السامي اعلم بما كان على الاسلام من مؤنة المنقولة وقضيته
المشكلة وعقلته العضله والله تعالى المشكور على ما طوى من كلمة الكفر ونشر من كلمة الاسلام
فان بلاد الشام اليوم لا يسمع فيها لغو ولا تأنيب الا قلة للاسلام ما سلا ما فادخلوها بسلام وكان نزولنا على كوكب
والشاة في كوكبه وقد طلع من الأنواء في موكبه والثلوج تنشر على الجبال طي ملائنا والادوية قد سحبت بمائها
وفاضت عند امتلائها فسحبت أنوفها سايولا وخرقت الارض وبلغت الجبال طولها والاحوال اعتقلت الظروفات
ومشي المطلق فيها مشية الاسير في الحلقات فتجشعنا العناء ونحن ورجال العساكر وكبار العدو والزمان وقد
تجزأنا لخط المكارب وعلم الله النية فأنجدها بفعالها وضمير الامانة فأعان على جعلها ونزلنا من رؤس الجبال منازل
كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها) ثم قال (والآن فالجلس السامي يعلم ان الفرنج لا يسلمون عما فتحنا ولا يصبرون
على ما جرحنا وانهم لعنهم الله أجمع لا تحصى وجيوش لا تسقى وبدا لله فوق أيديهم وسيجعل الله بعد عسر يسرا
وما هم الا كلاب قد تعامت وشياطين قد تعانوت وان لم يقذفوا من كل جانب استأسدوا واستكلموا وكانوا
لباطلهم الداحض انصرمنا لحقنا الناهض وقد كتب المستخديمون بالاستخديريه وصاحب قسطنطينيه والنغور
المغريه يندرون بأن العدو قد أجمع أمرا وحاول نكرا وعضبوا زادهم الله غضبا وأوقدوا نار الحرب جعلها الله
عليهم حطيا وسلوا سيفا للبي لا يعدان بكونها انما عداها وتواعدت جموع ضلالتهم أخلف الله ميعادها وأما نحن
فبالله ندفع ما نطيق وما لا نطيق واليه نرغب في ان يثبت قلوبنا اذ كادت تزيع قلوب فريق ونحن الآن نستعيد
أخانا ونعدوه إلى حاله دعينا ونؤمل من الله ان ينصرنا دينا وديننا ونرجوان بمنا بنفسه سريعا ويعسكه جميعا وبذخره
الذي كان الله مجبوعا وان يليها دعوة امانا يطيع بها ربه لانها دعوته واما ان ينصر بها نبيه صلى الله عليه وسلم
فانما شر بعته واما ان يعين بها أثناء فانها شاة الاسلام لاشدته هذا وان كان المجلس قد قعد عنا ولم يعدنا في مرض
الاجسام فلا يقعدنا في مرض الاسلام فالسدار البدار فان لم يكن الشام له بدار فالخمين له بدار والجنة الجنة
فانما لا تنال الا بيقاد الحرب على أهل النار والهمة الهمة فان البحار تلتقي الابصار والملوك الكبار لا يقف
في وجهها الا الملوك الكبار وفي هذه السنة نزل على انطاكية ونزل ولدنا المظفر تقي الدين على اطرالس ويستقر
الركاب

الركاب الملكي العادلي بمصر لانهما ذكره عند العدو انها تارق وان الطلب على مصر والشام منه يفرق ولا غنى عن ان يكون المجلس السمي في بحري بلاد الساحل يترخص سلاحا ويجترس قبا يكون على ما فتنه قنالا ولمالم يفتح بعدمقتضا وما يدعى للعظيم الا العظيم ولا يرجي لموقف الصبر الكريم الا الكريم هذا والافكار اجاربه ومشيتة الله ماضيه فان يشأ ينصرنا على العدو المضعف بالعدد الاضعف فاننا لا نرتاب بأن الله تعالى ما نغ علىنا هذه الفتوح ليغلقها ولا جمع علينا هذه الامة ليغرقها وانما يؤثر ان يتساهم آل أيوب في ميراثهم منته مواقف الصبر ومطالع النصر ولا يسرنا ان ينقضي عمره في قتال غير الكافر ونزال غير الكفر المناظر فاغماهي سفرة فاصده وزجرة واحدة فاذا هو قديض الصبيغة والوجه والذكر فليحضر وليشاهد اولاد اخيه يستشرون لفراقه غما قد عاشوا ما عاشوا ولا يعرفون ان لهم مع عهدهم (١٤) وله اليه من كتاب آخر وكانه بعد اعذاره عن الحضور (المولى على حسب اختياره ان سار فثله من ساروسر وقادا الجيش وجر ونفع المولى وضرب العدو والذي اضر وان اقام فالعدو الذي أقعده واشفاق السلطان عن نصره الذي رده عن وجهه والراى الذي رده فلا يكن في صدره من الامر من حرج ولا يخف استقصار عزمه ان ركذ أو خرج فكانه مكانه من القلب وودعه وله من الماسن جمده وهو سيف الاسلام ان ضرب فبجده أو صين ففي غمده لا زال المولى منوها باسمه ومرفها في جسمه ومجرد اسيف عزمه وسعيدا بحكم التوفيق فلا يخرج التوفيق عن حكمه) ومن كتاب عادى الى الديوان بفتح الكرك والشوبك وظفر وكوكب بقول فيه (والان فقد خلص لنا جميع مملكة القدس وحدها في سميت مصر من العرش وعلى صوب الجباز من الكرك والشوبك وتشتمل على البلاد الساحلية الى منتهى أعمال بيروت ولم يبق من هذه المملكة الا صور ونخ أيضا جميع اقالم انطاكية ومعاقها التي للفرنج والارمن وحدهم من أقصى بلاد جملة واللاذقية الى بلاد ابن لاون وبقيت انطاكية بمفردها والقصر من حصونها ولم يبق من البلاد التي لم تفتح أعماها ولم تقبل عما كانت عليه حالها سوى طرابلس فانها لم يفتح منها الا مدينة جبيل وقد سميت عليها المهلة الدليل ومعاقلها باقية وليس لها من عذاب الله الواقع واقية والحامد الا على التوجه اليها وعزم النزول عليها وان قدرت الجانب القبلي والبلاد القدسي وشعن الثغور من حد جبيل الى عسقلان بالرجال والاموال والآلات العدد والعدد المتواصل الممدد ورتب فيها ولده الافضل عليها حمايتها وحفظ ولايتها وقدر ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها لتهذيب أحوالها وتقويمها

(فصل ١٤) في باقي حوادث هذه السنة قال العاد لمافرغ السلطان من شغل القلاع ونزل الى الوها من التلاع تجدد للاجل الفاضل عزم مصر فركب السلطان معه لوداع ثم تحول الى صحراء يديسان وأقام بها الى مستهل ذي الحجة ثم رحل يوم الجمعة مستهل الشهر ومعه أخوه العادل وسلكا طريق القنطرة الى القدس ووصله يوم الجمعة ثامن الشهر وهو يوم التروية وصلى الجمعة في قبة الصخرة وعيدها يوم الاحد عيد الاضحى وسار يوم الاثنين الى عسقلان للنظر في مهامها ونظم اسباب أحكامها ثم أذن للعادل في العود الى مصر لمساعدة ولده العزيز وودعه وأعطاه الكرك وأخذ منه عسقلان قاله ابن شداد ورحل على سميت عكا بعسكره موقفا في مودعه ومصدره فها عبر بيلد الاقوى عدده وكثر عدده وانفصل العاد عن خدمته الى دمشق عند رحيله من يسان لعارض مرض سلبه الامكان وما زال منفصلا عنه الى ان وصل السلطان دمشق بعد شهر من مستهل صفر من السنة الجديدة وفي هذه السنة في الثالث والعشرين من رمضان توفي الامير محمد الدين مؤيد الدولة اسماعيل بن مرشد بن علي بن منقذ وكان مولده بشير سنة ثمان وثلاثين واربعمائة فبلغ عرستاه وتسعين سنة وفيها في الثامن والعشرين من جمادى الاولى توفي الحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحارزي الحمداني ببغداد صاحب المصنفات على صفر سنة منها البجالة والناسخ وغيرها ومولده سنة ثمان وأتسع وأربعين وخمسمائة رحمه الله تعالى قال العاد ووصل كتابا من مصر ونحن على حصار صفدان اثني عشر رجلا اعلنوا بشعار أهمل القصر ودخلوا من باب زويلة الى قرب الصياقة بمجنذوب السيوف لادالة الدولة الزاهقة ونصرة الدعوة الباطلة وهم يتادون بال على وفي زعمهم انهم يقيمون بالصولة ويقبلون بالباس لباس الدولة ويحالفون انهم اذا ثاروا اثاروا واذا داروا اداروا فها اكرث بهم مكربث ولا نبعث اليهم منبعث فلما تحققوا انهم لا يجيب لهم ولا داع تقترقوا في الدروب واضمحوا وكانوا عقدوا على الوفاء

كتاب (١٣٨) الروضين

فأخذوا ثم أخذوا ووقفوا واعتقلوا ولم يستنقذوا ولما علم السلطان بهذا الأمر عراه الهجم وتضجر من على باب
من وقوده مصر وقال متى تحمل منهم هذا الوهم فطردهم ورددهم ورددهم وكان قد وفد إلى الباب السلطاني
جماعة من أولاد الوزراء المصريين والأمراء بها المقدمين ومن أهل المعروف المعروفين ووافق ذلك دخول
الفاضل إليه فأخبره بالخبير فقال له يجب أن تشكر الله على هذه النعمة فقد عرفت بهذا طاعة رعيته وموافقة
بنايته لنتيك ليس لم يلب دعوتهم أحد ولم يكن من وراءهم مدد فطب نفسا وزد بمنزلة عند الله أنسا فقال
السلطان كان الملوك قبلي تخافهم وترب منهم الرعية ويتوقع منهم البلية والآن فقد تكاثروا علينا وتوافدوا إلينا
حتى أصبحرونا وأملونا ونفرونا فأذا ربنا أنزلاتنا وأورونا بالقصص وسأورونا بالقصص فقال له أنت أولى بشكر الله
على هذه العارفة كان بمصر من صاحب القصر وأشياعه وخدمه وأتباعه وأمرائه وخواصه وذوي استخلافه
وجهاته والزمامه كل من كان يرتع الخلق في رياض انعامه وكان بالشام في كل بدول وصاحب له على أهله
ومواهب وملوك يلوذ بهم الأرباب والأجانب واليوم أنت سلطان الجميع وقد رد الله الآمال في تلك الصنائع كلها إلى
مالك من حسن الصنيع وقد اجتمع أولئك المنتقرون على بابك ووقفوا إلى جنبك فلا يجحدون بعد الله الأجودك
فأكرم وفودك فأغررت بالدموع عيناه وبالسماح يداه وأقسم أنه ما عاش لا يرذق فاصدا ولا يصد فاصدا
وتقدم في الحال بقضاء حقوق الوافدين وانجاس آمال القاصدين قلت وكتب إلى السلطان في هذا المعنى أبو الفتح
سبط التعاويذي من بغداد

فلا يصحرك ازدهام الوفو * دعلوك وكثرة ما تبذل

فانك في زمن ليس فيسـهـ جواد سواك ولا مفضل

وقد قل في أهله المنعمو * ن وقد كثر البائس المرمل

وما فيه غيرك من يسما * ح وما فيه إلا من يسأل

وقرأت رقعة بخط الفاضل (الملاوي) بنهي وصول الخبر الكتاب الجويني وقد كاد يهلك من هب الحزن والمشقة في السير
وكيف يكون حال ابن السبعين مع المرض اللازم والقولع الدائم ونخافة الاعضاء وضعف القوة واستشعار انقطاع
الرزق الذي هو نظير انقطاع العمر وما ظن أن الله أجرى على يد المولى ولا فرح عداؤه بأن ينقطع رزق مثل هذا
البقية الحسنة والضيف الراحل والاديب الفاضل في أيام مولانا التي هي تاريخ الكرم ومواسم النعم وفي آخرها
(ومما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب النعماء في دولته أقطعا وأورنا بنجاح زماننا في ألف دينار يشهاده الله وربها
كانت قلما ألف دينار) رفوق الرقعة بالخط الصلحي (وقفت على رقعة القاضي الفاضل وما يقطع لاحد رزق
إن شاء الله تعالى بل هي علامات نحن مثل الفرم المنكسر نرضى لذناب مال ذا وعلى الجملة ما تقدمت به قطع رزق
أحد الورقة قد علمت أكتب فيها الذي لهما ولاغيرها إن شاء الله تعالى) وكان في آخر الرقعة ذكر الجبال الخفي
وكأنه كان له مثل حاجة الجويني رحم الله الكل أجمعين

ثم دخلت سنة خمس وثمانين قال العماد والسلطان في عكنا فاد الأمر نابه القدر فأحكم أمرها وكشف ضررها
واستحضر جماعة من مصر يحجي بهم الثغر فما انفصل حتى وصلوا واتبعوا أمرهم وامتثلوا وقد علم إلى بهاء الدين
قراقوش باتمام العمارات وولى حسام الدين بشاره وعول عليه في الولاية والحفظ والحماية وقال القاضي ابن شداد
أقام بهاء الدين قراقوش بشاره بصلح أحوالها ورتب فيها بهاء الدين قراقوش واليا وأمره بمعاملة السور والطناب فيه ومعه
حسام الدين بشاره وسائر يد دمشق فدخلها مستمل صفر قال العماد وولى مملوكه فارس الدين كشتغدي شهرزور
وأعمالها وكان قد تزوج بأخت عز الدين حسن بن بصقوب بن قمحاق فولاه ذلك لقب الولاية القصباقية من
الشهرزورية وقصد حصول المناصره بحكم المصاهرة قال وحكم السلطان بدر الدين مودود في ولاية القصباقية من
وجدته منشورا بالشأن وفيه (وقد قلنا أنه أمر دمشق وجهاتها وأعمالها والعشري والزاكوات وكل ما يجري في الديوان
وما يتبع الخزانة وولاية المخرج والقطوعة وما يضاف إليها من الاعمال وولاية الجبل ووادى بردا وبيسوس وقوى
الشهنيكات وحفظ الطرقات) ثم رحل السلطان إلى طبرية فالحقها بمعدته المعريه ثم وصل وأقام بدمشق

شهر صفر ووجه الدين به قدسفر وعزم من آمن وذل من كفر وبدأ بحضور الدار العدل وحكم بالشرع المطهر ووصل في ثاني عشر صفر رسول الديوان ضياء الدين عبد الوهاب بن سكيته والوزير يومئذ معز الدين بن حديد بأمر بالخطبة لولي العهد عدة الدين أبي الفضل نصر محمد بن الامام الناصر فاستقبله السلطان وأولاده وأمرأته واجناده وخطب له بذلك يوم الجمعة ثالث عشر صفر خطيب دمشق ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد الدولقي فلما انقضت الخطبة وعاد الرسول سير السلطان معه رسوله ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري وسيرت معه الهدايا والتحف السنيا وأسارى الفرنج الفرارس وعددها النفائس وتاج ملكهم السليبي والملبوس والطيب والصليب وهو الذي كان فوق القبة بالصخرة المقدسة ليدل على تطهير ما كان هناك من الاسباب المندسه وسار الضيا أن رسولهم ورسول السلطان ودخل بغداد وأسارى الفرنج على هيئتهم يوم فراغها راكبة حصنها في طوارقها وباردة وأدارعها قد نكست بنودها واتعست أنوفها وهيئت على هيئة فتوحناحتوفها قلت وقال ابن القادسي قدم ابن الشهرزوي معه صليب الصلوات الذي تعظمه النصارى فرفض تحت عتبة باب النوري الشريف بتبين منه شيء قليل وكان من نحاس وقد طلي بالذهب فجعل يداس بالارجل ويصق الناس عليه وذلك في سادس عشر ربيع الآخر كما قال صليب الصليبيون وقد نص العباد في التبرق على انه الصليب الذي كان فوق الصخرة وهذ غير ذلك والله أعلم ثم ان الخليفة الناصر اعتقل ابنه هذا بعد مدة في سنة احدى وستائة وأراد على خلع نفسه من ولاية العهد ففعل وأشهد على نفسه بذلك ثم قضى الله سبحانه ان عادت اليه ولاية العهد في أواخر عمره فخطب له بذلك وتقرئ اسمه على الدينار والدرهم الى ان توفي الناصر سنة اثنتين وعشرين وتوفي بعد فاقام بموتسعة أشهر وكتب بالظافر ثم توفي وولي ابنه المستنصر المنسوب اليه المدرسة بغداد ثم توفي سنة أربعين وولي ابنه المستعصم بالله وهو الخليفة الآن والله المستعان

(فصل في فتح شقيف ارنون قال القاضي ابن شداد وهو موضع حصين قريب من بانياس خرج السلطان من دمشق بعد صلاة الجمعة في الثالث من ربيع الاول فسار حتى زل في مرج فلوس ونزل من الغد يوم السبت في مرج رغوث فاقام به والعسا كرتابع الى حادي عشرة وورحل الى بانياس ومنها الى مرج عيون فخم به وهو قريب من شقيف ارنون بحيث يركب كل يوم يشارفه ويعود والعسا كرتجميع وتطلبه من كل صوب فاقنا يا مانا شرف كل يوم على الشقيف والعسا كرا الاسلام في كل يوم تصيح متزادة العدد والعدد وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامة فرأى ان اصلاح حاله معه قد تعين طريقا الى سلامته قتل بنفسه وما أحسنه الاله وهو قائم على باب حكمة السلطان فاذن له فدخل فاحترمه وأكرمه وكان من كبار الفرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية وعندة اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث قال وبلغني انه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه وكان عنده اناة فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام ثم دخل به وذكرا له ملوكه وتحت طاعته وانه يعلم اليه من غير تعب واشترط ان يعطى موضعا يسكنه بدمشق فانه لا يقدر بعد ذلك على مساكنة الفرنج واقطاعا بدمشق يقوم به وباهله وانه يمكن من الاقامة بموضعه وهو يتردد الى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور ويأخذ فعمل هذه السنة فاجيب الى ذلك كله وأقام يتردد الى خدمة السلطان في كل وقت ويساخرنا في صحة دينه ونناظره في بطلانه وكان حسن المحاوره متأدبا في كلامه ثم استفاض بين الناس ان صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة لانه صادق في ذلك وانما قصده بدمشق الزمان وظهرت لذلك مخايل كثيرة من الخوض في تفصيل المبره واتقان الابواب فرأى السلطان ان يصعد الى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع من دخول نجدة وميرة اليه وأظهر ان سبب ذلك شدة جوار الزمان والفرار من دهم المارج قتل صاحبها وسأل أن يعمل غمام سنة فاطله السلطان وما أنسه وقال تفكر في ذلك ونججمع الجاعة وتأخذنا بهم ثم وكل به من حيث لا يشعر الى أن كان من أمره ما سيذكر قال وفي اثنائه مع الاول وصل الخبر بتسليم الشوبك وكان قد أقام السلطان عليه جمعا عظيما يحاصر ونه مدة ستة حتى فرغت أزوادهم وسلوه بالامان وقال العباد كان الشقيف في يد صاحب صيدا ارناط وقد أكمل في حفظه الاحتياط قتل الى خدمة السلطان وسأل أن يعمل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله وأظهر انه محترم زمن علم المريكس لعنه الله بحاله فلا يعلم من جهله وحينئذ

كتاب (١٤٠) الروضتين

بسم الموضع بما فيه ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه ويخذه على اقطاع يغنيه وعن حب أهل دينه بسلبه
فاكرمه وقربه وقضى أربه وأجابه الى ما سأله وقبل منه عزير ما بذله بذله واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينه ووجد اليه
سكونا سكينته فشرع انراط في اذالة حصنه وازالة وهنه وترميم مستهدمه وتوفير غلاله وتبدير أحواله ونحن في غرة
من تحفظه وفي سنة من يقظه وكان يشاع من عسكرنا الميرة وبكتريفة الذخيرة وقد أمر الغدر وظن ان له
النصر والسلطان حسن الظن به يحمل صدق الواشي به على كذبه وكان انتهاء المدة يوم الاحد ثامن عشر جمادى
الآخرة وأقام السلطان بالمرج ينتظر ان يسلاخ الهدنة وتسليم الحصن وخاف ان يفارقه ان يقبض امداد الفرنج اليه
وكان مشغقا ايضا من جانب انطاكية لانتهاء شهر همدتها فكتب الى تقي الدين بالمقام في تلك الحطة وسير بذلك
الفقيه عيسى الحكاري ولم يستدع الا صاحب آمد قطب الدين سكيان بن قرا ارسلان فجاء في امداده واعداده
ولازم السلطان فلما قرب انتهاء مدة صاحب الشقيف حضره السلطان ففزع وقال ان قومي الى الآن لم يخلصوا
من صور وقد انعمت فاتهم وسأل أن تكون المهلة سنة فعرف السلطان من حقوى حاله امارات الارتباب فكلمه بآنياس
ومارده يباس فأرخصي طوله وأرجى أمله وأمر السلطان بتحويل الخيم الى ظاهر الجبل ليقرب من الحصن وقد بقي من
الهدنة يومان فتصور صاحب الحصن فتقبل له تقيم عندنا في كنف الامان فبكي وتالم من ضيقه وانكشف سر ربه
الغادرة فأمر بحمله الى الشقيف حتى يسلمه ووكيل به وحفظ من حيث لا يعلم وتبل عمله بحسن ولا يجوز الى
المقاومة وسلم وقيل له قد بقي يومان من المدة تقيم حتى تنتهي وتسلم فأبدي ضرورة وضراعه وقال سمعوا طاعه
وكان له ملقي وطق وفي لسانه دلق وما عنده من كل ما يفرق فرق وقال ان أنفذ الى نواي في التسليم وهو قد تقدم
اليهم بالوصية والتعليم فأظهر واعصيانه وقالوا يبقى مكانه فقيده وحل الى قلعة بآنياس وبطل الرجاء فيه وبان الياس
ثم استخفى في سادس رجب وهدده وتوعده فلما لم يقدح طابه ولم يجد عذابه سيره الى دمشق وسجنه ورب عدة
من الامراء بما لازمه حصر الحصن في الصف والثناء الى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم وأطلق صاحبه وأجرى
عليه حكم الحرب

(فصل) وفي مدة مقام السلطان على مرج عيون لمحاصرة شقيف ارنون اجتمعت الفرنج وجرت لهم
مع المسلمين وفائع قال القاضي ابن شداد كان السلطان قد اشترط على نفسه حين تسلم عقلا ان انه ان أمر الملك من
بها يتسليمها أطلقه فأمرهم بتسليمها واسلموها فطالبه الملك باطلاقة فأطلقه وفاء بالشرط ونحس على حصن الاكراد
أطلقه من انطرسوس واشترط عليه أن لا يشر في وجهه سنة فأبدا وان يكون ملوكا وطليقة فتكت لغنه الله
وجمع الجوع وأتى صور طلب الدخول اليها فخيم على باهاير جمع المركيس الذي كان به في ذلك الوقت وكان المركيس
اللعين رجلا عظيما ذا رأى وبأس شديدة وصرامة عظيمة فقال له انتي نائب الملوك الذين وراء البحر وما أذنوا في
تسليمها اليك وطالت المراجعة واسنقرت القاعدة بينهما على أن يتفقوا جميعا على المسلمين ويجمع العساكر التي
يصور وغيرها من الفرنجية على المسلمين وعسكر واعلى باب صور ولما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الاولى
بلغ السلطان من جانب البركة ان الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا وهي الارض التي
فحن عليها فركب السلطان نحو البركة فوصل وقد انفصلت الوقعة وذلك ان الفرنج عبر منهم جماعة الجسر فنقض
اليهم بركة الاسلام وكانوا في عدة وقوة فقاتلهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا وجرحوا أضعاف ما قتلوا ورموا في النهر
جماعة فغرقوا ولم يقتل من المسلمين الا ملوك السلطان يعرف بابك الأخرش وكان شعبا عابسا لا يمر بالحرب هارسا
فتقنطربه فرسه فلجأ الى مخزرة فقاتل بالشاب حتى فنى ثم بالسيف حتى قتل جماعة ثم تكاثروا عليه فقتلوه
وفي يوم الاربعاء تاسع عشر جمادى الاولى ركب السلطان يشرف على القوم على عادته فجمع العسكر خلق عظيم
من الرجال والنساء والسوق وحرس رحمة الله في ردهم فلم يفعلوا وخاف عليهم فان المكان كان حرجا ليس للرجال فيه
ملجأ ثم جمع الى الجسر وناوشوا العدو وعبر منهم جماعة اليهم وجرى بينهم قتال شديد واجتمع لهم من الفرنج
خلق عظيم وهم لا يشعرون وكشفوهم بحيث علوا ان ليس وراءهم كمين فحملوا عليهم جملة واحدة على غرة من
السلطان فانه كان بعيدا منهم ولم يكن معه عسكر فانه لم يخرج للقتال وانما ركب مستشرفا عليهم على العادة في كل

في أخبار (١٤١) الدولتين

يوم ولما بان له الوقعة وظهر له غبارها بعث اليهم من كان معه ليردوهم فوجدوا الامر قد فرط والفرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظهر وبالجالة تطفر اعظاما وأسروا جماعة وعذبوا من قتل من الجالة في ذلك اليوم فكان عدد الشهداء مائة وعثمانين نفرا وقتل من الفرنج أيضا عدة عظيمة وغرق أيضا منهم عدة وكان من قتل منهم مقدم الألمانية وكان عذرهم عظيما بحتراموا استشهادي ذلك اليوم من العرب ومن المسلمين الامير غازي بن سعد الدين مسعود بن البيطارو وكان شابا حارسا متجسسا واحتسبه والده في سبيل الله ولم يثقل من عينه عليه دعة على ما ذكره جماعة لازموه قال وهذه الوقعة لم تنفخ للفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه الوقعة في هذه المدة ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين من هذه الوقعة الدائرة جمع أصحابه وشاورهم وقتر معهم انه يهجم على الفرنج ويعبر على الجسر ويقاثلهم ويستأصل شاقهم وكن ان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قرب الجسر وبين الجسر وصور مفدار فرسخ وزائد على فرسخ فلما صم العزم على ذلك رحل الفرنج عائدني الى صور ملتجئين الى سورها فأرأى رحمه الله ان يسير الى عكا ليحيط بابني من سورها ويحش على الباقي فراح على قننيل ولم يرجع على مرج عيون فغضى الى عكا فرتب أحوالها وعاد الى العسكر مرج عيون منتظرا مهلة صاحب الشقيف ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه ان جماعة من رجاله العدو يتسوطون ويصلون الى جبل تبذين بحته طيون وفي قلبه من رجاله المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم فرأى ان يقرر قاعدة كمين يرتبه لهم وبلغه انهم يخرج وراءهم أيضا خيل تحفظهم فعمل كمينًا يصلح للقاء الجميع ثم أنفذ الى عسكر تبنين أن يخرجوا في نفر يسير عابرين على تلك الجالة وان خيل العدو اذا تبعتهم ينهزمون الى جهة عندها لهم وان يكون ذلك سبعة الاثني ثامن جمادى الآخرة وارسل الى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراءه عسكر العدو حتى ان تمر كوا في نصرة أصحابهم فصدوا خيهم وركب هو وجفله الى الجهة التي عندها لمزعة عسكر تبنين حتى قطع تبنين ورب العسكر ثمانية أطلاب واستخرج من كل طلب عشرة فارسا وأمرهم ان يترأوا للعدو حتى يظهروا اليهم ويناشوهم وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا الى الكمين ففعلوا ذلك وظهروا لهم من الفرنج معظم عسكرهم بقدمهم الملك لعنه الله وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد والتزمت السرية القتال وأنفوا من الانهزام بين أيديهم وجعلتهم الحجة على مخالفة السلطان وانصل الخبر بالسلطان في أواخر الامر وقد هجم الليل فبعث بعثا كثيرة فعاد الفرنجنا كصين على أعقابهم وقتل من الفرنج عشرة أنفس ومن المسلمين ستة اثنان من الترك وأربعة من العرب منهم الامير زامل وكان شابا بامنا حسن الشباب يتقدم عشيرته وكان سبب قتله انه تقطرت به فرسه ففداه ابن ٤٤ فرسه فتقطرت به أيضا وأسروا ثلاثة من أهله فلما تبصر الفرنج بعد العسكر قتلهم خشيعة الاستنقاذ وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة قال وم نواذر هذه الوقعة ان هلكوا من حليلك السلطان يقال له ايسك الخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشعب دما وبات ليلة أجمع على ذلك الحال الى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقد أصحابه فلم يجدوه فعزفوا السلطان فقده وأنفذ من يكشف عن حاله فوجدوه بين القتلى فحماله الى الخيم وعافاه الله وعاد السلطان الى الخيم يوم الاربعاء عاشر الشهر فرحامسورا وقال العماد اجتمع من كان مسلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص من الاسر وقالوا انحسن في جمع جسم خارج عن الحصر وقد توصلت اليها اسداد البحر فمر ينال الشار وأخذنا من هذا العار وجاء من كان بظرا بلس وخيموا على صور واتفقوا انهم يقصدون بلدا اسلاميا من الساحل ويقمون عليه والركيس بمذهم من صور بالمند والعسد ثم جاء الخبر انهم على قصد صيد الحصر وقد جسر واعلى عبورا الجسر ووتعت عليهم البركة فردوهم ووقع في الاسر من سباعهم سبعة فحملوا الى سخن دمشق ثم ذكروا قتلهم للفرزة المطوعة على الجسر وقال لهم يصب الكفار من المسلمين مذابيحوا غير هذه الكره واذا قونا بعد ان حللنا حنا الفتوحات مارة هذه المرة فابقضنا الله من ردة المغرب وأخذ الناس حذرهم وقالوا بهذا وعد الله حيث قال فيقتلون ويقتلون وعبادهم الذين يتبعون أمره ويتبعون ثم ذكروا قتلهم الكمين قال وكان مع المسلمين أربعة من أمراء العرب فحملوا كما وصاهم السلطان على عزم الطارفة قصدوا الكمين وسلكوا أسفل الوادي وانما الطريق أعلاه ولاخبره لهم بتلك الأرض ففر الفرنج انهم ضائعون فطاردهم

وردوهم الى المضيق وانفت العرب من الهزيمة فاستشهدوا قال وكان معهم ملك لاسلطان يقال له ابيك الساقى فاعتزل الى صخرة واحتمى بها ونكب كائنته ورامهم بنشابها وهم لا يقدررون على الاقترام اليه بالحيل فرموه بالزبورك حتى كبرت فيه الجراحات وظنوا انه قد مات ووصل الخبر الى المسلمين فادركوهم ووقفوا على الشهداء وقبروهم وجاؤا الى ابيك فوجدوا فيه الروح فنقلوه الى الخيام وهم يظنون انه لا خلاص له من الحمام وكان في اجله باقية فمن الله عليه بالعافية

(فصل) في نزول الفرنج خذ لهم الله على عكا قال القاضي ابن شذاد ثم بلغنا بعد ذلك ان الفرنج بصرور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو النواكير يريدون جهة عكا وان بعضهم نزل باسكندر ونه وجرى بينهم وبين رجاله المسلمين مناوشة وقتل منهم المسمون نفر اسير او اقاموا هناك ولما بلغ السلطان حركتهم الى تلك الجهة عظم عليه ولم ير المسارعة خوفا من ان يكون قصدهم ترحيلهم عن الشقيف لا قصد المسكان فافام مسة كشف الحال الى يوم الاحد ثاني عشر رجب فوصل قاصدا اخبار الفرنج في بقية ذلك اليوم وحلوا وزلوا عين بصره ووصلوا وانهم الى الزيب فعظم عنده ذلك وكتب الى سائر ارباب الاطراف بالمسير اليه وتقدم الى الثقلان سار بالليل وأصبح هو يوم الاثنين ثالث عشر رجب سائر الى عكا على طريق طبرية اذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر الا هو وسير جماعة على طريق تبين يستمرقون العدو ويواصلون باخباره وسرنا حتى آتينا الجولة منته نصف النهار قتل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعا يقال له المنية صبيحة الثلاثاء وفيه بلغنا نزول الفرنج على عكا وسير صاحب الشقيف الى دمشق بعد الهانة الشديدة على سوء صنيعه واشتد حنقه عليه بسبب تصنيع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئا وسار السلطان حريصة من المنية حتى اجتمع بقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبين بمرج صغورية فانه كان واعدهم اليه وتقدم الى النقل ان يلحقه الى مرج صغورية ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو وتقوية لمن فيها ولم يزل يبعث اليها بعنا بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير وسار من الخروبة الى تل كبسان في أوائل مرج عكا فتل عليه وأمر الناس ان ينزلوا على التعبية فكان آخر المصرة على طرف النهر الحلو وآخر المنية من نارب تل العياضية واحتاط العسكر الاسلامي بالعدو وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت وربت البرك الدائم وحصر العدو في خيامه بحيث لا يخرج منها أحدا لا يخرج أو يقتل وكان عسكر العدو على شطرن عكا وخيمه مملوكة على تل المصليين ثريين من باب البلد وكان عددهم اثنى الف فارس وعددهم اربعمائة ألفا قال وما رأيت من نقصهم عن ذلك ورأيت من خزرهم بزيادة على ذلك ومددهم من البحر لا يقطع وجرى بينهم وبين البرك مقارلات عظيمة متواترة والمسلمون يتهاقون على قتالهم والسلطان يمنعه من ذلك الى وقته والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل والملوك والامراء من الاقطار تابع ووصل بقي الدين من جهه ومظفر الدين بن زين الدين وفي أثناء هذه الحال توفي الحسام سنقر الخلاطى وفاة بأسماء شديدة وكان شجاعا ذا بأس فأسف المسلمون عليه ولما استغل أمر الفرنج نجاسة داروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج منها وذلك سلخ رجب فعظم على السلطان وضاق صدره وثارته العلية في فتح الطريق الى عكا لتسمر السابطة اليها بالميرة والنجدة فباكرهم مستهل شعبان وضايقهم مضايقة شديدة فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة وانتشر عسكر العدو الى ان ملكوا التلول وكانت مصرة عسكرهم الى البحر الحلو أخذة الى البحر الخ وميمنهم قبالة القلعة الى سيطى التي لعكا وانصلت الحرب الى ان حال بين الفتيين هجوم الليل وبات الناس على حالهم من الجنائين شاكين في السلاح تقرر كل طائفة بفصمها من الاخرى وأصبحوا ثاني شعبان يوم السبت على القتال وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين الى البحر من شمالي عكا ولم يكن هناك للعدو خيم لكن عسكره كان قد امتد جريده شمالي عكا الى البحر فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواتف شمالي عكا فانكسروا بين أيديهم كمرة عظيمة وقتلوا منهم جمعا كبيرا والتفت المسلمون منهم الى خيامهم وهجم المسلمون خلفهم الى أوائل خيامهم ووقف البرك الاسلامي مانعا من ان يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل اليه داخل وانفتح الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك الى باب قراقرش الذي جددته وصار الطريق مهيبا عير فيه الدوى ومعه الخواص

وعمره الرجل الواحد والمرأة واليزك بين الطريق وبين العدو ودخل السلطان في ذلك اليوم الى عكا ورفى على السور ونظر الى عسكر العدو وراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقي الدواب وأخذ الراحة ولم يعودوا الى القتال وأصبحوا يوم الاحد فرأى بعض الامراء تأخير القتال الى ان يدخل الرجل كله الى عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو ومن وراءه وزك العساكر من خارج من سائر الجوانب ويحلقوا حلة الرجل الواحد والسلطان رحمه الله تعالى يعانى هذه الامور كما بانفسه وبصافها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصه وفورهته كالوالدة الكلى ولقد أخبرني بعض أطبائه انه بقي من يوم الجمعة الى يوم الاحد لم ينشأول من الغداء الا شيئا يسيرا لفرط اهتمامه وفعلوا ما كان عزموا عليه واشتدت منعة العدو وحى نفسه في خيامهم لم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفاس وتظهر سماء حريمها الرؤس من كل رئيس ومتراس حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان عزم العدو على الخروج بجمعهم فخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا على التلول وساروا الحوينا غير مفرطين في نفوسهم ولا خارجين من راجلهم والرجالة حولهم كالسور المني يتلوا بعضهم بعضا حتى قاربوا خيام اليزك فصاح السلطان بالعساكر الاسلامية فركبوا باجمعهم وحلوا حلة الرجل الواحد فعدا العدو ناكصا على عقبيه والسيوف يهمل فيهم فالتصمهم حتى لحق بخيامهم من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياما وكان قصاراهم ان يحفظوا نفوسهم ويحرسوا رؤوسهم واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يتددون اليها قال وكنت ممن دخل ورفى على السور ودام القتال بين الفئتين متصلا الليل مع النهار حتى كان الحادى عشر من شعبان ورأى السلطان رحمه الله توسيع الدائرة عليهم لعلمهم بخروجهم الى مصارعهم فنقل الثقل الى تل العياضية وهو تل قبالة التل المسلمين مشرف على عكا وخيام العدو وفي هذه المقتلة نرى حسام الدين طمان وكان من شعبان المسلمين ودفن في سطح هذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان وبلغ السلطان ان جماعة من العدو يفرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عيشه فكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لفتحهم على خيلهم فجمعوا عليهم وقتلوا منهم خلقا عظيما وأسروا جماعة وأحضر وأروا بين يديه وذلك يوم السبت تاسع عشر شعبان وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيمة قتل فيها جميع عظيم من الطائفتين وطال الامر بين الفئتين وما تخلو يوم عن قتل وجرح وسبي ونهب وأنس البعض بالبعض بحيث ان الطائفتين كانتا تتحدان وتتركان القتال ويرى ما غنى البعض ورفق البعض اطول المعاشرة ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة وسقوا يوما فضاوا الى كمينات آل البكار وليس للصغار حظ نريد ان يصطرع صبيان صبي منا وصبي منك فخرج صبيان من البلد الى صبيين من القرية فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكفار فاحتضنه وضرب به الارض وأخذه أسيرا فاستراه منه بعض الفرنج بدنانير وقالوا هو أسيرك حقا فاخذ الدنانير وأطلقه قال ووصل مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع في البحر وما زال يسبح وهم حوله يردونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون قلت وذكر العباد كل هذه الوقائع والنوادر في كتابه بالفاظه المسجوعة وقال كان من رأى السلطان ان يسايرهم في الطريق وبواقعهم عند المضيق ويقطعهم عن الوصول ويدفعهم عن النزول فانهم اذا نزلوا صعب الزحمة وأنعب قتالهم وقالوا يعنى أمره بل غنى على أسهل الطرق فسار الثقل من اللس على طريق الملاحمة وسرنا على جب يوسف الى المنية وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا ونزل يوم الاربعاء على جبل الخروبة ونزل الفرنج على عكا من البحر الى البحر محيطين بها العصر وضرب الملك العتيق خيمه على تل اسمه وربط مراكبهم بشاطئ البحر فكانت كالاتام المؤتشفة ثم عبر السلطان بجيشه ونزل بمرج عكا على تل كيسان وصرا محاصرين المحاصرين فدا حطنا بالعدو وهو بالبلد محيطة واستطاعنا منه وهو مستشيط واحد قنابا وثلاث الكفرة احاطة النار بأهلها ومنعنا الطرق من رؤسهم في وعرها وسهلها وربتنا بالزيب والنواقر رجالا يصدهم عن سبلها ودمنا نصددهم ونصددهم ونوجددهم في البحر ونعددهم واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز وزادوا من جانبنا في العتوس والعتز وذلك في آخر رجب الانسلاخه والاسلام ينادينا

باستمراره وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد انفتحت الاراء على ان يكون اللقاء وقت الصلاة عند ارتفاع الدعوات على المنابر الاسلامية فأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم فكثرت عليهم صفوف مشاربهم وقلل مضاه مضاربهم وهم في مواضعهم واقفون وعلى مضاربهم عاكفون وفي مواضعهم ثابتون كالبنديان المرصوص مافيه خلل وكالحلقة المفرغة ما اليها مدخل وكالسور المحيط ما عليه تسلق وكالجبل الاشم مافيه متعلق فزحفنا اليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم يترحوا وحملا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه حتى دخل الليل وهجز وجماوا من الغد من جانب البحر شمالا على عكافانهم الفرنج الى تل المصلبين نحو القبة وثبتوا عند الوتبه وانفتح لنا طريق عكاف قد خلد لها الرجال وحلت اليها الغلال والفرنج قد رهبوا ولو قدروا لهربوا وأصحابنا رأوا ان انفتاح باب البلد غنيمه فتوقفوا عن تمام العزمه ولوانهم استمروا بالباد العدوق صرعه فان للصدمة الاولى في الروع روعه فبلغ العدوق ريقه ووجد الى الجبل بطريقه ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات وضربوا البحر ووخز وقوفوها وجعوا العدد وعلى الرجال ذفر قوها وكانوا في عدد الرمل ومدد النمل وهم في كل يوم في ازدياد والبحر يمد بهم بالامداد وشرعوا في حفر الخنادق وسد المضايق ونصب الطوارق والسلطان ساهر للسلمين في ليالهم قائم بأمرهم في نهارهم ومن كتاب فاضلي في بعض الوقعات (فاستدارت بهم رجال الجبال الشبيهة بقذف شياطينهم بشهابها ونهوى الى أوكار قد تم طيور نشابها وتجنبتهم من القنا والنشاب غمرا لامتدائها وقدر ان تقع الاسلام الى درجات سيد كرامها وانخفض الكفر الى دركات سيمز كرها فالنصر حافق عليه وكتب البشارة قد استمدت قلبه وقد وثقنا بلطف الله تعالى فيماني في فتأهبت الخطوط لعلنا المسار واعدت الفاظ البشرى المهداة الى كافة البشر من الاستبشار فان الفرنج محصورون والناسل المحصور كالمركب المكسور والنصر قد أعرب لعسكر الاسلام والكفر جار ومجرور)

(فصل) في المصاف الا عظم على عكا وهي الوقعة الكبرى التي بدأت بالسوء وخفت بالحسن قال القاضي ابن شدد لما كان يوم الاربعاء الحادي والعشرين من شعبان فمركت عساكر الفرنج حركة لم يكن لهم مثلها إعادة فارسمهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم واصفوا خارج خيمهم قلبا وميمنة وميسرة وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمول مستور بثوب أظلس مغطى بمسك أربعة أنفس أربعة اطرافه وهم يسرون بين يدي الملك وامتدت الميمنة في مقابل ميسرة المسلمين من أولها الى آخرها وامتدت ميسرة العدوق في مقابلة ميمنتنا الى آخرها وملكوا رؤس التلال فكان طرف ميمنتهم الى النهر وطرف ميسرتهم الى البحر وأمر السلطان الجاوشان ان ينادى في الناس بالاسلام وعساكر الموحدين فركب الناس وقديعوا أنفهم بالجنة وامتدت الميمنة الى البحر كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم والميسرة الى النهر كذلك أيضا وكان السلطان قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا على تعبئة الحرب حتى اذا وقعت صيحة لاحتاجون الى تجديد ترتيب وكان هو في القلب وفي ميمنة القلب ولده الافضل ثم ولده الظافر ثم عسكر الموالية يقدمهم ظهير الدين ابن البكتكري ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين عمر بن لاچين صاحب نابلس ثم قايمار النجفي وجوع عظيمة متصلين بطرف الميمنة وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحمله وعسكره وهو مطلق على البحر وأوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي بن احمد المشطوب من كبار ملوك الاكراد ومقدمهم والامير مجلى وجماعة المهرانية والمهكارية وبجماهد الدين يرتش مقدم عسكر سنجان وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحمله وعسكره وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين يازكوج وورسلان بغا وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم النمل وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى وجميع هذا السلطان رحمه الله تعالى بطاوف على الاطلاب بنفسه يحتمهم على القتال ويدعوهم الى التزال ويرغبهم في نصره دين الله ولم يرزل القوم بثقتهم والمسلمون يقدمون حتى علل النهار ومضى فيه أربع ساعات وعند ذلك فمركت ميسرة العدوق على ميمنة المسلمين وأخرج لهم تقي الدين الجالوش وجري بينهم قتليات كثيرة وتكاثروا على تقي الدين وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع منهم شيئا طالما علمهم لعلهم يتعدون عن أحبابهم فينال منهم غرضا فبنار آراء السلطان قد تأخر ظن به ضاعة فقامه باطلاب عذق من القلب حتى قوى جانبه وراجع

في أخبار (١٤٥) الدولتين

ميسرة العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منهم من الاطلاب داخلهم الطمع وتغير كواخمو مينة القلب وحاولوا حلة الرجل الواحد دراجلهم وفارسهم قال ولقد رأيت الرجال تسير سيرا خفيا ولا يسبقونهم وهم يسرون خبيا وجاءت الجلهة على الديار بركية كما شاء الله تعالى وكان بهم غرة عن الحرب فحرقوا بين يدي العدو وانكسروا كمرعة عظيمة وسرى الامر حتى انكسر معظم الجيئة واتبع العدو المنزمن الى العياض فانهم استداروا حول التل وصعدت طائفة من العدو الى خيم السلطان وقتلوا طشت دارا كان هناك وفي ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكسي وابن رواحة رجهما الله تعالى وأما الميسرة فانها ثبتت فان الجلهة لم تصاد فهاولما السلطان رجه الله فانه أخذ يذوق على الاطلاب ينضمهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحتم على الجهاد وينادي فيهم بالاسلام ولم يبق معه الا خمسة أنفس وهو يطوف ويتخرق الصفوف وأوى الى تحت التل الذي كان عليه الخيام وأما المنزمنون من العسكر فانهم بلغت هزيمتهم الى الاقحوانة فاطع جسر طسبرية وغم منهم قوم الى دمشق وأما التابعون لهم فانهم أتبعوهم الى العياض فلما رأوهم قد صعدوا الجبل رجوا عنهم وجاءوا عائدین الى عسكرهم فلقبهم جماعة من العلمان والخزينة والساسة منزمن على فعال الجبل فقتلوا منهم جماعة ثم جاؤا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة فان السوق كان فيه خلق عظيم ولهم سلاح وأما الذين صعدوا الخيم السلطانية فانهم لم ينسوا شيئا أصلا سوى انهم قتلوا من ذكرناه وهم ثلاثة نفر ثم رأوا ميسرة الاسلام ثابتة فعملوا ان الكسرة لم تم فعدوا ومنغدرين من التل يظنون عسكرهم وأما السلطان فانه كان واقفا تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا الى الجلهة على العدو فلما رأى الفريخ نازلين على التل أراد والقاهم فأمرهم بالصبر الى أن ولوا وظهورهم واشتدوا يظنون أصحابهم فصاح في الناس وحملوا عليهم وطرخوا منهم جماعة واشتد الطمع فيهم ونكاثر الناس ورأهم حتى لحقوا أصحابهم والطر دوراهم فلما رأهم منزمنين والصلون ورأهم في عدد كثير ظنوا ان من جل منهم قد قتل وانه انما نجح منهم هذا النفر فقط وان الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الحرب والهزيمة وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر يجمعهم من الجيئة وبجاء الرجال وتداعت وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ونصر الایمان وظل الناس في قتل وطرخ وضرب وجرح الى ان انفصل المنزمنون الصالون الى عسكر العدو فهجم الصلون عليهم في الخيام فخرج منهم اطلاب كانوا أعدوها خشبة من هذا الامر مستريحة فردوا المسلمين وكان التعب قد أخذ من الناس والخوف والعرق قد أجلبهم فتراجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم فرحين مسرورين وعاد السلطان وجلسوا في خدمته يتدكرون من تقدمهم فكان مقدار من فقد منهم من العلمان والمجوهلين مائة وخمسين نفرا ومن المعروفين استشهد في ذلك اليوم ظهير الدرس أخو العليمة عيسى رجه الله ولقد رأيت وهو جالس يضحك والناس يعزونه وهو يكره عليهم ويقول هذا يوم الهنا لا يوم العزا وكان قد وقع هو من فرسه رجه الله وأركبه وقل عليه جماعة من أفرابه وقتل في ذلك اليوم الأمير بجلى يعنى ابن مروان وزاد العباد والحاجب خليل الحكارى ثم قال القاضي هذا الذي قتل من المسلمين وأما العدو والمخدول فحرقوا قتلاهم بسبعة آلاف نفرا وبأيتهم وقد جلاوا الى شاطئ النهر ليلقوا فيه فخرتهم بدون سبعة آلاف ولما تم على المسلمين من الهزيمة بما رأى العلمان خلوا الخيام عن يعترض عليهم فان العسكر انقم الى منزمنين ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد ورأوا الكسرة قد وقعت فظنوا انها تم وان العدو ونهب جميع ما في الخيم فوضعوا أيديهم في الخيم ونهبوا جميع ما كان فيها ونهب من الناس أموال عظيمة وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا فلما عاد السلطان الى الخيم ورأى ما قدمت على الناس من نهب الاموال والهزيمة سارع في الكتب والرسول في رد المنزمنين وتبسع من شذ من العسكر والرسول يتتبع في هذا المعنى حتى بلغت عقبه فيسوق فردوهم واخبروهم بالكره للمسلمين فعداوا وأمر يجمع الاقمنة من أكف العلمان وجمع الاقمنة في خيمته حتى جلالات الخيل والمحالى وهو جالس ونحن حوله وهو يتقدم الى ان كل من عرف شيئا وحلف عليه يسلم اليه وهو يتلقى هذه الاحوال بقلب صلب وصدر جب ووجه منبسط ورأى مستقيم واحساب الله تعالى وقوة عزمه في نصر دينه وأما العدو والمخدول فانه عاد الى خيمه وقد قتلت شجعا منهم وتعدت ملوكهم وطرحت قتلهم وهم وأمر السلطان

كتاب (١٤٦) الروضين

ان خرج من عكا محل يحبون القتلى الى طرف النهر ليقوافيه قال ولقد حكى لي بعض من ولى أمر الجبل انه أخذ خيطا وكان كل ما أخذ قتل عقد عقدة فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف وثمان مائة وكسرا وبقى قتلى المينة وقتلى القلب لم يعد هم فانهم ولى أمرهم غيره وبقى من العدو بعد ذلك من حى نفسه وأقاموا في خيمهم لم يكثر ثواب الجحافل المسلمين وعساكرهم وتشذب من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب المزيمة فانه ما رجع منها الا رجل معروف خاف على نفسه والباقيون ذهبوا في حال سيلهم وأخذ السلطان في جمع الاموال المنهوبة واعادتها الى أصحابها وأقام المنادية في العساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه واجتمع من الاقشعة عدد كثير في خيمته حتى ان الجالس في أحد الطرفين لا يرى الجالس في الطرف الا آخر وأقام من يتأدى على من ضاع منه شيء فحضر الخلق وصار من عرف شيئا وأعطى علامته حلف عليه وأخذ من الحبل والمخللة الى الهيمان والجوهرة ولقى من ذلك مشقة عظيمة ولا يرى ذلك الا نعمة من الله تعالى بشكر علمها ومسابق سيد القبول اليها ولقد حضرت يوم تفرقة الاقشعة على أربابها فرأيت سوقا للعدل فائمة لم ير في الدنيا أعظم منها وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان قال وعند انقضاء هذه الواقعة وسكون نائرتها أمر السلطان بالنقل حتى تراجع الى موضع يقال له الحتر وبه خشية على العسكر من اراجع القتلى وآثار الواقعة من الوخم وهو موضع قريب من مكان الواقعة الا انه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلا فيه بقليل وضربت له خيمة عند النخل وأمر البرك أن يكون مقبى في المكان الذي كان نازلا فيه واستحضر الامراء وأرباب المشورة في سبخ النهر ثم أمرهم بالاصغاء الى كلامه وكنيت من جملة الحاضرين ثم قال بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله اعلموا ان هذا عهد والله وعدوا وقد وطئ أرض الاسلام وقد لاحت لوائح النصر عليه ان شاء الله تعالى وقد بقي من هذا الجمع اليسير ولا بد من الاهتمام بقلعه والله قد أوجب عليه ذلك وأنتم تعلمون ان هذه عساكر النالس ورائنا فجدد ننظرها سوى الملك العادل وهو واصل وهذا العدو ان يبق وطال أمره الى أن يفتح البحر به مدد عظيم والرائى كل الرأى عندى متاجزة فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك وكان ذلك في ثالث عشر تشرين بغير الثاني من الشهور الشمسية فانفصلت أراؤهم على ان المصلحة تأخر العسكر الى الحروبة وان يبق العسكر اياما حتى يستجمع من حمل السلاح وترجع نفوسهم اليهم فقد أخذ منهم التعب واستولى على نفوسهم الضمير وتكليفهم أمر اعلى خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته والناس لهم خسوس يوما تحت السلاح وفوق الخيل والخيل قد ضجرت من عرك الجهم وعند أخذ حفظ من الراحة ترجع نفوسها اليها ويصل الملك العادل ويشاركن في الرأى والعمل ونستعيد من شذ من العساكر ونجمع الرجاله ليقفوا في مقابلة الرجاله وكان السلطان رحمه الله التيات من اجمي قد عدا من كثرة ما حمل على قلبه وعاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الايام فوقع له ما فالوه وراه مصلحة فاهام بصلح مزاجه ويجمع العساكر الى عاثر رمضان قال وكان لما بلغه خبر العدو وقصده عكا جمع الامر او اصحاب الراى بمرج عيون وشاورهم فيما يصنع وكان رأيهم رحمه الله ان قال المصلحة مناجرة القوم ومنعهم من التزول على البلد والان نزولوا جعلوا الرجاله تسوراهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول اليهم وخيف على البلد منهم وكانت اشارة الجباة انهم اذارلوا واجتمعت العساكر فلعناهم في يوم واحد وكان الامر كما قال والله لقد سمعت منه هذا القول وشاهدت الفعل كما قال وقال العماد عبد السلطان بمينته وميسرته وطلب من الله نصرته وعومر بالصفوف ويأمر بالوقوف ويحضر على حظ الابد ويحث على الجلال والجلد قال وكنت في جماعة من أهل الفضل قدر كينا في ذلك اليوم ووقفنا على التسل نشاهد الواقعة ونحن على بغال بغرا هبية قال فرأينا العسكر موليا والمغزم عمار كه من خياه ورجله مخليا فوصلنا الى طبرية فحين وصل وجدنا سائسا كنهافا جفلا ففسقنا الى جسر الصبرة ونزلنا على شرقيه وكل منا ذاهل عن شبهه ووريه ومن المغزمين من بلغ عقبة فيق وهو غير مفيق ومنهم من وصل الى دمشق وهو غير معرج على طريق ووصل جماعة من الفرنج الى خيمة السلطان وجالوا حولية ثم رأوا انقطاع أشباعهم عنهم فانحدروا عن التل واستقبلهم أصحابنا فركبوا أكافهم وحكروا في رفاقهم أسياهم وكان ميسر تناهك سبخار والاسدية نمازوا ولا زالوا بل وصلوا واصلوا وحلفت عليهم مينة الفرنج فمكا غمارت الرياح بالجبال وعاد من كان من المينة مثل

في أخبار (١٤٧) الدولتين

تقي الدين وقايماز النجمي والحسام بن لاجين ومن ثبت من أبطال المجاهدين فلم يفلت من الاعداء الا اعداد ولم ينج من الافراد ااحاد وفرس منهم زهاء خمسة آلاف فارس منهم مقدم الداوية الذي كاد اظلمقناه وذكر انهم في مائة ألف وعشرين ألفا حين سألناه ثم ضربنا عنقه وقال في الفتح عشرة آلاف قال العماد ومن العجب ان الذين نبذوا ما نالهم لم يلبثوا الا قافروا مائة ألف وأتاهم الله قوة من بعد ضعف وكان الواحد يقول قتلنا من المائتين ثلاثين وأربعين وتركتهم مصر وعين وكنان السلطان من الثابتين في تلك الجولة والكايتين لاهل الصولة وقد بقي وحده عند قولى المسلمين ولا شك ان الله أنزل ملائكته المستوفين حكى بعضهم قال كنت من زمنا من فارس مدج قدس لى بقرى حصانه وهزل على سنانته فاست من البقاء ثم أبدأت على طعنه فالتفت فاذا هو حصانه كلاها ملق وبالقرب أحد فعرفت انه نصرالحى وصنع ربانى قال وعاد السلطان الى مضاربه وأمر بواراة الشهداء ومن جلتهم الفقيه أبو علي بن رواحه وكنان غزير الفضل قدأ كل الشجاعة والرجاه وهو شاعر ملق وقيقه محقق من ولد عبد الله بن رواحة العجمي الانصارى في الشهادة والشعر معروف فذرفه الا على يوم موته مع جعفر الطيار وطرفه الا قرب يوم عكا في لقاء الكفار قال في البرق وكان السلطان قد أنعم عليه في حلب بزرعة وكتب توقيعه واراد الله تعويقه اذ قرب الى الآخرة طريقه وجمت توقيعه الى السلطان تلك الليلة ليعلم فيه فاعلم وراجعه في معناه فسكت وما تكلم وكنان ساعة الواقعة را كما معنا ثم قال وتوفى ايا طول فضى الى خيمته يتودع فلما علم بان دفنا ساق ورانا فقطع ٤٠ ره قبل ان يقطع الوادى وكان قال لنا لما أصبح رأيت رجلا يخلق رأسى في المنام فقلنا له هذا من أضغاث الاحلام فنقله الله بعد ساعة الى دار السلام ذات وليس هو من أولاد ابن رواحة العجمي ذلك لم يعقب وانما فى اجداده من اسمه رواحه وقدين امفى التاريخ والله أعلم قال ومنهم اسماعيل الصوفي الارموى المكبس وشيخ من الحاشية فى بيت الطشت وعلام فى الخزانة أمين على البيت وآخرون صودفوا عند التل لجاءتهم السعادة وبعثهم الشهادة وهؤلاء سوى من وقع فى الواقعة وذهب قبل الرجعه وأجمع السلطان وذووا الاراء على انه يصح القوم فتفقدهوا العسكر فاذا هو قد غاب لما بان من الامر وراب وذلك أن غلبان العسكرية والاولا وشظون انك القورة نزجه فنبهوا الاثقال وعدوه اغتصبه من عادالى رحله وجده منهبوا مسلوبا وكان فى ظنه انه ان فرج من لقاء خطب يلقي خطوبا وأصبهنا واذا العسكر مفترق والثابت قلق والا من فرق والفنى معدوم والجري متندم فهذا خلف ما ذهب من ماله ذاهب وهذا مل طلب الطريق باثقاله طالب فتفر ذلك الزم وتأخر ذلك الحكم وانتعش الفرنج فى تلك المدة وانتشلوا من تلك الشدة وبعثهم فى البحر مرأ كبا خلفت من عدم وبنيت ما هدم وشكونا نترائجة تلك الجيف فحملت على البجل الى النهر ليشرب من صديد هائل الكفر فحمل أكثر من خمسة آلاف حثه حملت الى السارق قبل يوم البعثة وأشير على السلطان بالانتقال الى الخروبه عند خيم الانتقال المضروبه فسار اليها رابع رمضان وأمر أهل عكا باغلاق أبوابها وإحكام أسبوابها فوجد الفرنج بذلك الفسرج وشرعوا فى حفر خندق على معسكرهم حوالى عسكران البحر الى البحر وأخرجوا ما كان فى مراكبهم من آلات الحصر وفى كل يوم يأتون البزجة يخبرهم وبما ظهر من أثرهم والجند فى تعميق الخندق وتعيم محفرهم فكان من قضاء الله أن أغفلناهم وأهلناهم بل أهلناهم حتى عمقوا الحفور وثقوا من زواجها الدور فكانوا يخذلون ويعمقون ويعملون من تراب الحفر حولهم سورا فعدا نخيمهم ببلاد مستورا معورا فلزوه بالستائر ومنعوه من الطير الطائر ونهوه وأسسوه وسترود وسترهه ورتبوا عليه رجالا ولم يتركوا له لواغل مجالا وتركوا فيه أبوابا وفروجا ليظهر واسمها اذا أرادوا وخروجا ولما فرغوا من هذا الامر اشتغلوا بالحصر وانقطعت الطريق على المسلمين الى عكا وبان ضعف رأى الانتقال فانه بعدما أنشك أبكى وجاء كتاب من الناضل الى العماد جوابا عن كتابه المخبر فيه بوقعة مرج عكا يقول فيه (وعرفت ما جرى على قضيتى فبعت الله تعالى فان من عجائب قدرته سلامة سيدنا على ضعف حركته والامر كن عظاما والمدفع أعظم والسلامة كانت غريبة الا أن تقول ولكن الله سلم والسلطان أعز والله ادا سلم فكل الناس قد سلموا واذا وجد وقد عدم الناس كلهم فقد وجدوا وما عدموا وكل جوهر بالاضافة اليه عرض وهو جوهر الحقيقة ما عنده من كل جوهر عرض) ومن كتاب له الى

السلطان أوله (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين الآية وما أميتت أذنينه ولكن الله يرى وورد الكتاب بخط مولانا من معتزله حربه وجلاده وتوفيق جهاده قبل أن تضع الحرب أوزارها وهرع الناس إلى المجلس العادلي والعزري يستمعون الأخبار ويستنصون من وجوها الأنوار ويسألون كيف كانت عاقبة أهل الجنة وعاقبة أهل النار ويشكرون الله على سلامة أديانهم وقلوبهم وأبدانهم وسلامة سلطانهم وما أدراك ما سلامة سلطانهم ونصرة كلمة إيمانهم ودلائل الحسب لا تخفى وقد يقرأ الكتاب وما يلح قارئه منه فرحاً وتصور الناس الأمر الذي وقاهم الله شره وكفاهم أمره)

(فصل) في باقي حوادث هذه السنة هـ عكا وغيره قال العماد في يوم الاثنين ثالث رمضان أخذنا معاً بنا بعكاز كعب الفرنج إلى صور مقلعاً محتوي على ثلاثين رجلاً وأمر أمة واحدة ورزمة من الحرير وجاءت حظوة حالوه وغنية صفوه وقد كان انكسر نشاطهم وانقبض انبساطهم فلما عثروا بأربابك انتعشوا وصاروا يخرجون ويقتلون ويحرقون ويمسكون على القنابل ويصيحون وندم الفرنج على ذلك الحركة فأنها أفضت بهم إلى الهلاك فأنهم ما داموا راضين وعلى يد الصبر قاضين بتعذر الوصول إليهم وللدخول عليهم وفي بعض الكتب إلى بعض الأطراف (والمرجوع من الله سبحانه وتعالى تحريكهم المؤمنين في تسكين نائزهم وتقريب عامرهم وما دام البحر يذهب والبر لا يصبدهم فيلأ البلاد بهم دائم ومرضى القلوب بأدوائهم ملازم فأين حجة المسلمين ونخوة أهل الدين وغيره أهل اليقين وما ينقضى بحجبتهم تظافر المشركين وقعود المسلمين فلما لم يلب منهم لمناد ولا مثقف لمناد فأنظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا وأي حشد حشدوا وأي ضالة تشدوا وأي نخبة انخدوا وأي أموال غرموها وأنفقوها وجنات جمعوها ونزعوها فيما بينهم وفرقوها ولم يبق ملك في بلادهم جزائرهم ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم إلا جرى جاريهم مضمار الانحلال وبارى نظيره في الجذل والاحتداد واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والأرواح وأمدوا أجناسهم بالأنجاس بأنواع السلاح مع كفاه الكفاح وما فعلوا ما فعلوا ولا بذلوا ما بذلوا إلا مجرد الحمية لتعبدتهم والخوف لعتدهم وليس أحد من الفرنجية يستشر أن الساحل إذا ملك ورفع فيه حجاب عزمهم وتمك بخرج بلد عن يده وتمتد إلى بلده والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا ونشوا وغفلوا وكسوا ولزموا الخيرة وعدم الغيرة ولواتني والعباد بالله لا سلام عنان أو خباستان أو بناسنان لما وجد في شرق البلاد وغربها وبعد الاتفاق وقرعها من لدن الله بفار من لنصرة الحق على الباطل يختار وهذا وأن يرفض التواني واستدناه أولى الحجة من الأقاصي والاداني على أناب الحمد لله لنصره راجون وله بأخلاص السر وسر الاخلاص مناجون والمشركون باذن الله هالكون والمؤمنون آمنون ناجون) قال العماد وكان السلطان قد كتب إلى مصر يستدعي باخيه العادل في رجال يقدم عليه منتصف شوال وكتب أيضاً إلى طربال الأسطول المصري فقد تم نخسونه قطعة مع حسام الدين لؤلؤ منتصف ذي القعدة فجاءت فجأة على فرا كعب الفرنج وبفتنها ومحققتها وبدنتها وكسبتها وسلبتها وظفر بيطستين كبيرتين بما فيهما من أموالهم ورجالهم وغلالهم قال وهذا التلؤ قد اشتهرت بالكفر فتكاته وشكرت في العدو فكاناته وقد قد رغبوا لمشاركته فيها أحواله والذين رد الفرنج عن بحر الخجاز ووقف لهم على طرق الحجاز ولم يترك منهم عينا تطرف ولم يبق لهم دليلا يعرف وغزواته مشهورة وقتكاته مذكورة وأمواله المبذولة وأكاسه للعقد الانفاق في سبيل الله محمولة قال ونقل السلطان إلى البلد في المراكب جماعة من الأمراء باجنادهم وعددهم وأزوادهم واستظهر البلديات بأرباب الأسطول وكانوا زهاء عشرة آلاف هذا ورعاة المسلمين يتطرقون إليهم ليلاً ويذيقونهم من القتل والأسر والسرقة ولا حتى كان رجاله يمتنعون بالحشيش في اجراف الأنهار فإذا صادفوا فأسروا ورذلوا فاجؤ ومباقتل والأسار قال ولما عرف صاحب الموصل ما شرع فيه السلطان من تكثير العدة وتقوية النجدة بكل ما يمكنه من أسباب البأس والشدة سير من أحوال النفط الأبيض مع عزوف جرد ما وجدته ومن التراس والرماس من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده وكتبنا في شكره (وصل السلاح وتم لا سلام من قروح الكفر الاقتراح فان الحروب المتطاولة المندأت على جميع العدد ومن الجبابرة العدة تفتي وما يفتي العدة وتنوع على الحصاد كانتها النبات فالبحر يمدهم والكفر إلى الردى

في أخبار (١٤٩) الدولتين

برذهم) ومن كذب إلى الديوان (قدمت ثلاثة أشهر شهرها التثاني على التوحيد سلاحه وبسط الكفر جناحه وقتل من الفريخ وعدم في الوصيات التي روعت وأزوعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل وراحم ونابل فما أثنى ذلك في قسهم ولا أرت الأنارحصهم وليس هذا العدو بأحد فينجع فيه التدبير وبأني عليه التدبير وانما هو كل من وراء البحر وجيع من في ديار الكفر فانه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزير ولا خطة صغيرة ولا كبيرة الا جهزت مرأبها وانقضت كائنها وتحرز ساكنها وبرز كائنها وانار أثرها وسار سائر طاورها طائرها ونقضت خزائنها وانقضت معادنها وحطت ذخائرها وبذلت أخاثرها وثقلت كائنها واستخرجت دفائن نقائسها وخرج بصلبانها اساقفةا وبطاركها وغصت بالافواج بغاجها ومساكنها وتصلبت للصلب السليب وتغصبت للصاب المصيب ونادوا في نواديهم بأن البلاد هي بلادهم وان اخوانهم بالقدس ابارهم الاسلام وابداهم وانه من خرج من بيته مهاجر الحرب الاسلام وهبت له ذنوبه وذهبت عنه عيوبه ومن عجز عن السفر سفر بعذته وثروته من قدر بخاؤا لاسبين الحديد بعد ان كانوا لاسبين الحديد وتواصلت منهم الامداد) قال (ووصلت في مركب ثلثمائة امرأة فرنجية مسخنة اجتمعن من الجزائر وانتدبن للجزائر واغتربن لاسعاف القرباء وقصدن بجزر وجهن تسبيل انفسهن للاشقياء وانهن لاجتمعن من العزبان ورأين انهن لا يتقرن بأفضل من هذا القربان وزعن ان هذه قربة ما فوقها قربة لاسبين اجتمعت فيه غربه وعزبه) قال (وابق من عسكريا من المالك الاغبياء والمدابير الجلهاء جماعة جديهم الهوي واتبعوا من غوى فنهض من رضى للذة بالذلة ومنهم من ندم على الزلة فقبل في الذلة فان يدمن لا يرنه لا يمتد وأمر المحارب اليهم لاسمها بهشت وباب الهوى عليه يستند وما عند الفريخ على العزباء اذا امكنت منها العزباء حرج وماز كاهما عند القوس اذا كان للعزبان المضيض من فريخها فرج) قال (ووصلت ايضا في البحر امرأة كبيرة القدر وافرة الوفرة وفي حملتها خمسمائة فارس بحبيلهم واتباعهم وغلمانهم وأشياهم وهي كافلة لكل ما يحتاجون اليه من المؤنة زائدة بما تنفعه فيهم على المعونة وهم ركبون بركايتهم ويحملون بجمالهم وينبون لوابيتهم وفي الفريخ نساء قوارس لمن دروع وقوارس وهن في زى الرجال يبرزن في حومة القتال ويعملن على أبواب الجحى وهن ربان الجبال وكل هذا يعتقن انه عبادته ويحلمن انهن يستفدن به سعادته ويعلمنه لمن عادته فسبحان الذى اذلهن وعن نهج الهدى ازلهن وفي يوم الواقعة طلعت منهن نسوة لمن بالفريسان اسوه وفيهن مع ليهن قسوه وليس لمن سوى السوايغ كسوه فما عرفن حتى سلبن وعترن ومنهن عذرة سبعين واشترين وأما الجائز فقد املائت بهن المراكز وهن يشدن تارة وبرخين ومحرضن ويغنين ويقطن ان الصليب لا يرضى الا بالاباء وانه لا قاه له الا بالقضاء وان قمرهم موجودهم تحت استيلاء الاعداء فانظر الى الاتفاق في الضلال بين الرجال والنساء) قال وفي آخر هذه السنة ندب السلطان الرسل الى الاقطار والامصار للاستنفار والاستنصار وبث الكتب وكتب بالبرث وحث الرسل وراسل بالحث وصرح عند ان التجاب الى سيف الاسلام باليمن وشرح في الكتاب اليه ما جرى من حوادث الزمن ووصف له جليلة الحال وطلب منه الاعانة بالمال وكتب مظفر الدين قزل أرسلان بهمدان سمع ما دنا منه عزمه ودان وحكم على كل ذلك بحجة الايمان وهدى الى محبة الاحسان ووصل الى السلطان رسول ابن اخيه لانه ركن الدين مظفر بن أرسلان بن مظفر بن محمد بن ملكشاه وهو آخر السلاطين السلجوقية تنظم من عمه قزل أرسلان وطلب من السلطان اعانته فاعتذر السلطان بما هو عليه من شغل الجهاد مع الكفار وأرسل رسولا في السفارة بينه وبين عمه جمال الدين ابا الفتح اسماعيل بن محمد بن عبد الكون نسيب النجاد وكتب الى صاحب اربل والى حسن بن قنجاق ونائبه بشهر زور بالتوفر على خدمته والارتداد له لحنه وأشياعه ومعونته قال وفي هذه السنة توفي الامير حسام الدين سنقر الحلاطى أخى ممالك السلطان وأخلصهم وقد قدمه على ممالكه وكانت وفاته ليلة الاثنين والعشرين من رجب قال وفي ثالث عشر شعبان توفي الامير حسام الدين طمان صاحب الرقة وهو من المجاهدين المجتهدين والانتفاء المتسجدين ولما حضرته الوفاة تأسف من موته على فراشه وطلب حصانه ليكرمه وينتقل سعيدا شهيدا الى معادته من معاشه قال وفي تاسع عشر شعبان توفي الامير عز الدين موسك بن جكر وهو ابن خال السلطان وهو من أكابر أقاربه ومقدي كائنه وكان للقرآن حافظا وعلى الاحسان

محافظا ولقضاء حقوق الناس ملاحظا ولم يزل السلطان في هذه الغزوات ملازما وعلى قمع جمع الكفر عازما ولما اشتد به مرضه استأذن في الدخول الى دمشق ودفن بجبل قاسيون قال وفي حادى عشره رمضان توفي بدمشق القاضي شرف الدين ابن أبى عمرو ومولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة فبلغ عمره ثلاثا وتسعين سنة ونصف وأضر قبل وفاته مدة عشرين سنين ودفن بالمدسة التي أنشأها بدمشق قبل ان تدارم بينها عارض الطريق وكان شيخ المذهب وتدرجت به الفتيا وأوحشت غيبته الدين والدنيا قال وفي ثمانى مائة الفقةة توفي الامير الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري في العسكر بمنزلة الخرو وبه وكان صاحب أسدالدين شيركوه ومضى معه الى مصر حين ملكها ثم اختص بالسلطان بعده وقول حله وعقده ودرت بوساطته وشفاعته للناس ازراق ونقل الى القدس فدفن بظاهره ولقد سلك من الاعيان ومن أهل الجدى نصره الامان فنقله الله الى الجنان قال وفي هذه السنة أقطع السلطان مملوكه مجاهد الدين اياز ولاية شهر زور وأعمالها وولى جمال الدين ابن المحسن نقابة الاشراف بدمشق قال وفي عاشر جمادى الاولى منها كان مولد ناصر الدين محمد ابن الملك العزيز بمصر الذي اجتمع عليه أصحابه بعد وفاة أبيه في محرم سنة خمس وتسعين وورد بذلك الى السلطان جدّه كآب كرم فاضلى من مصر نسخته (المملوك يقبل الارض بين بدي مولانا الملك الناصر دام رشاده وارشاده وزاد سعه واسعاده وكثر أولاده وعبيده واعداه واشتد باعضاده فيهم اعتضاده وانى الله عسده حتى يقال هذا آدم المملوك وهذه أولاده وبين ان الله وله الحمد رزق الملك العزيز نصره ولدا مباركا عليا ذكر اسوبا برازكيا تقيا قيا من ذرية كريمة بعضهم من بعض ومن ثبت شريف كدت ولاته تكون ولاته في السماء وماله كنه تكون ملوكا في الارض وكان مقدمه الميمون في ليلة الاحد وهي من الجمعة أولى العدد وبه وبأله به زائلة أهل الجمعة وبذل أهل الاحد ثم ذكر في الكتاب

(فصل) في ورود خبر خروج ملك الالمان قال القاضي ابن شداد ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وثمانين وصل من حلب كتب من ولده الظاهر يخبر فيها انه قد صرح ان ملك الالمان خرج الى القسطنطينية في عدة عظيمة قيل مائتا ألف وقيل مائتان وستون ألفا يريد البلاد الاسلاميه فاشتد ذلك على السلطان وعظم عليه ورأى استنفار الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة فاستدنى لذلك وأمرني بالمسير الى صاحب سخيار وصاحب الموصل وصاحب اربل واستدعائهم الى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم وأمرني بالمسير الى بغداد فمرت حادى عشره رمضان ويسر الله تعالى الوصول في الجماعة وابلاغ الرسالة اليهم فأجابوا الى ذلك بنفوسهم وسير صاحب الموصل علاء الدين ابنه بمعظم عسكره ووعد الديوان بكل جميل وعدت اليه خامس ربيع الاول سنة ست وثمانين وسبقت العساكر وأخذ برتبها بآياتهم وتأهبهم للمسير فمر بذلك وقال العماد في كتاب الفتح ونفى الخبر بوصول ملك الالمان الى قسطنطينية في ثلثمائة ألف مقاتل على قصد العبور الى بلاد الاسلام وقطع بلد الروم والارمن الى الشام وفيهم ستون ألف فارس مدرع ومعهم مملوك وكنود وكل شيطان له كنود وكتب صاحب قلعة الروم مقدم الارمن وهرب قلعة على الفرات وبين أهل الذمة في المأمن يبدى نهمها واشفاقا وتحتوفا على البلاد واحترافا ويقطع ان الواصلين في كثره وان الناهضين الى طريقهم في عشره واربعة في كتابه وارعد وابدع في خطابه وأبعد ولا شك انه الى جنسه النجس مائل وملاذاهل ملته قائل ولما وصل هذا الذبا وقيل انه عظم وورد هذا الخبر وخيل انه ألم كاد الناس يضطربون على انهم يصدقون ويكذبون ومن طرف كل جبل من الرأى يحذرون وقلنا ان وضع هذا الخطر وضع هذا الخبر فالمسلمون يقومون لنا ولا يقدون ويفضون لله ولا يرضون انهم لا يعقدون على ان الله ناصرنا ومؤازرنا ومظاهرنا وحققنا باظهار القوة لمن استوحش التأتيس وبثنا بالارسل الى البلاد ومعيونا وجواسيس وندسنا رسل الانصار وبغنا صكتب الاستنفار الى جميع الامصار والاقطار وقلنا ما هذه المصرة الى مره لا يسبغها الا كل مرأى وما هذه الكثرة مثل كل كره ولا يحضرها الا كل كيش كى قال وعزل السلطان على ارسال القاضي بهاء الدين ابن شداد يوسف بن رافع بن نجم ليكون كآبه الى الديوان العزيز مع رسول كرم وقال له ما احتاج اوصى وأنت توفي القول وتستقصي وجعل له الى كل طرف في طريقه رساله وأودعه اليه مقالة فسار ووصل الى حلب والقاضي ضياء

في أخبار (١٥١) الدولتين

الدين ابن الشهرزوري رسول السلطان بغداد قعداد وذكر انه قد بلغ المراد فها هذا الرسول الرابع ووصل وهو مغناظ وتغير على ونسب انفاذ القاضي بهاء الدين الي ثم اجتمع بالسلطان ونذمه على ما قدمه واعلم بما عمله وعلمه وقال له الشغل قد فرغ والقصد قد بلغ وقرر مع السلطان أمرا وعاد على النجيب الى بغداد وصادف بها القاضي بهاء الدين ابن شداد فلم يسفر أمر سفارته عن سداد وقيل جواب ما أتيت فيه مع ضياء الدين نسيه وتنبه فيما تخسیره وقال في كتاب البرق وصل الخبر بخروج ملك الالمان من بلاده في مائتي ألف دارع وفي راجل في ديب رجل الدبا في عدد رمل اللوا وأقام بحسبهم القيامه واستنارهم لئلا يركن ستم بالقدس فامه وساروا في شهر حتى وصلوا قسطنطينية وكان ملك الروم يكتب اليه أخبارهم ونبأ خروجهم من ديارهم ويقول أنا لا أمكنهم من العبور فلما جازالم بقدر على منعهم فصعد عنهم الازواد وحرهم الاسعاد وعبروا الخليج وقد كثرت أمدادهم وقلت أزوادهم ولما وصلوا الى حدود بلاد الاسلام وملكوا في الاودية والاحجام والوهاد والاكمام تسلمهم تركان الاوج وتراكم اللوج وشاء الكلاب في تكلم الشتاء واحتاجوا الى كل الذواب واحرق عدد هدم لا عوازالا حطاب وعدموا العلف وما وجدوا الخلف فمناهل الزلال جامدة وهم بالبلاد جاهلون ومن البلاه ناهلون لا يقطعون في يومين فرمها وقد اذهب الله عنهم البركه وصعب عليهم الحركة وخرج الامر عن حسابهم وهم كل يوم في نقص أنفسهم ودوابهم وكانوا يدفنون من اعلا قههم انفسه وعددهم الكريمة الرئيسه ما يهجزون عن نقله ولا يخفون بثقله فاتخذوا لاسرارها من اضلاع تلك الشعاب وصدور تلك الوهاد والحضاب ضما ثرا لتبوح بها أبدا ولا تطلع على مكنتها ومدفونها أحدا هذا ويحرقهم عباب الموج هباب الفوج فلما خالصوا بعد أشهر كانهم خروا بموج سبعة أبحر هذا وقد نقص شطهم وانقطع ظهريهم لكنهم عرضوا في سبب ألف مدرع مدجج مقنع ذلك وقد باد أكثر راجلهم ورجل معظم ابطال باطلهم وسيأتي باقي أخبارهم قلت ومن قصيدة الحكيم أبي الفضل الجلياني

يا منقاد القدس من أيدي جبارة * قد أقصموا بذراع الرب تدخله
فا كذبوا كذبهم في وصف ربهم * وصديق الوعد ما مونا محوله
أما رأيت ابن أيوب استقل عما * يعبي الزمان وأهليه تحمله
هاج الفرنج وقد خاروا له تكتته * فاستنفروا كل مرهوب تغلغله
لماسي القدس قالوا كيف تركها * والرب في حفرة منها تئمله
فكم ملك لهم شق البحار سرى * لينصر والقبور والاقدار تخذله
وكم ترحل منهم فيلق بفضل * الى الخوامع القاه ترحله
استصرخوا الاهل والعذوى تمزقه * واستكثروا المال والهيجاته فله
هم الفرائش لهيب اغرب تصرعه * وكل الخيل صدم ما جل مقتله
سيف امام فلسطين يرى اما * خلف البحار لقدامها صبله
كم قد اعلموا كم قد قل جمعهم * من غسير ضرب ولا طعن يزيله
وانما اسم صلاح الدين يذكر في * جيش العدو فيسيبهم تخيله

ثم دخلت سنة ست وثمانين هـ قال العماد رحمه الله والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الختروبه في خيامه المضروبه على الحالة المحبوبة وعنده الامل والافضل والمظفر وعكا محصوره وانقضت هذه السنة وهو على مرابطة المحاصرين عكا واتفق في أوائل هذه السنة وقبلها انصراف العساكر العربية الى بلادها البعيدة والقريبة المحجوم الشتاء وتوالي الانداء والانواء وحالت الوحول عن الركوب والنزول وكانت نوب اليزك مترتبة والاحوال متعذبه ورجاء ركب السلطان يوما للقنص بالنزاه ثم يعود لانه لا تهاز فرصة القزاء ثم وقعت وقعة الرمل وذلك انه ركب يوما في صفر قصيد وطاب له قرب الهندس فابعد واليزك على الرمل وساحل البحر فخرج الفرنج في وقت العصر في عدد لا يدخل في الحصر وتسامع أصحابنا بهم فزحفوا اليهم وحكوا عليهم وطردها عليهم الى خيامهم وأخذوا عليهم من خلفهم وامامهم ولهم في كل دفعة من العدو قلائع وللفرنج في كل كرة على الرمل مصارع حتى فنى النشاب

وبقي الانتساب وشاع نداء الاصحاب باستدعاء الشباب والفرج لا يعجزهم الارما ولا يبتكهم الا لاهما فلما انسا
 بخلو الجعاب تجاسروا على الدخول تلك الشاب وجوا حلة واحدة ودوا بها اعمجابا الى النهر وكادت تعبت بهم
 يد القهر فثبت من العادلة في وجوه القوم صف مرصوص البنيان واستشهد جماعة من الشجعان وذلك انهم
 لما ردوا الفرخ فلعوا فرسانا وصرعوا اقربا قتلوا بعد فرسهم بسلب بسهم فخرت بهم الحلة في الويه واعلمتهم
 عن الركبة والوشه واعظم الليل واقترب الجعان وكثر التأسف على من فقد ومنهم الحاجب ايد غمش المجدي
 قال ومن عجائب هذه الوقعة ان هلكوا كالسلطان يقال له سراسنقر عثر به جواده فقبض من أسره على شعره ليحذبه
 وسل آخر سيفه ليضربه فضرب يدا قباض شعره فسيه واشتد سراسنقر بعدو وهم خلفه فلم يدركوه وعاد السلطان
 من الصيد وقد انفصل الامر قال وفي يوم الاحد خامس عشر ربيع الأول تسلق شقيف اربون بالامان وكان الحصار
 قد استمر عليه حتى فنى زاده وصاحبه ارنطاف في الامر فسله بخلاصه وصار الى صور قال واغتم السلطان هيجان
 البحر وحضور مراكب الاسطول من مصر فزال يقوى عكبا بتفسير الغلات والقوات اليها في المراكب وملاها
 بالذخائر والاسلحة والركباء فلما سكن البحر عادت مراكب الفرخ الى مراكبها ودبت عقاربها واقفاها وشدت
 مراكبنا في موانئها وانقطع خبر البلد وامتنع عليه دخول المدد فاشتد العوام بالسباحه وحملهم على ذلك
 من السلطان السماحه حتى صاروا يماجون فثقت الاجناد على اوساطهم ويحاطرون بانفسهم مع احتياطهم
 ويحجون كتبوا بطر وراو بعدون يكتب وطيرور يكتب اليهم ويكتبون اليه اخبه الخام بالترجمة المصطط
 عليها وكان في العسكر من اتخذ حاميا بطرف على خيمته وينزل في منزله وعمل لهارب جمان خشب وهو ادى من
 قصب ودرجها على الطيران من البعد وكنا نقول ما هذا الولع بما لا يقع حتى جاءت نوبة عكاف فنفعت وشفقت
 الغليل ونفقت وانت بالكتب سارحة شارحه وكنا نطلبها منه مع الليل والنهار حتى قل وجودها لكثرة الارسال
 ولقد عذب عوامون فما الرذع الباقون ومنهم من سلم مرار من القوم فاجترأ وأنس بالعلوم

(فصل ١٠) في قدوم المملوك وحريق الابراج قال العماد ولي النسخة الشاه وانفتح البحر وحان زمان القتال
 جاءت العساكر الاسلامية من البلاد فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حصن الرحبه
 وسابق الدين عثمان صاحب شيرز وعز الدين ابراهيم بن المقدم وقد معه جموع من الاجناد والاهيان وحشود
 من العرب والتركان فرحل السلطان وتقدم وعزم على طلب العدو وهم زل على تل كيسان يوم الاربعاء
 ثامن عشر ربيع الأول ورزب عسكره فكان تقي الدين في آخر الجبهة والعادل في آخر اليسره والافضل في أول
 ميمنة القلب وأخوه الظافر في أول اليسره على الجنب ثم وصل الظاهر في عساكر حلب وعماد الدين محمود بن بهرام
 الارتي صاحب دارا وغيرهم من المملوك والمقاتلين ووصل رسول الخليفة يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول
 وهو الشريف خفر الدين تقي مشهد باب التين ب بغداد ووصل معه حلائل من النفط الطيار وحلائل من القنا الخطار
 وتوزيع عشرين العدينار يقتصر على الديوان العزيز من البحار وخسة من الزرافين النفاطين المتقنين صناعة
 الاحراق بالنار فاهتد السلطان بكل ما أحضره وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره غير انه أبدى رذا التوقيع
 وقال كل ما معي من نعمة أمير المؤمنين ولولا صرف أموال هذه البلاد الى الجهاد لكانت محمولة الى الديوان وأركب
 الرسول معه مرارا ورام مبارك النزال ومعارك القتال حتى يشهد بما يشاهد ويبين له المجتهد والمجاهد وأقام
 طويلا ثم استأذن في العود فرجع وقال القاضي ابن شداد قبل السلطان جميع ما وصل مع الرسول واستعفى
 من الرقعة والتشغيل بها قال وفي ذلك اليوم باع السلطان ان الفرخ قد زحفوا على البلد وضاقوه فركب اليهم
 ليشغلهم بالقتال عن البلد فقاتلهم قتلا شديدا الى الليل وخاف السلطان ان يحجم العدو والبلد فانتقل الى تل
 الحجل في خامس عشر ربيع الأول للفرج قال وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوام معه كتب تضمن انه
 قد طام العدو وبعض المختدق وقد قوى عزم العدو على منازلة البلد ومضايقته فخذد السلطان العسكر الى
 العساكر بالحث على الوصول وفي محرم ليلة الجمعة سابع عشر ربيع الأول وصل ولده الظاهر وفي آخر ذلك اليوم
 وصل مظفر الدين وكان السلطان رحمه الله ما يقدم عليه عسكر الا ويعرضهم ويسير بهم الى العدو وينزل بهم

في اخبار (١٥٣) البوئين

في خيمته ويمد لهم الطعام وينعم عليهم بما تطيب به قلوبهم اذا كانوا اجانب ثم تضرب خيامهم حيث يأمر وينزلون بهامكرمين قال وكان العدو قد اصطنع ثلاثة ابرحة من خشب وحديد والبسم الجلود للحفاة بالخل على ما ذكر بحيث لا تنفذ فيها النيران وكانت هذه الابراج كأنها الجبال نشاهد هاهنا مواضعنا عالية على الاسوار وهي مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل ويتسع سطحه لان ينصب عليه مخبئ وكما كان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد ما لا يمكن شرحه وايس الناس من البلد بالكلية وتقطعت قلوب المقاتلة فيه وكان قد فرغ عملها ولم يبق الاجرها الى قريب السور وكان السلطان رحمه الله قد عمل فكره في احرانها واهلاكها وجمع السناع من الزرايين والنفطين واحشهم في الاجتهاد في احرانها وودعهم عليه بالاموال الطائلة والعطايا الجزيلة وضاعت حيلهم عن ذلك وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي فذكر ان له صناعة في احرانها وان له ان يمكن من الدخول الى عكا وحصل له الادوية التي يعرفها احرانها فحصل له جميع ما طلبه ودخل الى عكا وطبخ تلك الادوية مع النفط في قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جرة نار ثم ضرب السرج الواحد يوم ووصل الملك الظاهر بقدر فاشتعل من ساعته ووقته وصار كالجلجل العظيم من النار طالع ذوابته نحو السماء فاستغاث المسلمون بالتهليل والتكبير وغلبيهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب فبينما الناس ينظرون وينجبون اذرى البرج الثاني بالقدر الثاني والثالث الثالث فاحترقا كالاول وركب السلطان والعساكر وسائر اليهم وانتظروا ان يخسر جوافينا جزمه فلا يقوله صلى الله عليه وسلم من فجع له باب خير فليتمنه فلم يظهر العدو من خيامهم وحال بين الطائفتين الليل واستقر ركوب السلطان اليهم في كل يوم وطلب من الهزم وقتا لهم وهم لا يخرجون من خيامهم لعلهم يتباشرون النصر والنظر بهم والعساكر الاسلامية تتوار وتواصل فوصل في الثاني والعشرين من ربيع الآخر عز الدين بن زكي بن مودود بن زكي صاحب سنجار وهو ابن أخي نور الدين رحمه الله وصهره زوج ابنته فلقية السلطان بالاحترام والتعظيم ورتب له العسكر في لقائه وسار به حتى اوقفه على العدو وعاد معه الى خيمته وأنزله عنده وكان صنع له طعاما لا تقا به ذلك اليوم فحضره وجميع أصحابه وقد مله من الخف واللطائف ما لا يقدر عليه غير هو كان قد أكرم به بحيث طرح له طراحة مستقلة الى جانبه وبسط له ثوبا طلس عند دخوله وضربت خيمته على طرف اليسرة على جانب النهر وفي سابع جادى الاول وصل ابن أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجار شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زكي فلقية السلطان وأنزله الى جانب عمه عز الدين وفي تاسع جادى الاول وصل ابن صاحب الموصل وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زكي نائباً عن أبيه ففزع السلطان به فرحاً شديداً وولقاه من بعيد هو وأهله واستحسن أدبه واستجبه وأنزله عنده في الخيمه وكارمه مكارمة عظيمة وقدم له تحفا حسنة وأمر بضرب خيمته بين ولديه الافضل والظاهر وفي أوآخر الشهر وصل صاحب أربل زين الدين يوسف بن زين الدين على فأكرمه السلطان وأنزله عند أخيه مظفر الدين يعني في الميمرة وذكر العباد قدوم هؤلاء الملوك بمعنى ما تقدم قال وكان الفرنج مذكروا على عكا معموا على الإقامة والمحصر فشرعوا في بناء الابراج العظام العاليه ونقلوا في البحر ألأنها وأخذها الجافية واقطاع الحديد بنوا ثلاثة ابراج عالية في ثلاثة مواضع من اقطار البلد فتمت مواضعها سبعة أشهر فرجعوا منها الا في ربيع الاول فعملت كأنها ثلاثة اطواد قد ملئت طبقاتها بعدد واعداد وكل برج لا بد له في اركانه من أربع اسطوانات عالية غلاظ جافيات طول كل واحدة خمسة وراة الشرف على ارتفاع سور البلد وبسطوها على دوائر الجبل ثم كسوها بعد الحديد والونوق الشديد بجلود البقر والسوخ وكل يوم يقربونها ولو ذراعا على حسب التيسير في تسيرها وسقوها بالخل والخمر وكشفوا من جوانبها الثلاثة سور البلد وشرعوا في طم الخندق وجاء عزام من عكا فخبى السلطان فركب بالعسكر ولازمهم من الجمعة الى الجمعة يقا تلهم صباح مساء لا يشغلهم فاقترعوا قسمين فريقا للقتال وفريقا آخر مع الابراج فاشفى البلد وبقى له رمق ضعيف ورمت الابراج بكل فارورة نطق فما أثرت ولم تضر يوم السبت الثامن والعشرين من ربيع الاول بالابراج الا وقد اشتعلت وانتهت ووتعت وكانت آية من قدرة الله ظهرت وذلك انه كان هناك شاب من أهل دمشق يعرف بعلي بن عريف النحاسين وكان أبداً يجمع آلات الزرايين مولعا ولتحصيل عفا قيرها متبعا وكل من

عرفه عنه وانكره وكان قد أئتمنهم بمقادير وقدورا وملا بالقيظ من أهل تلك الصناعة صدورا ولم يكن النفط من صناعته ولكن الله وقته لمعاده فلما كان يوم حريقها جاء إلى الأمير قراقوش وهو معتظ واخلاقه فظاظ غلاظ وقال أتأذن لي في تصويب المنجنيق لاحتراق البرج والله ولي التوفيق فزجره وزيره ونهاه ونهره وقال صناع هذا الشغل قد ضاروا وماروا وبعدما اتجدوا وأغاروا فقال الناس دعه وشانه وما يدريك أن الله وفقه وأمانه فرمى ابن العريف إلى السرج الأول قدور نفط خالية من نار حتى عرف أنه سقاها ورواه ثم رماه بقدر محرقه وأردفها بأخرى من هقه فسلط النار على طبقاتها فاضرم على أهل السعير سعيرا وكان يوما على الكافرين سعيرا ثم أحرق الثاني والثالث فاجتمع عليه الاصحاب بفدونه ومن أولياء الله يعتذونه وحملوه بعد ذلك إلى السلطان فقبل عطاءه وقال علمته الله فأمر بدمه من سواه جزء وقيل احترق في البرج الأول سبعون فارسا بعدتها فخطبت أعمالهم ونابت أمانهم وخرج رجالنا من البلد فنصفوا الخندق وسدوا الثغر وأظهروا القدر بظهور القدر وجاءوا إلى مواضع الابراج وأما كتبها واستخرجوا الحديد من مكانها ونشوا الرماح من الرزديان التي انسبكت وكشفوا عن الستائر التي نهكت فأخذوا ما وجدوا وحصلوا على ما نشدوا قال وكان السلطان قد كتب بالاستظهار من شوانى الاسطول والاسراع به في الوصول فوصل الخبر بوصول يوم الخميس ثامن الشهر فاستظهر به الاسطول الأول الذى بالكفر فركب السلطان بجميع كتائبه وأحاط بالكفر من جميع جوانبه واشتعل الفرنج عنابا دهم في البحر فخذوا في الأمر وجهوا الاسطول بعدد الرجال وعدد القتال وخرجوا لتلقي الاسطول الواصل وقابلوا الحق بالباطل وجاءت شوانى المسلمين فخطت وطعنت وأخذت من كالعقد رجاله وأخذوا الناقطة وما زالت الحرب قرعة وفرعة ومصرعه ومصرعه حتى دخل الليل ففخا من الفريقان وتفترقا الاسطولان وكانت المقتلة في الكفر شديدة والسطوة مبيدة وقال القاضي ابن شدد لما كان ظهيرة يوم وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل ظهرت في البحر قلوب كثيرة وكان رحمه الله في نظرة الاسطول من مدبر فانه كان قد أمر بتجهيز ووصوله فلم انه هو فركب الناس في خدمته وتعبا تعبى القتال وقصده ضابطة العدو ليشغله عن تصد الاسطول ولما علم العدو بالاسطول استعد له وعمر اسطوله لثقله ومنعه من دخول عكا ولما خرج اسطول العدو واشتد السلطان في قتالهم من خارج وسار الناس على جانب البحر فتوقفة للاسطول وياسا له ولرجالها التي الاسطولان في البحر والعسكران في البر واضطربت نار الحرب واستعرت وباع كل فريق روحه براحمته الاخر ويذرى قتال شديدا أشنع عن نصره الاسطول الاسلامي وأخذ منه شيئا وقتل من به ونهب جميع ما فيه وظفر من العدو بمركب أيضا كان واصلا من قسطنطينية ودخل الاسطول المنصور إلى عكا وكان قد صحبته من أكابر من الساحل فيها أمير ونخار وطابت قلوب أهل البلد بذلك واشترحت صدورهم فان الضائقة كانت قد أخذت منهم واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى ان فصل بينهما الليل وعاد كل فريق إلى خيمته وقد قل من عدو الله وجرح في ذلك اليوم خلق عظيم فانهم قاتلوا في ثلاثة مواضع فان أهل البلد اشتدوا في قتالهم ليشغلوهم عن الاسطول أيضا والاسطولان مقابلان والعسكر من البر يقاتلهم وكان النصر بمجد الله للمسلمين قال العباد وقتلنا منهم مائة مقامنا على عكا ستين أكثر من ستين ألف ورواهاهم بكل حنف وكما يداووا في البر زادوا من البحر وكبحروا وخسروا وقتلوا وأسروا وهزموا وكسروا وخافهم خلف ويقوم مقام ما تمهم ألف وقد أنقذنا أنفسهم وأموالهم وقطعنا أرواقهم ووصلنا أجالهم

(فصل) فيما كان من أمر ملك الالمان قال القاضي ابن شدد تواصلت الاخبار بوصول ملك الالمان إلى بلاد قلايخ ارسلان وأنه اتهم للقائه جمع عظيم من التركان وقصدوا منعه من عبور النهر وأنه أعجزهم لكنة خلقه وعدم مقدم لهم فجمع كلهم وكان قلايخ ارسلان يظهر اشفاقه وهو في الباطن قد أعجزه وفاته ثم لما عبر إلى البلاد أظهر من الفساد ما كان أخضر موافقه وأعطاهم هاتن معه على انه ينفذ معه من يوصله إلى بلاد ان لا ونفذ معه أدلة يدلون به وعراهم في الطريق جمع عظيم وأعوزهم الزاد وقتل بهم للظهر حتى أنهم القوا بعض أنفسهم ولقد بلغنا والله أعلم أنهم جمعوا عتدا كثيرة من زرديات وخود وآلات وسلاح عجوزا عن حملها وجعلوا يهدوا واحدا

في انجيل (١٥٥) للدولتين

وأضر موافقها النار لتختلف ولا ينتفع بها أحد وانها بقيت بعد ذلك راية من حديد وساروا على هذه الحال حتى وصلوا الى طرسوس فأقاموا على نهر ليبرود وان ملكهم الملعون عن له ان يسبح فيه وكان ماء شديد البرد وكان ذلك عتيب ما ناله من التعب وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتد به الى ان قتله ولما رأى ما حصل به أوصى الى ابنه الذي كان في صحبته ولما مات أجمعوا رأيتهم على انهم سلكوا في خل وجعوا عظامه في كيس حتى يجاوه الى القدس الشريف ويدفنوه فيه وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه فان ولده الاكبر كان خلفه في بلاده وكان جماعة من أصحابه يميلون اليه واستقر قدم ولده الحاضر في تقدمه في العسكر ولما أحس لافون بما جرى عليهم من الخلل وما حل بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم ما رأى أن يلقى نفسه بينهم فانه لا يعلم كيف يكون الامر وهم فرنج وهو أرمني فاعظمهم عنهم في بعض قلاع المدينة ولقد وصل الى السلطان كتاب من الكاغيكوس وهو مقدم الامرن وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات ومعنى هذا الاسم الخليفة ونسخة الكتاب (كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس مما أطلع به عناوم مرزا وما لهما السلطان الملك الناصر جامع كنة الايمان رافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين من أمر ملك الامان وما جرى له عند ظهوره وذلك انه أول ما خرج من دياره دخل بلاد الهند كغصبا ثم دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها وأحوج ملك الروم الى ان أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفرا من خالصاته وأخذ منه خمسين قنطارا ذهباً وخمسين قنطارا فضة وثياب اطلس مبلغة عظيماء واغتصب المراكب وعدى بها الى هذا الجانب وصحبته الرهائن الى ان دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان ورد الراهائن وبقي ثلاثة أيام سائرا وترك ان الأوج بالمقونه بالاغنام والابقار والحيل والبضائع فخذلهم الطمع وجعوا من جميع البلاد ووقع القتال بين التركان وبينهم وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهوسائروا قارب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافا عظيما فظفر به ملك الامان وكسره كسرة عظيمة وسلاحه حتى أشرف على قونية فخرج اليه جوع عظيمة من المسلمين فرزدهم مكسورين وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالما عظيما من المسلمين والفرس وأقام بها خمسة أيام فطلب قليج أرسلان منه الامان فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة وأخذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمضيعة ففعل وقبيل وصوله الى هذه البلاد انفضد كتابه ورسوله يشرح حاله وأبى قصده وما لقيه في طريقه وأنه لا يذبح تار بهذه الديار اختيارا أو كرها فاقضى الحال انفاذا لما مولد خاتمه وصحبته مسألا ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه وكانت الوصية معهم أن يحرقوه على بلاد قليج أرسلان ان أمكن فلما اجتمعوا الى الملك الكبير وأعادوا عليه الجواب وعزفوه الاحوال أبى الانحراف ثم كثر عليه العساكر والجوع ونزل على شط بعض الانهر وأكل خبز اوانام ساعة وانتبه فناقت نفسه الى الاستحمام في الماء البارد فدخل ذلك ونزع وكان أمر الله انه تمحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد فكثأ بأماة لائل ومات وأما لاون فكان سائرا يلقى الملك فلما جرى هذا الجري هرب الرسل من العسكر وقد دموا اليه وأخبروه بالحال فدخل في بعض حصونه واحتج هناك وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجهه لقصده هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه وتأكدت قواعده وبلغه هرب الرسل لافون فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال ان ابني كان شخصا كبيرا وانما قصد هذه الديار لاجل حج بيت المقدس وأل الذي دبرت الملك وعانيت الماشاق في هذه الطريق مع من أطاعني والاكنت بدأت بقصد دياره واستعطف لاون واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة وفي الجملة هم في عدد كثير ولقد عرض عسكره فكان في اثنين وأربعين ألف مجحف وأما الرجال فلاجيهم عدد هم اجناس متفاوتة وخلق غريبة وهم على قصد عظيم وجذ في أمرهم وسياسة هائلة حتى ان من جنى منهم جناية ليس له جزاء الا ان يذبح مثل الشاة ولقد بلغنا عن بعض أكابرهم انه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه فاجتمعت القسوس للحكم عليه فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه وشفع الى الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت الى ذلك وذبحه وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى ان من بلغهم عنه بلوغه هجره وعزروه وكل ذلك كان حزننا على بيت المقدس ولقد صبح من جمع منهم انهم هجروا الثياب مذة طويلة وحرموها على أنفسهم ولم يلبسوا الا الحديد حتى أنكروا عليهم

كتاب (١٥٦) الروميتين

الأكابر ذلك وهم من الصبر على الذل والشقاو التبع على حال عظيم) وقال العماد لما قاربوا بلاد عز الدين فليج أرسلان نهض اليهم ابنه قطب الدين ملك شاه فوقع بينهم الحرب ثم اندفع عنهم إلى مدينة ذوقية فساقوا وراءه ودخلوها وحرقوا أسواقها ونزلوها فنفذوا إلى السلطان فليج أرسلان أن لم يصل لأخذ بلادك وإنما نزلت أريست المقدس ونفذوا إليه هذا يواطلبوا الهدنة فهدنهم فتنقروا من تلك البلاد بما أرادوا من العدد والازواد وانفذ فليج أرسلان وابنه يعتذران إلى السلطان من تمكينهم من العبور وانهم غلبوا على ذلك ثم أن الألمانية طلبوا من فليج أرسلان انقاذ جماعة من الامراء معهم ممنعونهم من لصوص التركان - حتى يصلوا إلى بلاد الارمن فنقدمهم خمسة وعشرين ووافق ذلك غرض قطب الدين فانه كان كارها لجماعة من المتقدمين فتقدم اليهم بأن يكونوا في محبة ملك الالمان فحملهم على الخطر وأوقعهم في الفرور وروطهم في الضرر فانهم ما قدروا في الطريق على دفع كل سارق وقد تبعتهم اللصوص حتى وصلوا إلى بلاد الارمن ومقدمهم لافون بن اصفهان بن لاون فأخذوا أولئك الرهائن وقيدوهم وجعلوهم في الاسر وجردوهم فغنم من خلع بعض بعد حين بمال جزيل ومنهم مربي مأسورا حتى أماء اليقين ووصل مقدم الارمن إلى خدمته ودخل في طاعته وهداهم لمقصده وقام لهم بالضيافات والعوافات وذلك في طرسوس فتمكثوا بها ليرجوا النفوس فعلم ملك الالمان أن يسبح في النهر لاما طمعه ما به من الوضوء - مرض له مرض سلك به في سفير وقيل لما عبرت جوعه النهر ازدحوا والطامع ألوج بهم واقحمرا وطلب هو موضعا يعبر فيه وحده وبتبعه من بعده قتل على غصاة ذات مخافة لا يتخلص هجمه ما من آفة جفري اليها واجترأ عليها فحدثته سورة الما على شجرة شجبت رأسه ومجبت أنفاسه وأخرجوه ونفقه على الخروج وعرد على الدروج فقتل ملك الالمان باله واجماله إلى جهنم وجلس ابنه مكانه واتبع شانه واستتبع رجاله وفرسانه وقيل عرض عسكره في نف وأربعين ألف كى وانقطع عنهم اب لاون واختلف عليه أصحاب آيه ميلا منهم إلى أخيه وساروا على سمت انطاكية في فترق ثلاث كانهم من المرض قد نبشوا من احدثات وأكثروا حملة عصى وركاب حجير وكل بالارض التي يسلكها غير خبير بقيتهم بهم صاحب انطاكية وثقلت عليه وطأنهم المعاجيه وحسن لهم طريق بلاد حلب فلم يروا لهم في ذلك الصوب من ارب وطلب منه الملك قلعة انطاكية لينقل اليها ماله وخزائنه وانقاله فاخلأه له وسلمها اليه طمعه في ماله وأموال رجاله وكان على ما حدسه فانه لم يعد اليها واستولى البرنس بانطاكية عليها وجاءت فرقة منهم ليل إلى حصن بغراس وظنوا انه في أيدي أجناسهم الانجاس ففتحوا إلى القلعة الباب وأخرج الاصحاب وتسلم تلك الاموال باحمالها والصناديق باقفاها وأسروهم وقتل كثير وخرج بعد ذلك أهل حلب وجند إلى طرقيهم وفرقوا بين فرقهم والتقطوهم من الخمر والغياض وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثة ولا يرى من رفاقهم اغائنه فهانت الألمانية بعد تلك المهابة في الانفس وراعوهم في الاسواق بالبحس الانجاس ولما اكمل وصول السالين إلى انطاكية سلكوا إلى طريق طرابلس جبلة والاذن فيه فخرج عليهم رجالها فقتلوا منهم وأسروا فها وصلوا إلى طرابلس الا في خوف ولم يصف من جاء مع الملك غير ألف وجاؤا إلى النازلين على عكا فغروا في بلهم وخذوا في وجههم ثم هلكوا على عكا بعد انقضاء مده واقضاء شده بتاريخ ثاني عشر ذي الحجة سنة ست وثمانين وقال في الفتح وحين الملك عن السير على الطريق لما قيلت جوعه في طرقاتهم من التهرب فركب البحري عدد يسير الا يزيد على الالف برعب قلب وقصود ورغم أنف واختلط مع الفتح على عكا فسقط اسمه وسخط حكمه وهلك بعد قليل ولم يحفظ بنقع غليل وقال القاضي ابن شذاد مرض ولما ملك الالمان الذي قام مقامه مرضا عظيما وأقام بموضع يسمى التينات من بلاد لافون وأقام معه خمسة وعشرون فارسا وأربعون داويا وجهز عسكره نحو انطاكية حتى يقطعوا الطريق وزيروهم ثلاث فرق كثرتهم ثم أن الفرقة الاولى اجتازت تحت نالعة بغراس ومقدمها كند عظيم عندهم وان عسكر بغراس مع ثلثة أخذ منهم مائتي رجل نهبوا قهرا وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد وقلة الخيل والظهور والعدد والالات ولما اتصل هذا الخبر بالنتواب في البلاد الاسلامية انفذوا اليهم عسكرا يكشفون أخبارهم فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوقة فاغاروا عليهم وقتلوا وأسروا زهاء خمسمائة نفس ولقد حضرت من يجذب بالسلطان عنهم ويقول هم عدد كثير لكنهم ضعفاء قليلوا الخيل والعدو قوا كثر

في اخبار (١٥٧) الدولتين

ثقلهم على جبر و خيل ضعيفة قال واقد وقتت على جمر يعبرون عليه لا اعتبرهم فغير منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رجاء الى النادر فسألتهم عن ذلك فقالوا أقتناجهم ونحم يا ما وقتت ازوادنا واحطابنا فاوقدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم واحتجنا الى الخيل فذبجناها وأكلناها ومات الكند الذي وصل الى انطاكية وطمع الافرن فيهم حتى عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تأخر معه ولم تزل اخبارهم تتوارى بالضعف والمرض قال ولما تحقق السلطان وصول ملك الالمان الى بلاد الافرن وقربه من البلاد الاسلامية جمع أمره دولته وأرأى باب الراء وشاورهم فيما يصنع فاتفق الرأي على ان العسكر يسير بعضه الى البلاد المتأخرة لطريق عسكر العدو الواصل وان يقيم هورجه الله على منازلة العدو المقابل يباقي العسكر المتصور فكان أول من سار صاحب منبج ناصر الدين بن تقي الدين ثم عز الدين ابن المقدّم صاحب كفر طاب وبارزين وغيرها ثم مجد الدين صاحب شيرزم الياوروقية من جهة عسكر حلب وسار الى دمشق ولده الافضل لمرض عرض له وكذا بدر الدين شيخنقة مشق ثم سار الملك الظاهر الى حلب لالة الطريق وكشف الاخبار وحفظ ما ياله من البلاد وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما ياله من البلاد وتدير أمر العدو والمجتاز ولما سارت هذه العساكر خفت المنيعة فان معظم من سار من سافاهم رجة الله عليه الملك العادل فانتقل الى منزلة تقي الدين في طرف المنيعة وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة ووقع في العسكر مرض عظيم فرض مظفر الدين بن زين الدين صاحب حران وشفي ومرض بعده الملك الظاهر ولده السلطان وشفي ومرض كثير من الاكابر وغيرهم الا ان المرض كان سليما بجمدة الله تعالى وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم وكان مقتربا جوتا عظيم وأقام السلطان مصابرا على ذلك ثم ابطال العدو قال العماد وتقدم السلطان بهدم سور طبرية وهدم يافا وارسوف وقيسارية وهدم سور صيدا وجبل ونقل أهلها الى بيروت وفي بعض الكتب السلطانية (قد عرفنا خبر العدو المشؤم الواصل من جانب الروم وهذا وان تحركت ذوى الجبهة ونهوض أهل الحمم الالية العلبة وانهم في كثرة مستندين في طريق العترة والسيال اذا وصل الى الجبل الراسي وقف واللبل اذا بلغ الى الصبح المسفر انكشف فأين المؤذون فرض الجهاد المتعين وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين وأين المسلمون وحاشي ان يهك ونوالا سلام مسلمين وأين المقدّمون في الدين ومعاذ الله أن لا يكونوا في نصرته على الموت مقدمين ولولا التقييد بهذا العدو الرابع لاطلقت أعنة النهضة الى العدو الناهض رلا بدمن لقائه قبل تلقى الجمعين وأرأة الملاعين وجوه حشفهم مل العين) ومن كتاب فاضلي الى بغداد (ومن خبر الفرنج انهم الآن على عكا يهدم البحر براكب أكثر عترة من أمواجه ويخرج منه للمسلمين ما هو أمر من أجابه وقد تعاضدت ملوك الكفر على ان ينهضوا اليهم من كل فرقة طائفة ورسالوا اليهم من كل سلاح شوكة فاذا قتل المسلمون واحدا في البر بشوا الفاعوضه في البحر فالزعاع أكثر من الحصاد والثمرة تأتي من الجذاذ وهذا العدو المقابل قاتله الله قد رزق عليه من الخنادق دروعا متينة وأسجن من الجنانات بمحصون حصينه فصار محصورا ومتعنا حاسرا ومتدعرا مواصلا ومنقطعا وعددهم الجهم قد كثر القتل ورفاههم القلب قد قطعت النصل لشدة ماطعها النصل وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة في استطاعتهم لافي طاعتهم وفي أحوالهم لافي شجاعتهم وكل من يعرفهم ينشد الله فيهم المناشدة النبويه في الصحبة البديرية اللهم ان تهلك هذه العصابة ويخلص الدعا و يرجوعلى يد سيدنا أمير المؤمنين الاجابه وقد حرم باباهم لعنة الله عليه وعليهم كل مباح واستخرج منهم كل مذخور وأغلق دونهم الكنائس ولبس والبهم الحداد وحكم عليهم أن لا يزوالوا كذلك أو يستخلصوا المقبره فيا عصابة محمد عليه السلام أخلفه في أمته بانما حث به مضاجعه ووفه الحق فينا فاننا والمسلمون عندك ودائمه وممثل الحسادم نفسه في هذا القول الابحالة عبدلوا مكنه لو وقف بالعبات ضارعا وقبل ترابها غاشعا وناجها بالقول صادعا ولورفعت عنه العواقب لهاجر وشافه طبيب الاسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر ولو امن عدوا لاسلام أن يقول قولا آخر لسافر ولولا ان في التصريح ما يعرود على العدالة بالتجريح لقال ما يبكي العيون ويبكي القلوب ولكنه صابر محتسب منتظر لنصر الله مرتقب قائم من نفسه بما يجب رب اني لأملك الانفسي وهما في سبيلك مبذوله واخى وقد هاجر اليك هجرة يزجوها مقبولة ولدي وقد بذلت

لعدوك صمحات وجوههم وهان على محبوبك بكروهي فيهم ومكر وهم ونقف عند هذا الحد والله الامر من قبل

(ومن بعد)

(فصل) في الوعدة العادلة على عكاظهر يوم الاربعاء العشرين من جمادى الآخرة قال القاضي ابن شداد علم عدو الله ان العساكر قد تفرقت في اطراف البلاد وان الميمنة قد خفت لان معظم من سار كان منها محكم قرب بلادهم من طريق العدو فاجتمعوا اليهم واتفقت كلمتهم على انهم يخرجون بقتله ويجمعون على طواف الميمنة فجاء فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها تخيم العادل فلما بصر الناس بهم صاح صائحهم وخرجوا من خيامهم كالاسود من اجامها وركب السلطان ونادى مناديه بللاسلام وكان رحمه الله اول راكب ولقد رآته وقد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه والناس لم يستم زكوبهم ودوا كالفائدة لولدها الثاكلة لواحداهم ثم ضرب الكؤوس فاجابته كاسات الاسراء من اماكنها وركب الناس وسارع الفرنج في قصص الميمنة حتى وصلوا الى الخيم العادل قبل استتمام ركوب العساكر ودخلوا في وجافه وامتدت ايديهم في السوق واطراف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا الى خيمة الخاص واخذوا من شرايخا نانه شيئا وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي فابماز الجمعي وعز الدين جرد بك النوري ومن يجرى مجراه ووقف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في الخيم وبشتغلوا بالنهب وكان كائنان فانه عانت ايديهم في الخيام والاشنة والفواكه والطعام فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة واقبل الامر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح الى عسكر الموصل وهجموا على العدو هجمة الاسود على قرائسها وامكنهم الله منهم ووقت الكسر فعدوا ويشدون نحو خيامهم هاربين وعلى اعقابهم ناكسين وسيف الله يقتل فيهم وصاح صائح السلطان في الناس بالابطال الموحدين هذا وعد والله قد امكن الله منه وقد داخله الاعمح حتى غشي خيامكم بنفسه فبادر الى اجابة دعوته اهل حلقته وخاصة ثم عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولده عز الدين ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي وتابعت العساكر وتجاوبت الابطال وقامت سوق الحرب فربكن الاساعة حتى رأينا القوم صرعى كانوا انجما زنجل خاويه واهتدوا مطروحين من خيام العادل الى خيامهم اولهم في الخيم الاسلامية وآخرهم في خيم العدو صرعى على التلول والوهاد وكان مقدار ما متدفيه القتلى بين الخيم من فرسخا واربعا زاد على ذلك ولم ينج من القوم الا السادر قال ولقد خضعت في تلك الدماء بدابتي واجتهدت ان اعددهم فها قدرت على ذلك لكسرتهم وتفرقهم وشاهدت منهم امر اثنين مقتولين وحكى لي من شاهد منهم اربع نسوة يقاتلن واسر منهن اثنتان واسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير فان السلطان كان قد امر الناس ان لا يسبقوا احدا في اكله في الميمنة وبعض القلب واما الميسرة فخانصل الصائح بهم الا وقد تجر الامر وقضى القضاء على العدو بعبء المسافتين وكانت هذه الوعدة فيما بين الظهر والعصر فان العدو ظهر في قائم الظهيرة وانفصلت الحرب بعد العصر وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين وراهم الى مخيمهم على ما قبل ثم ان السلطان امر الناس بالتراجع ولم يبق من المسلمين احد في ذلك اليوم سوى عشرة انفس غير معروفين ولما احس جند الله بهكبا ما جرى بين المسلمين وبين العدو من الوقعة فانهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالي السور خرجوا الى مخيم العدو من البلد وجرى بينهم مقتلة عظيمة وكانت النصر والحمد لله للمسلمين بحيث هجموا خيام العدو ونهبوا منها جعما من النسوان والاشنة حتى القدور فيها الطعام ووصل كتاب من عكا يخبر بذلك واختلف الناس في عدد القتلى منهم فذكر قوم انهم ثمانية آلاف وقال آخرون سبعة آلاف ولم يقصموا زرع خمسة آلاف ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف اولها في خيم العادل وآخرها في خيم العدو ولقد لقيت انه سارنا عاقلا جند ياسي بين صفوف القتلى وبعدهم قلت له كم حددت فقال الى هاهنا اربعة آلاف ونيقاوسين قتيلا وكان قد هذصفين وهو في الصف الثالث لكن ما معنى من الصفوف أكثر عدد امان الباقي قال وجاء من الغد فجاب له عن حلب خمسة ايام بكتاب يتعنه ان جماعة عظيمة من العدو التما الى خرجوا بالنهب باطراف البلاد الاسلامية ونهض العسكر الحلبي اليهم واخذ عليهم الطريق فلم ينج منهم احد الا من شاء الله قال وجاء في ليلة ذلك اليوم من اليزيد من ذكران العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل اليهم ليعمع منهم حديثا في سؤال الصلح لضعف حل بهم ولم يزل العدو من حيث نكسور

الخانح منهاض الجانب حتى وصلهم كند يقال له كندهرى وسبأ ذكره وقال العماد لما شاع عند الفرع فخرج خبر وصول الالمانية قالوا اذا وصل ملكهم ونكى في المسلمين انكسر ناموسنا وتطاطأت عنده رؤسنا فذكر الواقعة بمعنى ما تقدم الى أن قال ووصل السلطان وشاهد من مساة الفرع ماسره وعرف لطف الله وبره ونصره وعان هناك مصارع الاعداء ومشاع البلاء وكانوا فرشين في مدى فرسخ على الارض وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل الى البحر بالعرض وكل صف يزيد على ألف قتيل وشاع القتل في الفرع في كل قبيل وكانت هذه النوبة بلاتائه وتلك الفوزة بلاشائه وقتل منهم زهاء عشرة آلاف ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة نفر واعتنهم بحجارة رابحة وغنية ميسره قال ولما عرفت بالواقعة والنصرة الجسامه صدرت ثلاثين اواربعين كتابا بالبشارات بالبلغ المعالي وابرع العبارات وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتاب حاضره ورأى الإشارة شأته وركبت أنا والقاضي بهاء الدين ابن شداد لمشاهدة ما هناك من اشلاء مصرى واجساد فما انجلى ما لم يدروا وعزوا وفروا وقروا وقد بقرت بطونهم وفقت عيونهم ورأينا امرأة مقتولة كونهما مقاتلة ومنعناها وهي خامدة العبرة قائلة وما زلتنا نطوف عليهم ونعبر ونشكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشاب الظلام فعندنا الى الحيام واطلنا الوقوف على تلك الطلول النادره واستبشرت الوجوه بتلك الواجه العابيه وخزناهم بعشرة آلاف قتيل لآخر تركيز بل خزن قتل وكان الذين حلوا وهزموا وقتلوا اقل من ألف فقتلوا اضعا فاضاعفه وعدوا من وراءهم مساعدة ومساعدته وحكى من نوادر هذه الواقعة ان فرنجيا عقر غنما للصرعة فعتبره راكب بزبون فعرق الفرنجي فرسه بسيف يده فقتل بجده مستنقاف جهده وقتل ذلك الفرنجي وروى من دمه الهندي وحل من وسطه ثمانين ديناراً فانقلب بها ما عده خساراً وامتلات الايدي بالاسلاب والاكساب وحصل من العدد ما لم يكن في الحساب وبيعت الزرديات ذوات الاثمان بالرخص قال وشرع الفرنج في الخداع والمراسلة وسألوا في الصلح واذن لهم السلطان في الخروج للنظر الى اولئك الصرى بتلك المروج وهي قد تهرمت وانتنت وجافت وجبت الشمس على جيفها واحفّت وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت فساءهم ماسرنا ونفرهما اقترنا

(فصل) قال العماد وكان الراى بعد هذه النصره ان نرد عليهم الكره مرة بعد مرة الى ان يهلكوا حسره ويبيدوا فلا يبقى لهم جمره فاشتغل السلطان بمجاهاه من المكاتب بظفر التركان وغيرهم بعسكر الالمان فجاءت لافرنج بجده من البحر ومدد اضعا فما تقص منهم من العدد والعدد فاضحوا كان لم ينكروا وثبتوا مكانهم ولم ينشوا ووصل اليهم المعروف بالكندهرى ففترق الاموال واستخدم الرجال وانفق في عشرة آلاف راجل وأظهرانه يخرج الى لقاء عسكر الاسلام فتحوّل السلطان الى منزلة الخروبه ليوسع عليهم الدائرة ونهب الكندهلى عكا مخبئات كثيرة فاحرقها المسلمون وقتل منهم من الفوارس سبعون وأسر عدة معروفون ثم نصب مخبطين فاحرقا أول شعبان وكان الكندقدان في على أحدهما ألفا وخمسمائة دينار ومن جملة من وقع في الاسر فارس كبير غامه لوه حين أخذه حتى قتله ووثقه فطلبه منهم الفرنج بالاموال ولم يعرفوا بالحوال فخرجوه اليهم قتيلا فاكثر الفرنج عليه بعد العويل عويلا وبأوا يذنبونه نوحا ويذنبون سرقة منه فيهم نوحا وحين وقعت أعينهم عليه قتيلا ضربوا بنفوسهم الارض وشحوا على رؤوسهم التراب ووقعت عليهم بسبب ذلك خدة عظيمة وكفوا أمره ولم يظهر احد اعلى سره واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم وجميع عليهم العرب من كل جانب يصرقون وينهون ويقننون وبأسرون هذا والكتب متواصله من عكا اليها ومنها اليها على أجنحة الطيور وأبدى السباح والمراسك واللقاى فخرج ليلاً وتدخل سارق من العدو قال العماد ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا ويذكر تمكنه من اقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة فيه وأنه مستعزى الموتى رغب في المحبة ويعتذر عن عبور الملك الالمانى وأنه قد جف في طريقه بالامانى ونال من الشدة ونقص العتد ما أضعفه وأوهاه والله لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع ويكون مصرعه هناك ولا يرجع ويموت بماله كاده وأنه قد بلغ في اداء اجتهاده ويطلب رسولا يدرك به من السلطان سولا فاجيب في ذلك الى امراده ووقع الاعتداد بما ذكره من اعتناده وقال القاضي ابن شداد كان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة وكان

وصل منه رسول الى الباب الكريم السلطاني بمرج عيون سنة خمس وثلاثين في رجب في جواب رسول كان أنفذه السلطان بعد تقرير القواعد وأقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية فغضى الرسول وأقام الخطبة ولقي باحترام عظيم وأكرام زائد وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجعاه من المؤذنين والقراء وكان يوم دخوله الى قسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام شاهد جمع كبير من التجار ورؤوف الخطيب المنبر واجتمع اليه المسلمون المقيمون بها والتجار وأقام الدعوة الاسلامية العباسية ثم عاهد قادمه هذا الرسول بخير بانتظام الحال في ذلك فاقام مدة ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ من أحسن ما يفرض ان يكون من صور المشايخ وعليه زيهم الذي يختص بهم ومعه كتاب وتذكرة والكتاب محتوم يذهب ولما مات وصل خبر وفاته الى ملك قسطنطينية فأنفذ هذا الرسول في تمهيد ذلك ثم وصف القاضي الكتاب وعبر عنه بالفاظه وقد دعا العباد عن معانيه فاغنى عن ذلك ثم قال وكان من حديث ملك الالمان انه بعد ان استقرت قدمه في انطاكية أخذها من صاحبها وتحكم فيه وكان بين يديه فيها سيف وأمره وكان له أموال برفته فاخذها منه مغيلة وخديعة وأودعها في خزائنه وسارعها خامس عشر رجب نحو عكا في جيوشه وجوعه على طريق اللاذقية حتى أتى طرابلس وكان قد سار اليه من معسكر الفريخ ببلقيع المريكس صاحب صور وكان من أعظمهم حيلة وأشد هم بأسا وهو الاصل في تهيج الجمع وذلك انه صور القدس في ورقة عظيمة وصور فيه صورة القمامة التي يحجون اليها ويعظمون شأنها وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم وذلك القبر هو أصل حجهم وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم فعزوا القبر وصور عليه فرسا عليه فارس مسلم راكب وقد وطي قبر المسيح وقد بال القفرس على القبر وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الاسواق والجامع والقصور يحملونها ورؤسهم مكشوفة وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور والصور عمل في قلوبهم فانها أصل دينهم فهاج بذلك خلائق لا يحصى عددهم الا الله تعالى وكان من جللتهم ملك الالمان وجنوده فلقبهم المريكس لكونه أصلا في استدعائهم الى هذه الواقعة فلما اتصل به قوى قلبه وبصره بالطرق وسلك به الساحل خوفا من انه اذا أتى على بلاد حلب وجماع نازلهم المسلمون من كل جانب أو مع ذلك لم يسأوا من شن الغارات عليهم واختاف حر الناس لهم ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب قد حذر فراسهم وراجلهم بمخسنة آلاف بعد ان كانوا قد خرجوا على ما ذكر بمائتي ألف فانظروا الى صنيع الله مع أعدائه ولما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجدوا في أعقابهم نيفا وستين فرسا قد عطبت واتزع لجها ولم يبق فيها الا العظام من شدة الجوع وضعف الخيل ولم يزلوا سائرين وأبدى المسلمين تحفظهم من حولهم فهاهم بأسرا وقتلوا حتى أتوا طرابلس فاقام بها حتى استنجم عسكره وأرسل الى النازلين على عكا يخبرهم بقدمه فوجروا من ذلك لان المريكس صاحب مشورته وكان الملك جفري وهو ملك الساحل بالمعسكر هو الذي يرجع اليه في الامور فعمل انه مع قدوم الملك الالمانى لا يبق له حكم وفي آخر شعبان نزل الملك الالمانى في المراكب وهو عسكره فثارت عليهم ريح اهلك منهم ثلاثة مراكب وسار الباقون الى صور ثم وصل الى عكا في نفر يسير في سادس رمضان وكان لقدومه وقع عظيم عندهم ووصل خبر وصولهم الى طرابلس ثامن شعبان والسلطان ثابت الجاش راسخ القدم لا يرعز عنه ذلك عن حراسة عكا والحماية لها ومراصد العسكر النازل بها وشن الغارات والمجوع عليهم في كل وقت مقوضا أمره الى الله تعالى معتقدا عليه منه بسط الوجه لقضاء حوائج الناس مواصلا بغيره من نفاذ اليه من الفقراء والفقهاء والمشايع والادباء ولقد كنت اذا بلغني هذا الخبر تأثرت حتى اذا دخلت عليه أجد عنده من قوة النفس وشدة البأس ما يشرح صدري واثقن معه نصر الاسلام وأهله

(فصل) في ادخال البطس الى عكا قال ابن شداد كان رحمه الله قد أعدت بيرون بطسة وعمرها وأودعها أربع مائة غرارة من القمح ووضع فيها من الجبن والبصل والقمح وغير ذلك من الميرة وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا كحراسة لها عن ان يدخلها مراكب المسلمين وكان قد اشتدت حاجة من فيها الى الطعام والميرة فركب في بطسة بيرون جماعة من المسلمين وتزوا بجزى الفرنج حتى حلقوا لها المحم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعدد وعلقوا الصبيان وجاؤا فاصدوا بلدى البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا اليهم

واعترضوهم في المرافق والشواني وقالوا لهم زما فاصدين البلد واعتقدوا انهم منهم فقالوا اولم تكونوا اخذتم البلد فقالوا لم نأخذ البلد بعد فقالوا نحن نرد القلوع اتي العسكر ووراءنا بطسة أخرى في هوانها فانذروهم حتى لا يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة فرنجية قد انتفت معهم في البحر فاصدين العسكر فنظر وفراوها فقصدها لينذروها فاشتدت البطسة الاسلامية في السير واستقامت لها الرمح حتى دخلت ميثا البلد وسلمت ولله الحمد وكان فرج اعظيما فان الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد وكان ذلك في العشر الاواخر من رجب قال وفي العشر الاوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش وهو والي البلد المتقدم على الاسطول وهو الحاجب لؤلؤ يذكرا ان السلطان انه لم يبق بالبلد مديرة الاقدار كفي البلد الى ليلته النصف من شعبان لا غير فاستر هيا يوسف في نفسه ولم يدها الخاص ولا عام خشية الشوع والبلغ الى العدو فتضعف به قلوب المسلمين وكان قد كتب الى مصر بفتح مير ثلاث بطس شحونة بالاقوات والادام والميرة وجميع ما يحتاج اليه في الحصار بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء فان لغت البطس الثلاث من الديار المصرية ولججت في البحر تنحى الزوطة بها الى الرمح التي تحملها الى عكا فطابت لهم الرمح حتى ساروا ووصلوا الى عكا ليلته النصف من شعبان وقد فتحت الازداد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم وخرج عليها اسطول العدو يقاثلها والعساكر الاسلامية تاهدك من الساحل والناس في تهليل وتكبير وقد كشف المسلمون رؤسهم يتهلون الى الله تعالى في القضاء بدلائمها الى البلد والسلطان هلى الساحل كالوالدة التمكنى يشاهد القتال ويدعو الى ربه نصره وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره وفي قلبه ما في قلبه والله يشبه ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والرمح تشتد والاصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا بحمد الله سالمين الى ميثا البلد ونلقاهم أهل عكا تلقى الاطمار عن جديب وامتاروا بما فيها وكانت ليلته باليال وكان دخولها في وقت العصر رابع عشر شعبان وقال العماد كان السلطان قد أمر نواب الاسكندرية بفتحهم بطس كاروتهم سيرا من كل مبرة وغلة وتسيرها الى عكا فابطأت عن المقات واضربا المقيمين بالبلد اعواز الاقوات فافكر فيما يتجهل به الغرض فكاتب الى متولى بيروت عز الدين سامية فحضر بطسة كبرى ملا هاميبره وغلة كثيره وأركبها جماعة على زى الفرنج مسحى اللقى مسحى الخلى وأصحبهم صلبانا وخيل بهم رهبا ما وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة وهى بساحل بيروت منبودة فامر السلطان بترميمها وتعيمها فمكث بالشهوم واللحم وأرجمائة غرارة غلة واحمال من التراب والنقط ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت وأرادوا ان تشبه بطس العدو في البحر فشذوا زانرا واستهجو اخنازير وساروا بها في البحر عبرا كى الفرنج محتطين الى محادثتهم ومجادلتهم منبسطين ولما حاذوا بها عكا سموا بها نحوها والرمح تسوقها والفرنج من مراكبها تقول ما هذه طريقها وهى كالسهم النافذ قد سد فتوقها فدخلت النفر واجتراه البلد بها نصف شهر وظهرت رابع عشر شعبان من ثبح البحر ثلاث مراكب كأنها ثلاث هوانب فجاءت بجأة اعلامها كالاعلام طائرة كالسهم ولم تبال بما كى العدو ففرقتها وقربت من سفينة فتقرقتها وعبرت وعين الكفر عبرى وامتلأ الثغر بما أوتى

(فصل) قال العماد ووصل ملك الالماني ورام ان يظهر عجميته وقعا ويدي به نفعا فدبوا في ارجل كركحل الدبا وخيل اغصت الوهاد والرى وقربوا من تل العياضيه وعليه خيم الزكيه والنوبة فيها الحلقة المنصورة الناصرية والعصبة الموصليه فثارت اليهم ودارت عليهم وركب السلطان وتقدم الى تل كيسان ولم يزل الحرب الى ان جن الظلام وكف الكفر وسلم الاسلام وكانت الدائرة على الكفره قال القاضي وقتل منهم وجرح خلق عظيم والسيف يعمل في بقيتهم وهم هاربون حتى وصل المخيم غروب الشمس من ذلك اليوم وهو لا يعتد سلامة نفسه من شدة خوفه وقتل من المسلمين في ذلك اليوم اثنان وجرح جماعة كثيره ومن كتاب الى بغداد (قديلى الاسلام منهم يقوم قد استطابوا الموت واستجابوا الصوت وفارقوا المحبوبين الاوطان والاطوار وهجروا المالوفين الاذل والدار وركبوا الحج وهجروا المهج كل ذلك طاعة لتقسيمهم وامثال الامر مر كسهم وغيره لم تعبدتهم وحية لم تعقدتهم وتال كاعلى مقبرتهم وتحرقا على قامتهم لا يظلمون مع شدة الاملاق مالا ولا

يعدون مع كثرة المشاق ملالا بل يتساقطون على نيران القلي تساقط الفراش ويقضمون الردى متذرعين الصبر متبثي الجاش حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات وسرن الى الشام في البحر والبر تجهيزات وكانت منهن ملكة استنبتت خمسمائة مقاتل فارس وراجل ورايح ونابل والتزمت بؤنتهم فصدوا مراكبهم اقرب الاسكندرية فاخذت برجالها وأراح الله من شر احتفالها ومنهن ملكة وصلت مع ملك الامان وذوات المغانع من الفرنج مقنعات مقارعات يحملن الى الطعان الطوارق والقنطاريات وقود جسد في الوقعات التي جرت عدة منهن بين القتلى وما عرفن حتى سلبن وان البابا الذي برومية قد حرم عليهم مطاعهم ومشاربهم وقال من لا يتوجه الى القدس مستخلصا فهو عندى محرم لا منسكح له ولا مطعم فلاجل هذا يتهاقون على الورد ويتهاكون على يومهم الموعود وقال لهم انى واصل في الربيع جامع على الاستنفاث شمل الجيع واذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد ويصل معه باهله وولده كل من يقول ان الله اهل اولد فهذا شرع هؤلاء وتغصبهم في ضلاتهم ولما اجتمع في غواتهم بخلاف أهل الاسلام فانهم يتضرعون ولا يصبرون بل يتفلون ولا يجتمعون ويتسلون ولا يرجعون وانما يقيمون بئذ نفقه واذا حضر واحد وايقوب غير متفقه ليعلم ان الاسلام من عند الله منصور وان الكفر باراد الله محمور ومذخور قال القاضي ولما عرف ملك الامان ما جرى على أصحابه من البرك الذي هو شرومة من العسكر رأى ان يرجع الى قتال البلديوشغل بعضا ببقته فاتخذ من الآلات العجيبة والصنایع القريسه ما هال الناظر اليه وخيف على البلد منه فما أحد نه آله عظمة تسمى دبابه يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ملتبسة بصفايح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور ولها رأس عظيم برقبه شديدة من حديد وهي تسمى كبشاً ينطح بها السور بشدة عظيمة لانه يجرها خلق عظيم ثم تدب به تكرر نطحها وآله أخرى وهي قبو فيه رجال تسحب ذاك الان رأسها محدد على مثال السكة التي يحرك بها ورأس الكبش مدور هذا يمد بشقله وتلك تدم بمحذتها وتقلها وهي تسمى سفودا ومن السناثر والسلام البكار المقاتلة وأعدوا في البصر بطسة غائصة وصنعوا فيها رجا يخترطوم اذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحر كات وبسبي طريقا الى المكان الذي يتقلب عليه يمشي عليه المقاتلة وعزموا على تقيسه الى برج الذبان لياخذوه به قال (ونصب العدو على البلد مخبئيات هائلة حاكه على السور وتوارت حجارها حتى أثرت فيه اثر ايدنا وخيف من غائلته فاخذ سهمان من الجرح العظيم واحرق نصلها حتى بقيت كاشعة من النار ثم رمى في المخبيق الواحد فعلقا فيه واجتهد العدو في اطفاء النار فلم يقدر على ذلك وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما واتصلت لهبته بالآخر فاحترق واشتدت ناراها بحيث لم يقدر احد ان يقرب من مكانها ليجتال في اطفائها وكان يوما عظيما اشتد فيه فرح المسلمين وغم الكافرين قال (ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها يعني نوادر ما جرى في القتال على عكا ان عواما مسلحا كان يقال له عيسى كان يدخل البلد الكتب والنقعات على وسطه ليلا على غرة من العدو وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو وكان ذات ليلة شدد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتب للعسكر وعام في البحر جفري عليه أمر اهلكه وابطأ خبره عنا وكانت عادته اذا دخل البلد طارطار عرفنا بوصولها فباطأ الطائر فاستشعر هلاكه فلما كان بعد أيام دبنا الناس على طرف البحر في البلد واذا بالعدو قد قذف اليهم مينا غرقا فتقدموه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب وكان المذهب نفقة للمجاهدين فخار من اذى الامانة في حال حياته وقدر الله له اداء ما بعد وفاته الا هذا الرجل وكان ذلك في الشهر الاواخر من رجب أيضا وقال العماد قد يعني عيسى ولم يسمع له خبر ولم يظهر له أثر فظننت به الظنون وما تغتلب المذنون وكانت له لاشك عند الله منزله فلم ير ان تبقى حاله وهي مجهولة محتملة فوجد في حكايته قد رماه البحر الى ساحلها وبرأ الله عما فاولا فذهب حتى البقي من الظنون بساطلها

(فصل) في احراق ما حوصره به برج الذبان ونحرق ريق الكبش قال القاضي وفي الثاني والعشرين من شعبان جهز العدو لعنه الله بطسما متعددة لمحاصرة برج الذبان وهو برج في وسط البحر مبني على المعصر على باب ميناء عكا خرس منسلا لينا ومتى حصره للمركب امن من غائلة العدو فاراد العدو اخذ ملطيق المينا بكمه وينج من

دخول شيء من البطس البه فتقطع الميرة عن البلد فجعلوا على صواري البطس برحا وملؤوه حطباً ونفطاً هلى انهم يسرون البطس فاذا قارب تخرج الزبان ولا حقه احرقوا البرج الذي على الصاري والصقوه ببرج الزبان ليلقوه هلى سطحه ويقتل من عليه من القاتلة وبأخذوه وجعلوا في البطسة وقوداً كثيراً حتى بقي في البرج اذا اشتعلت النار فيه وعبروا بطسة ثانية وملؤوها حطباً وقوداً على انهم يدفعونها الى ان تدخل بين البطس الاسلاميه ثم يلهمونها فحرقوا البطس الاسلاميه ويهلك ما فيها من المير وجعلوا في بطسة ثالثة مقالة تحت قبو بحيث لا يصل اليهم نساب ولا شيء من آلات السلاح حتى اذا احرقوا ما ارادوا احرقوه دخلوا تحت القبو فامنوا واحرقوا ما ارادوا احرقوه وقدموا البطسة نحو البرج المذكور وكان طمعهم مشتهداً حيث كان الهواء سدا لهم فلما احرقوا البطسة التي ارادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذي أرادوا يحرقون به من على البرج فاوقدوا النار وضرروا فيها النفط فانه كمن الهواء عليهم كما شاء الله تعالى وارادوا اشتعلت البطسة التي كان فيها البرج بأسرها واجتهدوا في اطفائها بما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة الا من شاء الله تعالى ثم احترقت البطسة التي كانت معدة لاحراق بطسنا ووثب أصحابنا عليها فاخذوها اليهم وأما البطسة التي فيها القيو فانهم انزعجوا وخافوا وهو بالرجوع واختلقوا واضطربوا اضطراباً عظيماً فانقلبوا وهلك جميع من بها لانهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى وانذر الجبابرة في نصره دين الله ولله الحمد وكان يوماً مشهوداً وقال العماد وعندنا هناك في البحر برج يعرف ببرج الزبان وهو في حراسة الميناء عظيم الشأن وهو منفرد عن البلد محمي بالرجال والعدد وقصد الافرنج حصاره قبل مجي ملك الالمان في الثاني والعشرين من شعبان يبطس بكارجهزوها ومراكب عظام الآلات بارزوها ومكرهه ودبر دبره واحذتلك المراكب ركب برج فوق صاريه لا يطاق له طود ولا يباريه وقد حشي حشاه بالنفط والحطب وضيق عظمه بسعة العطب حتى اذا قرب من برج الزبان والتصق بشرافاته اعدى اليه بأفاته ورميت فيه النار فاحترق واحترق من الاخشاب والستائر ما به التصق واستولت النار على مواقف المقاتلة قريبا بعدوا عنها ولم يبقروا منها واوقدت بطسة الحطب التي من وراءها وعادت على الفرنج فالتهبوا وحى عليهم الحديد فاضطربوا واضطربوا وانقلب بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا والناس جوف منهم فارقوا وفروا ولم يبقروا واحرقى برج الزبان فلم يطر عليه من بعده ارباب ولم يفتح العدو في الكبد له باب ومن كذب الى سيف الاسلام باليمن (ومن حديث هذا البرج انه يحيط به البحر من جوانبه وهو قفل مينا التفرع على مراكبه وقدر فتناء واعليناه وبالعدو والجال قوتناه فمجدوا الى أكبر بطسة واتخذوا فيها مصقالاتا كانه سلم وهو في مقدمها مركب مقدم وقد جعلوا بحيث اذا قرب الى البرج ركب رأس السلم على شرايفه وصعد الرجال اليه في شجائفه وتعموا في ذلك اياماً واشبعوه توثيقاً واحكاماً حتى اذا التصق بالبرج انصقت به قوارير النفط وتوالت امطار البلايا من الجروح والمخنقات على اولئك الرهط ثم عمل الفرنج برجاً عالياً في أكبر مركب وحشوه بالحطب وعملوا على رأس مناريه مكاناً يقعد فيه الزراق وقدموه الى برج الزبان وسلطوا على جوانبه النيران فاهب الله من مهبط لطفه نكاه نكبت النار من البرج المحروس وكبت الفرنج على الوجوه والرؤس قال القاضي وفي ثالث رمضان زحف العدو على قلبدق خلق لا يحصى فاهلهم أهل البلد حتى تشتت محاليل اطماعهم فيه وسحبوا لانهم المذكورة حتى قاربوا ان يصفقوا بالسور وتحصل منهم في الخندق جماعة عظيمة فاطلقوا عليهم الجروح والمجانيق والسهام والنيران وصاحوا صيحة الرجز الواحد ففجوا الابواب وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوه في الخنادق ففجروا ووقع السيف ايمن بقي في الخندق منهم ثم هجموا على كبشهم فالتقوا فيه النار والنفط وتكنوا من حريقه هرب المقاتلة عنه فاحرق حريقاً شديداً وظهرت له الحبة نحو السماء وارتفعت الاصوات بالكبير والتهليل والشكر وسرت نار الكبش بقوتها الى السفود فاحترق وعلق المسلمون في الكبش الكلايب الحديد المصنوعة في الاسل فسحبوه وهو وليشتمل حتى حصلوه عندهم في البلد وكان مراكب من آلات هائلة عظيمة والتي الماء عليه حتى يرد حديد بعد ايام وبلدة امان البلد انه وزن ما كان عليه من الحديد فكان مائة فطار بالشامي والقطار مائة طول ولقد انغذ رأسه الى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبت وشكاه على مثال السفود الذي يكون بحجر المذار قيل انه ينطج به السور فيهدمها بلا قبحه وكان

ذلك من أحسن أيام الاسلام ووقع على العدو خذلان عظيم ورفعوا اسامهم من آلائهم وسكنت حر كانهم التي ضيقوا فيها نفقاتهم وقال العماد واستأنف الفرنج عمل دبابته هائله وآلة للقنائل غائله في دراسها شكل عظيم يقال له الكيش وله قرنان في طول رحمن كالعودين الفلطين وهذه الدبابه في هيئة الخرسيت الكبير وقدسقفوها مع كسها بأعمدة الحديد ولبسوا رأس الكيش بدخان الحديد بالنحاس فزريق للنار اليها سبيل ولا للعطب عليها دليل ولمؤوها بالكمأة والزامة ومحبوها وقرنوها نجفات صورة من نجمة ولبى البلد منها بالبلاء الاقلع وقالوا ما في دفعهها حيلة ولا مطمع ونصبوا على صوبها جانيق ورموا بالحجارة الثقيلة ذلك النيق فابعدت رجالها من حوالها ثم رموها بحزم الحطب حتى ما بين القرنين وقذفوها بالنار فباتوا يطبقونها بالخل وانهر وقد تمكنت النار من اضلاعها ثم خسفها المخجنيق وخرج من بالثرع فقطعوا رأس الكيش واستخرجوا ما تحت الرامد من الحديد بالنيش وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار وعلم الفرنج ان اعمالهم حبطت وآمالهم هبطت وكان ذلك في ثالث عشر رمضان وفيه قدم الظاهر صاحب حلب والامجد صاحب بعلبك وسابق الدين عثمان صاحب شيزر وعز الدين ابن المقدم والامير حسام الدين حسين بن باريك وجماعة من الامر اموالها واصلها والمالين

(فصل) في حوادث أخر متفرقة في هذه السنة قال العماد ووصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب ان صاحب انطاكية اغار على غرة نشره وشده فرتب أمجانه له كينا ثم خرجوا عليه شمالا ويمن فقتلوا أكثر رجاله واغلت وباله في بواله قال القاضي خرج عليه ثواب الملك الظاهر فقتل من عسكره خمسة وسبعون نفرا وأسر منهم خلق عظيم واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيخ حتى اندفعوا وساروا الى بلده قال وفي انشاء العشر الاوسط القت الريح بطستين فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة فاصدين نحو العدو فغفها المسلمون وكان العدو قد ظفروا بناير كوس فيمنقه ورجال اراد الدخول الى البلد فاخذوه فوق النفر بهاتين البطستين ما حيا لذلك وجابر الله قال العماد وفي هذا التاريخ القت الريح الى ساحل زنب بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والعصيان والنساء وفيه امرأة محتشمة غنية محترمة فاخذوا واخذوا واخذت وجد الفرنج في استنقاذها ما استنقذت قال وفي تاسع عشر الشهر رحلنا الى منزلة تعرف بشفرهم وسببه انه كثرا المستأمنون من الفرنج واخبروا عنهم في هزم الخروج الى المرح هاجمين الى الشار ثارين الى الهيجا فاستشار السلطان امراءه فقالوا الصواب ان نقتلهم عن هذا المروج حتى يكون دخولهم اليها يوم الخروج فنصحبهم في اليوم الآخر ولا يتعذر بهم احداق العساكر فخيمننا هناك ورجبت المنازل وعذبت المنازل وعادت معالم تلك الجاهل وحللتنا التلال والاسكام وركزنا تلك الاعلام الاعلام ونزلنا لمقام الشناستعدين ولا سباب التوفى من الامطار مستنجدين قال ومن مضي زين الدين صاحب اربل في شهر رمضان وتوفى في الثامن والعشرين منه قال القاضي وكان استأذن في الراح فلم يؤذن له فاستأذن في الانتقال الى الناصرة فان ذلك فافاقم بها بالامراض نفسه ثم توفى وعنده اخوه مظفر الدين يشاهده وحن الناس عليه لمكان شبابه وغرته قال العماد وكان كرميا رجيحا جوادا سخيا وبكرنا الى مظفر الدين نغزيه في أخيه وظننا به الحزن فقلنا نعطه ونسليه فاذا هو في شغل شاغل عن العزاء مهم بالاحتياط على ما خلفه أخوه وتركه من الاشياء والاشياء وهو جالس في تخيم اخيه المتوفى وقد اشرف على حفظه واوفى وقد قبض على جماعة من امرائه واعتقلهم وجعل عليهم وما غلظهم منهم صارم الدين بن بلدا جي متولى خفيان كان ليسلم منه المكان وكلنا كل حاضره حصن ليحصل له من طاعته امن وخطب في اسباب ولاية اربل واعمالها وان يستقل ببلادها واموالها ورغب في شهر زور واستضافتها لاستنارة بجاهته بها واستضافتها وانه ينزل على حران والزها وسجسط والموزر ويجعل كل ما في يده من الاعمال في الموفر ويخدم بمخمين الفدينار يحضرها نقدا ويلتزم بها على المشاق عقدا فاجيبت رغبته واصيبت طلبته وعقدوا ووفى ونجح رجائه واراد سرعة الرحيل فاستعمل الى حين وصول الملك المنظر تقي الدين ليترك في منزله يمينه ومحببه اليامين فوصل يوم الاحد ثالث شوال واصيف اليه ما استعبد من مظفر الدين من الاعمال وكتب منشورا رابل وكتاب الى صاحب الموصل فيه (لا شك في احاطة العلم بانتقال زين الدين الى جوار الله ومقرر رحته مجاهد في سبيله شاكر لعمته وهو من السعداء الذين انزل الله تعالى فيهم ومن يخرج من بيته

مهاجر الى الله ورسوله ثم يذكره الموت فقد وقع اجره على الله فما لجمع القلوب بمصاحبه وما لبكى في النفوس اقول
شبابه ولقد كانت الهمة متوقفة على تربيته واهلا ودرجته ولكن الله تعالى استأثر به قبل ظهور حسن الامارى في
ايشاره وبلى بدره التمساره واصبح في ضمير البلى من اسراره وهذه اربل من انعام البيت الكريم الانابكى
على البيت الزينى مذسعين عاما لم يحلوا لغد انعامهم بها نظاما ولم يزيدوا احكامها الا احكاما واوراما وما راى ان
يخرج هذا الموضوع منهم وان يصدف به عنهم والامر الاجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه والمقدم في الولاية
بمقتضى وصية ابيه وقد انقض لسد مسداخيه قال وكان الملك المظفر تقي الدين متوليا لمسنيين اعمال ميا فارقين
فطلب من عمه تغويض كل ما وراء الفرات اليه والاعتماد فيه عليه فانتم عليه بذلك فاقام عندنا بالتمتزة المظفرية الى
ان يؤذن له في المضى الى تلك الولاية وسير نوابه اليها لابقاء رعاياها على شية الزعاية قال ولما أحسن العسكر
الشرقي بالشتاء ابدوا خلق السأمة وضجروا من الاقامة واما عماد الدين صاحب سنجار فانه عرف كراهية السلطان
لفراقه فلم يجبر الاعلى وفاته وأما صاحب الجزيرة سنجار شاه فانه استطل المقام واباه ودخل يوم عيد الفطر على
السلطان فقبل يده وودعه من غير سابقة الاستيذان فاعضبه انفصاله وساء ارتحالاه وكان تقي الدين واصلا فلقى
صاحب الجزيرة عنافا صلا فردّه عن طريقه وجدى تعويذه ورجعه الى الرضى وعفا الله عما مضى وقال
القاضى ترددت رسله ورقاعه الى السلطان في طلب الدستور والسلطان يعتذر بان رسل العدو متكررة في معنى الصلح
ولا يجوز ان ينقض العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب فلما كان يوم عيد الفطر دخل على
السلطان وهو ملثا بالجسم وقبل يده وخرج وسار من ساعته وتبعه أصحابه فلما بلغ السلطان صنع كعب اليه (انك
انت قصدت الانعام الى في الابتداء وارجعتني في ذلك امرارا واطهرت الخيفة على نفسك وبلدك من اهالك فقبلتك
واويتك ونصرتك فبسطت يدك في اموال الناس ودماهم واعراضهم فتفتت اليك ونهيتك عن ذلك امرارا فلم
تنه فاتفق وقوع هذه الواقعة للاسلام فدعوك فاذبت به سكر قد عرفته وعرفه الناس واقت هذه المديدة
وقلقت هذا القلق وتحركت بهذه الحركة وانصرف عن غير طيب نفس وعن غير فصل حال مع العدو فانظر
انفسك وابصر من تنقي اليه غمري واحفظ نفسك من يقصدهك لما نقي الى الجانبك التفات) وسلم الكتاب الى
نخبا فلقحه قريبا من طرية فقرأ الكتاب ولم يلف وسار فلقه تقي الدين عند عقبة فيق فاحببه بامر وهو تكتب
على السلطان كيف لم يطلع عليه ولم ياذن له في الروح ففهم تقي الدين انفصاله عن غير دستور من السلطان فامره
بالرجوع وقال أنت صبي ولا تعلم غائلة هذا الامر فقال ما يمكنني الرجوع فقال ترجع من كل يدم غير اختيارك
وكان تقي الدين شديد البأس مقداما على الامور ليس في عينه من احد شئ فلما علم انه قابضه ان لم يرجع رجوع معه
وسأل السلطان العصفج عنه ففعل وطلب ان يقم في جوار تقي الدين خشية على نفسه فاذن له فاقام في جواره الى حين
ذهابه وقال العماد في الفتح ومال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام وجدى في الاستيذان في الرحيل
منه الاهتمام وقرر ملاله وتكرسوا له فكتب اليه السلطان (من صانع مثلى من يديه * فليت شعري ما استفاد)
فلما قرأه البيت ماراوح في الخطاب ولا غادى وقال في البرق وفي مستهل ذي القعدة اذن لعلاء الدين خرم شاه ابن
صاحب الموصل ونعت بالملك السعيد لما انقرس فيه من امارات السعد واقام بعده عمه عماد الدين وابن عمه معز الدين
سنجار شاه وهما صاحب سنجار والجزيرة وحبوا بالحباء الوافر والعطايا بالجزيرة وما فارقا الا في السنة الاخرى في ثالث
صفر قال وغلت الاسعار عند الفرغ حتى بلغت الغرارة أكثر من مائة دينار والسعر من الزيادة لديهم في استنار وبلو
بامور صعبه وهرب اليها منهم عصبية بعده صعبه فاستأمنوا اليها لفرط جوعهم ولما شبعوا عندئذ لم يرغبوا في رجوعهم
فمنهم من أسلم لحسن اسلامه ومنهم من خدم فوافقوا استخدامه ومنهم من حن الى الفقه فرجع القهقري الى خطاه
(فصل) كان القاضي الفاضل رحمه الله تعالى في هذه الاوقات بالديار المصرية برتبة لسلطان اموره
من تجهيز العساكر وتعمير الاسطول وحمل المال ونقل المير الى عكا والسلطان يكتبه في مهماته وترجع اجوبته
باحسن عباراته مشيرة وانحبا ومسلية وباحثا عن مصالح الاسلام متقصيا فمن بعض كتبه (المولك ينهى ان الله

كتاب (١٦٦) الروضتين

نعمالى لا ينال ما عنده الا بطاعته ولا تفرج الشدائد الا بالرجوع اليه والامثال لا امر شرعته والمعاصي في كل مكان ياديه والنظام في كل موضع فاشييه وقد طلع الى الله تعالى منها ما لا يتوقع بعدها الا ما يستعاض منه وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس ما يكون بمثابة الله له حجة في رضاه ونعوذ بالتيان يكون حجة عليه في غضبه بلغ المملوك من كل واردمنه مكاتبه ومخاطبة بانه على صفة تشعشع منها الاجساد وتصدع بذكرها الاكباد والمملوك لا يعرض للتغصبل ما بلغه من ظهور المنكرات في اتباعه وشيوع المظالم في ضاعه وخراب البلد وهدم القدرة على المرمة لقبه العشرة والسجدة الاقصى وبالغفلة عن مرمتها وبفقدتها في اشدة القدس العظيمة الجلية المتلحمة لا يؤمن سقوطهما واقتضاح القدرة في الجزع عن اعادتهما والمرة اقرب تساولا من الانشاء والتجديد ولا شبهة ان مولانا عز نصره في اشغال شاغلة وامور متشده وقضايا غير واحدة ولا متعدده ولكن قد ابتلى الناس فحسبوا واضجرهم الايام فهاضجروا واى عبادة اعظم من عبادته التي قام بها والناس عنها تعود وصبري طلب جنتها على ناري الحرب والوقت ذواى الوفود غير ان مولانا اذ ذكر نصيبه من الاقدام فلا ينسى نصيبه من الحزم ولا يجهل في الامور الخطيرة ولا يقدم بالعدد القليل على العدد الكثير فالمولي اذا قبل كان واحدا واذا ابر كان مقولما بجميع الخلق ولا يطعم بان يقوم به الالف وليذكر المولى نوبة الملة التي كان وقوعها من الله سبحانه ادبها لغضبا وتوفيقا لا اتفاقا ولا يكره المولى ان تطول مدة الابتلاء بهذا العدو فتشوا به يطول وحسناته تزيد ورثه في الاسلام يبق فتشواته بمثابة الله يعظم موقعها والعاقبة للثقوى وليصن الله من يصمره والله تعالى يسكن مولانا جهاد يديه ويرأيه ويؤديه ويخاصمه وبعامه جنده وباعداد في اعدائه لجهاده بصاحب صيد في الفريخ فهو جهاد قد اربى فيه رأى المولى فريخ والحديد بالحد يدبغ واكيد ما قوبل به العدو سلاحه وأسرع جناح طار لقتضه جناحه ودولة مولانا كالجهر كراما ظهور عجبائب كالسما مطر او اسنة كواكب ومن كتاب آخر (المملوك يقبل الارض بين يدي مولانا الملك الناصر لطف الله بقلبه وحل عنده ورق حسره ووصل الراحة به ونسأل ان يرجع لنا الذي رخصناه بقدر بلغت منا الخناجر القلوب وقد وفقت في طرقتنا الذنوب وبيغنا نحن ننظر من كتب المولى ما يستدل به على ان قلب المولى قد طاب وقصد العدو قد خاب اذ ترد كتب يكون الوفوف عليها قاطع لا كباد مقتنا القلوب ولولنا جهاد) ثم ذكر البطس الذي تقدم ذكرها الواصلة الى عكا ليله نصف شعبان فقال (وبينا نحن نعتقد ان البطس في عكا وصل الخبر بانها في دمياط ويوم وصل الخبر بانها في دمياط نحن على انتظار وجهه امانه وكتب البطاقي بالاستسجنات والاستسجالات وتحذيرهم من تمادي المقام وما يتفنا اخر حثام هي باقية كان الرجح في بيت ما خرجت منه من هاتين الجمعيتين ولها من تاريخ خروجها من الاسكندرية والى تاريخ تسطير هذه الخدمة خمسة عشر يوما والعيون ممدودة والايدى مرفوعة بان يفرج الله عنا وعنكم بوصولها من شعب في هذه الايام فها واسبى المسلمين ومن نام مل عينه فها هو من اخوة المؤمنين والمملوك شفيق على البطس في وقت الدخول حذر ان يعترض العدو وطريقها فيحول بينها وبين الوصول فينكس المراد بها ويحدث من المضرة بجرمانها اضعاف ما يجحد من النعمة بالفريخ المسير فيما او كد هذه الحال في نفس المملوك وقوفه على كتب اممنا من عكا وقد وقع لهم هذا الواقع الذي وقع للمملوك من خوفهم عليها واستبعادهم دخولها في المملوك وكل من يعرف الامر الا كاهل الصراط رب سلم رب سلم فنسأل الله سبحانه ان لا يكتنا الى انفسنا فنجهر ولا الى الناس فنضيق وجههم واهل الارض قد انتهى وبني ما يغفل الله والخبر منتظر منه والفريخ بالقوت قد سيري في البحر من خمسة عشر يوما والفريخ بالنفقة قد سيري في البر من عشرة ايام والله يا مولانا ما تحجز شي من هذه الامور الا بان تضرب الوجوه بالشوك وتسحاب الحجارة وينبه النوم ونجم الاصوات من التسك كارتو في الاقلام من الكتابة ويخضع لمن يلزمه الشغل كالخضوع لمن لا يلزمه والله المستعان فليخلص المولى نيتة في الاستعانة والاخوان قليل

وقد كانوا اذا هدا قليلا * فقد صاروا اقل من القليل

ومن كتاب آخر (وما نجد دلاء من الشرع في آيات الحصار كما ومارجف به من الخدين الفريخيتين الواصلة والبعيدة واقترا العساكر في هذا الوقت للضرورة والتماس العسكر الشرقي البستور للضجر وحاجة المولى من الاتفاق الى ما لا يسعه التدبير وينصق منه الامكان ومطالبة الفتي بالزيادة مع الفتي والضعيف باكثر ما يحتاج اليه وضياح

فرصة واختلاف رأي بين المتشاورين من الجماعة وجود السنة بالارامو بخل الايدي بالمعونة وانفراد المولى بالتعب واشترك الناس في الراحة وما ابتلي به المسلمون من مرض أظهره ليكون لهم عذرا في القعود وكتمه المولى على نفسه فلا يجلب لامعنا ضعف النفوس فهذه الامور وان كانت شدايد وزائدات على العوائد فقد اهتم الله مولانا فيها سعة الصدر وحسن الصبر ليشعره ان صبره يعقبه النصر وحسنه يعقبها الاجر ولولم ير الله تعالى ان قوة مولانا اكمل القوى وهرة عزمه اوثق العرى لما اهلله لان نصره لا يعرف الملولك غير الله ينصرها وغير مولانا ييسر النصره ويحضرها فليس الا تفجير للعداء والتخلد للقضاء فلا بد من قدر مفعول ودعاء مقبول ومن الامثال المنظومة

نحن الذين اذا علوا لم يبطروا * يوم الهياج وان علوا لم يضجروا

ومعاذ الله ان يفتح علينا البلاد ثم يغلقها وان يسلم على يدنا القدس ثم ينصره ثم معاذ الله ان تغلب على النصر ثم معاذ الله ان تغلب على الصبر واذا كان ما يقدم الله اليه المالك قبل المولى لا بد منه وهو لقاء الله سبحانه فلا نلقاه واخلفنا خير من ان نلقاه واخلف علينا فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فخير صبره وتلا صدره فلا تنو وتزاد عوا الى السلم وانتم الاعوان والله معكم وهذا على دين ما غلب بكثره ولا نصر يثروه انما اختار الله تعالى له ارباب نيات وذوى قلوب معه وحالان فلا يمكن المولى نعم الخلف لذلك السلف لقد كان لك في رسول الله اسوة حسنة (واشتد ازمته تقربجي) والغمرات نذهب ثم لا تجي والله تعالى يسمع الاذن من امير القلب ويصرف عن الاسلام واهله غاشية هذا الكرب ونستغفر الله العظيم فانه ما ابتلي الا بذنوب) ومن كتاب آخر (يا مولانا اعلن الله تعالى قد فعل لك ما فعله لنفسه ودل على لطفه بك كما دل على قدرته فانه تعالى خلق الخلق من غير مادة واقام السماء بغير عمد وكذلك فعل الله بك خلقك بغير شبهة في الملوك كرامود يناسل لك من مصر ما لا من غير جهة وحى منها لاداب بغير جند وسكن فيها رعية بغير ولا فاشكر الله ولا تتحقر خدمة من يبيع الانفاس والنوم والراحة اجتهدا فيما يربحك ويخفف عنك ثم لا يرد العوض منك انما يريد من الله عنك لان خدمتك طاعة له والوجود التي وقعت الاشارة اليها خضعتا فيها وفي غيرها فاقا وجدنا اكثر ما بلغنا اليه يا مولانا ليس لك في مصر الا الثغور وما غلت في هذه السنة الا بقدر ثمن جبال ما سير اليك من الاساطيل ان الله اخذ بيد الكرم والمعونة بحسب المؤونة فلن المولى العافية من الحساب فشتان ما حساب من كثر الذهب والفضة ولم ينقها في سبيل الله وحساب من قال يده هكذا وهكذا في سبيل الله) ومن كتاب آخر (وما في نفس الملوك شائبة الابقية هذا الضعف الذي يجسم مولانا فانه يقولنا ونقديه باسما عنا وابصارنا

ناعمشر الخدام ما بك من اذى * وان اشفقوا انما اقول في وحدي

ومن كتاب آخر (انما اثنينا من قبل انفسنا ولو صدقناه لجعل لنا عواقب صدقنا ولو اطعناه لما عاقبنا بعدونا ولو فعلنا ما تقدر عليه من امره لفعل لنا ما لا تقدر عليه الابه فلا يستفهم احدا لعله ولا يلزم الانفسه ولا يرج الاربعة ولا تنتظر العساكر ان تحكرو ولا الاموال ان تنحصر ولا فلان الذي يعتقد عليه ان يقاتل ولا فلان الذي ينتظر انه يسير في كل هذه مشاغل عن الله ليس النصر ما لانا من ان نكلم الله اليها والنصر به والطف منه والعادة الجميلة له ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا فاولا انهم اسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل وفيض دموع الخاشعين قد غسل ولكن في الطريق عائق خارا الله لولا نافي القضاء السابق واللاحق) وفي كتاب آخر وصف فيه الملك العزيز عثمان بن السلطان ثم قال (ولو شاهد مولانا اليوم شخصه الكريم وصورته الجميلة ونفسه الطاهرة ونظرة المطرقة وصفتته الحبيبة وسكون حر كاته الموزونة قطع عليه فؤاده ووجهه عينه وورقاده ولقد رى المولى عرصات القيمة وثواب فراقه له لوجه الله اعظم من ثواب جهاد في سبيل الله وان ايماننا صبره عن ذلك الولد الكريم لكرم وان ايماننا اسلى عن ذلك الملك العظيم العظيم) ومن كتاب آخر (وعسكرا لا يشكو والحمد لله منه خورا وانما يشكو منه ضميرا والقوى البشرية لا بد ان يكون لها حد والاقدار الالهية لها قصد وكل ذي قصد خادما مقصدا ووافد عند حدها وانما ذكر الملوك هذا لرفع المولى من خاطره مقت المتعاضد من رجاله كما ثبت في مشرك المسارع مع ابطاله قال الله تعالى فاجب عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر يا مولانا ليس الله تعالى اطاع على قلوب اهل الارض فلم

يؤهل ولم يستصلح ولم يفتقر ولم يسبل ولم يستعمل ولم يستخدم في إقامة دينه وإعلاء كلمته وتعميد سلطانه وحماية شعاره وحفظ قبلته موحيه الا انت هذا في الارض من هول النبوة قرابه ومن له الملكة ورثته ومن له في المال كثره ومن له في العدد ثروة فاقدهم واقامك وكلهم ونشطك وقبضهم ونسطك وحبيب الدنيا اليهم وبغيبها اليك وصحبها عليهم وهونها عليك وامسك أيديهم واطلق يدك وانغمس فيهم وجر دسيفك واشفاهم وانقم عليك وثبطهم وسبك ولوارادوا الخرج لا عدو له العدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقدوامع القاهدين ثم وأخرى اهم من الاولى انها اصبحت كلمة الكفر من أقطار الارض واطراف الدنيا ومغرب الشمس ومن خراب البحر ماتا آخر منسب متاخر ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة لأموال تنفق فيهم ولا ملوك تحكم عليهم ولا عصا تسوقهم ولا سيف يزعجهم مهطعين الى الداعي ساعين في أثر الساعي وهم من كل حذب ينسلون ومن كل بر وبحر يقبلون كنت يا مولانا كما قيل أبقاء الله

ولست بملك هازم لنظيره * ولكنك الاسلام لشره هازم

هذا وليس لك من المسلمين كافة مساعد الابدعوة ولا مجاهد معك الالباسانه ولا خارج معك الالهة ولا خارج بين يدك الابالاجرة ولا قانع منك الابز يادة تشتري منهم الخطوات شبرا بذراع وزرا عاياس ندهوهم الى الله وكأنا ندهوهم الى نفسك وتسلم الفريضة وكأنك تكافهم النافلة وتعرض عليهم الخنة وكأنك تريد أن تستأثر بهادونهم والاراء تختلف بحضرتك والمشورات تنتوع بمجلسك فمائل لا يتباعه عن المنزل وأخرى لا تميل الى المصالحه ومتقدم على فائت ما كان فيه حظ ومشير بمستقبل ما يلوح فيه رشد ومشير بالتخلي عن عكا حتى كأن تركها تطلق المعاملة وما كأنها طليعة الحبش ولا قفل الدار ولا خزنة السك ان وهت نداعى السك وأنت في يد الملك فالهكم الله قتل الكافر وخلاي الخذل والتجدد تحت قدمك الجبر وأفرشك الطمانينة وتحت جنبك الوهر ولكن مولانا صفيحة وجهه * كضوء شهاب القبايس المتنور

قليل التشكي اللهم نصيبه * كثير الهوى شتى النوى والمسالك

لا شبهة ان المملوك قد أطل ولكن قد اتسع المجال وما مراده الا أن يشكر الله على ما اختار له وبسرعه عليه وحبيبه اليه قريب مغمى به ورب منم عليه بمشقه وكم مقبوط بنعمته هي داؤه ومرحوم من بلوى هي دواؤه ويريد المملوك بهذا ان لا يتغير مولانا بأبقا الله وجهه عن بشاشه ولا صدر عن سعة ولا لسان عن حسنه ولا ترى منه ضجيره ولا تسمع منه نهره فالشدة تذهب ويبقى ذكرها والازمة تنفجر ويبقى أجرها وكلام يحدث استقرار النعم لمولانا عز نصره بطرا فلا تحدث له ساعات الامتحان ضجيرا والمملوك يستحسن بيتي حاتم ومولانا بأبقا الله وخلص سلطانه وملكه بحفظهما

شربنا بكأس الفقر يوما بالغنى * وما نمنا الاساقنا به الدهر

فما زادنا بغية على ذي قرابة * فغنا ولا أنزى باحساننا الفقر

والمملوك بأن يسبح ان مولانا عز نصره على ما يعوده من سعة صدره أسر منه بما يسعه من بشائر نصره وبالبنتى كدت معهم وماذا كانت تصنع الا بام ما يشي بان من مشاهدة الحرب فقد شبنوا الله من سماع الاخبار أو فر ما يمكن خلفه من الوفر فقد غرمنافي بعد مولانا ما لا تخلف له من العمر أو من جسم فخير ما كان الطيب حاضره ولقد مر ضنا أشد المرض لرفاقه الا أن التجدد سارزه ومن كتاب آخر (المملوك يوصي المولى بالاسلام والاسلام هو قلب المولى في روحه ولا يحمله ولا يشغله بما يتقله ويوصي المولى بقلوب المسلمين وقلوب المسلمين جسم مولانا بأبقا الله من علمه انه لا ترفية عنده لرواتب الحياة اشتغل قلبه واستطار قلبه وضعفت نفسه فبهسب المولى من جهاده فتفقد جسمه وآلات مطعمه وزوج خطراته فتدبغ المملوك من حله على نفسه ما يغشى على مولانا الا ثم فيه وانما تعشم كل مشقة لتسلم به ونحن في ضرت قد مسنا ولا تخرجوا لكشفه الا من ابتلى به وفي طوفان قتنه ولا عاصم اليوم من أمر الله الا من رجم ولنا ذنوب قد سدت طرق دعاثنا فنحن أولى بأن نلوم انفسنا والله قدر لاسلح لنا في دفعه الا أن نقول لا حول ولا قوة الا بالله وقد أشرقنا على أهوال قل الله يخفيكم منها ومن كل كريب وقد جمع العدو لنا وقيل لنا

أخشوه فقلنا حمدا لله ونم الوكيل منتخزين بذك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل فأنرجوا لذلك الفضل العظيم وليس لنا الا الاستعانة بالله فادننا الله في الشدائد الاعلى الدعاء وعلى طروق باب كرمه وعلى التصرع اليه جلولا اذ جاءهم بأسنا فضرعوا ولكن قست قلوبهم ونعوذ بالله من القسوة ومن القنوط من الرحمة ومن اليأس من الفرج فإنه لا يأس منه الا سلبا والشد مطر ودعى الله مقطوع الحظ منه ولا حيلة الا بترك الحيلة بل قصد من تمضى اقداره بلا حيلة سبحانه وتعالى ان علم الله من جند مولانا انهم قد بذلوا الجهد فقد عذرهم في عذرهم المولى وان علم انهم قد قد ذر واوقوه وقصر وافي نصرة كلمة الله فيكفيهم مقت الله والمملوك بذكر المولى بصبره ورحب صدره وبفضل خلقه وبتقواه لربه وبمداراة مزاجه وببر القلوب الاسلامية وببر جمعه وان كان كبر عليك اعراضهم الآتية الى ولوشاء الله لجمعهم على الهدى والمولى أولى بهذا البيت

لا يطران تنابعت نم * وصابر في البلاء محتسب

قيل للهب أسرك نظف ليس فيه تعب فقال أكره عادة العجز ولا بد أن تنفذ من الله في خلقه لا راد لحكمه فلا يتخط مولانا بشئ من قدره فلا أن يجرى القضاء وهو راض مأجور خسر من أن يجرى وهو سخط موزور فيصطلي نارا لشدته أعاده الله منها ولا يجد راحة الثواب وفر الله حظمه منه من شكا بته وخزته انى الله شكا الى مشكى واستغاث بقادر ومن دعار به دعاء خفيا استجاب له استجابة ظاهرة فاتكس سكوى مولانا الى الله خفية عنا ولا يقطع الظهور التي لا تشد الابنه ولا يضيئ صدورا لا تنفرج الا منه وما شرد الكرى وأطال على الافكار ليس السرى الاضائة القوت بعكاولم يبق الاضعف ثم المعين عليه تزويج النفس واعداؤه من الذكر فقد علم مولانا بالمباشرة انه لا يدبر الدهر الا برب الدهر ولا ينفذ الامر الا بصاحب الامر وانه لا يذل الهم ان كبر الفكر

قد قلت للرجل المقسم أمره * فوض اليه تتم قرر العين

وكل مقترح محباب اليه الا انرا يصير نصرا انما بعد ان أسلم أول بد الخسر فقه المنبر بعد ان تكلم بامولانا هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون وسهرت فيها والعيون هاجعة وهذه الايام التي ينادى فيها يا خيل الله اركبي وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤس وهذه الغمرات التي تنقبض فيها الصدور بائها بل بنارها هي نعمة الله عليك وغراسك في الجنة ومجملات محضرك يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وهي مجوزاتك على الصراط وهي مثقلات الميزان وهي درجات الرضوان فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة واعلم ان منوبة الصبر فوق منوبة الشكر ومن ربط جاش أمير المؤمنين ع من الخطاب رضى الله عنه قوله (لو كان الصبر والشكر يعبرين ما باليت أبعها ركبت) وبهذه العزائم سبقوا وتروكنا لا نطمع في الحاق بالقبار وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار ما استعمل الله في القيام بالحق الا خيرا خلق وقد عرف ما جرى في سير الاكابر وفي أنباء النبيين وان الله تعالى حرض نبيه صلى الله عليه وسلم على أن يهتدى بهداهم ويسلك سبيلهم ويقعدى باولى العزم منهم وما تغلوا الجنة بمن وما ابتلى الله سبحانه من عباد الامن يعلم انه يصبر وامور الدنيا ينسخ بعضها بعضا وكان ما قد كان لم يكن ويذهب النعب ويبقى الاجر وانما يفتقات العين كالحلم وأهم الوصايا أن لا يحمل المولى هابيا ضعف به جسمه ويضر مزاجه والامة بنيان وهو ابقاء الله تعالى قاعدته والله ثبت تلك القاعدة القائمة في نصرة الحق وبما يستحسن من وصايا الفرس ان نزل بك ما فيه حيلة فلا تجزع وان نزل بك ما ليس لك فيه حيلة والى العاذ بالله فلا تجزع ورب واقع في أمر لو اشتغل عن حل المهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لا تنصرف هم وكفى خطبه وما تشاؤون الا ان يشاء الله هذا سلطان هو يحول الله أوتق منه بسلطانه قاتلت المملوك بطعها وقاتل هذا بايمانها واذا نظرت الله الى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره ولا تعويلا على قوة الاعلى قوته فهناك الفرج ميعاده واللف ميقاته فلا يقنط من روح الله ولا يقبل متى نصر الله ولا يصبر فاما خلق الصبر بل يشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر وليلق لمن ابتلى أنت المعافي ولمرض عن الله سبحانه فان الراضى عن الله هو المسلم الراضى فاما اخبار فتنة بلاد الجهم فبجنان من الحق قلوبهم بالاستتم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) وكتب السلطان الى القاضي الفاضل كتابا من بلاد الفرج يخبره عما لاح له من امارات النصر ويقول ما أخاف الامن ذنوبنا أن يأخذنا الله بها فيكتب اليه الفاضل (فاما قول المولى اتنا

نخاف أن نؤخذ بذنوبنا فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه بحيث والامام كانت مكتوبة ثم عني عنها بهذه الساعات وعقبت فيكني مستغفرا لسان السيف الاحرق الجهاد ويكني قارعا لوابواب الجنة صوت مقارعة الازداد ولعين الله موثق وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك وطوبى لقدم سعت في مناجاك وطوبى لوجه تم بشار بحاجتك وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقتلت وان الحواطر تشكر الله فيك وعن شكر هالك قد شغلت

(فصل) كان بلغني ان السلطان رحمه الله لما اشتد امر الفريخ على عكا ارسل الى ملك المغرب يستعجده عليهم ليقطع عنهم ما دتهم من جهة البحر وكنت اطلب حقيقة ذلك وابحث عن شرح الحال فيه فان العماد والقاضي لم يتعرضا له في كتبهم ما غير ان العماد ذكر كتابا كتبه القاضي الفاضل الى رسولهم بالمغرب يستعجز منه ما كان ارسل لاجله وسياق وغرضي كان الاطلاع على نفس كتاب الرسالة ومضمونها ثم اراني بعض الشيوخ الصلحاء الثقات بخطها ما كنت ارومه فقلت له علي وجهه قال نسخة كتاب كتبه القاضي الفاضل ونقلته من خطه لابن منفذ يأمره فيه بالسفر الى المغرب بامر الملك الاناصر صلاح الدين رحمه الله يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما حضر الفريخ خذلهم الله عاكبه كسر تحطين وفتح بيت المقدس والكتاب الذي سير الى المغرب والهدية التي جلت يأتي ذكر ذلك ان شاء الله

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الامير الاجل الاسفهلار الاصيل العالم المحترم شمس الدين عدة الاسلام جمال الانام تاج الدولة امين الله صفوة الملوك والسلطين شرف الامراء مقدم الخواص ادام الله توفيقه وبسر طريقه وانجح مقصده واعذب مورد وحرص مغيبه وشهده واسعد يومه وغده يستخير الله سبحانه وتوجه كعبا سير الله الى الجهة الاسلامية المغربية حرس الله جانبها ونصر كتابها وامن اكبا ويستقر في الطريق وفي البلاد من اخبار القوم في احوالهم وادابهم واشغالهم وافعالهم وما يحبونه من القول نزره اوجه ومن اللقا من بسطه او منقبضه ومن القعود مجالسهم مخففة او مطولة ومن الخفيات المتبادرة بينهم ما صيغته وما موقعه وهل هي السن الدينية او العوائد الملوكية ولا يلقه الا بما يحبه ولا يناخبه الا بما يسره والكتاب قد نفذ اليه ولم يخف لي علم ما خوطب به والمقصود ان تقص القصص عليهم من اول وصولنا الى مصر وما ازلنا من البديع بها وعظما من الاتحاد فيها ووضعنا من المظالم عنها واقامة الجمعة وعقد الجامعة فيها وغزواتنا التي توصلت الى بلاد الكفار من مصر فكانت مقدمة لملك الشام الاسلامي باجتماع الكلمة علينا ومقدمة لملك الشام الفرنجي بائقياد المسلمين لنا واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا وتفصيل ما جرى لنا مع الفريخ من الغزوات المتقدمة التي حسنا فيها اخلاخل ديارهم وجعلها الله تعالى مقدمات لما سبق في علمه من اسباب دمارهم وما عقبها من كسر تنالهم الكسرة الكبرى وفتح البيت المقدس وذلك على الاسلام منه الله العظمى الى غير ذلك من اخذ الثغور وافتتاح البلاد وانحان القتل فيهم والاسر لهم واستجباب قبيلتهم لفرنج المغرب وخروج نجداتهم كثرتها وقوتها ومنعها وغناها وثروتها ومسايرتها ومبادرتها وانه لا يعني يوم الا عن قوة تبحر دوميرة تفصل واموال واسعة تخرج ومعونات كثيرة تجمل وان نفرا حصرة العدو وحصرنا نحن العدو فنامتكم من قتال الثغور ولا تمكن من قتالنا ونخشدك على نفسه عدة خنادق فنامتكم قتاله وقدم الى الثغور اربعة احرقه اهلها وخرج من رتين الى عسكنا فاكسر العدو واقبله فانه اغتحم اوقانا لم تكن العساكر فيها مجموعها وار تاد ساعات لم تكن الا هب فيها مؤخوذه واقدم على غزاة استيقظت فيها نصرته الله لنا وخذلنا له لم يقتل الله العدو والقتل الذريع واقربه القتل الشنيع وانجلت احدي الحركتين من عشرين ألف قتيل من الكفار ترحت انفسها الى مصارعها وهدمت اجسامها في مضاجعها والعدو وان حصر الثغر فانه محصور ولو ابرز من تحتها لكان باذن الله هو المنصور والمكسور وتذكر ما دخل الثغر من اساطيلنا ثلاث مرات واحرقها لراكبهم وهي الاكثر ودخلها باليرة بحكم السيف الاطهر وان امر العدو مع ذلك قد تطاول وخطبه قد غداي ونجده تنواصل ومنها ملك الالمان في جموع جاسيرها مجهره واموال قناطيرها مقنطرة وان عساكرنا وادركت لما استدرك ولولا سبقه لها بالدخول الى انطاكية لتلف وهلك وتذكر ان الله فهم طائفة

الامان وأخذته أخذته فرعونية بالاغراق في شهر الدنيا الذي هو طريقه الى الاحراق في نار الآخرة وان هذا العدو
لوارسل الله عليه اسطولا قويا مستعدا يقطع بحره ويمتص ملكه لاختنا العدو اما بالجوع والحصار أو برزقاخذناه
يبدالله تعالى التي بها النصر فان كانت الاساطيل بالجانب المغربي ميسره والعدو منها متوفرة والرجال في اللقاء
فارهه وليس غير كارهه فالبدار البدار وانت أيها الأمير فيها أول من استخار الله وسار وان كانت دون الاسطول
موانع امان قلته عدو أو من غفل هناك بهمة أو بمباشرة عدو ماتمحصن منه العورة أو قد لاحت منه القرصه
فالعدو ماطر بقها واحده ولا سبيلها مسدوده ولا أنواعها محصوره تكون تارة بالرجال وتارة بالمال وما رأينا
أهلا خطائنا ولا كفة ولا اتحادنا ولا حقوقا بدعوتنا ولا مليا صرنا الا ذلك الجانب فلنذعه الا الواجب عليه
والى ما هو مستقل به ومطيق له فقد كانت تتوقع منه همة تقدي في الغرب نارهها ويستطير في الشرق سناها وتقرس
في العدو القصوى شجر ثما فينال من في العدو الدنيا جناها فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر ولا يعين
الاسلام الاسلام وما اختص بالاستعانة الا لأن العدو جاره والجار أقدر على الجار وأهل الجنة أولى بقتال أهل
الذار ولأنه بحر والتجدة بحره ولا غرو ان يجيش البحار الجار وان سئل عن الملوكن يوزياوقوش وذكر ما فعلا
في أطراف المغرب عن معهما من ثغايات الرجال الذين نقتسم مقامات القتال فيعلمهم ان الملوكن ومن معهما
ليسوا من وجوه الممالك والأمرء ولا من المعدودين في الطواشيه والاولياء وانما كسدت سوقهما وتبعتهما
الغافق أمثالهما والعدو تجارية ان العساكر اذا طالت ذنوبها وكثرت جوعها خرج منها وانضاف اليها فلا يظهر
من يدها ولا تقصمها ولا كان هذان الملوكان عن اذا غاب أحضر ولا عن اذا فقد اقتقد ولا يقدر في مثلهم الله من
يستطيع نكايه ولا ياتي بما يجب شكوى من جنابه ومعاذ الله أن نأمر مفسدا بأن يفسد في الارض ان أريد
الا الاسلاح ما استطعت وان سئل عن النوبة المصريه وما فعل بجندها فيعلمهم الاميران القوم راسلوا الكفار
واطمعوه في تسليم الديار فاشفي الاسلام على أمر شديد وكاد يقرب على الكفر كل أمر بعيد فلم يعاقب الجند بل
أعيان المفسدين فقبولوا بما يجب وكانوا دعاة كفر وضلال ومحاربين لله بما سعو في الارض من فساد فاما بقية
الجيش وان كان منهم من هو تتبع للذكورين في الزنا فانهم اقتصر بهم على أن لا يكونوا جندا ومنهم من أحررت
عليه أرزاق تبلغه وشمله أمانة تسكنه وأما الهدية المسيرة على يد الأمير فقصيلها يرد في كلب الأمير الاجل
الاسفهلار العالم الكبير محمد الدين سيف الدولة أدام الله علوه مقرنا بالهدية المذكوره ومع قرب الشتاء فليبق
الا الاستخارة والتعمية ومبادرة الوقت قبل أن يفلق البحر انتفاخ الاشيه والله سبحانه يوفق الأمير ويسر
سبيله ويهدي دليله وبكلا نعمته وعده بعونه ويحل رحله ويبغضه أهله ويشرح صدره ويسر له أمر
ان شاء الله تعالى وكتب ثامن وعشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسائة

(فصل) في نسخة الكتاب الى ملك المغرب والهدية العنوان (بلاغ الى محل التقوى الظاهر ومسته
حزب الله الظاهر من المغرب اعلى الله بكلمة الايمان ورفع به منار البر والاحسان)

(بسم الله الرحمن الرحيم) (من الفقير الى رحمة به يوسف بن أيوب) (أما بعد) فالجند الماضى المشبه المضى القصب
البر بالبريه الحنى بالحنفيه الذى استعمل عليهم استعمر به الارض واغنى من أهلها من سأل القرض وأجز
أحر من أجرى على يده النافله والقرض وزان سماء الله بدرارى الدرارى التى بعضها من بعض وصلى الله على سينا
محمد الذى أنزل عليه كتابه للشفاه والتبيان وبنى الاسلام بآمته التى شبهها صاحبها بالتبيان وعلى آله وصحبه الذى
اصطفاهم وطهرهم قصره وظاهره وارسوله صلى الله عليه وسلم قصرهم وأظهرهم ويسرهم السبيل ثم السب
يسرهم وان الله بهم له وافضل على الناس ولكن أكثرهم ربنا غفلنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا نتج
في قلوبنا غلا للذين آمنوا وشانك رؤوف رحيم وهذه التحية الطيبة الكريمة الصبيه الواجبة الرد الموجبة للقد
العبدة الورد المتغصه عن العنبر والورد وقادة على دار الملك ومدار النسل وجل الجلاله وأصل الاصله ورأ
الرياسه ونفس النفاسه وحكم الحكم وعلم العلم وقائم الدين وفيه ومقدم الاسلام ومقدمه ومقتضى دين الله
ومثبت المتقين على اليقين وعلى الموحدين على المحدثين أدام الله له النصر وجهزه بيسير العسر ورزقه له

كتاب (١٧٢) الروضتين

وبسطه باع القدره وأوثق به حبلى ألفه ومهد له درجات الغفرة وعرفه في كل ما عزمه صنع عاجز لا جليلا ولطفًا
 حقيقًا جليلا ويمر عليه في سبيله كل ما هو أشد وطأ وأقوم قبلا تحية اسفند منهنها الكتاب واستنبت عنها الجواب
 وقد حفظ لها خزان أحدها شوق قديم كان مثل غريمه ممكنا إلى أن تنسب الأسباب والآخر من أم عظيم ما كره إذا
 استفتحت به الابواب وكان وقت المواصله وموسم المكتاتبه هناء بفتح البيت المقدس وسكون الاسلام منه إلى
 المقيمين والمعزس وما فتح الله للاسلام من التغور وما شرح لاهله من الصدور وما أنزله عليهم من النور ولم يحصل
 المسلمون فيه من دعوان اسرار ذلك الصدر وملاحقات أنوار ذلك البدر ومطالعات تلك الجوهرة التي هي وان
 كانت غريبة فان الغرب مستودع الانوار وتزينار الشمس ومصب أنهار النهار ومن جانبه يأتي سكون الليل
 ومستروح الاسرار وعنه قلب الله الليل والنهار ان في تلك العبرة لاولى الابصار ولم تأخر المكتاتبة الا لئيم الله
 ما بدأ من فضله وليفتح بقة ما لم ينقطع بتفجع بد الشرك من حبسه والمفتق بسد الله من الشام مدن وامصار وبلاد
 كبار وصغار وبور وقلاع كنث للسرك معاقل ولا سلام معارف ولبنى الكفر مصانع ولبنى الاسلام مصارع والباقي
 بدالكفر فمنها العراطر والبس وصور ومدينة انطاكية يسر الله أمرها ولبن من يد الكفر أمرها واذا امر المؤمن
 على هذه الدعوة ربحي احسانها وما يتأخر من الله سبحانه جوابها فالدعاء أحد السلاحين ومع النية يطير الى وكره
 من السماء بخناحين بعد ان كسر اندر الكسرة التي لم يجبر بعدها والجئي الى حصونه التي للحصر أعدها وكان
 يومها كرما وادف الله فيما أعننا قضت كل حاجة في النفس واغتت المسلمين فاما العدو بعد يومها فكأن لم يغن
 بالامس وكانت على أن تغزوات قبلها فما لظن بالجهنم بعد النكس ولم يؤخر ففتح البلاد بعدها الا ان فرغ الكفار
 بالشام استقر شئ بأهل الكفار من القرب فأجابوهم رجالا وفرسانا وسيدا وشبانا وزرافات ووحدانا وبروا بحرا
 ومر بكاو ظهرا وربوا اليهم سلا ووعرا وبذلوا ما عوا واذخرا وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا ارسانا نقادهم
 بل خرج كل يلبى دعوة بظركه ولا يحتاج الى عزمة ماله وخرجت لهم عدة ملوك أقتلت العجزة على أسماها وأنت
 العزيمة بحمد الله على أشخاص اعند لعناهم ومنهم ملك الالمان خرج في جوع عربي من الله تعالى بربه ملائ
 الفخاج واذا حجت فانهذه الفخاج ومنهم من ركب شبح البحر فركب الاجاج الفخاج وامتنع من البحر مشيه
 الرجاج لينصر ديننا منبه الزجاج يقبل الكمر ولا يسرع اليه الجبر وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل
 سلامة والى فاع كفر وجلب الكمار الى المحصورين بالشام كل محبوب وملأوا عليهم نفريهم من كل مطلوب ما بين
 أنوار وأطعمه وآلات وأسلحة وسلحه وجمعه وحده مضروب وزره ونقدى ذهب وقضه الى ان شحوا بلادهم رجالا
 مقاتلة وذخائر عاجلة من حريمهم والاسلحة لا تفرق شارة الا طلعت على العدو من البحر طالعهم تقوض من الرجال
 من قتل وتقتل من الزاد ما كل في يوم في حصول زيادة وفور مادة وقدها عليهم موقع الحصر وأعظامهم
 البحر ما منهم البر وبطروا لما كروا ونظروا فانهم لا يستطيعون أن يلقوا ويصعروا ويستطيعون أن يحصروا
 على أن ينصروا ونزلوا على عكاج بحيث يمد لهم البحر بامداده ويصل الى المقاتل ما يحتاجه من أسلحته وازاده
 ومن بكره من مقاتله واجناده فانقطع مائة عكمان البحر وحصرنا من زهم من العدو من جهة جانب البر
 فخدقوا على نفوسهم وحثوا التراب على رؤوسهم وعقدت عدتهم مائة ألف أو يزيدون كلما أفناهم القتل
 أخلقهم النجدة فكأنهم قبل المات يعودون فاتمنا بعمارة بحرية لقبنا بعمارتهم بها فنفدت عمارتنا الى الثغر
 وأوصلت اليه الاقوات التي حل منها البحر ما لا يحمله الظهر والاسلحة التي أمضاها الله عز وجل بيد الاسلام في
 صدور الكفر والقبنا بعمارة العدو بأوفر منها عدة فعددهم اكبر من كبير اولكن لقبناهم بأصدق منها عزمه والقليل
 مع العزم الصادق كثير واستمر مقام العدو محاصر للثغر محصورا منا أشد الحصر لا يستطيع قتال الثغر لامن خلفه
 ولا يستطيع الخروج اليها خوفا من حقيقته ولا يستطيع نحن الدخول اليه لانه قد سور وخنق وحاجز من وراء
 الجدران وأغلق ولما خرج ملك الالمان بحشده ومعته التي هي منه أحشد وعاد جيشه الملعون على رسم قديم الى
 الشام فكان العود لامة أحمد صلى الله عليه وسلم أحمد قويته بنفوسهم وجمعت به رؤوسهم وناخوا انه يزعمنا من
 مخيبتنا ويخترنا من خيما فبعثنا اليه من يلقاه بعساكرنا الشمالية فساد ذات الشمال متوهر فيها محبضا

في اخبار (١٧٣) الدولتين

عن لقائهما مظهر انه مصر يعدا، وما به غير دائها، وكان أبوه الطاغية ملك الامان شديدة اللعن للعين فاندجيشه الى سجن سجين قدهلاك في طريقه غرقا وخاص الماء غفاضه الماء شرفا وبقى له ولد هو الآن المتقدم المؤخر وقائد الجمع المكسر ورميا وصل بهم الى عكا في البحر تهيأ أن يسلك البر ولوسبق أصحابنا الى عساكر الامان قبل دخولها الى انطاكية لاخذوه أخذاسريعا وسبق بحرسهم فهمسهم الى أن يكون الطاغية فيه لافي النهر صريعا ولكن الله المشيئة في البرية والطاغية انما عشي الى البلد فانه لولا احتجازهم فيهمسهم بالحنادق واحتيازواصلهم بالمصايق لكان لنا ولهم شأن وكان ليومنا في النصر الكبرى بحول الله نال لا يثنيه من العدو نال ولما كانت حضرة سلطان الاسلام وقائد المجاهدين الى دار السلام أولى من توجه اليه الاسلام بشكواه وبسه واستعان به على حماية نفسه وحرثه وكانت مساعيه ومسامحي سلفه في الجهاد الغز المحجبه المؤمرة الكاشفة لكل معضله الكاشفة لكل مشكله والاخبار بذلك سائره والاخبار ظاهره والصحف عنه ماسمه والسريه معلمة وعالمه وكل بجهاده قدسك الاسلام في اغاها وقد آمن الالكه الكفر في بلادها لا يزال في سبيل الله غايدا يوراثها ومواجا ومكاحا ومماسيا ومصابحا يجوز لجة البحر المجاهدين ملوكا على الاسره وغزاة تصافح وجوهها السيوف فلا يتخذن الاسره يدود الفرق الكافرة ولورث سبيلها الملاحق قراره كل واد وكلما أودقوا نار الحرب أطهأها الله ولولا لاخذ سراره كل زياد كان المتوقع من ذاك الدولة العاليه والعززة الغايبه مع القدرة الوافيه والهمة المعديه الهاديه أن يمدد غرب الاسلام المسلمين بأكرها أمد بهد غرب الكفار الكافرين فيملاها عليهم جوارى كالاغلام ومددنا في الجمع سواركا أنها الليالي مقلعة بالايام تقام علينا معشر الاسلام آمالا وتطلع على الكفار آجالا وزدنا بالاجلة وأما ارسالنا مسومة بمدها ملائكة مسومة ومعلمة تتقدم حيازتها أقدام حيزوم تحت أحبابه وانما هي منه عزمه كانت تعين أحباب الميمنة على أحباب المشأمة وكلمة كانت تنفع الروح في الكلامه ولما استبشفت ظن انها توقفت على الاستدعاء فضر خنابها في هذه التحية فقد تحفل السحاب ولا تظفر الى أن تحركها ابدى الرياح وقد نزلت النصر فلا تظهر الى أن تضرع اليها السنة الصفاح وسير لحصن مجلسه الاظهر ومجلسه الانور الامير الاجل المجاهد الامين الاصيل شمس الدين نفي الاسلام والمسلمين سفير الملوك والسلطين أبو الخزم عبدالرحمن بن منقذ كتب الله سلامته وأحسن صحبته وما اختير للوفادة الامن هو أهلها ولاجل الوديعه الامن هو لها ولا بعت لنسج الصلة الامن هو مفتاحها ولاداء الامانة الامن هو قفلها ومهما استوضح منه وسئل عنه فانه على نفسه بصيره ومن البيان دون خيره وفي العريضة ذويت وعشيرته والمجاهدة له أوصف على ان تلك الجلالة رجا ذعرت البيان فأخلف وما أجدره بأن يصادف بسطة على بساطه ونظر بأذن له في القول على اختصاره وتوسطه وافراطه فكل هو به وافي وكل هو لفهم الكريم كاف والله تعالى يجعل هذه العزيمة منافي استثناسا من العزيمة منه بالغة مبلغا يسر أهل دينه ويزعمهم بها اقتضاء دينه من الذين اتخذوا الهام من دونه والسلام الصادر عن القلب السليم والود الصميم والعهد الكريم على حضرة الكريم العلية وسدة السيادة الجلية سلام مودة ما وقد القرب قبلها مثلها ورسالة ما خطرت الى ان انفذت وراءها المحبة رسلها وليصل السلام رجة الله وبركاته ورضوانه وقنياته ان شاء الله تعالى وكتب في شعبان سنة ست وثمان وخمسمائة والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد بنيه وآله وسلامه) الهدية ختمت كريمة في أربعة بخسة بمسك ثلثمائة منقال عنبر عشرة قلائد عندها ستمائة حبة عود في سعط عشرة ذمنا دهان بلسان مائة درهم وواحد قسي بأناها مائة وقوسان سروج عشرون نصول سيوف هنديه عشرون نشاب ناسج خاص مريش كبير ومتوسط ضمن صندوقي خشب مجلد به سبعمائة سهم وكان اقلاعه من الاسكندرية في شبني عمارته مائة وعشرون في ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة ووصل الى اطرابلس أول البلاد في الخامس والعشرين من شوال وأقام بها الى ثامن ذي القعدة وتوجه الى البلاد وكان الاجتماع بالوزير أبي يحيى بن أبي بكر بن محمد بن الشيخ أبي حفص ودفع كتاب السلطان اليه يوم الخميس سابع ذي الحجة وكان الدخول على يعقوب والسلام عليه في العشرين من ذي الحجة وفي هذا النهار جلت هدية السلطان الى خزانته

كتاب (١٧٤) الروضتين

وكان انفصاله من مراکش عاشر المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ووصل الى الاسكندرية في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين

(فصل) لم يحصل من جهة سلطان الغرب ما اتفق منه من النجدة وبلغني انه عز عليهم كونه لم يحاطب بأمر المؤمنين على جاري عادتهم وقد كان سلطانا عادلا مظهرا للثريعة غازيا في سنة خمس وتسعين وفيه يقول شاعره

أهل لان يسعي اليه ويرتجي * ويزار من أقصى البلاد على الوجا
ملك غدا بالمكر مات مقلدا * وموشها ومحنها ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره * وتعطرت منه الرياح تأرجا
وجد الوجود وقد دجى فأضاه * وراءه في الكرب العظام ففرجا

وفيه يقول ابن ٤٤ سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أبو الربيع من قصيدة أولها
هبت بنصركم الرياح الأربع * وجرت بسعدكم النجوم الطلع
ان قيل من خير الخلائف كلها * فإليك يا يعقوب نوى الاصبع
ان كنت تتلو السابقين فأنما * أنت المقدم والخلائف تبع
وقد مدحه أيضا شمس الدين بن منقذ هذا المرسل اليه من جهة السلطان بقصيدة منها

سأشكر بحر اذا عباب قطعته * الى بحر جود ما لشعاه ساحل
الى معدن التقوى الى كعبة الهدى * الى من هبت بالذكر منه الا وائل
اليك أمير المسلمين ولم تزل * الى بابك المأمول ترجى الرواحل
قطعت السبيل البر والبحر موقنا * بأنى بذلك القطع بالنجع كافل
فأراعني من وجبة البررائع * ولا هالني من زاخر البحر هائل
ومن كان غايات المعالي طلابه * يهون عليه كل أمر يحاول
رجوت بقصدك العلى قبلتها * وادنا عطاياك العلى والفضائل
فلازلت للعليا والحدود نائيا * تبلغك الايام ما انت آمل

وابن منقذ هذا من أهل بيت أدب وشعر وله على ما وجدت بخط بعض الثقات
تصرم عرى التغرب والنوى * وافى ارجحالى طارف وتلاذى
وأخلفت الايام برد شيبتي * وأصلد من وقع الخطوب زنادى
وأشغلتى الحرص الموكل فى الورى * عن العمل المحبى ليوم معادى
فلا راحة الاخرى تيقنت نيلها * ولأنا فى الدنيا بلغت مرادى

وله على لسان بعض غلمانه

ورب عيص دعانى الى احبته مال الرثاثة منه العدم
أقطب وجهى له كلما * تهللى ضاحكا وابتم

ومن كتاب فاضلى الى بعض اخوانه (وأما الاحبار المغربية واخلاق جانبها وضعف مظلومها وطالبها فاذا نجرت
الظلمة الى الغرب فيحق كما ان الانوار الناصرية قد تنصرت فى الشرق فانه يسعد بلاد الدنيا بالانحراف فى سلك
ملكه ويمكن من مؤمنها حكم عدله ومن كافرها سيف فتكه والله يجزيها الحسب عن زيتها فى الحسب ويكتب
سلامة عزها فى طرق النفع أينما يمت السير) ثم انى وقفت على كتاب فاضلى للسلطان يشعربان الرسالة المغربية
لم تكن برأى الفاضل ولا هو مختارها صورته (المملوك يقبل الارض بالمقام العالى المولى الملكى الناصرى جعل له
الله فى الدنيا والآخرة المقام العالى وأبقى دولته التى هى الايام بالحقيقة والاىام قبلها هى الليالى وينهى ان
لظاهر ان المملوك عند المولى ليس من أهل الانعام وان له والله الحدأ نارالى دولته تتهدبها الايام وآثار السيوف
طاحت وبقيت آثار الاقلام والرسالة المغربية ليس للمملوك مشير ابتكرها ولا كارها سفر رسولها ولا مستبعدة

مصلحة قرية الامر منها لكن على وجهها وقد تجزأت الحدية المغربية على ما أمر به وكتب الكتاب على ما مثل ونظم الخطاب والوصف فوق العادة وبما لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه وعند وصول الامر بنجم الدين من الخميم المنصور فافاضه المملوك في انه لا يمكن الا التعرض لا التصريح بما وقع له انه لا تتجبع الحاجة الابه من لفظه أمير المؤمنين وان الذين افاضوا في هذا الحديث وأشاروا به ما قالوه نقلا ولا أحاطوا به قياسا ولا عرفوا مكاتبه المصريين قديما وأخرما كتب في أيام الصالح بن رزيك فخطب فيه أكبر أولاد عبد المؤمن وولى عهده بالامير الاصيل النجار الجسم النجار وعادت الاجوبة الى ابن رزيك وهو وزير سلطان مصر الذي اتبع مولانا اليوم مائة مثله مترجمة بمعظم أمره وملتزم شكره هذا والصالح يتوقع ان يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه وما هو الا أن يهرب مملوكا طريدان منافستين على أطراف بلاده ويصل المشار اليه بالامر من مرا كش الى القبر وان في ستة أشهر فلقاهم في كسر مرءه وبما سلك أخرى واعلم الامر بنجم الدين بذلك فامسك مقداره عشرة أيام ثم أنفذ الامير المذكور اليه على يد ابن المجلس بأن الهدية اشير عليه بأن لا يستعجبها وان استعجبها تكون هدية ترسم من حواله وان الكتاب لا يأخذ الا بتصریح أمير المؤمنين وان السلطان عز نصره رسم له ذلك والمالك العادل دامت قدرته بأن لا يشير الابه وانه اذا لقي القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان أبقاه الله من لسانه فأجاب المملوك بأن الخطاب يكفي وطريقي جده ناله يمكن والكتابة تحجة تقيد اللسان عن الانكار ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الاجماع مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه ولا يحل اتباعه من خصين القضي مخططين عن العالي ساقين عصا المسلمين مفترقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لا تحذل طاعته متقلدين لمن لا تصح ولايته فيفسد عقود الاسلام وينفخ باب عجز واردة عن اصدار بل تحضي وتكشف الامور وتكشف الاحوال فان رأيت القوم شوكة ولنا زيده فعدهم بهذه الخطابية واجعل كل ما نأخذ عندنا للوعدها خاصة فامتنع وقال أنا أقضي اشغالي وأتوجه الى الاسكندرية وانتظر جواب السلطان عز نصره وما يغوت وقت والى ان أنجز أمر المركب وارتاد الركاب فسير المملوك النسخة وان وافقت فينعم المولى على المملوك بترجمة لصلتها على ما كتبه ويأمر نجم الدين بتسلم الكتاب على ابن المجلس حذنه عنه انه ممنوع من السفر الى المكاتب بها فأما الذي يترجم به المولى عز نصره فيكون مثل الذي يدعي به على المنبر والنا هو الفقيه الى الله تعالى يوسف بن أيوب أدام الله غني مولانا بالفقر الى ربه واذا كتب الصالح بن رزيك اليهم من السيد الاجل المالك الصالح فيجاء يكتب اليه مولانا أبقاه الله الحادوم وهذا مبلغ رأي المملوك والمؤمن لا يذل نفسه وفاسم الارزاق يوصلها وان رغم من جرت على يده وان كان مولانا عز الله نصره يقول أنت غافل وغائب وما تعرف ما الاسلام فيه فلو حضرت وعرفت ما شققت الحديث فجواب ما تكتب بعد سنتين فابغى الله عنا ولا تستمر هذه الشدة ولا نسى الظن بالله واذا كانت لنا ان شاء الله أخذت خالية من نطلب الا ان مواساته واذا كان المملوك مستحسلا وغير مستفصم وللضرورة حكمها والاحوال المملوك غائب عنها فالفهم من الامر للمملوك ان يتولى من الكتابة ترتيب المقاصد وتحرير الالفاظ وتنضيد الخبر عما أراه الله تعالى على يده مولانا عز نصره والثاني المطلوب فقد فعل هذا كما في النسخة ووقت اللفظة التي ليست كتابة المملوك لها شرا طافها والمملوك وعقبه مستحيرون بالله تعالى ثم بالسلطان عز نصره من تعزيرهم لذكر الحياة وتوقع الخوف ومعاداة من لا يخفى عنه جبر ولا تقال به عثرة ويكفي ان المولى انهم بخطه في كتابه الى المملوك وفيها ما هو مخطط حضره سيدنا الاجل عماد الدين الكاتب الاصفهاني حرسه الله لا موصى بأن لا يشار في الخداج ما صرح باللفظة فهي اما تقيه فالمملوك أولى بها واما استهانة ففسد الملاك لا تقاس بنفس المملوك فان كان ولا بد في النسخة بين يديه والمقصود فيها من زيادة هذه اللفظة ما يحتاج الى تعليم والكتاب الذين يستقلون بكتابة النسخة معدومون وقد تاب المملوك عنهم والكتاب الذين يستقلون بالتبويض موجودون فينبولون عن المملوك في التبويض والافكيف يسير رسول بكتاب من مصر بلا خط سلطان وبغير حضرته كتب ولا هدية سار وبمحضر من البغاددة والمغاربة يعلمون ان الكتاب كتب بمصر ويشهدون بما لم يروء وما لم يروء من الخطاب ولو وصل من المولى أدام الله أيامه كتاب مختوم وسبر ولم نعلم ما فيه لا تقطع فضول كثير وخدعت أراجيف شنيعة ولا يعتقد المولى ان المملوك يعظم القصص

كتاب (١٧٦) الروشتين

فما لا لاسنة والاعين شغل الا السلاطين وأفعالهم وأقوالهم ولا لخلق خوض الا في أوامرهم واحوالهم ولوعلم المملوك ان هذا الذي استعفى منه بضربه بحيث يفع المولى أبقاء الله لسان عليه ولكنه مضرة بتغير منفعة وتعرض لما تدمر عاقبته أو يبقى على الخوف منه وذلك مما لا يقتضيه حسن عهد المولى وفضل راقته فتقصود المولى أبقائه الله تحصيل تبييضها بين يديه وربما حصل استناره وأمنت المكار فيسه وغضت العيون عنه وشهدت الايام عليه طالع المملوك بذلك)

(فصل) وللقاضي الفاضل رحمه الله من كتب اخر ما يشرح لنا بعض ما تقدم وما لم يذكره أحد من أرباب السير منها قوله (كتاب بغداد كتاب بارد غث جامد ما فيه مقصود لقاصد ولا صلة ولا عائد ونحن نطلب الذهب الحمار فيضرب في حديد بارد) ومنها فيما خرب من البلاد الفرنجية المغنومة (خراب البلاد في هذا الوقت الضيق لا شبهة في تقويته لنفس العدو واصعاقة لانفس المسلمين وكل من يجمعه بجأه من يدهه اليأس ما يقع وجاء المولى يعلم ان العدو أخذها من المصير بين في تمام ستين سنة وخفضوها بالانحصار مرة وبالهذنة أخرى وبالقتال مرات وبولا قسوة لو كان فيهم خير مما يجتزوا عنها ونحن قد حملنا عن العدو المؤنة بخرب البلاد التي كان العدو يريد ان يحاصرها وبنائها ونصب الخبث في البرج عليها ونخاف التجدد ان نصلها وقوة الاسلام ان يثرب اليها ويتوقع ان يدهه المصاف قبل النزول عليها فمرفناه انه نادم على من لا سلاح له الا بالي السلاح ولا حفظ للبلاد الا أن يخربها فقد نكنا عن اللهاء وفرنا قبل المواجهة وزدنا زيادة مجيية وهوان المنهز من زم لرجال ونحن ننهزم بالبلاد) ثم قال وثبوت ولا ناعلي عكا هو حراستها وحفظها وقوة نفس من بها وأهول الاعداء ملك الامان لا يشك مولانا ان يجمعه لا في بعشر ترازم من سنين فرفورة وصلت الى الفرنج بجدة من بلاد المحوس في السنة الماضية وانما الزائد سمعه ملك وقد هلك ورأس قد قطع وفائد جيش وقد كبا الحمار) ومنها عند ورود كتاب السلطان اليه يبشر بعاقبته من مرض عرض له في شهر رمضان (أسفر بشارته عن ان المولى أناه الذرج وغداؤه الفروج واستقل بحمد الله وصح وحالت العافية للمرض فع كان ما في كسائه الا ايس من نعريق النون من الجد لله رب العالمين فيه أثر ضعف ينتقده صياقة الخطوط فاما هذا الكتاب المبارك فقد صحت فيه التعريفة وقويت اليد وطلعت النون اهم النان من مطلع الهلال الفطرى الذي يشبه الشهور اعيال النون ومنهم من قال

ولاح هلال مثل نون أجادها * بدوب النصار الكاتب ابن هلال

وهذا من أنواع الفسارغ الذي ما أوجبه المملوك الاسرته بعافية المولى أدامها الله وأدام المسرة قبها له وللخلق فاشبههم المملوك الانوار الشمس الذي له في كل مكان أثر ولكل عين به نظر فلا تخلى الله النيان من آثاره والعيون من أنزاره وبعد عافية المولى قد انتظر الاسلام عاقبته به من المرض الذي هو العدو فيجمع الله تعالى للمولى وللخلق بين العافيتين ويستخدم شكرهم للتمتين فقد حلى الله بهذا المرض سيف الله الذي هو المولى وما صقله الالتصداً به قلوب أعدائه ومن فوائد هذا المرض ان المولى يستأنف العرجيد والاعزم حديداً ويستقبل التدبير بنشاط قد حضر واعضاء قد فارقها ما كان سبب الضجر) ومنها (وأما تبرم مولانا بأكثرة الطلبات منه فلا تخلى الله مولانا من القدرة عليها رهن مثاله ان الله سبحانه يطالبه بحفظ دينه والنبي صلى الله عليه وسلم يطالبه بحسن الخليفة في أمته والسلف الصالح من هذه الأمة يطالبونه بمباشرة ما لو حضر وملا زادوا على ما فعله المولى وأهمل الحرب يطالبونه بازاحة عنهم من الذهب والفضة والحديد وبقيعة الامة تطالبه بالامن في سرهم والاستقامة في كتبهم والخفارة في سبلهم ونسبه الكريمة تطالبه بالجنسة بقله الله اليها ولعالي الامور أعانه الله عليها واذا عذد ما راد منه فلا بد أن يعدد ما يسر عليه فهل عدم من الله تعالى قط نصرة وهل استقرت به قط عسره وهل تمت لعدو قط عليه كره وهل بات قط الاراجيا وهل أصبح الاراضيا ألا يعلم ان الله تعالى ذخر له من الصالحات ما لم يركنوا له غيره الا يحصى من سببته من المملوك الى الدنيا فجزوا عما سبق اليه المولى من الآخرة وهل تعرف راية قاتل تحتها في سبيل الله الارايته وهل يعرف مال يتقى في سبيل الله الاماله وهل يجمع في مجلسه الا كتاب الله يتلى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقرأ أو يرى به الا الخيل تعرض والسلاح يقبل لا قذاح الشارين ولا أصوات

الغنيين ولا وقائع الكذابين ولا سعيان التمامين ويحيى اذا تفرحوا مولانا بقاء الله على تشبيه الملوكة فاذا كان مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد فان مجلسه أولى بأن يكون مسجد من كل مجلس ولا غرو ان تعترف المدائح كما تعترف الضوال وان يتبع كما يتبع الطرائد وينصرون الله من نصره ولعل المولى عز نصره قد نفذ الى جانب الشمال جماعة فان صاحب انطاكية خذله الله عاث وشعث وخلا الخيما ن بأرض قطلب الطعن وحده لو ترون أهل عكا وكذلك يفعلون بشيئة الله ولو كن ما هم فيه من جهاد بنية احتساب لما سبقه هم الى الجنة سابق ولا لهما بعدهم لاحق فليمن مولانا توفروا به على كل حال فله ثواب نفسه وثواب من جاهد بسببه فلا أعدم الله الخلق واحدا به استقام جميعهم وما لك اقام برعا باهم فاقعد ما برعهم وشفيقا بيقم بنفسه وولده وباخوته ويتقدم الى الاحوال اما بماليكه وأمرؤه وعسكره وحملته فيصعبك أنه منهم مكان بسم الله من الكتاب ومكان الامام من المحراب ومكان النواصي من وجوه الصواهل ومكان الاسنة من وجوه الذوايل وخير ما كان اذا لم تنظ نفس بنفس خيرا وأغير ما كان على محارم الله اذا كانت أنفس الملوكة غير غيري وقد اطمأنت القلوب الى ان الله سبحانه قد كشف الغمة وفرجها وأطفأ نار الحرب التي كان العدو أجعلها فمات وقع من كتب مولانا بقاء الله الا ان الاسلام قد رضى بما يستخط الكفر ولا يسمع من قصصه الذي هو أحسن القصص الآن يقول ما قاله سميح على نينا وعليه السلام قضى الامر فأما ملك الالمان قد سلبه الله ما أضيف اليه كما كان الملوكة رأى في منامه على كوكب واعلم به مولانا في ضمن رسالة فقال أبقاه الله قد قبلت البشري بصورة الرؤيا وان رسولا جاءه من السلطان عز نصره الى الملوكة فقال اكتب كتابا بإشارة ملك الالمان قلت حتى أفكر فقال الرسول اكتب بأن الله قد سلب ملك الالمان ما أضيف اليه والمشهور ان ملك الالمان خرج في جماعتي ألف وانه الآن في دون خمسة آلاف ومنها (ورد كتاب من المهدي الى الاسكندرية تاني رجب بعد ستة عشر يوما من المهدي وذكر من فيه أخبارا وقد طويع بها ولما تذكرت علمت صحتها وهوان عساكر الغرب الاسلامية نازلة على طليطله وقد اقتحمت عدة حصون كقرفة وان يوزع بأسوهد بالمهدي موثقا بالسيدي وقد نفذ قراقوش الى صاحب تونس ليسيره الى بلاد الاندلس موضع نزول ابن عبد المؤمن بالعساكر وان أهل صقلية من المسلمين الى الآن في حرب قائمة بينهم وبين فرنجها ومعتهمون بالجمال في اعمالها وان عسكر الفرنج قد خرج لاجناد أصحاهم بصقلية والمسلمون بها على توقع وربة وحذار وخيفة نصر الله كلمة التوحيد وأهلك جبار عتيد وان مرأب فيها أرواد الجنون دخلت المهدي بأمان من صاحبها فباعها بها وتردت منها وانها قاصدة الشام خيب الله قصدها ومنها (وقد سبر الحبل الآن من المجلس العزيزي بحضور قلان وفلان وكاهنهم مجتهد في الخدمة ولما عرف الملوكة انهم لا يطرقون المعنى الذي يطرقة الملوكة من تنبيه مولانا على ان يقتصد في الاتفاق ويقدرا الانحراج للعلم ان هذا الحجر قد مر ميتا بعده وسمع بخبر المولى فانهم فراروا من سطوة كرمه والبلاد ليست الآن كعهدها في انقطاع أسفارها ووقوف معانئها وكساد أسواقها وانكسار تجارتها ولولم تكن الدار هم سلعة لا تخرج من مصر كما يخرج الدينار لما وجدت كما لا يوجد الدينار وان نصريف الدراهم بعد ان يصير مستخرجا بذهب شغل شاغل واستغراق بان غير الاول وعسى الله ان يأتي بالفتح أو أمر من عنده يحدث للاسلام نصر اعززا والكفر خذلا ناسرعا وجيرا ومولانا خذله الله ما كره من وراء ضرورة لا تخفى عن المملوك والممالك من وراء ضرورة لا تخفى عن المولى وصعد المولى بمجد الله واسمع وفرج الله منه قريب وهذه الضائقة لما يريد الله تعالى من حسن موقع الفرع بعدها فقد أنفق المولى مال مصر في فتح الشام وانفق مال الشام في فتح الجزيرة وانفق مال الجميع في فتح الساحل وينفق ان شاء الله تعالى مال القسنطينية في فتح رومية والملوك كلهم وكلادو أمناؤه على خزائنهم انى أن يسلموها اليه في شكره الله على ما أخرجه في سبيل الله منها ويعتقهم على ما كنزوه من ذهبها وقضتها فلا يكن في صدر المولى حرج ولا في خلقه فان الله سبحانه لا يضيق رزقا على يده الكريمة لاسيما وقد أجرى عليه أرزاق خلقه ومنها (يبنى الملوكة وصول رسول ملك الروم بما في محبتهم من هدية وبما على لسانه من رسالة وبما على يده من كتاب وحضر بين يدي الملك العادل وجرى من المناقضة ما زبدته امتنان الملك بكونه لم يجب رسول ملك الالمان وصاحب صقلية وغيرهم من جيوش الفرنج الى الموافقة على حرب السلطان واطلاق طريقهم وامتنع وسدد الدربندات وحفظ عليهم الطارق

كتاب (١٧٨) الروضتين

وصي أرباب الحصون بالتيقظ لهم والمنع عنهم وجعل عذرهم للمتمنى موافقته أن البلاد في هذه السنة غالية السعر والمصلحة تقتضي أن لا تكون الحركة الابتداء على تمكن من المرة وتأخير الحركة إلى السنة الأخرى ثم قال (وهذا الكتاب الروم خائف من الفرغ على بلده مدافع عن نفسه أن تم له الدفع ادعى أنه بسببنا وان لم يتم ادعى أنه غائب عن مقصده ومقصدا وقد جعل ما أورده من أن يقال إن البطارقة في قامة من قبله وان ينقل من ولاية الفرغ إلى أن يوليها الطاغية من أهل عمله سببا يسطر به عذرهم عن أهل جنسه ورفعه عن نفسه لاسيما مع إقامة الخطبة الإسلامية ونقله المنبر ونسجته في الصلاة واعزاز الامة الإسلامية أرغم الله بها أنفسه ويجعل بسببها حثفه ومولانا أبقاه الله ينبت في الأجوبة ولا يجب إلى ما على الإسلام فيه غضاضة ولا إلى مالك كفر فيه قوة (أن ينصر كم الله فلا غالب لكم) ومن كتاب آخر (وصل إلى المملوك كتاب ذكر وصول رسول الملك العتيق من قبرس إليه يخبره بعصيانه على ملك انكليزية ومكاشفته بالعبد أدوة الحرب وأنه قد كتب السلطان أعز الله نصره يسد له من نفسه العبودية والطاعة والمظاهرة على ملك انكليزية والاخبار متواترة بأن الملك العتيق أحرق موانئ تبرس وعورها ووقع الميرة عن الساحل ولا شبهة أن مولانا يتقبل من المذكور ويوقى نفسه على ذلك بالابتغاء في تحاذيهم نصر الإسلام وشغل بعضهم ببعض واقتراف كلتهم الحجة وقطع الميرة عن الشام وامن الجانبين كثير من جوانب البحر وهذا الملك العتيق قد صار لمولانا صديقا وما سمى العتيق إلا لأنه صار لولا اعتيافا ولا اعتبارا بمحذينا مع صاحب القسطنطينية في أن اتجهده على قبرس فاما انما وعداه بالخدمة عليها كانت بيد عدو أو الله ما أفلح ملك الروم قط ولا نفع أن يكون صديقا ولا ضرر أن يكون عدوا وكذلك صاحب الغرب (والله عصمكم من الناس) وتوف المملوك على كتاب بغداد والمقصود الذي لب لاجله الرسول ما لم يذكر في الكتاب وهي المعونة على الجهاد وعرف استعداء المساعدة على تكريت ولو كان لا فراغ لما كان النظار الصحيح بقضائهم ما بقيت في يد من هو الأنا نبال كانت في يد المولى أبقاه الله تعالى ومهما خرجت عنه خرجت عنهم وأما نقول أليس لنا تطلع إلى ملهنا لاسيما وهي طريق إلى غير هاتين ففتح الله للمولى بيلا دهي مع ستعاضة عن ربهوتها فلا مرمى أولاد كثير الله منهم ما منهم الامن هو متطاع إلى طرف وله أهل ما منهم الامن هو متطاع إلى مملكة وأمر ما منهم الامن هو متوقع ياد وما ليك ما منهم الامن يريد أن يوفي الحق عليه في الخدمة ومن سره المولى لهذا الامر عدم من أصحابه منفعة فيما هو أهم مما سار فيه وما يليق أن يسير الامن برهيم ما يجزون عنه وتكون عنوانا لعلهم في شك منه من قوة المولى على ما يريد وما سلكه مع القدرة ويرى المملوك أن مطالبهم نقد ومديناتهم وعد وأن كان ولا بد من تسيير فلا يسير الامن يقضي الشغل ويستزيد الجعل وما تضمنه الكتاب البغدادي من عزم الخليفة على الخ في هذه السنة المملوك يستعده بالاضافة إلى الوقت وإلى عادة أهله وآخرهم جلال الشريعة الله ويستقر به بالاضافة إلى خلقه وان سار صلح أن يتم بما أشار إليه ابن الشهر زوري ولا شك انه قد أنسى الرسالة التي توجه فيها فابا بعثناه ليلس لنا ثقة قالته هاننا) وكتب الفاضل إلى السلطان (ينهي المملوك انه عرف فتعجب رجل وصي من العصر القرني وان المؤيد يعني ابن السلطان وكان ينوب عن أخيه العزيز بمصر أحضر نائبه الطواشي بماء الدين واستعلم أمرهما فذكر أن هربهما صحيح وان أحدهما هو العصبى من جملة ثلاثة وثلاثين ولما كانوا اطفا لوقت الحوطة عليهم بالقصر القرني وقد بلغ هذا وكبر وزاحم عشرين سنة والاخر كان معتقلا في الايوان فحدث له خنازير في حلقه وأشنى على الهلاك فأمر الطواشي بنقله إلى القصر القرني من الايوان وفك حديد وجهه ليتداوى في أوائل سنة ثلاث وثمانين واستمر مرضه واشتد ضعفه وبقي في القصر القرني إلى أن علم انه سيجب فسأله المملوك عن المستحفظ للقصر القرني فذكر استاذين كان الطواشي أقامهما ورضي أمانتهما وانهما يذكران أن هذا القصر القرني قد بنى بوزير أو كثر التسليقات عليه ويجاوره اصطبيلات فيها جماعة من الحر بندي والمفسدين والافرق مستقر من هذه الاصطبيلات إلى في القصر من النساء وانهم كانوا أنهما مرة بعد أخرى أن المكان غير خبز والاعتقال فيه غير وثيق قال وجعت أصحاب الارياح وجيرة القصر ورجوت بترك الشناعة لظفرهما والبحث واقع عنهما) وكتب العاضل عن السلطان إلى العادل وهو عصر (انتهى الينا بالدار المصرية وبالخدمة العلية ان جماعة من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف وبسطوا السننهم بالتمسك

من القول غير المعروف وانثشوا من العصبية ما أطاعوا فيه القوى الغضبية وأحيوا بها ما أماته الله من أهل حبيته المبالغة والله سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سميعا مطيعا (وأعدهموا بحبل الله حبيبا) ولم يزل التعصب للذاهب بلا القلوب بالمشقة ويشحنها وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف بأهل الرفاق الآن يقال أحسنها وما علمنا أن في ذلك نية تعبد ولا مصالحة توجد ولا هداية تعتقد بدارية تتقد نار عداوة توقد وقلم أثرت المشاحة الأخلاق فالجلس أعزه الله بوعز بكف الالسة الخائضه وعقل الاعنة الراضه فان أقنع بطفه المرضى والا كانت همة الراضه ومن عاد بعد الزجر أبعد عن مستقره وأزعج وليس يسع الحلف ما وسع السلف من الأدب وليعلم العبدانه يكتب كتابا الى ربه فليذكر فيها كتب والى من كتب

(فصل) في ذكر خروج الفرنج خذلهم الله بعزم اللقاء ووصلهم الى رأس الماء قال العباد وذلك يوم الاثنين حادى عشر شوال بعد أن رتبوا على البلد من لازم القتال مع ملك الألمان وخرج معهم الرئيس والكندهرى وأخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها واستحبوا أنجاب الكريمة وأنجادها وكان تخيم البرك على تل العياضية فركبوا وأشغلوا القوم بشيران النصال وأهبطوا فنزل العدو تلك الليلة على أباركنا قد حفر ناهاعدنر ولناهالك وباتوا والاراك نزمهم وتشبههم وتضيقهم وأصبحوا يوم الثلاثاء سائر إلى اللقاء ورفع السلطان ذلك الليلة النقل إلى ناحية القميون وقد امتدت ميمته إلى الجبل صفا وميسره إلى البحر زحفا وعند في عين تليه أولاده لافضل والظاهر وأخوه العادل في أول الميمنة ويلييه حسام الدين بن لاجين ثم صارم الدين فاما الزنجي ثم حسام الدين بشاره ومعهم بدر الدين دلدوم الباروقى فهو لاء عظماة دولته وأكبراء مملكته ومعهم أمراء ومقدمون جريئون مقدمون وكان في الميمنة أيضا ابن صاحب الموصل وعز الدين جردك النورى وعلى ميسرته صاحب سبخار وصاحب الجزيرة وتوفي الدين وابن المشطوب سيف الدين وخشيرة بن والأمراء الهكارية والحيدية والزرزارية والمهرانية وأمراء القبائل من الأكراد ورجال الحلقة الخاصة وافقون في القلب وضرب السلطان خيمة لطيفة بقرب الخروبة على تل مشرف وفي مرج عكا عين غزيرة الماء يجري منها نهر كسبى إلى البحر فصار والفرنج ذلك اليوم سرقى النهر حتى وصلوا إلى رأس الماء وشاهدوا مواقف الهاجين إلى الهجاء فأنحرفوا إلى غربى النهر ونزلوا واعتزوا بالاحتراز واعتزلوا فانقض السلطان اليهم الجاشيه وانتظر من الله في كسرهم المشية فاستداروا بمر كزهم وأنحنوا فيسب بالتوت رضا وبالديابيس قضا وبالنصال قرضا وبالسنة وخزوا وحضا وقضوا فيهم من حق الجهاد سنة وفرضا وكان المراد أن يحموا فيشوزوا حتى يلقاهم ويؤيروا فصاروا ماكنهم وأصبحوا يوم الأربعاء راكبين وعن سبيل اللقاء ناكبين ووقفوا على صهوات الخيل إلى ضحوة النهار والراجل محدق بهم كالأسوار وأحباشا تدرق برؤسهم حتى كادوا يخاطونهم وأرادوا يبايسطونهم والسلطان بمد الرماة بالماء والكمال كالبكاه وهم ثابتون ثابتون ساكنون ساكنون ونحن نقول لعلهم يحملون ويغضبون فيجهاون فئة كن من تفصيل جلتهم بجلتهم وتفرق جماعتهم وأحس العدو بالضعف وأنه متورط في الختف فأنجسوا بالجزهم عن الدفاع إلى الاندفاع وساروا عاندين على هيئة الاجتماع والنسر عن يمينهم والجزع يسارهم وقد اتفقوا أن صرح منهم الثبات بانكسارهم وأحباشا حول اليهم ومن وراءهم يغرقونهم في دمائهم ويشاونهم ويقولونهم وينهلونهم من ماء الحديد ويعلونهم وهم يغرقون في سكون ويتظاهرون في كمن ويشدون في وجود ويتلهبون في خلود وكلما صرع منهم قتل جلوه وستره وطموامد فنه وطمره حتى يخفى أمرهم ولا يصح لدينا كسرهم ونزلوا لسلالة الخبس على جمر دعوق وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق وأبلى المساون في ذلك اليوم في الجهاد بلاء حسنا وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا مكا وبذل أياز الطويل هذا اليوم جهدهم وفل في قل جهدهم حده وكذلك سيف الدين يازكوج عام في جزهم وقام بأمرهم وأصبحوا يوم الخميس إلى نارالوطيس ووصلوا إلى مرزهم ولم يحصلوا على غرضهم ونقص منهم خلق وعدنا إلى الخيام ظافرين نظفرا الكرام فحين بذل الكفر وعز الاسلام وعرف الفرغ في مشاق خزيم واخفاق سعيهم فاحتزروا من الهلكة وما عادوا إلى مثل هذه الحركة قال القاضي وكانوا قد جعلوا رايهم سورا لهم بضرب الناس بالزوروك والنشاب حتى لا يترك أحدا يصل اليهم إلا بالنشاب فانه كان يطير عليهم كالجراد وخيالهم يسرون في وسطهم بحيث لم يظهر

كتاب (١٨٠) الروضتين

منهم أحد في ذلك اليوم أصلا وعلم العدو مرتفع على عجلة وهو مغروس فيها وهي تحبب بالغال وهم يدنون من العلم وهو عال جدا كالمنارة خرقة يابض ملج بحمرة على شكل الصليبان ولز الواساثرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهيرة إلى قبالة جسر دوق وقد ألجمهم العطش من شدة الحر وأخذ منهم التعب وأخذت منهم الجراح وكان الفعل معظمه للعلقة المنصورة في ذلك اليوم فانهم أذاقوهم طعم الموت وجرح منهم جماعة كما ياز الطويل فانه قام في ذلك اليوم أعظم مقام يحكى عن الأوائل وجرح جراحات متعددة وهو مستريح على القتال وجرح سيف الدين ياز كوج جراحات متعددة وهو من فرسان الاسلام ومحجبه عنه وله مقامات متعددة وجرح خلق كثير في ذلك اليوم وعزم السلطان في تلك الليلة على كبس بقيتهم في الخيم وكتب الى البلد يعرفهم ذلك حتى يخرجواهم من ذلك الجانب وتغن من هذا الجانب فلم يصل من أهل البلد كتاب فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب فلما أصبحوا كلف السلطان الناس عن القتال خشية أن يغتالوا فان العدو كان قد قرب من خيمه ووقف الاطلاب في الجانب الشرقي من النهر يسير قبالة العدو حتى وصل الى خيمه وكان لهم فيها اطلاب مستريحة فخرجت على البركة الاسلامي وحملت عليهم وانتشب القتال بينهم فقتل من العدو وجرح خلق كثير منهم شخص كبير فيهم مقدم عندهم وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد الى حافره وكان عليه لبس لير مثله وطليبه من السلطان بعد انقصال الحرب فدفع اليهم حشته وطلب رأسه فلم يوجد وعاد السلطان الى خيمه واعيد الثقل الى مكانه وعاد كل قوم الى منزلتهم وكان عماد الدين زنكي غائبا بنفسه مع الثقل لمرض كان به وبقي عسكره فعاد وقد أفلتت حماه وبقي التياث من اراج السلطان وهو كان سبب سلامة هذه الطائفة الخارجة لكونه لم يقدر على مباشرة الامر بنفسه ولقد أرى بمرجه الله وهو يبكي في حال الحرب كيف لم يقدر على مباشرة القوم ورأيناه وهو بأمر أولاده واحد بعد واحد بصاحفة الامر ومخاطبة الحرب ولقد سمعت منه وقال لا يقول ان الوخم قد عظم في مرج عكا بحيث ان اموت قد كثرت في الطائفتين فأشدته تمثلا

أقتلاني وما لك * واقتل مالكامي

بريد بذلك اني قد رضيت بأن اتلف اناد اتلف أعداء الله وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس العساكر الاسلامية وكان مرض السلطان هو أحد الاسباب الحاصلة للفرنج على هذه الحركة منضمما الى كثرتهم وشدة الغلاء والجذب عليهم

(فصل) في وقعة الكمين وغيرها ودخول البذل الى عكا قال العماد لما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوال انتخب السلطان من اجناده عدته وكثر لهم العدده وأمرهم أن يكونوا في سفح تل هوشالي عكا بعيد من عسكر العدو بقرب المنزلة العادية القديمة عند الساحل فكمجنوا تلك الليلة فلما أصبح الصباح ركب منهم عدة يسيرة وساروا نحو الفرنج وصلوا عليهم وأغاروا فاستقبلهم الفرنج فخرج اليهم زهاء أربع مائة فارس هكذا قال العماد في البرق وقال في الفتح مائة نظاري وكذا قال ابن شذاد ما تافارس وطمعوا في المسلمين فتأخروا قدامهم قليلا قليلا حتى أوصلوهم الى الكمين فخرج عليهم أسد العرب وقتلوا وأسرُوا واستولوا عليهم بأمرهم فخرج منهم ناج ووقع في الاسر مقدمون أكثر منهم خازن المال وجماعة من الافرنسية وركب السلطان فرجا بهذه البشارة ووقف على نل كيسان وقد توافقت اليه الاسرى والاسلاب فترك الاسلاب والخيول لاخذها وكانت مقومة بأموال عظيمة فلما عاها رطافا لا تردأمره فيها وجلس وأحضر الاسرى واسطهم وأطعمهم وكساهم وأذن لهم فان يسير وغنائهم لاحضار ما يريدون احضاره ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال وحفظهم بالقيد الثقال قال القاضي ابن شذاد ولما هجم الشتاء وهاج البحر وأمر العدو من أن يضرب مصاف وان يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الامطار وتواترها أذن السلطان للعساكر في العود الى بلادها ليأخذوا نصيبا من الراحة فسار عماد الدين صاحب سنجار خامس عشرى شوال وعقبه ابن أخيه صاحب الجزيرة بعد ان أفضى عليهم ما من التثريب والانعام والتحف ما لم ينعمه على غيرهما وسار عماد الدين ابن صاحب الموصل في أول ذي القعدة مشرفا مكر ما سار الظاهر في الحذر سنة سبعم وثني الذين في صفر منها ولم يبق عند السلطان الا نفر يسير من الامراء والخلقه الخاصه قال العماد واشتغل السلطان بادخال البذل الى عكا وحل المير والذخائر وأخرج من كان بها من الامراء لعظم شكائهم

في أخبار (١٨١) الدولتين

من طول المقام بها ومعاناة التعب والصبر وملازمة القتال ليلًا ونهارًا وكان مقدم البذل الداخِل من أمراء سيف الدين المشطوب دخل في سادس عشر المحرم سنة سبع وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الأمير حسام الدين أبو الهيثم وأصحابه ومن كان بهما من الأمراء ودخل مع المشطوب خلق من الأمراء وأعيان من الخلق وتقدم إلى كل واحد أن يصحب معه مئة سنة كاملة وانتقل العادل بمسكرا إلى حيفا على شاطئ النهر وهو الموضع الذي نجل منه المراكب وتدخل إلى البلد وأخرجت فخرج إليه فأقام ثم بحث الناس على الدخول وتحرس المبر والنخار ثلثا تطرق إليها من العدو ثم تغر ضها وكان مما دخل إليها سبع بطس مملوءة ميرة ودخار ونفقات كانت وصلت من مصر وكان دخولها يوم الاثنين ثاني ذي الحجة فأنكسر منها مراكب على الصخر الذي هو قريب الميناء فارتقل كل من في البلد من المقاومة إلى جانب البحر ليلقي البطس وأخذ ما فيها ولما علم العدو انقلاب المقاومة إلى جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم ووزعوا على البلد من جانب البرز حفة عظيمة وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم كاشاء الله تعالى وأدركهم أهل البلد قتلوا منهم خلقا عظيما وعادوا خائبين خاسرين وأما البطس فان البحر هاج هيبا عظيما وضرب بعضها ببعض على الصخر فهلكت وهلك جميع ما كان فيها وهلك فيها خلق عظيم قيل كان عددهم ستين نفرا وكان في ميرة عظيمة لوسلت لكفت البلد سنة كاملة ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم وخرج السلطان لذلك حرا شديدا وكان ذلك أول علام أخذ البلد وقال العادل ما دخل الشيا وعصفت الأهواو وقع في سفن الفرنج الكسر أنفذوها إلى الجزائر لا لحبسها وضاروا عليها من احتياط البحر وقال في الفتح نقل الفرنج سفنهم خوفا عليها إلى صور فربطوها بها فغلا وجه البحر من مراكبهم وحصل الأمن فيه من جانبهم وكان أصحابنا في البلاد قد ملوا فشكوا ضررهم وخسرهم وكانوا زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدم وجندى وأسطول وبحري ومتعش وتاجر وبطل وعلمان ونواب وعمال وقد تغر عليهم الخروج فرأى السلطان أن يسفح لهم فيه رقابهم ورأفهم وأفكر أن في ذلك مخافة وأفهم وأشير على السلطان بترتيب البلد وتكفل العادل بذلك وانقل بحمجه إلى سنجع جبل حيفا فاقطع النهر وتقدم بجمع السفن للنقل واجتمع المنتقلون بالساحل على الرمل في نجر أمراءه انتقل وكان الرأي إزاحة علة المقيمين فانهم قد جرت أروا صبروا وخبروا وهم كنفس واحدة وكانوا في ثروة وكرم وغنوة وفهم أبو الهيثم السمين وله اتباع وأشياع وله في شرع السماحة اقتداء السلطان وأوضاع ولعله أنفق من ماله في تلك السنة خمسين ألف دينار فلما فسح لهم في الانتقال لاجل الاستبدال انتمر ذلك الضم وانتثر ذلك النظم ودخل إلى عكا من لم يجتر حصارها ولم يجتر منافعها ومضارها وما نبت من كان مقبلا بها إلا الأمير بهاء الدين قراقوش ودخل عشرين مقدما وأميرا شبه المكرهين عوض ستين واستخدمت الرجال وأنفقت الأموال وقضاوت الداخلون والخارجون فلاحزم وقع الوهن وقضى الأمر وتكفل بالداخلين المشطوب وضاع الزمان وتعذر لا مكان يعود مراكب العدو فلم يستمر البلد ما كان يحتاج إليه من الرجال والأموال فان كل من غير للدخول كرهه وصار يتوسل في أن يعفى ويسدل في نفسه الفداء ثم ما حقت كلمة الدخول على من تعين له استهوا زمانا يتبرأون فيه للدخول ولا ينفذ قضاء الله تعالى أسباب لا بد من وقوعها

(فصل) في باقي حوادث هذه السنة قال العادل في ليلة سابع ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا فانكسر النغروب ودار الفرنج إليها لجاه أهل البلد وسدوها بصدرهم وفاتوا عنها إلى أن بنوها وعادت أقوى مما كانت وفي ثاني ذي الحجة هلك ابن ملك الألمان وكند كبير يقال له كند بنياط ومرض الكندهرى وصار يموت من الفرنج كل يوم المائة والمائتان وحزن الفرنج على ابن ملك الألمان حزنا عظيما واشعلوا نيرانها ثلاثة بحيث لم تنسق خيمة الاشتعل فيها الناران والثلاثة بحيث بقي عسكرهم كله راتق وحصل للمسلمين غنائم أخر كثيرة في سرايا مريه وأساطيل بحريه ومن جهة ذلك ملوطة مكللة بالؤلؤة وملوطة وازرار الجواهر من بوطه قيل انها من ثياب ملك الألمان وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع البناوا والوال السلطان نحن نخوض البحر في برا كس ونكسب من العدو ويكون الكسب يائنا وبين المسلمين فأذن لهم في ذلك وأعطاهم مراكب وسواهم المركب الصغير فركبوا فيه ونظروا إلى مراكب التجار العدو بضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة فأسرهم

كتاب (١٨٢) الروضتين

وكبسوهم وأحضر وهم بين يدي السلطان فأعطاهم السلطان جميع ما غنموه قال العماد فلما أكرموا بهذه المكرمة
 انوا على اليد المشجمة وأسلم منهم شطرهم وأحضر وامأندة فضة عظيمة وعليها مكتبة عالية ومعها طبق بمائلها في الوزن
 ولوزنت تلك الفضيات لقارب فنظروا فأبجأها السلطان طرفه احتقارا قال واستشهد في عكاسبعة من الأمراء
 منهم الأمير سوار والتقى في هذه السنة شواني المسلمين بشواني الفرنج في الجعر فأحرقت للكفر شواني رجلاها وكان
 عند العود تأخر لسان شيتي مقدمه الأمير جمال الدين محمد بن أرككز فأحاطت به مراكب العدو فتواقع ملاحوه
 إلى الماء وسلموه إلى البلاء فقتل وصبر فعرضوا عليه الأمان فقال ما أضع يدي إلا في يد مقدمكم الكبير فلا يخاطر
 الخطير إلا مع الخطير فجاء إليه المقدم الكبير ووطن أنه قد حصل له الأسير فعاقره وعاقته وقوى عليه وما فارقته
 وودعها في البحر وغرقا وتراقفا في الجمام وانتقا وعلى طريق الجنة والنار افترقا واستشهد أيضا الأمير نصير الجيديد
 قال وفي تاسع جمادى الأولى قتل القاضي المرتضى بن قريش الكاتب في خيمته قتلته شريك له في دار بنا بلس
 أرادته على بيعها وخرج من خيمته فوجد قاذي نابلس فقتله وضربه وما أمهله ومرا ليجو فأدرك وضرب بمودخيمة
 فأهلك واستكتب السلطان أخا المستشهد مكانه فلبى في الاحسان مبدانه قال وفي هذه السنة ورد كتاب سيف
 الاسلام أمي السلطان من اليمن يذكر استيلاءه على صنعاء واستنابة ولده شمس الملوك فيها قال ووصل القاضي
 الفضل من مصر إلى المعسكر المنصور في ذي الحجة وكان السلطان مشوقا لقدمه وطالت مدة البسب لعينته عنه
 سنتين على أن أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبه وقد جمع الملك العزيز بمقامه هبة ومحبة وكان السلطان شديد
 الوثوق بمكانه دائم الاعتماد والاستناد على احسانه وإلى اركانه فان استقدمه مخاف على ما وراءه من المهام وان تركه
 نال وحشة التفرد بالقضايا والاحكام وكان يكاتبه بشرح الاحوال يستشير والنجاوين مترددون بالمكاتبات
 والمخاطبات والاستشارة في المهمات فوصل إلى القدس واعتاق بنو إلى الامطار ثم وصل في ذي الحجة ورجع
 الفضل واجتمع الشمل واستأنس الملك بصاحب تديره وتأسس ركنه برأى مشيره قلب وفي جمادى الاولى من
 هذه السنة توفى بالموصل فاضى الفضاة محي الدين أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري وقد
 أننى العماد الكاتب عليه في الخريدة ثناء كثيرا وأشد له اشعار احسنه منها في التوحيد

قامت باثبات الصفات أدلة * قصمت ظهورا رأسه التعطيل
 وطلائع التنزيه لما أقبلت * هزمت ذوى التشبيه والتخييل
 فالحق ماصرا ليه جيعنا * يادله الاخبار والتسجيل
 من لم يكن بالشعر مقتدىا قصد * ألقاه فرط الجهل في التفضيل

وله في مدح الصحابة رضى الله عنهم

لا تمى في هوى العجا * بقار جمع إلى سقر * لا بلغت النى ولا * نلت من رفضك الوطر
 كيف تنهى عن حب اقوا * هم السمع والبصر * وهم سادة الورى * وهم صفوة البشر
 فأبو بكر المقعد دم من بعده عمر * ثم عثمان بعده * وعلى على الأثر
 أبا الرافضى حسبك فالحق قد ظهر

ثم دخلت سنة سبع وثمانين هـ فيها وصل إلى الفرنج ملك أفرنجيس وملك انكشيرة وغيرها وأخذت عكا
 الله فتحها قال العماد والغم في هطلانه والبحر في هيجانه والسلطان مقيم بقمه على شفرعهم ولطف الله به قد
 خص وعم والعاذل مخيم قاطع نهر حيفا على الرمل وسفن البذل إلى عكا في البحر متصلة السبل والفرنج مسجونون
 على الحصار محزونون من الاحمار ونوب البرك راتبه ووظائف الجهاد مواظبه ووصل من الدوان العزيز مثال
 ومعهم مكتبة للملك الفضل وفيها اكرام واجلال ومفضل وافضال وفي ثالث صفر رحل تقي الدين لتسلم البلاد التي
 أضيفت إليه شرقى الفرات وكان له بالشام المعره وجاه وسلبه وجبله واللاذقية وبالجزيرة ديار بكر وحران
 والزها والموزر وبميساط وضياعا وميا فارقين وحصونها واعمالها وقلاعها وسار على انه يرجع عن قريب فأبطأ
 ونشوق إلى افتتاح ما يجاوره من البلاد وسار إلى ميا فارقين فكان السلطان يتسبب ما جرى من استيلاء الكفار على

في أخبار (١٨٣) الدولتين

عكا بعد قضاء الله تعالى الى غيبته فانه تأخرت عساكر تلك البلاد الشرقية لخوف مضرتة وجور مجاورته وسيأتي ذكر وفاته في آخر السنة ووصل كتاب المجاهد أسد الدين شيركوه انه أغار على جسر للفرنج ببطرابلس فاستاقه ولم يطق الكفار لحاقه واقطع لحاصنه من ربعائه رأس تلف في الطريق منها أربعون وغنم ابقار وغنما وأنفذ للامام منها بغلة وذلك رابع صفر وفي ليلة هذا اليوم ألقى حجر مجكلا للعدو على الزيب فكسرتة وكان فيه خلق عظيم منهم ففرق بعضهم وأسرى بعض وامر أنان سينا وفي ليلة أول ربيع الأول خرج أصحابنا من البلد وجمعوا على العدو وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخذوا منهم من خيمهم جماعة من ائمتنا عشرة امرأة وفي ثالث ربيع الأول كان الزيبك للجلقة السلطانية وخرج اليهم من العدو خلق وجرى بينهم وقعة شنيعة وقتل فيها من العدو جماعة منهم مقدم كبير ولم يبق من المسلمين الا خادم روي صغير عثريه في الجملة فرسه يسمى قراقوش وكان شجاعا له وقعان وفي تاسع ربيع الأول بلغ السلطان ان العدو يخرج منه طائفة للاحتماس فأمر العادل أن يكن بالعسكر خلف التل الذي كانت فيه الوقعة المعروفة وسار هو فكن وراء تل العياضية ومعه من أولاده الصغار والعاضي الفاضل وانذر الفرنج فلم يخرج منهم احد ووصل في اثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون اسيرا من الفرنج أخذوا في بيروت فيهم شيخ كبير هرم لم يبق في نفسه ضرس ولم يبق فيه قوة الا مقدار ما يتحرك فسأله عن عيشته فقال للبحج الى قامة وبني وبنين بلادي مسيرة أشهر فرق له وأطلقه واعاده الى العدو راكبا على فرس وطلب أولاده الصغار ان ياذن لهم في قتل اسير فلم ياذن وسئل عن ذلك فقال لثلاثة اموال الصغر فسفل الدم ومهون عليهم وهم الا أن لا يغرقون بين المسلمين والعسكر ثم لما اقبل الربييع توفات العساكر وفاء بجموعه ما فوصلت في شهر ربيع الأول فأقول من قدم الامير علي الدين سليمان ابن منذر صاحب قلعتي عزازو وبقراس وهو شيخ له رأى وتجر به ومنزلة كبرى ومروية والملك الاحب صاحب بعلبك وبدر الدين مودود والي دمشق في راجلهم وابطالهم وفي كل يوم يقدم امير بعد امير والله يتولى التدبير وكان قد شاع الخبر بأن ملوك الفرنج واصلون وهم حاشدون حافلون فوصل ملك افرنيس فليب في عدة من عبدة الصليب ثاني عشر ربيع الأول في ست بطس عظام مملوءة بقوارس وذوى اقدام قتلنا ما حبل الماء الا اهل النار وما أجلب للدواب والاندبار وكان عظيم ما عندهم من كبار ملوكهم يتقادون له بحيث اذا حضر حكم على الجميع وما زالوا يتواعدونه حتى قدم وصحبهم من بلاد باز عظيم عنده هائل الخلق ايض الا ان نادر الجنس وكان يعزوه ويحببه جبا عظيم فطار من يده حتى سقط على سور عكا فاصطاده اصحابنا وأنفذوه الى الاندلسان وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا قال القاضي بن شداد لقد رأيت وهو يضرب الى البياض مشرق اللون ما رأيت بازيا احسن منه قال العماد وكان مع هذا الملك باز أشهب كما عند ارساله ما رتل به ففارقوه يوم وصوله بحيث يحجز عن حصوله وكان في ظن الفرنج انه يقدم في جمع جم فلما رأوا جمعه قليلا سقط في أيديهم فوعدهم بما لده خلفه قال القاضي وقدم بعده كندفرو وكان مقدما عظيم ما عندهم مذكورا كان حاصر حماه وحارب عام الزملة وفي ثاني عشر ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية ان جماعة من المستأمنين تزلوا ناحية من جزيرة قبرس في عيد لهم وقد اجتمع جمع كبير في بيعة قريبة من البحر وانهم صوامعهم صلاة العيد فلما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من كان في البيعة من الرجال والنساء عن آخرهم حتى القيس وجلوهم الى مراكبهم وساروا بهم الى اللاذقية وكان فيهم سبع وعشرون امرأة وكانوا قد اغلقوا ابواب الكنيسة عليهم لئلا يفلتوا منهم وأسروهم بأسرهم وكنسوا جميع ما في الكنيسة من الامتعة والاغلاق النفيسة واقسموها ووصل الى كل واحد على ما قيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقية كذا في كتاب القاضي وقال العماد في الفتح وتيل حصل لكل واحد منهم على كثرتم أربع مائة درهم وهجم جماعة من العسكرية على غنم العدو فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا وركبوا في طلبها بأسرهم بنخلهم ورجلهم في أثرهم فلم يظفروا باطائل ولم يرجعوا بجاصل قال العماد كان عز الدين سامة متولى بيروت ولم يكن لراكب العدو بد من الجواز بها أو بقر بها واذا عبرت أخذت وان كانت مستعدة تلحق بها فقم هو ورجاله مغامرات خلدت له ادخار الغني وكثرت في البحر غزواته ووصل ملك الانكليزية الى قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخر واشتغل بها عن الوصول الى عكا حتى أخذها عنوة من صاحبها وكانت مقدمات سفنه قد وصلت فاستولى سامة على

خمس منها مملوئة رجالا ونساء وأموالا وخيلا وكان في الزيب وهو شمالي عكا طائفة من المسلمين مجهزون بالسفن الداخلة إلى عكا ويقطعون الطريق على الفرنج قال القاضي وكان للمسلمين لصوم يدخاؤون إلى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون فأخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر فلما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة حتى وصل خبرها إلى ماوكم فقالوا لها إن السلطان رحمه القلب وقد أذاك في الخروج إليه فأخرجوا طليعه منه فانه رثه عليك فخرجت تستغيث إلى الزيب الأسلاوي وأخبرتهم بواقعتها فطلقوها وأنفذوها إلى السلطان فأثنته وهو راكب على تل الخروبة وأنا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم فبكت بكاء شديدا ومرضت وجهها في التراب فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها ودعمت عينه وأمر بأحضار الرضيع فقصوا وجوده قديس في السوق فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذته منه ولم يزل واقف راحة الله عليه حتى أحضر الطفل وسلم إليها فأخذته وبكت بكاء شديدا وضجته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويكفون وأنا واقف في جملتهم فأرضعته ساعة ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بمسكهم مع قطعها قال فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة للجنس الانس اللهم انك خلقته رحيمًا فارحمة واسعة أمين قال وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين ابن البكرى وكان مقدما من أمر الموصل وصل مفارقاتهم طالبا خدمة السلطان

(فصل) في مضايقة العدو وخذه الله لعكاسر الله ففجها واستبلائهم عليها قال الله دنا كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى زحف الفرنج إلى عكا ونصبوا عليها سبعة مجانيق ووصلت كتب من عكا إلى السلطان بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم فركب السلطان بعسكره وكان هذا أبه معهم كما كانوا البلد ناهيهم فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر وإذا رجع عنهم عادوه وكان علامة يمين السلطان وأهل البلد أنه متى زحف الفرنج عليهم دقوا كؤسهم فتدق كؤس السلطان أجابه لهم واستبعد السلطان منزلته فتحول إلى تل العياضية ناسع جمادى الأولى ووصل ملك الانكليز في عشرين جمادى الأولى من قبرس ومعه خمس وعشرون قطعة وهو في جمع شالك وجر ذلك في القبر من غير البلاء الأول هذا ومجانيق الكفر على الوعى مقبحة والرمي مدبحة وتمكن الفرنج من هبهم من الخندق فدنا منه دنوا الخندق وشروعوا في هجمه واسرعوا إلى طمه وداموا يرمون فيه جنث الاموات وجيف الخنازير والدواب النافقات حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ويحلقون اليه موتاهم وأصحابنا في مقابلتهم ومقاتلتهم قد انقسموا فرقتين واقتروا قاصعين ففرق بيني الخندق وما ألقى فيه وفريق يقارع العدو ويلاقيه قال القاضي ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومباغتتهم في طم خندقه انهم كانوا يلقون فيه وفي دوابهم وكانوا إذا جرح منهم واحد جرحه مئنة مئنة القوة فيه وانقسم أهل البلد أقساما قسم ينزلون إلى الخندق ويقطعون الموى والدواب التي يلقونها فيه قطع السبل تقطعوا قسم ينقلون ما يقطع ذلك القسم لا يلقونه في البحر وقسم يذوبون عنهم ويدافعون حتى يتكفون من ذلك وقسم في المخنمقات وحراسة الاسوار وأخذ منهم التوب والنصب وتواترت شكايتهم من ذلك فالهذ البلاء لم يتبل به أحد ولا يصبر عليه جلد هذا والسلطان رحمه الله ويقطع الزحف عنهم والمضايقة لهم على أخذاتهم بنفسه ونحوه وأولاده ملاونهم حتى يشغلهم عن البلد وصوبوا مخنمقاتهم إلى برج عين البقر وتوارت عليه أشجار المخنمقات ليلانها راحتي أثرت فيه الأثر البين وكلمه ازدادوا في قتال البلد ازداد السلطان في قتالهم وكيس خنادقهم والمجموع عليهم ودام ذلك حتى وصل ملك الانكليز قال وفي السادس عشر جمادى وصلت بغصة من يبرون عظيمة هائله مشهورة بالآلات والمير والرجال والابطال المقاتله وكان السلطان قد أمر بتعيينها في يبرون وتسييرها ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما حتى تدخل إلى البلد من أمة العدو وكان عدده رجاله المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا فاعترضها ملك الانكليز في عدة شواقي قبل انهما كانت أربعين قطعة فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقتلوا وقتلا شديدا وقتل من العدو عليا خلق عظيم وأحرقوا على العدو شائبا كبيرا فيهم خلق كثير فلهذا كوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة وكان مقدمهم رجلا جادا شجاعا مجتري في الحرب اسمه يعقوب من أهل حلب فلما رأى أمارات الغلبة عليهم قال والله لا تقتل إلا عن عز ولا تسلم إليهم من هذه البطسة شيئا فوقفوا في البطسة من جوانبها بالاعاول يمدون منها حتى فحقوها من جانب أبوابها فمسلات ماء وغمر في جميع من فيها

وما يفهم من الآلات والمير ولم يظفر العدو منها بشئ أصلا وتلقف العدو بعض من كان فيها وأخذوه إلى الشواني من البحر وخلصوه من الفرق ومشاوله وأخذوه إلى البلد ليخبرهم بالواقعة وخن الناس لذلك خنا شديد أو السلطان يتلقى ذلك سيد الاحتساب في سبيل الله تعالى والصبر على بلائه قال وكان العدو والمخندول قد صنع دبابه عظيمة هائلة أربع طبقات الأولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس وكانت تعمل على السور ويركب فيها المقاتلة وخاف أهل البلد منها خوفا عظيما وحدثتهم نفوسهم بطلب الأمان من العدو وكانوا قد قرروا من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمس أذرع على ما شاهدوا أخذ أهل البلد في تواتر ضربها بالنفط ليسلا ونهارا حتى قدّر الله تعالى حريقها واشتعال النار فيها وظهورها ذابا بنار نحو السماء واشتدّت الاصوات بالكبر والتهليل ورأى الناس ذلك جبر ذلك الوهن ومحو لذلك الأثر ونعمة بعد نعمة وإيناس بعد بأس وكان ذلك في يوم غرق البطسة قال العماد فكان ذلك تسميتا لتلك العطسة ثم جرى بعد ذلك عدة وقعات في هذا الشهر وهو جادى الأولى وهجم المسلمون خيم العدو ونهبوها ووصل رجل كبير من أهل ما زبدان يريد الغزاة فوصل والحرب قائمه فعمل حيلة استشهد فيها في تلك الساعة ولم ترل الأخبار ما وصل من أهل البلد ما يستحال أمر العدو والشكوى من ملازمهم قتالهم ليسلا ونهارا وذكر ما به الهجم من الناس العظيم من تواتر الأعمال المختلفة عليهم من حين قدوم الانكثري الملعون ثم مرض مرضا شديدا الشفي فيه على الخلال وتخرج الأفرنيس ولا يزيدهم ذلك إلا أصرا وعقوا وهرب إلى السلطان خادمان ذكر انهما لا ختمت لكثيرة واهما كان يكتمان إيمانهما فقبلهما السلطان وأكرمهما وهرب أيضا الماركيس منهم إلى صور وكان قد استشهد منهم أن يخرج جوامكها عن يده قال العماد في البرق ولما أعوزت الفرج الحيسل وأججزتهم تعاضل ديارهم والجل وذلك ان ابرجهم الحسية احرقت وستائرهم ودباباتهم وكباشهم وزعت ومزعت ومزقت فأما واذم خيامهم صوب مكان لا من التراب مستظيلا ورفعوه كثيما هياثم تقبلوه وحولوه كانوا بقسوة ورأه ويجولون إلى قدامه ترابه ويقربون إلى قرب البلد فباه فهم من خداه من النكبات محجوبون بسبون ويزبون وينرون الحرب الزبون والاسل المخول إلى البلد قد أعيما على أهل الجبل لا تعمل فيه النار ولا يصل إلى دفعه إلا فتدحرج حتى صار من المدينة على نصف غلوة سهم ورعى بكل جمر وزجهم هائليدي في كل يوم الانرا وما يجترق كل وقت الا خطبوا حريا وكان الاصحاب يخرجون من البلد إليه ويقاوتون عليه وبطيفة فوجول الله حاليه ومن كتاب فاضلي إلى الديوان (ما قطع الخادم الخدم إلا انه قد اضحروا سأم من المطالعة بخير هذا العدو الذي قد استعمل أمره واستمره فان الناس ما سمعوا ولا رأوا أعدوا حاضرهم محصورا عامرا مغمورا قد قصص بخنادق يمنع الجائر من الجواز ويعوق الغرض عن الانتهاء ولا تقصر عذتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل وقد أنفاهم إلى التل والاسر واكتهم الحرب ولقمهم النصر وقد أمدهم البحر بالجار وأعان أهل النار واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والالسنه الانجليزية من لا يحصر معدوده ولا يصور في الدنيا وجوده فها أحفهم يقول أي الطبيب

تجمع فيه كل لاس وأمة * فهاهم الخشب الا التراجيم

حتى انه اذا أمر الاسير واستأمن المستأمن احتج في فهم لفته إلى عذرتهم بغير نقل واحد عن آخر ويعول ثان ما يقول أول وثالث ما يقول بان والاصحاب كانوا ملوا وصبروا إلى ان حروا وتجلدوا إلى ان تبدوا والعساكر التي تصل من المكان اليه لا تفصل الا وتكمل ظهرها وقل وفقرها حتى يلبس بكار صدها ولا تسفح الا يطلب الدستور ويصير مخبرها مضرا بالعدة عند العدو والمخندول ولهم قاتلهم الله نوع في المكائد فانهم فالتوا مرة بالابرجه وأخرى بالمجنقيات وردا في الدبابات وبابعة بالكباش وأوتة بالذواب وبوما بالنقب وليسلا بالسراريات وطورايظم الخنادق وأما نصب السلالم ودفعه بالزخوف في الليل والنهار وماله في الجرب بالراكب ثم شرعوا فأقاموا في رسم خيامهم حاطا مستظيلا يشبه السور من التراب ونلا تشبه الابرجة مدورة ورفعوها بالاشباب وعالوها بالجاراة فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها وهم يتقدمون أول أول وترفع حالها بعد حال حتى صارت منه كنصف غلوة سهم وقد كان الجبر والنار تؤثران في أبرجة الخشب وهذه ابراج وستائر للرجال والمجنقيات

من العطب لا تؤثر فيها الخسارة الزاميه ولا تعمل فيها النار الحامية) قال ووصل في آخر جمادى الاولى من العساكر
الاسلامية مجاهد الدين بركةش ومعه عسكر سنجار وفي ثاني جمادى الآخرة ابن صاحب الموصل وجماعة من
أمراء مصر والقاهرة كعلم الدين كرجي يوسف الدين سقر الدوى وغيرهما من الاسديين والناصرية وأما عساكر
ديار بكر فانهم تأخروا واعتذروا بالخوف من جوارتي الدين وكان قد تعرض للسويدا وغيره ما صعب ذلك على السلطان
وقال هذا من عمل الشيطان وفي مثل هذا الوقت يتعرض لهذا المقت والى أخاف عليه في هذه السنة حيث أساء
عندما كان الحسنه واستدعى من الانكساري بحيث شغل الافرنج بمرضه عن الزحف وكان ذلك خيرا من الله
عظيمة فان البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما وهدمت الخبشات من السور قد اقامه الرجل فكان في هذه
الفترة للبلد بقاء رقيق وزوال فرق وانتعاش عثره وانجبار كسره قال القاضي واللصوص يدخلون عليهم الى
خدمتهم ويسرقون أشقتهم ونفوسهم وبأخذون الرجال في عافية بأن يجثوا الى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه
السكين ويوقظونه ويقولون له بالاسرار ان سلمت ذبحناك ويحملهون ويخرجون به الى عسكر المسلمين جري ذلك
مرارا كثيرة ثم تكررت الرسائل من الفرنج الى السلطان شغلا للوقت بالاطائل تحتة من ان ملك الانكساري طلب
الاجتماع به ثم فتر بعده أياما فجاءه رسوله يطلب الاستئذان في اهداء حوارح جاءت من البحر ويذكر انها قد ضعفت
وتغيرت وطلب أن يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى ثم تهدى ففهم انه يحتاج الى ذلك لنفسه لانه حديث عهد
بمرض ثم نفذ أسير مغربا عنده فأطافه السلطان ثم أرسل في طلب فاكهة ونخب فارسل اليه ذلك وكان غرضهم من
ذلك تفتير العزيمات وتضييع الاوقات على المسلمين وهم مستغنون بالحدس وموالاة الرمي والجلد في الزحف حتى
تبدلت قوة البلد بالضعف وتخلل السور وانهدمت السور وأهل البلد لعل عددهم وكثرة الاعمال عليهم حتى
ان جماعة منهم بقوا الى عدة لا يتأمنون أصلا ليلالوا لنهارا والعدو عدد كثير يتناوون على قتلهم واشتد ذلك عليهم
سابع جمادى الآخرة فركب السلطان بالعسكر الاسلامي ورغبهم ونحاهم وزحف على خنادق القوم حتى دخل
فيها العسكر وجري قتال عظيم وهو كالوادئ الكلي يحرك فرسه من طلب الى طلب ويحث الناس على الجهاد
ويشادي نفسه بالاسلام وعيناه قد فارت بالدمع وكما انظر الى عكا وما حل بها من البلاء وما يرى على من بها
من المصائب العظم اشتد في الزحف والحث على القتال ولم ينع في ذلك اليوم طعما البتة وانما شرب شيا أشارب
الطيب ولما هجم انليل عاد الى الخيم وقد أخذ منه التعب والكأبة والحزن ثم ركب سحرا وصحوا على ما أسوأ عليهم
وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلدي يقولون فيها انما قد بلغنا العجز الى غاية ما بعد هذا التسليم ونحن في الغد ان لم
تجملوا معنا شيا نطلب الامان ونسلم واشترى محمدر دواشا وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأذكاه في قلوبهم
فان عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ومسقى وحلب ومصر أيضا فرأى السلطان مهاجمة
العدو فلم يساعده العسكر فان الرجال من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزوروك والذباب من وراء
أسوارهم وحجم عليهم بعض الناس من بعض اطرافهم فبنتوا دواعاية الذب وحكي بعض من دخل عليهم
أسوارهم انه كان هناك واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة ينالونه بالججارة وهو برميها على المسلمين
ووقع فيه زهاء خمسين شهيدا وجرحا وهو يتلفاها ولم ينع ذلك عما هو يصددهم من الذب حتى ضربه زراق بقط فاحرقه
وربب امره عليهم ملوطة خضراء فازالت ترمي بقوس من خشب حتى جرح جماعة ثم قتلت وجلت الى
السلطان فحب من ذلك ولم يرل الحرب الى الليل وضعفت نفوس أهل البلد وتمكن العدو من الخنادق فلوها وارتقبوا
سور البلد وحشوه وأحرقوه فوقع بدنتهم بالباشورة ودخل العدو اليها وقتل منهم فهازها مائة وخمسين نفسا وكان
منهم ستة أنفس من كبارهم فقال لهم واحد منهم لا تقتلون حتى أرحل الفرنج عسكرهم بالكلية فبادر رجل من الاكراد
وقته وقل الحسة البانية وفي الغد باداهم الفرنج احفظوا السنة فانطلقكم كلكم بهم فقالوا اننا قد قلناهم فخرن
الفرنج وبلوا عن الزحف ثلاثة أيام وخرج سيف الدين المشطوب بنفسه بأمان الى ملك الافرنسيس وهو كان مقدم
الجماعة في الرتبة وقال له انا قد احدثنا منكم بلادا عدة وكانهم البلد ودخل فيه ومع هذا اذا سلونا الامان اعطيتناهم
وحملناهم الى ما منهم أكرماهم ونحن نسلم البلد ونعطيها الامان على أنفسنا فقال أرى فيكم رأيا فأغلظ له

المضطرب القول وانصرف عنه ولم يدخل المشطوب هذا الخبر خاف جماعة من كل في البلد فأخذوا لهم ركوسا وهو مركب صغير وركبوا فيه ليلا خافوا جبين الى العسكر الاسلامي منهم عز الدين ارسل وحسام الدين غمراش بن الجاولي وسنقر الوشاني وهومن الاسدية الاكابر وذلك في ليلة الخميس تاسع جمادى الآخرة فاما ارسل وسنقر فتغيبا خوفا من السلطان وأما ابن الجاولي فظفر به ورمى في الزردخانات وصكان شابا أول ما توفى والده فاقطع السلطان أقطاعاتهم وقطعها وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مدية شاشة وجهها لومنها وكان من جهة الهارب بن عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية الناصرية فشفع فيه على أنه يرضى على نفسه العودة فعاد من ليلته موثق بعد ذلك في الأسار واستشفكه السلطان بعد ستة شمانى مائة دينار ومن كتاب الى صاحب الربل مظفر الدين (لما عاين أصحابنا بالباد ماهم عاينهم من الخطار وانهم قد أشفوا على الفرر فرجاعة من الامراء عن قل بالله وثوقه وأمعى قلبه بظهوره وفسوفه ولقد خانوا المسلمين في نعرهم وباؤا وبال غدوهم وما قوى طمع العدو في البلد الا هربهم وما أربح قلوب الباقين من مقاتلتهم الاراهيم والمقيمين من أصحابنا الكرام قد استحووا من الحماة وأجمعوا انهم لا يسلون حتى يقتلوا ومن الاعداء أضعاف اعدادهم واهم يهيدون في صون نعرهم غاية اجتهدهم وكانوا يتخذون اوع الفرغ في التسليم فاشتطوا واشتطوا فصر وابتعد ذلك وصار وامتدوا أيديهم في القوم وبسطوا قنطرة يخرجونهم من الباشورة ونارة من النعرب والله تعالى يسهل تنفيذ ما هم فيه من الكروب) قال القاضي وفي سمرة تلك الليلة تركب الساعات مشعر الله يريد كس القوم ومعه المساحي والأتام الحناذق فاساعده العسكر على ذلك ونفذوا وأولوا فخطر بالاسلام كله وفي ذلك اليوم خرج من عند ملك الانكاثرة رسل ثلاثة طلبوا كافة وتجاوزوا كرواان مقدم الاستنارية يخرج في القدي يعني يوم الجمعة يتحدثون معه في معنى الصلح فأكرمهم السلطان ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه وعادوا تلك الليلة الى عسكرهم وفي ذلك اليوم تقدم الى قايماز الجمعي حتى يدخل هو وأصحابه الى أسوارهم عليهم وزجل جماعة من أسراء الا كراد كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب ولعيقهم وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرغ ونصب فاما زجله بنفسه على سورهم وفاتل عن العلم قطعة من النهار وفي ذلك اليوم وصل عز الدين جرديك النوري وسوق الزحف فائمه فترجل هو وجماعته وقاتل قتلا شديدا واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهدا عظيما قال العماد وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد منتظرا ان يخرج الامل البعيد وما عرف الساعان انه لا سلامه وان عكاعدمت الاستقامه نفذ الى جماعة عكاسرا وقال لهم خذوا من العدو جنرا واتفقوا واخرجوا ليلا من البلد او احدى وسيروا الى جانب البحر وصادموا العدو بالقهر وخلصوا البلد ما فيه وأزكوه بما يحويه ففرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستحصان ما يملكه ولم يعلم ان انتهاء مبه يملكه فائمه كروا من الماراد حتى اسفر الصباح ولم يصح ذلك في الليلة الثانية اصير السراى العلانية قال ولو صح ذلك لنجح المقصد لكن الفرغ اطلعوا على هذا السر فخرسوا الجوانب والابواب وكان سبب علمهم اثنين من غلمان الهاربين خرجا الى الملاعين وأخبراهم بجيلة الحال وعززة الرجال قال وخرج يوم الجمعة العاشر من الشهر جماعة من رسل الفرغ ونحس على الحرب وبمحاولة الطعن والضرب وفيهم صاحب صيد افطرب نجيب الدين العدل وكان السلطان يقف به في رسالات الفرغ وتردد العدل مرارا في الخطاب والجواب فلم ينصل الامر على الصواب وبذلناهم عكاعلى ما فهمادون من فهمادونا انطلق لهم أسرى بعد العدة التي يحويها قابوا غير الاشتطاط فزادناهم صليب الصليب فلم يحصل لهم به كمال الغتباط هكذا قال في البرق وقال في الفرغ ان ذلك كان يوم السبت وقال اشترطوا إعادة جميع البلاد واطلاق اسراهم من الاقياد وضعف البلد وعجز من فيه ضعفا لا يمكن تلافيه ووقف كرام أصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم وشرعوا في بناء سور يقطع جانبها حتى ينتقلوا اليه اذا شاهدوا العدو غالبا وكذا قال ابن شذاد ان ذلك كان يوم السبت الحادى عشر وقال ليست الفرغ بأسرها في الحرب وتحت كواحدة عظيمة بحيث اعتقد ان رما كان مصاف واصطفوا وخرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا واستدعوا جماعة من المماليك وطلبوا منهم العدل الزائدي وذكروا انه بعدنى الخارج صاحب صيد اطلق السلطان قد كرمخوما تقدم قال وتصبرتم نهار السبت ولم ينصل امر قال ولما كان يوم الاحد ثاني عشر اشهر وصل من البلد كتب يقول لانا قد تباينا على الميرت فاياكم تحضنوا

لهذا العدو وتلينوا له فأما نحن فقد قفنا أمرنا وذكر العوام الواصل بهذه الكتب انه وقع في الليل صوت انزعج منه الطائفتان ووطن الفرنج ان عسكر اعظميا قد عبد على عكا وسلم وصار فيه ما وادفع كيد العدو في ثلاث ايام بعد ان كان قد اشفى البلد على الاخذ ووصل من عساكر الاسلام صاحب شيزر سابق الدين وبدر الدين دلدرد ومعه تركان كبركان السلطان انفذ اليهم ذهباً ثمنه فيهم وصاحب حصن واشتد ضعف البلد وكثرت نفوسه فبقوا عوض الثلثة سوراً من داخلها حتى اذا تم اهدامها فالتوا عليه وثبت الفرنج على انهم لا يصالحون ولا يعطون الذين في البلد اسماً حتى تطلق جميع الاسرى الذين في أيدي المسلمين وتعاد البلاد الساحلية اليهم وفي يوم الجمعة سابع عشر الشهر خرج العوام وفي كتبهم ان أهل البلد ضاق بهم الامر وتيقنوا انه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العاد والاسلحة والمراكب وغير ذلك فصالحوهم على انهم يسلمون اليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والاراكيب وما تاتي ألف دينار وألفا وخمسة مائة أسير يجاهيل الاحوال ومائة أسير معينين من جانبهم يمتخارونهم وصليب الصليب على اعمهم يخرجون بأنفسهم سالمين وما معهم من الاموال والاقشة المختصة بهم وذرارهم ونساوتهم وضغوا للمركيس المعون فانه كان قد استرضى وعاد عشرة آلاف دينار لانه كان واعطه ولا يجار به ستة آلاف دينار واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه وعزم على ان يكذب اليهم في انكار ذلك عليهم فهو في مثل هذه الحال وقد جمع أمراءه وأصحاب مشورته فها أحس المسلمون الاوقار تهمته أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك ظهره نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة وصاح الفرنج صيحه واحدة وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء من الناس في ان الله واما اليه راجعون وغضب الناس به عظمه وحيرة شديده ووقع في العسكر الصياح والعيول والبكاء والحبيب وكان لكل قلب حظ في ذلك على قدر ايمانه ولكل انسان نصب من هذا الحظ على قدر دينه ونحوته واقشعت الحال على ان المركيس لعنه الله دخل البلد ومعه أربعة أعلام فأسروا فنصب علماً على القلعة وعلماً على منبذة الجامع في يوم الجمعة وعلماً على برج الداوية وعلماً على برج القتال عوضاً عن علم الاسلام وحيز المسلمون الى بعض أطراف البلد وجرى على أهل الاسلام المناهدين لتلك الحال ما كثر ان تعجب من الحياة معه قال وميت نخدمة السلطان رحمه الله عشية ذلك اليوم وهو أشد حاله من الوالدة الشكلى والوالهة الحسرى فلسيته بما تيسر من التسلية واذا كرهه الفكر فيما قد استقبله من الامر في معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف وكيفية الحال في ذلك وأعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد وانفصل الحال على ان رأى التآمر على تلك المنزلة لمصلحة فانه لم يبق غرض في المضايقة فتقدم بنقل الاثقال ليلاً الى المنزلة التي كان عليها أولاً بشفرهم وأقام هوجريه مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد فانتقل الناس في تلك الليلة الى الصباح واشتغل العدو بالاسيلاء على البلد وأقام السلطان الى التاسع عشر ثم انتقل الى النقل ووصل ثلاثة نفر ومعهما اقوش حاجب بهاء الدين قراقوش وكان لسانه فانه كان رجلاً عاقلاً مستبحراً ما وقع عليه عقد الصلح من المال والاسرى فأقامه الى ليلة مكرمين وساروا الى دمشق يبصرون الاسارى قال العباد وخرج سيف الدين المشطوب وحسام الدين حسين بن باريك وأخذوا أماناً للفرنج يعني على القطعة المقدم ذكرها قال ولم نسمع بالابالابا بالفرنجة على عكا مكرمه واعطافاً لعلهم يهزوه وعم البلاء وتم الغناء وعز الغناء وفتط الرجاء وحضرنا عند السلطان وهو مقم وبالتدبير للتعقب مهم فزينا به وسليناه وقلنا هذه بلدة ما فتحه الله قد استعادها اعداء وقتلته ان ذهبت مدينة فاذهب الدين ولاضعف في نصر الله اليقين قال ودخلوا عكا وتسولوها ولم يقفوا على الشرائط التي أحكموها فانهم منعوا أصحابنا من الخروج واحتاطوا عليهم وعلى أموالهم بجعبهم واعاقوا لهم ثم طلبوا المال لجمع السلطان وكله وأودعه خزانته بعد ما حصله وأحضر صليهم المطلوب الملبوس وأتم شرطهم المخطوب فظهرت امارات غدرهم وبدت دلائل مكرهم وفي كتاب كتيبه الفاضل عن السلطان الى شمس الدولتين منقذ وهو بالمغرب في الرسالة (لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا يعني من الفرنج الخمسين ألفاً قولاً لا بطريقة السمح بل بحوزة التمتع فانتروا في هذه السنة ملكاً فرنسيين واكتاتيرة ومالكاً آخرون في مراكب

بحرية وحاله جلاؤهم الخيول والخيالة والمقاتلة والآله وصلت كل سفينة تحمل كل مدينة وأحدثت بالفرح
ففتحت الناقل بالسلاح اليه والداخل بالميرة عليه ثم قال (وأخذ البلد على سلم كالحرب ودخله العدو ولولم يدخل من
الباب دخل من النقب وما وهننا أصابنا في سبيل الله وما ضعفنا ولا رجعنا ورأنا ولا أنصر فثنا بل نحن بمكاننا ننظر
أن يبرزوا فنبرزهم ويخرجوا فنخرجهم وينشروا فنطرحهم وينبشروا فنزيعهم وأخذنا على طرقهم وخيانتهم
من خلفهم وأخذنا بطراف خندقهم وأحوج ما مكنا إلى البحجة البحرية والاساطيل المغربية فان عار ينابها ترد
وعادتنا بها تستد والامير يبلغ ما بلغه من خطب الاسلام وخطوبه ويقوم في البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه
ويجمل العودة وقبلها الاجابة ويستحب السهم ويسبق بشري الاصابه ويشعر ان الزاية قد رفعت لنصر تقدم
به عرابه فان للاسلام نظرات الى الافق الغربي بقلها وخطرات من اللطف الخفي بهزها وبكفي من حسن الظن
انها نظرة ردت الهواء الشرقي غربا وخطرة أوهمت ان تلك المهمة لو تلب بالسفائن لاخذت كل سفينة غصبا قال العباد
وعزم ملك الافرنسيس على السير الى بلاده لاسرا اختل عليه فأخذ قسما من الاسارى وسلمهم الى المريس ووكله
في قبض نصيبه ورضى بتدبيره وترتيبه وخرج الفرح يوم الخميس انسلاخ الشهر من جانب البحر وانتشر بالمرج
ووصلوا الى الابار التي حفرها اليزك وتواقعوا مع اليزك وأمدتهم السلطان ففلقوا العدو وصرع منهم خمسون فارسا
قال القاضي وخرج خلق عظيم ولم يزل السيف فيهم حتى دخلوا خنادقهم قال ولم يزل الرسل تتدرب بين الطائفتين حتى
كان يوم الجمعة التاسع رجب فرج حسام الدين حسين بن تاريك المهراني ومعه اثنتان من أصحاب الانكلا كثيرى فأخبر
ان ملك الافرنسيس صار الى صور وذكروا الأشياء من تحسر برأس الاسارى وطبوا ان يشاهدوا صليب الصليبيون
وانه هسل هو في العسكر أو حمل الى بغداد فأحضر صليب الصليبيون وشاهدوه وعظموه ورأوا نفوسهم الى الارض
ومرغوا وجوههم على التراب وخضعوا وخضعوا عظيما ليرمشه وذكر وان المساك قد أجابوا السلطان الى ان يكون
ما وقع عليه القرار يدفع في يوم ثلاثة أى نجوم كل يوم شهر ولم يزل الرسل تتواثر في شعر بالقاعدة وتغيرها حتى حصل
لهم ما التمسوه من الاسارى والمال المختص بذلك التزم وهو الصليب ومائة ألف دينار وسمائة أسير وألفوا بقاءهم
وشاهدوا الجميع ما عدا الاسارى المعيين من جانبهم فانهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ولم يكونوا هم حتى يحصلوا ولم
ير الواطاولون ويقصون الزمان حتى انقضى التزم الاول في ثامن عشر رجب ثم أنفذوا في ذلك اليوم بطليون ذلك
فقال لهم السلطان اما ان تنفذوا الينا أصحابنا وتسلموا الذي عين لكم في هذا التزم ونعطيك كرهائن على الباقي يصل
اليكم في يومكم الباقية واما ان تعطونا رهائن على ما نسلم اليكم حتى تخرجوا الينا أصحابنا فقالوا لا نفعل شيئا من
ذلك بل نسلم ما قبضه بهذا التزم وتفتنعون بآمانتنا حتى نسلم اليكم أصحابكم فأبى السلطان ذلك لعله انهم ان تسلموا
المال والصليب والاسرى وأصحابنا عندهم لا يؤمن غدوهم فلما رأوه قد امتنع من ذلك اخرجوا خيامهم الى ظاهر
خنادقهم مبشرين في الحادي والعشرين الانكلا كثيرى وجاعة من الخيالة والرجال والتركيب وركبوا في وقت العصر
السابع والعشرين من رجب وساروا حتى أتوا الى الابار التي تحت تل العياضية ثم أحضرهم من الاسارى المسلمين
من كتب الله شهادته وكانوا نوازة ثلاثة آلاف مسلح في الحبال ووقفوهم وجعلوا عليهم حلة الترجل الواحدة قتلوه
صبرا طعنوا وضربا بالسيف رحمة الله عليهم واليزك الاسلاي يشاهدوهم ولا يعلم ما يصنعون لبعده عنهم وكان اليزك
قد أنفذ الى السلطان واعلمه بركوب القوم ووقفوهم فأنفذ الى اليزك من قواه وبعدها فرغوا منهم جل المسلمين عليهم
وجرت بينهم حرب عظيمة جرى فيها قتل وجرح من الجانبين ودام القتال الى ان فصل الليل بين الطائفتين وأصبح المسلمون
يكشفون الخال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم وعرفوا من عرفوا منهم وغشى المسلمين بذلك خزن عظيم ولم
يبقوا من المسلمين الا رجلا معروفا مقدما أوقيا أعدا للعل في عمارتهم قال العباد وطلب السلطان منهم ان يرضعهم
الداوية في قبض المال فقال الداوية ما نأخذ في الضمان فاقنعوا منهم بالقول والامان فظهر من هوى كلامه
الختلف ثم ذكر قتل الاسارى قال فشاهداهم مستشهدين بالعراعر يا مجتريين ولا شك ان الله كساهم من سندس
النعم ونقلهم الى دار المقامة في الزا المقم وتصرف السلطان حينئذ في المال وقرن بجموعه في رياء الرجال وأعاد
الاسارى الى أربابها واحتوت عليها بدمشق أيدي أصحابها وحفظ الصليب الصليب وردته الى مكانه وأعاد

الى صوانه لا لعزبل لحوانه فانه لا مصاب عندهم اعظم من استيلائنا عليه وامتداد ادينا اليه وقد بذل فيه الزوم ثم الكرج بذولا وأنفذوا بعد رسول رسولاً فاجابوا قبيلاً ولا صافوا سولا ومن كتاب عادي عن السلطان في ذلك (والكرام آجال والحرب سجال والله من المؤمنين رجال والاآن فقد نارت الحيات وهبت النخوات ووجب على كل مسلم ان يهض نصره الاسلام ويتدارك ما حدث من الكسر والوهن بالجبر والاحكام ويعيد ما وهى من عقد الفتوح الى النظام فاین ذووالافتة والحمية والهمم العلية والنفوس الايسه امايقون بمصرع من استنهد من اخوانهم اما يشورون لثاراتهم اما تبكى العيون لمن قتل من امانتهم وأعيانهم فان مصابهم عظم ومقامهم عند ربهم الكريم كريم وأراد الله بذلك تنبيه الهمم التزاده وآثاره العزائم الراكده)

(فصل) في ما جرى بعد انفصال امر عكا قال العماد عثمان الفرنج رحلت صوب عسقلان مستهل شعبان وسار السلطان في عراضهم والمسلمون يحفظونهم ويقتلون منهم ويأسرون ويحرقون ويسلمون ويسرقون وكل أسير أتي به السلطان أمر يقتله ووصلوا الى حيفا فأقاموا بها وازل المسلمون بالقصون وقدم السلطان له الى مجدلا بابا وأضحى نازلا على النهر الجاري الى قيسرية ودع الفاضل السلطان وسار الى دمشق لانهم ادركوا الفدين من الاكابر والنواب بها وبما جبنوا عن اقامة الوظائف وكان الامر الفاضلي عندهم كالامر السلطاني فاذا استشاروه خلعوا من كل تبعه ودرج وفي تسع شعبان جاء الخبر بان الفرنج ركبوا وتألبوا وهم يسرون في الساحل بالفارس والتراجل وعن يمينهم البحر وعن يسارهم الزمل وكانت التراجلة حولهم كالسور وعليهم الكبيرة النخبة والردبات السابعة المحكمة بحيث يقع فيهم النساب ولا يتأثرون وهم برمرن بالزورك فخرج خميول المسلمين وغيرهم قال القاضي ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النشاب والعمرة مفروزة وهو يسير على هيئة من غير انزعاج وشم قسم آخر من التراجلة مستريح مشون على جانب البحر ولا قتال عليهم فاذا تعب هؤلاء المقاتلة أو اتخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح واستراح القسم العمال هذا الحيلة في وسطهم لا يخرجون عن التراجلة الا في وقت الحاجة لا غير قد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام الأول الملك العتيق حفري وجماعة الساحلية معه في المقدمة والانه كجاءه والفرسيه معه في الوسط وأولاد الدست أصحاب طبرية وطائفة أخرى في الساقة وفي وسط القوم برج على بجلة وعليهم على ما وصفته من قبل يسير ايضا في وسطهم على بجلة كلانارة العظيمة وساروا على هذا المثال وسوق الحرب فائمه بين الطائفتين والمسلمون يرونهم من جوانبهم بالنساب ويحتركون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حقا عظيم لا يقطعون الطريق على هذا الوضع ويسرون سيرا رفيقا ومر اكبه تسير في مقابلتهم في البحر الى أن أتوا المائل فزولوا وكانت منازلهم قريبة لاجل الرجالة فان المستريح يمين كانوا يمحون أنفاسهم وخيمهم لقلعة الظهر عليهم قال فانظر الى صبر هؤلاء القوم على الاعمال الشاقة من غير ديوان ولا نفع وطاف الجيش حولهم من كل جانب ولهم بالنشاب وكما ضعف قسم عاونه الذي يليه وهم يحفظ بهضم بعضا والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الدلوسة ونشاب القوم تجاوزوه وليس معه الا صبيان بجنيتمين لا غير وهو يسير من طلب الى طلب يحتمهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم والصباح بالتهليل والتكبير برفع والعدو على اثبات رتبهم لا يتغيرون ولا ينحجون وجرت حملات كثيرة ورجلتهم تجرح المسلمين وخبروهم بالزورك والنشاب الى أن أتوا الى نهر القصب فقتلوا عليه وقد قام قائم الظهيرة وضربوا خيامهم وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا اذا نزلوا آس الناس من امر يتم معهم وفي ذلك اليوم قتل من فرسان المسلمين وشجعانهم ايا الطويل وهو من ماليك السلطان وكان قد دنق بهم وقتل خلقا من خيالاتهم وشجعانهم وكان قد استفاضت شعاعته بين العسكر بن بحيث انه جرت له وتعات كثيرة صدقت أخبارا الاوائل وصار بحيث انه اذا عرفه الفرنج في موضع يخافون منه فاتقوا ان تقطر به فرسه فاستشهد في ذلك اليوم ودفن على تل مشرف على البركة وحن المسلمون عليه خرا عظاما وقتل عليه مملوك له ونزل السلطان بالتقل على البركة وهو موضع يجمع فيه مياه كثيرة ثم رحل بعد العصر وأتى نهر القصب فقتل عليه ايضا فكان شرب من أعلاه والعدو وشرب من أسفله ليس بيننا الا مسافة يسيرة وبات الفرنجان هناك قال العماد وكانت نوبة اليرك العز الدين ابراهيم بن المقدم في الساقة وكانت الفرنج قد أنست باقتضاء الحرب فخرج منها جماعة سترسليين وتقدموا

٤- إلى البركة مشرفين فبصر بهم ابن المقدم فغضب اليهم من ورائهم هو ومن معه النهر وهم لم يأخذوا من خلفهم الحذر فنجأهم وجعلهم وفرغ من شغلهم قبل أن يدركهم الصريح وصلبهم وغنمهم ثم نهض الفرنج إليه وحاولوا عليه وجرت وقعة شديدة لحزب الضلال ميده جابت لنا غنيمه وعلمهم هزيمة وأحضر الاسارى عند السلطان بن جزام النذل والخوان فآخبروا أنهم جرح منهم بالامس الف وسرى قيمهم وهن وضعف ثم رحل السلطان وعبر شعراء ارسوف ونزل على قرية تعرف بدير الازهب وطلب ملك الانكليزية الاجتماع بالملك العادل خلوة فاجتمعوا فاشار بالصلح وسمكان حاصل كلامه انه طال بيننا القتال ونحن جئنا في نصره افرنج الساحل فاصططحوا أنهم وهم وكل من ارجع الى مكانه فقال على ماذا يكون الصلح قال على ان يسلم الى أهل الساحل ما أخذ منهم من البلاد فاقى الملك العادل وأخبره ان دون ذلك قتل كل فارس وراجل فرجع مغضبا وفي يوم السبت رابع عشر رمضان كانت وقعة ارسوف تاهب المسلمون للقائهم فازعجهم وأبلوهم بسلامتهم فلما رأى العدو ما هو فيه من الضيقة احتوا وحاولوا حيلة واحدة فانكشف من كان قد امهم واندفعوا وبث ذلك اليوم العادل وأصحابه وفي ايامار الحمي وعسكر الموصول ثم كرت العساكر اليهم وجرت التوائب عليهم فخرت بين الفئتين مقتلة عظيمة فنجأوا الى جدران ارسوف ولولا ذلك لاستوعبت فيهم المحتوف قتل السلطان على غير العاد ورحل العدو الى يافا فقتلوها والمسلمون على العادة في عراضهم مقيمة على تبديد جوعهم واعتراضهم وقتل يوم ارسوف لهم كند كبير تحت حكمه من الفرنج عدد كثير وكان من عظم شأنه وخفاه مكانه انه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المتقدمين فما قتل حتى قتلوا ولا بذل روحه حتى بذلوا روحهم قال القاضي ابن شاذان رأيتهم وقد اجمعا في وسط الرحلة وأخذوا رماحهم وضاحوا وصيحة الرجل الواحد وفرج لهم رجالتهم وحاولوا حيلة واحدة من الجوانب كلها فاندفع الناس بين أيديهم ولم يبق في طلب السلطان الا سبعة عشر مقاتلا والاعلام باقية والكؤس تدق لا تفتقر فلما رأى السلطان ما نزل بالمسلمين سار حتى أتى طلبه فوقف فيه والناس يفسرون من الجوانب وكما رأى غارا بأمر من يحضره عسده فاجتمع في الطلب خلق عظيم ووقف العدو فبالتهم على رؤس السلول والراوى وخفي العدو وان يكون في الشعراء كين وثابت العساكر كلها فتراجع العدو الى منزلته وجلس السلطان ينتظر الناس من العدو من السبي والمجرحي يحضرون بين يديه وهو يتقدم بمدواتهم وحملهم وقتل رجالة كثيره وجرح جماعة من الفائتين وصدم الملك الافضل وانفتح دمل كان في وجهه وسال منه دم كثير على وجهه وهو صابر محتسب في ذلك كله وقتل من العدو جماعة وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه وفي بعض الكتب السلطانية (سار العدو من عكا على قصد عسقلان وسقنا المعارضتهم في كل طريق ومضايقتهم في كل مضيق ومنارتهم في كل منزل ومدافعتهم عن كل منزل وهم يسرون البحر البحر لا يفرقون ساحله ولا ينجأ وزون مر احمله والمواضع مضائق وشعراء ورمال والمالعتال فيها بحال وما وجدنا نسخة الاوضاع بقناهم فيها وأخذنا عليهم في نواحيها ومن جملة ما يامن المشهورة المشهودة ومواسمنا المعروفة المجودة يوم الاثنين تاسع شعبان عند رحيلهم من قيسارية) فذكر الواقعة السابقة وفيها (انه نفق من خيلهم ألف راس) ثم ذكر يوم ارسوف وحسن عاقبته للمؤمنين بعد الدباس ثم رحل السلطان تاسع عشر شعبان ونزل بالرملة واجتمع الاقبال بها في تلك الرحلة ورحل ليلا وأصبح على تبتنا وجاوزها الى نهرا من ان الخيام عليه تبتني قال وزيرنا تبتنا قسيرا في هريرة رضوان الله عليه وتبادر الناس بالثين به اليه قلت اعتمد العمد في هذا على ما مشتهر بين العامة من ذلك وأما أهل العلم المصنفون في أخبار العجاية رضى الله عنهم كابن سعد وغيره فذكروا ان أبا هريرة توفي بالمدينة ولم يذكروا غيره على ما ذكرناه في ترجمته في البارخ والله أعلم قال الامداد ورحل السلطان ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر وشرع فيما عزم عليه من الامر وكان لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الامراء وشاور في امر عسقلان ذوى الاراء فاشار على الدين بن سليمان بن جنسدر بخر لها للفر عن حفظها على ما بها ووافقها الجماعة وقالوا قد ضاق عن صونها الاستطاعة فان هذه يافا قد تروا بها وسكنوا فيها وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ولا يبيل الى حفظ المدينة تبتني فادلى اشرف الموضوعين فخصه وحكمه فاقتضت الاراء اقامة العادل

بقرب يافا مع عشرة من الامراء حتى اذ انتمرك العدو كانوا منه على علم قال القاضي اشار عليه بتخريب عسقلان خشية ان يستولى عليها الفرنج وهي عامرة قيتلفوا من بهامن المسلمين وبأخذوا بها القدس الشريف ويقطعوا طريق مصر وخشي السلطان من ذلك وعلم عجز المسلمين عن حفظها القرب عهدهم من عكا وما جرى على من كان مقبها فاسار حتى أتى عسقلان وقد ضربت خيشه شماليها قبائل هناك مهموما بسبب خراب عسقلان وما نام تلك الليلة الا قليلا ولقد دعاني الى خدمته سحرا وكنت فارقه بعد مضي نصف الليل فحضرت وبدأ بالحديث في معنى خرابها وأحضر ولده الافضل وشاوره في ذلك وطال الحديث ولقد قال رحمه الله والله لان أفقد أولادي بأسرهم أحب الي من ان أهدم منها حجرا واحدا ولكن اذ اقضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقها فكيف أصنع قال ثم استبحر الله تعالى فوقع في نفسه ان المصلحة في خرابها فاستحضر الوالي وأمره بذلك في ناسع عشر شعبان ولقد رأيتاه وقد اجاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطاقفة من العسكر ببنده معلومة وبرعا معلوما يخرجونه ويدخل الناس الى البلد ووقع فيه الضحك والبكاء وكان بلدنا نضرا حقيقا على القلب بحكم الاسوار عظيم البناءم غوبا في سكة فحقق الناس عليه خزن عظيم وكان هو بنفسه ولده الافضل يستعملان الناس في الخراب خشية ان يسمع العدو فيحضر ولا يمكن من خرابها وأراح الناس الحر الذي كان ذخيرة في البلد للجزع نفسه وضيق الوقت والخوف من هجوم الفرنج وأمر بحرق البلد فاضربت النار فيه والاخبار تواترت من جانب العدو بعمارة يافا وتخرب من سور عسقلان معظما وكان عظيم البناء بحيث انه كان في موضع تسع أذرع وفي موضع عشر اوتد كر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضران عرض البرج الذي يتقون فيه مقدار رح فلم يزل الخراب والحرق يعملان في البلد واسواره الى سلع شعبان وعند ذلك وصل من جريدك كتاب يذكر فيه ان القوم قد تسهوا وصاروا يخرجون من يافا فيفسدون على البلاد القريبة منها فلو تفرغ السلطان لعله يبلغ منهم غرضاني فترتهم فعزم على الرحيل وعلى ان يتكلف في عسقلان حجارين ومعهم خيل تحميمهم يستقصون في الخراب ثم رأى ان يتأخر بحيث يحرق البرج المعروف بالاسنار وكان برعا عظيما مسرفا على البحر كالقلعة المنسية ولقد دخلته وطفسته فرأيت بناءه أحكم بناء لا تعمل فيه المعاول وانما أحرق ليقب بالحريق فابلا للخراب وبقيت النار تشعل فيه يومين بيليتها قال العادون نقض منها الاراج التي على ساحل البحر ودخلتها فرأيتها أحسن مدينة متينة حصينة فطال بكائي على رسومها وقض ختموها وقبض ارواحها من جسموها بحلول الدوائر بدورها ونزل السوء بسورها فخرج السلطان منها حتى رأينا طولها وارسل ورسومها طولها والرؤس حياء من معاهداتها كس نال ولو حفظت لكان حفظها متينا وصونها مكما لكن وجدكلا له متجنبنا متجنبنا وقدرا عنهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين وعادت بعد ذلك بمصر المسلمين وقال من تغل واعترضن دخولها ندخلها أنت أو أحد أولادك فندخلها اتباعا لمرادك فحينئذ لم يجد بدا من نقض أسوارها وقض سوارها وسكانها كانوا في رفاهيه فاستقوا واعن على كراهيه وباعوا أنفس الاعلاق بالجس الايمان ونفعوا بالاوطار والاوطان

(فصل) في ما جرى بعد خراب عسقلان قال العاد فارقها السلطان يوم الثلاثاء في رمضان ونزل على بنا ونزل بالرملة يوم الاربعاء وأمر بتخريب حصنها وتخريب كنيسة له وركب جريده الى القدس فانا يوم الخميس وأعاد اليه رسوم التائبس وخرج منه يوم الاثنين نامن رمضان وبات في بيت نوبة وعاد الى المحسم يوم الثلاثاء وصل معز الدين قيصر شاه صاحب ملطية بن قليج أرسلان وافدا عليه منتصرا به على أبيه واخوته فانهم كانوا يقصدون أخذ ببلده من يده فاقام في الخدمة السلطانية مدة وتزوج ببنات العادل على صداق مائة ألف دينار وسار مستهل ذي القعدة وفي ثامن الشهر أيضا خرج الكمين على ملك الانكشيرة وكان خرج في فوارسه مخفرا الخطابة والحشاشه وكاد يؤخذ الملك لكن أحد خواصه فداه بنفسه بان أظهر حسن لباسه فظن انه الملك فاسر وقال ابن شداد حال بينه وبينهم فرجى فقتل الفرنجي وجرح هو وفي ثاني عشرة جرح أيضا وقعة كان النصر فيها المسلمين وقتل مقدم كبير من المتركين ومازال يقع بينهم وبين اليرك وقعات وتشرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم

في أخبار (١٩٣) الدولتين

ومن كتاب الى صاحب سنجار (قد تقدم الاعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان وامت عليه منا في طريقه من النكاية والخذلان وانه قطع في سبعة عشر يوما مسافة يومين لما لابسها وغامرهم من الحين وما صدق كيف وصل الى اياها فظاهر بها الاستيطان واقام بها يمر المكان وهذه مدينة بافا متوسطة بين القدس وعسقلان ومنها الى كل واحدة منهما مسافة نصف نهار وكلناهما من العدو على خوف وخذار وكل واحد من الموضعين يحتاج في تحصينه الى ثلاني ألف مقاتل وتعذر الجمع بين حفظ الغريين وتحصين البلدين وتعين في تخريب عسقلان عمارة القدس وتحصينه وعصمته من العدو وآمينته) ثم رحل السلطان الى النطرون ونجم على تل عال والنطرون حصن حصين كان للدواوين يستكن لما نزع تشعبت اسواره وانزع جداره فامر به هدمه فهدم ثم بعث ملك الانكليز راغباً في المصالحة والمسالمة الى العادل وزعم ان له اختا عزيزة عليه كبيرة القدر وانها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم وذو صاحب صقلية توفي عنها ورغب ان يزوجه العادل ويجعل له الحكم على بلاد الساحل يتقدمه امره وهو يطعم الدواوين والاسبنا من البلاد والقرى دون الحصون وتكون اخته مقيمة بالقدس ومعها فيه قسيسون ورعيان حافظه لها من اهل الزمان فرأى العادل في ذلك عيباً انصواب وسأول السلطان قوافقه فيما اجاب فقدم الرسول الى الانكليز بالاجابة فدخل النمر في المرأة وخوفوها وأتموه في دينها وعنفوها وقالوا لها ما عندها همد فصيحة فظيعة وسبة شنيعة وقطع على النصرانية وقضيعة وأنت عاصية للسبح لا مطيعه فرجعت عن ذلك وأجابت فاعتذر الانكليز يري بعدم مراقتها الا ان يدخل العادل في دينها فعرف انها خديعة كانت من الانكليز قال القاضي وحصل رسول من المراكيس يزكر انه باع الاسلام بشرط ان يعطى صيدا ويبروت على ان يحشر الارجح بالعداوة وبقتل سبعة وكابحاصرهما وأخذها منهم فاجيب الى ذلك على ان يطلق من بها وبصوره الاسارى ولما سمع الانكليز بذلك رجعوا الى عكا لضعف هذه المصالحة واسترجع المراكيس اليه وجاء الحبر ان ملك الانكليز ليس اتانطاً كيه ووصل كتاب من تقي الدين يحبر فيه ان تزل صاحب دار النجم ابن الذكر قتل ويرى بسبب في بلاد النجم حنب عظم قال العماد وكان محققاً للقائم مقرراً لما سمع واصعاً لرب والعصف الماوسم وقتل بافهمان عشرة من رؤساء الشافعية المعروفين وكبرائهم الموصوفين ووصل من الديوان ما بينكم كيه تصدق الدين خلط وبه هرة العاية التامة يستمر وينفع في حسن بن قنحاك ويتقدم باطرافه وكان قد تمضي عليه فخر الدين باربل ويتقدم سير القاضي الفاضل الى الديوان لبت حال وفعل أمر فاجاب السلطان بالنام في الدين شيء من ذلك واعماله غير ليجمع العساكر ويعود الى الجهاد وأما ابن قنحاك فقد تقدم الى مظان الدين حتى يحضره الى الشام فينبهه فيه ويكون ملازماً للجهاد وأما الفاضل فاعتذر عنه بأنه كثير الامراض فوته تضعف عن الحركة الى العراق قلت وبلغني ان الفاضل رحمه الله كتب في الاعتذار بالحضور الى الايوبيان وتدل في كتابهم بينين

ما كنت أول سارعه قسر * وأند خدعته خضره فاند من

مثل لنفسك شخصي اني رجل * مثل المعيدى فاسمعني ولا تربي

قال القاضي وأرسل الانكليز الى السلطان ان المسلمين والفرنج قد هلكوا وخرت البلاد وتلفت الاموال والارواح وقد أخذ هذا الامر حقه وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد والقدس متعبداً ما نزل عنه ولولم يبق منا واحد وأما البلاد في عمار الديناما هو قاطع الاردن وأما الصليب فهو وخشية عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم فبين به السلطان علينا ونسبرج من هذا العناء الدائم فأرسل السلطان في جوابه القدس لنا كما هو ولك وهو عندنا أعظم مما هو عندكم فانه مصري نبينا ويجمع الملائكة فلا يصور أن نزل عنه ولا ندر على التلفظ بذلك بين المسلمين وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الاصل واستيلاؤكم كان طار فاعلمنا الضعف من كان بها من المسلمين ذلك الوقت وأما الصليب فلها كد عندنا قربة عظيمة لا يجوز أن نقرط فيه المصلحة راجعة الى الاسلام هي اوفى منها وهرب شير كوهين باخيل الكردي من عكا وكان أسيراً بها وكان آخر حيلنا في محنة قدس قدس به من طاعة في بيت الطهارة واشتد دورنا في قيوده الى تل العياضة فكفى الجبل وقد طلع عليه النهار ثم كسر قيوده

كتاب (١٩٤) الروضتين

وسار الى المسلمين ثم توارى الخبران الفرخ على عزم النهوض فصار السلطان من الخضم بالنظرون الى الرملة سابع شوال وأقام بها عشرين يوما فجبرت وقعتات وتمت دفعات منها وقعة في ناحية يازور وكان النصر فيها للمسلمين وقصد من المسلمين ثلاثة وذلك ثامن شوال وفي سادس عشر شوال وقعت واقعة أخرى عظيمة قتل فيها جماعة من الامراء وأسرفارسان من الكفرة معروفان بالباس سوى غيرهما وقتل منهم زهاء مئتين نفرًا وفي خامس شوال وصل الخبر ان الاسطول المصرى استولى على مر اكب الفرخ وفيها مر كب تعرف بالسطح قبل ان كان فيه خمسمائة نفر وزاد على ذلك وانه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم أربعة نفر مذكورون وفي ثامن عشر شوال اجتمع العادل والاكتبرى على طعام ومجاذبة وانفصلا عن تواجد ومطايبة وطلب منه الاجتماع بخدمة السلطان فامتنع رحمه الله وقال الملوكة اذا اجتمعوا فنجب بينهم المحاصصة بعد ذلك واذا انتظم أمر حسن الاجتماع ورحل الفرخ نالت ذى النعسة الى الرملة وأظهر واقصد القدس بتلك الرحلة ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم ورحل السلطان الى القدس بنية المقام في الثالث والعشرين من ذى النعسة وكان النساء قد دخل والغيث قد اتصل فوصل الى القدس وقت العصر ونزل بدار النساء الجمارة كنيسة خامة وفي ثالث ذى الحجة وصل عسكر من مصر بأموال ورجال مع أبى الهيثم العزمين وتحول الفرخ الى النظرون فقوى السلطان اليك فوقه وعلى سرية فغفوها وسبق منهم الى القدس نصف وخمسون أسيرًا سوى من قتل منهم وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شيرز يوم عيد الاضحى ففهمهم وضمي واحتوى على عشرة من مقدمهم أسرا وقتلا وتسلبا في الفرخ في الجبال وتركوا خيلهم فغفها المسلمون ولم يزل المسلمون عليهم مستظهري مدة مقامهم بالنظرون وجعل المسلمون يقطعون الطريق على تجارهم حتى انهم أخذوا قافلة ثقيلة بما فيها ولم يقدروا على تخليصها فراحوا عاذين الى الرملة في الثاني والعشرين من ذى الحجة وفي ذلك اليوم وصل من الموصل خمسون رجلا رسم قطع الضهور من الخندق فان السلطان شرع في تحصين القدس وعمارة ابراجه واسواره وحفر خنادقه وأرسل الى البلاد في جمع رجال هذه الاعمال وتقبل الامراء فيه العمل وعمل فيه السلطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمرؤه وأجناده ومعهم القضاة والعلماء والولاة والامراء قتل وفي قصد الفرخ للسلطان بالقدس يقول الرشيد بن النابلسي من جملة قصيدة له

وجع الفرخجة بل ويل أهمهم أوما * فيهم لبيب على العلات يعتبر
فكم نثرهم ضربا اذا انتظمو * وكمنظمتهم طعنا اذا نثروا
كم قد سقيتهم ذلا فلا عجب * ان عربدوا سفها فالقوم قد سكر وا
ان يعموك فلا بدع لجهلهم * تسعى الى الاسدى غاباتها الحجر
زاروا عورا ولا تغنى واحتمهم * اذا اسردك في أبطالهم زأروا
خام عن حوطة البيت المقدس لا * خوف وحاسا من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد ناداك معصما * فما على مجده من بعد هاجذر
وسوف تستغفر الايام هفوتها * وتحصد الفتاة وغادما بذروا

(فصل) في باقى احوادث هذه السنة قال العماد في ربيع الاول منها تولى القاضي محيى الدين محمد بن اركى قضاء دمشق وفيها يوم الجمعة تاسع عشر رمضان كانت وفاة تقي الدين عمر بن أحمى السلطان ورأى الفرات وكان قد امتدت عينه الى بلاد غيره فاستولى على السويداء وعلى مدينة حانى وعزم على قصد خلاط وكسر صاحبها سيف الدين بكتر وملك معظم تلك البلاد ثم أتاها على منازك دجاصرها ومعه عساكر كثيرة فأناخت بجسده المنية بسبب مرض اعتره وزاد ان أن بلغ من المارد واخفى ولده الملك المنصور وفاته ورحل عن البلد المحصور وفاته وعاد به الى البلاد التي في يده وبجب الناس من حزمه وعزمه وثباته وجلده وجاءت رسالته الى السلطان بخبره بأنه قام مقام والده فيما كان له من البلدان وطلب منه شروطا نسيب بسببها الى العصيان وكاد أمره يضطرب وقلبه يكتمب وشأنه يعكس وينقلب حتى احتجى بالملك العادل فنصره وأظهره الى الوجود وأظهره وقال القاضي

في اخبار (١٩٥) الدولتين

ابن شداد كانت وفاته في طر بقی خلاط عائدا الى ميفارقين فجعل ميتا حتى وصل به الى ميفارقين ثم مات له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماه وجل البها قد فن بها قال العماد وفيها توفي ابن أخت السلطان حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين بدمشق ليلة الجمعة التاسع عشر رمضان فجع السلطان بابن أخيه وابن أخته في تاريخ واحد وكانا من أعظم الاعوان على ما يكابدهم الشدائد قتل ودفن بالتربة الحسامية المنسوبة اليه من بناء والدته ست الشام بنت أيوب وهي المدرسة الشامية ظاهر دمشق بالعوينه قال وفيها في أوخر ذي الحجة توفي الامير علم الدين سليمان بن جندرم أكبر أمر اهل حلب وكان في خدمة السلطان بالقدس وهو شيخ الدولة وكبيرها وظهرها ومشيرها وهو الذي أشار بتخريب عسقلان لتتوفر العايد والاهتمام بالقدس ثم مرض بالقدس وطلب المسير الى الوطن فأدركته المنية بقربة غياغب على مر حلة من دمشق وفيها في الثالث والعشرين من رجب كانت وفاة الصفي بن القبايض نائب السلطان بدمشق وكان قد خدم السلطان أيام عده وهو في كذاثة أبه وعمه فلما ملك مصر أمر حه في أموالها وحكمه في أعمالها حتى نال النوى ووجه ونجح وحصل على الفنى وكتب لما ليكه دوره وأملكه وجميع أمواله وفيها توفي نسيب العماد وهو جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبيد ابن كوبة سبع عشر ذي الحجة بدمشق قال العماد وكنت استنيت في كتابة النساء وخبرته وقلبت في مراتب المعالي ودرجته واعتمد السلطان عليه في الترس الى سلاطين الجعم وخواص الامراء منهم والمخدم وكان بنبليتها كريما وجيها وفيها توفي الحكيم الموفق أسعد بن المطران في شهر ربيع الاول وكان من أهل النظافة والظرافه ومن ذوى الفصاحة والحصافه وقته الله في بدايته لهداية الاسلام ونال أسباب الاحترام وتقدم عند السلطان وما شانه كبر وهو كبير الشأن وفي أوخر هذه السنة توفي الشيخ النقيب نجم الدين الخبوساني بمصر وهو الذي عمر تربة الشافعي رضوان الله عليها وبني المدرسة في جوارها وأحيا شعار التوحيد وبني أمره على التسديد والتشديد وحفظ شمل الشافعية من التمديد وكان السلطان مجياله الى كل ما يستدعيه ويقضي له من الخوائج ما يقتضيه ووقف على المدرسة التي بناها وقفا وأعطاهما في بنائها ألوفاً فلما توفي الخبوساني طلب المدرسة جماعة من العلماء فردوا وشفع العادل في صدر الدين أبي الحسن محمد بن حمويه شيخ الشيوخ فكتب بها له ورتب لوقعهما وتدرسها استقلاله وذلك في أوخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعهد السلطان عن المدرسة وتبذرت بالوحشة الانسه قلت ثم استمرت عليها يد أولاده واحداً بعد واحد الى الآن قال وفيها توفي الوجيه بن النفيس مستوفى ديوان دمشق بها وكان نبيها مهيباً نزهة عارفاً مضييا وفيها توفي القاضي أمين الدين أبو القاسم بجها في حادى عشر رمضان وكان كريما سخيا ناهيا سريا وفيها نقلت تربة القاضي محي الدين أبي حامد محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى الى المدينة النبوية على ما كنا أفضل الصلاة والسلام وكان قاضي الموصل وقد نبى رباطها هناك وكانت وفاته بالموصل في الثامن والعشرين من جادى الاولى سنة ست وثمانين وقد تقدم ذلك وسأل ابن أخيه القاضي بعده كتابا الى أمير المدينة فكاتبه كتاب منه (سبب اصدارها الى الامير ميرزا نائب القاضي كمال الدين بصرى بآذن عام محي الدين من الموصل الى المدينة المقدسة على ما كنا أفضل الصلاة والسلام ليدفن في الرباط الذى أنشاه حيث يبعث مع شفيع الامه يوم البعث والنشور وبأن ظلام الحقد المحفور في جوار الضياء والنور ويحشر بما يناله من البركة والخبور منشرح الصدر اذ ابعتر ما في القبور وحصل ما في الصدور ولقد وفق في اختياره أيام حياته نقله الى ذلك البيت المحجور فلما عين الامير على هذه المكرمه ولعزت جواراته في التربة الجواهرية بقبة العظمة) قال وكان هذا القاضي حقا جوادا لبذل اللهى معنادا واسع المروء جامع أسباب الفتوة يجب معالى الامور فضائله متجاوزة حد الوفور قال ابن القاسمى ووصل الحاج في صفر بعدما اعتاقت أخبارهم وأخبروا ان داود أمير مملكة أخذ ما في الكعبة من أموال وأخذ طوطا كان يلزم الحجر الاسود فاجب ذلك الله ثمه وكان قد دخل بعض الباطنية بعد سنة أر بمانته فضر به بدبوس وقال الى كم حجر وفي يد ذلك الرجل سيف فلما تجاسر أحد يقرب منه فقطر عرقه وجل وبذل نفسه للقتل وتقدم اليه فقتله فأخذ الحجر وجعلت خطاياه الف وتوجه له طوط فآخذ أمير مملكة ذلك الطوط فلما وصل أمير الحاج عزوم داود وولى أخاه مكرنا وفض قلعة كان بناها داود على جبل أبي

قيس وهو داود بن عيسى بن فليته بن قاسم بن محمد بن أبي هاشم الحسيني ولما صرّف عن مكة أقام ببغلة وتوفي بها في رجب سنة تسع وثمانين وهو أمير ابن أمير إلى آخر من ذكرنا من آبائه وهم بسنة نفر قال ابن الأثير وفي ربيع الأول سنة سبع وثمانين سار عز الدين يعني صاحب الموصل إلى جزيرة ابن عمر فحصرها وبها ابن أخيه معز الدين سخر شاه لأنه كان سبي السيرة معه خراج طاعته مساعد الإعداء عليه فغزم على أخذها منه خضع وطلب العفو والصفح فأجاب به وصالحه على قاعدة استقرت بينهما وعاد عنه إلى الموصل فعاد سخر شاه إلى حالته الأولى فخاض وعنه وأطرجه

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين قال العماد والسلطان مقبم بالقدس وقد قسم سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده فصرعوا في أنساءه ورجل جندب محمد بن قبه مديد وكان ركب كل يوم وينقل الصخر على قريوس سرجه فبنت الأكاير والأمراء في نقل الحجارة منهجه ولورأيته وهو يحمل حجرا في حجره لعلته ان له تلباقه جل جبالا في فكره ولجندب في حمالة الصخرة المهتدة حتى حمل لها الصخر واشرح صدره لانهما هاهنا إلى صدره حتى باءه صدوره ما ليكه بها الصدور ومانع دارين في الجنة بنقل بحارتهما ليهكون ملكا في دار عاقر في دارتها وداوم البكور في الركوب وعرض وجهه الكرم للشحوب قال وفي ثالث المحترم حل الفريخ على سمع عسقلان وأساعوا أنهم يعيدون بها العمران وهم نازلون بظاهرها جائلون في مواردها وهما صايرها فأرى الامة كل يري دناءا على بعد فقصده وكان نجم جاعه من الاسديّة وسيف الدين بازكوب وعز الدين قيسر وهم غارون عادههم فوصل المعين اليهم وقب المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقتين بارلين في موضعين فلما وقع على أحدهما ركب الفريخ النار وافقه حتى ركب الفريخ الباقي الآخر فداؤهم ووافقه وهم وساقوا فداؤهم أنقاهم وخلصوا ناجين وسلم الله أنفسهم من أيدي الملاحين ولم يفقد من المسلمين إلا أربعة وكانت تربة عظيمة دفع الله خطرهما وهون ضررها وفي حادي عشر المحرم كبس عز الدين جريدك تبنى على من نزل بهما من الفريخ فوقع بهم البلا وساق منهم اني عشر أسيرا ومانعا كبيرا وأغار أيضا ما في صفر على ظاهر عسقلان وجاء به بلا من أسير أو في ليلته أربع عشر صفر كنت سرية مفقدها فارس الدين معون الأنصري عند تبنى إلى ان عبرت قوافل الفريخ فساها بنا جالها وألقاها ونسائها ورجلها وفي مستهل ربيع الآخر وصل سيف الدين الأسطوب وقد خلع من الأمر وقطعت عليه الفريخ خمسين ألف دينار يحمل منها عشر أسلما وأعطاهم بالباقي رهائش فأحس السلطان لعاءه وأقنعه بالبلس بأعمالها فتوفي بها في آخر سؤال وفي ثالث عشر ربيع الآخر قتل الماركيس لعنه الله بصور وذلك ان رجلا من دخل صور وتصدرا وأظهر الترهيب والتعدي وازم الكنيسة وشكرها لافساد الرهبان وأحجم الماركيس ولم يكن يصبر عنهما ففي بعض الأيام وباعه عليه وقلاه فأخذوا وقتلا وعرف انهما كانا من الحسيّة فجلس مكانه الكدهري بأمر الانكليزي وامر الانكليزي بمصايب الماركيس فانه كان أيضا دور راسل السلطان في الاغاثة عليه فاقبل سكن روعه وذهب عنه صره وترجح الكندهرى بالملكة زوجة الماركيس في أيلته ودخل بها وهي حامل وما الخلل في مله الفريخ عن النكاح حائل ويكون الواد منسوبا إلى الملكة هذه قاعدة هذه الطائفة المشركه وهذا الكدهري ابن أخت ملك فرنسا من أسبه وملك انكليته من أمه ودخل الفريخ في حكمه وعاش إلى آخر سنة أربع وتسعين وتولاهم دون سبع سنين وقال العماد في الفريخ أضافه الاسقف بصور فاستوفى رزقه وتعبدى ومدارى انه ترقى وكل وشرب وشبع وطرب وخرج وركب فوثب عليه رجلا وسكاكره بالسكاكين وكذاه عند تلك الاكسين وهرب أحدها ودخل الكنيسة وقد أخرج تلك النفس الحسيه فقال الماركيس وهو يحروح وفيه روح أجلي إلى الكنيسة فجملاه فلما أبصره أحد الجارحين وثب اليه وزاده جراحا على جرح وفرح على فرح فأخذ الفريخ الرقيقين فالقوهما من القدونية الاسماعيلية من ذبن فسا لوهما من وضعهما على تديره فذا التدمير فقال الملك الانكليزي فقتلوا ثم قتله في الله من كافرين سفكادم كافر وفاجر فكا فباجر قال ولم يجبه اقتل الماركيس في هذه الحالة وان كان من طواغيت الصلالة لأنه كان عدو ملك الانكليزية ومنازعه على الملك والسرير ومنافسه على التليل والكبير قال وفي تاسع جادى الاولى استولى الفريخ على قلعة الداروم ثم خربوها ورحلوا عنها وأمر وأمر فيها

في أخبار (١٩٧) الدولتين

كان الانكليزي الملعون قد استفسد من نوبة عكا ثمانية حليين فمكروا من قبة المكان وأحرقوا النقب وطلب
 هل الحصن مهلة يساورون فيها السلطان فلم يعلمهم وفي رابع عشره خرجت البركة على الفرج على قلعة تعرف
 بجدل جناب كذا قال في الفصح وقال في البرق بجدل بابا وكذا قال ابن شذاوقل كد كبير ثم نزلوا بل الصافي
 ثم إلى النطرون ثم إلى بيت توبه وهي وطأ دين جبال بينهما وبين القدس من رحله وقد ألهمهم المسلمون بهيم
 وأضعفهم بسلمهم يتسلطون عليهم من كل ناحية وبكنون لهم تحت كل راسه وقد قوت ثقلوبهم بنبات السلطان
 بالقدس وفي انسلاح الشهر النبي الجمعان وقد وصل العدو إلى قلوبهم وهي من القدس على فرسخين لما رأى العدو
 ما لا يدان له به رجعا كصاعلي عقبه والمسلمون في أثرهم فكانون لهم وينالون منهم وكان بدر الدين دلدرد في البرك
 فبعث من كسبهم عند طريق يا غافرت بهم فوارس فاستولى عليهم الكين واسلم منهم أحد وفي ثالث جمادى الآخرة
 كبست الكنافاة فكسبت وسلبت وأسرت وفي ثامنه وصل الخبر بان الفرنج رحلوا بأمرهم ليلا ودخلوا
 ولم نعلم قصدهم فعرف السلطان انه إلى طريق العسكر المصري فندب الأمير خفر الدس الظنبا العادلي وشمس
 الدين أسلم الناصري حتى بعلم العسكر فالتقي بهم بالحمى وأخبرهم الخبر فزولوا وعزوا واهم بظنون ان لاس
 العدو بارض الحمى فبجاءهم فاستولى على بعض الاموال وخلس أكثرها مع الرجال ومن جملتهم كان
 في العسكر فلنك الدين أخو العادل لأمه فنجبا عا درعا به من القراقل قال العادل وحري هذا كله والمكان العادل
 والافضل غائبان وعساكر الموصل وسنحار وديار بكر متباطئة في الانيان وسببه ما كان من تقي الدين ومونه
 وتشرط وانه في بقاء بلاد أمه عليه وان الافضل كان طلب من والده البلاد فاطع الفرات ونزل عن جميع ماله
 من الولايات وانه اذا عبر إلى الرها وحران ملك تلك البلدان ورحل من القدس في ثالث صفر وأطلق له السلطان
 عشرين ألف دينار سوى ما أحجبه به رسم الخلع والتشريفات ووصل إلى حلب فاحتفل أخوه الفاضل بدمه وأقام
 له عشاء الكرام ورسومه ووفد خدمته مائلا ومخلف الابتهاج اليه مائلا وأحضر له مفاصيح بلده وقدم له كل
 ما في يده وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما ألقفه ودفع منه إلى ما أرحبه وأرهبه ووصل رسوله إلى العادل وهو
 بالقدس لا جأ إلى ناله راجيا القصد له لانه اجتنبه عائدا بيا به فاحتج له وواخذه وقوى في توبته أمه وخطب
 لسلطان في حقته واستعطفه وقال أنا مضى إليه وأحضره وأمنه مما يجذره وتبقى هذه السنة عليه حران والرها وعظيمة
 في السنة الآخرة جاءه والمعه ثم قرر السلطان مع أخيه العادل ان يأخذ هو تلك البلاد ونزل عن اقتناعه عصر
 ونصف خاصه ففعل واستراد قلعة جبر فامتنع الملك الفاضل من تسليمها حتى استظهر فسار العادل في العمر الاول
 من جمادى الاولى وكتب السلطان إلى الافضل بالعود فاجعوا وذهب ذلك مسارعا ووصل إلى حران والرها
 وعاد في آخر جمادى الآخرة ومعه ابن تقي الدين فان القاضى ابن شذاق العادل الافضل منكرا متعابا فوصل دمشق
 ولم يحضر إلى خدمة السلطان فلما استخبر الخبر اخرجهم إليه وطلبه فواسعه التأخر فسار إليه مع العساكر الواسلة
 اليه من الشرق فلقبه السلطان وترجل له جبر القلب وتعليق الامر وقال ولما بلغ ابن تقي الدين موجدة السلطان
 أنفذ إلى العادل يستنفع به ليطلب قلب السلطان عليه ويقترح أحد قسمين إما حران والرها ويسمى ساط وإما جاده
 ومنج وسميه والمعركة كقصة أخوته فراجع العادل السلطان مرارا فلم يفعل ذلك ولم يحب إلى شيء منه فكثرت
 الشفاعة اليه فخطف له على حران والرها ويسمى ساط على انه اذا عبر الفرات أعطى المواضع التي اقترعها وتكفل
 أخوته وتخلي عن تلك المواضع التي في يده ثم التمس العادل خط السلطان فأتى وألغ عليه فخرق نسخة اليه
 وانقطع الحديث وأخذ من السلطان العيظ كيف يخاطب بمثل ذلك من بعض أولاد أولاد أخيه ثم أعاضه خطه
 بما استقر من القواعد ثم ان العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد انتقاله وجرى
 مراجعات كثيرة في العوض عنها فكان آخر ما استقر انه ينزل عن كل ما هو سواي الفرات ما خلا الكرك والنوبن
 والصلت والبلتا وخاصة بصر بعد النزول عن خبز وعليه في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تجل لسلطان من
 الصلت والبلتا إلى القدس

فصل في عزم الفرع على قصد القدس وسببه قال القاضي ابن شداد وكان تقدم السلطان الى عسكر مصر بالمسيه وأوصلهم بالاحترار عند مقاربة العدو فاموا بابلس أيا ماحتى اجتمعت القوافل اليهم واتصل خبرهم بالعدو ثم ساروا طائفي البلاد والعدو يتربأ أخبارهم ويتوصل اليهم بالعرب المفسدين ولما تحقق العدو أمر القفل امر عسكره بالانخياز الى سفيح الجبل وركب في أنفرا كبر دفين أنفرا رجل فاني تل الصافية فبات ثم سار حتى أتى ما يقال له الحمى فانفذ السلطان الى العاقلة نذره بنحوض العدو وأمرهم ان يبعدوا في البرية وركب الانكثير الملعون مع العرب باجمع يسر وسار حتى أتى القفل وطاف حوله في صورة عربي ورأهم ساكنين قد غشهم النعاس فعاد واستركب عسكره وكانت الكيسة قرية الصباح فبعث الناس ووقع عليهم بخيله ورجله فكان الشجاع الابد القم الذي ركب فرسه ونجى بنفسه وانقسم القفل لثلاثة أقسام قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب وقسم أوغرا في البرية مع جماعة من العرب وقسم استولى العدو عليهم فساوهم بجملهم واجملها وجميع ما معهم وكانت وقعة شعبة لم يصب الاسلام منها من مئذيه وتبدد الناس في البرية وروما أموالهم وكان السعيد منهم من نجا بنفسه وجمع العدو ما مكه وجمعه من الخيل والغال والاقشة وسائر أنواع الاموال وكلف الجالين خدمة الجبال والخربندية خدمة البغال والساسة خدمة الخيل وسار في جحفل من غنية يطلب عسكره ولقد حكى من كان أسير معهم انه في تلك انا لم توقع فيهم النصوت ان العسكر السلطاني قد خلفهم فتركوا الغنمة واهزموا وبعثوا عن هارمانا ثم انكشف الامر فعادوا وتدهر جمع من الاسرى وكان الحاكم منهم واخبر ان الاسارى ختمه مائه والجال تناهز ثلاثة آلاف رجل ووصل العدو الى مخيمه سادس عشر جمادى الآخرة وكان يوما عظيما عذرهم وصح عزهم على القدس وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الاموال والجبال التي تنقل الميرة والازوا ورتبوا جماعة على ليدحفظون الطريق على من ينقل الميرة وانفذوا الكندهرى الى صور واطرا المس وعكا يستخبر من فيهم ان المقاتلة لم يصعدوا الى القدس حرسه الله تعالى ولما عرف السلطان ذلك منهم عمد الى الاسوار فقسعها على الامراء وتقدم اليهم بترتمة أسباب الحصار وأخذ في افساد المياه اظاهر القدس فخر الصهار يبع الجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا وأرض القدس لا يطعم في حفر يفر فيها ماء معين في جميعها لانها جبال عظيمة وحجر صلب وسير الى العساكر يظلمهم من الجوانب والبلاد قال ولما كان ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة أحضر السلطان الامراء عنده فحضر الامير أبو الهيجا السمين بمشقة عظيمة وجلس على كرسي في خدمة اللطمان وحضر المشطوب والاسدية بامرهم وجماعة الامراء ثم أمرني ان أكلهم واحتمهم على الجهاد فذكرت ما يمر الله من ذلك وكان مما قلته ان النبي صلى الله عليه وسلم لما استنذبه الامر بابعه الصحابة رضوان الله عليهم على الموت في لقاء العدو ونحن أولى من تأسي به صلى الله عليه وسلم والمصلحة الاحتماع عند الصخرة والتخالف على الموت فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه ثم شرع السلطان بعد ان سكنت زمانا في صورة فكر والناس سكوت كان على رؤسهم الطير ثم شرع وقال الحمد لله والصلوة على رسول الله اعلم انكم جسد الاسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون ان دعاء المسلمين وأموالهم وذرايعهم معلقة في ذمكم وان هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه الا أنتم فان لو يتم أمتكم والعباد بالله طوى البلاد كلوى السجل للكتاب وكان ذلك في ذمتكم فانكم أنتم الذين تصدقتم لهذا كله وأكلتم ما لبيت مال المسلمين فالسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام فانتدب بوابه سيف الدين المشطوب وقال بامولنا نحن مما ليك وعبيدك وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك الى ان يموت فقال الجماعة مثل ما قال وانبطت نفس السلطان بذلك المجلس وطاب قلبه وأطعمهم ثم انصرفوا ثم انقضى يوم الخميس على أشد حال في التآهب والاحتتام حتى اذا كان العشاء الآخرة اجتمعنا في خدمته على العادة ومسرنا حتى مضى هزيع من الليل وهو غير منبسط على عادته ثم فصلنا العشاء وكانت الصلاة هي الدستور العام فصلنا وأخذنا في الانصراف فذكر عاني رحمه الله وقال أعلمت ما الذي تجد قلت لا قال ان أبا الهيجا السمين انفذ الى اليوم وقال انما اجتمع عندي جماعة الى المسلك الامر وأنت ذكر واعلموا فقتلناك على الحصار والتآهب له وقالوا المصلحة في ذلك

في أخبار (١٩٩) الدولتين

فانما تخاف ان نحصر ويجري عليك امل ماجرى على اهل عكا وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام جهه الراى ان تلقى مصاف فان قدر الله ان نهمهم ملك كباقي بلادهم وان تكن الاخرى سلم العسكر ومضى القدس وقد انخفضت بلاد الاسلام بعساكرها مدة تهيير القدس وكان رحمه الله عنده من القدس امر عظيم لانهم له الجبال فشق عليه هذه الرسالة واقت ذلك الليلة في خدمته حتى الصباح وهي من الليالي التي احيها في سبيل الله رحمه الله وكان مما قالوه في الرسالة انك ان اردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نخرج عنده والافالا كرادلا دينون الازنك والازنك لا يدينون للا كراد وانفصل الحال على أن يقيم من أهل مجد الدين بن فرخساده صاحب بعلبك وكان رحمه الله يحدث نفسه بالمقام ثم منعه رأيه عنه لما فيه من خطر الاسلام فلما قارب الصبح أسفقت عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة لعل العين تأخذ حظها من النوم وانصرفت عنه الى داري فمأصلة الاوالمون قد أذن فأخذت في أسباب الوضوء فما فرغت الا والصبح قد طلع وكنت أصلي الصبح معه في غالب الاحوال فعدت الى خدمته وهو يحسد الوضوء فضلينام قتله فدويع في واقع أعرضه فأذن لي فيه فقلت المولى في اشتغاله ومادة رجل نفسه من هذا الامر مجتهد فيما هو فيه وتدجرت أسبابه الارضية فبقي أن يرجع الى الله تعالى وهذا يوم الجمعة وهو أرك أيام الاسبوع وفيه دعوة مستجابة في صحيح الاحاديث ونحن في أبرك موضع بقدر أن يكون فيه في يومنا هذا فالسلطان يغسل الجمعة ويتصدق بشئ خفية بحيث لا يشعر به منك وقصلي بين الادان والامامة ركعتين تنأجى فيها روك وتقرض مقاليد أمورك اليه وتعترف بجزك عما تصديت له فلعن الله رجلك ويستجيب دعائك قال وكان رحمه الله حسن العقيدة تام الايمان يتلقى الامور الشرعية بأكل انقياد وقبول ثم انفصلنا فلما كان وقت الجمعة صليت الى جانبه في الاقصى وصلى ركعتين ورأيت ساجدا وهويذ كركبات ودموعه تنقاطر على مصلاته رحمه الله ثم انقضت الجمعة بخير لما كان عشيها ونحن في خدمته على العادة وصلت رقعة جرديك وكان في البرك يقول فيها ان القوم ركبوا بأمرهم ووقفوا في البر على ظهر ثم عادوا الى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم ولما كان صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى يخبر فيها ان الجواسيس رجعوا وأخبروا ان الغوم اختلفوا في الصعود الى القدس والرحيل الى بلادهم فذهب الفرنسيون الى الصعود الى القدس وقالوا نحن اعماجئنا من بلادنا بسبب القدس ولا ترجع دونه وقال الانكليزي ان هذا الموضع قد أفسدت مياهه ولم يبق حوله ماء أصلا في أن نسير فقلوا له نسير من نهر تقوع وينه وبين القدس مقدار فرسخ فقال كيف نذهب الى السقي فقالوا انقسم قسمين قسم يذهب الى السقي مع الدواب وقسم يبق على البلد في البرك ويكون الشرب في اليوم مرة فقال الانكليزي اذ ان أخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقيين ويذهب دين الصراية فانفصل الحال على انهم حكموا نلثمنا ثم أعيناهم وحكم الثلاثمائة اثني عشر من أعيناهم وحكم الانساعير ثلاثة منهم وقد بانوا على حكم الثلاثة فباأمر ونهم به بفعل فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل فلم تمكن الخالفة وأصبحوا في بكرة الحادى والعشرين من جمادى الآخرة را حادين الى نهر الزملة نا كصين على أعقابهم ولله الحمد ووقف عسكرهم الى ان لم يبق في التمره الا الاثار ثم نزلوا بالزملة وتواتر الخبر بذلك فركب السلطان قدس الله روحه وركب الناس وكان سرور وفرح ولكن السلطان خاف على مصر لما حصلوا عليه من الجبال والظهور وكان يندكر الانكليزي مثل هذا مارا

(فصل) وفي زردسر الانكليزي في معنى الصلح وما جرى في اثناء ذلك الى أن تمهله الحمد وقد ساق ذلك القاضي ابن شداد أحسن سياق واستقصى الامر فيه بخلاف العماد فقال ان الانكليزي جاء منه رسول يقول قد هلك كائن وانتم والا صلح حق السما ولا ينبغي أن يعتقد ان ذلك عن ضعف منى بل للصحة ولا تعتبر بأخرى عن منزلي قال كدش زآخر لينقطع ثم جاء رسوله يقول لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلهم وهذا ابن أخي الكندهر قد ملكته هذه الديار وسلته اليك ليكون هو وعسكره يحكمك ملك ولواستدعتهم الى الشرق سمعوا وأطاعوا وان جماعة من الزهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كناس فاجلست عليهم بها وأنا أطلب منك كنيسة وتلك الامور التي كانت تضيق صدرك لما كانت تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها وأعرضت عنها ولو أعطيني مفرقة أو قرية تلبثها وقبلتها فاستشار السلطان الامر في جوابه فأشاروا بالحاسنة وعقد

كتاب (٢٠٠) الروضتين

الصلح لما كان قد أخذ المسلمين من الضعيف والضعف وعلاهم من الدين واستقر الحال على هذا الجواب أنك إذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الاحسان الا احسان ابن أختك يكون عندى كعصى أولادى وسيلغك ما أفعل فى حقك من الخير وأأعطيكَ أكبر الكائنات وهى الفماعة وبقية البلاد تسبها والساحلية التى بيدك تكون بسدك التى بأيدى بناتم القلاع الجبلية تكون لنا وما بين العلمين يكون مناصفة وعسقلان وما وراءها تكون خرابا لنا ولا لكم وان أردتم قراها كانت لكم والذى كنت أكرهه حديث عسقلان فانفصل الرسول طيب القلب واتصل الخبر انهم بعد وصول الرسول اليهم را حادون الى جهة عسقلان طابون جهة مصر ووصل رسول من جانب قطب الدين بن قليب ارسلان يقول ان البابا قد وصل الى قسطنطينية فى خافى لا يعلم عدد هدم الا الله تعالى وقال الرسول انى قتلت فى الطريق اثنى عشر فرسا ويقول تقدم الى من يتسلم بلادى متى فانى قد عجزت عن حفظها فليصدق السلطان هذا الخبر ولا كثر به ثم جاء رسول الانكثري يطلب أن يكون فى قاعة القدس عمر من نفر او ان من سكن من النصارى والفرنج فى البلاد لا تعرض لهم وأما بقية البلاد فلنأمنها الساحليات والوطأ وأما بلاد الجبلية لكم وأخبار الرسول من عند نفسه مناصحة انهم قد نزلوا عن حديث القدس ما عدا الزيارتهم يقولون هذا نصها وانهم راغبون فى الصلح وان ملك الانكثري لا بد له من الراح الى بلدته فأجب بأن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزياره فقال الرسول وليس على الزوار شئ يؤخذ منهم فعلم من هذا القول الموافقة وأما البلاد فعسقلان وما وراءها لا بد من خرابه فقال الرسول قد خسر الملك على سورها ما لا جزيل فأسأل المستوطب أن يجعل من أروعها وقرأه فى مقابلة خسارتها فأجاب السلطان وان الداروم وغيره يخرّب ويكون بلادها مناصفة وأما باقى البلاد فيكون لهم من أياها الى صور بما عاها لهم ما اختلنا فى قرية كانت مناصفة ثم جاء الرسول يقول الملك يسألك ويخضع لك فى أن تترك له هذه الاماكن الثلاثة حمرة وأى قدر لها عندك مكان وعلمتكم وما سبب اصرار عليهم الا أن الفرج لم يسمعوا بها وهو قد ترك القدس بالكلية لا يطلب أن يكون فيه راهبان ولا قسوس الا فى القمامة وحدها فاستترك له أنت هذه البلاد ويكون الصلح عاما فيكون لهم كل ما فى أيديهم من الداروم الى انطاكية ولكم ما فى أيديكم وينتظم الحال ويروح وان لم ينتظم الصلح فالفرنج ما يكونونه من الراح ولا يمكنه مخالفتهم والعاضى فانظر الى هذه الصناعات فى استخلاص الغرض بالبين تارة وبالحسنة أخرى وكان لعنة الله مضطرا الى الراح وهذا عمله مع اضطراره والله المسئول فى أن يكفى المسلمين مكروهها بلوبا عظم حيلة ولا أسدا إذا ما منه فأجابه السلطان بأن انطاكية لتمامهم حديث فم اورسلنا عند هدم فان عادوا بما يريد أن يخلصناهم فى الصلح والا فلا وأما التى سألتها فلا توافق المسلمين على دفعها اليه والافلا قدر لها وأما سور عسقلان فياخذنى مقابلة ما خسر عليه لد فى الوطأ ثم عاد الرسول وقال ان الملك قال لا يمكن أن نخرب من عسقلان حجرا واحدا ولا يسمع فى البلاد مثل ذلك وأما البلاد فخذوها معروفة لا مكروه فيها وعندك تأهب السلطان للخروج الى جهة العدو واطهار القوة وسددة العزم على اللغاء وبلغه فى العاشر من رجب ان الفرج خذ لهم الله قد رحلوا طالبين تخوير وت فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الجليب وجاء العادل من الشرق والنظار من حلب ورحل من الجليب الى بيت نوبة ثم رحل الى الرملة فقتل بها على تلال بين الرملة ولدور كبرج حديد حتى أتى يازور وبيت حن واشرف على يافا ثم نزل عليها من العدو ورتب عسكره فى الميمنة ولده النظار وفى الميسرة أخوه العادل وركب المخبينات وزحف عليها فأرسل العدو رسولين نصرانيا وفرنجيا لطلب الصلح فلب منهم قاعة القدس وقطيعته فأجابوا الى ذلك واسترطوا أن ينظر والى يوم السبت تاسع عشر رجب فان جاءهم نجدة والائتم القاعدة على ما استفرغاني السلطان الاظهار وأمر بالنقب فحصى وأحرق فوقع بعض البسطة فوضع العدو أخشا با عظيمة خلف النقب فالتب ففسح من الدخول فى الثمة وقالت خارج الابواب الى الليل فلما أصبحوا وقعت البسطة فعلا غبار مع الدخان فأظلم الاتق وما تجاسر أحد على الولوج خوفا من اقحام النار فلما انكسفت الغبرة ظهرت أسنة قذبات مناب الاسوار ورمح قدسست الثمة حتى عن نفوذ الابصار ورأى الساس هولا عظيما من صبرا القوم وثباتهم ولقد رأيت جرحلين على ممشى الموريعان المسلق فيه من جهة الثمة وقد أتى أحدهما بحجر المخبينق

في اخبار (٢٠١) الدولتين

فأخذهم ونزل إلى داخل قسار فريقيه في مقامه متصد بالمثل لما حقه أسرع من لمح البصر بحيث لم يفرق بينهم إلا فاقد
بصر ولم أرى العدو ما قد آل الأمر اليه سيرا وبطلون الأمان فقال رحمه الله الفارس بفارس والتركيبى بملكه
والزجل بالزجل والعاجز فعلى قطيعة القدس فنظر الرسول ورأى القتال على التهمة أشد من اضرام النار فسأل
السلطان ان يبطل القتال الى ان يعود فقال ما أقدر على منع المسلمين من هذا الامر ولا كن ادخل الى أصحابك
فقتل لهم بخازون الى القلعة ويتركون الناس يشتغلون بالبلد فاني دونهم منع فقتلوا وانحازوا الى قلعة يافا بعد
ان قتل منهم جماعة ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا منه أفضة عظيمة وغلا لا كثيرة وانانا وبقا ياقاش ما نهب من
القافلة المصرية واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان وكان قايماز النجمي في طرف الغور لحايته من
عسكر العدو الذي لعكاف وصل منه كتاب يخبر فيه ان الانكليزي الملعون لما سمع خبر يافا أمر من عن قصد بيروت
وعاد على قصد يافا فاستدعز السلطان على نعمة الامر وتسلم القلعة وكنت من لم ير الأمان لانه قد لاح أخذهم
وكان الناس لهم مدة لم ينظروا من العدو عظم ثوبهم على ما كان أخذهم عنوة مما بيعت هم العسكر غير ان الأمان وقع
واقف الصلح فكبت بعد ذلك عن بحث على اخراج العدو من القلعة ونسبها خوفا من حقوق المجردة وكان السلطان
يشترط حرمه على ذلك غير ان الناس قد أقعدهم التعب عن امثال الامر وأخذ منهم الحديد وشدة الحر ودخان النار
بحيث لم يبق لهم استطاعة على الحركة وسمعنا بوق الفرنج في المحر فعملنا بوصول الفعدة عز الدين جردك وعلم الدين
قيصر ودرباس المهراني وعدد الخزانة شمس الدين وقال امض الى الملك الظاهر وقل له يقف فظاهر الباب القسبي
وتدخل أنت ومن نرا الى القلعة وتقر جون القوم وتستولون على ما فيها من الاموال والاسلحة وتكتننها بخلط
الى الظاهر وهو ظاهر البلد وهو يسيرها بنا فنعلمنا ودخلنا القلعة وأمرنا بالفرنج بالحر وج فاجابوا وتبشوا
جردك لا ينبغي ان يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية ان يخطفوه هم وكان الناس قد داخلهم
الطمع في البلد وأخذ يشتد في ضرب الناس واخراجهم وهم غير مضبوطين بعدة ولا محصورين في مكان فكيف
يمكن اخراجهم وطال الامر الى ان علا النهار وأنا لوء وهو لا يرجع عن ذلك الزمان بعضي فلما رأيت الوقت بقوت
قلت له ان النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة في اخراجهم فاجاب وأخر جناخسة وأربعين نفر انجيوهم ونسأهم
وسيرناهم ثم اشتدت أنفس الباقين وحدة تم نفوسهم بالعصيان وكانوا استقلوا المراكب التي جاءتهم وظنوا
ان النجدة لهم فيها ولم يعلموا ان الانكليزي مع القوم ورأى أنهم قد تأخر واعى التزول الى علو النهار فخافوا ان يمتدحوا
فيؤخذوا ويقتلوا فخرج من خرج ثم بعد ذلك قوت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين من بكافقوت نفوس الباقين
في الحصن فظهرت منهم امارات العصيان ودلائله فقلت لا يحسن اخذوا وحذرهم فقد تعرت عزائم القوم فما كان الا
ساعة بحيث صرت خارج البلد وقد جل القوم من القلعة وأخرجوا من كان في البلد من الاجناد ولقد ازدحم الناس
في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة وبقي في بعض الكائس جماعة من رعاك العسكر مشغولين بما لا يجوز فجمعوا
عليهم وقتلوا منهم وأمرنا ولما عرف السلطان أمر الناس زحف وعاد للحصار كما كان وحشروا العدو في العلقة
واستبطوا التزول النجدة اليهم ونهاوا خوفا عظيما فاسروا باطركهم والقسطلان الى السلطان يعتذران مما جرى
ويأسنا القاعد الاولي وكان سبب امتناع تزول النجدة أنهم رأوا البلد مسعودا بباري المسلمين ورجلهم فخافوا
ان تكون القلعة قد أخذت وكان البحر يمنع من سماع الصوت وكثرة الضجيج والتأليل والتكبير فلما رأى من في القلعة
شدة الزحف عليهم وامتناع النجدة من التزول مع كثرة تأفانها بلغت نيفا وخمسين مركبا منها خمسة عشر من الشواني
علموا ان النجدة قد ظنوا ان البلد قد أخذ فوهب رجل منهم نفسه للسهل وفتقر من القلعة الى الميناوكان رمل فقل بصبه
شيء وعدا الى البحر فحدث الانكليزي بالحديث فما كان الا ساعة حتى نزل كل من في الميناو الى المينا هذا كله
وأنا شاهد ذلك فخلعوا على المسلمين فاخرجوهم من المينا فقبض السلطان على الرسل وأمر بتأخير الثقل والاسواق
الى يازور فرحل الناس وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوا من يافا وخبر الانكليزي الى موضع السلطان الذي
كان فيه لمسايقه البلد وأمر من في القلعة ان يخرجوا اليه لتعظيم سواده ثم اجتمع به جماعة من المماليك طلبهم وحضر
الحاجب أبو بكر العيادي وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ودخل معهم دخولا عظيما بحيث كانوا

كتاب (٢٠٢) الروضتين

يجمعون به في أوقات متعددة وكان قد صادق من الامراء جماعة كبار الدين والدارم وغيره فلما حضر واعنده جث
وخزل ومن جملة ما قال هذا السلطان عظيم وما في الارض للاسلام ملك اكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان
بمجرد وصولي والله ما لبست لامة حربي ولا تأهبت لامر وليس في رجلي الا زبول الحجر فكيف تأخر ثم قال والله انه
لعظيم والله ما ظننت اني ياخذ يا في شهرين فكيف أخذها في يومين ثم قال لا يكر الحجاب تسلم على السلطان
وتقول له بالله عليك اجب سؤالي في الصلح فهذا امر لا بد له من آخر وقد هلكت بلادى نورا البحر وما درام هذا
مصلحة لنا ولا لكم فارسل السلطان اليه في الجواب انك كنت طلبت الصلح أولا على قاعدة وكان الحديث في بافا
وعسقلان والآن فقد خربت هذه يا فافا فيكون من قيسارية الى صور فارسل الانكليزي يقول ان قاعدة الافرنج انه
اذا اعطى واحد الواحد بلدا صار تبعه وغلامه وانا اطلب منك هذين البلدين بافا وعسقلان وتكون عساكرهما
في خدمتك انما اذا انا نجت الى وصلت اليك في اسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي فقال السلطان حيث
دخلت عسقا المدخل فانا اجيبك على ان تجعل البلدين قسعين أحدهما لك وهو بافا وما وراءه والاني لى وهو
عسقلان وما وراءه ثم رتب السلطان الرزك بسارور وامر بخراجه وخاب ريت حن ورب القباين لذلك وسار الى
الرملة فعاد رسول الانكليزي يشكر على اعطائه يا فافا ويجدد السؤال في عسقلان ويقول له ان وقع الصلح في هذه الايام
الستة سار الى بلاده والا احتاج ان يشتي ههنا فاجابه السلطان في الحال وقال اما النزول عن عسقلان فلا
سبيل اليه واما تستبته ههنا فلا بد منها لانه قد استولى على هذه البلاد ويعلم انه متى غاب عنها أحدثت فخرورة
واذا قام ايضاً ان شاء الله تعالى واذا سئل عليه ان يشتي ههنا يبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب
في عتقوان شبابه ووقت اقتناص لذاته فاسئل على ان أشتي واصيف وأنا في وسط بلادى وعندي أهلى واولادى
ويأتى الى ما أريده ومن أريده وانا رجل شجاع قد كرهت لذات الدنيا وشبهت منها اور فضتها عني والعسكر الذى يكون
عندي في الشتاء غير الذى يكون في الصيف واما اعتقد انى في اعظم العبادات ولا أزال كذلك حتى يعطى
الله النصر لمن يشاء ثم جاء رسول يقول كم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلنى وانا كنت أحرص حتى أعود الى
بلادى والآن فقد هجم الشتاء وتغيرت الأنواء وعزمت على الإقامة وما بقى ريننا حديث ثم بلغ السلطان ان عسكر
العدو قد رحل من عكا فاصدا بافا فاسار رجه الله فقتل على العوجا ووصل من أخبره ان العدو دخل قيسارية ولم يبق
فيه طمع وبلغه ان ملك الانكليزية 'زل خارج يا فافا في نهر يسير فوقه له ان يكسبه فاته فوجد حذيه نحو عشرين خيما فحملوا
عليهم فنبتوا ولم يفرحوا من اما كنهم وكسروا عس أنياب الحرب وكانوا على الموت أصبر فارنا ع السلطان منهم ورجوا
من نياهم وردا وحولهم حلقة وكانت عدة الخيل سبعة عشر وقيل تسعة والرجال ثلثمائة أو أكثر فوجد السلطان من
ذلك موجدة عظمة وداع على الاطالاب نفسه يحثهم على الجلاء ويعددهم بالحسنى على ذلك فلم يجبه دعاه أحد سوى
ولده الظاهر قال وبلغنى انه قال له الجناسح اخوا المشطوب قل لعلنا لك الذين ضربوا الناس يوم فتح يا فافا واخذوا منهم
الغنية يمحجون وكان في قلوب العسكر من صلح السلطان على يا فاشى حيث قوتهم الغنية فلما رأى السلطان ذلك أعرض
عن القتال وغضب وسار الى بازور قال واقد بلغنى ان الانكليزية سري اخذ رجه ذلك اليوم وحل من طرف المينة
الى طرف المصرة فلم يتعز له أحد قلت ووصل من الفاضل كتاب من دمشق يقول فيه (كثيرا لارجاف
بهلاك ملك الانكليزية فان كان كذلك لجواب بكل من قصر في بافا عن أخذه عن السلطان الانتصروه فقد
نصر الله وجواب السلطان لهم عن ملك الانكليزية الاتقداوه فقد قتله الله ولم يزل لطيفا ولم يزل مولانا
يحمل النسل ثقيل وخفيفا ومن كان الله عليه لم يكن قويا ومن كان الله معه لم يكن ضعيفا) قال القاضي
ثم سار السلطان الى النطرون ثم الى القدس فنظر الى العمائر ورتبها ثم عاد الى النطرون وتوافت اليه فيه
العساكر ووصل علاه الدين ابن صاحب الموصل ثم قدم عسكر مصر وفيهم سيف الدين بازكوج وجماعة الاسديبة
في خدمة ولده الملك المؤيد مسعود ووصل المنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين فلقية الظاهر الى بيت نوبه ودخل به على
السلطان فتمض واعتنقه وضمه الى صدره وغشيه البكاء فصر نفسه حتى غلبه الامر فبكى الناس ليكاته ساعة ثم
باسطه وسأله عن الطريق وكان معه عسكر جميل فترن هين السلطان به ثم سار ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة

في أخبار (٢٠٣) الدولتين

ولما رأى السلطان العساكر قد اجتمعت جمع أرباب الرأي وقال ان ملك الانكليزية قد مرض مرضا شديدا والفرنسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ونفقةاتهم قد قلت وارى ان نسير الى يافا فان وجدنا فيها طمعا والاعداء الى عسقلان فما لحقتها النجدة الا وقد بلغنا منها غرضا فوافقوه على ذلك فارسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان حتى يكونا قريبا من يافا فهاذا ورسل الانكليزية لا تنقطع في طلب الداكنة والتلج وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكثرى والخوخ وكان السلطان يمدد بذلك ويقصد كشف الاخبار تواتر الرسل والذي انكشف له ان فيها ثلثمائة فارس على قول المكثرو مائتي فارس على قول المقلل وان الكندهرى ترد بينه وبين الفرنسية في مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قول واحد افسار السلطان الى جهة الرملة وجاء رسول الانكليزية مع الحاجب ابى بكر يشكر السلطان على اسعافه بالنفاقه والتلج وذكر ابى بكر انه انفرد به وقال قل لاني يعني الملك العادل بته صر كيف نتوصل الى السلطان في معنى الصلح ويستوجب له منه عسقلان وامضى ويقي هوهمنا مع هذه الشرذمة البسيرة يأخذ البلاد منهم فليس غرضي الا اقام عجاى بير الفرنجية وان لم ينزل السلطان عن عسقلان فادخل في منته عوضا عن خسارتى على عمارة سور هافا رسل السلطان الى العادل ان تزلوا عن عسقلان فصالحهم فان العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار والتفتت قد نفدت ثمن الانكليزية تزل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك فاحضر السلطان اديوان يوم السبت نامن عشر شعبان وذكر يافا وعملها واخرج الرملة منها ولدو مجدل بانام ذكر قيسرية وعملها وارسوف وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها واخرج منها الناصرة وصورية واثبت الجميع في رتبة وقال للرسول هذه حدود البلاد التي تبقى في ايديكم فان صالحتم على ذلك خبارك وتدا اعطيتكم يدى فينخذ الملك من يملف في بكره غدا والافعلنا من هذا دفع ومحاطة وكان من الماعدة ان تكون عسقلان خرابا وان يتقى المسحابة وان يحسبهم على خرابها واشترط دخول بلاد الاسماعيلية واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس في الصلح وشرط ان تكون الرملة وديس المسلمين ويقيم مناصفة واسنقرت الفاعدة على انهم يملفون يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان ورضى الاسبارية والدواية وسائر مقدمى الافرنجية بذلك ولم يملف الانكليزية بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذر بان الملوكة لا يملفون وقع من السلطان بمثل ذلك ثم حلف الجماعة خلف الكندهرى ابى اخته المختلف عنه في الساحل وباليابن بارزان ابن صاحب طبرية ووصل ابن المنقرى وابن بارزان وجماعة من مقدمهم الى السلطان فاخذوا يده على الصلح واقر حواجلف جماعة العادل والافضل والظاهر المنصور وسيف الدين المشطوب وبلندرم وابن المقدم وصاحب شيرز وكل محاور لبلادهم وحلف صاحب انطاكية وطرابلس وعلق المين بشرط خلفهم للمسلمين قال ووصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط بيدي الضاعة والمواقفة وتسير العسكر وحضر رسول الكرج وذكر فصلا في معنى الديارات التي لهم في القدس وعارثها وشكروا ما انما أخذت من ايديهم وبسأل ردها الى أيدي نوابهم وورد رسول صاحب ارض الروم يبذل الطاعة والعبودية قال الله ادعقدت هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر وجعل لهم من يافا الى تيسارية الى عكا الى صور وأدخلوا في الصلح اطرابلس وانطاكية ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأنها مبتدأ ايول الموافق للحادى والعشرين من شعبان قال وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرجال والاسلحة والاقوات ليقوموا بها على فتح القدس لتكون لهم ظهر او عونا لقرى بها من البيت المقدس قلت ومن الالفاظ الفاضلية (وقد قلت الاقدار في رضى عراكتهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة وكيف تشنع ملك الانكليزية بالتعذر وهو لعنه الله قد اتى باقبع التعذر والخشعة في أهل عكا نهرا جهازا وشهد فيها بجزبه وفضيخته المسلمين والنصارى وغدر الفرنج معلوم

اذ اغدرت حسنا أوفت بعهدا * ومن عهد هان لا بدوم لها عهد

القوم هادنوا الماضعوا وشعخون اذ اقروا ونحن ننتظر في ملك انكليزية ما تنفصح عنه المقادير في أمره اما الهلاك ولا يأس بها فليكن الاجبة المركيس واللولو ملك الالمان ويؤنس في النار غربتهم ويكثر عدتهم واما ان يعافى فهو بين أمرين اما ان يرجع الى لعنة الله والى مروة البحر في تفرقه واما ان يقيم فهناك قد أبدى الشرنا جذبه ونكص

كتاب (٢٩٤) الروضتين

المعونة من الوفاء على عقبيه وانتظر الفرصة ليهتزم والعودة لبلد (و) وما قيل في هذه المهدنة آيات من قصيدة
نجم الدين يوسف بن الحسين بن الجاور التي تقدمت في فتح البيت المقدس وهي

يا صاح قل لانا كبر الكلب دع * عنك الجنون وخذه قالة منصف
القدس ما فيه لسرجك مطمع * كلا ولا نور الاله بمنطقي
والمسجد الاقصى فغنه نقص من * وقع الدبابيس الاليمية تعرف
واستفت نفسك فهي أخت ناصح * واترك متابعة الحاج الملتف
واجب لرحم بالسرووس معمم * واطرب لسيف بالدماء مغلف
قد قات لما قيل صلح قد جرى * هذا حديث محترف ومحترف
سلف تولى السيف عقد شروطة * أحجب به من مسلم ومسلم
ظنوه سلما وهو في ارواحهم * سلم الى أجل لهم مخلف

وذكر أبو الحسن بن الساعاتي الانكليزي هذا في شعره في قصيدة مدح بها السلطان رحمه الله يقول فيها

منعت ظباء المخني بأسوده * وأشد ما أشكوه فبك ظيائه
فعلت بنا وهي الصديق لحاظها * كظي صلاح الدين في أعدائه
سل عنه قلب الانكثير فان في * خفقانه ماشئت من أنبائه
لولاك أم البيت غير مدافع * واسال سبيل نداء في بحائه
وبكت جفون القدس نانية دما * لترغم الناقوس في أقفائه

(فصل) في ما جرى بعد المهدنة قال انفاضي أمر السلطان ان ينادى في الوعافات والاسواق الا ان الصلح قد اتظم فن شاء من بلادهم بدخل بلادنا ففعل ومن شاء من بلادنا بدخل الى بلادهم فليغفل وأشاع رحمه الله ان طريق الحج قد فتح من الشام ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس وكنت حاضر ذلك جميعه وأمر ان يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير ولا تخرج الفرنج منها ويكون معهم جماعة من الفرنج الى حين وقوع الخراب في السور خشية من استيلائه عامر افعل ذلك ونزبت وكان يوم الصلح يوما مشهودا غشى الناس من الطائفتين من الترح والمروور لاجل الله تعالى والله العاظم ان الصلح لم يكن من ايثاره فانه قال لي في بعض محاوراته في الصلح أخاف ان أصالح وما أدري ايش يكون مني فيقوى هذا العدو وقد بقي لهم هذه البلاد فيضربون لاستعادة بقية بلادهم وزي كل واحد من هؤلاء الجماعة قد عقد في رأس قلبه يعني حصنه وقال لا أنزل ويهلك المسلمون فهذا كلامه وكان كما قال رحمه الله أنه رأى المصلحة في الصلح لسأم العسكر ومجاورتهم بالخلافة وكان ذلك مصلحة علمها الله تعالى فانه انقذ وفاته بعيد الصلح ولو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر فما كان الصلح الا توفيقا وسعادة من الله رحمه الله عليه ورحل السلطان الى النذورن واختلط العسكران وذهب جماعة من المسلمين الى يافا في طلب التجارة ووصل خلق عظيم من العدو الى القدس للفتح وفتح لهم السلطان السباب في ذلك ونفذ معهم الخفر ليحفظونهم حتى يردوهم الى يافا وكان غرض السلطان بذلك ان يقضوا وطرهم من الزبارة ورجعوا الى بلادهم فبأمن المسلمون شرهم ولما علم الملك كثرة من يزورهم صعب عليه ذلك وسير الى السلطان يسأله لمنع الزوار واقترح ان لا يأذن لاحد الا بعد حضور علامة من جانبه أو بكتابه وعلت الفرنجية ذلك فعظم عليها واهتموا في الحج فكان رد في كل يوم منهم جموع كثيرة مقدمون وأوساط و مساوئك متكرون وشرع السلطان في اكرام من يردوهم الطعام لهم ومباستظهم ومجادتهم وعرفهم انكار الملك ذلك وأن لهم السلطان في الحج وعرفهم انه لم يلتفت الى منع الملك من ذلك واعتذر الى الملك بان قوما قد وصلوا من ذلك البعد ويسر لهم زيارة هذا المكان الشريف لاسيما منعهم ثم اشتد المرض بالملك فرحل ليلة الاربعاء التاسع والعشرين من شعبان وقيل انه مات وسار هو والكندعري وسائر المتقدمين الى جانب عكا ولم يبق في يافا الا امر يض أو عاجزة غير يسير ثم أعطى السلطان للناس دستورافسار عسكر اربل والموصل وسنجار والحصن وأشاع رحمه الله أمر الحج وقوى عزمه على براءة الذمة منه

قال القاضي وكان هذا مما وقع لي وبدأت بالاشارة به في يوم تيمم الصلح ووقع منه رحمة الله عليه موقعاً عظيماً وأمر الديوان أن كل من عزم على الحج من العسكر يثبت اسمه حتى يحصى عده من يدخل معنا الطريق وكتب جرائدهما يحتجناج اليه في الطريق من الخلع والازواد وغير ذلك وسيرها الى البلاد ليعذوها ورحل من النظر وارباع شهر رمضان وسار حتى أتى ماري صمويل يفقد أخاه العادل وكان مرصافاً بوجهه قد سار الى القدس وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب المرض وكان قد غفل فعرف بجيئ السلطان الى ماري صمويل له يادته فجعل على نفسه وسار حتى لقيه بذلك المكان وهو أول وصوله ولم ينزل بعد ونزل وقبل الارض وعاد ركب فاستندناه وسألناه عن مزاجه وسار جميعاً حتى أتى القدس بقية ذلك اليوم وقال العماد عاد السلطان بعد السلام الى القدس لتفقد أحواله وعرض رجاله واشتغل بشيئ اسواره وتحصينها وتخليد آثاره وتحسينها وتجميع خنادقه وتوثيق طرائقه وزاد في وقف المدرسة سوقاً بديكاً كينها وأرضاً بساتينها وأكلت رتب أحوال الصوفية في عرايتها والوقف الكافل بكفائتها وغير الكنيسة التي في شارع قامة بالبحر مارستان ونقل اليه العقابر والادوية من جميع الأنواع والالوان وأدار سور القدس على قبسة صهيون وأضافها الى المدينة وأمر بإدارة الخنادق على الجميع وصمم العزم على الحج فلم يوافقه القدر وتأسف على فواته بعد أن قدمه قدامه وأقام شهر رمضان وأفاض الاحسان وقوض ولاية القدس وأعمالها الى عز الدين جرديك حين استغنى منها حسام الدين سياروخ وولى حماه كمال الدين قيسر مادون القدس لعمل الخليل وغزة والداروم وعسقلان قلت ولما بلغ القاضي انفاض من قبل السلطان انه عازم على الحج كتب اليه مشيراً بطلبه (ان العريخ لم يخرج جواً لعدم الشام ولا ساوا عن القدس ولا وثق به عدهم في الصلح فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم واثاق عسكرنا وسفر سلاطيننا سرهم مقدراً معلوماً مدة الغيبة فيه ان يسروا اليه فيسبحوا القدس على غفله فيسخرها اليه والى انباله ويخرب من يد الاسلام ويصير الحج كبيرة من الكثر التي لا تغفر ومن العثرات التي لا تقال) ثم قال (وحاج العراق وخراسان أليس هم مائتي ألف وثلاثمائة ألف أو أكثر هل يؤمن ان يقال قد سار السعديان لمب ناروسه لدم وتوش موسم فاقعدوا والا فيكون تاريخ سره أعوذ بالله منه ما هذه الشناعة بمنعة الوقوع ولا مستعدة من العقول الضعيفة فيتم المولى يتأمل ما تأمل المملوك مستورا فانه يسأل مولانا ان لا يشارك أحسداً فيما يكتبه لامن مهم ولا من غيرهم يامولاً ما ظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقرب به الى الله وما هي بواحدة في اعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ومن تسلط المقطعين على المنقطعين ما لا ينادى وليده وفي وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة والسيف الذي يقطر دماً لا زاجر له وللمسلمين فتور زبد التحصين والذخيرة ومن المهمات اقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها فن المستحيل نفقة من غير حاصل وفرع من غير أصل وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير وعرضت للمولى شواغل دونه ومشت الاحوال مشابهاً على ظلع فلما خبط النوب أعاد الله من عودها كان خلو بيت المال أسد ما في الشدة وليس المملوك مطالباً بذخيرة يحصل انما يطلب تمشية من حيث يستقر) قلت ولم يرزل البيت المقدس شرفة الله تعالى لمحوظاً بالعمارة والتحصين من عهد السلطان رجه الله الى سنة ست عشرة وسمائة فانه خرب في المحرم منها بسبب خروج الفرنج لعنهم الله وانتارهم في البلاد تخفيف من اسديلائهم عليه وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبو بكر ابن أيوب اخو السلطان وتشت الناس بعد خرابه ورغبوا عن السكنى به ورواه الرئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن محمد الجاور بقصيدة منها

أعني "لا ترفي من العسبرات * صلي في البكا الاتصال بالكرات
لعل سبيل الدع يطفئ فيضها * تودع ما في القلب من جمرات
ويقلب اسعر نار وجدك كلها * خبت باذكار بيعت الحسرات
ويافرح بالشجو منك لهله * يروح ما في من الكسرات
على المسجد الأقصى الذي جل قدره * على موطن الاختبات والصلوات
على منزل الاملاك والوحي والمهدي * على مشهد الابدال والبسلات

كتاب (٢٠٦) الروضتين

على سلم المعراج والمخضرة التي * أباقت جبا في الارض من صخرات
 على القبلة الاولى التي انجبت لها * صلاة البرايا في اختلاف جهات
 على خبير مجرور واكرم عامر * واشرف مبني لمخير بنانة
 وما زال فيسه للنبين معبد * يوالون في ارجائه السجيدات
 عفا المسجد الاقصى المبارك حوله الـ رقيق العباد العالي الشرفات
 عفا بعد ما قد كان للخير موسما * وللبر والاحسان والقربات
 يوالى اليه كل أسعت فانت * لمولاه بر دأغ الخسلوات
 خلا من صلاة لا يعل مقيها * توشع بالآيات والسوروات
 خلا من حنين التائبين وحنينهم * فن بين تواج وبين بكاة
 لتبك على القدس البلاد باسرها * وتعلن بالاحزان والسد تحات
 لتبك عليها مكة فهي أختها * وتسكو الذي لاقت الى عرفات
 لتبك على ما حصل بالقدس طيبة * وتشرح في أكرم الحمرات
 لقد أشتموا عكا وصور بهدمها * وباطلما غادتها بشمات
 لقد شتموا عنها جماعة أهلها * وكل اجماع مؤذن بشتات
 وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها * وقد كان مجدا باذخ الغرفات
 وقد أخذوا صوتا وصيها أناره * لهم عظم ما والوا من الغزوات
 أما علمت أبناء أيوب انهم * بمساعة عدوا من السروات
 وان افتتاح القدس زهرة ملكهم * دهل غمر الامن الزهـرات
 فن لي بتواج ينهن على الذي * شحاني بأصوات لهن شحاة
 يرددن بينا للـ زاعي فاله * يؤبن فيه خيرة الخسرات
 مدارس آيات خلت من تلاوة * ومثل وحى مقفر العرصات

قلت هذا البيت الاخير لدعل بن علي الخزاعي في أول قصيدة رثى بها أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وهذه السنة
 التي توفي فيها العادل قبل التي خرب فيها القدس هي السنة التي نزل فيها القرآن فخذهم الله على نغرد مياط حرسه الله
 تعالى وهي المرة الاولى في زماننا وأقاموا عليه الى ان استولوا بعد ان جرى لهم بحو مجرى لهم على عكا ثم أخذهم المسلمون
 منهم وقتلوا أسرا ثم انهم استولوا عليه صلح في سنة خمس وعشرين وستمائة وشروا في بناء طائفة منه ثم أخرجوا
 منه عنوة من أين أخرجه في إحدى المراتين الملك الناصر صلاح الدين داود بن المعظم شرف الدين عيسى بن العادل
 أبي بكر بن أيوب وقال فيه حينئذ بعض شعراء العصر (هذا الشاعر هو صاحب جمال الدين يحيى بن مطروح رحمه الله
 تعالى)

المسجد الاقصى له عادة * سارت فصار مثل سلا سارا

اذا غدا للكفر مستوطنا * ان يبعث الله له ناصرا

فناصر طهمـره أولا * وناصر طهمـره آخرها

ثم استولى الفرنج أيضا على طبرية وعسقلان ثم أخذوا منهم عنوة في شهر سنة خمس وأربعين وستمائة في دولة
 الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب وقد استولوا أيضا
 على الشقيف وصفد والله يسهل عودها الى أهل الاسلام ويؤيد الدين الحنيفي على غير الزالام

(فصل) في مسير السلطان رجه الله من القدس الى دمشق قال العباد ولما استتم السلطان النظر في أحوال
 القدس وعارته وقوض القضاء والظفر في الوقوف الى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن عجم وعقل منه على
 أمين كريم آثار ان يعود الى دمشق على الثغور عابرا وفي أحوالها ناظرا وكان عزم على الحج وصمم وكتب الى مصر

والين بما عليه عزم وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج اليه من الازواد والنققات والسيارات والكسوات. فقبل له لو كتبت الى أمير المؤمنين وأعلنت بحجك وعزفت بهجك حتى لا يظن بك أمر أنت منه بري ويعلم أن قصدك في المضي مضي والوقت قد ضاقت وبلغ الخبر الا فاق ثم هذه البلاذاذ اسافرت تركتها على ما بها من الشعب وهذه المعامل التي في النور حفظها من أهم الامور ولا تغتر بعقد المحدثه فاب القوم على قرب المكنه والغدر. أنهم فزال به الجماعة حتى حاولوا عقد عزمه على الحج فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته ثم خرج من القدس يوم الخميس خامس شوال وجاوز ناحية البيرة قبات على بركة الداوية ونزل يوم الجمعة بظاهر نابلس وأقام بها الى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالم ووظف مكازم وكان بهاسيف الدين المشطوب وشكا أهلها نواب من جهته تدوب فزال السكوى وأزاح البلوى ورحل بعد ظهر السبت وبات عند عقبة ظهر حماره ووضع يعرف بالفر يدبسه ورتعنا في وجه الانبياء وأصبحنا را حلين ونزلنا ضحوة على جينين وهناك ودعنا المشطوب وراغ الابد فانه انقل بعد أيام الى رحمة الواحد الصمد وجئنا نحو الانسين الى ريسان وسعدنا بقلعتها المهيورة الخالية فابصر قلعتها العاليه وقال الصواب بنا هذه وتجرب كوكب ثم رحل ظهر واوبات بقلعة كوكب وصعدنا نظرا فيهما وصوب ورحل ضحوة الثلاثاء ونزل بطبرية وقت العشاء وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الاسر فلقينا بهاء الدين بالبر والبشر وصل مع السلطان الى دمشق وأقام الى ان خلاص أصحابه من الاسر ونوجه الى مصر وقد ضاقت نفسه ببذل ماله وخرج من ثروته ودخل في افلاله حال وتوات تلك الايام الى الامطار وواصلها النهار فأخنا يوم الاربعاء وسرنا بركة الخميس ونزلنا بسفح الجبل الذي عليه قلعة صغد وصعدنا بها وكل فيها الرجال والعدد ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة الى قلعة تبذين وجاز يوم الاحد على هونين وخيمنا على عين الذهب عند نزلنا من الجبل واجتمعنا تلك الليلة بالثقل ثم را الى مرج عيون مرحله والى جسر حامد نزلنا وطرقنا بين جبل صيدا وادى التيم وطلعنا من تلك الاردة والشعاب طلوع الانوار من انفسهم وقال في الفصح على صيدا يسره وعمل وادى التيم بمذمة وعرضنا على مرج قلعة انا مقابل مرج القنعة ودفعنا الى سلوك المسالك الصعبة ورحلنا يوم الثلاثاء الى البقاع فخمنا على جسر حامد يوم الاربعاء بناحية قب الياس ودخل يوم الخميس بيروت وبها والبها عز الدين سامه فاهتم له بالكرامه ولما أراد عن بيروت الانفصال في الحادى والعشرين من شوال قيل له ان الارنس الانطاكي يهتد مع عصابة من الوفد قد وعسل الى الحدمه مستمكا بجبل العصمه فبنى عنانه ونزل وأقام وما رحل واذن للارنس في الدخول وشره في حضرته المنول وتره وأنسه ورفع مجلسه وكان معه من مقدسى فرسانه اربعة عشر بارونيا فوهب كلانهم ثمر يفسر يا وأجر له ولهم العطاء وأبدى هم الاعتناء وكتب له من مناصفات انطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار وخص أصحابه بمبار وأعجبه استرساله اليه ودخوله بغير أمان عليه فلاجرم تلقاه بالاحسان ووافاه وودعه يوم الاحد وغارقه وكانت الانفال قد انتقلت من قب الياس الى مرج قليطيه من البقاع فبات في الخيم وعبر يوم الاثنين عين الجز الى مرج تبوس وقد زال البوس وهناك تواجدنا في دمشق وأمانتها وأفاضلها وفواضلها ونزلنا يوم الثلاثاء بالقرامه وجرى الملقون بالطرف والتحف على العاده وأصبحنا يوم الاربعاء الى جنة دمشق داخلين بسلام آمين لولا اننا غير خالدين وكانت غيبة السلطان عنما طالت اربع سنين فأخرجت دمشق أنفائها وأبرزت نساءها ورجالها فكانت يوم الزينة وخرج كل من في المدينة وحشر الناس ضحى ولشاعوا استبشارا وفرحا وكانت غيبة السلطان في الجهاد طالت فاهتمت بقدومه واختالت وقررت بفضائله الاعين وأقرت بفواضله الاسن وأبدوا وجوه الاستبشار والسن الاستغفار وأعين الاستعبار ورفعوا أيدى الابتهال بصالح الدعاء عن خالص الولاء وجاءهم يوم الانفصال في فصل الحريف واتصل تليد الجبال بالطريف واتسع فضاء الفضائل وارتدع جاء الجماعل وحل في القلعة بحلول الشمس في برجها وأخذت بحار سماحه في موجهها وجلس في دار العدل فأجاب وأجار وبال وأثار وخرجت السنة والسلطان في اسنى سنائه وأبهى جلالة وأجلى بهائه والناس را تعون في رايض نعمائه ورسلا الممالك الغربية الشرقية بخطبونه ويطلبونه ويتظنون عزمه ويرقبونه وهو بعد هم بالخسار اشعوا انكساره وانسام نعر التريبع

وأقتراره وأقتضاه على هذا العزم إلى آخر السنة وال السلطان مشغول بالصيد والقتل منتزعا عن العمل لافرض وقرب العلماء وأكرم الفضلاء وفضل الكرماء وما كان أحسن إلى الحق اصغاه وأشرع للباطن القاه وقال النفاضي أبو المحاسن أقام السلطان بالقدس يقطع الناس ويعطهم دستورا وسأهب للمسير إلى الدار المصرية وانقطع تشوقه إلى الحج ولم يزل كذلك حتى صبح عنده أقلاع مصر كب ملك الانكليزية المخذول متوجها إلى بلاده في مستهل شوال فعند ذلك حذر السلطان عزمه على أن يدخل الساحل جريديا ويتفقد القلاع البحرية إلى بنيانيس ويدخل دمشق يقيم بها أياما قلائل ويعود إلى القدس الشريف سائرا إلى الدار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدھا والنظر في مصالحها قال وأمرني بالمقام بالقدس إلى حين عودته لعمارة بیمارستان انشاء فيه وإدارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عودته وخرج من القدس وودعته إلى البيرة ونزل بها ثم ذكر أزالته للظالم عن بلد نابلس ثم رحل ونزل بسبسطية فتفقد أحوالها ثم أتى في طريقه إلى كوكب في عاشر شوال وانفك بهاء الدين قراقوش من الاسر حادي عشر شوال ومثل بالخدمة السلطانية ففرح به فرحا شديدا وكان له حقوق كثيرة على السلطان والاسلام واستأذن السلطان رحمه الله في المسير إلى دمشق لتحصيل القطيعة فأذن له في ذلك وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين ألفا قال ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته الرئيس صاحب انطاكية مسرفدا فبلغ في إكرامه واحترامه ومبايعة سلطته وأنتم عليه بالعمق وازغان ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار ثم سار السلطان إلى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها والتقدم بسد خللها واصلاح اجنادها وأشغالهم بالرجال فدخل دمشق بكرة الأربعاء سادس عشر شوال وفيها أولاده الافضل والظاهر والظاهر وأولاده الصغار وكان يحب البلد وبؤثر فيه الإقامة على سائر البلاد وجلس للناس في بكرة الخميس وحضر عنده الناس وبلاشوتهم من رؤسائه وأنشد الشعراء وعلم ذلك المجلس الخاص والعام وأقام ينشر جناح عدله ويمطل مصاب انعامه وفضله ويكشف مظالم الرعايا في الاوقات المعتادة واتخذ الافضل يوم الاثنين مستهل ذي القعدة دعوة لآخيه الظاهر وكان الظاهر لما وصل دمشق بلغه حركة السلطان إليها فأقام بها حتى يتمنى بالنظر إليه نائيا وكان نفسه الشريفة كانت قد أحست بدتو أجل السلطان فودعه في تلك الدفعة من أرامتعددة وهو يعود إليه ولما اتخذ الافضل له الدعوة فأظهر فيها من بديع النخل وغرسه ما يلبق بهتمته وكان أنه أراد مجازاته ٤٤ خدمه حين وصل إلى حلب المحروسة وحضرها أرباب الدنيا وابناء الآخرة وسأل السلطان رحمه الله الحضور فحضر جبر القلب قال وكان العادل قد استأذن السلطان في أو آخر رمضان في القدس بالضي إلى الكرك لتفقد هاهنا وفي أمره باصلاح ما قصد اصلاحه وعاد طلبة الماضي إلى البلاد الفرانية التي أعطاها السلطان إياها فوصل دمشق سابع عشرين ذي القعدة وخرج السلطان إلى لقائه وأقام يتصبه دخول غياغب إلى الأكسوة حتى لقيه وساراجيعا بصيدان وكان دخوله إلى دمشق في الحادي والعشرين منه وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده وبنته ترجون في أراضي دمشق ومواطن الصبي وكان به وجده راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل والنصب النهار وما كان ذلك الا كالدواعي لأولاده ومرايع نزهته وهو لا يشعر بدرجة الله عليه ونمى عزمه المصري وعرض له أمور أخرى وعزومات غير تلك ووصلني كتابه إلى القدس يستدعي إلى خدمته وكان شتاء شديدا ووحلا عظيما قلت وفي عيد الاضحى من هذه السنة أنشد الرشيد النابلسي قصيدة حسنة على وزن قصيدة التمامي التي مطلعها (حازك البين حين أصبحت بدرا) يقول فيها يعني قصيدته

وأبها لولا تغزل عينها * لما قلت في التغزل شعرا
ولكانت مدائح الملك النابلسي * صراويل ما فيه أكل فكا
ملك طبق الملك عدلا * منسل ما أوسع البرية برا

ثم قال في آخرها

نلت ما تبغني من الدين والدنيا ما يقتبها على الملوك ونحرا
فتمل الاعياد صوما وفطرا * وتلق الهناء فطرا ونحرا

في أخبار (٢٠٩) الدولتين

بإمر الطاعات لله ان اضحى ملك على الهامة مصر
قد حجت المجدين أصلا وفرعا * وملك الدارين دنيا وأخرى

(فصل) في ذكر أمور آخر جرت في هذه السنة من وفيات وغيرها قال العماد في شهر ربيع الآخر توفي القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراه من أهل دمشق قاضي العسكر وكانت وفاته بملطية وهو عاظم من الرسالة إلى أولاد قليج أرسلان بالروم وكان هذا القاضي من أصدق الأصدقاء وأكرم الكرماء وما فارقني من أيام الملك العادل نور الدين رحمه الله في العراق والضراء وكنت بأحواله شديدا الاعتناء وتوصلت له عند السلطان في تخصيصه بالمواصلة الموصليه وإراسلته في المهام الخفية والجلية ثم تولى نيابة عن السلطان في الولاية الشهر زوريه والحكم على المقطعين بها وانصاف الرعية فلما قوضت إلى مظفر الدين صاحب أربل رجع شمس الدين ودامت غيبته عن الحضرة مئذ تسبع سنين وكان تولى قضاء العسكر موضعه بهاء الدين بن شذاد وكان خطب أولاد السلطان قليج أرسلان مهما عند السلطان فاعتمد على القاضي شمس الدين في الوصول إليهم والحكم بتأليف ذات بينهم عليهم فغضى وعاد وأدركه المنية بمدينة ملطية قال وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوال توفي الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب بنابلس وقد سبق ذكر هذا الأمير وبأسه وبسالته وأصابته وأصاليته وأقامه في الحروب وتقدمه في الخطوب وقد حضر مع أسد الدين شيركوه النوب الثلاث التي فتح في آخرها مصر ولازم صلاح الدين إلى منتهى العمر ولما احتجج إلى البذل في عكا أضجر من أقام به وتبكي أجاب إلى دخوله وقابل الأمر بقوله وحصل يقضاه الله في الأسر واحتوت عليه قبضة الكفر وفدى نفسه بخمسين ألف دينار ونجا وأناه الله من نعمة خلاصه مارجا وأنتم السلطان عليه بنابلس وأعمالها وخص بأموالها وحين جرت أودعنا عند جنين وداع الأبد إلى جنة عليين وأنما سمي مشطوب بالطنة في وجهه من أثر طعنة في غزاة حضرها وله مواقف في الجهاد كثيرة معهوده ومقامات مشهورة مشهوده ووقف السلطان بعده نابلس وأعمالها على مصالح القدس وأقطع ولده وأميرين معه الثلثين محافظته على حقه الذي التزمه التزام الدين وقال القاضي ابن شذاد وكان السلطان خلف المشطوب بالقدس من جله العسكر المقيمين به ولم يكن واليه إنما كان واليه عز الدين جريك وتوفي المشطوب رحمه الله بالقدس يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال ودفن في داره بعد أن صلى عليه في المسجد الأقصى قال العماد وفي منتصف شعبان توفي سلطان بلاد الروم عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بقونية وكان أولادها كبروا وتجبروا وتفرد كل منهم بإقليم فضعف بقوتهم وتجزع بقدرتهم وانخفض برقيتهم فانه فرق بلاده على جماعتهم طمعاني طاعتهم واختار لتدبير ملكه اختيار الدين حسن بن عفراس خالفه عليه من أولاده قطب الدين ملك شاه صاحب سيواس فجاء وغلب على والده وأخذ عليه الانقاس وقال له أنا بين يدك عوض الاختيار ثم أدخل منه الديار ثم أبعد عن خدمة والده خواصه وأولياهه وأفنى بالقتل والاختيال أمره وكبراه واستخاضه لنفسه وأجلسه على ملكه وهو في حبسه ثم جاء به إلى قيصرية ليأخذها من أخيه وأظهر أنه بأمر أبيه فوجد قليج أرسلان فرصته خلاصه فساق وحده ودخل البلد ونجما الولد إلى الولد فعاد ملكه شاه إلى قونية واقصرا دار ملك أبيه فتملكها هو بزل قليج أرسلان يتحول من ولد إلى ولد ومن بلد إلى بلد يتردد في بلاده في ضيافة أولاده وكلهم يهجر منه ويعرض عنه حتى حصل عند ولده غياث الدين كحضر وصاحب ترغلو فلما حضره وأبصره وأودنصره وجاء به إلى قونية فدخلها وحل عطلها ومات بها بجلس مكان والده وقوى على أخيه قال وجاء الربيع في شهر ربيع الأول فكتب إلى نسا الدولة أحمد بن قفازة يأني أريد عوني إلى دمشق في خامس جمادى الأولى وقد دخل أو ان المشهش اليهود وهو موسم دمشق الشهود أولها

دعا الناس للذات مشعش جليق * فقد أسرعوا من كل غرب ومشرق
فقم بأعماد الدين تحظ بأكله * ولاتن عنه هزيمة السير تسبق
وقل حين يبدو أصفر اللون مشرقا * وباحسنه من أصفر اللون مشرق
(لا كلك ما يلقي الفؤاد والقي * ولتوت عالم ييسق في منى وما يقي)

مكتاب (٢١٠) الروضتين

فليس سوى الحلاوة في القدس مأكل * وما جلبوه من زيب وفستق

قال فعرضت آياته على السلطان فقال ما قلت في جوابه فأثبته

هلموا نسابق نحو شمس جلق * وثم كان هوى على الاكل نلتني
تسفر شوقا لا انتظار قدومنا * ومن يتعشق ذا الفضائل يشق
اذا حضرت اطباقه غاب رشدنا * لما يتلاقى من مشوق وشيق
حكى جرات بالفضا قد تعلقت * فيا عجبي من جمره المتعلق
كان نجوم الارض فوق غصونه * فيا حيرتي من نجمة المتعلق
وجناتها مجمرة وجناتها * فن رها مشلى بحب يعشق
بدت بين أوراق الغصون كأنها * كرات نضار في لجين مطرق
قال فلما أنشدت السلطان هذا البيت قال تشبيه الورق باللجين غير موافق فان الورق أخضر فقلت

كرات نضار بالزهر محمد

نساقتها أشجارها فكأنها * دنابر في أيدي الصيارف ترتقي
ومشمش بستان الزكي بشهده * شهادته تقضي فزك وصديق
بقول رفيعتي في دمشق فعبها * أمالك بستان مقالة مشفق
فقلت الى باب البريد وسوقه * لأمالكنا بحسني بستان جلق
ولو كان لي لعمري سهم وجدت لي * منالى بايام الثمار ومر فني
اذا كنت مبتاعا من السوق شمعي * فالى الالة المتسوق
ومالى بارباب البساتين خلطة * فيصيح في حيطانها مفسلي
كرام ونوى في الشتاء بوذهم * ولكنهم في الصيف ينسون موثقي
وما ثم من مجدى ويقرى ويقتى * ثنائى سوى المحي الكريم الموفق
وذلك يوم واحد ليس غيره * امن اجل يوم واحد قلت لى اسبق
على اننى لو قيل بالصين دعوة * أثرت اليها لوعة المحرق
فان حثت قبلى حلقا فارم منعما * حدينى بنادى المنعمين وحلق
لعل كرميا ينقى لضيافتي * بمشمة عند القدم وينتقى
فلاتنس نشوالدين نشوة خاطرى * وقل عن صبوحي كيف شئت ورتقى
وهات وساعدنى وخذ من قريحتي * الطيمة دارى من الجد واعبق

قال فقال لى السلطان عن صبور ترقى كأنك تريد تمنى الى دمشق ونسبى فقلت الالهى والولد وقد عيل
عنه الجلال ولكن مغيبى عن الخدمة لا يدور به الحلال وظلك هو الساكن والبالد قال وكبت ايضا في جوابه
وصفة الشمس وذكر تشبيهاته وقد أذن لى السلطان لهم له ايضا اتفق

قد صم عزمى على المسير فلا * أبقي مقامى والقلب قد رحلا
امضى الى دمية مقبلها * ارشف منه المدام والعسلا
مصور بل مدور بحب * ترى به وهو جامد شاعلا
ففى قلوب الاشجار منه جذى * وفى ظهور الغصون منه كلا
طالوا بما النضار ظاهره * لباطن فى حشاه نار طالا
تخفى اذا ما بدا لعينك فى * فيك وفيه النوى اذا وصلا
حلى نبر على عرائس أغصا * ن تشك من قبلها عطلا
جر حسان الوجوه قد لبست * من خضر أوراقها لها حلالا

في اخبار (٢١١) الدولتين

عرائس من خدورها رزت * تحسب أن حجارها لها كلالا
حلاوة لا يمل أكالها * اذا الحلاوات أحدثت ملالا
زهر ككشيب السماء راجية * جن جناة بقطفها كفلا
عيونها الرمد في رقبنا * جاحظة ابرزت لنا مقلا
ماذا التواني وذا التأخر والا * بطاء قدّم مسيرنا غلا
نقد ونخافا الى مواسمها * من قبيل نجلي بصحبة النقالا
قد انتظرنا من الخزانة ما * نعطى فاكدي نوابها الخلالا
فان عدمننا من عندهم ذهبنا * فما عدمننا عندهم به بدلا
وكلنا في عوارف الملك الننا * هرزعي ونسلك السبلا

قال وقتل فيه رابعة

الشمس لا تتظارنا مصفر * والروض الى لقائنا مفر
قم فقمتم السوقت فهذا المهر * لاليت له فن به يغفر

قال وفي هذه السنة نصرت الاساطيل في البحر مرارا ونفذ السلطان في استدعائها استطهارا قال محمد بن القادسي وفي مستهل رجب وكل بأمير الحاج طاشتكين يعني الذي قتل أمير حاج الشام شمس الدين ابن المقدم بعرفات سنة ثلاث وثمانين ثم قبض عليه وسببه انه اتهم بمكاتبة السلطان صلاح الدين رحمه الله فيايقه ليقب الدولة وأظهر عليه أستاذ الدار أبو المظفر بن بونس كذا يقول انه خطه وفيه (المصلحة مهادة الفرج والنجى الى البلاد فيايق بين أيديكم احد والبلاد لكم اذا ملكنم العراق وهذا وقعكم ان كان لكم فيه وأناه شهودا الوسيط في الخدمه) ثم ذكر ابن القادسي ان ذلك مستبعد على حق طاشتكين وزور وبعثان ونسب ذلك الى اقتعال ابن بونس عليه وكان طاشتكين أمير الحاج عشرين سنة يجتذب له بمكة بعد الخطبة لأمير المؤمنين وله اقطاع بمائة ألف دينار قال وفيها في ربيع الآخر توفي أبو المرحف نصر بن منصور النيرى الشاعر الاديب الزاهد سمع قاضي البيمارستان وروى عن ابن نيهو وكان قدرى بالشام وخالط أهل الادب واصر بالحدري وله أربع عشرة سنة وكان يبصر الاشياء القريبة منه ولا يحتاج الى قائد اذا مشى ثم قدم العراق لمدواة عينه فأبأسه الاطباء من ذلك فاشتغل بالقرآن وحفظه وصاحب المتدينين والزهاد من أهل الفقه والحديث واللغة وله ديوان شعر كبير وسئل عن مذهبه فاملى

أحب عليا والبتول وولدها * ولا أجد الشجين فضل التقدم
وأبرأ من نال عثمان بالاذى * كما أتبرأ من ولاء ابن الملم
ويجبني أهل الحديث لصدقه * فلست الى قوم سواهم بمنتم

وله أيضا في غير ذلك

وزهدني في جميع الايام * مقلّة انصاف من تعجب
هم الناس ما لم تجربهم * وطلس الذئاب اذا جربوا
وليتك تسلم عند البعا * دمنهم فكيف اذا تقرب

(ثم دخلت سنة ثمانين) قال العماد والسلطان مقيم بدمشق في داره ومالك الاق في انتظاره والانام مشرقة بمطالع أنواره وورسل الامصار مجتمعون على بابيه منتظرون لجوابه والضرب في فيوض انعامه غاغون والفقراء في رياض صدقه راقعون ويجلس في كل يوم ليلة لاسداء الجود وابداء السعود وبث المكارم وكشف المظالم وبرز الى الصيد شرقى دمشق براد خمسة عشر يوما واستعجب معه أخاؤه وأبعدى البريه وظهر عن ضمير ضمير الى الجهة الشرقية وطابت له القرص ووافق مراده القنص ثم عاد يوم الاثنين حادى عشر صفر ووافق ذلك عود الحاج الشامي فخر للتلق وسعادته في الترفى ولما تلقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته من الخ ما تخناه وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها وخصبها ومجملها وكوم ولهم من غلات مصر وصدقاتها والفقراء والمجاورين

كتاب (٢١٢) الروضتين

ورواتها واداراتها وسر بسلامة الحاج ووضوح ذلك المنهج ووصل من اليمن ولداً أخيه سيف الاسلام فتلقيه بالكرام قال القاضي ابن شذاد وخرجت من القدس الشريف يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم وكان الوصول الى دمشق ثاني عشر صفر وكان الافضل حاضراً في الايوان الشمالي وفي خدمته خلق من الامراء وارباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان فلما شعر بحضورى استحضرتى وهو وحده قبل ان يدخل اليه احد فدخلت عليه رحمه الله فقام وثقني ملقى ما رأيت أشد من بشره فيه ولقد ضمني اليه ودمعت عينه وفي ثالث عشر صفر طلبني فحضرت فسألني عن في الايوان فاخبرته ان الملك الافضل جالس في الخدمة والامراء والناس في خدمته فاعتذر اليهم على اسان جمال الدولة اقبال ثم استحضرتى بكرة الخميس رابع صفر وهو في صفة البستان وعنده أولاده الصغار فسأل عن الحاضرين فقيل رسل الفرنج وجماعة الامراء والاكابر فاستحضرتى رسل الفرنج الى ذلك المكان فحضروا وكان له ولد صغير وكان كثير الميل اليه يسمى الامير أبابكر وكان حاضراً وكان رحمه الله عليه يداعبه فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكالهم خاف منهم وبكى فاعتذر اليهم وصرفهم بعد ان حضروا ولم يسمع كلامهم وقال في ذلك اليوم شيئاً وكانت عادته رحمه الله هذه المباشطة ثم قال أحضروا لنا ما تيسر فاحضروا أرزاً بلبن وما يشبه ذلك من الاطعمة الخفيفة فكل رحمه الله وكنت أظن ان ما عنده شهوة وكان في هذه الايام يعتذر الى الناس لنقل الحركة عليه وكان بدنه يمتلئ وعنده تكسل فلما فرغنا من الطعام قال ما الذى عندك من خير الحاج فقلت قد اجتمعت بجماعة منهم في الطريق ولولا كثرة الرحل لدخلوا اليوم ولكنهم في غديد خلون فقال تخرج ان شاء الله الى لقائهم وتقدم بتنظيف طوقهم من المياه فانها كانت سنة كبيرة لانداء والامطار وقد سالت المياه في الطرق كالانهار وانفصلت عن خدمته ولم أجده عنده من النشاط ما عهده منه ثم بكى في يوم الجمعة فركب ثم لحقته وقد في الحاج ولم أجده عليه كزاعنده وما كان له عادة ركب بدونه وكان يوماً عظيماً قد اجتمع فيه للقاء الحاج والتفرج على السلطان معظم من في البلد فاذا ذكرته ذلك كأنه استيقظ فطلب الذكر اغند فلما يوجد واقف الله في قلبي تظهر بذلك ثم سار رحمه الله بين البساتين يطلب جهة المنيسع حتى أتى القلعة فمير على الجسر اليه او هو طرقة المعتاد وكانت آخر بكائه رحمه الله

(فصل) في مرض السلطان ووفاته أحله الله بمجوعة جناته قال القاضي لما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً لما انتصف الليل حتى غشيته حتى صقاروية كانت في باطنه أكثر منها في ظاهره وأصبح يوم السبت سادس عشر صفر عليه أثر الخبي ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل ودخل ولده الافضل وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكون من قلقة بالليل وطاب له الحديث الى قرب الظهر ثم انصرفنا والقلوب عنده فقدم البناء بالحضور على الطعام في خدمة ولده الافضل ولم يكن للقاضي عادة بذلك فانصرف ودخلت الى الايوان القبلي وقدم الطعام ولده الافضل قد جالس في موضعه فانصرف وما كان لي قوة للجلوس استحياساً وبكى في ذلك اليوم جماعة فتأولوا بجلوس ولده موضعه ثم أخذ المرض في تزايد من حيثئذ ونحن نلازم التردد في طرفي النهار وأدخل اليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً وبعطى الطريق في بعض الايام التي يجديها خفة وكان مرضه في رأسه وكان من امارات انتهاء العمر غيبة طيبة الذي كان قد ألف من اوجه سفر او حضر اورأى الاطباء قصده فقصده في الرابع فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه وكان يغلبه النفس غلبة عظيمة ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى الى غاية الضعف ولقد أجلسنا في السادس من مرضه وأسندنا ظهره الى مخدة وأحضروا فارتش به عقيب شراب بلبن الطبع فشر به فوجد شديداً الحرارة فشكا من شدة حره ففسره وعرض عليه ثانياً فشكا من برده ولم يقضب ولم يصخر رحمه الله ولم يقل سوى هذه الكلمات سبحان الله الايمان أحد تعديلات الماء فخرجت أنا والقاضي من عنده وقد اشتد منا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي انظر هذه الاخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها والله لو ان هذا بعض الناس كان قد ضرب بالقدح رأس من حضره واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل متزايداً وتعب ذهنه ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب واشتد الارجاف في البلد وخاف الناس وتقلوا الاقنعة من الاسواق وغشى الناس من الكأبة ما لا يمكن حكايته ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نتعد كل ليلة الى ان يمضي من الليل ثلثة أو قرب منه ثم نتحضر في باب الدار فإنا وجدنا طريقاً

دخلنا وشاهدناه وانصرفنا والاتعرفنا أحواله وانصرفنا وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا الى بيوتنا حتى يفرؤا أحواله من صفحات وجوهنا ولما كان العاشر من يوم مرضه حقن دفتين وحصل من الحقنة راحة وحصل بعض الخفة وتناول من ماء الشعير مقدار اصالحا وفرح الناس فرحا شديدا فاقنعا على العادة الى ان مضى من الليل هزيع ثم اتينا باب الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا فالتسنا منه تعرف الحال المتحد قد خسل ثم أنفذ لنا مع الملك المعظم نورائشاه يقول ان العرق قد أخذني ساقيه فسكرنا الله على ذلك وانصرفنا طيبة قلوبنا ثم أصبحنا فاجابنا ان العرق أفرط حتى نفسى الفرش وثأثرت به الارض وان اليبس قد تزايد به تزايد عظيمًا وخارت القوة واستشعر الاطباء ولما رأى الملك الافضل ما حل بوالده وتحقق اليأس منه شرع في تخليف الناس وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه واستحضر القضاة وعمل له نسخة من مختصرة محملة للقاصد تضمن الخلف للسلطان مدة حياته وله من بعده وفاته واعتذر الى الناس بان المرض قد اشتد وما نعلم ما يكون وما نفعل هذا الاحتياط على جاري عادة المسالوك ثم سمي القاضي من حلف له جماعة منهم سعد الدين مسعود وأخو بدر الدين مودود والشهنة وناصر الدين صاحب صهيون وسابق الدين صاحب شيزر وخشترين الحكاري ونوشروان الزر زاري وعلكان ومنكلان ثم مذك الحوان واكلوا ولما كان العصر أعيد مجلس الخليف وأحضر ميمون القصري وشمس الدين سنقر الكبير وأسامه وسنقر المشطوب والبيكي الفارس وأبيك الافطس وأخوال الأمير سياروخ وحسام الدين إشارة وبعضهم اشترط في ميمونه وبعضهم لم يشترط ولم يحضر أحدا من الامراء المصريين ولم يتعرض لهم ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر وهي ليلة الثاني عشر من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ووقع في أوائل الامر من أوائل الليل وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة وابن الزكي ولم تكن عادته الحضور في ذلك الوقت وعرض علينا الملك الافضل ان يبيت عنده فلم ير الفاضل ذلك رآيا فان الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة تخاف ان لا تنزل فيقع الصوت في البلدور بمناهب الناس بعضهم بعضا فرأى المصلحة في نزولنا واستحضر الشيخ أبي جعفر امام الكلاسة وهو رجل صالح يبيت بالقلعة حتى ان احضر بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذكر به الشاهادة وذكر الله تعالى ففعل ذلك فقلنا وكل منابؤ ذلوفه ما بنفسه وبات في ذلك الله على حال المنتقدين الى الله تعالى والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره بالله تعالى وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع ليلا يكاد يفوق الا في بعض الاحيان وذكر الشيخ أبو جعفر انه لما انتهى الى قوله تعالى هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة سمعه وهو يقول سبح و هذه بقطة في وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به فقله الحمد على ذلك وكانت وفاته رحمة الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسائة وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح حضر وفاته ووصلت أنا وقلنا وانتقل الى رضوان الله ومحل كرامته ولقد حكي لي انه لما بلغ الشيخ أبو جعفر الى قوله تعالى لا اله الا هو عليه نوكت تبسم وتهل وجهه وسلمها الى ربه وكان يوم لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون وغشى القلعة والباد والديسان الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس انهم يمتنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم فكنت أحل ذلك على ضرب من التجوز والترخص الى ذلك اليوم فاني علمت من نفسي ومن غيري انه لو قبل الفداء لفداء بالنفس ثم جلس ولده الافضل للعزاء في الايوان الشمالي وحفظ باب القلعة الاعزاء الخواص من الامراء والمحميين وكان يوما عظيما قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والاسف والبكاء والاستغاثة عن ان ينظر الى غيره وحفظ المجلس عن ان ينشده فيه شاعر أو يتكلم فيه قصاص أو وعاظ فكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس فتكاد النفوس تهزق لهلول منظرهم ودام الحال على ذلك الى بعد صلاة الظهر ثم اشتغل بغسله وتكفينه فاما ممكن أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة الا بالقرض حتى في غنى التسبب الذي يلبث به الطين وغسله الدولي الفقيه ونذبت الى الوقوف على غسله فلم يكن لي قوة لتحمل ذلك المنظر واخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجي بشوب فوط وكان ذلك وجميع ما احتاج اليه من الثياب في تكفينه قد أحضره الفاضل من وجهه حل عرفه وارتفعت الاصوات عند مشاهدته وعظم الضجيج حتى ان العاقل يخجل ان الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا وغشى الناس من البكاء والويل

كتاب (٢١٤) الروضتين

ما شغلهم عن الصلاة وصلى عليه الناس ارسالا وكان أول من أم بالناس القاضي محي الدين الزكي ثم أعيد درجة الله عليه الى الدار التي في البستان الذي كان ممترضا بها ودفن في الصفة الغربية منها وكان نزوله في حفرة قريبة من صلاة العصر ثم نزل في انشاء النهار ولده الظاهر وعزى الناس فيه وسكن قلوب الناس وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد فابى جد قلب الاخرنا ولاعين الابا كسة الامن شاء الله ثم رجع الناس الى بيوتهم اقمج رجوع ولم يعد منا أحد في تلك الليلة الا انا حضرة ناوارة وانا وجدنا محالامن الحزن واشتغل ذلك اليوم الملك الافضل بكتب الكتب الى اخوته وعمة يخبرهم بهذا الحادث وفي اليوم الثاني جلس للعرض جالوسا عاما واطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر ثم انفض المجلس في ظهيرة ذلك اليوم واستمر الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه وقال العماد جلس السلطان ليلية السبت سادس عشر صفر ونحن عنده حتى مضى من الليل ثلثة وهو بعد ثنا ونحن نحدثه ثم صلى به وبنا امامه وحان قيامه وانفصلنا باحسانه مغضبطين وبامتنانه مرتبطين وأصبحنا يوم السبت وجلسنا في ايوانه تنتظر خروج وجه لوضع الخوان ووجدناه قد أغلق باغلاق باب بهرهنه ولم نشعر بما قضاه القدر وواجهه وخرج من خدمه من أخبر بسقمه ودخول الخوف الى حرمه وأمر الملك الافضل بأن يجلس في الايوان ليستط الخوان يجلس في مكان والده مترعيا وكان من شرط الادب أن يخلى له موضعا قطيعي نامن تلك الحسالة ونكر هنامها سوء الدلالة فتلاعبت فيه العيون وزاجت الظنون ودخلنا اليه ايسلة الا احد للعبادة ومرضه في الزيادة وفي كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب وانتقل من دار الفناء الى دار البقاء في سحر يوم الاربعاء ونابت الظلمة عن الضياء ودخل قره ليلة السابع والعشرين في السرار ودجت مطالع الانوار ومات بموته رجاء الرجال وأظلم بغروب شمس قضاء الافضل وغاصت الايادي وقاضت الاعادي ودفن بقلعة دمشق في مسكنه ودفن جماع الكرم والفضل والدين بمدفنه ثم بنى الملك الافضل قبة شمالي الجامع في جواره بشباك الى الجامع لزواره ونقله اليها يوم عاشوراء سنة اثنى وتسعين واسترجعنا وقتلنا لنا الآن نستعيد بالله ونستعين قال وعمالقت رباعية في المزمع

قال الملك الناصر من كفتي * في الجرد بغير شيتي فأنصفني

ما يعلمن ذلك الملك فني * لم يسبق من الجود الا كفتي

وقال العماد ايضا في رسالته الموسومة بعتي الزمان وكان السلطان رحمه الله لما توفي بالقلعة في منزله وما زال الافضل يترى في موضع يقوله اليه واستشار في ذلك فأشير عليه في سنة تسعين بان يبنى تربته عند مسجد القدم ويبني عندها مدرسة للشافعية وقالوا اذا وصل الملك العزيز استغنى بزيارتها عن الدخول الى دمشق لاجلها وقالوا ان السلطان رحمه الله لما مضى سنة احدى وعثمانين يحترق كان قد اوصى أن يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصار ويكون قبره على السج السائل وطريق القوافل ليدعواله الوارد والصادر والبادي والحاضر ويجوز عليه في الغزوات العساكر قالوا وان تنأت هذه الارض عن مكان الوصية فهي منه قر يسه فأمر الافضل ببناء التربة عند مسجد القدم وتولى عمارتها بدر الدين مودود والى دمشق فاتفق وصول العزيز بترك السنة للصار وهم قد شرعوا في عمارتها فحترب ما كان قد ارفع من البناء ثم استقر الافضل حدود الجامع ليحعل التربة فيها فوق في اذار كانت لبعض الصالحين وهي في حد المكان الذي زاده الاجل الفاضل في المسجد فاشترأها منه وأمر بعمارها قبة فعمرت ونقل اليها السلطان يوم عاشوراء من سنة اثنى تسعين وتسعين بكرة الخسيس وشي الافضل بين يدي نابوته وأراد العلماء والادعياء حمله على أعناقهم التي فيها منته فقال الافضل لفته أديتكم الصالحة التي هي في المعاد جنته وحله مما اليكه وخدمه وأولياؤه وحشمه وأخرج من باب القلعة في البلد على دار الحديث الحوالب البريد وأدخل منه الى الجامع ووضع قدما باب النسر وصلى عليه القاضي محي الدين محمد بن القرشي باذن الافضل ثم حمل منه على الرؤس الى بطن ملحدته ثم جاء الافضل وحده ودخل لحدته وأودعه وخرج وسد الباب على أبيه وجلس هناك في الجامع ثلاثة أيام للعرض وانفتحت الشام أخت السلطان في هذه النوبة أموالا كثيرة قال محمد بن القادسي وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الاوّل شاعت الاخبار بعني بغداد بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب وذكر انه دفن

في أخبار (٢١٥) الدولتين

معه سيفة الذي كان معه في الجهاد وكان ذلك برأى الفاضل وقيل عنه هذا يتوكل عليه الى الجنة وان الفاضل كفته من ماله وتولى غسله الفاضل وخطيب دمشق قلت وحكي له انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في جماعة من الصحابة رضي الله عنهم زاروا قبر صلاح الدين رحمه الله وانهم لما صاروا عند الشباك مسجودوا ووجدت في بعض الكتب الفاضلية (ان رجلا رأى ليلة وفاة السلطان كأن قائل يقول له قد خرج الليلة يوسف من السجن وهو من الاثر النبوي (الدينيا من المؤمنين وجنة الكافر) قال وما كان يوسف نرجة الله عليه في الدنيا بالاضافة الى ما صار اليه في الآخرة الا في سجن رضي الله عن تلك الروح وفتح له باب الجنة فهو آخر ما كان يرجوه من الفتوح) ومن كلام غيره في وفاة السلطان رحمه الله تعالى (أقلت الشمس عند الصباح وذهبت روح الدنيا الذي ذهب بذهابها كثير من الأرواح وتلك ساعة ظلت لها الالباب حائرة ومثلت فيها السماء مائره والجبال سائره وأغمد سيف الله الذي كان على أعدائه دائم التبريد وخفت الارض من جبلها الذي كان يمنعه ان تمد وأصبح الاسلام وقد قدنا صرة ثا كل لوحيد فهو أعظم فاقد لا عظم فعتيد وليس أحدم الناس الا قدصم عن الخبر وأصيب في سواد القلب والبصر) قال (وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عمر) وختم الهاد كتابه البرق الشاي بقصيدة تروى بها السلطان رحمه الله عدد هافي ديوانه مائتان واثنان وثلاثون بيتاؤها

- شمل الهدى والملك عم شتاته * والده رساء واقطعت حسناته
- أبن الذي مذل بزل مخشية * مرجسوة رهباته وهباته
- أبن الذي كانت له طاعاتنا * مبدولة ولرب طاعاته
- بالله أبن الناصر الملك الذي * لله خالصة صفت نيانه
- أبن الذي مازال سلطانا لنا * يرجى نداء وتتقى سطواته
- أبن الذي شرف الزمان بفضله * وصمت على الفضلاء تشريفاته
- أبن الذي عنت الفسرج لبأسه * ذلا ومنها أدركت ناراته
- اغلال أعناق العدا أسيافه * أطواق أجياد الوري مناته
- لم يجد تدبير الطبيب وكم * أجدت لظب الدهر تدبيراته
- من في الجهاد صفاحه ما أغمدت * بالنصر حتى أغمدت صفحاته
- من في مدور الكفر صدر فاته * حتى توارت بالصباح فقاته
- لذا المتساعب في الجهاد ولم تكن * مذل عاش قط لذاته لذاته
- مسعود غمدواته محجودة * روحاته ميسونة مخجواته
- في نصرة الاسلام بسمردائنا * لبطول فيروض الجنان سذاته
- لا تحسبوه مات شخص واحد * فمات كل العالمين مماته
- ملك عن الاسلام كان محاميا * أبدا اذا ما سلمته حماه
- قد أنظمت مذبذب عن بادوره * لما خلت من بدرة داراته
- دفن السماح فليس ينش بعدما * أودى الى يوم النشور رفاته
- الدين بعد أبي المظفر يوسف * أقوت قواه وأقفر ساحاته
- جبل تضعضع من تضعضع ركنه * أركاننا وتم هذاته
- ما كنت أعلم ان طودا شامخا * يموى ولا تهوى بنامهواته
- ما كنت أعلم ان بحر اطاميا * فينا يطعم وتنهمى زخراته
- بحر خلامن وارديه ولم تزل * محفوفة بوفوده حفاته
- من التياهي والارامل راحم * متعطف مفضوضة صدقاته
- لو كان في عصر النبي لانتزلت * في ذكره من ذكره آياته

ص ٢١٦ (الروضتين)

فعلی صلاح الدین یوسف دائماً * رضوان رب العرش بل صلاته
لنریحه مقیا السحاب فان یغیب * تحضر لرحمة ربه سسقیاته
وکعادة الیبت المقدس یحزن السببت الحرام علیه بل عرفاته
من اللغور وقد عداها حفظه * من للجهاد ولم تعد عاداته
بکت الصوامر والصورا هل اذخلت * من سبلها وركوبها غزواته
وبسیفه صداه لحزن مصابه * اذلیس یسقی بعده صدياته
یا وحشتا للیبض فی اغمادها * لا تنقضها للسوخی عزماته
یا وحشة الاسلام یوم تمكنت * فی کل قلب مؤمن روعاته
یا حشر تامن بأس راحته الذی * یقضي الزمان وما انقضت حشراته
ملأت مهابته البلاد فانه * أسد وان بلادہ غاباته
ما کان أسرع عصره لما انقضی * فکانما سوانه ساعاته
لم أنس یوم السببت وهو لما به * یدى السبات وقد بدت غشیاته
والشر منمنه تبجبت أنواره * والوجه منه تلاً لأن سبجاته
ویقول لله المہم من حکمة * فی مرضه حصلت به امر صاته
وقف الملوک علی انتظار رکو به * لهم ففیم تأخرت رکیاته
کانوا وقوفا أمس تحت رکانه * والیوم هم حول السریر مشاته
ومما لا الآفاق ساعیه له * حتی تمی یفقهس سعاته
هذی مناشیر الممالک تقضی * توقیعہ فیها فاین دواته
قد کان وعدک فی الربیع یجمعهما * هذا الربیع وقد دنا میقاته
والجندي الذی بان جدد عرضه * واذا أمرت تجددت نفقاته
والقدس طامحة الیک عیونه * بحمل فقد طمحت الیه هداته
والغرب منتظر طلوعک نضوه * حتی نفی الی هداک بغاته
والشرق یرجو غرب عزمک ما ضیا * فی ملکک حتی تطیع عصاته
مفری بأسداء الجبل کأنما * فرضت علیه کالصلاة صلاته
هل للداوؤک مضاًؤه فی موقف * شدت علی أهداته شداته
واذا الملوک سعوا وقصر سعیم * رجحت وقد نجحت به مسعانه
کم جاءه التوفیق فی وقعاته * من کان بالتوفیق توقیعاته

قال ووجد بخط العماد فی حاشیة دیوانه كانت علامته (الحمد لله وبه توفیق)

یاراعی الدین حین تمكنت * منه الذئاب وأسلمته رعانه
ما کان ضرک لواقف مراعی * دینا تولى منذر حلت ولانه
أضجرت منا أم أنفت فلم تکن * ممن تصاب لشدة ضهراته
أرضیت تحت الارض یامن لم یزل * فوق السماء علیه درجته
فأرقت ملکاً غیر باق متعباً * ووصلت ملکاً باقیما راحته
اعز زعلی عینی برؤية بهجة السدینا ووجهک لا ترى بهجاته
ابنی صلاح الدین ان اباکم * ما زال یأبى ما الکرام اناته
لا تقصدوا الا بسنة فضله * لتطیب فی مهاد النعم سناته
هدهامه اذ وعدله وسماحه * لترد عن نجیم الشمان شماته

ولئن هوى جبل لقد بنيت لنا * بينيه من هضباته ذرواته
وبفضل أفضله وعز عزه * وظهور ظاهره لناسرواته
الافضل الملك الذي ظهرت على * سدنيا بنهر جلاله جلاوته
والدين بالملك العزيز عماده * عثمان حاليمة لنا حالاته
والملك غازي الظاهر العالي الذي * صحت لظهاره على مغزاته
والنابيسف الدين أظهر نصرة * بالعدل الملك المظهر ذاته
والعماد فيه من قصيدة أخرى

من للعلماء للذرى من لاهدى * يحجبه من لبأس من للنائل
طلب البقاء للملكه في أجبل * اذ لم يبق بقاء ملك العاجل
بحر أعداءه بحر راره * وبسيفه فتحت بلاد الساحل
من كان أهل الحق في أيامه * وبغزه يردون أهل الباطل
وفتوحه والقدس من إكراها * أبقت له فضلا بغير مساجل
ما كنت أستسقى بغيرك وأبلا * ورأيت جودك تحجج لا تأويل
فسقاك رضوان الأكله لانتى * لا أرتضى سقيا الغمام الماطل

(فصل) في تركه السلطان ووصف أخلاقه رحمه الله ذكر القاضي ابن شداد أنه إمامات لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية ودينار واحد ذهباً سوريا ولم يخلف ملكاً لا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا مزرعة يعي في البلد ولا مسقفاً ولا ظاهراً مستغلاً من أنواع الاملاك وقال العماد في كتاب الفتح خلف السلطان رحمه الله سبعة عشر واداً ذكره أو ابنة صغيرة وأبقى له ما أثر تأثيره ومحاسن كسبه ولم يخلف في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهماً فانه كان باخراً ما يدخل من الأموال في المذكرات والغرامات مغرمًا وما كان يجود بالمال قبل الحصول ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول وإذا عرف بوصول حل وقعر عليه باضعافه وخص الآحاد من ذوى الغنائم الجهاد بألافه ولا جبهه أحد بالرد إذا سأل به بل تلطف له كأنه أسأله فانه يقول ما عندنا شيء الساعة ومعه انه يعطى وان كان يعطى وأنه يصيبه بالنوال ولا يخفى وكان مشغوفاً في سبيل الله بالاتفاق موقوفاً عزمه في الاعداء بانداء الأتجال وفي الأولياء باجراً الارزاق وما عقر في سبيل الله فرس أوجرح الأوعوض مالكة مثله وزاده من فضله فضله وحسب ما وهبه من الخيل العرب والأكاديش الجياد للحاضر برمه في صف الجهاد مدة ثلاث سنين وشهر من تذلل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان وثمانين فكان تقديره اثني عشر ألف رأس من حصان وحجيرة وكديش وذلك غير ما أطلقه من المال في اثمان الخيل المصابة في القتال ولم يكن له فرس ركبته الا وهو موهوب أو موعوده وصاحبه ملازم في طلبه ومحاضر اللقاء الاستعار فرس فركبه ومهجرياده فاذا نزل جاء صاحبه واستاده فكلهم ركب خيله ويطلب خيره وهو يستعير جواداً ويستعير في الجهاد اجتماعاً قال في البرق وحضر بعد عده عند بعض الملوك وقد قادت اليه عرب فقيل له كن السلطان يرضع هذه وما عده لها حساب ونسب ما جوده بها الى السرف وعدوه من معاييه واعرضوا عن ذكره مفخرة ومناقبه وبمثل ذلك استتب له الفتح وخلصت له طاعة كتائبه قال في الفتح لا يلبس الاما يحسل لبسه وتطيب به نفسه كل كان والقطن والصوف وكسوته بخرجها في اسداه المعروف وكانت محاضرة مصونة من الحظر وخاواته مقدسة بالظهر وبمحاسن منزلة عن الهزء والهمز والمحافل حافلة بأهل الفضل وما سمعت له قط كلمة تمسقط ولا لفظة فظة تسخط ويغلف على الكافرين الفاجرين ويلين للمؤمنين المقيمين ويؤثر سماع الاحاديث بالاسانيد ويحكم العلماء عند دونه في العلم الشرعي المفيد وكان لمدامه الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء اعلم منهم بالاحكام الشرعية والاسباب المرضية والادلة المرجعية وكان من جالسه لا يعلم انه يجالس السلطان بل يعتقد انه يجالس أخ من الاخوان وكان

حليما مقيلا للعثرات مغاويرا عن المفوات تقبليا وفيما مضى بغضى ولا يفضى وبشر ولا ينقلب ماردا سائلا ولا صندا تائلا ولا أخجل قائلا ولا خيب أملا قال ومن جملة مناقبه أنه تأخر عنه في بعض سفراته الأمير أبو بوب كنان فلما وصل سأل عنه سبب تخلفه فذكر دينا فاحضر غراما وتقبل بالدين وكان اثني عشر ألف دينار مصرية وكمرأ قال ولما كتبنا القدس في سنة ثمان وثمانين كتب اليه سييف الدين منقذنا بيه بمصر أن واحدا من معاملته يبلغ فاستنص منها التي دينار وتسحب وربما وصل الى الباب فحيل وتعمل وكذب فجاءه من أخيه السلطان أن الرجل بالباب فقال قل له أن ابن منقذ يملك فاجهد أن لا تقع في عينه فنجبنا من حمله وكرمه بعد أن قلنا قدم الرجل الى حينه بقدمه قال وعما ذكره في أول سفرتي معه الى مصر سنة اثنتين وسبعين أنه حوسب صاحب ديوانه عما نولاه في زمانه فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار بآية عليه فاطلبها ولا ذكرها وأراه أنه ما عرفها على أن صاحب الديوان ما أنكرها وكان يرضى من الأعمال بما تجمل صفوا عرفوا وتحصل حلوا وكله يخرج في الجود والجهاد ثم لم يرض له بالعطفه فولاه ديوان جيشه قال ولما كتبنا هجران عم بصداقته الفقراء والمساكين وكتبنا في نواحيه في الولايات باخراج الصدقات وقال لي أكتب الى الصفي بن القبايض بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية فقلت إنما الذهب الذي عنده مصري فقال فيتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية وأشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما ويرتكب في كسب الأجر أناما نسمع ومنع وتاجر الله وربح ولما عزم على الرحيل من حران أقاض بها الفضل وبيت الاحسان وقال لي يوم الرحيل انظر كم بقي بالباب من الوافدين أبناء السبيل وهذه ثلثمائة دينار أقسمها عليهم بالقلم على أقدارهم وكانوا عذرة تسيرة لم تبلغ عشرة ففینت لكل اسم قسما فبلغ أربع مائة دينار فأعطته وقلت انقص من كل اسم ربعا فقال اجر ما جرى به القلم قال وكان رحمه الله اذا أطلق لعاف عارفه وقلت له هذه ما تركفها ردها مضاعفة قال وكان بغضب للكثير ولا بغضى عن الصغار ويرشدا الى الهدى ويهدي الى الرشاد ويستدال الامر ويأمر بالساد فكل مما ليكه وخواصه بل أمرأه وأجناده اعف من الزهاد والعباد قال ورأى لي يوما دواة محلاة بالفضة فأنكرها فقلت له ان الشيخ أباب محمد والد أبي المعالي قد ذكر وجهاني جوارها ثم لم أكتب بها عنده بعد ها وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها ومواظبا على اداء مفروضاتها ومسئولاتها فخارأيتها صلى الا في جماعه ولم يؤثر له صلاة من ساعة الى ساعة وكان له امام راتب ملازم مواظب فان غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم اذ اهرقه متقياء تهنيتا لا ثم وكان يأخذ بالشرع ويعطى به ولم يكن الى انهم مصغيا ولم يرزل قوله ملغيا ولا يتعيف ولا يتغير ولا يتغير بل اذا عزم توكل على الله فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان الا بتفضيل الشرع وما زال ناصر التوحيد وقامعا جمع أهل البدع بالتبديد شافعي المذهب أصولا وفروعا معتقلا معقولا ومسجوعا يدين أهل التزبه ويقصى أهل التشبيه ويدعم استفادة فقه الفقيه واستزادة نباهة النبيه ووجهة الوجيه فالعالمون في عدله والعالمون في فضله والبلادي آمنه والصادق منه

(فصل) قال القاضي ابن شداد كان مولد السلطان رحمه الله في شهر رنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقعة تنكريت وكان والده أبو بوب بن شادي واليا بها وكان كريما أرحميا حلما حسن الاخلاق مولده يدورن ثم اتفق له الانتقال من تنكريت الى الموصل وانتقل ولدا منذ كور معه وأقام بها الى أن تزعر وكان والده محترما مقدما وهو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أنابك زنكي واتفق لوالده الانتقال الى الشام وأعطى بعلبك وأقام بها مدة ومعه ولده المذكور فأقام في خدمة والده يترى تحت حجره ويرتفع ثدي محاسن اخلاقه حتى بدت منه امارات السعادة ولاحت عليه لوانح التقدم والسيادة وقدمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله وعزل عليه ونظر اليه وقر به وخصصه ولم يرزل كلما تقدم فقام به ومنه أسباب تقتضي تقديمه الى ما هو أعلى منه حتى اتفق لهما أسد الدين شيركوه الحركة الى مصر والنهوض اليها وقدمه في ذلك ثم قال ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للاصول الشرعية مما ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بني الاسلام على خمس شهادة أن لا اله الا الله وأقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان والحج الى بيت الله الحرام فكان رحمه الله حسن

في اخبار (٢١٩) الدولتين

لعقده كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عهده عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكاره الفقهاء ويتفهم من ذلك ما يحتاج الى تفهمه بحيث كان اذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه ولا حسنا وان لم يكن بعبارة الفقهاء تحصل من ذلك سلامة عقده عن كدر التشبه والتعطيل جارية على غلط الاستقامة وكان قد جمع له الشيخ الامام نطب الدين الزبائري رحمه الله عقيدة تجمع جميع ما يحتاج اليه في هذا السبب وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم من الصغر ورأيت وهو يأخذها عايزهم وهم يقرؤونهم حفظهم عليه وأما الصلاة فانه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة حتى انه ذكر رحمه الله ان له سنين ماضى الاجاعة وكان اذا مرض استدعى الامام وحده وكان نفسه القيام ويصلي جماعة وكان يواظب على السنن الزواجب وكان له ركعات يصليها ان استيقظ بوقت من الليل والآن ما قبل صلاة الصبح وما كان يترك الصلاة مادام عقله عليه ولقد رأيته يصلي في مرضه الذي مات فيه قائما وترك الصلاة الا في الايام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه وكان اذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى وأما الزكاة فانه مات رضي الله عنه ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة وأما صدقة النفل فانما استنفدت جميع ما ملكه من الاموال وأما صوم رمضان فانه كان عليه فيه فوائت بسبب امراض توارثت عليه في رمضان متعده وكان القاضي الفاضل قد تولى ثبت تلك الايام وشرع رحمه الله في قضاء فوائت ذلك في القدس الشريف في السنة التي توفي فيها وواظب على الصوم مقدار ازيد اعلى شهر فانه كان عليه فوائت رمضانين شغلته الامراض وملازمة الجهاد عن قضاها وكان الصوم لا يوافق مزاجه فالحمد لله الصوم لقضاء الفوائت فكان يصوم وأنا ثبت الايام التي يصومها فان القاضي كان غائبا والطبيب يولمه وهو لا يسمع ويقول ما أعلم ما يكون فكان انه كان له ما مر به ولم يزل حتى قضى ما عليه رحمه الله وأما الحج فانه لم يزل عازما عليه واولياله لا سيما في العام الذي توفي فيه فانه صمم العزم عليه وأمر بالتأهب وعات الزادة ولم يبق الا المسير فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت و فراغ اليد عما يليق بأشاله فأخبره الى العام المستقبلي فغضى الله ما قضى قال وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام وكان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم حتى انه كان يستخير امامه ويشترط عليه أن يكون عالما بعلم القرآن العظيم متقنا لحفظه وكان يستعري من يحضره في الليل وهو في برجيه الحزين والثلثة والاربعة وهو يسمع وكان يستعري في مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن ذرائه فقر به وجعل له حظا من خاص طعامه ووقف عليه وعلى أبيه جزأ من مزرعة وكان رحمه الله خاشع القلب رقيق الدعة اذا سمع القرآن العزيز يتشبع قلبه وتدفع عينه في معظم أوقاته وكان شديد الرغبة في سماع الحديث ومتى سمع عن شيخ زى رواية عالية وسماع كثير فان كان من يحضر عنده استخضره وسمع عليه وسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومالكه والمختصين به وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث اجلالا له وان كان الشيخ يميل لا يطرأ أبواب السلطين ويتخاضى عن الحضور في مجالسهم سعى اليه وسمع عليه تردد الى الحافظ السلفي بالاسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة وكان يجب أن يقرأ الحديث بنفسه فكان يستحضر في خلوته ويحضر شيئا من كتب الحديث ويقرأ هو فاذا امر بحديث فيه عبرة رقى قلبه ودفع عنه وكان كثير التعظيم لشعائر الدين قائلا بعث الأجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنة والمسي بال نار مصدقا بجميع ما وردت به الشرائع منشرحا بذلك صدره مبعضا للفسلفة والمعطلة والذهرية ومن يعاند الله ريعه المظهرة ولقد أمر ولده الله امر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأ يقال له النهر وردى قيل عنه انه كان معاند الشرائع مبطلا وكان قد قبض عليه وله المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمر بقتله وصلبه أماما فقتله وكان حس الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الايالة اليه ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه فبكي التجاه الى الله تعالى عند خوفه من قصد الفرغ في بيت المقدس وامتناع أصحابه من دخوله للمصر فصلى ودعا فكني ذلك وقد تقدم ذكره ثم قال وكان رحمه الله عادلا زافار حيا ناصرا للضعيف على القوي وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمحتاجين حتى يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز ومريضة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفرا

كتاب (٢٢٠) الروضتين

وحضر اعلى انه كان في جميع زمانه قابلا لما يعرض عليه من القصص كاشفا لما ينهى اليه من المظالم وكان يجمع القصص في كل يوم ثم يجلس مع الكاتب ساعة في الليل أو في النهار و يوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه وما استغاث اليه أحد الا وقف وسمع كلامه وأخذ قصته وكشف قصيته ولقد رأيتُه وقد استغاث اليه انسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه وأنفذ اليه ليحضره في مجلس الحكم فما خلصه الا ان شهد عليه شاهدين انه وكل القاضي أمين الدين أباه القاسم قاضي حماه في المحامسة فأقاما الشهادتين عندي في مجلسه فأمرت بأب القاسم بمساواة الخصم فساواه وكان من خواص جلساء السلطان شجرت المحامكة بينهما و اتجهت اليين على تقي الدين وكان تقي الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ولم يحابه في الحق قال وكننت يوما في مجلس الحكم بالقدس الشريف اذ دخل علي شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي ومعه كتاب حكيم صار فقحه وقال خصمي السلطان وهذا بساط الشرع وقد سمعنا انك لا تعجب أي قضية هو وخمسك فقال ان سنقر الخلاطي كان يملوك ولم يزل علي ملكي الى أن مات وكان في يده أموال عظيمة كلها الى ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالب به فقلت يا شيخ وما الذي أقعدك الي هذه الغاية فقال الحقوق لا تبطل بالتأخير وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي الى أن مات فأخذت الكتاب منه وتصحفت منه ونبهته بتسعين حليلة سنقر الخلاطي وانه قد استأجره من فلان التجار بجيش في اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا وانه لم يزل في ملكه الى أن شذعن يده في سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه وعدم الشرط الى آخره فنجيت من هذه القضية وأعلنت السلطان بذلك فأحضره واستدناه حتى جلس بين يدي وكننت الي جانبه ثم أنفرك من طراحتيه حتى ساواه رحمه الله تعالى ثم ادعى الرجل وفتح كتابه وقرئ تاريخه فقال السلطان ان لي من يشهد ان سنقر هذا كان في ملكي وفي يدي بمصر واني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم علي هذا التاريخ بسنة وانه لم يزل في يدي وملك لي الى أن اعتقه ثم استخضر جماعة من اعيان الامر المجاهدين فشهدوا بذلك وحكوا القضية كاد كرها وذكروا التاريخ كما ادعاه فابلس الرجل فلما له يامولا نا هذا الرجل ما فعل ذلك الا طلبا لارحام السلطان وقد حضر بين يدي المولى وما يحسن ان يرجع غائب القصد فقال هذا باب آخر وتقدم له بخلعة ونقطة بالغة قال فانظر الى ما في طي هذه القضية من المعاني الغريبة البهيبة من التواضع والالتقياد الى الحق وارغام النفس والكرم في موضع المواخذة مع القدرة التامة رحمة الله عليه قال وكرمه كان أظهر من أن يسطر كان رحمه الله يب الاقاليم وفتح أمد فطلبها منه ابن قرأ رسلان فأعطاه ياهاور آيته وقد اجتمع عنده وفود بالقدس ولم يكن في الحزب انما نعاطيم فباع قرية من بيت المال وخصصها ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد وكان يعطي في وقت الضائقة كما يعطي في حال السعة وكان نواب خزائنه يحضون عنه شيئا من المال حذر ان ينجأهم مهم لعلمهم انه متى علم به أخرجه وسعته يوما يقول يمكن في الناس من ينظر الى المال كما ينظر الى التراب فكانه أراد بذلك نفسه وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب وما سمعته يقول أعطينا فلان وكان يعطي الكثير ويبسط وجهه للعطى بسط من لم يعطه شيئا وكان الناس يستزيدونه في كل وقت وما سمعته قط يقول قد زدوني من ارفاكم أنزيد وأكثر اسائل في ذلك كان يكون على لساني ويدي وكننت أنجعل من كثرة ما يطلبون ولا أنجعل منه لعلي بعدد مؤاخذته بذلك وما خدمه قط أحد الا أوغنا من سؤال غيره وأما تعدد عطاياه فقال حضرنا بعد ما ذهب من الخيل بارج عكا لا غير فكان عشرة آلاف رأس ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر اللهم انك الحمته الكرم وأنت أكرم الأكرمين فنكرم عليه برحمتك ورضوانك بأرحم الراحمين قال وكان رحمه الله من عطاء الشجعان قوى النفس شديد الباس عظيم الثبات لايحوله أمر ولقد رأيتُه من ابطا في مقابلة عدوة عظيمة من الفرنج ونجده تتواصل وعساكرهم تتواتر وهو لا يزداد الا قوة نفس وصبرا ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مراكبا علي عكا وأنا أعد هاتين بعد صلاة العصر الى غروب الشمس وهو لا يزداد الا قوة نفس ولقد كان يعطي دستور في أوائل الشتاء ويسقي في شرفة بيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة ولقد سألت باليسان بن بارزان وهو من كبار ملوك الساحل وهو جالس بين يديه يوم انعقاد الصلح عن عدتهم فقال الترجمان هنه انه يقول كنت أنا وصاحب

صيدا وكان ايضا من ملوكهم وعقلا ثم قاصدين عسكرا من صور فلما اشر فناء عليه تحموا وزناه فخره هو بنحو مائة ألف وحرزته انا بنحو مائة ألف وقال عكس ذلك قلت فكيف هلك منهم فقال اما بالقتل فمصر ب من مائة ألف وأما بالموت والفرق فلا يعلم ومارجع من هذا العالم الا الاقل قال وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو وكل يوم مرة أو مرتين اذا كان قريبا منهم وكان اذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد وعلى يده حبيب ويحرق العساكر من المينة الى المينة رتب الاطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع رماها وكان يشارف العدو ويحاوره ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفين وذلك اني قلت له قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة وما نقل انه سمع بين الصفين فان رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسنا فأذن في ذلك فاحضر جزءا هناك من له به سماع فقرأ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين يشي نارة ويقف أخرى ومارأيت به استكثر العدو أصلا ولا استعظم أمرهم قط وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير يذكر بين يديه الاقسام كلها ويرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدة ولا غضب يعثر به ولقد انهمز المسلمون في يوم المصافاة الكبر بمرج عكا حتى القلج ورجاله ووقع الكؤس والعلم وهو ثابت القدم في نفر يسير وقد انحاز الى الجبل يجمع الناس ويرددهم ويحلقهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو في ذاك اليوم وقتل منهم زهاء مائة ألف ما بين راجل وفارس ولم يزل مصابرا لهم وهم في العدو لا وافية الا أن ظاهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم فان الضعف والحلاكة كان فيهم أكثر ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها وكانت المصلحة في الصلح وكان رحمه الله يرض ويصم ويعتبر به أحوالهم وله وهو مصابري ابط وتراى النار ان ويسمع منهم صوت الناقوس ويسمعون مناصوت الاذان الى ان قضى الامر قال وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به ولو حالف حالف انه ما أنفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولا درهما الا في الجهاد وفي الارفاة لصدق وفي يمينه ولقد كان الجهاد وحيه في الشغف به قد امتلأ على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيم بحيث ما كان له حديث الا فيه ولا نظر الا في الله ولا اهتمام الا بالرجال ولا ميل الا الى من يذكر ويبحث عليه ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذهم وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الريح وجمعة وبيرة ولقد وقعت عليه الخيفة في ليلة ريمه على مرج عكا فلم يكن في البرج لفتنته ولا يزيد ذلك الارغبة ومصابرة واهتماما قلت وشواهد ما ذكره القاضي من ذلك كثيرة وقد سبقته متروكة في رتبة. ثم رحمه الله منها ما فاساه على حصار كوكب من الامطار والواحل وقال الرشيد بن النابلسي من قصيدته

ما أجمع الدين والديار بما لكها الصديق يوسف لا الذنبه الغير
ملك تساوى جادى في الجهاد وتغوزلديه وضاهى ناجر اصفر
فليس يثنى حيران توفد عن * رضى الاله والان اغدق المطر
ولا ينهنه عما يكابده * ضج أعيد معاليه ولا خبير
ولا يرى الروح الاظهر سلهم * في بطن معركة كويها وعسر
صبر جميل كذا الشهد في فقه * وعند كل ملك طمعه الصبر

قال القاضي وكان الرجل اذا أراد أن يتقرب اليه يحمله على الجهاد أويذ ك شيئا من اخبار الجهاد ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد وانما جمع له فيه كتابا جعت فيه اديبه وكل آية تورد فيه وكل حديث روى فيه وشرحت عربها وكان رحمه الله كثيرا يابط العه حتى أخذ منه ولا افضل قال ولا حكي عنه ما سمعت منه في ذلك وذلك انه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وعثمانين وأعطى العساكر دستورا فاحضه عسكر مصر في العود الى مصر وكان مقدمه أثناء العادل فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العبدى القديس ففعل بوقع له به معنى معهم الى عسقلان وبودعهم ثم بعد على طريق الساحل ويتفقد البلاد للساحلية الى عكا ويرتب أجودها لشارف عليه ان لا يفعل فان العساكر اذا فارقوا تثنى في عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور وهذه محظرة عظيمة لم يفتت ودع أخاه والعسكر بعسقلان ثم سار على الساحل طابى عكا وكان الزمان شتاء عظيما وبها هجرها الجهاد

نينا وموجه كالجبال كقال الله تعالى وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي لو قال لي قادر لوجزت في البحر مديلا واحدا ملكتك الدنيا ما كنت أقول واستخففت رأي من يركب بحر جاء كسب دينارا ودرهم واستحسن رأي من لا يقبل شهادة راكب البحر هذا كله خطري لعظم الهول بي شاعده من حركة البحر وقوته فبينما أنا في ذلك اذا التفت الى وقال في نفسه انه متى يدرك الله تعالى ففتح بقية ما حل قسمة البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر الى جزائره اتبهم فيها حتى لا أبقى على وجه الارض فيكون الله أو أموت فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يحطري وقلت له ليس في الارض أشجع سامن المولى ولا أقوى نية منه في نصره دين الله وحكيته ما خطري ثم قلت ما هذه الانية جميلة وله كن المولى يسير البحر العساكر وهو سور الاسلام ولا ينبغي ان يخاطر بنفسه فقال أنا أستعيتك ما أشرف الميتات فقلت الموت سبيل الله فقتل غاية ما في الباب ان أموت أشرف الميتات قال فانظر الى هذه الطوبى ما أظهرها والى هذه نفس ما أشجعها وأجسرهما اللهم انك تعلم اني بذل جهده في نصره دينك رجاء رحمتك فارجه قال وأما صبره فلقد أتته برج عكا وعلى غاية من مرض اعترابه بسبب كثرة دمايل كانت ظهرت عليه من وسطه الى ركبته بحيث يستطيع الجلوس وانما يكون متكئا على جانبه اذا كان في الخيمة وامتنع من مد الطعام وبين يديه لجهز عن الجلوس كان يأمر ان يفرق على الناس وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الى صلاة الظهر يطوف على الطلاب من العصر الى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الالم وقوة ضربان النمل ما كان يحبب وكان يقول رحمه الله اذا كبت يزول عني المها حتى أنزل وهذه غناية رانية ولقد مرضت ونحن على الحروبة وكان قد تأخر عن تل المجل بسبب مرضه فبلغ الفرح في ذلك الخبر واطمأنني ان ينالوا من المسلمين سببا بسبب مرضه وهي نوبة النهر فخر جوافي مرحلة الى الامار التي تحت التل ثم رحل العسوقي اليوم الثاني فطلبنا فرج الله على مضض ورتب العساكر للحرب وجعل أولاده في القلب ونزل هو وراء القوم يطلبه وكلما سار الى العدو يطلب رأس النهر سارهو يستدري ورائهم حتى يقطع بينهم وبين خيامهم وهو رحمه الله يسير ساعة ثم ينزل بستر محبوت على رأسه من شدة وقع الشمس ولا ينضب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفه ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو على تل قبالتهم مطلق عيهم الى ان دخل الليل ثم أمر العساكر ان تعود الى محل المصابرة وان تواتحت السلاح وتأخر هو الى قمة الجبل وضربت له خيمة لطيفة وبنت تلك الليلة أجمع اباو الطيب غرضه وشاغله وهو بنام تارة ويستيقظ أخرى حتى لاح الصباح ثم ضرب البوق وركب رحمه الله وركبت العساكر وأحدثت بالعدو ورحل العدو عائدا الى خيمه من الجانب الغربي للنهر وضايقه المسلمون مضايقة شديدة وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتسابا للفضل والظاهر والظافر وجميع من حضر منهم ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده الا أنا وطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الاعلام والبارق لا غير فيظن الرائي لها عن بعد ان تحتها خلقا كثيرا وليس تحتها الا واحد يعجل على عظم رحمه الله وبقي في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو الى آخر النهار ثم أمرهم ان يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم ويتناعلى ما بننا عليه الى الصباح وعاد العساكر الى ما كان عليه بالامس من مضايقة العدو قال ولقد رأيت له عليه على صفد وهو محاصر ها وقال لانام الليلة حتى ينصب لنا خمسة محانبق ورتب لكل مخبئ في قوما ولون نصبه وكنا طول الليل في خدمته في الدفكاهة وأرغد عيشه والرسائل تتواصل مخبئة بانه نصب من المخبئ في القلائي كذا ومن الاخر كذا حتى أتى الصباح وقد فرغ منها وكانت من أجل الليل الى ما أشد هاردا ومطرارا قال ولقد رأيت له وقد جاءه خبر وفاة ولده بالغ أو امرأته يسمى اسماعيل فوقف على الكتاب ولم يعرف أحد ولم يعرف حتى سمعنا من غيره ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى انه لما قرأ الكتاب دمعت عينه رحمه الله قال ولقد رأيت له وتدوصله خبر وفاة تقي الدين ونحن في مقابلة القرية جريدة على الرملة وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقطع الخيام ويقف الناس على ظهري الصباح والند وبنار وريبتنا في شوط فرس لا غير فاحضر العادل وابن جذروا بن المقدم وابن الداية سابق الدين وأمر بالناس فابعدوا عن الخيمة فجهت لم يبق حولها أحد عن غلوة سهم ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكاء شديد حتى أبكا من غمنا ان نعلم السبب ثم قال رحمه الله والعبرة بتخلفه توفي تقي الدين فاشتد بكاءه وبكاء الجماعة ثم عدت الى نفسي

في اخبار (٢٢٣) الدولتين

فقلت أستغفر والله من هذه الحالة وانظروا أين أنتم واعرضوا عما سواه فقال رحمه الله نعم استغفر الله وأخذ يذكرها ثم قال لا يعلم هذا أحد قال وكان رحمه الله شديد الشوق والشغف بالولادة الصالحة وهو صابر على مفارقتهم راض به عنهم عنه وكان صابرا على مر العيش وشوقته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا بالله تعالى اللهم أنه ترك ذلك كله ابتغاء رضاءك فأرض عنه قال ولقد كان رحمه الله حليما متجاوزا لظليل الغضب ولقد كنت بخدمة مخرج عيون قبل خروج الفرج إلى عكا يمر الله فتحها وكان من عادته أنه يركب في وقت الركوب ثم ينزل فيسجد الطعام ويأكل كل معا الناس ثم ينفض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويصلي ويجلس خلوة وأنا في خدمته بقرأيا من الحديث أو شيئا من الفقه ولقد قرأ على كتابا مختصرا للسليم الرازي يشتمل على الأربعين من الفقه فقرأ يوما على عادته ومذا الطعام بين يديه ثم عزم على النوض فقيل له إن وقت الصلاة قد قرب فعاد إلى المجلس وقال نصلي وننام ثم جلس يتحدث حديث متصغر وقد أدخل المكان الاعسازم فتقدم إليه جملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين فقال له أنا الآن ضيق آخرها ساعة فلم يفعل وتذمها إلى تريب من وجهه الكريم بيده وفكها بحيث يقرأها فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فرفعه وقال رجل مستحي فقال يوقع له المولى فقال ليست الدواة حاضرة الآن وكان رحمه الله جالسا في باب الخركاه بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها والدواة في صدر الخركاه الخركاة كبيرة فقال له المخاطب ها هي الدواة في صدر الخركاه قال القاضى فليس لهذا معنى الأمر دانا حاضر الدواة لا غير فالتفت رحمه الله فرأى الدواة فقال والله صدق ثم استند على يده اليسرى ومذبه اليمنى وأحضرها ووقع له فقلت قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم وإنك لى خلق عظيم ومأرى المولى الا قد شارك في هذا الخلق فقال ما ضرنا شئ قضينا حاجته وحصل الثواب قال القاضى ولو وقت هذه الواقعة لأحد الناس لقام وقعد ومن الذى يقدر أن يخاطب أحد أهو تحت حكمه بمنزلة ذلك وهذا غاية الاحسان والحلم والله لا يضع أجر المحسنين قال ولقد كانت طارحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يثأر لذلك ولقد نشرت يوما بغلي من الجبال وأنا راكب في خدمته فمرجت وركبه حتى أمته وهو يتبسم ولقد دخلت بين يديه في يوم ربح مطير إلى القدس كثير الوحل فضضعت البقلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ما كان عليه وهو يتبسم وأردت أن أكر عنه بسبب ذلك فما تركنى ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمعتقلين أعظم ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول ثم قال القاضى وهذه حكاية يسدران يسار من لها فذكر ما تقدم من أنما عسكره من الهجوم على ملك الانكبترة ودوق جمع يسير من أصحابه بعد أن أطافوا بهم وواجه الجناح السلطان بذلك الكلام الحسن فرجع السلطان مغضبا وظن أنه ربما صلب وقتل في ذلك اليوم فقتل به زور وقد وصله من دمشق فأكته كثيرة فطلب الامر ايليا كوا الحضر وأفرأوا من بشره وانبطاه ما أحدث لهم الطعام دنة والامر والسرور قال وكان رحمه الله كثيرا المروءة ندى الوجه كثير الحياء منبسط لمن يرد عليه من الضيوف بكرم الوافد عليه وإن كان كافرا ولقد وفد عليه الأبرنس صاحب انطاكية فالحا حس به الا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح في شوال عند منصرفه من القدس إلى دمشق وقد تقدم ذلك وعرض له في الطريق وطلب منه شيئا فاعطاه المني وهي بلاد كان أخذها منه عام فزع الساحل سنة أربع وثلاثين ولقد رأيت أنه قد دخل إليه صاحب صيدا فاحترمه وأكرمه وأكل معه وعرض عليه الاسلام وذكر له طرقات من محاسنه وحثه عليه وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأر باب العلم والنضل وذوى الاقدار وكان بوصيتا لا تغفل عن يجتاز بالحيم من المشايخ المعروفين حتى يضرهم عنده ويتألم من احسانه وقدمي بناسه أربع وعثمانين رجلا جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوى الاقدار وكان أبوه صاحب توريز فاعرض هو عن قن أبيه واستغل بالعلم والعمل وجمع ووصل زائرا لبيت الله المقدس ولما قضى لباتته منه ورأى آثارا لسلطان فيه وقع له زيارته فوصل إلى النالى العسكرية فلقته ورحبت به وعرفت السلطان وصوله فاستحضره وشكره عن الاسلام وحثه على التحير وانصرف بيات عندى في الخية فلما صليا الصبح أخذ يودعنى فقبحته له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال قضيت حاجتى منه ولا غرض لى فيما بعد أروؤته وزيارته ثم انصرف من ساعته وهنى على ذلك ليال فقال السلطان عنه فأكبرته بذهله ففاهو عليه آثار العتب كيف لم

فخبره برواحه وقال كيف بطرقه قاتل هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان بمهنا وشدد التكرير على
في ذلك فاجبت بدها من ان كتبت كتابا الى محبي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل وابصال
رقعة كتبها اليه طي كتابي أخبرته فيها بانكار السلطان رواحهم من غير اجتماع به وحسنت له ذم العود وكان يذني
ويده صداقة تقتضي مثل ذلك فعادوا جميع بالسلطان فرحب به وانيسط معه واستودح له وأمسكه أياما ثم خلع
عليه خلعة حسنة وأعطاه مراكبا بالانفاقا كثيرا كثيرة ليحملها الى أهل يده وأتباعه وجيرانه ونفقة يرتفق بها
وانصرف عنه وهو أشكر الناس له وأخلصهم دعاءه لا يامه قال ولقد رآته رحمه الله وقد مثل بين يديه أسير فرجعي
وقد هابه بحيث ظهر عليه امارات الخوف والجزع فقال له الترجمان من أي شيء تخاف فاجرى الله على لسانه ان قال
كنت أخاف قبل ان أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضورى بين يديه أيقنت اني ما أرى الا الخير ففزع عليه وأطلقته
ورق له قال وكنت راكبا في خدمة في بعض الايام قباله الفرج وول بعض الزكوة معه امرأة شديدة المحرق
كثيرة البكاه نوازة اندق على صدرها فاذ كرصة أم الرضيع الذي سرق وقد مضت قال وكان رحمه الله لا يرى
الاساءة الى من صحبه وان أفرط في الجنابة ولقد بدل في خزانته كيسان من الذهب المصري يكس من الفلوس فما
على بالاثواب شيئا سوى انه صرف فهم من علمهم لا غير وكان رحمه الله حسن العشرة لطيف الاخلاق طيب الفكاهة
حافظا لانساب العرب ووقايهم عارفا بسيرهم وأحوالهم حافظا لانساب خيلهم عالما بهائات الدنيا ونواذرهما
بحيث كنا نستفيد محاضرة منه ما لانسمع من غيره وكان يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشر به
وتغلبات أحواله وكان طهر المجلس لا يدكر بين يديه أحد الا بالخير وطاهر السمع فلا يجب ان يسمع عن أحد الا بالخير
وطاهر اللسان فآرايته أولع بستم قن وطاهر القلم فما كتب بقلمه الدل لسلط فقط وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر
بين يديه يقيم الا وترحم على مخلقه وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه ان كان له من أهله كبير يعتمد عليه وسلمه اليه والا
أنفي له من الخبز ما يكفي حاجته وسلمه الى من يكفله ويعتني بتريته وكان ماري شيخا الاوريق له ويعطيه ويحسن
اليه ولم يزل على هذه الاخلاق الى ان توفاه الله عز وجل الى مقر رحمة ومحل رضوانه قلت ولجعفر بن شمس الخلافة
من قصيدته ثابها

ألمست ترى كيف انبرى الخطب نائرا * ومد يد امنه الى دافع الخطب
الى الناصر المملك الذي ملئت به * قلوب البرايا من رجاه ومن رعب
كريم أناه الموت ضميما فلم يكن * لي نزهة الا على الممهل والرحب
ولو خاب منه قبل ذلك سائل * لخاب وليس البخل من شيم السحب
قضى فقضى المعروف وانقرض الندى * وحطت رحال الوفدي الشرق والغرب
أفأض على الدنيا سجال نواله * ففاضت عليه أعين العجم والعرب
ولوانه يبيكي على قدر حقه * اسال دموع المزن من أعين الشهب
جزاه عن الاسلام خيرا الهه * فامل عنه من دفاع ومن ذب
ندارك بعد ابتذال فقد غدا * وكان شديد الخوف في أمتع الخب
وأصبح البيت المقدس منقذا * باصلب عزم من مقارنة الصلب
أذل له الله العدا منذ أطاعه * وسهل منهم كل عمتع صعب
سقى الخلد عند الله دار مثره * يتمتع منه بالجوار والقرب

(فصل) في انقسام ممالك بين أولاده وأخوته وبعض ما جرى بعد وفاته قال العماد في كتاب البرق
خلف السلطان سبعة عشر ولدا أكبرهم الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة
خمس وستين وخمسمائة وتولى بعد دمشق الى ان خرج منها الى مصر خذلولها ٤٤٠٠ للعدل في شعبان سنة اثنتين
وتسعين مضافة الى ممالكه بالبلاد الشرقية والجزيرة وديار بكر ثم الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ومولده

في أخبار (٢٢٥) الدولتين

بمصر ثامن جمادى الاولى سنة سبع وستين وتوفي بها في ملكه ليلة الاحد العشرين من محرم سنة خمس وتسعين
توفي بعده أحد اولاده الصغار ثم الملك الظاهر غياث الدين غازي ومولده بمصر منتصف شهر رمضان سنة ثمان
مستين وتوفي حلب واعمالها فالولقد أنشأت الرسالة الموسومة بالعنبي والعنقي فيماتر أبعد السلطان الى آخر سنة
اثنين وتسعين وقال في كتاب النسخ توفي الملك الافضل دمشق والساحل وما يجري مع ذلك من البلاد وهو الذي
حضر وفاة والده وقام بسنة الغزاة وفرض الاقتداء بآبائه في ايلة الالاء واداء الالاء وخلع على الاماثل والامراء
والافاضل والعلماء وآوى اليه اخوته وضم جماعته وجوز أخاه النافر خضر امظفر الدين وأتمضه لاجتماعه
العادل كما سذكروه وكانت حصص المناظر والرحمة وبعليك وما يجري معها في المملكة الافضلية داخله وقدم عليه
سلطاناه الملكان المجاهد والامجد الى دمشق فتأكدت بينهم القرابة والالافه ولما استقر الافضل بدمشق في مقام
والده قدم الى الديوان العزيز تجايز بانهاه الحال ثم ندب ضياء الدين ابن الشهر زوري في الرسالة وأصبحه عمدة والده
في الغزاة وسيفه ودعاه وحصانه وأضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخليل العربا بما استغفد وسعه وامكانه فما
تنبأ مسير الرسول الا في اواخر جمادى الآخرة حتى حصل كل ما أراد من الهدايا والفقره وحتى كاتب مصر وحلب
وأعلم بمسير رسوله حتى لا يظن انه انفر دسوله وقصد مداراة اخوته وفضل بفضل نخوته وذلك بعد ان جدد نقش
الدينار والدرهم بمسمى أمير المؤمنين وولى العهد عدة الدين وقال ابن القادسي وفي يوم الثلاثاء ستمثل رمضان حمل
ابن الشهر زوري ما كان أحبه الى الافضل من حمل الشام الى الديوان العزيز وهو صليب الصليبون الذي كان قد أخذه
والده وذكر انه ذهب يزيد على العشرين رطلا صاعا بالجواهر ومعه خاتم مختص بمخدته وحمل قرس أبيه وزرديته
وخوذته وكانت صفراء مذهبة ودبوس حديد وسيف وأربع زردين وقالوا هذه تركته وبها كان يقاتل ويتفاجئة
من الثياب وحمل في جلعة التحف أربع حواري من بناته ملوك الروم فبن ابنة بارزان وبنت صاحب جبله قال العماد
وأمر في إنشاء الكتب وتحريرها وتقرير المقاصد وتقريرها منها وأصدر البعد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء
وقلبه معمور بالصفاء ويدهر فوعة الى السماء لا ابتهاج بالبدعاء ولسانه ناطق بشكر النعماء وجنتاه ثابت من المهابة
والمحبة على المنوف والرجاء وطرفه مغض من الحياء وهو لارض مقبل وللغرض متقبل وهو بيت بمأقده وأسلفه
من الخدمات وذكر دخر الاقوان لهذه الاوقات وقد أحاطت العلوم الشريفة بان الوالد السعيد الشهيد الشديدا ليد
المير للشرع المبيد لم يزل أيام حياته والى ما عوفاته مستقيما على جداد الجدد مستقيما في صون فريضة الجهاد
الى بذل الجهد ومصر بل الامصار باجتهد في الجهاد شاهده والالتجاء والاعراف في نظر عزمه واحده والبيت
المقدس من فتوحاته والملك العقيم من نتائج عزماته وهو الذي ملك ملوك الشرق وغل أعناقها وأسرطوا غيت
الكفر وشذخنا قها وقع عبدة الصلطان وقطع أصلها وجع كلمة الايمان وعصم جنابها ونظم أسبأها وسد الثغور
وسدد الامور وقبض وعدله بسوط وأمر بمحط ووزره محطوط وعمله بالصلاح منوط وما خرج من الدنيا الا وهو
في حكم الطاعة الامامية داخل وبجهرها الراجح الى دار المقامة راحل ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها
والاستتكان من مآذنها وان مضى الوالد على طاعة امامه فالملك ايك اولاده وأخواته مقامه قال وتوفي ولده
الملك العزيز أبو الفتح عثمان مصر وجميع أعمالها وأبقاها على اعتدالها وتقها من شرائب اختلالها واعتلالها
واحيا سنتي الجود والبأس وثبت القواعد من حسن السياسة على الاساس وأطلق كل ما كان يؤخذ من التجار
وغيرهم باسم الزكاة وضاعف ما كان يطلق برسم الغناه وقدم أمر بيت الله المقدس وبجعل له عشرة آلاف دينار
مصريه لتصرف في وجوه ضروره ثم أمده بالجلل وقفاض عليه من الفضل وتقرر والى عز الدين جريدك على
ولايته وقوى يده برعايته ووالى جل الغلات من مصر الى القدس وأبدل وحشته بوفاء السلطان من وفاته بالانس
ثم أشفق من غدر الفريخ في أمخ المهندنة فأتى من تجهيز العساكر الى البيت المقدس بكل ما في المكه ثم سجع بحركة
المواصله ومن تابعهم وبايعهم وشايعهم وقد خرجوا في ايمانهم طائفتين ولعقد ايمانهم ناكثين فخير بكرة الجلب
واستشار أمراءه أهل الرأي واللب وجوز جيشا فوصلوا الى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم ولمهم وهز
منهم اعدائهم الاستكانة له بعد هزمهم فرأى ان آن الجدهود والمواد جد قال وتوفي حلب واعمالها وحصونها

كتاب (٢٢٦) الروضتين

ومعاقبتها وكرائم البلاد وعقائنها الملك الظاهر غازي وهو برجachte وسماحته الطود والحدود الموازي وملك مملكة أقطارها واسعه وأمصارها شاسعه فخماها وحوها وبما العدل وأها وتواها وأقر البيرة وأعمالها وما يجري معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود ودخل في أمره صاحب جماء ابن تقي الدين فأعزاه وسماه قات وهو ماوى ذرية والده وبقي الملك منهم في عقبه وانحاز كل من أخوته وأولادهم إليه وعزوا في عشية أمورهم عليه والامر مستقر على ذلك في عقبه إلى الآن والله تعالى ولي الأحسان ثم زال ملك هذا البيت في صفر سنة ثمان وخسين وسبعمائة بسبب غلبة التتار الكفرة على البلاد والله يصير بالبلاد ومن كلام القاضي الفاضل في جواب ورد عليه منه بعد موت السلطان (متى رأى المملوك خط مولانا طالعاني كتاب والمليعة على خطاب تمثل ذلك الشخص الكريم وذلك السلطان العظيم وذلك الخلق الكريم وذلك العهد القديم فحي بعد موته وسبح من يحيي العظام وهي رميم ورفع يده بما الله رفعه ودعا بصالح الله سامعه) قال العادل وكان الملك العادل مع السلطان في الصمدية قبل وفاته وكان موافقة وموافقة في مقتضاته فلما عاد السلطان إلى دمشق وقد وعده ومضى إلى حصنه بالكرنك فنهال النائب ولم يحضر وقت احتضاره إلا الخ الغائب فنعاف وصل إلى دمشق بعد أيام ولم يزل المقام ورحل طالب البلاد به بالجزيرة حذر أعاليها من أهل الجريه وكان السلطان جعل لكل ما هو شرقى القرات من البلاد والولايات فلما وصل إلى القرات وجد ما خافه فلا تزل القرات فأقام بقعة جعير وسير إلى الولايات الولاء ووصى برعايا الرعا واستناب في مفاقره وحلى وسيساط وحزان والترهاوشه بها لشحن وعلم العدا أنه في خوف فغفوا وعرضوا وصفا وكان سيف الدين بكتر صاحب خلاط قد استبشر موت السلطان وتأنب بالملك أنناصر وحدث أهل بيجر السالك وراسل صاحب الموصل وسنجار وطير اليهم كتب الاستغاثة وضم إليه من ماردن ماردن وطار وناش وارتاش وناش فينا هو في انشاء لاقته الاسماعيلية بخلاط رابع عشر جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وأول من بدا أمره بالمروج على بلاد السلطان متولى ماردن ونزل على حصن أنور ورو هذا الحصن كان السلطان أقطعه عن أعمال ماردن حين صاغ أهلها وأضافة إلى نائبه بالرها ثم تحرك عز الدين أنابك صاحب الموصل وأخوه عماد الدين رنكي صاحب نصيبين وأرسلوا إلى العادل فخرج من بلادنا أو دخل في مرادنا فكتب إلى بني أخيه يستغدهم ويستغفرهم فأجدهم وكان أحناد حلب أقرب وتقدم ذكر نجدة الأفضل مع أخيه الظاهر ونجدة العزيز الواقعة إلى دمشق بعد نجدة الأمر ووصلت للواصله إلى رأس عين والعدل بجران وتقارب العسكران حتى أن الطلائع تتواجه وتجاهبه فرض صاحب الموصل ولم يطق الإقامة فعاد ورجع عماد الدين أخوه وتضرع صاحب ماردن وتذرع بالأمر إلا كابر فرضى العادل عنه وبلغه قدوم ابن أخيه الظافر إلى القرات فكتب إليه بمنزلة سروج وهي من أعمال ماردن وأمهدة ابن تقي الدين وابن المتقدم فقلوا عليهم أنامن رجب ففخوها تاسعه ورحل العادل منتصفا رجب إلى الرقة وتسلمها ثم تلك بلاد الحابور جميعه وجاء إلى نصيبين فقتل بظاها وشرع في ضم ذخائرها فجاءت الرسل العمدية في طلب الصلح فرحل ونزل دارا وأتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده إلى ولده نور الدين أرسلان شاه وجرى بينهم وبينه صلح ثم كتبه أهل خلاط فرحل إليها فرأى أن البرد يشتد وأمد الحصار بعتد فعاد إلى حران والرها وأعرض عن مخالطة خلاط وتأخر إلى الربيع أمرها قال واقيم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن أيوب أخى السلطان وهو هناك سلطان عظيم الشأن مستول على جميع البلدان وكان قد وصل ولده مع الحاج تيسل وفاة السلطان بأيام فلما استقر الملك الأفضل على سر برأيه كتب عنه سيف الاسلام

(فصل) في وفاة صاحب الموصل وتتمه أخبار هذه الفتنة ببلاد الشرق قال عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير لما وصل خبر وفاة صلاح الدين إلى صاحب الموصل عز الدين استشار في الذي يفعله فأشار عليه أن يجمع الدين أبو السعادات بالأسراع في الحركة وقصد بلاد الجزرية فأنها لا مانع لها منه وقال مجاهد الدين قايما زليس هذا برأى فأناترك ورأه أمثل المولى عماد الدين صاحب سجبار ومعز الدين صاحب الجزيرة ومظفر الدين صاحب اربل ونسيرانا الرأى أن انزل أسلهم ونسليمهم وتأخذ رأيهم ونظرم ما يقولون فقال أنى أن كنتم تفعلون ما يشرون به ورونه

فأقعدوا فاتهم لا يرون الا هذا لانهم لا يؤثرون حركاتكم ولا قوتكم انما الرأي ان يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم
ويستأمرهم ويبدل لهم البين على ما يأيديهم ويعلمهم انه على الحركة فليس فيهم من يمكنه ان يحالف خوفهم قصد
ولا يشبه له اسما اذا راوا جده وخواه البلاد الخيرية من مانع وحام فهم لا يتكلمون انه يملكها سريعا فيهم ذلك على
موافقته ومعنى أراد الانسان ان يفعل فعلا لا يتطرق اليه الاحتمالات بطلت أفعاله انما اذا كانت المصلحة أكثر
من المضرة أقدم وان كان العكس أحجم فظهرت أمارات الغيظ على مجاهد الدين فسكت أخى لانه هو كان مخدوم
الجميع على الحقيقة والحال كما فيهم واتبع المرحوم يعني صاحب الموصل قول مجاهد الدين وأقام بأموصل عدة شهور
يراسل المذكورين فلم ينظم بينهم وبين أحد منهم حال غير أخيه عماد الدين فانه ما اتفقوا على قواعد استقرت بينهما
فالى ان انفصل الحال وصل الملك العادل أبو بكر بن أيوب بمن الشام الى حران وأقام هناك وجاءه العساكر من
دمشق وحسن وجهه واحتجبت البلاد به وسار عز الدين عن الموصل الى نصيبين وقد ابتدأ به اسمال بنزيف
واجتمع فيها بأخيه عماد الدين وسار الى عساكرها الى تل موزن من شجته ان قصد الرها فأرسل العادل حينئذ
يطلب الصلح وان تكون البلاد الجزرية الرها وحران والفرقة وما معها يده على سبيل الاتباع من عز الدين فلم يجبه
الى ذلك وقرى المرضى به واشتد الى أن يحجز عن الحركة فعاد الى الموصل في طائفة كبيرة من العسكر فلما وصل ديسر
رأى ضعفا شديدا فاحضر أخى وكتب وصية ثم سار الى الموصل فوصلها سريعا بالاموال وبقي كذلك الى ان توفي
في السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة قال ولم أسمع عن أحد من الناس يعمل حاله في مرضه
فانه كان لا يزال ذاكرة الله تعالى حتى انه كان اذا اتخذت مع انسان يقطع حسنه من امر او يقول أشهد ان لا اله
الا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير وأشهد ان
محمد اصيل الله عليه وسلم عبيدورسوله وأشهد ان الموت حق وعذاب القبر حق وسؤال منكر وتكبير حق والضراط
حق والميزان حق وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور ويقول لمن عنده مخاطبة أشهد اني
بهذا عند الله تعالى ثم يعود الى حديثه وأحضر عنده مرقر القرآن فلم يزل كذلك الى ان توفي رحمه الله ودفن
بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل مقابل دار المملكة وهي للفرقة الشافعية والحنفية وكانت ملكته نحو ثلاث
عشرة سنة وستة أشهر وكان أسمر ملج الوجه حسن الخية خفيف العارضين وحكى لي والدي قال هو أشبه الناس
بجده الشهيد قدس الله روحه قال وكان رحمه الله دينا خيرا قد ابتغى في داره من مهجدين يخرج اليه في الليل
ويصلي فيه أو أراد ان كانت له ويلبس فرجسية كان قد أخذها من الشيخ عمر النسائي الصوفي ويصلي فيها
وكان قد سجد وليس بهكة حرسها الله خرقه التصوف من الشيخ عمر النسائي المذكور وكان من الصالحين
وأوصى بالملك لابنه نور الدين ارسلان شاه وأراد أخوه شرف الدين بن مردود بن زنكي ان يولييه فلم يفعل وبقي نور
الدين الى سنة سبع وستمائه فتوفي في شهر رجب منها ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل هذا دار السلطنة
وكان عهد بالملك لابنه القاهرة عز الدين مسعود وجعل الأمير بن الدين لؤلؤا القاسم بأمر دولته وولاه إمارة الجيوش
والعساكر وسياسة القبائل والعشائر ثم توفي الملك القاهرة في ربيع الأول من سنة خمس وعشروسمائة فجاء وخلف
ثلاثة بنين صغارا قال ردا مع عماد الدين زنكي بن مردود بن زنكي صهر نور الدين رحمه الله وهو صاحب سجهر فانه
توفي في المحرم سنة أربع وتسعين وكانت ولايته ثلاثين سنة وكان عدله قد عم البلاد وغر العباد وأريقت الخجور
وحدث بها وكانت صدقاته تصل الى أقاليم البلاد وتولي بعده ولده الا كبره طرب الدين مجد بن زنكي وكان متولى
أمره مجاهد الدين برتقش العمادى قال وحاصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب مارد بن في سنة خمس وتسعين ففقد
محاصر لها احدى عشر شهرا ولم يبق الا الاسلام عليها فبينما العادل يحاصرها دتوفي ابن أخيه الملك العزيز صاحب
مصر وكان عسكره مع عمه العادل على مارد بن فلما توفي ملك أخوه الافضل مصر وكان بينه وبين عمه العادل نزرة فلما
ملك مصر أرسل الى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمغارقه ففارقوه وعادوا الى مصر فقتل جمعه وعسكره
ثم خرج الافضل عن مصر عازما على حصر دمشق واستعادتها من عمه فسار العادل عن مارد بن جريدا الى دمشق
ليحفظها بعد ما كان قد طلع سحبه الى قلعة مارد بن وترك ولده الملك الكامل محمدا محاصرها الى ان اجتمع

مكتاب (٢٢٨) الروضتين

صاحب سنجار وصاحب الموصل على ترحيله عنها فرحل قال وفي سنة ست وسبعمائة سار الملك العادل ابن أيوب من الشام الى سنجار في العساكر الشامية والمصريه والجزرية والديار بكرية فحضرها ونزل عليها من كل جانب ونصب أحد عشر مخيمًا ثلثة أشهر وانتهى صاحب الموصل وصاحب أربل لصاحب سنجار وأنفذ الخليفة رسله فاصح الامر وانتظم الصلح والله الحمد

فصل وأما رسالة العادل الكاتب المعروفة بالعتيق التي أشار اليها في آخر كتاب البرق فيما جرى بعد وفاة السلطان الى سنة اثنتين وتعين فقد وقعت عليها وحاصل ما فيها ان قال لما توفي السلطان رحمه الله وملكته أولاده كان العزيز بمصر يقرب أصحاب أبيه ويكرهمهم والافضل يمدشقي يفعل ضد ذلك يقرب الاجانب ويبعد الاقارب وأشار عليه بذلك جماعة داروا له كالأوزير الجزري الذي استوزره قلت هو الضياء ابن الاثير اخو عز الدين المؤرخ ومحمد الدين وفيه يقول الشهاب قتيان الساعوري
مضى أرى وزيركم وماله من وزير * قلعه الله فذا أو ان قلع الجزر

قال العادل لما طلب من الامراء ان يحلفوا له وظنوا له ايمانًا ووعدهم قد أذعنوا والحنث فيها ولم يخف ذلك عليه ولما رأى الفضل أمور الافضل محتلة تركه وسار الى مصر وشرع الوزر الجزري في تغريب العصابة الناصرية وبما منهم الامم فارق الى الديار المصرية وكان قد أذن امره على الافضل باخلاء البيت المقدس واب العزيز بأمانه حذر امن تكليفه وأثقله فاجاب الى ذلك وقد كانت نابلس واعمالها قد وقف السلطان لثمنها على مصالح القدس وباقها على ابن الامير علي بن أحمد المنيطوب فشاركه أحد الامراء الاكراد فيهم فثبوا أيديهم الى الوقوف وساءت سيرتهم وتقوفا ومن انكار الملك العزيز عليهم فجاءوا الى الافضل فأفضل عليهم وسكن بهم قنأثر الملك العزيز بذلك وأقوى الاسباب فيما حدثت من السفار فنار الامراء الناصرية البكار ومفارقتهم دمشق الى مصر على سبيل الاضطراب والاضطرار فاعزهم العزيز ورفعهم فانفقوا على ان تكون كلمة الاسلام بحجة على الملك العزيز لادخاياه سنة والدفى الجود والبأس والكرم ومن جملة الاسباب الباعثة تسل الفرنج ثغر جليل من بعض مستغفائه وضعف الافضل عن استخلاصه فقيل للعزيز ان نوابيت استولت الفرنج على البلاد فخرج العزيز بعساكره وبلغ الافضل فضايق صدره واجتمع بين في خدمته من الامراء برأس الماء وأراد ان يستعطف فاجاب العجمي وكان في اقطاعه بالسواد وكان بينه وبين الافضل شقاق وعناد فارسل اليه فقبل ورحل الى عسكر العزيز ورأى الافضل ان يكتب الى اخيه بكل ما يحب من إعلاء كلمته والاجتماع عليه ويكون الافضل من بعض القاضين بين يديه طلبا لتسكين الفتنة ورغبة في ذهاب الاحن فأسير عليه بغير الصواب وقيل أنت الكبير واليك التدبير فجاء واجتهد ولا يعلم أصحابك بهذا الخور الذي داخلك والجبن الذي نازلك ونحن بين يديك وكلنا عاقدون بالخناصر عليك ووصل رسول الملك الظاهر والكتيب من الملوكة الاكابر بالانجاء المتظاهرين للافضل وسير الافضل الى عمه العادل وهو بحران والرها كتب اورسلافًا أيضًا عليه سير عز الدين عثمان الزنجبيلي على فحجب ليسرع ويأتى به عن قريب وكتبه واصلة بعزمه على نصرته ونجده وذل في أوائل جمادى الآخرة من شهر رسة تسعين ولم يشعر الافضل الا بالعزيز بعساكره وقد وصل الى القوار فجعل الرحيل وقد خلطت عساكر العزيز سافه جيش الافضل فاسرع ورحل دمشق يوم الجمعة خامس جمادى ونزل العزيز يوم السبت بالكسوة ونزل على دمشق يوم الاحد فلم يزل الافضل يمانع ويدافع حتى وصل عمه العادل فكتب الى العزيز يباله الاجتماع فتواعدوا واجتمعوا اكبرين بعصاه المنة فعذله في أخيه واستنله عما كان فيه فقال على رضاك واتباعه هالك وقال نفس عن البلد الخناق وكان قد بلى البلد منهم بما لا يطاق من قطع الانهار وقطف الثمار فتأخر العزيز الى صوب دياربلا والاعوج وكان قد اجتمع عند الافضل من الملوكة عمه العادل والمجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حصص والامجد محمد الدين بهرام شاه بن فرخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك والمنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حمه ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن السلطان فانفقوا على عقد يتركه وعهده ورحل العزيز الى مرج الصفر ليكون المقام به أرفق فرفض حتى ايسسه ثم أفاق وأرسل من جانبه

في أخبار (٢٢٩) الدولتين

لاميرنغر الدين يازجركس واعتمد عليه في هذه النوبة فوصل الى العادل في تعديل الامور فتقرر بينهم الصلح بترؤس العزيز بآية عمه العادل وخرج الملوكة لتوديع الملك العزيز في أول شعبان واحد باه واحد فخرج الظاهر أولا والنقيبوا نزلا بجر الصفر وبات عنده ليلة ثم رجع وخرج العادل ثم الافضل فلما اجتمع باخيه فارقه وما توى ورجع كل الى بلده ولما استقر الافضل بدمشق قضى حقوق الجماعة وشكرهم ورحل الظاهر صوب حلب رابع عشر شعبان واقام العادل الى تاسع شهر رمضان ورحل الى بلده الزهاجران ثم ان الافضل نظم اياما تآكثمها الى اخيه العزيز في استعفافه واستمالته وقال كنت فارت اخي مذتسم سنين وما التقينا الا في هذه السنة فقلت

نظارتك نظرة من بعدت مع * تقفنت بالثقة ترق من سنين

وغض الدهر عنها طرف غدر * مسافة قرب عين من جبين

وعاد الى سميت فاحرى * بفرقتنا العيون من العيون

فوجي الدهر لم يسمع بوصول * يعود به المجموع الى الجفون

فرا ما ثم يعقبه بين * بعيد الى الجشا عدم السكون

ولا يبدى جبرش القرب حتى * يرتب جيش بعد في الكين

ولا يذى محلى منك الا * ادا دارت رحى الحرب الزبون

فليت الدهر يسمع لي باخرى * ولو امضى بها حكم المنون

قال ثم كثر الشر من حول الافضل في حق الامراء الكبار ذوى القادر فاتفقوا من ذلك وأزمعوا على الانفصال لسوء تلك الحال فممن سارا الى مصر عز الدين سامة وحرض العزيز على القيام لنصرة الدولة الناصرية وعرفه ان اخاه الافضل مسلوب الاختيار مع من حوله من الاشرا ومن سارا الى مصر القاضي محي الدين محمد بن أبي عصرون وتولى بعد أشهر قضاء القضاة بمصر واعمالها وذلك سنة احدى وتسعين فاستمرت ولايته ان عاد العزيز من الشام وتبعه العادل فصره وأعاد القضاء الى زب الدين علي بن شرف الدين يوسف الدمشقي وكان نائبا لصدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس ثم استقل بآب بن أبي عصرون ثم أعيد بآيه وكنان الافضل قد اشتغل بعد انصراف اخيه بالذات وتشاغل عن أمور الناس بآمان الشراب مع من حوله من الاصحاب ثم أفلح عن ذلك وتاب وحسن في الذكر والزهد وأتاب وشرع في كتب معصم بخطه وحسنت طريقته وظهرت حقيقته وذلك في أوائل سنة احدى وتسعين وفي هذه السنة في ربيع الآخر وصل الخبر بان العزيز قد قدم دمشق مرة ثانية فاشتد غم الافضل فاشير عليه بان يرحل الى عمه العادل ويأتي به لدفع هذا القضاء النازل فرحل رابع عشر جادى الاول والتقى بجمه بصفين وطلب منه الرجوع معه الى دمشق ففعل ووصل العادل اليها تاسع جادى الآخرة وتختلف عنه الافضل وقصد حلب للاستظهار باخيه الظاهر فوثق معه بالامان على ما كان عليه من الصفا وكذلك فعل بآب بنى الدين بمجاهة ووصل الى دمشق واجتمع مع عمه العادل وكان العادل أبدا يشير بصرف الوزيرى وكان قد استولى على الافضل فله قبل فكان العادل أبدا مع ذلك فبالغ الافضل في اكرام عمه وازال غمه حتى ترك له سخيصة صاري ركب في خدمة عمه وضاق أخوه الظاهر من هذه الحال وكان الظاهر قد نفر عليه جماعة من الملوكة والامراء ممن هم في طاعته من جلته صاحب حمام وعز الدين ابن المقتم صاحب باربن فراسلا العادل في الاعتصام به وكان من جماعتهم بدر الدين دلدرد بن بيه الدولة بن ياروق صاحب تل باس فاعتقله الظاهر وبني عمه وطلب منه تسليم حصنه فشمع العادل فيهم وكفل انه يكونهم ويكفيهم واستعجمهم الى دمشق فدلب منه الظاهر الوفاء بآية منه فبعض عليه ردهم وتيسر له وذهب فغضب الظاهر لذلك ورأس العزيز بجمعه على الاسراع في القدوم فاقبل العزيز وخيم بالفوار وشرع العادل في تدبير أمور الافضل فكتب الامراء الاسدية من أعجاب العزيز بجمهم على تركه والانقطاع الى حزب الافضل وسلطه وكانت الاسدية أبدا في عناءه من تقدم الناصرية عليها وراسل العادل أيضا العزيز يخوفه من قبل الاسدية ويعرفه ما اندوت عليه فلوهم من الغل فكانوا اذا اقيم عرفوا في وجهه التغير عليهم فرغبوا عنه وحسنوا لآكرادهم فاقتمهم في الانصراف عنه ففعلوا وكان أميراء الاكراد

كتاب (٢٣٠) الروستين

أبو الهيجاء السمين فدارت الاكراد حوله وقالوا لانا من عليك من الناصر يتقاربوا أمرهم وبجوارحيلهم فرحل أبو الهيجاء والمهرانية والاسديّة عشية الاثنين رابع شوال وكانوا كثر العسكر واعلم العزيز بهم فابالي بانصرافهم وقال صفونا من اكدارهم وليأمر أصحابه باتباعهم وردّهم وبقي في خواصه مقيماً تلك الليلة ثم رحل عائداً الى مصر بخافاً رسول أبي الهيجاء السمين الى العادل يعاين برحيل العزيز خافاً يأمره بالقدوم للحقوه وبأخذوه ويستلبوا ملكاً الذي يارامصره فيقتل العادل والافضل على ملك مصر ان يكون للعادل الثلث وللافضل الثلثان وخربا يوم الاربعاء في الجيوش واستتاب الافضل بدمشق أخاه الاصغر قطب الدين موسى وأما العزيز فانه ساروا أخذوا طريق البحر والملة وفرق من الاسديّة الذين بالقاهرة ان يفعلوا فعل اخوانهم فيمنعوه من دخول البلد وكان مقدّمهم الامير بهاء الدين قراقوش وهو اكبر الامراء الاسديّة قد استتاب العزيز بالديار المصرية فهو مقيم على الصفاء والموثقة والاخاء فلما وصل العزيز ترتقوه والى ذروة سلطنته رقبه وأما العادل والافضل فاجتمعوا بالمخلفين عن العزيز وحصرت الاسديّة ان يسبقوا العزيز في مدينته واجتهدوا ان يدركوه ويستقده واقتنخوا فامرهم العادل بالثبات وتسلل القدس واعماله وما يجاوره من اعمال الساحل أبو الهيجاء السمين باسم الافضل والعادل فرتب فيما نوابه وأسكنها أصحابه وبجهم الى الديار المصرية مخالفة الاسديّة ومخالفة الناصريّة فقتل بهم العادل على بليس وكان أوام مكرهم والعدول الى مقترهم فارس الى القادسي الفاضل يستوفد لالاستنارته ويستشد به بالاستشارة فازمه العزيز باجابه سؤاله فخرج اليه واستبشر الناس بخروجه رجاء الصلح وركب العادل وتلقاه على فراع وأجبعوا أصلحها الامور على ما يحب الفريقان وعفا العزيز عن الاسديّة وأقام العادل عند العزيز وأما الافضل فان العزيز خرج اليه وودعه فانصرف ومعه أبو الهيجاء السمين وقولى القدس ووصل الافضل الى دمشق غرة المحرم سنة اثنتين وتسعين ثمان الافضل لازم صياحه وتيامه وقلل شرابه وطعامه وحسن شعاره واستوى ليله ونهاره ووزره الجزرى قذلى الناس منه يلايا وهو في شغلته عن تلك القضايا وكان يدخل اليه ويوهمه من قبل أنوام انهم عليه وانهم يميلون الى أخيه فيصدقه الافضل فيما يدعيه فصار يبالغ العادل عنه أحوال ما تنجبه بل انقضيه وصار يتصل بكل من هاجر من الشام الى مصر وما منهم الامن يشك من الوزير الجزرى وكان فاعيا ما النجوى لتدلى بالعادل وكذلك عز الدين سامة وصاهر العادل وظاهره وكان العادل بمصر مستوطناً للصخر فوعدا الجماعة بالعيد الوزير الجزرى وردّه الى بلاده وقرر مع العزيز تسير عسكره الى الشام ليمهله قاعدة الملك في سائر بلاد الاسلام فاخرج العساكر الى ركبة الجلب وخرج العزيز لتشيده وذلك مستهل ربيع الاول ووصل الملك الزاهر مجير الدين داود من حلب الى أخيه العزيز من جانب القاهرة لتكبير هذا الرجح الثائر ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر والقاضي بهاء الدين ابن شذاد ثمان العادل أشار على العزيز بان يوافقه على المسير ويرافقه فيه فراه عين التدبير فساروا بالعساكر نحو الشام ولما انصرفت رسل القاهرة من مصر بما طلبوا من راي دمشق فاعلموا الملك الافضل بما أبرم من الامر فضايق صدره وطال فكره واستشار أصحابه فاشاد عليه شيوخ الدولة بان يستقبل أخاه ودمعه ويسلمها **حكه** وأشار الجزرى وأصحابه بالصميم على المخالفة وترك الجمالة والملاطفة ثم دخل عليه أخوه الملك الظافر خضر فنجبته وصبره وقولى أسباب التخصير وحلفوا الامراء والمقدمين وقطعوا ما فوق المصلى عند مسجد قاوس بفضيل ورتبوا رجالاتا حولي البلديتنا بون لحفظه في البكرة والاصيل وتفرق الامراء على الاسوار والابراج وجاءت الرسل الظاهرية لظاهر الظاهرة ونذب الافضل ملك الدين أخا العادل اليه منه رسولا فوصل الى العسكر العزيز بالداروم وغزه ولقي عند العزيز من قوله العزيز في ملك الدين هناك أياما في اصلاح ذات البين ولاشك انهم اشتروا على الافضل شروطا وردّوهما وأقاموا ينتظرون الجواب فنغم من ذكر ان الافضل أبى ذلك فلما رأى الاكابر وشيوخ الدولة ان الافضل لا يسمع من رأيهم وانهم عاجز على المحاربة ولا يعدل عن رأي وزيره مع ما قد عرفه من شؤم نديده شرعوا في اصلاح اموره في الباطن فراءوا العزيز والعادل واستظهروا كل لنفسه وأقام العسكر مذاعشر رجب على البلد مستظفرا باعدو العدد لا يحدث حدثا ولا يعبت بالبلد الا هبتا فكتب الاوليا من البلد الى العزيز والعادل

باتها ز الفرصة فركبوا وتأهيو يوم الاربعاء السادس والعشرين من رجب فاصددهم عن قصد البلد أحد
وما كان في طريقهم الا الملك الظافر ومعه عسكر حلب فقاتل على ظن قتال الجماعة وما عنده علم بما يدبرونه من
الخفارة فقادوا ولم يكثر ثواب وصل العزيز الى الميدان الاخضر ووصل العادل الى باب توما وكان الامير الامين به
قد استنفضه اليه بكنية ففتح له فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي وبات العادل في الدار
الاسدية ودخل العزيز من باب الفرج وبات في دار عتمة الحسامية وخرج اليه الافضل ولقيه وتجرع من هم
زوال ملكه ماسقيه المملك العزيز دمشق أقام أياما بالميدان الاخضر الكبير الى ان انتقل الافضل من
القلعة باهله وأصحابه وأخرج وزيره الجزري مخفيا في صناديقه اشفاقا عليه من قتله وتحريقه
وتحول الافضل تلك الايام الى مسجدنا تون وما يجاوره ومعه وزيره فهرب ليلالي بلاده وقد اذخر فيها أموال
دمشق وأعمالها ثلاث سنين قال وكان العزيز يرتزق مع العادل ان يقيم العزيز بدمشق ويستنيب العادل بمصر
فلمالك دمشق ندع على مائتة رده ورجع عماديه ونفذ الى أخيه الافضل في السر يعتذر اليه ويشير بما كان
اشتراط عليه فأظهر الافضل هذا السر لصحبه والمخصوصين لقربه فقالوا لا تخدع بهذا القول فربما كانت خديعة
وأطلع علك العادل على هذا السر فانه يرى ذلك عين البر فأرسل الى العادل من أعلمه بذلك فغزت عليه مراسلة العزيز
الافضل واجتمع بالعزيز عتمة وقرعه بالانبياء به وأنه وقال له اني وتخدم وأوجد مصالحك وتعدم فأنكر الحال
واحالها وانتقض الامر قبل ابرامه ووجهه الى الافضل من أزججه والى صرخة أخرجه وسد طريق الاستنصار على
أخيه الظافر حتى أسلم في تسليم بصري للظفر بسلامته وبذخا ولم يتبعها باندامته ورحل الى حلب وأظهر الظاهر
الاحتفال به وأما الافضل فانه سار الى قلعة صرخة وسكنها وحول أهلها وأخاه ططب الدين البها وتوطنها وعند
خروج الافضل من قلعة دمشق دخل العزيز اليها يوم الاربعاء رابع شعبان وجلس يوم الجمعة في دار العادل
وأعتمد الناس ايه يطول مقامه عندهم فلما شعر ربه الاوتدبر للرحيل وتقدم الى العادل بأن يتولى البلاد وفارق
دمشق عشية الاثنين تاسع الشهر ونزل بالمخيم فوق مسجد القدم ثم تحول الى الكسوة وذهبه بها يوم السبت رابع
عشر الشهر فلما عاد العادل من دواع العزير يقرئ بالجامع منذ ورد العزيز بالبلاد والاعمال والظفر في جميع
الاحوال وأشاع انه نائب العزيز وهو سلطانة وأبقى الخطبة باسم العزيز بخالية من اسمه حاله برسمه وضرب الدينار
واندرهم على سكته وأظهر انه قوي بشوكته وتكته وجلس يوم الاثنين والخمس للعادل وبسط يده لجمع الاموال
وخزنها لوقت عوم الحاجة الى صرفها

(فصل) هذا آخر ما انطوت عليه رسالة العتيبي من أخبار ما جرى بعده موت السلطان رحمه الله والعماد أيضا
كتاب آخر سماه بخله الترجمة ذكر فيه أيضا ما جرى من ذلك وهو ان الاحوال اختلفت وتغيرت بعده موت السلطان
وأراد العماد الترجمة الى مصر فاصحبه الافضل رسالة الى أخيه العزيز فغضى اليه وعنده عنه العادل فلم يكن من
الرجوع الا معهما لما خرجا بالعماد كرهذا الحديث في أخذ البلاد قال وخرج الملك الافضل واجتمع بالعزيز
في الميدان ودخل من باب الفرج متصاحبين الى الضريح الناصري وصعد العزيز بالقلعة يوم الاربعاء صلى هذه
الجمعة عند ضريح والده في عشية المودع وأظهر بالبكاء والحبيب عنده سر القلب الوجع ودخل دار الامير سامة
في جوار تلك القبة وأمر القاضي محيي الدين ابن الزكي بأن يبينها مدرسة لاتر به قلت هي المدرسة المعروفة
بالعزيزية ووقفها قرية عظيمة تعرف بحجة فهذا قدر ما في كتاب الحجة بما يتعلق بالبحر فيه ولم يكن ذكر مثل هذا
من شرط كتابنا هذا لانه موضوع للدولتين النسيتين لانه لا بد من ذكر ما يتعلق بهما ما وقع فيه او عقيما
وتبعنا العماد فيما ذكر في العتيبي لكونه أشار اليها في كتاب البرق واستوفينا ما في كتاب البرق والفتح القدسي
والتاريخ الانبكي وكتاب الفاضلي أبي المحاسن وأتينا على ما فيه من المحاسن وانشاف الى ذلك قطعة كبيرة
من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنفات ودواوين ومراسلات والله تعالى يوفق مولانا لا اقتداء بسيرة سلفنا
في اقامة فرض الجهاد وتخليص البلاد من أبدى الكفرة والنظر في مصالح العباد ومن كتاب فاضلي (أما هذا
البيت فان الآباء منه اتفقوا فلكوا وان الابناء منهم اختلفوا فلهلكوا واذا غرب نجم فالحيلة في نشره واذا

مكتاب (٢٣٢) الرضين

بدلت طريق ثوب فإبليه الاتزيقه وهيهات أن يسد على قدر طريقه وقد قدر طريقه وإذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن بطيقه

(فصل) بعد انتهاء هذا الكتاب واما معاه مرة وقفت على ما حسن لي الحاقه بهذا الكتاب من ذلك ان القاضي الفاضل كتب في (سنة ثلاث وتسعين) الى القاضي محيي الدين ابن الرزقي كتابا قال فيه (ومما جرى في هذه المدة من المثلث الحاربه والمعضلات العادية بأس من الله طريقا ونحن نيام وظن الناس ان اليوم الموعود قد طرق في الليل الممدود فاذا هم قيام ان الله تعالى أتى بساعه كالساعه كادت تكون للناس كساعه في الثلث الاول من ايله الجمعه ثامن عشر جمادى الآخرة وذلك انه أتى عارض فيه ظلمات متكاثفه وبرق خاطفه ورياح عاصفه قوى لموجها واشتدهوبها وارتفعت لها صعقات وتدافعت لها اعنة مطلقات فرجعت لها الجدران واصطفقت وتلاقت على بعدها واعتقت وثار من السماء والارض عجاج فقيل لعل هذه على هذه قد انطبقت وتوالى البروق من جهة القطم على نظام وتبع الواحدة الاخرى وتنفق الثانية على أثر الاولى ورزى البروق واقفة وهي تتعاقب وفاقة وهي تتعاذب ولتحسب الان جهنم قد سال منها واد واما عاصف وزاد عصف الريح الى ان انطاعت سرج النجوم ومنفتحت ادم السماء ومحت ما كان فوقه من الزقوم ولا تزال هذه الريح تسكن سكونا خفيفا ثم تعاد عودا عنيفا فكنا كما قال الله تعالى يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق وكما قلنا ويردون ايديهم على أعينهم من البروق لا عاصم من الخطف الا لبصار ولا ملجأ من الخطب الا معاقل الاستغفار وقر الناس رجلا ونساء واطفالا ونهضوا من دورهم خفا فاقوا فقال لا يستطيعون حيلة ولا يتهدون سبيلا اذ يستغيثون ويستمعون ويدعون فذهبهم لا يستغيثون العذاب لانهم على موجباته مصرون وفي وقت وقوع واقعا به استعقاهم مقرون معتمدين بالمساجد الجامعه ومتقين الآية النازلة من السماء بالاعناق الخاضعه بوجوه عابسه ونفوس عن الاموال والاهل ساليه ينظرون من طرف خفي ويتوعدون أى خطب جلى قد انقطعت من الحياة علقهم وعيت عن النخاط طرهم ووقعت النكرة فبما هم عليه فادهون ويدموا وشجده الله ان نفعهم بأنهم نادمون وقاموا الى صلواتهم وودوا ان لو كانوا من الذين عليهما دأبهم ولم يزل ذلك دأبهم كلما سكنت الرياح تحركت وكما قيل استقلت بركت وكما أخذت قيل ما تركت حتى التلث الاخير من اللبلة المذكورة والقلوب الى الحساج بالغة والابصار عن سننها زائغة الى ان أذن الله في الركود واسعف الحاجدين بالامر لها بالمجود وأصبح كل يسلم على رفيقه وبنيته بسلاطه طريقه ويرى انه قد بعث بعد الشفة وأفاق بعد الصبح والصرخه وان الله قدر له الكثرة وأدبه بعد ان كاد يأخذ على الغره ووردم الخبر ان المراكب كسرهما كان معترضا في الخرز للعارض والاصول العادية من الشجر عدت عايم الريح بجها النافض وان في الطرق من المسافرين من كان نائما فدفنته الريح حيا وركب فأغنى الفرار مما هو امامه شيئا ولا يحسب المجلس انى أرسلت القلم محرقا والقول مجزفا فالامر أعظم ولكن الله سلم والخطب اشق وما بلغت ولا قضيت بهذا الكثير بعض الحق ونرجوان الله سبحانه قد أيقظنا بما وعظنا ونبتنا بما أولهنا فها من عبادته من رأى القيامة عيانا ولم يلمس عليها من بعده برهانا الا أهل بلادنا ما اقتصر الاولون مثلها في المثلث ولا سمعت لها سابقة في المعضلات والمجد لله الذى من فضله ان جعلنا نغترع عنها ولا تغترعنا ونسأل الله أن يصرف عنا غرض الحرض والغرور اذا عتنا وشغلت خدمته بهذا المهم وحملته على علم من هذا العلم فالسعيد من وعظ بنفسه وقد كنت لنا وبقينا الموعظه ولذا كرى حدود ونعوذ بالله من افاءه حدوده ما لم يظف (ومن كتاب له آخر) العادل في سنة ثلاث وتسعين ايضا) وقد تجد من وصول العدو واللعين وحركته الى جانب بيروت وخطر البلاد ما أعمل كل مرضعه وأوقع في ضائقه تنفق الا كفار فيما من سعه ولا سلام اليوم قد علم ان زلزل وهما ان ملت فان النصر منه مل وتلك اقدم القدم العذوبه وتلك الهمة الهمة المسابقة السخيخه قاله الله ثبتوا ذلك الفؤاد ودمشوا ذللا المهاد واسهروا في الله فليست بليسة رقاد ولا ينظر في حديث زيد ولا عمرو ولا ان فلانا نفع ولا ضر ولا ان من الجماعة من جاء ولا ان فيه من مر انظر والى انكم الا سلام كله قد برز الى الشرك كله وانكم ظل الله فان سمعتم تلك النسبة فان الله لا تاتخ ظله واصبر وان الله مع الصابرين ولا تهونوا وان ذهب الناصر فان الله خير الناصرين

في أخبار (٢٣٣) الدولتين

نهاهي الاغمة وتغلي وهيعة وتنقضي وليلة وتصبح وتجارة وترج) ومن كتاب له آخر الى الملك العادل (أدام الله ذلك الاسم تاجا على مفارق المنابر والطروس وحياة للدينار ما فيها من الاجساد والنفوس وعرف المملوك ما عرفه من الامر الذي اقتضته المشاهدة وحرس به العاقبة في بيروت ولا من يدعى تشبيهه الحال بقوله ألم تر ان المرء يدوي يمينه * فيقطعها محمد السليم سائر ولو كان فيها يد يرل كان مولانا قد سبق اليه ومن قلم من الاصبع ظفرا فقد جلب الى الجسد بفعله نفعها ودفع عنه ضرا

و تجشم المكره ليس بضائر * ما خلسته سببا الى المحمود {

وأخر كل شقوه أول كل غزوه فلا يسأم مولانا ثانيا الرباط وفعلها وتجشم الكلف وحملها فهو اذا صرف وجهه الى وجه واحد وهو وجه الله صرف الله اليه الوجوه كلها والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلا وان الله مع المحسنين) ومن كتاب له آخر (هذه الاوقات التي أنتم فيها عرائس الاعمار وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهوور الحور في دار الرار وما أسعد من أودع عبد الله ما في يديه فتلك نعم الله عليه وتوفيقه الذي ما كل من طلبه وصل اليه وسواد الهياج في هذه المواقف بياض ماسودة الذنوب من الصحائف فما أسعدت تلك الوقعات وما أعود بالاطمينة تلك الرجفات)

(فصل) وللعامد الكاتب رحمه الله كتاب آخر سماه خطفة البارق وعطفة الشارق ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاث وتسعين الى أن توفي هو رحمه الله في سنة سبع وتسعين وخمسة عشر واشتغل ذلك على فوائد تتعلق بما تقدم فأحببت الحاقها به من ذلك وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب باليمن في شوال سنة ثلاث وتسعين وتولى ابنه شمس المملوك السعيد هذا الملك العادل بمشقي وقد انتقل الملك الظافر الى حلب بعد أخذ عمه منه بصرى وعزم على قصد بغداد فصره أخوه الظاهر عن ذلك وذهب الامير أبو الهيثم السعدي الى بغداد بأصحابه فأكرم ثم سمرق جيش الى همدان ثم بعد رجوعه مات بدقوقا وانقضت مدة الفرنج التي عقدوها مع الملك الناصر رحمه الله فخرجوا والتمتعوا مع الملك العادل برأس الماء بمرج عكا فكسروهم ونزع يافاعنة وكانوا كاتبوا ملك الالمان وكان قد ملك صقلية فانها اليه تلك البلية وقالوا ان عظام أبيه الى الآن في صورتي تابوت مكل بالديباج وكان في الاسر منتظرا الافراج فانه لا يقبر الا بالبيت المقدس اذا استخلص والآن ما كان غلامه استرخص فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض وطوا عن كل سنة وفرض فتدافعت الى عكاسفهم وندفق منهنم وامتلات بهم في الساحل مدتهم وقصدوا بيروت وجبال الامير عز الدين سامه فلما سمع بوصولهم الى صيدا خرج بجماعته منها وسار بأهله ومال عن وعرا الامر الى سهل ودخلها الفرنج بعد يوم من غير مطولة ومولانا طلة روم وكثر فيه الحديث وذكر الطبيب والحديث فمن قائل تعجب وتعجب ومن قبل أن يتك تنكب ومن قائل رجاه هابوا فقاوا ولوانه دعاهم ما أبابوا واتسع القول وقنع الحول حتى نظام بعضهم والفرنج على تبين

سلم الحصن ما عليك ملامه * ما يلام الذي روم السلامة

فقطاء الحصون من غير حرب * سنة سنهائير وتسامه

وتصرفت الفرنج في بيروت واعمالها الساحلية وبقي لسامه جميع الولاية الجبلية ثم توجه الى مصر **(و)** دخلت سنة أربع وتسعين قتل الفرنج سادس عشر المحرم على تبين وأرسل العادل القاضي محيي الدين محمد بن علي القرشي الى الملك انور بن مصر فخرج بجيشه ووصل في الثالث والعشرين من ربيع الاول فجعلت الفرنج بعد ان كانوا ضايقا الحصن ورحلوا وجاهم الحبر بهلاك ملك الالمان ثم انتقل عسكر المسلمين الى جانب الطور ومع العز بن اخوته الظافر والمعز والمؤيد وكان الافضل قد جاء الى عمه قبلهم وكان معهم على تبين المجاهد صاحب حصن والابجد صاحب بعلبك وعز الدين ابن المقدّم وبنو الدين دلدوم وغيرهم من الاعيان ثم اجعوا الى بلادهم بعد عقد الهدنة ورجع العز بن مصر بعد ان خلع على ابن عمه الملك المعظم عيسى بن العادل وخصه بالسحق واللاء المنشور لمطي اللاواه وعاد المعظم الى دمشق وقد قرت به العميون وحسنت فيه الظنون فكان أهاز أولاد

كتاب (٢٣٤) الروضتين

العدل عنده وألقاهم بقلبه وأخصهم بحبه قد ولاه سلطنة دمشق وأطاب قبا بئشركمه النشقي وأقام العدل حتى استقرت المهنة وظهرت في عمارة بتنين المكنة ثم عاد إلى دمشق وأقام قليلا ثم شرق ووقع بها من الامر ما تفرق ورتق ماتت في ورديد بلاد اولاد عماد الدين زنكي اليهم لانه توفي في هذه السنة واستولى عليها ابن عمته صاحب الموصل فأجدهم عليه السلطان الملك العدل وتوفي جماعة من امراء الموصل منهم الامير عز الدين جردك وكان فارس الاسلام ومقدامه وشجاعه وهما مه وبارح من أيام نور الدين إلى آخر أيام صلاح الدين رحمه الله ليث العربين أشم العربيين وهو الذي أعان صلاح الدين على القبض على شاور وولاه صلاح الدين القدس في آخر عهده فقام بمصالحه من بعده ثم تسلمه منه الملك الافضل وسلمه إلى أبي الهيجا السمين فلما خرج الافضل من دمشق وصل إلى الموصل وانتقل من حوض الكوثر إلى أعذب منهل قال ووزل السلطان العدل على قطعة ماردن في شهر رمضان وملك روضها وامننها ولا ياتها ووصاف عليها وشتا وصبر وصار ولم يقل كلف ومتى وما شئت أحدان ماردن في ملكه مضافة إلى ملكه وقد هنأ بها الشعراء منهم ابراهيم بن مردان من أهل رأس عين له من قصيدة

فان تك مصر أم ملك فارد * اذا ذكر البلدان اعلى المال

تقاعس عنها سنجر وابن عـ * وقصر عنها عزم زنكي الاتاكي

فان تك قد شورك في دمع غيرها * فمالك في أمشالها من مشارك

ودخلت سنة خمس وتسعين والملك العدل نازل على ماردن وقد وصل اليه أصحاب الاطراف مساعدين وقد أصبح بين صاحب الموصل وبني عمه عماد الدين وردهم إلى سنجار والخابور ونصيبين وقد أذن له الجاهع بالطاعة ونائبه في تلك البلاد ودار بكر ولده الملك الكامل محمد قال وفيه ليلة الاحد العشرين من المحرم توفي الملك العزيز بداره بالقاهرة وكان على عزم الصيد في اعمال الفيوم فخم تلك الليلة عند الاهرام فقيل انه أصبح ورخص خلف صيد فجا به الفرس مر بعد أخرى فقتله سقطه عتبه على الزمان سخطه فتفاقم ألمه وأقام يومين أو ثلاثه لا يستطيع له مخلوق اعانة ولا اغاثه ثم حم حمامه وأظلمت بجميعة أيامه وقبر في داره لينقل منها إلى دار قراره ثم حوّل منها في الأيام الافضلية إلى التربة المقدسة الشافعية وورد كتاب القاضي الفاضل تعزية به للملك العدل (أدام الله سلطان مولا الملك العدل وبارك في عمره وأعلى أمره بأمره وأعز نصر الاسلام بنصره وفدته الانفس الكريمة وأصغر الله العظام بنعمته فيه العظيمة وأحياء الله حياة طيبة يقف هو فيها والاسلام في مواقف القروح الجسيمة وينقلب عنها بالامور المسئلة والعواقب السليمة ولا نقص لرجالا وعددا ولا أعدمه نفسا ولدا ولا قصر له ذولا ولدا ولا أسخن له قلبا ولا كبدا ولا كدر له خاطر ولا موردا ولما قدر الله ما قدر في الملك العزيز رزجه الله عليه وتحياته مكررة اليه من اقتضاء مهله وحضور أجله كانت بديهة المصاب عظيمة وطالعة المكرة وآلمه فرحم الله ذلك الوجه ونصره ثم السبيل إلى الجنة يسره

واذا محاسن أوجهه بليت * ففعا الثرى عن وجهه الحسن

فأعز زعي المملوك وعلى الاولياء بل على قلب مولا بالاسم الله ثوب العزيز مصرعه وانقلابه إلى مضجعه وبأسه ثوب البلائيل أن يسلي ثوب النجاب وزفه إلى التراب وسره محفوف باللذات والتراب وكانت مدة المرض بعد الود من الفيوم أسبوعين وكانت في الساعة السابعة من ليلة الاحد العشرين من المحرم والمملوك في حال تسطيعها جموعه يمين مرض قلب وجسد ووجع أطراف وغليل كبدا وقد فتح هذا المولى والعهد بولاده رحمه الله غير بعيد والاسم في كل يوم عليه جديد) ووصل قبل هذا إلى العماد كتاب من الفاضل فيه (وأنا على ما بعله المولى من العزلة لأنهم بلا سكون وفي الزاوية المسنونة لاهل العاقبة الآن على مثل خدام النون وكيف يعيش العاقل في الزمان المجنون ونحن على انتظار البرق الشامي أن يطر وحاشي ذمة الوعد به أن تحضر واشتغال سيدنا في هذا الوقت بالدرس والتدريس والتصوير والتكليف والتصانيف التي تصرف فيها بالبلاغة أحسن التصانيف نعمة تتعين شكرها على العلماء ويحتصن بالآفة بها سادتهم من النعماء) قال العماد ولما توفي الملك العزيز خلف بينه والاكه ناصر الدين محمد قد أنافت سنوه على عشر وكان إلى أبيه أحب أولاده بشم

في اخبار (٢٣٥) الدولتين

من شيعه مخليه سداه وقد اختص لديه ونص عليه فاجتمع الامراء الصلاحية وكبيرهم ومقدمهم فخر الدين اياز
سركس ومنهم أسد الدين سراسنة وزير الدين قراجه وعقدوا الامر لولده ناصر الدين ونعتوه بالملك المنصور وأخذوا
له ايمان الجهور قال وكانت الاسدية في الايام العززية الناصرية معمورين وبالاستيلاء عليهم مفهورين
وكبيرهم سيف الدين يازكو ج وكان عند وفاة العزيز غائباً باسوان فلباطفه ذلك حضر وجمع الاسدية واجتمعوا
هم والصلاحية فظاهر الله هره فقال لهم نعم ما رأيتموه من حفظ العزيز في ولده لكنه صغير السن لا يحتمل نقل هذا الفتن
ولا بد من كبير من أهل البيت يرثه ويدير الدواوين ويرتب القوانين وماهاهنا الاملا الملك العادل وهو الآن في بلاد
الشرق مشغول وماهنا من هو اقرب منه وهو الملك الافضل فقال الاسدية هذا هو الرأي الراجح ولم يسمع الصلاحية
مخالفتهم فانفقوا على استدعاء الافضل من مصر فخرج من ايلة الاربعاء التاسع والعشرين من صفر وسلك البرية
فوصل الى القدس يوم الخميس وخرج اليه عسكره وساروا معه الى بيت جبريل ثم أغد السبر فلما قرب منهم في ناسم يسمع
الاول تلقوه والى أعلى مرافق العلارقه وسروا بقدومه وجرأ برسومه قال وكان الناصرية اتبعوا الى رفقا تم
بالشام انا حوجنا الى الوفاق وتأكيدا لما شاق وقد كتب الى نور الدين بالحضور وضبط الامور وهو عندكم في مصر فخذ
وان وصل اليها انتظم امره وتهدد فاجتهدوا في حصره وهو في حصنه ولا تسمعوا بفكره نه ووصل الى دمشق
بعض الكتب يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر فخرج عسكرها الى مصر فوصلوا الى بصرى يوم الاربعاء
فقبل لهم ان الافضل ادخل ليلا واستعجب فنجبا وخيلا فرجعوا الى دمشق وقبل الماء بها الافضل بالبيت المقدس
وجد في طريقه نجبا به سرعا فاستحضره واستكشف ورده وصدره فقال انا نجاب فخر الدين اياز سركس وهي كتيبه
الى من يأنس به ويحبه فسلم منه الكتب وعاد النجاب في خدمته فلما وصل الى القاهرة احتفل سركس له وأضاف
وقدم وغرم أموالا ثم أبصر نجابه واقفابابه فأخبره الخبر فاستشعر من ذلك وتصور فغضى وتبعه عسكره وزير الدين
قراجه فوصلا الى القدس وسكابه وعرف الناصرية بجلية الحال فاخذوا في الانتقال وتوهم الافضل من الباقين
فقبضهم وحوى جوهرهم وعرضهم ففرقت الكلمة المجتمعه وتوهمت الهمم المسرعه وأمر الافضل بالخطبة
لابن العزيز على جميع المنابر ثم الدعاة في الآخر ونقشت السكة أيضا باسم الولد في البلد وغير البلد قال ولما استقر
الافضل في مصر حمله على قصد دمشق وحصرها وقالوا له اطلب بلدك الذي منه أخرجت وعن المقام فيه أخرجت
ومالك في مصر ما يكفك ودمشق بك بوصية أليك وجاءته رسل أخيه الظاهر من حلب وهذا به وقال له انتز القصة
فعمنا مشغول والى أن يتم من ماردن مراده وينضم الى يياضه سواده فخرج دمشق عن يده وبهجه اليوم فيها
هن غده وأأصل البك وأندم عليك بالنود والجنود والاساود والاسود فازالوا به حتى خرج بالعسكر واستناب
سيف الدين يازكو ج مكانه قال ووصل الى الملك العادل الامير سراسنة أحد الامراء الناصرية المارقين فاستحضره
على مفارقة ماردن وتواصل من الناصرية جماعة بعده وعندهم من الاستثنائات ما عنده فحركه القول وتجهز عن
العسكر واستعجب معه الامير بن عز الدين ابن المقدم وبدر الدين دلدرد وسرى ليلا لجنس بقين من رجب وأوصى ولده
الكامل أن يسير في مضائق حصن ماردن بسيرته ويقتدى بعزمته ووصل الى دمشق يوم الاثنين حادى عشر
شعبان وأخذ في تحصين البلد ووصلت العساكر المصرية يوم الخميس وأحاطت بدمشق ودخلها جماعة منهم من باب
السلامة بلغوا الى السوق الكبير وأعلنوا الفتح بالتكبير ولم يتبعهم أحد على هذا التدبير فخرجوا من باب الفراديس
وكرروا على أعقابهم لن وقف لهم من الكراديس واما الافضل فانه وصل الى الميدان الاخضر وضرب فيه دهليز
سراجه وأقدم بر واعدوه بوارقه فأشار عليه أمرأه بالتأخر هن تلك المنزل وكانت منهم زله فقتلوا عند ميدان
الحصا ثم تأخر والى مسجد القدم وامتلا ذلك القضاء ضارب الخنم ففترت الصدمة الاولى وقصرت الصدمة
الطولى وخذ الجرف صار رمادا واستحالت تلك الامواج المتلاطمة ثم ادا وزلوا منازلهم أكثر من ستة أشهر هنالك
وتمت فوارط عدم الاستدراك وامتدت خيامهم من اقصى دار الى الفوطه وظنوا انهم آخذون بتخندق دمشق
المضغوطة وكاتب الملك العادل جماعة من أمراء العسكر المصري ففارقوه ودخلوا دمشق فأكبرهم
واحترمهم منهم طنرل المهراني وياز البانيساى وابن كهذان ومنقال الخادم وابن أخذ السلطان ابن سعد الدين

كتاب (٢٣٦) الروضتين

كشبهوا كثر الواصلون القاطعون بان وراءهم واحسن العادل جزاءهم فكانت الرطام وتتابع الروس والاتباع ووصل الملك الظاهر ومعه أخوه النظار والمزبأههم الملك المجاهد صاحب حصن وعسكر حماء دون سلطانها وحسام الدين بشاره صاحب نابلس وهو شيخ الدولة وكبيرها وأمينها وأميرها وفي حمايته حصنات بنين وهونين وما يزال أسرى من كبراء الفرنج بدين الله عندهم هونين فرغبهم في السلامة والسلم والاحتمال والحلم وأشار على كل من الجانبين بتجنب المجانبه والتقرب بالمقاربة والمراقبة وجاءهم أيضا سعد الدين مسعود صاحب صفد وأخوه نور الدين مودود قال ولما جنبتنا عن مضايقة الحصار واصلوا قطع الاشجار وكسر الانهار ومنع كل ما يدخل اليه من نعمة ونعم وغنية وغنى حتى والالتوا قل وصعدوا الفروض والنوافل قال وكان الناصرية المقيمون بالقدس قد استولوا عليه وظفوا من ارتابوا به حواله وأنجزوا منته المقاربة ورجله وأجناده الازقة ومعهم الأمير فارس الدين سمعون صاحب نابلس وعز الدين سامة صاحب كوكب ويسان ثم وصل الخبر بان مكرس ومن معه واصلون إلى دمشق فنجبر من المحاصرين عسكر إلى طريقهم وكانوا قد وصلوا إلى طبرية وعبروا من آمن إلى البقاع وتكبدوا خلال تلك الضياع وسيروا إلى بعلبك ما معهم من الاتقال والاحمال وكان صاحبها الانجدي بجانب الملك العادل وتجر دوا حيلة وتطعمها ليلا وتوقوا الجبال حتى أشرفوا على دمشق من عقبة دمر وقد كانوا انعسك فتقوى عسكر البلد فصاروا بركون وركبون ويقربون من العسكر المصري ولا يرقبون وحفر المحاصرون حولهم خندقا عميقا فصار لهم بعض الحصار شغل شاغل قال وعلى الجلة فاعطوهم من صنع الآلي قطع الماء ومنع المياه والمضايقة الكبيرة وأحرق البساتين وتخرب الطواحين حتى إذا انقضت المواد وتبث في البلد الأزواد واضطر إلى التسليم واضطر راعى التأخير والتقديم فسلط الرعية على الملك العادل وجاؤه على التسليم والاستسلام فتباينت أراء الملوك المحاصرين بمادبره العادل سيف الدين ولا بد لك من الاحتال إذا صمم الصغار على الاقتبال وليس في ذلك بدعه فان الحرس خدعه فنفذ إلى الظاهر في الباطن وقال له أنت السلطان وحكك على جميع الأملاك والمواطن وأبأسلم اليك دمشق على أنها تكون لك لا نعرك فقال الظاهر لأخيه الأفضل قلدي في الانعام بدمشق منه المتفضل فقال له هذه لا تخلف من أقسام جالبات لا سقام أجلك ان لا تتولاها نواية النائب وان أخذتها دوني في التوائب وان أعطيتني عنها عرضا مما أعرف لك فيه عرضا فمالك ما يصلح ان تمايض به دمشق وأنت لا تدعى لها العشق فتغير بهذا رأى الظاهر والله المطلع على الضمائر وقيل أرسل العادل وقال أسلم اليك دمشق بعد سبعة أشهر وترى وتصبر فخذوا بميتي وكلوني إلى ديني وظن انهم لا يوافقون وفي الحصر يضابقون فلما أجأوه إلى هذا المجلس وقعوا في الاستفتاء بهذا القيس عرف انهم نادون فيأهم عليه من الحصر قادمون فعاد عن هذا البذل ورزهم إلى سنن العدل وقيل كان يكتب إلى الأفضل ان الأمر انفصل مع الظاهر وأنه يعاملك معاملة الممر لا المجاهر فخذ نفسك وأبدل معي وحشك بانسك ويكتب أيضا إلى الظاهر ان الأفضل قد صالحني وعلى الرضى صالحني وانك تحصل على المضاعفة وستغني بك المياينة إلى المغاينة وقيل انه كان يكتب في كل يوم أجوبة كتب قوم لم يكتبوه ويحبهم عفا فيه لم يخاطبوه وخبث تلك اللطافات في عيني لم تفرق على من يقصد العسكر من المساكين فاذا فشتوا عثر على تلك اللطافات فنتعت من كتب اليه ولا علم له بالافات وعددا من المخاضرين فصارا كثر العسكر من المتممين

ثم دخلت سنة ست وتسعين هـ وهم على ذلك والشتاء قد جمع وكل بأمرهم مهم ودهمهم أيضا خبر وصول الملك الكامل من الشرق وخرج من دمشق جماعة يظهر من انهم من الناصحين وترددوا اليهم ومنهم فادين ورائحين وأبرقوا وأرعدوا وقالوا غدا يكون قدوم الملك الكامل في الجبل الحافل ومعهم من المال الصامت إلى أبيه العادل فيستظهر بولده والمال والرجال فلا يقعد عن النهوض إلى القتال والصواب ان تتأخر قليلا فرحلوا إلى سفح جبل انعقبه وبقيت أسواقهم مملوءة وباتوا تلك الليلة وهم لكل ما يحتاج اليه عادمون وعلى ما فرط منهم نادون وقدوا حتى الماء للشرب وكانت تلك الحالة كسرة قبل الحرب فاضطر بوا المحمل المحيل واضطر إلى الراحة الرحيل ووصل الكامل تاسع عشر صفر وقد جمع التركان واستعجب جند الزهاجر وانزل في جوسق أبيه فاستبشر

في اخبار (٢٣٧) الدولتين

السلطان برحيلهم وقدم ابنه وقضت خشية الله بأمنه وأقام الكمال حتى توجه أبوه الى مصر فخرج معه أيا ما ثم عاد ولم يؤثر مما واثبت الى حران والرها واستقام به أمرها وذلك حادى عشر ربيع الاول وأما المحاصرون فانهم انتقلوا من الكسوة الى مرج الصفر وسير الملك الناصر والمجاهد بعض الانتقال الى بانياس وأصحابه بنية الاحمال الملك الافضل الى مصر وودعاه وكلأها سار جريدة الى مقره واستمر بعد ذلك على امر امره وكلم راحل القوم عن منزل أحرقوا ما لم ينظروا له الجمل وانتقلوا من مرج الصفر ولم يلوا على أحد ولم يرجعوا الى بلد وأخذوا في السير والسرى وذهبت أسادهم تروم معاودة السرى وتبعهم الصلاحية ينزلون بعدهم في منازلهم ويخلفونهم في منازلهم وكان القوم ظنوا انهم يقدرون برج الصفر على الاقامة فلقوا من البرد ما حضمهم على النجاة والسلامة وهذا المرج يقرب جبل النبلج في تموز لا يقيم به الا لابس فروة فكيف في كانون وقد عرفوا انهم الجانون حيث لم يلزموا القانون وأرسلت الصلاحية الى الملك العادل يستجلبونه ويحثونه ولا يمهلونه فخرج يوم الخميس تاسع ربيع الاول وودع أعيان البلد وسار وتلا من تقدمه الى تل الجبل وأقام حتى اجتمع اتباعه وأرسل الى الافضل العدل الخبيب أيا محمد وكان صلاح الدين رحمه الله يعتقد في صلاح دينه وبمكنه من خواص حاجته ورسله في مهام الرسائل وكان مدلول الرسالة أرق في السير ووافق على الخير فاعندك اليوم من يصدقك وأمالك كالودائع لك مقصودك وأحالفك ولا أخالفك وأوافقك ولا أفارئك فاشار على الافضل جماعته بان يرد جواب الرسالة ان مقاربتى لك بمعاذتك للصلاحية منوطه وموافقى بخالفهم مشروطه فلما سمع ذلك الصلاحية استشاطوا ونفروا واستدلوا به على ان ظفروا وجدجدهم واحتدجدهم فطروا المراحل الى السامح وكان الافضل على بلبس وقد تفرق معظم أصحابه الى أخبارهم وجماعة منهم مع العادل في الباطن كاتبوه وعلى الاطباء عاتبوه فصار الجمعان بعضهم الى بعض والتفوا فانكسر أصحاب الافضل وانهمزوا فدخلوا القاهرة وأغلقت الابواب للمعاصره وانتهى الى الافضل ان جماعة منهم أرسلوا الى العادل في اصلاح أحوالهم وانجاح آمالهم فقال سيف الدين ياز كوج لا فضل لكل زمان عمل ولكل أوان أمل فاصح الامر كيف نهيها فلام على انابيب باى زى تيا فشرع الافضل في اصلاح الامر مع عمه وراسله على ان يكون بحكمه ثم سلم الامر ومرسالمنا وحصل له من التجربة ما عاين به العواقب عالما قال ونعيم العادل بالبركة واستبدت بملك مصر آمنا من الشركة ونفذ المقطعين الى اقطاعهم ونظر للصلاحية في صلاح ضياعهم وأرسل الى الافضل ان وافقتنى على ما أعطيتك وقبلت سعدت فهو لاء الذين عندك ما منهم الامن كتب الى ونقرب وانتظر يومى هذا وترقب وهذه اضبارة كتبهم فتأملها وان لم تصدقنى فتسلها واعلم انهم غررك وضرك وسأوك بما سرك وقيل لم يبق من الامراء من يكتب اليه ولم يخامر الأربعة أخلصهم سيف الدين ياز كوج فلما عرف الافضل صدق عمه سلم المسئلة وسأل المعده ففر لا فضل في ديار بكر ميفارقين واعمالها جميل جورا وناجولين والمعقل والحصون المحسوبة من ميفارقين فرضى بها مكرها وخرج الى الشام متوجها ليلة السبت سابع عشر ربيع الآخر في الليلة التي دخل العادل في بكرتها القاهرة فاستقر بدار السلطنة وقدم سيف الدين ياز كوج وحكمه واستبقى رضى الناصرية باقيا الخطبة لابن العزير ولم ينافسهم مع حصول المعنى لى التفضيل والتعظيم وأقام وهو كل يوم في ارتضاع وسياحه وقوته في غور زياده قال ورد القضاء الى القاضي صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي ولم يزل قاضي القضاء بالدار المصرية من الايام الناصرية وكان نائبه القاضي زين الدين على بن يوسف الدمشقي وتعصب الامراء المتعلمون على الملك العزيز في مراتبه بصرف صدر الدين وتولية نائبه ولم يزل صدر الدين مصروفا تارة بمجيى الدين ابن أبى عصرون وتارة بزين الدين حتى تعصب العادل له وبعث العزيز على وده فلما اتت نصت أيام العزيز وجاء الافضل كان أول ما جمل عليه ان صدر الدين يعزل وتولى زين الدين القضاء فلما جاءت نوبة العادل في هذه السنة ردت صدر الدين الى منصبه ورد التدريس بالمدرسة الشافعية في التربة المقدسة والمشهد الشريف الحسيني الذي أجرى عليه حكم المدرسه الى شيخ الشيوخ صدر الدين ابن حمويه وكتب اليه وهو بدمشق فاستدعاه وقد كان ذلك ولاده في مالكة الجزيره أمور المناصب الشرعيه والامور الدينيه ومدارس الشافعية وربط الصوفييه وهو قاضى قضائهما ووالى هدائهما وهادى ولائها واه

كتاب (٢٣٨) الروضتين

في مناصبه نواب وفي مراتبه أصحاب قال ولما دخل العادل القاهرة استشر أصحاب الدواوين مهابة الوزير صفي الدين ابن شكر الظاهر ونزل في الدار السلطانية في الحجرة الفاضلية وتصد في مكان مكاته وشهر من قلبه غضب شهامته وسيف صرامته وقمع المتخبرين ووضع المتكبرين وأخذ قوس الوزارة باربها وأجرى الله الامور أحسن مجار بها قال وندب العادل من الاسديّة والصلاحيّة أميرين كبيرين الى الشام لاصلاح ذات البين بجمع وجهه وحلب وغيرهما وهما سائقا وكريحا قال ولما وقع الافضل عهده بالكرسي سار الى مصر خذوا فام بها وندب الى البلاد التي يدبار بكرم بتسلها ولما انفصل عن مصر وجد المواصلين له لمحبة مفارقين وكذا الدنيا ما تقبل على أحد ولا تمده بعدد الا تواردت على حياضه الجوع وتراحم في رياضه الرثوع فاذا صرف عنه وجوهها صرف أهلها عنه الوجوه وأحوايه فيها مكره والمكره قال وأما الظاهر فان عهده أحسن اليه ووعده بعهده عزيل وودعه بنتاه جميل وأقطعه بأعمال دمشق خزموا ضياع السواد وشق عليه انه لا يجدهما يجوده وهو من الاجواد مووصل الى دمشق رابع جمادى الآخرة وسكن في جو سقى يستانه بالنرب وسلك طريقه الاحتراس والاحتباس واختار البعد عن مقاربه الناس ولم يدخل المدينة وطلب من القاضي بجامع النرب خطيبا شافعا ليكون بالصلاة فيه عن حضور الجامع بالبلد غنيا واحتاط غاية الاحتياط وطوى بساط النشاط

(فصل) قال العماد واستدعى العادل ابنه الكامل الى مصر ليستنيده فيها وكان بحران وهو في تلك البلاد نائب السلطان فسلم تلك الولاية الى أخيه القناز ووصل الى دمشق سادس عشر شعبان ونزل بجوسقى أيسه في يستانه ومعهم شمس الدين المعروف بقاضي دارا وهو وزيره ومسجحه على المكارم ومشيره قال وخدمنه بكلمة أولها

أنتم تحبون بالاعراض تعذبي * وتقصدون بخلق الصدّهذي
ساروا فياحيتي من هجتي ارتحلي * غابوا فيا ستنى عن مقاتي غيبي
قد كان يهضني دهرى فادركني * محمد بن أبى بكر بن أبوب
الكامل المالك الاملاك حيث له * رق الاعاجم منهم والاعارب
معتز عرفه عرفا ومكرمة * مخجطيشه بالطهر والطيب
لا يدعى جوده البحر الخضم ولا * يلقي تأيه في الثم الشناخيب
دعك مصر الى سلطانها فاجب * دعاءها فهو حق غير مكذوب

قال وعزمت على محبة في هذه السفر الى مصر فخرج في الثالث والعشرين من شعبان الى الكسوة وخرج سلطان دمشق الملك المعظم ليودع سلطان مصر أخاه الكامل ومحبه الى رأس الماء مع عذّة من الامراء ثم ودعه وانصرف وتشوش مزاج الكامل بعده وانصرف ووصل الى العباسية في الحادى والعشرين من رمضان وانتقاء والده العادل وانزله بالقصر ثم ركب اليه بعد يومين واستجبه الى الدار ورتب أحواله على الاثر وكان قد عقد له هلى ابنة عمه الملك الناصر رحمه الله فادخله اليها البني عليها قال وأصبح العادل يوم الاثنين سابع عشر شوال وركب بالسيف السلطاني والركب الخسروانى والسيف المسلوله والقودا المحلوله وأمر الخطيبين بجامع مصر والقاهرة بالخطبة له ولولده الكامل من بعده ليس بعدد دعا الخليفة الادعاء لهما واقطعت الخطبة لابن العزير وكان أحضر جماعة من الفقهاء والقضاء والكبراء والاولاد وقال لهم قول المستفى المستشير هل تصيح ولاية الصغير فقالوا هذا مولى عليه فلا يلى وغيبات الحدود بنظاره لا تصيب ولا تتجلى فقال فهل يجوز للولى الكبير ان ينوب عنه الى أن يكبر ويرتب الامور بحكم النيابة ويدير فقالوا اذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تصيح النيابة ومن رآه صوابا أخطأ به الاصابه لا سيما فى السلطنة التي هي خلافة الخليفة فلاحق في الا لكبير الذي يعين على الحقيقة وجرى منهم في هذا المعنى الاعيان فلما عرف الشرع أحضر الامراء والخمس منهم الطاعة والسمع وخطبهم في اليومين له والميثاق والزعم به بالوفاء والوفاق فأبوا وخطبهم بمارعههم وملأ بالتقريع اسمعاهم ثم قال قد علمت ما هو الواجب من التقاضى على حفظ ثغور الاسلام وتدير الممالك بمصر والشام وما هذا امر يسطر بالصبين أو يحاط بغير

ذى القدرة والسلطان فاذعنوا وأطاعوا وحصل الاتفاق ورفع الخلاف قال ولما أصبحنا يوم السبت شاهدنا الملك الكامل قدركب مثل والده معقودا سبخة بمعاقدته والمناصل مجذوبة والصواهل مجنوبة والاعين ناظرة والالسن ذاكرة ومشى في ركابه من اليه تحجب وإلى السلطان تقترب قال وركب يوم الخميس السابع والعشرين من شوال إلى برج المقسم والقسم موضع على شاطئ النيل يزار وهناك مسجد يتبرك به الأبرار وهو المكان الذي قيمت فيه الفتنة عند استيلاء الصحابة رضي الله عنهم على مصر ولما أمر صلاح الدين رحمه الله بإدارة السور على مصر والقاهرة وتولاهما الأمير قراقوش جعل نهايته التي تلى القاهرة عند المقسم وبني فيه برجاً هو مشرف على النيل ذو شرفات ومعقل ذو طبقات وثيق البناء رفيع القناء وبني مسجداً جامعاً واتصلت الحجارة منه إلى البلد متتابعة المدد وهو منتهز عن الأكذار والاقذار مزمز وبالجنان مشبه وإلى البحر والبر بمنظرة الشبائك موجه فاختار الكامل أن يجلس فيه يوماً للتفرج على الناس في الطبقة العليا واجتمع الأمر والأعيان في الطبقة الدنيا ثم مد السعاطي إلى الجامع ثم ذكر العباد أنه مدحه ثم بكلمة أولها

مغرماً القلب مدنف * وجد ليس بوصف * وعدونا وأخلفنا * ووفينا ولم نفوا

قال وفي الحادى والعشرين من شوال قدم فلك الدين أخو العادل من دمشق قلت هو أخوه لا مه واسمه أبو منصور سليمان ابن شره وبني جلدك واليه تنسب المدرسة الفلكية بنواحي باب الفرديس بدمشق وبها قبره قال العباد وفي هذا اليوم خطب للعادل وابنته الكامل والعادل في مهامه يستشير ويستدعيه والمرء كثير بأخيه ثم عاد إلى دمشق بعد شهر قال وفي العشرين من الشهر خرج حاج مصر إلى البركة وأمر عليهم نصير الدين الحضرمي ابن بهرام وكان إلى المحلة وهو مستمر الولاية من الأيام الصلاحية وحج معه من معرفي الأجناد وأمر أنهاء عدة وكذلك حج في هذه السنة حاج دمشق ومحبهم الأمير عز الدين سامه وكانت السنة مباركة والنعم مستدركه والخسیر عام والخصب تام قال وانتظرنا زيادة بحر النيل في أوقاتها فبلغ إلى إحدى وعشرين أصبعاً من ثلاث عشرة ذراعاً فعاد بذلك كل قلب مرتاعاً ثم أخذ في النقص وهو مرجو الزيادة مأمول الوفاء على العادة فقفط الناس ووقع اليأس واشتد المحل وغلا السعر ويئس الفلاحون من الفلاح واجفوا من البلاد لا تنزاح وطار وأباحت الحاجة في طلب النجاح وقبل أن هذا النقص لم يهجم عهد الصحابة وشرعنا في الاستغفار والابانة وصام الناس ثلاثة أيام قبل يوم الترويه وكنا أصابعهم مصيبة فهم في التعزية ثم استسقوا ثلاثة أيام إلى العيد وأفاض الخطيب في ذكر الوعد وغصت بالخلائق الأماكنه وضجت بالأدعية والضرعات إلا السهنة قال وفي السنة التي قبلها وهي سنة خمس وتسعين استدعى القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري إلى بغداد وولى قضاء القضاة وكان متولى القضاء بما وصل فخرج في أوخر شعبان فلما وصل بغداد بجل وعظم وكان قدر تدد إلى بغداد دفعات في الأيام الصلاحية بسبب الرسالة فهو كان المعين لها كما تقدم ذكره

(فصل) في وفاة جماعة من الأعيان في هذه السنة أعني سنة ست وتسعين قال العباد وفيها ثالث عشر جمادى الأولى توفي في داره بدمشق الأمير صارم الدين قايماز الخمي وكان متولى أسباب صلاح الدين رحمه الله في مخيمه وبنيوته يعمل عمل أسناد الدار وإذا فتح باب أسبابه إليه واستأمنه عليه فيكون أول من اقتض عذرتة وشام ديمته وحصل له من بلد آمد عدة ففتح ومن ديار مصر عند دموت عاضدها أموال عظيمة وتصدق في يوم واحد بسبعة آلاف دينار مصرية عيناً وأظهر أنه قضى من حقوق الله في ذمته ديناً وهو المعروف معروف وبالحسب موصوف يحب اقتناء المفاتيح بيناء الربط والقناطر ومن جلتها رباط خسقين ورباط قوى وله مدرسة مجاورة داره ولما كفى الله دمشق الحصر نهض وراء العادل إلى مصر فرقد إلى دمشق ليلاً من خدمة الملك ولدا المعظم ويكون من أقوى عدده وأرق عدده وكان في خلقه زعارة وكانت حصانته مستعارة قال ولما دفن بنشت أمواله وقشت رحاله وحضر أمناه القاضي وضياء الوالي وآخر جواباً يالزوايا ومحموط النقود وخطوط النساء وغيره وأرسلوا المنزل ومعاله واستنبطوا دنائير مودراه وحفروا أما كن في الدار وبركة الحمام في الجوار حفوا أوقاراً من النضار وظهروا على الكنوز الخفية والدفائن الألفية فقيل زادت على مائة ألف دينار وهو قليل في جنب ما يحرز به من كذا وكذا انتظار

واستقل ما طواه الخزن وأخفاه الدفن وقيل كان يكتب في صحارى ضياعه ومعارات أقطاعه ثلث وأتتهم بعده جماعة بأن له عندهم ودائع وتآذى بذلك المتأبى منهم والطائع وداره بدمشق هي التي بناها الملك الأشرف أبو الفتح موسى بن العادل دار الحديث في سنة ثلاثين وستمائة وأخرب الحام الذي كان مجاور لها وأدخله في ربيعها وذلك في جوار قلعة دمشق بينهما الحندق والطريق ثم مدرسته المعروفة بالقيمازية قال العماد في جمادى الآخرة من هذه السنة توفي يعني بمصر الحاجب لؤلؤ وكان في الأيام الصلاحية أشجع الشجعان وأفرس الفرسان وله مقامات في الغزاه ومواقف مع العداء وهو الذي نهض وراءه أرباب الفرغ النافضة في بحاريله إلى الرحجاز وأتى في كسرهم وأسره بهم بالاجباب والاعجاز وكانوا قطعوا الطريق في بحر عذاب على التجار وحصلت أموالهم تحت الأسفلاء بعد حصولهم تحت الأسار فأنقذوا واستنقذوا ما نزل حتى أخذوا وساقوا إلى القاهرة وأولئك الكفار مقهورين واعتقلهم بهما ما سوريين قلت وفيه يقول الرضى بن أبي حصينة المصري يضطرب الفرغ

عدوكم لمؤلؤ والبحر مسكنه * والدر في البحر لا يخشى من الغير

فأمر حسامك أن يحظى بغيرهم * فالدر مذ كان منسوب إلى البحر

وقد قبل فيه أشعار كثيرة تقدم بعضها في أخبار سنة ثمان وسبعين قال العماد من دلائل سماحه ما شاهدته بالقاهرة في سنة إحدى وتسعين من هجرته الظاهرة أنه لما حط القطار رحله ووصل المحل محله وتم الغلاء وعم البلال ابتكر هذا الحاجب الكبير مكره لم يبق إليها وذلك أنه كان يميز كل ليلة اثني عشر ألف رغيفاً فأدأ أصبح جلس على باب الموضع الذي فيه حشر الدقراء ثم يفتح من الباب مقدار ما يخرج منه واحد بعد واحد ويصل أنه غير عائد فيتناول كل منهم قرصه ويرى ذلك من خيراته فرصه خاير زال فاعدا حتى يفرق الألوف على الألوف وكان هذا أبه في هذا الغلاء حتى هب رخاء الرخاء حينئذ تنوعت صدقاته واستقرت بالصلاة أوقاته وكان بهي السبب نقي الجيب قد جعل الله البركة في عمره وخصه مدة حياته بأمر أراده فالتجده في أوان ضعفه بتضعيفه ولا شك أنه من الأولياء الأبدال والصالحين الصالحى الأعمال قال وفي يوم السبت الحادى والعشرين من ذى القعدة وأنا بالديار المصرية توفي الفقيه الكبير شهاب الدين الطوسي وهو أكبر الأئمة الشافعية ورئيسها واليه قتيهاها وتدريسها وهو من أصحاب محمد بن يحيى وكما وجه الملوك بالحق المبر وأُنكر عليهم ما يتكبرونه من العرف ويعرفونه من التكر ولما وصل إلى مصر كان نقي الدين ٤٠٠ من شافعيين من أيوب متلبها فاجتمع سمته المذكور فولا مدرسته بمصر وهي المعروفة بمنازل الدقرويلها وأقام فيها مفيداً حتى فاز في جنة النعيم ببوزة وخلت منازل العزم من منازل عزه وأصبح الناس حول سريره مزدحمين وعليه متوجهين فوصلوا به إلى القرافة معان الرحمة والرفقة وهناك الأصغر والأكبر من الملوك والأمرام استماه وجناته بما فيه من لباس التقوى معشاه ولما نفذوا أيديهم من ترابه انفضوا من أيادي بركتهم مرتين وبتار اللهف والتلث عليه مضطربين وفي الخبر إلى جاءه وعرف بن نقي الدين فولى قاضى دمشق يحيى الدين بن الزكى بمصر ووقف أبيه وسيرنائه لتسلم ذلك وتوليه وكان اتفق حضوره عنده في الرسالة فاهتمدى برشده إلى الضلالة قال وفي العشرين من جمادى الآخرة توفي الفقيه العالم بدر الدين بن عسكر رئيس الخليفة بدمشق قلت وقيل كانت وفاته في تاسع عشر جمادى الأولى ويعرف بابن العقادة قال وفي سابع عشر شعبان توفي بحلب الفقيه الكبير ظهير الدين عبدالسلام الفارمى وكان أربع فقيه وأفقه بارع ورور إلى إصفهان سنة تسع وأربعين ولحق بها العلماء المبرزين وخالف صدورهم إلى الجندی وكان تفقه بكمان وقرأ على فخر الدين الرازى من أكبر تلامذة محمد بن يحيى وتنقل في بلاد خراسان والعراق ولقيته بمصر سنة اثنتين ومسيبته في العهد الصلاحى وسامه السلطان المقيم بها يقرض إليه التدريس به الشافعى رضى الله عنه فعبر وما صبر وعاد إلى البلاد ثم وفد إلى دمشق في جمادى الأولى سنة خمس وتسعين ثم سار إلى حلب في ثانی شعبان فكان من وفاته بهما كان قال وفي هذه السنة توفي بنيسابور الفقيه الكبير يحيى الدين ابن يحيى الدين محمد بن يحيى وفيها توفي صاحب آمد قطب الدين سكران ابن نور الدين قرأ أرسلان وفيها مات بدمشق في العشر الاوسط من شعبان الهمام العبدى الشاعر البغدادى وهو أبو الحسن علي بن نصر بن عقيل بن أحمد بن علي بن عبد القيس من ربيعة

وقدم دمشق سنة خمس وتسعين وهو أشعر من رايته في هذا الزمان وسعته بنشد الملك العادل ودمشق بمصوره
كلية شاعره وصادقته ذامت حسن وفصاحة وحصافة ولسن ومعه ديوان شعره يحوى قلائد دره وفرائد سهره
وتوفى على مدح الابد صاحب بعلبك ومن شعره

وما الناس الا كامل الخطا قص * وآخر منهم ناقص الحفظ كامل

وانما سر من حياء وعفة * وان لم يكن عدى من المال طائل

قال وتوفى في هذه السنة قبل الفاضل بثلاثة ايام الاثير بن بنان وكان مشهورا في الدولتين بكل قبول واحترام
واحسان وكان السلطان لما تصرف في القصر ولا يبيع موجوده وبذل في نصرته غاية بمجوده وما فرغ من
شغله أبقاه على رسم انعامه كله واستمر امراره واستقر قراره وجلس في بيته يسمع عليه روايته العالية
حتى أدرك أيام الملك العزيز ولم يدرك في العز املا ولم يملك فلا حتى تغير خلقه وتقل رزقه وتبطل حقه وآل امره
الى اعتقاله بالديون واحتماسه في الرهون ومن غاظه وزير العزيز زوكان مؤذبه في الصغر واستوزره في الكبر
واسمعه ما كرهه وقال له ما أحسن ما أدبت بخدومك وخرجته وعلى مراتب اخلاقك درجته وقال للفاضل
أنا لمصتك في أيام شاور مرتين ودافعت عنك دفعتين وهذه قصائدك في مدحى ومقاصدك لمنى وكان
يعرف لتقدم عهد وانتقاله في الحالات مما دى أرباب المناصب الى الغايات فكراهه الناس وبود حضوره
ولما مرض النواب عترضوه وكان بالفاخرة جارى وباب داره مقابل باب دارى وأنا أعينه في الايام الصلاحية
بالصلح اعانه واصونه بأرح صباه

(فصل) في وفاة القاضي الفاضل رحمه الله قال العماد في هذه السنة تمت الزية الكبرى والباية العظمى
وجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفنا الى دار البقاء في داره بالقاهرة
سادس ربيع الآخر يوم الثلاثاء وكان يعني ذلك اليوم بمصافى الفضل يوم الكسرة وبمصافى الفضل يوم الحسرة
وذكر انه ليلة الثلاثاء في مدرسته صلى العشاء وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدرسا وتحدث معه ماشا
وشوهده من كل ليلة ابش وأبسم وأهش وقد طابت المحاضرة وطالت المصامرة وانفصل الى منزله صحيح البدن
فصيح اللسان وقال لتلاميذه رتب حوائج الحمام وعرفنى حين أفضى منى المنام فوفاه سحر الاعلام فما كثر
بصوت الغلام ولم يدركان كلم الحمام حتى من الكلام وان وثوقه بطهارته من الكثرة أغناه عن الحمام فبادر اليه ولده
فالقاه وهو ساكت باهت فحرف ان القدر له باغت فليتب يومه لا يسمع له الا نين خفي علم منه انه بعد الله وفي
ثم قضى سعيدا ومعنى شهيدا جديا فوفاه الله تعالى الوصية فكانت له بسيد الاولين والاخرين اسوه وان تردى
عن رده العمر فله من حل البقاء في عليين كسوه ولانه لم يبق في مدة حياته عملا صالحا الا وقدمه ولا عهدا في الجنة
الا حكمة ولا عهدا في البر الا برمه فان صنائعه في الرقاب وأرفاهه على سبيل الخيرات متجاوزة عن الخراب
لا سيما أوقافه لشكالك أسرى المسلمين الى يوم الحساب وأعان طلبية الشافعية والمالكية عمدة داره بالمدرسة والايام
بالكتاب والخبرات الادارة على الايام فكانت حياة ثانية الى يوم البعث واعادة حياة الانام وكان رحمه الله
للمقوق قاضيا وفي الحقائق ماضيا سلطانه مطاع والسلطان له مطيع وقضيه جامع وشمل الفضل به جميع وهو
واحد الزمان وصاحب القرن قد خصه الله بالمكانة والامكان والسلطان رحمه الله من مفتحات فتوحه
ومختماتها ومبادئ أمور دولته وغاياتها ما افتتح الاقاليم الا باليد آراه وآراؤه ومقاليد غناؤه وغناؤه وكنت
من حسناته محسوبا والى مناسب الآيه منسوبيا أعرف صناعته ويعرف صناعتي وأعارض بضاعته الثينة بمنزلة
بضاعتي ولم يزل يجذب بضعبي ويجلب نفقي وما أوسع درعه للخطاب في شغلي اذا ضاق بالخطب الشاغل ذرعي
وكانت كتابته كتاب النصر وراعت رابعة الدهر وبراعته بارية للبرية وبجارتها ناقة في عقد السهر وكانت بلاغته
للدولة بجملة وللملكة مكملة وللعصر الصلاحى على سائر الاغصان مفضلة ومفتحاته في الفتوحات اليدوية بدعيه
ومختراته في الصنائع المخترعة صنيعة وانما سمعت على منواله ومزجت من جرياله ورويت برلاله وهو الذى

كتاب (٢٤٢) الروضتين

نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب وأغربه من الابداع وابدعه من الغريب وما الفينة كردد عاء ذكره في مكاتبته ولا رد لفظا في مخاطبته بل نأتى فصوله مبتكرة مبدعة مبتدعة لا مفتكرة بالعرف والعرفان معرفة لانكره وكانت الدولة باد التمدد والازالة نالته تزال والكرام في ظله يقيلون ومن عثر ان النوايب بفضله يستقيلون وبعزجى حمايته يعززون ولهم عطف عطفه يهتزون فالى من الوفاة بعده ومن الافاده وعين السيادة ومن السعادة والحمد لله الذى له الغيب والشهادة وان الله وابا اليه راجعون ولا هم من نقادون وقد وصفه الامماد أيضا في كتاب الخريدة في القسم الرابع في ذكر محاسن فضلاء مصر واعمالها فقال وقبل شروعى في ذكر أعيان مصر وأحسنها ومزايا فضلائها ومن اثنائها أقدم ذكر من جميع أفاضل الدهر وأما نيل العصر كالقطرة في تيار بحره بل كالزفة في أنوار بحرته وهو المولى القاضى الاجل الفاضل الاسعد ابو يعى عبد الرحيم بن القاضى الاشرف أبى محمد على بن الحسن بن اليسانى صاحب القرن العديم الاقران وواحد الزمان العظيم الشأن رب القلم والبيان واللسن والنسان والقرينة الوقادة والبصيرة النفاذة والبدية المجزئة والبدعة المطرزة والفضل الذى ماسمعه له بمائل في الاوائل من لوعاش في زمانه تعلق بغيره أوجرى في مضماره فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع يجتمع الافكار وينتزع الابكار ويطلع الانوار ويبدع الازهار وهو ضابط الملك بارائه ورابط السلك بالائه ان شاء أنشأ في يوم واحد بل في ساعة ما لودون لكان لاهل الصناعة خير بضاعة أين قس في مقام حصافته ومن حاتم وعروفي سماحته وحجاسته فضله بالافضل حال ونجم قبوله في أفق الابدال عال لامن في فعله ولا مبن في قوله ولا خلف في وعده ولا بطء في وفده الصادق الشيم السابق بالكرم ذوالوفاة والمرقوة وانصافه والقوة والتقى والصلاح والندى والسماح منشرفات العلم وناشر رايته وجالى غيايات الفضل ونالى آياته وهو من أولياء الله الذين خصوا ببركاته وأخلصوا لولايته قد وقته الله للتسركله وفضل هذا العصر على الاعصار السالفة بفضله وبه فهو مع ما يتولا من اشغال المملكة الساعلة ومهماته المستمرة في العاجلة لا يغفل عن الآجلة ولا يفتقر عن المواظبة على نوافل صلاته ونوافل صلاته وحفظ أوراده ووظائفه وبث أصفاده وعوارفه ويحتم كل يوم من القرآن المجيد ويضيف اليه ما شاء الله من المزيد وانا أوثر ان أفرد لنتظمه ونثره كتابا فأتى أغار من ذكر مع الذين هم كالسهم في فك شسسه وذ كائه وكالثرى عند شرايعه وذ كائه فانما تبدوا النجوم اذ لم تبرز الشمس حاجبها وتجب نور الفلذ عند اشراقها كواكبها وانه لا يؤثر أيضا اثبات ذلك فانما تمثل لامره المطاع ملتزم له قانون الاتباع واضع أدنى لادنه قابض عيني على يمنه راض كن باملى الى كركنه قاطن برجائى في ظل أمته اقترض رضاه ولا اعتراض على ما يحكم به وبراء ولا أقوم الا حيث يقضى ولا أسوم الا ما يسمنى ولا أعرف يد المكتنى غير يده ولا أنصدى الا لما جعلني بصدده وأسأل الله التوفيق للثبات على هذا السنن وابتهاج حده وهو أحق بمدوح بمدى وأقضاهم بحقه وأسماهم في أفقه واولاهم بصدقه وأهداهم الى طريقه ولى فيه مدايح منظومة ومشورة ومقاصد معاهدا معجوره وقصائد قلادها على مجده موفوره ثم ذكر منها بعض ما تقدم ذكره في مواضع من هذا الكتاب وله فيه من قصيدة أولها

بجياتكم ما عندكم بعدى * فسوى الاسمى ما بعدكم عندى
ملا لاجبة لا عندتم * رغبوا عن الاسعاد فى الزهد
ان لم يبقوا فلقه وفى كراما * عبد الرحيم بنمة المجد
ذو الرتبة الشماء والشرف السعالى السنن والسود العبد
الناس كلهم له تباع * فى فضله والدهر كالعبد
كم غاص بحر شانه فقدا * ذوالبيان يساقى فى العفدا
ان سود البيضاء يمس من * ثوب اللباني كل مسود
قدم أقاليم البلاد به * وتغورها للضبط والسد

في اخبار (٢٤٣) الدولتين

ملك كنيسته كتابته * فرديش النصر في جند
الامير الخطي تابعه * في حكه والايش الهندي
والنائبات بحمد ابداء * مشلومة مغولة الحمد

وهي طوبى ثم قال ولو اوردت من كلامه طرف الظهر بحز الفاضل واعترفت بالصور ذوالفضائل فلا يحسن ذكر
البحر في الجداول ولا العرش في المنازل فانا اؤثر ان افرده بقسم لا يتجزأ بسواه ولا يتبرج به من في جلته
اوردناه واهله بأذن لي في ذلك فلا سبيل اليه الا باذنه ولا نفاذ لتصرف الا بعد الفكك من رهنه ثلث وقد قالت
الشعراء فيه فاكثروا وقد تقدم لابي الحسن بن الذروري فيه أبيات حسنة عامي حبه ولتأج ابي الفتح البلطي فيه

لله عبد رحيم * بدعي بعبد الرحيم
على صراط سوى * من الهدى مستقيم
يقضى الى شرف في * ذرى المعالي صميم
مذهب حاز ما شئت من تقى وعالم
نسك ابن مريم عيسى * وهدي موسى الكلم
يرى التهجيد انسا * في جنح ليل بهم
مسهد الطرف يتلو * أي القرآن العظيم

وللقاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك فيه من قصيده

عبد الرحيم على البرية رحمة * امنعت بصحتها حلول عقابها
ياسائل اعنسه وعن أسبابه * نال السعاء فسله عن أسبابها
والدهر يعلم ان فيصل خطبه * بخطي براعته وفصل خطابها
ولقد علت رتب الاجل على الوري * بمهم منصبها وطيب نصابها
واتته خاطبة اليه وزارة * ولطالما اعبت على خطابها
ما قبضوه بها لان بعلمها * اسماء اغنته عن القابها
مال الزمان لغيره اذ رامها * تربت يمينك لست من أترابها
اذ هب طريقك لست من آربها * وارجع وراءك لست من أربابها
وبعز سيدنا وسيد غيرنا * ذلت من الايام شمس صعابها
واتت سعاده الى أبوابه * لا كالأدي يسى الى ابوابها
تعدو الملوك لوجهه بوجوهها * لا بل تساق لبابه برقابها
شغل الملوك بما يقول ونفسه * مشغولة بالذكر في محرابها
في الصوم والصلوات اتعب نفسه * وضمان راحته على اتعابها
وتجهل الاقلاع عن لذاته * ثقة بحسن ما لها وما بها
قلنخر الدنيا بسائس ملكها * منه ودارس علمها وكتابها
صوامها قوامها علامها * عما لها بذاتها وهابها

وله فيه ايضا من أخرى

وسألت من أي المعادن نقرها * فوجدت من عبد الرحيم المعدنا
ابصرت جوهر نقرها وكلامه * فعملت حقا ان هذا من هنا
ذاك الكلام من الكمال بمنزل * لا يدرك الساعي اليه سوى العنا
يدنو من الافهام الا انه * تلقاه ابعده ما يكون اذا دنا

كتاب (٢٤٤) الروضتين

قلت كان والد تولى القضاء بعقلان وانفذ ولده الفاضل الى مصر فاتصل بكتاب الدولة المصرية ابى الفتح ابن قادوس وغيره وفتح الله عليه في سنة الصناعة ففاق فيها أهل عصره مضافا الى ما منحه الله تعالى من علو قدره وقد سبق من ترسلته ما يشهد لعظيم أمره وقرأت من نظمه

وسيف عتيق لا للاء فان يغل * رأيت ابا بكر قتل وعتيق

فزرباه فهو الطريق الى الندى * ودع كل باب ما اليه طريق

وله ايضا

سبه قتم باسداء الجيسل تكرا * وما مثلكم فمين تحدث أو حكي

وقد كان ظني ان اسابكم به * ولكن بكت قبلي فخرج الى البكا

ودفن رحمه الله بمقبرته بالقرافة وقرأت في تاريخ ابى على حسن بن محمد بن اسماعيل القليوبى الذى ذيله على تاريخ ابى القاسم السمنانى قال حدثني الملك الحسن أحمد بن السلطان صلاح الدين ان يوم موت الفاضل اتفق دخول الملك العادل الى مصر وأخذها من ابن أخيه الفضل قال دخل العادل من باب وخر جنانا سرع بالجنازة من باب آخر قال وأكثر أهل مصر يدكرون ان كتبه التي جمعها مقدار مائة الف مجلد وكان يجمعها من سائر البلاد قال وسمعت القاضي القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزورى يبعث اداً يوم ولايته يحدث ان القاضي الفاضل لما سمع ان العادل أخذ الديار المصرية دعا على نفسه بالموت خشية ان يستدعيه وزيره صفى الدين ابن شكر اليه او يجبرى فى حقه اهانة وكان بينهما مقارعة فاصبح ميتا وكنة له معاملة حسنة مع الله تعالى وصلاته بالليل كما ذكرنا عنه رحمه الله قلت واخبرني القاضي اشهد بضياء الدين بن ابى الحجاج صاحب ديوان الجيش رحمه الله ان القاضي الفاضل بعد صلاح الدين لم يتقدم أحد من اولاده وكنة الدولة باسمه هاتئ الى خدمته الى ان توفى قال ولما قدم العادل مصر ومملكها بات واصبح فزار قبر الشافعى رضى الله عنه وجاء الى قبر الفاضل فزاره قال ابن ابى الحجاج وانا حاضر ذلك

ثم دخلت سنة سبع وتسعين هـ قال النقاد فنيها توفى الامير عز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن محمد بن المقدم فى حصن اقاميه وفيها اوفى سنة تسع قبلها توفى السلطان خوارزم شاه بن تكش بن ايل ارسلان بن انشز بن محمد وهو الذى زالت دولة السلجوقية بملكه واجتمع له مع خوارزم خراسان والعراق ولما مات قام ولده علاء الدين مقامه قال وفيها كتب السلطان العادل للا ميرنغر الدين ابا زكركس باعمال قنبرين زوهونين وانياس والحولة وما يجري معها وكانت مع الامير حسام الدين بشاره فحاصره وانجده الملك المعظم عيسى ابن السلطان من دمشق فسلم البلاد وخرج قال وفيها توفى الامير بهاء الدين قراقوش وهو من القداماء الكرام وشيخ الدولة الكبراء امير الاسدية ومقدمها وكرمها ومكرمها ولم ار غيره خصيمه المتقاومه الفحول ولم يؤثر فى محال ماثراته المحول وله فى الغزوات والفتوحات مواقف معروفة ومقامات موصوفة وهو الذى احتاط على القصر حين استتب على متوليه أسباب النصر وذلك قبل موت العاضد بمدة ولما خطب لى العباس بالديار المصرية تسلم القصر بما فيه واستظهر على اثارب العاضد وبنيه وتولى عمارة الاسوار المحيطة بمصر والقاهرة وائى فيها بالجانب الظاهر وكان معاذ الانجاء وملاذ الارقباء غير انه نسب الى الجحاح لشدة ثباته وفطر جوده ولا يكاد يهجم لصلاية عوده ولما توفى تسلم العادل داره بما حوته من الخاثر وصارت اقطاعاته للملك الكامل قال وفيها نقل الى العادل عن غلام الامير ايبك القفطيس ان جماعة قد عزوا على الفتك بالعادل حال ركوبه وأسند اصل ذلك الى الملك المعز اسحق والمؤيد مسعود ولدى صلاح الدين رحمه الله فاحضر الغلام وعصره فان ولم يقر واعتقل المعز والمؤيد ونزع من اتمهم فى ذلك من الامراء الصلاحية وتكلم الناس باحدث فى هذه القضية قال وفى هذه السنة اشتد الغلا وامتد البلاء وتحققت الجماعة وهلك القوى فكيف الضعيف ونهك السمين فكيف العجيف وخرج الناس حذر الموت من الديار وتفرق فرق بمصر فى الامصار ورأيت الارامل على تلك الزمال والجال باركتفت الاحال ومراكب الفرغ على ساحل البحر على النقم تسترق الجبايع بالقم قتل من الى الشام خلص الابدان قل عداهم وتنص قلت ثم زالت تلك الشدة بعد مده وتوفى العادل

في اخبار (٢٤٥) الدولتين

الكاتب رحمه الله مصنف هذه الكتب الفخيم والبرق وهذه الرسائل الثلاث العتيق والنحلة والخطفة بدمشق في أول شهر رمضان من هذه السنة وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة ودفن بمقابر الصوفية بالشرف القبلي وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الحوزي الواعظ وغيرهم رحمه الله وتوفي الملك الأفضل بمصر في سنة اثنين وعشرين وستمائة وحمل إلى حلب ودفن بها وتوفي الملك الظاهر بجلب في سنة ثلاث عشرة وستمائة وفيها توفي بدمشق الشيخ تاج الدين أبو المين زيد بن الحسن الكندي ودفن بالجبل وغيرهم رحمه الله وتوفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب بدمشق في سنة خمس عشرة وستمائة وابنه المعظم في أواخر سنة أربع وعشرين وستمائة وأخواه الأشرف والكامل في سنة خمس وثلاثين وستمائة رحمه الله ووفق من بقي من أهل بيتهم وأصلح ذات بينهم آمين ثم الجزء الثاني من الروضتين وبتمامه تم جميع الكتاب والحمد لله وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه وحسن الله ونعم الوكيل وافق الفراغ من نسخة في يوم الأربعاء رابع شهر المحرم الحرام افتتح سنة ثلاث وعشرين ومائة والف غفر الله لكاتبه وقارئه ولين رأى عيبا أو صلحه والمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والذين آمنوا ولين يقول آمين

قال الفقير إلى مولاه المعيد المبدى المدعو بابي السعد أقدنى المترجم بقلم الترجمة بديوان علوم المدارس المصرية والقائم بوظيفة تحرير صحيفة وادى النيل العصرية تم بحمد الله طبع هذا الأثر الجليل والسفر المفيد الجليل بمطبعة وادى النيل المملوكة له الكائنة الآن في داره بعطفه درب المذبح بشارع باب الشعريه من الحاضرة القاهرة وقد كان هذا الكتاب طلالا من تحريف النساخ عافيا فباعه الله سبحانه أحييناه وكان رسمه من تصحيف الكتاب وأهيا فبقدرته الله جل شأنه رفعنا مناره وأعليناه وكان جدارا يريد أن ينقض بحرور الزمن فبستوفيق الله الحسن أقتناه رجاء أحياء الشعائر الإسلامية وابقاء المآثر التاريخية العلية عسى أن يطلع على أحوال من ذكر فيه بعض من بوقه الله للاطلاع عليه من أرباب الجاه والسطوة فيكون له فيه أن شاء الله تعالى أجل عبرة وأحسن اسوه وكان ختام طبعه وتمام تجميع نفعه من نسخة أصل باليد فريدة تظهر ناهيا في الكتبخانة المصرية الخديوية في أواخر شهر رجب الفرد سنة ١٢٨٨ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية ولا ملام ولا عتاب إذا كان قد فات علينا بعض غلط في تصحيح هذا الكتاب فان سير الطبع لا يتحمل المهمل والعمل صعب والنقد اسهل وهل سلم كتاب مطبوع من فهرست خطأ وصواب وآخر دعوانا من فضل الاضحاب وغاية رجائنا من محبة الاحباب وان تجد عيبا فاسد الحلال * فخل من لا عيب فيه وعلا

(ترجمة المؤلف)

وهذه هي ترجمة مؤلف الكتاب المسمى بالروضتين في اخبار الدولتين
وجدت على نسخة الاصل منقولة من كتاب فوات الوفيات لابن شاكر فأوردناها هنا احياء لذكر
صاحب التصنيف وتعريف القيمة هذا التأليف الشريف

وهو عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان الامام العلامة ذوالفقون شهاب الدين أبوشامة المقدسي الاصل
الدمشقي الشافعي الفقيه المقرئ النحوي ولد سنة ست وتسعين وخمسمائة بدمشق وكانت وفاته سنة خمس وستين
وسمائه ودفن بقابر باب كيسان ثم أقرن العظم له دون العشر وجمع القراآت كلها سنة ست عشرة على
الشيخ علم الدين السهراوي وسبع بالاسكندرية من الشيخ أبي القاسم عيسى بن عبد العزيز وغيره وحصل له سنة
تسع وثلاثين عناية بالحديث وسبع أولاده وقرأ بنفسه وكتب الكثير من العلوم وأحسن الفقه ودرس
وأفتى وبرع في العريسة وصنف شرحا نفيسا للشاطبية واختصر تاريخ دمشق مرتين الاول في عشرين مجلدا
والثاني في عشر وشرح القصائد النبوية للسهراوي في مجلدوله كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية
والصلاحية وكتاب الذيل عليهم أو كتاب شرح الحديث المقتنى في مبعث المصطفى صلى الله عليه وسلم وكتاب
ضوء القمر الساري الى معرفة ألباري والمحقق في علم الاصول فيما يتعلق بافعال الرسول وكتاب البسملة الاكبر
في مجلد وكتاب البسملة الاصغر وكتاب الباعث على انكار البدع والحوادث وكتاب السوالم وكشف حال
بنى عبيد والاصول في الاصول ومقررات الترا ومقدمة نحو ونظم المفاصل للزمخشري وشيخ البيهقي وغير
ذلك وذكر انه حصل له الشيب وعمره خمس وعشرون سنة وولى مشيخة الاقراة بقرية الاشرفية ومشيخة دار
الحديث الاشرفية وكان متواضعا مطرعا لالكلف أخذ عنه القراآت الشيخ شهاب الدين الكفري والشهاب أجد
اللبان وزين الدين أبو بكر بن يوسف المري وجماعة وقرأ عليه الشاطبية الشيخ شرف الدين الفراري
الخطيب ودخل عليه اثنان جليلان الى بيته الذي آخر المعمور في طواحين الاسنان ومعهم فتوى فضر به ضرا
مبرحا كما يتلف منه ولم يدر به أحد ولا أغانه وتوفي رحمه الله في ناسع عشر رمضان ودفن بباب الفرديس وقيل
بباب كيسان قال رحمه الله تعالى جرت لي محنة يداري بطواحين الاسنان فألهم الله الصبر ولطف وتقبل لي
اجتمع بولاء الامر فقلت أنا قد فوّضت امرى الى الله تعالى وهو يكفيننا وقلت في ذلك شعرا

قلت ان قال أمانتسكى * ما قد جرى فهو عظيم جليل

يقبض الله لنا عاجلا * من يأخذ الحق وبشي الثليل

إذا توكلنا عليه كفى * وحسبنا الله ونعم الوكيل

ومن نظمه في السبعة الذين يظلمهم الله بظلم يوم لا ظل الا ظله قوله شعر

امام محب ناشئ متصدق * وبالك مصل خائف سقاوة الباس

يظلمهم الله الجليل بظلمه * اذا كن يوم العرض لا ظل للناس

أشرت بألفاظ تدل عليهم * فذكرهم بالنظم في بعضهم قاسي

وقال في المعنى أيضا

وقال النبي المصطفى ان سبعة * يظلمهم الله العظيم بظلمه

محب عفيف ناشئ متصدق * وبالك مصل والامام بعدله

(اه من كتاب فوات الوفيات لابن شاكر)

(فهرست)

مالايدمن التنبيه عليه من الخطأ والصواب في الجزء الثاني من هذا الكتاب

صفحة	سطر خطا	صواب
٢	١٢	لثقل
٩	٧	بطشة
٩	٢٤	قلج
١٧	١٩	فلاد
٢٠	٠٥	المجبرين
٢٢	٣٦	أوعذا
٤٠	٣٣	نقوة
٤٤	٢١	سحق
٤٧	٣٤	بيطسة
٤٨	٧	بيطسة
٥٣	١٥	عزير المروزة
٥٤	٣٦	قرص لبرد
٩٤	٣٢	بن ملاك
١٤٠	٣٣	فتقنطر
١٤١	٢٣	تقنطرت
١٤١	٢٤	فتقنطرت
١٧٤	٢١	وادي عطاياك
٢٠١	٢٩	ويسألناه
٢٠٨	٢١	بديع التعليل

هذا أول ما يزل بوجود في طبع هذا السفر الشريف بعض تحريف وتصحيف كنقص بعض نقط او عدم ضبط في طبع بعض الحروف لا تحفى على فهم القارئ اليه سبر والله سبحانه وحده هو المنزه عن اللطط والسقط وهو العظيم الخبير

